قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين



منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات الفوارس

المجموعة الاولى

جمال شاهين

جمع ٢٠٢٢

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

جمال شاهين

قصص وحكايات الفوارس



الفوارس

حسان والطير الذهبي

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات الفوارس

١

جمال شاهين

١٩٩٣

حسان

والطير الذهبي

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤



جمال شاهين

حسان والطير الذهبي


حسان
والطير الذهبي

حسان ابن التاجر عبد الرحمن

كان في ذلك الزمان البعيد في بلاد النيل تاجر مشهور ، وعنده مال وفير لا تأكله النيران، وما كان بخيلا على أهله والجيران ، وكان في نفس الأوان محبا للفقراء والمساكين ، وما يبخل عليهم بالصدقات والطيبات، وأعطاه رب العباد ثلاثا من الأولاد ، فأحسن تربيتهم وأجاد ، وما قصر في تعليمهم وحاد ، وكان يبذل الرخيص والغال من أجل أصدقائه وإخوانه التجار، فهو يعيش في نعم من رب البرية، وما كان مقصرا في الشكر والحمد والثناء على خالق السماء ، وله ولد يبلغ من السنوات خمسا وعشرين ، وهو معتدل القوام جميل الهيئة ذو حسن في النطق والكلام، وكما قيل كثير من التجار يرغبون بتزويجه من فتياتهم ؛ ولكنه يأبى ويحيد عن الزواج حتى يأذن رب الناس ، فيصرف أباه والناس عن مثل هذا الكلام ، وكان مع أبيه في الدكان ، فهو يتقن فن البيع والشراء وتحصيل الأموال ، وعندما يسأل عن سبب عدم رغبته في النكاح يقول : إني بهن راغب وما حرمت على نفسي ما أحل الله على عباده ؛ ولكني أرغب بزواج أنثى من غير هذه البلاد . فيعرض عليه التاجر الكبير عبد الرحمن بأن يجلب له عروسا شامية أو حلبية أو مقدسية مع رفقة من التجار .

فيرد على أبيه قائلا : يا أبتاه ! سأجلب عروسي بنفسي عندما يحين الأوان .

وكان الأب الكريم لا يحب الضغط عليه والأكراه خشية أن يسافر مع التجار للبحث عن امرأة يسكن إليها وتسكن إليه فيتركه ، ويجعل له الحرية والاختيار ، وكما تقول الأخبار كم من فتاة باعته هواها ، وعرضت نفسها حليلة له على سنة الله والكتاب ، فيعتذر لهن بأدب جم وكمال بأن الوقت ما حان ، هذا ما كان قبل مجيء تجار من بغدان ، ويسمع حديثهم الفتى المسمى حسان .

ذات يوم من الأيام كان صاحبنا في وليمة عند ابن أحد التجار الأصحاب ، وبعد تناول أصناف مختلفة من الطعام والشراب دار الحديث عن النساء والزواج والحسنوات ، وقيل في ذلك المجلس من أوزان الشعر أبيات وكثرت فيه الحكايات ، وكانت هذه الدعوة على شرف ابن

تاجر قادم من العراق ، فلما جاءه الدور في الكلام والأخبار قال : يا سادة يا كرام عندي حكاية عجيبة وغريبة في بلاد ما بين النهرين .

سكت القوم كأن على رأسهم الطير فقالوا : يا عراقي أسمعنا غرائب ما عندكم بعدما سمعت حكايات أهلنا ونيلنا ؟

فقال العراقي : آ .. اخوتي عندنا مدينة اسمها البصرة .. فيها أميرة جميلة ، لا يصف جمالها مثلي فإني لست بشاعر أو كاتب .. ولكنها كما يخبر ويشاع جميلة وفاتنة ، وفوق ذلك يشار إليها بالأدب والشجاعة والإحسان .. ولها في كل أسبوع عادة غريبة ، وهذه العادة جولة في المدينة ، وخاصة في أسواقها القديمة ، وبعض أحيائها ، وهي كاشفة عن وجهها للعيان ، ولا ترد خاطبا ليدها ؛ ولكن لا تقبل إلا مهرا عجيبا .

فقالوا : يا عراقي ما هذا الصداق العجيب ؟!

فقال العراقي : يا أحباب .. مهر هذه الفتاة هو طير أو بلبل ذهبي عند ملك من ملوك بلاد الصين ، والحصول على هذا الطائر الذهبي ليس سهلا بل دونه الموت أو الضياع ، وهي لا تطلب مهرا سواه .. ولقد سمعنا أن بـعض الناس ذهبوا لإحضاره من تلك البلاد ؛ ولكن ما عدنا نسمع عنهم من خبر ونبأ .

خيم الصمت على السامعين مندهشين لهذه الحكاية وهذا المهر ، ثم تكلم حسان الذي ذهب به خياله إلى العراق والصين فقال : يا عراقي شوقتني إلى هذه الأميرة .. فهل جمالها وحسنها وأدبها كما قلت وتستحق المغامرة والعناء ؟

رد العراقي بحماس : إي والله .. إنني رأيتها بأم رأسي ، لولا عجزي وضعفي لطرت لبلاد الصين وحصلت على ذلك الطائر الذهبي وقدمته لها لأحظى بليلة قربها .

فعاد الشاب حسان بن عبد الرحمن يقول : يا قوم لقد شوقني هذا العراقي إلى تلك الحسناء مع زهدي في النساء فما تقولون ؟!

فقال أحدهم : ولكن يا حسان .. فيها موت أو ضياع .

فرد بقول الشاعر : ومن يطلب الحسناء لم يغله المهر .. وأنا أحب المغامرة فما أنتم قائلون ؟

فرد آخر : الأمر إليك .. واسأل أباك وأمك يا ابن الكرام .

فقال حسان : أيها العراقي أدعوك لزيارتي ومقابلة أبي ليسمع منك قصة الأميرة البصرية، وعندما ترجع لبغدان سأرافقك بمشيئة رب البرية .. فأنا معك إن شاء الله .. فالسياحة في الأرض عبادة .

وعاد بطل قصتنا إلى بيته ليلا مهموما مشغول البال والفكر عاشقا للمغامرة ولتلك الحسناء البصرية ، وبعد صلاة الفجر جلس مع أبيه وأمه وذكر لهم قصة العراقي عن البنت البصرية ، وعن رغبته في الذهاب إلى العراق ومشاهدة تلك الأميرة على أرض الواقع ؛ فإن كانت تستحق المغامرة فلسوف يصل الصين ويجلب لها الطير مهما كان الثمن الذي سيدفعه ، وبعدما سمع الوالدان الخبر أصابهما الوجوم ، ثم قال الأب عبد الرحمن : أراك عاشقا يا ولدي على السماع ! وبهذه السرعة الخاطفة ، ومن قبل أن تراها وتعرفها ؟! ورغم ما سمعت منك من الكلام دعنا ننظر في الأمر مليا.. وعجل لنا برؤية هذا العراقي لنسمع منه القصة ، ولماذا قصها أمامك؟ .. ونريد أن نتوثق من حكايته .. فلا تتعجل يا ولدي ! فحسناوات النيل كثيرات ويرضين بالزواج منك بدون عصفور صيني ، وبلا تعب ، وبلا سفر، واحذر مهاوي العشق والغرام ، ومن بنات الملوك والأمراء .

قال حسان بعدما سمع هذا الكلام : يا أبتي جزاك الله خيرا على نصحي .. وعندما تسمع صاحبنا العراقي يكون بيننا القول الفصل والكلام .. واسمحوا لي بالانصراف فقد حان وقت العمل وفتح الدكان .



وبعد أيام كان حسان قد جهز نفسه للرحيل مع التاجر العراقي إلى بغداد عاصمة ملك آل العباس أعمام النبي محمد صلى الله عليه وسلم سيد ولد عدنان ، وقد استسلم الأب عبد الرحمن لهذه المغامرة بعدما رأى عزيمة ولده على الرحيل للبصرة ، فقدم الأب للولد المال والإرشاد اللازمين ، وحذره من العجلة واتباع خطوات الشيطان ، والذي دفع الأب للاستسلام لهذه الرحلة والسفر هو رغبته الأكيدة في أن يرى ولده حسان متزوجا كسائر اخوته ، وخشي أن يكون عقبة أمام زواجه ، فيزداد تمنعا ورفضا للنكاح ، وأيضا كان للولد رغبة قوية بالزواج من خارج القطر والمصر، فوافق بعد جدال ونقاش مع حسان والاخوة والأم ، فاتفق أن يسير حسان بصحبة العراقي الذي اجتمع بوالد حسان ـ وقص عليه حكاية الأميرة العراقية ـ لينظر الفتاة البصرية، ووجد عبد الرحمن أن الممانعة والمعارضة لن تنفع ولده وقد صمم على المغامرة مهما كلفت ، والحياة تجارب ومغامرات ، فزوده بالمال والنصح وهو راض عنه كل الرضا ، وكذلك استسلم اخوته وأمه لسفره ومغامرته المجهولة النتائج رغم لوعة الفراق .



ولما تجهزت القافلة العراقية بالبضائع المصرية سار برفقتها حسان مصاحبا للعراقي ، واستغرقت الرحلة أكثر من شهر ونصف حتى وصلت بغداد مدينة السلام أم الحضارات والتاريخ العريق ، وكان حسان قد مر على مدن عجيبة وجميلة خلال الرحلة فقد رأى غزة وبيت المقدس ودمشق الشام ، وفتن عندما رأى بغداد العامرة بأهلها وبتاريخها ، وتمنى لو كانت الرحلة لهذه المدن الجميلة طويلة حتى تمتلئ عيناه من جمال وروعة تلك المدائن الإسلامية الرائعة؛ ولكن رحلته مع القافلة التجارية لم تحقق له هذه الأمنية ، ولم يمكث في المدن أكثر من اللازم والوقت المناسب لراحة البغال والجمال ؛ ولكنه اضمر في نفسه زيارة هذه المدن الجميلة

بعد انتهاء مغامرته وبقائه حيا يرزق ، استضافه صديقه البغدادي في بيته أجمل ضيافة ، وسر والده بالضيف المصري، ورحب به بحرارة ودفء ، وسمع سبب مجيئه إلى بغدان فقال : يا ولدي دعك من هذه الأميرة .. وأنا أزوجك فتاة بغدادية من بنات الأكابر أجمل وأزكى منها وبدون تعب ورهق وطير ذهبي .

فشكره حسان وشكر نصحه وأثنى على مرؤته وقال : يا والدي لا ترضى لي بأن ارجع إلى أهلي خائبا وبدون الأميرة إن راقت لعيوني وقلبي ، ولا بأس من المحاولة لعل الدهر يضحك لي .. وإن فشلت في رحلتي سأمر عليكم وأتزوج من بلادكم .. ولولا أن قدر الله لي سماع القصة من ولدك ماجد ما فكرت بالنكاح .. وكان نعم الأخ والصديق في مصر وفي العراق وفي الطريق .. وأرجو أن تسمحوا لي بالسفر إلى البصرة غدا بعون الله .

فقال والد ماجد : انتظر سبعة أيام ، فثلاثة ليال لا تكفي للتعرف على بغداد وحواريها ودروبها وقصورها ومكتباتها وعلمائها ومساجدها .

فقال حسان بأدب : يا والدي ألا يكفي هذا ؟! أنا أتيت لغاية وإني في شوق لتحقيقها .. وبارك الله فيكم.. وإني عاجز عن شكركم ورد جميلكم .

فأجابه الأب بخجل : أخجلتني يا ولدي ! .. نحن اخوة في الدين .. وكم أكرمنا أهل مصر من قبل عندما كنا ننزل بلادكم! .. وقد حدثني ماجد عن حسن معاملتكم معه في بلادكم ، بل شكركم واجب علينا .. ولست أدري هل يجب أن ينزل ماجد معك البصرة ؟

قال ماجد : كنت سأذهب بصحبته يا أبي؛ ولكنه أقسم أن لا أذهب معه.. ويحب أن يسير وحده.. ولا أستطيع إلا أن أبر بقسمه ؛ وأعطيته خطابا لبعض أصحابنا في البصرة ليساعده ويعينه في تلك المدينة .

رد الأب قائلا : أحسنت يا ولدي .. وهل أوصيت عليه صديقنا جعفر الموج ؟

رد الابن : فعلت يا والدي .

قال الوالد مرة أخرى: أحسنت ثانية يا ولدي! ويا ولدي يا حسان إذا احتجت لمساعدة فلا

تستح منا ؛ فأنا مثل والدك وحقك فرض علينا .. لو أستطيع طلب هذه الأميرة لك بدون هذه البدعة لفعلت أيها الابن العزيز .. اصحبه يا ماجد إلى طرف المدينة ، وأوصي عليه من تراه مغادرا من التجار للبصرة حتى لا يقطع الطريق وحيدا .. أم تريد أن تركب النهر .

رد حسان : سأنزل عليها بالبر يا والدي العزيز .

دعا له الأب بالسلامة والتوفيق ، ومع الصباح الباكر كان يغادر بغداد في طريقه للبصرة ، وبعد أيام وفي الليل كان يدخل البصرة تلك المدينة القريبة من خليج البحر، فنزل فندقا في وسط المدينة أرشده إليه التجار الذين رافقهم من بغداد وقضى أول ليل فيه وفيها، ولما أصبح النهار كان يوم سبت فتزيا بزي العراقيين حتى لا يبدو غريبا في المدينة مع كثرة الأغراب في شوارعها ، فهناك الهنود والعجم بألوانهم المختلفة ، ونزل السوق وعندما وصل سوق التجار سأل عن جعفر الموج فدلوه على تاجر صاحب دكاكين كثيرة كأنه شيخ السوق .. فسلم عليه ودفع إليه كتاب ماجد ابن تاجر بغداد ، ففضه وقرأه ، ثم رحب بالضيف ، وأحسن وفادته وعجب لقصته ورحلته وقال : يا ولدي هذا الأمر صعب وشاق عليك وما تجني منه إلا امرأة والنساء كثير !

فأظهر له حسان رغبته ولهفته وإعجابه بهذه المرأة ، وأنه ترك المال والعز والأهل حتى ينظر هذه الفتاة ، ويظفر بها ويتزوجها أو يهلك دون ذلك ، فعاد التاجر البصري يقول : يا ولدي فتاة البصرة فتاة حسناء جميلة ؛ ولكن مطلبها هذا غريب ! والذي يظهر لنا من هذا الشرط هو عدم رغبتها في الرجال والزواج وحتى لا يجبرها والدها واخوتها على النكاح اخترعت هذا الصداق ومنذ سمعنا بهذا الطلب لم يتقدم إليها سوى ثلاثة أشخاص حسب ما أذكر وذهبوا وما عادوا وإني مشفق عليك أيها الشاب ، فأنت ما زلت في مقتبل العمر والمستقبل أمامك .. وإنك ابن تاجر ثري لا ينقصك مال ولا جاه .

فقال حسان : اشكر لك هذا الشعور النبيل والنصح الأمين ؛ ولكن يا عماه أتيت من بلاد مصر العامرة لهذا الغرض .. فأنا أحتاج أن تساعدني في مقابلة هذه الأميرة والاجتماع بها فقط .. لا أريد غير ذلك وجزاك الله خيرا .

قال جعفر الموج : حسنا أيها الفتى ! .. طبعا تريد أولا أن ترى هذه الفتاة ، وهذا سهل .. فمن عادة فتاة البصرة أن تنزل السوق نهار الجمعة بعد العصر ، فيمكنك أن تراها ، وبعدها نفكر في الخطوة التالية .. واعتبر نفسك ضيفي ونزيل بيتي .

فاعتذر حسان عن تلبية ذلك فقال : شكرا لك يا سيدي ! ولكني استأجرت حجرة في خان البصرة .. وأحب أن أبقى فيها حتى أتحرك وأتعرف على هذه المدينة البحرية بحرية وبدون حرج .. وسأزورك كل يوم .

فقال التاجر جعفر : حسنا يا حسان ! افعل ما بدا لك أيها الشاب ولكن غداؤك اليوم معنا.. أرجوك لا ترفض .



كان الأسبوع طويلا بالنسبة لحسان فهو مشتاق وعاشق بالسماع ، فقد قطع المسافات الطوال لرؤية تلك الحسناء ، وما صدق الشاب وأن جاء يوم الجمعة وانطلق إلى سوق التجار بعد صلاة الجمعة في جامع البصرة الشهير مسجد أبي الحسن إمام أهل البصرة في زمن التابعين، فوصل إلى دكان التاجر جعفر، فاستقبله وقال : اجلس يا بني بعد العصر إن شاء سترى الأميرة التي أتيت من بلاد النيل لمشاهدتها .. والله إننا لنعجب لكم أيها العشاق ! عندما تعشقون تذللون الصعاب ولا يهمكم شيء إلا الحصول على غايتكم .. كان الله في عونك .

بعدما خرج الناس من المساجد بعد صلاة العصر انتشر عدد من رجال الشرطة في السوق كالعادة لحفظ الأمن ، فهم يتابعون جولة الأميرة في السوق ، وحفظها من الناس من الإساءة إليها ، فجلس جعفر وحسان أمام الدكان ينتظران الأميرة في سوق التجار والأقمشة في مدينة البصرة .

ناس البصرة قد اعتادوا على جولات ابنة عامل البصرة ، فلا يكترثون كثيرا لنزولها وتجوالها ، فهذا عندهم أمر طبيعي اعتادوا عليه ، ولولا انتشار الشرطة لا يشعرون بمجيء الأميرة، دخلت الأميرة الحسناء على جواد السوق ووراءها جنديان من حرس أبيها ، ولما اقتربت من دكاكين جعفر، وأصبحت أمام ناظري حسان المتوتر والمشتاق لهذه المشاهدة ، المشرئب العنق نحوها ، فلم يتمالك نفسه وهو يقول : والله إنها لجميلة حقا !! ما رأيت مثل هذا الجمال في بلدي!! إنها تحفة جميلة يا سيدي جعفر !.. بيضاء البشرة ، دائرية الوجه كأنه بدر التمام ..

وقفت الحسناء البصرية أمام الدكان ، فقام لها جعفر وفعل مثله حسان المشدوه بسعة عينيها وسوادهما ، وقد ازداد خفقان قلبه واهتزازه في داخل صدره، وسمعها تتحدث مع جعفر وهي تلحظه بطرف عينيها فقالت : يا جعفر مالي أراك تجلس بباب الدكان على غير العادة ؟!

فقال حسان في نفسه : إنها ذكية الفؤاد فقد لحظت جلوسه أمام دكانه ..وكان صوتها لطيفا لذيذا رخيما ..

ثم سمعها تقول بصوت عذب بعدما رد عليها جعفر: وهذا الغلام أراه ينظر إليّ بشغف ؛ كأنه أول مرة يراني أمام هذه الدكان؟!

فقال جعفر بشجاعة وإقدام : فعلا هو يراك أول مرة يا أميرة البصرة .

فتمتمت : غريب أيها الشاب ؟!

فتمتم حسان بصوت متهدج : نعم أنا مصري .. من بلاد النيل أتيت لهذه البلاد ..

تبسمت الأميرة وقد لحظت اضطراب الشاب فسرها ذلك ورددت : مصري !! وأشارت لجارية خلفها : جاريتي هذه مصرية أيها الشاب ما بك أيها المصري تحدق النظر فيّ باستغراب ؟

زاد ارتباك حسان رغم أنه تاجر ابن تاجر ، والحديث مع النساء والجواري ليس شاقا على مثله فهو يفعل ذلك في بلاده ، فكان يمسح العرق البارد على جبينه ولم يتكلم ، فعادت الأميرة تخاطب التاجر جعفرا :ما هذا الشاب يا جعفر ؟

فقال جعفر باسما ومداعبا : شاب كأي شاب ! رأى أميرتنا لأول مرة فذهل .. أيتها الأميرة .

أدارت رأس حصانها لتتابع السير وهي تقول وعلى وجها ابتسامة : إلى اللقاء يا جعفر ! يبدو أن لصاحبك المصري قصة .

وعندما ابتعدت الصبية هبط حسان على الأرض يزيل العرق المتصبب من جبينه وصدغيه ، وأخذت أعصابه تهدأ شيئا فشيئا ، وتناول بعض الماء ، ولما عادت إليه روحه قال جعفر مبشرا : حظك حسن أيها الفتى .. الفتاة قد أعجبت بك كما سحرت أنت بها .

فقال حسان : سيدي .. كيف عرفت ؟!

رد التاجر جعفر : إنني كما ترى رجل كبير في السن ومن خلال عملي في هذا السوق منذ خمسين سنة أعرف مثل هذه الحكايات والنظرات والابتسامات .. ألم تسمعها تقل إلى اللقاء يا جعفر يبدو أن لصاحبك المصري قصة ؟ .. فهي تريد سماع القصة .

فقال حسان : ألا تصدق أنها أول مرة أشعر بالارتباك أمام امرأة مثل هذا الارتباك والاضطراب إنها يا سيدي فتاة جميلة جدا فاتنة! وما كان ماجد مبالغا عندما عجز عن وصفها.. وهي فطنة ذكية ، وأصدقك القول أنني ازددت بها غراما وهياما وهوى .. واسأل الله تعالى أن ييسر لي الزواج منها .. سيدي جعفر كيف يمكن أن ألتقي بها وأتكلم معها ؟ .

فضحك جعفر على ولهه الشاب وتعجله وقال باسما: تستطيع أن تزور قصر أبيها وتخبره برغبتك بالزواج من ابنته ، ولن يعترض على طلبك وسيرحب بك؛ ولكنهم سيطلبون منك طير ملك الصين الذي أرى أن دونه التعب والنصب والغربة والموت الزؤام .. ولكنني أنصحك بأن تحاول لقاءها وتجلس معها ، وسأدبر ذلك لك لعلها تتعلق بك وتستغني عن هذا الطلب المزعج وتتزوجها كما يتزوج الناس وتعود بها إلى والديك وأهلك ..

ضحك الشاب وقال حالما : أيمكن أن يتحقق هذا الحلم سريعا .. ؟!

قال جعفر : هذا أمره عند الباري سبحانه وتعالى .

ودع الشاب التاجر جعفرا ، وعاد للخان الذي ينام فيه فوجد صاحب الخان في انتظاره وهو يقول : ها قد أتى الريس حسان.

فالتفت حسان للرجل الذي يخاطبه صاحب الخان فقام رجل يجلس معه، وكان حسان قد وصل إليهما وفي عينيه سؤال ، فرحب كل منهما بالآخر وسلما على بعضهما وقال : نعم يا أبا محمد .. ما الخطب ؟! .

فقال صاحب الخان : هذا الرجل أتانا يسأل عنك .

فقال الرجل الغريب : سيدي حسان أرغب في الحديث معك ؛ ولكن خارج الخان لأمر ضروري .

فخفق قلب الفتى والتفت إلى صاحب الخان الذي لزم الصمت وقال : أين ؟!

فقال الرجل : اتبعني .

فكرر حسان القلق الاستفهام : إلى أين ؟

الرجل المجهول : إلى بيتي .



تشجع حسان ونفض الخوف عن قلبه ، ومشيا ساعة من الزمن حتى وصلا لحي قديم ، ودخل الرجل وحسان خلفه وهو مطمئن لهذا الرجل ظانا أنه من طرف الأميرة التي قابلها في السوق دفع الرجل باب أحد الدور وصاح : لقد أتى السيد حسان يا سيدي !

سمعوا صوتا من الداخل يطلب منهم الدخول ، فدخل الرجل وخلفه حسان غرفة مظلمة ، وسمع صوتا مبحوحا يقول : اجلسا .. اشعل القنديل يا زيدان .. لنرى هذا الفتى المصري .

فقال حسان بصوت مضطرب ساوره الخوف: أين أنا ؟!

فصاح الصوت المبحوح متهكما: ألا تعلم أين أنت؟ أنت عند سيدك أبي المعالي زعيم لصوص البلدة .

ردد حسان بصوت متهدج خائف : زعيم لصوص المدينة ! ويحكم ما علاقتي باللصوص ؟!

فقال الرجل المبحوح : لا تتعجل أيها الشاب الآن ستعرف كل شيء .

أنار نور القنديل الغرفة المعتمة وبدد ظلامها المرعب ، فاستطاع حسان أن يرى صورة كبير اللصوص في المدينة ، وقد رآه اللص أيضا ثم خاطبه بصوته المبحوح :

أيها الفتى المصري .. علمت بأنك تملك مالا كثيرا وأرغب بالحصول على شيء منه

فقال حسان : ومن أخبرك بأن معي مالا كثيرا ؟!

ورفع اللص صوته قليلا وهو يقول : هذا شأني .. وما عليك إلا أن تنفذ وتطيع .

فرد حسان بتحد بعد أن عادت إليه شجاعته وطبيعته : وإذا لم ألبي هذا الرغبة .. فما أنت فاعل بي ؟!

رد كبير اللصوص قائلا : ستبقى في ضيافتي حتى تدفع .. وكل يوم تمكثه في ضيافتنا يزيد المبلغ ألف درهم .

فضحك حسان ، وقد عادت له كل شجاعته ، وقال : كم كنت تريد مني بداية قبل أن تحبسني ؟!

فقال الصوت المبحوح : خمسة آلاف درهم ..واحذر أن تشكونا للعسس والعرفاء وإلا فقدت حياتك .

فصاح حسان : الله اكبر !.. الله اكبر ! وصل الأمر إلى القتل !

كان حسان في مأزق فعلا ، فهو لم يعتد معاشرة اللصوص وأوباش الناس، وبينما حسان وزعيم اللصوص يتجادلان ، طرق الباب ودخل رجلان أحدهما أعمى بين يديه عصا ، والآخر يسحبه فألقيا التحية وجلسا ، فقال ذو الصوت المبحوح على أثر صمتهما عند دخول الرجلين : يا زيدان دعهم يأتوننا بالطعام حتى يتعشى معنا الريس حسان المصري .. يبدو أنه يرغب في ضيافتنا والمبيت عندنا ؛ كأن أجرة النزل والخان أثقلت كاهله.

فضحك حسان لسخرية الزعيم منه وقال ساخرا: قررت أن أظل في ضيافتك يا زعيم اللصوص .. قد انقلب إلى لص مثلكم.. آكل تعب الآخرين..أهؤلاء أيضا لصوص؟ .. وهذا

الكفيف لص ؟

قهقهة أبو المعالي وقال : أعجب منك أيها الغريب ! .. أنت غريب ولا تخشى على حياتك منا؟

أجابه بطل قصتنا : فلتعلم أن الموت من عند الله وليس من عندك .. ومن يضمن لي إن اشتريت حريتي منك وأعطيتك ما تبتغي من الدراهم أن لا تخطفني مرة أخرى .. للمزيد من الكسب الخبيث ؟

فتعهد اللص بالوفاء وقال : هذا عهد مني أن لا أطلب منك غيرها .

فسخر حسان من عهده وقال : وهل لكبير اللصوص عهد ؟! .. وما يدريني بأن لا يأتيني غيرك ويبتزني .

قال : ستبقى في حمايتي حتى تغادر هذه المدينة بسلام .. فأنت تجهل أبا المعالي لأنك غريب.

فقال حسان هازئا : اطمئن .. لقد قررت البقاء هنا أيها الرجل .. والسكنى عندكم .. لقد أعجبني مناخ بلادكم .. وسأعمل عند جعفر الموج .. فهو صديق لي .

قال أبو المعالي: اعرفه أيها الرجل.. ادفع ما عليك ، وانصرف راشدا حتى لا أفقد صبري وأفعل بك ما لا تحمد عقباه .. أنا أول مرة أسمح لنفسي بالحديث مع رجل غريب مثلك بهذه الطريقة الطيبة الناعمة ..

فكر حسان قليلا ولاحظ أن ذكره للتاجر جعفر لم يدع أثرا لدى هؤلاء المجرمين ، ففكر في حيلة أخرى يرهب بها قلوب هؤلاء المجرمين فقال : أتعلم لماذا جئت لبلادكم ؟ .. جئت من مصر لأتزوج أميرتكم بدور .

أخذ أبو المعالي ورجاله يضحكون بصوت عال وقال: أتريد الزواج من الأميرة المغرورة أيها المجنون؟! .. أتيت من بلاد النيل لتتزوج من الأميرة .. إنني حزين من أجلك أيها المحب.. إنك تنعي نفسك لنا .. هل تقابلتما ؟

فرد حسان همسا : سأفعل ذلك قريبا..

عندئذ دخل رجل الغرفة مسرعا وهمس في أذن أبي المعالي كلمات ثم خرج ، فاعتدل أبو المعالي

في جلسته بعدما كان مستلقيا على ظهره وقال : حسان المصري .. الأميرة ترغب بلقياك.

حدق فيه حسان وقال لنفسه ما أدراه ؟! ثم رد : لم أفهم ما قلت ؟! بل كيف علمت بذلك ؟!

تمعن كبير اللصوص بحسان لحظات وقال: أيها المصري .. ستعود للخان .. ولا تنسَ الدراهم وسيقدم عليك أحد الرجال فادفع إليه المعلوم من غير مماطلة كما اتفقنا .. وإياك أن تخبر أحدا بما جرى بيننا وإلا فالموت بانتظارك ..



وكان الوقت يقترب من الفجر ، فخرج حسان مع الرجل الذي أتى به نحو الخان، وتركه على باب الخان ، فلقي صاحب الخان في انتظاره فقال لأبي محمد صاحب الخان : ما الخطب أيها الرجل ؟!

فقال الآخر : لقد جاءت جارية من قصر الوالي عامل البصرة برفقة غلام من غلمان جعفر الموج يسألون عنك .. فأخبرتهم بأنك خرجت مع رجل غريب ، ولم تقل لي إلى أين سرتما ؟.. وسيعودون في الصباح للحديث معك .

صعد حسان لغرفته في الخان وهو مشغول الذهن في جارية القصر والأميرة وبأبي المعالي الطامع بما معه من مال .. وكيف وصل إليه الخبر بأن الأميرة تريدني ؟ أله جاسوس في الفندق؟ فصاحب الخان لم يقل أن الأميرة تريده .. إنما قال جارية من جواري الوالي أتت تسأل عني.. قد أكون مطلوبا للوالي وليس لابنته .. وكيف عرفوا بمقدار ثروتي ؟ .. أمر يثير الحيرة .. عجيب أمر هؤلاء اللصوص أين الشرطة والأمن والوالي؟! .. هل أدفع له خمسة آلاف درهم ؟ .. هذا عار وجبن واستسلام .. آخ .. إن الأمر لصعب ..

نام حسان من شدة التعب والإرهاق من أحداث المساء والليل، فرغم الأفكار التي تشغله فما طرح نفسه على الفراش حتى ذهب في سبات عميق .

ومع الضحى كان غلام جعفر الموج في الخان يسأل عن حسان بن عبد الرحمن ، فأيقظوه من نومه فهبط إليه مسرعا وهو متوتر النفس يسأل الغلام : ما الأمر يا عبد الله ؟!

فقال غلام جعفر مخبرا : جارية الأميرة تريد الكلام معك.. وها هي في انتظارك في بيت سيدي جعفر .

فانطلق حسان مع الغلام إلى منزل التاجر جعفر الموج ، فوجده في انتظاره وبعد التحية والسلام

قال حسان : ماذا جرى يا سيدي جعفر ؟!

فقال جعفر : أين كنت ليلة أمس أيها الفتى ؟

فقال : كنت عند أبي المعالي كبير لصوص البصرة .

همس جعفر وقال : اسكت أيها الفتى سأستمع إليك بعد قليل .. ادع الجارية يا عبد الله لتحدث السيد حسان .

جاءت الجارية وقالت لحسان بعد السلام : ابنة الوالي ترغب بالكلام معك أيها الشاب لأمر يهمك .

فقال بفرح طاغ : على الرحب والسعة .. وأنا خادم الأميرة المخلص .. أين وكيف ومتى ؟

فقالت الجارية : ستراك هنا في هذا المنزل بعد ظهر هذا النهار .. فعليك أن تبقى هنا ..فلا تخرج حتى أعود هل سمعت أيها السيد ؟

فالتفت للسيد جعفر وقال : القول لسيدي جعفر .

ابتسم الشيخ جعفر وقال : اذهبي أيتها الأمة واحضري سيدتك لمقابلة هذا الشاب الذي أرى أن الحظ يبتسم له .

انصرفت الجارية وسمع حسان التاجر يقول بعد خروجها : يبدو أن الأميرة وقعت في هواك فهي تنشد لقاءك بدلا من ذهابك إليها ..

فقال حسان: إن هذا أمر غريب فعلا !.. سامحني يا سيدي فقد عطلناك عن متاجرك وغلمانك وأزعجنا أهل بيتك ..

فقال جعفر بحياء : لا .. لا .. يا ولدي .. الغلمان يقومون بالعمل على خير ما يرام .. وهذا شرف كبير أن أوفق على جمعك بالأميرة التي ترغب أن تتخذها عروسا .. وقبل أن تحضر معشوقتك وتتلعثم بالكلام اخبرني ما حكاية أبي المعالي معك .

فقص عليه حسان حكاية أبي المعالي من أولها إلى آخرها ، بعدما استمع جعفر للقصة سكت طويلا قبل أن يقول : هذا لص معروف بالبصرة ، وهو مطلوب للعسس والشرط .. ولكن كيف علم بمكانك وما تحمل من مال ؟! .. فهل يعلم صاحب الخان أن معك مالا كثيرا ؟.. وهل يعلم أنك قادم للزواج من الأميرة ؟!

فقال حسان : لا يعلم إلا أنني مصري قادم للعمل في هذا البلد .

سكت جعفر برهة ثم قال : من يعلم أن معك مالا كثيرا غيري ؟

عاد حسان يقول : لا أتذكر أحدا .. هل أدفع له المال يا سيدي ؟

فقال له جعفر : انتظر حتى تقابل الأميرة وتسمع منها .. فلنستعد لصلاة الظهر في مسجدنا ، ثم نتناول الغداء الطيب وننتظر الفتاة .

أخذ حسان يبدي لمضيفه الاعتذار والأسف على إزعاجه وشغله في قضيته عن أعماله وتجارته فرد عليه الشيخ جعفر : لا حرج عليك .. لقد أوصانا عليك ابننا ماجد .. والناس بعضهم لبعض ..

رجعوا للبيت بعد الصلاة ، وأتت الأميرة بدور مع جاريتها لمنزل التاجر جعفر وهي متخفية بلباس شعبي ، فرحب بها التاجر وأهل بيته أحسن ترحيب ، ثم رحبت هي بالشاب المصري وبعدما جلسوا قالت لهم : لابد أنكم حائرون من هذه الزيارة .. ما بالك أيها الشاب قد تغير لونك ؟ .. تمالك نفسك .. ولا تخف ..



ضحك جعفر ضحكة خفيفة وقال : فعلا أيتها الأميرة .. فأمرك غريب ويحتاج إلى توضيح .. ومرحبا بك في بيتنا المتواضع ..!

لم يتكلم العاشق الولهان ، فأزاحت اللثام عن ووجها وقالت : أيها المصري .. ما الذي أتى بك من مصر ؟ .. لقد كانت عيناك تتكلم أثناء وقوفنا أمام دكان جعفر .. كانت نظاراتك اليّ نظرة فتى ولهان .. ولقد قرأت حكايات كثيرة عن المحبين وعن عيونهم وأشعارهم وغزلهم وها هو وجهك يزداد امتقاعا ويتلون بالاضطراب والوجل ..

فأجاب عنه جعفر: هو ما تقولين أيتها الأميرة ..ولك فراسة ما كنا نعرفها عنك .. هذا المصري سمع بحسنك وجمالك فترك النعيم والمال والفتيات طامعا بالزواج منك والقرب منك .

فقالت وهي ترمق الشاب بعينيها : أحقا ما قال جعفر ؟!

همس حسان : نعم أيتها الأميرة .

فشجعته الأميرة قائلة : حسنا أيها الفتى .. عرفني بنفسك .

تكلم حسان عن نفسه ، وعن قصته وسبب مجيئه إلى هذه البلدة ، وقد استعاد هدوئه ورباطة جأشه أثناء الحديث عن نفسه ، ولما اكمل الكلام وسكت قالت الأميرة مصرحة : إنني أميل إليك أيها الشاب الطيب ..

عجب جعفر لجرأتها وسرعة اعترافها ؛ ولكنه سمعها تقول : ولكني جعلت لمن يرغب بزواجي أن يجلب لي طيرا ذهبيا عند ملك كبير في بلاد الصين .. فقد قرأت عن هذا الطير وهويته فجعلته صداقا لي .. فهل تستطيع تحقيق ذلك ؟

فاندفع حسان بحماس المحب يقول: من أجلك يا مولاتي الأميرة أفعل كل ما تشتهين وتحبين وتأمرين ..

فقالت : سأنتظرك سنتين سنة ذهابا وسنة إيابا ، وبعد ذلك أنا في حل من الانتظار .. ولولا أن هذا اشتهر عني ، وأنه كما تقول وصل لبلادكم لقبلت بك بدون الطير السحري الذهبي..وما عليك الآن إلا أن تطلبني من أبي .. ساعده يا جعفر للوصول لقصر الوالي عامل أمير المؤمنين

على البصرة .. واعلم أيها الفتى المصري أن لك في القلب معزة ، ولن أنسى لقاءك هذا.. وسأدعو الله أن يوفقك في مسعاك العظيم .. واعلم أنني انتظرك بشوق .. ولن أقبل أحدا بعدك حتى تنقضي المدة .. وجعفر والجارية يشهدان على ذلك .. والى اللقاء أيها الشاب .

خرجت كما أتت ، فقال الشيخ لحسان : ما تقول يا حسان ؟ .. هل ستسافر إلى ملك الصين وتأتيها بالطير الذهبي ؟

فقال : يا عماه .. هويت هذه الحسناء وأنا بين أهلي وقومي .. وازدادت نار الهوى لما أبصرتها وجالستها هذه اللحظات فاشتعل القلب واضطرم بنار العشق والهيام ..

فقال جعفر : الفتاة لها هوى بك ؛ ولكن الغرور يمنعها من الاستسلام والتراجع عن هذا المطلب؛ لأنه قد أصبح حديث الركبان والشعراء.. فالتخلي عنه ليس هين عليها .. وهذا الصداق خطير يا ولدي فأنا لك ناصح مرة أخرى دعك من هذه الرحلة ، وعد لأهلك .. وبنات الكرام كثيرات .

فلبث حسان مليا قبل الكلام ثم قال بعد نظر : لابد من المغامرة يا سيدي .. متى نقابل حضرة الأمير العامل على البصرة ؟

فقال جعفر : الليلة ..!

التقى حسان بأمير البصرة فرحب به ، ثم حدثه العامل عن مهر ابنته ونصحه بعدم المسير ، ولما رآه مصرا أخبر ابنته بشأن الخاطب الجديد ، فجاءت وتكلمت مع القوم وأكدت على مدة العامين وقبل مغادرتها قال لهم حسان : قبل طلوع الفجر سأكون خارج البصرة ـ إن شاء الله ـ ونحن على موعدنا بعد عامين بمشيئة الله .

وشكروا الأمير ، وشكر حسان التاجر جعفرا ، وأثناء خروجهما من قصر الأمير أخبره حسان أنه سيكون عنده مع الفجر ليودعه ويأخذ الأمانة من عنده ، وكان حسان قد وضع أمواله عند جعفر الموج ، فعرض عليه جعفر المبيت عنده خشية اللصوص ، فاعتذر الشاب وانصرف للخان فوجد لص البارحة في انتظاره قائلا له : سيدي أبي المعالي راغب في رؤيتك .

فتذكر حسان حكاية اللص أبي المعالي ووعده معه ، فقال للص همسا : غدا الأحد أليس كذلك في مثل هذا الوقت تعال أنت ولص آخر لاستلام المال .. سوف أحضره من بيت التاجر جعفر الموج .. اذهب وسلم على سيدك أيها العبد الحقير .

من باب الحذر والحيطة لم يخبر حسان صاحب الخان بنيته بالسفر في الغد، مع صلاة الفجر وحسب الاتفاق كان حسان مع السحر أمام بيت جعفر الموج يطرق الباب ، وكان الرجل بدوره يخرج لصلاة الفجر في المسجد ، وبعدما صليا عادا لبيته فأكلا تمرا ولبنا ، وأخذ حسان ماله من عند الرجل الكريم ، وأخبره بعودة رسول اللصوص وإنظاره لهذه الليلة وقال : وبالطبع عندما يأتون أكون قد خرجت من البلدة وركبت البحر .. وأنا لم أخبر صاحب الخان بسفري حتى لا يصل أمر السفر لهؤلاء اللصوص ، لربما يكون لهم عيون في الفندق ، وسأترك له عندك من المال أجر ما قضيت من أيام عنده ، وإذا زاد شيء منها فتصدق به .. وأشكرك يا سيدي على معروفك الكبير معي خلال هذه الأيام ..

فقال جعفر بأسف : وفقك الله .. ونرجو توفيقك ، ونراك ظافرا بهذا الطير النحس .. وبعد يومين سأذهب بنفسي وأدفع لصاحب الخان .. وقد يكون جاسوس أبي المعالي عندي هنا .. فغلماني هم الذين يعرفون أنك وضعت عندي مال كثير، فلابد أن أحدهم واشي سأتحرى الحال رافقتك السلامة يا صاحبي .

انصرف حسان بعدما عانق الشيخ إلى جهة البحر حيث الميناء الكبير ، ولما أضحت الشمس وقبل أن يغادر جعفر بيته حيث السوق أقبلت جارية من جواري الأميرة تسأل عن الشاب الخاطب وتخبرهم برغبة الأميرة بلقاء آخر معه ، فضحك الشيخ جعفر وقال ضاحكا : قولي لسيدتك أن الفتى المصري ذهب في مهمته .. ولتنتظر أربعة وعشرين شهرا فلربما يتم اللقاء مرة ثانية .

أول سفينة



أول سفينة وجدها متحركة إلى بلاد الشرق ركب عليها ولم تكن هذه السفينة كبيرة ، كانت سفينة متوسطة الحجم فاستأجر مكانا على متنها ، وقبطانها أو ربانها لم يكن مسلما كان هنديا ، وكان حسان يتمنى لو يصل الصين بليلة بل ساعات ، وافق الربان الهندي على حمله معه مقابل مائتي درهم إلى أقرب ميناء من بلاد الهند والسند ، وافق حسان على الفور واشترى طعاما وماء للرحلة التي قد تستغرق أشهرا ، كانت السفينة تحمل تجارا وعددا قليلا من المسافرين كحسان ، وبعد مسيرة أيام وليال مع أمواج البحر العاتية تعرضت السفينة لعاصفة بحرية عنيفة ألقت بالسفينة على جزيرة في وسط البحر ، فحمد القوم ربهم الله على بقائهم أحياء مع صراع استمر ساعات مع العاصفة الأولى .

عندما ظهر النهار على الجزيرة لم يشاهدوا شيئا في هذه الجزيرة سوى الأعشاب وبعض الأشجار المتناثرة فيها ، فبدأ البحارة والنوتية يتفقدون السفينة والأشرعة ويصلحونها استعدادا للعودة للبحر ، فتركهم حسان مشغولين بإصلاح السفينة ، وأخذ يتمشى في هذه الجزيرة ، وينظر في خلق الله ويفكر بحسنائه التي سببت له هذه الرحلة القاسية، واستمر في المشي ساعة من الزمن ثم ألقى بنفسه على صخرة ملساء في وسط الجزيرة ، وأخذ يحلم ويحلم بعروسه الجميلة ، وفجأة تذكر أهله بمصر فقد اشتاق إليهم شوقا كبيرا، وبينما هو غارق في أحزانه وأحلامه سمع صوت صراخ مزعج ومخيف من الجهة التي تربض فيها السفينة ،

فتحرك نحو الصراخ فزاد صوت الصراخ والعويل .. فقد لمح أناسا كثيرين ، فجلس يراقب القوم وقد سرى الرعب إلى قلبه وأوصاله إنهم يحطمون السفينة .. لابد أنهم قراصنة البحر الذين سمع عنهم من ركاب السفينة .. ولمح جماعته مكبلين بالحبال ثم شاهد الغرباء يحملونهم إلى سفينتهم .. فأخفى واورى نفسه بين الأعشاب قبل أن ينتبهوا له ويروه .. استمر الصراخ

والعويل فترة من الزمن حتى ابتعدت السفينة بالأسرى .. لقد أخذوهم ليبيعوهم رقيقا ، فبكى حسان بكاء مرا ، ولكنه حمد الله تعالى أن أنجاه من هؤلاء المجرمين .. ثم مشى بعد حين حيث السفينة بعدما خلا المكان من مجرمي البحر ، وبينما هو يقترب منها ظهر رجل خاف حسان منه لأول وهلة ولكنه سمع الآخر يقول مطمئنا : لا تخف أنا صديقك عدنان ..

فقال حسان : البصري؟! .. تعال أيها الرفيق .. ما الذي حدث لنا ولقومنا ؟ .. وكيف نجوت أنت ؟

فرد عدنان البصري : كما نجوت أنت .. الحمد لله كنت نائما بعيدا عنهم ، فلما استيقظت سمعت الصراخ والعويل ثم رأيت ما حصل .. سيبيعونهم رقيقا في بلادهم .. وأنت كيف نجوت ؟!

فقال حسان بحزن وقد بدأ يدرك مدى خطورة الخطوة والمغامرة التي أقدم عليها : الحمد لله على السلامة .. كنت بعيدا عن أهل السفينة أفكر بأهلي وإخواني ومستلق على الصخرة ؛ وفجأة نهضت على الصراخ فاقتربت ثم تذكرت ما كنت تحدثني به عن أخطار البحر وعصابات البحر فتوقفت وأخفيت نفسي عن الأنظار والآن ما العمل أيها الأخ والصديق في هذه الجزيرة المجهولة ؟

فقال عدنان البصري بعد تريث: علينا أن ندبر أنفسنا بطعام وشراب .. وننتظر رحمة الله ؛ لعل سفينة تمر قريبا منا فيحملوننا معهم أو نموت هنا .

فقال حسان بحزن وأسف عميق : الأمر كله بيد الله !.. فإن كان لنا حياة ييسر مولانا الأعظم لنا النجاة ، وإن كانت الأخرى فلا مفر منها اليوم أو غدا .

فقال عدنان : صدقت .. والآن دعنا نسمع قصتك التي وعدتني ونحن في السفينة بقصها عليّ دخل الظلام فأشعلا نارا يتسامران حولها ، وكانوا قد وجدوا بعض الطعام الذي لم يحمله معهم القراصنة ، فجلسا حول النار يأكلان ويتحدثان فقال حسان : كما تعلم أنا من أبناء مصر .. أبي تاجر ثري ومعروف في مصر كلها ، فأنا ابن نعمة يا أخي! ولست مسافرا للتجارة ولا أيضا للنزهة .. إنما سمعت عن فتاة بصرية حسناء جميلة اسمها بدور ابنة أمير وعامل البصرة ، وبها

أنك من أهل البصرة لابد أنك سمعت بها وبمهرها الذي قرأت عنه في بطون الأوراق .
فابتسم عدنان عندما عرف أن صاحبه أخرجه العشق من بلاده وقال : نعم .. ومن لا يعرف ابنة الوالي والحاكم بالبصرة ؟!.. إذن أنت تنوي وتقصد السفر إلى بلاد الصين لتحضر الطير الذهبي مهرا لأميرتنا الغريبة الشهوات .
فقال حسان بحزن شديد : هو ما تقول .. وكثير من الإخوان نصحوني بالعدول عن هذا الهوى والوهم ؛ ولكني أغلقت أذناي وفتحت قلبي فأتيت العراق وبغداد ثم البصرة وقابلت الأميرة وتحدثت معي فوجدتها كما نقل اليّ في مصر جميلة ذكية سلبت مني القلب والعقل معا فهمت بها هياما ، فصممت أن أجلب لها المهر الذي تشتهيه، فهذه قصتي وبلوتي أيها الأخ البصري، وأمهلتني سنتين ، وبعدئذ فهي حرة متحررة من الوعد، وأخشى أن تمضي السنتان وأنا في هذه الجزيرة .. فهل عندك كلام ينفع القلب المشغوف بالهوى والبلى يا ابن الكرام ؟
أجابه البصري: لا تيأس وإلا فشلت ..ولا تقنط من رحمة الله فالغايات الصعبة تحتاج لصبر ونفس قوي وطويل .. وسيأتي الفرج من حيث لا تحتسب ، فالرحلة لبلاد الصين طويلة قد لا تكفيها سنة.. فلنصبر أسبوعا من الأيام ، وإذا لم تقذف الأمواج إلينا سفينة نصنع من خشب وألواح هذه السفينة قاربا صغيرا ونلقي بأنفسنا بالماء ويفعل الله ما يشاء .
فقال حسان : ولم نصبر أسبوعا ؟! لنصنع القارب من صباح الغد .. ثم نتوكل على الله .
فقال عدنان : لا بأس .. نبدأ بصنع القارب من الغد ؛ فإذا تيسرت لنا سفينة كان بها وإن لم يتيسر نركب القارب ونسير على بركة الله حتى نصطدم بسفينة في عرض البحر .. فلننام الآن حتى الصباح ، ثم نباشر العمل فأنا لي معرفة في صنع القوارب ، لقد عملت بصناعتها عند بعض النجارين في البصرة .



فلما أصبح الصباح وظهرت الشمس أخذا يفككان ألواح السفينة ليجمعوا منها قاربا صغيرا وبعد أيام تم صنع القارب المناسب للمغامرة ، فجراه إلى الماء وجرباه بضع ساعات، ولما تيقنا من صلاحه للمغامرة ، وضعوا فيه الأطعمة والمتاع وبدأت المغامرة مع البحر الكبير ، وشرعت الأمواج تحمل القارب علوا وتهبط به وهما يجدفان في عجاج البحر، فإما النجاة وإما الغرق ويصبحان طعاما للسمك والحيتان ، دخل الليل وهما في وسط البحر، وما زالت الريح هادئة وتساعدهم في السير على متن الأمواج ، ومع شروق الشمس على مياه البحر لمحا شيئا ضخما يسير في البحر فصاح البصري : إنها سفينة ولكنها بعيدة .. فعلينا أن نزيد من نشاطنا لعلنا ندركها قبل هبوط الليل لعلهم يحملوننا معهم .

فزادا من الجهد والتجديف وساعدتهم الريح ، ومع المساء أدركا السفينة فشاهدهم عمال السفينة ، فألقوا إليهم الحبال والشبك وساعدوهما على الصعود على سطح السفينة ، ولما أصبحا على ظهرها ألقيا بنفسيهما على أرض السفينة ، وقد أعياهما التعب والتجديف ، وكانت أيديهما مضرجة بالدماء ، وقد فقدا الوعي من التعب والإرهاق والنعاس ، فساعدهم العمال بالمعالجة وزودهما بالطعام الدافئ وسمحا لهما بالنوم ..ومع الفجر استردا عافيتهما، فحمدا الله على نجاتهما فسألهم ريس السفينة عن حالهم ، فقصا عليه قصة السفينة التي استولى عليها لصوص البحر والجزر ، فأسفوا لما حصل للقبطان الهندي وركاب السفينة ، ثم بارك الربان لهم الحياة الجديدة فقال : هنيئا لكما الحياة الجديدة .. فأين أنتم سائرون ؟

فقالا : الهند سواحل بلاد الهند .

فقال الربان : وهذا من حسن حظكم فنحن إليها ماضون بإذن الله ، وكما ترون فسفينتنا ضخمة فقد نحتاج وقتا طويلا للوصول هناك .. نحتاج إلى شهور قبل أن نصل مواني تلك المدن ، فإذا أحببتم نقلناكم إلى سفينة أصغر من سفن نقل الركاب

فصاح حسان : يكون هذا معروف آخر منك ؛ فإني في عجلة من أمري أيها الربان الكريم ..

فقال الربان : ابشروا فأول سفينة صغيرة تمر بنا سأنقلكم إليها خذوا قسطا من الراحة واصبروا

فإن الصبر مفتاح الفرج .

وتركهم الريس وذهب يتفقد البحارة ، وبعد أسبوع وهما على متن هذه السفينة الضخمة تمكن الربان من نقلهم لسفينة صغيرة مع بحار هندي ، فانتقلوا إليها بعدما ودعوا البحار الكريم ، وشكروه على إحسانه عليهم خلال المدة التي أمضياها على سفينته ، رحب البحار الهندي بهما ووجداه مسلما من ملتهم ، فطابت لهم صحبته وتفائلا به ، وحدثوه بقصة النكبة التي أصابتهم بعدما فارقوا البصرة ، واندمج الشابان مع سكان السفينة ، وتعرضت هذه السفينة إلى عاصفة هوجاء فاشتد دعاؤهم واستغفارهم إلى الله أن يحفظهم ويكلئهم من أخطار البحر، وبعد حين وصلت السفينة إلى سواحل الهند ، فحمدوا الله وشكروه على فضله ودفعوا إليه مالا يدفعه لصاحب ومالك السفينة فأبى وودعها ، وقبل أن يغادرا المرفأ إلى دلهي شاهد عدنان رجلا ممن كان معهم في السفينة القديمة ، فعرفا بعضهم بعضا وتصافحوا وهنئوا بعضهم بعضا بنجاتهم وسأله البصري قائلا : ما جرى لكم مع عصابة البحر ؟!

فقال الرجل : وأنتما كيف نجوتما ؟!

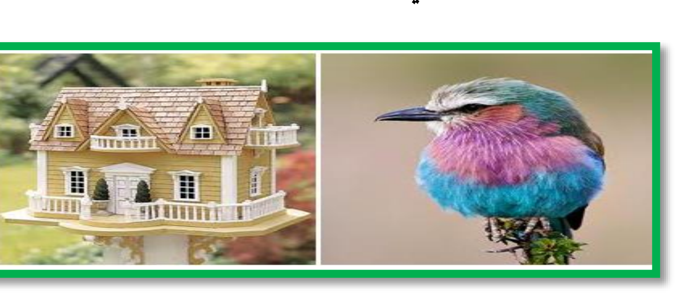
فقصا عليه قصتهما فلما انتهيا قال : ذاك من حسن حظكما .. الملاعين أخذونا إلى سفينتهم، واخبرونا بأنهم سوف يبيعوننا لملوكهم ، وأثناء الطريق رجوناهم أن يفكوا قيودنا ويبعوننا لمن شاءوا ؛ فكأنهم أشفقوا علينا ، ومضينا في البحر وتعرضت سفينتهم لعاصفة قاتلة تفتت في عرض البحر ، ومن حسن حظنا أننا كنا قريبين من ساحل إحدى الجزر ، فمنا من غرق ومنا من وصل الجزيرة سالما ، وكنت قد ركبت لوحا وقدرت لي النجاة ، ثم انتشلني ناس طيبون ، ووصلت اليوم إلى هذا الساحل بفضل الله وحمايته .

فقالا : حمدا لله على نجاتك يا أخانا ..

ونزلوا على مدينة يستريحون، وبعدما امضوا ليلة فيها تحركوا إلى العاصمة الكبيرة لهذه المدينة ، ومكثوا فيها أياما، ثم ساروا مع إحدى القوافل الكبيرة إلى مدينة دلهي ، وبعد زمن من السير حطوا رحالهم فيها في تلك المدينة الواسعة ، وبعد أيام أمضاها حسان فيها التحق بقافلة تجارية

مسافرة إلى بلاد الصين ، فاشترى بغلة وسافر برفقة القوم ، وقد ودع صاحبيه فدعوا له بالتوفيق والسلامة ، وبعد شهور من السير المتواصل أصبح حسان في بلاد الصين الواسعة جدا ، وعلم أن ملك الصين صاحب الطير الذهبي يسكن في مدينة عملاقة اسمها " شنغهاي " على ساحل بحر الصين ، وإليها تابع حسان المسير ، وهناك بدأ يتعسعس ويتحسس عن الطير ، ويسأل عن أخباره وحكايته .

الطائر الصيني



المكان المفضل لحسان حتى يتعرف على البلاد ويستطيع أن يفهم هؤلاء الناس ذوي العيون الصغيرة والوجوه الدائرية هو سوق التجار ، فترك الفندق الذي سكنه وذهب يتفرج على السوق ، وهناك أخذ يسأل عن التجار العرب فأرشدوه على تاجر عربي معروف في السوق اسمه التاجر حمزة .. فدخل دكان حمزة بعد جهد جهيد ، فسلم عليه وكان من حسن حظه أنه وجده في الدكان ، فاحتضنه حمزة وتشممه كأنه يشم فيه رائحة بلاد العرب ، وتعرفا على بعضهما ، ثم سأله حسان عن أسباب عيشه في هذه البلاد فأجابه حمزة بلطف : الأرزاق يا ولدي ! وكثرة الحروب في بلادنا ، وفي رحلة من الرحلات قررت البقاء هنا ، وتزوجت امرأة مسلمة من هذه البلاد ، واستقررت في هذه البلاد ، وهنا يوجد مسلمون كثيرون .. بل أكثر من ثلث السوق هذا لأبناء المسلمين ، ولي في هذه البلاد الكبيرة أكثر من ثلاثين سنة ، وأشار إلى صبي قائلا : هذا ولدي محمد .. ويوجد عرب غيري في المدينة يعملون في التجارة والحرف.. أنت من مصر كما قلت لي .. أما أنا فأجدادي من الشام .. كانوا يجاهدون في حملات الجهاد إلى بلاد العجم ، واستقر الكثير منهم فيها وبالذات مرو .. وما زال لي من الأقارب وأبناء العم هناك .. وأهلا بك يا ولدي حسان .

تحدث حسان مع محمد قليلا ثم عاد يقول لحمزة : حقيقة أنني فرحت لرؤيتك والجلوس معك وأدرك أنك ترغب بسماع حكايتي وسبب حضوري إلى هذا البلد .. وسأذكرها لك ـ إن شاء الله ـ متى تشاء ؟

قال حمزة : اعتبر نفسك ضيفي أيها الشاب المصري، وبعد الظهر سنذهب سوية إلى البيت ومع طعام الغداء نسمع حكايتك .. قم يا محمد وأخبر أمك بأن تجهز لنا طعاما وشرابا لضيفنا المصري .

قام محمد مسرعا إلى بيت أمه .. وبعد الظهر أخذه الشيخ حمزة معه للبيت وترك ولده محمدا في الدكان ، وأوصاه على المحل والمال ، ومع ضيافة أبي محمد قص عليه حسان قصته وسبب مجيئه لهذه البلاد ، وبعد أن استمع أبو محمد العربي للحكاية أصابه هم وحزن على الشاب وعلى شبابه فقال والحزن على وجهه : يا ولدي العزيز !.. أمرك عجيب جئت إلى آخر الدنيا من أجل حسناء ! أنتم الشباب لكم غرائب وخصوصا العشاق منكم ؛ ولكن لأنك ضيفي ونزيلي سأبذل جهدي لمساعدتك رغم الخطر المحدق بنا ، وأحسنت صنعا أنك قدمت عليّ ، ولا تحدث أحدا من الخلق بقصتك .. عليك أن تعمل بالتجارة والبيع والشراء على أنك تاجر يبحث عن رزقه في هذه البلاد حتى أدبر لك أمرا تصل به إلى هذا الطائر العجيب .

أثنى حسان على مضيفه الثناء اللائق ثم قال : يا سيدي ما حكاية هذا الطائر .. الذي أصبح يطلب صداقا لبنات الناس ؟!

قال حمزة : يا ولدي العاشق .. هذه أول مرة أسمع مثل هذه الحكاية ومثل هذا الطلب ، وسأقص



عليك قصة هذا الطير الذهبي كما سمعتها من زوجتي بنت هذه الديار .. تبدأ القصة يا حسان من زمان من زمن أحد أجداد ملك هذه البلاد .. كان كما قالوا .. له بنت وحيدة ، ورغب كثير

من الأمراء بالاقتران بها .. فتحرج ذلك الملك من ذلك ، فخشي إن زوجها لفلان أن يغضب الآخرون وقبائلهم ، فخرج على قومه بأمر هذا الطائر .. فأصدر بيانا على الشعب كله يطلب فيه صناعة مثل هذا الطير للأميرة حيث يكون أعجوبة من أعاجيب الدهر ، فمن صنع ذلك فهو الأحق بأن يكون صهرا للملك وقرينا لابنته الوحيدة ؛ وبذلك قل طلب الأمراء ليد ابنته التي كان يحبها حبا جما وما عاد يتعرض للحرج ، واستمر هذا الأمر مدة من الزمن ثم تقدم شاب من عامة الناس ليس من طبقة الأمراء إلى الملك بالطير الذهبي العجيب، تفاجأ الملك والأمراء بالأمر ؛ ولكنه أمام فتنة الطير لبى ما اقترحه على نفسه ، وتزوج هذا الشاب الأميرة أمام الكبار والصغار وكافة الشعب ، وفعلا يا حسان كان هذا الطير أعجوبة وغريبا ومدهشا للملك والوزراء والشعب ، وصفة هذا الطير يا صاحبي أنه عصفور بحجم فرخ الحمام مصنوع من الذهب والفضة بطريقة مجهولة لا يعلمها إلا صانعها الشاب بعد رب العباد .. وهذا الطير الصغير يخرج كل اثنتي عشرة ساعة أصواتا لمدة قصيرة من الزمن ؛ فإنه يضحك ثم يبكي ، ومن ثم يصفر بصوت حزين موجوع يحزن كل من يسمعه .. فعلا إنه طير مدهش لقد سمعته بنفسي .. واشترط صانع هذا الطير على الملك أن لا يحاول فكه أو العبث فيه ؛ فإن فعل فإن الطير يتعطل ويخرب ، وضع الطير في قفص ذهبي وهو في غرفة خاصة بالملك ، وحتى يرى الشعب هذه الأعجوبة وهذا الطير العجيب المضحك والمبكي والحزين جعل الملك للشعب ثلاثة أيام في السنة لمشاهدة هذا الطائر ، فيخرج هذا العصفور إلى ساحة عامة بحراسة آلاف الجنود ، يستمع إليه الناس والزوار ثم يعاد إلى غرفته في قصر الملك .. ومن الجدير بالذكر يا حسان المصري أن هذا العصفور كان يقال عنه قديما إنه يحدث أصواتا أخرى غير البكاء والضحك والحزن ..فكان يخرج منه أصوات ونغمات لبعض الطيور ، فقد حاول أحد الملوك الفضوليين الذين ورثوا العرش أن يتفحص الطائر ويعرف سره ، فقام بفك بعض الأجزاء منه ثم ندم فأعاد القطع المفكوكة لمكانها فما عاد يسمع إلا الأصوات الثلاثة فحسب ، فندم هذا الملك أشد الندم ، وكان صانع الطير ميتا ، فظل فيه ثلاثة أصوات يتوارثه السادة الملوك ، وظلت عادة

إخراجه للناس من ذلك التاريخ إلى اليوم ثلاثة أيام في السنة ، وتوقفت بعض السنين بسبب الحروب والفتن التي كانت تعصف في البلاد ، وبعد شهور قليلة يأتي ميعاد إخراجه فيمكنك مشاهدته وسماع نغماته الثلاثة .



فقال حسان بحسرة : إني أرغب بالحصول عليه وليس مشاهدته فقط .

فقال حمزة : الأمر صعب ؛ ولكنه ليس مستحيلا كما وعدتك سأحاول مساعدتك

هذه قصة الطير الذهبي العجيب ؛ ولكن هل يستطيع حسان الحصول عليه مهرا لفتاة أحلامه كما وعدها ؟ .. هذا ما سنعرفه في باقي أحداث هذه القصة .. استقر حسان في السوق ، وتعمقت علاقته بحمزة وتجار السوق ، واكترى له حمزة حانوتا يبيع فيه البخور والعطور والبهار ، واندمج حسان قريب أبي محمد في العمل والمجتمع الذي يحيا به حتى راودته نفسه بإنشاء سلالة في هذه البلاد والاستقرار بين هؤلاء الناس الطيبين؛ ولكن حنينه للأهل والوطن وتعلقه بفتاة البصرة الأميرة بدور فتاة أحلامه الجميلة منعاه من الاسترسال في هذه الأماني ، ودفعاه بالاستمرار في طريقه للحصول على الطائر الصيني .. وكان يراوده خاطرا آخر مثبطا هل يفقد حياته من أجل عيني أنثى هويها على السماع ؟.. هل تراها تستحق هذه التضحية ؟ .. لكن هذا شرط ليس تضحية .. لا يوجد إكراه .. ويمكنه الانسحاب في أي وقت.. هل يصل للملك الصيني، ويطلبه منه، ويقص عليه قصته لعله يتعطف عليه بطائر الأجداد؟ قد يشفق عليه ويهديه الطائر .. إنه ملك عادل كريم .. أم هل يسرقه؟ ولكن كيف يصل إليه ويستخلصه من بين العساكر؟ هل أستطيع استبداله بطير آخر؟ وكيف سأخرج به من البلد سالما ؟.. هل يصل به للبصرة سالما ؟

كان أكثر وقته يمضيه مع العم حمزة يفكران بحيلة يصلان بها إلى الطائر ، فلم يجدا طريقة أو وسيلة سوى سرقته يوم الاحتفال ، وهذا الحل فيه تهديد قاتل للاثنين معا .. فكيف يسرقانه من

بين آلاف الجنود والحرس ويخفيانه ؟! .. اقترب موعد الاحتفال بالعصفور وإخراجه للجماهير لينظره أهل المدينة والغرباء مدة ثلاثة أيام ازدادت معرفة الناس بحسان ، وكانوا يلقبونه الطبيب العطار ، والسبب في ذلك أنه كان يصف للمتوجعين والمرضى من أهل تلك البلاد الدواء والوصفات العلاجية من الأعشاب التي يبيعها ؛ وذلك عرفه من خبرته في مصر والتي كان يتعلمها ويسمعها من العطارين في بلاده ، وقدر الله أن تعافى على يديه عدد لا بأس به من أهل السوق ، فأصبح يطلقون عليه بسبب ذلك الطبيب العطار ، وقدر الله أن شفي على وصفاته شخص يعمل في قصر الملك طاهيا ، وفرح هذا الرجل الصيني فرحا ما عليه من مزيد عندما شفي من مرضه العسير حتى أصبح الرجل حديث الناس .

وجاء الموعد موعد ظهور العصفور العجيب في الساحة المعهودة ، وبدأ الناس يتحركون لسماع صوت العصفور ، وكان حسان في شوق لسماعه ، فساقه أبو محمد لمشاهدته ، فسارا للمكان المحتشد بالجند والعساكر ذوي الملابس الرائعة والسيوف الملونة، فكل هؤلاء العسكر جمعوا لحماية العصفور وتنظيم مرور الناس، وعندما اقترب موعد نطق الطير كان الزحام حوله شديدا ، وقد خيم الصمت على الجميع ، وكان حسان وصاحبه حمزة قد اقتربا من القفص كثيرا فشاهداه عن قرب .. ضحك العصفور فأعجب السامعون بضحكه ، ثم بدأ يبكي فبكى الناس لبكائه ، ثم أخذ في الصفير المحزن فحزن الناس لحزنه ، ذهل حسان لما يرى ويسمع ، فلما انتهى الصفير أخذ الناس يبتعدون ليحل محلهم أناس آخرون ينتظرون لحظات الاستماع ..وقفلا عائدين، وحسان وأبو حمزة مشغولان في طريقة الوصول للطير في مثل هذا الزحام والجند .. فكان حسان يرى أن ذلك من المستحيل وصعبا .. فاعترف للعم حمزة بصعوبة سرقته وإخفائه من بين كل هؤلاء الخلق ، وقد اعترف العم حمزة أيضا بصعوبة هذه الطريق ، وعجزه التام عن مساعدته فقال : أرأيت كم من العسكر حوله يا ولدي ؟! .. وحتى لو استطعنا إبداله هل يمكننا إخفائه وتهريبه للعراق؟ .

وعاد حسان إلى بيته مهموما مغموما، وفي نفس الوقت متعجبا من هذا الطير ومن صانعه ،

ويجد الأعذار للأميرة بعشقها لهذا الطائر عن بعد فكيف لو تراه ؟ .. فلم يخرج حسان في اليومين التاليين للعمل ، ولما جاءه محمد بن حمزة يسأل أخبره بتعبه وضيقه من الدنيا، وتفاجأ حسان بأبي حمزة يدخل عليه في صباح اليوم الرابع من ظهور العصفور للعوام وهو مصفر الوجه ، وقد دخل مسرعا مضطربا وهو ينادي : حسان .. حسان . فخرج إليه مسرعا ملهوفا خائفا يقول : مالك يا سيدي ؟!.. ما الذي أصابك ؟!



فقال بخوف شديد : سرق الطير الذهبي يا حسان !

جلس حسان على الأرض من هول الخبر على نفسه وكيانه ، وقال بصوت متقطع : ماذا قلت ؟! سرق الطير الذهبي .. سرق الحلم ؟!

قال حمزة بصوت كأنه البكاء : نعم ، إنها كارثة إنها مصيبة !! العسكر ملئوا المدينة ، وقد غضب الملك غضبا شديدا وأغلقت أبواب المدينة لا دخول ولا خروج حتى يظهر العصفور !

فقال حسان بخوف : إنها لمصيبة كبرى حقا ! .. من يا ترى فعلها ؟!

فردد حمزة حائرا : من يا ترى فعلها ؟! أيكون أناس مثلك جاءوا لإحضاره لتلك الأميرة التي ذكرت لي حكايتها ؟

فقال حسان : لا أعتقد ذلك .. فهي أمهلتني سنتين .. أما قصة الثلاثة الذين سبقوني فهؤلاء خرجوا ولم يعودوا .. وحكاياتهم قبل أن أخرج من مصر .

توترت المدينة الكبيرة لاختفاء العصفور ، وتعرض حراس الطير للمسألة ، وبعضهم للتعذيب لتقصيرهم في المحافظة على الطير ، والملك غضب غضبا عصيبا حتى أشرف منه على الموت فرقد في الفراش ، فقد تألم تألما كبيرا على ضياع العصفور الذي له أكثر من مائتين سنة يتوارثه الملوك، وانشغل أهل القصر بضياع العصفور وبمرض السلطان .. والناس كانوا يتكلمون باستغراب ودهشة عن الصفقة والحيلة التي تمت بها سرقة الطير رغم وجود الحرس الشديد ليلا ونهارا .. في اليوم الأخير لاستعراض الطائر العجيب أمام الناس ، فعندما جاء موعد الضحك

والبكاء والحزن سكت الطائر لا صوت ولا خبر.. اضطرب الناس والجند .. فتم نقل العصفور للقصر فورا .. ولما أتى الموعد التالي بعد اثنتي عشرة ساعة أيضا لم يتكلم .. فحص الحكماء القفص ، فكان نفس قفص الطائر الذهبي ، فنظروا الطير وأخرجوه من قفصه الذهبي .. الشكل والصورة نفس الطائر العجيب .. ولكنه شبيه به ، أخبر الملك باستبدال العصفور ، فغضب لهذه الإهانة وبدأ التحري والبحث وأصدر أمرا عاجلا بإعدام كل الحرس المسؤول عن الطائر في الساحة الكبرى .. فتشفع فيهم الكبار وطرحوا في السجن حتى تنكشف الحيلة التي أخذ فيها الطائر .. وما زالت عملية استبدال العصفور غير واضحة ولابد أنها حيلة شيطانية، ومضى أكثر من أسبوع ولم يعثر على الطير والسارق ، فازداد شحوب ومرض الملك ، وعجز أطباء القصر عن علاجه ، لقد كان هذا محبا للطير فقلبه معلق به ، فهو ميراث الأجداد والأسياد وهو قد فشل في المحافظة على هذه الطير وهذا الميراث .. ففقد الملك الشهية لتناول الطعام والشراب ، فوضع الوزير مكافأة كبيرة لمن يرشد على سارق العصفور ، وصار الأطباء يترددون على الملك لمعالجته عما ألم به من ألم شديد .. وخشي القوم عليه الموت ، وما زال وريثه الشرعي طفلا صغيرا .. وفي ليلة من الليالي والوزراء والأمراء يجلسون في غرفة الملك المريض يحدثونه بأخبار المملكة سمعوا صوت العصفور من غرفته يتكلم ويضحك ويبكي ويصفر الصفير المحزن ، فهرعوا إليه فوجدوا العصفور المستبدل يتكلم .. جاء الحكماء وقرروا أن العصفور الحقيقي أعيد ثانية ، وأن المقلد سرق واختفى .. فتسأل الجميع من سرقه وكيف أعيد ؟! فرح الملك بعودة الطير الذهبي ثم قال بكل صراحة : السارق في هذا القصر ، ولابد لي أن أعرفه ، ولابد أنه من الأمراء والوزراء .

علم الناس بعودة الطير المسروق ، فعاد الفرح والسرور لهم لعلمهم بعودة الطير للنطق ، فعم المدينة الهدوء ، وعاد الجنود لمعسكراتهم ؛ ولكن الملك لم يتعافى من المرض ، فما زال مريضا ، واجتمع مع الحكماء والخبراء وسألهم : هل أنتم متأكدون بأن العصفور استبدل ثم أعيد ثانية أم أن الأمر التبس عليكم ؟

اجمعوا جميعهم على أن العصفور استبدل ثم أعيد ثانية .. فطلب الملك رئيس الحرس وابلغه بأن عليه خلال أسبوع واحد فقط بإحضار سارق العصفور أمامه ، وأن السارق ربما قد يكون في هذا القصر .

فقال رئيس الحرس : أمر سيدي الملك .

ومضى الأسبوع فطلب الملك المعتل رئيس الحرس مرة أخرى واستفسر عن السارق فقال: يا سيدي ويا مولاي !.. عندما تسترد العافية والصحة نخبرك بالسارق .

صاح الملك : أتعرفه ولم تقل لي بعد ؟ ويلك سآمر بإعدامك .

فقال الرئيس : مولاي مرضك لا يسمح لنا بأخبارك .

زاد اضطراب الملك وقال : لابد أن تقول حتى لو كان ابني !!

قال بتردد : مولاي .. لا أدري ما أقول ! ولكني سأخبرك رغما عني .

فصاح الملك بغضب وتوتر شديدين : قل أيها الجندي ؟

همس الرجل بصوت ناعم : الملكة يا مولاي الملكة !

فهمس الملك : زوجتي .. زوجتي ؟!!

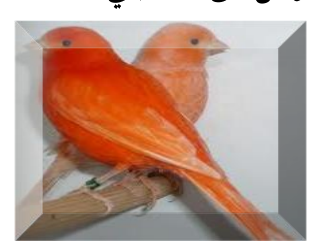
قال الحارس : نعم يا مولاي ! مولاتنا الملكة هي التي سرقت العصفور ثم أعادته ثانية .

فلما استوعب الملك الخبر صدم وأغمي عليه فعالجوه ، ولما استيقظ همس قائلا : ولماذا الخيانة لماذا فعلت ذلك ؟! وما ذنب الرجال الذين امرنا بإعدامهم لولا تدخل الوزراء ؟! .. إنها مجرمة مجرمة ..

وطلبها الملك وهو مشرف على الموت وسألها عن سبب ذلك ، فأخبرته واعترفت بأنها هي التي استبدلت العصفور بآخر مثله لا يتكلم لرغبة عشيقها بالحصول على هذا العصفور ـ وكان الظن أن لا يستطيع الحكماء التمييز بين العصفورين ، ويعتقدون أنه تعطل وتوقف ، ومن المعروف أنه لا يمكن تصليحه لاعتقادهم ذلك الأمر منذ صناعته الأولى ، وأنه إذا فك شيئا منه لا يعود كما كان ، وعندما حاول أحد أجداد الملك فكه تعطلت منه تسع نغمات ، ويحزن عليه

الملك حينا ثم يصبح أمره نسيا منسيا ـ والملك كان يعلم أن زوجته تعشق أحد وزرائه ؛ لأنه أيضا يعشق زوجة ذلك الوزير ، وهذا أمر مستساغ في البلاط الصيني .. فلما سمع الملك اعترافها أمر بحبسها حتى يشفى من مرضه وينظر في أمرها ، وأمر أيضا بالقبض على الوزير العاشق المتواطىء ، فهدأت عاصفة سرقة الطير قليلا ؛ ولكن الملك ما زال مريضا ويهزل يوما بعد يوم ، ومضى شهر ولم يستطع الأطباء شفاءه ، فتشجع الطاهي الذي عالجه حسان وأخبره بأن هناك شابا عربيا اسمه حسان وصل البلاد منذ عهد قريب ، وهو يعمل في العطارة والأعشاب وماهر في وصف الأدوية فقال الملك مشجعا له : أحضره لي .

ذهب الطاهي في قصر الملك لسوق العطارين وإلى حسان بالذات وأطلعه على رغبة الملك برؤيته ليحاول علاجه ، فتعجب حسان للقدر ، وحدث الشيخ حمزة بذلك فضحك وعلق قائلا : أراك أصبحت طبيبا للملوك؟ توكل على الله يا بني !



انطلق حسان برفقة الطاهي إلى قصر الملك ، فأحسنوا الترحيب به ، وأدخلوه على الملك العليل الذي تحدث معه بلطف حتى هدأ روع الفتى حسان وقال له: سمعت أنك تحسن المداواة أيها الشاب.. فإذا استطعت أن ترد لي عافيتي فاطلب مني ما تشاء ولو كان ملكي .

فدعا حسان في نفسه متوسلا إلى الله " يا رب ساعدني على ذلك " ثم رد على الملك : سأحاول يا مولاي الملك! وأرجو من ربي أن يشفيك كما شفا سيدنا الطاهي من مرضه العسير .

وتقدم حسان ووضع يدع على صدر الملك وظهره وجبينه ، وكان حسان يعلم أن سبب مرض الملك حزنه على العصفور المفقود ، ولما انتهى من جس الملك قال : يا مولاي الملك ! .. قد يستغرق العلاج وقتا ليس قصيرا وبإذن الله ستشفى .

فقال الملك باستسلام : افعل ما تراه مناسبا المهم أن نشفى ولك ما يرضيك .

قام حسان المصري برقية الملك كما كانوا يرقون أنفسهم ببلادهم فقرأ عليه ما يحفظ من آيات القران ، ثم قال : سأصنع لكم دواء يا مولاي .. هل تأذن لي بالانصراف ؟

فقال الملك : انصرف لتصنع لنا الدواء فنحن بانتظار دوائك .

صنع حسان بعض التركيبات من الأعشاب التي تنفع المحزون ، وبعض التركيبات التي تساعد على فتح الشهية للطعام .. وما مضى شهر حتى تحسنت صحة الملك ، وفرح الجميع بعافية الملك وسر حسان بتوفيق الله له ، وفرح الشعب لشفاء ملكهم ، وبعد نهاية الشهر الثاني عادت للملك صحته السابقة وقوته وحيويته ، وأحضر حسان بين يدي الملك ليكافئه فقال له : اطلب منا ما شئت ؟

فقال حسان بصوت متهدج من الفرح : اطلب يا مولاي سلامتك فقط .

فقال الملك : بوركت أيها الشاب ولكن اطلب لدنياك أيضا ؟

فقال حسان بتردد : قد يندم مولاي لطلبي .

فقال الملك بحماس : لو طلبت أن تصبح ملكا جعلتك ملكا.. لقد ردت لي الحياة على يديك

فقال حسان : لا أريد أن أصير ملكا يا مولاي! ولكني أريد الطير الذهبي لقد رأيته في الميدان وأعجبني .

تغير لون الملك ثم قال : لقد طلبت طلبا عجيبا ما خطر على بالي .. وماذا ستفعل به ؟ .. أنا اشتريه منك بما تشاء من الذهب .

فقال حسان : أنت قلت لي اطلب ما شئت وسأذكر لك قصتي ..

واستمع الملك لقصة حسان من بدايتها لآخرها ، وعجب لها كل العجب وتعجب للأقدار والأحداث التي أوصلته إليه، فلما انتهى من ذلك قال الملك : سوف أهديك الطائر لتذهب به إلى محبوبتك ، واستغني عنه رغم حبي الشديد له .. ولكنه كان سبب مرضي ، وكاد يوردني الموت ، وستكتب قصتك عندنا في صحفنا

فنهض حسان يقبل يدي الملك ويشكره ، ووضعوا له الطير في صندوق زجاجي متقن الإغلاق

حتى لا يسمع أحد صوت العصفور عند موعد الكلام ، ولا يلفت إليه الأنظار، وأمر الملك بتجهيز مركب له ، وأعطاه من المال أحسنه، ومكث حسان مدة من الزمن ، ثم ودع فيها المعارف والأصحاب والإخوان والملك ، وركب المركب التي انطلقت من بحر الصين نحو العراق ، فكان حسان سعيدا بحصوله على الطائر الذهبي ، فيشكر الله ويحمده ليلا ونهارا الذي سخر له ذلك وسهل الأمر له، وأن هذا من عجيب الاتفاق وتدبير رب الآفاق ، وبدعوات أمه وأبيه الصالحات، وبكثرة الصدقات في كل الأوقات والمناسبات ، كان حسان خائفا على العصفور من الضياع والغرق ، وكان بحارة المركب الصيني يظنون أنه يحمل رسالة لملك العراق وهدية خاصة في ذلك الصندوق الملفوف بأجمل القماش وأجوده .. الرحلة لم تكن بالقصيرة ولا بالسهلة إنها رحلة في بحر وفي ذلك الزمان .. الريح العواصف لصوص البحر ، نزل القوم بعد مسيرة أسبوعين من الزمن في جزيرة ليستريحوا ويشترون الطعام .. أخرج حسان الصندوق الزجاجي الصغير ودفنه في الأرض وجعل عنده علامة ، لقد خاف عليه من السرقة ونوائب الأيام ، ودخلوا الجزيرة وهم يلبسون لباس البحارة ، فلما رآهم سكان الجزيرة ساقوهم لملكهم ، وكان سكان هذه الجزيرة من ذوي الألوان السوداء وذوي القامات القصيرة ، ولما تمثلوا بين يدي الملك قال لهم : من أي البلاد أنتم ؟ ومن أين أنتم قادمون ؟!

ردوا أنهم من بلاد الصين وأنهم رسل ملك الصين إلى ملك العراق ، فسخر الملك الأسمر القصير منهم وقال : أيها السادة قررنا بقاءكم عندنا ، ألا تعلمون أنه من يدخل جزيرتنا عليه أن يبقى لدينا سنة قبل أن نسمح له بالسفر ، ولقد أعجبتني المركب التي تركبونها فهي هدية لي ثم نادى الملك الأسمر أحد الرجال وأمره أن يسير بهم للحقول ليشاركوا الفلاحين في جني الثمار ، وحذرهم من الهرب وبين لهم عقاب من يفعل ذلك فهو معرض للموت ، وقادهم الجند إلى فلاح وأخبروه برغبة الملك بشأنهم ، وعندئذ تساقطت الدموع من عيني حسان، وعاد يندب حظه السيئ ، فتعرض للضرب بالسياط والشتم ورضخ للعمل في جني الثمار من أعلى الأشجار واستسلم للأمر الواقع ، ولاحظ أن سكان الجزيرة قليلون ؛ ولكنهم قساة القلوب لا يرحمون

الغريب ، وأثناء عمله في الحقول لاحظ عددا لا بأس به من الغرباء بينهم ، فصمم في نفسه أن ينظمهم ويحاولون السيطرة بهم على الجزيرة ، وبدأ يتصل بهم ويعرض عليه فكرته العنيفة بحذر شديد وتأن، وما انقضى نصف سنة حتى هيأ مائة رجل قد وافقوا على أفكاره بالتمرد على أهل الجزيرة .

وكان حسان أيضا خلال هذه الفترة يتقرب لملك الجزيرة فانجذب إليه الأخير واستساغ حديثه وقد اتفق حسان والرجال أن يتخلصوا من الملك يوم الاحتفال الكبير ، وفي ذلك اليوم المشؤوم على أهل هذه الجزيرة تجمع الناس في مكان واسع ، فأخذت النساء بالرقص والغناء ، والرجال بالشراب المسكر ، وكثر الزعيق والصياح والهرج ، وكانت الإشارة أن يقتل حسان الملك ، ومن ثم يهجم الرجال المتآمرون بالسيوف والخناجر ، ويقتلون كل من يقع بين أيديهم من رجال الجزيرة القصار القامات ، ومع عصر ذلك النهار تقدم حسان متظاهرا بالسكر وفقدان العقل نحو الملك ، وهو يحمل بين يديه فتاة صغيرة قام بوضعها أمام الملك الأسمر الذي نهض بدوره ليعانق الفتاة أمام الناس ليبدأ تعانق الرجال والنساء ، فلما انحنى الرجل عليها ليقبلها طعنه حسان بخنجره الطويل المسموم ، وهجم على رجاله السكارى وهو يصيح هائجا مائجا ، ودخل اتباع حسان المكان ، وكانت ملحمة مرعبة دب فيها الصراخ والعويل والنواح والتراكض ، وما حل الظلام حتى كانت الساحة ممتلئة بالقتلى والجرحى والدماء ، واجتمع الرجال الأغراب حول حسان وشكروه على شجاعته وجرأته فقال بغضب : علينا أن نطهر الجزيرة منهم .. ثم نجهز المراكب والسفن ونخرج من الجزيرة قبل أن ينتشر المرض والوباء .

قام الأسرى بقتل كل من وجدوه من سكان الجزيرة الذكور ، ومن اختفى نجا ، واحتل الرجال القصر قصر الملك الأسمر ، واخرجوا ما فيه من أموال ووزعوها على أنفسهم ، وجهزوا المراكب ، وركب حسان والصينيون مركبهم مركب ملك الصين ، وأخذ صندوقه المخفي ، وودع القوم وركبوا البحر ، والنساء تقذف عليهم الحجارة والسهام ، ومضت المراكب في لجاج البحر ، وكان حسان يهمس لنفسه قائلا : هذه أول مرة اضطر فيها للقتل والغوص في الدماء!

لا حول ولا قوة إلا بالله .. اللهم أوصلني لبلدي سالما .

ولكن الحاجة للتزود بالطعام والماء الصالح للشرب كانت تدفعهم إلى النزول على سواحل المدن والبحر والجزر ، فنزلوا بالقرب من مدينة على ساحل البحر، ودفن حسان صندوقه في مكان خارج السفينة ، ووضع له علامة مميزة ، ودخلوا المدينة وكانوا أيضا بلباس بلاد الصين وقابلتهم عجوز فسألوها عن مكان ينامون فيه ويشترون الطعام منه فقالت لهم العجوز محذرة : أهل المدينة خارجها يحتفلون عند الآلهة فالأفضل لكم أيها السادة أن تنجوا بأنفسكم قبل أن يعودوا فتهلكوا .

ولكن قد جاءت النصيحة متأخرة ، فقد كان الكثير من الناس قد انصرفوا من عند صنمهم فأدركوهم وقبضوا عليهم ، وطرحوهم في السجن حتى يعود الملك من عند الصنم وينتهي الاحتفال ، اعلم الملك بأسر غرباء وأنهم أودعوا جب السجن ، فأمر بإحضارهم سريعا للمثول بين يديه ، فلما تمثلوا بين يديه قال لهم : من أين انتم يا رجال ؟

فرد قائد المركب : نحن رسل ملك الصين العظيم لملك العراق ، ونحن نزلنا سواحل المدينة لشراء الطعام والماء ثم متابعة السفر .

فقال الملك بقسوة وجفاء: أنتم ضيوفنا .. وغدا سأنظر في أمركم خذوهم إلى الجب وقدموا لهم الطعام والشراب ، واحذروا من هربهم أيها الجنود ، وليكونوا بين يدي غدا صباحا .

ولما أحضروهم بين يدي الملك الذي أخبرهم بأنهم أصبحوا عبيدا عنده وأشار لحسان: هذا العبد فليعمل في القصر.. والآخرون في البساتين وزرائب الحيوان..وإياكم ومحاولة الهرب.. فنحن نسترق الغريب .. من وطىء بلادنا أصبح لنا رقيق ، ومن تمرد ورفض فنطعمه للوحوش التي في حوزتنا .

ادخلوا حسان على الطاهي حتى يتعلم منه طهو طعام السادة ، ووجد حسان الطاهي رجلا غريبا مثله ؛ ولكن له زمن طويل لدى الملك ، فنسي نفسه وأهله وأقاربه ورضي أن يعيش في قصر الملك طباخا ، وأخذ يقنع ويرغب حسان بهذه الحياة ؛ والذي دفع الملك أن يرسل حسان

للقصر هو حاجة القصر إلى طاهي جديد يساعد الطاهي القديم ؛ لأن مساعده قد مات من عهد قريب ، فلما سمع الطاهي بوجود أسرى جدد ذكر الملك بحاجته لطاهي ، فاختار له الشاب حسان ، فأتقن حسان عمله الجديد ، وأصبح طاهيا ممتازا ، وصار يقدم الطعام للملك بنفسه وارتاح له الملك ولمسامرته ، واتفق حسان والرجال الصينيون على تدبير حيلة للهرب ، وذلك عندما يكون عند القوم احتفال بمعبودهم ، وعلى كل منهم أن يتظاهر بالمرض أو حيلة قبل الاحتفال بأيام ليهربوا ، وقبل الاحتفال بأيام ظهر على حسان الوجع والألم وملازمة الفراش ، فجزع الملك على خادمه وطاهيه الجديد ، وأرسل له طبيبه الخاص ، ونجح حسان بإظهار المرض على نفسه ، وعندما تحرك الناس للاحتفال تحرك حسان ورجال المركب إلى البحر ، وكان الرجال قد جهزوا المركب على حين غفلة من الناس ، وزودوه بالطعام والماء ، وأخرج حسان الصندوق الزجاجي وركبوا البحر ، فلما عاد القوم من أعيادهم والاحتفال فلم يجدوا حسان ولا أصحابه فأصاب الملك الندم والأسف فقال بسخط ونقمة : غدر بي اللعين ! وسخر من ذكائي !

وأمر أعوانه بمطاردتهم ، ولكن هيهات هيهات أن يدركوهم .



الملك حسان

ومضت مركب القوم تجوب عباب البحر يمينا ويسارا ، وصمدت أمام الرياح والعواصف حتى ألقت بها موجة كبيرة في رمال جزيرة خضراء ، ولكنهم خافوا أن تكون الجزيرة مسكونة بالأشرار ويحدث لهم ما حدث معهم سابقا ، فمع بزوغ الفجر دفعوا المركب حيث الماء، وما كادوا يبتعدون حتى لمحوا أناسا يركضون نحوهم ويصرخون عليهم ، فلم يهتموا بهم ومضوا يقطعون المياه قطعا ، وقد ساعدتهم الريح بالابتعاد عن الجزيرة ، ولكنها ألقت بهم مرة أخرى بجزيرة بوسط البحر ، وقد تحطمت المركب عندما اصطدمت بصخرة صلبة ضخمة ؛ ولكنهم سقطوا على الأعشاب الخضراء ، ولما أشرقت الشمس وجد حسان أحد الرجال ميتا ، وآخر مغمى عليه ، فقاموا بعلاجه ثم دفنوا الميت في الأرض ، ودفن صندوقه في مكان معلوم لديه ، وكان حسان يحمل الصندوق أثناء سير المركب على وسطه خوفا من ضياعه لطارئ ما وبينما هم منشغلون بلملمة جراحهم أحاط بهم رجال يحملون رماحا قصيرة ، وساقوهم لسيدهم ملك هذه الجزيرة وسيدها ، وكانوا محطمين متعبين من أثر الرضوض التي أصابتهم ولما وصلوا بهم للملك سر بهم وأعلن الاحتفال بمقدمهم ، وسمع لحكايتهم وحديثهم وأمر أعوانه بمعالجتهم وخدمتهم حتى يستردوا صحتهم وقوتهم ، وبعد حين من الزمان تم شفاؤهم شفاء تاما ، فاجتمع بهم الملك وطلب منهم قص حكايتهم مرة أخرى ، فلما سمعها ثانية فقال الملك لحسان العربي : أيها الشاب سأجعلك نائبا لي تحكم هؤلاء القوم .. سأقوم برحلة تستغرق وقتا طويلا .. فعليك أن تحسن الحكم

وتعدل بينهم حتى أعود .. وإياك والهرب ، وسآخذ بعض أصدقائك معي .

اعلم ملك الجزيرة شعب الجزيرة بأنه جعل حسان نائبا له ريثما يعود وعليهم بطاعته ؛ لأنه سيزور ابن عم له في جزيرة أخرى ، فأصبح حسان السيد المطلق في الجزيرة حتى يؤوب الملك من زيارة ابن عمه ، سافر الملك وحمل في مركبه عددا من أصحاب حسان الصينيين ، عند الفجر وحسان يصلي الفجر سمع صراخا أمام القصر ، فلما أنهى الصلاة نظر من غرفته إلى الصراخ ،

ثم أمر حارس الباب بإدخال الناس عليه ، ودخل معهم رئيس الحرس فقال له حسان : ما هذا الصراخ أيها الرجل ؟! ..

فقال رئيس الحرس : مولاي الملك ! .. امرأة تقول أن زوجها قتل .. وتريد محادثتك .. فذكرنا لها أن الملك نائم ومع شروق الشمس نأذن لك بالدخول .. فأخذت بالبكاء والصراخ..

فتبسم حسان لقول الحارس له " مولاي الملك " فخاطب نفسه متهكما منها " هل يعقل أن أكون ملكا ؟ ولماذا لا أجرب الملك يوما ؟!

ثم أجاب رئيس الحرس قائلا : أيها الرجل .. في كل وقت ليلا ونهارا ادخل من يريد مقابلتي ولا تؤخرهم البتة .. دعها تدخل .

وقفت المرأة الباكية بين يدي الملك الجديد أو نائب الملك فصاحت:مولاي الملك قتل زوجي !

فقال لها بهدوء : اهدئي واذكري قصتك وشكايتك بالتفصيل .. ومن قتل زوجك ؟

مسحت دموعها وقالت : أبناء عمه .. جاءوا الليلة الماضية إليه وقتلوه .

فقال حسان : ولماذا قتلوه ؟!

فقالت : قتلوه لأنه رفض أن يقرضهم من ماله فتشاجروا فذبحوه حتى الموت ..

فقال حسان مخاطبا رئيس حرسه : حسنا أيتها المرأة ، يا رئيس الحرس أحضر لي أبناء عم زوج هذه المرأة .

فقال رئيس الحرس : أنا ابن عم زوج هذه المرأة .

فقال حسان بدهشة : آنت ابن عم زوجها؟ .. أسمعت ما قالت ؟!

رد الحرسي فقال : نعم .. يا مولاي سمعتها وهي صادقة فيما قالت ، تشاجر زوجها معنا فقمنا بذبحه لأنه لم يقرضنا مالا .

فقال حسان : أكنت معهم ؟ قال : نعم .

فقال حسان : وتركت حراسة القصر وذهبت لتشارك في قتل زوجها ؟

فقال الحرسي : مولاي .. ذهبت لأساعدهم في الحصول على القرض ، ثم تشاجروا ولو لم

يقتلوه لقتلهم .

فنهض حسان وتمشى في الغرفة قليلا ثم قال : أريد أن أرى جثة القتيل .. هيا بنا أيتها المرأة إلى بيتك.

وانطلقوا إلى بيت المرأة فلم يجدوا جثة القتيل ، فسأل الجيران عنها فقالوا : ألقيناها في البحر كالعادة .

فدار حسان حول كوخ المرأة وتفحص الأرض ثم قال لرئيس الحرس ومن معه من الحرس : ما حكم القاتل عندكم ؟

فقال أحدهم : القاتل يقتل .

فقال حسان : يا رئيس الحرس احضر لي أبناء عمك الذين شاركوا في قتل زوج هذه المرأة ، وائتوني إلى القصر لأنظر في الأمر عجل بذلك ولا تتأخر .

وبعد ساعة من الزمن كان أهل البلد يتجمعون أمام القصر ، وحضر الرئيس وأقاربه أمام الملك الجديد، وسألهم عن سبب قتلهم لابن عمهم ، فذكروا ما ذكر رئيس الحرس فقال حسان : أعندكم قضاة ؟

فقالوا : لا .. الملك هو السيد المطلق يقضي ويحكم ويزوج وكل الأمور بيديه .

فقال حسان : أيها السادة .. أعندكم سجن ؟

قالوا : نعم . فقال : اسجنوا المرأة في السجن حتى يعود الملك الكبير ويقضي في قضيتكم .. وكذلك اسجنوا رئيس الحرس وأبناء عمه حتى يعود سيدكم فقد قضيت بينكم .

فقام الحرس باعتقال رئيس الحرس وأبناء عمه ووضعوهم في السجن، ووضعت المرأة في سجن خاص ، واشتغل حسان بقضايا الناس وحل مشاكلهم ومشاجراتهم والمشاركة في تزويجهم ، وفكره مشغول بالهرب والنجاة من هذه الجزيرة ، فلا يجد فرصة فالعيون عليه ، ولا سفينة نزلت بهذه الجزيرة منذ أن تحطمت سفينتهم على شواطئها ، واستمر في الحكم على مضض ، وقد طالت غيبة الملك ، فآتاه أهل البلد وطلبوا منه العفو عن السجناء كما أفرج عن المرأة .

فقال لهم : أنا لم اعف عن المرأة .. إنها أخرجتها من السجن حتى يعود الملك ويرى فيها رأيه .. وعلى كل حال سأطلق سراحهم حتى يأتي ملككم .

وسمع صراخ على باب القصر فسأل عنه ، فقيل له أن سفينة جنحت على الجزيرة ، فأصدر أمره لهم بعدم التعرض لها بسوء، وخرج بنفسه لمشاهدة السفينة، وكان الناس قد أحاطوا بركاب السفينة وهم يحملون رماحهم وعصيهم ، وأولئك خائفون منهم ، ثم سمعهم يصيحون ويصرخون : جاء الملك .. جاء الملك !!

فقال في نفسه " ويحي هل أصلح أن أكون ملكا ؟"

افسحوا له الطريق فنزل عن الجواد ، ثم قال مخاطبا الناس : ابتعدوا عودوا لعملكم وليبق الحرس فقط .

ثم قال : من ربان السفينة ؟ .. لا تخافوا أيها البشر نحن بشر مثلكم !

فتقدم رجل غليظ وقصير البدن وقال : أنا صاحب هذه السفينة يا سيدي الملك .

فقال حسان : من أي البلاد أنت قادم ؟!

فقال : من بصرة العراق .

خفق فؤاد حسان وصاح : من البصرة ؟!

فقال الرجل : أتعرفها أيها الملك ؟!

فقال حسان وهو يتراءى البصرة والأميرة البصرية : نعم أعرفها أيها السيد ..أأنت بصري ؟

فقال الرجل : أنا من أهلها ؟

فقال حسان : وهؤلاء ؟

فرد الربان قائلا : هؤلاء مسافرون إلى الهند ..ثلاثون رجلا وامرأتان .. دفعت بنا عاصفة ورياح قوية للجنوح إلى هذه الجزيرة .

فقال حسان : أيها القوم أنا نائب ملك هذه الجزيرة .. وإنني أرحب بكم في قصر الملك أم تحبون الرحيل ؟ ولكني راغب بالحديث معك أيها البصري .. فمر بحارتك بإصلاح الأشرعة

والاعطاب حتى أسمع منك أخبار البصرة ؟

وأمر الملك الحرس بالعودة إلى القصر، ثم أخذ البحارة بإصلاح الأشرعة والصواري ، وسار حسان بالبصري حتى ابتعدا عن الجميع ثم قال: حدثني عن البصرة وكيف هي ؟

فرد البحار : بخير .. هل تريد أن تعرف أخبار شخص ما ؟!

فقال حسان : أتعرف جعفر الموج ؟

فصاح الرجل بفرح وتهليل : ومن لا يعرف التاجر جعفرا ؟

فقال حسان: هو صديقي .. وهل تعرف أميرة البصرة بدور ابنة والي وأمير البصرة ؟

فكان البحار في دهشة فقال : لكأنك بصري أيها الشاب ..ومن لا يعرف تلك الأميرة يا سيدي ؟

فقال حسان : ما أخبارها ؟ هل تزوجت أم ما زالت تطلب الطير الذهبي مهرا لها ؟

فصاح الرجل من جديد : إنك تعرف البصرة وقصصها أكثر مني أيها الملك .. هذا ما تشترطه تلك الأميرة على من يريد الاقتران بها ؛ ولكنها اليوم قد تركت البصرة وذهبت من سنتين أو أكثر ..

ارتفع خفقان فؤاد العاشق وقال : ذهبت إلى أين ؟!

فقال الربان : ألك بها معرفة يا سيدي ؟

فقال حسان بشوق : أعرفها جيدا وجلست معها وسمعت حديثها .

ثم قال: والآن لا تقلق . قل لي ما أخبارها ؟.. لتسافروا قبل عودة الملك وتتعرضوا للأذى؟

فقال البحار البصري : هذه المرأة قد مات والدها الوالي منذ سنوات فعين ملك بغداد عاملا جديدا مكانه فغادرت وهاجرت إلى بغداد .. وقد سمعنا أن أحوالها قد تغيرت منذ قدم شاب مصري من مصر وطلبها من أبيها ، وكعادتهم أرسلوه ليأتي لهم بالطير الذهبي من بلاد الصين وسافر ولم يعد بعد .. وقالوا إن الأميرة بعد سفره ندمت وإنها وقعت في هواه ، فبحثت عنه لتتزوجه من غير قيد أو شرط ولكن المصري أسرع بالسفر .. وبعدما مات والدها نزلت وأهلها

بغداد وانقطعت أخبارها عن البصرة ؛ ولكننا سمعنا أن أحد أبناء الوزراء أو الأمراء تزوجها والآن قل لي ما علاقتك بهذه الحسناء ؟

بلع حسان ريقه ثم قال للربان : جزاك الله خيرا .. أنا الشاب المصري الذي رحل للصين لجلب العصفور الذهبي ..وقد تيسر لي جلب هذا الطير ولكن المركب تحطمت ورمتنا على هذه الجزيرة وقص عليه بعض قصته ثم قال : ولكن قدر الله كان مقدورا .. فإن عدت للبصرة فسلم لي على سيدي الشيخ جعفر وأخبره أن حسان المصري يهديه أفضل السلام .. وأسرع بالرحيل عن الجزيرة قبل عودة الملك ..ولو كنتم ذاهبين للبصرة لرافقتكم وهربت معكم ..



عاد حسان للقصر بعدما ركب الركاب وانطلقوا في البحر ، ودخل حسان القصر حزينا لا أحد يستطيع الحديث معه ، فدخل غرفته وأخذ بالبكاء حتى سمع بكائه كل من في القصر ، وهم لا يعرفون سبب بكائه إلا أنهم رأوا ذلك بعدما جلس مع ركاب السفينة ، ثم قال مواسيا لنفسه : لي أكثر من خمس سنوات مفارق للبصرة ، وقد اتفقنا على سنتين وقد مضت السنتان ، فهي معذورة إذا نكحت رجلا غيري ؛ وإن قدر الله لي رؤيتها سأهبها الطير ، وأبارك لها في زوجها ، والحمد لله على كل حال .

عاد الملك بعد رحلة طويلة ، فخرج الناس لاستقباله وعلى رأسهم حسان ، وبعدما وصل الملك لقصره ، وجلس على كرسيه ، فأخبره حسان عن أحوال الجزيرة، وحدثه بما جرى منذ غيابه ، وذكر له قصة القتيل ورئيس الحرس ، وتجاهل قصة السفينة البصرية التي جنحت على ساحل الجزيرة ؛ ولكن الملك علم بها ، وسأل حسان عنها، ولماذا لم يسترقوا رجالها ؟ فرد عليه حسان بغيظ : ألم أكن الملك ؟! فقد عفوت عنهم .

فصاح الملك قائلا : هذا ليس من حقك كان عليك أن تحتجزهم حتى أعود .

فرد حسان بتحد : أشفقت عليهم .

فصاح الملك من جديد : نحن قلوبنا لا تعرف الشفقة على الأغراب .. هذا خطأ كبير

وستعاقب عليه .. ولقد فتكت بأصحابك الصينيين الذين رافقوني في رحلتي .

فصاح حسان بحدة : ولماذا ؟!

فرد الملك بتعجرف : لقد أغضبوني فطعنتهم بخنجري هذا فماتوا ..

خطف حسان الخنجر منه وطعنه به فأرداه قتيلا، وقتل من تمرد من أعوانه، وأعلن نفسه ملكا على البلاد ، وكان حسان قد استمال رجالا من الحرس قبل عودة الملك ، وكان قد استعد لمثل هذا اليوم ، وخضعت له الجزيرة ، فوهب رجاله المال والنساء ، وكان قد استمال كثيرا من الغرباء للوقوف معه ، وبعدما هدأت عاصفة مقتل ملك الجزيرة ، وقد نجح حسان في السيطرة على الجزيرة ، واستولى على مركب الملك ، وجهزها للرحيل ، واستعد من ظل حيا من البحارة الصينيين للرحيل معه ، وأعلن في اجتماع عام لأهل الجزيرة برغبته في الرحيل وهجر الجزيرة ، وأعلن أيضا أن كل شخص يريد السفر وترك الجزيرة فليستعد لذلك ؛ فكل الغرباء ابدوا رغبتهم بالرحيل معه وترك هذا المكان ، فعين لهم ملكا جديدا ممن ساعدوه في السيطرة على الجزيرة ، وكان حسان قد نشر تعاليم الإسلام التي يعرفها بينهم ، فعلمهم الصلاة والصيام وبعض سور القران ، ثم ودعهم وداعا حارا خاصة الذين أحبوه وأحبهم ، فتركهم يعبدون الله ويحبون الدين الجديد ، وسافر على دموعهم الحارة على فراقه ، وأوصى ملكهم الجديد على إكرام كل مركب أو سفينة تنزل بلادهم، وحثه ورغبه على عدم ظلم الرعية والإحسان للجميع الذكر والأنثى والصغير والكبير .

وطارت بهم السفينة بين أمواج البحر الهائلة ، وكان حسان قد استخرج صندوقه الدفين صندوق الزجاج ، واستمرت الرحلة عشرة أيام بدون مشاكل وعواصف أو نقص بالماء والطعام حتى رسوا على شاطئ مدينة ساحلية ، فوجدوا أن أهلها مسلمون ففرحوا بذلك فابتاعوا طعاما ، ولم يمسهم أحد بسوء ، وسألوا عن طريق البصرة ، ثم استأجروا ربانا ومساعديه ليستطيع أن يقودهم للبصرة وسواحل الخليج وقال لهم حسان : دلونا على العراق سالمين ولكم هذه السفينة جزاء وفاقا .

وكان بعض الغرباء نزلوا المدينة وتركوا أهل السفينة ، وبعدما تزود أهل السفينة بالقوت والماء الطيب دخلوا عرض البحر متجهين للعراق عن طريق الخليج العربي ، وكانت السفن في ذلك الزمان تعتمد في قطع الأميال على قوة الرياح واتجاهها ، وبالطبع البحر كثير العواصف والأخطار وارتفاع الأمواج ، فخاضت سفينة حسان عواصف هوجاء ، واصطدمت بسفينة في عرض البحر ؛ ولكنها لم تتعرض للانشطار ؛ وإنما اتخذوا قرارا بالهبوط في أقرب مكان لمعالجتها وإصلاح الأضرار التي لحقت بها جراء الصدمة ، فاقتربوا من أحد السواحل ، فقام الربان ومساعدوه بتصليح العطب الذي أصابها ، ولما تم لهم ذلك عادوا إلى جوف البحر يواصلون الرحلة إلى سواحل الخليج التي لم يبق للوصول إليها سوى بضعة أسابيع وشاء القدر أن يضرب البحر إعصارا ، فاندفعت السفينة إلى وسط البحر الكبير وارتفع الدعاء والاستغفار والتوبة للواحد القهار ، ونجت السفينة بفضل الله من الدمار ؛ ولكنها رست في وسط جزيرة بحرية كثيرة الثمار ، فهبطوا إلى الأرض لشكر الملك الجبار ، واتفقوا على البقاء فيها حتى تخف حدة الإعصار ويستطيعون غوص البحار ، وكانت الجزيرة جميلة وكثيرة الخضرة والأزهار والأشجار ، وكالعادة دفن حسان صندوقه الزجاجي خفية عن الركاب ، وقام الركاب بالتفرج على الجزيرة بالقرب من السفينة ، فشاهدوا الأطيار الكثيرة والغريبة الأشكال والأصوات ، وتمتعوا بأكل الفواكه والطيبات ؛ ولكنهم فجأة سمعوا زئير سبع الغاب ، فتراكضوا إلى السفينة قبل ظهوره مسرعين خائفين ، وتسلق حسان إحدى الأشجار فأحاطت به الوحوش من كل مكان ، فاستغفر الرحمن وطلب النجدة والعون على نوائب الأيام من رب الكون الحكيم العلام ، وأمضى ليله بين أغصان الأشجار، ولما أشرقت الشمس أخذت تلك الحيوانات تنسحب من حول السفينة والأشجار إلا سبعا واحدا نام تحت شجرة حسان ولم يتحرك كباقي القطعان ، فأسقط عليه ثمرة فزمجر زمجرة تردد صداها في كل الجزيرة ، فكرر الرمي لعله ينصرف ، فابتعد وهو حانق على هذا الجاني ، ومشى حسان بين

الأشجار والأغصان حذرا من غدر ذلك السبع حتى وصل إلى القوم المتحصنين في السفينة ، وذهب حيث الصندوق الزجاجي وأخرجه بقلق وتوتر وقفز بسرعة إلى الماء ، وقد شعر به ذلك السبع فانقض عليه؛ ولكن بعد فوات الأوان ، وحسان قد غطس في الماء ، فنجا من بين براثن الأسد وإلا لتغذى عليه وافترسه ، وانتشل البحارة حسان وإلى المركب رفعوه ، وفكوا الحبال فعادت السفينة للبحر ، ووقفت الوحوش تنظر إليهم من أطراف الماء ؛ كأنها مودعة لهم أو نادمة على أنها لم تكسب ضحية منهم، وابتعدوا عن الوحوش الضارية التي تملأ هذه الجزيرة ، وحسان يعجب لقدرة القادر وخالق هذه الأكوان ، ففي بعض الجزر يتعرضون لخطر بني الإنسان، وأخرى يأتي الخطر من الحيوان، وسارت السفينة بهدوء لسكون الإعصار ، وسعدوا وفرحوا عندما دخلوا الخليج ، ونزلوا على أحد المواني للتزود بالقوت والماء الصالح للشرب ، وبعد حين ركب من ركب معهم إلى العراق ، وبعد أيام كان حسان في الميناء القريب من مدينة البصرة فخر ساجدا حامدا للرحمن على عودته لهذه المدينة العربية سالما بعد بضع سنوات، وودع القوم ودفع المركب للربان وزبانيته، واستأجر حمارا إلى البصرة وإلى سوق التجار ، وهو في شوق ليرى صديقه جعفر الموج ، وكم سر ذاك عندما رآه حيا يجلس في باب الدكان ! فسلم عليه سلام الأحباب بعد طول غياب فقال جعفر الموج : والله هذا الصوت ليس غريبا عني .. من ؟ حسان المصري ! .

وتعانق الرجلان واحتضنه حسان ورحب جعفر به وقال : الله أكبر ! أما زلت على قيد الحيات؟!.. لقد قطعنا الأمل منذ سنوات .. ألف ألف الحمد لله على السلامة .

بكى حسان وقال : جئت إليك مسرعا من البحر، وكلي شوق إليكم ، لي أكثر من خمس سنوات مضت في البحار والقفار والأمصار .

فقال جعفر ورنة الحزن في صوته : أهلا وسهلا .. فلنذهب إلى البيت وتستريح ثم نسمع منك كل الأخبار .

وأخذه معه للبيت ، وأدخله الحمام فأزال أدران السفر وتناولا الطعام ، وسمح له بالنوم حتى

يرتاح من وعثاء السفر ، وفي ثاني الأيام كان الشيخ جعفر الموج يستمع لأخباره الغريبة في رحلته البعيدة ، وعندما وصل الكلام للطير الذهبي أراد أن يخرجه من صندوقه الزجاجي فلم يجده فصاح : سرق العصفور يا سيدي جعفر أعندك جواد ؟

فقال جعفر : ما الأمر ؟!

فقال حسان : أريد أن أصل البحر عاجلا قبل فوات الأوان .

أعطاه جعفر جواده فأسرع عليه حيث تتجمع السفن وبحث عن سفينته، فلم يجدها فقد قالوا له إنها تحركت قبل قليل .. فاستأجر قاربا ولحق بالسفينة وبعد ساعات كان يصعد عليها فدهش الربان لما رآه وقال: ما الذي حدث يا سيدي حسان ؟

فقال له : من أجل خاطري ارجع للبصرة فورا لأمر مهم.. لقد سرق مني العصفور الذي دفعت سنوات من عمري للإتيان به أرجوك أسرع .

أمر الربان مساعديه بإدارة دفة السفينة للبصرة ثانية ، وبعد ساعات كانوا يرسون مرة أخرى في ميناء البصرة ، فقال حسان لركاب السفينة : يا قوم من أخذ منكم العصفور من الصندوق الزجاجي ؟ .. لا أحد .. هل نزل أحد منكم غيري البصرة ؟

فقال القبطان : رجلان فقط .

فقال حسان : أيها القوم أنا مستعد أن ادفع عشرة آلاف درهم ثمن العصفور .. من يعرف عنه شيئا فليتكلم ؟

فقال أحد مساعدي القبطان : أنا رأيت العصفور ـ وأشار لأحد الرجال ـ مع الرجل القصير وظننته له .

فتقدم منه حسان وقبض على عنقه بعنف وقال : ماذا فعلت بالعصفور ؟

فقال الرجل وهو يرتجف: دعني سأقول لك دعني أشم الهواء.. لقد حيرتني بصندوقك منذ أن خرجنا من الجزيرة التي كنت ملكا عليها وأنت حريص على الصندوق ، كاد الأسد يفترسك من أجل الصندوق فوقع في نفسي أخذه ، وعندما وصلنا البصرة استغفلتك وأخرجت

العصفور من صندوقه الزجاجي فوجدته قطعة من الذهب ، ولكن بعد انصرافك نطق العصفور ، فخفت منه وظننت أن في داخله شيطان ، وشاهده أحد الرجلين الذين نزلا البصرة فبعته له .

فقال حسان: انزل لنبحث عنه .. وأنت يا صاحب السفينة لا تتحرك قبل أن أجد العصفور .. فانزلوا في أي خان على نفقتي الخاصة ولما أودعكم سأحدثكم بقصة هذا العصفور .

فقال القبطان : عليك بتجار الذهب يا ريس حسان .

حسان يعرف صورة الرجلين ولكن أمر البحث عنهما في مدينة كبيرة كالبصرة ليس أمرا هينا ، وتمنى لو أن الأميرة بدور ظلت أميرة في البصرة لاستعان برجال الشرطة في البحث عنه ؛ ولكنه قال في نفسه : سأعتمد على الله الفرد الصمد .

وذهب يسأل عند باعة الذهب والجواهر، ولم يطل البحث فقد وجد ضالته عند أحد الجوهريين ووجد أن الرجل قد باعه لهم بخمسمائة درهم ، وكان الرجل قد اشتراه من الرجل السارق بخمسين درهم ، والأعجب من ذلك أن الصائغ الجوهري كان في خوف من الطير ، وظنه طيرا مسحورا بداخله عفريتا من الجن ، فقال حسان : هو ما تقول ، ولن أكثر معك الكلام سأعطيك سبعمائة درهم .

فوافق الرجل الصائغ على الفور ، وأخرج الطير وأعطاه لحسان ، وقبض المبلغ ، وعاد حسان للميناء وشكر ربان السفينة وصفح عن السارق ، واختصر له حكاية الطير، وودعهم ، وعاد لدكان جعفر الذي كان في انتظاره على أحر من الجمر، فابتسم له حسان وأخبره بما فعل ، وأن الله رد عليه عصفوره الذي أضاع سنوات من العمر من أجله ، وأمسك الشيخ جعفر بالطير ، وقلبه أكثر من مرة ، فهو عصفور مصنوع من الذهب والفضة ، وكان فمه مفتوحا ورأسه يتحرك ، فقال لحسان: أهذا هو الطير الذهبي الذي كانت الأميرة بدور ترغب بتملكه ؟! .. ما عليه من الذهب لا أظن أنه يعادل مائة درهم ؛ لأنه مخلوط بالفضة.. وربما النحاس أيضا .

وبينما جعفر مسترسل في الكلام والتعليق على العصفور ضحك العصفور وهو بين يديه فطرحه

أرضا ، فقد جفل منه ، ثم بكى الطير ، فتناوله حسان وهو يضحك ، فأخذ العصفور بالصفير المحزن .. وكان جعفر يقول : أعفريت بداخله ؟!

وكأن الحزن خيم على الوجوه على بكاء طفل مصاب ، فتعجب جعفر لهذا الطير، وروى حسان حكايته من جديد حتى تمنى جعفر أن يكون هذا العصفور ملكه ، فقال جعفر : إنك بطل يا حسان!.. فعلا بطل .. هل كانت الحسناء البصرية تعرف سر هذا الطائر ؟!

فرد حسان : لابد أنها تعرف ذلك .. فلقد ذكرت أنها قرأت عنه .. ولكن ما أخبارها فلقد علمت أن والدها هلك ورحلت لبغداد دار السلام .

فقال جعفر بحزن وتأثر: هذا الكلام نتحدث فيه في البيت ، اركب حصانك وأنا خلفك وأوصى جعفر الموج غلمانه وأولاده على العمل ، وهناك في البيت دار الحديث بينهم عن رحلة حسان لتلك البلاد ، وكان جعفر يبدي إعجابه بحسان عند كل قصة يسمعها ثم قال : إن رعاية الله كانت معك وترعاك فهذه دعوات والديك ورضاهما عنك .. أصبحت تدعى الملك حسان في تلك الجزيرة .. وتركت الملك باختيارك .. أهذا من أجل الحب والعشق ؟

فقال حسان: تركت كرسي مملكتي بعدما عرفت بأخبار بدور المحزنة التي سأسمعها منك ثانية ومفصلة .

فقال جعفر : أهنئك مرة أخرى بعودتك سالما ظافرا .. وحمدا لله على سلامتك .. إنها حكاية تستحق أن يسمعها الخليفة وأن تكتب بماء الذهب .. أما بدور الأميرة فبعد رحيلك أرسلت جاريتها لتراك مرة أخرى وتجتمع بك ثانية ؛ ولكنك كما تعلم أسرعت بالرحيل ، وكانت كلما تدخل السوق يوم الجمعة تجلس عندي بضع دقائق وتقول بأسف وندم " يا عم جعفر .. عشقت ذاك الشاب ، وأسفت عن عدم تراجعي عن طلبي ، وندمت على فقده " وتنصرف ، وأقول لك إنها كانت صادقة ، فكانت كلما تراني تذكر لي ندمها وشوقها ، وتتمنى أن تعود لها ؛ ولكن إرادة الله حكمت وغلبت لا مرد لها ، مضت الأيام وانتهت السنتان وما سمعنا بأخبارك فقلنا أصابك ما أصاب الذين سبقوك ، وانقطعت أخبارهم منذ فارقوا البصرة ، ثم فقدت

والدها وعين أمير جديدا للمدينة ، فهاجرت هي واخوتها إلى بغداد ، وكلما كانت تزور البصرة تزورني ؛ ولكن لها أكثر من سنتين ما جاءت البصرة ، وسمعنا أنها تزوجت من أبناء الأمراء في بغداد ؛ وهذا خبر صدقني غير مؤكد .. وبما أنك أتيت سالما يا ولدي سننزل بغداد سوية ونسأل عنها وعن أخبارها ؛ فإن كان لك نصيب فيها ستراها ، وإن لم يكن فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فقال حسان : متى يكون السفر؟

رد الشيخ جعفر : وقتما تشاء .

فقال حسان: بأقرب وقت يا سيدي جعفر وأعجله .

فقال جعفر: ابشر أيها الأخ العزيز مع أول قافلة ـ إن شاء الله ـ نرحل إلى دار الخليفة .. وأنت ضيف عندي حتى نرحل .



لقاء الأميرة بدور



رتب جعفر أموره وبعد يومين رافقا إحدى القوافل السائرة لبغداد ، وبعد أيام وصلاها بسلام ودون اعتراض ، فنزلوا على أبي ماجد الذي سعد للغاية برؤيتهم واستقبلهم كأعز الأصحاب وقد تذكر الفتى حسان ، وأتى ماجد مسرعا واعتنق صاحبه المصري ، وهو لا يصدق أنه يراه حيا يرزق ، وساقهم ماجد لبيته ، وقد أعد لهم وليمة عظيمة ، وكان القوم في شوق لسماع قصة حسان ، فترك الشيخ جعفر يسردها على مسامعهم بالتمام والكمال ، مما سحر الجميع ، وأدهش حسان نفسه حتى ظنه يتحدث عن بطل آخر ، فعقب قائلا : إنك حفظتها أكثر مني هذا يا سادة ما حصل لي من أجل هذا الطائر .

وأخرجه من صندوقه الزجاجي ليشاهدوه فلما قلبوه شمالا ويمينا ، فما كان في نظرهم سوى تحفة فنية ؛ ولكنهم لما سمعوا ضحكه وجموا بداية ثم ضحكوا ، ولما بكى دمعت العيون ، فلما أخذ بالصفير المحزن هجم على وجوههم الحزن ، وكانوا قد ظلوا ينتظرون وقته أي وقت صوته فعندئذ غيروا رأيهم بهذا الطير ، وأقروا بأعجوبته وسحريته وقالوا : إنه تحفة نادرة تستحق أن تهدى لأمير المؤمنين لتبقى في القصور العامرة !

ثم جاء دور الحديث عن الأميرة كيف سيعرفون أخبارها ؟ وكيف يتصلون بها في هذه المدينة الكبرى عاصمة الدنيا ؟

فوعدهم ماجد ابن بغداد بأن يعرف أخبارها ، ويتحرى عنها وعن أسرتها ويعرف مصيرها وأين تسكن فقال : هذا الأمر علينا أيها الأصدقاء الأفاضل .. فأنا سبب هذه القصة .. وأسأل الله أن أجمع بينكم ، ونرجو الله أن لا تكون قد تزوجت كما سمع والدنا جعفر .. فغيبة البطل

حسان طالت وزادت عن موعد الاتفاق للأحوال التي مرت به أثناء الرحلة إلى الصين .. وقد مات والدها أثناء ذلك .. ففي خلال تلك السنوات تحدث أشياء وأشياء .

وقام ماجد بالسؤال عن أسرة الأميرة وأهلها وبعد حين جاء بالخبر اليقين ، فقد تبين لهم فعلا أن الأميرة بدورا قد تزوجت من أحد أبناء الأمراء ؛ ولكن حياتها الزوجية لم تطل وتم الطلاق بعد أقل من شهر ، وهي الآن نزيلة دمشق الشام مع أخيها الكبير الذي عين عاملا وأميرا على الشام منذ سنة من الزمان ، فودعهم حسان أحر الوداع ، وانتقل يسابق الريح إلى بلاد الشام ، وقد ارتحل معه صديقه ماجد ليساعده في الوصول إليها وليشهد نهاية القصة كما بدأت به ، وبعد أيام كانوا ينزلون دمشق مدينة بني أمية وحاضرة ملكهم أيام خلافتهم للعباد ، وكان دخولهم ليلا ، فقضيا ليلتهما في خان ، وحسان مضطرب ومشدود الأعصاب وكله شوق وأحلام ، ولما سألوا عن الوالي الأمير فأخبروا بأنه خرج إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وأخذ معه الكثير من أسرته ، ومنهم الأميرة بدور ، فما عليهما إلا الانتظار بضعة شهور ، ريثما يعودون من الديار المقدسة ، وما أطول الأيام كما تعلمون على أهل العشق والغرام ! وتعرف فارسنا على دمشق ومياهها وبساتينها ومساجدها وأهلها ، وفي ذات نهار بعدما عاد ماجد من العراق ؛ لأنه لما رأى الوقت طويلا نزل العراق ثم عاد ، فبينما هما يجلسان عند صديق لماجد من أصحاب الدكاكين الكبيرة والذين يبيعون الثياب الحريرية الجميلة ـ وكان الوقت ظهرا ـ دخلت الحانوت ثلاث من النسوة المتلفعات بمروطهن السوداء ، فاقتربت إحداهن من حسان وقالت بصوت غض واهن : أمصري أنت أيها الشاب ؟

نظر إليها الرجال الثلاثة وقال حسان : نعم يا أمة الله .. أتريدين مني شيئا ؟!

بكت المرأة حتى سمعوا بكائها ، فعجبوا لها ، وأخذت بهم الظنون هنا وهناك ، فأحضروا لها مقعدا وطلبوا منها الجلوس وقدموا لها الماء ، ولما هدأت قليلا ومن خلال دموعها سمعوها تقول مرة أخرى : اسمك حسان بن عبد الرحمن ؟

خفق قلب حسان بشدة فهمس : بدور الأميرة بدور ؟!

قالت بحياء وبكاء : نعم .

وفقدت الوعي فقد أغمي عليها تأثرا ، فقامت النسوة اللواتي برفقتها بمعالجتها برش بعض الماء على وجهها ، ثم نقلوها إلى بيتها ، وجميع من رأى المشهد يعجب للذي حدث وقال ماجد : ألم يقولوا أنها ذهبت مع أخيها إلى الحج ؟!

فقال حسان بضعف وخوف : سوف نسأل الجارية .. مسكينة لقد أصبحت هزيلة يا ماجد .. إنني أتذكر أول مرة رأيتها فيها عندما رأيتها بسوق البصرة على سرج الجواد .

وبعد حين يسير أتت جارية تشكرهم وقالت لحسان : أين تسكن أيها المصري ؟

فذكر لها اسم الخان وسألها ماجد : ألم تذهب سيدتك للحج مع أخيها ؟

قالت : بلى ؛ ولكنها مرضت أثناء الطريق فأمر بعودتها ، وكانت قادمة لشراء بعض الثياب ، فلما دخلنا المكان التفتت ورأت هذا الشاب ـ وأشارت لحسان ـ فعرفته من أيام البصرة .

وانصرف ماجد وحسان وعادوا لصاحبهم الحانوتي ، وقص عليه ماجد بعض القصة وانصرفوا للخان بأمان الله ، وأما بدور فلما استيقظت وخف وجعها سألت جاريتها عن حسان

فقالت الجارية : انصرف الرجلان منذ وقت فقد ذهبا للخان ، فنحن في الليل يا سيدتي الأميرة

فتساءلت الأميرة : هل هو حسان الذي أتانا في البصرة يا أميمة ؟ .. لقد عرفته بعد كل هذه السنوات .. الحمد لله أنه مازال حيا يرزق .. أريد أن أراه .. افعلي شيئا يا أميمة ؟

فردت الجارية على سيدتها : كيف أفعل ؟ في الصباح نرسل إليه أو نذهب إليه.. ها هو حبيب القلب قد ظهر يا سيدتي .

فقالت الأميرة بأسف : ليتني تزوجته من ذلك الزمن ؛ ولكن قدر الله وما شاء فعل .. فلنصبر حتى ينجلي هذا الليل الطويل.. كنت أحدق فيه وأنا غير مصدقة .. قلت إنه شبيه به شبها كاملا ولكني تجرأت ووجدتها فرصة سانحة عليّ أن أكسبها قبل أن يضيع ..

فقالت الجارية مقاطعة سيدتها : اطمئني سيدتي إنه هو قادم يبحث عنك ، فهم كانوا يرون أنك مع أخيك في الحج .. وهم في انتظار عودتك من الحج ..

فقالت بهوى وصبابة العشاق : أريد أن أراه الآن يا أميمة .. قلبي يهتز بقوة في صدري رغم مرور كل هذه السنوات الست .. آه .. آه . يا أميمة !

فقالت الجارية : الصبر طيب يا مولاتي ، وهو مفتاح كل ضيق وحل لكل مشكلة .. وما الصبح ببعيد ؟!

وبالطبع جفن حسان لم يعرف النوم في تلك الليلة .. لقد عادت به الذكريات إلى البصرة عندما وقف ينتفض كالعصفور المبلول ينظر إليها من عتبة دكان جعفر الموج في سوق البصرة الكبير تذكر لقاءهما في بيت الشيخ جعفر .. ثم يوم طلبها للزواج ..

ولما استيقظ ماجد من نومه وجد صاحبه مصفر اللون محمر العينين ساهي الطرف فصاح به : وي كأنك لم تنم الليل ولم تذق طعمه ؟!

فقال حسان وهو ساهم الفكر: يا صديقي العزيز تجدد الأمل والأحلام .. واستيقظ العشق الذي بليت به من جديد .. هل يا ترى ـ يا ماجد ـ تمضي الأمور ميسرة وأتزوج فتاة الأحلام بدون عسر وعقبات ؟

فقال ماجد وهو يحاول تخفيف القلق عن صاحبه المصري : إن شاء الله ستتزوجها قبل أن تخرج من الشام ، وتذهبا سوية إلى أهلك الذين لابد أنهم يعتقدون أنك قد فقدت أو مت وقد اختفت أخبارك .. قم صلي الفجر ثم نم حتى الضحى .. لنذهب لزيارتها والاجتماع بها لعل أعصابك المشدودة وأحلامك تهدأ وتستقر .

ولما استيقظ حسان من نومه القلق كانت جارية بدور في الخان تتحدث معه لتخبره بشوق سيدتها الكبير له ورغبتها بلقائه خفية ، فتم الاتفاق أن يكون اللقاء في بيت من بيوت أصدقاء ماجد في الشام ، وكان ذلك اللقاء المنتظر فقد جاءت الجارية بسيدتها للبيت المذكور ، ومن ثم أتى حسان وماجد وصاحب ماجد وجلس حسان مع بدور وأميمة ، وجلس الرجلان في إيوان البيت في انتظار انتهاء اللقاء بين العاشقين بتدبير أمرهما ، فكان أول اللقاء دموعا ونحيبا بين الطرفين حتى أن ماجدا وصاحبه سمعا صوت البكاء والنشيج ، واعترفت الفتاة بشجاعة أمام

الفتى بحبها له وبندمها على إرساله إلى الصين ، وقصت عليه أخبارها ، وقص عليها أهم أحداث رحلته بتأنٍ وإسهاب وأراها الطير الذهبي بكل وله وغرام وقال : هذا مهرك يا ابنة الاجواد .. عندما يأتي موعد كلامه ستسمعينه وتسرين به

رفضت وتمنعت بادئ الأمر أن تأخذه فقال لها : يا سيدة الحسن والجمال .. فقد يسر الله لي إحضاره وأن أعود بسلام .. فكيف سيكون الزواج ؟

فقالت : عندما يعود أخي أمير الشام وأهلي من رحلة الحج سأحدثهم بالأمر .. فهم يعلمون هذا الموضوع منذ أيام البصرة يا سيدي الفارس الجميل !

فقال : ما أطول الانتظار أيتها الأميرة الجميلة ! كيف سأصبر عن بعدك هذه الأيام أما من حل آخر ؟

فردت بشغف العاشقين المعروف : سأدبر الأمر مع أميمة .. وسأراك في كل وقت حتى يرجع أخي من الحجاز والآن إلى اللقاء .

وخرجت مع جاريتها ، وأخذت العصفور في صندوقه الزجاجي لتسمعه، فقدم حسان وماجد الشكر الجزيل لصاحب البيت الذي تطوع بخدمتها ، وما بخل عليهما باللقاء والاجتماع .

سرت بدور من الطير الذهبي ، وأعجبت به كل العجب وقالت : إنه تحفة نادرة من تحف الزمان !

وقد عجب منه أهل البيت جميعهم عجبوا من الطير الصيني ، وقد حاولوا معرفة الطريق التي وصل فيها الطير للأميرة ، ومن أتاها به أم كيف اشترته ليحصلوا على مثله ؟

عاد الوالي من أرض الحجاز إلى دمشق الشام ، وبعد أن استراح من وعثاء السفر الطويل ، وقدم الناس وهنئوه على العودة سالما حاجا، مباركين له الحج ، أخبرته بدور بقصة الطير الذهبي وأرته إياه ، فأصابه العجب هو الآخر، وتذكر قصتها وأيامها في البصرة ، وذكرت له مجيء حسان بهذا الطير، وأنه الآن في دمشق في انتظاره ، فأرسل وراءه فأتاه حسان بأسرع من الطير ، فاستقبله الأمير وسمع لحكايته ، وبشره بتحقيق رغبته بالزواج من الأميرة بدور بدون معوقات

وتم عقد الزواج سريعا ، وقد حضره السادة والأعيان ، وفرح حسان بزوجته الأميرة ابنة والي البصرة التي سمع بذكرها في مجلس بمصر ، فوافقت هوى في نفسه ، فشد رحله للعراق وخطبها بالبصرة وتزوجها بدمشق الشام ، وبعد شهر من الزمان أخبر حسان الأمير برغبته المسير لبلاده مصر والأوطان ؛ ليحظى برؤية الأم والأب والاخوة ، وليباركوا هذا الزواج بعد غياب طويل عنهم ، فما اعترض صاحب الشأن وأوصاه على الأميرة خيرا ، وأبان له أنها غريبة وبعيدة عن الأخ والعم والصديقة ، فتعهد له حسان بحسن المعاشرة والمحافظة عليها ، وذكره بقطعه المسافات والأميال ليحظى بقربها والزواج منها فلن يفرط فيها ، وسيكون لها الزوج والأخ والقريب ، ولن يحرمها من زيارة الشام ، ثم أوصى الأمير أخته على زوجها ومراعاة حقوقه الشرعية عليها ، وحثها على دوام المخابرة والاتصال ، وكان ماجد العراقي بعد زواج صاحبه المصري من الأميرة بدور قد عاد للعراق ليذكر لاخوته وأصحابه نهاية القصة ، وأن الفارس المصري تزوج من الأميرة ، وأنه يستعد للسفر لبلاده مصر في أسرع زمان .



وجهزهم الوالي بقافلة وحرس من جنده ليصلوا مصر بسلام ، فمروا بطريقهم على بيت المقدس ليصلوا بربوعه صلوات لرب السموات والأرض، وقد أمضوا في ربوعه أياما وساعات ، وفي غزة كان لهم مقال وقصة وأخبار ، فقد تعرضت الأميرة بدور للخطف والاغتيال ، وكما قال الرواي : كانت الأميرة وجاريتها في بيت من بيوت غزة هاشم ، وذهب حسان للسوق مع الغلام الذي أهداه له أمير دمشق لشراء بعض الحاجات للبيت ، وكان الجند الذين رافقوا حسان قد عادوا عندما وصلوا بيت المقدس ، فقد رغب حسان أن يبعد عنهم الأنظار فوجود الجنود يلفت نظر الناس ، وبينما الأميرة والجارية في البيت دخل عليهن ثلاث نسوة متخفيات وسألن عن الأميرة بدور، فأدخلتهن الجارية على الأميرة بحسن ظن واطمئنان ، فطلبن منها الطير

الذهبي بدون مماطلة ، فأنكرت الأميرة وجوده معها ، فهددها أحدهم بالموت والوبال ، فقد كان أحد النسوة الداخلات رجلا ، فدفع الأميرة فألقاها أرضا دون شفقة ورحمة ، وفتش البيت والمتاع هو والنساء اللواتي معه بأسرع من عفريت سليمان ، وهددها ثانية بالموت والخطف إذا لم يحصل على الطير الذهبي، ولما رأت الجارية الخطر المحدق بسيدتها ، وأنها قد تذبح دفعت إليه الطير ، فأخذوه وانصرفوا مسرعين مختفين عن الأميرة والمدينة ، ولما رجع حسان من السوق ووجد الأميرة أرضا تبكي والدماء تنزف منها وعلم القصة فقال : يا مولاتي لاتتأسفي على الطير ، وسيكون عندك قبل أن ننام .. اهتمي بسيدتك يا أميمة .. ولا تحاولي منعي من إحضاره يا ابنة الكرام .

دخل حسان على حاكم غزة هاشم وأخبره بما جرى لأخت أمير دمشق زوجته الأميرة بدور ، وطلب منه المساعدة في العثور على المجرمين قبل مغادرتهم غزة ، وبالفعل غضب الأمير لهذا الاعتداء السافر في مدينته ، وأمر الجند والشرطة بالبحث عن السفلة الأنذال ، وأصر على رئيس الشرطة إحضارهم قبل هبوط الظلام .. وسار حسان لباعة الذهب والجواهر ، وتحدث معهم بشأن الطائر ، فما وجد عندهم أي خبر عنه ، فعاد للبيت وسأل زوجته بعد أن حدثها بما فعل قائلا : ونحن في بيت المقدس هل سمع أحد صوت الطائر ؟

فقالت بدور: حدثت معي حكاية ونحن في بيت المقدس ، ولم أعطها الاهتمام الكافي .. وهي كما تذكر لما نزلنا بيت المقدس الشريف ، وعرفت بعض النساء أنني أخت والي دمشق ، فأخذن يترددن عليّ للسلام والحديث معي ، وفي ذات يوم وبينما نحن نسمع لصوت العصفور دخلت امرأة علينا فعجبت منه ومن صنعته وطلبته مني ولو بمائة ألف دينار ، فقلت لها بعض قصته ، وأنه ذكرى جليلة القدر عندي ، فأبت إلا أخذه ودفع ثمنه ، فاعتذرت لها بأدب وأنه ليس للبيع ولا للأهداء، فأكدت رغبتها العظيمة في امتلاكه ، فغضبت منها وطردتها ، فهددتني بالويل والهلاك .. ولم أحب أن أذكر لك هذه القصة خوفا من الفتن والمشاكل .

فقال : أتعرفينها يا ابنة الاجواد ؟

فقالت وهي تنظر إلى أميمة : أتذكرين من هي يا أميمة ؟

فقالت: إنها زوجة من .. يا أميمة .. كما أذكر أنها زوجة أحد وجهاء المدينة .. لكني نسيت من هو زوجها .

فقال حسان : حسنا سنعود إلى بيت المقدس ، وسوف نغير من ملابسنا ، ونظهر الفقر وضعف الحال .. وذلك غدا صباحا ـ إن شاء الله ـ فهذه المرأة لابد أن لها يدا في الخطب ؛ لأن الذين جاءوك جاءوا من أجل العصفور .

غادر حسان غزة عائدا لبيت المقدس ، واستأجر مسكنا أنزل في زوجته والخدم ، وبدأ في السؤال عن المرأة المذكورة التي لم تكن الإ زوجة أخ حاكم بيت المقدس ، إنها زوجة سرحان فوضع حسان خطة للتأكد من أن لها علاقة بالعصفور أم لا، والخطة أن تذهب إليها أميمة خادمة بدور وتسألها مباشرة عن الطير وترى ما هو رد الفعل عندها عندما تفاجئها بالأمر .

فقالت بدور: إنها تعرف أميمة يا حسان .. ما رأيك أن تخبر الأمير زيدان حاكم المدينة المقدسة ؟

فقال : فكرت بذلك ؛ ولكني لا أريد أن أثير بين الاخوة أي مشكلة ، أريد أخذه بهدوء وكأن شيئا لم يحدث .. فأميمة عندما تتحدث مع المرأة قد تستطيع أن تحصل على شيء ما ثم أتصرف

ذهبت أميمة وزارت زوجة سرحان التي تفاجأت برؤيتها فعرفتها وارتبكت فقالت لها : ما الذي أرجعكم ؟!

فقالت أميمة : لقد تعرضت الأميرة للاغتيال ، وسرق منها الطير الذهبي الذي تعرفينه جيدا وقالوا إن السارق في بيت المقدس فعدنا .

فقالت المرأة : ومن قال ذلك ؟!

فردت الجارية : عرفاء الشرطة في غزة ، وسيأتون للأمير زيدان لمتابعة البحث عن اللصوص وعن عصفور الأميرة .

فقالت المرأة : وأين الأميرة ؟!

فقالت الجارية : بقيت في غزة بحماية أميرها ..وأتيت وسيدي للمساعدة في معرفة اللصوص لأنني رأيتهم يوم الحادثة .. وأنا التي دفعت إليهم بالطير ؛ ولأن سيدتي قد أصيبت بأذى منهم وعادت الجارية لحسان وقصت عليه الحوار، فشكرها على حسن عملها وفطنتها وقال : من كلامك معها ومن ردة فعلها المرتبكة تدل على أن لها علاقة بالجريمة.. وسأفعل حيلة بسيطة تخدعها ونحصل على العصفور .

لبس حسان ثوبا يشبه ثياب حرس الأمير المقدسي ، وذهب لبيتها وطلب الحديث معها على أنه رسول من عند الأمير زيدان قائلا : أرسلني الأمير وقد عرف أنك أرسلت لصا وامرأتين لأخذ الطير وسرقته من الأميرة بدور البصرية أخت والي وأمير دمشق الشام ، وزوجها لا يرغب في الفضيحة وانتشار الأمر ، فأرسلي الطير معي بدون حرج .

فقالت للجندي بغضب وإنكار: قل لسيدك لا طير عندي وسأخبر زوجي بذلك

فرد الجندي بثبات : سيدتي .. الأميرة بدور أخت والي دمشق اتهمتك بذلك ، وأنك حاولت شراءه منها أثناء إقامتها ببيت المقدس ، فرفضت فهددتيها بالويل والهلاك ..والأمر إليك ؟

فضحكت الأميرة وقالت بسخرية: قل لسيدك أيها الجندي إنه لا طير عندي واتهامها باطل وافتراء .

خرج حسان مسرعا وعاد للبيت خائبا وهو يقول : الملعونة لا تفرط به .. حسنا سأفعل شيئا ما طلب حسان من بدور أن تذهب بنفسها وتحاول معها لعلها تستسلم وتقر بجرمها ، ذهب الثلاثة في الصباح لبيت تلك المرأة ، ودخلت بدور وظل الاثنان في الخارج ينتظران خروجها ، وعندما دخلت قابلها رجل فلم يعرفها ؛ ولكن بدورا قد عرفته من صوته الرجل الذي تكلم معها وهددها بالقتل والموت ودفعها ، والذي تناول الطير من الجارية فقالت له بجرأة من جرأتها المعهودة : متى أتيت من غزة أيها الفارس ؟!

فقال وهو ينظر إليها : من أنت يا سيدتي ؟!

فقالت له : المرأة التي أخذت منها الطير عنوة .. قل لسيدتك الأميرة بدور تريدها فورا .

ارتبك العبد وخاف واضطرب وأسرع لسيدته ، وأسرعت بدور بالخروج واختفت من الشارع هي وزوجها والجارية ، وشاهدوا العبد من مكمنهم يركض في الشارع بحثا عنها وقالت لزوجها : هي السارقة .. وهذا العبد هو الذي دفعني وأخذ الطير .. عليك أن تخبر الأمير قبل فوات الوقت .

فقال : أمتاكدة من ذلك يا سيدتي ؟

قالت بأسف : نعم يا زوجي الحبيب .



ذهبوا لدار الأمارة واطلع حسان الأمير زيدان أمير بيت المقدس على ما حدث لزوجته في غزة من إهانة وضرب وسرقة الطير العجيب ، وكان الأمير زيدان منصفا وعادلا ولا تأخذه في الله لومة لائم ، فقال للأميرة : أواثقة أنت مما قال زوجك أيتها الأميرة ؟

قالت : أقسم بالله العظيم على ما قلت ، وسيعترف العبد بدوره .. وأرجوك يا سيدي أن تعجل بالقبض عليه قبل أن يهرب .

طلب الأمير زيدان أخاه سرحان وزوجته وعبيدها لتراهم الأميرة بدور، فذهب الأمير سرحان وبعض الجنود إلى بيته وتحدث مع زوجته بغضب شديد ، فأنكرت ولم تقر بشيء فقال لها : البسي ثيابك أنت وجواريك وعبيدك وإلى دار الأمارة ولا تبق أحدا .

دخل الجميع في دار الأمارة ، وأتى القاضي في البلدة ، واستمع للقصة ، وطلب من الأميرة البينة والشهود ، فذكرت قصتها وما تعرضت له من الأذى في مدينة غزة ، ولم يكن معها شاهد سوى خادمتها أميمة ، واتهمت العبد بالاعتداء عليها وإسالة دمها ، وأخذ الطير الذهبي بالقوة والتهديد ، ثم نظرت في عبيد سرحان وقالت للقاضي والأمراء : إن العبد غير موجود وأنا لا

أعرف اسمه .

وأنكرت زوجة سرحان أمام القاضي ، فقامت بدور بوصف العبد أمام القاضي مما اضطر الأمير سرحان أن يقول: هذه صفة العبد سعيد فعلا عندنا عبد شرير لئيم أين هو يا زوجتي ؟

قالت : لا أدري .

فقال سرحان : أيها القاضي انظرني يوما واحدا حتى أنظر في الأمر ، وأنا بنفسي سأحضر الطير الذهبي للأميرة .

أمرهم القاضي بالانصراف وقال : يجب أن يحضر العبد سعيد لتراه الأميرة والجارية وتعالوا غدا أيها القوم .

اختفى العبد سعيد ، فصمم حسان بنفسه بالقبض على العبد الآبق ، وسار يراقب الشارع على صورة متسول ليلا ونهارا حتى رأى المرأة تخرج من البيت وجاريتها ، فتبعهما ومشى خلفهما من شارع إلى شارع وزقاق إلى زقاق ، ودخلت بيتا وجاريتها معها بعدما تلفتتا يمينا وشمالا ، واقترب حسان من الباب المغلق ، ودار من خلف البيت ، فوجد جدرا قصيرا ، فقفز عليه بخفة ودخل من بين الأشجار والتصق بأحد الغرف يسمع ويصغي فسمع العبد يهدد زوجة سرحان ويتوعدها بالذهاب إلى القاضي والاعتراف .

فصرخت فيه قائلة: اصبر أيها الحمار .. ألا يصلك الطعام والشراب والمال ؟ .. ولسوف أكافئك مكافأة كبيرة عندما يسافرون ويخرجون من البلد .

فصاح العبد : يا سيدتي ! لي أسبوعان محبوس هنا ضقت ذرعا بالمكان .. لم أعد أطيق الصبر .

فقالت بحدة: عليك بالصبر والتحمل ولسوف يبتعدان ويرحلان إلى مصر، وستأخذ جزاءك هذه آخر مرة آتيك فيها ، إذا احتجت لشيء فاطلبه من الجارية ، ولا تطلب مقابلتي ، هل سمعت أيها الغبي ؟ وإلا قتلتك وارتحت منك .. اصبر وصاحت بجاريتها : هيا يا سوسن هيا بنا .

وخرجتا مسرعتين، وحسان سمع آخر الحديث ففكر بما يفعل ، فخرج بخفة وعلم البيت

والمكان ، وعاد للبيت وارتدى ثيابه ، وذهب للقاضي وطلب منه بعض رجال العسس ، فأخذ رجلين منهم وساقهم للبيت المطلوب ، وطرق الباب وفتح سعيد الباب ظانا أن الطارق الجارية قد عادت لأمر ما ففتح الباب فدخلوا عليه وأوثقوه وسلموه لرئيس الشرطة الذي قال له : أين كنت هاربا أيها العبد ؟

وأدخلوه على الأمير والقاضي ، وجاءت الأميرة بدور وأقسمت على أنه هو الذي ضربها وهددها بالقتل، وأخذ عصفورها منها ، وشهدت الجارية بذلك، فاعترف العبد سعيد بفعلته بأنه هو الذي تبعهم لغزة لسرق العصفور، وأن مولاته الأميرة هي التي أمرته بذلك ، وأغرته بالمال والزواج من الأمة سوسن التي ذهبت معه لغزة مع جارية أخرى، واحتالوا بالدخول على الأميرة بدور التي تعرفها سوسن جيدا ، وتم الحصول على الطائر بالتهديد، وأن العصفور عند سيدته ، وجيء بها فحضرت وأمام اعتراف عبدها وجاريتها اعترفت بجريمتها وبينت أن السبب في ذلك حبها للطير الغريب وحقدها على الأميرة ، وأحضر الطير الصيني وتمعن فيه القوم فلم يروا به شيئا عجيبا ، ووجدوا أن ثمنه زهيدا ، وبينما هم يتعجبون من هذا الصراع القاتل على هذا الطائر الصغير أتى موعد ضحك العصفور فضحك فبكى فحزن فدهش الحاضرون لهذه الآلة الغريبة ، فحكم القاضي بعد ذلك بحبس زوجة الأمير سرحان وعبدها وجاريتيها ، وشكر حسان الأمير زيدان لوقوفه بجانبه رغم حساسية الأمر ، وقدم شكره للقاضي، وأخذ الطير ومن ثم سافروا على الفور إلى غزة هاشم، ولما نزلوها مكثوا فيها بضعة أيام ، ورحلوا منها للعريش ، ثم إلى بلاد مصر بلاد النيل ، وبعد أيام أخرى من الرحيل دخلوا المدينة فطفرت الدموع من بين عيني حسان لما رأى الوطن الذي غاب عنه كل هذه السنوات ، وعادت به الذكرى للوالد الحبيب والأم الرؤوم والاخوة والأصحاب ، كانت الدنيا ليلا عندما اقترب حسان من باب البيت بيت الأسرة نفس الباب لم يتغير ، قرع الباب فسمع صوت غسان أخيه يقول : من يطرق الباب ؟

فقال حسان بوجل : أخوك حسان .. افتح يا غسان .

فقال غسان كأنه غير مصدق ما يسمع : من حسان ؟!

فصاح حسان : ويحك! .. أنا أخوك حسان بن عبد الرحمن .

فتح الباب وهو يصيح : أخي حسان ! وتعانق الأخوان ، وأسرع بالدخول مخبرا أهل البيت وهو يصيح: عاد حسان يا أبي! عاد حسان يا أمي ! عاد حسان يا عبدالكريم .. حسان حي .. حسان حي!!

فقام الصياح والبكاء والدموع والفرح حتى فزع الجيران ، وكانت ليلة عجيبة من ليالي الشوق والأنس على اجتماع الشمل بعد طول غياب ، وفرح الجميع بعودة حسان ، وقضت الأسرة أياما تستقبل الأحباب والأصحاب والخلان ، وكلهم يستمعون لقصة وأخبار حسان ، وما جرى له في العراق وجزر البحر وعند ملك الصين ، ورأوا الطير الذهبي وسمعوا سحره ، وصنع عبد الرحمن وليمة كبيرة للتجار والجيران اشتهرت أخبارها في بلاد النيل ، وما أن يسمع قوم بأعجوبة الطير إلا وطلبوا سماعها وهم متعجبون من صنعته وحكاية صاحبه حسان ، فطار خبره في الآفاق حتى أن حاكم مصر طلب حسان لمشاهدة هذا الطير الذهبي ، فأخذه حسان إلى قصر الحاكم لبلاد مصر والسودان وما حولها من الأطراف ، فأعجب به كسائر الخلق ، فأهداه حسان للأمير الذي فرح بهذه الهدية فرحا شديدا ، وقبلها بكل امتنان، وبذلك تخلص حسان من إزعاج الناس والزائرين ؛ ولكن بعد أيام طلبه الحاكم ثانية ، فذهب لقصر السلطان فأخبره صاحب القصر أن الطير سكت عن الكلام وما عاد ينطق ، فسأله حسان هل عبث به أحد أو حاول فكه ؟ فذكر الأمير أن إحدى بناته حاولت فكه فأخرجت منه قطعة ثم أعادتها ، وبعدها لم يسمع له صوت ، فقص حسان للحاكم قصته مع هذا الطير وسر صناعته ، فتعجب الملك من حكاية حسان أكثر من إعجابه بحكاية الطير ، وهكذا انتهت أعجوبة هذا الطير، وما عاد الناس يسمعون عنه أخبارا وأحاديث إلا في الكتب والأقاصيص ، وهل حقا كان هذا الطير يضحك ويبكي ويحزن من يراه ويسمعه أم هو محض خيال ؟ جادت به أفكار الرواة لإثارة السامعين والشعار .. فهذه يا اخوتي قصة حسان والطير السحري الذي أتى به من بلاد الصين

واستقر في بلاد النيل في قصر الأمير بضعة أيام ، ثم مات حتى كأنه لم يكن هناك طير يتكلم عنه القصاص والرواة ، أما الأميرة بدور فكانت جميلة وأديبة وعاقلة ، والنساء يتحدثن عن حسنها في ذلك الزمان ، وكما ذكر الرواة للقصص والأخبار أنها ولدت لحسان سبعة من البنين والبنات ومضت السنون والسنوات وكبر الأولاد وإلى بلاد أمهم اشتاقوا ، فسافر بهم حسان إلى دمشق بعدما استقر بها أخوالهم الأمراء وكم فرحوا برؤية أختهم بدور بعد كل هذه السنوات ، وكان أخوها قد دخل في الشيخوخة وانتظار ساعة المات فعاتبها قائلا : أما تذكرتينا كل هذه السنوات أيتها العزيزة ولو حتى بكتاب فيه ذكريات .. فهؤلاء كل أبنائك يا أميرة البصرة ؟ فاعتذرت لأخيها بأعذب اللفظ وقالت : نعم يا أخي جئت لأزوج البنات فهل عندك أولاد صالحون ؟

فبكى الأمير وقال: ما بقي لأخيك على قيد الحياة إلا عبدالله ، ولكن أخاك الصغير عنده ولد في سن الزواج فأعطيه إحدى بناتك حتى تمتد الصلة يا أختي العزيزة .

أمضت بدور وذريتها سنة في دمشق ، وقد أنكحت ابنتها الكبرى من ابن أخيها الصغير ، وفي أثناء عودتها للديار المصرية مرضت بفلسطين وقضت نحبها ودفنت فيها ، وعاد حسان لمصر والحزن يغمره ، فلما وصل مصر أخبر أباه بموت الأميرة بدور في فلسطين ، وأنه زوج ابنته من ابن خال لها ، وعاش حسان سنوات قبل أن يفكر بالزواج من جديد .

واستغفر الله استغفارا كثيرا ، وأسأله العفو عن زلات النفس والقلم ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وهي مجرد قصة فيها التسلية والعبر، وهي خيال جادت به قريحة كاتب عاشق لمثل هذه الحكايات والنوادر ، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات ، وصلى الله على النبي الأمي الذي ذكره ما فات ، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم المات .

انتهت القصة

قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك برбار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

حسان والطير الذهبي



الفوارس

الأمير جفر

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

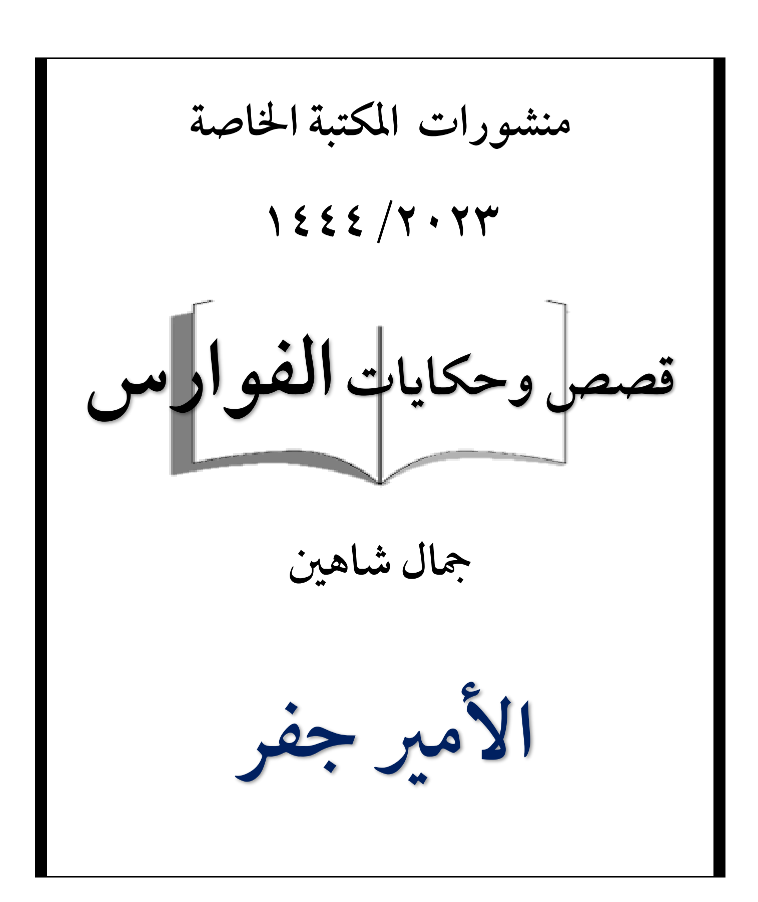
٢

جمال شاهين

١٩٩٣

قصة

الأمير جفر



منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

الأمير جفر



جفر

بلعام

ملك ككل ملوك الدنيا لكنه قاسي الملامح شديد الصوت عنيد ، يحب الشهرة والافتخار والمدح من الشعراء والوزراء ، كثير الزواج ورغم كثرة النساء اللواتي تمتع بحسنهن وجمالهن ما انجبن له سوى سبعة من الأبناء ، كثير التحرش بجيرانه الملوك والأمراء ، وكان له وزير على شاكلته في ذاك الزمان عاشق للارتفاع والمجد ، ولولا قوة الملك فرهود لاعتلى كرسي الحكم من غير تأخير ، وهذا الوزير القوي والشرس حرم من نعمة الذكور ، ولكن الله يسر له فتاة كانت رائعة الحسن والجمال ، فأصبحت حديث الشباب في مدينة بلعام ، وكان هذا الوزير يسمى صغرد بن براغد ، وأقصى ما يخشاه هذا الوزير أن يطلب الملك فرهود بن سرهد ابنته للنكاح ، وهو رجل عجوز مزواج ، وما قضت امرأة عنده أكثر من ثلاثين شهرا .. وكان الملك العجوز يخشى هو الآخر أن يخطب ابنة وزيره فيورده مهالك الردى بالتآمر على عرشه دون حفظ العهد والوفاء للتاج ، رغم ما بينهما من صداقة ودوام عشرة طول كل هذه السنوات الطوال .

فهما يحسبان حساب بعض أشد الحساب ، وكان أولاد الملك يحثون أباهم على تزويجهم ، فأصغرهم أصبح مؤهلا للزواج ، فأقسم والدهم أن لا يزوجهم إلا من سبع أخوات أميرات من بنات الملوك ، ولو حتى من بنات ملوك الجآن والشياطين ، فشق الأمر على الأبناء السبعة فاجتمعوا يوما وقالوا : أبونا لم يمت ، ونحن ننتظر زواله من سنوات ، وكبرنا في السن أيها الاخوة وكلنا يرغب بالزواج ، وأبونا لا يريد تزويجنا إلا من سبع أخوات أميرات ، فعلينا بالبحث عن هؤلاء الأميرات ، فلن نجدهن ما دمنا نائمين هنا .. فعلينا بالسير في بلاد الله الواسعة نسأل ونمشي حتى نحقق مطلب أبينا .. علام ننتظر !

فوافق الجميع على هذا الرأي ، واخبروا الملك فرهود بذلك ، فأمرهم بالعجلة في غايتهم والعودة سريعا بهؤلاء الأميرات ، ومنحهم المال والخيل ، فغادروا المدينة مع انبلاج الفجر ، وهم حائرون فيما يفعلون وإلى أي الجهات يتحركون ، فمشوا نحو الغابة .

وفي أول غابة واجهتم جلسوا يستريحون في ظلال شجرة عملاقة ، ومدوا سماط الأكل وبدأوا يبلعون ، وفجأة هبط عليهم من أعلى الشجرة رجل فحياهم بالسلام والأمان وقال : يا أولادي! أشركوني في طعامكم والكلام ، فإني رجل خبير وغريب ، فلما سمعت صهيل وحمحمة خيولكم خفتكم فعلوت أغصان هذه الشجرة ، فلما سمعت بعض حديثكم أدركت أنكم لستم لصوصا وقاطعي السبيل، فاطمأنت روحي إليكم فهبطت عليكم .

فرحبوا به وأشركوه في قوتهم ومائهم ، ولما كف الجميع عن المضغ والبلع قالوا : يا شيخ الخير، نحن سبعة اخوة ، وحلف والدنا يمينا عظيما أن لا يزوجنا إلا بسبع بنات أخوات أميرات .. أسمعت بملك من ملوك الدنيا عنده أولئك البنات بما أنك خبير .

راح العجوز بصمت طويل ، ثم قال لهم : أنتم أمراء أيها السادة أليس كذلك؟

قالوا : بلى .. فنحن أبناء الملك فرهود بن سرهد ملك بلاد البلعام .

فقال الشيخ الكبير : سأرشدكم على شيخ كبير أمضى سبعين عاما في السفر من مصر إلى مصر حتى هرمت قدماه فأغلب الظن أنكم ستجدون حاجتكم عنده .

فقالوا : نرجوك دلنا عليه يا شيخ الخير .. أين نجده ؟

فقال : مسيرة يومين وتكونون على قمة جبل غمران ، فعلى قمته كوخ صغير يأوي إليه هذا الشيخ العظيم .. بعد اجتيازكم هذه الغابة العظيمة تجدون الجبل فاصعدوه حتى تروا كوخ الشيخ العظيم مردود على قمته ، وعلى الله اعتمدوا

وأمضوا ليلتهم في الغابة وقبل شروق الشمس انطلقوا إلى جبل الشيخ مردود ، وبعد مسير طويل أصبحوا بين يدي الشيخ يشكون له همهم وغمهم ، فرحب بهم وسمع حديثهم ، فوعدهم بعد الارتياح من النصب والألم بتحقيق المراد ، وأنه سيرشدهم إلى ملك من ملوك الدنيا وهبه الوهاب سبع فتيات جميلات يخجل من حسنهن القمر ليلة كماله .

ولما كان الصباح أخبرهم شيخ الجبل مردود عن ملك تبعد بلاده مسيرة شهرين من الزمان لديه هؤلاء النسوة ، وهو ملك جبار قلبه أقسى من حجر الصوان ، وقد بنى لكل أميرة قصرا خاصا

بها ، فيه من الخدم والحشم والحرس ؛ ولكنه سمح لهن بالاجتماع كل ستين يوما في قصر إحداهن ثلاثة أيام ، ومنعهن من الزواج لنبوءة كاهن أثير عنده قال إن زوال ملكه على يد حفيد من بناته ، فأجاز لهن التمتع بخيرات الدنيا إلا الزواج ، وختم شيخ الجبل كلامه قائلا : فهذا الملك الوحيد الذي سمعت بأن عنده سبع بنات أميرات في رحلة العمر التي مررت بها .. فإن وصلتم لتلك البلاد قد تتحقق رغبة أبيكم .. وهذا الملك يسكن في مدينة جلفار القريبة من بحر النار .. فإليها أسرعوا

ودع الشباب الشيخ مردود بعد أن أخذوا منه وصف الطريق المرشد والمسلوك لتلك المدينة ، فاجتياز هذه المسافات لن يكون هينا سهلا .. فلابد أن يتعرضوا للخطر والصعوبات ، فما دخلوا إحدى المدن التي في طريقهم حتى كانوا بحضرة ملكها الذي استجوبهم ، فقصوا عليه حكايتهم ورغبة أبيهم بتزويجهم سبع أخوات أميرات من بنات الملوك والملكات ، فأكرمهم وزودهم بالطعام والغذاء ، وأطلق سراحهم وهو يتمنى لهم الظفر بمقصودهم ، وبعد مسيرة شهر من الزمان وبينما هم في إحدى الغابات تعرضوا لخطر اللصوص ؛ ولكن سيوفهم البواتر أدت الواجب الذي عليها ، وما نجا من اللصوص سوى كبيرهم الذي هرب بعد أن ترك يمنيه في ساحة القتال ، وتابعوا المسير وما بقي للوصول إلى بحر النار سوى أيام ، وفي أحد الكهوف المطلة على مدينة جلفار اختفوا خوفا من عيون الملك شعفاط ، يفكرون ويخططون في حيلة يصلون بها للحسناوات ، فاتفق أن ينزل أحدهم للمدينة يسمع أخبارها، ويعود إلى الكهف قبل حلول الظلام ، وإذا لم يعد يهبط غدا غيره بحذر شديد ، وبعد معرفة أخبار المدينة والملك شعفاط يضعون خطة العمل والاتصال بذلك الجبار شعفاط بن مطاط ، وتطوع أحدهم بالنزول للمدينة ، وبالفعل سقط صباحا على المدينة ، وتنقل بين الأماكن شرقا وغربا ، وشاهد الناس واستمع لأحاديث الناس ، واشترى الطعام وعاد لاخوته دون أن يحس به أحد من أهل المدينة ، وقال لهم : إن حديث أهل المدينة اليوم وما قبله من الأيام عن حزن الملك شعفاط لوفاة ولده البكر الذي سقط ميتا أثناء تبارز الفرسان ، فهم يحتفلون بموسم الفرسان وعيد الفرسان

.. فقد سقط الفتى عن الجواد فخر ميتا ، وعيد الفرسان هذا يستمر خمسة عشر يوما يتبارز فيه الفرسان الجدد مع القدامى وأفرس الرجال يلحقون بفرسان الملك ضمن كتيبة الحرس الملكي ليقوموا بحراسة قصور الأمراء والأميرات والملكات .

فقال الأخ الأصغر الأمير جفر : بما أنكم تقرون بقوتي رغم صغر سني ، وتعلمون حبي للفروسية فدعوني أشارك هؤلاء الناس بهذا العيد لعلي اتصل بالأميرات ، وأدبر معهن أمرا يسر القلوب ، وأشجعهن على الهرب معنا ، ونخلصهن من القيد والوثاق .

وبعد تشاور وتدبير وجدوا أقواله معقولة وأفكاره مقبولة ، فنزل أخ آخر منهم للمدينة جلب لهم طعاما وأخبارا وثيابا يلبس مثلها أهل هذه البلدة ، ولما رتبوا أمرهم سقط جفر على جواده المدينة كعابر سبيل ، وكان يتزيا بمثل ملابسهم ، وسكن في فندق كبير فيها ، وسأل عن المبارزة والمقاتلة ، وادعى أمام صاحب الفندق وخدمه أنه قادم من بلاده للمشاركة في هذا العيد ، وعلم أن الملك يسمح لأي شخص مهما كان مسقط رأسه بالدخول في هذه المنافسات والعمل في حرس السلطان ، فانطلق جفر لساحة التحدي ودون اسمه عند كاتب ديوان الفروسية ، ثم أذن له بإظهار مهارته ، وبعد عدة جولات من الاستعراض تقدم إليه عدد من الفرسان ؛ ولكنه أظهر تفوقه عليهم ، ولم تكد تنقضي الأيام الأخيرة من موسم الفرسان حتى كان مؤهلا ليكون أحد الفرسان الجدد الذين سيخدمون ضمن كتيبة الحرس ، وبعد تدريب يسير على صفة الخدمة في القصور ألحق بأحد قصور الأميرات ، وجاءت قسمته ضمن حرس الأميرة الصغيرة التي ما كادت تراه ضمن حرسها الجديد حتى تعلقت به ، وانجذبت إليه كانجذاب الحديد إلى المغناطيس ، ثم سمحت لنفسها بالحديث معه وإرساله في مهمات إلى قصور أخواتها ، ولما سنحت له الفرصة كشف لها أمره وأمر اخوته ، فعجبت من جراءته وشجاعته ، وبعد تفكير عميق قالت له : سأكلم أخواتي بهذه المغامرة ؛ ولكن كن حذرا من عيون مولانا الملك .

وكان الأمير جفر على اتصال مستمر مع اخوته الستة ، ولما حل زمن اجتماع الأميرات المضروب لهن من قبل والدهن ـ وهو اللقاء والاجتماع كل ستين يوما مرة في أحد قصورهن ـ فحدثت

الأميرة الصغيرة أخواتها بمجيء أولاد الملك فرهود وسعيهم للزواج منهن ، وبعد تشاور خافت بينهن رضين بالفكرة وبالزواج من الأمراء السبعة ، واتفقن أن تكون الكبيرة للكبير والوسطى للأوسط والصغيرة للأصغر وهكذا، وتركن أمر ترتيب الهرب للأميرة الصغيرة والأمير جفر ، وسر الأمير جفر برضا الأميرات على هذه المغامرة الخطرة ، ولكن حبهن للحرية والخلاص من الأسر غير المباشر دفعهن للدخول في هذه المغامرة الخطرة مهما كانت النتائج ، وأخبر جفر اخوته بموافقة الأميرات على الهرب والمخاطرة ، وبدأ الإعداد لعملية الهرب والخروج من مدينة جلفار دون معرفة الملك شعفاط بن مطاط .

ذات يوم أرسل الملك في طلب الأمير جفر ، فقلق الفارس والأميرة لهذا الطلب ، وخافت الأميرة عليه من القتل والغدر ، فشجعها على الصبر ودخل على الملك شعفاط وحياه ، فكان الملك يرقبه بدقة وعمق وتفكير ثم قال : ما أخبار الأميرة يا جفر؟!

فرد وهو يقوي نفسه : بخير يا مولاي الملك !

فقال الملك : علمت بأنك تكثر من الحديث والجلوس معها .

فقال : ما أنا إلا حارس لها يا مولاي .. فعندما تطلبني لا يسعني إلا الإجابة .. لا أستطيع الرفض ؛ فإنك تغضب عليّ بعد غضبها.. وما أنا إلا جندي مطيع في خدمة سيدي الملك!

قال الملك محذرا : أيها الشاب احذر منها وإلا الموت لك.. لا تنس أنك إنسان مغمور لا تصلح لمصاهرة الملوك .

فقال جفر مظهرا الرعب : ومن يجسر على التفكير بمثل هذا أيها الملك السعيد ؟! .. فما أنا إلا خادم عندكم .

فقال الملك : أحسنت أيها الشاب على هذا التفكير العاقل .. اخبر أميرتك أنني سأقوم بزيارة للملك نمرد بن أسدان لمدة أسبوعين من الأيام.. فاحرص على المحافظة على أميرتك كل الحرص .. لأنني علمت بأن خطرا يتربص بها .

فقال بكل قوة : سأكون عند ظن مولاي الملك بي .

فقال الملك : عد إلى عملك بسرعة .

عاد الفارس الصغير جفر إلى القصر ، وكانت الأميرة على أحر من الجمر، فكانت تقف على الشرفة تراقب عودته ، فلما رأته مقبلا على جواده هدأت نفسها وعادت إليها السكينة ، وقد اطمأنت على فارس أحلامها جفر ، وبعد أن تحدث مع قائد الحرس ، وتفقد الجنود المسؤول عنهم ، ونبههم إلى الذي يشير إليه الملك ، دخل غرفته، فجاءته الأميرة لتعلم الغاية من طلب الملك له فأخبرها بما جرى ، فقالت: إن العيون علينا يا جفر! ما رأيك بأن نعجل بترك المدينة قبل عودة أبي من رحلته للملك نمرد .

فقال : إنني أفكر بالأمر منذ فارقت الملك ، وسأدبره مع اخوتي عندما التقي بأخي فرد .

فقالت : إنني أيها الفارس الجميل ما عاد لي صبر للبقاء محبوسة هنا بعدما رأيتك يا فارسي الجميل !

وضع الاخوة خطة للعمل والهرب أثناء غياب الملك شعفاط ، ترسل الأميرات رسائل لأبيهن أو رسالة يبدين فيها رغبتهن بقضاء بضعة أيام في حدائق قصره الخاصة لسماع الأطيار ورؤية الأزهار والأشجار وذلك خلال فترة سفره ، فقامت الأميرة الكبرى بمخاطبة الوالد بذلك ، فرحب بذلك وأذن لهن بالاجتماع في قصره أثناء غيابه والتمتع بما فيه من بساتين وحدائق وجمال ونعم ، ولما تحدد سفر الملك وبدأ الاستعداد للرحلة ، ذكرت الأميرات والدهن برغبتهن فأخبر قيم القصر بالسماح لهن بالتنزه في الحدائق الجميلة ، وسمح لهن بالبقاء فيهن سبعة أيام بعد سفره ، سافر الملك وجاءت الأميرات لزيارة الحدائق الغناء بالخيرات في ضحى أحد الأيام ، فاستقبلهن الحرس الملكي وقيم القصر ، وأمروا حرسهن بالعودة إلى قصورهن، وأن يعودوا بعد سبع ليال لمصاحبتهن في العودة لقصورهن ، وكانت الخطة أن يهربن بالليل من أقصى طرف الحدائق بعد ليلتين من وصولهن .. يتحركن بعد نصف الليل إلى أقصى الحدائق بحجة الرغبة بمشاهدة آخر حدود الحدائق .. وهناك يكون جفر قد تمكن من وضع سلم لهن ، والخيل في انتظارهن ..وفي غفلة من الحرس والعيون ، وفي ذلك الوقت المتأخر من الليل تحركن للمكان

المقصود .. وكان جفر الشجاع قد جهز السلم فصعدن عليه واحدة واحدة ثم نزلن للجهة الأخرى وركبن الخيل ، وقادهن جفر وفرد للمدينة متخفيات ، ومنها للكهف السري في قمة الجبل ، وعاد جفر للمدينة ومعه الخيل ، وترك الخيل في اصطبل ، وعاد لقصر الأميرة على أنه الحارس الأمين ، في الصباح علم نائب الملك باختفاء أخواته السبعة من حدائق الملك ، فعجب لهذا الاختفاء الغامض، وأعتقد أنهن تعرضن لخطر جسيم ، فأمر بالتفتيش عنهن واضطربت المدينة ، وانزعج الناس لهذه الكارثة والحادثة الغريبة ، هل خطفن أم هل هربن ؟!

انتشر الحرس في الجبال والغابات ، وأرسل أحد الفرسان وراء الملك شعفاط الذي غضب غضبا لا مثيل له ، مما دفعه أن يقطع الزيارة ويعود للمدينة بأسرع وقت ، واجتمع بالوزراء والأمراء وسمع منهم الحكاية فذهل للأمر وصاح قائلا : أنا شعفاط بن مطاط يعتدى على بناتي ويخطفن أثناء غيابي .. هل أصبحت ملكا عجوزا لتسرق بناتي وأنا حي ..!!

ولما هدأت ثورة غضبه قليلا تجرأ أحد الوزراء وقال له : أيها الملك السعيد .. لا أعتقد أن أحدا يجرؤ على خطفهن .. فلم يسمع الحرس صياحا وصراخا وبكاء ليلتها .. لابد أنهن هربن طواعية يا مولاي .. إنهن سبع ..

فقال الملك : هذا ما يقوله عقلي أيها الوزير إنهن متواطئات على الهرب !.. لقد دبرن أمر الاجتماع هنا ليهربن معا ..ولكن هناك مؤامرة .. لا يمكن أن يهربن بدون تدبير مع آخرين .. من سخر من عقولهن وأوقعهن بهذه المصيبة ؟!

قال الوزير : صدقت أيها الملك .. مع من تآمرن ؟! .. لم يختفِ أحد الأمراء ولا الفرسان .. وعلى كل حال ما زال الجنود منتشرين في كل مكان .. والبحث عنهن قائم على قدم وساق .

انقضى أسبوع كامل ولم يعثر على الأميرات ، وتعرض حرس الأميرات للتحقيق والمسألة؛ ولكن دون فائدة تذكر ، الكل لا يدري .. فالأختفاء كان في قصر الملك نفسه ، وهذا يدل على تدبير محكم ، فعندئذ أعلن الملك شعفاط أمام فرسانه وجنوده أن كل من وجد أميرة حلت له قرينة ، فتقدم جفر من الملك ، وعرض عليه خدمته ، وأن يأذن له بالمشاركة في البحث عن

الأميرات ، ولن يعود للبلد قبل أن يعرف خبرهن، فسر الملك لحماسه وأذن له بذلك مع سائر المتحمسين ، فخلع جفر ملابس الفرسان ، ولبس ملابس العامة ، وتزود بالطعام والشراب متظاهرا أمام زملائه الفرسان أنه مهتم بالبحث الجاد عنهن طمعا بالزواج بواحدة منهن ، وانطلق في رحلة البحث والتفتيش عن الأميرات الهاربات ، ودخل الكهف السري في قمة الجبل وأخبر الجميع بما جرى ، وأن الجنود عادوا لمعسكراتهم وهم حائرون في صفة اختفاء الأميرات السبعة مرة واحدة .. ومن استطاع الهرب بهن واخفائهن ؟ وبعد حين ذهب فرد للمدينة ، وأتى بالخيل من الاصطبل الذي استأجره جفر ، وركبت كل أميرة على جواد ، وبدأت رحلة العودة إلى بلاد البلعام ، وبعد مسيرة شهر ، وبينما هم قريبون من إحدى الغابات اعترضتهم مجموعة كبيرة من اللصوص ، وطلبوا منهم التخلي عن السلاح والمال والنساء ، وكان زعيم هؤلاء اللصوص الرجل الذي نجا منهم أثناء رحلة البحث عن الأميرات السبع، فصاح جفر فيه: أيها اللص اللعين ذو اليد المبتورة ألا تعرفنا نحن الذين قطعنا يمنيك آنفا ؟ .. فإني لك ناصح اهرب اهرب أنت وجماعتك قبل أن اسحب سيفي من غمده .

ضحك اللص ضحكا تردد صداه في كل الغابة وقال : أنتم إذن خصومي! .. فيا مرحبا .. يا مرحبا .. هذه فرصة للانتقام .

أمر جفر اخوته بالاستعداد للقتال مع هؤلاء الأوباش ، وكلف اثنين منهم بحراسة البنات ، وتقدم الخمسة متعاضدين متراصين نحو اللصوص ، وكانت ملحمة دامية ، خمسة فرسان يصارعون ما يزيد عن عشرين لصا وسفاحا .. وبعد ساعة من الزمان كانت جثث اللصوص تتمدد في المكان وهرب من استطاع الهرب ، وكان من جملة الهاربين زعيم اللصوص ، فقال أحد الاخوة : لقد نجا اللعين مرة أخرى .

وضمدوا جراحهم مسرعين وقالوا : لنتحرك من هذا المكان قبل حلول الظلام وقبل انتشار الأسقام .

ولكن جفر البطل أصيب ببعض الجروح المؤلمة ، فمرض منها مرضا شديدا لم يستطع منه متابعة

المسير معهم، ولم يعد يستطيع الجلوس على ظهر الحصان، فطلب من اخوته أن ينقلوه إلى أقرب مدينة ، ويستأجروا له منزلا يأوي إليه مع زوجته الأميرة الصغيرة ، ويستمروا هم في مسيرهم للوطن ، وبعد نقاش وافق الاخوة على أفكار جفر الذي قد يطول مرضه ، ونزلوا في مدينة صقر وبقيت معه زوجته الأميرة الصغيرة ، وسار الاخوة طالبين بلادهم .



ولكن اللص ذو اليد المقطوعة بعد أن ضمد جراحه هو الآخر، تتبع الاخوة لينتقم منهم ويوقع بهم ، فقد دخل على أحد الملوك ، واشتكى إليه أمر هؤلاء الفرسان ، فتمت محاصرتهم والقبض عليهم ، ولما حضروا بين يدي السلطان وكشفوا له نسبهم احتار في الأمر كيف يصدقهم ؟

فقال بعد تفكير : سأرسل رسولين ، أحدهما إلى بلعام يأتينا بخبركم ، والثاني لجلفار حتى تطمئن النفس لكم ، ويمكث هذا الرجل المقطوع اليد تحت يدنا حتى يرجع الرسولان بالخبر اليقين .

الرسول الذي سار لبلعام عاد قبل الرسول الآخر ، وقد جاء بأخبار غريبة، وأكد أن للملك فرهود سبعة أبناء خرجوا يبحثون عن سبع أميرات ولم يعودوا بعد ، وأخبره أيضا بأن وزير فرهود تمرد عليه ، واستولى الوزير صغرد بن براغد على الحكم ، وسجن الملك في سجن عميق حتى الموت ، ولما سمع الأمراء هذا الخبر طار صوابهم ، وقالوا هائجين : هذه خيانة كبيرة والخائن لابد أن يلقى جزاءه !

ونترك القوم ينتظرون الرسول الذي ذهب لمدينة جلفار ، ونعود للأمير جفر بن فرهود ، استمر السقم معه شهرا من الزمان ، ثم أخذ في التعافي شيئا فشيئا ، ولما تكاملت العافية سار بزوجته الأميرة نحو بلعام ؛ ولكنه أخذ طريق جبل غمران لزيارة الشيخ العجوز ، ولما وصل إليه وجده ما زال على قيد الحياة ، فقص عليه قصتهم منذ فارقوه حتى الزواج من بنات شعفاط ، ثم سأله عن اخوته هل مروا عليه أثناء عودتهم ، فاعلمه بأنه لم يرهم منذ فارقوه سائرين لبلاد جلفار ،

فقلق جفر لذلك ؛ وظن أنهم ساروا نحو بلدهم مسرعين ، وبارك له الشيخ عروسه ، ثم ودعوه ومشوا حتى وصلا الغابة التي مر ذكرها في أول القصة ، عندما التقوا بالرجل الأشيب وأرسلهم لشيخ الجبل ، ومشى الأمير إلى الشجرة التي جلس واخوته عندها ، فوجد عندها رجلا فسلم عليه ، وعلم أن الرجل من مدينة بلعام ، ففرح جفر وسأله عن المدينة وأهلها وعن الملك فرهود فقال الرجل بحزن : أيها الغريب الملك فرهود اليوم يقبع في قاع السجن .. لقد أصبح أسيرا عند الوزير صغرد الذي توج نفسه ملكا على البلاد .

صدم جفر بهذه الأخبار فقال بصوت مبحوح : أيها الرجل أتعقل ما تقول وتتكلم؟! .. اصدقني القول .. ما هذه الأخبار التي أسمعها منك ؟

فقال الرجل : أيها الفارس الجميل ! .. إنني لا أكذب عليك .. ولكني أراك متأثرا جدا من الحال ..هل أنت من أهل البلاد وكنت في سفر؟!

فقال جفر : اخبرني بالأمر مفصلا ؟ وسأقول لك من أنا عندما اطمئن لحكايتك .

فعاد الرجل يقول : القصة أيها الفارس .. إن الملك فرهود طمع بالزواج من ابنة صغرد الفتاة الصغيرة ، فرفض أبوها لسن الملك ، ولشباب ابنته الساحرة .. وسمعنا أن الملك غضب على الوزير ، وأراد خلعه عن الوزارة ، وكان للوزير أعيان وجنود فاستعان بهم على فرهود ، وحدثت معركة عنيفة بين أنصار الرجلين ، وتم على أثرها اعتقال الملك فرهود ، ونبذه في أحد السجون أو الآبار العميقة .. ومن سوء نصيب الملك أن أولاده السبعة خرجوا من البلاد يبحثون عن زوجات أخوات أميرات ، فتملك الوزير وأعلن نفسه أنه الوريث الشرعي للعرش ، وبواسطة رجاله وأنصاره وجنوده المخلصين تخلص من جنود الملك ، فاضطر أكثرهم للهرب في الجبال خوفا من بطش الوزير وأعوانه .. وما زال التوتر قائما سائدا في المدينة، والصراع على العرش مستمرا ، وكان الوزير قد غرر بأحد القادة أثناء الفتنة ووعده بتزويجه من ابنته إن تغلب على الملك وأعوانه ، وما زالت المشاكل قائمة بين الوزير وهذا القائد ، فالقائد يطالب الوزير بإعلان هذا الزواج ، والوزير يماطل ويؤجل حتى تستقر أحوال البلاد والعباد..

فهذه حكاية مدينتنا أيها الفارس الجميل.

استمع الأمير لهذه الحكاية ، وبعد برهة من الصمت قال : أيها الرجل وأولاد الملك السبعة لم يعودوا من رحلة بحثهم؟

فقال الرجل بحزن : للأسف لم يعودوا لحتى الآن ، ولا أحد يعلم إلى أين ساروا ؟

فقال جفر : أتعرف أبناء الملك أيها الرجل لو رأيتهم ؟

فقال الرجل : نعم ، أعرفهم ، لقد كنت أعمل في أحد بساتين الملك فرهود قبل حبسه .. ولقد صدف أن رأيت بعضهم ، وإن لم يكن ذلك كثيرا لانشغالي بحديقة صاحب التاج فرهود بن سرهد .. ليتهم يعودون سالمين.. لعل الحال تتغير ويعود الهدوء والسلام إلى المدينة بعد هذه المحنة والموت الذي أصابها .

فقال جفر بهدوء وهو يضع عينيه بعيني الرجل البستاني : أتعرف جفر؟ فأنا جفر بن فرهود بن سرهد حاكم هذه المدينة .

وتعانق الرجلان وقال الرجل : لقد شعرت بأنك جفر ابن سيدي ومولاي الملك فرهود .. ولكني خشيت أن أقول ذلك وأصارحك به قبل أن تفوه به أنت ؛ لأنك خرجت مع اخوتك وعدت وحيدا ، بل سألتني عنهم فخشيت أن تكون شبيها له .. فصبرت نفسي حتى أسمع ذلك منك فمرحبا أيها الأمير .

ـ إذن عرفتني أيها الرجل الطيب أريد أن أتصل بأعوان الملك فرهود .. كيف يمكنني ذلك ؟

ـ نعم ، يا سيدي ..علينا بإخراج الملك من سجنه ..أيها الأمير سأدخل المدينة وآتيك برجل كبير منهم .. واحذر الدخول قبل أن ترى أعوان وأنصار أبيك .. في الليل نجتمع تحت هذه الشجرة المباركة التي جمعتنا عن غير ميعاد .. وأما عروسك الجميلة ؛ فإذا أحببت أن استضيف عروسك في بيتي افعل .

ـ لا بأس وليس الآن عندما اجتمع برجل والدي الرجل المهم .. أفعل بعون الله .

عندما اشتد ظلام الليل أوقد الفارس نارا يصطلي بنارها هو وحليلته ، وقبل نصف الليل كان

الرجل المهم يجلس مع ابن مليكه ، فعرفه جفر إنه القائد رال فقال جفر : ما الأمر أيها القائد ؟!

قال الرجل : الحمد لله حمدا كثيرا لأنك لم تدخل البلدة .. وأهلا بك أيها الفارس .. لقد دهشت عندما ذكر لي فاجي إنك بغابة السباع .. فتنكرت وهرعت إليك .. ماذا حدث لكم لقد طالت غيبتكم ؟! .. فاستفرد الغادر صغرد بالملك بعد أن أمال قلوب كثير من ضعفاء القادة نحوه .. فخلع الملك الشرعي ، بل حبسه في جب عميق ، وقتل كثيرا من القادة والأمراء المخلصين ، ونجوت بفضل وقدر من الله ، وظنوا أني ميت وما عدت على قيد الحياة ونصب الغادر نفسه ملكا على بلاد البلعام .

قص جفر على القائد قصته واختفاء اخوته ، ثم تساءل : هل وصلوا للوزير فأخفاهم أو تخلص منهم أم تعرضوا للقتل في بلاد أخرى ؟! .. ولكن من المهم الآن استرداد الملك والقضاء على الخونة .. ثم نفكر في أمر الاخوة ..ما العمل أيها القائد العظيم المخلص ؟

أجاب رال : هناك الكثير من الجنود والقادة والأمراء هربوا إلى أعالي الجبال .. سأتصل بهم وأخبرهم بوجودك .. فسوف نحشد ونجمع الجنود ، ومن ثم ندس بين جنود الوزير خبر عودتك ، فمن لم يهرب وينضم إلينا سيتردد في القتال ضدنا .. وأكثرهم الخوف يمنعهم من التمرد .. ولكن كيف سأراك واجتمع بك ؟

ـ سيكون فاجي البريد بيننا .. سأترك الغابة وأنزل في طرف المدينة في أحد أكواخ الفقراء وأرسل إليك فاجي .

ساروا نحو المدينة ، فدخل رال المدينة على حصان جفر ، وقاد خلفه حصان الأميرة ، وسكن جفر في كوخ خال من أكواخ الفقراء الذين ترك أكثرهم المدينة نحو مدن أخرى هربا من آتون الحرب والفتنة التي عصفت في البلدة ، ولما عرف فاجي مسكن ابن الملك دخل لقلب المدينة مع الفجر ؛ ليكون البريد بين القائد رال والأمير جفر .

انتشر في المدينة بعد حين من الزمن هرب كثير من الجنود الذين انضموا للوزير الملك ، صعدوا

للجبال ، وعلم الملك صغرد بذلك فتعجب من الأمر .. فقال لوزيره : ما الخطب أيها الوزير سمعت من بعض الحرس أن الجنود تترك الجيش وتصعد للجبال ؟

رد الوزير القائد : أسمع وأرى مثلك ؛ ويقولون إن أبناء الملك فرهود عادوا أحياء ويطالبون بعرش أبيهم بعد هذا الغياب الطويل .

أخذ الملك يضحك ويضحك ثم صاح : ولماذا لم تقبضوا عليهم ؟!

رد القائد الوزير بسخرية : قلت لك إنني أسمع مثلك .. نحن لم نر أولاد فرهود .. قد تكون خدعة من خصومنا .. ليدب الوهن في جنودنا ..

جلس الملك وقال : أيها القائد الأمر خطير! .. والخطر عليّ وعليك وعلى كل المخلصين لنا .. فعلينا أن نتصرف بقوة وفطنة .

وجاءت رسالة للوزير المغتصب العرش من الامير جفر تدعوه لحقن الدماء والتخلي عن العرش ، والتوبة ، وإخراج الملك من حبسه ، وإعادته للحكم مقابل الحفاظ على حياته ، وحياة أنصاره ، والسماح بخروجهم من البلد سالمين وإلا الحرب الضروس ، وإن دارت الحرب بين الفريقين فلا سلام الا بموت أحد الطائفتين ، كان الوزير المغتصب في خوف وقلق شديدين لانتشار الهرب في صفوف جنوده عندما سمعوا بعودة أولاد الملك ، ولم يبق حوله الا المقربون ، وأخذ السكان يغادرون البلدة هاربين للجبال أو الانضواء تحت جيش الامير جفر ، فتشاور الملك مع القادة ، ولاغراء القائد الذي أصبح وزيرا لصغرد قال له : ايها الوزير سأزوجك من ابنتي سلاد إذا ساعدتني على المحافظة على التاج فوق هامتي .. وخلصتني من هؤلاء الأنذال الأوغاد .

فضحك الوزير القائد وقال : هذا العرض سمعته من قبل أيها الملك! فكلما يشتد عليك الخطر تقول لي ذلك .. فاطمئن أنا سأقاتل ليس من أجل ابنتك.. سأقاتل من أجل نفسي فإما حياة وإما موت .

تبسم الملك صغرد : يعجبني ذلك الكبر فيك ! وأنا لم أقصر معك ، فقد جعلتك وزيري وسوف

تكون صهري أيها الباسل .

كثر أعوان الأمير جفر لما عرفوا أن ابن الملك سيقودهم لإنقاذ البلاد من الغاصبين ، فاجتمع الأمير في حشد كبير منهم ، وخطب فيهم حاثا لهم على الصبر عند اللقاء ، والاستعداد لأخذ الثأر من الوزير الغادر وأعوانه ، ولما كمل استعداد الجيش زحفوا نحو قلب المدينة بقيادة الأمير جفر والقائد رال ، وقامت معركة كبيرة في وسط المدينة راح ضحيتها آلاف الجنود والفرسان ؛ ولكن النصر في النهاية كان حليفا للأمير وجنده ، فلقد انتصر جنود الملك على خصومهم، وهرب قادة صغرد الذين لم يقتلوا أثناء العراك ، وحوصرت قصورهم ، وذهب صغرد في اللحظات الأخيرة إلى سجن الملك فرهود وقبل رجليه قبل يديه ، فعجب الملك الهزيل من هذا التصرف ، وظن أن الندم عصف بفؤاد وزيره فقال له : ويحك ماذا تصنع أيها الخائن اللئيم ؟! فقال وهو يبكي : مولاي الملك كلي ندم وحسرة !.. أنا أصاب عقلي خبل عندما رفضت تزويجك من ابنتي .. ساعة جنون أيها الملك السعيد! .. ابنتي سلاد حليلة لك على أن تعفو عن جرمي الكبير .

ازداد الملك المخلوع عجبا من أقوال وزيره المتكبر المتغطرس منذ شهور، فعاد يردد : ما الخطب أيها الغادر اللئيم؟!

ازداد الوزير بكاء ونحيبا وقال : العفو عند المقدرة أيها الملك! .. لقد ندمت وسأذهب بك لتجلس على عرش آبائك.. وسأبقى هنا مكانك في هذا الجب حتى تعفو عني .

وصاح الوزير الملك بالسجانين بأخذ الملك فرهود إلى قاعة العرش ، وقبع مكانه في السجن ، وأوصاه على ابنته إذا قرر التخلص منه ، ورغبه باتخاذها قرينة له .



استسلم جنود وأعوان الوزير الذين لم يهربوا للملك فرهود والأمير جفر ، فنبذ أكثرهم في السجون والآبار ، وقتل بعضهم تشفيا وانتقاما ، واستقر الملك الجبار على كرسي الحكم من جديد ، فأزهق الأرواح حتى هدأت نفسه من كثرة القتل والتعذيب ، ولما عاد الهدوء للمدينة بعد هذه الفتنة التي مكثت أكثر من سنة ، وغسلت المدينة من الدماء التي سالت في أحيائها وشوارعها ، وأهلك كل القادة الذين ناصروا صغرد إلا من هرب ونجا بجلده حتى لم يبق إلا صغرد رئيس الخيانة، ثم عين الأمير باعد وزيرا للملك ، وجعل رال كبير قادة الجيش والعسكر وكان فرهود سعيدا بولده جفر، وكلفه بالقيام بالبحث عن إخوته ، فأوصى والده على زوجته الأميرة ، وصحب معه صاحبه زاد في رحلة البحث عن الأخوة المفقودين .



اخوة الأمير جفر

وبعد مسير وسؤال علم أنهم في مدينة خماس عند الملك جلاد بن وداد ، فدخلا المدينة يتسمعان الأخبار ، فتأكد له أن إخوته في ضيافة الملك جلاد ، فكتب رسالة على لسان والده الملك فرهود وقال لرفيقه : سأذهب بها للملك .. وإذا لم أعد حتى الليل فعد لبلعام ، وأخبر مولاك بالأمر يا أخي زاد .

وتركه في الخان وسار إلى قصر الملك ، وأعلم الحرس أنه يحمل رسالة من الملك فرهود بن

سرهد ، فأدخلوه على الحاكم ، وأخذوا الرسالة وقرأوها وعلموا ما فيها ، ثم قال الملك : أيها الرسول .. إنك كاذب .. فنحن نعلم أن الملك فرهود في السجن ، وأن الملك عليها اليوم وزيره صغرد .. وهذه رسالة غير مختومة بختم الملك .

تبسم جفر وقال : كان هذا الذي ذكرت ، ولكن الأمور عادت لنصابها ، فقد عاد فرهود سيدا وملكا على البلاد ، وصغرد يقبع اليوم في أعمق سجن في المدينة جزاء خيانته .. وأنا الأمير جفر بن فرهود جئت بنفسي لتطمئن على سفارتي ، وتعفو عن إخوتي.. ولك أن تتأكد من صدقي أيها الملك .

قال جلاد : أنت الفارس جفر .. مرحبا بك في بلادنا .. هل تعلم أنه جاءتني رسالة من ملك جلفار يطلب بناته السبعة واعتقالكم ، وأنه في الطريق إلينا .. فما العمل الآن ؟

فقال جفر : وكيف علم الملك شعفاط بن مطاط بوجودهن عندك؟ لقد تركنا بلاده وهو لا يعلم أين هربن ؟!

فروى جلاد القصة ، فقال جفر في النهاية : حسنا أيها الملك .. الرسول هو الذي كشف الأمر للملك شعفاط .. سأرسل لوالدي ليمدك بالجنود حتى نسوي هذا الأمر مع شعفاط .

واجتمع الأمير جفر بإخوته ، وبشرهم بقرب الفرج ، وقص عليهم عودة فرهود للحكم من جديد ، وأخبرهم أن الملك شعفاط قادم الينا ليستلمنا من الملك جلاد

علم فرهود بالخطر المحدق بالأولاد المحبوسين في مدينة خماس ، وما يتهددهم من خطر غزو شعفاط ، فأمر القائد الكبير رال بالمسير بجيش كبير إلى تلك المدينة لإنقاذ الأمراء والعودة بهم وصل شعفاط بن مطاط بلاد الخماس ، والتقى بالملك جلاد ، وطلب منه البنات والأولاد الخاطفين ، فتقدم الأمير جاد بن فرهود وهو الابن الأكبر فقال : يا ملك الزمان أنا جاد بن فرهود ملك مدينة بلعام .. وهو إليك قادم اليوم أو غدا.. فهل لك أن تسمع حكايتنا قبل نشوب القتال بيننا ؟!

وقص عليه جاد قصتهم منذ خروجهم من المدينة سعيا وراء سبع أميرات أخوات للنكاح منهن

رغبة في تحقيق مطلب والدهم ، فبحثوا هنا وهناك حتى أرشدوا لبناته ، فلما علموا بعدم رغبته بتزويجهن اضطروا للهرب بهن بعد اتفاق بينهم وبرغبتهن السبعة ، وهذا سبب خروجهن خفية وحثه على الرضا بما جرى ، وأن العفو والصفح خير من إراقة الدماء وإزهاق الأرواح ، والصلح خير من العناد ، فغضب شعفاط غضبا قويا لما سمع آخر الكلام ، واحمرت عيناه حتى أصبحتا مثل الجمر ، وأبى إلا أن يأخذ البنات والأمراء السبعة وإلا دمر المدينة على أهلها ، وبينما هم يتفاوضون جاءت الرسل تعلن وصول جيش فرهود بقيادة القائد المعروف رال .

فقال جلاد : يا ملك الزمان .. أنا عندما أرسلت رسولي لبلادكم أرسلته مستفسرا لنتأكد من صحة ادعاء الأمراء ؛ ولكنه وقع في أيديكم فاعترف بالغاية التي دخل بلادكم من أجلها .. فحبستموه ، وجاءني رسولكم فأكدنا له سلامة البنات وخطر تسليمهن علينا من الملك فرهود ولما انتهت المراسلات أقبلتم علينا بجيشكم.. وها هو جيش فرهود حل بديارنا .. فأرى يا ملك الزمان أن تبارك هذا الزواج .. فهو خير من القتل والقتال يا ابن الكرام .

فصاح شعفاط وقال : أنا لا تخيفني جنود الدنيا كلها .. أنت ملك جبان !.. جئت بنفسي إكراما لك أيها الجبان لاستلامهن وترفض .. أتخاف فرهود أكثر منا ؟!.. فلسوف ترون الحرب أيها الجبناء .

وخرج لمعسكر جيشه غاضبا ومعه حاشيته ، وقال الملك جلاد بعد انصرافهم : كل هذا من اللص اللعين .. نحن قريبون من بلاد البلعام .. وبلاد الجلفار بعيدة عنا .. فهم لا يستطيعون حمايتنا باستمرار..فما ترى يا وزيري ؟.

فقال الوزير : هذه محنة كبيرة .. فشعفاط ملك جبار .. وفرهود لا يقل عنه قوة وطغيان .. ومصلحتنا مع أقرب المدن إلينا.. فبلاد جلفار تحتاج لوقت طويل للاستعانة بها في الدفاع عنا من غزو الملك فرهود .. فلنضغط نحو الصلح وليكن ضغطنا لصالح الملك فرهود .

أرسل جلاد وراء الأمير جفر واطلعه على جلية الأمر ، فقال جفر : لا تخافوا فنحن معكم .. سأدبر الأمر مع الملك شعفاط .. فهو والد زوجاتنا.. فالأمر ليس سهلا بالنسبة لكم ولنا .

فقال الملك كالمستغيث : تصرف أيها الفارس فإنك ذكي .

التقى جفر واخوته بالقائد رال وكان لقاء الأحباب ، وأرسل الأمير جفر صديقه زاد لمعسكر شعفاط يطلب منه الاجتماع لحل هذه القضية في قصر جلاد بن وداد ، فأرسل شعفاط وزيره لقصر الملك ، فاستقبله ابن وداد وجفر ، فلما رأى الوزير جفرا صاح دهشا : ويلك ! ألم نتقابل من قبل ؟ .. من أنت أيها الفارس ؟

تبسم الفارس لدهشة الوزير وقال : أنا الأمير جفر بن فرهود صاحب بلاد البلعام وزوج ابنة الملك شعفاط بن مطاط .

فقال الوزير : أظن أنني رأيتك قبل هذه الساعة .. أليس كذلك أيها الفارس ؟!

اتسعت ابتسامة جفر وقال : بلى .. لقد رأيتني أيها الوزير الطيب .. لقد كنت ضيفا عندكم في بلادكم .. وتبارزت مع كثير من فرسانكم .. وكنت حارسا على قصر الأميرة الصغيرة شلا .. هل تذكرتني الآن أيها الفارس ؟

فراح الوزير يضحك ويضحك ، ولما هدأ قال : أجل أجل ..الفارس الأمين الذي تعهد بالبحث عن الأميرات المخطوفات طمعا بالزواج منهن.. فأنت إذن الذي هربهن أو أقنعهن بالهرب من قصر والدهن .. إنك مغامر جريء وفارس لا يستهان به .. لن نتفاوض أيها الفارس عليك أن تقابل الملك .. وسأساعدك لأنني أحب الشجاعة والأقدام والمغامرات .

فقال جفر : حقا ما تقول أيها الوزير !

قال الوزير : نعم ، أيها الفارس .. وهل سيجد مولانا خيرا منك فارسا لابنته ؟ .. أنني أتذكر يوم رأيتك تبارز فرساننا وتجندلهم عن خيولهم يوم عيد الفرسان .. لقد كنت فارسا صنديدا سأدبر لك الأمر مع الملك .

قال جفر من الفرح : تكون خير وزير في الدنيا .. وتكون قد صنعت خيرا عظيما وجنبت الناس ويلات الحرب والموت .

قص جفر على الوزير تفاصيل القصة ، وعاد لسيده الملك شعفاط وقص عليه الأمر ، فسكت

الملك طويلا ثم قال : أليست هذه خدعة ومكرا تعرضنا لها ؟

قال الوزير : هو ما تقول ؛ ولكن لم يكن أمامهم للوصول للأميرات إلا بتلك الحيلة .. ولولا رغبة البنات بالزواج بهم ما وافقن على المخاطرة .. وهذا من حقهن .. ولا تصغ لنبؤات الكاهن بل هذا حل لكل الهواجس التي يلقيها الكاهن في أذنيك من خطر البنات على الملك فها هن تزوجن في بلاد بعيدة جدا عن بلادنا .. فلماذا الحرب ؟! .. وإذا صممت على القتال .. فنحن مستعدون له حتى آخر جندي .. وإنني لك ناصح ومطيع .. واعلم يا سيدي أن بناتك لن يجدن خيرا من هؤلاء الأمراء الأخوة السبعة .

فقال الملك : هذه أول مرة أحس فيها بالضعف!.. إن جفرا فارس قوي وشجاع ومقدام .. لقد شاهدته يوم عيد الفرسان ؛ كأنه سبع الغاب وظننته من أهل المدينة طامع في المراتب الرفيعة .. أيها الوزير لابد من رؤيته ورؤية البنات قبل حسم الأمر .

فرح الوزير لنجاح وساطته بحقن الدماء ، ومباركة الملك زواج بناته والخلاص من وهم خطرهن على العرش والملك ، فأرسل حاجبه للأمير جفر والملك جلاد ليطلعهم على ما بذل الوزير من جهد لإقناع شعفاط ، وأن الملك يرغب بالحديث مع جفر والبنات .

وسار جفر وحيدا للقاء الملك شعفاط ، فلما رآه نهض قائما عن كرسيه وقال : أهلا بالفارس الحارس الأمين .. ما الذي فعلته بنا أيها الشجاع ؟

قال جفر : كان يا مولاي لابد من الحيلة والشجاعة لتحقيق المرام .. وما زلت الحارس الأمين ومحافظا على الأميرات السعيدات .. فيا سيدي الملك أرجو أن تقبل اعتذارنا .. والزواج حق لكل مخلوق يدب على الأرض .. وإرادة الله أن ساقتنا لبلادكم ..ولولا رضا الأميرات وشجاعتهن وتعاونهن ما تمكنّا من السير بهن إلى هذه البلاد .

فعاد الملك للجلوس وقال : لابد من الاستسلام لكم يا أولاد فرهود لقد هزمتموني ، ولكن لابد من رؤية البنات وسماع كلمتهن الفصل .

فقال جفر : سيأتين لرؤيتكم أيها الملك العظيم.. فإني أرجوك أن تتلطف بهن وتحسن إليهن أما

شلا فهي في بلعام .. فإن أحببت أن تراها سأرسل وراءها ولكنكم قد تتأخرون لبعد المسافة بين البلدين .

قال الملك : نسمع ونرى الموجودات .

أرسل الأمير جفر وراءهن ، فحضرن يسلمن على والدهن ، وهن يبكين ويعتذرن ، فقال لهن وقد رق قلبه لهن : لا تكثرن البكاء أنتن اللواتي وافقتن على ترك العز والجاه أم ترغبن بالعودة إليه .

ولكنهن اخترن البقاء مع أزواجهن ، فودعهن الملك بغضب وعتب ، وأوصى عليهن الأمير جفر ، فوعده خيرا ، وتمت المصالحة ، وفرح الملك جلاد لهذه النهاية الطيبة ، وأولم لهم الطعام ، وبعد ثلاثة أيام انصرف كل ملك وأمير لبلاده ، وقدم الملك جلاد اعتذارا لأولاد الملك فرهود ومشى جفر والأمراء والقائد رال والجند نحو بلادهم ، وهنا دخل الحسد إخوة جفر على ما أعطي من قوة وذكاء ونفوذ ، فاتفقوا على الخلاص منه قبل الوصول لبلعام خشية أن يصبح ملكا عليهم بعد موت الملك فرهود .

وأحس الأمير جفر بما في صدور إخوته نحوه من الحسد والحقد والغيظ ، وعجب لذلك ، ولم يستطع أن يفعل لهم شيئا ليردعهم ؛ ولكنه أخذ الحيطة والحذر من غدرهم ، وصارح صديقه زاد بما يشعره من خطر الأخوة ، وأن الغيرة قد تكون قاتلة .

وزاد هذا الصاحب له قصة قديمة يعلمها جفر قبل خروجه مع إخوته من بلعام للبحث عن الزوجات الأميرات ، حثه جفر على الصبر حتى تعود الأمور لم كانت عليه قبل فتنة الوزير صغرد ، ولما علم زاد بما يحاك لصديقه جفر تألم ، وقال هو لجفر : فلنترك إخوتك يتآمرون عليك ولنسرع لنلحق بالجيش ؛ فإنهم يحبونك ، ولن ينال أخوتك منك شيئا وأنت في قلب الجيش .

قال جفر : لا ، بل أرقب ما يكيدون به.. ليس من الفطنة أن تظهر أحقادنا وحسدنا بين الجنود ولا أريد أن يكبر الصراع بيننا فيحصل انقسام بين الجنود .. عليك بمراقبتي والابتعاد عني لأنظر ما الذي يريدون فعله ويدبرونه .

فأعلن زاد أمام الأمراء رغبته باللحاق بالجيش الذي كان يتقدمهم بأيام قبل دخولهم المدينة ، وانطلق على جواده واختبأ ببعض الطريق حتى مر عليه الأخوة السبعة ونساؤهم ، وأصبح خلفهم وهو قلق على صديقه من الغدر والحسد والقتل غيلة ، وقد كان الأمير جفر وعده بالزواج من الأميرة سلاد ابنة الوزير الغادر ، رغم طلب الملك فرهود الزواج منها ، وكان يرى أنه لن يساعده في ذلك سوى جفر فإن ذهب جفر ذهبت سلاد ، فهو أمله في تحقيق غايته ، فحياة جفر مهمة بالنسبة له الآن، وكان يقول لابد أنها خائفة ومضطربة وأمرها سيئ ، فهي مختفية عند أمه العجوز حتى يتيسر لهما النكاح .

جفر لم يطلع على الخطة المبيتة لاغتياله ، وكيف سيتخلصون منه ؟ ولكن بحسه المرهف أدرك ذلك ، والذي شجع إخوته على الاتفاق على قتله ما فعله من استرداد عرش والدهم والتفاف الشعب حوله ، ومغامرته بنفسه للوصول إلى الأميرات وغير ذلك من الأمجاد مما يؤهله للجلوس على كرسي الحكم دونهم ، فحصلوا على السم ، وقرروا أن يسقوه له في كأس شراب وبمراقبته لهم عرف الأمر ، وفي ذات ليلة قدم له الشراب المسموم ، وكان قد أكل عشبة تبطل مفعول وتأثير السم الذي أسقوه إياه ، وتظاهر بالموت، فبكوا عليه أمام نسائهم ، ودفنوه في كهف بدون تراب ، ثم تابعوا مسيرهم مسرورين بما فعلوا ؛ وكأنهم لم يفعلوا شيئا خطيرا ، فلما ابتعدوا عن الكهف ، وأخذوا نساءهم منصرفين نحو بلادهم ، مكث زاد عند جفر حتى استفاق من غيبوبته ، وشرب الماء واسترد صحته ، وقال زاد : أرأيت ما أقسى قلوب البشر أيها الصديق ؟!

فقال جفر : الحسد أيها الصديق ! ألم يكفر إبليس حسدا لأدم ؟ ألم يقتل قابيل هابيل حسدا ؟

قال زاد مقتنعا : معك حق !

فقال جفر : لقد أدركت أنهم سيضعون لي السم عندما نزل فرد للمدينة على غير العادة ، ومن أجل هذا تبعته خفية ، واشتريت من نفس المكان عشبة تبطل مفعول السم على أن يظهر عليّ الموت ، ويضعف نبض القلب .. والحمد لله لقد نجحت الحيلة .. وسندخل المدينة يا زاد

متنكرين على شكل حطابين .



نترك الأخوة سائرين نحو مدينتهم بلعام ، ونعود لبلعام قليلا ، فلما خرج الجيش لمساعدة أبناء الملك في محنتهم ، أحضر الملك فرهود الوزير بين يديه وهو مكبل بالحديد والقيد ، فقال شامتا ساخرا : كيف ترى نفسك الآن أيها الوغد ؟

فقال بذل وانكسار : أنتظر جزائي .. انتظر الموت أيها الصديق القديم!

فضحك الملك عاليا ثم قال : أيها الوزير أحضرتك لأطلب يد ابنتك منك .. ولعلي بعد النكاح أن أشفق عليك .. فأطلق سراحك.. فاذهب مع الجنود الأشاوس ، وأعلمها برغبتي ، وأحضرها للقصر بعد أن تحسنوا زينتها لتدخلوها عليّ بأحسن الحلي والثياب ، فالأميرة سلاد لا تصلح إلا أن تكون زوجة للملوك .

وسار الوزير على ظهر حمار ومعه الجنود إلى منزله ، وطلب زوجته التي أخبرته بهرب الأميرة منذ زمن فصاح : كيف هربت أيتها المرأة ؟!

قالت : خرجت يوما لتحاول إنقاذك ولم تعد .

فقال : أين الخدم والحرس؟

فقالت : انصرفوا ولم يبق إلا أنا .

فصاح : ولماذا بقيت ؟!.. أيها الجنود عودوا بي للملك .

ولما سمع الملك بذلك انزعج ، وكاد أن لا يصدق ، وسمع الوزير يقول : مولاي!.. جدها، وهي لك بدون شرط وقيد .. هي جارية لك .. اقتلني أيها الملك .. ما عاد للحيات عندي طعم حتى ابنتي خانتني وهربت .

فطلب الملك من وزيره باعد أن يفتش عن الأميرة سلاد ، وبينما الملك ووزيره مشغولان بالبحث

عن سلاد عاد الجيش ، ودخل رال على الملك ، واعلمه بما جرى في مدينة الملك جلاد بن وداد ، وأن الأمراء سيصلون قريبا ، ومعهم زوجاتهم فسر الملك بهذه الأخبار .

وصل الأولاد وزوجاتهم الستة ، ولم يكن بينهم جفر ، ولما أخبروه بموته المفاجئ صدم وحزن الملك ، وأعلن الحداد في البلاد ، فعجب الناس والجنود ، فسارت شائعات بين الناس أن الأخوة تخلصوا منه وغدروا به ، ووصلت هذه الشائعة لأذن الملك فطلب أولاده ، وقال لهم بشدة : كيف تتركون جثة أخيكم بكهف للوحوش ؟!

وأمرهم بإحضار الجثمان ، فذهب ثلاثة من الأخوة وعدد من الفرسان والخدم للإتيان بالجثة ودفنها في المدينة ، ولما عادوا رجعوا من غير جثة ، ولم يجدوا له أثرا حتى لثيابه وملابسه ، وحتى سلاحه الذي دفنوه معه كعادتهم في بلادهم، فقلق الأخوة من الأمر ، وأقنعوا أنفسهم بأن الوحوش أكلته ، وأن الرعيان سلبوا سلاحه مع اقتناعهم التام لو أن الحيوانات أكلته لتركت شيئا من ثيابه ، فغضب الملك عليهم وعلى استهانتهم بجثة أخيهم ، وتعذروا بعدم دفنه بحفرة عميقة بالعجلة إلى اللحاق بالجيش الذي سبقهم بأيام .

مضت الشهور وانتهى حزن الشعب على الأمير الشجاع الذي يقطن المدينة متنكرا هو وصاحبه زاد على هيئة حطابين ، مرض الملك مرضا ، ظن الناس أنه مشرف على الهلاك ، فحث الأمراء والوزراء الملك على تعيين وريثا له على الملك حتى لا يتنازع الأخوة التاج ، وتنقسم البلاد وتحدث فتنة بين العباد ، فجمع الملك أبنائه الستة وأمام الأمراء والأعيان قال لهم : أتسمعون بمدينة النحاس ؟

فقال بعضهم : نعم ، أيها الملك السعيد .

فقال الملك : عند حاكم وملك هذه المدينة سيف عجيب .. فمن استطاع منكم الحصول عليه قبل الآخرين فهو عليكم ملك .. هل سمعتم أيها الأبناء ؟ .. هل سمعتم أيها الأعيان ؟ .. من يجلب السيف العجيب من بلاد النحاس أولا فاجعلوه عليكم ملكا .. انصرفوا من عندي .

خرج الأبناء من قاعة العرش وهم في غضب شديد لمطلب أبيهم الجديد ؛ ولكنهم بعد نظر

وتدبر رأوه حلا مناسبا ، سمع الأمير جفر بمطلب أبيه أمام الأمراء والوزراء ، فطلب من رفيقه زاد بالمسير معه في هذه الرحلة ، كان الأمير جفر خلال مدة اختفائه قد خبأ وأخفى زوجته الأميرة الصغيرة ، فظن الناس أنها هامت على نفسها حزنا على موت زوجها فاختفت ، وكان الأمير زاد قد تزوج هو الآخر من الأميرة سلاد سرا ، فودع كل واحد منهما زوجته وانطلقوا إلى مدينة النحاس ، فمر جفر على شيخ الجبل ، وسأله عن مدينة النحاس ، وكيف الدخول إليها فقال الشيخ الهرم : أحسنت يا ولدي بحضورك إليّ.. إني أعرف هذه المدينة كما أعرف غيرها من المدن العظام .

وقص عليه جفر قصته ، وما صنعه به أخوته من الغدر واللؤم ، وهم يعتقدون الآن بموته فعقب الشيخ قائلا : ما أسوأ الطمع والحسد !! .. اعلم يا ولدي أن هذه المدينة في وسط البحر البحر المالح .. وتبعد عنا عشرين نهارا .. تقطع جبل غمران هذا من قمته حتى تصل البحر ، وتركب إلى تلك المدينة فهي جزيرة في وسط البحر ، وسميت مدينة النحاس لأنها محاطة بسور من النحاس، وأكثر أبنيتها من النحاس ..فعندما تصل إليها ستجد على مدخل المدينة الرئيسي أسودا عظيمة .. فعليك أن تصطاد من البحر سبع كلاب بحر .. وتطعم كل أسد واحدا منها وبعد أن تأكل الأسود الكلاب السبعة ، يأذنون لك بالدخول ولا يصيبونك بأذى ، ولا تدخل حتى لا ترى على الأرض شيئا من اللحم .. وليكن هذا الأمر بالنهار ، ثم ادخل أيها الفارس وامش حتى تصل إلى قصر كبير في وسط المدينة وادخله بسرعة ، ولا تجلس فيه، ولا تتكلم مع أحد حتى تدخل قاعة العرش، فستجد الملك جالسا على عرشه ، وفوق رأسه السيف العجيب معلقا ، فخذه واخرج مسرعا ، إياك أن تكلم أحدا واحرص على أن لا يدركك الليل داخل القصر ، فهؤلاء الناس الذين تراهم في الشوارع في النهار لا يتكلمون ولا يفعلون شيئا وكذلك سكان القصر ، وعند دخول الليل بقليل تعود إليهم الحياة .. فاحذر أن تبقى في المدينة لليل أيها الفارس .. انصرف راشدا ولينتظرك صاحبك عند البحر، وفي اللحظة التي يراك فيها يجب أن يكون القارب مستعدا للابتعاد عن أبواب المدينة .

ودعا له الشيخ بالتوفيق ، وشكراه على نصيحته وخبرته ، وبعد أيام كانا عند البحر ، واستأجرا قاربا من أحد الصيادين في المنطقة ، ومشيا على متنه نحو الجزيرة القائم عليها مدينة النحاس ، وخلال مسيرهما كانا قد صادا سبعة كلاب بحر، فوصلوا للجزيرة بدون مشاكل وعواصف ، وربطا القارب على الشاطئ ، وقبل شروق الشمس التالي لوصولهما قدما الطعام للأسود وصبرا حتى أتمت الوحوش أكل الطعام ، ولم تبق منه شيئا ، فاندفع جفر سريعا نحو وسط المدينة حيث القصر الملكي ، وكلما سمع نداء أو صوتا لا يلتفت إليه حتى وصل القصر .. ودخل مسرعا حيث قاعة الملك ، فوجد فيها فتاة ترحب به وهي تقول : مرحبا بالفارس جفر !.. الفارس المتنكر بشخص حطاب .. أنا في انتظارك من مائة سنة .. كلمني أيها البطل الشجاع .. أنقذني مما أنا فيه من الأسر والهوان .

لم يتكلم جفر عملا بوصية الشيخ ، ودخل وتناول السيف عن رأس الملك ، وخرج مسرعا رغم استغاثات الفتاة ، وما ترك القصر ووصل البحر حتى كان الظلام يخيم على المدينة ، فركبا القارب وقفلا عائدين ، وبعد حين كان الصياد في انتظارهما على نار ، فدفع لهم ثمن القارب الذي أخذه ضمانا لقاربه ؛ ولكن جفر وهبه له ، وكان قد نقده الأجرة سلفا ، وشكراه ، وصعدا الجبل حيث الشيخ ، وبعد أيام كانا عنده فهنأهما بالسلامة ، وسمع الحكاية ، وتناول الشيخ السيف وأخرجه من غمده وهو يقول : أتدري ما هذا السيف يا أمير جفر ؟

أجاب الأمير : كلا .. فإنه سيف قصير لا يصلح للمعارك الكبار ..

ضحك الرجل العجوز وقال : هذا سيف مسحور! .. فإذا هززته جاءك سبعة من ملوك الجآن كل ينتظر أمرا من مالك هذا السيف بالقتال .

ونهض الشيخ وهز السيف بقوة وجلد ، فأضاء المكان من بريقه الخاطف، وكان بين يديه ملوك الجآن يصرخون : ماذا يأمر مولانا صاحب السيف الأزرق ؟

فقال الشيخ : أيها الملوك العظام .. أصبحتم تحت سيطرة الأمير جفر بن فرهود .

فقال أحدهم بقوة : نحن تحت إمرة حامل هذا السيف في كل وقت وحين .

وأدخل الشيخ السيف في غمده فاختفى الملوك السبعة على الفور ، وقال : أرأيت يا جفر ؟ وماذا ستفعل وقد ملكت السيف السحري وأبوك يعلم بأنك ميت ؟

فقال الأمير جفر : قل لي ما أفعل يا سيدي الشيخ ؟؟

فرد الشيخ الهرم قائلا : اكشف أمرك .. ولا تخش إخوتك.. ثم بعد ذلك اكشف أمر السيف.. ولن تجد إلا ما يسرك .. وسيجعلك والدك العجوز وريثا له.. وأنت تستحق ذلك أكثر منهم لسعيك الكبير في استرداد تاج والدك مع السلامة .



وودعا شيخ الجبل ، وسارا إلى المدينة ودخلاها وهم يلبسون لباس الفرسان في المدينة .. وكل من يراهما يقول لمن يجاوره : أليس هذا الأمير جفر ؟ ألم يقولوا إنه مات ؟

فيبتسم لهم جفر ويقول : بلى ، أنا جفر بن الملك عدت إليكم بعد غياب .. مت ثم بعثت .

تكاثر الناس حوله وهم يهتفون باسمه ويحيونه ، ويشكرون الله على عودته سالما حتى وصل الصياح والضجيج إلى القصر الملكي ، وخرج الوزير لينظر سبب هذه الضجة ، وهذا التجمهر فحدثه الحرس بالسبب ، فتعجب وعاد مسرعا للملك المريض وهو يقول باستغراب : هذا جفر! .. قد عاد من موته يا مولاي! .. ألم نقم الحداد عليه ؟!

فقال الملك : لقد كان عندي إحساس قوي أنه حي ، وأن مكر أخوته به فشل ، ولما اختفت الأميرة شلا زاد ذلك في قلبي .

دخل الأمير الديوان وإلى أبيه وقبله وحياه ، فعادت الحياة للوالد العجوز وقال : أين كنت كل هذه المدة يا ولدي؟!.. أين أخوتك؟!

كانت الأخبار قد وصلت إلى الأخوة ، فأقبلوا إلى القصر مسرعين وهم في خوف وقلق شديدين ، وبعضهم يظن أنه محتال متنكر بشخصية جفر ؛ ولكنهم لم رأوه وجموا وصاح بهم

الملك : ها هو جفر أيها الأوغاد ! ألم تخبرونا بموته ؟

فصمتوا فتقدم جفر وقال : أيها الملك السعيد ! هم ظنوا أنني ميت ، ولكني ذهبت في غيبوبة فألقوني في الكهف معتقدين بأنني مت .. وبعدما استيقظت منها لم أجد أحدا حولي سوى صديقي زاد الذي عالجني ، ولما تعافيت ، وعدنا وجدت الناس يتحدثون عن موتي ، فتظاهرت بأني ميت لأنظر ما يفعل اخوتي .. ولما علمت برغبة مولاي بسيف مدينة النحاس سافرت إليها وأحضرت منها السيف العجيب بعد جهد متواضع بذلته وصاحبي زاد .. ثم سحب السيف من غمده وهزه أمام أعين الناظرين بضع هزات فسمع الجميع سبعة من الجآن العظام يقولون : ماذا يأمرنا صاحب السيف الأزرق ؟ فحياهم جفر وأغمد السيف في غمده فاختفوا على الفور وقدمه لوالده ففرح الوالد بالسيف وقال : أنا قلت أمام الأمراء والأعيان واخوتك من يأتينا بسيف مدينة النحاس فهو الملك بعدي ، وقد علمت بمكر اخوتك بك .. وحسدهم لك رغم ما تفوهت به من برائتهم ، فهذا من حسن خلقك ، وصدق أيها الفارس لو عدت إليّ من غير سيف لجعلتك الملك من بعدي ، فأنت تستحق العرش لأكثر من سبب.. فيا أيها الوزير! أعلن على الملأ أن الأمير جفر بن فرهود هو ملك البلاد ، وعلى الجميع السمع والطاعة .. وأنا أتنازل عن العرش .. ولتبدأ الاحتفالات بتتويج ولدنا ملكا على البلاد .. وخذ هذا السيف يا جفر فهو حق لك .

وتدافع الأمراء إلى تهنئة الفارس بالتاج ، وارتفع صياح الناس في الخارج فرحا على اعتلاء جفر كرسي الحكم ، وأصاب أخوة جفر الحزن والغيظ ، وازداد الكره والحقد في قلوبهم ، وقال أحدهم : لماذا نغضب ؟ فوالله إنه يستحق الملك أكثر منا! .. أبونا طلب منا السيف ولم يتحرك منا أحد ، قلنا ننتظر موته ثم نتفق على ملك منا ، وبدأ كل واحد منا يحشد أنصاره .. فبايعوه واطلبوا منه السماح والغفران .

فقال آخر : هذا هو عين الصواب .

وذهبوا إليه نادمين ، وطلبوا منه أن يعفو عنهم ؛ ولكن فضولهم دفعهم أن يقولوا له كيف

نجوت من السم ؟!

فقال وهو يضحك : أنتم جهلاء ! عيونكم تفضحكم .. لقد أدركت ما جال في نفوسكم من غيظ وحسد ، فبدأت أحذركم وأخذت دواء ضد سمكم .. فقد عفوت عنكم ؛ ولكنني لا أحب أن أراكم كثيرا اعتزلوني أيها الاخوة واحذروا الغدر والمكر .

وتوج جفر ملكا على مدينة بلعام ، ولم يمكث الملك فرهود إلا قليلا حتى توفاه الملك القهار ، فتم دفنه بما يليق بالملوك أيام عزهم ، ثم عفا جفر عن الوزير صغرد ، وأخرجه من السجن إكراما لابنته سلاد وزوجها الأمير زاد ، وبارك الوزير المخلوع الزواج الذي تم بينهما ، وبذلك أيها الكرام انتهت قصة الأمير جفر ، وما جرى معه من الأحداث والمغامرات والأهوال .

وقالوا : إنه حكم في الرعية بالعدل والأنصاف، وكان حسن الجوار لمن جاوره من الملوك ، ولم يكن يحب الاعتداء والظلم ، فأصبح ذكره على كل لسان في ذلك الزمان .

تمت بفضل الله

قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

الأمير جفر



سبعة إخوة أمراء، مصّر والدهم على
أميرات
فتحركوا بحثا عن الأخوات
ثم خطفوهن من قصر والدهن الملك
و كان الأمير جفر اصغرهم قد قام بالدور الكبير في تحقيق
فحسده أخوته وخشوا أن يورثه الملك العرش
فتأمروا على موته ، وتظاهر بذلك الموت
ولم يصدق الوالد موته
فطلب منهم السيف السحري من مدينة النحاس
فجاء به جفر واعتلى كرسي الحكم
فكان ملكا عادلا


الفوارس
عبد الله البحري
جمال شاهين
منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

٣

جمال شاهين

١٩٩٣

عبد الله البحري

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

عبد الله البحري

جمال شاهين



قمر الليل

مرين أو مرينة مدينة ساحلية واقعة على ساحل البحر الكبير، ويحكمها ملك عادل من ملوك ذاك الزمان المجهول ، وهي مدينة الأسماك ذات الأشكال والألوان الباهرة الساحرة الصغيرة والكبيرة التي تدل على عظمة الخلاق العليم ، وكان لملك المدينة فتاة رائعة الحسن والجمال، قد بلغت من العمر الميمون خمسة عشر ربيعا ، وتتطلع إليها عيون الوزراء والأمراء لتزويجها لأبنائهم الشباب ، وكان من عادة الملوك في تلك المدينة تزويج بناتهم بعد بلوغهن السابعة عشرة وكان للوزير فتى يطمع بأن يتزوج من ابنة الملك عند بلوغها سن الزواج ، فكان يعد الأيام والساعات شوقا للتقدم إلى خطبة الفتاة قبل غيره من الأقران ، فالملك ليس له من البنات سواها فيرنو هذا الشاب أن يكون السابق إليها من بين أولاد السادة ، وكان غيره من الأبناء يستعد للمنافسة ، وما كان عندهم علم بما يقلق الملك ويثيره من أمر ابنته الوحيدة " قمر الليل " ، فمنذ سنوات انقضت أخبرته خادمة الطهي في القصر أن السمك يتكلم ، فكلما يوضع في مقلى القلي ينطق ويقول :"الأمير عبد الله البحري سوف يتزوج الأميرة قمر الليل، فانتظروا الأمير..!" تعجبت الخادمة من ذلك ، وتكرر الأمر ، فأخبرت سيدتها الملكة التي أخبرت الملك بذلك ، فاستغرب واحتار لمَ سمع وشاهد ، السمك يتكلم ويطلب يد ابنته لرجل مجهول فيتساءل "من هو الأمير البحري هذا؟! " هذا سر يتردد في أجواء القصر وقد بحث الملك بين صيادي البلاد عن الأمير عبد الله البحري ، فلم يجد أحدا يحمل هذا الاسم ، والأميرة علمت مثل غيرها من سكان القصر ، فعجبت منه وتتسأل بدورها " من هو عبد الله البحري؟!.. ومتى يظهر الأمير عبد الله البحري ؟! " فكان هذا الأمر يقلق الملك العادل وأسرته .

وكان في المدينة صياد فقير الحال ، له زوجة وولدان أحدهما اسمه عبد الله ، وقد فقده منذ خمس سنوات، عندما سقط الطفل في البحر وغرق ، واختفت جثته ومات، فحزن عليه حزنا شديدا وللصياد كوخ حقير يسكن فيه بين أكواخ الصيادين ، وكوخه من شدة الفقر والحاجة لا يستطيع تغييره ، وكان يمكث الساعات الطويلة في الصيد لا يصيد إلا سمكة واحدة أو اثنتين

فيشتريها منه تجار السمك شفقة وإحسانا بدرهم أو نصفه ، فيشتري به خبزا ولحما أو جبنة ، فيذهب به لابنته ولزوجته الصابرة على شظف العيش والحال ، ولما زادت البنت على عشر سنوات كانت تذهب للخدمة في بيوت الأمراء والأغنياء؛ لتساعد والدها على قسوة الحياة والفقر ، وعندما يمرض الصياد الضعيف وما أكثر أمراضه لا يجد لقمة العيش إلا التي تجلبها البنت من عملها في خدمة البيوت من مساعدة في التنظيف والغسيل والخبز .

كان من العرف الشائع في مرين أنه إذا ولد مولود سواء كان ذكرا أم أنثى يؤخذ للواشم فيرسم عليه صورة ، وغالبا ما تكون من صور مخلوقات البحر تبقى مرافقة له حتى المات ، وكل عائلة تلتزم صورة معينة على الأولاد كلهم ، وكان الصياد قد اختار صورة طير يحب البحر رسمت على ظهر ولده وابنته ضحى ، وكان الصياد مع الأيام قد نسي ابنه الغريق وغلب على ظنه موته وهلاكه ، وهكذا كان هذا الصياد يعيش أيام حياته ، وكان أكثر ما يزعجهم عندما يطهون السمك يسمعونه يقول " أيها الصياد المسكين! .. عبد الله لم يهلك إنه حي يرزق يعيش في البحر"، ولما تكرر الحال امتنعوا عن طهي السمك؛ لأنه يذكرهم بابنهم عبدالله فيتجدد حزنهم وبكاؤهم ، ويعود الأمل في صدورهم بحياة ولدهم ، فكرهوا أكل السمك حتى لا يسمعوا هذه الكلمات ، ولا يتكلمون بذلك حتى لا تسخر منهم الناس عندما يقولون : إن السمك يتكلم ، فانحصر هذا السر بينهم ، وابنة الصياد الفتاة الفقيرة تعمل في بيوتات الأمراء والأغنياء فيشفقن عليها ويتقبلن عملها ، فلما بلغت خمسة عشر عاما أخبرتها إحدى السيدات أنها سترسلها للعمل في قصر الملك إذا أحبت ذلك ؛ لأن ابنة الملك أكملت الخامسة عشرة ، وتريد أن تجعلها وصيفة لها لأنها في مثل سنها ، فرضيت ضحى بأن تكون وصيفة لابنة الملك ، فأخذتها الملكة بعد أن رحبت بها وقد أعجبها شكلها وحزنها ، فقامت الخادمات بتنظيفها وتحسينها وإلباسها الثياب الجميلة ، وتعليمها الواجبات المطلوبة منها حتى تعرضها الملكة على ابنتها لتعمل وصيفة لها ، ولما تجهزت عرضتها الملكة على الأميرة قمر الليل فسرت بها ، فهي من جيلها وبنات سن واحدة ، وكان يسمح لها بقضاء يوم واحد مع أهلها بين الحين والحين، وفرح أهلها

لعمل ابنتهم في القصر، وأحبتها قمر الليل ، وكانت ترافقها في جولاتها في الرياض والحدائق ذات البهجة ، وأحبت ضحى الفقيرة الأميرة قمر الليل ، وسرت بخدمتها للأميرة ، وكانت الأميرة قد أشفقت عليها ، وطلبت من والدها أن يبني لهم كوخا جميلا بدل كوخهم الحقير، وكانت تقدم لها مالا لتعطيه لوالدها الصياد المريض إلى أن كان ذات يوم وقد جلست الأميرة تتناول الطعام الذي أحضرته لها ضحى ، وأمرتها الأميرة بالجلوس لتأكل معها ، وبعد تمنع شديد رضخت ضحى لرغبة الأميرة ، وجلست تشارك الأميرة في طعامها وكان الطعام من السمك ..

وقالت الأميرة ممازحة الفتاة : يا ضحى الجميلة .. هل عمرك سمعت سمكا يتكلم ؟! ..إن السمك عندنا يتكلم !.

ارتبكت ضحى عند سماعها لسؤال الأميرة ثم ردت قائلة : أجل يا مولاتي! .. وعندنا سمك يتحدث .

دهشت الأميرة وتوقفت عن الطعام وقالت : ماذا تقولين يا ضحى ؟ أعندكم سمك يتكلم ؟! ماذا يقول سمككم ؟!

أخذت الفتاة بالبكاء ، مما زاد من استغراب الأميرة قمر الليل ، فقامت تهدئ من توتر الفتاة ، وقالت وهي تتعجب من تصرف وصيفتها : ما الذي أبكاك يا عزيزتي ضحى ؟! .. لقد زاد حزني عليك !

فقالت الفتاة من بين دموعها : سامحيني يا مولاتي الأميرة غلبتني الدموع عندما ذكرت أن السمك يتكلم .. لقد ذكرتيني بأخي عبد الله ..

همست قمر الليل : عبد الله ! من عبد الله ؟!

قالت ضحى : سأقول لك عن السمك الذي يتكلم .. كان لي أخ يكبرني بسنوات اسمه عبد الله ، وكان يذهب مع أبي الصياد إلى البحر، فسقط في البحر أثناء الصيد ، وجرفه الماء ، وكان صغيرا ذا عشر سنوات فغرق ومات ، بل أخذه البحر ولم يعد جثته إلينا .. وليس لأبي إلا أنا

وهو ، فحزن والديّ على موته، وشاخ أبي قبل الأوان من كثرة الحزن على عبد الله ، وكنا يا مولاتي الأميرة عندما نطهو السمك في البيت يقول " أيها الصياد المسكين .. عبد الله لم يهلك إنه حي يرزق يعيش في البحر " فيتجدد الحزن في البيت عندما نسمع كلام السمك.. ولكن من يصدق أن السمك يتكلم ؟! ثم قرر والدي بعد ذلك عدم طهي السمك في البيت .. ولما سألتيني تذكرت أخي الذي أعرفه جيدا .. ولكن هل رأيت أنت سمكا يتكلم يا مولاتي الأميرة ؟

تعجبت الأميرة لم سمعت فقالت : أيتها الأخت العزيزة .. أتأكدتم من موت عبد الله الصغير؟

فقالت الفتاة : نعم ، يا مولاتي طفل صغير ماذا سيفعل مع الماء وقوة البحر؟

فقالت الأميرة وهي ذاهلة : ضحى .. نحن عندما نطهو السمك يتكلم ويقول لنا ..ولكن حذار يا ضحى أن تقولي ما تسمعين مني لأحد حتى نبقى أصدقاء .

قالت ضحى : اطمئني يا سيدتي الأميرة لن أقول شيئا مهما كلف الأمر فماذا يقول سمككم

قالت الأميرة وهي ما زالت شاردة الذهن : يقول " الأمير عبد الله البحري .. سوف يتزوج الأميرة قمر الليل ، فانتظروا الأمير .. " هذا ما يقوله سمكنا أيتها الأخت وأبي في انتظار هذا الأمير الذي عرفنا اسمه ولم نره .. ومع سماعي لقصتك فإني أتعجب من هذا الأمر.. أتظنين أن الأمير عبد الله هو أخوك ؟

قالت الفتاة : أيمكن أن يكون أخي بعد كل هذه السنوات حيا أيتها الأميرة .

كان الصياد كلما تحسنت صحته رويدا يحمل شبكته الصغيرة، ويسير للشاطئ يلتقط رزقه ، فألقى الشبكة ذات صباح وبعد ساعة حركها وسحبها ، وقد شعر بثقل وهو يسحبها، فأصابه فرح كبير فمنذ عهد بعيد لم يصد سمكة كبيرة ، ولما خرجت الشبكة وسحبها على الرمل وجد فيها حيوانا بحريا غريبا يشبه الثعلب ، وسمعه يقول له : أيها الصياد .. خذني إلى قصر الملك

وخذ هذا الذهب ـ وهبه كمية من الذهب الأحمر ، وفرح الصياد فرحا كبيرا وهو يمسك قطع الذهب ـ هيا أيها الصياد أخرجني من شبكتك .

فكه من الشبكة ، وحمله بين يديه وتذكر طلبه فقال : أيها الحيوان إنك تتكلم فماذا قلت أو طلبت

مني ؟

تضاحك الحيوان البحري وقال : اذهب بي إلى الملك .

ومشى به إلى قصر الملك ، وسلمه للحرس وانصرف ، وأما الحرس فقد أصابهم الذعر والعجب من الحيوان الناطق بأفصح لسان مثلهم ، فاعلموا الملك بأمر هذا الحيوان العجيب ، فأمر بإدخاله عليه، فسلم الحيوان على الملك وقال له: أنا رسول ملكة البحر إليك.

فقال له الملك : وماذا تريد ملكة البحر منا أيها الرسول أيها المخلوق الغريب ؟!

قال الحيوان البحري : الملكة تطلب منك يد الأميرة قمر الليل للأمير عبد الله البحري أمير مملكتنا البحرية .

صمت الملك طويلا قبل أن يرد ، وكان يتذكر السمك المتكلم ثم قال : أيها المخلوق العجيب من هو الأمير عبد الله البحري؟! أريد أن أتعرف عليه قبل أن أزوجه وحيدتي .

فقال الحيوان : أيها الملك ! هل توافق على زواجها حتى اخبر مولاتي الملكة بالموافقة ؟

فصاح الملك : كيف أوافق قبل أن أرى مولاك ومولاتك ؟! .

فقال الحيوان : أيها الملك ! مولاي لا يستطيع أن يخرج إلى البر الآن .. فهو لا يستطيع ترك البحر إلا بعد موت الملكة .

فتعجب الملك من كلام الرسول وهتف قائلا : ما قصتكم أيها المخلوق البحري؟!.. كلامك غريب وعجيب .

فقال الحيوان : المهم أن توافق أيها الملك ، وعندما تجتمع بالأمير عبد الله البحري يقص عليك القصة .

فقال : وإذا لم نوافق ؟!

فأجابه قائلا : تغضب الملكة .. فهي تريد تزويج الأمير من إنسية.. فاحذر من غضبها عليك ؛ فإنك تخسر مملكتك.. وقد تخسر نفسك وابنتك أيضا .

فقال الملك : زواج بالقوة! .. حسنا وإذا وافقت فماذا أفعل ؟

رد الحيوان البحري : لا شيء سوى الوفاء بالعهد .

احتار الملك من ذلك الطلب حيرة كبيرة ، وبعد تفكير أرسل وراء وزيره كرار يشاوره في الأمر، فحضر سريعا واستمع لقصة ثعلب البحر ، فكاد يصعق من هول الخبر، فهو كان يخطط ويدبر ويحلم بتزويج ابنه من ابنة الملك الوحيدة ، فلما استوعب القضية هدأت نفسه قليلا وقال : أيها الملك هذا أمر غريب! لم نسمع به من قبل ، بنات ملوك الأرض تتزوج من أبناء ملوك البحر .. فالأفضل أن تسجن هذا الحيوان أو تقتله ثم نرى ما يحدث بعد ذلك .

فأمر الملك بسجن الحيوان ، وحث السجانين على حسن وفادته من طعام وشراب ، وبعد أيام صاد الصياد الفقير حيوانا أغرب من الأول ، فهو يشبه الذئب وأعطاه ذهبا ولؤلؤا مقابل توصيله لقصر السلطان ففعل ، والتقى الملك بالذئب البحري، وسمع منه ما سمعه من الثعلب البحري ، فأرسل وراء الوزير الذي حث الملك على حبسه عند أخيه الثعلب ، وبعد أيام أحضر لهم الصياد حيوانا بحريا شبيها بالفهد بعدما أخذ منه الأموال ، ولما جلس الفهد بين يدي الملك كرر طلب الزواج وطلب الإفراج عن صاحبيه ، وكالعادة أخبر الوزير بالأمر فأقبل مسرعا، ولما سمع مطالب الحيوان طلب من الملك أن يحبسه مع صاحبيه ، وشجعه على قتلهم جميعا ، فصاح الفهد : سنخطفك أيها الوزير إلى البحر ، ونحاكمك عند قضاتنا على ظلمك لنا .. وأنت أيها الملك المشهور بالعدل .. أين العدل؟! ما نحن إلا رسل مولاتنا الملكة فاخرج الأخوة وإلا ستتعرض للعقاب والمحاكمة

وأخذ الوزير بالضحك والسخرية وهو يقول : تخطفني ، كيف ستخطفني أيها الحيوان الحقير؟! خذوه أيها الحرس للسجن.. وغدا سأقتلكم أيها الأوغاد أمام عامة البشر .

فاستسلم الفهد البحري للحرس فسحبوه للسجن حيث التقى بالثعلب والذئب البحريين ، ولما أقبل الصباح جاء جنود السجن يخبرون الملك باختفاء الحيوانات الثلاثة ، فأرسل الملك وراء كرار الوزير ، فجاءه الرسول يخبره باختفاء الوزير من ليلة أمس ، فقد جاءه ثلاثة في الليل وأخبروه برغبة الملك برؤيته ، فخرج معهم ولم يعد ، فأدرك الملك أنها حيلة لخطفه، فحزن على

وزيره ، وخاف على نفسه، وقلق على ابنته ، فلما اختفى الوزير أخبر الملك الملكة بقصة الحيوانات الثلاثة ، ثم اطلع البنت على الأمر فقال : أيتها الابنة الغالية جاءنا رسول الأمير عبد الله البحري طالبا يدك للزواج .



وروى لها القصة ، ولما سمعوا قصة اختفاء الوزير كرار دب في قلوبهم الوهن وقالت الأميرة : يا أبي لماذا لم توافق ؟ أنسيت قصة السمك الذي كان يتكلم كلما طهوناه؟

قال بحزن : لا ، لم أنس يا فتاتي .. ولكني طلبت رؤية الأمير ؛ ولكنهم قالوا إنه لا يخرج إلى البر إلا بعد موت أمه الملكة ، ولم أفهم شيئا .. فهل توافقين على الزواج منه قبل أن يفسدوا علينا مملكتنا ؟

أجابت الفتاة ببساطة وطيبة :هذا قدري يا أبي !

فقال الملك : حكاية عجيبة !.. أيتها الأميرة .. سأنتظر عودتهم ، فلابد أنهم عائدون .

بعد أيام عاد الوزير وهو منهك القوى من الضرب والصفع واللطم الذي تعرض له، فقام الملك بعيادته فور سماعه خبر رجوعه، فلما شاهده أشفق عليه وحزن عليه

وقال : ما حدث أيها الوزير العتيد ؟!

بكى الوزير حتى أبكي الملك وقال : ماذا أقول يا مولاي ؟! .. فها أنت ترى ما بي .. زوجها لهم أعطها لهم .. أرجوك يا سيدي الملك ! لا تحشرني في هذا الموضوع .. لقد خطفوني كما هددوني وحاكموني بالضرب والصفع والعض إنه عقاب رهيب .. وحوش هجمت عليّ فأوسعتني ضربا وصفعا حتى كدت أن أموت فعفو عني ، وقالوا قل لسيدك أن يوافق على طلب الملكة البحرية قبل أن يشتد غضبها عليكم .. أرجوك أيها الملك وافق قبل أن نخسر أنفسنا .

خرج الملك من عند وزيره كرار وهو مرعوب خائف ، فلما دخل القصر أخبره الحرس عن حيوان بحري على صورة صقر أتى به الصياد وهو في انتظاره ، وكان الصياد قد صاده بشبكته

العتيقة ، وأعطاه الذهب ليوصله للقصر ، رحب الملك ترحيبا قويا بالصقر ، واستمع لمطالبه



وقال الملك في نهاية المطاف : إنني موافق أيها الصقر البحري على زواج ابنتي من الأمير البحري .

ففرح الصقر بالموافقة وشكر الملك ، وطار في الجو بعد أن وعد الملك بمجيء وفد لترتيب الأمر معه ، واجتمع الملك بالعائلة ، وأطلعهم على القصة ، واعترض أحد الأبناء وأحد الأقارب ، فأخبرهم الملك بما جرى على الوزير ، وطلب منهم زيارته وسماع خبره منه .

أصبح الصياد الفقير غنيا فقد ارتفع عنه اسم الفقر ، فاشترى بيتا جميلا له ولزوجته ، ولما علمت ضحى بذلك الأمر استغربت وتعجبت ، وفرحت للبيت الجميل ، وسمعت القصة من والدها قصة الحيوانات التي يصيدها ويرسلها لقصر الملك ويهبونه من المال الكثير ، فقالت : هو أنت الذي يحضر الحيوانات الغريبة للقصر .

وروت له ما صنعت الحيوانات بالملك والوزير فقال لها : يا بنيتي أنا صياد ارمي شبكتي في الماء فتخرج بها هذه المخلوقات الناطقة فتعطيني المال والذهب على أن أدلها على قصر الملك، فالحمد لله على هذه النعمة .. وإذا تزوجت الأميرة من الأمير المذكور فبيتك الجميل في انتظارك ، وسأبحث لك عن زوج صالح .

وأمضت ليلتها في بيت والدها الجديد وهي تفكر بقصة المال والحيوانات وأمير البحر الذي خطب الأميرة ، وهل ستذهب مع الأميرة كوصيفة أم تبقى في القصر أم تعود لمنزل والدها ؟ .

عجب الناس لغنى الصياد المفاجئ ، وانتشر خبره في المدينة ، وأنه يصيد حيوانات عجيبة تعطيه الذهب واللؤلؤ حتى وصلت أخباره للملك الذي أرسل وراءه، واستمع لحكايته فذكرها له من غير زيادة أو نقصان ، وعلم أنه هو الذي أحضر الحيوانات لقصره ، وعلم كذلك أنه والد ضحى وصيفة ابنته قمر الليل ، فأكرمه وصرفه بأحسن حال بعد أن طلب منه أن يستمر

بالصيد في المكان السابق حيث يصطاد الحيوانات البحرية الناطقة بلسان القوم .

ولم يطل الانتظار فقد صاد حيوانا على صورة غراب فأخذ منه المال وسلمه لحرس السلطان ، ولما مثل بين يديه قال : إن الأمير عبد الله البحري يرغب في رؤية الأميرة قمر الليل .

وحدد له يوما للقاء ، وأن يكون في منتصف الليل على متن سفينة في عرض البحر قرب القصر الملكي ، وأن تكون الأميرة وأمها ووصيفتها فقط من غير رجال على السفينة ، وانصرف الغراب بعدما رتب اللقاء وصفته ، ولما جاء اليوم الموعود دفع الملك سفينة في وسط المياه القريبة من القصر ، ولما اقترب نصف الليل نقل البحارة النساء الثلاثة حيث السفينة ، ثم رجعوا للقصر ينتظرون انتهاء زيارة أمير البحر .

صعدت إلى السفينة سمكة كبيرة ، وأحاطت بالسفينة أعدادا كثيرة من الأسماك ، استقرت السمكة على سطح السفينة حيث تجلس النسوة يرتقبن أمير البحر ، ثم شاهدن السمكة وهي تتخلص من ثوبها ؛ فإذا هو إنسان جميل الهيئة حسن الصورة ، وقد حمل ثوب السمكة ، وتقدم نحوهن ، وألقى عليهن التحية ، ثم أشار إلى قمر الليل وقال وهو يبتسم : أنت قمر الليل ؟ فهزت رأسها بالإيجاب قائلة وبعض الخوف يسري في أوصالها : نعم أنا قمر الليل من أنت ؟! تبسم مرة أخرى وقال : لا تخافوا ..أنا إنسان مثلكم .. أنا عبد الله البحري ابن ملكة البحر .. سأمكث معكم ساعة واحدة فقط حتى تروني وتطمئني لي أيتها الأميرة الجميلة ! .. ولقد أتيت لاستمع موافقتك وقبولك لي أهلا وبعلا .

فعندئذ قالت الملكة : وهل نستطيع أن نرفض أيها الأمير ؟!

فضحك الشاب البحري وقال : بالتأكيد تستطيعون رفضي .. فقد استأذنت أمي الملكة في ذلك وأنا طلبت هذا اللقاء الخطير والخروج على البر أي في الهواء من أجل سماع ذلك بصراحة أيتها الملكة .

فقالت الملكة : أيها الشاب لقد وافق الملك على هذا الزواج الغريب .. ولكن كيف ستتزوج الأميرة ؟!.. وكيف ستعيش الأميرة في البحر؟!

فعاد الشاب للضحك وقال : كما تتزوجون أنتم .. فهي لن تعيش تحت البحر أو في مائه .. ستصنع والدتي قصرا عظيما في بلادكم ، نصفه في البحر، ونصفه الآخر في البر ، ونسكن فيه حتى تموت أمي الملكة ، ثم يؤذن لي بالرجوع للحياة في البر كباقي بني الإنسان .. فالأميرة لا تستطيع الحياة في البحر ..الإنسان لا يعيش في الماء .. حياة البحر صعبة وأشق من حياة البر عندنا الحروب والنزاع والفتن مستمرة .. والقوي عندنا يبلع الضعيف .. أما أنا فلي قصة ليس مقامها الآن .. هل الأميرة الجميلة راضية بي زوجا لها عن قناعة ورضا ؟

فقالت الملكة : أيها الشاب شوقتنا لسماع قصتك وحياتك في البحر .

فقال : لا أستطيع أن أتكلم بأكثر مما ذكرت أيتها الملكة .. هل تقبلين يا قمر الليل بعبد الله البحري شريكا لك في حياتك ؟.

كانت الفتاة تسمع الحوار بينهما وهي مشدوهة، فلما سمعت اسمها قالت : إنك إنسان حقيقي مثلنا وشاب حسن الصورة .. فنحن وافقنا على الزواج منك أيها الأمير كما أرادت أمك الملكة

وقالت الأم : ومتى سيكون هذا الزواج الغريب ؟

فعاد الأمير البحري للضحك والابتسام وقال : الحمد لله على موافقتكم .. فعندما تبلغين السابعة عشرة سوف يتم الزواج ، أليس هذا قانون الزواج عندكم ؟

فقالت : بلى .. سيطول انتظارك إذن .

فقال : سنة وبضعة شهور .. سيتم خلالها تشييد القصر.

فقالت الأميرة : كيف نراك خلال هذه المدة ؟

فقال بحزن : لست أدري أيها الأميرة .. المهم أحببت أن أسمع موافقتك بدون ضغط وقد انتهت مدة الزيارة فها هم ينادون عليّ .

وقدم إليهم جواهر وعقودا بحرية ، ووضعها بين أيديهم ، وارتدى ثيابه البحرية ، وسلم عليهم وألقى نفسه في البحر ، واختفى عبد الله البحري ، وتبعته الأسماك الأخرى ، ولما أصبح الصباح أقبل البحارة وساقوا السفينة إلى مرساها في القصر ، وكان في استقبالهم الملك ووزيره والأمراء

على أحر من الجمر ، ولما رآهم الملك سري عنه الحزن والخوف وصاح فرحا : " ما وراءكم ؟! فقالت الملكة أمام السادة : أتانا الأمير البحري؛ فإذا هو إنسان مثلنا ؛ ولكنه محكوم عليه بالحياة في البحر لأسباب لم يذكرها ، وهو شاب جميل معتدل القوام قوي البدن ، صورة وجهه قريبة من وجه وصيفتنا ضحى ـ التقت عيني ضحى بقمر الليل ـ وقالت ضحى : أيمكن أن يكون أخي المفقود ؟! ، وقالت قمر الليل : أيمكن أن يكون أخ ضحى المفقود ؟! وكانت الملكة الأم تتابع الكلام : وهو إنسان يتكلم بلساننا ، ولكنه يلبس ثوب سمكة كبيرة ، ويحيا في الماء مع قومه الأسماك وعند أمه الملكة .. وروت لهم الغاية من زيارته ، فتعجب القوم مما سمعوا .. وهي حياة إنسان مع حيوانات البحر .

فقال الملك : إنها قصة غريبة ! ومتى يعود هذا الأمير؟

قالت الملكة : لا نعلم .. فعنده حكاية غريبة إن عشنا سوف نسمعها بأذن الله .

انتشر خبر خطبة الأميرة قمر الليل على أمير من سكان البحر اسمه عبدالله البحري ، وسوف ينتظر حتى تبلغ الأميرة سن زواج بنات الملوك والأمراء ، الكل يتحدث بالقصة وهو في حيرة وتعجب واستغراب من هذا الأمر ، وبينما الناس مشغولون بالقصة صاد الصياد صيدا على صورة هر فأخذ منه المال وسار به نحو قصر الملك ، وفرح الملك بوصول الهر ، فهم منذ لقاء الأميرة بالأمير لم يسمعوا عنه شيئا ، فبعد التحية والسلام قال الهر : أيها الملك الكريم أنا رسول ملكة البحر إليك .



فرحب به الملك واستمع له ، فابلغه أن عبد الله البحري يرغب ببناء قصر كبير نصفه في البحر ليقابل به إخوانه وأصدقائه من أهل البحر ، والنصف الآخر في البر ليعاشر به أهل البر، وترجوه

الملكة البحرية أن يقوم بهذه المهمة ، وأن المال الكثير سيكون بين يديه لتنفيذ هذه المهمة ، وأن يكمل البناء خلال السنة حيث تبلغ الأميرة سن الزواج المسموح به في بلدهم ، فوافق الملك واستدعى الأميرة التي جلست مع الهر تسأله عن زوج الغد ، فذكر لها أمره ، وأنه محب لها ودائم الفكر فيها ، وهو ينتظر بناء القصر بفروغ الصبر ، وبلغها التحية والشوق من خطيبها ، فأعطته الأميرة هدية للأمير عبد الله البحري ، وأعطاها من اللؤلؤ ما يسر العيون وانصرف بسلام ، وبعد أيام يسيرة بدأت صناديق الذهب والفضة واللؤلؤ تنهال على القصر ، وعلى الفور بدأ العمل بتشييد القصر الجديد قصر العروسين ، فاستعان الملك بأمهر البنائين لبناء قصر ابنته الوحيدة وزوجها الغامض ، وقبل أن تدخل الأميرة في ربيعها السابع عشر تم الانتهاء من بناء القصر وزخرفته حيث أصبح تحفة للناظرين ، وقد كمل تجهيزه بالأثاث ، وزرعت فيه الأزهار والورود وأنشئت الأشجار ، ولما بلغت الأميرة سنة الزواج أعلنت الأفراح في المدينة ، وأقيمت للأميرة حفلة ملكية في قصر الملك ، ولما جاء الليل وأنيرت المشاعل والشموع الملونة ، أتى الأمير البحري حيث اقترب من القصر وخرج إلى الأرض وترك إخوانه الأسماك في الماء وخلع ثوب الحوت ، وكان في انتظاره الملك والأمراء فسلموا عليه فرأوه إنسانا مثلهم ، وقدموا له حصانا أبيض كما طلب ، فركبه وركب الأمراء خيولهم ومشوا نحو القصر ، واحتفلوا به احتفالا يليق بالأمراء ، ثم أدخلوه على زوجته الأميرة قمر الليل ، وكان قد اتفقوا أن يسكن الأمير البحري في النصف المبني في البحر ليستطيع الحديث مع أهله البحريين ، وقد ترتب بينهم أن يقضي الليل في قصره ، والنهار مع حيوانات البحر ، فنصف حياته في مملكة البر، والنصف الآخر في مملكة البحر، وفي الصباح أقبلت الأميرات يباركن للعروسين ، وقد عجبن لاختفائه فأخبرتهن أن زوجها إنسان مثلهم ؛ ولكنه يعيش في البحر لقصة غريبة حدثت معه وهو صغير، وقد وعدها بالحديث عنها في أوانها المناسب.

يقضي عبد الله البحري الليل مع زوجته والإنس ، وقبل شروق الشمس يدخل البحر ، وسوف يستمر هذا الوضع حتى تموت أمه الملكة البحرية فيتحرر من أسر البحر إلى الأبد ، وكما قيل في

الحكم والأمثال السعادة لا تدوم ، فالوزير السابق الذكر لم يعجبه هذا الحال ، وكان حقودا حسودا ، فصمم أن ينتقم من ملكة البحر بإيذاء ولدها عبد الله ثائرا لنفسه التي أهينت عندما اعترض على زواج الأميرة ، ذات صباح استيقظ عبد الله البحري مع الفجر، فأراد أن يلبس ثوب السمكة البحري حتى ينزل البحر كعادته ، فلم يجده فسأل الزوجة فقالت : في المكان الذي وضعته فيه !

فقال بحيرة وارتباك : لم أجده !.

أسرعت الزوجة تبحث عن الثوب البحري فلم تجده ، فانزعج الأمير وقلق وأخبر إخوانه البحريين أن أحدهم سرق ثوبه ، فاضطرب القصر والخدم والحرس لهذا الحادث ، وعجل حرسه البحريون يخبرون أمه الملكة بالأمر ، ولما أشرقت الشمس بدأ الأمير يختنق شيئا فشيئا ، وأغمي عليه فصرخت الأميرة ، وأرسلت وراء أبيها الذي أتى مسرعا ومعه الملكة الأم ودب الرعب في القصر ، أقبلت حيوانات البحر وأخذت عبد الله الفاقد الوعي، ونقلوه للبحر وغاصوا به في الأعماق، وأمر الملك بالبحث عن السارق ، وأصيبت قمر الليل بالحزن والألم على زوجها الأمير ، وقامت أمها ووصيفتها ضحى بالتخفيف عنها ومن مصابها ، واشتد غضب الملك مع مرض ابنته ، وأقسم بأنه سيقتل من وجد عنده الثوب البحري أو شارك في سرقته ، واختفت أخبار الأمير البحري عن أهل البر ، لا أحد يدري ماذا جرى له ؟ هل مات أم ما زال على قيد الحياة ؟! علم الملك بعد حين أن الأميرة حامل من زوجها الأمير فكان في فرح وحزن وعجبوا لانقطاع أخبار الأمير، وغلب على ظنهم أن عبد الله قد هلك ، وقد فشل الملك بالوصول للمجرم ، فاستدعى الصياد القديم ، وحثه على العودة للصيد في المكان الذي كان يصيد منه الحيوانات الغريبة بعد انقطاع عن الصيد منذ بدأ الملك بتشييد قصر الأميرة ، فمن ذلك الوقت انقطع عن الصيد ، ولم يعد يرى تلك الحيوانات الغريبة ، فترك الصيد وانشغل بالبحث عن زوج مناسب لابنته ضحى ليهبه البيت الذي اشتراه ، وقد تقدم إليها أكثر من شاب؛ ولكنها كانت ترفض رغبة في البقاء في الخدمة عند الأميرة ، فلما تحدث معه الملك بشأن

العودة للصيد ، تشجع الصياد وطلب من الملك مساعدته بتزويج وحيدته ضحى حتى يطمئن عليها قبل رحيله عن هذه الدنيا ، فوعده الملك بذلك وصرفه ، وقد طلب منه زيارته بين الفينة والأخرى ، وغادر الصياد القصر فرحا ؛ لأنه أصبح بإمكانه مقابلة الملك في كل حين ، وهذا شرف كبير له لم يكن يحلم به في يوم من الأيام الخالية ، وبعد حين يسير أتى الصياد القصر واستأذن على الملك ، فأذن له وأخبره أنه وجد شابا مناسبا لابنته فرجاه أن يساعده في مهمته ، فطلب الملك ضحى وتحدث معها أمام أبيها ، وأنه وجد رجلا صالحا يرغب بالاقتران بها ، وأتت قمر الليل وشجعتها بدورها على الزواج من ذلك الشاب الذي اختاره لها أبوها ، فقالت ضحى : كيف أتركك يا سيدتي وأنت في هذا الظرف وعلى وشك ولادة ؟

فقالت قمر الليل : لن تتركيني يا ضحى سنبقى أصدقاء .. وستزفين إلى عريسك من القصر الملكي إذا سمح مولاي الملك ..

فقال الملك : هذا أقل الواجب علينا .. فضحى مثل ابنتي تماما .

وفرح الصياد وهو يسمع كلام الملك والأميرة ، فقالت ضحى : سأوافق يا مولاي بعدما أرى هذا الزوج .

فقال الملك : بالطبع يا ضحى .. هذا حقك فانظري إليه ، ثم قرري أمرك .

فقال الصياد : أجل .. أجل يا ابنتي .. أنا رجل كبرت سني ، ورق عظمي ، ووهنت قوتي ، وأريد أن أزوجك رجلا نبيلا قبل الفراق الأبدي حتى ادع الدنيا وأنا مطمئن عليك .

وأخذها الصياد بعد أن استأذن من الملك والأميرة إلى بيته لتتمكن من رؤية القرين ، وهناك أرسل وراء الشاب الخاطب الذي أقبل مسرعا لتراه عروسه ، ولما شاهدته ، وتعرفت على أسرته وافقت على الاقتران به ، وفرح الشاب بموافقتها ، وكان فرحه أكبر عندما علم أن حفل زواجها سيكون في قصر الملك ، وتم ذلك الزواج كما دبر له ، ولكن كان هناك حدث آثار الأميرة قمر الليل ، وهو عندما كانت تشرف على تزيين العروس لزوجها لحظت على عضدها صورة طائر قد شاهدت مثله على ظهر زوجها عبد الله .. فتذكرت زوجها.. وتذكرت كلام

ضحى عن أخيها المفقود ، ولمحتها ضحى وهي ساهمة تفكر فقالت : ما الذي يحزن الأميرة الصديقة .. لعلك ذكرت بعلك الأمير ؟

ابتسمت قمر الليل وقالت : نعم ؛ كأنك تقرئين الأفكار .. لقد شاهدت على عضدك صورة طائر .. وهي نفس الصورة المنقوشة على ظهر زوجي عبد الله .. فتذكرت حديثك عن السمك الذي كان ينطق في بيتكم .. ويخبركم بحياة عبدالله .. إنني أرى أن الأمير عبد الله هو أخوك المفقود يا ضحى .. فهو شبيه بك أيتها العزيزة .. لولا أنك تقولين أنه غرق فمات .. فيبدو أنه لم يمت يا ضحى ، ربما أخذته ملكة البحر وربته .. فالصورتان كأنهما رسم شخص واحد ..لا تبكي يا عزيزتي .. أنا آسفة .. فبعد الزواج بإذن الله سنعاود الحديث في هذا الموضوع الغريب .

وصلت الأميرة قمر الليل إلى هذه الحقيقة من قبل .. وزاد يقينها الآن أكثر فهي وصلت إلى ما نعرفه نحن .. وسنترك البر، وندخل للبحر لنرى ما حل بصاحبنا عبدالله البحري .

عبد الله البحري

قبل سنوات عندما كان عبد الله صغيرا ، وكان يرافق والده إلى البحر ، وفي المكان الذي اعتاد الصياد أن يصيد فيه ألقى الصياد الشبكة القديمة في الماء ، وملّ الصياد من الفشل ، فطلب من



عبد الله أن يمسكها قليلا آملا أن يكون حظه خير من حظه ، فأمسكها الفتى ، فشعر بعد حين بأنها ثقيلة ، فسحبها فلم يستطع فنادى على أبيه ، وقبل أن يصله أبوه ، كانت الشبكة تسحب الفتى إلى البحر، وجره الماء ، واختفى عبد الله في البحر ، صاح الصياد مستنجدا ؛ ولكن عبد الله قد اختفى ، فبكى وصرخ وحمله الناس إلى كوخه الحقير ، كان في الشبكة القديمة سمكة كبيرة فجذبت عبد الله ، لقد كانت هذه السمكة ملكة سمك البحر ، فأخذته إلى الأعماق بعد

أن تخلصت من الشبكة حيث عادت إلى الرمال التي كان يجلس عليه الصياد ، فوجدها الصيادون فأرسلوها للصياد الفقير ، وقررت السمكة تربية عبد الله في البحر، فذهبت به إلى ساحر البحر الذي رضخ لطلبها ، وصنع لعبدالله ثوبا بحريا ، ولبسه عبد الله ليستطيع الحياة في البحر ، وأعلمها الساحر أنه لن يستطيع الحياة على البر إلا بعد موتها ، فوافقت الملكة البحرية على ذلك ، وأصبح عبد الله حيوانا بحريا ، وكان أبناء السمكة الملكة يعتقدون أنه منهم ، وأحاطته الملكة بالرعاية والحماية ، وكانت الملكة قد ربطت عودته للبر بحياتها ، فهو لا يستطيع العيش والحياة في البر ، وكبر عبدالله البحري ، وكانت الملكة تريد أن تضمن له حياة سعيدة بعد موتها وعودته للحياة مع أهل البر ، فقررت أن تزوجه من ابنة ملك مدينة مرين ليحيا حياة الأمراء والسلاطين كما هو عندها في الماء ، فكانت تأمر كل سمك يصاد ويطبخ في قصر الملك أن يخبر الملك بهذه الرغبة ، وطلبت من كل سمك يطهوه الصياد في بيته أن يخبره بحياة ولده ، وأخفت هذه الحقائق عن عبدالله ؛ وكان عبد الله يكبر ، ولابد أن يعرف أنسيته ، وحتى لا يخونها أو يغدر بها قررت أن تغني والده وتعطيه من كنوز البحر وفعلت ذلك ، وخطبت له الأميرة قمر الليل ، ووافق الملك كما ذكرنا ذلك سابقا ، ولم علم عبدالله بذلك أبى أن يقبل حتى يسمع جواب الأميرة بنفسه ، فذهبت به الملكة لساحر البحر وأمام رجائها وضغطها سمح له بالتخلص من ثوبه ساعة يقابل بها الأميرة ، وحصل ذلك فعلا ، ولما بلغت الأميرة سن الزواج وتم بناء القصر ، وعادت الملكة تترجى شيخ البحر وساحره ، فسمح له بخلع ثوب البحر ليلا والعودة للماء قبل شروق الشمس حتى تقضى الملكة نحبها، ويتخلص من حياة البحر، وحصل ذلك؛ ولكن الثوب سرق كما علمنا ، ونقل الأمير إلى البحر وهو مخنوق مغمى عليه مشرف على الموت .

عاش عبد الله في البحر صغيرا ، وكان يرى المعارك والصراع الرهيب بين تلك المخلوقات ، وقد خاض المعارك وكثيرا من الحروب التي تنشب بين قبيلة الملكة والقبائل الأخرى ، وامتاز على كثير من الفرسان ، وأصبح سيد الفرسان في منطقته ، وكانت أمه الملكة به مسرورة وبقوته

وشجاعته وبراعته في الغوص والقتل لوحوش البحر ، فكان فارسا صنديدا عنيدا في البحر لا مثيل له بين اسماك مملكته، فكان يغدو في مغامرة ويمسي في أخرى ، ويتنقل بين ممالك الماء، ويتعرف على الملوك والأمراء ، فكان مخلوقا عجيبا بالنسبة لمخلوقات الماء ، ومن مغامراته في البحر أن أخا له أراد أن يتزوج ابنة ملك من ملوك البحر، فذهبت الملكة لخطبتها ، فلم توفق ورفض ذاك الملك ، فطلبت الملكة من الفرسان والأمراء خطف تلك الأميرة ، فسار عبد الله ومعه اثنان من إخوته إلى تلك المدينة ، وخطفوا الأميرة بغفلة من حرسها ، وأخذوها لمولاتهم الملكة التي حبستها حتى يوافق والدها على زواجها من ابنها الأمير ، وثارت الحرب بينهم ، قتل فيها في ذلك الملك وبعض أبناء الملكة ، ولما انتصرت على خصمها دمرت مملكته وقتلت فرسانها ، وتزوج ابنها الأميرة رغم أنف قومها ؛ ولكنها أهلكت نفسها بعد حين فرموها على شاطئ البحر ليأكلها البشر وحيوانات الشواطئ ، وقد حارب عبد الله في هذه الحرب ببسالة ومرة أخرى تعرضت الملكة للغدر والاغتيال فأنقذها عبد الله من الغادر، وتمت محاكمة الغادر بصرامة ، وقضي عليه بالموت ، وأن يؤكل إربا إربا ، فكبر حب عبدالله في قلب أمه الملكة البحرية الذي لم يكن يعلم أن حياته مربوطة بحياة الملكة ، وعلى أثر هذه الحادثة علم أن حياته كانسان متعلقة بموت أمه ، عرف أنه إنسي من البشر الذين يعيشون في البر، ويتنفسون الهواء ، وأخبرته يومئذ بأنها سوف تزوجه من إنسية عظيمة في المستقبل .

تعرض هو نفسه للغدر والخيانة من بعض أبناء الملكة، ولكن أمه وقفت معه بحزم وأمرت بموت الغادرين الخائنين ، فأمسى عبد الله مرهوب الجانب ، فأمه تقدمه على الكثير ، وهو يستطيع حماية نفسه بكل قوة وشراسة ، ولكن الأشرار لا ينتهون من الكون ، فقد خاض معركة ضخمة مع سباع البحر في أعمق أعماق الماء ؛ وذلك عندما ذهب هو واخوته لإحضار كنز من أحد الجبال البحرية ، فمنعتهم السباع من الولوج إليه ، فجرت معركة فريدة من نوعها ، وحصلوا على الكنز بعد استسلام الأسود ، وكانت محاكمتها عند قضاة مملكة أم عبد الله البحري فحكموا عليهم بالموت على سطح الماء بتنفس الهواء ، وأفاد كل هذا عبد الله أنه لا يعيش في

البحر إلا القوي الجبار.



مرضت الملكة ، ووصف لها ساحر البحر دواء متوفرا في جزيرة الصخر في قاع المحيط ، وهذه الجزيرة تحكمها مجموعة ضخمة من أسماك القرش ، وأن العلاج موجود في خزانة ملك هذه الجزيرة ، وهو حوت عملاق ، ولن يتم الحصول عليه إلا بموت الحوت العملاق ، فأرسلت الملكة رسالة مع عبد الله البحري للحوت العملاق ، فرفض إعطاءه الدواء ، فأمرت الملكة بتجهيز حملة من أشد الفرسان وأمرتهم أن لا يعودوا إلا بالدواء ، فتجهزوا بأشد الأسلحة الفتاكة والصخور الحادة وزحفوا إلى جزيرة الصخر أكثر من ألف فارس بينهم عبد الله البحري ونشبت بينهم معركة هائلة شابت لها رؤوس الولدان ، وقتل عدد كبير من الفرسان من الفريقين ، وأمام شراسة المعركة وحدة الصخور التي يحارب بها فرسان الملكة البحرية هرب السمك الشرس ، وظل الحوت العملاق وحيدا يقاتل ، وقام عدد من الفرسان على رأسهم عبد الله بالوصول إلى الخزانة ، وأخذ الدواء كله ، وكانت الفرسان قد أرهقت الحوت العملاق وأتعبته ، ولما علم بوصول الفرسان إلى خزائنه وأخذ ما فيها انفجر وتصدع قلبه فمات من شدة الغيظ والقهر ، واستولى فرسان الملكة الأحياء على كنوز الجزيرة ونقلوها لمملكتهم ، وتعافت الملكة بعدما شربت ذاك الدواء ، وبعد هذه الحادثة جرت خطبة الأمير البحري على الأميرة

البرية ، وسار بعد ذلك لمقابلتها وسماع رأيها ، فأخذته أمه لشيخ البحر فأعطاه قدرة على شم الهواء ساعة على البر ، ثم عاد للبحر ينتظر وقت الزفاف ، وذلك عندما تبلغ الفتاة سن التأهل للزواج في تلك المدينة ، وقامت الملكة بإرسال كنوز البحر من الذهب والجواهر إلى الملك العادل وخلال مدة الإنشاء هلك ساحر البحر بعد مرض عصف به ، واستلم أسراره ومكانه ابنه الكبير الذي جدد العهد مع الملكة بالمحافظة على بعضهما البعض ، حان موعد زفاف الأميرين ، وقامت الأم بترتيب كل شيء ، وأقامت له الملكة في البحر حفلا عظيما دعت إليه الكبار والصغار ، وكان الساحر الجديد قد رخص له بالحياة ليلا كبني الإنسان ، وفي النهار يعود لبني السمك حتى تموت أمه فيعود لحياة البشر ، وخرج في الليل لأهل البر فاحتفلوا به احتفالا كبيرا ثم ادخلوه على عروسه ، وبعد حين من الزواج سرق الثوب الخاص بحياة البحر وجرى له ما تعرفون ، فلما نقل للبحر حمل إلى شيخ البحر الساحر الجديد ، فقام بمعالجته وصنع له ثوبا جديدا ، وبعد زمن تعافى الفارس البحري ، وأخذت صحته تعود إليه من جديد ، وعلم أن أمه لن تسمح له بالخروج من جديد حتى لا يغدر به بنو البشر مرة أخرى فيهلك ، وقد بين لها الشيخ الساحر أنه لن يصنع له ثوبا آخر ، فحزن الأمير واشتد المرض عليه مرة أخرى ، ووصف له دواء من أحد الأماكن البعيدة فأحضره له إخوته ، وبعد زمن شفي من سقمه وترجى أمه أن تطلب من ساحر البحر أن يأذن له بالعودة لزوجته فرفضت قائلة : يا ولدي .. أخاف عليك الموت ، لقد ظننا أنك هلكت .. وشيخ البحر أقسم إنه لن يصنع لك ثوبا جديدا ، فأخاف عليك من غدر بني الإنسان .. فلتصبر يا ولدي حتى أفارق الحياة وتتحرر من ثوبك .. واعتبر نفسك أنك قد غرقت ومت قديما .. هذا حظك ونصيبك .. وسامحني يا ولدي .. لقد ارتبطت حياتك بحياتي فأنا أحببت لك الحياة فحصل ما أنت تعلم به .. أنقذك الساحر الأكبر من الغرق الأول وصنع لك ثوب البحر لتحيا في البحر .

فبكى عبد الله بين يديها بكاء حزينا ، وبكت الملكة لبكائه ، وبعد سنوات قليلة هلكت الملكة البحرية، وحزن عليها عبد الله ، بل كان أكثرهم حزنا عليها رغم قسوتها عليه في بعض الأحيان

للمحافظة على حياته ، وكانت الرسائل متبادلة بينه وبين أهل البر ، وبعد أن انتهوا من نقل جسد الملكة إلى جبل دفن الملكات والعظماء، واستلمت المملكة ابنة الملكة الكبرى سنا، وهذه خيرت عبد الله في البقاء في البحر أم العودة للبر ليرى زوجته وولده وأمه وأباه ، فاختار البر حيث تكون حياة الإنسان من غير تكلف وثوب بحر ، وكانت الملكة البحرية الهالكة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة قد أعلمته بحياة أبيه الصياد ، وما فعلته معه ، وطلبت منه أن يبحث عنه ، فجرى له وداع كبير استمر بضعة أيام ، وصعدوا به سطح الماء ، ولما أصبح رأسه في الهواء أخذ بخلع ثياب البحر وتسلمها أحد أعوان الساحر ، وأعطى ثوبا جميلا ، ووعدوه بأنهم سيزورنه في القصر ومعهم صناديق وكنوز البحر ، فودعهم وأخذ يستنشق الهواء بحرية وقوة حتى وصل لبيت الصياد الجديد، فخرج له زوج أخته الذي كان يفتح له الباب فقال له عبد الله : أليس هذا بيت الصياد أبي عبد الله؟

قال الرجل : بلى ، وأنا صهره .. من أنت ؟ فهذا بيت الصياد أبي عبد الله!

فقال الأمير : أريد رؤية زوجتك ضحى والصياد ؟ أرجوك ضروري هذا أيها الشاب المحترم اخبر زوجتك وقل لها أمير البحر يريدها ؟

احتار الشاب فقال : انتظر أيها المجهول !

وبعد دقائق جاء الصياد ، ونظر إلى عبد الله قليلا فخفق قلبه وقال : ماذا تريد يا ولدي مني ؟

بكى عبد الله لما سمع كلمة ولدي وقال : نعم ، أنا ولدك . قالها في نفسه ثم قال : أيها الصياد المسكين أتذكر وحيدك عبد الله الذي فقدته منذ سنوات أتذكره ؟

فدمعت عينا الصياد وقال : نعم ، ولماذا هذا الحديث أيها الشاب .. ؟!

قال الأمير : أنا من طرف عبد الله ولدك .. فهو حي يرزق يعيش مع الأسماك في البحر، ألم تخبرك الأسماك التي تأكلها بحياته ؟!.

صعق الصياد وصاح : عبد الله حي .. عبد الله حي! .

فقال عبد الله : ألم تخبرك الأسماك بحياته ؟ وأنه مسجون مع حيوانات البحر إلى أجل مسمى ..

فهو حي لم يمت .. هدأ من روعك أيها الوالد المسكين .

فقال الصياد والدموع تنساب على خديه المجعدين وهو يمسحهما بيديه : هل صدق ما تفوهت به ؟!

فقال الأمير : ولماذا أكذب عليك يا أبي ؟

فنادى الصياد زوجته وابنته ضحى فأقبلتا مسرعتين وكان يهتف: عبد الله حي ..عبد الله حي

فلما أقبلت ضحى ورأت عبد الله صاحت : أماه! .. الأمير عبد الله البحري !.

فقال الأمير دهشا : ضحى وصيفة الأميرة !.. أنت أختي يا ضحى .. يا والدي أنا ابنك عبد الله أنا ابنك عبد الله قد عدت إليك من السجن البحري .

واحتضن أباه وهو يبكي ، واحتضن أمه وما زال يبكي ويتنهد ، واحتضن أخته وهو يبكي ، وعانق زوج أخته وهو يبكي من دفء اللقاء ، كان لقاء لا يمكن وصفه بدقة ، لقاء حميما قبلات وتنهدات ، بعد يأس وعمر طويل يرى الأب فلذة كبده ، ومع دموعهم جميعا استمعوا لقصة عبد الله ؛ فكانت حياة عجيبة وغريبة في قاع البحر، وبعد أن هدأت العواطف ، قالت ضحى : يا عبد الله زوجتك الأميرة عرفت أنك أخي ، لقد ذكرت لي يوم عرسي بأنك أخي ، لقد رأت الوشم المرسوم على يدي ، فقالت يا ضحى هذا الوشم يشبه الوشم المرسوم على ظهر زوجي ، وكنت قد حدثتها عن السمك الناطق في بيتنا ، قالت كأن الأمير عبد الله هو أخوك المفقود .. فلم أصدق .. آه! كم شقيت الأميرة عليك أيها الأخ الحبيب ؟! .. لقد ولدت لك طفلا جميلا مثلك .

فقال الصياد : عظيم !! أنا الصياد الفقير أو الذي كان فقيرا .. صهرا لملك البلاد إن هذا لشيء عجاب .. إن هذا لقدر عجيب .

قالت ضحى : سأنطلق يا والدي الطيب لأخبر الأميرة ، لا ، لن أستطيع الصبر حتى الصباح فهي قد رفضت الزواج من بعدك .. كم كانت تسعد عندما يأتيها رسول من طرفك ؟.

فقال عبد الله : ترفقي معها في الحديث .

طارت ضحى إلى قصر الملك في ساعة لم تكن تأتيها بها ، وادخلوها إلى الأميرة قمر الليل التي استقبلتها بدهشة وفضول قائلة : ما وراءك أيتها الأخت العزيزة ؟! .. هل ألم بك مكروها ؟!

قالت ضحى : أيتها الأميرة عندي أخبار سارة لك هل تحتملين سماعها ؟

صفنت الأميرة قليلا وقالت وهي تضع يديها على صدرها : ماذا عندك ؟!.. هل عندك خبر عن عبد الله ؟!

قالت : نعم .. أتى عبد الله .. وهو أخي كما ذكرت لي ذلك ذات نهار مضى .

أغمى على الأميرة ، فصرخت ضحى ، فهرعت الجواري، وجاءت الأم وطبيب الملك وأتى الملك ؛ ليسمعوا خبر عودة عبد الله من البحر ، وسمع بعض القصة ، وذهب الملك بنفسه ، وأحضر الصياد وولده عبد الله الذي قص عليهم قصته وحياته في البحر ، وذكر لهم أنه الآن استرد حريته ، وتحرر من أسر البحر ، فعجبوا من حياة البحر وملوك البحر، وأحبه الملك ولم يتذكر أنه ابن صياد فقير، وساقوه إلى زوجته فقرت عينها برؤيته ، وعانق ولده الصغير ، وأمر الملك بتهيئة قصرهما الجميل، فأسرع الخدم للقيام بالمطلوب ، ودبت الحياة في القصر من جديد وسكن فيه الأمير ووالده وأمه ، ووهب الوالد الصياد البيت الذي يملكه لابنته ضحى وزوجها، وقام إخوته البحريون بزيارته وهنئوه بعودته لأهله وولده ، وجلبوا معهم الكثير من الأموال البحرية ، فأهدى أكثرها للملك والملكة ، ووهب للأمراء والفقراء ، وعادت السعادة للبيت والمملكة ، ولما سكنت النفوس سأل الملك ختنه ذات ليلة : يا عبد الله البحري .. هل عرفت من سرق ثوبك؟ وكاد يهلكك ذلك اليوم الأسود !

فقال عبد الله : إن أمراء البحر كانوا يرون أن لوزيركم يدا في سرقته ، فقد أغرى بعض الخدم أو الجواري بسرقته أثناء نومنا .

فقال الملك : سنبحث في الأمر أيها الأمير عندما تطمئن القلوب .. فهنيئا لك يا قمر الليل عودة زوجك البحري .. إنها تحبك كثيرا أيها الأمير فقد أبت الزواج من بعدك وفاء لك أيها الأمير الطيب .

فقال عبد الله : ستكون في عيناي وفؤادي أيها الملك ..وسأكون لها نعم الزوج .. أين ولدي الحبيب يا قمر الليل ؟!



قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

عبد الله البحري





الفوارس

رُمان

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

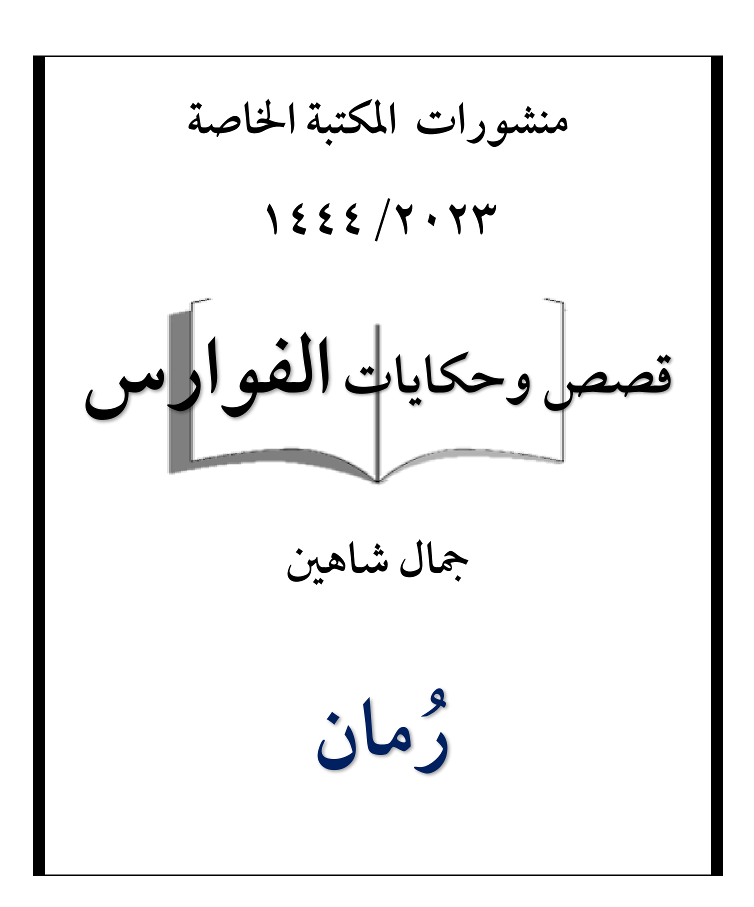
الفوارس

٤

جمال شاهين

١٩٩٣

رُمـان



منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

رُمان

جمال شاهين



رُمان

الحياة صراع عجيب ، ربما يدفع هذا الصراع المرء لحياة الأشرار ، فيصبح شريرا يشار إليه بالبنان في الشر والعدوان ، وقد يستيقظ الشرير ذات حين فيعود رمزا للخير وإغاثة الضعيف والملهوف وقصة رمان فيها هذه المعاني ، فهو يعتبر السرقة والنشل والخطف بطولة ورجولة ومجالا للفخر، ولسماع مدح الشعار، وكان يرى في سرقة الأغنياء نوعا من العدالة ، وأخذ حقوق المساكين والفقراء ، فصار محترفا للصوصية ولصا يشار له في ذلك ، وكان يسمى هذا اللص عند إخوانه اللصوص والزعانف والزعران الشاطر رمان ويلقب بـ غضب الليل ، ويسميه رجال الشرطة بسيد الحرامية والزعران ، في مدينة كسروان ظهر الشاطر رمان ، وبدأ حياته الأولى ، وهي من المدن العظام في ذلك الزمان ، بدأت حكايته منذ عهد الطفولة ، هجم على البيت رجال وخطفوا أباه من غير رحمة وحنان ، يتذكر رمان بن سنمار أنه كان صغيرا دون السنوات العشر الأولى من العمر ، بكى أمام الخاطفين ، وتوسل إليهم أن يدعوا أباه ، فرفسوه بأقدامهم إلى الأرض بكل قسوة وعنف ، ولطموا أمه عدة لطمات ، وضربوا أخاه الأصغر منه عدة صفعات ، وأخذوا الأب من بينهم واختفوا ، قيل إنهم لصوص ، وقيل إنهم من رجال الحاكم حاكم مدينة كسروان كبر الحقد والكره على المجتمع في قلب الصغير .. تزوجت الأم بعد سنوات، لم يطق رمان الحياة عند زوج الأم ، فكان يهجر البيت بالأيام والشهور ، ادخله زوج الأم الكتاب مرات ؛ ولكنه لم يصبر على تحصيل العلم ، فكان حلمه وهمه أن يكبر ويثأر من خاطفي أبيه ، وينتقم من كل أشرار الدنيا أحب المال وزوج أمه كان فقيرا ، فذهب لسوق العمل .. فعمل حينا عند حداد ثم تركه ، وعمل عند بزاز وباع ثوبا ، فأنكر ثمنه فصرفه البائع بسلام .. اشتغل حمالا في البحر فكان كثير العراك مع الحمالين والغلمان ، فضرب يوما أحد أبناء الأغنياء فقادته الشرطة وأوسعته ضربا وإيذاء ، فكبر الحقد والحسد ، وحاول العمل في الشرطة والجيش فرفضوه بزعم عدم الحاجة لمزيد من الشرطة والجيش .. شرب الخمر يوما فقضى في السجن أياما مع الضرب والإذلال ، فما أصبح له من السنين خمسة عشر عاما حتى كان من زعران كسروان ، اعتادت أمه

وزوجها على غيابه، فلم يعودوا يكترثون له ولمشاكله .

كسروان مدينة ممتدة على ساحل البحر ، وهي مجموعة عملاقة من الجبال، وتقع دار الحاكم والإمارة في أقصى المدينة على جبل عال ، وفي وسطها تقع الأسواق المتعددة ، والبيوت منتشرة على الجبال وأطراف الوديان ، وساحاتها كثيرة وكبيرة وحدائقها كثيرة ، فبعد أن فشل رمان في العمل وجد راحة في النشل والسرقة والنصب والدجل فعمل مع سواح ، وهذا الرجل كبير مجرمي المدينة، فهو مجرم محترف يحسب له رجال الشرطة ألف حساب ، التقى به رمان في أحد الأسواق ، فعرض السواح هذا على رمان اتباعه والعمل مع زمرته ، وأخذه إلى أحد البيوت القريبة من الجبال وقال له : هذا بيتي .. وأنا زعيم عصابة من اللصوص وقد أحببت أن أضمك إلينا ، فنحن مملكة داخل مملكة ، فقد ذكرك لي بعض الرجال الذين يعملون معي فسعيت للقائك ، فتنكرت ونزلت السوق أراقبك ورأيتك في سوق الليمون وأنت تنشل ذلك الرجل المسكين فأمسكت بك ، ولما ذكرت اسمك تذكرتك ..فما تقول بالعمل تحت إمرتي أيها الغلام

قهقهة رمان وقال: لست غلاما أيها السيد الكبير ! وقد سمعت بك ، وسمعت أنك تقتل الناس

فضحك سواح وقال : أيها الفتى .. الذي يعمل مثل هذا العمل لابد أن يتعرض لهذه الأمور.. لا تخاف الدم .. أنت قوي البنية والبدن.

فقال رمان : فتى ..لا بأس.. الآن أصبحت فتى .. أتريد يا سيد سواح أن تقاسمني ما نشلت اليوم ؟

أخذ سواح يضحك عاليا ثم قال : لا.. مبارك عليك ما نشلت .. نحن نسرق المنازل والجواهر.. أموال كثيرة .. أنت تسلب دراهم .. فأريد أيها الفتى أن أضمك للفريق.

صمت رمان فترة ثم قال : سأقبل العمل معكم ولكن كيف؟ وما دوري؟

فقال سواح الزعيم : أيها الغلام الكبير سأسميك غضب الليل ، فعليك أن تنسى ما سماك به أهلك .. وهذا البيت الآن بيتك ، في المساء يأتي الرجال من أعمالهم ومن ثم تتعرف عليهم وتعرف عملك معنا .. اذهب إذا أحببت إلى النوم ..قد يكون الليلة عندنا خبطة هنا أو هناك .

في الليل بدأ أفراد العصابة يتوافدون على المنزل ، كانوا حوالي عشرة من الرجال ، وبينهم صبي واحد من سن رمان ، اجتمع بهم سواح وبين لهم انضمام العضو الجديد رمان ، فرحبوا به ، وكان أسعدهم به الغلام الآخر لأنهما متقاربان في السن فتعاطفا سريعا ، وبعد ذلك سألهم سواح : ما الأخبار ؟

فقال أحدهم: أيها الزعيم الكبير.. الشرطة ما زالت تبحث عنك لم يهدأ الوضع بعد ، فقد علمت أن الأمر وصل للحاكم ، وأنه طلب من الشرطة القبض عليك بأي وسيلة وصلبك .

الذي تكلم هو نائب الزعيم واسمه عازل، وصمت الكل لما سمعوا كلام عازل، ولم يتكلم سواح، فتلفت رمان في الجميع ثم قال: هذا أمر خطير أيها الزعيم ما القصة؟!

لم يغضب سواح بل ضحك وقال: أيها الفتى .. لا تكن فضوليا .. عليك أن تأكل وتشرب وتنام.. وتطيع الأوامر.. ولا تسمع ولا تتكلم .. إنني أعذرك لأنك عضو جديد لا تتكلم إلا أن يؤذن لك .

لكن رمان كأنه لم يستوعب نصائح الزعيم فتبسم وقال : هذا تقييد للحرية أيها الزعيم فأنا أفضل أن أعمل وحدي .

فقال سواح بهدوء عجب له أصحابه : اصبر يا رمان ..آ .. يا عازل اكمل .

فأدرك رمان أن الحكاية لم تنته ، فعاد عازل يقول : علمت من بعض رجال الشرطة ما قلت لك.. إن الأمر جد خطير.. والحاكم يشدد في القبض عليك ، فعليك أن تحتاط كثيرا هذه الأيام أما بالنسبة للرجال الذين سقطوا في أيدى الشرطة فقد أوصلنا لهم الرسالة بعدم الكلام وإلا الموت الزؤام .

فقال الزعيم مبررا لجريمته : لو لم أقتل ذاك الرجل لقبض عليّ مثلهم .. مالي أرى الرجال تتناقص من بيننا؟!.. في الضربة السابقة خسرنا رجلين ، وسجن أربعة ..وهذه الضربة ألقي القبض على أربعة آخرين .. فهل كبرنا وهرمنا ؟! ولم نعد نحسن العمل والتنفيذ! كم بقي من الرجال عندنا ؟.. هؤلاء الرجال عشرة ، وثمانية في السجن .. وأنا وأنت .. وهذان الغلامان

اثنان وعشرون .

تناول الرجال الطعام والشراب ، ثم عادوا للجلوس حول الزعيم الذي خاطبهم قائلا : صندوق المجوهرات كيف نحصل عليه ؟؟..هل نرسل رمان للمحاولة يا عازل ؟! .. فالرجل ما زال يطلب الصندوق ، وسيدفع مالا كثيرا ، لقد قابلته في سوق الجواهر، وبينت له فشلنا ، فقال : إن العرض ما زال قائما بيننا .. ما تقول يا رمان ؟

فرد رمان بقوة وحماس واستعلاء واستعداد : أنا جاهز لأى ضربة ما دمت قد رضيت بالعمل بينكم ومعكم .. رغم جهلي بأسرار الشغل عندكم .

ضحك الزعيم وقال : عازل .. اشرح له أصول العمل عندنا.. والنظام المراعى بيننا والمقامات وارسم له خطة لمحاولة سرقة الصندوق الذي فشلت أنا بنفسي بالحصول عليه ؛ لعل حظه خير من حظي .. انصرفوا .

لقد كان رمان ذكيا وفطنا وناقما ؛ ولكنّ ذكاءه وقوته ظهرت في عالم الشر والفتن ، استمع إلى كلام كثير من عازل ، وعن تقاليد العصابة المتبعة، وعن نشاطها وأهدافها ، واقتنع ببعضها ، ولم يقتنع بأكثرها ، وخلاصتها الإخلاص والولاء الكامل للزعيم في الدرجة الأولى ، ثم للعصابة في الدرجة الثانية ؛ وقال لنفسه في نهاية الحديث : العمل مع هؤلاء خير وأفضل من العمل بمفردي .

وبعدما انتهى عازل من تعليم رمان آداب وتعاليم العصابة ، ذكر له قصة الصندوق الذي يقصدون سلبه ، وفقدوا أربعة من رجالهم وغيبوا غياهب السجن ، فقال عازل : تاجر ذهب ومجوهرات في سوق الجواهر طلب من الزعيم سرقة هذا الصندوق الممتلئ بالجواهر النادرة مقابل مبلغ ضخم من المال .. أرشدنا على بيت صاحب الصندوق ، وترك لنا حسن التصرف ، ذهب الزعيم ومجموعة من الرجال قبل أيام لسرقة الصندوق ، وهم في دهاليز البيت اكتشف أمرهم ، وتمكن الزعيم سواح من الهرب بعدما قتل أحد الرجال الذين اعترضوه ، وأما الرجال الآخرون فقد قبض عليهم مثل الفئران الصغيرة .

فقطع رمان استرسال عازل وقال : وهل المنزل محروس ؟! ومن صاحبه ؟

رد عازل قائلا : المنزل بعد المغامرة الفاشلة علمنا أنه لأميرة من بلد آخر، وهي في ضيافة الحاكم وهي هاربة من بلادها لاضطرابات وقلاقل وفتن ، فتركها زوجها هنا وعاد لبلاده للقتال والحرب ، وكانت قد عرضت جواهرها على تجار السوق ، ولم يدفعوا لصاحبتها المبلغ المناسب فطمع فيها صاحبنا الجوهري ، ولنا علاقة طيبة معه ، ويشتري منا ما نسلبه ونسرقه فعرض الأمر على شيطاننا سواح ، وقمنا بالهجوم المفاجئ لنسطو على المجوهرات ، فيبدو أن حرسها كان مدركا لخطرنا، ففتحوا لجماعتنا الطريق ثم حاصروهم ، فدارت معركة استطاع الزعيم أن يفلت منها؛ ولكنه اضطر للقتل من أجل النجاة .. وسلم الآخرون للشرطة ، ووصل الأمر للحاكم .. والرئيس ما زال يرغب في الحصول على الصندوق .. ولا أدري أيها الشاب الصغير كيف ستحصل عليه ؟! ولكن يبدو أن الزعيم يثق بذكائك.

التزم رمان السكوت إلى حين ثم قال : هذه أول مرة أحاول أن أغامر مغامرة كبيرة كهذه ؛ ولكني سأحاول ، ولا تنظر لسني .. لقد مللت الشرطة في البحر وفي الأسواق .. اعلم أن أسهل عمل وجدته هو السرقة والنشل ، وأنا اكره الشرطة والحكام منذ الصغر ، ولابد أن اثبت لكم ذكائي وقدرتي، فلابد لي من سرقة هذا البيت؛ ولكن يا ترى هل بقي الذهب والمال في المنزل المقصود بعد فشلكم الذريع؟!

فقال له عازل :هل لديك خطة للعمل؟! ولا أدري كيف يثق بك الزعيم ؟!

قهقهه رمان لحظات ورد فقال : مع الصباح سأجد خطة ..الآن دعني أنام لأفكر جيدا.

مع الصباح كان رمان يعرض خطته أمام الزعيم سواح ، واعجب بها الرجل أيما إعجاب ، وطلب منه تنفيذها على الفور ، فأخذه عازل وخرج به من بيت الزعيم ، وكانت الخطة أن تذهب به امرأة أحد هؤلاء اللصوص إلى منزل الأميرة ، وتبيعه لهم على أنه رقيق حتى يجد فرصة يسرق بها المجوهرات ، وأخذته امرأة على أنه غلام استغنت عنه لحاجتها للمال فأرشدها الناس إلى بيت الأميرة ، وبالفعل اشترته الأميرة بمائة درهم فقط ، فقد كانوا بحاجة لغلام يخدمهم في

البيت ولشراء حاجاتهم من السوق ، وبعد أسبوع من العمل كخادم صغير زادت ثقة الأسرة بالغلام الجديد ، واطمئنوا إليه أكثر، وهو يرصد تحركاتهم ، ويبحث عن الصندوق بخفة تامة؛ ولكنه لم يعثر عليه، ولم يسمعهم خلال الأيام الماضية يتحدثون عنه، وكان على اتصال بالعصابة أثناء شرائه الخضار والفواكه من السوق ، ذات ليلة سمع الأميرة تتحدث مع أحد رجالها عن المال، وكيف سيحصلان عليه لترسله لزوجها المحارب؟ وعلم أنها ستخرج بعض الجواهر لبيعها ، فاستطاع رمان بخبثه أن يعرف مكان إخفاء المال من غير أن يحسوا به ، ولما خرجت الأميرة بصحبة حرسها لتبديل بعض الجواهر بالمال ، قام رمان بسرقة الصندوق وما تبقى فيه من الجواهر، وخرج متعللا بشراء حاجة تخصه ، وأتى المساء ولم يعد ، وغاب أياما فلم يظهر رمان في البيت ، وبعد حين اكتشفت الأميرة ضياع مجوهراتها ، فصاحت وصرخت، وأخبرت الحاكم بالحيلة التي فقدت فيها كنزها ، فغضب الحاكم لها وقال لرئيس الشرطة: لم تقبض بعد على قاتل حارس الأميرة ..وها هم يسرقون مالها أمهلك أسبوعا واحدا لتعيد المجوهرات .. وراقب تجار الذهب والجواهر .. قد تجد الجواهر لدى أحدهم .

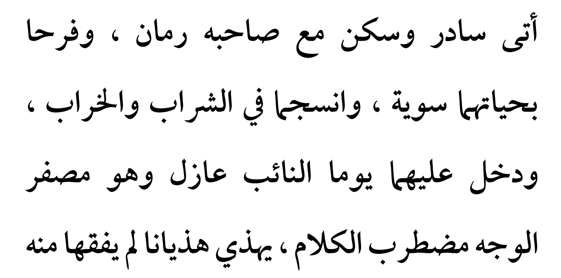
فرح الزعيم سواح لنجاح رمان في سرقة الصندوق، وكبر مقامه عند الزعيم ، وتعجب الآخرون من شجاعته وحيلته ، ولما نظر الزعيم للمجوهرات الموجودة في الصندوق دهش منها وأعجبته، وفكر بأن لا يبيعها للجواهري، ويحتفظ بها ويهديها لعشيقاته ثم قال :لا يستحققن لبس هذه العقود العظيمة.

ثم دفعها للجواهري الذي عهد إليه بسرقتها، وقبض مبلغا كبيرا زاد عن عشرة آلاف دينار، وقال لنفسه : هذا المال خير من الجواهر التي تحتاج لحماية وخزن .

وقسم على رجاله فتات المال ، ومنح رمان خمسمائة دينارا ، وطلب من رجاله الاختفاء بضعة أيام ، وطلب من عازل جمع الأخبار ، بعدما أخذ رمان المال الذي كسبه من سرقة مجوهرات الأميرة المهاجرة ، استأجر له عازل بيتا وفرشه واسكنه فيه، وقال له : هذا بيتك .. وكن على اتصال بنا.. وسيكون سادر نزيلا معك فهو من سنك فما تقول ؟

ـ يسرني ذلك .. وافعلوا ما شئتم رغم أني أحب سكنى المغارات والجبال .





أتى سادر وسكن مع صاحبه رمان ، وفرحا بحياتهما سوية ، وانسجما في الشراب والخراب ، ودخل عليهما يوما النائب عازل وهو مصفر الوجه مضطرب الكلام ، يهذي هذيانا لم يفقها منه شيئا ، فصاحا به : ما بك يا مجنون؟!

فأجلساه وقد بدأ الارتباك ينتقل إليهم ، فصاح فيهما : تسكران والشرطة قد قبضت على الزعيم وخمسة من الرجال!.

فطار من عيونهما السكر والخمر لهول ما سمعا .. وصاحا : ويلك! اخبرنا بالأمر.. وكيف أمسك به رجال الحاكم ؟.

فقال عازل متذمرا : أنا هذه اللعبة من أولها وأنا خائف منها ومتشائم !.. نصحت الزعيم بترك صندوق المجوهرات، فلم يسمع وصمم على سلبه .. فلو سمع لما تعرض الرجال للقبض ، وما قتل الزعيم ذاك الرجل .. فمن ذلك الفشل والأمر يسير ضدنا ويسير لصالحهم.. كنت ذاهبا كالعادة للقاء الزعيم لتلقي التعليمات والعمليات الجديدة ، وذلك في المساء، فوجدت الحي ممتلئا برجال الحاكم ، ثم شاهدتهم وأنا مختف يأسرون الزعيم وخمسة من الرجال ، فجئت إليكم لأخبركم ، ثم ابلغ الخطب لباقي الرجال حتى لا يذهبوا لبيت الزعيم فيقعوا بأيدي رجال الحاكم والعسس.

في الصباح التالي كان الخبر ينتشر في مدينة كسروان ، وهو القبض على زعيم وكبير اللصوص في المدينة ، وعلم الناس أن الحاكم أمر بصلب سواح من غير حكم القاضي ، وعلم الناس بوقوع الجواهري بقبضة الشرطة ، ووجدوا بحوزته مجوهرات الأميرة المسروقة ، فأعيدت المجوهرات للأميرة ، وأصبحت العصابة بعد سقوط سواح على كف عفريت ، وطلب عازل من رجال العصابة الاختفاء سريعا ، وعلم رمان وصديقه سادر أن الزعيم سقط بعدما اعترف عليه أحد

الرجال السجناء الذين سقطوا في المحاولة الأولى ، ولم يكترث بهم ولهم سواح فأرشد الشرطة حنقا وغيظا لمنزل سواح مقابل العفو عنه ، وبعد تفكير ونظر طلب رمان من النائب جمع الرجال ليضعوا خطة لإنقاذ سواح قبل صلبه وقتله ، وبعد تردد جمع عازل الرجال وهم سبعة في بيت رمان وسادر ، فخاطبهم قائلا : أيها الرجال علينا أن نفكر بإخراج سواح من السجن ، فهو زعيمنا فلابد أن نغامر من أجل إنقاذه أو نموت معه.. فليس مطلوب منا أن نجلس كالعجائز نندب حظنا .. فما عندكم من أفكار لتنفيذ هذا الأمر الخطير؟! .

خيم الصمت عليهم للوهلة الأولى ، ثم بدأت التمتمات بينهم ، ثم صاح عازل : هل لديك خطة معينة يا شاطر رمان ؟

قال رمان: عندي خطة .. منذ علمت بأمر سجنه .. وأنا أفكر بطريقه أخرجه بها من الحبس والقيد .. أفكر بضربة قوية ، وفكرت وفكرت فوجدت أن الحل صعب، ويحتاج إلى جراءة وشجاعة وإقدام وقلوب قوية .. فهل أجد هذه الصفات عندكم أيها الرجال ؟

فصاح أحدهم متحمسا: نحن رجالك .. أراك تصلح زعيما لنا بدلا من عازل الذي لم يحرك ساكنا .

فصاح رمان : نحن زعيمنا سواح .

فقال عازل : لن أرد أيها الرجل .. أنا اعترف أن مخي شل عن العمل !.. تصرف يا رمان.. فأنت الزعيم والمخطط لنا في هذه المحنة حتى ننقذ زعيمنا سواح .

فقال رمان : ليس المهم من يكون زعيمنا الآن ؟ المهم إخراج الرئيس من سجنه .. اسمعوا سأدخل السجن أنا وسادر الليلة.. سأذهب أنا وإياه إلى القرب من السجن، ونتشاجر أمام حرس السجن.. فيدخلوننا السجن حتى الصباح ، ثم سيعرضوننا على القاضي صباحا كما هي العادة .. ولكننا تلك الليلة سنقوم بتخدير رجال السجن كلهم ، سنحصل على ملبس مخدر ، ثم سأقوم بتوزيعه على الحراس والجنود ، وأنتم مع منتصف الليل تكونون في انتظارنا أمام السجن بكل السلاح من السيوف والمدى ، ونأخذ الزعيم ورجالنا ونهرب به وبهم .. فقد يكون

لا يستطيع المشي ما تقولون أيها الرجال ؟

وبعد صمت طويل قال عازل : هذه ضربة صعبة وتحقيقها صعب! .. وليس لنا إلا السمع والطاعة .

فقال الشاطر رمان : إذن احضروا لنا ملبسا محشوا بنجا.. اذهبوا للعطار سلمونة في سوق البخور ، واحصلوا على البنج ثم إلى صانع الحلوى لهلوب ليصنع لكم ملبسا بذلك البنج.. والليلة سأنفذ هذه المغامرة ما تقول يا سادر؟

قال سادر بحماس : أنا معك انفذ كل ما تريد وتدبر.



ولما هبط الظلام واشتد مشيا نحو سجن المدينة الأكبر ، وبالقرب من حرس السجن جرى بينهما شجارا وصراخا وضربا ، على أثره هرع حرس باب السجن وحبسوهما في غرفة على باب السجن حتى يرفع أمرهما لقاضي الحاكم أو أحد من نوابه ، واتصل رمان بسواح أثناء مشيه لمكان قضاء الحاجة ، ففرح سواح لخطة رمان وجسارته وقال : إنك أجرأ من وقعت عليه عيني هل أحضرت الملبس المخدر معك ؟

فقال : نعم إنه في سروالي .

ولما عاد لحجرته المحبوس فيها ، قام بتوزيع الحلوى على الجنود والحراس موهما إياهم أنه بائع هذا النوع من الحلوى ، وبما أنه محبوس ولا يعرف ما سيجري له عند مثوله عند القاضي فقرر التخلص منها ، ووزع كمية على السجناء المستيقظين ، ومع انتصاف الليل كان كل من أخذ حبة حلوى يغط في سبات عميق ، وخرج سواح ورجاله بعد أن فتك سواح بالرجل الذي فسد

عليه ، ولما أصبحوا خارج السجن كان رجال العصابة في انتظارهم ، فأمرهم سواح بالاختفاء في الجبال ، ولما أصبح الصباح كانت المدينة مقلوبة رأسا على عقب لهروب عدد كبير من السجناء ، وعجب الحاكم لقوة هذه العصابة التي تسكن بلده ومدينته ، وعجب لجسارتهم واقتحامهم السجن وإنقاذ زعيمهم ، فاشتد غضبه على رجال شرطته ، وأمر كبار قادة الجند والشرطة بالبحث عنهم بأسرع وقت ؛ ولكن الرجال قد اختفوا في أعالي الجبال والكهوف ، وكان حدثا مرعبا للجميع للحرس وللناس والشرطة ، شهر كامل مضى وسواح ورجاله مختفين في أوكارهم الجبلية ، فاحتاجوا للمال بعد نفاد ما بين أيديهم في شراء الأقوات ، فطلبوا من الشاطر رمان أن يدبر لهما مالا ، فقال لهم بكل غرور : سأشغل المدينة بحدث كبير ثم أسرق خزنة الملك.. سوف أقوم بسرقة بيت القاضي الذي حكم على الزعيم سواح بالموت

أخذ رمان رفيقه العزيز سادرا ، ونزلا المدينة تحت جنح الظلام الحالك ، وعند انصرافه قال سواح لرجاله : هذا شاب جريء وقوي ! ومثل هؤلاء لا يعيشون طويلا .

كان رمان بن سنهار قد ابتاع ملابسا له ولسادر تشبه ملابس حرس السلطان الحاكم ، وفي عتمة الليل البهيم مشيا إلى بيت القاضي قاضي السلطان وقرع الباب فسمع صوتا يقول : من على الباب ؟ .

فصاح رمان : أنا رسول مولانا الحاكم إلى مولانا القاضي احمل له رسالة عاجلة .

فلما أخبر القاضي بذلك أمر الغلام بفتح الباب ، ولما فتح الباب دخل رمان وخلفه سادر ، وسار أمامهما الخادم نحو القاضي الذي بادرهما قائلا : ما وراءكما ؟

فقال رمان : السلطان يريدكم لأمر عاجل وخطير.. فاذهب يا سيدي والبس ملابسك.

بالطبع الليل وضوء الشموع لا يعين على التحقق من شخصيتهما، وخاصة وهم يرتدون ملابس تشبه ملابس حرس الحاكم ، فأسرع القاضي لحجرة الثياب لارتداء ثياب الجلوس بين يدي الحاكم ، فقاموا على الفور بالغدر بالغلام وتوثيقه وتكميم فمه، وأسرعا خلف القاضي الذي كان يظن أن غلامه خلفه، ففعلا به مثل الغلام ، ووضع السكين على عنقه أو يرشدهما لماله ،

فأدرك أنهم لصوص احتالوا عليه ، ولما أحست الزوجة بخطرهم أرشدتهم للمال ، فقام رمان بأخذه ، وسحبا القاضي حيث الباب خشية غدر الغلمان الذين استيقظوا على الضجة ، وأمام الخوف على حياة القاضي لزموا الصمت ، ولما أصبحا في الشارع أسرعا بالهرب والاختفاء وأخذ القاضي يلملم جراحه وهلعه ، وفي الصباح التالي افتقد الملك القاضي فأرسل خلفه ، فجاءه الرسول بالخبر العجيب ، فازداد عجب الملك وغيظه من جرأة ووقاحة اللصوص في بلده ، يعتدون على الأميرة ضيفة الملك والبلاد ، وعلى السجن .. وها هو قاضيه الأكبر يتعرض لسطو اللصوص ، فعزل رئيس الشرطة مرة أخرى ، وعين بدلا منه محاربا وفارسا كبيرا ، والذي اندهش أكثر من الملك الملك سواح زعيم اللصوص ، فهذه جراءة لم يعهدها في رجاله منذ صار زعيما لهم ، فلما التقى برمان قال : أيها الفتى أرى أنك أصبحت أقوى مني وأشطر وأخطر ! أنا بقوتي وشجاعتي ما فكرت يوما بمهاجمة أعوان الحاكم ورجاله .

فاستغرق رمان بالضحك ولما استرد أنفاسه قال : أفكر بسرقة الحاكم !.. بدار خزنة الحاكم فكثير من الأموال المكدسة فيها مأخوذة ظلما وتجبرا .. فلنأخذ نصيبنا منها .

فصاح سواح والرجال دهشة مما سمعوا وقال الزعيم : هذا والله التحدي الأكبر!!.. وهل تستطيع ذلك ؟! .

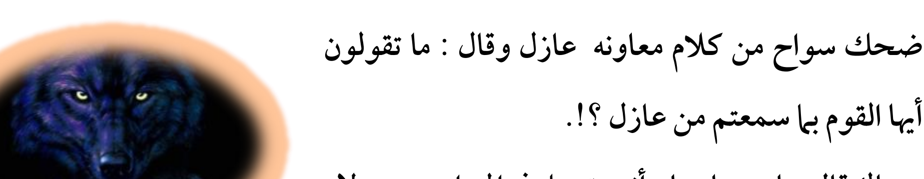
فقال رمان بتحد وغرور : سأفعل ذلك من أجلك أيها الزعيم حتى تعرف من هو رمان ؟! من هو غضب الليل ؟! .



بعد أيام نزل رمان وسادر عن الجبل حيث تختفي العصابة ، وبعد انصرافهم قال سواح لرجاله : أرى صاحبنا قد ازداد غرورا وشراسة !.. ونحن تركنا المهنة وما عدت أسمع لكم بنشاط أو

همة للعمل .. أتحبون أن تظلوا عالة على رمان وسادر؟ فلنخطط لخبطة كبيرة.. عازل ما عدت أسمع مشورتك.

فقال عازل : الخطر كبير يا مولاي ! ..فالملك منزعج من قوة اللصوص ، نخشى أن يهاجموا الجبال بالجنود .. فلنتريث خيرا من العجلة .. فما زال الخطر قائما، والشرطة والجنود يبحثون عنا وقد علمت أنهم صلبوا عددا من المجرمين وقطاع الطرق في ساحة الموت ليعيدوا الثقة بقوات الشرطة في قلوب البشر .. وأنا أفضل يا سيدي الزعيم أن نبتعد عن رجالات الحكم كالماضي فكل هذه المشاكل التي تطاردنا عندما سرقنا أموال تلك الأميرة الغريبة ، فكيف ولو كانت قريبة للسلطان؟ .. لا تفسر كلامي بالخوف والجبن ، إنما هو الحذر ، فهؤلاء الحكام والأمراء يتهاونون في أمرنا إذا كنا بعيدين عنهم ، أما إذا اقتربنا منهم فهم يتوحشون ، ولن يرحمونا إذا صادونا .



ضحك سواح من كلام معاونه عازل وقال : ما تقولون أيها القوم بما سمعتم من عازل ؟!.

وهناك قال سادر : يا رمان أنت تعمل في الميدان .. وهؤلاء القوم رضوا بالنوم .. وهم يأخذون نصيب الأسد .. ونأخذ نحن الفتات .

ابتسم رمان وقال : بدأت تفكر أيها الصديق .. اصبر اصبر فنحن بضربتنا للقاضي .. وضربتنا القادمة للسلطان نصبح السادة رغم أنوفهم .. فيحسبون لنا ألف حساب ، سيخاف منا سواح .. فهذه الأعمال الكبيرة لصالحنا أكثر منهم ، ولسوف ننشق عنهم إذا ظلوا في أكل وشرب ونوم وخوف من رجال الشرطة .. المهم أن تكون أنت مخلصا لي وأنا مخلص لك .

فقال سادر : لقد رضيت بك زعيما لي وقائدا .. فأنا معك وافعل بي ما شئت .

فقال رمان : سنبقى أصدقاء وأخوة في هذا البحر ، ولن يفرق بيننا إلا الموت.

وتعاهدا على الوفاء ، وأقسما على الإخلاص لبعضهما ، والمحافظة على بعضهما ، استقرا في بيت

رمان يخططان لسرقة خزنة الملك ، وهناك على طعام جلسا يفكران بملعوب في الملك تتحدث عنه كسروان لسنوات ، وقررا أن يعملا متسولين ويدوران بالقرب من القصور حتى يعرفا أخبار الموقع ، ويعرفان كيف الوصول لخزينة الملك وتحديد موقعها وصفة الوصول إليها بكل دقة ؟ واستمر البحث والتنقيب أسبوعا من الزمن وقد استطاعا بواسطة التسول هنا وهناك من معرفة مقر الخزنة، وعدد حراسها ، فوضعا خطة العمل، ولم يكن الحرس كثيرا حول دار الخزنة ؛ ولكن الحصول على المفاتيح هو المشكلة التي تؤرق فكرهما ، فوجدا أن العنف هو الحل وأما الحرس فقذف كرة بنج بينهم سوف تفقدهم الوعي بضع ساعات ، فتقرر أن يذهب رمان بعد منتصف الليل بوقت على شكل متسول متسكع نحو الجنود ، فيقذف بينهم كرة بنج ، ثم يختفي ويراقب مفعولها ؛ فإذا ناموا ، فيدخل إلى الخزنة ، وقبيل الفجر يوافيه سادر ببغلة ، وينتظر عند باب الخزنة ، اقترب رمان من الجنود بملابسه الرثة ، وهو يغني متظاهرا بالسكر ، فناداه أحد الجنود قائلا : أيها الشحاذ تعال .. أتشحذ في الليل ؟! ألا يكفيك النهار أم السكر جعل ليلك نهارا ؟.

فقال رمان وهو يقطع الغناء : أيها العسكري .. أنا صحيح أني شحاذ ؛ ولكن لا بيت لي يأويني فأنام في الشارع في الكهف على أبواب الدكاكين .

وأخرج شمعة من جيبه وقال : انظروا إلى هذه الشمعة الجميلة التي حصلت عليها اليوم .. أمعكم نار حتى تشموا رائحتها الجميلة؟ .. فهي من إحدى الحسناوات

وكان رمان قد فرك أنفه بمادة تمنع تسرب البنج لبدنه، فقام أحدهم فأشعل الشمعة وأخذوا يستنشقون الرائحة الجميلة ، وهم يثنون على المتسول ، وقال أحدهم : إنها رائحة عجيبة وغريبة يا متسول الليل؟

فتضاحك رمان وقال : إنها شمعة من إحدى الحسناوات .. وداعا .

ابتعد عنهم ، فلما رأى أن رائحتها استقرت في أجوافهم ، وسقطوا نياما وكلهم ينشد النوم ، فلما ظهر غطيطهم أسرع موثقا له بالحبال ومكمما أفواههم، وفتشهم فلم يجد معهم أي مفتاح ،

وأقبل سادر على بغلة سوداء ومعه أداة قوية تساعدهم على خلع وكسر الأقفال، وتم لهم ذلك بسهولة ، ودخلوا الخزنة ، وبعد كسر عدد من الأقفال سرقوا صندوقين من مال السلطان ، وحملوهما على البغل وساروا إلى جهة البحر ؛ ليوهموا من يراهم أنهم يحملون أحمالا إلى البحر إلى إحدى السفن التي تريد الرحيل ؛ ولكن لم ينتبه لهم أحد ، ولم يصدفوا أحدا ، ثم افرغوا الصناديق بأكياس ، وحمل كل منهم كيسا على ظهره ، ثم ساروا لبيتهم فأخفوا الأموال فيه، وأسرعا بالهرب نحو الجبل بعد أن أخذ كل منهم قليلا من المال للحاجة ، ولما وصلا إلى الجبل لم يجدا سوى رجل واحد في الجبل فصاح رمان : أين الرجال أيها الفارس ؟!

فقال الرجل :أيها الشاطر نزلوا المدينة منذ يومين ، ولم أسمع لهم خبرا .

فقال سادر : وسواح معهم .. هل الزعيم معهم ؟

فقال الرجل : ليس هنا إلا أنا .

فقال رمان بقلق : ربنا يستر .

علم حاكم مدينة كسروان بالاعتداء على قصر الخزنة ، فانزعج وقال لحاشيته : أرى الأمر وصل للسلطان ! أخشى يا قوم أن يسطو اللصوص عليّ في غرفة نومي .. أين الأمن يا رجال الشرطة يا صاحب الشرطة ماذا تفعلون ؟؟ نيام .. نيام !

فتمتم صاحب الشرطة بصوت مرتجف : مولاي الملك ! .. امتلأت السجون من اللصوص والزعانف والشطار والزعران .

فضحك الملك ضحكا عنيفا ساخرا : اسمع وزيرنا شاوركا ما يقول صاحب شرطتنا .. امتلأ السجن من المجرمين ، وليس بينهم الذين اعتدوا على كبير قضاتنا ، ولا الذين هربوا من السجن ولا الذين سرقوا خزنة الملك ، ولا الذين اعتدوا على الأميرة صفاء.. أنا مستغرب من ضعفكم وتهاونكم.. قل ماذا أفعل يا وزير شاوركا ؟!

فنهض الوزير ومهونا من شأن المجرمين وقال : أيها السلطان .. صبرك على رجالنا ، فالمجرمون

أولاء غير معروفين للشرطة ؛ ولكن من متابعتي للأمر ولهذه القضايا .. أعتقد أن المجرم والمخطط لهذه الجرائم واحد ومعه أعوانه .. ففي جريمة السجن كان السجين الكبير سواح مسجونا .. وهو من كبار اللصوص والمجرمين في بلدنا .. والذي أنقذه أحد أعوانه بحيلة رهيبة .. وفي جريمة القاضي كان اللص بلباس حرسك الخاص يا مولاي .. إنهم يحسنون الحيلة.. وفي جريمة الخزنة كان اللصوص متنكرين رغم أن الحرس لم يروا إلا شخصا واحدا قد خدعهم وخدرهم .. ولكن سرقة الصناديق تحتاج إلى أكثر من شخص ، فالواقع مما سمعت وعلمت فالمجرم شجاع وذكي وجريء ، وهذا لم يعهد في بلدنا ؛ فلذلك يقف رجالنا عاجزين أمامه .. ولكن لابد أن يخطئ ويسقط .

فصاح الملك : بعد خراب مالطة !.. أريده حالا .. لقد نفد صبري ..

فقال الوزير مخاطبا صاحب الشرطة : فعليك يا صاحب الشرطة أن تنشط رجالك وتبثهم بين الناس وبين اللصوص .. فليرتدوا ملابس الناس ويندسوا بينهم .. وسأقوم يا مولاي بنفسي بمتابعة هذه العصابة .. فهدئ من نفسك ، وسوف ترى ما يسرك ، ويعيد ثقتك برجالنا المخلصين .

فخفض الحاكم من صوته وقال : أريد أن أرى هذا المجرم بين يدي بسرعة .

فقال الوزير: سأبذل كل جهدي .. ولا أستطيع أن أعدك فهو مجرم خطير وذكي؛ ولكنه سيسقط بين فكيّ .

فقال الملك بغيظ : ماذا أقول أيها الأمراء؟! .. ليس أمامي سوى الصبر والانتظار .. تصرف أيها الوزير وكلي ثقة بذكائك .. فاصنعوا له صيدا لعله يقع .

عندما رجع سواح ورجاله للكهف والتقى برمان وسادر فقال وهو يصرخ فرحا وإعجابا : هل حقا انتصرت على رجال الحاكم وسرقت الخزنة ؟!.

وتعانق الرجال ، وقال رمان وهو يضحك ومزهوا بنفسه: أتشك بقدرتي أيها الزعيم ؟ .. أين كنتم ؟

فقال الزعيم : نزلت والرجال نبحث عنك إلى أن سمعنا خبر سرقة خزنة الحاكم، فقلت للرجال : فعلها غضب الليل ..هذا اسمك الجديد حقا أنت غضب الليل .. أنت ملك الليل وسيد كسروان في الليل !.. وصديقك سادر ابن الليل .. فهو لا يقل عنك شجاعة .. اخبرني أين المال ؟

فقال رمان : سرقنا صندوقين من مال السلطان.. فلابد أن مولانا السلطان اشتد غضبه علينا والموت في انتظاري .. بدأت أفكر بالموت وأخافه أيها الزعيم .

فصاح الزعيم : دعك من حديث الموت .. كلنا سيموت .. علينا أن نحيا قبل الموت المهم أين المال؟! أين أخفيتم الصناديق ؟

فقال رمان وهو يضحك : المال موجود .. وأنتم هل فعلتم شيئا في هذه النزلة للمدينة؟

فقال سواح : لم نفعل شيئا يذكر.. بعض السرقات الخفيفة.. نحن هرمنا تركنا العمل للشباب أين المال الملكي؟ .

ضحك رمان عاليا وقال : ما عندك صبر يا زعيمي .. لا أدري كيف قبل بك هؤلاء الرجال زعيما؟.

فصاح سواح بغضب : ويحك! لا تتطاول عليّ .. أنت ما زلت غلاما مغرورا .

فازداد ضحك رمان وقال : بعد كل هذه الضربات ما زلت غلاما ! سأعطيك المال أيها الزعيم حتى لا تفقد أعصابك .. وصاح محتدا: عازل صناديق المال في بيتي.

فقال الزعيم : ألا تخاف عليها ؟! تركتها في بيتك .

فقال رمان ساخرا : ومن يجرأ على سرقتها ؟ إنها أموال الملك ! ومن يظن أني أضع مالي فيها ؟.

فضحك عازل وقال لرمان : يا غضب الليل احذر الغرور والعجب .

وقال الشاب سادر : أيها الزعيم المال في بيتنا .. وافعلوا به ما شئتم .. وغضب الليل يفكر بسرقة جديدة .

فقال الزعيم كأنه متهكما : بمن تفكر الآن ؟؟

فرد رمان بغضب وغرور وحيرة : أيها الرئيس .. أصبحت لا أحب الجلوس من غير حركة وفكر ، لا أحب تعطيل عضلي وعقلي .. هل عندك من أحد تريد سرقته ؟

وقبل أن يرد الزعيم قال عازل : أقول لك أنا يا غضب الليل من تسرق ؟.

فقال سواح : قل يا عازل .. هذا الفتى كبر في العمل ، وطاقة مهمة علينا استغلالها ، مع أنني أخشى أن لا أسيطر عليه غدا .

فأجابه رمان متملقا : أيها الزعيم إذا أحببت أن اكف عن العمل افعل .. وإذا أحببتم أن أعود للميناء والنشل أفعل .

فصرخ فيه سواح قائلا : ويلك! وهل نستطيع التخلي عنك يا بطل ؟ .. فقد قررت صرف الرجال لبيوتهم وأزواجهم وسندعوهم عند الحاجة فأنت تسد عن مائة .

فانتفخ رمان غرورا من مدح الزعيم وتمسكه به ، فقال رمان : كم بقي معنا من الرجال أيها الزعيم ؟

فقال الزعيم : سبعة عشر رجلا مغوارا .. سأصرف عشرة ونبقي سبعة هنا .. ومهمة العشرة الذين ينزلون المدينة رصد الأخبار ومراقبة أماكن الصيد وتبليغها لعازل .. اصرف يا عازل من رجالنا من أحب ذلك ، وأعطيهم ما يكفيهم من المال ولتكن أنت حلقة الوصل بيني وبينهم .. ثم اجلبوا المال المخبأ في بيت رمان وسادر .. وعندي ضربة جديدة للبطل رمان وضربة عازل لتؤجل .

فابتهج رمان وصاح فرحا : هذا المطلوب عمل حركة .

أخذ عازل الرجال العشرة الذين رغبوا في الجلوس في بيوتهم ، ونزلوا المدينة ، وكان معه رجلان لمساعدته في نقل المال للجبل ، ولما ابتعد صوت الرجال ، قال سواح لرمان لغضب الليل كما سماه : هذه المرة .. لا تسرقا مالا .. ستقوما بسرقة جواد .

ولما شاهد دهشتهم عاد يقول : اتصل بي أحد الرجال، وطلب مني سرقة حصان أحد الفرسان وأعطاني ثلاثة آلاف دينارا مقابل ذلك ، وهو مبلغ غير يسير فما قلتم ؟

قال رمان : المهم اشرح لنا سبب سرقة هذا الحصان ؟

فبعد صمت عميق قال سواح : سأذكر لكم ذلك .. حدرد أحد فرسان كسروان ، وحصانه زعل حصان قوي وقادر على الفوز بالمسابقات ، وصاحبي الذي سيشارك في المنافسة والسباق عنده فرس جبارة، ولها تجارب كبيرة في ذلك؛ ولكن حصان حدرد يسبقها ، بل سبقه أكثر من مرة ، وهو طامع بالفوز بهذه المسابقة في هذا الموسم ، ويكون ذلك بحرمان حدرد من جواده زعل ، ونحن حصلنا على المال لتنفيذ هذه المهمة .. فماذا تقولون أيها المغاوير الكبار؟

ولزم السامعون السكوت حينا ثم قال رمان : وبعد أن نسرق الجواد أين نذهب به يا زعيمنا ؟

عاد الزعيم يقول : ستخرج به من كسروان لبيعه في مدينة أخرى .. قد تكون هروان .. أتعرفها يا رمان ؟

فقال سادر: أنا اعرفها أيها الزعيم ! هي غرب كسروان يفصل بينها وبين كسروان النهر الغربي فأمرهما سواح بعد سرقة الحصان بالذهاب إلى هناك وبيع الحصان ، وقضاء شهر في الفرجة على هروان ، ثم قال : ليكن لقاؤنا هنا بعد شهر .. وسأذهب معكم للمدينة .. وأدلكم على بيت حدرد الفارس حدرد .



جمعوا معلومات لازمة عن البيت المراد سطوه ، فوجدا أن اصطبل الفارس حدرد مستقلا عن البيت في أقصى مزرعة الفارس ، والأرض مسورة بسور عال فمن الصعب دخول البيت وسرقة الجواد ؛ وأثناء المتابعة لاحظا أن الفارس حدرد يذهب كل صباح مع سطوع الفجر في جولة على ظهر الحصان زعل تستغرق ساعة من الزمن ، يسير فيها نحو البرية ثم يعود، ولما تأكد لهم أن الحصان الذي يركبه هو زعل صنعا كمينا له في الطريق وغدرا به ، وتركاه على الأرض مبطوحا يئن من الغدر، وأخذا زعلا الذي ملأ الدنيا صياحا وهياجا على صاحبه، فقاما على ضربه وتلجيمه وتشميمه قليلا من البنج حتى هدأ ، ثم سارا به نحو هروان ، كما خطط لهما سواح ، ولما وصلا تلك المدينة

قاما ببيع الحصان بثمن زهيد ، وسكنا غرفة في خان كبير، وقد صمما التعرف على المدينة وأهلها وساحاتها وشوارعها؛ ولكن قبل تنفيذ هذا المخطط تعرضا للقبض عليهما خلال فترة وجيزة من استراحتهما ، فقد جاءت الشرطة ومعها الرجل الذي ابتاع منهما الحصان متهما إياهم بخداعه، وأن الحصان مريض لا يأكل ، فقالا للرجل : سنعيد له ماله ، ونأخذ حصاننا ، ولن نبيعه إلا بألف درهم .

فمشيا مع رجال الشرطة ، وأخذوا الحصان وردوا ثمنه للمشتري ، وعادوا للسوق لبيعه مرة أخرى ، وأمضيا شهرا في هروان ، فوجداها مدينة هادئة وسكانها قليلون مقارنة مع كسروان ، وعلما أن حاكم هذه المدينة صهر لملك كسروان ، فمضى الشهر وهما يتنقلان من ملهى إلى آخر ثم حان موعد العودة لكسروان كما اتفقا مع سواح ، فاستأجرا عربة تنقلهما حتى النهر الفاصل بين المدينتين بدرهمين عن كل نفر ، وعند الجسر ودعا السائق، ودخلا كسروان ، فركبا عربة أخرى تنقلها لقلب كسروان بدرهمين عن كل واحد منهما ، وأثناء الطريق فتحا الحديث عن كسروان ، فقال السائق : الوضع في كسروان متوتر منذ شهر.. والبلد كأنها في حالة حرب وقتال .

فقال رمان : لماذا أيها الأخ ؟

فقال السائق ببساطة : إنهم يبحثون عن مجرمين اثنين أحدهما يسمى رمان ، والآخر سادر .

نظر الرجلان في بعضهما دهشة وقال رمان : وماذا فعل هؤلاء المجرمان؟!

فقال السائق بحماس : أمسكت الشرطة بزعيم العصابة التي تثير الخوف في المدينة ، وهذا المجرم الكبير يسمونه سواح ، واتهموه بالاعتداء على بيت القاضي وخزنة الملك ، وجرائم أخرى ، أنكر، ولكنهم وجدوا معه أموال الخزنة المسروقة ، فأقر بمن فعل ذلك زاعما أن رمان وسادرا هما السارقان .

في هذه اللحظة كانوا قد قطعوا نصف الطريق فطلبا من السائق النزول ، فأوقف العربة وقبض أجرته وتابع مسيره ، ثم سارا نحو الجبال خوفا من الوقوع بأيدي الشرطة ، ثم يحاولان الاتصال

بأحد رجال العصابة لسماع الأخبار الحقيقية، فوضعا خطة للتنكر ، فغيرا من أشكالهما ، ثم دخلا المدينة متنكرين ، فاجتمعا مع أحد اللصوص المعروفين لهم ، فلما عرفهما اللص قال : ويحكما.. أمجنونان أنتما؟! .. اهربا من البلد على الفور .. فزعيمكما سواح في السجن .. وقد اعترف بين يدي الحاكم بما فعلتماه وهم يبحثون عنكم .

فقال رمان : قل كيف وقع الرجال ؟

فقال اللص : علمت أن عازل سقط بين يدي الشرطة ، ومع العذاب الذي أصابه اعترف بالأمر وأرشدهم إلى سواح ، ولما وقع هو الآخر أقر أمام الملك بأنك أنت الفاعل .. فاسمك الآن على كل لسان بالمدينة .. ومطلوب القبض عليكما فورا .. وأنا أرجوكم أن تبتعدوا عني .. وإلا تعرضت للقتل مثلكما .. فكل من يتستر عليكما يعتبر شريكّم .. وأنا منذ أيام خرجت من السجن بعد عذاب شديد

فودعاه وانصرفا وجلين ، وقال رمان لصاحبه : علينا أن نغير تنكرنا قبل أن يكشف الرجل أمرنا .. وما العمل يا صاحبي ؟

قال سادر : لدي اقتراح صعب وقاس .. ولكني أراه مناسبا .

قال رمان : تكلم أيها الصديق .

فقال سادر : صديقي .. لا تصفني بالخوف والجبن ؛ بل هو الحيطة والحذر .. فأمرنا مكشوف وسواح سقط وانتهى ، وأصبح عجوزا ؛ فإما أن نهرب إلى الجبال أو نترك كسروان حينا من الدهر حتى ينسانا الناس فنعود إليها بوجوه جديدة .. فما الجواب عندك أيها الصاحب ؟

خيم عليهما الصمت القاتل ثم تكلم رمان قائلا : اقتراحك جيد أيها الصديق .. فلنهرب إلى إحدى المدن القريبة .. فهذا الحل الأمثل والأصوب في مثل هذا الظرف وبعدما سقط أكثر الرجال .. هل نعود لهروان أم نسير لمدينة السلام ؟

رد سادر فقال : مدينة السلام تبعد عن كسروان سبعة أيام فهي أبعد من هروان وهناك يمكننا العمل والشغل .

سافرا إلى مدينة السلام ، ولما دخلا البلاد كان الناس يحتفلون بزواج ملكهم، فانخرطا في سلك المحتفلين حتى انتهى الحفل ، وانصرف الناس لبيوتهم ، فبحثا عن خان يباتان فيه حتى الصباح بدآ ينشلان من ثاني الأيام ليستطيعا العيش ، وقاما بالنصب والاحتيال على الضعفاء والمساكين وصادقا بعض اللصوص في المدينة ، وذات يوم وهما في السوق يلبسان ملابس الحمالين اقتربت منهما امرأة وقالت لهما : أيها الشابان معي كيس فيه أشياء وصندوق من الزجاج .

فمشيا معها ، فسادر حمل الكيس الممتلئ بالخضار وغيره ، ورمان حمل صندوق الزجاج فقالت لهما المرأة : اتبعاني ..

وكانت قد وعدتهم بعشرة دراهم ، وظلت تسير بهم حتى وصلت لدرب متراص بالبيوت فاجتازته وهما خلفها ، ودخلت بهم درب آخر حتى وصلوا لبيت عتيق فقالت : هنا.

طرقت الباب ففتح لها ، ودخلت والرجلان يتبعانها ، وبعد أن وضعا الأشياء في الداخل ، قادتهما المرأة إلى رجل يجلس تحت ظل شجرة كبيرة ، وقالت له : ها هما الرجلان يا سيدي .

فناداهما فاقتربا منه ، ووجدا كرسيين فجلسا عليهما وهما منهكان من التعب ، فقال لهما: أراكما متعبين وأنتم ما زلتما شابين قويين ؟

فقال رمان : المسافة بعيدة أيها السيد الكبير .

فقال : على كل حال حمدا على سلامتكم.. قبضتما أجركما ؟

سادر : بعد يا سيدي؟

فقال الرجل : أتعرفان من أنا ؟!

قالا : لا ، لم يقل زمرر لنا عنك كثيرا ؟.

فقال الرجل : زمرر أحد رجالي .. وأخبرني عنكما .. وأنكما تحبان العمل في هذا البحر المظلم .. فطلبت رؤيتكما بعد أن أثنى عليكما زمرر وأعلمني أنكما لصان بارعان محترفان.

فقال رمان : ليس كما قال.. ولكننا نعمل في هذا العمل منذ وعينا على هذه الحياة.

ففكر الرجل قليلا وقال : سأجربكما أريد أن اسرق .. وسكت .

فقال سادر مقاطعا : أيها الرجل ما عرفتنا بنفسك .

فقال بقوة : ما علمتاه من زمرر يكفيكما.. المهم أن تأخذا أجركما على كل خبطة .. وأنا أحميكم من اللصوص والمجرمين بقدر استطاعتي .

فقال رمان : حسنا .. اطلب ما شئت نحن تحت أمرك .

فقال الرجل : لي فترة أفكر بسرقة كتاب عظيم من مكتبة الحاكم ..وقد حاولنا أكثر من مرة .. وقد فشلنا .. وهذا الكتاب يهمني كثيرا .. إذا استطعتما إحضاره لي فلكما ألف درهم .

فأخذ رمان يضحك ويضحك حتى أفزع الرجل الذي يجلس أمامه فصاح فيه : ما الذي أضحكك أيها الشاب ؟ أكلامي يضحكك لهذا الحد ؟!

سكت رمان حتى استرد أنفاسه وقال ساخرا : أرسلت لنا هذه المرأة ، وحملنا الأحمال كل هذه المسافة لنسرق كتاب؟ألا تستطيع تكليف نساخ بنسخه أيها الرجل بأقل من هذا المبلغ ؟

قال الرجل بغضب : اسمع أيها اللص .. أنا طلبتك لتنفيذ ما تسمع .. لا أحب أن أسمعك تضحك أمامي مثل هذا الضحك مرة أخرى وإلا أرسلتك للسجن .. عليك بالأدب يبدو أن زمرر ما أحسن بإعطائك الآداب اللازمة .. أنا قلت سأجربكما ولكن يظهر لي أنك أكبر مغرور واجهته .. واعلم أن الحصول على هذا الكتاب ليس سهلا كما تخيلت أيها اللص ..ولا تنسى أنك غريب في مدينة السلام .

قال رمان بحدة : كفاك كلاما وآدابا أيها السيد .. قل أين الكتاب ؟

فقام الرجل غاضبا : انصرفا قبل أن تأكلا .. واذهبا إلى زمرر وستجدان التفاصيل والأوامر عنده غادرا المكان .

ونادى الخادم الذي طردهما شر طردة ، فانطلقا إلى زمرر في سوق الحرير غاضبين ناقمين ، واجتمعا به وقصا عليه ما حصل لهما ، فقابلهما بالابتسام وقال : لا عليكما .. سيذهب بكما عادل الآن إلى المكتبة لتنظرا إلى الكتاب المطلوب.. ثم تصرفا وخططا وأنا سأدفع لكم الألف درهم . فسار بهما غلام زمرر نحو المكتبة ، وشاهدا الكتاب الموضوع في صندوق زجاجي محاط بالذهب

الخالص .. وتفرجا على المكتبة ، وانصرفا للبيت الذي استأجراه منذ تركا الخان ، وهناك قال سادر لرمان بقلق : ما رأيك بأن نترك هذه المهمة أشعر أن القوم يبيتون لنا شرا ؟

فقال رمان : لماذا؟

فقال سادر :هذا زمرر لص ! ويملك هذا المحل الكبير في السوق ، وذاك الرجل الذي يسكن في مسكن كبير وهادئ وخدم لص أيضا !

فقال رمان : فكرت كثيرا بأمرهم ، وبما انتبهت له وما لاحظته .. فهم لصوص على مستوى كبير ونظيف ، ويتظاهران بالشرف .. أما ترى منذ بدأنا العمل في هذه المدينة .. ويعرض علينا اللصوص الصغار العمل مع زمرر الذي رحب بنا ، وذكر لنا أن له سيدا كبيرا ، وقبل أن ينظم شخص للعصابة عليه أن يزور الرأس الأكبر بالطريقة التي وضعت لنا ، وهذا ما حصل معنا هل يريب هذا ؟!

قال سادر بعد سكوت طويل : لست مطمئنا لهؤلاء الرجال .

قال رمان : نغامر هذه المرة ثم ننظر ما يحصل لنا بعد ذلك .



وبعد أن تناولا الطعام الذي أعداه ، عاودا الحديث حول سرقة الكتاب من المكتبة الملكية ، فقال سادر : هل سنسرق الصندوق بالكتاب أم الكتاب وحده ؟ فقال رمان وهو يتخيل الصندوق المسور بالذهب أمام عينيه وبين يديه : لاحظت أن الصندوق محاط بالذهب فبعد أن نسرقه كاملا نساوم على المطلوب .. الليلة قبل الفجر بساعة سنأخذ حبلا ، وأتسلق الجدار ، وأدخل المكتبة من الطاقة القريبة من السور .. وأنت تنتظر تحتها ، ثم أدلي لك الصندوق بواسطة الحبل ومن ثم نعود للبيت .

نفذا الخطة كما رسماها ، وسرقا الصندوق الذي فيه الكتاب المطلوب ، ومع الصباح كانا يجلسان في البيت ، وما كادا يستريحان حتى سمعا طرقا على الباب ، فقام سادر بفتحه ، فدخل رجال

الشرطة ، ودهموا البيت وأخذوا الصندوق وقبضوا عليهما ، فقال سادر : ألم اقل لك إن الأمر مبيت لقد وقعنا في الفخ ؟!

قال رمان : اصبر أيها الصديق .

وساقتهما الشرطة إلى السجن وألقتهما فيه، وبعد سبع كانا بين يدي القاضي قاضي مدينة السلام وكم كانت دهشتهما شديدة عندما عرفا شخص القاضي ؟! لقد كان القاضي هو الرجل الذي قادتهما المرأة إلى بيته الواسع في ضواحي المدينة ، الرجل الذي طلب منهما سرقة الكتاب ، فقابلهما القاضي بالابتسام وهو يقول لهما : مرحبا برمان وأهلا بسادر!.. لقد نجحتما بسرقة الكتاب والصندوق معه .. ولكني أراكما أمامي الآن .. فأنتما متهمان بالاعتداء على مكتبة الملك .. هل تقران بما فعلتما ؟؟

صاح رمان بغضب شديد : نعم نقر أيها القاضي المحترم .

فقال القاضي بهدوء وسكينة أمام الكتبة والعرفاء والشرطة : لقد أمسك بهما رجال الشرطة وهما يحتفظان بما سرقا ، وهاهما اعترافا بجرمهما ، وقد علمت أنهما لصان غريبان دخلا المدينة للسرقة والنشل والاحتيال ، وقد قاموا ببعض الأعمال القذرة من الضحك على البسطاء من الناس ، فقررت سجنهما خمس سنوات بالتمام والكمال .

وعلى الفور ساقتهما الشرطة من جديد إلى السجن الذي كانا فيه ، وكان شغلهما الشاغل أن يجدا طريقة يهربا بها من السجن والبلد ، وفي صباح اليوم التالي الذي حكم عليهما القاضي فيه أصبح الناس يتحدثون أن القاضي الشهير طعن بخنجر في ظهره ، وهو يرقد في بيته للعلاج ، والشرطة تبحث عن المعتدي ، وبعدما استرد القاضي بعض عافيته سأل عن السجين رمان ، هل ما زال في السجن هو وصاحبه ؟ فأخبره كبير العسس أنه ما زال يقبع في السجن تحت الحراسة المشددة ، فاحتار القاضي فيمن حاول قتله والغدر به ؟! فيمن دخل عليه البيت في الليل وضربه بالخنجر ، وهرب قبل أن يمسك به الخدم ، ففكر بزيارة السجن ليتحدث مع غريميه ، وقام بالزيارة فعلا ، وحاول القاضي أن يتأكد أن أحدهما حاول اغتياله ، فلم ينجح ، بل سمع رمان

يقول : الحمد لله أيها القاضي أننا كنا في سجنك الصغير وإلا لاتهمتني بها كما فعلت بنا في سرقة الكتاب .. لن أعفو عنك .. والحمد لله الذي انتقم لنا منك .

خرج القاضي وهو حائر خائف .. السجن الذي حبس به الرجلان عبارة عن حجرتين فقط وغرفة ثالثة مستقلة للحرس ، ولا يوجد في السجن إلا هما ورجل ثالث متهم بقتل زوجته ، وقبل الاعتداء على القاضي ، لم يكن يحرسهما إلا رجل واحد ، فأقنعه رمان عند الليل بمبلغ من المال على أن يسمح له بالذهاب لبيته ليحضر بعض الأشياء ، وطلب منه أن لا يخبر الحراس الآخرين الذين يرقدون في غرفتهم ، وقال له مطمئنا : وصديقي سادر عندك يضمن لك عودتي قبل الحارس عليهما المال ، وأذن له بالخروج خلسة ، فذهب للبيت وتخفى ، ثم سار إلى بيت القاضي وطعنه بالخنجر، وعاد للسجن بسرعة من غير أن يعرف أحد بخروجه ، فوجد الحارس نائما فأيقظه، وأدخله الحارس عند صاحبه، وطلب منه رمان أن لا يذكر لأحد أنه أخرجه من السجن ولو ساعة واحدة، ولما علم الحارس بما أصاب القاضي خاف ولزم الصمت، وأقسم هو والحراس أن أحدا منهم لم يخرج من السجن ، ولما جرت محاولة قتل القاضي شددت عليهم الحراسة ، ولما سكنت الأوضاع كان سادر يقول لرمان : الهرب سهل من هذا السجن .. سجن غريب لا يوجد فيه مساجين .. هل يعقل أن تخلو مدينة من مجرمين ومحتالين ؟! .. اللصوص الذين تعرفنا عليهم ألا يوجد سجناء بينهم ؟! .

فقال رمان ساخرا : كلهم يعملون مع القاضي .. والبلدة صغيرة ، والناس قليلون أيضا ، والحارس قال لنا إن السجين الذي يحاول الهرب ويفشل يكون عقابه الموت العاجل من غير عرضه على القاضي ، فإذا حاولنا الهرب فإما النجاة وإما الموت ، وكما ترى السجن يقع في قلب المدينة ، وأبوابها تغلق من أول الليل ، ولا خروج إلا بتصريح من القاضي نفسه .. فنحتاج ليوم مناسب يوم ينشغل فيه الناس بعيد واحتفالات فنهرب .. ولكني أفكر بالانتقام من زمرر الذي خدعنا وأوهمنا بالعمل مع عصابة ، وعملوا علينا تلك الحيلة حتى يتهموننا بالسرقة ، ويزجوننا في هذا السجن ليخلو لهم العمل وحدهم فقد خافوا من منافستنا لهم .

قال سادر : أيها الصاحب الهرب من هنا خير لنا من الانتقام .

ذات مساء نادى عليهم أحد الجنود ، فهرع إليه الثلاثة فقال لهم : لقد أصبح القاضي سلطانا للبلاد .. فقد عزلوا الملك الصغير ونصبوا القاضي مكانه .

فقال رمان : لماذا عزلوا الملك الصغير ووضعوا القاضي مكانه ؟!.

فقال الجندي : علمت ذلك من رئيسي عندما مرّ عليّ قبل قليل بهذا التغيير .. فأحببت إخباركم بذلك ؛ لعل عفوا يصدر بحقكم بمناسبة هذا التغيير



سبب هذا التغيير أن المدينة معرضة للاحتلال من قبل صاحب مدينة أسد دار الذي أرسل رسالة لملك مدينة السلام يهدده فيها بالاحتلال إذا لم يدفع لخزينته كل سنة مائة ألف دينار ، ولصغر سن الملك رتب القاضي الوصي الأمر مع الأمراء والأجناد على خلع الملك الصغير وتنصيب القاضي مكانه ، ورفضوا طلب ملك مدينة أسد دار.

بعد هذه الأحداث ، حدث أن زار زمرر رمان وسادرا في سجنهما بإذن من القاضي الحاكم الجديد للمدينة ، فعاتبه رمان بشدة على غدره وخداعه ، فاعتذر زمرر قائلا : نحن أيها الفارس مدينة يعيش الناس فيها بأمان وسلام .. لا يعيش بيننا لصوص ومجرمون وليس عندنا سوى هذا السجن الخالي إلا منكما ، وهذا الرجل الذي قتل زوجته وينتظر مصيره ، ولما بدأتما تسرقان وتحتالان على الناس علمنا بذلك من الرجال الذي احتلتم عليهم ، وممن حاولتم استدراجهم للغواية معكم، فعلمنا أنكما غريبان ، فرتبنا لكم ما تعرفونه حتى نقوم على علاجكم ونصلحكم ونبعدكم عن مرض اللصوص بالسجن خمس سنوات، وهي كفيلة بتغييركم ، ثم نمنحكم المواطنة الصالحة في بلدنا ، فهذه نوايانا فلا تعتبوا علينا ، فنحن مدينة السلام والأمان والحب والوئام ، ويجب أن يعم فيها السلام ، فهذا ما جرى منا نريد تخليصكم من دائكم ، واعلم أن القاضي متأكد بأنك حاولت قتله ؛ ولكنه غض عن الأمر لعدم توفر الدليل القاطع

ضدكما .

ولما انتهى من توضيح هذه الأسباب والمبررات ، قال سادر : والآن جئت لأمر ما فما هو؟

رد زمرر باسما : نعم .. جئت لأمر مهم لكم ولنا.. أصبح القاضي سلطانا لهذا البلد، وملك مدينة أسد دار طامع فينا ، فهو يهددنا بدفع الجزية له أو امتلاك المدينة ، فسيدي الحاكم يرغب منكما أن تخطفا ملك أسد دار ، واطلبا منه ما شئتما من المال والمناصب والزواج من بنات مدينة السلام .

خيم الصمت على المكان بعد هذا العرض المثير، وكان رمان يقلب بصره بين سادر وزمرر وسقف السجن ، وكان سادر ينظر في وجه صاحبه ويتساءل هل من خدعة جديدة ؟ وفجأة سمع رمان يقول : مهمة جيدة مع من نعقد الاتفاق ؟

قال زمرر بفرح لنجاح مهمته بسهولة : مع الحاكم نفسه .

فعاد رمان يقول : سأقبل بهذه المهمة رغم أنني لا أحب الحكام .. وقد ظلمنا هذا القاضي .

رد زمرر : كان قصدنا خيرا لكما ولبلدنا .. فلا تدعوا هذه الفرصة تفوتكم لتصبحوا من علية القوم ..

ودفع زمرر لحراس السجن كتابا خاصا بإطلاق سراح الرجلين ، وكان أسعد الحراس بالعفو عنهما الحارس الذي تواطأ مع رمان في أول يوم دخل السجن بعد صدور الحكم ، وأذن له بالانطلاق لبيته .

اجتمعا بالقاضي الحاكم وبين لهما سبب حبسهما ، وكرر على مسامعهما أن هذه مدينة آمنة مدينة سلام وسعادة ، والكل يحيا فيها بسلام والمجرم يُقوم سريعا ، ولما ظهرا في المدينة أصاب الناس إزعاج قاتل ، وكان المقصود من عقابهما تربيتهما فقبلا الاعتذار ، فقال القاضي الحاكم : أرغب منكما بإحضار حاكم مدينة أسد دار بالقوة حتى نستطيع أن نريه بأسنا ، ونتفق معه على كف الحرب والشر عن مدينة السلام ، فهو أمير طائش استلم الحكم منذ سنة مضت بعد وفاة والده الذي كانت علاقتنا معه طيبة وودية ، ولما تسلطن الشاب بدأ يثير الحروب هنا وهناك ، وطلب

منا الجزية مائة ألف كل عام ، ولما كان حاكمنا صغيرا خلعناه ، وقد رأينا أنه يميل لدفع الجزية لخصمنا ، فرأى القوم خلعه حتى يكبر ويستطيع تحمل مسؤوليات الحكم والسلطنة .. ونحن لا نرغب في الحرب .. وفي نفس الوقت لن ندفع الجزية لحاكم أسد دار .. فتشاورنا واقترحت أن نخطف الملك الشاب من بين جنده وأنصاره ؛ ليعترف بقوتنا.. وأننا قادرون على اغتياله ، فقد ترتدع نفسه ونتفق على السلم ، ومن معرفتي بشجاعتكما اقترحت أن تحاولا ذلك ، ولكما ما شئتما متى تعودان سالمين ولكما الخيار بالاعتذار عن هذه المهمة .

أصبحا ضيفين كريمين على السلطان ، ينامان على فراش الأمراء ، ويأكلون في قصر الحاكم ، وأعطيا التعليمات اللازمة والمال اللازم ، وتحركا لهذه المهمة ، ولما أصبحا خارج المدينة قال سادر : ما رأيك بهذه المهمة ؟!

فقال رمان : مهمة كبيرة !.. ذكرتني بمغامراتنا في كسروان .. هذا القاضي ذكي وخبيث .. فبإرسالنا نحن يرفع الشبهة عنه وعن أهل مدينة السلام إذا فشلت المهمة ، وإن نجحنا يستفيد هو شعبية أكثر في عيون الناس بإنقاذهم من دفع المال .. وكما ترى فباستطاعتنا الهرب إلى مدينة أخرى .. وبما أننا لا نستطيع العودة لكسروان فلنعمل عند هذا السلطان ، فيصبح لنا سندا في يوم من الأيام إذا هرمنا .. وضاقت بنا الدنيا وصحبة الملوك ليس كلها ضرر .



وبعد مسير بين الجبال والوديان دخلا مدينة أسد دار ، وكان وصولهما مع المساء ففي أول دار للغرباء سكنا ، وبعد سبعة من الأيام رسما خطة لخطف ملك أسد دار ، كان من عادة ملك أسد دار الخروج للبراري للصيد والقنص ، ويأخذ في حملته عددا من الفرسان ، فأحيانا يخرج من الصباح لليل ، وأحيانا يمضي في البرية ليالي ، فرصد رمان وسادر موعدا من مواعيد الصيد ، وكان من عادته أيضا ألا يبعد عن المدينة كثيرا ، فقاما بشراء فرسين لهذه المهمة ، ولما علما بخروج

الملك للصيد تبعاه على فرسيهما ، فلما تعب الملك من الركض والمطاردة للحيوانات البرية جلس يستريح وحوله رجاله في خيمة نصبت له ، وكان رمان وسادر ينتظران هذه اللحظة ، فأخذ رمان الحلوى الموضوع فيها البنج ، وترك صاحبه يراقبه واقترب من خباء الملك متظاهرا بأنه تائه في الصحراء يبحث عن طعام وماء ، فألقى عليهم السلام ففزعوا في البداية فقال : عابر سبيل.. هل أجد عندكم ماء.

فقربوا إليه ماء ، فلما شرب وارتوى بدأ يتحدث معهم ، وأخذ يوزع عليهم الحلوى وهو يضحك ، ويبدي امتنانه على سقية الماء متظاهرا بأنه يقدم الحلوى مكافأة لهم على شربة الماء ، ولم يترك أحدا إلا أطعمه من الحلوى ، وبعد حين أصبح الجميع نياما ، وبعد أيام كان سادر يدخل بالملك الأسير مدينة السلام ويضعه بين يدي القاضي الحاكم الذي نهض عن عرشه يفك قيوده ويرحب به قائلا : أهلا بالملك سعيد بن هاد ملك أسد دار.

فقال الملك بغضب: هذا غدر أيها القاضي الغادر! .. آ .. نسيت أنك غدرت بابن مولاك ونصبت نفسك ملكا مكانه .

رد القاضي : أنت أسير أيها الملك.. وها أنت ترى كيف أحضرك رجالي بدون قتال ؟ .. اطمئن لن نقتلك .

فصاح الملك غضبا : إنك لا تجرؤ على ذلك، إنك أجبن من ذلك أيها القاضي الغادر .. لولا الحيلة ما كنت هنا وحدي .

فقال القاضي السابق : لن أقتلك مهما أخطأت في حقنا أو شتمتني .. والحيلة نصف الحرب .. سأعفو عنك .. ولكني أحببت أن أحضرك إلى هنا حتى تعلم أنني استطيع قتلك في عقر دارك فعندي رجال أشاوس لا يخافون الموت .. طلبت منهم أن يأتوا بك حيا لنتفاهم .

فصاح الملك الشاب : لن أتفاهم معك .. أتفاهم مع غادر ! اقتلني أيها الجبان الغادر .. إن لم تقتلني سأدمر هذه المدينة عن بكرة أبيها .

فقال القاضي لجنوده : خذوه لقصر الضيافة حتى تهدأ روحه .

فأخذه الجند وهو يزمجر ويسب ويلعن القاضي الذي التفت لسادر قائلا : عملتم عملا عظيما ! لقد كانت نظرتي إليكم في محلها أنتم مكانكم مع الفرسان ، ليس مع الشطار والزعران ؛ ولكن أين صاحبك لقد شغلني هذا اللعين عنه ؟! .

قال سادر : سيأتي أيها السلطان إنه خلفي .. إنه متعب فتركته في الطريق وجئتك بالأسير مسرعا

فقال القاضي : اذهب الآن واسترح وعندما يرتاح رمان اقبلا عليّ لأخذ جائزتكم.

كان تأخر رمان خارج البلد خوفا من غدر القاضي والادعاء أمام الملك الأسير أنهما فعلا ذلك من تلقاء أنفسهما ، وبعد يومين دخل رمان المدينة برفقة سادر الذي قصد المكان الذي اختفى فيه ، وأعلمه بما جرى بين الملك والقاضي ، فمشيا إلى القصر واستقبلهما القاضي ، وأثنى على شجاعتهما وجرأتهما ، فأهداهما فرسين قويين وسلاح الفرسان ، وقال لهما : أنتما أصبحتما من فرسان مدينتنا ، وعندما انتهي من هذا الأسير المغرور والمتعجرف سأكافئكما بما تشتهيان .



بعد سنين مكثاها عند الملك القاضي قررا العودة لكسروان ، فقد ملّا من حياة الهدوء ، فتركا زوجاتهما ، وسارا بعد هذه السنوات إلى كسروان حيث الأهل والأصحاب والبدايات .

وبينما هما يسيران إلى كسروان وفي ليلة من الليالي سمعا أصواتا عالية في أحد الوديان الذي يجتازانه، فأصغيا سمعهما، فسمعا بكاء نساء وأطفال وأنين جرحى ، وبعد حين سمعا كلمات رجل يقول : ماذا نفعل يا أماه ؟!.. فلنستريح في هذه الوادي تحت هذه الأشجار المحيطة به ، لقد تعبنا من المشي والركض الأطفال قد جاعوا .

وسمعا صوت الأم القوي يقول بصوت مسموع : حسنا انزلوا أيها الرجال .. انزلن أيتهن النساء تحت أشجار هذا المكان . . لابد للظالم من زوال .

فهبط الناس عن البغال والخيل والحمير، وأنزلوا إلى الأرض شابا كان محمولا على نعش ،

واشتعلت النيران في المكان لصنع الطعام وكان أحدهم يقول : لقد ابتعدنا عن المدينة مسيرة يومين ، ولا أظن أنهم سيلحقون بنا قاتلهم الله .

كان الفارسان بطلا مدينة السلام يسمعان هذه الكلمات وهما يستريحان بالقرب من شجرة ضخمة من غابة الوادي فقال رمان : قوم منكوبون هاربون ومنهكون من التعب!.. اذهب وتحدث معهم يا صاحبي ، وجئني بخبرهم ؛ فإذا كنا نستطيع مساعدتهم نفعل ، والله ذاك القاضي حبب لنفوسنا صنع الخير للناس .

مشى نحوهم سادر من غير تردد ووقف بينهم وصاح : أيها القوم ! أنا ضيف لا تخافوا مني .. أنا سادر بن علام .

فقام إليه بعض الرجال ورحبوا به فقال لهم : صدف أن سمعنا صياحكم وبكاءكم فجئت أسمع خبركم لعلي وصاحبي رمان نساعدكم .

فقال له أحد الرجال : اجلس أيها الفارس النبيل .. عرفنا بنفسك ؟

فقال سادر مرة أخرى : قلت لكم اسمي سادر بن علام وصاحبي الفارس رمان من أهالي مدينة السلام .

فقال رجل منهم : حياكم الله .. وأهلا بك .. نحن هاربون من عدونا أيها الفارس

جلس سادر على الوسادة التي قدمت له ، والتف القوم حوله، بعضهم قاعد وبعضهم قائم ، وعاد الذين يصنعون الطعام إلى إعداد الطعام فقال رجل : نحن قوم هاربون من بلدتنا .. لقد تجبر علينا قومنا وبغوا علينا.. وقتلوا أمراءنا وسادتنا .. وهذا الرجل الذي يرقد على السرير ـ وأشار إلى شاب مسجى على نعش ـ ابن ملكنا الذي مات قبل أيام ، ولما أردنا وضعه مكان أبيه تمرد عبيدنا علينا ، ونصبوا عبد مولانا الملك مكانه وانضم إليهم أوباش مدينتنا .. فهربنا بابن ملكنا المريض وأمه وأخته ونسائنا ، ومن أحب الهرب معنا ، ونحن قاصدون مدينة السلام وما حولها من المدن لننعم بالسلام والأمان عند مليكها جوهرة الزمان القاضي بلال شهر .. هذه قصتنا أيها الفارس سادر بن علام .

وقف سادر وهو يقول : لي صديق ، وهو ليس عنكم ببعيد سأذكر له خبركم لعله يرضى بمساعدتكم ، فهو فارس صنديد من فرسان الملك جوهرة الزمان كما قلتم القاضي بلال .

وعاد لرمان بن سنمار وحدثه بما سمع ، وجاءهم رمان وكله شهامة وحمية ، ولما تحدث معهم عاد يقول : كم فارسا أنتم؟

فرد كبيرهم : نحن عشرون فقط ، ومعنا بعض الجرحى والخدم والنساء .

فقال رمان بشجاعة وحمية وغضب : كم فرسان مولاكم الملك الذين ظلوا في المدينة تحت إمرة العبد ؟.

فرد كبير القوم : كثيرون أيها الفارس الشهم .

فقال رمان بقوة وحماسة معهودة فيه سابقا : قررت الوقوف معكم .. والفتك بهذا العبد اللئيم يبدو أنني أحببت العمل مع الملوك على غير هواي ..سنذهب الرجال جميعا إلا الضعيف .. ويبقى العبيد والنساء هنا ونغزو بلدكم .. فما تقولون ؟

فقال الرجال وقد تحمسوا من كلام رمان : نحن تحت أمرك أيها الفارس الشهم .

فقال رمان : فليستعد رجالكم للعودة معنا ورتبوا أموركم مع ملككم المريض .

ومع بزوغ الفجر كان رمان وسادر يتقدمون الرجال نحو مدينتهم وهم يعتلون صهوات الجياد وبعد مسير يومين وصلوا المدينة ، وطلب رمان من بعض الرجال الاتصال بفرسان الملك وجنده السابقين لمساندتهم ، وتقدم هو والآخرون نحو قصر السلطان ، وقال رمان لأحد العبيد الحراس على مدخله : اخبر سلطانك أن رمان بن سنمار يرغب بمقابلته .

وكان العبد الحاكم يقف على شرفة مطلة عليهم فصاح منها : من أنت أيها الحقير لتصيح في أسيادك العبيد ؟! .

فقهقه رمان وهو ينظر إلى فوق يحث يقف العبد المتمرد الضخم وصاح بصوت كأنه قصف رعد : كأنك لم تسمع بي يا عبد السوء !.. أيها العبد الخائن .. تطرد مولاك ولي نعمتك وتتحكم في رقاب أهل هذه المدينة الصغيرة .. لكأنك فارس وند للفرسان .. فاهبط إليّ أيها العبد اللئيم .

استشاط العبد غضبا على غضب ، واشتعل رأسه نارا ، واحمرت عيناه من قسوة الكلام الذي سمعه ، وكاد يقفز من شرفة القصر ليدق عنق شاتمه وصاح : انتظر أيها المغرور الكبير .. سترى فعال العبد معك يا ابن سنمار .

بعد قليل خرج العبد من القصر، وهو يعتلي صهوة جواد ضخم ؛ كأنه الفيل وبيده حربة صدم بها رمان الذي زاغ عنها بمهارة الفرسان ، فهو قد أمضى سنوات عمره في مدينة السلام يتعلم الفروسية ومبارزة الفرسان ، بل يسافر إليهم ليكتسب خبراتهم ومهاراتهم ، وكان الخبر قد انتشر في المدينة فاجتمع الناس والعبيد من أنحاء البلدة لمشاهدة المعركة الغريبة .

تمكن رمان من إسقاط العبد القوي على الأرض ، وقد دارت به الأرض ، وصاح في عبيده بالهجوم عليه ، ولكن سادر والفرسان الذين معه ، ومن أسرع من فرسان الملك وجنده كانوا قد ملئوا المكان ، فبدأت المعركة الرهيبة أمام قصر السلطان، فغاصت سيوف الفرسان في رقاب العبيد الذين صدموا من قوة الفارسين، وضاع العبيد تحت أقدام الخيل وشجاعة الأبطال ، وفر الجبان من ساحة الوغى ، وأخذ الناس بمطاردة العبيد والتنكيل بهم ومساعدة الفرسان ، وما دخل الليل حتى كان رأس العبد الكبير المتمرد معلقا على رمح طويل على مدخل القصر؛ ليكون عبرة لكل غادر وجبان ، وقام الجنود بالفتك بالعبيد والتخلص منهم ، وتم النصر على العبد الأسود ورجاله ، وما نجا إلا الذي تمكن من الهرب والابتعاد ، ومن لم يكن داخل المدينة أثناء المعركة ، ولما استقرت الأحوال أرسل الفارس رمان وفدا من الفرسان للعودة بالملك المريض ومن معه ، والذي فرح كثيرا بما سمع من الأخبار، ومن ثم عرض على الفارس رمان أن يصبح وزيرا له فاعتذر الفارس وقال: لا أستطيع أيها الملك السعيد .. سنبقى ضيوفك بضعة أيام، ثم أتابع مسيري أيها الصديق .. وعندما تحتاجنا فأرسل إلينا في مدينة السلام نكون تحت خدمتك .

عاد الهدوء للمدينة الصغيرة بعد ثورة العبيد الذين قتلوا شر تقتيل جزاء غدرهم ، وطرد الأحياء منها ، وبعد أيام تابعا السفر نحو مدينة كسروان ، فحلا فيها بعد سنوات من الفراق

فقد كبرت سنهما ، وتغيرت بعض ملامحهما ، فاشتريا بيتا على أنهما غريبان يرغبان بالحياة في مدينة كسروان، فكان رمان يقول لسادر: كيف سنعيش في هذه المدينة وقد تعودنا على الحياة الهادئة حياة الفرسان والشرفاء ؟! .. لقد أحسن إلينا القاضي وقد أساء ، أحسن إلينا بأن جعلنا من الفرسان الشرفاء الذين يخدمون الحكام والسلطان ، وقد أساء إلينا بأننا بعد كل هذه السنين لن نستطيع السرقة والاختلاس، فكيف سنسرق وقد أصبحنا من الفرسان؟! .. صراع في داخلي وحيرة تظلل أفكاري أيها الصديق .. أنت ماذا سميت نفسك ؟ .. عفيف بن شريف .. وأنا ماذا ؟ فارس بن فرساني .

فقال سادر بعدما صمت صاحبه عن الكلام : ماذا سنعمل هنا يا فارس الفرسان ؟

لزم رمان الصمت حينا ثم قال : نحن لا نحب العمل المقيد.. نحن نحب العمل بحرية .. ولكن المال لابد له من مصدر ..فلو التحقنا بفرسان الملك رغم صعوبة الحصول على ذلك لن نصبر على الأوامر .. إنني بدأت أندم بتركي مدينة السلام لقد كنا من السادة.. يا ترى ماذا حل بزوجاتنا من بعدنا ؟ ..أنا جئت لقد حننت لأمي وأخي فمنذ أن التحقت بعصابة سواح لم أرها منذ عشرين سنة .. يا الهي !! ..لا أدري هل أمي حية يا سادر؟ وأخي أنا لي أخ شقيق من أبي وأمي .. هل صار لي إخوة آخرون لقد هجرتهم ؟! .

فقال سادر : وأنا مثلك يا صاحبي تركت الأهل الأم والإخوة الثلاثة الأصغر مني وانضممت لرجال سواح .. ولي أختان أيضا .. تجاوزنا الثلاثين من العمر أيها الفارس .. سواح ما أخباره يا ترى ؟!

وبعد يومين من استقرارهما في المدينة كانا بين يدي حاكم كسروان ، فقد قبض عليهما الجنود ، وكان هذا الحاكم ابنا للملك السابق الذي توفاه الله وهم في مدينة السلام ، وتم تنصيب ولده مكانه ، وقد تغير الوزير والقاضي أيضا ، فلما مثلا بين يدي الملك قال لهما : إنكما غريبان عن المدينة .. أليس كذلك ؟!

قالا: بلى يا مولانا الحاكم نحن من مدينة السلام التي يحكمها القاضي بلال شهر .

فقال الملك الشاب بصراحة : أنتما لستما جاسوسين ؟

فقال رمان : جاسوسان ! .. لا يا مولانا .. ومن قال عنا ذلك أيها الملك الكبير لنا يومان فقط في مدينتكم .

التفت الملك لوزيره وقال : يومان فقط لهما في مدينتنا أيها الوزير .. ماذا فعلا ؟

قال الوزير : العيون قالت إنهما دخلا المدينة وسكنا منزلا واختفيا فيه ولم يخرجا.

فقال الملك : أحقا أنتما من مدينة السلام ولستما من أعوان ملك أسد دار؟!

فأقسم رمان بأنهما قادمان من مدينة السلام ، وقال رمان : أبدا يا مولاي نحن من مدينة السلام وباستطاعتك أن تتأكد من ذلك ، ونحن في خدمة مولانا الملك وما نحن بعيون بل نحن من فرسان القاضي بلال .

فالتفت الوزير للملك قائلا : يبدو أنه قد حصل خطأ في القبض عليهم من قبل الجند.

فقال الملك : خطأ !.. أوضح الأمر لهما يا وزيرنا وتأكد من أنهما من مدينة السلام وليسوا عيونا لأحد .

فأخذهما الوزير من مجلس الملك وقال لهما معتذرا : بما أنكما غريبان سأوضح لكما جلية الأمر ونحن نرحب بالضيوف المسالمين .. لقد دارت بيننا وبين ملك أسد دار رحى الحرب منذ أربع سنوات سقط فيها كثير من الفرسان والأبطال والسادة الوزراء والقضاة .. وتم الصلح بيننا وإنهاء المعارك، ولكن ما زال الوضع متوترا بيننا ، ويرسل علينا الجواسيس والعيون وقد سقط الكثير منهم في أيدينا ، ونحن لنا عيون هناك من التجار وغيرهم .. فأرسلوا إلينا إشارة بدخول جواسيس البلدة ، فرصدنا مجموعة منهم ، وهم تحت عيون رجالنا ، وكان ينزل في البيت الذي تسكناه رجلان منهم ، فيبدوا أنهم عرفوا بمراقبتنا لهم ، فهربا ووقعتما أنتما بدلا عنهما .. فاقبلا اعتذارنا نيابة عن الملك .

فعجبا مما سمعا من الوزير عن الحرب والقتال ورد رمان على الوزير قائلا : أيها الوزير قبلنا الاعتذار ونحن في خدمتكم وإذا رغبتكم بأسر وخطف ملك أسد دار وإحضاره لبين يدي

الملك فأنا وصاحبي مستعدان لذلك .

وقص عليه قصة القاضي بلال حاكم بلاد السلام والملك صاحب أسد دار، فاستغرب الوزير مما قال رمان وقال : سأفكر بما تعرضان علينا .

وفارقا القصر بأمان وهما يتعجبان من تغير الأحوال والناس خلال مدة هربهما لمدينة السلام ، فقد مات الحاكم ومات القاضي ، وقد حزنا على ما أصاب البلد من خسارة أثناء الحرب وقال سادر : أعتقد أن الملك إذا سمع حكايتنا مع ملك أسد دار سيوافق على خطف ملك أسد دار.. أرى أن العمل قد فتح علينا .. فالراحة التي كنا نشكو بوادرها لا تريد أن تهب علينا .

فعلق رمان ساخرا : العمل عند الحكام والسلاطين أفضل من العمل مع الخفافيش وسواح .. نريد أن نعرف أخباره بذكاء يا سادر .

بعد أيام طلبهما الملك الجديد واستمع لقصة أسرهما للملك أسد دار وسر من حيلة القاضي لتجنب ويلات الحرب ، ولما انتهيا من قص المغامرة أمام الحاكم قال لهما : وهل تستطيعان إعادة الكرة .. وإحضار ذلك الملك مأسورا ذليلا إلى هنا ولكما ما شئتما ؟! فلي ثأر عند ذلك الملك ، فقد قتل أخي الأكبر في المعارك على يديه؛ فإذا نجحتما في هذه المهمة الكبيرة فستصبحان من المقربين لعرشنا، ولكما منا ما ترغبان

فقال رمان : أيها الملك نحن في خدمة عرشكم .. سأنفذ رغبتك وسوف ترى ملك أسد دار ذليلا أسيرا بين يديك .

ولما تجهزا لأسر ملك أسد دار رحلا ، ولما قطعا المسافة بين كسروان ومدينة أسد دار في عشرة أيام تنكرا بلباس عباد الصوامع والرهبان ، ودخلا المدينة على أنهما راهبان مارّان من أسد دار ، وطلبا لقاء الملك وزيارته، فاستقبلهما ورحب بهما وقال لهما : أيها الراهبان الجليلان من أي البلاد أنتما قادما ؟

فقال رمان الراهب : أيها الملك الكريم لقد دخلنا مدنا كثيرة .. مررنا بعبدان وهروان وكسروان ومدينة السلام وها هي المدينة الخامسة في رحلتنا الدينية في البلدان وزيارة ملوك الزمان وأمراء

الأيام .. نهب لهم البركات والدعوات ونأخذ منهم الهبات والعطيات حتى نعود لمعبدنا الكبير معبد الشيخ رهبات شيخ مشايخنا كما تعلم يا ملك الزمان .

تمتع الملك من أحاديث الراهبين ، وقد استمع لأخبارهم وعبادتهم في قمم الجبال وبغضهم للدنيا والأموال.. فتحمس سادر الراهب وقال : يا ملك الزمان ما أحلى الحياة على قمة الجبل مع العباد والرهبان والخلوات ونسيان المشاكل والهموم والحروب والأسقام ، والأكل القليل بدلا من ملء الكروش بالدهون والحشوات! .. آه .. لو تجرب مثل هذه الحياة بضعة أيام لتزهد في الحكم والملك .

فضحك الملك وقال : أيها العباد أنتم لكم واد ونحن لنا واد ، لا تصلح الدنيا إلا بملوك يسوسون الناس بالعدل والإنصاف وترك الجور والظلم .

فقال سادر : والحروب التي تجري بين الملوك أليست من الجور والظلم ؟

وهنا قال رمان : يا ملك الزمان ونحن داخلان المدينة رأينا جبلا عظيما شاهق الارتفاع مسبحا للرحمن .. قلت لصاحبي إنه يصلح أن يسكن عليه العباد والرهبان لو يأذن لنا مولانا الطيب الكريم بأن نجعل عليه صومعة لنا تبقى ذكرى على مر الزمان .

فقال الملك : أي جبل تقصدان ؟

قال سادر : يسميه الناس عندكم جبل الريح ذاك الجبل العالي .. نبني عليه معبدا صغيرا يبقى هدية من ملك أسد دار لهذين العابدين الزاهدين في دنيا الناس ويكون محطة استراحة للرهبان العابدين المارين من بلادكم العامرة .

فقال الملك : افعلا ما شئتما أيها العابدان .. يا وزيرنا يا رنان ساعدهما في بناء الصومعة في قمة جبل الريح .. وأكثرا لنا من الدعوات للانتصار على أعداء الدين والدنيا يا شيخا الزمان .

فقال رمان : لن ننسى معروفك أيها الملك الطيب .. سنكثر من الدعاء في الليل والنهار وأثناء الصلوات .

وسارا بالوزير إلى الموقع الذي يرغبان بإقامة صومعة لهما عليه، ولما وصلا للمكان المقصود كان

الوزير قد هلك من التعب فقال : مكان بعيد وعال !

فقال سادر : نحن العباد نحب البعد عن الناس يا مولانا الوزير أدام الله عليك الوزارة وأعطاك ما في نفسك إنه كريم جواد .



أمر الوزير الصنّاعين ببناء صومعة للزاهدين بأسرع وقت ، ولما اكتمل البناء، رغبا من الملك ووزيره مشاركتهما الدعوات الأولى في الصومعة ، له ولشعبه ولجنده ، وطلبا منه أن لا يحضر أعددا كثيرة من البشر والحرس ؛ ليتم الابتهال والدعاء بسكينة وروية ، فوعدهما بالحضور هو ووزيره وفارسه القوي شرار لسماع دعواتهما له بالنصر والنجاح على الأعداء، ولما سمع رمان وعد الملك بالزيارة قال: سنسمي هذه الصومعة المباركة صومعة الملك سعيد بن هاد .

وبعد أيام شاهدا الملك ووزيره رنان والفارس شرارا يصعدون إليهم على ظهر الجياد ، ولما قربا من المكان كانت رائحة البخور والعطور تملأ الجبل ، فلما قربا من باب الصومعة قال الملك : رائحة منعشة أيها الوزير ! هؤلاء الرهبان لديهم طقوس غريبة .. وحياتهم عجيبة لا أولاد ولا نساء ولا أطفال .. انظر إنهم يعيشون في قمم الجبال بعيدا عن الناس .. أديان عجيبة !

وخرج رمان من الصومعة صائحا فرحا رافعا كلتا يديه إلى السماء ، يتبعه سادر يرحبان بالضيوف وقال : مرحبا مولاي الملك الطيب! .. مرحبا بمولاي الوزير رنان! .. أهلا بفارس الملك شرار !.. لقد هيئت البخور والطيب لتسمعا أجمل الدعوات والذكريات .. تفضلوا يا مولاي ..

نزل الملك عن جواده ودخل الصومعة المعتمة الغارقة بدخان البخور والطيب المحروق ، ثم تبعه الوزير وظل شرار في الخارج ، وأخذ سادر يرش بعض الطيب على موقد البخور وهو يقول بخشوع : أهلا بملك الزمان صاحب الخير والفضل على العباد طول الزمان لماذا تأخر

فارسك بالدخول يا مولاي ألا يحب سماع الدعاء والثناء لعله يصيبه شيء من الخيرات ؟ .. ادعه يا راهب الليل للاستماع والبركات وينشغل معنا بالدعاء والتمجيد لمالك السموات والأرض .

ففتح رمان باب الصومعة ونادى على الفارس طالبا منه الدخول لسماع الدعوات والتوسلات فدخل رهبة من الشيخ وصوته القوي ، وأخذ الراهب سادر يزيد في البخور والعطور ، وكان رمان يبتهل لرب السموات بتوفيق الملك سعيد في الدنيا والآخرة ونصره على خصومه وحساده وبعد ساعة من الدعاء الحار كان الثلاثة يأخذون الأرض نياما ، وتم ربط شرار ، وأخذا الملك ووزيره رنان مكبلين على ظهر جيادهما ، وسارا بهما نحو كسروان ، فوصلاها بعد عشرة أيام ، وألقي الرجلين أمام ملك كسروان وهما مقيدان بالحبال ذليلان مهانان ، فقال لهما حاكم كسروان : كيف ترون أنفسكم الآن ؟

ولكن الملك المقيد كان يبحلق في عيون رمان بعدما رآه بغير ملابس الرهبان: هذه العيون عرفتها وها أنت تخدعنا مرة أخرى .. أنت شيطان كبير .. ثم أدار رأسه نحو الملك وقال بغضب : أيها الملك ماذا تريد من الملك سعيد بن هاد لتأتى به ذليلا مهانا أسيرا مخدوعا ؟! .

فقام الملك وقال : الثأر أيها الملك !.. لم أنس دم أخي دربان .. وما حل بقومي من الحرب التي أشعلتها طمعا بالمال والنسوان فخسرنا الرجال والفرسان .

فقال الملك سعيد : هذه حرب انتهت منذ زمن أيها الملك وتصالحنا عليها .. واعلم أن ورائي فرسان وأبطال .

فابتسم الملك وقال لخصمه : لا يعرفون أنك هنا .. وأيضا ما زالت عيونك تدخل بلادنا .

فقال الملك الآخر : وجواسيسك أيضا في البلاد .. وهذا غدر ونقض للصلح يا ملك كسروان

فقال الملك : هذا الفارس .. فارس بن فرسان أخبرني أنه سخر منك قبل هذه المرة لحساب ملك مدينة السلام ؟

فقال الملك بحقد وانكسار : إنه إبليس اللعين ! إنه بارع في الخداع والتخدير .. وهز رأسه

ساخرا وقال : فها هو باسم جديد في هذا المكان .. فارس بن فرساني ..فماذا تريد مني أيها الملك ؟!

فقال الملك : أرغب بسفك دمك ثأرا لأخي ولأبي الذي مات مفجوعا على ما فقد من الفرسان

فقال سعيد : العفو يا ملك الزمان من شيم الأكارم .. وسأدفع الفدية التي تريدها عني وعن وزيري .. وأعاهدك بأن لا تقع بيننا الحرب ثانية ومدى حياتي .. الرحمة يا ملك الزمان .

أشفق الملك ورق قلبه لاستغاثة الملك ، وطفرت عيناه دمعا من كلام الملك سعيد .. وقال والدموع قد ملأت آماق عينيه : أحزنتني أيها الملك ! لقد قيل لي إنك جبار قاس القلب والرأس أشفقت عليك يبدو أن فارسنا قد أتعبك في الطريق .. إنها مسافة طويلة .. أنت ضيفي أيها الملك .. أمهلني أياما فيما عرضت من إنهاء الحرب مدى الأيام بين كسروان وأسد دار.

وأمر وزيره بإكرامهما ، وإنزالهما قصر الضيافة حتى ينتهي من مشاورة أهل الرأي والمشورة .

عفا ملك كسروان عن أسيريه بدون فدية ، واتفقا على إنهاء الحرب بين مدينتيهما إلى الأبد ، وإنهاء التجسس والعداء بينهم ، وزيادة التجارة بين البلدتين ، وبعد إكرامهما ودعهما الملك إلى أطراف المدينة ، وعندما اقتربت لحظة الفراق.. قال الملك سعيد لملك كسروان : هب لي فارس بن فرساني يا ملك الزمان .. سأجعله وزيرا عندي ..

فقص الملك على الملك قصة تعرفهما على فارس وصاحبه عفيف فقال الملك سعيد ضاحكا : إذن القبض عليهما خطأ بدلا من جواسيسنا أدى لخطفنا .. إنهما جريئان !.. ليتك تكرمني بهما

فقال ملك كسروان : دعك من ذلك .. فسوف أبقيهما في بلادنا وأجعلهما من فرساننا الكبار.. ألا تبغي بتعزيز أواصر المحبة بيننا قبل هذا الفراق ؟! .. ابعث لنا بعروس من بلادكم لولدي نصر .

احتضن الملك سعيد الملك وقال باسما : ابشر يا ملك الزمان ! سأرسل له أختي نهار .. فهذا خير لنا جميعا .

فهتف الملك قائلا : بما أنك وافقت على النسب بهذه الأريحية أيها الملك الكريم سأرسل معك

وفدا كبيرا للمجيء بالعروس .

وضحك الملك سعيد وقال : على أن لا يكون فيه فارس وصاحبه .



وضحك الملكان ، ونصبت خيمة كبيرة لبقاء الضيف حتى يتجهز وفد كبير لمرافقته والمجيء بالعروس نهار ، وقد علم أهل كسروان أن الملك منح لفارس وعفيف قصرا ، ولقب فارس السلطان وعفيف مثل ذلك ، وفرح الناس بالصلح الذي تجدد بين المدينتين المتحاربتين ، وكذلك إنهاء كل أشكال العداوة والبغضاء بينهم وأقام الملك حفلا كبيرا في قصره على شرف الفارسين فارس وعفيف، ومنحهما حق المواطنة بكسروان ، وبذلك يحق لهما الزواج من بنات كسروان ، فسعد الفارسان بهذه الأخبار وهمس رمان في إذن سادر : خرجنا لصين هاربين فعدنا فارسين .. إيه .. الحياة بالقرب من السلاطين أحلى من الحياة في الجبال ومع سواح .

لما استقرا في قصرهما الجميل اتفق الفارسان على البحث عن أهليهما بعد كل هذه السنوات الطوال من الاختفاء والضياع ، وبحثا عن أصدقائهما القدامى من غير أن يعرفا بنفسيهما ، فهما راغبان في معرفة أخبار سواح من غير كشف سرهما لأحد

ولما انتهى زواج الأمير نصر من الأميرة نهار أخت الملك سعيد ، طلب منهما رئيس الفرسان الاستعداد لمسابقات الفرسان المعتادة في البلاد ، فاستفسرا منه عن هذه المسابقة ، فأخبرهما أنه تحدث كل سنة في أواخر فصل الربيع مسابقة للفرسان على خيولها الأصيلة والقوية ، والمتقدمون العشرة في السباق ينالون جوائز ملكية وهدايا من الأمراء والأميرات ، وتكون فرصة للأميرات العازبات من الزواج من كبار الفرسان ، فقال الرجل منهيا الطلب ومشجعا لهما : قد تقع بعض الأميرات في هواكم ، وتتزوجون منهن .. فجربا حظكما .. لعلكما تناسبان وتصهران الملك نفسه .. فهو يسمح لقريباته من الزواج من الفرسان الأقوياء والشجعان

أخذ فارس القصة ينظر لصاحبه ، وقد أصابه وميض من الحزن والذكريات، فقد تذكر الفارس حدرد وقال : كنت أسمع عن فارس مهم أيها الرئيس .. عن فارس كأن اسمه حدرد حدرد أجل حدرد ؟!.

قال رئيس الفرسان : عجيب أتسمعان به؟! .. نعم ما زال موجودا .. كان فارسا متفوقا قديما وبطلا من أبطال كسروان.. ولكنه تعرض مرة للغدر من بعض المجرمين ، وسرقوا حصانه ، فتأثر ألما من يومها ، وتعرض لبعض الجروح في حروبنا مع أسد دار فضعفت همته عن المسابقات والمنافسات.. رغم دفعه الآلاف لعودة حصانه يومذاك .. وما زال يحمل لقب فارس السلطان ويحضر إلى ميدان السباق للفرجة فقط .. وهو زوج لإحدى الأميرات .

فتنهد الفرسان عميقا لمَ سمعا ؛ وكأنهما شعرا بالندم والأسف لمَ فعلا لذلك البطل من إحزانه على حصانه ، وقال سادر : سأفكر بالمشاركة أيها الرئيس .

فضحك الرئيس وقال : يجب أن تشاركا.. فعلى الفارس الذي يمنحه الملك لقب فارس المشاركة ثلاثة أعوام متتاليات في هذه السباقات .. ثم يسمح لهم بالاعتذار بعد ذلك .

فعاد لرمان غروره القديم وقال : أيها الرئيس .. نحن غريبان.. فنخشى إن فزنا على أقراننا أن يحسدنا هؤلاء .. ونتعرض لما تعرض له الفارس حدرد .

فأجابهم الرئيس : منذ سنوات بعيدة لم نسمع بحادثة لفارس ، ولم تتكرر حادثة حدرد .. وقد خف المجرمون في مدينتنا بعدما قضى والد مليكنا على المجرم سواح ورجاله .

فقال رمان بخبث : هذا المجرم سمعنا ببعض أخباره في مدينة السلام .. وهل قتلتموه أيها الرئيس ؟

فقال رئيس الفرسان : مجرم شرس.. له حكاية طويلة يتحدث بها العوام .. وذلك من قبل عشر سنوات أو أكثر.. وقد زاد فساده في المدينة والإجرام ، أصابت البلاد سرقات كبيرة من سواح وعصابته حتى أنهم سرقوا خزنة الملك ، ولكن بعدها وقع أكثرهم في الشبكة ، وتم إعدامهم أمام الناس.. وهرب آخرون لخارج البلاد .. منهم مجرمان كبيران أحدهما يدعى رمان بن سنمار

والآخر سادر بن علام ، وبعد ذلك تقلصت الجرائم في بلادنا ، وقد فقدنا أثر المجرمين الهاربين واستقر الأمن والسلام في البلد بعد ذلك .. ثم اشتغل الناس بالحرب والقتال أربع سنوات.. راح فيها مئات الأبطال والرجال والكثير من الأموال إلى أن تم الصلح بيننا ، وعاد الهدوء للمدينة من جديد .. لقد أطلت الحديث معكم .

فرد رمان : لا .. لا .. بل هو حديث ممتع أيها الفارس .. على كل حال سنشارك في المسابقة أنا وأخي عفيفا ، لعلنا نصطاد امرأتين تقر أعيننا إليهن.. ونصبح من الأسرة الحاكمة ، فهذا حلم جميل ما كان يحلم به رمان بل فارس الزمان أنا . وأخذ يضحك بصوت عال وفعل مثله سادر.

وخرج رئيس الفرسان مسرورا بموافقتهما ، لرغبة الملك بمشاهدتهما على ظهور الجياد ، فلما ابتعد الرجل قال رمان بحزن : لقد مات سواح وأكثر الرجال .. لقد عاد بنا هذا الفارس للوراء سنوات وسنوات يا سادر.. هل نهرب ثانية أم نتزوج ونغرق في دنيا هذه المدينة وننسى الماضي إنهم ما يزالون ينعتوننا بالمجرمين ويذكروننا .

فقال سادر: يا صاحبي! .. الهرب ثانية ! .. نشارك في هذا السباق وبعدها نفكر بما نفعل .. قد نجد مغامرة ننسى معها الماضي الجميل .



في يوم السباق نزلا الميدان ، كل منهما على حصان من خيول الملك ، وتجمع الملك والناس في ساحة كبيرة لمشاهدة انطلاق الخيول المتنافسة ، ومن ثم الاستمتاع برؤية الفائزين ، وقام الفرسان المشاركون بالمرور من بين يدي الملك والحاشية لتحيته ، ويذهب كل فارس للاصطفاف في المكان المعد له ، وتقدم الفارسان على جواديهما وحييا الحاكم والحاشية ، واصطفا حيث أشار لهما رئيس الفرسان ، وانطلق السباق سباق الخيل ، وبعد ساعة من الزمان بدأت تعود الفرسان للميدان ، الأول فالثاني فالثالث وصل كل المشاركون ما عدا فارس وعفيف .

فظهر القلق على وجه الملك والوزير وكل من يعرف الفارسين ، فسأل الملك رئيس الفرسان قائلا : لم يعد الفارسان يا ملام ؟!

فقال رئيس الفرسان بقلق هو الآخر : أمر غريب يا مولاي ! بعد أن نوزع الجوائز على المتقدمين سوف أتحرى أمرهما .

قام الملك بتوزيع الجوائز على مستحقيها من الفرسان وانهوا الاحتفال ، وبدأ رئيس الفرسان يسأل المتسابقين عن الفارسين ، فقال له أحدهم : لقد سقط عفيف عن حصانه بالقرب من واد اللبان .. وتدحرج لأسفل الوادي .. فترك رفيقه فارس جواده ونزل يبحث عليه .

فقال رئيس الفرسان : حدث هذا أثناء الذهاب أم الإياب ؟

فرد الرجل : ونحن عائدون .. وكانا متقدمين على كل الفرسان ، فلما حدث السقوط المفاجئ توقف فارس بصعوبة ونزل يبحث عن رفيقه .

فقام رئيس الفرسان بإرسال الفارس وعدد كبير من الفرسان للبحث عنهما والإتيان بهما ، وذهب الرئيس لاطلاع الملك على جلية الأمر ، لقد قام رمان بإنقاذ صديقه سادر ، وأخرجه من الوادي مهشم الأضلاع ، وحمله إلى قصره ، واستدعى له طبيب القصر الملكي ، لقد كان الحادث الذي تعرض له سادر حادثا خطيرا ، فقد تكسر من شدة الوقعة ، فحزن عليه رمان حزنا شديدا ، وجزع عليه من الموت ، وأتاه الملك لعيادته والأمراء والوزير ، وأوصى الملك طبيبه الخاص بالإشراف على مداواته ؛ ولكن كان ظهره مكسورا لا أمل له في الحياة الطويلة ، وشعر سادر بالموت ، فأوصى صديقه رمان أن يتابع البحث عن أسرته بأي وسيلة ، ويهبهم ميراثه والأرض التي منحها له الملك ، وقال أخيرا لصديقه العزيز : لا تحزن كثيرا عليّ يا حبيبي ويا أخي! وتذكر يا أخي أنني منذ تعاهدنا وأنا مخلص لك ، وقد أخبرتني زوجتي في مدينة السلام عند الفراق أنها حامل فابحث عن ابن أخيك ، واهتم به وارعه.. ولسوف نلتقي عند مليك مقتدر .. وداعا أيها الصديق الحبيب .

فمات سادر بعد هذا الحادث الكبير ، وحزن عليه رمان حزنا شديدا ، قد لا يحزنه على موت أمه

ومكث أياما طويلة في بيت الأحزان إلى أن زاره حاكم المدينة عدة مرات ، ثم أقسم عليه أن يترك الحزن والبكاء، فدخل حمام السلطان واغتسل وترك بيت الحزن ، واشتد في البحث عن أهل سادر ؛ ولكن كيف سيبحث عنهم وهو يحمل شخصية أو اسما غير اسمه الحقيقي ؟ وكذلك صديقه الميت ، وأرسل رسالة إلى مدينة السلام يسأل عن أخبار زوجته وزوجة أخيه سادر ، وهل ولدت بعد رحيلهما ؟ ولما عاد التاجر بعد أشهر أخبره أن زوجة صاحبه قد أنجبت طفلا ، وأسمته سادرا على اسم أبيه ، وهي في انتظاره لم تتزوج بعد ، وأما زوجته فلم تنجب ، وقد تزوجت من أحد البشر ، فقرر رمان عندئذ أن يدخل على الملك ويعترف له بماضيه ليستطيع البحث عن أهله وأهل سادر، فإما أن يسجنه الملك ويقتص منه أو يعفو عنه ، وبعد أن فكر بالأمر مليا طلب الخلوة بالملك الذي استمع إليه باستغراب كبير ، ودهش الملك من جرأته وجسارته ومغامراته ومن لصوصيته ومن عمله عند الملوك والحكام ، ولما انتهى من حكايته التي سردناها عليكم احتار الملك بالجواب، ماذا يفعل به بعد أن علم أنه رمان ذو التاريخ القديم الهارب من قبضة العدل ؟! فقال الملك بعد صمت طويل وعميق وحيرة : سأرسل وراء القاضي جلال وهو الذي سيقول كلمته فيك .

فقال رمان متضايقا: مولاي الملك ! جئت معترفا لك لتحكم عليّ أنت بالموت أو تعفو عني أو تنفيني من البلد .

فقال الملك : قصة مثيرة !! .. القاضي هو الذي سيقرر ذلك أيها الفارس .. أنت كنت لصا .. والآن أصبحت فارسا وبطلا في أكثر من مدينة .

فلزم رمان الصمت العميق ، وأرسل الملك وراء القاضي جلال الذي لبى النداء سريعا ، وكان شابا قد تجاوز الثلاثين من عمره ، فسلم على الملك وقال : أرسل مولاي ورائي !

كان رمان متعجبا لدعوة الملك لهذا القاضي ، وتعجب أكثر عندما وجده شابا ؛ ولكنه صبر ليرى ماذا يقصد الملك من وراء دعوة هذا القاضي ليتدخل في هذه القضية ؟! فسمع الملك مخاطبا : أيها القاضي العزيز.. هذا الرجل لابد أنك تعرفه

نظر القاضي بعينيه لرمان وقال بدهشة : هذا فارس فارسكم أيها الملك ومن لا يعرفه ؟! .

فقال الملك : أيها القاضي العزيز .. كم عاما لك في القضاء ؟

قال القاضي بحيرة : منذ بضع سنين يا مولاي .

فقال الملك : هذا الفارس قبل أن يمنح لقب فارس من قبلنا منح هذا الوصف من ملك مدينة السلام ، ومنح لقب وزير وفارس من ملك عبدان ولكنه استعفى ، وجاء كسروان وقدم لنا خدمة جليلة أنهت الحرب بيننا وبين ملك أسد دار ، فوهبناه قصرا ولقب فارس سلطان .. وجاءنا اليوم يقول بأنه كان لصا شرسا محترفا ومغامرا صعلوكا قبل ذلك ..

فتعجب القاضي وهو ينظر في عيني رمان وهمس : لصا ! كيف ذلك يا مولاي ؟!

فقال صاحب التاج : كان هذا الرجل يعمل لصا في مدينتنا مع ذلك المجرم القديم المعروف للصغير قبل الكبير ..ذاك المجرم سواح .. هل تذكره ؟

فقال القاضي : ومن لا يذكر ذلك المجرم العتيد الذي روع النساء والأطفال والقضاة والسلاطين ؟! ولكن كفانا الله منه.. وقتل شر قتلة .. وأصبح عبرة لأهل كسروان جميعا .

فضحك الملك وقال باسما : لم يكن سواح ذاك أمام هذا الفارس إلا كطفل صغير .. كان ذاك مجرما يحب الفتك والسفك الدم الحرام ، وكان هذا لصا ذكيا يعتدي على أموال الملوك والقضاة والفرسان، ثم تمكن من الهرب وأصبح شريفا وعاد ليكون شريفا في بلادنا وباحثا عن أمه وأهله

فقال رمان مقاطعا : أيها الملك ! احكم عليّ وعجل بموتي ، ما عادت تطيب لي الحياة بعد أخي سادر ، أحببنا بعضنا حبا جما ، ما افترقنا منذ التقينا عند المجرم سواح ، كنا أصغر القوم وتعاهدنا على الوفاء معا .

وبكى رمان على ذكر صاحبه سادر بكاء مرا .

فقال الملك : تمهل أيها الفارس .. ستسمع حكمنا عليك بعد أن يتكلم القاضي جلال بذلك .. يا قاضينا .. هذا الفارس الذي أمامك كان لصا في جماعة سواح وهو الذي أوقع ضربات موجعة بنا ووقع سواح نيابة عنه وهرب هو وسادر .

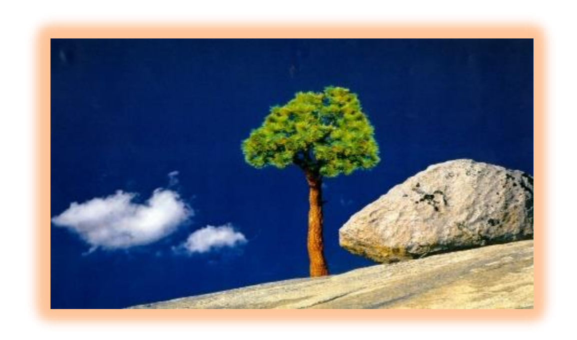
فتمتم القاضي وهو يحدق النظر إلى رمان : أتعنى أن هذا الرجل هو رمان بن سنهار الهارب من قبضة العدل ؟!

فتنهد الحاكم وقال : نعم ، أيها القاضي .. هذا هو رمان بن سنهار .. ذاك اللص القديم ، لقد عاد للبلاد بوجه وثوب الفرسان ، وهو حقا من الفرسان .. فلما اعترف بحقيقته أمامي ، فقلت له سأسمع حكم القاضي جلال فيك .

فقال القاضي وهو مضطرب: مولاي الملك أتعرف من أنا بالنسبة له ؟!

فقال الملك بجد وقوة وابتسام : طبعا ولماذا أرسلت وراءك أنت بالذات ؟! .. أعرف أنه أخوك رمان يا ابن سنهار .

وقف رمان دهشا ذاهلا وصاح وهو يحدق النظر في القاضي الذي يبادله النظرات : ماذا قلت أيها الملك ؟! هذا أخي جلال! .. مولاي .. أيعقل هذا ؟! أخي أنت قاض وأنا مجرم ..؟!



وتعانق الأخوان وذرفا الدمع الغزير وقال القاضي أثناء تساقط الدموع والزفرات : إنها لحظة قاسية يا رمان !.. اعتقدنا أنك مت وانتهيت من حياتنا .

وقال رمان وهو ما زال يحتضن أخاه : كيف أمي يا جلال ؟ .. كيف زوجها وإخوتنا الجدد ؟ وصلت إليكم بعدما صارحت الملك بحكايتي ، بحثت عنكم منذ دخلت هذه المدينة لم أجد لكم أثرا .. قبل أمي عني وسلم عليها وأعلمها أني بشوق إليها.. أيها القاضي أحضرك الملك لتحكم على أخيك .. احكم بالعدل .. احكم بالموت .. بعد موت أخي سادر الدنيا أصبحت سوداء في وجهي .. فقدت الصاحب في الحل والسفر .. لقد أوصاني على ولده في مدينة السلام وأوصاني بالبحث عن أهله .. وأنا أوصيك بها أوصاني .. احكم أيها القاضي على ابن أمك وأبيك .. أنا سرت للشر وأنت سرت للعلم والخير ، وأنا سرت وراء الشر والانتقام وأصبحت من أسياده .. حتى التقيت بالقاضي

بلال شهر سيد مدينة السلام فأعادني للخير والحب .. احكم يا أخي .. ولا تخش في الحق لومة لائم .

فقال القاضي : لا أستطيع أن أحكم عليك يا أخي .. سأعتزل القضاء.. فأنت فارس ولست لصا .. لم يقبض عليك أثناء اللصوصية .. لقد نجوت .. أرجوك مولاي الملك أن تكلف غيري في النظر في هذه القضية المؤلمة .

فقال الملك بأسف ظاهر : وأنا مثلك محتار أيها القاضي ! أنت مثال الخير وهو قد كان مثال الشر ؛ ولكن الخير المغروس فيه استيقظ وغيره .. وأصبح فارسا نبيلا يخدم الحكام والسلاطين .. وهو قد طلب مني خيار من ثلاثة إما الموت أو النفي أو العفو .. وسيحكم عليه الشعب في أكبر ميادين كسروان .

دعا الملك الناس والأمراء إلى التجمع في أكبر ميادين كسروان لأمر هام ، وفي اليوم المعين حضر عدد كبير من البشر من أهالي كسروان ، ونزل الملك إلى وسط الميدان ، ورمان بجواره على فرسه ومعهم رئيس الفرسان ، ومنادي الحاكم الذي صاح بأعلى صوته : أيها الشعب ! يا شعب كسروان !.. الملك يدعوكم اليوم لتحكموا على هذا الشاب ـ وأمسك بيد رمان ورفعها للأعلى ـ الذي تعرفونه اليوم باسم فارس بن فرساني ، وذكر دوره في وقف الحرب بين كسروان وأسد دار للأبد بعدما قام بخطف ملك أسد دار ووزيره لحساب الملك .. وكان يدعى قبل سنوات وسنوات من اليوم رمان بن سنمار .. ذاك اللص المعروف من أتباع المجرم المقتول بسيف الملك المجرم سواح.. أتذكرونه ؟ .. وقص عليهم بعض قصصه .

دهش الناس مما يسمعون وارتفع صياحهم وهياجهم ، فعاد المنادي يصيح من بين أصوات الجماهير الهائجة : أيها الشعب الكريم ! لقد جمعكم ملككم اليوم لتحكموا أنتم عليه.. على اللص رمان.. وعلى الفارس فارس .. إما بالعفو وإما بالنفي وإما بالموت .

تمت بفضل الله تعالى

قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

رُمان

اغتيل أبوه وتزوجت أمه

فاحترف اللصوصية وتعدى على أموال الملك

وسرق افضل جواد في البلاد

وهرب لمدينة أخرى

فقبض عليه وحبس فيها

واستطاع القاضي من إصلاحه

واصبح من فرسان المدينة

فعاد لبلده شوقا وحنينا

وظهر فيها بطلا وفارسا

ولما مات رفيق دربه كشف أمره

فتعرض للقضاء فكان القاضي أخاه

فترك الحكم للشعب

فما حكم الشعب على رمان

الفوارس

الأميرة نهر الأحلام

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

٥

جمال شاهين

١٩٩٣

الأميرة

نهر الأحلام

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

الأميرة نهر الأحلام


الأميرة
نهر الأحلام

الأميرة نهر الأحلام

قال الراوي حدثنا جابر بن نادر عن ملك الزمان ونادرة العصور والأيام الملك جعفر بن عاد صاحب مدينة الأبراج ، التي نقل الرواة والقصاص أخبارها لأهل الدنيا للعبرة والعظة والذكرى في ليالي الشتاء الباردة ، وذلك عندما يجلس الشيوخ والشباب حول مواقد النيران للاصطلاء والترويح عن النفس ، وإزالة هموم الدنيا وأتراحها في سير وأيام الماضيين .

قال الراوي حدثنا جابر بن نادر صاحب الحكايات والنوادر عن الملك جعفر بن عاد بأنه كان من ملوك الزمان ، وهذا الملك قد ورث الملك عن الآباء والأجداد فأحسن وأجاد ، وبنى البلاد وزادت عساكره كرات وكرات ، وانتشر في عهده الأمن في طول البلاد وعرضها ، وكثرت في أيامه المدارس والعمارات وأماكن الشفاء ، وكان هذا الملك رغم ما تحته من جند وقوات يحب العدل في الرعية ، والناس كلهم عنده سواء ، ويكره ويبغض الظلم والاعتداء ؛ ولكنه عندما يغضب لا أحد يستطع منعه مما يريد أن يفعل ، وأخباره في الرعية مليحة وجلية ، ويعتبر من فرسان وأبطال ذاك الزمان ، ويحب الفرسان واعتلاء صهوات الخيل ويعشق المبارزات ، وكان له من البنين ثلاثة ومن البنات واحدة في سن الزواج ؛ ولكنها كما تقول لا رغبة لديها بالزواج لا من الملوك ، ولا من الأمراء ، وأبوها الملك لا يريد إرغامها على ذلك ، فقد ترك لها الحرية والانتظار، ونزل عند رغبتها ، فهو لها محب ولأمرها مطيع .

قال الراوي أخبرنا جابر بن نادر أنه لا يخلو زمان من ملوك متعادين متنافسين لوجود الحسد والطمع وغير ذلك من الصفات القبيحة في طبع البشر، اتصل قائد الجيش الأكبر بالملك جعفر ذات ليلة وأخبره أن جنوب البلاد يتعرض لغزو من الملك فوزان صاحب مدينة التاج ، وأن قوات مدينة الأبراج تصد ذلك الهجوم ببسالة ، ويطلبون المزيد من الفرسان والخيل والرايات . فقال الملك لقائده : جهز لي فرقة من خيار الجنود ، وسأرافقهم كجندي من غير أن يعرفون أني معهم .. وشدد الحراسة على جميع الحدود أيها القائد! وعندما تجهز الفرقة للسير أخبرني حتى ألتحق بهم ، ولا تقل لهم أنني سأسير معهم فليبق الأمر بيننا أيها الفارس سرا .

وما أصبح الصباح حتى كان القائد يخبر الملك بتجهيز فرقة الفرسان ، وأنهم مستعدون للانتقال إلى البرج الجنوبي للدفاع عن ثرى الوطن والملك والعباد ، وتنكر الملك بلباس الفرسان ، والتحق بجنود الفرقة كجندي من جنودها ، ومشت الفرقة نحو الجنوب ، وفي نهار اليوم التالي كانوا قد وصلوا الحامية، فاستقبلوهم بفرح كبير، وارتفعت معنويات وهمم جنود الحامية وارتفع صياحهم وصراخهم ، وشارك الملك جعفر الجنود في الدفاع عن البرج الجنوبي كجندي من الجنود ، ورأى قادته يعملون بالميدان ، وشاركهم في الهجوم المضاد على جيش فوزان الذي أوقعوا فيه الخسائر الفادحة ، وأسروا أسرى لا تعد ولا تحصى من جنوده ، ولما لاحظ فوزان الهزيمة التي حلت بجيشه هرب وطلب النجاة، وعاد لبلاده مهموما مغموما يندب حظه السيئ في اكتساح مدينة الأبراج وأخذ الجزية منها والخراج .

وبعد هرب جيش فوزان اجتمع قادة البرج الجنوبي للتشاور ، فقال أحدهم : أرى أن فوزان هزم هزيمة ساحقة نكراء لو أننا نتابع المسير فقد نحتل مدينة التاج ونلحقها بمدينة الأبراج .

ووافقه بعض القادة على ما قال وشار، وقال آخرون : نحن مهمتنا الدفاع عن البرج الجنوبي ، وبما أنه قد انهزم فلنضمد جراحنا .. فالهجوم على مدينة التاج يحتاج إلى قوات أكثر، والاحتلال قد يحصل ؛ ولكن البقاء هناك لن يكون سهلا ميسورا .. فهؤلاء القوم لا يحبون ملوكنا منذ عهد قديم فلا يرضون بتسلطنا عليهم .. ولا تنسوا أيها القادة مشكلة الأسرى فهم كثيرون ويحتاجون لطعام كثير.

فعندئذ قال قائد البرج الجنوبي بعدما سمع آراء القادة والمستشارين : القائد الكبير أيها السادة قادم إليكم.. وسنعرض عليه آراءنا ونسمع منه الرأي الفصل .

قال جابر بن نادر : كان الملك ابن عاد مع الجنود كل هذه المدة كجندي من جنود الملك جعفر فلم يظهر لهم نفسه إلى أن جاء القائد الأكبر للجيش وهنأهم على النصر ، وأثنى على شجاعتهم ودفاعهم عن حياض البلاد وحماية العباد من غزو الملك فوزان ، وقد التقى القائد بالملك الجندي مما أثار حيرة الفرسان ، وقد استغربوا من لقائه في بداية الأمر بهذا الجندي الغامض ، وتعجبوا

أكثر عندما سمح له كبير القادة بحضور اجتماعهم الخاص ، وكم كان وقع المفاجأة عليهم شديدا عندما علموا أن هذا الجندي الذي قاتل معهم ببسالة وشجاعة ملكهم المحبوب جعفر بن عاد ، فأخذوه بالعناق والتقبيل مما أدهش الحرس فهرعوا لخيمة الاجتماع فحصل لهم مثلما جرى لإخوانهم القادة ، وعم الفرح بين الجنود عندما علموا أن الملك بنفسه شاركهم المعركة متخفيا ، وأصبح ابن عاد حديثهم والكل يتحدث عن بلائه وقتاله ، فملك قلوبهم قبل أبدانهم وأمر الملك بمكافأة الجنود وأن يجزل لهم العطاء، ويواسى من جرح وأصيب ويهتم به ، ويراعى أسر القتلى الذين ضحوا من أجل الوطن ، وعاد الملك مع الفرقة التي انطلق معها إلى قلب مدينة الأبراج وعاصمة الملك إلى برج الأبراج .

فرح الشعب بالنصر المؤزر على الملك فوزان ، وتمنوا لو وقع أسيرا كالكثير من رجاله ، وعلم الشعب بمشاركة الملك الجيش المعركة على صورة جندي معرضا نفسه لسيوف الأعداء ، فارتفعت محبته عند أبناء الشعب ، وعمت الأفراح في طول البلاد وعرضها بسبب هذا النصر وجاء وفد الملك فوزان يطلب العفو عن الأسرى والاعتذار عن الحرب ، ودفعوا الأموال الكثيرة والعزيزة لفداء الأسرى ، فرضي الملك جعفر بذلك وعفا عنهم، ورجعوا لبلادهم في لباس الذل والعار يستعدون لأخذ الثأر والانتقام من أهل مدينة الأبراج في يوم من الأيام .

قال جابر بن نادر علمت ابنة الملك جعفر بن عاد بالنصر الكبير الذي أحرزه والدها الفارس الشهير ، فقررت زيارته للتهنئة والتبريك برفقة جواريها السبع، فأعلمت قائد الحرس لقصرها برغبتها تلك ، فجهز لها العربة الملكية الخاصة بها وبجواريها ، وأمر القائد سبعة من الفرسان بمرافقتها حيث قصر والدها ، وكانت الأميرة الصغيرة نهر الأحلام تسكن مع والدتها قي قصر خاص بشمال البلاد ، وكان والدها يتردد عليهم بين الحين والآخر يتفقدهما ويسمر معهما، وكانت تزوره في الشهر مرتين ، وأحيانا مرة واحدة فقط إذا كان والدها مشغولا بمعركة كما حدث خلال الأيام الماضية ، استقبلها جعفر بن عاد أحسن وأجمل استقبال ، وفرح بتهنئتها له بالنصر على الملك فوزان .. ومعروف أن الفرسان والأبطال يحبون سماع كلمات المدح والثناء

وخصوصا من النساء الجميلات ، ومكثت عنده حتى المساء وتناولت معه الغداء، ثم ودعها وداعا لائقا بابنته الوحيدة الحسناء التي هي حديث كل الشبان والأمراء في مدينة الأبراج ، انصرفت ومعها جواريها السبع وحرسها السبعة بدعاء وإعجاب الوالد بأميرته الصغيرة ذات الست عشرة ربيعا .



قال الراوي : كما تعلمون يا سادتنا الأفاضل أن السعد والفرح لا يدوم، ولابد من الحوادث والعوارض والاختبار ، وقبل الوصول لقصر الأميرة في مدينة البرج الشمالي تعرض موكبها لمجموعة كثيرة من الفرسان ، ونشبت معركة بين الطرفين انهزم على أثرها حرس الأميرة بين قتيل وجريح ، وقد نزل رجل من الرجال المهاجمين، واقترب من مركبة الأميرة ،وطلب من الأميرة النزول بهدوء وإلا تعرضت هي ووصيفاتها للقتل ، فبكت الجواري بكاء مرا ، ولم تتكلم الأميرة ولم تمانع في النزول من مركبتها الملكية ، وحملت على حصان مع مختطفيها وتحرك الرجل وفرسانه وجرحاهم في جنح ذلك الظلام إلى مكان في تلك الجبال الشواهق ، علم ابن عاد بالقصة ، فغضب غضب الملوك من قومه لهذه الإهانة الكبيرة التي لحقت به ، وأمر بحبس من بقي حيا من حرس الأميرة ، وطلب من قائد الجيش التحقيق في الأمر بأسرع وقت ،وتعقب آثار الخاطفين والبحث عن الأميرة نهر الأحلام بنت جعفر

مضت سبعة أيام ولا شيء ولا خبر عن الأميرة ، فعرض الملك مكافأة كبيرة لمن يدلي بشيء يرشد للوصول إليها ومعرفة الخاطفين ، وهذا الإغراء لم ينفع في الكشف عن تفاصيل جديدة فتعجب الملك وكاد يفقد صوابه لهذه الجريمة ، فاجتمع بمستشاريه وقواده وخرجوا بنتيجة واحدة أنها تعرضت لمؤامرة محكمة ومدبرة بذكاء وحرص ، واستغلوا فرحة الشعب بالنصر المظفر ، فدخل الجواسيس البلد وخطفوا الأميرة ، فالتقى جعفر بن عاد بأبنائه الثلاثة سيف

النهار وسيف الليل وسيف الفجر وطلب منهم البحث عن أختهم في كل بقاع الدنيا ، فخرجوا متخفين يتنقلون بين المدن والقرى، ويقطعون الجبال والوديان باحثين عن الأميرة نهر الأحلام، ومضت شهور ستة ولم يعد أحد منهم ، فقرر الملك أن يأتي أحد قادة أبيه الكبار كان أبوه أوصاه أن يستمع مشورته وكلامه ، وفي خضم هذه الكارثة نسي جعفر هذا الرجل فزاره بنفسه ..وكان هذا القائد العجوز من أصحاب وأصدقاء الملك عاد ، وبعد الترحيب والود قال الملك : أيها السيد الكبير لقد فطنت لك فجئت إليك لأسمع نصحك وقولك بما عصف بنا هذه الأيام من اختفاء الأميرة وإخوانها الثلاثة ..بعد نصرنا الكبير على الملك فوزان ملك مدينة التاج .

وقص الملك جعفر التفاصيل التي تجمعت لديه ممن ظل على قيد الحياة من حرس الأميرة ومن جواري الأميرة السبع ، فتنحنح القائد العجوز بعدما سمع الكلام وقال باسما : لقد كنت في انتظارك ولمثل هذا اللقاء مستعد !

فقال الملك جعفر : إنني أنفذ وصية أبي كما تعلم فقد قال لي يا جعفر إذا ضاقت بك هذه الدنيا واحلولكت عليك وكثرت مصائبها .. فعليك بزيارة القائد الشهم شهبان .. وهذه الكارثة رأيت أنها كبيرة وقاسية يا سيدي الفارس فلجئت إليك فساعد ابن صاحبك عاد .

خيم الصمت على المكان المجتمعان فيه فترة من الوقت ثم قال شهبان : أيها الملك أنا رهن إشارتك .. وقد علمت منك القصة المؤلمة ؛ ولكني لم أسمع رأيك حول اختفاء الأميرة ؟.

تبسم الملك ابتسامة مقتضبة وقال : لقد قمنا بالبحث الشديد .. وعيوننا عند الملك فوزان تقول إنه لا علاقة له بالخطف ..وذهب الأولاد يبحثون عن أختهم وما عادوا، ولم يصلنا خبر عنهم ، وكذلك حرس الأميرة ليس لهم يد في هذه الجريمة المعدة .

فقال القائد العجوز مدخلا الطمأنينة على قلب الملك: أتوقع أن الأميرة ما زالت على قيد الحياة لو كان الخاطفون يبغون قتلها لما أخذوها معهم .. مولاي الملك أعتذر لك سلفا عن سوألي التالي .. هل لهذه الفتاة من أحلام وغرام ؟!

تبسم جعفر ثانية : فكرت بهذا أيها القائد .. فكرت بأن يكون لها عشيق أو رفيق ..فالجواري

أنكرن ذلك بشدة وكذلك الخدم وأمها أيضا .. ولو كان لها محب لهربت بطريقة أخرى بدون قتال ودماء .. وهي لم تحدثني بشيء من ذلك سابقا لترى موقفي من هذا العاشق .. بل لم تكن لديها رغبة بالزواج لا من الملوك ولا من أمرائنا .. وأمها ترفض هذه الفكرة بكل قوة والبنت سر أمها .

فعاد شهبان يقول : أكبر أعدائنا الملك فوزان .. فهل أنت متأكد من خبر جواسيسك هناك بأنه جاهل لهذا الأمر ولا علاقة له في القضية ؟

فعاد جعفر يؤكد قائلا : جواسيسنا في قصره وفي مدينة التاج ينفون ذلك .

فقال شهبان : أيها الملك الجواسيس أحيانا لا يعتمد عليهم.. سأقوم بمغامرة إلى مدينة التاج من أجلك أيها الملك .. ومن أجل شرف مملكتنا العتيدة ؛ ولأنك التجأت إليّ عاملا بوصية أبيك الملك عاد .. وسأكون لك كما كنت لوالدك .

فنهض الملك متواضعا وقبل يد القائد الهرم صديق أبيه وشكره على حسن اهتمامه ، وقال شهبان وهو ينهض : بعد شهر أيها الملك أرسل لك خادمي عنبر لتأتي هنا لتعرف نتيجة رحلتي لبلاد التاج .

خرج الملك جعفر إلى قصره وهو متعجب من غرور قائد أبيه أو ثقته الكبيرة بنفسه ؛ ولكن كان عنده أمل ضعيف أن يعود هذا العجوز بشيء مهم من مدينة التاج .

قال جابر بن نادر : الانتظار صعب وليس أمره سهلا ، والأمور تتعقد فلم يعد الأولاد ، فقد فقد الملك جعفر أبناءه الثلاثة وابنته الوحيدة ، وما زال أهل المدينة يخيم عليهم الوجوم والحزن والدهشة ويقولون بينهم بين بعض : من يجرؤ بالاعتداء على الملك جعفر بن عاد؟! ، وقبل أن يعود شهبان علم الملك بتحركات جديدة لعسكر فوزان بالقرب من البرج الجنوبي ولم تحدث أي منازلة ، فقد مضى الشهر الطويل ، وحضر شهبان وأرسل خادمة عنبر للسلطان فجاءه على عجل ولهفة ، وبعد التحية والسلام وحسن الكلام في مثل هذا المقام قال شهبان بدون لف ودوران : يا ملك الزمان ابنتك محبوسة عند ملك بلاد الأوهام هدير بن جرير صاحب بلاد

الأوهام ، وهي بلاد بعيدة تحتاج لشهر من الأيام لتصل إليها .



اهتزت شوارب الملك غضبا ، واحمرت عيناه وسب وشتم ولعن وقال : حدثني عما جرى معك وكيف عرفت ذلك ؟! وما علاقة فوزان بالأمر أيها الفارس الكبير .. لقد صدق والدي العظيم عندما نصحني بالاستعانة بك هات ما عندك ؟!

فقال شهبان : صاحب التاج بعد هزيمته الأخيرة كما تذكر أيها الملك أراد الانتقام منك شخصيا واهانتك ، فاتصل به ملك تلك البلاد لقرابة بينهما وعرض عليه المساعدة ، فوافق فأرسل رجاله لخطف الأميرة نهر الأحلام ، وهذا الأمر لا يتكلم به أحد وغير معروف إلا لعدد قليل من خاصة فوزان منهم صديقي اشهمان ابن عم للملك فوزان ، وأسر لي بذلك شفقة على البنت ، وحقدا على ابن عمه الذي ضيق عليه كثيرا، وأبعده عن عامة الناس ، وأيضا لتنشب الحرب بيننا من جديد هذه هي الحكاية يا ملك الزمان .

فقال جعفر : جزاك الله عنا أيها الفارس الجدير بحمل لقبك .. علمنا بتحركات لجيش فوزران قرب البرج الجنوبي فما سمعت عنها ؟

قال شهبان : هي تحركات فحسب.. فالضربة الأخيرة التي أصابتهم كانت قوية وشديدة .. وهم حاقدون علينا ويستعدون للثأر ورفع العار .. ولكنّ جيشهم مضعضع وضعيف في هذا الحين ، وكما علمت فهو يشتري الرجال والفرسان من هنا وهناك ، ويريد أن يستغل انشغالك بالبنت وقد يعمل شيئا ما ؛ ولكن تجميع الجنود المرتزقة وإقناعهم بالمال وغيره يحتاج لوقت طويل ورجالنا في الجنوب أشاوس .

فقال جعفر : ما تنصحني به أيها الفارس القدير؟

أجاب الفارس العجوز بقوة وحقد : أرى أن نذهب إلى مدينة الأوهام .. وندخلها من باب الشرق أي نلتف على المدينة ، ونحاول الاتصال بالأميرة نهر.. ونتعرف المدينة جيدا .. وبعد حين يلحق بنا الجنود ويكون لقاؤنا ببلدة السحرة التي تبعد عن بلاد الأوهام بضعة أيام ..

فالثار الثأر يا مولاي! حتى نسترد كرامتنا وسمعتنا في البلاد وبين العباد .. وتظاهر أنت بالمرض وأنك منزو في قصرك .. وبعد شهر من مسيرنا يتحرك قائد الجيش بعشرة آلاف فارس فقط .. ونجتمع ببلدة السحرة .

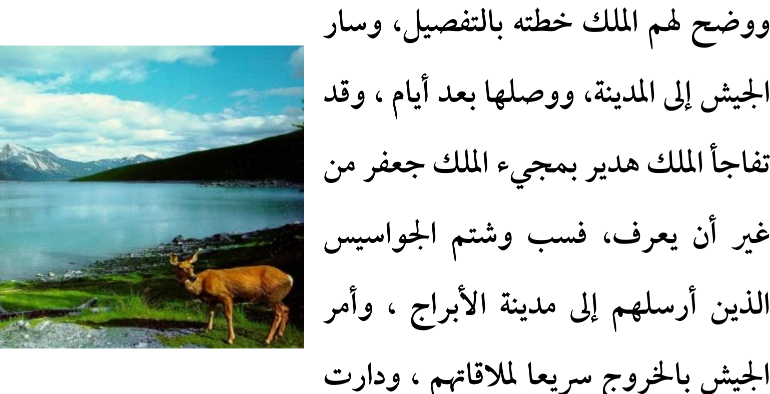
قال الملك : سأطيعك أيها القائد الشيخ ما قصر والدي في نصحي من الاستعانة بك عند الملمات والشدائد .. فأنت نعم الصديق الوفي لعرشنا وملكنا ولكرامتنا هكذا يكون المخلصون

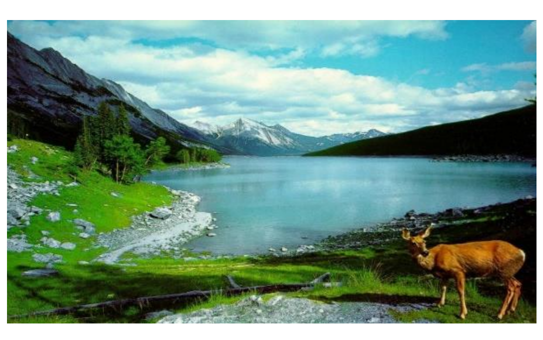
وانصرف ابن عاد لقصره يفكر ويدبر ويرتب الأمور مع الأعوان المخلصين، وقد أعجبه تخطيط شهبان العجوز ، فاستدعى وزيره سعيدا وقائد جيشه شبل بن رشاد ، ورتب معهم الأمر بسرية تامة ، وطلب منهم أن يذيعوا خبر اعتكاف الملك في قصره لحزنه على ما أصابه من المصائب ، وأنه وكل وزيره بالقيام على أمور المملكة وقيادة الجيوش ، وخرج هو وشهبان من المدينة خفية تحت جنح الظلام ومعهما خادم شهبان عنبر ، وجدا في السير حتى دخلا مدينة الأوهام من باب الشرق على صورة رعيان معهما قطيع من الأغنام قاموا على بيعه في المدينة، ونزلوا في أحد الخانات الصغيرة البعيدة عن قلب المدينة ، وبعد أيام تحقق لهما أن الملك هدير بن جرير هو الذي خطف الأميرة ، وأنها رهينة في أحد قصوره ، والعجب أن اخوتها أسرى عندها وقعوا في قبضة الملك هدير ، وأنهم في انتظار إتيان الملك جعفر الذي لابد أن يحضر للبحث عن ابنته وأولاده فيقع في المصيدة، فأدرك الملك جعفر ذكاء شهبان مرة أخرى فباب الشرق هو الباب المعاكس للباب الذي هو في اتجاه بلادهم ، فهم يرقبون دخول الأغراب من الباب الغربي فاطمئن الملك على حياة أبنائه ، وأنهم بخير ، وصعب عليهم الاتصال بهم حتى لا ينكشف أمرهم ، فخرجا مرة أخرى من باب الشرق على أنهما من رعايا ملوك الشرق واتجهوا إلى مدينة السحرة الخالية من الأهالي ، فوجدوا القائد شبل بن رشاد والجنود في انتظارهم ، ولما أطمأن الملك أن حركة هذا الجيش الجرار تمت بأكبر قدر من السرية والتمويه استبشر بالنصر والفرج ، فاجتمع الملك بقادة الجند الذين تفاجئوا بوجوده بينهم ، وحضر لقائهم القائد المخضرم شهبان ، فخطبهم الملك قائلا : أيها القادة الأبطال! تعلمون أن إهانة الملك إهانة لجيشه وشعبه.. فقد أراد أحد

البغاة تنغيص فرحة الأمة بالنصر الكبير على جنود الملك فوزان ، فقد تجرأ أحد الملوك الصعاليك ملك مدينة الأوهام على خطف ابنة الملك جعفر بن عاد حفيد الملوك العظام من آل عاد .. وهو لا يعلم أن ابنة الملك هي ابنة الشعب كله ..

هاج القادة لكلام الملك وهددوا وتوعدوا ، وكان شهبان يشير لهم بالهدوء فلما سكتوا تابع الملك جعفر قائلا : وهذا عار كبير علينا أن لا نثأر لكرامتنا وشرفنا الذي ورثناه عن الآباء والأجداد وقد زرت هذه المدينة بنفسي ، وتأكدت من وجود الأميرة واخوتها في قبضة الحقير هدير بن جرير الذي ينتظر قدومي ليعتقلني ، ويتزوج ابنتي رغم أنفي كما يحدث حاشيته بذلك والجنود وبعد أن هدأت همهمات القادة الغاضبين الناقمين على بلاد الأوهام قال جعفر الملك : اعلموا أيها الأشاوس أنني زرت المدينة خفية أنا والبطل الكرار شهبان، وعرفنا القصر الذي يحبس به الأمراء ، وعرفنا موقع قصر ابن جرير واطلعنا على أحوال المدينة .

سكت الملك فجأة ثم هتف بقوة وحقد وغضب : أيها الأبطال عليكم بتدمير هذه المدينة تدميرا كاملا استعادة لشرفنا الذي أهدر حتى لا يطمع بنا طامع بعد اليوم، وعليكم حرقها وسحقها عن بكرة أبيها وأسر سادتها وإنقاذ الأمراء .. هذا ما يجب أن يفعله جنود جعفر بن عاد .. الموت لمدينة الأوهام عليها أن تهجر كما هجرت هذه البلدة التي نحن معسكرون فيها .





ووضح لهم الملك خطته بالتفصيل، وسار الجيش إلى المدينة، ووصلها بعد أيام ، وقد تفاجأ الملك هدير بمجيء الملك جعفر من غير أن يعرف، فسب وشتم الجواسيس الذين أرسلهم إلى مدينة الأبراج ، وأمر الجيش بالخروج سريعا لملاقاتهم ، ودارت رحى الحرب بينهم؛ وكان فرسان بلاد الأبراج أشد بأسا وقوة ، فتقهقرت جنود الملك هدير أمامها، واقتحم الفرسان والجيش الغازي المدينة ، وهرب الناس منها ، وحاصر جعفر قصر

الملك هدير ، وأرسل قوة إلى سجن الأمراء ، وقوة أخرى تطارد الفرسان الهاربين ، وتم حرق المدينة عن بكرة أبيها ، وكانت الناس قد هربت إلى الجبال والوديان ، وأسر الملك هدير وحاشيته وتم تحرير الأمراء وترك الجيش الغازي المدينة قاعا صفصفا ، وأصبحت خرابا بعد أن كانت عمارا ، وأصبحت عبرة لمن اعتبر ، وعاد جيش الملك جعفر إلى مدينة الأبراج بما غنم وأسر وسبى ، وقد وضع الملك هدير بالقيد والذل والعار حتى وصلوا لمدينة الأبراج ، فخرج الناس لاستقبال القائد المظفر بعد طول غياب ، وقامت الأفراح والليالي الملاح عشرة أيام ، والناس يأكلون على مائدة الملك جعفر بسبب نجاة الأمراء، وسمع الملك فوزان بهذه الأخبار فازداد غما بغم وحسرة بحسرة ، وبعد أن ارتاح الملك جعفر ، وعاد له هدوءه أحضر الملك هديرا ووزراءه بالقيود أمامه ، ولما رآه جعفر هاج غضبه من جديد وصاح فيه : أيها الوغد أتجرؤ على خطف بنات الملوك ؟! وتريد إرغامهن على الزواج .. تكلم أيها الذليل المهان!.

ابتسم الملك الأسير وقال بكبرياء : لا تنس أيها المتكبر أنك تخاطب ملكا مثلك .. والدنيا دول فتكلم معي بأدب وأحسن كلام .

قال جعفر مقهقها : أتكلم معك بأدب ؟! وهل تعرف الأدب يا خاطف بنات السلاطين ؟! .

فرد هدير قائلا: لها أكثر من نصف سنة في قصري.. ولم أفعل بها شيئا .. كنت في انتظارك لنتفاهم .

فصاح جعفر بحنق : ما أحمقك يا هذا! وهل تعتقد أنني سأقبل بتزويجك إياها بهذه الحيلة الرخيصة يا جبان ؟! .. حاشا لله أن أفعل ذلك حتى لو انتصرت عليّ وأصبحت أسيرك .. فماذا تظن أني فاعل بك ؟

ضحك هدير وشامتا بخصمه : وهل بعد الموت شيء ؟! افعل ما بدأ لك .

فقال جعفر بغضب شديد : ستصلب عشرة أيام في ميدان البرج الأوسط ، ثم تقتلك عشرة كلاب جائعة ؛ لتكون خبرا لكل ملك جبان مثلك يتطاول على آل عاد .. وسيكون معك رجالك الأنذال .. أنتم تجهلون الملوك من آل عاد إذا غضبوا .. يا شبل بن رشاد سمعت أمري

فنـفذه سريعا في هؤلاء الأوباش .

قاد الجنود الأسرى لتنفيذ رغبة الملك ، ثم تذكر الملك جعفر أنه لم يشاور شهبان القائد العجوز بهذا الحكم ، فصاح قائلا : اذهبوا بهم الآن للسجن؛ فإني لا أحب العجلة في أمرهم .

وقام الملك من جديد بزيارة شهبان وشكره على شجاعته ومشاركته في هذه المعركة الشاقة مع كبر سنه ، وعرض عليه الوزارة أو الجيش فأبى واعتذر وقال : يا سيدي الملك !أنا رجل عجوز لا أصلح للخدمة العامة .

فرد عليه جعفر : أنت بركة مدينة الأبراج ، ورجلها الذكي الشجاع ..وسأمنحك لقب فارس الفرسان أيها القائد الكبير .. والآن أشر عليّ بشأن الجبان الغادر هدير وأعوانه .

وقد ذكر له مقابلته لهم ، وما توعدهم به من صلبهم وإطعامهم للكلاب الجائعة .

فقال شهبان بكل هدوء : افعل ما بدأ لك ؛ لعل الملك فوزان يرتدع وينخلع قلبه عند سماع هذه الأخبار .. وإن عفوت أيضا فهو سيموت بحسرته وندمه.. فافعل ما شئت يا ابن أخي .

ضحك جعفر وقال : حيرتني أيها القائد! وسلام الله عليك .



ولما وصل لديوانه أمر قائد الشرطة بقتل هدير ورجاله وصلبهم ، ثم إطعامهم للكلاب المتوحشة في ميدان البرج الأوسط ، ثم قام الملك بزيارة ابنته نهر الأحلام في قصرها واستمع لحكايتها فقالت : أيها الملك .. بعد أن تناولت الطعام مع شخصكم الكريم ، وقفلت عائدة لقصري برفقة فرساني ووصيفاتي تعرضنا لمجموعة من الفرسان على حين غرة ، وبعد معركة قصيرة أخذوني، ولم يؤذوني في الطريق مع طولها بل كانوا يكرمونني حتى دخلنا مدينة الأوهام واستقبلني الملك هدير ورحب بي واعتذر عن طريقة خطفي ، وأبلغني رغبته بالزواج مني ، وأنه لم يجد طريقة لموافقتي إلا هكذا ، فوبخته وحقرته ، فأمر بحبسي حتى ألين مع الأيام، ثم

أعاد الكرة معي في شأن الزواج ، وبعد أن فكرت في الأمر قلت له لن أتزوج دون رضا والدي.. فأخبرني أنك ستوافق وستأتي إلى هناك لتبحث عني ، وأمر باعتقال كل رجل غريب يدخل من الباب الغربي للمدينة أي من جهة بلادنا ، فجاء اخوتي فوقعوا في قبضته ، وكان واثقا من مجيئك وكثيرا ما يردد ذلك ، وأنك ستوافق على زواجنا ، فسايرته حتى تحضر فحضرت ومعك الجيش هذه هي قصتي يا ملك الزمان.. واعلم أنه لم يمسسني سوء كل فترة السجن .

فقال جعفر : لقد انتهى اليوم فقد أصبح من الأموات .. الحمد لله على نجاتك من براثنه .. ويا أيتها الأميرة ! لقد بلغت سنا يسمح لك بالاقتران برجل .. وبعد هذه الحادثة لابد من الزواج حتى لا يطمع بك أحد السفهاء كما حصل لك منذ شهور.. فعليك أن تهيئ نفسك للزواج من فارس من الفرسان وبطل من الأبطال .. فما تقولين؟

فوعدت الأميرة والدها الملك بالتفكير بهذا الأمر جديا ، فودعها ووعدها بلقاء قريب ليسمع منها ما يطمئن قلبه من الصفات التي ترغبها في زوج المستقبل، وعاد إلى قصر وديوان حكمه .



قال جابر بن نادر : صبر الملك شهورا أخرى، وكان كلما التقى بها قالت إنها تفكر وترسم صورة زوجها المنتظر ، ولما أدركت الأميرة أن والدها مصمم على تزويجها ، وأن صبره بدأ ينـفد وجدت الحيلة التي تنجيها من ذلك ، ففي إحدى المرات عندما فاتحها بموضوع الزواج قالت : أيها الملك السعيد سأوافق على الزواج من أي شاب يحقق لي ثلاثة طلبات، مهما كان هذا الشاب حقيرا أو عظيما غنيا أو فقيرا .. اعلم أنني لن أتزوج كأي فتاة فأنا الأميرة نهر الأحلام ابنة الملك جعفر بن عاد سليل الملوك العظام من آل عاد ملوك مدن الأبراج .

بعد جدل وتأمل قال الملك مستسلما لهوى ابنته: حسنا أيتها الأميرة !.. سأوافق .. ولكن كيف يكون زوجك من عامة الناس ، وترضين به وأنت من سلالة الملوك العظام من آل عاد ؟

فقالت : يا أبي من استطاع تنفيذ شروطي يستحق أن يكون ملكا ولو كان من الرعاع وحتى

من أوباش الناس وأدناهم .

فقال الملك وقد مل الجدل : ما هي هذه الشروط المعجزة ؟!

قالت : معذرة يا أبي! قبل أن تعرف شروطي عاهدني عهدا صادقا أنه من وفّى بها أوفينا له .

فقال جعفر مستسلما ومذعنا: سأعلن هذا على الملأ وفي كل مملكتنا .. فما هي هذه الشروط الكبيرة التي تسمح للرعاع بمصاهرة آل عاد ؟!

قالت نهر الأحلام : طلبي الأول أيها الملك .. هو رأس سبع الغاب سبع ملك السودان من مدينة السدود .

فذعر الملك جعفر لهذا الطلب ، وأدرك أن ابنته مازالت مبغضة للرجال فقال : طلب غريب وعجيب.. وهذا أمر صعب تحقيقه يا ابنة الكرام ؟!

فقالت بجد وابتسام : وكيف أتزوج رجلا إذا لم يكن زوجي ذا قلب أقوى من الصخر الجلمود وفارس شديد البأس تشهد له الأقران والأبطال بالفروسية ؟!

فقال : قد يطول الأمر ولا تتزوجين ؟

فقالت : لست بشوق كبير للرجال .. فمن حقق طلباتي كان جديرا بي رغم أنفي .

فاستسلم الملك من جديد وقال : والمطلب الثاني ؟

فقالت : يا ملك الزمان عند ملك السودان هذا حصان لا مثيل في هذا الزمان اسمه عادل البحر لا يركبه إلا بطل من ظهر بطل.. ولي رغبة في أن يكون هذا الجواد بين خيولي .

فقال جعفر : أوه يا ابنة جعفر !! من نجا من الأولى لا أظنه ينجو من الثانية .. فكيف الشرط الأخير ؟!

فابتسمت ابتسامة غامضة وقالت : يا ملك الزمان أسمع أن ملك السودان رجل ظالم وطاغية وتخليص العباد منه نعمة كبيرة .. فلو أحضر لي فارسي الحبيب رأسه فهو فعلا يستحق أن يملكني وأن أصبح له أسيرة وأم أولاده .. فهذه مطالبي الثلاثة يا أيها العظيم !

فقال بعد صمت وذهول :وكيف نتأكد من تحقق هذه المطالب ولا نخدع ؟!

فضحكت وقالت : هذا أمر هين أيها الملك .. فسبع الغاب كما علمت من الركبان والقصاص على عنقه قلادة من الذهب عليها رسومات ونقوش تدل عليه ، والحصان عليه نفس القلادة وأيضا رأس العبد يحمل هذه القلادة فلو خدعنا بالأولى فلن نخدع بالثانية والثالثة فإذا اجتمعت هذه القلائد ثبت عندي صدق الرجل .

خرج الملك جعفر من عند ابنته ، وهو في غاية الذهول والاستغراب لشروطها الثلاثة ؛ ولكنه قال لنفسه : لنجرب ونساير؛ لعلنا نعرف فارسا قويا لهذه الدرجة من الشجاعة في هذا الكون والتقى بوزيره سعيد وطلب منه أن يعلن هذه الشروط على الشعب ، وأن الملك يرغب بتزويج ابنته الوحيدة الأميرة نهر الأحلام لكل إنسان من كل بلاد الدنيا إذا حقق لها شروطها ومطالبها الثلاثة بغض النظر عن أصله وفصله ، انتشر الخبر في مدينة الأبراج طولها وعرضها ، وبدأ الفرسان والمغامرون يسألون عن هذه المطالب، فمنهم إذا علم بالمطالب أحجم ، ومنهم من غامر فلم يسمع له خبر، واستمر الحال هذا ثلاث سنوات ، وما عاد أحد يفكر بالزواج من الأميرة نهر الأحلام.



الفارس شديد



قال الراوي : أخبرنا جابر بن نادر فقال : بعد سنين دخل المدينة شاب يافع على حصان أدهم يلبس ملابس الفرسان جميل الصورة ، يضع على رأسه عصابة حمراء فيها جوهرة خضراء ، كل من يراه يتعجب من هيئته القوية رغم صغر سنه ، وتعجب الناس أكثر عندما علموا أنه مغامر آت للزواج من أميرتهم، فيشفقون على شبابه فهو ما زال دون العشرين ، فحاولوا ثنيه ومنعه من الإقدام على هذه المخاطرة ، وسردوا عليه بعض حكايات من تقدموا لها وذهبوا ولم يرجعوا، ولكن الفارس الشاب أصرّ على مقابلة ابن عاد مدعيا أنه أتى من بلاد بعيدة ليقترن بالأميرة نهر الأحلام إذا حقق لها مطالبها الثلاثة ، فأدخل على الملك جعفر فرحب به وقال له : أيها الشاب الصغير .. أتطمع بمصاهرة الملوك فترسل روحك للمهالك ؟!

فرد الشاب بجرأة مع أدب : أيها الملك الكبير .. لعل الدنيا تبتسم لي وأصبح صهرا للملك السعيد ابن عاد .. فقد علمت أنكم لا تمانعون أن يخطبها وينكحها

مغامر مثلي .. فأنا قادم من بلاد بعيدة طامعا بتحقيق مطالب الأميرة نهر الأحلام .

أعاد الملك نصح الفتى وصرفه عن هذه المغامرة الصعبة وقال : أيها الشاب! الأمر خطير،وقد تكلفك هذه المغامرة حياتك، فابحث لك عن فتاة تناسبك وتقر عينك بها.

فقال الشاب بإصرار: أيها الملك جئت من بلاد بعيدة طامعا بمصاهرتكم .. روحي فدى الأميرة دعني أجرب حظي .. فأنا فارس وأتقن ركوب الخيل وطعن الرماح والمبارزة بالسيف وإذا نفذت شروطكم فأستحق أن أكون صهرا لكم .

قال الملك بأسف : فعلت ما يجب عليّ نحوك .. سوف تنزل في قصر الضيافة وسأرسل وراء

الأميرة لتجتمع بها وتسمع مطالبها من فيهها .

أتت الأميرة واستمعت للشاب المتحمس المدعو شديد ، فذكرت له شروطها الثلاثة، فلما أنهت كلامها قال بصوت جهور وحماس ظاهر أمام الملك وأعوانه : هل تريدون هذه الأشياء كلها معا أم واحدة واحدة ؟ .

ابتسم القوم للشاب المقدم على هلاك نفسه وردت الأميرة : كما تشاء المهم أن يكون بين يدي رأس السبع والقلادة ،والحصان حيا والقلادة ، ورأس العبد ملك السودان والقلادة التي تطوق عنقه .

فعاد الشاب للقول بصوت جهور : أيتها الأميرة .. إذا أحضرت هذه الأشياء ترضين بي بعلا وتسافرين معي إلى بلادي في الشرق .. فأنا من مدينة الأفيال ، فلما سمعت بأخبارك أتيت مؤملا تحقيق أمنياتك الثلاث طامعا بك حليلة .. فهذا شرطي أيها السادة إذا انتصرت على ملك السدود .

فصمت الجميع حتى ردت الأميرة : لا اعتراض عندي أيها الإنسان ، إذا تحققت بأنك نفذت مطالبي فاذهب بي إلى أي بلاد شئت .. فأنا سأكون زوجتك الوفية .

فقال الشاب بجرأة : وأنت أيها الملك السعيد أترضى أن آخذ ابنتك الوحيدة لبلادي ؟

فضحك جعفر لثقة الشاب بفوزه على العبد الأسود وقال : أنت حر .. تسكن في أي مكان تريده

فالتفت الشاب للأمراء والوزراء وقال : وأنتم أيها الأمراء والوزراء .. هل تشهدون بأنني إذا حققت مطالب أميرتكم بأن آخذ الأميرة نهر الأحلام بعد الزواج إلى بلادي لأفخر بها على رؤوس الأنام ؟

فقالوا : ما دام مولانا السلطان وافق على شرطك ، فنحن نشهد على ذلك أيها الشاب .

ولما انصرفت الأميرة من المجلس قال جعفر للشاب : يا بني إني عليك مشفق .. ففكر في أمرك جيدا .. فأنت مقدم على أمر صعب وشديد الخطورة .

فرد الشاب باسما : أيها السادة .. أيها الملك إن لم أحقق هذا فلا أستحق أن أكون زوجا لابنتكم

اصبروا وسوف ترون سأعود إليكم بمشيئة الله برأس هذا العبد وحصانه وسبعه وداعا أيها القوم .

فأتبعه بعض القوم بضحكات هازئة ، واتهمه بعضهم بالجنون والغرور ، وترحموا عليه .

قال جابر بن نادر : الحياة حكاياتها عجيبة وغريبة ، ترك الفارس الشاب مدينة الأبراج متوجها إلى مدينة السدود حيث العبد الأسود ، وفي الطريق عرج إلى قرية صغيرة ، فوجد جماعة من الرجال في انتظاره وهم في حالة قلق ، فلما رأوه استقبلوه فرحين ، فروى لهم ما جرى له عند الملك جعفر ، وأن الأميرة قد وافقت على ترك مدينة الأبراج إذا حقق لها المطالب الثلاثة ثم قال لهم بحماس : سنبدأ العمل أيها السادة .. الحيلة التي سندخل بها مدينة السدود أيها الفرسان هي أن يقوم سعد وسعيد بربطنا أنا وهمام بالحبال ، وبيعنا أسرى لملك السدود .. أنتم أسرتمونا في بعض تنقلاتكم بين البلاد ، ولما مررتم بطريقكم إلى مدينة السدود أحببتم بيعنا فيها .. هذا المطلوب منك يا سعد ويا سعيد ، ثم تذهبون إلى مدينة الأوهام تطمئنون أخي شدادا وأختي ورود عليّ .

مشى القوم نحو مدينة السدود حتى اقتربوا منها ، فقام بعض الرجال بربط همام وشديد وأخذوا خيولهم بعد أن ودعوهم وداعا حارا ، ثم جرحوا وجوههم وعفروها بالتراب ومزقوا ثيابهم حتى أصبحوا في هيئة رثة يحزن عليهم كل من رآهم، وقاد سعد أحدهم ، وساق سعيد الآخر ، ودخلوا بهم مدينة السدود لبيعهم لملك السودان ، ثم يعودون لجماعتهم وينطلقوا لمدينة الأوهام .

استقبلهم الملك الأسود بالاستغراب؛ ولأنهم من الجنس الأبيض فرح بهم، وشراهما بثمن بخس وصدق قصتهما ، فانصرف العبدان سعد وسعيد لجماعتهما بثمن أسيادهما ، فأرسلهم ملك السودان مع الرعيان ليرعوا الإبل والدواب ، ولم يفرقوا بينهما ، وحذروهما وتوعدوهما من الهرب والغدر .. فقنعا بالعيش مع الدواب والرعاة ، كانت مدينة السدود تزخر بالرجال السود والنساء السود ، ولا يملك النساء البيض إلا الملك ورجاله ، ومن يتكرم عليه ملك

السودان من رعاياه بجارية بيضاء مقابل عمل أو خدمة قدمها لملك السودان الأسود ، وأما الرجال البيض فكانوا أسرى وخدم ورقيق عندهم ، فاندمج شديد وهمام مع الرعيان والعبيد ومن خلال ذلك عرفا البلد جيدا ، وعرفا أطباع الملك ملك العبيد والزنوج ، وعرفا بعض عاداتهم وسننهم ، وبعد شهور نقل شديد لرعاية خيول الملك والأمراء ، وهناك تعرف على الحصان الخطير والمطلوب ، فقد وجده تحت حراسة سبعين من العبيد خواص الملك، وبعد حين نقلوه للعمل في قصر ملك السودان ، وفي خدم الملك مكان أحد العبيد الذي أهلكه الموت فقال في نفسه : الحظ يبتسم لي ويقربني من تحقيق مرادي .

فوجد أن هذا الملك عربيد سكير هو ورجاله الخاصة .. وليس له إلا القتل والفحش ، ومن يغضب عليه من الناس يلقيه لسبع الغاب ، ويجعل من ذلك فرصة للتسلية واللهو ، يجلس هو وندماؤه للسكر والفرجة على الأسد وهو يفترس الضحية ، ولا يكاد يمر أسبوعا إلا وتقدم ضحية للأسد الذي يعيش في قصر ملك السودان .

قال جابر : صبر شديد على حياة القصر ، وتعرف على الغلمان والعبيد فوجدهم يحيون برعب وخوف مستمر من سيدهم ، وكان شديد يتظاهر بالرضا والسرور بهذه الحياة في كنف ملك السودان الذي أعجب به ، وبعد حين جعله المسؤول عن راحته وغرفته الخاصة ، وكلما يقترب شديد منه يهتف لنفسه قائلا : يبدو أن نهاية الشيطان اقتربت .. لا أدري كيف رضي به هؤلاء العبيد سيدا لهم وملكا عليهم ؟! وهو بهذه الأخلاق السيئة والاستغراق على الشراب المسكر والتلذذ بقتل الناس .. أرجو الله أن يساعدني في الخلاص منك وإراحة العباد من شرك وظلمك كان شديد على اتصال دائم وخفي بهمام الذي استلم مكانه في رعي الخيول ، بل جعلوه من حراس الحصان عادل البحر بعد موت أحد حراسه ، كان شديد يشارك سيده الوحش حفلات الفجور والخمور والشرور ويؤدي دوره فيها ببراعة وإتقان حتى أصبح الملك يتحدث بأسراره أمامه ومن غير حرج ولا يبالي .

كان شديد يفكر بيوم مناسب ليقتل ملك السودان ، وقبل أن ينفذ ما يدبره دخل مدينة السدود

العبدان سعد وسعيد ، وقدما له هدية حصانا مسبوكا من الذهب الخاص ، فشكرهما ملك السودان وطلب من غلامه شديد إكرامها، فأخذهما إلى غرفة الضيافة وقال لهما هامسا : ما الذي أتى بكما إلى هذا العرين ؟

فقال سعد : لقد قلقنا عليكما .. فلكما أكثر من سنة فأرسلتني أختكم ورود أبحث عنكم ..ما أخباركم ؟

فقال شديد : على كل حال جئتما بالوقت المناسب .. امكثا هنا سأذهب للملك قبل أن يفتقدني سأدبر معكما أمرا عظيما .

وعاد للملك مسرعا وهو يقول : أكرمتهما كما يحب مولانا .

قال جابر : كما تعلمون مما قلناه سابقا أن حياة هذا الملك العبث واللهو واللذة والظلم والبغي على من حوله من الناس والجيران ، بل يشتري الرقيق ليقدمه فريسة لسبعه ، وبوصول سعد وسعيد قرر شديد تنفيذ ما دبره وخططه لقتل العبد الأسود وإنهاء مهمته والعودة لمدينة الأبراج ليحظى بالأميرة الحسناء نهر الأحلام قرينة له ، وكانت خطة شديد بما أنه المسؤول عن غرفة نوم العبد ، ولا يدخل عليه أحد في خلوته ، فقرر قتله وجعل سعيد مكانه متنكرا بثيابه على أنه ملك السودان بضعة أيام قبل أن ينكشف أمره ، وفي هذه المدة يأمره سعيد بقتل سبع الغاب ويأمر همام بإحضار عادل البحر ، وفي ليلة لا يوجد فيها ضوء قمر يغادرون بلاد السودان ، ويتركون أهل البلد ينصبون ملكا جديدا وظالما آخر.

قال جابر : حيلة ذكية وخطة جريئة ، في ليلة من الليالي ذبح شديد خصمه ، وأخفى جثته في سراديب القصر ، وتنكر سعيد بثياب العبد وأظهر شديد في القصر مرض الملك وأنه منهك القوى ولا يرغب باللهو والسهر ، وأظهر لهم سعيد المصاب بالإعياء الشديد أنه قرر التخلص من سبع الغاب ندما وأسفا على ما سفك من الدماء آملا بأن يشفى مما ألم به من سقم إذا قرب السبع قربانا للآلهة ، فألقي له السم الزعاف فقتل ، وقام شديد بجز رأسه ليحتفظوا به في القصر وأخذ قلادته ، وكان همام على معرفة بما يجري في القصر ، وكان قد تعرف عليه الحصان خلال

هذه المدة ، فأصبح أطوع إليه من بنانه ، وعلى حين غرة ادعى الملك أنه يرغب بالخروج لضواحي المدينة بصحبة جواده عادل البحر وخرجوا ليلا ومعهم رأس العبد ورأس السبع والقلائد ، وكان سعد قد هيأ لهم في طرف المدينة خيولا ، ولما أصبح الصباح علم أهل المدينة بمقتل سيدهم فقام فيهم النواح والصياح عدة أيام ثم نصبوا عليهم ملكا جديدا ، وهكذا انتهت حياة ملك السدود ومات سبعه واختفى جواده .

وبعد أيام كان الفارس شديد يدخل مدينة الأبراج ، ويضع القلائد الثلاثة أمام الملك جعفر بن عاد الذي ذهل وما عاد يتكلم، فهم قد ظنوا أن الشاب قد مات، ولما سمعت الأميرة نهر الأحلام بذلك صعقت ، وجاءت إلى القصر مسرعة ، ولما شاهدت رأس السبع والعبد والقلائد ونظرت الحصان أثناء دخولها، فقالت وهي ما زالت مذهولة : إن هذا لشيء عجاب!! أمر لا يصدق !! .. أنت أهل لي أيها الفارس .. وتستحق أن تكون صهرا للملوك من آل عاد يا مرحبا وألف مرحبا .. ضعوا هذه الرؤوس على الرماح ؛ ولتكون على مدخل البرج الأوسط ؛ ليعلم الناس أن الأميرة نهر الأحلام تزوجت من أمهر وأشجع الفرسان .. وأن مهر الأميرة قد حضر وأما الحصان فهو هدية لأبي جعفر والقلائد مهري .. مبارك لك أيها الفارس ابنة الملك .. فشجاعتك نادرة وقص علينا حكايتك .

فحور الفارس الحكاية بما يناسب المقام ، وأخفى عنهم ذكر الأعوان ، وبارك له الجميع في الأميرة ، وأثبت أنه فارس شديد شجاع ، يستحق الأميرة حليلة على مدى الزمان ، وأقر الملك بكل ما تفوه به الأمراء والأميرة وقال : أجل أنت بطل صنديد !! وكنت أظن في يوم من الأيام أنه من المستحيل الحصول على هذه الأشياء .. فأنت بطل مجرب وتستحق ابنتي الأميرة عن طيب خاطر .. ولكني سأطلب منك طلبا هينا كما جرت عادة الملوك من الآباء والأجداد .

عندئذ أدرك شديد أن الملك قد صعب عليه تزويج ابنته من مجهول فيريد أن يضع عقبة في طريقه ولكنه قال بحماس : اطلب ما شئت أيها الملك فمن أتى برأس العبد وسبعه وحصانه لا يعجزه شيء .. فأنا مستعد لأي مهر فالأميرة تستحق كل ثمين وغال .

أصابت الدهشة كل الحاضرين من رغبة الملك ، فكانت عيونهم تنتظر ما يتفوه به الملك من أمر جديد ، وأحس الملك بدهشتهم واستغرابهم فلما سمع كلام شديد قال : أيها البطل قد أحسنت بتخليص العباد من ظلم وتجبر ملك السودان ! .. وإذا أحضرت لي مطلبي مهر ابنتي الوحيدة سأهبك الحصان عادل البحر .. واعلم أن طلبي الغاية منه أن لا يقال أن الملك ابن عاد زوج ابنته من غريب ومن غير صداق .. ففي عرفنا الآباء هم يختارون مهر بناتهم أو يحددون قيمته والأميرة وضعت مطالبها لتوافق على الزواج أولا ولتفخر على بنات جنسها بما اشترطت .

فقال شديد : لا حاجة يا مولاي لأي تبرير .. فأنا رهن إشارتك اطلب أي مهر .. المهم عندي أنني عندما أتزوج الأميرة ترحل معي لبلادي الأفيال .. هذا ما تعاهدنا عليه .

قال جعفر الملك : ابشر بذلك وكما اتفق وجرى الكلام .. يا سادة تعلمون أن الملك فوزان صاحب بلاد التاج .. التي تقع جنوب بلادنا عنده تاج من الذهب والجواهر لا مثيل له عند ملك من ملوك هذا الزمان .. وتلبس هذا التاج زوجته سعدى فيا ليت الفارس شديدا أن يأتينا به مهرا لأبنتنا الغالية والوحيدة .

فحملق الناس بعضهم ببعض ، ونظر شديد في عيني نهر الأحلام لحظات ثم قال : وكيف الحصول عليه يا ملك الزمان ؟! فقال جعفر وهو يصر على أسنانه : هذا شأنك أيها الفارس .

لم تتكلم الأميرة ، وابتسم شديد من جديد وقال بكل ثقة : أيها السادة اشهدوا بأنني سأحضر لكم هذا التاج ـ إن شاء الله ـ لأضعه على رأس الأميرة نهر الأحلام بدلا من رأس سعدى .

ابتسم الملك لذكاء شديد، وأدرك أن صهره ذكيا فوق شجاعته فهو يريد الاحتفاظ بالتاج ، فقال الملك باسما : بالطبع سيكون على رأس الأميرة نهر الأحلام إلا إذا أهدته لوالدها العزيز .

فقال شديد : وداعا سيدي وانتظريني أيتها الأميرة .. لقد جئت من آخر الدنيا متعلقا بك .. فسيأتيك المهر حتى تتحدث كل الناس عنه ليرضى والدك وأهلك ويعلمون كم أنت غالية في قلب الفارس شديد أبي شجاع .. والتفت للملك وقال : هل من شرط آخر يا مولاي ؟

قال جعفر : لا .. هذا الطلب فقط حتى لا يقال إنني لم أفعل ما يفعله الآباء .

التاج

انصرف شديد وهو في غيظ شديد ، والتقى برجاله في القرية المعروفة حيث ينتظرونه ، وأعلمهم بما حصل له من غدر جعفر به ثم قال : ولكني جعلت التاج للأميرة بدلا منه ففطن لذلك وترك الأمر لها ..كنت أطمع أن نأخذه من الملك فوزان حينا من الزمن ريثما أبلغ غايتي ثم أطلبه من الأميرة ونعيده للملك فوزان مرة أخرى .

ودعهم شديد وسافر لبلاد التاج ، ولما وصلها التقى بالملك فوزان ، ثم خلى به وقص عليه قصته وأصله وفصله وغايته، ولما اطمئن فوزان إلى حكايته قال : تمكث أياما نزيلا عندنا حتى أرسل رسولا لدياركم ، وأتاكد من نسبكم .. فأنت بطل لا يستهان به ..ولسوف أقنع زوجتي بالتخلي لك عن التاج حينا من الدهر حتى تتمكن من حرمان جعفر اللعين منه .

أرسل الملك فوزان رسولين رسولا يأتيه بالخبر اليقين عن شديد من مدينة الأفيال التابعة لمدينة الأوهام ، ورسولا لبلاد الملك جعفر يأتيه بقصته معه وطلب التاج منه ، وكان شديد قد أرسل خادمه سعد لرفيقيه همام وسعيد في تلك القرية يخبرهم بأمره ، ويحثهم بالعودة للوطن ليطمئنوا الأهل ثم يعودون ، ولما جاءت رسل فوزان بصدق قصة الشاب كان الملك فوزان قد روى لزوجته سعدى الحكاية حكاية الشاب شديد مع ابنة الملك جعفر ، وما حصل له مع جعفر ملك مدينة الأبراج ، وأنه أراد منه تاجها ليتم زواجه ، ويريده الشاب حينا من الزمن ثم يعيده لها ، فوافقت الملكة على ذلك بعدما رأت الشاب شديدا وسمعت الحكاية من فيهه ، وأعطاه الملك التاج خفية عن الناس ، ولما دخل الفارس شديد على الملك جعفر بالتاج أصابه عجب ودهشة أكثر من الأول من السرعة التي أحضره بها ، ولما جاءت الأميرة وضع التاج على رأسها قال له جعفر : حدثنا كيف حصلت عليه ، ورضي فوزان بإعطائك إياه أو قل زوجته ؟

تبسم فارسنا وقال : دخلت على الملك فوزان وذكرت له قصتي .. وأرسل رسلا لبلادكم يتأكدون من صدق قصتي ، ثم وهبني إياه عن طيب خاطر عندما تأكد من قتلي لملك السودان وجلب رأسه ورأس سبعه وحصانه لكم .. هذا ما حصل أيها الملك السعيد .

فنهض الملك مستسلما وعانق الفارس وقال : الدنيا تبتسم لك .. ولا يمكن إنكار أنك فارس بطل رغم صغر سنك .. فهنيئا لك الأميرة نهر الأحلام ، وهي قد عاتبتني كثيرا عندما كلفتك بجلب تاج سعدى ، فقد أعجبت بك أميرتنا .. فأتمنى لكما السعادة .. والحصان عادل البحر هو هبة مني إليك .. ولتستعد البلاد للاحتفال بزواجكما على نفقة الملك جعفر بن عاد ، فهذه أول مرة في تاريخنا الماجد تتزوج فتاة أو قل ابنة ملك رجلا من عامة الناس.. فأنت الآن أصبحت الأمير شديد بن براقة فارس بطل .

علم أهل المدينة أن الفارس شديدا حقق رغبات الملك وابنته ، وأعلنت الأفراح مدة من الزمان وقد زين قصر الأميرة بالمشاعل والأنوار، وأطعم الفقير وكسي العريان بهذه المناسبة ، وتزوج الأمير شديد الأميرة ، وبعد أربعين يوما من الزواج استأذن شديد من حماه بالسفر لأهله وبلاده فمنحه الملك الحصان عادل البحر ، وأعاد التاج لابنته وشكرها على إهدائها له ولكنه أعاده إليها قائلا : أنت أحق الناس به .

وعرض الملك على صهره أن يرسل معه حرسا يوصلونه لبلاده ، فاعتذر الأمير وقال : سنسافر يا سيدي بلباس العامة وليس بثياب الأمراء والفرسان وجهزهم الملك ببضع بغال ، واختارت الأميرة خادمين وخادمة استأذنت زوجها بها فوافق على ذلك ، وودعهم الملك والأمراء إلى ظاهر المدينة ثم رجعوا لبلادهم ، وبعد مسيرة ثلاث أيام عادت كوكبة الفرسان التي رافقتهم ، ولما اقترب شديد من القرية التي يسكن بها أعوانه استأذن الأميرة لزيارة إليها ؛ لأن فيها بعض الأصحاب، وذكر لها أنه سيعود سريعا ، وكان قد أخذ التاج خفية عن الأميرة ولما وصل لرجاله الذين كانوا في انتظاره ، وقد علموا بزواج أميرهم من الأميرة نهر الأحلام ابنة جعفر ، فقد كان الخادمان سعد وسعيد يتبادلان الانتقال بين القرية ومدينة الأبراج ، فلما رأوا الأمير هنئوه بالنصر والفوز ، وكان همام وسعيد قد عادوا من مدينة الأوهام ، ومعهم بعض الفرسان فأعطى شديد التاج لهمام وقال له : سر به للملك فوزان .

وكتب له رسالة يشكره فيها، وروى له فيها زواجه من الأميرة ، وأنه سائر بها نحو بلاده .

وانطلق همام إلى بلاد التاج ، ومشى الأمير ورجاله نحو المكان الذي نزلت تستريح فيه الأميرة وخادماها وجاريتها ؛ ولكنه عندما وصل المكان لم يجد أحدا سوى بعض البغال وعليها الأحمال فقال : ما الأمر؟!..الأميرة اختفت!.. أم هربت؟ .. هل عرفت أنني سرقت التاج فغضبت وهربت ؟

فقال سعد : هل عرفتك أيها الأمير؟

فقال وهو في شرود : قبل سفري بأيام ذكرت لها أنني ابن ملك مثلها ..فتعجبت من تنكري وعدم انتسابي أمام أبيها بذلك .. فلما ذكرت لها أن والدي هو الملك هدير بن جرير ملك مدينة الأوهام الذي قتله والدها جعفر صدمت ، وأنا قلت ذلك حتى لا تصدم بذلك عندما تبتعد عن بلادها .. وتعرف ذلك عندما نصل بلادنا ، فانزعجت بداية ولكني قلت لها : لننسى الماضي أيتها الأميرة ! فأنت قد أصبحت زوجتي وأنا زوجك.. ولا أفكر بالانتقام منك أو من أبيك فوالدك عمي .. ولكنني حققت رغبة أبي بالزواج منك .. فأبي لم يحقق ذلك فحققت أنا رغبته بعد موته .. وصدقي أني نسيت الأمر ولا أكن لك في قلبي حقدا أو كرها .. وظننت أن الأمر انتهى إلى هنا فقد لزمت الأميرة الصمت.. ولم تخبر والدها بشيء فاطمأنت نفسي إليها .

فقال أحد الفرسان : لو أرادت الهرب أين تتجه ؟ .. فلو كانت تريد أهلها لما خرجت أصلا ؟

فقال سعد : قد تكون علمت باختفاء التاج فصممت العودة لأبيها لتكشف له الأمر .

فقال شديد : لا أظن أن الأميرة عادت لقصرها ، ومع ذلك فاذهب يا سعد لمدينة الأبراج وأتنا بالخبر اليقين فأغلب الظن أنها هربت واختفت لتختبرني فهل أبحث عنها أم لا ؟ فلينطلق كل منكم أيها الفرسان لجهة من الجهات وأنا وسعيد سنعود للمبيت في القرية وليكن لقاؤنا فيها فسار كل فارسين إلى جهة ، وسار سعد نحو مدينة الأبراج ، وقفل شديد وسعيد إلى حيث يسكنون في القرية المهجورة .

قال جابر بن نادر : اختفت الأميرة ولم يظهر لها أثر ، وعاد الرجال مساء اليوم التالي من غير خبر فقال شديد بحزن وأسف شديد : علينا أن نصبر وننتظر عودة صاحبنا سعد لعل عنده خبرا

يفرح الفؤاد المجروح .. وعلينا باعتراض همام أيها الأبطال أثناء عودته من مدينة التاج ؛ لئلا يذهب لبلادنا كما طلبنا منه ظانا أننا سبقناه .. فقد جدت أمور غيرت ترتيبنا كله .



وعاد سعد بالخبر اليقين من مدينة الأبراج بأن الأميرة منذ خرجت بصحبته لم تعد ، فأدرك الفارس أنها هربت منه، وعليه البحث عنها في بلاد الدنيا، وبعد تفكير قال شديد : سأنطلق أيها الرجال للبحث عن همام فقد تأخر موعد قفوله هو الآخر ، سوف أصل مدينة التاج ، وليرافقني سعد وليبق سعيد وبعض الرجال هنا ، وليذهب طائفة لبلادنا ويخبروا أهلنا بما جد علينا .

فلما نزل الأمير شديد ضيفا على الملك فوزان روى له الحكاية حكاية زواجه من الأميرة ، ولما سأله عن التاج ، علم أن هماما لم يصله فانزعج وتوتر وعتب على هذه الدنيا وأحوالها فقال فوزان : لعله طمع بالتاج ؟!

رد شديد : لا يمكن أن يفعل همام ذلك لابد أنه تعرض لمكروه .. وسأبحث عن التاج في عنان السماء وأعماق البحار .. ولن يهدأ لي بال حتى أعود به وأرد الأمانة لأهلها ، فالدنيا لا تبقى على حال .

وعاد شديد للقرية حيث بقية رجاله وأعلمهم بخبر ضياع همام والتاج ، والكل ينفي طمع همام فيه أو خيانته لأسياده ، فوضعوا خطة للحركة وهي التنقل بين القرى والمدن التي تفصلهم عن مدينة التاج وعليهم البحث والاستماع عن الفرس وهمام وبعد أسبوعين كل فرقة ترسل مندوبا لهذه القرية ، ولم يطل بحثهم فقد وقعوا على الفارس همام في إحدى المنازل وهو طريح الفراش مصاب بجرح عميق في خاصرته في قرية قريبة من مدينة التاج بأيام يوم أو يومين ، فقال لهم وهو يصطنع الابتسام : لقد تعرضت لقطاع طرق وغدروا بي قبل دخولي مدينة التاج في هذه البلدة الصغيرة .. في تلك الليلة المشؤومة اعترضني عدد من الرجال وأحاطوا بي من كل مكان وأخذوا مني التاج والحصان وما أحمل من المال والسلاح وطعنني أحدهم بخنجر في خاصرتي

فظنونني قد قتلت وغابوا في الظلام ، وفي الصباح وجدني فلاح وأخذني إلى بيته هذا .. وهو ما زال يشرف على علاجي مع زوجته الطيبة وأبنائه .. ويقومون على خدمتي ورعايتي .. وأنا على هذا الحال الذي ترونه إلى أن أخبروني بأنكم تسألون عني وتبحثون عني فظنوكم من أعدائي قطاع الطرق فخافوا عليّ وعلى أنفسهم .. ولما اطمئنوا منكم أحضروكم لي فهذه قصتي يا أمير شديد يا فارس مدينة الأوهام .

فحمدوا الله على سلامته ونجاته من الموت غدرا ، وابدوا امتنانهم للفلاح وأسرته وقالوا : الحمد لله على السلامة أيها الأمير وسنبحث عن هؤلاء اللصوص ونعدمهم الحياة .

وكشفوا عن جرحه فوجوده صعبا ويحتاج لطبيب وعلاج ، وقص شديد قصة هرب الأميرة على صاحبه همام ، ثم سأل صاحبه قائلا : يا همام يا فارس مدينة الأفيال هل من أمارة ترشدنا إلى الرجال الذين اعترضوك وغدروا بك ؟

قال همام : كان الليل شديد العتمة ، ولقد كان كلامهم قليل ، وسمعتهم يذكرون اسم زيدان فقط .. وقد سألت الفلاح هل من قاطع طرق في هذه المنطقة اسمه زيدان ؟ فنفى معرفته لهذا الاسم ولكنه قال لي إن اللصوص ينتشرون في هذه البقاع ، وأحيانا يهاجمون القرى لخطف النساء والأطفال أو نهب الدواجن والدواب، وهذه القرية يسكنها هذا الفلاح وبعض أقربائه وبعض الأبناء .. وكثير من أبنائهم الشباب يسيرون للمدن ويلتحقون بالجند ويخدمون عند الملوك والأمراء ويزورون أهليهم من حين لآخر ، وهذا الفلاح كما حدثني لديه ولد كبير يخدم عند الملك فوزان ، وله ولد آخر أمضى عشرة سنوات في خدمة الملك فوزان وأصيب في بعض المعارك فعاد للقرية فهو يعمل في الفلاحة ، وله ولد ثالث يساعده لم يخرج من القرية إلا لشراء الأشياء من المدن والقرى الأخرى ، وله بنتان متزوجتان في القرية وأغلب الناس هنا على شاكلتهم ، وحدثهم همام عن حياة القرية وهؤلاء الناس البسطاء ، وعن جودهم وكرمهم معه وحياتهم الهادئة في هذه البلدة الصغيرة التي تقوم على الزراعة وتربية الطيور والأغنام .

فبعدما سمعوا حديث همام عن القرية وأهلها أخبر الأمير جماعته برغبته بالسير إلى الملك فوزان

وسؤله عن شخص اسمه زيدان ، فأخذ سعدا وانطلق لبلاد التاج ، وأوصاهم على همام وبعد عودته سوف يسيرون به إلى بلدهم لمتابعة علاجه في قصر الملك شداد بن هدير .

دخل الأمير شديد على الملك فوزان الذي رحب به واستمع منه لقصة الفارس همام ، ولما سمع اسم زيدان تغير لون وجهه واضطرب بدنه ، مما لفت نظر الفارس فاستفسر عن ذلك فقال فوزان : سأقول لك ولكن ليس الآن .. انزل أنت وخادمك في قصر الضيافة .. وغدا أرسل وراءك وأقول لك عن سبب تغير وجهي يا ابن الملك هدير بن جرير .

كان للملك فوزان ولد شرير وشيطان مريد يدعى زيدان ، وله عصابة يقطع بها الطريق ، ويعيث فسادا في القرى والبلاد المجاورة ، فلما أرسل وراءه عاد الغلام يقول : إنه غير موجود في البلد منذ أسابيع فهمس فوزان محدثا روحه : إنه يعرف تاج أمه سعدى .. فهل يعقل أنه باعه ولم يعرفه ؟!

في اليوم التالي حدث الملك فوزان ابن صاحبه الملك هدير عن فجور ابنه وفساده ، وأنه قد يكون هو الذي تعرض لهمام وأخذ التاج منه ثم قال : امكث ضيفا لدينا أياما، فقد أبلغت رجال الشرطة والجنود بإرساله إليّ عندما يدخل البلاد.

ولم تطل مدة الانتظار ، فما كاد سعد يذهب لرجالهم يخبرهم بتأخرهم بضعة أيام ويعود ، كان زيدان يدخل المدينة ويجلس بين يدي والده الذي سأله عن التاج فاعترف سريعا بأنهم تعرضوا لرجل في إحدى الليالي وهم يتنقلون بين القرى فوجدوا معه تاجا ، ثم قتلوه وتركوه للكلاب والذئاب ، ولما رأى زيدان هذا التاج ظنه للوهلة الأولى تاج أمه سعدى ، ولولا أنه يعلم علما يقينا أن التاج عندها لظنه هو فقال فوزان غاضبا: هو تاجها يا ملعون ! هو تاج أمك يا لص !

فصاح زيدان : هل باعته ؟ وما الذي أوصله ليد ذلك الرجل ؟!

قال الملك : باعته !! ويلك !

فقص عليه طرفا من الحكاية ، وأمر بحبسه لما علم منه أنه أهداه لفتاة تعيش في مدينة الجبل الأعظم ، فأرسل الملك وراء شديد وأطلعه على الأمر وطلب من أحد أبنائه مرافقة الأمير شديد

وخادمه سعد إلى مدينة الجبل الأعظم لمقابلة تلك الفتاة ، ولما دخلوا تلك المدينة بعد أيام من المشي نحوها وجدوا المدينة مزدحمة بالناس ، فقيل لهم إن الملك يحتفل بزواج ابنه من فتاة فقيرة ولكنها جميلة ، وفوجئ القوم عندما علموا أن هذه الفتاة التي يحتفلون بقرانها على الأمير هي التي جاءوا يبحثون عنها ، وفيما هم في دهشتهم سمعوا صوتا عاليا يقول : موكب الأمير وعروسه جبنة يقترب من المكان !

فوقفوا ينظرون الموكب مع الناظرين ، وشاهدوا التاج الجميل فوق رأس العروس فاحتاروا فيما يفعلون وكيف يتصرفون ؟ ولما ابتعد الموكب نزلوا فندقا يتدبرون أمرهم ، وفي الصباح كان الشباب الثلاثة يقبعون في سجن ملك هذه المدينة، وازدادت حيرتهم أكثر فأكثر عندما علموا أنهم متهمون بسرقة التاج الجميل، والأفظع من ذلك متهمون بقتل ابن الملك .

قال الراوي أخبرنا جابر بن نادر فقال : الحكاية أيها السامعون إنه قبل أن يختم حفل الزفاف ، وقبل أن يقترب الموكب من قصر الملك ، هجم عدد كبير من الرجال يركبون الخيول مع أول دفعة من الظلام على الناس والموكب ، فداسوا الناس بسنابك الخيل حتى وصلوا عربة الأميرة وأميرها وأردوه قتيلا وزوجته ، وخطفوا التاج والجواهر التي تقلد بها عنقها ، وكذلك الجواهر الموجودة على صدر الأمير المقتول ، وهربوا قبل أن يفيق الناس من دهشتهم ، ولما علم الملك بذلك أمر بإغلاق أبواب المدينة والقبض على كل غريب ، وأمر بمطاردة اللصوص ولكن الليل البهيم مكنهم من الهرب والاختفاء ، فحزن الملك حزنا شديدا ، وأعلن الحزن والحداد في المدينة على ولده القتيل ، وبعد أيام ثلاثة كان شديد وسليمان وسعد يمثلون أمام الملك ، ولما علم أنهم أمراء وأحدهم ابن الملك فوزان ، وتأكد من ذلك من الخاتم الذي يلبسه الأمير سليمان ، عفا عنهم فخرجوا إلى مدينة التاج بعد ضياع التاج ، وذكروا للملك فوزان القصة، فأرسل وراء ابنه السجين واعلمه بما حصل للتاج ، وعن مقتل الفتاة التي أهداها التاج ، فتعهد أمام والده والأمراء بأن يبحث عن التاج ويرجعه لأمه بأسرع زمن ممكن ، فانطلق زيدان والتقى برجال عصابته ، فساروا نحو مدينة الجبل والتقوا ببعض رفاقهم في الكار ، فعلموا منهم أن جبنة بعد

أن تركها زيدان اتصلت بابن الملك وأخبرته بالتاج ، فطمع به فعرضت عليه الزواج ، وبعد الزواج تمنحه التاج الثمين ، فوافق بكل سرور وأثناء الاحتفال بالزواج هجمت عصابة كبيرة من اللصوص والمجرمين على موكبها فقتلوها وزوجها الأمير ، وسرقوا التاج الذي كان على رأسها وتدور به في شوارع المدينة واختفوا ، فأدرك زيدان أن الذين سرقوا التاج واغتالوا ابن الملك هم من رجاله الذين يعملون معه ؛ لأنهم كانوا قد غضبوا منه عندما وهبه لهذه المرأة اللعوب ، فبدأ يتعقب رجاله في القرى والأرياف إلى أن التقى بأحدهم في قرية ، فسألوه عن التاج فاعترف لهم أنه شارك في تلك الضربة ، وذكر لهم أن التاج وصل مدينة الأبراج وقال الرجل : إن دربان كما تذكر يا أمير غضب عندما حرم من حظه في التاج، واتفق مع مجموعة من اللصوص على أخذه من جبنة بعد تركك المدينة ، ولما انصرفت عائدا لبلادك هددها فأبت ولم ترضخ لتهديده بل هي هددته بك ، فاتصلت بعشيقها ابن الملك، وأطلعته على التاج ، وأقنعته بالزواج منها ، فازداد غضب صاحبنا دربان فقتلها في يوم فرحها وسرقوا تاجها وجواهرها وجواهر الأمير المصروع وباعوه في مدينة الأبراج لتاجر الذهب المعروف وئام ، ووزعوا الأموال بينهم هذا ما أخبروني به عندما أتوا هنا ، ودفعوا لي نصيبي من المغانم .



فجدوا السير نحو بلاد الأبراج وبعد ليال وصلوا إليها واجتمعوا بتاجر المجوهرات وئام المشهور بشراء الذهب والمجوهرات من اللصوص من أي البلاد أتوا، ولما اعلمه زيدان بسبب الزيارة قال : أصبح التاج عند حضرة الملك جعفر وإن جعفرا قد حبس كثيرا من اللصوص الذين كانوا مع دربان حتى يعود ولده سيف النهار من بلاد الأفيال .

وذكر التاجر قصة زواج نهر الأحلام من شاب يدعى شديدا من مدينة الأفيال بعد أن حقق لها مطالبها الثلاثة ، وأن والدها طلب منه تاج الأميرة سعدى ـ والدته لزيدان ـ ليبارك لهما الزواج فجاء به من عند الملك فوزان وتم الزواج ، ثم مكث شهر ونصف وغادرت الأميرة مع زوجها

نحو بلاده ومعهما التاج ، فقال التاجر : فلما أتانا اللصوص بالتاج استغربت وخفت أيضا أن يكونوا قد قتلوا الأميرة وزوجها .. فأنا قد رأيت التاج عندما أتى به الفارس شديد ، فأقسموا لي إنهم لم يقتلوا امرأة اسمها نهر الأحلام ، فقلت لا بد من إخبار الملك فقال دربان نحن لم نقتل الأميرة .. ولن نسمح لك بإخبار الملك قبل أن تعطينا ثمنه ، فاتفقنا على أن ادفع لهم حصة من ثمنه، ويبقى بعضهم حتى يتأكد الملك من حياة ابنته وادفع لهم باقي الثمن ، فأخذوا المال وبقي خمسة منهم للشهود أمام الملك ، وأخذ دربان المال وغادر المدينة سريعا ، ثم اطلعت الملك على ذلك بعد أن ضمنت حياة الرجال الخمسة ، فأحضرهم وقصوا عليه قصة التاج ، فأمر بحبسهم حتى يطمئن على حياة ابنته فأرسل ولده سيف النهار لمدينة الأفيال ليأتي بالخبر اليقين ، وقد سافر منذ أيام ويحتاج لشهرين من الأيام حتى يعود يا ابن فوزان الملك .

فقال زيدان : التاج الآن عند الملك جعفر بن عاد .. سأعود لمدينة التاج واجتمع بشديد هذا .. وقد نأتي معا.. فهو نزيل عندنا .. يبدو أنه فقد الأميرة والتاج .

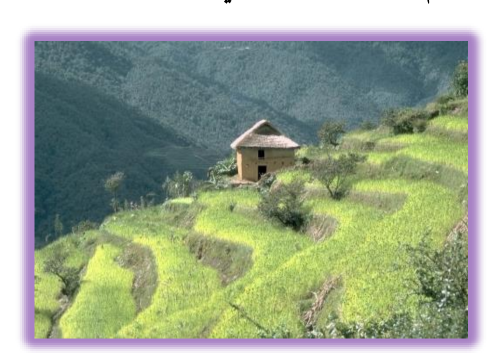
قال جابر بن نادر : عاد زيدان وصحبه لمدينة التاج ، وروى لوالده الملك قصة ذهاب التاج لمدينة الأبراج واستقراره في حضن الملك جعفر، فتعجب الملك

فوزان من ذلك ثم قال : ولدنا شديد ذهب لزيارة صاحبه همام وسوف يعود قريبا

ولما اطمئن الفارس شديد على صحة صديقه همام سار إلى مدينة التاج فاعلمه الملك بمصير التاج ، وأن الملك جعفرا أرسل ولده لمدينة الأفيال عاصمة الملك الجديدة لبلاد الأوهام ليبحث عن أخته الأميرة نهر الأحلام ، فقال معلقا بعد سماعه القصة : عجبا لهذا التاج أيها السلطان !.. لو لم يطلبه الملك ابن عاد مهرا لابنته ما جرت كل هذه الأحداث .. أفكر بمقابلة الملك جعفر واذكر له الحقيقة فما تقول أيها الملك ؟.

فابتسم الملك فوزان وبعد تفكير قال : أليس في ذلك خطر على شخصك أيها الفارس؟!.. فابنته الأميرة قد فقدت ، ولا خبر عنها منذ اختفت .. وكما قال زيدان اللعين فقد أرسل جعفر هذا ولده يسأل عنك فلابد أن يعود بمعرفة نسبك .. وهذا الآن ليس بمصلحتك .. فأرسل عبدك

سعدا إلى مدينة الأبراج ينتظر عودة سيف النهار، ويعرف ما عاد به من الأخبار، ثم تذهب للملك وتحدثه بهرب ابنته عندما عرفت نسبك .. وأنك ما زلت تبحث عنها في المدن والبلاد وأنك سمعت بأن التاج الذي كان معها وصل إليك وتقص عليه قصة همام من غير أن تعلمه بأنه كان آت به علينا .. فلو قلت إنه كان سائر به حيث مملكتكم فاعترضه اللصوص وهذا ما سيقوله له اللصوص السجناء إن سألهم عن ذلك ، سيعترفون بأنهم سرقوه ابتداء من الفارس همام .. وأنت فطن ذكي أيها الأمير الفارس ؟!



فقال شديد : حسن هذا .. سأسير سعدا لبلاد الأبراج ، وأسير إلى أخي همام وفرساني ، وبعد عودة سعد سأذهب للملك جعفر وأصارحه بالحقيقة لعله يعيد لي التاج وسيكون بين يديك بمشيئة رب العباد .

وودع شديد الملك والأمراء ، وانتقل للمكان الذي يعيش به همام وبعد أيام أرسل سعدا وسعيدا لمدينة الأبراج لسماع الأخبار وانتظار عودة الأمير سيف النهار من مدينة الأوهام ، وخلال هذا الزمن الذي مضى تحسنت صحة همام قليلا ، وأصبح بإمكانه المشي والحركة والجلوس على ظهر الحصان ، فأجمع أمرهم بعد عودة سعد وسعيد أن يرحل عدد منهم بالفارس همام إلى مدينة الأوهام .

قال الراوي : قال جابر بن نادر : فلنترك هؤلاء القوم بانتظار عودة العبدين من بلاد الأبراج ونرجع قليلا للوراء ، وأيضا في بلاد الأبراج حيث يتربع على حكم هذه البلاد الملك المعروف لكم جعفر بن عاد ، فعندما رأى الملك جعفر التاج اصفر وجهه واحمرت عيناه وانتفخت أوداجه، فلما سمع قول التاجر وئام أمر بإحضار اللصوص واستمع ما قالوه ، ثم أمر بحبسهم حتى يعود الأمير سيف النهار من بلاد الأفيال ، ويتأكد من حياة أخته نهر الأحلام ، وكان الملك في غاية القلق والخوف على مصرع الأميرة ، وينتظر مرور الأيام على أحر من الجمر واللظى ،

وبعد شهرين وأيام جاء سيف النهار وأصحابه الفرسان، ودخلوا على الملك المنتظر قبل أن يزيلوا وعثاء وغبار السفر وعلى الفور قال الأمير بعد التحية: الأميرة نهر الأحلام لم تصل مدينة الأفيال يا ملك الزمان !

فلما سمع الملك هذا الخبر هب واقفا عن عرش الملك، وقال بصوت أجش: ويلك ما قلت يا سيف النهار ؟!

فقال سيف : على رسلك يا مولاي! واهدأ حتى أستطيع الكلام.

فعاد جعفر إلى كرسي العرش وقال : تكلم أيها الفارس ؟

قال سيف : أيها الملك العظيم .. دخلت أنا والرجال مدينة الأفيال بدون قيل وقال ولا اعتراض من لصوص الليل .. وسألنا عن شديد زوج اختنا نهر الأحلام .. فوجدنا أن مدينة الأفيال تخضع لملك مدينة الأوهام .. الملك شداد بن هدير بن جرير .. الذي تذكره يا ملك الزمان ؟

فصفن الملك قليلا ثم قال : أليست هذه البلاد التي غزوناها منذ سنوات ودمرناها عن بكرة أبيها.. وأتينا بأمرائها بالذل والعار وصلبناهم بعد أن أذقناهم العذاب .

قال سيف النهار : أجل يا أبتاه !.. ولكننا كما تذكر لم نأسر الأبناء لذلك الملك، فلم يكونوا في المدينة أثناء تدميرها وحرقها .

فقال جعفر : اكمل أيها الفتى فقد زاد انقباض صدري على الأميرة نهر الأحلام .

فعاد سيف للكلام قائلا : أيها الملك لقد عاد الأبناء وأعادوا بناء مملكة الآباء، ونـقلوا عاصمة ملكهم لمدينة الأفيال .. كانت مدينة صغيرة عندما دمرنا تلك البلاد ونصب الأمير شداد ملكا عليهم .. فوجدنا أن الأمير شديدا هو أخ أصغر للملك شداد .

فصاح جعفر وهو يضع رأسه بين يديه : ويلك ماذا قلت يا سيف النهار ؟! رأسي تدور .. فهل قتلت نهر الأحلام ؟!

فقال سيف : لا تتعجل يا مولاي .. فالأمر غريب وعجيب! .. فلما عرفنا أن زوج اختنا ابن الملك هدير دخلنا على الملك شداد وعرفناه على أنفسنا.. فأحسن استقبالنا ورحب بنا وبين لنا

أن أخاه منذ ذهب لبلاد الأبراج ليتزوج الأميرة نهر الأحلام لم يعد لبلاد الأفيال .. وهو ما زال حي يرزق ..فهو بعدما حقق مطالب الأميرة الثلاثة قد ذهب للملك فوزان فاستعار منه التاج تاج الملكة سعدى على أمل أن يعيده له بعد انتهاء مراسم الزواج .. ولذلك ألزم الملك بأن يهب التاج للأميرة ليأخذه منها بعد الزواج ويعيده لصاحبته .

وقال سيف : وأخبرنا يا مولاي الملك شداد أنها بعدما تركا البلاد بأيام هربت الأميرة منه عندما علمت بأنه ابن الملك هدير .. وهو قد بحث وما زال يبحث عنها .. وأثناء خروجها من بلادنا كان التاج معه محتفظا به ، فأرسله مع أحد رجاله إلى الملك فوزان .. وفي أثناء الطريق تعرض له لصوص وسلبوا منه التاج وطعنوه بخنجر وظنوه ميتا .. ووصل التاج لمدينة الجبل الأعظم ، ثم عاد إلينا عن طريق اللصوص كما تعلم يا مولاي .. والفارس شديد ما زال يبحث عن الأميرة وعن التاج .. وبعد أن تأكدنا من صدق هذه الأخبار عدنا إليك بالخبر اليقين.. وقد علمنا من الملك شداد أن الأمير شديد ربما سيأتي إلينا رغبة بالحصول على التاج.

فقال جعفر : حكاية عجيبة أيها الأمراء !.. إذن فزوج الأميرة نهر الأحلام .. هو الأمير شديد بن هدير .. هذا قدر غريب وعجيب !.. ولكن أين اختفت الأميرة ؟! ولماذا هربت ؟! ولماذا لم ترجع إلينا ؟ هناك أسئلة كثيرة تدور في ذهني لا يوضحها إلا الأمير شديد .

استدعى الملك اللصوص الخمسة فاعترفوا له بقتل الرجل الذي كان يحمل التاج ، وأن زعيمهم هو ابن الملك فوزان الأمير زيدان .. ولما استولوا على التاج أهداه الأمير لعشيقة له في بلاد الجبل فغضب دربان وقتلها وأخذ التاج منها وجاءوا إلى هذه البلاد ليبيعوه للتاجر وئام، فاكتشف أنه تاج ابنة الملك ، فأخبر الملك بأمرهم، فأمر الملك جعفر بطردهم من البلد وحذرهم من المجيء إليها ثانية .

قال الراوي : أخبرنا جابر بن نادر: علم شديد بكثير من هذه الأخبار التي وصلت للملك جعفر ، فركب حصانه عادل البحر ، ودخل بلاد الأبراج ، ولما وصلها دخل على الملك جعفر الذي هو في شوق لحل جميع أسرار هذه الحكاية فقال : يا شديد .. تكلم من البداية للنهاية ولا

تخفي عنا شيئا فكثير من التفصيلات بين أيدينا ولكن بعض الفقرات مفقودة نحتاج لمعرفتها .

فقال شديد : أيها الملك العظيم بما أنك عرفت فصلي وأصلي فما عاد هناك أمر مخفي سأتكلم بكل الصراحة والصدق .. تعلم أيها الملك ما فعلت بنا وأهلنا وديارنا من القتل والدماء والجراح

فقطع جعفر الكلام قائلا : أنتم السبب كما تعلم أيها الفارس .. خطفتم فلذة كبدي وحبستم أولادي.. وأنت تعلم أن هذا عار كبير على ملك عظيم مثلي؛ فكان يجب الثأر والانتقام وهذا ما فعلته غير نادم .

فقال شديد : ولكن العفو والصفح عند الاقتدار من شيم الملوك .

فقال جعفر : ليس دائما .. ولكن هذا ما حصل اكمل قصتك ؟

قال شديد : بعد تلك الكارثة التي علمت هرب السكان خوفا من بطش الجنود ، وكنا من ضمن الهاربين في الشعاب والجبال أنا وأخي شدادا واختنا ورودا وكل ذي عمر من أولاد الأمراء والأقارب ، ولما خرجتم عدنا ونصبنا شدادا ملكا على البلاد والعباد ، وبدأنا نعمر ونبني من جديد ، وجاءت الأخبار بموت الملك هدير والأسرى فحزنّا أياما .. ولكن ليس أمامنا إلا الدعاء واللعن والصبر على مر الأيام إلى أن جاءت الأخبار بأخبار الأميرة نهر الأحلام ، فوقع في قلبي أن أفعل ما لم يحققه أبي من الزواج بابنة الملك جعفر .. وبعد جدال صعب ومر مع اخوتي رضخوا لي مع خوفهم الشديد عليّ من العبد الأسود ، وبعدم ضرورة هذا الزواج من عدونا .. المهم بعد أخذ ورد أقنعتهم بحسن الزواج من الأميرة نهر الأحلام ..ومن أهمها انهاء العداوة بيننا فيما بعد ونسيان جروح الماضي .. وقلت لهما متحديا إذا لم أحقق النصر على العبد فلن أكون من صناديد الفرسان والأبطال .. فجئت إلى بلادكم وكان معي همام فارس مثلي وصديقي وخادميّ سعد وسعيد وبعض الفرسان فنزلنا في قرية تبعد عنكم بضع ليال ، وجئت إليكم عارضا عليكم نفسي .. وقابلتك أيها الملك ، وحضرت الأميرة وأعادت عليّ مطالبها ، وقد وافقت على شرطكم وأنتم وافقتم على شرطي بأخذ الأميرة إلى أي مكان في الدنيا لظنكم أنني سأموت لصعوبة الحصول على تلك الأشياء .



فقال جعفر : ولكنك لما جئتنا نسبت نفسك لمدينة الأفيال وليس الأوهام ؟

قال شديد : نعم وهي عاصمة ملكنا الجديدة .. ولم أنتسب لمدينة الأوهام حتى لا تتذكروا تلك الذكريات وتحرموني من تحقيق حلمي عندما تعرفون أصلي وبلدي الأصلي .. وأنتم أيها الملك كنتم واثقين من سوء المصير الذي سألقاه في مدينة السدود ، وقد أكثرت من نصحي بالتخلي عن هذه المهمة ولو نسبت نفسي لوالدي فلربما قتلتموني أو تطرودنني شر طردة .. واعلم يا سيدي أن ملوك بلاد الأوهام كلهم ينحدرون من مدينة الأفيال عادة .. وذهبت إلى بلاد السودان ، وعملت عبدا وخادما حتى تمكنت من قتل العبد اللئيم بيدي هاتين ـ وأشار بيديه ـ ونصبت خادمي سعيد ملكا حتى قتلت السبع ، وكان همام قد عاش مع خيل ملك السودان حتى تمكنا من سرقة الحصان ، والخروج من بلاد السودان بسلام .. ولكنكم تفاجأتم بعودتي حيا ، فطلبت منا تاج الأميرة سعدى زوجة الملك فوزان لظنك أيضا بموتي ؛ ولأننا من أقارب الملك فوزان ألزمتك بوهب التاج للأميرة .. وسرت إلى تلك البلاد ، وأسررت بالأمر للملك فوزان ، وبعد تشاور مع زوجته أعارني التاج حتى أتمكن من تحقيق حلم والدي الذي قتل من أجله .

فقال جعفر : كيف يكون قريبكم فوزان هذا ؟

رد الأمير شديد : فأمه يا سيدي الملك خالة جدي من أبي ..فجئتكم بالتاج حيا على أمل أن آخذه من الأميرة بعد زواجنا .. وتم زواجنا كما تعلمون على خير ما يرام.. ومكثت بينكم أربعين يوما تزيد قليلا ، ثم استأذنت بالرحيل وقبل الرحيل عرفت الأميرة على نسبي وأهلي حتى تكون بالخيار إن شاءت سافرت وإن شاءت ظلت .. تغير لونها لأول الأمر ، ولم تتكلم ، وإن أبدت نفورا بعد ، ولما لم تحدثكم بالأمر علمت أنها راغبة بالخروج معنا لبلادنا .. وخرجنا بالتفصيل الذي تعلمونه ، ولما اقتربنا من القرية التي ينزل بها بعض رجالي استأذنتها بالذهاب إليهم وإعطائهم التاج ليوصلوه للملك فوزان .

قال جابر بن نادر : الأمير هنا لم يقل الحقيقة ، فهو كما يعلم السامعون أخذ التاج دون علم الأميرة ، وتابع الأمير كلامه قائلا : تركتها والعبدين وجاريتها وسرت بالتاج إلى أصحابي في قرية السعدة.. واعلم يا مولاي أنني لم ألحظ أن الأميرة تفكر بالهرب ، وظننت أن قلبها صفي من ناحيتي ؛ لأنه لا دخل لي بما فعله أبي سابقا .. أوصيت العبدين عليها ووصلت أصحابي ، وكلفت هماما بنقل التاج للملك فوزان ويعود لبلاد الأفيال ، وأخذت الرجال وسرنا حيث الأميرة لنتابع المسيرة نحو بلادنا ، فلم نجدها ومن معها ووجدنا بعض الأحمال فبحثنا عنهم هنا وهناك فلم نعثر لهم على أثر ، ولما لم نجد أثر عنف أو أثر غزاة فرسخ لدينا هربها ، فأرسلت خادمي إلى هنا يتشمم أخبارها لعلها رجعت إليكم ، فعاد بخفي حنين ، وفتشنا في القرى المجاورة فلم نصل لشيء ، ثم علمنا بمحاولة قتل همام قبل وصوله لبلاد التاج ، وصرنا نبحث عن التاج والأميرة ، ثم وجدنا صاحبنا هماما جريحا في إحدى القرى فاهتممنا به ، وقد سمع همام أثناء محاولة مصرعه اسم زيدان فسألنا الفلاحين عن هذا الاسم ، لا يعرفه أحد ، فزرت الملك فوزان وقصصت عليه حكاية التاج ، فظهر أن له ولدا يتزعم عصابة كبيرة من اللصوص وقطاع الطرق ، ولما قبض عليه اعترف بأنه استولى على تاج مع أحد الناس واشتبه عليه الأمر ، فلم يعرف أنه تاج أمه لعدم معرفته بخروج التاج من البلاد ؛ لأنني أخذت التاج من الملك خفية عن الناس .. وكان ذلك اللعين قبل القبض عليه يعرف امرأة غانية في بلاد الجبل الأعظم ، فأهداه لها فذهبت أنا وأخاه سليمان إليها فوجدناها تحتفل بزواجها من ابن ملك تلك المدينة ، فوصلنا البلدة يوم الاحتفال ، فقلنا نتكلم مع الملك بعد انتهاء الاحتفال ، فنزلنا في خان ، وكان زيدان اللعين بعمله هذا مع هذه المرأة اللعوب قد أغضب جماعته ، ففي يوم الفرح قتل اللصوص الفتاة وزوجها الأمير ، واستولوا على التاج والمجوهرات وهربوا من المدينة قبل زوال الليل ، وجاءوا ليبيعوه عند تاجر شهير عندكم .. فهذه قصتي يا ملك الزمان جعفر بن عاد .

وبعد صمت قال شديد : عرفنا أن التاج عندكم وأنكم قلقون على حياة ابنتكم .. فتأكد يا ملك الزمان أن ابنتكم حية ؛ ولكنها أرادت أن تختبر حبي الكبير لها وسأظل أبحث عنها لآخر

يوم في حياتي .. وأطمع منك يا ملك الزمان الملك المشهور بالكرم والجود والإقدام والشهامة سليل الملوك الكبار أن تهبني التاج لأعيده للملك فوزان .. وأنا سأبقى أسيركم حتى تظهر الأميرة نهر الأحلام .. وتتأكدون من حياتها وأنني لم أمسسها بسوء والله شهيد على ذلك .. .

وخيم الصمت على الحاضرين ديوان الملك ثم قال الملك : صدقت أيها الفارس .. ولكن أين ذهبت نهر الأحلام ؟

فقال شديد والأسف في عينيه : ما نزلت قرية أو مدينة أو بادية إلا سألنا عنها يا ملك الزمان! فهي قرة عيني التي جاهدت ملك السودان لأحظى بالقرب منها ومنكم .. وما كرهتها قط.. وما أتيت بلادكم منتقما ! .. بل أحبتها نفسي مع ما بيننا من دم .. وهل أجرؤ يا ملك الزمان أن أغدر بابنة الملك الكبير جعفر بن عاد ؟! .. نحن نقر أن والدنا أخطأ في حقك .. إنه كان يحب الزواج كثيرا من بنات الملوك ، بل استخطأه عدد من وزرائه ؛ ولكن الله غالب على أمره وأنا وجدتها مناسبة للمصالحة بين بلدينا ونسيان جروح الماضي .. نحن بإمكاننا قتل سيد كبير منكم ولكن كيف ننسى شدة انتقامكم رغم ما بيننا من مسافات ؟ .. وإذا أحببت قتلي يا ملك الزمان فدمي مهدور لك ؛ لكن عندي شعور كبير بأن الأميرة ستعود .. وافعل بي ما شئت وأنا أغفر لك دمي .

فقال الملك : بعد الكلام الشجاع الذي سمعته منك فأنت أصبحت مثل أبنائي.. وأنت فارس مقدام لا يفرط بك ، وما جرى بيننا من حروب عفا الله عما سلف ، وأنا مثلك أحس بأن الأميرة على قيد الحياة ، وأهلا بك وبفرسانك فأنتم ضيوف عندنا.



فأرسل شديد خادمه سعيدا يدعو من ظل من رجاله لضيافة الملك ، وبعد أيام دفع الملك جعفر التاج لشديد وهو يقول : أيها الفارس .. أنت تزوجت الأميرة عن جدارة وبسالة.. والأميرة غفر الله لها كانت غير محبة للرجال ، ولا الزواج.. فمن أجل ذلك وضعت تلك المطالب حتى لا تتزوج.. وحتى لا أظل ألح عليها بالزواج .. فتقدم بضعة شباب لها، ولم نعد نسمع أخبارهم ثم نسينا الأمر حتى ظهرت لنا .. وبذلنا جهدا لصرفك كما تعلم .. ولكنك أصررت على المسير لبلاد السدود وحققت ما لم نحلم به، فما كان أمامها إلا الرضوخ والاستسلام وكما قلت لي لما علمت من أنت؟ وابن من ؟ قررت الاختفاء من حياتنا ، فمنك لأنك ابن الرجل الذي تسبب بزواجها، ومنا حتى لا نرغمها على زوج جديد .. واعلم أيها الفارس أن بلاد برج الأبراج ترحب بك دائما والتاج وهبتك إياه وافعل أنت ما تريد .

نهض شديد وعانق الملك وقبل يديه وركبته وقال : أيها الملك العظيم!! .. تأكد بأنني سأستمر بالبحث والسؤال عنها .. وكل من يطرق مملكتنا سأسأله لعلي أعثر عليها .. وأنا مستأذن منك بالسفر لبلاد التاج لأرجع لهم هبتك .. وأحدثهم عن جودك وعدلك .. وإذا علمتم يا مولاي عنها شيئا لا تنسوا من إخبارنا .

وودع الأمير الملك ورجال حاشيته ، وانطلق بفرسانه وخادميه نحو بلاد التاج ، وفرح فوزان فرحا كبيرا بعودة تاج سعدى ، وعجب من كرم الملك جعفر ونخوته وتضحيته بالتاج رغم ضياع ابنته ، فأرسل وفدا كبيرا من رجاله لعقد معاهدة صلح أبدية بين البلدين بعدما رأى من جود جعفر الملك ، وشكر فوزان شديدا على وفائه وصدقه ، وعاد شديد لبلاد الأوهام ، وانشغل فوزان بالصلح مع بلاد برج الأبراج ، ودخل شديد بلاد الأوهام بعد غياب زاد عن ثلاث سنوات ، وبعد حين تزوج الأمير شديد من فتيات بلاده أخت للفارس همام ، أنجبت له البنين والبنات ، وأما همام الفارس فقد شفي من جرحه تماما وتزوج هو الآخر ، ولنتركهم ينعمون بملذات الدنيا ، ونعود لبطلة قصتنا الأميرة نهر الأحلام التي اختفت عن الأنظار في ذاك النهار .

غريب



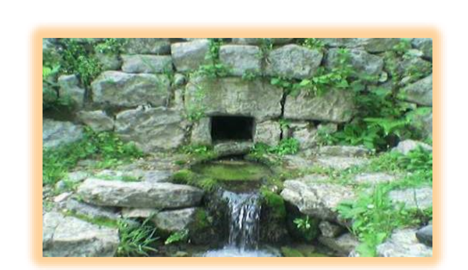
قال جابر بن نادر : أيها السادة الكرام القصة لم تنته بعد ما الذي حدث لنهر الأحلام عندما فارقت زوجها شديد بن هدير؟.. لما تركها الأمير سائرا لأصحابه في قرية السعدة افتقدت التاج الجميل ، فأحست بأن زوجها يريد أن يغدر بها وهذا أول الغدر ، فلقد أخذ التاج خفية والأمير كما تعلمون أخفى عنها الكثير من الحقائق وهي كانت تفكر بالهروب قبل اختفاء التاج وذلك عندما علمت من هم أهل شديد وعشيرته فغلب على ذهنها أن كل أفعاله هذه لينتقم منها عندما تصل بلاده ، فلما غادرهم الأمير ووجدت التاج مسروقا زادت شكوكها ، فأمرت عبديها بالاستعداد للهرب قبل عودة الفارس، وقام شهوان وعرفان بالتخفف من كثير من الأحمال وحملوا اللؤلؤ والذهب ، وأسرعوا هاربين مع طرق القوافل نحو البلاد الساحلية ، واختلطوا مع القوافل ، وبعد عشرة أيام نزلوا مدينة الساحل ، وهناك سكنوا دون أن يشعر أحد من الناس أنهم غرباء ، فتظاهروا أمام الجيران أنهم يرحلون من حي إلى حي آخر ، وأخفوا أمرهم عن الناس ؛ ولأن هذه المدينة قريبة من البحر ويدخلها التجار برا وبحرا صيفا وشتاء نهارا وليلا ، فلم يعرف أحد نهائيا أنهم هاربون ، وقد اشتروا بيتا واستقروا فيه ، وما كادوا يستريحون من سفرهم حتى مات الخادم عرفان ، فحزنوا عليه وواروه الثرى ، ثم اكتشفت الأميرة بعد شهر من الزمان بإنها حامل من زوجها شديد ، فبدأت تهيئ نفسها لاستقبال المولود الذي أهل بموعده فسمته غريبا ، ثم أنكحت جاريتها سلام من عبدها شهوان ، وبعد سنوات عرفت الأميرة حياة وعادات مدينة الساحل ، وعرفت بعض العائلات والأسر ، وتعرفت على تاجر كبير عن طريق عبدها شهوان فشاركته في التجارة فصار العبد شهوان يعمل بأموال الأميرة مع التاجر هشيم ، واهتمت الأميرة التي سمت نفسها بسلمى برعاية ولدها غريب الذي أحبته حبا كبيرا ، ولقد أنجبت جاريتها غلامين عامرا

وعمران ، وكانت الأميرة بعد سنوات من نجاح تجارتها تتصدق على الفقراء والمساكين ، وتهتم بهم وتحسن إليهم ، فكانت الأرامل والأيتام يحبون أم غريب ويحبون ابنها ويترددون على بيتها لنيل الاحسان ، وقد عرض بعضهم الزواج منها ، فاعتذرت لهم ، ورفضت بعضهم بشدة ، وتخبرهم أنها تبغض هذا الحديث ، فما عادت النساء تتحدث معها في مثل هذا الموضوع ، وكان أهل هذه المدينة أكثرهم متعلقين بالتجارة ، ويهتمون بها كثيرا أكثر من الصيد ، فتجدهم يتنقلون بين المدن بقوافلهم أو مراكبهم المائية ، فتجد صبيانهم يعملون بنقل الأحمال من البحر إلى البغال والدكاكين .

كبر غريب وعامر وعمران وأصبحوا فتيانا ، فأرسلتهم الأميرة إلى الفارس جربوعة ليعلمهم الفروسية والدفاع عن أنفسهم مقابل الأجر الكبير ، وجربوعة هذا لم يقصر معهم أي تقصير، فقد كانت الأميرة كريمة معه ، فكان هو الآخر كريما مع الأولاد في تدريبهم وتعليمهم الفروسية وآدابها ، وهذه أيضا مهنته تدريب الشباب على الطعن والضرب وركوب الخيل ، ولما أصبح غريب ابن عشرين سنة كان قد اكتمل تأهله ؛ ليكون فارسا قويا يستطيع ركوب الجواد والمسابقة عليه ومبارزة الفرسان ، فشكرت الأم المدرب جربوعة وأحسنت مكافأته ، وسمحت له أمه بمرافقة شهوان في مصاحبة القوافل ، وعندما كان شديد يسأل عن أبيه هل هو حي أم ميت ؟ تقول له : إنها لا تدري وسيأتي يوم وتذكر له من هو أبوه ؟ ومن هم قومه ؟ فيلزم الصمت ولا يريد أن يكره أمه على أمر لا تريده .

فكان من عادة أهل هذه البلدة أن يرافق عدد من الفرسان القوافل لحمايتها من قطاع الطرق واللصوص والزعران مقابل مبلغ من المال ثمنا لتلك السفرة ، وذلك يكون حسب مدة الرحلة التجارية ، فلما أصبح غريب فارسا من الفرسان عرض عليه المشاركة في حراسة قافلة من القوافل ، والعجيب أنها سائرة لمدينة الأبراج ، وكان غريب قد وافق على العرض قبل أن يخبر أمه بالعرض ، فلما علمت انزعجت واضطربت وعادت بها الذكريات إلى تلك الديار ، وكان عبدها شهوان يتجنب السفر لتلك البلاد خوفا من أن يرى أحد الخدم والمعارف فيفسد على

الأميرة هربها، وخصوصا بعد كل هذه السنوات الطوال ، ولخوف الأميرة من انكشاف أسرارها الدفينة لم تمانع وأظهرت الرضا ، وكذلك العبد شهوان لم يكن موجودا بل هو مسافر في رحلة تجارية ، ففرح غريب على موافقة أمه وسار مع القافلة مسرورا وكان رفيقه أيضا في هذه الرحلة عامر بن شهوان ، وظل عمران عند أمه وأم غريب سلمى ، وصلت القافلة الكبيرة بعد عشرة أيام مدينة الأبراج ، ونزلت الأحمال بالقرب من أكبر الأسواق ليبيعوا أحمالهم ويشتروا غيرها ، ومن ثم تعود القافلة إلى بلاد الساحل وبعضها يسير إلى مدن أخرى ، وخلال مدة التبادل ينزل قائد القافلة والفرسان في الفنادق والخانات ، وبعضهم يستأجر بيتا كبيرا يقضون به الأيام المطلوبة ، فلما أفرغت الأحمال استأجر التجار بيتا كبيرا لهم وللحراس إلا من شاء أن ينزل في الخانات ، وعليه أن يكون على اتصال بقائد القافلة ؛ ليعرف موعد الرحيل ، وفي الصباح انشغل التجار بالبيع والشراء ، وأخذ غريب رفيقه عامرا وساروا يتفرجون على مدينة الأبراج سيرا على الأقدام ، وكما هو معلوم فمدينة الأبراج مدينة كبيرة وعامرة وجميلة ، وقد قادتهم أقدامهم إلى بئر ماء كبيرة في طرف البرج الأوسط ، وكانت بين أشجار عالية ، وكانت مزدحمة بالنساء من فتيات وعجائز يملئن أوعيتهن لنقلها للبيوت ، فتعجب الشابان من هذا المشهد فقال غريب : أين الرجال ؟! .. كلهن نساء . . لنقترب منهن ونطلب السقيا ونسمع أصوات نساء هذه المدينة .



ولما هبطا نحو البئر نفرت الصبايا من هذين الرجلين فصاح غريب : نحن غريبان .. نرغب بشرب الماء .. المعذرة منكن .

فسمع صبية قد كانت تجلس على صخرة كالمقعد تحت ظل شجرة : أيها الغريب من أي البلاد أنت ؟

فنظر إليها غريب فإذا هي صبية حسناء فاتنة ذات صوت رخيم وتعجب من جرأتها فقال لها : نحن يا أمة الله من مدينة الساحل جئنا أمس مع قافلة حراسا لها.. وهذه أول مرة ندخل هذه

المدينة ، فأحببنا الفرجة عليها ، فقادتنا أقدامنا نحو هذه البئر .. فشاهدنا هذا العدد الكبير من النساء فدهشنا .

فقال الصبية الجالسة على الحجر : يا سلامة ـ جارية لها ـ اسق الشابين .. وهذه أيها الغريب عين الساحر .. ماؤها مبارك ، ويستشفي الناس المرضى من سقائها، ويأخذون للبيوت منها ليستعملوها في صناعة الدواء والطهي وللبركة .. وما معنى حارس قافلة أيها الغريب ؟

قد طرب غريب لسماع صوتها ، وخفق فؤاده الشاب لها وتمنى زواجها ، فشرح لها عمل حارس القافلة ، وكان قد تناول هذا الأثناء الماء من الجارية سلامة وأعطاه لرفيقه وقال : أيتها الحسناء هل هذا بئر خاص بالنساء ؟

فردت عليه بصوت عذب : نعم أيها الفارس .. ولو رآك رجل هنا قد تخسر حياتك أو تطرح في السجن .. فهذه البئر خاص بالنساء .

فابتسم غريب المسلوب اللب بالفتاة التي تكلمه : أمن أجل شربة ماء يعاقب الإنسان أيتها الحسناء ؟ وكان قد اقترب منها بعض خطوات وقال بصوت ضعيف: ألا يزوجون الغرباء في هذه المدينة ؟!

فقامت الأميرة وقد نظرت للصبايا من حولها ، وقبل أن تتكلم قالت إحدى النساء : أيها الغريب هذه أميرة التي تتحدث معك فانصرف قبل فوات الوقت .

فهتف غريب وعامر معا : أميرة !! ثم قال غريب : أميرة ! ولكنها جميلة وشجاعة .. شكرا لك أيتها الأميرة على شربة الماء .. هيا بنا أيها الصديق .

فمشت الأميرة نحوهم قليلا وقالت : تمهل أيها الشاب . والتصقت به وهمست : أين تنزل ؟

فقال : اسمي غريب ! ونسكن في بيت قرب السوق الكبير يقال لصاحبه أبي الصقر .

ثم رفعت صوتها وهي تقول : مع السلامة أيها الشاب .

غادر غريب المكان وهو عاشق ولهان، لقد خفق قلبه لهذه الفتاة الشجاعة فقال لعامر : أخشى أن أكون قد وقعت في هواها يا عامر!

فرد عامر باسما : بل وقعت في هواها وقوعا تاما .

فقال وهو يحلم : لقد جذبتني نظرات عينيها وبريقهما الآخاذ .. ولكنها أميرة .. وأمي كيف ترضى ؟! وكيف يرضى أهلها بي قبل ذلك ؟! وأنا المجهول النسب .. الوضيع الشرف .. آه يا صاحبي العزيز !

قال جابر : بعد منتصف الليل دخل المنزل ـ منزل أبي الصقر ـ عبد اسود يسأل عن غريب ، ثم همس بأذنه بكلمات ، ثم استأذن غريب من القوم ، ثم خرجا معا ، وتبعهما سرا عامر ، ومشى العبد بغريب إلى مكان معين فوجد الفتاة الأميرة ملثمة في انتظاره هي وجاريتها سلامة .. فرحبت به وقالت له بصراحة : أيها الشاب لا أدري ما الذي جذبني إليك .. ؟!

وقال مقاطعا : وأنا أيتها الحسناء حدث لي ما أصابك ! .. أول مرة تجذبني فتاة بهذه السرعة .. ولكن كيف الزواج منك ؟!

فقالت : تخطبني من أبي .

فقال : وكيف ذلك ؟!

فقالت : يا غريب .. أنا اسمي شمس النهار زدني معرفة بنفسك وعن بلدك وأهلك ؟.

فقال : أنا سمتني أمي غريبا ، ومن سكان مدينة الساحل ، ولدت فيها منذ عشرين سنة ، وترعرعت فيها وأصبحت فارسا .. وقولي إنني من عامة الناس .. فهذه بلادي يا شمس النهار ومن أنت يا أميرتي الحسناء ؟

فضحكت الأميرة وقالت : أنا الأميرة شمس النهار ابنة الأمير سيف النهار .. أي حفيدة الملك الشيخ جعفر بن عاد سلطان وسيد هذه البلاد .

فهمس بقلق وخوف : جدك الملك جعفر !! ويحك كيف سأتزوجك يا ابنة الملوك ؟ لمَ سخرت من هواي ؟!

قالت : لا تخف .. ألست تحبني ؟! فرغم زواجنا من الأغراب صعب سأساعدك أيها الشاب ؛ لكن عليك أن تعاهدني على الوفاء وألا تغدر بي .

فقال بسرعة ولهفة الولهان : ويلاه ! ..إنك تشترينني .. إنني أعاهدك على الوفاء حتى الموت، وأن أكون لك الزوج المحب المخلص ..صدقيني بداخلي عواطف لا أعلم كيف أعبر لك عنها لتثقي بصدق دقات قلبي ؟

فقالت : عرفت ذلك من نظراتك عند عين الساحر .. وأنا نفسي لا أدري كيف تعلق بك قلبي من أول وهلة؟! .. أهذا هو الحب ؟!.. والغرام .. لست أدري .. ؟ المهم أنني همت بك ورضيت بك قرينا..كم يوما تقضي في بلادنا هذه ؟

فكان الفتى كأنه يعيش في رؤية فقال : لا أعلم أيتها الأميرة .

فقالت : سأعود الآن للبيت ، وسأفكر بالأمر وسوف أرسل لك عبدي أو أمتي سلامة ثم نلتقي بهذا المكان وندبر أمرنا .

وودعته وانصرفت مع جاريتها وخادمها الذي كان ينتظر خارج المكان، وطلبت من العبد أن يذهب بغريب إلى حيث ينزل ، وكان عامر قد تابع هذا اللقاء العاطفي عن بعد ، ولما انصرفت الأميرة أسرع عامر إلى البيت سابقا صاحبه، فلما عاد غريب قص عليه ما جرى ، ولم يخف عنه شيئا فقال عامر : شأن غريب يا غريب !



وبعد أيام ثلاثة أخبرهم قائد القافلة بالتهيأ للرحيل مساء، فقد تم بيع البضائع وشراء غيرها فقال غريب : ويحكم بهذه السرعة .

فقال أحدهم : ما بك أيها الفارس لعلك تعلقت بإحدى النساء هنا ؟

نظر إليه غريب باستغراب وقال : ما تقول أيها الرجل ؟!

وتركه قبل أن يسمع الجواب باحثا عن عامر، فوجده يحزم الأمتعة التي اشتروها من أسواق المدينة استعدادا للعودة ، وكان قد جهز الخيل وتفقدها فقال غريب : ما العمل ؟ .. كيف سأخبر الأميرة بالسفر ؟ لن أسافر ، سأتأخر عن القافلة ليلة واحدة ، ثم ألحق بكم لعل عبدها

يأتيني الليلة .

فقال عامر : أيها الحبيب .. ماذا ستقول للرجال ؟ .. وأخشى أن يصيبك شأن من هذه الجارية أمك يا غريب ماذا سيحل بها إن أصابك ومسك مكروه وشر ؟ .. عد وشاورها في الأمر قبل الإقدام .. وقد لا يأتي العبد الليلة .

فقال غريب : سأنتظره لنصف الليل فإن لم يحضر سألحق بكم .

فقال عامر : حسن هذا .. لو كلمت أمير القافلة بشأن هذا التأخير .

فساروا نحو قائد القافلة ، واستأذنه بالتأخر عن القافلة هذه الليلة لأمر خاص وهام رتبه مع بعض الأهالي في المدينة ، فقال له القائد : قد تتأخر القافلة ليلة أيها الفارس .. فأحد التجار لم يجهز حمولته .. فقد نتأخر ليلة فاقض مصلحتك براحتك .

شكره الفارس وفرح فرحا كبيرا لهذا التأخير ، وجاءه العبد في الليل وأخذه للقاء الأميرة العاشقة في نفس المكان السابق ومعها جاريتها سلامة فقالت : مرحبا بالفارس غريب .. مالك متغير اللون ؟!

فقال : القافلة تريد أن تتحرك قبل أن نرتب أمرنا .. وكيف أترك قلبي هنا ؟

فقالت : متى ؟ فقال : غدا بمشيئة الرب .

صمتت قليلا وقالت : لا بأس أيها الغريب .. سافر مع القافلة ، وارجع وحدك أي من غير قافلة .. ولسوف أدبر حيلة نتزوج بها .

فطار غريب من السعادة مع القلق المخيم عليه من هذا الزواج المفاجىء وقال : كم أغيب ؟ الطريق تحتاج إلى عشرة أيام حتى نصل بلادنا .

فقالت : ارجع بعد شهر .. لا تتأخر .. فقد أهرب معك .. فحدثت أمي برغبتي بالزواج منك فرفضت واستفظعت الأمر .. بعد شهر ترد على عين الساحر خفية فسأكون أنا أو جاريتي بانتظارك .

وودعته الأميرة العاشقة وداعا كله أشواق وهوى ، وعاد غريب إلى المنزل ، وكله تفكير وتوتر

وعجب لهذا الهوى العاجل .

استقبلت سلمى ولدها الوحيد بشوق شديد ، وحمدت الله على سلامته ورجعته ، ولما سمعت قصة عشقه لابنة أخيها عجبت لتصاريف القدر ، واشتد عليها الأمر ، وحزنت وطفرت الدموع في عينيها ، مما أدهش غريب ، ونصحته بعدم التفكير بتلك الأميرة ، وأن يتزوج فتاة من أهل هذه البلدة ، فكرر مشاعره قائلا : يا أماه ! لا صبر لي عنها إنها سحرتني بحسنها وروعتها وإقدامها .. إنها تريد أن تهرب معي إلى هنا إن رفضني أهلها .

وبذلت الأم جهدا كبيرا لثنيه عن هذا الهوى ، ومضت الأيام وهما يتشاجران تارة ويصطلحان تارة أخرى ، ولما ظل عشرة أيام للموعد المضروب بينهما ودع أمه، وأخذ عامر معه وسار نحو بلاد الأبراج .



قال الراوي : وهذا كله للأمر المقدر من الله تعالى ، لم تصبر الأميرة نهر الأحلام على مخاطرة ولدها ، فأمرت شهوان بأن يدبر لها أمرها فقال لها : بعد يومين هناك قافلة سائرة لبلاد الأبراج فعليك بالسير معها ، وعمران سيكون معك يا مولاتي

فلنترك الأميرة تستعد للسفر إلى بلادها الأولى ومسقط رأسها لتحافظ على فلذة كبدها المتيم بابنة أخيها وهو لا يعلم ، ونتابع الفارس غريبا الذي وصل بلاد الأبراج ، فحل هو ورفيقه في أحد الخانات ، وحسب الاتفاق كان عليه مع العصر أن يزور أو يمر من ناحية عين الساحر لعل الأميرة تلمحه أو جاريتها ، وكانت الأميرة ترسل يوميا جاريتها عصرا للمكان المذكور وذات عصر صدف الجارية ، فملئت جرتها وتبعته حتى ابتعدا عن العين ، فتوقف لها فأخذت

منه مكان المبيت ، وفي الليل جاءه العبد وأخذه للقاء الأميرة العاشقة ، وكان لقاء جميلا بينهما ، وفرحت بمجيئه ، وتأكدت من قوة حبه وهواه نحوها ، وعرض عليها أن يتقدم لخطبتها من والدها فقالت له : الأمر صعب للغاية .. فلا حل لنا إلا الهرب خفية من هذه المدينة لبلدك ، وهناك نتزوج فجهز نفسك ، وسيرافقني خادمي وجاريتي سلامة .. غدا سنلتقي هنا لنضع خطة الاختفاء والخروج .

وافترقا على موعد ، وكان الأمير سيف النهار قد علم من زوجته أن ابنته تهوى شابا غريبا ومن عامة الناس ، فوضعها تحت المراقبة ، ومضت الأيام ولم ير ابنته تلتقي مع أحد ، والسبب هو مغادرة غريب كما تعلمون لبلاده ، ولكن قبل أن يتقرر وقت الهرب اطلع سيف على تصرفات ابنته مع رجل غريب ، فاخضع عبد شمس للتحقيق فاعترف لسيده بغرام الأميرة للشاب الغريب ، واعترف له أنهما يدبران للهرب ويستعدان لذلك ، فطلب منه سيف أن يستمر في دوره وأن يعلمه بليلة السفر ، شعرت الأميرة وربما تأكدت من انكشاف أمرها ؛ ولكن الهوى والصبابة غلبا عليها فلم تأخذ جانب الحكمة والحذر ، وأصرت على الهرب مع حبيبها ؛ لأنها كانت ترى من المستحيل رضا أهلها عن زواجهما ، فحددا ليلة الهروب ، فطلب غريب من صاحبه عامر أن يشتري حصانا ، وينتظرهم خارج أبواب البلدة إلى أن يلحقا به ، ونفذ عامر الأمر فاشترى حصانا للأميرة وجاريتها ، وخرج في النهار من الباب المتفق بينهم الخروج منه ، وفي الليلة المذكورة خرجت الأميرة بعد منتصف الليل كعادتها مع جاريتها وعبدها الذي أبلغ سيده بهذا الموعد ، والتقى غريب بهم بالقرب من مدخل المدينة ، وقبل أن يغادروا البوابة كان الفرسان يحيطون بهم ، فأسقط بأيديهم ، وكان سيف النهار على رأس الفرسان فصاح بابنته : ما الذي تفعلينه يا شمس؟! أتريدين الهرب مع هذا الإنسان الغريب ؟ أتريدين العار لنا ؟! .. أيها الفرسان خذوه للسجن وأتوني به صباحا .

قاد الأمير ابنته لقصره ، وعاقبها بشدة من بين صفع وضرب ، وأمر بحبسها في غرفة خاصة ، وانتشر الخبر في المدينة ، علم الناس أن ابنة ولي العهد حاولت الهروب من المدينة مع رجل غريب

وعلم عامر بمصير صاحبه فانطلق سريعا نحو مدينة الساحل ، فلقد أوصته أم غريب بأنهم إذا تعرضوا لأذى بمدينة الأبراج فعليه أن يعود ليخطرها، فهي قد ادعت أنها تعرف أميرا كبيرا في تلك البلدة يسكن في قصر الملك جعفر ، وفي الطريق التقى بالقافلة الآتية من بلاد الساحل ، ولما جلس مع الفرسان حماة القافلة أخبره أحدهم أن أخاه عمران مرافق للقافلة مع أم غريب، ففرح بذلك وأسرع للالتقاء بهم ، وكانت الأميرة رأت في منامها منذ أيام حلما مزعجا ، فلما قص عليها عامر القصة قالت لعمران هذه هي رؤياي يا عمران التي قبضت نفسي إذن علينا بالعجلة والانفصال عن القافلة اخبر أمير القافلة برغبتنا يا عمران .

اخبروا الأمير وأسرعوا مسرعين نحو المدينة قبل أن يصيب غريبا مكروه .



قال جابر بن نادر : أحضر الجند غريبا أمام سيف النهار ، فقام بصفعه والبصق عليه وتحقيره وقال له : ويلك!! ألم تعلم بأنها أميرة ؟! كيف تطاوعها يا حقير ..؟

فقال غريب بانكسار وحزن : غلبني الهوى يا سيدي ! فلم أعد أميز بين الليل والنهار .. افعل بي ما شئت ..وأرجوك أن تعفو عنها ولا تمسسها بسوء .

فصاح سيف النهار : ألا تعلم أن جريمتك هي التغرير بأميرة من الأميرات ومحاولة خطفها أيها الشاب الطائش ؟! أليس لك عقل ؟!.. سأترك أمرك للقاضي الذي سيقوم بتقديم رأسك للمشنقة .

فصاح غريب فيهم : ليس مهما .. افعلوا بي ما تشاءون ولكن حافظوا على حياة الأميرة .. أوقعوا بي كل عذاباتكم .. وكل حقدكم ..ولكن ارحموا الفتاة التي أسعدتني بضع ساعات .

فأمرهم الأمير بنقله للسجن وتسليمه للقاضي ، وعليهم أن يسرعوا ويعجلوا بالحكم ليكون عبرة للرعية كلها ، وقدموه للقاضي في نفس النهار ، وتمت محاكمته وقد اعترف بجريمته وأنه كان ينوي خطف الأميرة والهرب بها إلى بلاده ، فقضى عليه القاضي بالموت على هذه الجريمة

الكبرى ، وتأديبا لغيره من المغامرين والصعاليك، وحدد يوم التنفيذ ومكان التنفيذ في ساحة البرج الأوسط أمام العامة ليكون عبرة للمتطاولين على المقامات العليا ، لقد أدرك غريب أنه ارتكب جريمة كبرى في حق السلطان ؛ ولكن بعد فوات الأوان ، لقد كان في غفلة كبيرة.. فبكى على حاله .. وتذكر أمه سلمى وحزنها عليه .. وكم نصحته ووعته وأنها تعيش بحياته ، فكم قد يسبب لها من أسف وحزن وبكاء وربما تموت بموته ، وبكى كذلك على الأميرة شمس النهار التي باعت نفسها وسمعتها وغناها من أجل الحب الذي أصابهم ببلواه .. فكان يكثر من السوأل عنها ، فعلم منهم أنها محبوسة في قصر والدها الأمير سيف .

قال جابر بن نادر : علمنا أيها السادة الكرام أن الأميرة العاشقة توسلت لأبيها كثيرا بأن يعفو عن غريب ، وبينت له أنها هي التي أطمعته بها ، وأنها هي التي أقنعته بالهرب بها ، فذكر لها الأمير أن القاضي حكم عليه بالموت والصلب في ساحة ميدان البرج الأوسط ، ولا وقت للتراجع والصفح ، فأخبرت أباها إن مات غريب فستقتل نفسها ولا تبالي ، فقال لها الأمير مصرا على الحكم : افعلي بنفسك ما شئت سيموت سيموت ، ولا أستطيع نقض حكم القاضي وسأزوجك قريبا بعد نسيان هذه الفضيحة من أحد الفرسان يا حمقاء .

فصاحت وهي تبكي بكاء الثكالى : لن أتزوج سوى غريب ، ولسوف أقتل نفسي يا أبي إن مات هذا الرجل بسببي .

فغضب عليها سيف وقال وهو يخرج من غرفتها المحبوسة فيها غاضبا : لن آسف عليك أيتها الشقية .. فأنصحك أن تأكلي ما يقدم لك قبل أن أحرمك منه لتموتي جوعى .

علم الناس بيوم إعدام غريب الشاب الغريب الذي حاول الهرب بالأميرة شمس ابنة الأمير سيف النهار ، فلذلك هرع الخلق إلى ساحة البرج ليشاهدوا ذلك المنظر وهو منظر قتل غريب وبعد الظهيرة حضر الجنود وهم يحملون غريبا لساحة الإعدام ، ونصب عمود الصلب وصلب عليه الشاب ، واستعد الجلاد لطعنه بالرمح القاتل ، وأحاط الجند بعمود الصلب المنصوب على مصطبة عالية ، وجاء الأمير سيف النهار ومعه حاشيته وبعض فرسانه ، فجلسوا في مكان قريب

من منصة الموت ليشاهدوا هذا المنظر الرهيب ، ووقف أعوان القاضي قريبا من منصة الموت ، ولوح الجلاد برمحه في الهواء أمام الناس المحتشدين ، وهو يبدى استعداده للطعن ، وتقدم مندوب القاضي الذي كان يقف بين أعوان القاضي ليقرأ من منبر صغير بيان الحكم على غريب فقال : اسكتوا الجمهور .. اسكتوا الجمهور .

فهدأت الأصوات شيئا فشيئا فصاح مندوب القاضي : هذا الشاب المصلوب أمام عيونكم أيها الناس حكم عليه بالموت .. لماذا ؟ .. لأنه غرر بأميرة شريفة عفيفة وأراد خطفها والهرب بها .. أراد خطف حفيدة الملك جعفر بن عاد .. فحكم عليه مولانا القاضي بالموت أمام العامة ليكون عبرة وعظة لكل من يفكر ويدبر ويسيء لبنات الأمراء والسادات .

ثم تلا نص حكم القاضي بإعدام غريب ، ثم نزل عن منبره ، وتقدم نحو الشاب المصلوب وقال له : هل من رغبة ترجوها قبل الموت .

فطلب شربة ماء ، فلما شربها صاح : أيها الناس .. فقط ارحموا الأميرة شمس النهار من بعدي وداعا يا شمس النهار وداعا يا شمس النهار ..

ابتعد نائب القاضي عن منصة الإعدام ، وقبل أن يتقدم الجلاد لطعن المصلوب دخلت الساحة امرأة كاشفة عن شعرها وهي على ظهر جواد تصيح : أيها الجلاد توقف .. لا تقتل الأمير غريب بن الأميرة نهر الأحلام .. فأنا الأميرة نهر الأحلام ابنة الملك جعفر وهذه المصلوب حفيد جعفر توقف الجلاد عن طعن المصلوب في صدره ، وهب سيف النهار والأمراء واقفين ينظرون للمرأة التي تصيح بأعلى صوتها وهي تقترب من منصة الموت ورمت نفسها عن الجواد وهي تصرخ : ولدي ولدي ولدي حبيبي !

ارتفع الهرج والصياح في الساحة ، واقترب الأمير سيف النهار من المرأة التي سمعها تذكر اسم نهر الأحلام .. ولما أصبحا وجها لوجه صاح الأمير : نهر الأحلام .. نهر الأحلام !.

اقتربت الأميرة من عمود الصلب وهي تولول وتصيح : ولدي حبيبي ! . . جاءت أمك يا غريب .. حلوه أيها الجنود .

فصاح الأمير سيف المذهول بالجند : حلوا هذا المصلوب .. ألم تسمعوا أمر الأميرة.. أختاه واحتضن الأخ أخته وهو يردد: نهر الأحلام !.. نهر الأحلام !.. أما زلت على قيد الحياة .. هذا ابنك يا نهر الأحلام ! .. أنا خاله .. يا ويلاه لو قتل يا نهر الأحلام !

حل وثاق غريب المندهش مما يجري ، واحتضن أماه وهو يبكي ويقول : أماه !.. أماه ! .. ما الذي سمعته منك ؟!

فقالت وهي تعانقه : ستـعرف كل شيء يا حبيبي .. الملك العظيم جعفر هو جدك ! .. وهذا خالك !

فهمس حالما : شمس ابنة خالي .. الله .. الله !!

تعانق سيف مع ابن أخته ، وهو يقول : كدت أن اقتل ابن أختي .. يا ويلاه!.. لو تأخرت أمك قليلا لقضيت عمري حسرة عليها .. سآمر القاضي إذا حكم على إنسان بالموت أن ينفذ فيه الحكم بعد سنة ؛ لأنه قد يجد جديد بعد الإعدام فنندم حيث لا ينفع الندم .

اندهش الناس لهذا المشهد العجيب ، فهم بين باك وبين ضاحك .. فهذا الفارس الذي كانوا ينتظرون موته هو حفيد الملك جعفر من ابنته نهر الأحلام المختفية منذ ما يزيد عن عشرين سنة تذكر القدامى منهم ما جرى من اختطاف نهر الأحلام قبل ما يزيد عن ربع قرن من ملك بلاد الأوهام ، وها هو حفيده كاد أن يخطف ابنة الأمير سيف .. أعاجيب .. أعاجيب هذه الدنيا .. فكنت ترى الناس مجهشين بالبكاء وسيف يقول : أنت ابن أختي .. أنت ابن أختي !

وسلم الأمراء على الأميرة ، وتقدم عامر وعمران وعانقا الأمير غريب وهما أيضا مندهشان مما عرفا ، وانتشر الخبر في المدينة حتى وصل للملك جعفر وحتى الأميرة شمس النهار نقل بعضهم لها هذه المفاجأة فتعجبت من الأقدار ، واستقبل الملك الأميرة نهر الأحلام واحتضنها وهو يبكي أشد البكاء وهي تبكي مثله وتقول : العفو يا أبي .. العفو يا أبي .

ارتفع نحيبهم وقال الملك من بين دموعه : عشرون عاما يا نهر الأحلام تبتعدين عنا .. عشرون عاما يا أميرة الأبراج .. أوه الأيام تعبر بنا سريعا .. كدت أن تسقينا حسرة ابنك يا قرة العين

هذا ولدك يا ابنتي .

تقدم غريب واحتضن الملك جعفر بن عاد بذاته وهو في استغراب شديد ، ثم قبل يديه والدموع تنساب على خديه مثلهم ويقول : العفو يا جداه !

وارتفع البكاء من جديد ، وتساقطت الدموع المحبوسة ، وارتفع النشيج وهمس جعفر : الحمد لله أن رأيتك يا نهر الأحلام قبل موتي ..كنت أخشى الموت قبل أن أعرف بأنك حية أم أكلتك الوحوش .. هذا ولدك يا نهر الأحلام .. إنه قوي البدن ويشبه أباه شديدا .. هذا ابن أختك يا سيف النهار .. أين شمس النهار ؟ .. التي أتتنا بالسعادة بعد أن ذقنا منها كأس العار .. يا لها من دنيا عجيبة ! ولو لم يحدث هذا العشق ما رأينا الأميرة نهر الأحلام .. أين ابنتك يا أمير ؟ .. ألا تريد أن تحضرها لترى عمتها وزوجها الحبيب وابن عمتها .

قال سيف : هي في الطريق يا أبي .

جاءت الأميرة شمس النهار والأميرات والأمراء وأبناؤهم ليسلموا على الأميرة نهر الأحلام وولدها غريب ، فهم يسمعون اسمها وقصتها منذ سنوات .. وها هي الأميرة بشحمها وعظمها تظهر على الحياة من جديد .

قال الراوي : كان يوما مشهودا في مدينة الأبراج ، وأعلن الملك العجوز جعفر الأفراح سبعة أيام لعودة الأميرة ، فعمت الأفراح في القصور والساحات الكبيرة وتم مد بسط الأكل والشراب لأهل المدينة ، وأرسل جعفر الملك رسولا لبلاد الأوهام ليخبرهم بعودة الأميرة بعد طول اختفاء ، وعرف غريب الحكاية وعرف جعفر والأمراء الحكاية ، فذهب عامر وعمران لبلاد الساحل لإحضار والديهم وأموالهم ، وربما كان أكثر الناس فرحا في المدينة الأميرة شمس التي شكرت الله شكرا عظيما على تدبيره الحكيم ، وحمدت الله حمدا كبيرا على نجاة فارسها المحبوب ، وكانت تقضي نهارها مع عمتها نهر الأحلام تسمع منها قصة حياتها الغريبة ، وتقرر أن يكون زفاف الأميرين عند وصول الأمير شديد من بلاد الأفيال .

ولم يطل الانتظار فلم يكد يصل إليه الرسول ويهمس بأذنه القصة ، فيأخذ الرسالة ويصعد بها



إلى أخيه الملك شداد ، وتجهز الأمير خلال ساعات هو وحاشيته وفرسانه وأبناؤه الثلاثة زيد وزياد وزيادة وابنتاه هند ووعد ليتعرفوا على أخيهم وزوجة أبيهم الأميرة نهر الأحلام ، وكان اللقاء دافئا وحارا بالقبلات البريئة بين الجميع ، وهمس شديد بصوت مبحوح وهو يسلم على الأميرة نهر الأحلام : ما الذي جرى بيننا لتهربي منا ويصيبنا هذا العذاب كل هذه السنوات .. ولكنه أمر الله، وكان قدرا مقدورا سلام عليك أيتها الأميرة العزيزة .. أين ولدنا غريب ؟! .. عشرون سنة أيتها الأميرة وهو لا يعرف أهله وقومه ! .

وبعد العتاب والترحاب والتعارف بين الأولاد ، وفرح الجميع بهذا اللقاء، وسروا جميعا بزواج الأمير غريب بن شديد من الأميرة شمس النهار بنت الأمير سيف النهار ، وكان عرسا تغمره السعادة والحبور، وقد اجتمع الأحباب بعد غياب، وفرح الملك جعفر بزواج حفيديه ، وطلب من شديد البقاء عنده عندما استأذنه بالسفر لبلاده ، فاعتذر الأمير بأدب جم ، وطلب من الأميرة نهر الأحلام السير معه لتعيش في كنفه زوجة معززة مكرمة حبيبة أميرة سعيدة ، فاعتذرت الأميرة له بأدب كبير ، وقالت له : ما زلت لك زوجة أيها الأمير الفارس ذو القلب الكبير الشجاع .. ولكني سأبقى بجوار والدي الحبيب وولدي غريب إذا أذنت له بالبقاء بجواري .. وصمتت قليلا ثم أردفت قائلة : زوجي الحبيب .. آخي سيف الليل عنده شاب كريم جميل يرغب بالزواج من ابنتك الكبرى الرائعة الأدب والحسن هند .. فلقد رأها وأعجبته وقال لي : يا عمتي لو كلمتك زوجك الأمير بشأنها .. وها أنا كلمتك يا زوجي .

ضحك شديد وقال : على الرحب والسعة أيها السادة فلسوف أجهزها وأرسلها لكم .

فقال الملك جعفر : جهازها عليّ أيها الأمير .. وسأزور بلادكم ونخطبها منك ومن عمها الملك شداد ونعود بها إلى بلادنا .. وإذا رغب أبناؤك الآخرون بالزواج من بناتنا فنحن نرحب بهذا .

فضحك الأمير شديد وقال : هم صغار أيها الملك العظيم ! واعلم أن بلاد الأفيال كلها ترحب بك زائرا لها وضيفا كبيرا يحل في ربوعها .. ونحن في انتظار قدومكم لبلدنا العزيز يا ملك

الزمان .

وودع الأمير شديد الملك جعفرا والأمراء وزوجته نهر الأحلام وولده غريبا وسار وحاشيته نحو ديارهم ، ولما تهيأ الملك جعفر للسفر تحركوا ، فقد تجهز ألف فارس لصحبته وعدد كبير من الأمراء والأميرات والأحمال ، ونصب سيف النهار ملكا على البلد لحين عودة أبيه من بلاد الأوهام ، وسار بهم جعفر حتى حطوا رحالهم في بلاد الأوهام ، وكان الملك شداد وكبار قومه قد خرجوا يستقبلون الضيوف قبل دخلوهم المدينة ، ولما التقى الفريقان تعانقوا وتصافحوا ، وذبحت لهم الأغنام ، وبعد الاستقبال الكبير هموا بدخول المدينة بسلام ، وقد وقف الملك جعفر يريد أن يضع قدمه في ركاب الجواد ليصعد عليه وحوله الأمراء والفرسان فقبل أن يصعد قال وهو ينظر يمينا وشمالا : أيها السادة قبل أكثر من خمس وعشرين سنة دخلت هذه الأمارة غازيا محاربا ناقما .. وها أنا اليوم أريد أن أدخلها محبا مسالما خاطبا لابن ولدي سيف الليل .. أليست هذه دنيا عجيبة ؟! لا حب فيها يدوم .. ولا بغض فيها يدوم .. سلام عليك يا دنيا !

فهمهم السامعون : بلى .. بلى .

ورفع الملك الشيخ رجله ليضعها في الركاب ليعتلي ظهر الجواد ؛ ولكنه تزحلق لم تدخل قدمه ركاب الجواد فوقع على الأرض ، فهجم عليه الأمراء ليرفعوه ولكنه قد فارق الحياة فمات ، مات أخيرا الملك جعفر بن عاد قبل دخوله مدينة الأوهام .

تمت بحمد الله

قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

الأميرة نهر الأحلام



الملك جعفر ملك من كبار ملوك ذلك العهد

ولديه جند أقوياء

خطفت ابنته نهر الأحلام

فشن حربا شرسة وقتل الخاطف ودمر بلاده

ثم استطاع ابن الخاطف القتيل الزواج منها

فلما علمت الحقيقة هربت واختفت في ارض الواسعة

وكانت حاملا فولدت غريبا

وحكم عليه بالموت في مسقط راسها

فاضطرت للظهور وإنقاذه

فهذه قصة الأميرة نهر الأحلام


الفوارس
زهلول في أرض الجآن
جمال شاهين
منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات الفوارس

٦

جمال شاهين

١٩٩٤

زهلول في أرض الجآن

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤



جمال شاهين

زهلول في أرض الجآن


فصول
في
أمر الجان

الفتى زهلول

أكثر سكان بلاد الماء فقراء ، وهي بلاد مزدحمة بالبشر ، وكان يحكم هذه البلاد حاكم طاغية جبار ، لا يفكر في إسعاد رعيته وشعبه ، كان همه الأول التمتع بالشهوات والموبقات، وهمه الثاني المحافظة على تاجه من الهلاك ، فهو لا يفكر بإغناء رعيته وتدبير أمورها ، ومراعاة أحوالها والبحث عن إسعادها ، في هذه البلاد بدأت حكاية الفتى زهلول ، وزهلول هذا غلام قد ماتت أمه وتركته في حضن أبيه ، وعمره عشر سنوات ، وله أخت تكبره بسنوات ، وكان والده من أفقر الناس في بلاد الماء ، لا يملك قوت يومه، ورغم ذلك فهو يبحث عن اللهو والخمر والميسر، ويمارس الرذائل والفواحش باستهتار فلا رادع من دين أو مكارم أخلاق أو حاكم يمنعه .

وكان هذا الغلام يعيش عند هذا الرجل الفاجر ، فلذلك كان زهلول يتنقل من بيت لآخر متسولا لقمة قوت يسد بها رمقه وجوعه ، وأخته تفعل مثله ، والأب غير مكترث ومهتم بذريته وذات يوم عاد الغلام للبيت الحقير ، فوجد فيه امرأة ذات شكل قبيح ومخيف ، فسأل والده عنها فصرخ في وجه : يا منحوس ! قم قبل يد امرأة أبيك .. هذه أمك الجديدة .

فنفذ الفتى المنحوس الأمر ، وأخذ جانبا من البيت ، وظل فيه يبكي حتى الصباح عندما سمع زوج أبيه تصيح فيه، وهي ترفسه بقدمها قائلة بصوت غليظ: أيها الأحمق! أما زلت نائما ، والناس قد ذهبوا إلى أعمالهم .. اخرج وابحث عن رزقك ، ولا تعد للبيت إلا بدينار وإلا طردتك شر طردة وإلى الأبد ، ودفعته بقدمها ثانية ، فنهض مسرعا ، وقد عاد إليها في الليل ، وقد تسول دينارا ، فأخذته منه ، وأعطته كسرة خبز يابس ، وفعلت أخته تينة مثله ، وإذا احتج زهلول على الطعام والعيش ، أو اشتكى لأبيه من ظلم زوجته ، يأكل عددا من العصي والرفس والبصاق ، فرضي الفتى بالذل والهوان والخنوع .

وكان والده دائما بجانب أمه الجديدة ، فكره زهلول هذه الدنيا ، وبدأ يفكر بالهرب في هذه الدنيا ولكنه يحزن على أخته أن يتركها وحيدة تقارع زوج أبيه ، فيصبر ويحتمل البقاء تحت جناح زوج أبيه إلى أن جاء يوم ، فعندما رجع الفتى ليلا وجد رجلا غريبا يجلس مع العائلة ، فلما سأل عنه

أخبر أن هذا الرجل زوج لأخته تينة فسكت ، وبعد أيام تزوجت أخته ذلك الرجل ، وانتقلت لبيت جديد ، فرح زهلول لزواجها وتخلصها من زوجة أبيه جرادة ، وذات ليلة عاد زهلول للبيت وقد فقد الدينار ، فلم تصدقه جرادة ، وانهالت عليه بالضرب والصفع والبصاق والشتم حتى حضر والده من لهوه وعبثه ، فشاركها في ضربه وتحقيره ، وطرده من البيت ، فخرج هائما على وجهه لا يدري أين يبيت ليلته ؟ فانطلق هاربا إلى غابة الجن ليتخلص من شقائه وتعاسته ووصلها مع نصف الليل ، وهو منهك القوى من الضرب والمشي ، وسار فيها حتى جلس تحت شجرة ونام من شدة التعب والجوع والإرهاق .

قبل الفجر بقليل حضرت مجموعة من الجنيات ، بينهن جنية جميلة تلبس ثيابا زرقاء مخالفة لثياب وملابس الجنيات الأخريات، وكان معهن غلمانهن، فأشعل بعض الغلمان الفوانيس المختلفة الألوان ، وعلقوها على أفنان الشجرة التي ينام تحتها زهلول الغلبان ، وقاموا بترتيب المقاعد الذهبية التي ستجلس عليها الجنيات، فاصطدم أحد الغلمان بجثة زهلول المتكوم فوق بعضه البعض ليدفئ جسده ، فصاح يقول إنسان! فسمعته المرأة ذات الثوب الأزرق ، فاقتربت منه وهي تقول : إنسان في غابة الجن!! .. لا تلمسوه .. تمهلوا .. إنه نائم دعوه غلام يبدو عليه الإرهاق الشديد .

وجلست الجنيات على مقاعدهن ، وأخذن في الحديث والسمر، وكل منهن تتحدث عن بلدها وأهلها وأحلامها ، وجاء الغلمان بالطعام والشراب ، فأكلن وشربن وعدن للحديث عن أخبارهن وحكايتهن وأزواجهن وعشاقهن ونوادرهن ، وقد استيقظ زهلول على أصوات ضحكهن ومرحهن ، ففتح طرف عينيه فظن أنه في حلم ، فبحلق بعينيه وتطلع يمينا وشمالا ، فتأكد له أنه في يقظة ، ثم سمع إحداهن تقول للمرأة صاحبة الثوب الأزرق : يا زمردة ما أخبارك ؟ أراك لا تتحدثين كثيرا ؟!

فنظرت الصبايا لزمردة ليسمعن جوابها ، فابتسمت لهنّ وقالت :إنني أحب الاستماع منكن يا صديقاتي الغاليات .

فقالت واحدة منهنّ : لقد تكلمنا كلنا عما جرى معنا في سنة مضت ، ولم نسمع منك شيئا يا أميرة زمردة .

وبعد إلحاح شديد من الصبايا قالت زمردة : سأقول لكنّ يا عزيزاتي الأميرات ، لي ابن عم لا أحبه ؛ ولكن أبي الملك يحبه كثيرا ، وهو والحق أقول فارس عنيد وبطل مغوار ، له دوره في المعارك والأحوال ، وقد خطبني هذا الفارس ـ وهو ابن عم لي كما قلت ـ من والدي الملك منذ شهور ، ولما حدثني أبي بذلك رفضته واعتذرت ؛ ولكن أبي يصر على الأمر، ومع هذا فهو لا يريد إرغامي واجباري ، وما زال الأمر والعرض ساريا ، هذه حكايتي ولا جديد عندي .

فقالت واحدة منهن : ولماذا لا تقبلين به ؟!

ابتسمت زمردة وقالت : رغم شجاعته وقوته إنني كرهته ، فقد خطب فتاة قبلي ؛ ولكنها هربت منه ، واختفت من مملكتنا ، فطلبني فنفرت منه ولم أهواه ، ومن أجل ذلك لا أرغب به زوجا .

وفي هذه اللحظات اقترب منهن أحد الغلمان فقال : أيتها الأميرات اقترب شروق الشمس ألا تردن العودة إلى منازلكنّ ؟

فقال زمردة : بلى .. ألم يستيقظ الإنسي بعد أيها الغلام؟ ..أيقظوه ؛ لنسمع حكايته وما الذي رمى به على غابة الجن ؟!

فذهب الغلام حيث يتكوم زهلول وهزه موقظا له ، وكان زهلول يسمع ما يقولون ، وأدرك أنهم يعلمون بوجوده ، فتظاهر بالنوم ، ولما حركه الغلام الجني تظاهر بالاستيقاظ ، فقال : أين أنا ؟! من أنت ؟! .. من أنتم ؟! وفرك عينيه فسمع الغلام يقول : تعال .. كلم الأميرة .

ولحق زهلول بالجني ، وثيابه الرثة والقذرة وشعره المنفوش وعيونه الحمراء من البكاء والحزن دالة عليه وعلى بؤسه ، حتى وقف بين يدي الأميرات .. فقالت له زمردة : أيها الغلام ما قصتك ؟!

فقال : أنا جائع أيها الناس ؟

فقالت زمردة وابتسامة رسمت على وجهها : نحن جن أيها الإنسي.. هاتوا له ما فضل من

الطعام ، وحدثنا بقصتك وأنت تأكل ، فنحن في عجلة من أمرنا وعلى انصراف عاجل .

فروى لهن قصته ، فأشفقت عليه زمردة ثم قالت : نحن نأتي هذا المكان كل سنة مرة أيها الغلام الشقي ! لنتسامر ، وقد اجتمعنا من أقطار الدنيا.. وهذه غابة لا يدخلها إلا الجن ؛ ولكن يبدو أنك محظوظ ومحفوظ ، وأنا قد أحضرت معي كيس الطعام السحري، وسأهبه لك لحزني وعطفي وشفقتي عليك .. فيا زهلول المسكين! إذا احتجت لطعام في رحلتك في هذه الدنيا فافتحه وقل بسم الله أريد صنف الطعام كذا .. أي طعام تشتهه، ومد يدك في الكيس وتناوله فسيكون لك ما طلبت ..احفظه جيدا من اللصوص والمحتالين ومن الضياع وداعا أيها الغلام هيا أيتها الجنيات الرفيقات .

واختفين مع بزوغ الشمس عندما ألقت نورها على الأرض ، ونظر زهلول للكيس الصغير الذي وهبته له الجنية زمردة ، وفرح به عندما جربه ، وقال وكله سرور : الآن اجتاز هذه الغابة وأنا مطمئن على أكلي وشربي ، سأمشي في هذه الدنيا لعلي أجد في بلد ما خيرا من بلدي واسكنها لن أعود لبلدي التعيس إلا وأنا من أثرى الناس .



كيس الفتى زهلول

ظل زهلول يمشي على قدميه المنهكتين من التعب حتى خرج من الغابة الضخمة مع غروب الشمس لطولها وكثرة أشجارها وأغصانها المتشابكة ، ولما غربت الشمس وبدأ دخول الليل كان يدخل قرية من القرى القريبة من غابة الجن ، واسنمر يمشي حتى رأى نور فانوس من أحد البيوت، فمشى إليه حتى انتهى إليه، فقرع الباب ، فسمع صوتا يقول : من الذي يطرق الباب؟

فصاح زهلول : أنا زهلول غريب يا صاحب الدار! ففتح القروي العجوز باب بيته ، وهو يقول : مرحبا بالغريب .. يا بني ما الذي جاء بك إلى هنا؟!

وادخله القروي البيت وهو يقول: يا ولدي! لا أدري ما أضيفك به ، فأنا رجل فقير طعامي ضئيل؛ ولكن سوف استعين بأبنائي، وأطلب منهم طعاما لك، لعلهم يشفقون عليك يا غلام

فرد زهلول بسرعة: لا أريد طعاما أيها الشيخ الكبير! فقط أريد المبيت عندك للصباح ؛ لأتابع مسيري في هذه الدنيا ؛ ولسوف أكرمك الليلة بطعام لم تذق له مثيلا لا أنت ولا أولادك .

فقال الشيخ القروي متعجبا ومتلهفا: أمعك طعام أيها الفتى ؟ أين هو؟! إني لا أرى في يديك شيئا .. فحتى ثيابك تدل على أنك تعيس مثلي .

تبسم الفتى زهلول وقال : لا بأس أيها الشيخ ! لا تنظر لثيابي الممزقة القذرة .. فلسوف تفرح الليلة فرحا تحدث به كل الجيران ، فلسوف تأكل طعام ملكات الجآن ، طعاما لم تأكل مثله في حياتك الماضية قط .

فقال الشيخ المذهول بما يسمع : فتحت شهيتي يا غلام!.. هل أنت ساحر لتجلب لنا الطعام الذي تصف؟!

فقال زهلول المسرور بما يقول ويعرض : أيها الشيخ ! .. استدعي أولادك وزوجتك لنأكل معا وعلى بركة الله .. أنا لا أسخر بك أيها الشيخ الكبير!..افعل ما أقول لك ، وسأجزيك مقابل فتحك لي الباب وسماحك لي بالمبيت في بيتك أيها الشيخ .

فنادى القروي الكبير زوجته وأولاده الذين يسكنون بجواره ، فجاءوا هم وزوجاتهم

وأولادهم ملبين مسرعين ، فاجتمع في بيت الشيخ أكثر من عشرين نفرا ، فلما علموا الأمر ، قال أحدهم وهو يحدق النظر على زهلول وثيابه البالية: ألهذا الغلام دعوتنا يا عجوز السوء؟! من أين له بالطعام ؟ وأجزم أن ثيابه قد لبسها منذ بضع سنين ، إنه غلام فقير قد طرده أهله من الجوع والفقر .

فقال زهلول مبتسما: أيها الرجل .. اصبر.. ولا تكثر الكلام ، لا تعجل ، فلسوف تأكل طعاما ما رأيته في أحلامك .

وعندئذ أخرج الفتى زهلول الطيب كيسه من صدره هدية الجنية ذات الثوب الأزرق زمردة وقال صائحا : يا قوم كل شخص يطلب ما يشتهي من الطعام ، فليذكر اسم الطعام ، وأنا أخرجه له من هذا الكيس العجيب الممتلئ بجميع أصناف الطعام والشراب الطيب.

فقال أحدهم : لعلك ساحر أيها الغلام ؟!

فقال زهلول : ليس مهما .. المهم ما تأكلون ، ما تريد وتشتهي من الطعام ؟

فقال المخاطب وفي نبرته استعلاء وسخرية : أرغب بأن آكل أيها الغلام حملا كاملا مشويا .

فقال زهلول وهو يفتح الكيس ويضع يده فيه : بسم الله .. حمل مشوي يا كيسي العزيز !

ثم أخرج يده حاملة لحمل مشوي، وضعه أمام الرجل، وأمام دهشة الحاضرين قائلا : تفضل بأكله ، ولا تبقي منه شيئا .

وقال آخر : أرغب يا غلام بسمك مشوي وأرز .

فقال زهلول : بسم الله .. سمك مشوي وأرز يا كيسي العزيز !

وقدمه للطالب ، وقال الشيخ متلهفا للطعام : أيها الغلام المبارك! أريد دجاجا محمرا وخضارا مسلوقا .

فقال زهلول : لك ذلك إن شاء الله .

وكل شخص يتمنى ما يريد ، ويقدمه له زهلول الطيب عن طيب نفس وحب واشتغلت الأفواه بالقضم والمضغ والبلع، ويأكلون أكل من لم يأكل منذ سنة، ويعتقد كل واحد أنه لا

يشبع ، ومن أنهى ما بين يديه طلب المزيد ، وكان زهلول يشاركهم الطعام والفرح ، ولما انتهوا من الطعام أخرج لهم ما يشتهون من الشراب والحلوى والفاكهة ، فامتلأت الكروش وما عاد فيها سعة لمزيد ، قال أحدهم : آنت ساحر يا غلام ؟! وما قصة هذا الكيس العجيب ؟!

فقال زهلول وهو فرح نشوان: سأذكر لكم قصة الكيس أيها القوم حتى لا تظنوا أنني ساحر فهذا هدية من الملكة زمردة ملكة الجنيات في غابة الجن ، لقد رأتني بهذا الشكل المزري ، فعطفت عليّ وأشفقت عليّ لفقري وضعفي فهذه قصة الكيس العجيب .

أخذ الاخوة أبناء الشيخ العجوز يتطلعون في بعضهم البعض عندما سمعوا قصة الكيس ، فقال كبيرهم : يا ألف مرحبا بك يا سيد زهلول ! أنت ضيفنا ، وجزاء كرمك معنا سنستضيفك عدة أيام حتى تستريح من التعب الذي أصابك وأنت في غابة الجن .

فرد زهلول : لا .. سأنطلق في هذه الدنيا .. لعلي أجد الخير في بلد ما وأستقر فيها ، وذكر لهم قصته في مدينة الماء ، فحلف أحدهم بأنه ضيف عليه ليلة الغد ، فاعتذر لهم فقال : بارك الله فيكم .. وفي الغد نفكر بالأمر .. أرغب بالنوم الليلة عند والدي الشيخ .

وخرج الأولاد وزوجاتهم وأطفالهم وتركوا الغلام ينام في دار أبيهم ، وذهب الرجال إلى بيت أحدهم يتشاورون على حيلة يأخذون بها الكيس العجيب من زهلول ولا يتعرضون لغضب الجنية صاحبة الكيس العجيب ، وفي الصباح حضروا مسرعين إلى الغلام ؛ ليتناولوا طعام الإفطار اللذيذ من كيس الفتى زعلول ، وأثناء الأكل قال واحد منهم : أيها الغلام الطيب المحسن إلينا بكل هذه الطيبات التي لم نكن نراها ولو في الأحلام ! قد قررت أنا واخوتي الكرام أن نكسوك ثوبا جميلا وجديدا مقابل هذا الإكرام الذي أكرمتنا به ، وسأذهب على الفور إلى سوق المدينة لجلب الثوب، وهذا أقل الواجب نحوك نكافئك به حتى لا تنسانا .

وأنهى طعامه وخرج مسرعا نحو سوق المدينة على ظهر حمار كبير ، ولم يمض زمن طويل حتى عاد وهو يحمل ثوبا جميلا ، فحينئذ قال الثاني من أبناء الشيخ: أيها الغلام الطيب بما أنّ أخي أكرمك بثوب جديد فسأكرمك بحمام في بيتي، فلا يليق لبس هذه الثياب الجميلة والنظيفة على

بدن قذر .

وتناول الرجل الثياب من أخيه ، وأمسك بيد زهلول وهو يقول : بعد ذهاب أخي للسوق أمرت أم العيال بتهيئة الحمام ؛ لاغتسال الفتى الطيب زهلول .. هيا بنا أيها الغلام الطيب .

واغتسل زهلول وارتدى الثياب الجديدة ، وطلب منهم أن يسمحوا له بالنوم حتى المساء ، فكان له ذلك ، ولما استيقظ مع الغروب بحث عن أهل البيت ، فلم يجد أحدا ، ولا حس ولا خبر ، فأسرع لمنزل العجوز يسأل عنهم فقال له : لقد رحلوا للمدينة .

فقال الغلام : أين كيسي أيها العجوز؟!

فقال له بجفاء : أخذوه ليبيعوه للسلطان يا ولدي ! فالسلطان أولى به .

فقال زهلول والألم يعتصر صوته: بل سرقوه ..هذا جزاء الإحسان .

فقال الشيخ : نصحتهم يا ولدي !.. ولا حيلة لي عليهم .. إني ناصحك قبل عودتهم .. اخرج من القرية قبل أن يفتكوا بك .. فهم قساة القلوب !

فبكى زهلول حزنا على ضياع كيسه السحري ، وودع العجوز متجها جهة غابة الجن مرة أخرى وهو يقول : وداعا أيها الشيخ .. ولكنني سوف أنتقم من أبنائك الخمسة الذين غدروا بي .. ولسوف أعود .

وانطلق في الظلام إلى غابة الجن التي وصلها بعد منتصف الليل ، فدخلها حتى وصل إلى شجرة كبيرة ، فجلس تحتها يبكي على حظه وطيبته وغفلته، ويتأمل طمع البشر وغدرهم ، وحمد الله أنهم لم يصرعوه وتركوه حيا سالما ، وكان يؤنب نفسه على تركه الكيس عندما دخل الحمام ، ونام الفتى زهلول ، وكله أمل برؤية زمردة مرة أخرى ، ولكنه استيقظ من نومه على صراخ استغاثة قريبا منه ، فرأى رجلا مطروحا أرضا يصيح ويطلب المساعدة ، وبكاؤه يقطع الفؤاد ، ويربض على صدره رجل آخر يضرب به بقبضة يده بقوة ، وأخرج خنجرا وهزه بيده عدة مرات يريد أن يطعن به صريعه ، فما كان من زهلول ومن غير وعي وإدراك إلا أن حمل حجرا كبيرا وألقى به على رأس الرجل الذي يعلو الآخر ؛ فإذا هو ملقى على التراب يشخر ، ودمه يتناثر يمينا

ويسارا ، ثم خمدت أنفاسه ، وشعر الفتى بفعلته وعمله الشنيع فأخذته دفعة من البكاء والعويل ونهض الرجل الآخر يقبل يديه ورجليه ورأسه ، وهو يهتف سعيدا لأن الحياة كتبت له من جديد : شكرا لك .. ألف شكر لك أيها الغلام .. لقد أنقذت حياتي من موت محقق أيها الإنسي! أنا الجني برهود من مملكة الجن الأحمر .

فقال زهلول وهو ينظر للقتيل بخوف : هل مات هذا الرجل ؟!

فقال برهود: نعم .. لقد قتل فورا .. لقد صنعت لي جميلا لا أنساه أبدا .. فاطلب مني ما شئت أيها الغلام ..لا بل سأبقى خادما لك طول الحياة .

ونزع من يده خاتما جميلا وقدمه لزهلول ، وهو يقول : خذ هذا الخاتم .. كلما احتجت لي ما عليك إلا أن تفركه من أسفله فأكون بين يديك .. أنا خادم لهذا الخاتم .. يا غلام أيها المنقذ .. لم تذكر لي اسمك ؟!

رد زهلول وهو يضع الخاتم الجميل في اصبعه ، وما زال متأثرا بموت الرجل ، فقال : مات .. ماذا أفعل؟! ..إنك تسأل عن اسمي ..اسمي زهلول .. قل لي ما أعمل يا سيد برهود ؟!

فقال برهود : اخرج من الغابة بأكبر سرعة .. ولا تخف لن اتخلى عنك .

فانطلق زهلول مسرعا في الغابة خوفا من القتل ، واختفى برهود الجني الأحمر بدوره مسرعا ؛ ولكن زهلولا قبل أن يترك الغابة أحاطت به جماعة من الجن وحملوه موثقا بالقيود ، وطاروا به في عنان السماء ساعة من الزمن ، ثم هبطوا به في مكان مخيف ممتلئ بالوحوش والأفاعي المرعبة ودخلوا به منزلا وألقوه فيه ، وهم يقولون للحارس: احتفظ به إلى أن يطلبه الملك أو القاضي ، واحرص عليه من القتل أو الخطف وتعهده بالطعام والشراب .



استيقظ زهلول من الصدمة بعد أيام ، وبدأ يستفسر من الحارس عن أمره وأين هو؟ فاعلم أنه

محبوس في مملكة الجن الأسود، وأنه متهم بقتل الجني زادهوا، وبعد أيام أخرى حضرت مجموعة من جنود الجن ، وأخرجوه من سجنه لمقابلة ملك الجن الأسود الذي خاطبه بهدوء : أيها الإنسي ماذا فعلت ؟! .. ولم قتلت زاد هوا ؟!

فأخذ زهلول بالبكاء وندب حظه وهو يصيح : مولاي الملك ! لم أقصد قتله، لقد كنت نائما تحت شجرة في غابة الجن ، فاستيقظت من النوم على صراخ وعويل فرأيت زادهوا ـ ولم أكن أعرفه أبدا ـ يعلو رجلا ، قال لي فيما بعد أن اسمه برهود من الجن الأحمر ، رأيت زاد هوا يريد قتل برهود بخنجر كان يلوح به ، ومن غير شعور مني ولا ادراك يا مولاي الملك حملت حجرا وقذفت به رأس زاد هوا فقتله، وإنما قصدت إنقاذ الرجل الذي كان يستغيث .. صدقني يا مولاي الملك ! أن هذا ما جرى ، وليس لي سابق معرفة بالرجلين ، إنما أشفقت على المسكين برهود ، وحاولت دفع الشر عنه ، فجاءت رميتي في مقتل من الجني زاد هوا .. هذا ما حدث يا مولاي الملك !

فقال الملك : برهود .. أين برهود أيها القوم ؟

فقال الوزير : أيها السلطان الكبير ! لقد بحثنا عنه في غابة الجن فلم نره ، وقيل إنه هرب إلى بلاد بعيدة ..إلى شيخ الجن الكبير جن سلام ليستشفع له عندك .

فصاح السلطان بغضب : أريده يا وزيري رام هوا لنسمع قوله .. وما أخبار الأميرة زمردة ؟ وهل نفذتم فيها أمري ؟ واعتقلتموها .

فقال الوزير رام هوا : لقد هربت هي الأخرى عندما علمت بأمرك الملكي .

فصاح الملك : ابنتي هربت ! .. ولا أعلم .. هذه جريمة أيها الأمراء !

فقال الوزير : هدء من نفسك أيها الملك ! .. الملكة الكبرى تعلم بهذا يا مولانا ! وكنا ننتظر عودتك من عند الملك جبير، فلما عدت أطلعناك على خبر مصرع ابن أخيك زادهوا وإخبارك بأمور المملكة الأخرى ، وتركنا أمر الأميرة زمردة لأمها

فقال الملك : حسنا أيها السادة ! اذهبوا بهذا الإنسي إلى سجنه ، وابحثوا عن زمردة وبرهود وإلى

أي الملوك لجئوا لأرسل وراءهم ، وسأقابل الملكة الكبرى وأسمع الأخبار منها .

فقاد الجنود زهلولا إلى سجنه ، وهو يرتجف من الخوف والقلق والرعب ، وتذكر زمردة وهديتها له الكيس ، وأن هذا الملك والدها ، وتذكر ما سمع من كلامها في تلك الليلة عند الشجرة وهي تتحدث مع رفيقاتها عن ابن عمها الذي خطبها ، ففهم وأدرك أن الجني المقتول هو ابن عم زمردة الفارس الذي طلبها للزواج ، ثم قال زهلول وهو في حيرة مما جرى : وما دخل برهود في الأمر ؟ وهو من الجن الأحمر وهؤلاء من الجن الأسود !

وأمام هذه الحيرة سأل الحارس واستفصل منه عن زمردة وزاد هوا ، فقال له حارس السجن : أيها الإنسي إنك كثير السؤال ؛ ولكني سأحدثك واشفي قلبك حتى تموت عندما يحكم عليك به وأنت مرتاح البال قرير العين ساكن النفس .

فقال زهلول : نعم أيها العفريت حتى أموت وأنا مرتاح البال والنفس ..اخبرني أيها الصديق بما تعرف ..وما الحكاية التي جمعت بين جني أسود وآخر أحمر؟!

فقال العفريت الحارس مسامرا لزهلول : حظك السيئ قادك لغابة الجن حتى تخلص العباد من غلظة زاد هوا وشقاوته وقسوته .. الملك جلاد هود ملكنا له ابنة بل بنات ، ولكن ما يهمنا الأميرة زمردة ، فهي فتاة جميلة ومحبوبة في بلادنا ، تقدم للزواج منها الأمير الفارس زادهوا بعد أن هربت خطيبته السابقة نفورا منه ، وتركت المملكة واختفت ، وهذا الأمير أيها الإنسي بطل من أبطال المملكة ، وله سمعة قوية في المعارك والحروب ، والملك جلادهود ملكنا الكبير يحبه ويقدمه ويرغب بإعطائه زمردة ؛ ولكن زمردة لا تهواه كما علمنا ، والملك لا يريد إجبارها على الزواج فأمهلها سنة لتتخذ قرارها الحاسم ؛ ولكنها أخبرت والدها بأنها لا ترغب بالزواج من ابن أخيه ولا تحبه ، فقال لها مولانا الملك : فكري في الأمر بتأنٍ وردي الجواب بعد سنة ، وتركها الملك ، وعلم الأمير زاد بهذا الرفض ، فصمم على الزواج منها ومعرفة سبب الرفض ، فقابلها فاعتذرت له ، فبدأ يطاردها ويتعقبها حتى علم أنها تعشق جنيا من مملكة الجن الأحمر الذي يسمى برهود ، فحنق عليه وعليها ، وبدأ بمطاردته والتقى به في غابة الجن تلك الليلة التي قتلته

فيها يا غلام زهلول ، ولما أراد زاد صرع برهود قذفته أنت بالحجر فخر ميتا ، ولما حضر أعوان زاد ووجدوه هالكا ووجدوك هاربا من الغابة قبضوا عليك ، وقد اعترفت بصرعك لزادهوا فحبست عندي حتى يرجع الملك من زيارة أخيه الملك جبير ، ولما علم الملك بمقتل ابن أخيه أمر باعتقال الأميرة زمردة معتقدا أن لها دورا في الأمر ، فاختفت من البلاد ، ولما أقررت بقتلك لزاد ، فقد بدأ أعوان زاد هوا في البحث عن برهود ، فهذه هي القصة يا غلام الأنس .. ولقد أطلت الكلام معك سلام عليك .

وغادره العفريت وقد وضح له الحكاية ، وعاد زهلول إلى حيث الفراش ، ورمى نفسه عليه ينتظر الطعام والشراب والفرج ، وفي ذات ليلة أخبر الحارس زهلولا بأن الأمير برهود قد زار الملك جلاد هود ، ومعه رسالة من شيخ الجن جن سلام يستشفع به عند ملكنا ، وقد يطلبونك في الغد ، فهيئ نفسك يا زهلول للقاء ملك الجن الأسود .



برهود ...وزمردة

عندما علم برهود بأن أعوان ملك الجن الأسود يبحثون عنه انطلق هاربا إلى شيخ الجن جن سلام في جزيرة الشمس التي تبعد عن غابة الجن ألف ألف ميل مسيرة نصف سنة للراكب العادي ، وقابله وقبل رجليه ، وذكر له قصته مع الجني زاد هوا وحبه للأميرة زمردة ابنة الملك جلاد هود ، وذكر ما فعل الغلام زهلول ، فلما سمع منه شيخ الجن قصته أمره بإحضار الأميرة زمردة ، فغاب برهود مسرعا وأخبر الأميرة التي حضرت معه بسرعة الريح ، وسلمت على شيخ الجن ، وقبلت قدميه، وترجته وتوسلت إليه أن يدافع عن عشيقها برهود ، ويحميه من غضب والدها وأعوان الأمير المقتول زاد هوا .

ومما هو جدير بالذكر هنا أنه لا يبلغ الجني منزلة شيخ جن إلا إذا ملك مملكة من ممالك الجن ، وعمر أكثر من ألف سنة ، وأصبح منه ومن أبنائه وأحفاده مائة ملك ، فيعطى ويوهب هذا اللقب الكبير عند ملوك الجآن ، فيصبح كلامه لدى جميع ملوك الجآن مطاعا ومقبولا ، فهذا الشيخ جن سلام تحققت فيه هذه المواصفات ، فلما سمع كلام برهود وزمردة ، وأنهما متحابان وراغبان بالزواج من بعضهما قال : سأرسل معك كتابا ورسولا إلى الملك جلاد هود وأطلب منه أن يكف عن مطاردتك ، وأنك بريء من دم ابن أخيه ، ولا أرغمه على تزويجكما ، فهذا شأنكما ، ودبرا أنفسكما ، ولو جئتما لي في هذا الأمر قبل مقتل الأمير لتشفعت لكما بالزواج أيها الأميران ، وبلغا الملك جلاد هود تحياتي وسلامي .

وطلب من خادمه مخاطبة ملك الجن الأسود بما سمع ، وأن يرسل أحد الأعوان معهم ، وودعا شيخ الجن الكبير ، وقالت زمردة للأمير برهود وهما يغادران شيخ الجن : سأذهب إلى زيارة صديقتي الجنية فردوس في قصرها في خلدان ، ولما تنته من مهمتك اتصل بي لنفكر في الأمر .

وطارت في الجو ، ولما تجهزت رسالة شيخ الجن جن سلام إلى الملك جلاد هود ، انطلقوا بها إلى بلاد الجن الأسود ، وقابلا الملك الذي أحسن استقبالهما أحسن استقبال ، وقبل رسالة شيخ الجن وعظمها حسب تقاليدهم في بر شيوخ الجن ، وقد قرأها الوزير على الملأ ، ولما علم الملك

أن برهود بحضرته غضب واشتد غضبه ، فقال برهود : أيها الملك ..أنا لا ذنب لي .. إنه هو الذي كاد أن يفقدني الحياة ، هو المعتدي عليّ ، هو أراد الفتك بي ، فالمفروض أن تنصفني من ظلمه وعدوانه .. ولما سمع الإنسي صراخي واستغاثتي هب لمساعدتي ، ورماه بحجر لينهض عني ؛ ولكنه قتل بدون قصد .

فصاح الملك وقد وقف من شدة الغضب : ولكنك أنت السبب .. أين زمردة ؟!

فقال برهود: لا أدري أيها الملك! ..وليس عليّ عارا أن أبحث عن زوجة بين بنات ملوك الجن أليس هذا حقا لي ؟! ..وهي قد رضيت بي بعلا ، وأردت أن اخطبها منك كما يفعل الأمراء والفرسان فخافت وقالت : أبي صعب المراس ، ويرغب بتزويجي من فارس من فرسان المملكة فامتنعت عن زيارتك لهذا المانع ، وأراد ابن أخيك قتلي معتقدا بفعله ذلك أن تقبل به الأميرة ، فسلط عليه هذا الإنسي ورماه بحجر فكانت منيته ونهايته .

صاح الملك هائجا : أيها الأمراء ما أقول لهذا الرجل ؟!

فقال الوزير رام هوا : يا أمير برهود .. أين الأميرة ؟

فرد برهود بهدوء : سأبحث عنها في كل الدنيا وأحضرها لمولاي الملك! لعله يشفق عليّ وعليها ويزوجني بها.

فصاح الملك : أيها الشاب! لا تفكر أو تحلم بهذا وأنا حي ، فهي ابنتي .

ثم خاطب رسول شيخ الجن قائلا : يا رسول شيخ الجن جن سلام ، استجبنا لأمر مولانا الشيخ ولن نعاقب برهود بمقتل زاد هوا ، فسلم على الشيخ واعلمه أننا قبلنا شفاعته ، .. وأنت يا وزيرنا جهز هدية تليق بمولانا شيخ الجن جن سلام .

فقال برهود : يا ملك الجن !! ..الإنسي زهلول ألا تعفو عنه ؟

فصاح الملك بحنق: انصرف .. اخرج من مملكتي فورا .. فهذا الإنسي سيعاقب عقابا شديدا .

فقال برهود : هذا الإنسي لم ينوِ قتله ، والله لا يحب الظلم .

فصاح الملك : اغرب عن وجهي أيها الشقي ! ولا دخل لك بالإنسي .

فرد برهود متوسلا : ولكنه صنع لي معروفا يا مولاي! لقد أنقذ حياتي ، وصرت له خادما ، فسأذهب لملك الجن الأصفر من أجله أيها القوم .



عقدت محكمة للإنسي زهلول بعد مجيء برهود بأيام ، وحكم عليه قاضي الجن الأسود بالسجن خمسين سنة لقتله زاد هوا في غابة الجن ، وأعيد للسجن وهو منهار القوى يائس من الحياة ، وبينما هو في يأسه تذكر خاتم الجني برهود، ففركه من أسفله ، فحضر برهود سريعا وقال : ما تأمر أيها الشاب الصغير زهلول! .. جئت إليك رغم الخطر المحدق بي في هذه المملكة ؟

قال زهلول : أريد أن أخرج من هنا ، فقد حكموا عليّ بخمسين سنة في هذا الحبس الموحش أريد أن أخرج ..أريد الحياة !

رد الجني مصبرا الفتى : لو أخرجتك ـ يا زهلول ـ سيعيدونك ثانية ، ولربما قتلوك .. اصبر شهورا ، لن تمكث هنا بإذن الله خمسين سنة ، فأنا ذاهب لملك الجن الأصفر من أجلك وأجلي ، وسوف أعود بأمر إخراجك إلى أرض الأنس حتى لا يؤذيك الجن الأسود .. اصبر يا صديقي زهلول ..إنني مشغول بأمرك ونجاتك.

وودعه وانصرف يفكر بشد رحله إلى ملوك الجن الأصفر، وزار الأميرة زمردة في خلدان عند الأميرة فردوس ، واطلعها على حاجته للسفر إلى بلاد الملوك الصفر يطلب منهم المساعدة والعون في إخراج زهلول من سجنه وزواجه من الأميرة ، وتنقل برهود من مصر إلى مصر حتى بلغ بلاد الجن الأصفر ، ودخل على ملك ملك عظيم من ملوكهم يدعى الملك كنعان بن آرام ، يحكم مائة لواء من الجن الطيار، وذهب إلى صديق له من هؤلاء اسمه بحر الجن ، وذكر له قصته وأخباره ، فوعده صديقه بمساعدته لدى الملك ، وقال له : سآخذك إلى أخت الملك كنعان الأميرة كعب النساء ، فهي محظوظة عند مولانا الملك ، ويحبها جدا ولا يرفض لها طلبا مهما كان .

زار بحر الجن الأميرة الكبيرة كعب النساء ، وذكر لها قصة صديقه برهود وطمعه بمساعدة أخيه الإنسي الذي انقض حياته من عدوه زادهوا من الجن الأسود فوعدته بالمساعدة والشفاعة وطلبت منه أن يجمعها بصديقه الجني الأحمر، فلبى أمرها وأدخله عليها ، واستمعت الأميرة العجوز لحكاية الغلام زهلول وعشق الأمير برهود للجنية زمردة ابنة الملك جلاد هود ، ولما انتهى برهود من قصته بعثت خادما للملك أخيها كنعان تطلب لقائه في مقابلة خاصة ، ففرح الملك لهذا الطلب واستقبلها أمتع استقبال واستمع لها راغبا محبا ، ثم قال: هذا أمر سهل علينا أيتها الأخت العزيزة!! .. لقد ظننت أنك ترغبين بشيء عظيم تهتز له تخوت ملوك الجآن.

تبسمت الأميرة كعب النساء وقالت : بوركت من أخ عزيز !!..فقط نرغب بمساعدة ولدنا الجني الأحمر برهود الذي قطع مسافات بعيدة ؛ لنشفع له ولصاحبه الإنسي .. وهو ينتظر الإذن بالدخول ؛ لتسمع قصته .

ودخل برهود وبحر الجن على الملك ، واستمع الملك كنعان له بكل هدوء وروية ، ووعده خيرا وبعد أيام أرسل الملك كنعان رسالة وهدايا للملك جلاد هود برفقة مائة فارس قائدهم بحر الجن يطلب منه الصفح عن الإنسي زهلول من أجل خاطر وشفاعة أخته الأميرة كعب النساء وهو سيدفع دية زاد هوا ، ويكفل ذريته أو من كان يرعاهم ، ودخل الوفد الكبير على الملك جلاد هود ، وقد رحب بهم أحر ترحيب ، وصنع لهم موائد الطعام والضيافة ، وقبل هدايا الملك كنعان ، وتشاور مع وزيره رام هوا والأمراء ، فقال الوزير: أيها الملك! بما أن ملوك الجن العظام تدخلوا في شأن هذا الإنسي ، فعلينا أن نقبل شفاعتهم ، والملك كنعان ملك عظيم لعلنا نحتاجه في يوم من الأيام فلن ينسى قبولنا شفاعته ، وهذا إنسي لا فائدة كبيرة من بقائه في السجن ، فليرجع إلى بني جلدته .

وبعد مشاورة واستماع للآراء المختلفة عفا الملك جلاد هود عن زهلول، وأخبر الوفد الزائر بقبول شفاعة الملك كنعان فيه ، ولا رغبة لهم في الدية، وسيدفعها الملك جلاد من ماله الخاص لأخيه والد زاد هوا ، وأمر برهود بأن يأخذ صديقه الإنسي إلى غابة الجن من حيث خطفه أعوان

زاد هوا ، فشكرهم الأمير برهود الشكر الجزيل وقبل الأيادي ، وأثنى على صديقه بحر الجن ، وودعهم وانصرف إلى السجن ، وحمل زهلولا على ظهره ، وخرج به من مملكة الجن الأسود إلى غابة الجن ، ولما هبطا على الأرض قال برهود : أنت الآن في بلاد الأنس.. هل أحملك لمدينة الماء؟ فروى زهلول لصديقه الجني قصة الكيس السحري ، وأنه هدية من الأميرة زمردة ، فعجب الأمير الجني من الأمر ، وقال :أأنت التقيت بالأميرة زمردة ؟!

فعاد زهلول يقص قصة دخوله للغابة هاربا من امرأة أبيه ، وكيف نام تحت الشجرة التي تجلس تحتها ملكات وأميرات الجن ، ولما سمع الأمير الحكاية قال معترفا للأنسي : هذه الأميرة يا زهلول لي هوى بها ، وأرغب بالزواج منها .. وهي ابنة للملك جلاد هود الذي سجنك يا صديقي !..سنذهب إلى تلك القرية ، ونبحث عن كيسك العجيب ، ونطلبه منهم ، ونرى ماذا سيعملون ؟ وماذا يردون ؟ ..هيا أيها الفارس الصغير.

طرق زهلول الباب على القروي الشيخ ، فخرج الرجل يولول ويصيح : يا عالم اتركوني في حالي!! .. اغربوا عن وجهي أيها الأنذال !

وفتح الباب فرأى الفتى زهلولا فسكت لحظات ، ثم قال معتذرا : عفوا يا ولدي زهلول ! لقد ظننت أن الأولاد قد عادوا .. عفوا أيها السيدان.. لقد كبرت يا زهلول عن المرة السابقة ! ما الذي عاد بك ؟ .. لعلك أحضرت كيسا جديدا.

ابتسم زهلول ثم قال: مرحبا بوالد المحتالين !!.. لقد غبت عنكم أكثر من سنتين .. ومالي أراك هائجا مغضبا لعل الأولاد ضربوك أو سرقوك ؟!

فقال بحزن : لا عليك يا سيد زهلول ، أهلا بك .. تفضلا بالدخول .

قال زهلول: عفوا أيها الشيخ العجوز .. قدمت لآخذ كيسي ، هدية الأميرة زمردة ابنة الملك جلاد هود لي .. أين الأولاد؟

قال الشيخ وهو يضحك أو مغتصبا ضحكة : يا ولدي .. انجُ بنفسك ..اهرب ..لا تفكر بكيسك ، فقد اختفى .. واحذر أن يراك الأولاد فيؤذونك .. استمع لنصيحتي ، واترك المكان

عاجلا .. إنني خائف عليك.. الأولاد منهكون من الفقر والتعاسة ..اهرب أرجوك !!

فقال زهلول : أيها الرجل ..لا تخف عليّ ، فهذا صديقي الأمير برهود فارس من فرسان الجن الأحمر ، جاء ليساعدني في استرداد كيسي من أولادك الغدارين .

فبهت الشيخ ، وارتجف رعبا لما عرف أن رفيق زهلول جنيا وقال : هذا جني يا زهلول ؟!

رد زهلول بفخر وحماس : نعم .. نعم يا سيدي! ..أين الكيس وأين الأولاد ؟؟

فأجاب القروي المرتجف : سأقول لك أيها الشاب العجيب! فكما تعلم لقد احتال عليك الأولاد على غير مشورة مني ، إنما الطمع والغدر هما الدافعان لهما ، وأخذوا كيسك إلى المدينة وطلبوا مني تحذيرك من اللحاق بهم ، وقد فعلت خوفا عليك يا ولدي! ولا دخل لي في الأمر فأنا رجل كبير لا حول لي ولا قوة .. وفي المدينة علم الملك بقصة الكيس فطلبهم ، وأخذ منهم الكيس بعد أن تعلم منهم طريقة طلب الطعام ، وأعطى كل واحد منهم مائة دينار، ثم صرفهم ، فندموا على فضح أنفسهم أمام خلق الله ، وبعد شتم وقذف فيما بينهم رضوا بما أعطاهم الملك ، وتمتعوا بالأموال في المدينة ، وعادوا خائبين ، ولم تمض أيام قليلة على عودتهم حتى دهمنا جنود السلطان وأخذوهم متهمين بسرقة الكيس ، وسجنوا فترة من الزمن ثم عادوا للقرية ثانية ، وقد اختفى الكيس العجيب من قصر السلطان ، ومن يومها ونحن يا بني في نكد وشقاء وتعب ، وتمنيننا أنك لم تمر علينا بكيسك السحري ، لمَ حل بنا من الغم والهم والذل ، هذه هي القصة يا ولدي !

فسكت زهلول قليلا ثم قال :أأجد الأولاد في بيوتهم ؟

رد القروي وهو يحدق النظر ببرهود الجني: ستجدهم في بيوتهم .

فقال زهلول : سأذهب إليهم أنا وبرهود ، لا تخف عليهم أيها الشيخ ..



وتركوه إلى حيث منازل الأولاد ، وقام زهلول بتحقيرهم واتهامهم بالظلم، فاعتذروا له وبكوا

بكاء الخوف ، واشتد عليهم زهلول بالكلام ووصفهم بالخيانة والغدر ومقابلة الإحسان بالسوء فقبلوا يديه ورجليه حتى أشفق عليهم برهود الجني فقال : دعهم يا زهلول! لعلهم يعتبروا من هذه الحادثة ، ولا يغدروا بعابر سبيل مرة أخرى .. فلنذهب لمقابلة السلطان ونسمع منه بقية الحكاية ، واحذروا أن تكون قصتكم كذبا .. فالويل لكم .

فأقسموا له أن السلطان أخذ منهم الكيس ، فطار برهود بزهلول نحو المدينة وتقدم زهلول إلى قصر السلطان ، وطلب مقابلة السلطان ، فاعتذر له قائد جند الحراسة فقال له زهلول : أيها الجندي أريد مقابلة السلطان لأمر مهم .. جئت بشأن الكيس السحري الذي فقده الملك.

فقال قائد جند الحراسة : تمهل يا فتى سأخبر الملك بذلك !

بعد ساعة من الزمن كان زهلول بين يدي الملك ، فعرفه بنفسه وبصديقه برهود ، وذكر له طرفا من قصة الكيس ، فأقر السلطان بوصول الكيس إليه ، وأنه استخدمه وانتفع بخيراته ، ثم قال : لقد وضعته في غرفتي الخاصة ؛ وذات ليلة استيقظت على صوت غريب .. رأيت فيها رجلين وقد أخذا الكيس وانفرج الجدار وابتعدا ، وأنا صامت متظاهر بالنوم ، ولما هدأت نفسي استدعيت الحرس وسألتهم فأنكروا وقالوا لم يقترب أحد من الغرفة ، ثم جلبت القرويين الذين باعوني الكيس ، وسألتهم عن الأمر ، فتأكد لي أن الجن استعادوا الكيس ، فأهملت الأمر ، وأخرجت القرويين من الحبس .

فهز زهلول رأسه وقال لبرهود : ما ترى يا صديقي ؟!

فقال برهود مخاطبا الملك : أيها السلطان هل سمعت كلاما منهم ؟

قال الملك : نعم .. سمعت أحدهما يقول يا برهام ..هل وجدت الكيس ؟ أين أخفاه الملك ؟

فرد الآخر: أخبرتني جمهرة أن الكيس في غرفة السلطان معلق بالقرب من رأسه تحت ثوب .

فرفع برهام ثوبا لي، وتناول الكيس، وشقا الجدار وانصرفا .. هذا ما سمعته؛ وقد تأكد لي لابد أنهما من الجن يا برهود .

فقال برهود : شكرا أيها الملك !!..امض بنا يا زهلول ، فالكيس قد أصبح لدى الجن

وودعا الملك وغادروا القصر إلى فندق ، وطلب زهلول طعاما ومناما ، وتركه برهود وعاد إليه في الصباح وأعطاه مالا وقال : عش في هذه المدينة حتى أعود إليك ، سأذهب إلى زمردة واخبرها بأمر الكيس ، وقد أغيب عنك بضعة أيام ، وإذا احتجت اليّ فاضغط على الخاتم ، ولسوف أكون عندك .. وداعا زهلول .

فقال زهلول : صحبتك السلامة ، سأتفرج على هذه البلدة وعلى أهلها .

غادر زهلول الفندق ونزل إلى سوق المدينة واشترى ثوبا جديدا ، ودخل أحد الحمامات واغتسل وتنظف ولبس الثوب الجديد ، وتصدق بالقديم على أول متسول صدفه ، وتنقل من مكان لآخر وتناول طعامه في أحد المطاعم وعشاءه في مطعم آخر ، وبات ليلته في فندق آخر ، وفي الصباح انطلق لسوق السيوف والمدى فاشترى خنجرا صغيرا جميلا وتقلده على خاصرته وانصرف لسوق الطيور والحيوانات وتفرج عليها وتمتع بألوانها وأصواتها وأشكالها العجيبة ، وبينما هو يتمشى في سوق الذهب والفضة إذ برز له برهود وهو يقول: سلام عليك يا زهلول.

فرد السلام وقال : أهلا بالأمير برهود ..أهلا بصديقي ، كيف حالك ؟ وما معك من أخبار الكيس .. هل وصل ليدي الأميرة ؟.

فقال برهود : دعنا نترك هذا المكان .. قد مررت على الأميرة ، وذكرت لها ضياع الكيس السحري ، وما زال والدها يتحرى ويجد في البحث عنها ، ونفكر بالهرب إلى بلاد الجن الأزرق عند الأميرة شهلا ملكة من ملكات الجن الأزرق ، وهي بلاد بعيدة جدا ، ولا يسكنها إلا الجن الأزرق .. والأميرة شهلا صديقة لزمردة .. ونتزوج هناك ونعيش في حمايتها .. واعلم أيها الصديق أن هذا الكيس اصله لهذه الأميرة ابنة الملك همام بن هدهد ؛ وهبته لزمردة ، ولن يستطيع إرجاعه إلا هذه الأميرة .. واعلم أن لها ست أخوات ملكات وعشرة اخوة ملوك ، فكل واحد منهم يحكم مملكة من ممالك الجن الأزرق ، ولأبيها همام مملكة كبيرة ، وشيخ الجن سلام الذي أنقذني من مطاردة الجن الأسود جد أم الملكة شهلا .. فترى الأميرة فردوس أن تعرفك الأميرة زمردة على الملكة شهلا ، وتطلب مساعدتها في البحث عن الكيس السحري .

فقال زهلول الحزين : وكيف أقابل هذه الأميرة ؟!

أجاب برهود فقال : من عادة هذه الملكة السياحة في الدنيا ، وتزور صديقاتها الملكات والأميرات ، وقد التقت في سنة من السنوات الماضية بالأميرتين زمردة وفردوس ، وهن في غابة الجن ، وذلك قبل أن تتوج ملكة ، والأميرة زمردة لها ولصديقاتها الجنيات اجتماع مرة واحدة في العام في غابة الجن ، وتكون الضيافة والخدمة على إحدى الأميرات ، فيأكلن الطعام والفواكه والشراب الطيب ، ويسمعن أخبار بعضهن البعض في السنة الفائتة ، وينصرفن عند شروق الشمس إلى بلادهن وقصورهن ، وفي تلك الليلة يا زهلول التي دخلت فيها الغابة هاربا من أسرتك كانت الضيافة على الأميرة زمردة ، وكانت الأميرة الملكة شهلا قد وهبت زمردة كيسها السحري ، ولما عطفت عليك الأميرة ورأت حالتك وجوعك وبؤسك فأشفقت عليك وأهدتك الكيس .. واعلم أن الأميرة شهلا كانت بين الأميرات في غابة الجن تلك الليلة ، فهي منذ تعرفت عليهن لا تتخلف عن المجيء لحضور اللقاء ، ثم تنصرف مع إحدى الأميرات في زيارات ، فبلادها بعيدة جدا جدا تحتاج لشهور للوصول إليها؛ ولكنها تأتي على حصان من الخيول الطائرة فيقلل المسافات عليها، وتمكث أسبوعا في ضيافة الأميرة فردوس في قصرها الخاص ، فتسمع الأشعار التي ألفتها فردوس في حدائق القصر وبين الأشجار ، وتسبح في البحيرة الساحرة في قصر الأميرة ، ثم تنصرف لبلادها .. واعلم يا صاحبي أن هذه الملكة منذ صارت ملكة قد تتخلف في بعض الأعوام عن اجتماع غابة الجن ؛ ولكن لا يمكن أن تتخلف عامين متتاليين .. وأيضا اعلم أن موعد زيارتها لفردوس قد اقترب .. فإن جاءت إليهن هذا العام تقترح الأميرة فردوس أن تقدمك لها وتطلب مساعدتها في عودة الكيس .. فهي لابد أن تتذكرك عندما تراك ، فقد شاهدتك في غابة الجن تلك الليلة وهي ملكة فطنة وجميلة ، فما تقول

فرد زهلول فرحا بهذا العرض : أنا مستعد لذلك .

فقال برهود : إذن اشتر طعاما فاسأطير بك ثلاثة أيام ، وبعدها سأهبط بك على قصر الأميرة فردوس لعلك تقابل الملكة شهلا .

الملكة شهلا

هبط به برهود على سطح قصر الأميرة فردوس، فاستقبلنه بالترحاب والسلام فقبل يدي الأميرتين وشكرهن على اهتمامهن به ، وبعد ترحيب قالت الأميرة زمردة: أصبحت طويلا يا زهلول وذو هيئة حسنة.. أتذكر تلك الليلة التي دخلت فيها غابة الجن ؟!

فرد قائلا : وهل أنساها أيتها الأميرة ؟!



وأتمنى أن يتزوجك صديقي برهود ، فهو وفي لك ، فهل مازال والدك الملك غاضب عليك ؟

قالت الأميرة بحزن : نعم .. وقد خلصتني من زادهوا يا زهلول ، وأنقذت الأمير العزيز برهود من موت محقق فلك الشكر، فقد علمت أيها البطل أنك فقدت الكيس الذي أهديته لك ، فقد ضاع وعاد لبلاد الجن.

فرد آسفا : أجل أيتها الأميرة الكريمة .. احتال عليّ بعض الأنس وسرقوه .

فقالت الأميرة فردوس صاحبة القصر الجميل: بعد حين يسير أيها البطل الشاب ستأتي ملكة من ملكات الجن ذات شأن وبأس ، صديقة عزيزة لنا ، وهي مالكة الكيس الأولى ، وبعد أن نعرفك عليها فاذكر لها حكاية الكيس السحري ، واطلب منها أن تعيده لك ، فلسوف تساعدك فهي كريمة النفس سخية .

وأمضى زهلول أياما ممتعة في قصر الأميرة ، يأكل من أزكى الطيبات، ويشرب من أعذب المياه وأحلى عصائر الفواكه ، ويتفرج على الطيور الغريبة والعجيبة ، ويتمشى بين الأشجار والأزهار، وجاءه برهود واعلمه بمجيء الملكة شهلا التي أبدت ترحابها به واستغرابها من حياته في قصر الأميرة فردوس، وتذكرت أنها رأته قبل سنوات ثلاث في غابة الجن ، وقد تغيرت صورته فأصبح فارع القامة جميل الوجه حسن الهندام ، فقالت ضاحكة: ويلك ألا تذكر تلك

الليلة التي جئت بها إلى الغابة غابة الجن نحيف البنية نحيف الوجه رث الثياب قذر المحيا كأنك لم تأكل منذ سنة ؟!

فابتسم وقال : أجل أيتها الملكة !! .. دخلت الغابة هاربا من عذاب والدي وزوجته القاسية ، هربت من مدينة الماء هائما على وجهي ؛ فإذا أنا بغابة الجن أتمتع برؤيتكن العجيبة ، وقد أشفقت على الأميرة زمردة فوهبتني ذاك الكيس العجيب الذي ضاع .

قالت بدهشة : ضاع .. كيف ضاع ؟!

فحكى لها زهلول قصة ضياع الكيس، وطلب مساعدتها في البحث عنه، وأنه دخل قصر الأميرة فردوس من أجل هذه الغاية، وتكلمت الملكة مع برهود ، ولما سمعت منه رددت هامسة : برهام وجمرة وآخر .. ابشر يا زهلول! فعندما أعود لمملكتي سأطلب من أعواني البحث عن الكيس ، فبأذن المولى سيكون هنا العام القادم أو ربما أرسله مع أحد الاتباع قبل حلول موعد زيارتي لهؤلاء الصديقات .. هذا وعد مني يا صديقنا الإنسي .

فأخذه برهود وخرجا من مجلس الأميرات ، وروت الأميرة زمردة قصة مصرع الفارس زاد هوا وما جرى لزهلول من السجن والنجاة ، وأن والدها ما زال غاضب عليها ويبحث عنها ويرفض زواجها من الأمير برهود ، وأنها تفكر بالمسير لبلاد الجن الأزرق وتتزوج من برهود هناك ويعيشان في كنفها .

فقالت الملكة شهلا والتي كانت قد عرفت بعض التفاصيل من الأميرة فردوس في زياراتها السنوات الماضية : يسرني ذلك أيتها الأميرة ؛ ولكن الحياة في بلادنا صعبة بالنسبة للغرباء ولا يتقبلكم الجن الأزرق بسهولة ، فما رأيك أن أحدث والدي الملك الأكبر ليتشفع لكم عند الملك جلاد هود .

فقالت الأميرة : لقد تدخلت الأميرة كعب النساء أخت الملك كنعان ملك من ملوك الجن الأصفر العظام ورفض أبي واعتذر وعفا عن حياة زهلول فقط .

فقالت شهلا : تزوجا واختفيا في بلد ما.

ردت الأميرة: نخشى الغدر من أهلي أو من اخوة زادهوا ..نحن نبحث عن الحماية.

أجابت الملكة : سأفكر في أمركما يا صديقتي ، وأنت يا أميرة فردوس ما أخبارك ؟

ردت الأميرة فردوس باسمة : والدي يفكر بتزويجي من ملك من ملوك الجن أصحابه وما زال يفكر، وأنا أعيش في قصري مع حرسي وخدمي ، ولا أغادر المكان إلا لزيارة بعض الأميرات أو زيارة غابة الجن في تلك الليلة التي نجتمع فيها من كل سنة .



عندما خرج برهود وزهلول من مجلس الأميرات قاده إلى حديقة من حدائق القصر، والقيا بجسديهما على الحشائش الخضراء وقال زهلول : يا صديقي هل هذه الملكة الفاتنة متزوجة ؟!

حدق الجني برهود في صاحبه الإنسي وقال : لا ، فهي لم تتزوج بعد .

فقال زهلول بدون وعي : وهل يمكن لإنسي أن يتزوج امرأة من الجن .. من ملكة ..هل ترضى بي .. أنا الغلبان ؟! .

ضحك برهود طويلا ثم قال : صديقي الإنسان لعلك عشقتها من جلسة ؟!

قال زهلول : لا أعلم بالضبط ، بدأت أحلم بالزواج من جنية من الملكة شهلا ، إنها رائعة الحسن والأدب .. قد أكون عشقتها من أول نظرة يا صديقي ! ولكنها ملكة .. ألا تساعدني يا صاحبي في تحقيق هذا الحلم الكبير؟!

كف برهود عن الضحك والابتسام ، وأدرك أن صاحبه يتحدث بجدية فقال : يا زهلول! لا تندفع وراء عواطفك ، فهذه ملكة ، وأنت إنسان لا يستطيع الحياة في بلاد الجآن ، وأنت جربت بعضها .

رد زهلول العاشق للجنية شهلا : قلبي يقفز في صدري .. فلابد أن تساعدني لعلها ترضى بي آه! وقع حبها في نفسي .. اعرض أمري عليها .

قال برهود بعد صمت طويل : أنا خادمك أيها الشاب ؛ ولكن الأمر شديد وصعب ، وسأحدث زمردة بهواك المفاجئ والعجيب !

لما علمت زمردة بعشق زهلول للملكة شهلا أصابها ذعر واستغراب ، وقالت لبرهود : أرى أن الأمر شاق ، فاصرف صديقك عن التفكير بهذا حتى لا يبقى شقيا طول حياته .

فقال برهود: قد فعلت ؛ ولكنه مغرم بها غراما أدهشني ، وشككت بحبي لك أمام وله .. وهو صديقي يا أميرتي! ومنقذ حياتي ؛ فأنا مدين له بها .. متى تدع الملكة المكان؟

قالت: مضى أربعة أيام منذ مجيئها ، وبقي ثلاثة أيام لرحيلها .. من أجلكما سأكلمها بالخبر؛ وإذا غضبت لا دخل لي فيما يجري لصاحبك .. ولكن كلمه مرة أخرى لعله ينثني عن هواه الغريب ألم يجد عشيقة ليعشقها إلا الملكة شهلا بنت همام بن هدهد من أكابر ملوك الجن الأزرق..الملكة أخت الملكات وأخت الملوك؟!

فكلمه الأمير مرة أخرى مبينا له خطورة هذا الزواج وصعوبته ، فوجده قد ازداد هوى وهياما بها ، فتجرأت زمردة وفي سهرة ليلية قالت لها : يا مولاتي الملكة! سأتكلم معك بأمر خطير وحدث فجأة ، وأرجوك أن لا تتضايقي مني لجرأتي في الحديث فيه .

ابتسمت الملكة وقالت : يا صديقتنا زمردة ! تحدثي بما شئت ، ومهما كان الأمر خطيرا لن نتضايق منك أيتها الأميرة الهاربة . وضحكت مداعبة لصديقتها .

فقالت زمردة : هذا الإنسي زهلول! .. وسكتت قليلا ثم قالت: عندما رآك أيتها الملكة الجميلة كأنه وقع صريعا في غرامك، ويطمع بالزواج منك ، وقد بذل الأمير برهود قصارى جهده لصرفه عن ذلك الهوى المفاجىء .

صمتت الملكة طويلا ثم قالت: فعلا هذا أمر خطير ومهم!!..وقع في غرامي! .. وكيف سأتزوجه؟! وكيف سأترك مملكتي؟! ..بل كيف يرضى والدي الملك همام بن هدهد أن تنكح ابنته انسيا؟! وكذلك أمي وإخواني المغاوير ..الملكة شهلا تتزوج من انسي !..دعيني أره وأكلمه يا أميرة فردوس !!

كانت فردوس تسمع الكلام وهي في غاية الانبهار والقلق ، فأرسلت وراءه ، فهرع مسرعا ورمى نفسه عند قدمي الملكة وهو يبكي وينتحب ويقول: لا أدري أيتها الملكة عشقتك من النظرة الأولى وهمت بك ، ولما سمعت كلامك اللطيف ازدادت نار الهوى في فؤادي ، فبربك ساعديني .

فقالت الملكة بكل هدوء : يعجبني حبك لي يا زهلول الجميل !! .. فأنا ملكة ، وابنة ملوك عظام ومملكتي بعيدة .. الخيول الطيارة تقطع المسافة إليها بأسابيع ، ولو تزوجت منك فلسوف تشقى وتتعب ، فلا أستطيع ترك بلادي للحياة في بلاد الأنس .. فأنا من جنس وأنت من جنس آخر .

وازداد نحيب زهلول العاشق حتى أشفقت عليه الأميرات، وتشفعن له عند الملكة ، فقالت : في العام القادم عندما أزورك يا أميرة فردوس يكون عندي الجواب وأكون قد تأملت جيدا الزواج من انسي.. فلتصبر أيها الشاب المحب.. عليّ أن أفكر تفكيرا عميقا من الزواج من انسي مثلك .. وديع وصادق .. وتكون أنت قد ترويت في حياتك القادمة .

ودع زهلول المحب الأميرات على أمل اللقاء بعد سنة حالما بالزواج من ملكة حسناء فاتنة للبه وقلبه، وحمله برهود وطار به لأرض الأنس، وهما في عنان السماء قال له برهود : أين تريد أن انزل بك ؟

فصاح زهلول: لست أدري يا أخي الجني!.. هل أعود لبلدي الماء؟ .. وماذا أفعل؟ أم تهبط بي في بلاد الهند أم بلاد الثلج ؟..أم بلاد ما وراء البحار؟ قل لي أين اذهب؟!

فأجابه برهود : سأهبك مالا كثيرا يا زهلول! وعد إلى بلدك وابن قصرا لك .. واشترِ دكانا في السوق واتخذها مقرا لتجارتك ، واشتر الثياب وتاجر بها .

فقال زهلول : أحلام جميلة .. وأهلي.. أبي .. وزوجة أبي .. وأختي .

قال الجني: اخف نفسك ، ولا تظهر للناس أنك زهلول ابن مدينتهم الغلام الهارب .. سأنزل بك في مدينة الحرير، واشتري لك قافلة منها ، ونسير معا لبلادك لتفتح متجرا ، ومن ثم نبني لك قصرا ، وتظاهر بأنك ابن تاجر كبير من بلاد آسيا تريد الاستقرار في هذه المدينة، وتقرب

للتجار والأمراء بالهدايا والإحسان ، فستجد نفسك من سادة البلدة .

كان زهلول يسمع أفكار صاحبه الجني وهو يحلم فرد فقال: والله أفكارك جميلة يا صاحبي !

هبط برهود في مدينة الحرير، وجهز قافلة من مائة بغل محملة بالثياب ذات الأشكال والألوان، وخمسين غلاما وعبدا وخيمة من الحرير للسيد زهلول وخيام للغلمان ، وبدأت الرحلة لبلاد الماء وكان برهود قد ألبس صاحبه حلة من الحرير الخالص مطرزة بخيوط الذهب والفضة ، وجعل على رأسه تاجا مرصعا باللؤلو الصغير والعقيق يخطف العيون ، وكسا غلمانه ثيابا جميلة ولزهلول بغلة صغيرة عليها سرج ثمين ، وعلى خدمته وخدمة البغلة عشرة من العبيد والغلمان وبعد شهور من السير والتنقل بين المدن والقفار دخلت القافلة مدينة الماء ، وحطت الرحال على أحد أبواب المدينة وأرسل غلامه المقدم على الغلمان جروان إلى سوق التجار يخبرهم بقدوم التاجر الشاب زاهر بن التاجر شرف الدين لأول مرة لهذه المدينة رغبة في التجارة والاستقرار بها ، فذهب جروان إلى كبير تجار المدينة واطلعه على خبر سيده ، واستأجر مناديا ينادي في الأسواق معلنا وصول التاجر زاهر لبلاد الماء ، وهو من تجار الحرير المشهورين في الدنيا ، فهرع إليه التجار الكبار والفضوليون، وهناك شاهدوا خيمة التاجر زهلول الحريرية التي تبهر الأبصار والعقول، ورأوا خيام غلمانه وخدمه وبغاله، فرحب بهم التاجر زاهر وأكرمهم بالطعام وألوان العصائر والحلوى، وأهدى لهم الهدايا، وتفرجوا على بعض الصناديق المحملة بالثياب المزركشة ، ولما انتهت الفرجة صاح بهم زاهر : يا تجار مدينة الماء.. أنا التاجر زاهر الدين بن التاجر شرف الدين تاجر الحرير المعروف في بلاد ما وراء النهر المجاور لبلاد الصين والهند تركت بلادي الجميلة وتركت أهلي وخلاني ؛ لأسكن هذه المدينة ، فاشتري وأبيع الحرير والثياب من جميع الألوان ومن جميع بلاد الدنيا، فأين كبير تجاركم ؟

فتقدم إليه شيخ كبير صائحا : أنا كبير تجار مدينة الماء أيها التاجر الشاب الصغير .. وأهلا بك في بلدنا وعلى الرحب والسعة، وحياك الله ، وعسى أن تتحسن التجارة بقدومك ومقدمك علينا فنحن بلد فقير وأكثر أهله جياع .. فماذا تريد؟!

قال زاهر: حياك الله يا كبير التجار! ..أرغب بدكان واسع كبير في سوقكم يليق بها معي من الأحمال ، وأرغب بمكان لأبني عليه قصرا ، ومهما بلغ الثمن ؛ فإنني أدفع أيها السادة الكرام !
فقال كبيرهم : سندبر لك الدكان ومكان بناء القصر يا تاجر الزمان؛ ولكن أمهلنا عدة أيام .
فقال زاهر كأنه تاجر عريق: بأسرع وقت يا كبير التجار! فأنا لا أحب أن يبات الغلمان في الخيام
قال التاجر: صباح غد ندور بك في المدينة ؛ لتختار المتجر المناسب ، وأرض القصر الذي ترغب ببنائه .. فكلنا في خدمتك أيها التاجر الكريم .

بعد حين كان قصر التاجر زاهر قد انتصب على أرض مدينة الماء بواسطة برهود وأصدقائه من الجن ، مما أدخل العجب والدهشة في قلوب سكان المدينة في سرعة بنائه وجماله ، واشتهر التاجر زاهر الدين بسرعة في المدينة ، وبدأ علية القوم يزورون متجره وقصره الجميل ، وهو ينعم عليهم بالهدايا والثياب ، فقافلة غادية وقافلة آتية، وكثر الغلمان ،وأصبح للقصر حرس ، وزاد عدد الطهاة والسقاة، فكان يجلس في الدكان إلى نصف النهار ، ثم يعود لقصره ويترك كبير الغلمان جروان ومعه عشرة غلمان يديرون المتجر ويستقبلون القوافل، وغلامه صقر يسافر إلى بلاد الحرير مع سبعين غلام لجلب الثياب والمتاع ، وكان يقضي مساءه في السهر مع الأصدقاء والضيوف من هنا وهناك، ووضع يوما لفقراء المدينة يستقبلهم ويتصدق عليهم بالطعام والمال، وكان في هذه المدة قد اكمل بناء قصر للخدم والغلمان والحرس والجواري، وزار أخته تينة وأحسن إليها من غير أن تعرفه، وتعرف على أولادها الصغار ، وزار والده فوجده ما زال على سوء خلقه ، وطلب منه زيارة قصره ليهديه بعض الأشياء ، وشاهد زوجة أبيه التي عانقت قدميه ، وبكت وشكت الفقر والحاجة ، وزاره الملك في قصره وحسده الملك وحاشيته على ما فيه من الخير والنعمة والثراء ، فأعطاهم زاهر ووهبهم هدايا الذهب والعطور النادرة والثياب الناعمة ، ودعاه الملك لزيارة قصره ، وهو يقول : لنا شهور نسمع أخبارك أيها التاجر الشاب زاهر الدين! فلم تزرنا في قصرنا العامر أم لعلك تحلم بأن تصير ملكا مكاننا؟!
قال زاهر : لا ، يا سيدي! معاذ الله أيها السلطان ؛ ولكني لا أحب زيارة الملوك والوزراء ، وقد

أرسلت لك أكثر من هدية مع الأمراء والوزراء .

فصاح الملك منكرا وصول أيّ هدية : لم يصلني منها شيء ، وكنت في انتظارك عندما سمعت أخبارك .. ونهض الملك واقفا وهو يقول: وأنا في انتظارك في القصر غدا .

فقال زاهر: يا مولاي الملك اعذرني .

فصاح الملك متعجبا رفضه : ويلك !! ترفض زيارتي وأنا ملك هذه البلدة .. إن لم نرك في مجلسنا سأدمر قصرك .. الملك يزورك ولا تزره .

قال زاهر: سيأتيك الليلة سيدي برهود ويتفاهم معك .

وخرج السلطان حانقا على التاجر الذي يرفض زيارته، وقام برهود بزيارة الملك وأقنعه بعدم رغبة زاهر بالزيارة ، فاستسلم الملك وقنع بما حصل عليه من المال والثياب ، ولما رجع برهود من عند الملك قال لزهلول : هل نسيت الملكة شهلا بانشغالك بالمال والذهب والحساب ؟

تنهد زهلول وقال : لا ، يا سيدي .. متى نسافر ؟ قال برهود : الليلة مع الفجر .

فاجتمع زهلول بقيم قصره سروان وأوصاه على القصر والخدم والغلمان مدة غيابه ، وأوصى جروان على الدكاكين ، وركب هو وبرهود حصانين حتى ابتعدا عن المدينة ، وفي أحد الاصطبلات أودعا الحصانين ، واعتلى زهلول ظهر برهود وطار به إلى قصر الأميرة فردوس التي أطلعته على خبر قرب قدوم الملك همام لوالد الأميرة زمردة متشفعا بزواجهما ، وقد فرح زهلول لهذا الخبر ، وعلم أن الملكة شهلا خلال يومين ستكون في قصر فردوس ، كما أخبرتهم بذلك جارية الملكة الجارية بدر .

وأقبلت الملكة بعد يومين فعلا ، فوجدت القوم بانتظارها ، وبعد التحية والسلام ، قالت الملكة شهلا : يا زهلول ..هاك كيسك فقد أحضره فرساني من عند الملكة جمهرة .

فتناوله زهلول وأظهر شكره وامتنانه للملكة ولفرسانها ، وقال برهود : وكيف يا مولاتي الملكة ؟!

فقالت وهي تبتسم : اتصلت بأخواتي واخوتي وأخبرتهم بقصة الكيس العجيب، ونشروا الخبر

بين اتباعهم ، وبعد زمن جاءنا الخبر ، وأنه في حوزة الملكة جمهرة ملكة من ملوك جن البحر، فذهب إليها فرساني وأخذوه من غير قتال وحرب، واعتذروا لنا وذكروا لنا أن الملكة كانت يوما في تلك المدينة ، وسمعت بالكيس السحري بحوزة ملك تلك المدينة ، فبعثت تابعين لها وأحضروه من حجرة الملك ، ثم صمتت لحظات تحدق فيها بوجوه السامعين ، ثم قالت : فقط هذه هي قصة الكيس ، وأما أنت يا برهود فوالدي الملك همام سيزور الملك جلاد هود من أجلك قريبا ، ومن أجل عزيزتي الأميرة زمردة .. وأما أنت يا أميرة فردوس لقد أقنعت أخي شهابا بالزواج منك ، وهو قادم مع أبي ليراك .

فقامت إليها فردوس وقبلتها بشكر وامتنان وقالت : وهذا القصر .. وزيارتك السنوية لي؟!

فابتسمت الملكة شهلا ونظرت في عيني زهلول الصامت وقالت مفاجأة للقوم بقرارها: أنتم ستزورونني في قصري ، وأنا مع الشاب الجميل زهلول الذي فكرت بالزواج منه ..الزواج من انسي مثل زهلول الناعم !

فقبل زهلول قدميها وبكى بين يديها من شدة الفرح وقال: كم أنا سعيد بموافقتك أيتها الملكة!

فقالت باسمة : لي شروط يا زهلول قبل الزواج منك .

فرد مستسلما : أنا تحت أمرك .. اشرطي ما شئت مولاتي الملكة !

التزمت الصمت دقائق ثم قالت والابتسامة البيضاء على وجهها الحسن: أمام هؤلاء يا إنسي رضيت بك زوجا إذا وافقت على شروطي ، وأولها أن امكث عندك في السنة أربعين يوما فقط وعلى فترتين ، كل فترة عشرون يوما ، وابني قصرا خاصا بنا ، لا يدخله أحد سوانا وجاريتي الخاصة بدر، وعند انصرافي لمملكتي يغلق ولا يفتح حتى أعود إليك مرة ثانية ، وبجواره قصر ترتع فيه كما تشاء لا أدخله أنا أو جاريتي ، وأنت اختر أي مكان في الدنيا لنحيا فيه كزوجين ، وشرطي الثالث أيها الشاب العاشق أن لا تتزوج عليّ إنسية ولا جنية ما دمت حية ، ورابع الشروط إذا رزقنا بأطفال أنا أربيهم في مملكتي.. فهل توافق على هذه الشروط ؟

فرد زهلول من غير تأمل ونظر: وهل يمكنني أن أرفض؟! ..أنا موافق يا ملكة الروح

والجسد!!.

فتمت المباركة لهما وأخذت العهود على الالتزام بالشروط ، وحدث برهود بما فعل لزهلول ، فسرت الملكة من أفعال برهود.. وقالت : إذن فساعد زهلول بتهيئة قصر يليق بزواجنا ، وبعد ستة أشهر بمشيئة الرحمن مالك الجن والانسان سأعود لنحتفل بالزواج ، وأمكث في القصر المغلق عشرين يوما بلياليها ، وأعود لتخت حكمي في بلاد الجن الأزرق .

وأبدى الأمير برهود استعداده التام لبناء القصر ، ومع الصباح انطلقت الأميرات وزهلول وبرهود إلى بلاد الماء ، وعند الاصطبل ركب برهود حصانا ومثله زهلول وتبعهم الجن إلى قصر زهلول ، فرحب بهم رجال القصر من الخدم والغلمان أحسن الترحيب وأقيمت الولائم لهم ، وخلال السهرة أكدت الملكة على شروطها ، وأصر زهلول على الرضا بها والخضوع لتلك الشروط ، ولما غادرت الأميرات المكان قالت الملكة : بمشيئة الرب بعد ستة شهور نتزوج فجهزا القصر تجهيزا كاملا ، وهيئ نفسك لحبسها عشرين يوم في القصر كلما آتي بلدكم .

فقبل زهلول يديها من جديد ، وأبدى هواه وعشقه العارم لها ، فسرت الملكة من حبه واختفت الأميرات، وقد قام الأمير برهود ببناء القصر الخاص للملكة ، وهيئ وأعد بأرقى المتاع والأثاث وجعلت أسواره عالية لا يستطيع تسلقها انسان ، وله باب واحد من حديد سميك ، وزرعت فيه الأشجار والأزهار ، وقد كان قصرا مستقلا وبعيدا عن قصريه الآخرين ، وخلال فترة البناء تزوج الأمير برهود من الأميرة زمردة بعد توسط الملك الكبير همام بن هدهد ، وكذلك جاء الأمير شهاب والتقى بالأميرة فردوس بواسطة زمردة ، ولاقت استحسانا في عينيه ، وطلبها الملك همام لولده الملك شهاب ، وتم الاتفاق ثم كان الزواج ورحلت لبلاد الجن الأزرق ، وعلى الموعد جاءت الملكة شهلا بصحبة جاريتها بدر ، وشاهدت القصر الصغير الذي شيده زوجها الإنسي وبرهود ، وتم عقد النكاح ، وشهد الأمير برهود وزمردة الزواج ، ومكثت الملكة زوجة الأمير زهلول عشرين يوما ثم ودعته ، وقد استأذنها زهلول على حبس ثلاث جواري على خدمة القصر فقالت : افعل ما تشاء وإلى اللقاء .. واحذر أن يغادرن القصر .



وعلم الأصدقاء والناس أن التاجر زاهرا قد تزوج من جنية ، واسكنها قصره الجديد، فازدادت رهبة الناس من التاجر زهلول أكثر من ذي قبل ، وسمع الملك الجبار بذلك ، فقدم إليه وهنأه بالزواج ، وسأله عن صديقه الجني برهود ، فاخبره زاهر بزواجه ، وصنع زهلول وليمة عظيمة بهذا المناسبة ، دعا إليها كل سادة المدينة ، وأخرى لفقراء ومحتاجين المدينة ، وتصدق ووهب بمناسبة زواجه من الملكة شهلا بنت همام .

وذات يوم زار زهلول والده فرحب به وقال له : ما أخبار ابنك زهلول ؟

فردد الرجل : من .. من كأني سمعتك تقول زهلول ؟!

فابتسم التاجر زاهر وقال : نعم نعم ..أيها الوالد ..هل عندك من أخباره شيء؟

أجاب الرجل وهو مستغرب بمعرفة التاجر لولده وسؤاله عنه ، وهو قد اختفى عن المدينة منذ سنوات : لقد هجرني ، وهرب من البلد منذ أكثر من ست أو سبع سنوات ، ولا نعلم عنه شيئا ولكن اخبرني ما عرفك بولدي العاق ؟

فقال زاهر : لقد التقيت به قبل مجيئي إلى هذه المدينة ، وقد أوصاني بك خيرا إذا التقينا ، وكذلك على زوجتك القاسية التي كانت تسومه سوء الذل والهوان ، وكذلك على أخته الوحيدة تينة ، وأنا قد رعيت حق وصيته في حقكما .

ثم أكرمه بمزيد من المال والثياب والطعام وأوصى غلامه جروان عليه ، فقد أحب زاهر التجارة وغرم بها ، وبدأ يتنقل مع غلمانه في المدن الكبيرة المجاورة ، وانتقلت شهرته للمدن القريبة ، واشتهر بالعطف والإحسان على الفقراء والأيتام والأرامل ، وعند مضي ست أشهر حضرت الملكة شهلا ، وقضت عشرين يوما في قصر زوجها الخاص بها ، ثم سافرت لمملكتها من جديد وهكذا مشت الحياة وذات مرة وهي منصرفة لبلادها وعند وداعها له قالت: إني قد حملت منك يا زهلول

ففرح بالخبر وطلب منها عند المجيء بعد الولادة أن تحضر ولدهما معها، فوعدته بذلك

وطارت مع جاريتها ، واستمر هذا الحال خمس سنوات أنجبت منه الملكة الجنية خلالها طفلين وقد حاول زهلول إقناع الملكة بالتخلي عن بلاد الجن والاستقرار عنده ، فحذرته من مخالفة الشرط وأن قومها يقتلونها أو يقتلونه، فطلب منها إبقاء الأولاد عنده ، فحذرته مرة ثانية من نقض الشروط ، فحاول تهديدها بالزواج من غيرها ، وأنه بحاجة لامرأة تسكن معه باستمرار وإلى أولاد حوله ، فقالت : إن فعلت سأفارقك إلى الأبد ولن ترى ابنيك أبدا .

فيعود زهلول للصمت ويعود للتوسل والترجي : يا ملكتي العزيزة ! الأيام تمضي لا زوجة ولا أولاد.. خذيني لمملكتك واخفيني فيها ..إنني أحيا في عذاب كل مدة فراقك .. حبك قاتلي .

فتبكي الملكة عطفا وتقول: يا سيدي .. يا مولاي .. الإنسي لا يستطيع الحياة في بلاد الجن ، وأخشى عليك من الغدر من الجآن ومردتها ألم اشترط عليك ووافقت ؟ فلماذا بدأت تتغير ؟!

فيزداد زهلول بكاء وتبكي معه ، فيمكثان للصباح في بكاء وعتاب وندم ، فوقع في نفس زهلول إخفاء ثوبها الذي تطير بها لمملكتها البعيدة ، ووضعها تحت الأمر الواقع ، وهو بقاؤها عنده ، فطلب منها أن تحضر ولديها معها في المرة القادمة ، فهو بشوق كبير لهما ، فهي في كل رحلة تحضر أحدهما ، فألح عليها بإحضارهما معا ؛ ليتمتع باللعب معهما ، فوافقت على رغبته

وكان من عادة زهلول عند حضور زوجته شهلا من بلادها أن يعتزل العمل والتجارة والناس ويترك الأمر لغلمانه يديرون العمل والمصلحة ، ويعتكف في قصره مع الزوجة وأحد الأبناء ، فيستمتعان بالدنيا بالجلوس بين الورود وبحيرات الماء وتحت ظلال الأشجار وسماع أصوات الأطيار ، وأحيانا يرسلان وراء برهود وزمردة ، ويزورون غابة الجن لمشاهدة الأطيار والحيوانات ، وهكذا تمضي أيام اللقاء ، ولما فكر زهلول بالضغط على زوجته الجنية بمنعها من تركه كل تلك المدة أو أخذها إياه لبلادها ارتاح لهذا التفكير ، وبدأ يرسم خطة إخفاء ثوبها السحري ثوب الملكة الذي تضعه في صندوق خاص في قصرها ، ثم ترتديه عند رحيلها لبلادها وهو ثوب من الريش الناعم تطير به مسافات طويلة من أبعد بلاد الجن ـ وهي ممالك الجن الأزرق ـ إلى بلاد الماء ، ثم تؤب به إلى مملكتها بسرعة الريح ، فرتب زهلول الأمر مع إحدى

جواريه الثلاث التي سمحت لهن الملكة بالحياة في القصر للقيام بخدمته ، فعلى الجارية أخذ الثوب خفية من صندوق الملكة وإخفائه في صندوق في قصره الأول الذي يعيش فيه حياته مع الأنس ، هذا ما رتبه زهلول مع الجارية ، ووعدها بالمحافظة على حياتها من أذى زوجته ، وهذه الخطة لابد لها من حضور ولديه حتى لا يضعف ويحزن أمام ضغط الملكة .

وبالفعل عندما أتت الملكة على موعدها كان طفلاها معها ، فالأول ابن أربع سنوات ، والثاني يصغر الأول بعامين ، وقد فرح الوالد بهما فرحا عارما ، وطلب من جاريته أن تنقل ثوب الملكة إلى قصره القديم ، ففي أول نزهة لهما عليها تنفيذ الأمر ، ونفذت الجارية الأمر، ونقلت الثوب كما أراد سيدها زهلول ، ولما حان موعد الرحيل ، وقد حاول زهلول أقصى جهده من جديد إقناع الملكة بالعيش معه باستمرار ، فذكرته بالشروط من جديد ، ولما علمت أن ثوبها السحري قد أخفاه زهلول اشتد غضبها وسخطها من تصرفه الأرعن ، ثم حزنت حزنا شديدا ، وبكت وترجته بإرجاع الثوب ، وأن يشفق عليها وعلى نفسه ، وحذرته من الغدر والخيانة وفي النهاية قالت : يا سيدي ويا زوجي العزيز !! ..لا أستطيع البقاء هنا .. فأهلي لا يعلمون أنني متزوجة منك .. فأبي ملك جبار وعنيد تهابه كل ملوك الجآن ..لا تدعني أكرهك وأبغضك .

فبكى وتضرع وتوسل بين يديها وقبل الاقدام وقال : يا ملكتي ، يا مولاتي ..أنا لم يعد لي صبر على فراقك وفراق الأولاد .. فإن كنت مصممة على الرحيل فذري الأولاد عندي ؛ إني أبوهم كما أنت والدتهم .

فصاحت: أنا لا أصبر عنهم أيها الإنسي ! وأخشى عليهم بنو الإنسان والجآن ..لا أحب الغدر أتريد الزواج ؟ تزوج فأنا موافقة .. وهذا فراق بيننا للأبد كما اتفقنا منذ تزوجنا .

فصاح متذللا : لا أريد سواك .. لا أريد سواك ؛ ولكن ابقِ بجانبي ..ألا يكفي بعد ؟!

صاحت غاضبة : اعطني ثوبي ، ولا تنس أنني ملكة ولي اتباع وجنود ، ولا أستطيع التخلي عن ذلك .

وصمم زهلول على بقائها ، وقد مضى يوم عن العشرين وآخر ، ورأت أن زهلولا مصمم ومصر

على الغدر والعناد ، فذكرته بإحسانها إليه ورضاها به ، فأبى أن يسمع لصرخاتها ودموعها ، فتظاهرت بالاستسلام والقناعة والخضوع للأمر الواقع ، وأثناء نوم زهلول أمرت الجنية الجارية التي اخفت الثوب بإحضار الثوب وإلا خنقتها وقتلتها شر قتلة ، فخافت الجارية من شدة غضب الملكة ، وفي ظلام الليل تسللت وعادت بالثوب السحري ، ومن غير أن يشعر زهلول تهيأت الملكة وجاريتها بدر والأطفال للرحيل والعودة لبلاد الجن الأزرق ، وقد لبست كل واحدة ثوبها السحري ، وكل واحدة حملت طفلا ، وعند ضحى النهار طارتا حول القصر سبع مرات ، ثم صاحت بأعلى صوتها : وداعا يا زهلول .. وداعا أيها الغادر .. وداعا يا زهلول !

وكان زهلول مشدوها مصدوما وهو يبحلق في السماء ينظر إليهن جزعا ، ثم سمعها تصيح : وداعا أيها الزوج الغادر! فأنا ذاهبة لبلاد الجن الأزرق ، ولن أعود ولن تراني .. فالغدر صفة قبيحة.. وإن كنت حقا ترغب بي حليلة فأتني في بلادي، واطلبني من أبي الملك همام بن هدهد ملك الجآن الأزرق .



ثم ارتفعت في الجو وهي تبكي وتصيح : وداعا يا زهلول !

اختفت فرد بصره إلى الأرض وبكى ، واشتد البكاء والنحيب ، وأدرك أنه الفراق الأبدي ، وأغمي على زهلول من شدة الحزن والوجع ، ومرض شهورا ، ثم أقسم بالله العظيم أن يذهب لبلاد الجن الأزرق ، ويطلبها من أبيها أو يموت دون ذلك ، ففرك خاتمه فجاء برهود ، وهو في غاية التعجب ، فأخبرهم زهلول خبره ، فحزن برهود وزمردة على ما جرى .

رحلة زهلول

وبعد سكوت طويل وحزين قال الجني برهود : يا سيدي ! اعلم أنني لا أستطيع إيصالك لتلك البلاد البعيدة بلاد ملوك الجآن الأزرق ، ومن الشاق الدخول إليها إلا بأذن خاص من ملوكها أو بصحبة جني من جنـها ، والرحلة إليها تحتاج زمن طويل ، فنحن الجن قد نصل إليها ببضع سنين ، وإنما كانت الأميرة شهلا تصل بلادنا بسرعة بثوبها السحري ، وكذلك جاريتها بدر ، وأقصى ما أستطيع أن أفعله وأقدمه لك هو أن أوصلك لشيخ الجن جن سلام ؛ فإن أقنعته يا زهلول بعونك ساعدك في لقاء الملكة شهلا بنت همام .

فقال زهلول : لا حياة لي بدونها ، وبدون ولداي ، لقد تعلق القلب بحبها ؛ فإنني أرجوك بكل حب بيننا وصداقة أن تأخذني إليه يا أخي العزيز .

فقالت زمردة : يا زهلول كيسك السحري خذه معك ، لهذه الرحلة ينفع ويفيد .. فخذه معك فالوصول لبلاد الجن الأزرق قد يحتاج منك سنوات وسنوات ، فشهلا الملكة كانت تلبس ثوبها السحري لتقطع آلاف الأميال بساعات .

وقال برهود : سأتركك يومين أو ثلاثة أيها الصديق ! لتفكر في هذه الرحلة الشاقة .. وإذا قررت السفر فرتب أمورك مع غلمانك لأنك ستغيب عنهم زمنا طويلا ، ثم افرك الخاتم أكون بين يديك أيها الصاحب! لنقلك لشيخ الجن جن سلام ، والوصول إليه يحتاج شهورا من العمر أيها الصاحب .

وعندئذ قالت الأميرة زمردة : أحب نصحك يا أخي يا زهلول!.. فأرى أن تنسى الملكة وتتزوج من بناتك جنسك امرأة حسناء واحدة أو أكثر ، وانشغل بهن ، ودعك من المخاطرة والعناد، وقد تصل إلى هناك بمساعدة شيوخ الجن وملوكهم ، ويرفض الملك همام زواجك من ابنته ، وقد تسبب لها الموت ولولديك .

بكى زهلول وهمس قائلا : ألم تقل وهي تبتعد في عنان السماء وإن كنت حقا ترغب بي حليلة فأتني في بلادي ، واطلبني من أبي الملك همام بن هدهد ملك الجآن الأزرق فكيف الحياة بدونها

فعليّ بقبول التحدي والوصول إليها مهما بذلت من الثمن ، ولو خسرت روحي القابعة في جسدي .. يا أخي يا برهود سأرتب أموري وأرسل خلفك لتنقلني لشيخ الجن سلام .. لقد حسمت أمري .

أخبر زهلول غلمانه وحرسه وأصحابه من التجار وابنائهم برغبته في السفر لبلاد الجن الأزرق لجلب زوجته وأولاده ، وأن رحلته قد تستغرق سنة أو خمس أو أكثر، فمن يرغب في البقاء له ذلك ، ومن أحب التخلي والانعتاق فله ذلك ؛ ولكنهم أصروا على البقاء في أعمالهم وخدمته حتى يرجع سالما بمشيئة الله آملين أن رحلته لن تطول ، فسره ذلك وأوصى سروان على القصور والعناية بها ورعاية الغلمان والحرس ، وأوصى جروان على إدارة الأموال والتجارة ، وانتشر خبر الرحيل في مدينة الماء ، فهرع الفقراء والمساكين إلى القصر ولقاء التاجر زاهر الدين، فحث غلمانه على مساعدة الفقراء والضعفاء، وقدم السلطان بنفسه مودعا ومتأسفا على فراقه وسفره لبلاد الجن الأزرق لجلب زوجته الهاربة ، وأوصى وكيله سروان على والده وأخته وأولادها وعلى اخوته الذين ولدتهم زوجة أبيه ، وقد ظهر الأسف والحزن الكبير على سفر زهلول الغريب ، وأشفق الجميع عليه من الهلاك في مدن وديار الجن والعفاريت .

وكثر المودعون وتوافدوا من بلاد شتى ، فقضى شهرا يودع الأصحاب من المدن المجاورة ، وقد حاول بعضهم صرفه عن هذه الرحلة الغامضة ، ومنهم من عرض عليه أخته أو ابنته ؛ ولكن التاجر زهلولا أقسم أن يسعى للوصول لبلاد الجن الأزرق أو يموت دون ذلك ، ولما انتهى المودعون لبس لباسا جميلا ، ووضع كيسه السحري في صدره ، وأمام الفقراء والأحباب المتجمعون قدام القصر فرك خاتمه ، فحضر الجني برهود على عجل وهو يصيح : لبيك يا سيدي زاهر الدين !!

وحاول الفقراء ثنيه عن السفر من جديد بدموعهم ومناشدتهم إياه العدول عن تلك الرحلة الخطيرة ، فأبى وأصر وقال مودعا لهم : إن قدرت لنا الحياة نراكم ثانية ، فقد أوصيت سروان عليكم كثيرا .

واعتلى كتفي برهود فطار به طيرا خفيفا ، وحلق فوق الناس الفقراء الذين ضجوا بالبكاء والصياح لفراقه ووداعه ، ثم اختفى عن الأنظار .. ، ومضت الأيام والسنون ، وبدأ الغلمان بهجر العمل يوما بعد يوم ، وما مضت خمس سنوات حتى انقسم الغلمان على أنفسهم ومات الأمل بحياة زهلول ، وترك صقر السفر بالقوافل ، وقل المال عند جروان وسروان ، وهجرت أكثر غرف القصر ، وما عاد أهل المدينة يسمعون عن زاهر شيئا ولو يسيرا ، فباع الغلمان أثاث القصور رويدا رويدا ، ودب اليأس في النفوس من عودة زاهر الدين ، والانتظار صعب وقاس بعد أشهر من مغادرته بلدة الماء وصل برهود بزهلول إلى شيخ الجن جن سلام ، وبعد تقبيل يديه وتحيته بألفاظ التبجيل والاحترام قص برهود عليه طرفا من قصة زهلول الذي قلد برهود في تقبيل أيدي الجني الكبير، وروى له حكايته بالتفصيل من الأول حتى وصولهم لشيخ الجن جن سلام ، فتعجب الشيخ عجبا عظيما ، وقد سمع القصة بشغف ودهشة ، ولما انتهى زهلول من الرواية قال : يا ولدي ! حكايتك جميلة وتستحق المساعدة ؛ فأنا جذوري من الجن الأزرق وأنا لا أعرف هذه الملكة الشابة ؛ ولكن أعرف والدها الملك همام ، وأمها الملكة شهدة ، ورغم صعوبة المهمة التي تقصدها ؛ فإنني أرغب بمساعدتك ومد العون إليك، وعليك أن تبقى في ضيافتنا أياما لندبر لك الأمر .

فأظهر برهود وزهلول شكرهما الكبير للشيخ ، وودعهما برهود وقفل عائدا لبلاده وزوجته زمردة ، وبعد أيام ثلاثة طلب جن سلام زهلولا فسقاه شرابا خاصا حماية له من أذى الجن أثناء الطريق لبلاد الجن الأزرق ، وكساه ثوبا رقيقا جدا حافظا له من البرد والحر، ثم قال : أيها الشاب اسمع لم أقول جيدا ، فرحلتك طويلة جدا، وأمامك أهوال مرعبة؛ ولكن عليك بالصبر والثبات وعدم الخوف، فسيقطع بك غلامي مئات الآلاف من الأميال ، حتى يصل بك إلى جبل الصابون، وهناك لا يستطيع المتابعة بك ، هناك حده الأقصى ، فعليك أن تصعد هذا الجبل إلى أعلاه ، ثم تهبطه من الجهة المقابلة ، وليكن مسيرك في الليل ، فالجبل جامد في الليل لين في النهار ، في الليل امش وفي النهار اجلس حيث تكون ولا تتحرك ، لا تنس ذلك .

وأخرج شيخ الجن حذاء وقال : يا ولدي! خذ هذا الحذاء يساعدك في المشي على الصابون، البسه عند بداية السير على الجبل .. هذا حذاء خاص لاجتياز جبل الصابون ، وعندما تستقر في نهاية الجبل ستجد أسفله نهرا صغيرا فاقطعه ليلا أيضا ، فلا يكون فيه ماء ، وبعد ذلك سوف تصل جبلا مغطى بالزيت، فعليك أن تصعده وتهبطه من الجهة الأخرى ، ولكن هذا الجبل امش عليه نهارا ، فهو سائل وتوقف ليلا فهو جامد ، كلما تصعد منه شيئا ترجعه ، والبس له هذه الثياب حتى تجتازه .

ودفع إليه ثوب قطع جبل الزيت ، فأخذه زهلول وهو يتمتم بالشكر والثناء لشيخ الجن ، قال الشيخ الجني : إياك أن تغفل عن نصائحي وأوامري ، وعندما تبلغ أسفل الجبل ستلتقي بنهر صغير امش فيه نهارا بعكس النهر الأول ، فهو في الليل نهر وفي النهار نهر لا ماء فيه ، هل أدركت ما أقول ؟

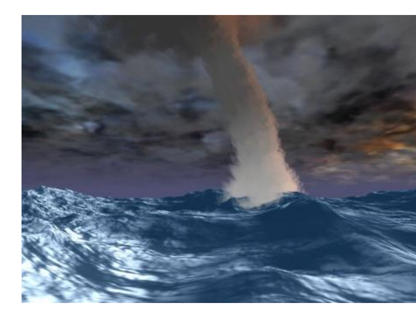
رد زهلول بوجل : أجل يا مولاي الشيخ .

فتابع جن سلام قائلا : حسنا أيها الشاب! وبعد أن تجتاز نهر جبل الزيت ستجد أمامك جبلا آخر جبلا عظيما وكبيرا ؛ ولكنه مغطى بالجليد فيلزمه هذا الحذاء ـ وأعطاه حذاء خاصا بالسير على الجليد ـ واقطع به الجبل الجليدي ، في النهار امش به بطيئا ، وفي الليل يمكنك السرعة ، فلما تنزله من الجهة الأخرى فسترى أمامك بحرا كبيرا فاجلس على شاطئه حتى تمر بك سفينة ذاهبة إلى بلاد الهواء .. ولا تركب إلا بسفينة ذاهبة إلى بلاد الهواء ، واعلم أن كل من يراك في هذه الجبال والوديان يظن أنك جني يحمل رسالة لملك من ملوك الجن أو أمر ما إلى أهل تلك المناطق .. اركب بسفينة ماضية لبلاد الهواء فقط ، وعندما تصلها بسلام اسأل عن شيخ الجن جلمود ، وقل له إنك قادم من قبل شيخ الجن سلام وأعطه هذه الرسالة ـ وأعطي رسالة ـ وهو سوف يساعدك خير مساعدة ، لا تنس كل ما قلته لك ، واحذر أن تختلط الأحذية عليك وأنت تقطع بها الجبال ، وفكر بهذه الرحلة الشديدة قبل الانطلاق ، وإن ترغب بالعودة لبلاد الماء فغلامي جاهز لتوصيلك إليها .



ولما مضى يوم وليلة استدعى شيخ الجن جن سلام زهلولا فخيره بين العودة لبلاده أم مواصلة الطريق لبلاد الجن الأزرق فأبدى رغبته بالاستمرار ، فأمر شيخ الجن غلامه وخادمه المخلص بحمله إلى حيث جبل الصابون ، فطار به أياما وليالي كثيرة ، ثم هبط به عند أول الجبل المذكور، وودعه وقفل عائدا لخدمة سيده جن سلام ، وكان وصوله نهارا فأخرج كيسه السحري ، وتناول طعاما وشرابا ورقد، وانتظر حتى هبط الليل ، ولبس حذاء السير على الصابون ، وبدأ الصعود على ضوء القمر ، ففي الليل يسير وفي النهار يتوقف وينام ، وتمضي به الأيام حتى اجتاز الجبل بسلام ، وقد بذل من الجهد والتعب الكثير ؛ ولكن رغبته الأكيدة في لقاء زوجته أم أولاده تدفعه على الاستمرار في اجتياز هذه الصعوبات والمشاق ، ثم اجتاز النهر في ظلمات الليل كما أوصاه شيخ الجن جن سلام ، ولما أشرقت الشمس لبس ثياب المشي على الجبل الغارق بالزيت ، فصعده ـ كما علمه شيخ الجن ـ السير بالنهار والاستراحة ليلا ، ومضت الساعات والاوقات والأمور تسير على ما يرام ، ووصل للنهر الذي يلي جبل الزيت فقطعه وتجاوزه على نور الشمس ثم لبس حذاء المشي على الجليد والثلج فكان يمشي ويقطع المسافات بالليل، ويرقد ويستريح ويمشي رويدا رويدا في ساعات النهار ، ولم يعد يحسب ويهتم زهلول للأيام التي يمضيها في هذه الرحلة الشاقة لبلاد الجن الأزرق ، فوصل البحر في نهاية المطاف لينتظر سفينة تنقله لبلاد الهواء ، وقد مرت به سفن كثيرة ؛ ولكنها غير ذاهبة لبلاد الهواء ، وعرض عليه أحدهم أن ينقله لبلد قريب منها ، فتذكر وصية الشيخ واعتذر وشكر ، وبعد طول انتظار ومكث على ذاك الشاطىء أقبلت سفينة كبيرة، وعلم من بحارتها أن اتجاهها بلاد الهواء ، فصعد إليها مع الصاعدين من جن تلك المناطق ، وبعد شهر أو أكثر من المسير في هذا البحر العظيم رست المركب على موانئ مدينة الهواء ، فسأل عن بيت شيخ الجن جلمود فدل عليه ، فدخل على شيخ الجن جلمود وسلم عليه وانطرح بين يديه باكيا متشفعا ، وسلمه كتاب شيخ الجن جن سلام ، فلما قرأه تعجب غاية العجب من وصول هذه الإنسي

إليه، وقال : ذه أول مرة أعلم بأن إنسي وصل لهذه البلاد ! يا مرحبا بك ! مرحبا بك ألف مرة ..كيف وصلت إلى هذه الدنيا ؟!



فقص عليه الفتى زهلول حكايته من البداية إلى النهاية ، فتعجب منها شيخ الجن كما تعجب من وصوله ، وقال متأثرا : والله يا بني ! من قطع هذه المسافات حتى وصل إلينا فيستحق منا كل مساعدة وعون ..ابشر بالخير يا سيد زهلول! .. وسوف أساعدك ولكن الرحلة طويلة طويلة ؛ فإذا لديك رغبة بالعودة لدنيا الأنس أساعدك .

فأكد له زهلول الرغبة الكبيرة في لقاء زوجته وأولاده ، ورغبته الأكيدة في متابعة الوصول .

فقال الشيخ لأحد غلمانه: اهتموا به ، وادخلوه الحمام ، وأكرموه بالطعام والمنام ثلاثة أيام حتى يستريح من وعثاء السفر .. فهذا إنسي يطرق دارنا .

فتعجب الغلمان من مجيء الإنسي لهذه البلاد ، فقد ظنوه جنيا آت برسالة من عند ملك من ملوك الجن ، فأخذوا ينظرونه بدهشة واستغراب ، فهم بعيدون جدا عن أرض الأنس ، ولم يتيسر لهم المسير إليها ، ولم تدعهم الحاجة للذهاب إليها، ولما انقضت الأيام الثلاثة كان زهلول بين يدي شيخ الجن جلمود يستمع لتعليماته التي تساعده في الذهاب إلى بلاد الجن الأزرق ، فاستمع لها بكل جوارحه وقلبه ، وانطلق الشيخ جلمود بالكلام فقال : اعلم أيها الإنسي أن أمامك صعاب وأهوال ، فأنت بحاجة لقطع واجتياز بحر الدم وبحر الظلام أو الظلمات حيث لا ترى شمسا ولا قمرا منيرا ، ثم بحر العواصف والرياح الهائجة ، وبعد ذلك ستجد بحرا هادئا عليك أن تنتظر عنده سفينة قاصدة أرض الورد والريحان .

فلما صمت شيخ الجن جلمود همس زهلول: بعون الباري رب السموات والأرض ، ثم بمساعدتكم اجتاز هذه البحار بيسر وسلام .

قال جلمود : أرجو لك ذلك ؛ وإنني سأدعو لك في صلاتي لرب الأشياء أن يكون هو المعين

لك وحده في رحلتك تلك .. اعلم أيها الإنسي أن غلامي سيحملك إلى أول بحر الدماء فهذا ما يستطيع تقديمه لك ، وعندئذ ستتابع المسير وحدك ، فعليك أن تقطع البحر عوما، وبهذه الملابس الحمراء ـ وأشار لثياب بين يديه ـ التي تغطي جسدك كله من الرأس إلى أخمص القدمين وإذا صادفك في البحر مخلوق ، فقل: أنا رسول شيخ الجن جلمود إلى بلاد الجآن الأزرق إلى الملك همام بن هدهد ، وإذا تعبت يا رجل من العوم فخذ هذا اللوح السحري وافتحه وارقد عليه ويمكنك المشي به ؛ ولكنه بطيء ، واستمر في السير حتى تجتاز بحر الدم ، فاسترح بعد اجتيازه راحة تامة بضعة ليال ، ثم استعد لقطع بحر جديد ، وهو بحر الظلمات بحر شديد العتمة والسواد حيث لا نور ولا ضياء ، فهذه عصا مضيئة ـ وأمر غلامه بأن يدفع لزهلول العصا المضيئة ـ فهذه عصا صغيرة تضيء الظلام حولك فسر على ضوئها حتى تنتهي من هذا البحر المظلم ، وأيضا إذا لقيك أحد واعترضك فاذكر له أنك رسولنا لبلاد الجن الأزرق ، ثم استرح أياما لتقطع بحر العواصف ، فهو أشدها وأخطرها على المخلوقات كلها فهذا القضيب الثقيل ـ وأعطاه الغلام الخادم لشيخ الجن قضيبا صغيرا ولكنه ثقيل ـ امسكه بيمينك وامش به في بحر العواصف والرياح ، ولا تخف من شدة صوتها وعنفها ، واحذر يا بني من النوم والإرهاق ؛ فإذا وقع من يدك هذا القضيب السحري تخسر نفسك ، وتحملك الرياح الشديدة وتطير بك إلى أرض لا يعلمها إلا الله .. فلا تقطع هذا البحر إلا وأنت مستيقظ نشيط بكل قوة ووعي ، وعندما تخرج معافى وسالما من بحر العواصف والرياح استرح بضعة أيام ، ثم سر إلى الأمام حتى تصل للبحر المائي وانتظر سفينة سائرة لبلاد الورد والريحان ، واسأل عن شيخ الجن هادي بن علام ، فسلم عليه ، وقل له إنك من طرفي وادفع له هذا الجواب ، وهو توصية بك ليساعدك في إكمال رحلتك في البحث عن زوجتك وأولادك من الملكة شهلا بنت همام بن هدهد ـ وقدم له الخادم رسالة الشيخ بعد أن قبلها ، وتناولها زهلول وقبلها كما فعل الجني ـ واذكر له يا بني الشجاع قصتك ليرى أعاجيب القدر وقدرة الخلاق العليم.. ولا تنسى أغراضك ومتاعك ورافقتك السلامة .. قم يا غلام بنقل الإنسي لأول بحر الدم .

وحمل غلام الشيخ زهلولا شهورا وأياما حتى أنزله أمام البحر المخلوط بالدماء الغزيرة ، وودعه وقفل عائدا لبلاده لبلاد الهواء ، وهو يرجو له النجاح في اجتياز هذه البحار المرعبة في أرض خالية .

وارتاح زهلول أياما في هذا المكان الخالي من المخلوقات إلا من طيور عابرة تمر مرور السحاب وكان يأكل من كيسه العجيب ما لذ وطاب من الطيبات ، ثم حمل متاعه على ظهره بعد أن لبس ثياب العوم في هذا البحر ، وألقى بنفسه في البحر متجها إلى وسط البحر ، وقد استعان بلوح شيخ الجن جلمود عند النوم والتعب ، ولم يدر كم من الأيام والليالي قضاها فوق البحر ؟! ولما وصل الجهة الأخرى كان منهكا وقد ضعفت قواه ، فأخذ قسطا كبيرا من الراحة والاستعداد لقطع البحر المظلم ؛ وإذا مر به جني أو أكثر ذكر لهم أنه ذاهب برسالة لبلاد الجن الأزرق من شيخ الجن جلمود ، ولما حان وقت المغامرة ووضع أشياءه في جرابه الواسع وعلقه على عنقه وراء ظهره ، وقبض العصا المضيئة عند اشتداد الحلكة والسواد وانطلق في بحر الظلمات ماشيا شيئا فشيئا ، وقد يسر الله له النجاة من بحر الظلمات بعد أن عانى من السير أثناء الارتفاع والهبوط ، فلما أبصر الضياء خر ساجدا وشاكرا لمولاه ، فقضى أياما أخرى في استعداد لاجتياز البحر الأخطر كما أُعلم ، البحر الذي لا نوم في قطعه ولا غفلة ولا نعس ، بحر العواصف والرياح المرعبة والمزمجرة ، ففي أي لحظة يفقد القضيب السحري سيفقد حياته ، ويخسر كل ما بذله من جهود للوصول لهذا المكان ، فلذلك لما تيقن أنه قد أخذ كفايته من النوم والزاد والراحة أخرج القضيب الثقيل وألقى الجراب على ظهره واقتحم البحر العاصف متوكلا على رب الأشياء كلها الله سبحانه ، وما كاد يسير بضع ساعات حتى دهمته العواصف والرياح العاتية ، واشتدت المقاومة والدفاع وحب الحياة لدى الفتى زهلول ، وقد كاد القضيب يفلت من بين يديه عدة مرات ، وهو يقبض عليه بشدة ، ويمشي تارة يمنى وتارة يسرى ، وبعد أيام يسيرة ؛ ولكنها عسيرة خرج من بحر العواصف سالما ، وهو في غاية التعب والنعس ، فرمى بنفسه على التراب ، وهو يشكر الإله العظيم على نجاحه وتوفيقه ، وغاب في سبات عميق لا يدري كم

قضى من الأيام والليالي في النوم ؟! وكان في كل ساعة ينامها يشكر شيخ الجن سلام على إعطائه ثوبا ناعما يقيه شدة الحر وشدة البرد ، ولما عادت له العافية والقوة اتجه إلى بحر الماء ؛ ليركب سفينة سائرة إلى بلاد الورد والريحان ، وجاءت سفينة كبيرة فصعد إليها زهلول ، واستمرت في المسير ما يزيد عن أربعين ليلة حتى رست في مدينة الورد والريحان ، ثم ودع أهل السفينة ، ومشى إلى منزل شيخ الجن هادي بن علام الذي فوجئ بوصول إنسي لهذه المدينة بسلام ، وتعجب أكثر وأكثر عندما قرأ الرسالة وسمع الحكاية ، ولما انتهى زهلول من الرواية قال له شيخ الجن هادي : يا بني! من وصل لهذه البلاد سالما يستحق منا كل رعاية واهتمام ومساعدة دون إمهال أو تردد ، ولابد بإذن الله أن يتحقق المراد وتعود لك الملكة شهلا والأولاد .

وأمر غلامه الخادم بإكرامه ثلاثة أيام ، ومن ثم المجيء به بين يدي الشيخ الجني هادي ، فقادوه للمغتسل ، فاغتسل وأكل ونام .

ولما قضى زهلول الأيام الثلاثة في ضيافة شيخ الجآن هادي بن علام جلس بين يديه يستمع له ، وهو يشجعه قائلا : لقد قطعت الكثير الكثير من المسافات في بحار وجبال الجآن ، ولم يبق إلا القليل ؛ لتصل بلاد الملك همام بن هدهد الملك العظيم الشأن بين كل ملوك الجن ، فأمامك غابات ثلاث ، مليئة بالوحوش والحيات والطيور المتوحشات ؛ فإذا نجوت من هذه الغابات الثلاث وستنجى بمشيئة الرحمن خالق الأنس والجآن مسير الليل والنهار ، فيبقى عليك أن تجتاز الأنهار الثلاثة نهر الذهب ونهر الفضة وثالثها نهر اللؤلؤ ، وطول كل نهر بضعة أميال ، فحينئذ سوف تطأ قدماك أرض الجن الأزرق ، وهناك تقابل أول الأمر شيخ الجن داود ، وبعد السلام والتحية تسلمه رسالة مني فيها الوصية ، وتروي له قصتك العجيبة مع ابنة الملك همام بن هدهد فهو الذي سوف يساعدك في الالتقاء بها بالملكة شهلا بنت الملك همام ، وأما الآن سأذكر لك كيف تجتاز الغابات ، وتتخلص مما فيها من وحوش من أسود ونمور وفهود وقرود وكلاب وضباع وذئاب وآفات ، بالطبع سيساعدك غلامي في الوصول لأول هذه الغابات ، وبعدها أيها الشجاع ! تتابع الرحلة وحدك ؛ ولتكن ثقتك بالقوة الأعظم الله كبيرة جدا يا ولدي ! فعندما

تصل أول الغابة لا تدخلها إنما اخرج هذا السيف ـ وأعطاه سيفا قصيرا ـ وقل للحارس الجني أنا من طرف شيخ الجن هادي ، وأرغب بمقابلة ملك الغابة وأعطه هذا الطوق أمارة مني ـ وقدم خادم الشيخ طوقا لزهلول فتناوله شاكرا ـ فسوف يأخذه منك وينصرف إلى الملك ثم يعود وحده ، وبعدئذ يقبل وحش ويقول لك: أنا الملك اتبعني .. فلا تصدقه ، وقل اخرج لنا حتى نتأكد ، ولما يقترب منك اضربه بالسيف ، وسوف تسمع صراخا عنيفا ، فلا تخف واثبت كما عهدناك خلال هذه الرحلة الطويلة ، ويستمر الصراخ ساعة من الزمن ، ثم يختفي وعد للحارس حارس الباب ثانية ، وقل له لم يحضر الملك ، فسيذهب إليه ثم يعود وحده ، ثم يأتيك وحش آخر ويخبرك بأنه الملك ، ويطلب منك الدخول ، فلا تطعه ، وقل له اخرج لنتأكد ، ولما يقترب هو الآخر اضربه بالسيف الذي أعطيناك إياه ، وسوف تسمع صراخا حادا يصم الآذان يستمر حينا من الزمن ، فلا تخف منه واثبت ، ثم عد للحارس ثالثة ، وقل له لم يحضر الملك ، فسيغيب بعض الوقت ثم يأتيك وحش ثالث ويقول لك : نعم أنا ملك هؤلاء الوحوش ، ماذا تريد يا إنسي ؟! فقل له بشجاعة وقوة : هات الطوق طوق شيخ الجن هادي ، فلما تأخذه ضعه في رقبته ، وقل أريد أن أقطع هذه الغابة بحمايتك ، ويسلم عليك شيخ الجن هادي ، فاركبه ولا تهب ، ولا تنزل عن ظهره حتى لا تعد تسمع صوت وحش نهائيا ، فتخذ الطوق من رقبته وتنزل عن ظهره ، واشكروه وإياك أن يخدعك وينزلك في الغابة، فعندما لم تعد ترى أشجارا ولا مياه ولا صوت حيوان فاعرف أنك قد اجتزت غابة الوحوش ، واحذر الغفلة والغدر ، وحافظ على سيفك القصير فهو سلاحك المهم في اجتياز تلك الغابات ، وعندما تصل غابة الأفاعي والثعابين لا تخف من فحيحهن وهيئاتهن، وبين له شيخ الجن هادي ما يفعل في هذه الغابة وغابة الطيور المتوحشة .

وحمله غلام الجني هادي إلى أول غابة الوحوش ، فلما وصلها اخرج السيف القصير وتقدم نحو حارس الباب وقال له :اذهب للملك وأعلمه أنني رسول شيخ الجن هادي ، وأعطه هذا الطوق فأسرع الحارس الوحش إلى الملك وأخبره برسول شيخ الجن هادي ، ثم عاد الحارس وحده

وهو يقول : إنه قادم إليك أيها الرسول .

وقدم وحش مرعب زمجرته تملأ الغابة يصيح: أنا ملك الغابة .. أين الزائر؟! .. أين رسول شيخ الجن هادي؟! فأشار الحارس نحو زهلول فصاح الوحش : ادخل أيها البطل ..ماذا تريد من ملك الوحوش ؟

فقال زهلول بقلب أقوى من الحديد: اخرج لنا أيها الملك لنتأكد من أنك ملك الغابة.

وخرج الوحش له ، ولما أصبح أمام زهلول ضربة بسيفه المسلول على أم رأسه ، فصرخ صرخة عظيمة مدوية هزت أركان الغابة ثم خمد فنام ، فذهب زهلول للحارس وقال: يا هذا! هذا ليس الملك اذهب وأعلمه بأني رسول شيخ الجن هادي

فأسرع الوحش الحارس إلى القصر ، ثم رجع وهو يقول : إنه قادم ورائي أيها الرسول .

وجاء الصوت المرعب عاليا في الأفق ، وهو يصيح : أنا ملك الوحوش .. أين الزائر؟ .. أين رسول شيخ الجآن هادي؟.. ادخل يا بطل الزمان .. ادخل يا زهلول الإنسان ، مالك خائف ؟! أتحمل مثل هذا السيف وتكون جبانا ؟! .. ادخل .

فصاح زهلول بقلب أقوى من الصخر : بل اخرج يا ملك الوحوش ! لأتأكد منك ومن شخصك .

فزمجر وخرج ، ولما دنا من زهلول فاجأه بالضربة بسيفه القصير ، فصاح الوحش على أثرها صياحا مرعبا، وبعد حين رقد ونام ، هرعت الأسود تزمجر بصوت عال جدا على حدة الصرخة إلى قصر الملك يتسألون عن تلك الصيحات التي هزت الغابة ، فقال الملك : عودوا حيث كنتم أيها الوحوش .. لا شيء .. لا شيء .

وجاءه الحارس وذكره برسول شيخ الجن هادي ، فتبعه الملك بعد انصرافه لمقابلة زهلول ، وهو يصيح عاليا مما قذف الرعب في وحوش الغابة وقال : أنا ملك الوحوش .. أين الزائر؟ أين رسول شيخ الجن هادي ؟.. ادخل أيها الضيف .

فقال زهلول بكل ثبات وشجاعة : اخرج أيها الملك لأتأكد من شخصك .

فخرج الوحش من الباب والطوق معلق في عنقه ، فأخذه عن عنقه ، وقال له الوحش : ماذا تريد مني .. أيها الإنسان؟؟

فقال زهلول وهو يعيد الطوق إلى عنق الوحش: أريد حمايتك ونقلي إلى الجهة الأخرى من الغابة ، ويسلم عليك شيخ الجن هادي بن علام .

فصاح الوحش خاضعا: اركب على ظهري ، فأنت في حمايتي ، ولا تخف يا زهلول

وركبه زهلول ومشى به في طرقات الغابة، والحيوانات تنظر إلى سيدها باستغراب إلى ملكهم القوي يحمل هذا المخلوق الغريب ، وقد حاول الملك أن يغدر بزهلول ، ويدعه في نصف الغابة ولكنه أبى النزول ، وظل ممسكا بالطوق ، وبعد مرور يومين من المسير المتواصل وصل به الوحش لآخر الغابة ، فأخذ الطوق عن عنقه وشكره ، ورقد في مكان بضع ساعات ثم أكل وشرب من كيسه السحري ، واقترب من غابة الأفاعي، وكم كان منظرها مرعبا لكثرتها واختلاف أطوالها وأشكالها وأحجامها ؟! وفحيحها يقذف الرعب في الاوصال والأبدان ؛ ولكنه بقلبه الذي تمرس على اجتياز الصعاب والأهوال لم يتأثر بها ، وقرب من حارس الغابة ، ودفع إليه الطوق وقال : اخبر الملكة بوصولي ، وأنا رسول شيخ الجن هادي .

وعاد الحارس يخبره بقدوم الملكة ، وعلى أثره جاءت حية كبيرة تتمايل في زحفها من ضخامتها وتضع على رأسها تاجا من الجوهر ، جميل ذو بريق آخاذ، وهي تقول : أهلا بضيفنا أهلا برسول شيخ الجن.. ادخل أيها الصاحب .. ادخل ولا تخف أنا ملكة الحيات.

فقال : اخرجي لنا حتى نصدق أنك الملكة .

فخرجت إليه ، ولما اقتربت منه ضربها بسيفه الضربة القاضية ، فصرخت فترة من الوقت هزت المكان وزلزلت الأشجار، ثم راحت في سبات عميق ، ثم قال زهلول للحية الحارسة : أريد الملكة ، فهذه ليست ملكة .

فذهبت الحارسة ثانية ثم عادت تقول : إنها قادمة أيها الرسول .

وجاءت حية أكبر من الأولى ، وعلى رأسها تاج أجمل وأحلى من تاج الحية الأولى ، وله بريق أشد

لمعانا من بريق تاج الحية الأولى ، وقالت مخاطبة لزهلول: مرحبا برسول شيخ الجن هادي! أهلا بزهلول بطل هذا الزمان ..أنا الملكة ماذا تريد مني ؟

فقال : اخرجي لنصدق أنك الملكة .

فخرجت إليه فضربها بسيفه القصير ، فصاحت صيحة هائلة استمرت ساعة من الزمن ثم خمدت أنفاسها ، ثم قال للحية الحارسة : لم تحضر الملكة .

فقالت : انتظر سأخبرها من جديد .

وعادت وخلفها حية ضخمة عملاقة تتهادى، وعلى رأسها تاج عظيم تصيح وتولول وتقول : أهلا بالضيف الغالي! أهلا بالبطل زهلول !..أنا ملكة الحيات في هذه الغابة العظيمة .. ماذا تريد منا أيها الإنسان ؟

فقال : أرني الطوق يا ملكة الزمان .

فخرجت وأرته الطوق ، فأخذه منها وجعله في عنقها وقال : يسلم عليك شيخ الجن هادي بن علام ويطلب منك مساعدتي في قطع هذه الغابة والأهوال تحت حمايتك من اعتداء الأفاعي والثعابين .

فقالت مستسلمة : حسنا ، اصعد على متني أيها الأنسان !

ففعل ، فشقت به الغابة ، والحيات مندهشة لهذا المشهد ، وهو حمل الملكة العظيمة لهذا المخلوق العجيب ، ولما وصل آخر الغابة أثنى عليها الثناء الجميل ، وأخذ طوقه، وجلس يستريح ويستعد لاجتياز الغابة الثالثة والأخيرة غابة الطيور الشرسة .

ولما تهيأ للسفر اقترب من غابة الطيور الوحشية ، وأخرج السيف والطوق ، وتقدم لحارس الغابة وسلم عليه ، وأعطاه الطوق قائلا : قل لمولاك الملك إنني رسول من عند شيخ الجن هادي .

ذهب الحارس برهة ثم عاد وحيدا ، ثم أتى بعدئذ طائر ضخم الهيكل وحام حول المكان ، وهو

يصيح بأعلى صوت : يا زهلول ! . . أنا ملك هذه الغابة ! أنا النسر الأحمر ذو التاج المرصع ! ماذا تريد مني يا إنسان ؟!

فصرخ زهلول بقلب كالحديد: ادنو مني يا ملك الطيور؛ لأدقق النظر فيك، وأتحقق أنك سيد هذه الغابة كما علمني شيخ الجن هادي .

فهبط النسر أمامه ، ولم ير معه الطوق ، فضربه ضربة بالسيف ، فصاح النسر منها صياحا مزعجا ، ثم ذهب في نوم عميق ، وقال زهلول للحارس : هذا ليس بالملك .. اخبره بوجودي فطار الحارس البواب حيث قصر ملك الغابة ، ولما رجع أتى خلفه طائر أضخم من النسر الأول غيم على المكان بجناحيه كأنه غمامة ، فقال له زهلول : اهبط لأراك يا ملك الغابة ! وأتحقق من ذلك .

فلما هبط الطائر الضخم ، ولم يكن معه الطوق ، جرى له ما جرى للنسر السابق ، ثم قال للحارس ثالثة : هذا ما هو بالملك يا حارس الغابة ! أسرع بإخبار الملك بأني رسول شيخ الجن هادي بن علام .

راح الحارس للقصر ثم عاد مؤكدا لزهلول بقدوم الملك ، ورفرف على المكان نسر هائل الحجم كأنه سحابة شتاء يصيح قائلا : أهلا بالبطل زهلول ! ..أنا ملك هذه الطيور وسيد هذه الغابة وماذا يريد منا شيخ الجن هادي؟!

صاح زهلول الشجاع : انزل حتى نتأكد من شخصك يا ملك الطيور!

فهبط بالقرب من زهلول وفي عنقه الطوق ، فأخذه زهلول وهتف : أجل أنت ملك الغابة ! ثم وضعه في عنقه مرة أخرى وهو يقول : يسلم عليك شيخ الجن هادي ، ويقول لك ساعديني في اجتياز هذه الغابة .

فقال النسر الكبير خاضعا : أنا رهن أمر شيخ الجن اركب .

فركب زهلول على ظهره ، فطار به حتى قطع به الغابة ، وأنزله على جبل ، ثم قفل عائدا لمملكته فاستراح زهلول أياما آخر على ذلك الجبل العملاق ، ثم تابع سيره جهة نهر الذهب فوصله

بعد أسابيع ، فوجد عنده قاربا وفيه جني ، فسلم عليه ، واعلمه أنه آت من قبل شيخ الجن هادي قاصدا بلاد الجن الأزرق ، وإلى شيخ الجن داود ، فأمره الجني بالركوب قائلا : مرحبا بك في نهر الذهب .

ولما استوى زهلول على متن القارب ، وتحرك القارب قليلا دفع الفتى زهلول الجني في النهر، وساق هو القارب بنفسه كما أوصاه شيخ الجن هادي حتى لا يغدر به الجني ، ويأكله في نصف النهر ، وبعد ساعات وصل إلى نهاية النهر، ووجد جنيا آخر في انتظاره ، فأعطاه القارب ، وسأله عن نهر الفضة ، وتركه حائرا في أمره ، وتذكر زهلول أن شيخ الجن طلب منه اجتياز النهر الفضي ليلا ، وما زالت الدنيا نهارا ، فجلس يأكل ويشرب حتى دخل الليل ، فمشى نحو نهر الفضة ، فوجد قاربا ولا أحد حوله ، فتسلل حتى ركبه وفك حبله وانطلق به ، فسمع حينئذ صوتا يصيح : أين أخذت القارب ؟ .. ارجع يا هذا .

فلم يصغ زهلول لندائه ، واستمر بالتجديف إلى آخر النهر الذي وصله مع إطلالة الفجر ، فربط القارب وسار هدفه نهر اللؤلؤ ، وبعد أكل وشرب ونوم خفيف تابع المسير حيث النهر فوصله بسلام ، فوجد مجموعة من القوارب والرجال ، فطلب من أحدهم نقله إلى آخر النهر بقاربه ، فحمله الرجل بقاربه إلى آخر النهر ، فشكره زهلول ووهبه ثوبا جميلا من الحرير أعطاه إياه شيخ الجن هادي بن علام ، فقد دخل بلاد الجان الأزرق ، وقصد زيارة شيخ الجن داود.

فلما استقبله شيخ الجن داود ، وعلم أنه انسي بعد قراءة رسالة شيخ الجن هادي رحب به غاية الترحيب ، وتعجب من وصوله إلى هذه البلاد النائية باحثا وطالبا زوجته شهلا بنت الملك همام بن هدهد أبو الملوك السبعة والملكات السبعة، فاستمع الشيخ الجني لحكاية زهلول العجيبة والغريبة بكل جوارحه وأركانه وبشغف لم يحصل له من قبل ، ولما قال زهلول: وأنا الآن يا سيدي الكبير بين يديك ! ابغي مساعدتك في الوصول لزوجتي وأولادي بعد كل هذه السنوات في المسير لبلادكم وحكمكم .

فقال شيخ الجن : ابشر يا إنسان بنيل المراد .

وأمر خدمه بالاهتمام والعناية به ثلاثة أيام ، ثم قال له : سوف أدبر لك الأمر أيها الأمير زهلول من وصل إلينا يلق كل خير وعون .



بعد أيام ثلاثة طلب شيخ الجن داود زهلولا ، فأتى ملبيا على الفور ، وقبل يدي الشيخ الجني الذي قال له : يا بني وصولك إلى هنا حي أمر غريب وعجيب في بلاد وممالك الجن الأزرق !

وفي نفس الوقت هو أمر خطير .. فهذه أول مرة اسمع واعلم أن إنسيا دخل بلادنا !! فكيف بمن تزوج بامرأة من بلادنا؟! .. بل ملكة من الملكات.. وأيّ ملكة؟! بنت من بنات الملك همام بن هدهد ..! أبو الملوك وأخو الملك وعم الملوك!! فهذه البلاد والمالك لا يستطيع الحياة بها الا الجن الأزرق فحتى الجن الأحمر والأصفر والأخضر لا يدخلونها إلا برسائل بين ملوك الجن فكيف بالأنس؟! واعلم يا بني أن هذه أول بلاد الجن الأزرق من هذه الناحية ، وبيننا وبين أول مملكة مسافة شهر على ظهر الحصان الطائر الذي يسابق الريح ، فممالك الجن الأزرق أيها الإنسان مائة مملكة ، فالملك همام يحكم هو وأولاده على خمس عشرة مملكة ، وأخوه برهان بن هدهد وأولاده عشر ممالك ، وأبناء عمومته ممالك أخرى ، فالجن الأزرق آلاف آلاف الأعداد فأكبر ممالك همام الملك هو حاكمها وسيدها ، ويحكم أولاده السبعة كل واحد منهم مملكة ، وكل أنثى تحكم مملكة، وكلهم ينطون تحت جناحه ، وبما أن جنيتك من بنات الملك همام سنذهب إلى هذه المملكة مملكة الملك الأكبر أنا وأنت وغلامي سفير، وهذه ثياب الجن الأزرق يا زهلول ـ وأعطاه ثياب الجن الأزرق ـ البسها يا زهلول ، والخيل الطيارة بانتظارنا إلى مملكة الملك همام لمقابلة أم الملك ؛ فهي

صديقة لي ، وتحترمني كثيرا جهز نفسك واثبت جيدا على صهوة الجواد ، ولا تترك قيد العنق حتى نصل إلى هناك ونهبط على الأرض يا ولدي .

في أرض الجآن الأزرق

وبعد وقت يسير كان الرجال يطيرون في عنان السماء على ظهور الخيول الطائرة ؛ وإذا اعترضهم أحد في عنان السماء أو في الطريق صاح داود : أنا داود شيخ الجن يا هذا !

وبعد مسير أكثر من ثلاثين يوما وصلوا أبواب مملكة الملك همام ، ولما عرف حرس الأبواب أن القادم شيخ الجن داود قبلوا يديه ورحبوا به غاية الترحيب، فأرسل غلامه سفير إلى والدة الملك مخبرها برغبة شيخ الجن داود بزيارتها، فسعدت الملكة الأم بهذه الزيارة وهذه الرغبة، وأرسلت وفدا ليستقبل شيخ الجن داود ، ولما دخل قصرها قبلت أياديه ، وشكرته على هذه الزيارة الكريمة التي خصها بها ، وقالت : يا مولانا داود أهلا بك في مملكة ولدي همام !! .. ونظرت لضيوف داود مرحبة بهم وقالت : هذا خادمك سفير قد عرفناه .. ولكنني أشم رائحة إنس في المكان!!.. لقد دخلت بلاد الإنس منذ أكثر من ستمائة عام .. فأعرف رائحتهم يا سيدي داود! فهل هذا الرجل انسي يا شيخ الجن داود بن غسان؟! .. بل هل يعقل أن يصل إنس لهذه البلاد وهذه الديار؟! أم لعلك يا مولاي قادم من بلاد بني آدم ؟!

فابتسم داود ابتسامة واسعة وقال ضاحكا : أولا سلام الله عليك يا ملكة زادة! .. فهذا ولدي وصديقي زهلول! جئنا ومعنا حكاية من أغرب مما ستسمعين يا أم الملوك والملكات.. فهو إنسي كما حزرت وخمنت .. فأين نجلس؟ .. فأحب أن أجلس معك وحيدا .. يا سفير خذ زهلولا وانتظرني في بستان القصر.

وجلست الملكة الأم على انفراد مع داود ، واستمعت لسبب مجيئه ، وإلى القصة العجيبة التي معه فقالت بذهول واستغراب: الله ...الله!! سبحان الله! لا أكاد اصدق ما اسمع يا مولاي!! كيف وصل سالما لهذه البلاد؟! إن هذا جهد يعجز عنه أبطال وعمالقة ومردة الجن ..إنسي يصل لبلاد الجن الأزرق .. إن هذا لشي عجاب!

بعد أن زال الذهول عنها أرسلت الملكة وراء زهلول وسفير ، فقبل زهلول يديها من جديد ، وبكى وبكى حتى أبكى الملكة وشيخ الجن داود وغلامه سفير حتى أنها قالت : ألهذا القدر

تحب ابنة ولدي ؟!

فقال شيخ الجن : يا ولدي يا زهلول ! فليسكن قلبك ، فقد وعدت الملكة أم الملوك والملكات بمساعدتك والوقوف معك ، فهي تقول بوصولك إلى هذه البلاد لأول مرة تستحق أن تكون ملكا من عظام ملوك الجآن .. فاطمئن فقد أشفقت الملكة عليك، ووعدتني بالمحافظة عليك وتبليغك مرامك ، فقص عليها قصتك من أولها لآخرها مع أنني ذكرتها لها ؛ ولكنها تريد أن تسمع الحكاية مرة أخرى من صاحب الشأن ، وعندما تنتهي منها ، ومن جمعك بحفيدتها بمشيئة الرب ستأمر بتدوينها وكتابتها لتحفظ في خزائن ملوك الجآن من بني نبهان ؛ لتعد من غرائب وعجائب ما يحتفظون به .

فتكلم زهلول ساعة وساعة عن هربه من زوجة أبيه ليلا إلى غابة الجن المرعبة ، وعن شفقة فتيات الجن عليه تلك الليلة ، وعن فقد الكيس السحري في القرية ، ومن ثم العودة لغابة الجن وقتله للجني الأسود ، ثم حبسه في بلاد الجن الأسود ، ثم العفو عنه بجهود صديقه الجني برهود ، ثم تعرفه على الملكة شهلا في قصر الأميرة فردوس ، وعن حبه وعشقه لها ، ثم زواجهما بعدما رضخ لشروطها ، ثم هجرها له ، ثم مسيره إلى بلاد الجن الأزرق كل هذه السنوات الطوال حتى وصل إلى بين يدي الملكة زادة ، وقد عطفت عليه الملكة العطف كله ، وتأثرت من اخلاصه وغرامه بحفيدتها ، وعادت للبكاء شفقة وتأثرا بحكاية الفتى زهلول وحبه لابنة ابنها وقالت : أعجب حكاية اسمعها في عمري المديد! .. فوصولك يا زهلول إلى هنا من أغرب ما في الدنيا ! فقد بلغت من العمر ما يزيد عن سبعمائة عام ما سمعت بدخول انسي لبلادنا كلها .

فقال داود باسما : أنا زدت على الآلف يا مولاتي ! وما سمعت بمثل ذلك ، ما العمل يا ملكة الدنيا ؟

فقالت الملكة بعد صمت عميق : أيها الشاب المغامر والذي أمضى سنوات عمره في المشي للوصول لزوجته شهلا بنت همام الملك .. فهمام ولدي يا ولدي يا زهلول الطيب! ولكن ليست لي حفيدة اسمها شهلا .. هل سمعت جاريتها تناديها بغير هذا الاسم ؟؟

أصاب زهلول الذعر والدهشة ، وكذلك شيخ الجن داود ، ورد عليها: لا ، يا مولاتي الملكة! اسمها الملكة شهلا ابنة الملك همام بن الملك الهدهد .. من ملوك الجآن الأزرق !

فرسمت الملكة الأم ابتسامة كبيرة على وجهها الساكن ، ونظرت لشيخ الجن داود الذي كان هو بدوره مندهشا مما يسمع وقالت: هون عليك أيها الإنسي ! ستصل إلى زوجك بمشيئة الله سبحانه.. سوف أدعو الملكات بنات ابني لتراهن خفية ؛ فإذا عرفت زوجتك منهن فاذكرها لي بعد انصرافهن .. وأنت يا شيخ الجن داود هل لديك رغبة في البقاء في ديارنا أم تريد العودة إلى قصرك في أول بلاد الجن الأزرق ؟؟

قال داود: سأمكث يومين أزور الملك هماما والملكة شهدة وبعض الأصدقاء بمناسبة حلولي ضيفا عليك ، ثم ارجع لقصري ، وأنا قد سلمتك هذا الإنسان فحافظي عليه كل الحفظ ، وحققي له مرامه جزاء سعيه وغربته كل هذه السنين ، ولتعلقه النادر بزوجته وولديه ، مع أنه كان في غنى كبير عن هذا التعب والهلاك ..فابحثي له عن زوجته ، ولا تخيبي أملي ورجائي فيك يا ملكة زادة يا أم الملوك والملكات يا صاحبة المكرمات المشهودات !.. وأما أنا يا زهلول فقد وهبتك الحصان الطيار فاحتفظ به وعد به لبلاد الأنس ذكرى من والدك الشيخ داود .

فقبل زهلول يدي الشيخ وشكره وأثنى على حسن اهتمامه به ، وغادر داود وغلامه سفير قصر الملكة وهو يقول : سوف أمر عليك أيتها الملكة مودعا قبل مغادرتي هذه المملكة .

ردت الملكة بكل احترام: أنا بانتظارك يا والدي العزيز .. فكلما أراك أيها الشيخ الجليل اذكر والدي ـ رحمه الله ـ واذكر حبه لك .. رافقتك السلامة .

رحبت الملكة بزهلول وأنزلته في جناح خاص لا يدخله أحد إلا بإذنها ، وأوصت به الخادمة على أنه ضيف عزيز من رجال شيخ الجن داود ، وطلبت منه أن لا يكشف أمره لأحد ، ولا يذكر أنه من الأنس ، وعليه أن يبقى مرتديا للباس الجن الأزرق الذي وهبه له شيخ الجن داود حتى حين وأعلمته أنها أرسلت وراء حفيداتها من ابنها الملك همام لزيارتها في قصرها ، وحضرت الملكات في اليوم التالي ملبيات دعوة جدتهنّ الملكة الكبيرة ، وقد حولت الملكة زهلولا لجوهرة في تاجها

وقد طلبت منه أن يحقق ويدقق النظر في بنات ابنها همام ؛ ليعرف من منهن حليلته ، ثم ليقل عنها وصفتها ، ولما اجتمعت الحفيدات بجدتهن بقاعة كبيرة ، كانت الجدة تضع في رأسها تاجا جميلا شديد اللمعان ، وفيه جوهرة جديدة هي زهلول ، وبعد أن رحبت الجدة بحفيداتها سمعت إحداهن تهمس : رائحة غريبة في القاعة أيتها الأخوات .. رائحة غريبة فعلا ..!!

فقالت الجدة : فلعلها رائحة تاجي الذي أضعه على رأسي في السنة مرة .. فقد أمرت الجواري بوضعه بالطيب والبخور .

ولما انصرفت الملكات من زيارة جدتهن المشتاقة لهن ، وغادرن المكان أسرعت الملكة إلى جناحها الخاص، وأعادت زهلول لصورته البشرية ، وهي متلهفة لمعرفة من منهن المتزوجة من بشر ؛ لأن بعضهن عزباوات لليوم فقالت بلهفة : من .. من هي ؟!

فقال بحزن ودمع : لا واحدة منهن .. غير موجودة معهن يا مولاتي !!

فقالت: أتعرف زوجتك جيدا ؟! فرد واثقا وهو يتنهد : مولاتي !! مكثت علاقة الزواج بيننا أكثر من خمس سنين، ولي منها ولدان .. صدقيني أنها غير موجودة معهن .

قالت : أصدقك ، فاعلم أن حفيداتي من الملك همام سبع ملكات ، ولم يحضر منهن إلا أربع.. دعني أتفكر قليلا .. إذن هي ليست واحدة من هؤلاء الأربع ، من الغد يا زهلول ساحولك لزر في ثوبي ، وأدور بك على الملكات الثلاث ، ولما نرجع إلى هنا تذكر لي من هي منهن .

قال : أمرك أيتها الملكة الطيبة .



في الصباح تحول زهلول لزر في ثوب الملكة زادة ، وانطلقت بزيارة إلى حفيداتها اللواتي تخلفن عن زيارتها في ذلك النهار ، فزارت الملكة شفة ، والملكة وردة الجن ، والملكة الصغيرة ريم النساء ولما تمت الزيارة لهؤلاء الملكات الجنيات ورجعت الملكة الكبيرة إلى قصرها ، ثم أعادت زهلول

لخالته الإنسية فقالت له : من هي يا أمير زهلول ؟!

فابتسم الرجل وقال : إن لم تخني الذاكرة يا مولاتي ! فامرأتي هي الملكة التي زرناها في الأخير فقالت الملكة الكبيرة وهي تهز رأسها : ريم النساء!! ..أنا توقعت ذلك منذ أن حدثتني بقصتك يا زهلول .. فهي ملكة غريبة الأطوار! ولليوم ترفض الزواج .. والجنية فردوس التي التقيت في بيتها بريم النساء قد تزوجت من أحد أحفادي الرجال .. عرفتنا عليها الملكة ريم النساء .. ولكني أجلت الحديث معها عن حكايتك حتى أرى وأتثبت من صدقك ومعرفتك لجسم زوجتك! اسمع يا زهلول سأرسل وراءها ، وعندما نجلس معا سأطلب دخولك علينا فتدخل وتجلس بجواري ؛ لنرى هل تعرفك الملكة بعد كل هذه السنوات ؟! .. كم لكم متفرقان ؟

رد بأسف وحزن : قريب من خمس عشرة سنة يا مولاتي! المدة التي قضيتها للوصول لبلادكم أرسلت الملكة زادة غلاما لدعوة الملكة ريم النساء وحاجتها لها لتقضي معها بضعة أيام ورجتها ألا تتأخر عليها ، فردت عليها ريم النساء بأنها قادمة إليها خلال أيام ، وجاءت الملكة ريم النساء بعد أيام إلى مملكة والدها فزارت والديها ، ثم اتجهت إلى قصر جدتها زادة التي أخذتها بالعناق والتقبيل ، مما أدهش الملكة فهي منذ أيام التقت بجدتها ، وبعد أن استراحت الملكة وتناولت الطعام مع الجدة انتقلت بها الجدة إلى حجرتها الخاصة ولم تحدثها خلال هذه الساعات بشيء من شأن الفتى زهلول ، ولما استقرا في الحجرة الخاصة بدأت تسألها عن أخبارها وعن علاقتها بالأنس وصديقتها زمردة ، فابتسمت ريم النساء وقالت : يا جدتي العزيزة ! ذكرتيني بصديقة قديمة .. إيه .. ذكرتيني بغابة الجن القريبة من بلاد الأنس! .. وتنهدت بعمق وهي مسنغربة لحديث جدتها عن الأنس وزمردة ، وقالت : آه .. يا جدتي لي سنوات وسنوات لم أذهب إلى هناك .. وذرفت الدموع .

فقالت الجدة : لابد إنها ذكريات جميلة .. مالك تبكين يا عزيزتي ؟! .. مالك تبكين يا جنيتي الصغيرة ؟! .. هل من شيء يؤلمك ؟! هل تذكرت شيئا يبكيك ؟!

قالت ريم النساء : لا أدري .. ولكنها ذكريات!!

وأخذت بالبكاء فتركتها الجدة ، وأدركت أنها لابد تذكرت زوجها في تلك الأمصار ، وخرجت وهي تقول : لا تخرجي سأعود بعد قليل يا حفيدتي .

وطلبت زهلول وقالت : سأدخلك الآن ، ولا تتكلم .. إياك والبكاء ، فالأميرة تبكي كأنها تذكرتك .. الزم الصمت .

عادت الملكة لحفيدتها وبرفقتها زهلول بثياب الجن الأزرق ، فنظرت إليه الملكة ريم النساء لترى من المرافق لجدتها زادة ، ونظر إليها بحب وشغف فارتجف قلبها لتلك النظرة الحزينة الباكية ؛ ولكن لم يخطر في بالها أن يكون هذا الداخل زهلولا ، وكيف يخطر ذلك ؟! ومع ذلك قالت لجدتها : يا جدتي ..هل هذا إنسي ؟! إني أشم رائحة الأنس في هذا المكان .. من هذا الرجل يا جدتي ؟!

فقالت الملكة وفي صوتها اضطراب : انظري إليه جيدا يا ريم النساء .

فصاحت الملكة وكلها توتر وقلق : زهلول ! .. هل يمكن أن تكون أنت؟!

وشهقت شهقة فأغمي عليها ، وشهق زهلول هو الآخر شهقة خر صريعا مغمى عليه ، فهرعت الجواري لمعالجتهما وأشفقت عليهما الملكة من الهلاك ، ونقلت زهلول إلى غرفته ، وظلت الملكة ريم النساء في غرفة جدتها ، ولما أفاقت من إغمائها قالت : يا جدتي ..هل هذا الرجل انسي ؟!

فهمست الجدة في أذنها : هذا زوجك يا ريم النساء ! يا ملكة شهلا ! ..وسأسمع منك القصة وأذكر لك قصة مجيئه إلى هنا .

روت الملكة الصغيرة قصتها في بلاد الأنس ، واستمعت ريم النساء بذهول وعجب إلى رحلة زوجها زهلول من بلاد الإنسان إلى بلاد الجن الأزرق ، واجتيازه كل المسافات والعقبات من أجل اللقاء بها وبولديه ، فأخذت بالبكاء والنشيج من جديد وجدتها تخفف من آلامها وهمها وقالت : قصتك وقصته عجيبة يا حفيدتي ، وسوف أقف معك ، ولا تخشي على زوجك من أذى الجن ، وهل أنت راغبة بالعودة معه لبلاد الإنسان ؟! إن كان الجواب بنعم ، فلسوف أتكلم مع

والدك الملك ، ومع الأهل كلهم ، فهذه أول مرة ترتبط جنية زرقاء بإنسان ، فبعد كل هذه السنوات من التعب لا أظن أنك لا تريدين الذهاب معه .. أليس لك ولد منه ؟؟

قالت ريم بانكسار : بلى يا جدتاه!..فقد كبرا وأصبحا فارسين شابين .. أين زهلول الآن ؟!

فقالت : أصابه إغماء وهو قادم ، فهذا الإنسي وفي لك ، ولولا حبه العميق لك ما قطع هذه البلاد والجبال والبحار للوصول إلى هنا .

دخل زهلول فقامت الملكة وقبلت يديه وعانقته ، وهي تذرف الدموع ، وفعل مثلها وهو يقول بخشوع : ألم تقولي وإن كنت حقا ترغب بي حليلة فأتني في بلادي ، واطلبني من أبي الملك همام بن هدهد ملك الجآن الأزرق . فها أنا قد جئت لأطلبك من أبيك الملك همام بن هدد ملك الجآن الأزرق .

قالت باكية : الحمد لله على السلامة .. اغفر لي ما سببته لك من تعب وبأس .. أنت لم تف بعهدك ، العهد الذي تعاهدنا عليه يا إنسان .

فقال وهو يمسح دموعه الحارة المنسابة على خديه : الحب والصدق فيه هما اللذان دفعاني للمسير لبلادكم .. والأولاد فلذة من الكبد أيتها الملكة .. جئت لبلادكم بناء على رغبتك ؛ لتتأكدي من صدق عواطفي نحوك وتعلقي الكبير بك أيتها الملكة العظيمة ؛ فجئت لأطلبك من الملك .

واستمر القيل والقال بينهم ساعة من الزمن حتى قالت ريم : يا جدتي ، ما العمل الآن ؟

فقالت زادة: أفهم من كلامك ، ومما شاهدته من مشاعركم أنك ترغبين بالمسير معه إلى بلاده ألا تريدين التفكير بالأمر قبل أن يعلم أهل هذه البلاد بالقصة ؟!

قالت ريم : مولاتي الملكة ! أبعد كل هذه السنوات من زواجنا لزهلول لا أستطيع أن أقول لا ولكن هذا الأمر يحتاج إلى موافقة الأب والأم والجدة والاخوة ، وسأترك المملكة والتاج وأعيش معه حتى يفرق بيننا الموت إذا رضي الجميع بهذا الاقتران .

فقبل زهلول يدها وهمس قائلا : بارك الله فيك يا شهلا .. أنا مشتاق للصبية .. أرغب برؤية

الأولاد يا مولاتي الملكة .

ضحكت الجدة زادة : وأنا يا حفيدتي ريم النساء لديّ شوق لرؤيتهما مثل الفتى زهلول قبل مقابلة الملك ؛ لأشرح له أمركما وأتشفع لكم عنده ، فهذا حدث غريب ونادر في بلاد الجن الأزرق !!

قالت ريم : هما ـ يا جدتي ـ في جزيرة الليمون مع خادمتي الخاصة ، ترعاهما وتقوم على خدمتهما

قالت الجدة : سوف نذهب كلنا إلى جزيرة الليمون .

مضت الملكة ريم النساء إلى والدتها لتودعها ، وكذلك لوالدها الملك همام ، وأعلمتهم أنها أنهت زيارتها لجدتها زادة ، وأنها ستصحبها معها إلى مملكتها وتستضيفها بضعة أيام ، وغادرت الملكة مملكة والدها برفقة حرسها وخدمها ، ثم لحقت بها الملكة زادة وزهلول ، وسافروا جميعهم إلى جزيرة الليمون ، وكم كان هنالك اللقاء سحريا وجميلا ، وبكى الجميع تأثرا عندما التقى الوالد بولديه ، وتعرف الشابان على والدهما ، وسرت العجوز بالشابين الصغيرين وبحسنهما وأدبهما ، ووعدتهم الملكة الأم بجمع شملهم من جديد إلى الأبد ، ثم غادرت إلى مملكة ابنها همام وبصحبتها زهلول ، ولما استراحت من الإرهاق الذي ألم بها من رحلتها الأخيرة أرسلت رسولا لولدها الملك تطلب مجيئه إليها لأمر مهم وخطير ، فلما حضر الملك همام كان منزعجا قلقا لطلب أمه العاجل ، فلما هدأت من روعه قالت : سأقص عليك أغرب حكاية في حياتي !! ..وعليك أن لا ترد طلبي بعد سماعها أيها الملك الهمام !! ..فأنا أمك الملكة زادة بنت الملك شاهان ؛ وأحذرك من الرفض والغضب .

فقال دهشا : لقد أصابني القلق يا أمي ! ..أعاهدك على تحقيق مطلبك مهما يكن .

قالت : مطلبي عظيم ، ولا يمكن أن يخطر لك على بال !

فرد بعجلة وثقة يصاحبها استغراب لمَ ستطلب أمه العجوز : سأحققه ، ولو كان التضحية بنفسي أو تركي ملك هذه الأمة .. تكلمي يا أماه !

فقصت عليه قصة زهلول وريم النساء ؛ وطال الحديث لمنتصف الليل ، والملك يظن أن أمه

تتخيل ما تحكيه له ، ولما انتهى الكلام قال : إنها لقصة خيالية ممتعة يا أماه !! أيعقل أن يصل انسي إلى هنا حيا ؟!

قالت : هذا ما جرى !!

قال وهو غير مصدق : أين هذا الإنسان الذي قطع كل هذه الأهوال والأسفار؟!

فنحن عندما نزور بلاد الإنسان نلبس ثياب الريش السحرية لقطع تلك المسافات ، ونحن من الجن !

أتى زهلول ووقف بين يدي الملك ، وهو مصفر الوجه رعبا وقلقا ، ثم قبل يدي الملك الذي بهت وهو يقول : إي والله هذا بشر !!..هذا إنسي يا أماه !!

وبعد صمت مهيب قال الملك : هل صحيح ما سمعته من الملكة يا زهلول ؟

رد وجلا : نعم يا ملك الزمان ! .. قطعت كل هذه الفيافي والقفار والبحار والجبال ؛ لأطلب منك أن تبارك لي زواجي من الملكة شهلا عفوا ريم النساء .. من شيخ جن إلى شيخ جن إلى أن وصلت بلادكم الرائعة وملككم العظيم .. كما أرادت مولاتي الملكة ريم النساء .

قال الملك بهدوء وبعد صمت عميق : رغم خطورة الأمر واستحالته ..فأمام هذه التضحيات والصبر لا يستطيع المرء أن يقف عائقا أمامكم .. ولقد تعهدت لأمي الملكة زادة بتحقيق طلبها فهنيئا لك يا زهلول الملكة ريم النساء .. وأمام رغبة أربعة من شيوخ الجن الكبار لا نستطيع منعك عن زوجتك ؛ ولسوف أصنع لكما حفلا عجيبا تتحدث عنه ملوك الجن الأزرق إلى آخر الزمان .. ابشري يا أماه ..فهذه أول حادثة في تاريخ الجن الأزرق أن يصل بشر لبلادنا .

فنهضت الملكة العجوز تقبل ولدها وتشكره لصفحه عن ابنته وغلطها بحقه وحق اخوتها وقانون الجآن ، وباركت لزهلول رضا الملك همام وصفحه ، وأرسلت رسولها إلى الملكة ريم النساء تدعوها وولديها للاجتماع بوالديها ، وانتشر خبر دخول زهلول الإنسي لبلاد الجآن الأزرق ، وتعجب كل من سمع بذلك ، وهرع كثير منهم ليسمع القصة من الملك همام بنفسه وينظر هذا المخلوق الذي دخل بلادهم فأخذ الأمراء يتوافدون على قصر الملكة العجوز

لمشاهدة هذا الإنسي ويسمعون قصته ، فأصبح زهلول حديث الجن الأزرق ، وأقام الملك همام حفلا عظيما وبهيجا دعا إليه ملوك الجن الأزرق كلهم ، فوصول إنسان لبلادهم يعد حدثا غريبا ومثيرا ، ودعي شيخ الجن داود لهذا الحفل ، وهنأ الملك بتجديد زواج ابنته الملكة من الإنسي زهلول ، ودام الحفل حين من الزمان ، وأصبحت الملكة ريم حديث فتيات الجن ، وشارك زهلول بالاحتفالات التي أقيمت له ببلاد الجن ، ولما انتهت مواسم الفرح والبهجة دخل زهلول على مولاه الملك وأخبره بحنينه لبلاده ورغبته للسير لبلاد الماء مع زوجته الملكة ريم النساء وولديه ، فأذن لهم ، وعزلت الملكة ريم النساء عن تخت مملكتها ونصبت ملكة مكانها واستأذن زهلول من الملكة شهدة والدة زوجته ، وكذلك من الملكة زادة ، وجرى لهم حفل وداع لائق بهما ، وقد هيئ لزهلول ثوب من الريش السحري ولولديه ، وأخذت الأميرة خادمتها الخاصة بدر وبعض الجواري للحياة معها في بلاد الأنس ، وخرج الأمراء والملوك لوداع الملكة ريم النساء ، ورافقتها جدتها زادة وبعض الملوك إلى أطراف مملكة الجن الأزرق ، وذهب معها ألف جني من الجنود لحراستها وتوصيلها لبلاد الأنس وحمل معها ألف صندوق ممتلئة بالجواهر والأموال المتنوعة ، وركب زهلول حصانه الطيار هديه شيخ الجن داود ، وبعد مسير طويل بين الأرض والسماء وصلوا لبلد الماء ، فوجد قصوره مهجورة تعيش فيها الوحوش والغربان والبوم والأعشاب اليابسة ، فقام الجند بنصب الخيام الملكية حتى يتم اصلاح القصور الخربة ، فقال زهلول : كأن الناس هجروا المدينة يا ريم النساء !

قالت : لا تحزن ، سيعود كل شيء كما كان وأحسن وأبهى .

وأمرت الجند بتنظيف القصور والحدائق ، وانطلق بعضهم لشراء المتاع والأثاث من أكبر المدن وفرشوا ما جلبوه من بلادهم ، واتصل زهلول بصديقه برهود الذي جاء مسرعا ، وكان يظن أن زهلولا قد مات وانقطع أثره ، فسر لنجاحه وحمد الله على عودته سالما ، وبارك للملكة زواجها وعودتها لزهلول ، وقام بمشاركة الجند والخدم بترتيب القصور وفرشها وعمرانها ، وما دخل الليل حتى كانت القصور جاهزة للسكن ، ودبت فيها الحياة وازدانت بالأنوار ،

وانصرف برهود وهو يعد صديقيه بالمجيء غدا وبصحبته زوجته زمردة صديقة الملكة القديمة لتسلم عليهم وتبارك لهم الحياة الجديدة .

ودبت الحياة في القصور من جديد ، فكل من يمر من الناس من حولها يدهش ، ويذهب مخبرا لأهل المدينة ، فأخذ الناس يندفعون للقصور من جديد ، فهم ما زالوا يذكرون التاجر زاهر الدين وهم يتهامسون : هل عاد زاهر الدين؟! فإن الحياة قد دبت في قصوره ، فكان زاهر الدين يستقبلهم ويرحب بهم ويصنع لهم الطعام والولائم ، ولما كمل تجهيز القصور، وأفرغت صناديق الأموال والهدايا عاد الجند الآلف لبلادهم، وقد اشترى برهود عددا من الغلمان والخدم لسيد هذه القصور، وعلم الملك ملك مدينة الماء بعودة زهلول سالما وبصحبة زوجته الملكة الجنية ، فنهض مع وفد كبير من الأمراء والوزراء بزيارة المكان ، فوجدوا الأنوار تملأ القصر وتقدم جندي وقرع الباب ، فخرج إليه شاب جميل الصورة فقال : نعم ، من أنتم ؟

فتقدم الملك وقال للشاب : بل من أنتم ؟!

فقال الغلام : هذا قصر والدي الأمير زهلول .

قال الملك: من زهلول هذا ؟!

الغلام: أبي!! .. زهلول أبي .. من أنت أيها الرجل ومن هؤلاء الذين معك؟!

رد الملك بصوت حاد : هذا القصر كان لزاهر الدين بن شرف الدين .

ابتسم الغلام عندئذ وتذكر أن هذه اسم والده التاجر وقال : نعم ، هذا اسم له أيها السيد من أنتم ؟

رد الملك بحدة : أنا ملك هذه المدينة ! وهؤلاء أمرائي وجنودي ..هل أبوك هنا ؟

رحب بهم الغلام وأخبر والده بأمرهم ، فنهض زهلول بنفسه لاستقبالهم، وكان الملك يقول لرجاله: هذا ابن زاهر من زوجته الجنية إذن ، لقد رجع زاهر الدين أيها السادة .. ستعود الحياة لهذه المدينة مرة أخرى !

عانقهم زهلول فردا فردا ، وشكر لهم مجيئهم وسر بهم أمام الملكة ، وقادهم لقاعة الجلوس

الكبرى ، فقص عليهم بعض حكايته وتجديد زواجه عند ملوك الجن الأزرق ، وعرفهم على ولديه الأمير نجم السماء والأمير قمر السماء ، ثم قال : عدت ولم أجد غلماني ورجالي وتجارتي .
واستمر الحديث بينهم والسمر حتى الفجر، وتخلله طعام لذيذ وفواكه شتى، ومنحهم زهلول الهدايا الجميلة، وودعهم حتى الباب، وهو يقول : بعد أيام

سنعود للماضي والتجارة والبيع ، وتعود الشهرة للمدينة من جديد .

ركب الأمير زهلول جواده الطيار ـ حصان الشيخ داود ـ وركبت زوجته جوادا من جياد والدها ، وفعل الأميران الشابان مثلهما ، وانطلقوا جميعهم ينظرون المدينة بعد غياب هذه السنوات الطوال ، وسأل زهلول عن والده فوجده قد هلك ، ووجد اخوته لأبيه في شر حال ، فمد لهم يد العون من جديد وأكرم أمهم ، وتفقد أخته تينة وأحسن إليها ، ودار على عدد كبير من الفقراء كان يراعهم قبل سفره لبلاد الجآن ، وفي المساء رجع لقصره فوجد أن برهود أحضر له المزيد من الغلمان ، وخصه الملك بعشرة من الجنود الأقوياء لحراسة القصور ، ولم يمض زمن حتى عاد إليه سروان وجروان ، وقد اغتبطا برؤيته وسر هو بهما ، فحدثاه عما حصل في غيابه ، فقال لهما : ما فات مات ؛ فلنبدأ من جديد .. ولسوف أجهز لكما قافلة من مائة حيوان ، وتأخذان خمسين غلاما واستأجروا عددا من الحراس ، واذهبوا لمدينة الحرير فبيعا ما على دوابنا واشتروا ثيابا حريرية حتى نجد غلاما يصلح لقيادة القوافل فيستلم العمل مكانكما .. وعندما ترجعان سالمين بإذن الله ستجدون المتجر قد تم تجهيزه .. ولعل صاحبنا صقرا يسمع بمجيئنا فيؤب إلينا ..فتعود يا سروان لإدارة القصر ، ويعود جروان لإدارة الدكاكين والمساكين .

وبعد أشهر عادت قوافل زهلول محملة بالبضائع الحرير والإستبرق والديباج، وأخذت الحياة تعود كما كانت عندما رجع زهلول لبلده ..وكان صاحبنا زهلول يعتقد بأنه أسعد البشر ، وقام بخدمة أخويه وزوجهما ، وفتح لهما دكانا يعملان بها ، وما عرفهما على نفسه ، فهما ما زالا يرونه التاجر زاهر الدين الرفيق بالفقراء والمساكين ، وذات ليلة قال زهلول لزوجته الملكة شهلا أو ريم النساء : أين الغلمان؟! نجم وقمر لم أرهما هذا النهار .

قالت : طلبا زيارة غابة الجن ، فأذنت لهما ولم يرجعا بعد ..هل أرسل خادمتيهما تبحثان عنهما في غابة الجن أم ننتظر بضع ساعات أخرى؟

قال زهلول : بل تذهبا الآن إني قلق عليهما ..أشعر بانقباض في صدري .

ذهبت الجنيتان الخادمتان في ظلام الليل الدامس إلى غابة الجن تبحثان عن الأميرين ، وعادتا مع الفجر من غير الأميرين ، فقلقت الملكة كثيرا ، وأيقظت زوجها الذي غلبه النوم وهو في انتظارهما ، وأسرت له بالخبر، فقام مسرعا وارتدى ثيابه وأمر بإعداد جواده ، وقال بغضب يشوبه خوف عليهما : هيا نذهب للبحث عنهما !

فقال لغلامه سروان بأنه ذاهب مع زوجته لغابة الجن يبحث عن ولديه الغائبين، وركب جواده الطيار والملكة على جوادها وأسرعا إلى غابة الجن يبحثان؛ ولكنهما لم يجدا شيئا في طول غابة الجن وعرضها ؛ ولكنهما في أحد أطراف الغابة وجدا جنية عجوزا، فسلما عليها وسألاها هل رأت أحدا في الغابة أو شيئا غريبا؟!

قالت العجوز: أنا وصلت هذه الغابة قبل قليل ؛ ولكني وأنا في طبقات الجو مساء أمس شاهدت فرسانا من الجن يحملون شابين صغيرين ، وهما يصرخان ويستغيثان ، فتكلمت معهم فنهروني بشدة ، وهم سائرون جهة المشرق .. وأنا الآن وصلت هذه الغابة ، فلابد أنهم الآن قطعوا مسافة بعيدة بهما .

قال زهلول وهو يحدق البصر في زوجته : لابد أن يكونا ولدينا يا ملكة الزمان !

قالت الملكة : يا أمي ! هل عرفت من أى جن هم ؟

أجابت العجوز : إن لم أخطئ الظن فشكلهما من الجن الأسود .. فأنا أعرف مثل هؤلاء الجن يا بنيتي ..ولكني مندهش منك ومن صاحبك ! فأنت جنية وهو إنسان ؟

تناولت الملكة شهلا يد العجوز وقبلتها وقالت : أيتها العجوز! لي قصر قريب من غابة الجن ما رأيك بأن أستضيفك؟!.. وهل من حاجة اقضيها لك ؟ فأنا ملكة من ملكات الجن الأزرق ولكني لما تزوجت هذا الإنسان خلعت عن تخت الحكم ، ونصبت مكاني ابنة أخى الأكبر.. أنا

ريم النساء! وإذا سمعت بالملك همام بن هدهد فأنا إحدى بناته .

نهضت العجوز وعانقت الملكة بكل حب وإعجاب واحترام ، ثم قالت : كأني سمعت بقصة غريبة لك!..فأنا لي صديقات من الجن الأزرق .. إذن أنت التي تزوجت بشرا وتركت مملكة والدك ؟!

ردت ريم : أجل يا أماه !..وكما قلت لك هذا زوجي الإنسى .

فقالت العجوز : قبلت ضيافتك يا ابنتي الطيبة .

قالت شهلا : هيا نعود للقصر يا أمير زهلول .. ثم نذهب إلى ملك الجن الأسود ونقص عليه أمرنا .

رحبت الملكة شهلا بالجنية العجوز ترحيبا طيبا وأكرمتها غاية الإكرام، وأوصت خادمتها بالاهتمام بها حتى ترجع من عند الملك جلاد هود ، ورحلت برفقة زهلول لبلاد الجن الأسود فرح الملك جلادهود برؤيتهما وبارك لهما الزواج ، ولما سمع الغاية من زيارتهما طلب أحد وزرائه وأمره بالاهتمام والسؤال عن ولدي الملكة ، وأعلن الملك مهددا بأن أي شخص من الجن الأسود يخفي معلومات عن الأميرين نجم السماء وقمر السماء فمصيره الهلاك والعقاب الأليم ، فهذا الحدث قد يسبب ويثير حربا بين بلاد الجن الأزرق والجن الأسود ، فلما انتشر الخبر في البلاد قدم جني واعترف أمام الملك جلادهود بأن يتيم زاد هوا هو الذي تعرض لهما وخطفهما ، فأرسل الملك وراءه فقيل إن له عدة أيام غائب عن بيته ، فأصدر أمرا بالبحث عنه وجلبه قدام الملك ، وقال لزهلول والملكة : يا ملكة الجآن الأزرق .. زهلول هذا كان سجينا عندنا في مصرع ابن أخى زاد هوا منذ سنوات كثيرة .

وذكر لها قصة زهلول عندما سجن في سجنه ، والملكة تسمع وهي تعرف وتعلم هذه القصة بالتفصيل وبسببها دخل زهلول عالم الجن ، ثم قال : وأعتقد أن زهلولا قد رواها وفصلها لك ردت بأدب جم : أجل يا ملك الدنيا ! وكانت سبب دخوله عالم الجن ، ومن ثم تعرفي عليه في قصر الأميرة فردوس .

قال الملك : حق .. حق هذا يا مولاتي الصغيرة !.. فزاد هوا المقتول خطأ كان عنده صديق يحبه كثيرا له ولد صغير ، فقتل هذا الصديق في معركة من معارك زاد هوا ، فكفل هذا الصبي الصغير وعنى بتربيته وتعليمه وتدريبه ، فلما قتل زاد كما تذكرين وسمعت كان عمر هذا الصبي خمس عشرة سنة ، وكان يدعى بيتيم زاد هوا فحقد على زهلول ، ولما تدخل ملك من ملوك الجن الأصفر وعفونا عن زهلول زاد حقد الفتى عليه وكرهه له .. فكأن هذا الرجل ما زال حاقدا رغم مضي كل هذه السنين ، وعندما التقى بأولاد زهلول في غابة الجن ربما تذكر ثأره والماضي ونسي أم الأبناء ، .. فأرجو أن لا يكون المنحوس قد آذاهما .. ولسوف يعاقب عقابا مرا .. فنحن لا نستطيع معاداة ملوك الجن الأزرق يا مولاتي الصغيرة .. أمهلينا بضعة أيام حتى يعود أتباعنا من البحث في نواحي البلاد والأرض .

فقالت الملكة : يا مولاي الملك ! سأصبر سبعة أيام ؛ فإن لم يأتني خبر عنهما وعن يتيم زاد هوا سأطلع والدي الملك همام بن هدهد على جلية الأمر ؛ وليبحث لي عنهما .

فقال الملك : اصبري يا ملكتنا الصغيرة ! لابد أن يكون الخبر عندنا قبل مضي الأيام السبعة .

وغادرت الملكة وزوجها بلاد الجن الأسود إلى قصرها وهي على نار الجمر والقلق والخوف من غدر يتيم زاد هوا بهما ، وعلم أهل بلدة الماء بضياع ولدي الأمير زهلول زوج الجنية فتألموا لألمهما وحزنهما ، وخشوا عليهم من القتل ؛ ولكن زهلولا استمر في عمله كالمعتاد من بيع وشراء وزيارات واستقبال وتصدق على الفقراء والضعفاء ، ولكن خف سهره مع الأصدقاء في الليل وأما الأميرة فقد اشتغل واشتعل قلبها على الولدين ، ولما عادت من بلاد الجن الأسود سألت عن العجوز الجنية فأخبرتها الخادمة قائلة : لقد سافرت ، وشكرتك على حسن الضيافة ووعدت بزيارتنا وهي عائدة من سفرها .

قالت الملكة : ألم تذكر لك قصتها وسبب مجيئها لغابة الجن ؟!

ردت الخادمة : بلى يا مولاتي .. لقد ذكرتها لي لأذكرها لك .

فقال ريم النساء : اسمعينا ما عندك ؟

فقالت الخادمة بدر : إنها تبحث عن رفات ولدها.. فقد جاءها الخبر بأن ولدها قتل في بلاد الغان .. فهي ذاهبة هناك للتأكد من موته وانقضاء أجله .. وقالت إنها عند عودتها ستمر على الملكة ريم النساء وتذكر لك قصة ابنها المقتول ، وتركتني وطارت ..هذا ما سمعته منها يا مولاتي الملكة .



ولدا زهلول والملكة شهلا

قدمت الأميرة زمردة وزوجها برهود لزيارة صديقتها الملكة شهلا ، ولما عرفت باختفاء الشابين شاركت صديقتها الحزن والأسف ، ثم قالت معاتبة لها : لم لم ترسلي لي يا عزيزتي؟!..ألسن صديقات منذ عهد بعيد؟! ..فالذي أتى بنا إليكم الأبناء ، فهم قادمون وراءنا لزيارة نجم السماء وقمر السماء ، فهم بشوق لهم والبقاء عندكم بضعة أيام ، ولسوف يحزنون الآن لضياعهم فهم يحبونهم جدا .. فحتى ابنتا الأميرة بحر تتمنى أن تتزوج من الأمير قمر السماء عندما تصبح عروسا ، وهي قادمة معهم.. ماذا يجري لها عندما تعلم الحدث وقد اختفى العريس؟!

ابتسمت الملكة لهذا الكلام ، وأبدت اعتذارا على عدم إخبارهما ، ثم قالت: شكرا على هذا الكلام يا صديقتي الطيبة .. ظل يوم واحد ويرد والدك الملك علينا .. ثم اطلع والدي على جلية الخبر ليساعدنا في البحث عنهما .

تكلم برهود قائلا : لا تخافي عليهما أيتها الملكة؛ فإذا ذكرا ليتيم زاد هوا أنهما ولداك فلا يستطيع أن يفعل بهما شيئا .. فهو يعلم أن مصيره الفناء والموت إن مسهما بسوء.. وأن يظل هاربا من بلد إلى بلد حتى يقبض عليه أو يموت ..اطمئني يا ملكة الزمان .. ولا تخافي .

قال زهلول بقلق الأب : الحقد والبغض يدفعان المرء إلى عدم النظر في العواقب .

قالت الملكة وهي تنظر في السماء : أرى في الأفق جندا قادمين .. لعلهم من عند والدك الملك يا زمردة الطيبة !

هبطت مجموعة من الجن الأسود أمام باب القصر ، ثم دخلوا على الملكة مسرعين ، وقد كانوا فعلا رسلا قادمين من عند الملك جلاد هود ، وبعد التقاليد المعتادة قال كبيرهم : أيتها الملكة الكريمة نحن رسل الملك جلاد هود إليك ، فهو يطمئنك على ولديك ، ويعلمك بأنه قد تم القبض على أعوان وأصدقاء يتيم زاد هوا ، ولسوف يتم القبض عليه سريعا ، فهو هارب من أتباعنا ، ويطلب منك الملك التأني وعدم التعجل باطلاع والدك على الأمر .. وقد يزورك قريبا ليحدثك عن أخبار ولديك وعن مكان إخفائهما .

وقبلوا أيدى الملكة والأميرة زمردة ابنة سيدهم ، ثم انصرفوا إلى ملكهم ، فقالت زمردة : يا مولاتي ..لا تخافي واطمئني .. سيأتى والدي بنفسه قريبا ويخبرك عن مكان الفارسين الصغيرين إن لم يحضرا معه .



الذي حدث لنجم السماء وأخيه قمر ، بينما هما يلعبان في غابة الجن مساء ذلك اليوم اقتربت منهما جماعة من الجن الأسود فيهم يتيم زاد هوا ، وبعد حديث وتعارف جاء ذكر زهلول ، فتذكر اليتيم مولاه المقتول قديما في غابة الجن ، فقال لجماعته : هذه فرصة أيها الشجعان ! للانتقام من زهلول قاتل زاد هوا .

فغدروا بالأميرين وأوثقوهما بالحبال ، وطاروا بهما إلى بلاد بعيدة ، وفي الطريق التقت بهم الجنية العجوز التي مر ذكرها فزجروها عن الفضول ، ونهروها عن التدخل في شأنهم ، وفكروا بأخذهما لبلدهم وأماكن سكناهم ؛ ولكن يتيم زاد هوا قال: لنأخذهما إلى بلد في آخر الدنيا.. إلى بلاد الثلج والجليد .. فهناك قصر مهجور ، كان لأحد ملوك الأنس ، فلما قتل هجر القصر ولا يعيش فيه أحد منذ سنوات كثيرة ، فنرميهما هناك حتى نوجع قلب أبيهما عليهما ، ويطول البحث عنهما ، كما أوجع قلوبنا بقتل سيدى الفارس زاد هوا .

وبالفعل ألقوهما في ذلك القصر الخرب ، ونزعوا عنهم لباس الجن حتى لا يستطيعا الطيران ، وقال لهم يتيم زاد هوا وهو يشيعهما مودعا : دبرا نفسيكما في هذه الأرض الجرداء .

فاستغاثا به وبأعوانه ، وذكروا لهم أن جدهم من سادة وأكابر ملوك الجن الأزرق همام بن هدهد فلم يكترثوا لهم وأعمى الكره قلوبهم ، بل قام بعضهم بتحقيرهم وشتمهم وعادوا لبلادهم .

ولما رجعوا علموا أن أمرهم افتضح ، وأن الملك جلاد هود غاضب ناقم عليهم ، وأمر رجاله بالبحث عنهم في كل بقاع الدنيا ، فخافوا على أنفسهم من العقاب ، فقام أكثرهم بتسليم نفسه

ومنهم من تبع يتيم زادهوا وأوغل في الهرب، ثم ذهب هو والهاربون مرة أخرى للقصر المهجور ليتصالح معهما ؛ ولكنه لم يجدهما ، فازداد هلعه وخوفه وأحس بغلطته ، فبدأ يفكر بطريقة يتخلص بها من غضب الملك جلاد هود ، فهام في الأرض على وجهه هو ومن معه ، وقد وصل جند الملك جلاد للقصر المهجور ولم يجدوا الشابين ، فأصابهم الهلع وخشوا أن يكون قد عاد يتيم زاد وفعل بهما أمرا منكرا ، فبحثوا في جميع حجرات القصر وما حوله من الغابات والكهوف والآبار ولا أثر لهما ، والذي حصل لهما أنه عندما تركهم رجال الجن الأسود كان في القصر جنية لم ينتبه لها هؤلاء ، وسمعت استغاثة الشابين بخاطفيهما ، فاختبأت حتى لا يشعروا بها ، ولما انصرفوا وابتعدوا عن المكان ظهرت للصبين ، وهي تقول لهما : لا تخافا .. من أنتما ؟! ..أنا الجنية زرقاء .

قال نجم : نحن ولدا الأمير زهلول من بلاد الماء ، وأمنا من الجن الأزرق الملكة ريم النساء .

قالت بدهشة : من زهلول هذا؟! ..ولماذا ترككما هؤلاء الجن هنا ؟!

فقال أحدهما : زهلول هذا إنسي تزوج من أمنا الجنية ، ويبدو أن هؤلاء الجن حاقدون على والدنا فخطفونا من أجل ذلك للانتقام من أبينا زهلول .

قالت: اطمئنوا لي ، ولا تخافا ، سآخذكما معي إلى مدينة الصغد ، وهي مدينة يسكنها الأنس ، ومنها تسيرون لبلادكم .. فأنا لا أستطيع ترك هذه المنطقة ، فحياتي مهددة بالخطر ؛ وإذا قابلتما والديكم ، فسلما عليهما واذكراني لوالدتكم ؛ لعلها تساعدني فيما أنا فيه من العذاب .

نقلتهم الجنية زرقاء لمدينة الصغد ، وهي في أشد الخوف ، وعادت مسرعة للقصر ، فوجدت عملاقا من الجن ينتظرها ، وهو غاضب عليها الغضب الشديد ، ويصيح فيها : أين كنت أيتها الفاجرة ؟؟ هل كان عندك أحد؟!

قالت : لقد هربت ! لقد دخل المكان مجموعة من الجن الأسود .

فصاح هائجا حاقدا حانقا : أنت كاذبة ! أنت ملعونة !!

وأخرج سوطه بعد أن قيدها ، وانهال عليها ضربا بالسياط ، وهي تصيح وتولول ولا مجيب

ولا مغيث ، ولما حضر الجن الأسود يبحثون عن الغلامين مرة أخرى ، شاهدوا العملاق والجنية فقادوهما مكبلين لملك الجن الأسود الذي اتهمهما بقتل الشابين الأميرين ، فأنكر العملاق مشاهدتهما ، وذكرت الجنية زرقاء ما فعلت بالأميرين ، فأمر الملك بحبسهما حتى يظهر الأميران ويتأكد من براءتهما .

وانطلق الجند الأسود لمدينة الصغد يبحثون عنهما ، والذي جرى لهما أنهما عندما تركتهما الجنية زرقاء في طرف مدينة الصغد كانت الدنيا على وشك الظلام ، فمشيا وقد نهش الجوع جوفيهما فطرقا أحد البيوت ، فخرج لهما رجل ضخم الجثة غزير شعر الرأس وطويله ، فقال لهما : مرحبا ادخلا ..ماذا تبغيان أيها الجميلان ؟!

فقال نجم السماء : نحن جائعان ، فتصدق علينا ببعض الطعام والشراب ونحن غريبان من بلاد الماء .

فأدخلهما الرجل الضخم إلى غرفة ، وأحضر لهما قطعة لحم مشوية ، وهو يقول لهما بهدوء وبرودة أعصاب: هذه رجل طفل صغير .. الآن أخرجتها من الموقد كلوها ، ولا تذرا منها شيئا .

فقال نجم السماء وهو يحلق في الرجل : طفل !!.. تعني رجل إنسان يا هذا ؟!

فقال الرجل ببساطة : نعم .. أنا آكل لحم البشر.. فكل طفل أو إنسان يقع في قبضتي يصبح لي قوتا وطعاما ، فأنتما الآن كلا ما قدمته لكما قبل أن تصبحا طعامي .

نظر الشابان في عيني بعضهما لحظات ، ثم قال قمر : يا هذا نحن جن من الجن الأزرق .

فقال الإنسان الوحش : أنا لم أتذوق في حياتي لحم الجن فهذه فرصة طيبة .

فرد عليه نجم : لا بأس أيها الوحش أتريد أن تاكلنا ؟! .. حسنا ، فهات لنا طعاما عاديا ، ولما نسترد عافيتنا فكلنا .. فنحن لا نأكل لحم البشر .

فابتسم الوحش وقال: هذا كلام مقبول، لدي فراخ سمينة سأشويها لكما انتظراني ، وأخذ الرجل المشوية ، وقضم منها قطعة لاكها وخرج وتركهما في الغرفة ، وعاد بعد زمن يسير وهو يحمل الدجاج المحمر ، فأكلا قليلا واستردا بعض عافيتهما ، ثم قال نجم : كيف ستذبحنا أيها

الوحش ؟!

فقال : اتبعاني ؛ لأدخلكما على المسلخ والموقد لتشاهدا ذلك قبل موتكما .

فحمل مشعلا وقادهما لسرداب لا يسع عرضه إلا شخصا واحدا وهو يقول : ادخل الفريسة من هذا النفق وحده على غرفة الذبح ، ثم افترسه واقطعه بالسكاكين والفؤوس واضعه في الفرن واشويه ..ادخلا السرداب فأنتما شابان وديعان .

قال نجم : نعم .. نعم أيها الوحش .. نحن هاربان ونكره الحياة ، فهذه فرصة لنتخلص من الحياة ، ونكون لحما طازجا لبدنك السمين .

فتقدمهما الوحش ؛ فإذا هم في غرفة صغيرة ممتلئة بالفؤوس والسيوف والمدى ، ومنها منفذ إلى موقد النار ، فلما استقرا في الغرفة قال قمر : كيف تصيد البشر ؟

رد الوحش : يأتون إليّ بأنفسهم مثلكم ، أو يبيعني إياهم بعض الأصدقاء ، فلي معارف في هذه البلدة ، وكل الناس يعرفون أني آكل البشر.

قال نجم السماء مخاطبا أخاه : يا أخي الطيب اسمح لي أن أقدم نفسي بالذبح عليك .

فصاح قمر: لا .. أنا أولا .. أنا سأقتل نفسي قبلك .. لا أحب أن أراك مذبوحا قبلي

فصرخ نجم : وأنا لا أريد أن أراك مذبوحا قبلي ؛ فأنا أكبر منك سنا ، ولحمي أسمن من لحمك دعني أيها الوحش أن أقتل نفسي قبل أخي .

فقال قمر : يا وحش .. اختار أحدنا ليذبح نفسه قبل أخيه أمامك .

فقال الوحش : ألم أقل إنكما وديعان مسالمان؟! ..لا تتشاجرا على الموت أمامى .. اقتلا نفسيكما معا .. سأدفع لكل واحد منكما مدية حادة ؛ وليضرب كل واحد نفسه بها .

فصاح نجم : هذا هو العدل .

وتناول سكينا من يد الوحش ووضعها عند عنقه ، وفعل قمر مثله ، وجلس الوحش على كرسي وهو يقول : اقتلا نفسيكما .

فلما تأكدا من حدة السكاكين ، واستعدا لسفك دميهما ، فغمزا بعضهما ، وهجما على الوحش

بالسكاكين ، فصاح الوحش وحاول القيام ؛ ولكن قمرا تناول فأسا وضربه على رأسه فخر صريعا ، وقد تناثر دمه ، وقد ملأ الغرفة والشابين ، فخرجا من القبو مسرعين ، وهما سعيدان بأنهما أنقذا البشرية من مثل هذا الوحش الغادر ، وكانت الدنيا ظلاما دامسا ، فإذا هما في الشارع يركضان ، وهما يسمعان شخير الإنسان الوحش يطاردهما ، ولم يتوقفا إلا على صوت رجل يصيح بهما ويأمرهما بالتوقف ، فتوقفا فقال لهما : مالكما تركضان كأنكما هاربان من شيء مرعب فقصا عليه قصتهما مع الإنسان الوحش، فقال: سآخذكما إلى قائد الشرطة؛ ليسمع منكما هذه الحكاية ، ليذهب معكم إلى منزل هذا الوحش ، ويتأكد من صدقكما !

فذهبا مع الرجل إلى قائد الشرطة ، فاستمع القصة ، وشاهد الدماء المبللة ثيابهما ، ثم قال : أخشى أن تكونا قد قتلتما الرجل طمعا في ماله وثروته ؟!

وأمر رجاله بحبسهما في السجن حتى يتأكد من صحة وصواب أقوالهما ، وأمضيا يوما وآخر في السجن ، فسألا السجان عن أمرهما ، فنصحهما بالصمت ، فقال : اسكتا ولا تتكلما ، ذلك خير لكما .. وبعد أيام نعتقكما ، فلا أمن هنا ولا راحة .. هنا القوي يأكل الضعيف .

وبينما هما يفكران بطريقة يخرجان بها من السجن ناداهما السجان ، فأخذتهما ثلة من الجند إلى سلطان البلد الذي سلمهما لمجموعة من الجن الأسود ، فتعجبا للأمر وخافا ؛ ولكن قائد المجموعة طمأنهما قائلا : لا تقلقا ، نحن نبحث عنكم منذ أيام .. نحن أصدقاء .

الذي حدث أن الجنية زرقاء زوجة العملاق أخبرت ملك الجن الأسود بأنها تركتهما في مدينة الصغد أقرب المدن للقصر المهجور ، فانطلق الجنود لمدينة الصغد يبحثون عنهما إلى أن علما أنهما في السجن ، فمشى وفد منهم إلى ملك المدينة ، وطلبوهما منه ، فأعطاهم إياهما من غير تردد وغير إمهال ، فحملوهما إلى ملكهم الذي حمد الله على عودتهما سالمين ، وأرسل رسولا عاجلا لأمهما وأبيهما، فقصا على الملك قصتهما مع يتيم زاد هوا الذي وقع بدوره في قبضة الجن الأسود فأمر الملك بطرحه في السجن حتى يظهر الشابان ، فلما ذكرا الجنية زرقاء ومساعدتها لهما ، قال الملك : أخرجوها على الفور ؛ لنسمع قصتها مع هذا العملاق .. ثم نكرمها جزاء مساعدتها

للشابين .

فحضرت وزوجها أمام الملك جلاد هود ، فسألها الملك عن قصتها مع هذا العملاق ، فصاح العملاق محتجا : إنها خائنة يا مولاي الملك ! .. إنها عاشقة لغيري !

فطالبه الملك بالصمت ، وطلب منها أن تروي حكايتها ، وكانت تبكي بحرارة وغزارة ، ثم قالت : يا مولاي الملك ! هذا الرجل تزوجني رغما عني ، وهو يعلم أنني راغبة بابن خال لي .. فضحك على أبى وتزوجني رغما عن إرادتى ، وشاهدني مرة مع ابن خالي ، فاتهمني بالفجور والخيانة ، وما زال يعذبني ، وحبسني في القصر المهجور الذي سجن فيه الأميران .. فأنا يا مولاي الملك لا أرغب فيه ، وأتمنى أن تخلصوني منه .

فقال الملك مخاطبا العملاق : ولماذا لا تتركها وهي لا ترغب فيك ؟!

فقال : لا استطيع .. لقد أعطيت والدها مالا كثيرا ، ووافق على زواجي منها .. ولن أتخلى عنها أبدا أيها الملك ولو قطعتني إربا إربا .

فقال الملك مبديا تعجبه واصراره : كيف تحيا مع أنثى لا ترغب بك وتبغضك ؟!

وقبل أن يسمع الإجابة أخبره الحاجب بمجيء الملكة ريم النساء والأمير زهلول ، فنهض الملك عن كرسيه مرحبا ومستقبلا لهما ، وتعانق الأبناء مع والديهم ، وسلمت الأميرة زمردة التي أتت بصحبة الملكة شهلا على والدها الملك ، وفعل برهود مثلها، ولقد كان لقاء الأسرة دافئا وخصوصا بين الأم وولديها ، وأظهرت شكرها وامتنانها للملك جلاد هود ، وعاد الفرح للقلوب بعد هذا الغياب اليسير ، واستمعوا لقصة خطفهما بالتفصيل ، وحبسهما في مدينة الصغد جزاء قتلهما للإنسان الوحش ، ولما انتهت الوليمة التي رتبها لهم الملك ، وهموا بمغادرة البلاد ، قال لهم الملك : فما تريدون أن نصنع بيتيم زاد هوا ؟!

فضحكت الملكة ثم قالت : افعل به ما تشاء يا ملك الزمان !.. فهو أحد رجالك ، ومن المهم أن لا يعتدي علينا مرة أخرى .

ورجعوا لبلدة الماء والحبور والسعادة تملأ نفوسهم بعودة الأميرين سالمين، وعم الفرح من جديد

مدينة الماء على عودة أبناء زهلول ، وصنع زهلول كعادته وليمة كبيرة لسكان المدينة ، وتصدق ووهب وأنفق ، وشكر الله على نجاة أولاده من كيد يتيم زادهوا ، واستمرت الولائم مدة عشرة أيام للخاصة والعامة ، وحضرت العجوز السالفة الذكر من بلاد الغان ، ونزلت ضيفة على الملكة شهلا التي سعدت بعودتها ، ولم تنس فضلها في مطاردة الخاطفين ، فحمدت العجوز الله الملك العلام على سلامة الأميرين ، وقالت لشهلا قصتها إن لها ولدا تعلق بساحرة في بلاد الغان وبدأ يعمل معها بالسحر والشعوذة والسخرية من بني الإنسان ، وفي يوم سحروا امرأة ، وفرقوا بينها وبين زوجها ، فاستعانت بساحرة ثانية لها رئي من الجآن ، فحدثت معركة دامية بين ولدي وجني الساحرة الأخرى ، فقتل على أثرها ولدي ، فجاءني الخبر ، فذهبت لأتأكد من مصرعه وأنا في طريقي سمعت صراخ الشابين ، وما جرى بيني وبين الجن الأسود معروف لكم ، ثم سافرت لبلاد الغان ، وقابلت الساحرة ، ورأيت جثة ولدي ، فوجدته هو المقتول فعلا ، فدبرت مكيدة للساحرة أوردتها المهالك ، وعدت إليك لأتابع مسيري إلى بلدي أيتها الملكة .

ولما انتهت العجوز من رواية قصتها ، قالت الملكة : أنا في خدمتك ، ولن أنسى معروفك وفضلك عليّ ما حييت .

عادت الحياة الهادئة إلى قصر زهلول ، فتجارة قادمة ببضاعة ثمينة ، وبيع وشراء ، وسهر مع الأصدقاء ، وإحسان على الضعفاء ، ونزهات هنا وهناك ، وذات نهار دخل عليه رجل كهل ، فطلب منه المال والإحسان ، فحدق به زهلول بضع دقائق وقد عرفه فقال : يا هذا من أى البلاد أنت ؟

فذكر اسم بلدته ، فقال زهلول : كان يسكن في قرية قريبة من غابة الجن قروي عجوز .. ووصفه زهلول ، فقال الرجل : من أين تعرفه يا سيدي الكريم ؟! ..إنه والدي .

قال زهلول : أعرف أنه والدك .. ما أخباره أما زال حيا ؟!

رد الرجل : لا .. قد مات منذ زمن .

رجع زهلول للوراء سنوات ، عندما كان غلاما معدما ، ثم هتف قائلا : أتذكر يا هذا الغلام

الذي سرقتم كيسه العجيب عندما حل عليكم ضيفا ؟!

فقال الرجل: ويحك! يا سيدي الكريم ، كأنك كنت معنا .. أتقصد زهلولا الغلام الساحر؟!

قال زهلول وهو يبتسم : أى نعم ، زهلول ، فيا هذا أنا زهلول صاحب الكيس العجيب

فقال الرجل : سبحان الله ! أمعقول هذا؟ آنت الرجل الغني زوج الجنية التي يتحدث عنهما الناس في القرى والمدن ؟!

قال زهلول وما زال الماضي أمام عينيه : نعم ، يا هذا! أنا ذاك الغلام المغفل الساذج الذي اشتريتم له الثياب الجميلة ، وأدخلتموه الحمام ليستحم لتسرقوا ذاك الكيس .. ولولا سرقتكم لكيسى ـ بعد مشيئة الله ـ لما تعرفت على الملكة شهلا ، وما صرت التاجر زاهر الدين الذي تراه أمامك.. لله في خلقه شئون .

وبينما هما يتذكران ، ومسروران بذكرى تلك الليلة ، جاء غلام وهمس في أذن زهلول : الملكة ترغب برؤيتك الآن ، فقام زهلول وهو ينادي على جروان ويقول له : اكرم هذا الرجل ، فهو من الأشخاص الذين كانوا سببا في هذه السعادة والأموال التي أكرمنا الله بها .. فالملكة تريدني في أمر عاجل .

وركب جواده الطيار للقصر ، ودخل على الملكة ، فوجدها تبكي ، فرق قلبه واضطرب ، فنظر للجواري ؛ فإذا هن يبكين أيضا ؛ فازداد دهشة ورعبا ، ورأى رجلا غريبا من الجن الأزرق فقال : ما الأمر يا ريم النساء ؟! .

فاقترب الجني ، وقبل يدي الأمير ، وقال بحزن : والدة الملكة مريضة جدا! وترغب برؤية ابنتها ريم النساء .

فقال زهلول وقد عاد الهدوء لقلبه : لا تجزعي يا مولاتي الملكة !..فجهزي نفسك واذهبي لرؤيتها .

فقامت وقبلت يديه وقالت : خشيت أن تمنعني من ذلك .. جزاك الله خيرا .. سآخذ الأولاد معي . فقال زهلول : إذا رغبوا بذلك فخذيهم معك لا مانع لدي .

فقالت وهي تمسح دموعها : شكرا لك يا زوجي الكريم الطيب ، سأغيب ربع سنة فقط ، وأكون عندك بإذن الملك العلام .

وافق نجم السماء على مرافقة أمه إلى بلاد الجن الأزرق ، وأما قمر السماء فقال: أما أنا فسوف أزور الأميرة بحر بنت برهود وزمردة ، وأقضي عندهم بضعة أيام ، فلي أكثر من شهر لم أرها فمعذرة يا أماه !.

ولبست ريم النساء ثوبها الريش ، وفعلت خادمتها الخاصة مثلها ، وكذلك فعل نجم السماء ، وأحضر زهلول كثيرا من عقود الجمان والجواهر الجميلة؛ لتأخذها الملكة معها لتهديها لأهلها وجرى وداع كبير في القصر للملكة ، وكتب زهلول رسالة للملك همام بن هدهد ، ثم سافروا لبلاد الجآن الأزرق ، وبعد رحليهم سافر قمر السماء إلى الأميرة بحر بنت برهود ، وذهبت معه جاريته الجنية لتلك البلاد .

وبعد سفرهم بأيام مات ملك البلاد ، ولم يكن له ولد حي يرث تاجه ، وتشاور الناس والأمراء على تتويج الأمير زهلول أو زاهر الدين ملكا على البلاد والعباد ، واجتمعوا على باب قصره واطلعوه على رغبتهم وشهوتهم تلك ، فاعتذر لهم قائلا : أنا لا أصلح للحكم ! .. أنا أصلح للبيع والشراء وعد النقود !

وضغط عليه الشعب والأمراء ، فأبى وأصر على الرفض ، فطلبوا منه أن يختار لهم حاكما ، فبعد تفكير قال : ليخرج أهل البلدة جميعهم صغيرهم وكبيرهم غنيهم وفقيرهم إلى أكبر ساحة ، ثم نخرج حمامة الملك من قفصها ، ومن تقف على رأسه أو بدنه نتوجه ملكا علينا.

عين يوم صحو لمثل هذا العرض ، فخرج الناس إلى أكبر ساحة في البلد ، واجتمعوا فيها رجالا ونساء شبابا وكهولا لاختيار ملكا لهم ، واحضروا حمامة الملك للميدان ، وأخرجوها من القفص وأطلقوها فطارت في عنان السماء ، ثم عادت للقفص فزجروها ، فطارت ثم عادت للقفص فطردوها ، وأخفوا القفص ، فحلقت في الفضاء ثم اقتربت من الناس ، فارتفع الصراخ فطارت قبل أن تهبط على الأرض حتى وصلت إلى حيث يجلس غلام بعيدا عن الناس ، فنزلت

عليه ، فأسرع الناس إلى الغلام وحملوه على الأكتاف وقالوا : جلست الحمامة على رأس هذا الغلام الصغير !

فصاح زهلول : هذا ملككم الجديد !!

فأخذه الأمراء إلى قصر السلطان ، وأدخلوه الحمام ، وألبسوه الثياب الملكية ، ونصبوه ملكا عليهم ، واختاروا له كبير الأمراء والوزراء ، وبدأ الناس بمبايعة هذا الغلام بالملك على بلدة الماء ، وكان عمره ثلاث عشرة سنة ، ويدعى زجاج ، وهو غلام يتيم الأب والأم ؛ فإذا هو ملك من ملوك الدنيا !!

" تمت بفضل الله قصة الأمير زهلول "



قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

زهلول في أرض الجآن



الفوارس

مملكة مالونياوالملك برbar

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

٧

جمال شاهين

١٩٩٤

مملكة مالونيا

والملك بربار

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤



قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

مملكة مالونيا والملك بربار


مملكة مالونيا
الملك بربار

الأخوة الثلاثة

هرب أهل القرية في شعاب الجبال المحيطة بقريتهم ، فمنهم من اختبأ في الكهوف والجحور في ذلك الليل الممطر ، وكنت تسمع صراخ النساء والأطفال من عدة جهات ، واستمرت الحركة والهرب حتى وقت متأخر من الليل البهيم حينئذ خمدت الأنفاس وسكنت الأصوات وقد خرج رجال العصابة من القرية بعدما نهبوا بيوتها، وخطفوا الأولاد الذكور والإناث ، وساقوهم إلى شاطئ البحر حيث ترقد سفينتهم .

ولما عاد الناجون والأقوياء في الصباح إلى القرية بعدما انصرف رجال العصابة ، كنت ترى جثة هنا وأخرى هناك ، وتسمع أنين جريح ومصاب ، وترى آخر يلفظ أنفاسه وقد طال احتضاره ومنهم من وجد زوجته مقتولة أو أطفاله ، أو امرأة ناجية وجدت زوجها ميتا أو جريحا ، ومنهم من لم يجد أولاده وصغاره وأمواله ، فقد أخذهم قراصنة البحر ، عصابات خطف الأطفال ، فيمكن أن نقول بكل صراحة وراحة أن حالة القرية كما يقال حال يرثى لها بعد هجوم هؤلاء الأشرار، وانتشر الرعب والخوف في القرى المجاورة من هجوم عصابة الأشرار ، والذي يهمنا في هذا القصة أن رجلا في العقد الرابع من حياته عندما عاد للبيت وجد أن زوجته جريحة بجرح عميق ، وهي تدفع عن أولادها الشر الداهم ، ووجد هذا الرجل أن المجرمين أخذوا أولاده الثلاثة كلهم أسيد وذؤيب وصقير ، فأدرك أن العصابة أخذتهم لتبيعهم في إحدى البلاد كرقيق، فتجارة الرقيق كانت رائجة في تلك الأزمان، فحزن وبكى ولطم وشكى ؛ ولكن المصيبة كانت عامة لأهل القرية جميعهم ؛ فأمام مصائب الآخرين تهون مصيبة النفس، وكما يقال إذا عمت خفت ، هدّأ الرجل هذا من نفسه، واشتغل في علاج زوجته سراجة ، وهذا الرجل اسمه بهرام من أهالي قرية بيت الصبار ، وعلى كل حال للممت القرية جراحها وأوجاعها بعد هذه الكارثة الفظيعة ، فنوى وقصد صاحبنا بهرام بعد أن تشفى سراجة وتتعافى مغادرة تلك القرية ، والذهاب إلى مدينة الجدول لعل الأمان يكون هناك أكثر ، وذلك في ظلال الحاكم ورجال الجيش والشرطة ، فلما خفت جراح الزوجة بحث عن الأولاد في القرى المجاورة ، وحاول تتبع

خطوات المجرمين ، فعلم أنهم أتوا من جهة البحر فغزوا قريتهم وغيرها من القرى ثم عادوا لسفينتهم ، فيئس من الوصول إليهم فعاد يقول لزوجته : لهم الله يا سراجة .

فقالت له ودموعها في عينيها : إنها بلوى كبيرة يا أبا أسيد! .. ولكنني أبشرك بأن في بطني جنينا

ففرح الرجل المصاب بالخبر وقال : عندما يزول الألم عنك نهائيا ، وتضعين مولودك يا سراجة سنترك هذه البلدة ونهاجر إلى مدينة الجدول ونحيا فيها .

فقالت : وماذا ستعمل هناك؟ وأنت لا تحسن إلا الحرث والزرع !

فقال : سأجد عملا يا سراجة .

فقالت : سنبقى هنا في بلدتنا يا بهرام ؛ لعل الأولاد يعودون ثانية ، وسنمضي حياتنا هنا فلا تفكر بالرحيل .

فقال : عندما تضعين ما في بطنك سوف نفكر بالأمر يا سراجة .. سأذهب الآن مع ابن عمي هدام .

كان لبهرام هذا ثلاثة أبناء صغار أسيد دون العاشرة ، ويليه ذؤيب وهو ابن سبع سنوات، والطفل الثالث صقير وهو ابن خمس سنوات ، هكذا كانت أعمارهم عندما دخل جيش الغزاة القرية ، وبدأوا بالفتك والنهب ، ووقع الغلمان الثلاثة ككثير من الغلمان بأيدي المحاربين ، وقد حاولت الأم الدفاع عنهم ؛ ولكن طعنها أحدهم بخنجر ودفعها أرضا ، فصرخت ووقعت فاقدة الوعي على الأرض ، وحمل الرجال الصبية مع بقية الأطفال وساقوهم إلى السفن في عرض البحر ، وقبل إدخالهم السفن وقف زعيم العصابة وحوله رجاله الأشداء وبعضهم يحرس قطيع الأطفال ، فيقدمون إليه الأطفال طفلا طفلا فمن رآه سليما خاليا من العاهات حملوه إلى السفينة ومن كان ذا عاهة وعيب قذف في البحر من غير رحمة أو شفقة ؛ لتأكله وحوش البحر ، وكان مشهدا قاسيا مرعبا أمام اولئك الأطفال، لا صراخ ينفع، ولا استعطافا يجدي ، فالزعيم الأسمر الوحش غير مكترث لهم ولحياتهم فهو معتاد على مثل ذلك الفعل القاسي ، وكان من حظ الاخوة الثلاثة أن رفعوا للسفن حتى يباعوا في بلاد أخرى ، وفي إحدى البلاد قام الزعيم الأسمر

درغال ببيعهم لأحد تجار الرقيق ، ثم عاد وأصحابه إلى البحر للتخطيط لقرصنة أخرى .

فأخذ تاجر الرقيق هؤلاء الجيش من الأطفال الذين يبلغون حوالي مائة طفل ما بين ذكر وأنثى، وساقهم للمدينة لبيعهم للأغنياء والأمراء أو تجار رقيق آخرين، وهذا التاجر الذي يشتري هؤلاء الغلمان من درغال الأسمر عرضهم للبيع في السوق ، فأتاه تاجر يدعى زرفيل واشترى منه خمسين غلاما ، فكان من ضمنهم الاخوة الثلاثة ، وساقهم لمدينة ساحلية يتردد عليها للتجارة ، وقبل الوصول للبلدة باع بعضهم في الطريق وممن بيع صقير ، فترجى أسيد التاجر أن يبيعه واخوته لرجل واحد ، فرفض التاجر وصفعه على وجهه ، فبكى واشتكى وحزن على فراق أخيه ، والذي اشترى صقيرا رجل كهل اشتراه ليربيه مع ابن له صغير؛ ليكون غلاما وخادما لولده ، وهذا الرجل يسمى صديق ، ويقطن في بلدة جميلة وغنية بالأنهار الصغيرة والأشجار والثمار تسمى بلاد الأحلام ، وأما الغلام الثاني ذؤيب فقد بيع في بلاد النيل لرجل يعمل في قصر السلطان ، وأما الغلام الكبير أسيد وصل لمدينة الساحل ، وفي اليوم الذي عرض فيه للبيع كان أمير إحدى البلاد التي وراء البحر كان قد حضر للسوق لشراء الغلمان والرقيق ، فكان أسيد منهم ، ولما قضى الأمير حاجته، وغادر مدينة الساحل أخذه معه إلى بلده التي تقع وراء البحر ، وأدخله قصره الجميل مع باقي الغلمان الذين تملكهم وأمر قيم القصر بالاهتمام بهؤلاء الصغار وتربيتهم على خدمة الأمراء والأميرات .



كانت هذه البلدة تقع ضمن جزيرة كبيرة ممتلئة بالمدن والقرى والأمراء والأميرات ؛ فإذا ظهر حاكم طامع أو طامح فيضم بعض المدن والولايات لدولته ، أو يتحد مع بعض المدن أو بعض الأجناس لتأسيس مملكة قوية ، فالأمير الذي ابتاع أسيدا كان أميرا مسالما وهادئا ، ولا يحب الحروب كثيرا ، وإنما كان جيشه لحماية البلدة والرعية فحسب ، واسم مدينته مدينة الغرام ،

وهي مدينة تجارية نشطة لاتصالها بالبحر ، فالتجار يتنقلون فيها بكل حرية ، وينقلون بضاعتهم بسلام وأمان ، فتجد تجار السفن يتحركون إليها ذهابا وإيابا ليلا ونهارا ، وكذلك تجار البر والقوافل ذهابا وإيابا وبكل حرية ، ويتبع لهذه المدينة أو الأمارة بعض المدن الصغيرة والقرى ، وكثير من قرى الفلاحين يمدون المدينة بالخضر والفواكة الطازجة يوميا ، في هذه المدينة الهادئة عاش أسيد بن بهرام الذي أصبح يسمى بربار ، فلما كبر بربار وأصبح ابن خمسة عشر عاما أرسله الأمير إلى مدرسة الفرسان ليتعلم الفروسية ، فكان شكله وهيئته تساعده على ذلك حتى يصبح فيما بعد من فرسان الأمير وحرس الملك الخاص ، فأتقن بربار التدريب والمران وركوب الخيل والضرب بالسيف والرمي بالقوس والقفز على صهوة الجواد وقويت عضلات يديه وفخذيه، واشتد بدنه بصورة عامة ، وتعلم المصارعة والمقاتلة بالأيدي والأرجل والطعن بالخنجر والعوم في الماء ، فأصبح فارسا قويا، وكل ذلك خلال أعوام ثلاثة حتى أمسى الأمير الحاكم يفخر به أمام الأمراء والفرسان والأصدقاء ، فهو فارسه وخادمه وعبده ، وأخلص الفارس بربار لسيده الأمير وفي خدمته ، وظل يحتفظ له بالجميل والمعروف حتى النهاية كما سيرى القارئ ، وكان أطوع له من بنانه؛ ولكنه ما زال يذكر اخوته ويحن إليهم ، ويتذكر أمه وأباه ، والعصابة ومقتل الأولاد الضعفاء ، مشاهد لا تمحى من ذاكراته ، إذن كان الملك جليان سعيدا بالفرسان الذين تبناهم ورباهم ، وكان من أسعد الناس بالفارس بربار، وكان يرى فيه القوة والشجاعة والمستقبل الباهر الغامض .



فجاءت ابنة الملك أو الأمير جليان ذات نهار وطلبت من والدها أن يلحق الفارس بربار المخلص في خدمتها ، وبعد كلام وجدال وافق الأمير جليان على طلب ابنته ، ورضي الفارس الصغير بالالتحاق في خدمة الأميرة وحراسة الأميرة سونيا الصغيرة كما كانوا يطلقون عليها في القصر ، فأصبح يشاركها في النزهات والزيارات إلى أن أتى يوم وزار قريب لأبيها الأمير

جليان ـ وكان هذا الرجل صاحب مملكة مجاورة أيضا ـ وخطبها لولده البكر وولي عهده الأمير نابولي ، وقد وافق الأمير والأميرة على هذا الزواج، وبعدما تم جهاز العروس صنع لها حفلا أميريا ، ثم أتى زوجها الشاب الأمير نابولي إلى مدينة الغرام وتزوجا ، وبعد تزوجها بشهر سمح له الملك جليان بالعودة لمملكة والده ، فاستعد فرسانه المائة والخدم للسفر، وتجهز فرسان الأميرة ومنهم الفارس بربار للرحيل معها إلى البلدة الجديدة مالونيا ، وريثما تستقر الأميرة في قصر زوجها، وتزول وحشة انتقالها يعود الفرسان لمملكتهم حسب عاداتهم وتقاليدهم ؛ لأن ملك مالونيا سيجعل لها حرسا من حرس بلاده إلا أن الأميرة سونيا الصغيرة أصرت على بقاء الفارس الحزين بربار كما كانت تسميه في خدمتها والبقاء عندها ، فحاول والدها ثنيها عن ذلك وأمام إلحاحها وتوسلها وموافقة زوجها على بقائه خادما لها رضخ الأمير جليان لرغبتها فأوصى الفارس عليها وحمايتها وحسن القيام بواجبه نحوها وقال : يعز عليّ فراقك أيها الفارس فلقد تعبت حتى أصنع منك بطلا !

فرد عليه بربار : لن أنساك يا مولاي .. وسأبقى وفيا لعرشك .. فأنت أبي وأهلي، ولن أنسى معروفك ، وما أكرمتني به من الخدمة والتربية في بلاطك وسأحافظ على شخص الأميرة ، وأبقى لها الخادم الأمين .

انتقلت الأميرة وفارسها بربار إلى مملكة مالونيا ، ومضت الأيام هادئة وجميلة ؛ وفجأة مات ملك البلاد وأصبح زوجها نابولي ملكا على البلاد والناس، وكان هذا الشاب مغامرا ويحب المغامرات ، وكان يطمع بتوسيع مملكته ، فبدأ يتحرش بجيرانه ويثير العداوات والأحقاد هنا وهناك ، فما مضى عدة شهور على استلامه الملك حتى كان يخوض معركة دامية مع أمير سلاطية ويأسره ، فتنازل له عن مملكته مقابل العفو عنه ، فضم مملكته إليه ونفاه إلى جزيرة في عرض البحر، وقد شارك الفارس بربار في هذه المعركة، وأظهر براعته وقوته ، وقد أعجبته مغامرة نابولي ، وعلى أثر هذا النصر السريع أرسل نابولي رسولا إلى ملك هيلانة طالبا منه الانضمام لمملكته وإلا له الويل والهلاك ، فرفض وجرت معركة كبيرة بينهما انتصر فيها أيضا نابولي ،

وقضى نابولي وفرسانه ، وبينهم بربار حروبا شرقا وغربا استمرت سنتين حتى أصبح يحكم مملكة كبيرة في تلك الجزيرة، وبدأت الملوك تهابه وتخشى مغامراته وجنونه ، وأي مدينة من المدن التي احتلها وضمها لمملكته وبدرت منها محاولة التمرد والثورة على حكمه فكان يدمرها تدميرا، ويحرقها حرقا مخيفا حتى دب الرعب في الملوك المجاورين ، وأخذوا يتطلفونه بالهدايا وبالحسناوات ، واشتهر بشهرته بربار ، فعرض عليه حكم إحدى المدن فأبى وقال : دعني أبقى في صحبتك أيها الفارس .

الأميرة سونيا التي أضحت ملكة لم تنجب من زوجها حتى ذلك الوقت ، فكانت قلقة من هذه الناحية ، وكانت أيضا غير متحمسة لمغامرات زوجها نابولي ، وقد حاولت في أكثر من مقام ثنيه عن هذه الحروب والعودة للدعة والسلام ، فيزجرها بشدة وشراسة ، وحذرها من التدخل في مثل هذه الأمور ، فخشيت منه على نفسها ، وعادت لالتزام الصمت والسكينة ، وقد حاولت ثني فارسها بربار عن المشاركة في الحروب ، فاعتذر لها بأنه قد تورط فيها ، ولا يستطيع التخلي عن نابولي بعد هذه المغامرات .



كان الأمير المغامر يغيب نتيجة الحرب عن قصره الأيام والشهور في المعارك واحتلال المدن وترتيب أمورها ، فذات مرة همس في أذنه أحد رجاله بأن الأميرة سونيا تخونه في غيابه ، فغضب الملك الشاب ، وانزعج لهذا الأمر، وأسر للفارس بربار بما سمع فقال له واعظا : قبل أن تفعل شيئا تأكد من الأمر.. وتأكد من الوشاية أيها الفارس .

فرد الملك مؤكدا : الرجل الذي نقل لي الخبر من الثقات عندي .. وقد أقسم لي على ذلك .. فما العمل ؟!

فقال بربار: أنت ما الذي تنوي فعله إذا تأكدت من ذلك ؟!

فصاح الملك بغضب : وهل يرد العار أيها الفارس إلا الدم سأقتلها مع عشيقها .

فقال بربار: وهل تعرفه ؟!

فقال : نعم .. إنه ابن عم لي .. إنه الأمير سرياني .. أرأيت الخيانة؟!

فقال بربار : افعل ما تراه مناسبا أيها الفارس .

فقال نابولي : ولكنك حارسها الخاص يا بربار ؟!

فقال بربار : ولكنها زوجتك ! وقد خانتك .. وإنما أطلب منك أن تتأكد من الأمر حتى لا يكون هناك دسيسة أو مؤامرة ومكيدة لكما .

فقال نابولي : أيها الفارس ستكون صديقا مخلصا لي .. ونحن تعاهدنا على حفظ بعضنا بعضا أيها الفارس سأتركك هنا مع الجيش والفرسان.. وسأعود إلى مالونيا متخفيا ، وذات ليلة سأطلب مقابلة الملكة سونيا على أني رسول من عند الملك نابولي ؛ ولعلي أجد عشيقها عندها فاقتلهما معا .. فاحذر أيها الفارس من الأمراء والجنود ريثما أعود .

اجتمع نابولي بخواص القادة ، وأخبرهم أنه ذاهب لمالونيا خفية لأمر عاجل ومهم وسيعود بعد أيام ، وعاد لمالونيا سرا ، وفي ليلة طلب مقابلة الأميرة سونيا على أنه رسول من عند زوجها الملك نابولي ، فاستقبلته وكانت وحدها مع وصيفاتها ، فكشف لها عن نفسه، وأنه جاء إليها مشتاقا وسرا ليمكث معها ليلة أو ليلتين ، ثم يعود لجيشه الذي يحاصر مدينة ملطة العليا ، وطلب منها أن لا تخبر أحدا بعودته حتى الخدم ، فاصفر وجه الملكة لهذه المفاجأة ، وبينما هما يتحدثان في مخدع النوم أتت جارية وأخبرتها بوصول الأمير سرياني ابن عم نابولي قائلا: إن معه خبرا من عند الملك نابولي ، قالت الجارية ذلك أمام نابولي ، ولم تعرفه وانصرفت ولم تتكلم سونيا ولكن وجهها تغير وتلون ، فبعد قليل دخل سرياني فكأنه على ضوء الشموع لم يتحقق من صورة ابن عمه فقال باسما : من هذا الغلام يا عزيزتي سونيا .. إنه يجلس بقربك مالك لا تنهضين لمعانقتي كالعادة يا عشيقتي الجميلة؟.. أم عشقت هذا الغلام ؟.. نحن نفكر بالحب والغرام .. ونابولي يفكر بالدم والقتل ..

اقترب منها كثيرا وهو يتعجب من صمتها وعدم احتفالها به ، فحتى الغلام لم يتحرك لتحيته ،

فلما أصبحا وجها لوجه فقال : مالي أراك ممتقعة الدم كأنك تخرجين من قبر أيتها الحبيبة ؟!

تكلم نابولي المذهول بصوت أجش وهادئ معا : سونيا .. ما الذي اسمعه من سرياني ؟!

فأغمي عليها فوقعت على الأرض فقال سرياني : من ؟ ابن عمي الملك نابولي !

أخرج نابولي خنجره بسرعة البرق ، وأغمده في صدر السيد سرياني وهو يصيح : نعم ، ابن عم سرياني .. مت أيها الجبان الخائن .

هرعت الجواري على صرخته ؛ فإذا بالملك يقتل الأمير سرياني ، فالتفت إليهن قائلا : اهتممن بالأميرة سونيا . ونادى بعض الجنود ، وأمرهم بإلقاء جثة سرياني في النهر الذي يمر من طرف القصر .

لم يقتل نابولي سونيا تركها حية ، وقفل عائد لجيشه ، وكشف لخواص فرسانه خيانة زوجته مع ابن عمه سرياني ، وأنه اعدمه الحياة بطعنة خنجر ، وألقاه في النهر، وعندما ينتصر في هذه المعركة فسوف يفكر بعقاب الأميرة الزانية، فاقترح عليه الفارس بربار أن يطلقها ويعيدها لوالدها فرد عليه الملك : عندما نعود لمالونيا نفكر بالأمر أيها الصديق فإلى القتال .

بعد حصار شديد وقتال عنيف على أسوار المدينة هرب حاكمها وأكثر جيشه فسقطت المدينة على أثر ذلك، واستسلمت للأمير الملك نابولي ، الذي مكث فيها بضعة أيام فأخذ ما في خزائن الحاكم من ذهب وأموال وخيول ، ووهبها لقادته وجنوده المحاربين ، ورتب أمرها وولى عليها أحد الفرسان، وعاد لمالونيا بالجند المظفر للاستراحة عدة شهور قبل الدخول في حرب جديدة ولما سأل عن زوجته الخائنة ، أخبروه بأنها اختفت وهربت عندما زعمت للحرس بأنها تريد النزهة وما عادت للقصر ، فندم نابولي على تركها حية وعلى عدم الحجر عليها ، فطلب من القادة إجازة بضعة أيام يستريح فيها من هذه البلية ، وأرسل رسالة لوالدها أمير مدينة الغرام يخبره بالعار الذي أصابه من فعلتها الشائنة ، كان الأمير نابولي يعتقد أن سونيا الصغيرة أشرف امرأة عرفها وأوفى امرأة ، فكانت خيانتها قاسية عليه وطال اعتكافه ، فدخل عليه قادة الفرسان وعلى رأسهم بربار فعابوا النساء وصفاتهن وغدرهن ، مما دفعه أن يقسم على أن لا يتزوج امرأة ما دام

فيه نبض ينبض حتى يشرب من دم سونيا التي علم أنها لم تهرب لأبيها ، ولما تحسنت حالته النفسية بعد اعتكاف طويل عاد للمغامرات والحروب ، فكثر أعداؤه والحاقدون عليه ، ففي إحدى المرات أثناء حصاره لمدينة جوا دخل عليه شاب قصير القامة على أنه رسول من أحد الملوك في تلك الجزيرة الكبرى ، وهو يحمل بين يديه رقا كأنه رسالة ، فدخل خيمة نابولي وتقدم منه وأعطاه الرسالة التي فضها ونظر فيها، وأعطاها للفارس بربار ليقرأها بصوت مسموع أمام القادة والزعماء ، وبينما هم يتابعون القراءة أخرج الرسول خنجرا صغيرا بسرعة ورمى نفسه على نابولي وطعنه به في صدره ، فصرخ الملك، ورمى بربار الكتاب ، وطرح نفسه على الرسول وهو يقول : لا تقتلوه أوثقوه بالحبال حتى نعلم من أرسله علينا ؟!

واحضروا طبيب الملك على الفور ليقوم بعلاجه ، فقام الطبيب بالكشف عن جرح الملك الشاب فلم يره جرحا عميقا فعالجه وضمده ، وتم التحقيق مع القاتل الذي اعترف بأن ملك مدينة جوا كلفه بهذه المهمة مقابل العفو عن والده السجين المحكوم عليه بالإعدام ، فوافق على أن يضحي بنفسه للإفراج عن أبيه ومبلغ ضخم من المال ، فاشتد غضب الملك على ملك جوا، وأمر بحبس القاتل حتى يتم أسر ملك جوا ، وأثناء فترة علاج الملك المصاب استطاع الفارس بربار اقتحام المدينة المحاصرة من جهاتها الأربعة ، ودارت بداخلها معركة دامية رهيبة قتلت فيها النفوس ودمرت الأموال ، وما نجا إلا كل ذي عمر طويل ، وقد قتل الحاكم وحاشيته، مما دفع الفارس بربار أن يأمر بحرقها عن بكرة أبيها خوفا من انتشار الأسقام ، وابتعد الجيش المظفر عنها سريعا ، وفرح الملك نابولي بهذا النصر الجديد ، وأمر بسفك دم الرجل الذي غدر به ، وبينما هم يتهيئون للعودة لمالونيا أو مهاجمة مدينة جديدة لضمها لمملكة نابولي جاءتهم رسالة من ملك أقصى الجزيرة الملك بدوان ، وهذا الملك يحكم سبع مدن كبار عنده فرسان بالآلاف ، وكان هذا الملك بدوره ملك جبار في الأرض، وله شهرة وسمعة في أقصى شمال الجزيرة، وقد أخضع كثيرا من الممالك لحكمه وعرشه وملكه ، ويدينون له بالولاء فإذا طلب منهم المال والفرسان لا يبخلون عليه ، فقد سمع هذا الملك بمغامرات نابولي وبربار وأمراء

وفرسان مالونيا ، وهرب كثير من الملوك والأمراء والأثرياء من المدن القريبة من مالونيا ، فأرسل رسالة للملك نابولي يدعوه فيها بالكف عن المغامرات والتوسع في الممالك المجاورة لمملكته والتنازل والتخلي عن المدن التي ضمها لبلاده وإلا هاجمه ودمر عليه مدينته ، قرأ بربار هذه الرسالة على القادة والأمراء ، ثم أمر نابولي بصرف الرسول للتداول والتشاور ثم قال لهم : ما تقولون في هذا الخطاب الخطير؟؟



فكثر اللغط والقيل والقال حتى جاء دور القائد بربار في الكلام فقال : أيها السادة الكبار!.. أيها النبلاء الشجعان! .. نحن اليوم بدأ يحسب حسابنا القاصي والداني في هذه الجزيرة ؛ فإذا رضخنا لهذه التهديد من ذلك الملك القصي عنا طمع بنا غيره من الجبابرة في هذه الأرض ، فأرى أن نكتب له رسالة قوية ، نحذره فيها من خطرنا عليه وغضبنا عليه ، وننصحه بالبقاء في مملكته .. فالضعف أيها الفرسان لن ينفعنا بعدما كثر أعداؤنا ..حرب تعني أعداء جدد! .. فرغم الكلام الذي سمعناه من القائد سرب عن ذلك الملك علينا أن نظل أقوياء أو الموت .

فأيد كثير من القادة كلام بربار ، وطلب منه نابولي أن يرد على الملك بنفسه ، ثم يضع عليه ختم الملك ، ففعل بربار ، وكتب لذلك الجبار بدوان بما تم الاتفاق عليه ، ودفعوا الكتاب لذاك الرسول ، ورجعوا لمالونيا محملين بالذهب والفضة والتحف والخيل والبغال والغلمان والحسناوات ، ففي هذه السنوات الأربعة خضع لحكم نابولي أكثر من سبع مدن وتوابعها من القرى والمدن ، وجعل عليها أمراء من فرسانه ورجاله إلا من استسلم وشرط البقاء تحت حكمه أميرا لبلاده ، فكثر جنوده ، وكبرت مملكته في تلك الجزيرة ، وكانت تأتيه الهدايا من الملوك والوزراء، وطار صيته وصيت بربار وكثير من الفرسان بين الأنام في تلك المدن والبلاد وما كاد يستريح الفرسان في مالونيا حتى استلم الملك رسالة من جليان يطلب فيها الفارس بربار للعودة

في خدمته ، فتعجب الملك نابولي وغيره من هذا الطلب العجيب في هذا الوقت ، واعلم بربار بالطلب فقال : معه حق فهو ما زال سيدي ومولاي ! وأنا جئتكم حارسا لمولاتي سونيا الهاربة فما العمل أيها الملك الشجاع ؟!

فصاح نابولي غضبا : ارفض طبعا.. أنت الآن أصبحت فارسا وقائدا .. ولا يليق بك العودة لحراسة الأمراء والأميرات بعد أن أصبح لك فرسان يحرسونك .. لقد جن جليان .. أو يريدني أن أغزو مملكته وأقصف عمره !!

فقال : له عليّ معروف كبير أيها الملك .. لقد اشتراني بماله ورباني وعلمني الفروسية.. فالفارس النبيل والشريف لا ينسى ذلك .



فصاح نابولي : ويلك ! لا أستطيع أن أعيش بدونك .. فأنت شريكي في هذه المعارك .. وكما تعلم أنا لا ابن لي يرثني لعلي أجعلك وريثي على هذه الدولة التي تكبر كل يوم .. ادفع له ما يشاء من المال .

فرد بربار وهو غارق في التفكير : سأفكر بأمري يا ملكي فلربما أجد حلا مناسبا .

فقال نابولي ضاحكا وجادا : إذا أصر على عودتك سأدمر مدينة الغرام عن بكرة أبيها .. أنا لولا زواجي من ابنته وعلاقتك القديمة به لألحقت بلدته بمملكتي أيها الفارس منذ زمن .

هلاك نابولي

عاد بربار إلى غرفته في قصر نابولي ، ورمى نفسه على سريره وقبل أن تغمض عينيه من كثرة التفكير سمع صراخا في القصر، فنهض مسرعا فسأل الرجل الذي يقف على باب الغرفة : ما الخطب ؟!

فقال الجندي الحارس : كأن القصر يحترق يا سيدي ! فالدخان من تلك الجهة من جناح الملك هرع بربار إلى جناح نابولي مسرعا ، فوجد النار تضطرم فيه ، وعلم أن الملك محشور بالداخل فدار من الخلف وتسلق الجدار ، ومشى نحو نافذة غرفة الملك فكسرها فدخل إلى الغرفة ، ووجد الملك يتحشرج من شدة الدخان ، فحمله بسرعة إلى النافذة وتدلى به إلى الجدار وخرج به من جميع القصر بدون أن يشعر به أحد ، فالكل مشغول بنفسه ، وأخذه إلى بيت أحد الفرسان الذين يعملون ضمن قيادته، وهناك قاموا بمعالجته ابتداء ، وذهب الفارس واحضر الطبيب لاكمال العلاج ، وانتشر الخبر في المدينة أن الملك احترق في القصر ، وكثرت الإشاعات في المدينة وقلق الناس ، واجتمع القادة بعدما أمسى القصر أسود ، وأطلع بربار القادة وفرسان الجيش الكبار أن الملك لم يمت في الحريق ، وأعلمهم أن المطلوب معرفة من أضرم النار بالقصر، فقال أحدهم : لقد ألقي القبض على رجل غريب له يد في الموضوع.. وذكر أنه من جماعة الملك بدوان فهتف بربار بغضب : هذا فعل بدوان إذن ! .. آه .. فلسوف يرى اللعين ؛ ولكن كيف دبر الأمر؟! قصر كامل يحترق بشخص واحد أين الحرس والجنود ؟

فرد القائد : لقد تم حرق جناح منام نابولي فقط.. ومن ثم امتدت النار لسائر القصر .

نجا الملك من الاختناق والاحتراق بالنار ، واسترد عافيته بعد أيام وشكر بربار على إنقاذه حياته وصمم على محاربة الملك بدوان ، فقال بربار : مملكته بعيدة نحتاج شهرا للوصول إليها .. وكم من المهالك بيننا وبينها ؟ فإذا وصلناها نكون منهكين القوى لقمة سائغة له ولفرسانه .. فالأفضل أن يأتينا هو فإذا انتصرنا عليه مهدت لنا الطريق كلها ؛ ولكن كما فعل بنا نفعل به أيها الملك ..نرسل جماعة من الفرسان الأبطال المتخفين بزي تجار فيحرقون عليه قصره أو

بساتينه ثم يعودون ؛ ليعلم بأننا لا نهابه.. وأن باستطاعتنا مجاراته ؛ فلعله يصمت أو يتحرك نحونا فنقاتله ونحن مطمئنون وفي مدننا وبين عساكرنا ، فإذا سحقناه نزحف نحو مملكته ونجعلها عبرة لمن اعتبر من ملوك هذه الدنيا .

وافق الملك نابولي والقادة الآخرون على أفكار الفارس بربار ، واقترح بعضهم على بربار أن ينفذها ، فأبدى بربار استعداده لذلك فصاح نابولي صعقا: ويحكم أنا لا استغني عنه! فالقائد نابام سوف ينـفذ هذه الخطة ، ومعه القائد سربال .. واشرح لهم يا بربار تفاصيل المغامرة .. وأريد أن يكون لنا هناك جواسيس باستمرار يا بربار .



شيد نابولي قصرا جميلا ، وأعاد تنظيم حرس القصر وفرسانه والطهاة والخدم ، وأفرد لمساعده بربار جناحا خاصا أيضا ، كان بربار أثناء انشغاله في الحروب يشتري الفرسان من المدن المهزومة ، فاستطاع في هذه السنوات من تكوين كتيبة خاصة من الفرسان تنسب له ، ويدفع لهم أجورهم ومساكنهم ، فبلغوا مائتين فارس أو أكثر بقليل ، وكان هذا النظام يعمل به الأمراء والقادة ، فكان نابولي يسمح لقادته بتجنيد الفرسان والجنود ، وأثناء المعارك والحروب يدفع لهم رواتبهم وتكاليفهم ، وأيام السلم والهدوء فكل قائد هو مسؤول عن فرسانه ، والملك مسؤول عن جيشه وجنوده ، فكان الفارس بربار يقضـى أكثر وقته بصحبة الملك، وباقي الوقت يمضيه مع فرسانه الذين اشترى لهم ضيعة كبيرة وأمرهم بالحياة فيها والتدرب فيها ، وهذا الفارس كما تعلمون لم يتزوج بعد ، وهو أثناء هذه الأحداث لا يفكر بالزواج ، ولا تشغله النساء ككثير من الجند والفرسان ، فلما وضع الخطة مفصلة لنابام وسربال استأذن الملك بزيارة مدينة الغرام بضعة أيام والاجتماع بالملك جليان ، فأذن له نابولي بعشرة أيام فقط ، فأخذ فرسانه بعد أن ودع الملك وسار لمدينة الغرام التي وصلها بسلام ، فخرج الملك جليان بنفسه لاستقباله والترحيب به بعد كل هذه الغياب وتعانقا وتصافحا ، ورحب الملك جليان بالفارس والفرسان

ولما جلسا في قاعة العرش قال جليان للفارس : لقد نسيتنا يا فارس بربار ؟!

رسم الفارس الشاب ابتسامة على وجهه وقال : لا يا مولاي ! لم أنسك ؛ فأنا صنيعتك وفارسك ولكن انشغالنا في الحروب والفنون أخرنا عنكم .. وأنتم تخليتم عنا لهم .

واستمع جليان لأحاديث وأخبار بربار ولما سمعها قال : لقد أصبحت فارسا مشهورا يا بربار وتملك الأموال والفرسان ، بل سمعنا أنك يمين الملك الجبار نابولي .

فقال بربار بتواضع : أنا صنيعتكم يا مولاي ! ولا أنسى معروفك .. فأنا ما زلت فارسك وتحت أمرك .

فقال جليان : حسنا أيها البطل ! فإذا كنت تحفظ المعروف.. فنحن نريدك هنا فارسا لمدينتنا .

لزم الفارس الصمت حتى تكلم الملك جليان ثانية : مالك ؟!

فسأل بربار : مولاي جليان الملك .. ألا تعلم أين ذهبت الملكة سونيا ؟

فقال الملك مستغربا تغيير مجرى الحديث : على ذكر سونيا أيها الفارس هل صحيح ما يدعيه نابولي في حقها ؟

فأجاب الفارس قائلا : كما تعلم أيها الملك فأن الفارس نابولي مغامر ويحب القتال والفروسية حتى أنه جذبني إليها بقوة ، فكان يغيب عن بيته بالشهور والأسابيع ، والأميرة كانت تكره الدماء والحروب فتظل في المدينة ، فكما علمت استغل الأمير سرياني ابن عم الملك الفرصة فغرر بها اللعين فخدعها بالحب والغزل ، وعلم الملك بذلك فتألم وغضب عليها ، وصرع ابن عمه وطرح جثته في النهر ، ولم يقتل الأميرة وعاد للميدان والحرب ، فلما تحقق النصر ، وعدنا للمدينة وجدنا الأميرة قد اختفت ، فأرسل لك رسالة يشرح الأمر ونسينا القضية .

فقال جليان : الحق أنني تألمت بما علمت وتحريت عنها شرقا وغربا ، فقيل لي إنها هربت لبلاد الشرق وقطعت البحر ولم تحاول الاتصال بي .. وأنت ابن مدينتنا فلماذا لم تعد إلينا بعد هربها ؟

فقال بربار: الملك نابولي لا يستطيع التخلي عني ، ووجودي هناك خير لكم من بقائي هنا ، وصدق أن بقائي عنده حماية لكم ولمدينتكم من مغامرات نابولي .

ابتسم جليان ولم يغضب وقال : صدقت أيها الفارس! .. إن نابولي يحسب لك ألف حساب .. ويحب بقاءك بقربه .. ونحن أدركنا هذا الأمر.. وإنما أحببنا أن نراك ونسمع أحاديثك ومغامراتك .. فلولا وجودك مع الملك لتدخل في أمر مدينتنا وخصوصا بعد اتهامه لابنتنا بالخيانة الزوجية .. هذا نعرفه !

فقال بربار : أنا في خدمة عرشكم يا مولاي في أي وقت .. أيها الملك الطيب اعلم أن الملك نابولي أمهلني عشرة أيام فقط للمكث عندكم .. وأنا رجلكم عنده .. ولن يمسكم سوء منه وأنا حي .

فقال جليان : نرحب بك يا فارس مالونيا .. ونحن قد وهبناك حريتك قديما عندما الحقناك بخدمة الأميرة سونيا الصغيرة ، فكنت نعم الحارس ولكن لا أدري لماذا تخليت عنها أمام نابولي تبسم فارسنا الشاب وقال : هي يا مولاي الحقتني بخدمة نابولي ومشاركته في الحروب حتى تعلقت نفسي بالحروب وبنابولي حتى صرنا صديقين حميمين .. وكما قلت لك أيها الملك الطيب أنا خادمكم الأمين في أي وقت .. ولا أنسى معروفكم أبدا .. وأنا درعكم من أطماع الملك نابولي .

وقبل أن تنقضي الأيام العشرة كان رسول الملك نابولي بين يدي الملك جليان والفارس بربار يطلب عودة الفارس بربار لمالونيا ، فالملك مريض وبحاجة للفارس النبيل ، فودع بربار سيده السابق جليان وشكره على حسن الاستقبال والضيافة ، وعاد بفرسانه إلى الملك نابولي الذي رحب به وفرح بمشاهدته ، واعلمه بمرضه الشديد ، فدعا له الفارس بالسلامة والشفاء ، ثم قال نابولي : إن فارسا من بلاد أقصى الجزيرة يدعي أنه صاحب عرش مدينة الملك بدوان يرغب بمقابلتك .

التقى الفارس بربار بالشاب الفارس ملاريون وبعد تعارف بينهما قال الأخير بدوره : أيها الفارس النبيل الذي ملأ صيته هذه الجزيرة شرقا وغربا شمالا وجنوبا .. لقد أصبح الفارس بربار على لسان كل الملوك والفرسان جئت إليك طالبا الانضمام إلى فرسانك الأبطال ، وأما

قصتي فسأذكرها لك .. أنا كان والدي ملكا لإحدى المدن التي يحكمها الملك بدوان ، وبعد قتال شديد قتل والدي دفاعا عن مملكته وبلدته ، وكذلك أكثر الأهل والأقارب لقوا حتفهم وفر الباقي إلى المدن والقرى واختفوا عن الأنظار ، وكان لنا خادم أمين أخذني وأمي وأختي الصغيرة إلى قرية بعيدة ، وكان لي من العمر ثلاث سنوات فقط أيام تلك الأحداث الجسام ، وقام الرجل الصالح بتربيتي وتعليمي الفروسية لأخذ الثار من الملك بدوان ، وقد علمت هذه الحقيقة منذ عهد قريب ، وأنا لا حيلة لي باسترداد ملكي المضاع والمغتصب بعد كل هذه السنين ففررت إليكم ملتحقا بجندكم بالفارس العظيم بربار فارس الجزيرة الجديد ، وسأضع نفسي وسيفي بين يديك .. وأنا خادم لك أيها الأمير مدى الحياة ، وسوف ترى صدقي وحبي وإعجابي لكم ، وليس لي حاجة من الدنيا إلا أن أثأر لنفسي ولأهلي من الظالم بدوان ولا أريد مملكة أبي .. فهي هبة مني إليكم فقط أريد الثأر .

ارتاح بربار لشخص ملاريون ، ورحب به جنديا معه ، ووعده خيرا وضمه لفرسانه المائتين لاختباره وامتحان فروسيته ، وجاءت الأخبار بعد حين تفيد أن القائدين سربال ونابام تمكنا من حرق قصر الملك بدوان وحرق بساتينه ؛ ولكنهما سقطا أسرى في قبضة ذلك الملك الجبار وأعدمهم الحياة ، وأتت الأخبار تفيد كذلك أن الملك يعد جيشا لتدمير مملكة مالونيا الكبرى والفتك بالملك نابولي وقادته جميعهم ، فغضب الملك نابولي من هذه التهديدات وتمنى من الله الشفاء لملاقاة الملك بدوان ، فقام بربار بتهدئة غضبه ووعده بالانتقام والثأر لمقتل القائدين البطلين ، وقال : أيها الملك لا بأس عليك! فلقد طلبت من القادة الاستعداد، وأخبرتهم أن انتصارنا على الملك بدوان سيكون أعظم نصر وسيدعم ملكنا والمدن التي امتلكناها ، وبعد ذلك النصر ستصبح الجزيرة لنا نرتع فيها ونمرح ولا أحد يستطيع معارضتنا ، وتصبح مملكتنا أكبر الممالك وتخضع الجزيرة كلها لحكمنا العظيم وأرسلت الفارس ملاريون لجعل عيونا لنا في المدن والممالك التي تفصلنا عن مملكة أقصى

الجزيرة لتصل إلينا أخبار بدوان وتحركاته بأسرع وقت ، وعندما نلتقي أيها الملك العظيم سيرى منا العجب العجاب ، وأرسلت بلاغا حازما لكل المدن التي تخضع لسيطرتنا بأن أي مدينة تتردد في الدفاع معنا والوقوف بجانبنا وتخوننا سنمسحها عن وجه الأرض .. وعليهم بالاستعداد لهذه المعركة الكبيرة وإرسال المعونات والفرسان والحذر من الغدر والخيانة.



استطاع الأمير ملاريون نقل أخبار تحركات جيش مدينة أقصى الجزيرة إلى القائد بربار أولا بأول ، وخلال شهور من الزحف البطيء وصلت جيوش الملك بدوان إلى أطراف مملكة مالونيا وكان الفارس بربار وخمسون ألفا من الفرسان والعساكر على أهبة الاستعداد ، وانتظاره بالقرب من مدينة ملطه ، وما كاد يحط الرحال حتى كانت جيوش وفرسان مالونيا تصطدم بجيشه ، وهم على أتم راحة واستعداد ، ودارت معركة دامية ذهبت فيها نفوس كثيرة ، وتحطمت كتائب وسرايا ، وصدم بدوان ووزراؤه لهول المعركة والكارثة والمفاجأة ، وذهب الغرور من نفوسهم ورجعوا للوراء عدة مراحل حتى التقطوا أنفاسهم ولملموا فلول جيوشهم وعادوا لساحة المعركة ، فنزل بدوان للميدان وطلب منازلة الفرسان فسقط إليه بربار بسرعة الجآن ، وتعاركا أمام الفرسان ساعة من الزمان ، ثم فر بدوان من ضربات سيف الفارس بربار فنزل إليه الوزير الأكبر فأراده قتيلا في دقائق من الزمان ، فأتاه آخر فخر ميتا من طعنة واحدة ، فطلب البراز فارس الجزيرة زهدان فارس الجزيرة الأوحد رجل الشدائد والأهوال فارس الملك بدوان ، ودار بينهما الصراع حتى ولى النهار وأقبل الليل فانصرفا للخيام لثاني الأيام ، وقد استمرت المبارزات عدة أيام حتى التقطت الجنود أنفاسها ، ودفنت قتلاها ، ووضعت الخطط

والحيل ، فنشبت معركة تشيب لها الرؤوس كان من نتيجتها ضعف جنود الملك بدوان ، فأرسل إليه بربار الأمير ملاريون يعرض عليه الصلح والاستسلام ودفع تكاليف الحرب والقتال وإلا الموت والدمار ، فلما سمع الملك هذا الكلام صار الضياء في عينيه ظلام وطار من عينيه الشرر كالنار ، وما عاد يحسن التفكير ورد ملاريون بكتاب تهديد ووعيد وشواء الفارس بربار ، وكان الأمير بربار قد رتب مع بعض فرسان الملك بدوان سرا مؤامرة للتخلص منه ووعدهم بالمال والملك ، وعرف بدوان بسر هذه اللعبة ، ففقد صوابه وجن جنونه وقتل كثيرا من الفرسان ، وتعجب من قدرة بربار على خداع فرسانه ، وكان ذلك قد تم بمساعدة الأمير ملاريون وأمراء مدينته الذين انضموا لبدوان عندما انتصر على والده وأسرته ، فلما انكشفت الخطة هجم بربار بفرسانه على جيش بدوان هجوما قويا من ثلاث جهات ودارت بينهم معركة أخرى ، وكانت رهيبة هرب على أثرها فرسان بدوان نحو بلادهم ، واستسلم كثير منهم ، ووقع بدوان على أثرها أسيرا في قبضة الفارس بربار ، وانهزم جيشه شر انهزام ، وانتشر خبر النصر العظيم في معارك ملطه في الجزيرة سريعا ، وارتفع اسم الفارس بربار إلى عنان السماء ، وانقلبت الموازين في كل مدن الجزيرة الكبرى كلها ، وعادت جيوش مالونيا إلى المدينة مكللة بالنصر والرايات العالية وعمت الأفراح في مدينة مالونيا ، وازداد خوف الملوك الذين لم تخضع مدنهم بعد لمملكة مالونيا خوفا على ممالكهم ، وبدءوا يرسلون رسل التهنئة للملك نابولي على هذا النصر الكبير ولقد خرج الملك نابولي المريض محمولا على تخت بالذهب والجواهر يستقبل الجيش العائد بهذا النصر ، وبقائده الكبير بربار الذي جرى على يديه هذا النصر العظيم ، ودخل القادة بأكاليل الغار والورود والهدايا ، وبعد الراحة والاستراحة تم توزيع الأموال والمكاسب على الجنود والقواد وأسر القتلى ، وترك بربار خبرا لدى القادة بأنهم سوف يزحفون لأقصى الجزيرة لاستلام حكمها وكنوزها وتسليمها لملوكها القدامى ، وعرض عليهم الاستعداد لتملك تلك المدن ومن رغب في ملك بلدة فليذكر ذلك حتى يولى عليها ، وخلال فترة الانتظار للزحف ومطاردة فلول الجيش المنهزم وتقسيم مملكة بدوان أعلنت كثير من المدن ولائها لمملكة مالونيا الكبرى ،

وأغرب شيء علمه الملك المريض نابولي الذي قد هزل بدنه والأمير الفارس بربار بأن سبب هذه الحرب مع بدوان لم يكن سوى الأطماع هو الأميرة سونيا زوجته الخائنة وابن عمه سرياني الذي لم يمت من ضربة الخنجر ، لقد علموا من الملك الأسير بدوان أن الأميرة الملكة الهاربة هبطت لبلادهم مع فارس لها اسمه سرياني ـ وقد كان مريضا وقد تعافى ـ فحرضته على حرب مالونيا ونهب خيراتها وأغرته بفتحها وغزوها ، وقد وجد لها في نفسه هوى ووقع في غرامها ، أمر الملك المريض نابولي بحبس الملك بدوان وقادته الذين نجوا من الموت ووزرائه حتى يعود الأمير الفارس بربار من السيطرة الكاملة على مملكة بدوان في أقصى الجزيرة ، وودع الأمير بربار الملك ، وتحرك بعشرة آلاف فارس إلى أقصى الجزيرة ، وكان الملوك في الطريق يرحبون به ، ويستقبلونه استقبال البطل الغريب والفارس المخيف ، ويقرون بالخضوع لمملكة مالونيا بدفع الجزية المفروضة عليهم طوعا ، ورضا بحكم الملك نابولي ، وبعد شهرين من الوقت وصل بربار لتلك البلاد واستلم خزائنها وخيراتها ، وبحث عن سونيا وسرياني فعلم أنهما هربا بعد هزيمة بدوان الكبيرة ، وأعاد الأمير بربار ملوك المدن الكبرى لحكم بلادهم مقابل الطاعة للملك نابولي ، فأعاد تجزئة مملكة أقصى الجزيرة ، وبعض المدن نصب عليها ملوكا من قادة نابولي ، فعاد ملوك تلك المدن أو ورثتهم لعروشهم وحثهم على الخضوع لحكم مملكة مالونيا ، وحذرهم من الغدر والخيانة ، وأمرهم بإرسال الأموال اللازمة لجند مملكة مالونيا في الوقت المعلوم ، وأن يرسلوا الجند في أي وقت تحتاجهم مملكة مالونيا بكل سرعة ، وبين لهم خطر التمرد على الملك نابولي ، وعرض الأمير بربار على الأمير ملاريون حكم مملكة أبيه فرفض وقال : إنني وهبتها لك .. وأرغب بالبقاء بصحبتك وركابك أيها الفارس النبيل .



قضى الأمير بربار ستة أشهر يرتب أمور هذه الممالك ، وعاد بمن رغب من القادة والفرسان إلى مالونيا المدينة التي ازدهرت مع هذه المعارك ، وأصبحت عاصمة كبرى لمملكة نابولي ؛ ولما

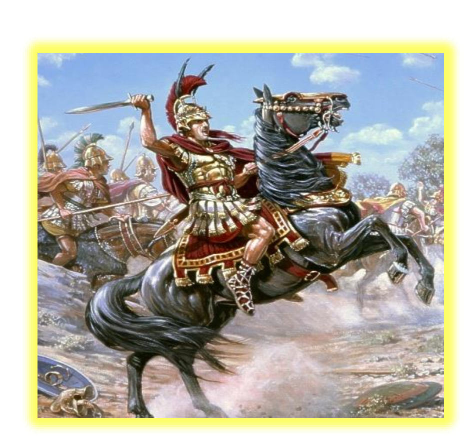
وصل القائد الكبير بربار كان الملك نابولي في أواخر أيامه ، فقد أنهكه المرض الذي دب في جسده وقد فرح كثيرا برؤية الفارس بربار وعودته ظافرا قبل رحيله ، فاعلمه أنه قد جعله وريثه الشرعي على هذه المملكة العظيمة ؛ لدوره الكبير في توسعها ، وفي الحروب التي خاضها ، وفي الدفاع عن شخص نابولي ، والإخلاص له ، وليحافظ على ذلك الملك الواسع ، فاحتضنه بربار وبكى بين يديه بكاء كثيرا ، وحزن الناس على موت نابولي ، واستمر الحزن خمسين يوما ، وقدم المعزون من كل صوب وحدب للتعزية والمباركة للملك الجديد وريث نابولي المحارب الكبير وبعدما انتهت أيام الحداد على مؤسس هذه الدولة العظمى أعلنت الأفراح بتتويج الملك بربار.. فأصبح ينادى بربار العظيم ملك ممالك الجزيرة الكبرى ، وبدأت الوفود تأتي من جديد للتهنئة والمبايعة من كل الممالك الخاضعة والصديقة ، فيقدمون فروض الطاعة والولاء للملك العظيم بربار، وكان من ضمن الوافدين للتبريك والتهنئة الملك جليان ملك مدينة الغرام ، وكم كان اللقاء بين الرجلين جميلا وغريبا ومشحونا بالإعجاب ، وطال العناق بين الرجلين وضحك جليان وهو يقول : آه !.. يا بربار العظيم ! لقد دخلت الجزيرة غلاما رقيقا لا حول لك ولا قوة وها أنت قد أصبحت السيد المطلق الفارس الذي تنحي له هامات الملوك هيبة ووجلا .. وما بلغت من العمر ثلاثين سنة .. والله إنها لأعجوبة وإنها لدنيا غريبة .

وضحك الفارس بربار من صميم الفؤاد وقال : صدقت أيها الوالد الطيب! وهذا كله بفضل منك ، ومَنٍ من الله الأكبر .. وأنا مستعد أن أتنازل عن هذا الملك العظيم وهذا العرش الكبير لك يا مولاي .

فعاد جليان للضحك وقال : لا أستطيع حكم هذه الممالك الكثيرة .. وأداهن وأحارب أعداء هذا الملك الكبير .. فأنا رجل شيخ على وشك الرحيل ..فهنيئا لك أيها الفارس .. وهذا فخر لي أن أراك باسلا وسيدا كبيرا ؛ ولكن عليك بالعدل .. وحذار من الظلم والعدوان ..

الملك بربار

دخل القائد الأمير ملاريون على الملك الفارس بربار وذكر له أن أختا له حسناء جميلة سليلة الملوك من قومه ترغب بالزواج منه إذا كان لديه رغبة بالنساء ، فاعتذر بربار قائلا : شكرا لك يا صديقي .. أرغب بالزواج ، ولكني أحلم بأميرة شرقية من أميرات الشرق.. فأنا أتيت لهذه الجزيرة من الشرق ، وذكر له مختصر قصته ، فتعجب ملاريون من قصته ومن قدرة الخالق المدبر وذكر برباز له اسم أحد القادة الفارس جرار فهو فارس جدير بها .



فابتسم ملاريون قائلا : سوف أعرض عليه هذا الاختيار ؛ لأنها هي التي ذكرت لي بأنها راغبة في شخصكم العظيم .

فقال بربار: اشكرها على هذه الرغبة نحوي وهي سليلة الملوك والسادة .. واذكر لها عذري .. وسوف نتهيأ لغزو الشرق للاستيلاء على كنوزه وخيراته ؛ فإذا أحببت مرافقتنا فجهز نفسك وفرسانك .

استقر الوضع في الجزيرة الكبرى، وخضعت الملوك والأمراء لمملكة مالونيا، وزاد فرسان بربار إلى خمسة آلاف فارس ، يخضعون لمائة من كبار فرسان بربار، وكان بربار الملك لما رأى هذا الملك العظيم بين يديه من فرسان وجنود وأموال بدأ يفكر بالبحث عن اخوته في الشرق فيما وراء البحر ، وقد زاد الحنين للأهل في قلبه وصدره ، ولقد كان يعمل بين يديه كثير من العلماء والحكماء والمفكرين، وكان قد أنشأ لهم مجلسا خاصا يستمع لآرائهم وأفكارهم واقتراحاتهم في تدبير شؤون هذه المملكة ، وكان يكرمهم ويكثر من التودد إليهم والالتقاء بهم ومجالستهم ومناقشتهم ، وذكر لهم رغبته في غزو الشرق لتكوين إمبراطورية يتحدث عنها التاريخ والأجيال القادمة ، وأثناء الاستعداد لهذا الغزو أتاه استعطاف من الملك بدوان فأخرجه من السجن ونفاه إلى جزيرة في وسط البحر الكبير ، ونبهه من عاقبة الغدر والخيانة، وعليه الرضا

والقناعة بما حصل معه وله ، ثم انتشر خبر في تلك الجزيرة برغبة الملك العظيم بربار بغزو الشرق والوصول للهند والسند والصين، وبدأ أعوان وأنصار بربار ينقلون إليه أخبار وتعليقات الناس على هذه الحملة، وأتته رسالة من الملكة سونيا تذكره بنفسها وخدمته لها ورغبتها في لقائه، فرحب بذلك فحضرت واستقبلها الملك بربار ، فهنأته بالملك والعز والجاه ، ودار بينهما حديث عن أيام مدينة الغرام وعن أيام مجيئها لمالونيا ، وختمت حديث الذكريات بأن عرضت نفسها عليه زوجة ، فضحك من عرضها وقال باسما : أين سرياني أيتها الأميرة .. لقد علمت أنه كان معك في مدينة الملك بدوان ؟

ضحكت مجارية للملك ، وغيظ يملأ صدرها لغمز بربار بعشقها وقالت : لقد تركني وهرب لما انهزم الملك بدوان أيها الفارس .. عفوا أيها الملك العظيم .

فلم يعر همز سونيا اهتماما بل قال : أميرة سونيا .. لقد علمت أن الملك نابولي قتل سرياني ما الذي حدث بعد ذلك وكيف نجا؟

فقالت باسمة : فعلا هذا ما ظنه نابولي الغاضب ، طعنه بالخنجر في صدره ، وأنا قد أغمي عليّ وخرج ينادي على الجنود ليقذفوه في النهر ، فاستيقظ سرياني وقال لي ـ وأنا قد عاد لي الوعي في تلك اللحظات ـ أنا لم أمت يا سونيا .. أنقذيني فلما حضر الجنود أمرتهم بنقله إلى كوخ في آخر القصر ففعلوا ، وقد كافأتهم بخاتمي الماسي ، وهربت به إلى مدينة قريبة وشفي بعد حين ، ثم سرنا إلى الملك بدوان وحرضناه على قتال الملك نابولي .. وحصل بعد ذلك ما تعرفه أيها الملك العظيم .

فقال بربار : وأين هو الآن ؟

ابتسمت وهزت كتفيها قائلة : لا أدري .. أيها الملك .. ألا ترغب بي زوجة ؟

فقال الملك : ولكني أعرفك جيدا أيتها الأميرة .. فلنبق أصدقاء خيرا لنا ، ولا تنسي أنني ورثت العرش من زوجك البطل نابولي .. فالأفضل أن تبحثي عن عشيقك سرياني وتتزوجيه وتعودين لمدينة الغرام عند والدك جليان.

فقهقهت ساخرة من تعليمات بربار وقالت : ويلك إنك تتكلم كالملوك العظام يا بربار كأنك نسيت من كنت !

فقال هازئا من غمزها: ألست ملكا عظيما أيتها الأميرة ؟! هل أحد حكم الجزيرة الكبرى قبلي غير نابولي الملك ؟! انصرفي وابحثي عن سرياني فقد عفوت عنه ـ رغم أنني لا أحب الخيانة بكل صورها ـ واسكنا مدينة الغرام .. فأنا ذاهب لغزو الشرق قريبا بإذن الله .



أمر بربار بتجهيز مراكب لتحمل مائة ألف فارس إلى بلاد الشرق ، وطلب من ملوك الجزيرة الدعوة لهذه الحملة وإرسال من يرغب للمشاركة في هذه الحملة إلى مالونيا للالتحاق بجيش الإمبراطورية ، وتقرر أن يكون الأمير الفارس ملاريون نائبا للملك بربار أثناء هذه الحملة الضخمة ، ومعه مجموعة من القادة المعروفين للناس ، وبعد تمنع رضخ ملاريون لرغبة الملك في البقاء نائبا له ، وقيادة تلك الأمم أثناء غيابه ، وقبل السفر بأيام تزوج الملك بربار من أخت الأمير ملاريون سياسة ، ومكث عندها بضعة أيام ، وأوصاها على حسن إدارة المملكة الكبيرة ، وكانت الملكة راغبة بالسفر معه فتأسف لها عن ذلك وحذرها من الغدر والخيانة ، وقص عليها قصة الملكة سونيا وعشيقها سرياني محذرا لها من الزنا والعشق ، ولما اكتمل الجيش والمراكب والخيل والفرسان سارت بهم السفن في عرض البحر نحو الشرق ، وبعد شهر كانوا قد وصلوا شواطئ مصر بلاد النيل ، فكتب الملك بربار رسالة لملوكها وسلاطينها ، جاء فيها بعد التحية والسلام والإكرام أيها الملوك العظام نحن لا نريد غزو بلادكم فلتطمئن قلوبكم ، إنما نحن راغبون بالمرور نحو الشرق إلى بلاد الهند والسند والصين ، فنرجوكم تيسير ذلك لنا ، وإن أبيتم ذلك فالقتال يفصل بيننا ورسولنا سيوضح لكم الأمر مفصلا وختمت الرسالة بختم الملك ملك جزيرة البحر الكبرى الملك العظيم بربار .

استمع كبير ملوك مصر وبلاد النيل والسودان والأحباش في ذلك الزمان لوفد الملك بربار ، وتليت على مسامعه الرسالة الملكية، وكان بعض أخبار الملك بربار قد وصلت لتلك البلاد بواسطة التجار والبحارة ، فطلب السلطان الأكبر منهم مهلة للتشاور ، ورحب بالوفد وأرسلهم لدور الضيافة ثلاثة أيام ، واجتمع السلطان المصري بقادته ومعاونيه ووزرائه ، وكان على رأسهم شاب دون الثلاثين من العمر قائد وفارس ووزير في نفس الحين يسمى بالذئب برهان ، واستمع السلطان لهم جميعهم حتى أتى دور الذئب برهان فقال : أيها السلطان هذا بطل مغوار وفارس كرار ، وكما سمعت عنه فأنه قد خاض حروبا كبارا ، وتسلطن على الجزيرة البحرية بقوة الرمح والسنان ، ونحن حقا نملك فرسانا وأبطالا لا يهابون الموت ولا يرغبون بالحياة ؛ ولكن الكثرة قد تغلب الشجاعة ، وبما أنهم لا يرغبون في حربنا وإنما يقصدون العبور لفلسطين متجهين للشرق ، فإذا كان هذا قصدهم فهذا خير لنا ، وكذلك تجنيب البلاد والناس من أهوال الحرب والدمار ، فلنلتقي بملكهم ونسمع منه على الرحب والسعة .

وبعد أن استمع السلطان لجميع الآراء أعجبه قول الذئب برهان ومن قال مثله ، فاستدعى الوفد وتحدث معهم الذئب برهان قائلا : أيها السادة نرحب بكم في بلادنا ، ولسوف نسمح لكم بالمرور نحو الشام وتلك الديار مع الضيافة إذا حضر ملككم للاجتماع بمولانا السلطان زدياب والاتفاق معه على مدة العبور والمكث في البلاد وعدم الاعتداء على أموال الناس فهذا هو الشرط والجواب .

ورافق الوفد جماعة من سادة البلاد بينهم الذئب برهان لمقابلة الملك بربار ويدعونه للقاء السلطان زدياب ، وكان بربار ما زال على شواطئ مصر ينتظر الجواب ، استمع بربار لأقوال الوفد ، واستعد لاستقبال الوفد المصري على متن أكبر سفينة في المراكب التي أتى بها من بلاده وصعد الذئب برهان وبرفقته الوفد إلى السفينة واستقبلهم الملك ، ولما نظر الفارس للذئب برهان خفق قلبه كثيرا ، ولما صافحه زاد الخفقان وهمس قائلا لنفسه : كأنه أخي ذؤيب ما تغير شكله كثيرا؛ ولكنه بشارب ولحية ، وما زال نحيف العظام واللحم ما اسمه يا ترى ؟!

ولما سمع المترجم يقول : رئيس وفد السلطان الفارس الوزير الذئب برهان .

قفز الملك عن سريره وتملل وهمس مخاطبا نفسه : ذئب .. ذؤيب .. آه أكاد أن أقول أخي ذؤيب لعله هو بل كيف سأتحدث بلغته ؟!.. صبرا أيها الفارس صبرا .

أصغى الملك لعرض سلطان مصر وقال لهم : أنتم في ضيافتنا .. ودعوني أفكر بلقاء ملككم زدياب.

بعدما فكر بربار وشاور القادة وافق على زيارة سلطان مصر ، فأذن الوزير الذئب برهان بنزول الجيوش على بر مصر والمسير نحو الشام ، وأوصى الملك بربار بعدم العبث بأملاك الناس وأغنامهم ونسائهم ، وتركوا السفن وبحارتها وحرسا عليها ، ومكثوا في ربوعها ثلاثة أشهر حتى وصلوا أطراف فلسطين ، وازداد بربار تعلقا بالفارس الذئب برهان ، وأحب أن يعرف منه عادات وطباع أهل النيل ، وعرض عليه صحبته للشرق ، وافق الذئب برهان على هذه المشاركة إذا وافق ولم يمانع الملك السلطان زدياب ، وكان الملك قد أحب أهل هذه البلدة ولا سيما السلطان وكثير من الأمراء ، وطلب من الملك زدياب عدة آلاف من الفرسان للمشاركة في الحرب معه ، فوافق السلطان وأذن لوزيره الصغير بمرافقة الحملة طمعا بالأموال والجواهر والتوابل من بلاد الشرق الساحر، ولما اكتمل تقدم جنود بربار نحو فلسطين تحرك بمن بقي معه ورافقهم السلطان المصري إلى أطراف المدينة ، وودعهم وأوصى الملك بربار على وزيره وجنوده المصريين ، ولما دخل بربار الشام استطاع بواسطة المصريين الاتصال بأمراء الشام حكام تلك البلاد ليخبروهم برغبة الجنود الغزاة العبور من بلادهم نحو الهند والسند ، ولا يريدون غزوهم ونهب خيرات بلادهم ، فوافق أمراء المدن واستقبلوا الجيوش بالترحاب والسلام حتى وصل الملك بربار عاصمة الشام دمشق ، فرحب به أميرها وأحسن وفادته ، واستمر السير حتى نزل الملك بربار مدينة الأحلام ، فبربار ما زال يذكر أن أخاه صقير قد بيع في هذه المدينة ، وما زال رسم ذاك الرجل الذي اشتراه في مخيلته إنه أحد التجار ، خرج أعيان البلد للترحيب بهذا القادم المغامر الذي أقبل من الجزيرة الكبرى ليغزو الهند والسند والصين .

بعد الترحيب والاستقبال الحسن للملك بربار وأمرائه ، دخل الملك وحاشيته وحكماؤه المدينة في ضيافة أميرها ، ونزل الجنود على أطرافها وقد صدرت إليهم الأوامر بعدم الاعتداء على أموال الرعية والناس ، وعليهم التزام السكينة والراحة وعدم التحرش بالخلق ، وطلب الملك بربار من صاحب هذه المدينة أن يجمع له كل تجار البلد ليراهم ، مدعيا أنه قد التقى ذات يوم بتاجر من أهل هذه المدينة لا يذكر اسمه ويرغب أن يراه ، فاستجاب الأمير لرغبة الملك بربار وجمع له أغلب تجار البلده ليراهم ويتعرف على التاجر الذي يبحث عنه ، وله معه ذكريات ، ويريد أن يكافئه لمعروف صنعه له قديما من أيام الصبا .. حضر التجار وكبيرهم للسلام على الملك الضيف ، فقام بمصافحتهم كلهم ، ولما انتهى من رؤياهم قال لكبيرهم : هل بقي أحد لم أره فإن صاحبي ليس بينكم .. لا أذكر اسمه غاب عن قلبي ؟

فقال كبير التجار : أيها الملك العظيم ! لم يتخلف أحد فقد حضر الكبير والصغير .. صف لي صاحبك لعلي أعرفه !

ذكر بربار صفة للرجل الذي يتخيله منذ أكثر من عشرين سنة ، فقال كبير التجار : لا أدري من هو صاحب هذه الصورة ؟! .. كم سنة مضت على هذه الصورة ؟!

ضحك بربار وقال : كان عمري يومذاك عشر سنوات عندما دخلت هذه المدينة .. أكثر من عشرين أيها التاجر .. لعله قد هلك .

تبسم التاجر وقال : أجل .. هذا عمر يا مولاي !

تحرج بربار أن يذكر قصة طفولته لهؤلاء الناس بأنه كان غلاما رقيقا مخطوفا ، وأن أخا له بيع هنا ، وكان يسمى صقيرا ، فعاد يقول للتاجر : أريد أن أرى تاجرا منذ عشرين سنة يعمل في هذه المدينة لأساله عن صاحبي؟

وأمر الملك بالهدايا السخية للتجار وكبيرهم ، فسر هؤلاء القوم بعطايا الملك بربار وكرمه ، ثم عاد كبير التجار برجل كبير في السن ترك التجارة قديما ، وسأله بربار عن صقير فأنكر الرجل معرفته لهذا الاسم في هذه البلدة ، واجتهد بربار للوصول إلى أخيه صقير ، فوجد الأمر محالا

وصعبا ، حتى أن الأمر أثار حكماء وعلماء الملك فسألوه عن الأمر وعما يبحث ، فذكر لهم أن له حاجة في هذه المدينة ولم يسهب في تفصيلها ، وقبل مغادرة المدينة الهادئة مرض الملك بربار، واشتد عليه السقم فخاف القادة والعسكر من هلاكه ، وقد جاءت الأخبار من الجزيرة الكبرى بالثورات على نائب الملك ملاريون ، فانزعج الناس والجيش وقام أطباء الملك بمعالجته فلم يتحقق له الشفاء على أيديهم ، فدخل أمير مدينة الأحلام على الملك بربار عندما رأى عجز أطبائه بدوائه ، وذكر له أن عندهم قاضيا طبيبا ماهرا إذا أحب الملك رؤيته لمعالجته ، فأذن بربار للقاضي الطبيب بالدخول عليه، فحضر شاب صغير ، وهو قاضي الأمير وطبيب أهل المدينة فقد تعلم بعض فنون الطب واشتهر بين الناس بذلك ، فدخل الطبيب على الملك المريض ، وتحدث معه ، وجس نبضه ، وكشف عن صدره ، وقام بوصف دواء له غير معروف عند أطباء الملك والجند ، وقدر الله الشافي له العافية على يد الطبيب القاضي ، وتماثل الملك للشفاء بعد حين ، فدب الفرح في الجند والعساكر والأمراء والقادة ، وأثنوا على براعة الطبيب كثيرا .



ولما عادت الحياة والعافية للملك بربار، وتحسنت صحته أخبره وزيره الأكبر بأخبار المملكة فتنهد بربار وقال : لابد من غزو الهند والسند قبل العودة لتأديب المارقين فغدا ليتقدم الجيش.

وكتب رسالة مطولة للأمير ملاريون ، وشرح له فيها أحواله ، ووضع له خطوات محاربة التمرد وعدم الاشتباك الحاسم معهم حتى يعود من الهند ، وكتب رسالة رقيقة لزوجته سنديانة ، وذكر لها فيها أخبار سفره ومرضه ، وقبل الرحيل طلب الملك بربار من أمير مدينة الأحلام أن يهبه الطبيب القاضي ذهب النهار ليرافقه في الحملة ليتعلم منه أطباء بلاده ، وبعد جدل ونقاش مع الأمير والقاضي وأمام ضغط بربار الملك وحاجته لطبيب بارع رضخ ذهب النهار لمرافقة الحملة وعندما يعودون يعود لمدينته ، وكان الملك بربار قد كافأه بأموال كثيرة ، فأثنى بربار على أمير المدينة ، وأعطاه الكثير من الأموال مقابل هذه الضيافة الطويلة والصبر على آذاهم وإزعاجهم أكثر من شهر ، ثم سافر الملك وحاشيته ولحقوا بالجيش

استمر زحف جيش برابار من بلد إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى حتى دخلوا ممالك الهند والسند دون معارك كبيرة ، فكتب الملك برابار رسالة لملك الهند الأكبر يطلب منه الخضوع لحكمه وملكه حفاظا على حياة شعبه ودوام ملكه على ممالك الهند التابعة له ، وبلاد الهند كانت لعدد كبير من الملوك ، وكان الملك طرخان أكبر ملوك الهند ، وكان ملكا جبارا وفارسا مغوارا ، فجاءت الرسالة إليه، فلما تسلمها غضب وسخر من هذا الغازي ، واتصل بأصدقائه من ملوك تلك البلاد واتفقوا على محاربة ملك الجزيرة الكبرى ، ومنعه من اجتياز بلاد الهند إلى السند والصين ، فرد الملك طرخان على الملك برابار باستهتار واحتقار وطلب منه العودة لبلاده بدون تأخير ، وأن يدع ما يحمل من الأموال والجواهر غنيمة لابطال الهند ، اجتمع الملك برابار بقادة جيشه واستمع لأقوالهم، ثم جمع مستشاريه وعلماءه وقضاته وفرسانه الكبار فكلهم وافقوه على الحرب والقتال وتدمير هذه البلاد وكسب خيراتها وكنوزها وترك غزو بلاد الصين البعيدة ، ثم العودة للبلاد لإخماد الثورات والعصيان ، فوافق برابار على ذلك وكتب رسالة شديدة الوقع للملك طرخان ويحقره فيها ، ويتوعده ، ويطلب منه أن يجهز له ابنته ريهان للزواج دون إمهال ، وكان برابار يجري المراسلات بينه وبين طرخان ليستريح العساكر من تعب الرحيل ، ويستعد القادة لمعرفة البلاد ويضعوا الخطط المطلوبة ، والتقت جيوش الشمال مع جيوش الهنود وجرت معارك عنيفة ومخيفة ، واستمرت شهور ضعف على أثرها صبر جيش طرخان، وعاد أنصاره لمدنهم يتحصنون بها ، وعاد طرخان لعاصمة ملكه هو الآخر يتحصن بها وأغلقت أبوابها ، فضرب الملك برابار عليها الحصار وبدأ يرسل القادة والجنود إلى مدن أخرى فقاتلوها أشد القتال ، حتى استسلمت له الكثير من الممالك والاقيال وخضعوا لسلطانه وجبروته ، ثم ضاق أهل مدينة طرخان من طول الحصار وسقوط كثير من المدن بيد برابار فطلبوا من ملكهم إما أن يخرج لقتال عدوه أو أن يسلم البلاد له بشروط مناسبة فلم يعودوا يطيقون الحصار ، فأرسل الملك طرخان رسالة للملك برابار يطلب منه الصلح ، وأن يهديه ابنته ريهان حليلة له ، وجرى تفاوض وكلام استسلم على أثره الملك طرخان للملك برابار ، وتم الصلح بين الملكين وأهديت

الأميرة ريهان بأحلى الثياب والجمال والجواهر للملك بربار فأنزلها مع نساء الأمراء والفرسان ، وأعلمها أنه سيدخل بها عندما يصل مملكته وتتوج ملكة ـ وفعل ذلك خوفا وحذرا من غدرها وتواطئها ضده ، فقد فقد لها اخوة وأقارب خلال المعارك الطاحنة بينهم ـ ثم أحاطها بالحرس والعيون ، وتابع الملك بربار فتحه لبلاد الهند والسند حتى خضعت له أكثر تلك الممالك ، وتزوج الأمراء والفرسان من بنات أمراء وملوك تلك الممالك الكثيرة ، ثم جعل كل عدد من الممالك تخضع إلى ملك كبير مسؤول أمامه عن جمع الأموال وإرسالها له في الجزيرة الكبرى ، وبعدما رتب الملك بربار أمر تلك الممالك ، وحذرهم من الغدر والخيانة ، وأخذ عليهم المواثيق والعهود على الوفاء ، أعلمهم برغبته للعودة لعاصمة ملكه مالونيا ، واجتمع بطرخان من جديد قبل عودته للغرب وقال له : إن غدرتم وعدت إليكم سأدمر ممالككم تدميرا تاما الحجارة والناس ولنبق أصدقاء وأصهارا.



أخت الملك بربار

وبينما بربار يستعد للعودة لبلاده ، وقد صرف نظرا عن غزو بلاد الصين بلاد أقصى الأرض ، وقد جمع بين يديه الكثير من الأموال والهدايا والجواهر والخيل والبغال والأفيال والعاج والديباج والبهار ، وبينما الملك بربار على هذا الحال دخل عليه الحاجب يعلمه أن رجلا يرغب ببيعه جارية حسناء لا مثيل لها في الدنيا، ويريد أن يقابله من أجل ذلك ، ولقد كان جيش بربار قد أخذ كثيرا من الجواري والسبايا خلال هذه الحروب ، وكثير من هؤلاء الجواري والغلمان آثروا البقاء في جيش بربار والرحيل معه ، وكان بربار يجلس في مجلس عظيم بين رجاله وضيوفه عندما أخبره الحاجب ببائع الرقيق الذي يريد أن يبيعه أجمل جارية في الدنيا ، فأمر الملك بإدخاله ليرى أجمل جارية في الدنيا ، دخل تاجر الرقيق ليبيع جاريته للملك بربار ؛ فإذا هو عبد ضخم أسمر ، وقد شاب رأسه ولحيته الكثة ، وعندما أصبح العبد التاجر بين يديه ونظره ، عاد الملك بالذكريات للوراء قبل ربع قرن انقضى ، تذكر طفولته تذكر قريته بيت الصبار .. الصراخ والصياح والدماء والأنين والخطف .. تذكر بهرام أباه .. تذكر أمه الثكلى وهي تشد وتسحب بهم من الخاطفين الأطفال .. تذكر سراجة .. تذكر ذؤيبا وصقيرا تذكر البحر والسفن وإلقاء الأطفال الضعفاء في البحر .. تذكر كل تلك الصور الرهيبة .. لم ينس تلك الصور.. طال سكوت الملك على تحية الرجل ، حتى أن جلساء الملك ظنوا أن الملك لم يسمعه وذهب في تفكير عميق ، فقال الملك بعدما دار شريط الذكريات في مخيلته فقال : أيكون هذا درغال ؟! يا الله ! لم أنس اسمه .. ووجهه وجه وحش.. ذاك الوحش الأسود رغم قساوة تلك الأيام فهي كانت السبب لما أنا فيه الآن من الملك العظيم.. لو لم يخطفني ويبيعني لتجار الرقيق لما صرت الملك العظيم بربار .. ولكن كثيرا من الذين تعرضوا لإجرامه لم يصبحوا سادة وملوكا ..ألم يفرق بين الآباء والأبناء والأمهات والبنات ؟! .. ألم ييتم الأطفال ويرمل النساء ؟ .. الحرب ألا تيتم الأطفال وترمل النساء؟! .. حياة .. حكمة .. لو لم أبعد عن أسرتي وأهلي ما كبرت هذا الكبر والعلو .. هذه الأفكار وغيرها دارت في رأس بربار عندما شاهد العبد الأسمر القرصان درغال

تعجب الحضور لصمت الملك الطويل، ولزموا الصمت مثله فقد أدركوا أن الملك انشغل ذهنه بأمر مهم ، فلما عاد الملك الفارس بربار للواقع وأدرك دهشة القوم قال للعبد : أين الجارية ؟ ولماذا تريد أن تخصني بها ؟!



كان العبد القرصان قلقا من طول تفكير الملك عندما رآه ، وشعر بأن قلبه سقط على الارض ، فلما نطق الملك بالسؤال سري عنه الخوف المجهول ، ورد قائلا : قالوا لي إنك تشتري بثمن غال وتدفع بسخاء.. وجاريتي جارية جميلة ، بل هي زوجة أمير ، وقد خطفتها حديثا ، ولما سمعت بك وبأخبارك فأحببت أن أخصك بها فهي لا تصلح إلا لك .. فهي معلمة ومؤدبة وذكية فأحببت أن أكرمك بها .

كان بربار يعرف الوحش درغال فقد مكث أياما في سفينته أثناء خطفه ، ولولا ذلك لظن أن هذه دسيسة ؛ وإنما هو خاطف ورجل بيع رقيق ، فسمع الجميع بربار يقول بصوت ناعم حاد: أيها الوحش الأسود.. أحضرها لنراها ونرى حسنها !

أشار درغال لأحد رجاله بأن يدخل بالجارية بين يدي الملك ، فدخلت الجارية الجميلة كئيبة حزينة فأشار لها درغال أن تتقدم وتقبل يدي الملك ورجليه، وأخذت بالبكاء فنهرها درغال وقال : تأدبي أيتها الحسناء أمام ملك الدنيا الملك بربار العظيم !

رق قلب الملك لدموع الجارية لسبب لا يعلمه ، فمسح دموعها بيديه أمام دهشة الجميع ، ثم قال مهدئا من روعها : لا تخافي أيتها الفتاة ! نحن لسنا وحوشا مثل جلادك الوحش .. ولن تبقي مع هذا الإنسان الوحش .. ما قصتك ؟

فقال العبد : يا مولاي العظيم ! قبل أن تسمع قصتها هب لي ثمنها .

فقال الملك بهدوء : اصبر واصمت أيها الوحش .. لن نبخسك حقك .. فأنا أعرفك جيدا .. منذ أكثر من خمس وعشرين سنة.. بيني وبينك حساب كبير .. عندما رأيتك عندما دخلت علينا تذكرتك أيها القرصان ! تذكرت جبروتك ووحشيتك وقتلك للأطفال من غير عطف

ولا رحمة .. تذكرت القرصان الوحش .. عادت بي الذكريات للوراء .. لتلك السفينة التي تملكها لصيد الاطفال .. لتلك القرى التي تغزوها برجالك ..إنني أعرفك جيدا .

استغرب السامعون لهذا الكلام ، بربار الملك ومعرفته القديمة لهذا التاجر، وانزعج الوحش الأسود لهذا الكلام الذي لم يفقه منه شيئا ، ولا يعلم كيف يعرفه هذا الملك منذ ربع قرن مضى لم يلتق بهذا الملك قبل اليوم !.. فهذه أول مرة يدخل عليه !.. حدق الوزير الذئب برهان بعيني بربار لحظات ثم قال للملك : أيها الملك العظيم بربار .. أنا أيضا أعرف هذا الإنسان ، ولم أنس رسمه في حياتي !

جفل الملك لهذا التصريح ، وتبادل مع ذؤيب النظرات العميقة ، وتذكر لقاءه به في مصر أول مرة ، وتذكره يومها لأخيه ذؤيب ، وبينما هما يتبادلان النظرات بدهشة وتعجب ، سمعوا القاضي الطبيب ذهب النهار يقول بدهشة : وأنا أيها القوم الكرام أعرف هاتين العينين وأذكر هذا الرجل في تلك الأيام الخوالي .. في تلك السفينة وقتله للأطفال وبيعه للأحياء الأصحاء .

فحدق القوم بصقير ذهب النهار وقال بربار همسا كأنه حالم : صقير .. ذؤيب .. أسيد ..

فهتف صقير : هذا اسمي قديما وأنا ابن خمس سنوات أو أكثر قليلا !

وصاح ذؤيب : وأنا اسمي ذؤيب وأنا صبي !

تعانق الرجال الثلاثة ، واحتضنوا بعضهم بعضا وصاح الملك : وأنا أسيد بن بهرام.

وارتفع البكاء والشهقات والزفرات بينهم لهذه المفاجأة الغريبة ، فرقهم درغال ، وجمعهم لقاء درغال ، وسمع الحاضرون الملك يقول : نحن اخوة فرقنا هذا الوحش عندما كنا صغارا .. وها هو اللعين يجمعنا من جديد !

وكان العبد القرصان حائرا بما يرى ويسمع ؛ ولكنه سمع الفارس يقول : ألست ذاك الوحش درغال ؟

صاح العبد أمام الملك : نعم أيها الملك العظيم أنا خادمك درغال .

طلب الملك من الجميع الجلوس ، وأشار للفتاة بالجلوس بالقرب منه وقال : أيها السادة سأذكر

لكم قصتنا نحن الثلاثة مع هذا الوحش .. فهؤلاء اخوتي من أمي وأبي .. فهذا أخي ذؤيب ، وهذا أخي صقير ، ولله الحمد والمنة .. فجلس الأمراء بعدما هنئوا الاخوة على هذا اللقاء الغريب ، وبدءوا يسمعون لقصة الملك برباز وتعجبوا منها غاية العجب ، وتعجبوا للأقدار التي جمعتهم بعدما فرقت بينهم من سنوات طوال، ولما انتهى الملك من سرد قصته صاحت الفتاة الشابة الجارية قائلة: أنت أخي أيها الملك العظيم .. أنا أختك .. أمي سراجة وأبي بهرام ! وسقطت مغميا عليها ، تبادل الاخوة الثلاث النظرات والسؤال الذي تردد على شفاههم هل لنا أخت حقا ؟! هرعت جواري الملك وأخذن الفتاه لعلاجها ، وانتشر الخبر بين خيام الجيش أن الملك وجد اخوته الذين فقدهم وهو طفل صغير، ولحق القاضي الطبيب بالفتاة للقيام بعلاجها ومراقبتها من الصدمة التي ألمت بها ، وأمر الملك برباز بحبس درغال ورجاله حتى يستمع لقصة الفتاة التي تزعم أنها أخته ، ولما استردت الفتاة قواها أتى بها صقير المذهول إلى صيوان الملك برباز، والذين كانوا في الانتظار لسماع حكاية الفتاة ، وكان حوله الحكماء والشعراء والقادة وكبار الفرسان والضيوف من الأمراء والملوك، فقالت البنت أمام الجميع : نعم ، إنكم أهلي يا سيدي الملك .. أنا أختكم .. بعد أن دمر الوحش درغال القرية، ونهب وسلب كما حدثني والدي في ذلك الزمان ، وساقكم الوحوش إلى البحر .. وقد أصيبت أمي بطعنة سكين وهي تحاول منعهم من سرقتكم لكنها لم تكن قاتلة ، ونجا الوالد من قبضتهم ، عاد بهرام الهارب يلملم جراحه ، فوجد أمي سراجة مصابة فداواها وأنقذ حياتها واعتنى بها حتى تعافت ، وكانت أمي حامل بي ، فأخبرت زوجها بذلك ، ففرح لهذا الخبر بعدما فقد أحبابه الثلاثة ، وبعد ولادتها سافر ورحل عن القرية نحو المدينة الكبيرة ، ترك قرية بيت الصبار التي تعرفها يا أخي الملك فنزل بمدينة الجدول ، وكان حزينا جدا على فقدكم وضياعكم ، وما زال يلهج بذكركم وحبكم ويحلم برؤيتكم ولقائكم قبل موته ، وعاش في مدينة الجدول بكوخ حقير في طرف البلدة ، وكان في النهار يذهب للعمل في قلب المدينة ، وفي المساء يعود لنا بالطعام والشراب إلى أن كبرت وترعررت ، ولم تنجب أمي بعدي أحدا ، وكانت أمي تحب القرية

وتحاول إعادته للقرية ، فيأبى ويصر على البقاء في المدينة والحياة القاسية في مدينة الجدول .

كان الملك واخوته يسمعون القصة وهم يبكون بقلوب حرة ، وتنساب دموعهم على لحاهم بغزارة .. لعذاب والدهم وشقائه عليهم.. عادت الفتاة تقول : المهم كبرت يا أخي وذقت حرارة الفقر والجوع والحرمان ككل أبناء الفقراء .. وكنت وأمي نسير نحو الغابة القريبة لنتحصل على الحطب وبعض الثمار والأعشاب فيذهب بها بهرام للمدينة لبيعها ، فلما صرت ابنة خمس عشرة سنة وذات يوم ونحن في الغابة نخرج الأعشاب البرية والحطب ، وكنا في ثياب رثة ، دخل الغابة علينا شاب جميل نبيل عرفنا فيما بعد أنه ابن أمير المدينة ومعه بعض أعوانه ، فتحدث معنا واستمع لنا ولحالنا ورثى لنا وأشفق علينا من الفقر وقسوة العيش ، فأكرما بالطعام الطيب ، وطلب من أمي أن تبعثني مع أبي للقصر للعمل في قصر الملك الأمير وحيد العصر بن عمران ، فرضيت بذلك العمل لأنني سوف أريح والدي وأمي من عناء العمل وبيع الحطب والأعشاب ، فلماء عاد بهرام أبي حدثته أمي بلقائنا مع ابن الأمير الحاكم ، فرفض وخاف عليّ من الأمراء وشطار المدينة أثناء الذهاب والإياب ، وبعد أيام أتانا الأمير عامر بنفسه أتى إلى كوخنا الحقير وجلس معنا وأكل من طعامنا وأقنع أبي بعملي في القصر، وأن أبات مع خدم القصر ، وأن يزورني أبي كل يوم ، ويأخذ ما قسم الله لهم من الطعام والطيبات ، وبين الحين والآخر اذهب للمبيت عندهم ليلة أو ليلتين ، المهم دخلت قصر السلطان ورحب بي الخدم والحرس، وبدأت العمل في مطبخ السلطان بطهو الطعام وصنع أزكى الشراب وتنسيق الأزهار والعناية بطيور السلطان ، وكان الأمير عامر يرعاني ويتابع شأني سنة من الزمان ، ثم أخبرني برغبته بالاقتران بي بعدما تمرنت وتعلمت ، وأعلمني أنني سأصبح أميرة من أميرات البلاد ، وتحدث مع والدي بهرام الذي طار عقله من الفرح والسعادة ، فحمد الرب وشكره على هذه النعمة والإحسان ، وعرض عليه الأمير السكن في داخل المدينة ، فأحب والدي البقاء في طرف المدينة ، فقام الأمير بهدم الكوخ وإنشاء بيت جميل مكانه ، وتزوجت من الأمير عامر ، وتغيرت الأحوال ، وأصبحت من جارية تجمع الحطب في الغابة إلى زوجة ولي العهد ، وظللت أعيش

بسعادة وراحة بال في ظل هذا الأمير الطيب الشاب ، وقد وهبني الله عددا من الأبناء ؛ ولكنهم ماتوا دون الفطام إلى أن كنت يوما أنا وبعض الجواري في غابة المدينة مدينة الجدول نمرح ونتنزه ونتفرج على الأشجار العملاقة والأطيار خرج علينا الوحش الكاسر درغال وخطفنا ، ثم أحضرونا إلى هنا أيها الملك لبيعنا لك ، وقد أصابنا من الضرب والصفع والاهانة ما يمزق القلوب ويدميها ، ولي بين أيديهم أكثر من شهر ، وقد أخبروني بأنهم سيبيعوني للملك بربار سلطان الهند الجديد ، وها أنا بين يديك أيها الملك العتيد .. وأنا ابنة بهرام وسراجة الأميرة ورود زوجة الأمير الفارس النبيل عامر بن الملك وحيد العصر بن عمران ملك مدينة الجدول.

بكى كل من سمعها وتأثر بقصتها، ونهض الملك الباكي واحتضنها وقبلها من وجنتيها وجبينها ومسح على رأسها ، وفعل أخواه مثله، ولما انتهت لحظات العواطف الجياشة قال الملك بربار : سنعرج على مدينة الجدول لنكافئ ملكها على معروفه معنا ، ونرى الوالدين الطيبين ، ونقابل صهرنا الأمير الجواد عامر .

واصدر الأمر بكتابة رسالة للملك وحيد العصر وابنه عامر يخبرهم فيها بخبر الأميرة ورود ابنة بهرام وأخت الملك العظيم بربار ، كانت السعادة تغمر الملك بشكل بين للعيان، وأرسل مع الرسالة كوكبة من الفرسان الصناديد ، وطلب منهم الإتيان بوالديه معهم ، وبعث معهم مركبة ملوكية لحملها ، وأقام الملك مأدبة كبيرة بمناسبة التقائه باخوته ، أطعم فيها الجيش والضيوف حتى تحدث عنها الشعراء والقصاص ، ثم أذن الملك بعدئذ لأخيه صقير القاضي الطبيب ذهب النهار بحكاية قصته ، فلما رفعت الموائد والشراب وقدمت الحلوى والفواكه للناس والجالسين في صيوان الملك الكبير ، وقد أشعلت المواقد والمصابيح ، وتهيأ الجميع للسماع قال الأمير صقير باسما : أنا كنت أصغر اخوتي المخطوفين ، والحق أنني نسيتها مع تصاريف الليالي والايام ؛ ولم أنس مشهد الوحش الأسود وهو يشير لرجاله بقذف أصحابنا وأبناء قريتنا وغيرها من القرى من أصحاب العاهات والضعف في مياه البحر ليموتوا لم يتركهم يعودوا لأهليهم .. فحادثة قرية الصبار لا يمكن نسيانها .. وأطفال البحر مشاهد لا تنمحي من الذاكرة

والعقل بسهولة .. فلما رأيت القرصان الوحش في حضرة الملك عرفته تذكرته .. وكما قال الملك العظيم بربار .. اشتراني تاجر من تجار مدينة الأحلام ، ولابد أنني بكيت على فراق اخوتي ، وقام هذا التاجر بإدخالي الحمام ، وقام غلمان الحمام بتنظيفي وإزالة الأقذار عن بدني وسميت بالغلام ذهب ، وكان هدف التاجر من شرائي هو تربيتي مع ولد للتاجر اسمه نهار يكبرني بسنة أو سنتين ، فسميت فيما بعد بذهب النهار أي أنا خاص لابن التاجر ذهب ، وبعد خمس سنين هلك نهار هذا فحزن الأب عليه ، وخسر في ذلك الحين تجارة كبيرة فباعني لصاحب له يعمل في الطب والحكمة بثمن زهيد ، واهتم بي سيدي الجديد شهبار ، وكان فاضلا يحب الكتب والعلم والطب ورغبني في تعلم هذه الأشياء ، ووجدت لدي قبولا إليها فتعلمت منه مهنته ، ولما اقتربت من العشرين سنة كان الملك يبحث عن قاض لبلدته في تلك الأيام ـ أي بعد عشر سنوات قضيتها بصحبة شهبار ـ وأراد الملك أن يجعل سيدي شهبار قاضيا فاعتذر شهبار ، واختارني له فوافق الملك على اختياره ، فأصبحت قاضيا بعدما اعتقني سيدي من الرق ، وكنت في نفس الوقت أقوم بمداواة المرضى ، وتركيب العلاج لهم لإزالة أوجاعهم وتخفيف آلامهم ، فكنت القاضي الطبيب إلى أن قدر الله لنا أن نلتقي بكم أيها الملك العظيم فهذه قصتي بالتمام والكمال .

فقال الملك : لقد دهشت لسعة علمك واطلاعك ، وكلما أسأل عنك يقولون لي هو مع كتبه وأعشابه.

فتبسم الأمير صقير وقال : عشقت مهنة سيدي شهبار ، وأخذت شهرته وعلمه وطبه ، وقد مات قبل لقائنا بكم بسنتين ونصف والله اعلم .

فقال بربار : لقد اجتمعت بتجار المدينة جميعهم ، فلم أر التاجر الذي اشتراك ، أتيت مدينة الأحلام للبحث عنك يا أخي .. كنت أظن بأنني لو رأيت ذاك التاجر لعرفته.. إنني أملك ذاكرة قوية بفضل من الرب !

فقال صقير مبينا عدم وجود ذاك التاجر في بلدة الأحلام : أيها الملك بربار بعد أن باعني ذاك التاجر ، وباع كل غلمانه ترك البلدة ورحل بزوجته وابنته إلى العراق ، ولم أره بعدما باعني

لصاحبه شهبار فمن أجل هذا لم تره .

فقال برباد سعيدا بأخيه القاضي الطبيب : هذا حكاية أخينا صقير ذهب النهار يا ورود الجميلة فظل أن نسمع حكاية الذئب برهان .. أخونا ذؤيب .



اعتدل الوزير ذؤيب في جلسته وابتسم للجميع وقال : منذ رأيتك أيها الملك برباد في السفينة في ميناء مصر وقلبي يخفق لرؤياك ، وأهمس لنفسي بحيرة عيون أسيد .. هل هو أخي الكبير ؟! ولكن احتمال اللقاء كان ضعيفا في نفسي ، هذا ملك كبير وسيد آلآف الجند .

فقطع برباد الكلام وقال : وأنا أيضا شعرت بهذا الشعور الغامض نحوك ، وقلت صورة أخي لم تتغير إلا الشارب واللحية .. واللغة كانت تفصل بيننا لا أدري كيف أفاتحك بهذا الموضوع الصعب والشاق على النفس فأحببت ـ وقد ذكرت أخي ذؤيبا في شخصك ـ فأحببت رفقتك وصحبتك .. ومن أجل ذلك طلبتك من الملك زدياب لعلي استمع حكايتك أو أجد خيطا يربطني بك إلى أن كان هذا اللقاء العظيم

عاد الذئب برهان يقول : وأنا أحسست بذلك الإحساس الجاذب .. ولكن.. ولكن هل يمكن أن يكون أخي أسيد ذلك الملك العظيم برباد ومن وراء البحار ؟!.. الرق أمره عجيب رغم قسوته ؛ ولكنه يرحل بالإنسان إلى أرض واسعة أنت في الجزيرة الكبرى وراء البحر، أنا في النهر في مصر ، صقير في مدينة الأحلام .. ورجالك الشجعان لا يعرفون عن حياتك الكثير أو لا يحبون الحديث عن أيام عبوديتك .

ضحك برباد وقال : الحق أنهم لا يعرفون الكثير من التفاصيل عن حياتي في الطفولة.. هم عرفونني فارسا دخل مدينة مالونيا حارسا للأميرة سونيا ابنة الملك جليان، ثم شاركت الملك نابولي معاركه الكثيرة ، ثم جعله لي وريثا لملكه هكذا يعرفونني؛ ومؤرخنا العالم بلوح كتب جزءا من سيرة حياتي وهو يؤرخ لحياة الفارس الملك نابولي ، وقد ذكر شيئا عن عبوديتي واسترقاقي في بلاد الغرام ، وأنني من مماليك الملك جليان .. وهذا الرجل لم يخرج معنا في هذه

الحملة ، وأما مؤرخو هذه الحملة فهم ثلاثة لم يذكروا كما علمت منهم عن حياتي في بلاد الغرام شيئا يذكر ، هم يكتبون معاركي مع نابولي ، وكيف ورثت هذا الملك العظيم؟ وتحركات هذه الحملة والمعارك التي خضناها في هذه البلاد .. الجميع يعلم أنني من رجال الملك جليان .. تابع قصتك يا أخي الوزير .

قال ذؤيب : تذكر عندما افترقنا كنت أنا ابن سبع سنوات ، وقد استرقني رجل يعمل في قصر سلطان مصر قبل خمس وعشرين سنة ، وكان السلطان والد الملك زدياب فلم يكن زدياب ملكا بعد .. وكان الرجل الذي استرقني من قادة وحرس السلطان فاهتم بي وأدبني وعلمني الفروسية وركوب الخيل ومطاردة الفرسان .. أنا وغيري من الرقيق ، فما بلغت سن الخامسة عشرة حتى اشتد ساعدي وعظمي ، وأصبحت من فرسان القائد ، وكان قد علمني الخط والكتاب فتعلمت ذلك ، وكذلك الخطابة وحسن الكلام ، فلما كبرت ووصل سني الخامسة والعشرون صرت فارسا ومقدما في حاشيته ثم حاشية الملك ، وكان سيدي يدعى السيد برهان وأنا اسمي ذؤيب فسماني الذئب برهان ، واشتهرت بين الأصدقاء والناس بذلك ثم اتخذني ولدا له لأنه كان عقيما ، ولم يرزق بالبنين والبنات ، ثم علا شأنه وأصبح وزيرا عند الملك زدياب بعد وفاة والده ، ثم مات هو بعده بعام وبضعة أشهر ، فلما مات والدي برهان جعلني الملك وزيرا مكانه ، وقد كنت رفيقا وصديقا للملك قبل الملك عندما كنت غلاما في القصر ، فلما حضرت إلى مصر بهذه الجيوش الجرارة وعرضت علينا المرور بسلام درسنا الأمر، وأنا اقترحت عليه حضورك لتوثيق الكلام ، فأوفدني إليك فتعارفنا ، وتجاذبت قلوبنا لبعض ، وما جرى بعدئذ تعرفونه أيها الإخوان خرجت معكم في هذه الحملة إذعانا لرغبة الملك برบار ، فهذه حكايتي أيها الملك العظيم .. ونحن بشوق عظيم أن نسمع حكايتك بالتفصيل يا أسيد الملك وليحضر مؤرخو هذه الحملة ليسمعوها ويجعلوها ضمن صفحات وتاريخ هذه المعارك .

فقال أسيد : أنا أجملت لكم سيرة حياتي ؛ ولكن حبا وكرامة سأفصل لكم بعض الأشياء، وأما الآن فعلينا بالشراب الطيب والعسل الممزوج بروائح العبير .



وبعدما دار الشراب على الملك والأمراء ورجع الهدوء للمكان، واشرأبت الأعناق ، وأصغت الآذان لسماع حكاية الملك بربار ، وكيف أصبح أسيد أسدا وسيدا وامتلك المدن والبلاد والممالك والعباد وسيد من سادات الأرض في ذاك الزمان؟ الفارس بربار مع ما فيه من الملك والعظمة كنت تراه كأنه لم ينس أنه ابن قروي فلاح بسيط ، فذكر لنا بربار كل ما سطرناه في هذه السطور ، فاستمتع السامعون بالحكاية ؛ ولكنها لم تنته أيها الناس الطيبون ، وبعدما انتهى من الكلام أمر أخته بالذهاب إلى المنام وهي مذهولة من حياة الملك ومعاركه الكثيرة في تلك البلاد البعيدة ، وبعد أيام استعد الجيش للرحيل والعودة إلى مصر حيث السفن والبحارة في الانتظار ، فأتى ملوك الهند والسند لوداعه وتأكيد الولاء لعرشه ، وحثهم على الوفاء وعدم إحراجه بالمجيء مرة أخرى لهذه البلاد ، فوعدوه خيرا وجددوا معه المواثيق ، وتحرك الجيش المنتصر نحو الغرب ، وأثناء العودة عاد فرسانه بأبيه بهرام وأمه سراجة وأتى معهم الأمير عامر وكان لقاء قد تكلمت فيه القلوب والزفرات والتنهدات والقبلات والهمسات ، وسر الجميع بهذا اللقاء الجديد ، وقد تحولت مأساتهم نعمة كبرى عليهم ، وشكروا الباري على كمال تدبيره وترتيبه ، وتابعوا المسير إلى مدينة الجدول ، وخرج الملك وحيد ليستقبل ملك الدنيا بربار العظيم فكان الاستقبال استقبالا كبيرا بين ملك صغير وملك ملك بلاد الغرب وبلاد الشرق ، وأغرق بربار أهل مدينة الجدول وملكها بالهدايا والأموال ، وقدم لهم الشكر وحسن الثناء ، ودعاهم لزيارة الجزيرة الكبرى ، فشكروه ووعدوه بفعل ذلك إذا تيسر الحال ، ثم ودع الأمراء أختهم ورودا التي ظلت على الوفاء لزوجها الأمير والبقاء تحت جناحه ، وقبل مغادرة البلدة أمر بربار بسفك دم القرصان الأسمر درغال ومن معه من الأعوان على ما اقترفت أيديهم من الفساد والدمار ، واستمر المسير نحو مدينة الأحلام .

جزيرة سانتي



رحب بهم أمير مدينة الأحلام ، وبارك لهم الانتصارات في بلاد الهند ، وأولم لهم الولائم ، وسمع قصة القاضي ذهب النهار، وعجب للأقدار ، وهنئه باللقاء بأهله، ورخص له بالرحيل مع أخويه ، ورحلوا للشام ومنها لأرض مصر عند الملك زدياب ، ووهبوه الهدايا والأفيال ، وانفصل من بقي حيا من الجنود المصريين وعادوا لمعسكراتهم وأهليهم ، ومن أحب منهم المسير مع الملك بربار إلى الجزيرة الكبرى أذن لهم السلطان ، وبارك السلطان المصري للملك التقائه باخوته وأهله ، وأرسل الملك رسالة لنائبه ملاريون يعلمه فيها بقرب قدومه ، وأنه في أرض النيل ، ولما تجهزت السفن وارتاحت الجنود من السفر على الدواب والخيل وغيرها أذن الملك بربار بركوب السفن ، فحملت الخيل والدواب والأحمال والأفيال والأموال والسبي والجنود والفرسان ، وودع بربار أهل مصر ، وكان الملك زدياب قد سمع قصة الذئب برهان فأذن له بالرحيل مع أخويه ، وكان وداعه له حارا وكبيرا وهو يقول مودعا : رافقتك السلامة لا تنسانا أيها الوزير !

وتحركت السفن نحو الجزيرة الكبرى ، وانتشر الخبر في الجزيرة الكبرى شرقا وغربا بقرب عودة الملك الفارس بربار مظفرا منتصرا ببلاد الهند ، وانتشر الرعب في قلوب الأمراء والملوك الذين تمردوا على ملاريون ، وأخذوا يرسلون الوفود والهدايا والأموال ويطلبون العفو ويظهرون الندم ولما وصل الملك لسواحل مالونيا خرج كل أهل مالونيا لاستقبال الإمبراطور غازي بلاد الهند والسند ، وكان استقبالا ضخما وهائلا أبكى الملك الفارس وهمس في أذن أخويه أرأيتم ما منحنا الله من النعم والخيرات ؟!

دخل الملك قصره وكان بين يديه القائد ملاريون يكلمه عن أحوال المملكة والإمارات ، فلما

انتهى من كلامه سأله بربار هامسا : أين الملكة يا ملاريون لم أرها في استقبالي ؟!

اصفر وجه ملاريون وقال : سأقول لك كل شيء أيها الملك .

انقلب وجه بربار وقال : حسنا !

فطلب الملك من الملوك والأمراء أن يسمحوا له بالراحة هذا اليوم ، ثم تركهم وخلفه ملاريون نحو جناح النوم ، وخلا الملك بنائبه فعلم منه أخبار ملوك الجزيرة ، وأخبره أن زوجته في السجن فدهش الملك لم سمع فقال له ملاريون : لقد خانتك أيها الملك! ولم تحافظ على شرفها وشرفك فحبستها لترى أمرك فيها وإلا كان باستطاعتي قتلها ودفنها .

فظهر الغضب على وجه وبدن الملك بربار وصاح وهو يتذكر سونيا خائنة نابولي : كيف ؟!

فقال ملاريون : دخلت عليها فجأة ذات ليل لأشاورها في أمر ما ، فوجدت في مخدعها رجلا غريبا ، فتعجبت وارتبت واعتذرت وخرجت وأخذت أراقب هذا الغريب والأميرة ؛ فإذا هما عاشقان فتربصت بهما حتى مسكتهما بالجرم المشهود ، فحبستهما وكتمت أمرهما ريثما ترجع وها أنا قد وضعت الأمر بين يديك .

صمت بربار زمنا مفكرا ثم قال : لا بأس أيها الأمير .. الأمر صعب وشديد على القلب .. وهذا ما جرى قديما لسيدي الملك الباسل نابولي .. في الغد نلتقي ونفكر بالأمر .

ودخل إلى حجرته لينام فهل نام يا ترى ؟!

فكر بربار بموضوع زوجته سنديانة ثم قال مواسيا لنفسه : نساء هذه البلاد لا يحفظن العهد والشرف ، وبعد أيام من استقراره في ملكه اجتمع بالأمير ملاريون نائبه الوفي وقال : سأطلق الأميرة سنديانة ، وسأعفو عنها من أجلك ومن أجل وفائك بخدمتي ، فأحضرها لي الليلة ومعها عشيقها لأنظر إليه ، وأرسل لي رسائل لكل من خرج عن ملكنا ليحضر إلينا ذليلا تائبا حالا .. سأعزل هؤلاء عن حكم بلادهم وولاياتهم .. وعلينا إعداد جيش ليقوده الأمير ذؤيب إلى جزيرة سانتي في أعماق البحر ..هيئ لي ذلك الأمر .

التقى بربار الملك بجيشه الخاص وتحدث مع قائدهم جرار ، وطلب منه اختيار ألفين من

الفرسان للمشاركة في حملة على جزيرة سانتي في أعماق البحر .

ولما دخل الليل وعاد الملك لقصره ، وجد الأمراء والوزراء في انتظاره ، فتشاور معهم في شؤون المملكة وأمر ونهى ، ثم جلس مع الحكماء والعلماء وحضر هذا اللقاء معه الأمير صقير ذهب النهار ، واستمع لقصصهم وعلمهم حتى نصف الليل ، فلما انصرفوا أحضر له الأمير ملاريون أخته سنديانة وعشيقها فوجده رجلا مغمورا ؛ ولكن للنساء في عشقهن فنون ، فتقدمت الملكة منه تعتذر إليه ، وقد انطرحت أرضا تقبل قدميه ، فقال لها باحتقار : أنت التي رغبت بي زوجا فلن أقتلك أيتها الأميرة ! أنا لا أحب قتل النساء .. وقد طلقتك فاذهبي أنت وعشيقك إلى أي مكان في المملكة .. فقد عفوت عنكما من أجل الأمير ملاريون .

فأبدى الأمير امتنانه وشكره للفارس ثم قال بحدة : أنا سأقتلها يا ملك الدنيا .

فقال برбار : لا تفعل أيها الأمير ..اعف عنهما من أجلي وزوجها ، وأعلن في الملأ أنني سأتزوج من الأميرة ريهان ابنة الملك طرخان لنجرب وفاء نساء الشرق .

فقال ملاريون : أيها الملك إنها جرحت شرفي وكرامتي .. ولولا خشية غضبك عليّ لسفكت دمها منذ اكتشفت خيانتها .

فقال برбار : لا تفكر هكذا ، فهي امرأة جاهلة تصرفت عن جهل وعشق ، والنساء كثير .. فدعهما ينعمان بحبهما .



احتفلت البلاد بزواج الملك برбار من ملكة الهند ريهان التي انتظرت هذه الشهور على نار الشوق والقلق ، وفرحت بزواجها من هذا الملك العظيم ، وأتت الملوك والوفود مهنئة للملك بعروسه وأتته الهدايا من الشرق والغرب ، وبعدما تزوج الملك وعزل من تمرد على ملكه إما بالنفي أو الحبس ، فأشهر للناس بأنه يريد إرسال حملة لاحتلال جزيرة سانتي فهي جزيرة غنية ومليئة بالذهب والمرجان والمعادن ، وكان برбار قبل حملته للشرق قد طلب من أهلها الخضوع لملكه فرفضوا ، فلما رجع ظافرا ظلت في نفسه هذه الجزيرة ، فجدد

مخاطبتهم من جديد ، وحثهم على الخضوع ، فرفض ملكها بشدة الخضوع لمملكة مالونيا ، مما زاد من غضب بربار عليها وحنقه ، وعجب كذلك من شجاعتهم من عدم الانبهار بالقوة التي يملكها، فجهز جيشا من عشرين ألف فارس بقيادة الأمير ذؤيب الفارس الذئب برهان فارس بلاد النيل ، وجرى إعداد السفن ، وجرى وداع كبير لهذا الجيش ، وركبوا السفن والقوارب واتجهوا إلى جزيرة سانتي في البحر العميق ، الجزيرة الغنية بالثروات الذهبية والمرجان، ويحتاج الوصول لهذه الجزيرة أكثر من عشرين ليلة مع موافقة الريح لاتجاه السفن ، كان الناس في مالونيا واثقين من انتصار جيوشهم الكبيرة والقوية على أهل الجزيرة البحرية ، بعد عشرة أيام من السير في أعماق البحار حدثت معركة ، كان ملك جزيرة سانتي قد علم بهذه الحركة وهذه الحملة ، فاستأجر مغامرين وقراصنة بحار وأغراهم بالمال والخمر ليعملوا كمينا لجيش الذئب برهان في وسط البحر قبل وصولهم للجزيرة ، وفي وسط الظلام اعترض هؤلاء المرتزقة السفن وهاجموها بالنار والنفط ، فوقعت كارثة لجيش بربار أمام هذه المفاجأة ، وغرقت كثير من السفن بمن فيها من الفرسان والرجال ، ومن نجا من الغرق سقط في قبضة القرصان فأوثقوا بالحبال ، وجروا جر الحيوان ، وبيعوا في الجزر وبلاد السواحل بأبخس الأثمان ، وفرح ملك سانتي لهزيمة جيش بربار المغرور ، وقبض القرصان والمرتزقة منه مائة ألف دينار، وطلب منهم أن يبقوا على اتصال فلابد أن بربار سيغضب غضبا شديدا لما حل بجيشه في جنح الظلام فلما وصلت الأخبار لمالونيا بالكارثة ، وسمع بربار بها انفجر باكيا ، ودب فيه المرض واشتعلت في رأسه النار، واجتمع بالقادة والفرسان والحكماء ، وبدأت تصل إليه تفاصيل الكارثة من بعض الناجين ، فأقسم قسما عظيما بأن يحرق جزيرة سانتي بمن فيها من الناس والأموال ، وأمر ملاريون بتجهيز مراكب ضخمة لحمل مائة ألف مقاتل ، وبعد سنة من الزمان كانت السفن المصنوعة والمشتراة جاهزة لنقل الفرسان ، ووضع الفارس جرارا نائبا عنه ، وحذر زوجته من الغدر والخيانة ، فطلبت السفر معه فاعتذر وأبى ، وركب الفرسان البحر وساروا بالسفن والقوارب والخيل إلى جزيرة سانتي ، وكانت الخطة أثناء الرحلة السير في النهار والتوقف في

أثناء ساعات الليل مع بقاء المشاعل والأنوار وتقوية الحراسات ، واستعداد فرسان القوارب للحرب والقتال في أي لحظة ، كان ملك سانتي على علم بخروج الحملة الكبيرة بقيادة الملك بربار ، وأنه خرج بجيش كبير وسفن كثيرة ، وأنه أقسم على حرق الجزيرة على أهلها ، فحصن الجزيرة وحرض أهلها على القتال والدفاع عن أنفسهم بكل قوة ، ثم اتصل بالقرصان وأغراهم بالأموال الكثيرة والخمر ، ورتبوا كمينا لجيش برباز ؛ ولكنهم فشلوا وصدهم جيش بربار ، ووقع الكثير منهم أسرى ، فأمر بربار بقتلهم جميعا ورمي جثثهم في البحر، ونجا زعيمهم في سواحل البحر، وعلم أن بربار عرف اسمه وأصدر أمرا بالقبض عليه في كل البلاد ، وأن أي ملك يتكتم عليه ويأويه يجعل مملكته وبلاده عرضة للنهب والانتقام ، فحاول الاختفاء والاختباء والتنكر وعدم إظهار شخصه للعوام ؛ ولكن وصل خبره لأحد الملوك فأسره بعدما احتال عليه ، وأراد أن يقدمه هدية للملك بربار الذي يحاصر جزيرة سانتي من جميع الجهات ، وقد استمر الحصار سنة من الزمن حتى تعب جيش بربار، وظهرت فيهم الأسقام ، فوضع الملك خطة اقتحام جريئة وسريعة ، وهجم الجيش مع الصباح من إحدى الجهات ، واستطاع اقتحام الأسوار بجراءة الفرسان والمغامرين الذين تسلقوا الأسوار ، فدارت معركة هائلة على تلك الجهة سقط فيها آلاف القتلى من الفرسان والأبطال ، وكانت الخطة اقتحام الفرسان لجهة أخرى حيث اقتحم بربار بنفسه جهته ، وبعد تضحيات كبيرة دخلوا وهدموا الأسوار وقتلوا حماتها ، وبدأ الزحف نحو وسط الجزيرة حرقا وتدميرا وفتكا ، فلما وصلوا القصر لم يجدوا الملك وحاشيته ، وجدوهم قد هربوا ، وبعد التحري عن منفذ الهروب والاختفاء وجدوهم قد هربوا عن طريق سرداب يتصل بالبحر ، فأمر الملك بربار بحرق المدينة عن بكرة أبيها مدنها وقراها ، وساقوا بعض أهلها أسرى ، وكانت معركة دامية فلم يبق من أهل المدينة صغيرا ولا كبيرا ذكرا ولا أنثى ، وبعدما أضحت الجزيرة أطلالا وهدمت بيوتها ومساكنها ، وقد أبيدت الجزيرة ودمرت تدميرا كاملا ، عاد الجنود إلى سفنهم ومراكبهم ليعودوا إلى مالونيا بعد هذه المذبحة الرهيبة ، وقد وصل جيش مالونيا إليها منهوك القوى ضعيف البدن ، وقد أصاب بعضهم

الأمراض والاوجاع ، هلك منهم أكثر من عشرين ألف بسببها ، فحزن برбار عليهم حزنا كبيرا وأسف لم حل بهؤلاء الجند المخلصين له ، فاعتكف في قصره شهورا وأياما ، وقد خيم الحزن على أهل مالونيا رغم النصر الكبير المدمر الذي حققوه على جزيرة سانتي والانتقام من أهلها ، وفي هذه الأثناء أنجبت الملكة ريهان طفلة فسماها الملك برбار وهم الأيام ، فلنتركه الآن في حزنه على جيشه وأخيه ذؤيب ؛ ولنرى ما جرى للقائد ذؤيب قائد الحملة الأولى لجزيرة سانتي .



ذؤيب فقد كان ممن وقع في أسر القرصان والمرتزقة ، وهؤلاء لم يعرفوا بأنه أخ الملك برбار فظنوه أحد الجنود فأسروه ، وكان قد أصيب في فخذه بجرح عميق ، وكان ينزف دما ، وكان أيضا قد فقد ذاكرته مصدوما مذهولا لم حل بجيشه من الهزيمة والحرق لأغلب سفنه ، فربط القراصنة فخذه ، وباعوه في مدينة ساحلية اسمها لمعة لرجل أمير من أمراء تلك البلدة ـ وهذا الأمير صاحب مزرعة كبيرة من الأبقار والأغنام ـ فأخذه منهم بثمن بخس ؛ لأنه مصاب وقد يموت فلا يستفيد منه شيئا ، وقام على علاجه وألحقه بعد العافية مع الرعيان، وحذره من عاقبة الهرب والغدر ، وكان ذؤيب ما زال مصدوما فاقدا للذاكرة ، ولا يعي ما جرى معه ولجيشه في البحر ، فاهتم بالرعي والحلب وأتقن هذا العمل ، ولم يفكر بالهرب لأنه نسي ماضيه ، وكان من نظام هذه المدينة تربية الأغنام والأبقار والعجول ، وربما تقبل سفينة أو أكثر كل ستة أشهر من المدن الأكبر لشراء هذه الدواب وأحيانا أخرى يقوم أصحاب هذه المزارع الحيوانية وبعض التجار باستئجار سفينة وحراس ، ويذهب من كل مزرعة مندوب أو أكثر لبيع هذه العجول والدواب في المدن الأخرى الغنية ، ويعودون بالثياب والملابس والأقوات المناسبة لبلادهم ، قضى الفارس ذؤيب أكثر من سنتين في هذه المزرعة ، وهو ما زال فاقد الذاكرة ولا يعرف من ماضيه شيئا ، ومن أي البلاد أصله أو أين ولد ، إلى أن جاءه يوما صاحب المزرعة الأمير ضرار وأخبره بأنه سيرسله مع قافلة التجار وأصحاب المزارع لبيع العجول في مدن الشمال الغنية وسيكون مع عفرا ، وكانوا ينادون ذؤيبا

في هذه المزرعة بالعبد مروان ، وشرح الأمير ضرار مالك هذه المزرعة للعبد مروان المهمة التي سيقوم بها وهي بيع الأبقار والدواب وشراء الملابس والعطور ، وأعلمه وطمأنه أن عفرا له خبرة بمثل هذه الرحلات ، فاستعد العبد مروان لهذه الرحلة وجهز نفسه كما أراد له سيده ، وبعد أيام تجهزت السفينة ورفعت إليها الأبقار من مختلف الأمراء والتجار ، وركب قائد الحملة وهو أحد الأمراء أصحاب المزارع في سفينة صغيرة وركب الحراس الآخرون مراكبهم وسارت القافلة البحرية نحو الجزيرة الكبرى ، وكان هدفهم مدينة مالونيا القريبة من ساحل البحر عاصمة ممالك الجزيرة الكبرى وبعض المدن الساحلية الأخرى كمدينة الغرام .

نترك القافلة التي تقل الأمير الفاقد الذاكرة ذؤيب في مياه البحر العظيم ونسبقهم إلى مالونيا التي حلت بها كارثة كبرى كما ذكرنا وهي مقتل أكثر من خمسين ألف فارس بعضهم في حرب سانتي والبعض الآخر بالمرض ، وفيهم من كبار فرسان برباركة ، أما الملك برباركة فاعتكف من هول الكارثة في قصره عدة أشهر وأياما حتى دخل عليه القادة والأمراء والحكماء وبينهم صقير، وطلبوا منه ترك الحزن والضعف ، وأنه لا يليق بالملوك الاستسلام للحزن والبيوت كالنساء ، وعليه الاهتمام بتدبير شؤون هذا الملك الكبير والبعد عن الهوان والأحزان ، وبعد طول نقاش وكلام اقتنع برباركة بكلامهم ، وبدأ يخرج من عزلته رويدا رويدا ، فينزل الأسواق والميادين ، ويزور الملوك الذين يخضعون لمملكة مالونيا ، وما مضت عدة أشهر أخرى حتى تلاشت أكثر أحزانه ولم يبق منها إلا الذكريات المرة، وعاد للمرح بعدما استرد كامل صحته وحيويته بمساعدة الأطباء والحكماء ، نمي إليه خبر أن هناك مجموعة من الفرسان والأمراء يعدون العدة للتخلص منه ، فالتقى بالأمير ملاريون وقائد فرسانه جرار ونقل إليهم الخبر ، فنصحوه بالحذر لأن الشر لا ينتهي من هذه الدنيا إلا بنهايتها ، وأمرهم الملك بتنشيط العيون وأصحاب الخبر المخلصين للوصول للمتآمرين ، وأمر جرارا بتغيير الحرس بدون أن يحسوا ويشعروا بالأمر والشك ، ويظهر لهم كأن الأمر تغيير عادي وأمني طبيعي ، كان من عادة الملك برباركة أن يشرب قبل النوم كأسا من عصير البرتقال المخلوط ببعض الأعشاب بناء على وصف أحد الأطباء ،

وكان هذا الكوب من مهام جارية من جواريه اسمها سراد ، وعندما علمت هذه الجارية بدخول الملك لمخدع النوم أحضرت له كوب الشراب ليشربها كالعادة ، وكانت تضعها بالقرب من سريره وتنصرف ، فتحضر بعد ذلك زوجته ريهان فتتحدث معه وتشاركه المنام في تلك الغرفة ، وفي خلال حديثهما يشرب بربار الكوب ، ولما شرب الرشفة الأولى لم يستسغ الشراب فرشف ثانية وثالثة وقال معلقا : لا أدري لها طعم غير طيب هذه الليلة ! ورمى الكأس بما فيها



فهدأت الملكة من غضبه وقالت : سأصنع لك خيرا منها بنفسي أيها الفارس .. لا تغضب .

فهمس قائلا : لا أريد شيئا .. مللت من هذا الدواء أين طفلتي وهم الأيام ؟

فقالت الملكة : نائمة .. هل أوقظها لمولاي الملك ؟

فقال : لا .. أحس بدوار في رأسي .. الدوار يشتد استدعي الطبيب مازندار .. أحشائي تتمزق يا ريهان .

أتى طبيب الملك والقصر سريعا ، وكان الملك قد سقط على السرير لا يعي شيئا، نظر إليه الطبيب وإلى عينيه ثم قال للملكة : أيتها الملكة الملك سقي سما شديد الفاعلية ..

سقطت الملكة على الأرض وهي تقول : سما .. افعل له شيئا !

أتى جرار وفرض طوقا من الحصار على القصر ، واضطرب القصر الملكي ، وذهب للطبيب والملكة فأخبرته الملكة بما تعرض له الملك ، فأمر قادة الفرسان ألا يسمحوا لأحد بالخروج من الخدم والجواري والحرس ، وأمر بالبحث عن الجارية سراد ولكنها اختفت ؛ فأدرك الفارس أن هناك مؤامرة حيكت ضد الملك ، فذهب وأتى بالقاضي الطبيب صقير على الفور ، فقام الأخير على فحص صدر بربار وشفتيه وعينيه ، وعمل له تفريغ جوف ، وأسقاه شرابا خاصا ثم قال : الملك شرب سما قويا ؛ ولكنه لم يشرب كثيرا منه على ما يبدو وإلا قد مات على الفور.

ثم أخرج عشبة من جرابه صنعها لعلاج السموم ونقعها بالماء وفركها ، وفتح فم الملك ودلقها فيه فعطس بربار فقال صقير: أيها الفارس جرار وأنت يا ريهان احضـروا لنا ماء بملح واغسلوا به وجهه ، ثم بعد ساعة اسقوه منه ..ثم ساعة بعد ساعة حتى الصباح سيكون قد بطل مفعول السم .. وسوف أتابع معه العلاج ، ولا تخافوا فهو لم يشرب سوى القليل من السم ، وأنت يا مازندار راقب الوضع ولا تقلق ؛ فإن لم يقدر له الموت فسوف يتعافى بإذن رب السموات والأرض والبحار..

ولما أتى إليه ذهب النهار صباحا ومع إشراقة الشمس كان الملك قد أفرغ كل ما في جوفه ودخل الخلاء عدة مرات ، فقام صقير بجرح عرق نزف منه الدم حتى ملأ كأسا كبيرة الحجم ثم ضمده، وطلب منهم أن يسقوه مرق الدجاج والديوك، انتشر الخبر بتعرض الملك للقتل بالسم بخيانة جاريته سراد ، وقام البحث عنها في كل أنحاء الجزيرة وعن فارس من فرسان الملك يدعى ايفانز ، ولما تعافى الملك تماما من السم وعادت له قوته البدنية والعقلية طلب رئيس الشرطة وكلفه بالقبض على ايفانز وسراد بكل قوة وسرعة ، وأقامت المدينة حفلة عظيمة بمناسبة شفاء الملك حضرها الأصدقاء من الملوك والأمراء ، وممن حضر هذه الحفلة الأميرة سونيا وأخوها الملك برليان الذي ورث العرش عن أبيه جليان ، والتقت بالملك بربار ومعها زوجها سرياني ، وقد لفت نظر الملك غياب ملوك أقصى شمال الجزيرة عن هذه الاحتفالات ، فسأل ملاريون عن ذلك ، وكان ملاريون قد أصبح كبير الوزراء والنبلاء فرد على استفهام الملك قائلا : أيها الملك العظيم !.. سمعت أن أمراء تلك الجزيرة يتهامسون بالانفصال عن الإمبراطورية فأرسلت أحد الفرسان سرا ليجتمع بأعواننا هناك ويأتينا بالخبر اليقين .

تضاحك بربار وتحسس جسده وقال : ويحهم لم أصير بعد شيخا هرما .. من يقود هذا التحرك والتمرد ؟

فقال ملاريون : لا أدري أيها الملك ، لا أحد يجرؤ أن يكشف نفسه متمردا ؛ ولكني قريبا سأضع بين يديك التفاصيل المهمة يا مولاي .

فقال برบار : الحرب هي التي تشغل الجنود والفرسان .. فالراحة تدفعهم للتآمر على الأسياد .. عجل بخبر تلك الجزيرة فإني قد اشتقت لامتشاق السيف والقتال والثياب الأرجوانية من دماء القتلى والجرحى .



في هذا الحين وصلت مالونيا سفن الأبقار والأغنام التي بصحبتها العبد مروان ، ولقد كان مدبر الطعام في قصر الملك والقصور الأخرى وبعض الجنود في الميناء لشراء اللحوم الحية ، وبينما هم يتنقلون بين التجار لشراء ما يلزمهم التقى مدبر القصر بالذئب برهان ، فهو يعرفه جيدا أليس هو أخا الملك فدهش فهو قد علم أنه قد مات منذ سنوات في حملة جزيرة سانتي ؛ ولكنه هو نفس صورته ، فناداه باسمه المعروف فلم يجبه فاقترب منه وقال : يا هذا ما اسمك ؟

فرد ذؤيب : أنا اسمي العبد مروان أتيت لبيع الأبقار والأغنام .

عرفه مدبر القصر على نفسه وقال : إنك تشبه الأمير ذؤيب .

فقال الرجل بغضب خفيف : أنا يا سيدي لست أميرا أنا راعي غنم وبقر .

فقال الفارس وهو يحدق فيه ويقول لنفسه : نفس صوت الأمير إنني أعرفه جيدا فسأله قائلا : ما قصتك أيها الفارس ؟!

حضر عفرا للمكان وقال : مالك أيها الأمير مع العبد مروان ؟

فقال الفارس الأمير : إنه يشبه الأمير ذؤيب أخو الملك برบار العظيم .

ضحك عفرا وارتبك في نفس الوقت وقال : هذا أيها الأمير عبد أسير اشتريناه من سنوات قليلة من قرصان البحر فهو ليس أميرا ولا وزيرا .. بل رجل مسكين قليل الكلام حتى أنه لا يذكر من ماضيه شيئا ، اسمه لا يعرفه فسميناه مروان .

فكر مدبر طعام القصور الملكية بكلام عفرا وقال: يا رجل أتاك السعد والغنى للابد انتظر في الميناء أنت ومن معك حتى أعود ولا تخف فلك الأمان .

وأمر اتباعه بالمحافظة عليه ، ومشى على جواده حيث بيت الأمير صقير فهو صديق له أيضا ، ووجده في أطراف الحديقة بين أعشابه التي يزرعها ويرعاها لصنع المركبات العلاجية ، فقص عليه الأمر ، فركب صقير على بغلته وسار معه مع الفارس الأمير هلمان إلى الميناء ، فلما رأى العبد مروان صاح من الفرح والدهشة : إنه والله لذؤيب ! وأقسم على ذلك يا هلمان .. إنه أخي فقال العبد مروان : يا قوم .. ما بكم أنا لا اخوة لي أنا راعي أبقار في مزرعة الأمير ضرار .

جلس صقير مع عفرا ، وسمع منه قصة العبد مروان ، وكيف اشتروه من قراصنة البحر ؟ وكان مصابا بفخذه فعالجوه ، فشكره صقير في النهاية وقال : ابشروا بكل خير وسعادة هذا أخو الملك بربار العظيم ؛ ولكنه فاقد للذاكرة من هول المعركة والصدمة التي تعرض لها جيشه .. لابد من أخذه ومعالجته .

فأمر صقير باستضافة كل رجال القافلة ، ولما وصل الخبر لبربار كاد يطير من الفرح والحبور ، فهو قد حرك جيشا كبيرا لبلاد الشرق على أمل لقاء الاخوة ، فهو يحبهم حبا كبيرا ، فأسرع إلى لقاء أخيه واحتضنه وقال : نعم ، والله إنه الذئب برهان ابن سراجة وبهرام .. حمدا للرب .

وأمر الملك هلمان بشراء كل حمولة القافلة بأفضل الأثمان وإكرام الجميع غاية الإكرام ، ودفعوا مالا كثيرا ثمن حرية العبد مروان ، وقال هلمان لعفرا : إذا لم يحب سيدك هذا الثمن فليزرنا معك وسيكافئه الملك بربار .

وكان عفرا قد رفض أخذ الثمن بداية ؛ ولكن الأمير هلمان قال هكذا أمرني الملك ، وتم إرضاؤهم وإكرامهم فابتاعوا بضاعتهم ، وعادوا لبلادهم مسرورين ، وكان ملك مالونيا سعيدا بعودة الذئب برهان وتعجب من قدرة الله ، ومن الأقدار ، وقد تألم وأسف لمرض ذؤيب وقال لصقير : هذه مهمتك يا صقير فأرنا براعتك اليوم في الطب يا فارس الحكماء !.

فأجابه ذهب النهار الطبيب : اهتم بأمر حكمك ودعني أداويه .. فذؤيب ظهر لي من نظراته وسرحانه أنه تعرض لصدمة كبيرة أفقدته الذاكرة والذهن .

فقال بربار بحزن وهز أكتاف : وهل أصعب على النفس من كارثة سانتي .. ؟!

مصير مالونيا

لقد تم القبض على الفارس الهارب ايفانز والجارية الحمقاء سراد في إحدى المدن هاربين ، فنقلوهما لمالونيا وقام كبير الأمن والقائد جرار بالتحقيق معهما ، وبعد سماع أقوالهما تم اعتقال أكثر من مائة فارس وفيلسوف ومن أبناء الملوك الذين كانوا كرهائن في مالونيا ، وتوسع التحقيق والاعترافات وانكشف أن هناك مؤامرة كبرى تدبر لقتل بربار، وإثارة الفتن والفوضى في المملكة ، وتبين أيضا أن ملوك أقصى الجزيرة لهم يد في ذلك ، وهم الذين يمكرون لتفتيت مملكة بربار ، وخصوصا الملك دبران ـ وهذا كان من أصدقاء الملك بدوان ـ وعنده الكثير من الفرسان والأنصار، ورغم فشل قتله بالسم بواسطة الجارية سراد ، فقد انكشف أنهم كانوا يخططون لقتله عن قريب أثناء رحلة صيد في وسط الربيع ، فأرسل القائد جرار وراء دبران الذي رفض الانصياع وأعلن انفصاله عن المملكة الكبرى ، وقد جاءهم جاسوس ملاريون بأخبار تلك المدينة ، وكشف لهم أن ملوك آخرين يفكرون بالانفصال وعدم دفع الأموال والأنعام ، فلما سمع بربار الأخبار واطلع على كل الحقائق والمعلومات والاعترافات فقال معقبا : هل يرى هؤلاء الملاعين أني أصبحت هرما وعجوزا وضعيفا ليطمعوا بي لهذا الحد ؟! فلتشتعل الجزيرة لهبا ونارا.

وطلب من رئيس الفرسان الأمير جرار تجهيز جيش بخمسين ألف بطل لغزو مدن الشمال ، وأن يبقى مثلهم لحراسة مالونيا وحمايتها ، وأن يجهز مثلهم من المدن المجاورة والموالية للقيام بحملة تطهير من الخونة والضعفاء ، وكان من المعروف في تلك الجزيرة أن لكل فارس كبير جندا خاصا به يدفع لهم أجورهم مما يحصله من الملك ومن الأرض والضياع ، وعند نشوب الحرب يدفع لهم الملك بربار أجرهم ، ومن لا يستطيع تحمل نفقات هؤلاء الجنود والفرسان ، فإما أن يهبهم لصديق أو يسرحهم فيعملون مع قائد آخر وهكذا ، ولكل ملك جيش خاص حسب طاقته وطاقة البلد وصغرها وكبرها ، وهناك جيش عام للبلد يدفع لهم من خزائن الدولة ، وعند الدعوة للحرب يدعى الناس للالتحاق في الجيش العام ، فمن يرغب أن يلتحق بكتيبة

أو فرقة يسجل اسمه عند أمراء الأجناد ، فيلحق بكتيبة أو فرقة ، ومن الشائع أن يكون الجند الملحقون بالكتائب واجبهم حراسة القصور والأميرات وأملاك الأمراء طيلة أيام الحرب ، وفي أيام السلم يسرح كثير من الجنود ، وبعدما تنتهي الأموال التي حصلوها تبدأ مشاكلهم في الأسواق والحانات ، ويبدءون بالبحث عن وسائل الارتزاق ؛ فإن سمعوا بمغامر في بلد ما يطلب جندا فمن استطاع لحق به ، هكذا تكون حياة الجنود في تلك الممالك ، يتنقلون من فارس لآخر، ومن قائد إلى قائد ، فكان لملك مالونيا ما يزيد عن خمسين ألف جندي تتحمل نفقاتهم خزينة الدولة ، وله من ضمنهم خمسة آلاف فارس يتزعمهم الأمير الفارس جرار، هؤلاء أجورهم من أموال الملك خاصة ، وهناك قادة وفرسان لهم فرسان بما يقارب العشرين ألف ، وكل مدينة كما ذكرت سابقا لها أمير أو ملك أو فارس حسب كبر وصغر المدينة لها جند ، التحق قادة الجند والفرسان بالحملة التي ينظمها الملك لغزو وتطهير الجزيرة الكبرى فكانوا عشرين ألفا ، والتحق من جيش الملك عشرون ألفا ، من ضمنهم ألفا فارس من فرسان بربار لحمايته ، وقام رئيس الفرسان جرار بتجنيد ستين ألف فارس ليبقى خمسون ألفا لحراسة مالونيا بقيادته ، ومعهم من بقي من فرسان وجيش الملك ، وأرسل للأمراء والملوك بإعداد خمسين ألف آخرين ، وتقرر أن يسير الأمير ملاريون بصحبة الملك في هذه الحملة الضخمة ، وترك زوجته ريحان الحامل تنتظر مولودها برعاية القائد جرار وتحرك بربار بنفسه في الجيش ، ومشى معه أطباؤه وعلماؤه ومستشاروه ، وظل جرار نائبا عن الملك ، ورتب معه طرق الاتصال ونقل الأخبار، وحشد الملك دبران والمتمردون معه من الملوك والأمراء جيوشا جرارة أيضا لمقابلة جيوش الملك الفارس بربار ، وعلموا أن أمامهم إما الموت وإما النصر لا ثالث لهما فلن يرحمهم بربار ، الذي أعلن بدوره بأنه سيعفو عن كل ملك ينسحب من القتال ، ومن أمام جنوده ، ويبقيه ملكا على أن يظل ولاؤه لمالونيا العظمى ، فدب الرعب والخوف بين المتحالفين من هذا العرض ، وتعاهدوا من جديد على الوفاء والقتال ، وأخذوا على أنفسهم المواثيق والعهود على الثبات في وجه الملك بربار ، ثم أمر بربار بنشر خبر مخيف وعنيف أنه لن يسمح أو يعفو عن أي

جندي أو فارس يقع أسيرا أو يستسلم إذا نشبت الحرب .. فكل جندي أو فارس يترك الحرب والقتال وجيشه قبل المعركة فله الحرية والعفو وجائزة ملكية ، اضطر الملوك المتمردون أمام هذه الحيلة بزيادة رواتب وأجور الجند والقادة والفرسان مما كلفهم المزيد من الأموال ، وأتت الأخبار غير مشجعة للملك برابار ، فوافق على مؤامرة قد دبرت لاغتيال الملك دبران ، فأصدر القائد الأمير ملاريون الأمر لعيونه في مدينة أقصى الجزيرة بتنفيذ الجريمة ، وكانت جيوش المدن المتمردة تنتظر وصول جنود وجيش برابار على نار خوفا من انفراط عقدها ، وكانت جواسيسهم تنقل لهم تحركات جيش برابار أولا بأول، وقبل وصول الجيش الملكي المحارب لأرض المعركة بأيام جاءه خبر من مالونيا بمقتل نائبه جرار مع مجموعة من الفرسان غدرا من قبل مجموعة من الخونة ، فذعر الملك وأعوانه وحاشيته وأخفوا الخبر عن الجند والملوك والفرسان ، وتعجل برابار في الالتقاء بجيش الملوك المتمردين ، فانفرد الملك بملاريون وقال : هل فشل جنودك بقتل دبران قال ملاريون بجد وثقة : أيها الملك .. قبل أن نصل إليهم ستسمع الخبر السار. . وقد استلم الأمير صقير نيابة المملكة بعد مقتل جرار ومساعديه ، وقد تم القبض على مائة من الفرسان يتعاملون مع الخونة ، وشاركوا بقتل البطل جرار ، واستلم قائد الشرطة والأمن قيادة الفرسان فالوضع هادىء ينتظر عودتك..

لقد كان الملك دبران يتزعم حملة الأمراء والفرسان والملوك المتمردين على حكم الملك برابار ومملكة مالونيا ، وكان دبران يستعد للالتحاق بالجيش المنتظر قوات وعساكر برابار ، وقد علم باقتراب الجيش من جيوشهم ، والتقت الجيوش اخيرا ، وفي تلك الليلة كان الفرسان الذين يتعاملون مع ملاريون يستعدون لقتل دبران الثائر .. وقد كان في تلك المدينة لص محترف ، وقد سجنه دبران أكثر من مرة ، فأقنعه أحد الفرسان ورجال ملاريون بقتل الملك ، ورتب معه أن يكون قتله تلك الليلة أي قبل المعركة بين تلك الجيوش ، وكان وضع المدينة في هذه الأيام يموج بالتوتر والترقب والخوف ، ويترقبون مصير هذه المعركة القادمة الحاسمة في تاريخ مدينتهم ، وكثير من الأهالي كالنساء والأطفال والشيوخ صعدوا لأعالي الجبال والكهوف خوفا من وقوع

الهزيمة في جيوشهم ، وحذرا من بطش جيوش الملك بربار ، فلهم معها ذكريات قديمة قبل أكثر من عشر سنوات ، ففي غياب الملك دبران عن قصره دخل اللص القصر بحيلة ما ، واختفى داخل الحدائق حتى الليل ، فلما خفت حركة الحرس والجواري والخدم فتسلل إلى حجرة دبران واختبأ فيها ـ وكان رجل ملاريون قد أعطاه تفاصيل كاملة عن القصر والحرس ـ وطال انتظاره وكاد يفقد صبره ، ثم رأى جارية تدخل الغرفة فجأة ، ورتبت سرير سيدها وسمعها تخاطب أخرى : الملكة تقول إن الملك سيأتي الليلة للمبيت هنا وغدا سيرحل .. فقد سبقه الملوك الآخرون إلى الجيش بعد أن تعاهدوا من جديد على الثبات والقتال حتى النفس الأخير وعدم الاستسلام .



وكان اللص ساركونا يلبس ملابس الفرسان الشائعة في المدينة ، ودخل القصر على أنه رسول من إحدى أميرات البلاد للملكة زوجة دبران الملك الثائر ، فدخل ولم يخرج واختفى في الحدائق كما ذكرنا ، وغفل عنه الحرس والخدم ، ولما عاد الملك دبران للقصر بعد نصف الليل من لقاء أخير مع الأمراء والقادة الذين تزعم تمردهم ، والتقى زوجته الملكة واستقبلته وسارت به إلى مخدع نومه وهما يتساران ثم قال لها : أنا مرهق ومتعب وأرغب بالنوم بضع ساعات لاستيقظ باكرا قبل بزوغ الشمس أيقظيني ولا تنسي ذلك.

ودعته الملكة وانصرفت إلى مخدعها ، فخفف الرجل من ثيابه ، وعلق سيفه وخنجره ، وخلع درعه ، ثم رمى نفسه على سريره وهو يهتف قائلا : لابد من النصر على بربار وقتله وقتل كل من وقف معه .

فقال ساركونا من خلفه ، وقد خرج من وراء خزانة الثياب : لن تدرك هذا يا دبران خذها من يد ساركونا ، وانقض عليه وطعنه في صدره ، ووضع يده على فمه مدة من الزمن حتى خمدت أنفاسه ، ثم خرج فاصطدم برجل فصاح به : أوه ألم ترني ؟

فقال الرجل : يا هذا هل سمعت صرخة مخنوقة مثلي ؟!.

فقال ساركونا بثبات : أبدا ولكني كنت عند الملكة في مهمة خاصة وداعا .

وعلى باب القصر أوقفه الحرس ، وقال له أحدهم : ويحك أما زلت في القصر أيها الرسول ؟!

فقال ساركونا بثبات : كنت عند الملكة حتى رجع الملك ، وأعطتني رسالة للأميرة وكشف له عن رسالة في صدره .

فقال الجندي : وهذه الدماء التي على ثيابك ؟!

فقال بقوة أعصاب : أبدا ، جارية الملكة قبل انصرافي وقع منها كأس فجرحت فضمدت جرحها فعلى ما يبدو أن دمها تناثر على ثيابي سأذكرك لمولاتي الأميرة لتشكرك بدورها للملكة لتقوم الملكة بمكافئتك .. وداعا .

ثم سار إلى فارس ملاريون الذي كان ينتظره في بيت من بيوت المدينة الخالية كما اتفقا ، فأخبره بنتيجة عمله فسر بذلك ، ومن ثم اختفيا عن الأنظار ، وقد نقل الخبر على الفور إلى ملاريون الذي أيقظ الملك بربار فأخبره به ففرح بالخبر ، وأمر بنشر الخبر بين جيش الملوك المتمردين ، فدب الصارخ بينهم في ذلك الظلام إن الملك دبران قد قتل ، فانزعج الجنود والقادة فهم قد تركوه قبل ساعات حيا يرزق ، فقال بعض الملوك : إنها دسيسة .. غير معقول لقد تركناه منذ ساعات يسيرة بكل صحة وقوة .. هذه حركة من حركات جيش بربار اللعين

وطلبوا من المنادين أن ينادوا بين الجند أن هذه كذبة من كذبات جيش بربار لبث روح الضعف والهزيمة في نفوس جيوشنا ، وماج الجيش نتيجة هذه الإشاعات القاتلة .

وكان بربار أعلن واستعد للقتال عندما وصله الخبر ، فكان الجيش مع ظهور خيوط أول النهار مستعدا للمعركة للاستفادة من مقتل دبران ، وضرب هؤلاء الملوك المتمردين ، وفي الصباح كان خبر مصرع الملك دبران قد تأكد للقواد والفرسان ، فنشبت معركة تشيب لها رؤوس الأطفال واستمرت لليل ، فانهزمت على أثرها جيوش الملوك المتمردة وأخذت في التقهقر للوراء ، وكان بربار قد خطط لاستمرار الحرب في ساعات الليل ، فالقسم الذي قاتل في الصباح توقف عن

الحرب ، وتابع المعركة القسم الآخر الذي كان يستعد للمطاردة ، فاستمر الضغط على جيوش الملوك المتمردة على حكم بربار ، وتتابع تقهقرهم حتى دخلوا المدينة وأغلقوا أبوابها، وقد تركوا قتلاهم وجرحاهم وآخرين قد هربوا إلى مدن وبلدان أخرى، وأمر الملك بربار بقتل كل الجرحى وعدم أسر أي جندي ، أمام قوة جيش بربار وشدة الحصار بدأت الملوك تضعف وتهرب في الجبال والى المدن الأخرى ، ودخل الجيش البرباري المدينة واستولى على خزائن الحكم والسلاح ودمرها على من فيها بعد أن استباحها لجنده ثلاثة أيام ، وكان الأحياء قد هرب أكثرهم للجبال وشعابها، وتابع الجيش الزحف حتى وصل لمدينة دبران فكانت خاوية على عروشها لا أحد فيها ، فأمر بحرقها وتدمير قصورها وأحيائها حتى أصبحت رمادا وأطلالا ، وانتقل الجيش لغيرها ، واستمر بربار يطارد المنهزمين ستة أشهر ، وكل مدينة يدخلها يدمرها ويحرقها ، وواصل متابعة فلول المنهزمين ويطاردهم هنا وهناك حتى هلك الكثير منهم ، وفي النهاية اقنع ملاريون بحكم هذه البلاد ، ووضع تحت أمرته نصف الجيش ومن شاء أن يبقى من الفرسان والجند الشعبي ، وأسس مدينة كبرى في مكان غير مطروق لتكون عاصمة هذه المملكة الجديدة ، وبعد سنتين كر عائدا لمالونيا العظمى ، وبعد هذه الحملة العنيفة دب الرعب والخوف من جديد من جبروت بربار بعدما سمعوا ما فعل في تلك المدن والبلاد من الدمار والهلاك ، ولما وصل لمالونيا بمن عاد معه من الأجناد خرج أهلها كعادتهم لاستقباله والترحيب به بعد عودته المظفرة ، وبشروه بغلام قد ولدته زوجته ريهان وقد أصبح يقارب العامين ، ففرح بذلك الصبي أكثر من فرحه بالانتصارات التي حققها ، وأمر من جديد بتوزيع الحلوى وإقامة الولائم للناس ووزع الأموال على الفقراء والمحتاجين والأجناد ، وبعدما استراح من السفر واستقبال المهنئين بالنصر وتعزيز الملك ثانية، والمباركة بالمولود أمر بقتل كل الخونة والمتآمرين على قتله وقتل صديقه الأمير جرار، وبعد هذه الأحداث المرعبة أخذ السكون والهدوء يسود الجزيرة والبلاد.

ذات يوم التقى بربار بأخيه صقير فسأله عن ذؤيب وما حدث في علاجه فقال صقير بحيرة : ما زال ذاهلا ، لا يذكر من الماضي شيئا، ولكنه يهذي في نومه وأحلامه بكارثة البحر والنار ، وأما

وهو مستيقظ فلا يذكر شيئا من هذه الأحلام وها أنا أقرأ في الكتب والحكايات لعلي أجد شيئا وأفكر بالسفر للشرق وأزور المكتبات الملوكية حتى أقع على الدواء ، فأمره صعب وغير سهل حتى وقع في نفسي أن لا يكون ذؤيبا لولا أنه لا يعرف من ماضيه شيئا .. فما تقول يا أخي الملك ؟



فقال برباز: أنا مستعد أن أتنازل عن هذا الملك والعرش والسلطان على أن يتعافى أخي .. افعل ما تراه مناسبا .

فقال صقير : أريد أن أسافر لمصر والشرق والهند والصين ولسوف ابتاع وأجلب معي الكثير من الكتب .

فقال برباز : نرسل وراء هذه الكتب ، ونتحصل عليها من الملوك وأهل الكتب ..

فقال صقير : أهل النسخ أحيانا كثيرة لا ينسخون كل ما كتبه الكاتب فيختصـرون ويحذفون ولدي رغبة بهذه الرحلة .

فقال برباز : وذؤيب ؟!

فقال صقير: تلاميذي أوصيهم به ، لا تقلق عليه ، فتلميذي سنبلة وتلميذي رام بان حفظا مهنتي وصنعتي والكثير من علمي ، ويمكن الاعتماد عليهما في هذه الصنعة ، وسآخذ معي تلميذي جمهرة وخادمي المخلص صفوان فحسب ولم يبق إلا إذنك أيها الملك السعيد .

فابتسم برباز وقال : هذه حياتك فافعل بها ما شئت، وخذ من المال ما شئت .. وارجو من الرب المعبود فاطر الخلق أن ترجع لنا بدواء لأخي الوزير .

تجهز الأمير صقير أتم الجهاز ورتب الأمور مع تلاميذه ، ثم سافر متنقلا بين البلاد والعباد باحثا عن كتب الفلسفة والحكمة والطب ، وما أعجبه من كتاب نسخه عند النساخ وأشرف بنفسه على نسخه، وكان يداوى المرضى أينما حل، ويساعده في ذلك تلميذه جمهرة وخادمها صفوان ، فنترك الأمير الصغير يرحل في بلاد الدنيا ونعود لملك مالونيا الملك برباز الذي فقد أباه بعد رحيل صقير بأيام ، فقام بما يناسب المقام لوفاة الشيخ بهرام ، وبلغ الأمير الصغير بربارخان

خمس سنوات ، وكبرت الأميرة وهم الأيام ، وأصبحت ابنة تسع سنوات ، واشتاق الملك برابار لصديقه الملك ملاريون فبعث له رسالة يدعوه فيها لزيارته بعد طول غياب ، وفي أثناء سفره اعترضته مجموعة من المغامرين فقتلوه مع أعوانه وحاشيته ، وكان قد ترك ملاريون ولده الكبير نائبا عنه فهو ابن عشرين سنة ، فحزن برابار عندما وصله الحدث المحزن من اغتيال ملاريون ، وأمر بتعقب القتلة ومعرفة من حرضهم على هذه الجريمة ، وأمر بإعلان ولده ملكا على البلاد خلفا لوالده الملك ووعده بزيارة قريبة لتعزيز ملكه ، ثم وردت للملك رسالة من أخته ورود تعلمه فيها بأنها مشتاقة لهم وتود زيارتهم هي وزوجها عامر بن وحيد العصر ، فحمل الرسول هدايا لهم ، وأرسل سفينة تنتظرهم في مصر في بلاد الملك زدياب .

كان لمدينة مالونيا جزيرة صغيرة بوسط البحر فيها كتيبة من الحرس الخاص قوامها أكثر من ألف جندي ، ويسكن فيها أبناء الفرسان الصغار مع مربييهم ، فعندما يبلغ الطفل خمس سنوات من أبناء الفرسان والأمراء والقادة حق له أن يرسله لهذه الجزيرة مع الجارية أو الخادم ليتعلم العلم والكتابة والرياضة والفروسية تحت أيدي مهرة من المعلمين والمدربين حتى يبلغ سن الخامسة عشرة فيمكنه بعدئذ أن يعود لمالونيا ، فأراد برابار إرسال ولده إلى تلك الجزيرة مثل الكثير من كبار الفرسان ، فرفضت الملكة ريهان ذلك وخافت عليه من الغدر أو الغرق ، وبعد جدال وافقت على ذهابه على شرط أن تكون معه ، فأذن لها برابار وهاجرت هي وولداها لتلك الجزيرة الهادئة لتربية الولد العلم والفروسية كسائر أبناء الفرسان والأمراء .

كان كثير من ملوك هذه الجزيرة يخضعون لحكم برابار خوفا من قبضة سيفه وبطشه وانتقامه، وكثير منهم يتمنى موته ورحيله ، وبرابار الذكي القوي يدرك كثيرا من هذه المشاعر نحوه ، وهو يعلم أنه تسلطن على هؤلاء بالقوة والسيف ؛ لذلك كان يهتم كثيرا بتقوية الفرسان والجيش ويشاركهم التدريب والمران ، ويتفقد أحوالهم ويختبر ولاءهم ويرسلهم لفض الخلافات والمشاكل التي تنشب بين أمراء المدن ، وبينما هم في هذا السكون والدعة والمسرة أتاه خبر مخيف بأن بشرا لا يعدون ولا يحصون دخلوا من أقصى شمال الجزيرة يأكلون الأخضر واليابس ،

وهؤلاء البشر متوحشون يأكلون الأنس ، ولا يهابون الموت ، ويعيثون الفساد في الأرض ، وقد دمروا كثيرا من البلاد والمدن ، وهم يقتربون من مملكة الملك الراحل ملاريون مملكة الملك سلاريون ، ثم أتت الأخبار أن جيش تلك المملكة فر واندحر أمام هؤلاء الوحوش ، وأن الناس يهربون من أمامهم إلى قمم الجبال ، وقد اقتربوا من مدن مالونيا نفسها فأعلن الملك التعبئة الكاملة للجيش والفرسان وفي كل المدن للتصدي لهؤلاء الوحوش ، واستعد بربار لمقاومة هذا السيل الجارف وهؤلاء الجبابرة العتاة الذين يقتحمون المدن والبلدات بلدة بلدة ، وقد أثاروا الرعب والخوف في الأهالي لوحشيتهم ، فهم يدمرون المدينة ويحرقونها ولا يرحمون صغيرا ولا كبيرا ولا شيخا ولا عجوزا ، ولا تسلم من شرهم شجرة ولا ثمرة ولا دار ، وكان الناس يهربون أمامهم ويتحدثون عن جرائمهم ووحشيتهم وفظائعهم وقساوة قلوبهم، وهم يزحفون للقضاء على مملكة مالونيا ، ولم تستطع المدن مقاومتهم ففروا من أمامهم ، فهم أقوام مثل الجراد المنتشر كرات وكرات ، فتشاور بربار والقادة والحكماء على معالجة هذه المحنة فاقترحوا عليه مغادرة المدينة أمام هؤلاء الوحوش وركوب البحر ، ويأمر الناس بالنجاة والهرب من أمامهم ، فكان أمرا صعبا وقاسيا على بربار ولكن في ذلك الظرف كان لابد منه ، فصعد الناس لرؤوس الجبال ومنهم من هرب باتجاه المدن الأخرى ومنهم من هرب للجزر في البحر ، وصعد الجنود والأمراء إلى المراكب والسفن ودخلوا البحر ، ودخل الوحوش مالونيا فحرقوها عن بكرة أبيها ، ومن وجدوه قتلوا ، وكان بربار قبل هربه وبعد خروج الناس أمر بتسميم الآبار بأقوى السموم ، واستمر الوحوش في مالونيا عاصمة مملكة بربار ثلاثين يوما حتى أضحت سوداء من كثرة الحرائق وانتشرت فيها الأمراض من الجثث المشوهة ، فكما قالوا لقد حلت بالمدينة كارثة رهيبة ، ذكرت بربار بما فعله بجزيرة سانتي ، فأسف وحزن وبكى بكاء الأم الثكلى على ما أصابها من الهلاك بعد ذلك العمران والعز والجاه والتقدم والرخاء ، فكاد يموت كمدا ثم قال معزيا لنفسه : هذا حال الدنيا عز وذل وملك وقتل !

ولما خرج الغزاة الوحوش منها عاد الناس المذهولون لما حل بمدينتهم لاعمارها من جديد ، ولما

رأى الفارس الدمار الشديد بأم عينيه قال من بين دموعه الغزيرة : لنا أكثر من عشـرين سنة نبني .. وتنهد وتابع قائلا : لا يشفي غليلي إلا قتل هؤلاء الملاعين ، لابد من حرقهم وسفك دمائهم .

ولما اكتملت عودة الناس للمدينة المحروقة أراد مطاردة الغزاة الهمجيين ، فأشار عليه الحكماء بالصبر وألا يفعل الآن فهم ما زالوا في أوج اندفاعهم الشرس ، وهم كثر رغم ما سقط منهم من قتلى وموتى، وقد استمروا في الزحف نحو الغرب، وأثناء عودتهم قد يتمكن من سحقهم وفي هذه الأثناء وصلت الأميرة ورود وزوجها عامر وأخوات الأمير عامر وأزواجهن لمشاهدة هذه الدنيا التي وراء البحر الكبير، فلما رأوا الكارثة اقشعرت أبدانهم وحزنوا لما حل بمالونيا ، فازداد اشتعال النار في قلب برбار ، فأرسلهم إلى الجزيرة التي يسكنها الصبية عند الملكة ريمان ، وما زالت الأخبار السوداء والقصص الموحشة تأتي وتنتشرعن وحشية الغزاة الزاحفين ، ولم يعد يطيق برбار الصبر على سماع أخبارهم ، فصمم على مطاردتهم والفتك بهم ، وناشد جنده على خوض هذه المعركة التي ترد الكرامة والكبرياء للفرسان ، وناشد جنود المدن الأخرى الانضواء تحت لوائه ، ووعد الملوك الذين يخضعون لحكمه بحرية ممالكهم ، ويعتقها من أي ارتباط بمملكة مالونيا إذا شاءت الانفصال ، ويكتفي بمملكة مالونيا فقط إذا تحقق سحق هؤلاء الغزاة وإبادتهم من الوجود ، وجد هذا الاقتراح الحماس وصدى لدى الملوك الآخرين وتجاوبوا معه سريعا ، فخرج كل ملك بنفسه وجيشه وفرسانه لمطاردة هؤلاء الوحوش الذين يتجهون نحو الغرب ، وما زالوا يعيثون الفساد والخراب والدمار في الأراضي التي يطئونها ، فاجتمع بين يدي الملك برбар أكبر جيش في الجزيرة ألف ألف فارس فخطب فيهم قائلا : هدفنا الوحيد قتل هؤلاء الأشرار .

وزحف الملك الجبار بالملوك والجيوش الذين يزيدون عن عشرين ملك ، وكانت تلحق بهم جيوش الشمال لما سمعوا بعرض برбار الأخير ، وظلوا يسيرون خلف الغزاة حتى أدركوهم في مدينة السهل الأحمر ، وزحفت الجيوش بعضها على بعض، ودارت معارك طاحنة وفريدة من

نوعها في ذلك الزمان الغابر ، واستمر الحرب بين الفريقين أياما وأيام ، فني فيه خلق كثير حتى لم يبق من الغزاة سوى بضعة آلاف سقطوا أسرى وفيهم ملوكهم ، وكان عليهم ملك وحش قصير القامة كأنه القزم ؛ ولكنه يشبه وحش الفلاة دموي النظر ، ومن كتبت له النجاة من جيش بربار والملوك عاد لمدينته وبلدته ، وفي مالونيا نفسها تم إعدام ملك الوحوش حياته وانتهت بذلك غزوة هؤلاء البرابرة لهذه الجزيرة ، وتحرر ملوك الجزيرة من قبضة بربار بعد هذه المعركة الكبيرة ، وانكمش على أثرها بربار العظيم ، وعاد كما بدأ ، وعادت مالونيا كما كانت أيام الملك هيلاني والد نابولي ، فضحك بربار لحال الدنيا ثم خاطب وزيره جبارا قائلا : أخشى أن أعود رقيقا كما جئت لهذه الجزيرة أول مرة ! فضحك الوزير: لا تستغرب ذلك يا ملك الزمان

فضحك بربار بجنون وقال : قد قهرت ملوك الدنيا بحد هذا الحسام وملوك الهند وملوك هذه الجزيرة .. وبلغ مجدنا عنان السماء .. يا إلهي .. يا إلهي !! ثم خفض من صوته وبصره قائلا : ما أخبار ولدي بربار خان ؟! .. لي أكثر من ثلاثين سنة في الحرب والقتال والدماء والجراح يا جبار عادت بي الذكريات للوراء عندما دخلت الجزيرة أسيد بن بهرام العبد الرقيق للملك الطيب جليان .. آه يا ولدي بربارخان! كم من الأصدقاء والخلان فقدت يا جبار .. ملاريون الصديق الوفي ، والفارس الشهم جرار ، والملك الصديق جليان ، والبطل نابولي .. البطل نابولي ماذا أقول له إذا التقينا بعد الموت ؟! هل أخبره بدمار مالونيا ؟! وهل أخبره بما حل بي من بعده ؟! وكيف تنازلت عن مملكتي وعدت حاكما لمالونيا ؟؟؟! آه يا جبار .. لقد كبرت في السن ، تجاوزت الخمسين بقليل لقد دب بي العجز والضعف .. دنيا ماكرة ترفعك في العلا ثم تهوي بك في الحضيض .. هكذا حال الأيام ، لو أن بربارخان كبير العمر لأعطيته ما بقي لي من عز وجاه .. أخي ذؤيب لا يدري من هذه الأحوال شيئا ، وأخي صقير اختفى وانقطعت أخباره أمي سراجة عجوز على وشك الرحيل وترك هذه الدنيا لأهلها وناس جدد .. يا جبار أريد أن أزور جزيرة الأولاد لأرى أسرتي ريهان وابنتي وولدي بربارخان .. جهز لي مركبي أيها الأمير لعلي ارتاح هناك من هموم هذه الدنيا وأحوالها المتقلبة بضعة ليال .

الملك سنبلة

سافر الملك الكئيب لجزيرة الأولاد ، وتولى جبار قيادة البلاد ونائبا للملك ريثما يعود ، وكان في انتظاره هناك حزن جديد ، كانت زوجته الهندية ريهان مريضة تحتضر وولده مصاب بحمى شديدة ، وعجز أطباء الجزيرة عن شفائها ، فأرسل الملك وراء سنبلة أو رام بان، وقبل وصول سنبلة فارقت روح الملكة جسدها، وبعدها بيوم لحق بها ابنها بربارخان ، فازدادت غمة الملك على غمته السابقة، فكان يبكي وينوح كالثكلى ، فقاسى الملك من الوجع والألم والحزن والكمد ما يذيب الحديد ، وتمنى الموت من شدة الكرب والحزن ، فلما وصل سنبلة متأخرا عزى الملك وشاركه حزنه ، وهون عليه مصيبة الدنيا بالحكمة والقصص والمآسي ، ثم طلب منه مغادرة الجزيرة فقال : فلنترك هذه الجزيرة الحزينة أيها السلطان الكبير .. والموت قدر الله وقوته .. فدعك من طول الحزن والهم .. فالحياة عبر فيوم فرح وآخر ترح .

كان كلام سنبلة على قلب بربار كالبلسم على الجرح ، فاستمع له وأخذ الأميرة وهم الأيام وغادروا إلى مالونيا ، ورغم محاولتهم الخروج من الحزن ظل الحزن مخيما عليه وعلى فتاته ، وأخذ يكثر من الجلوس مع الفلاسفة حتى هدأت نفسه، فجمع العلماء وقادة الجيش والأطباء والحكماء في قاعة القصر الجديد ذات ليلة وقال مخاطبا لهم جميعا : أيها السادة الطيبون .. لقد مللت الحكم والقوة والسلطة ، ولدي رغبة جامحة وقوية بترك هذا الكرسي للحكماء وأهل العلم لتجربوا حظكم معهم .. وقد أطلعني الحكيم سنبلة على كتاب جمعه عن الحكم والعدل والإدارة والأخلاق الفاضلة .. وبما أنني لا أستطيع تطبيق ما فيه فأريد أن أترك الفرصة للحكيم سنبلة في حكم هذه المدينة ، وأقوم برحلة نحو الشرق مع وحيدتي وهم الأيام .

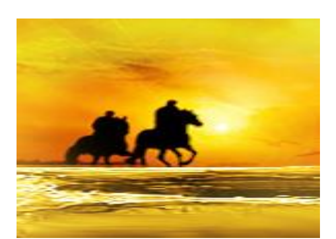
ضجت القاعة بالصوت العالي والهمس وزاد الصراخ والاحتجاج ولما عاد الهدوء للمكان قال بربار : لقد قاتلت منذ ثلاثين سنة .. وكثير منكم قاتل معنا وبنينا مملكة عظمى سار بحديثها الشعراء والكتاب .. ولكنكم لاحظتم كيف ذهبت أدراج الرياح في أيام معدودات ؟ فقد دمر الغزاة كل ما صنعنا وشيدنا .. فلماذا لا ندع فرصة لهؤلاء العلماء والحكماء بإنشاء مملكة جميلة

هادئة مسالمة ؟! .. فأطيعوني ودعوا سنبلة يحكمكم .. تعال يا سنبلة أمام هؤلاء القوم وتكلم

ترك الأمير النبيل سنبلة مقعده واقترب من مكان جلوس الملك وحيا الحاضرين ثم قال : أيها السادة .. فاجأني الملك بهذه الخطوة الكبيرة .. كما فوجئتم أنتم بها .. وأنا لا أطمع بحكم وسلطان .. أنا ألفت كتابي لتحسين أحوال المدينة والحث على العدل والسلام بدلا من الظلم والحرب .

فوقف بربار مقاطعا : أيها الأمراء والقادة إنني أتنازل عن العرش والحكم للحكيم سنبلة لإصلاح حال الناس والبلاد .

وبعد جدال عميق وشديد وكلام كثير وافق الجميع على تنصيب سنبلة ملكا على مدينة مالونيا وبعد تمنع من سنبلة وافق في النهاية وبايعه القوم ، وتم إعلان اعتزال بربار عن عرش مالونيا وارتقاء الفيلسوف الحكيم سنبلة عرش المملكة ، واستلم الحكيم الشاب الحكيم ، فقام بإلغاء نظام الفرسان المعمول به في أكثر مدن الجزيرة وقال : يكفي الجيش للدفاع عن حدود البلاد ، وبالشرطة للأمن الداخلي ؛ فبذلك نوفر أموالا كثيرة للصالح العام ، ونترك الحروب والمغامرات من أجل توفير أجور الفرسان .



وبعد شهور من استلام سنبلة الفيلسوف الحكم ماتت والدة أم الملك بربار الأميرة سراجة ، فلما انتهى العزاء والمواساة استأذن بربار من الملك وسادة البلاد بالرحيل للشرق ، وأوصى سنبلة الملك والأمراء على أخيه ذؤيب ، وأخذ ابنته وهم الأيام وغلامين مخلصين له ، ورحل للشرق لزيارة ملك مصر وأخته ورود لعله ينسى ما أصابه من المآسي والهموم في تلك الأيام الخالية ، وإن قدر له البقاء على قيد الحياة سوف يعود للجزيرة ، فركب البحر كإنسان مغمور وكان كثير البكاء والدمع وهو على ظهر المركب ، فوصل مصر بسلام والتقى بالملك زدياب ، وتعجب

لحاله وتخليه عن الحكم ، وقد تذكر ما كان عليه من عز وجاه في المرة السابقة ، فقال متعجبا : البطل المغامر صاحب الطموح الكبير بربار والمحارب الجبار يتخلى عن حكم الناس إن هذا لشي عجاب !.

ومكث بربار ضيفا في مصر بضعة أشهر ، ثم سافر للشام ثم إلى مدينة الجدول ، واجتمع بالملك وحيد العصر وأخته ورود وزوجها عامر ، وفرحوا برؤيته ورؤية الأميرة وهم الأيام ، فخطبها الأمير عامر لأحد أولاده ، فتزوجت ابن عمتها، وتابع الملك المعتزل بربار رحلته إلى بلاد الهند وسار برفقته ابنته وزوجها لزيارة جدها طرخان ، فوجده ما زال على قيد الحياة ؛ ولكنه شيخ كبير ، وما زال يتذكر الفارس بربار، وتعجب الشيخ من قصة تنازله عن العرش فأمر بتدوين سيرة بربار في صحف الهند ؛ لتكون قصة وعبرة وتسلية للملوك والحكام في بلاد الهند ، وانبسط طرخان برؤية حفيدته وهم الأيام ، وتألم لموت ريهان وبربارخان ، وظل الفارس بربار سنة في ضيافة الملك طرخان تنقل خلالها في بعض أمصار الهند ، ثم رجع لمدينة الجدول ، وكان كلما سأل خلال ترحاله بين البلدان عن أخيه صقير أو ذهب النهار إلا ذكر له الناس أن هذا الحكيم دخل البلد وداوى بعض مرضاها ثم رحل ، وأثناء وجوده ثانية في مدينة الجدول مات ملكها الشيخ وحيد العصر وخلفه ابنه عامر ملكا على المدينة ، فمكث بربار في هذه البلدة بضعة سنين وهو ما زال يسأل عن ذهب النهار ، حتى صدف أن ذكر له رجل أنه سمع بهذا الحكيم في بلدة اسمها سلمان بالقرب من العراق ، فله مدرسة هناك فاستأذن بربار من عامر وأخذ غلاميه وسافر لتلك البلد سلمان ، فلما دخلها سأل عن مدرسة الحكيم نهار ، وبالفعل وجد أخاه صقيرا في تلكم المدرسة، فتعانقا عناقا طويلا وقص عليه قصته ، فتعجب صقير لذلك وقال بعدما سمع أخاه يعاتبه : لا تعتب عليّ أيها الأمير فلي سنون مفارقا تلك البلاد ، فقد وصلت أقصى الشرق بلاط ملك الصين ، ونقلت الحكمة والطب الذي أعرفه لهم ، وأخذت ما لديهم من حكمة وعلم، ثم مررت ببلاد الهند وبلاد الثلج ، وها أنا وصلت إلى هنا إلى هذا البلدة منذ عهد قريب ، فعالجت وداويت الناس ، فالزمني أمير هذه البلدة بنقل علمي لهؤلاء التلاميذ

قبل الرحيل فوافقت ، وأنا الآن في الأيام الأخيرة لنقل ما حفظت من العلم والطب لهؤلاء ، وسأقوم برحلة لمدينة الجدول لعلي التقي بالأخت ورود ، ثم أكر قافلا لمالونيا بإذن الأحد الصمد .. ولكن قصتك عجيبة يا بربار.. فكيف تخليت عن الحكم بهذه السهولة والبساطة؟!

ثم دخل به صقير على أمير البلاد ، وقص عليه قصة بربار فقال الرجل بعد الترحيب : إننا سمعنا بقوتك هنا عندما غزوت الشرق .. ومن ثم زواجك بابنة الملك الجبار طرخان .. وهذا غريب ان تتخلى عن العرش للحكماء !

فقال بربار باسما: هذا حال الدنيا كرهت العروش والحروب .

وبعدما أتم صقير نقل علمه ومحفوظاته لتلاميذ المدرسة حمل كتبه على البغال ورحل بها بحماية جند الأمير إلى مدينة الجدول ، فاستقبلهم الملك عامر وترجى هو الآخر الأمير صقيرا أن ينقل علمه لأهل هذه المدينة ، فجلس بين يديه خمسة تلاميذ ، فمكث معهم عدة أشهر أخرى تعلموا فيها الطب والحكمة ، ثم سافروا لمصر ، واستضافهم الملك زدياب بضعة شهور ، ثم ركبوا مركبا من مراكبه الخاصة إلى الجزيرة الكبرى ، ثم دخلوا مالونيا ، فرحب بهم الملك سنبلة وسادة المدينة وأهل مالونيا الترحيب اللائق بهم ، وقد أدار سنبلة حكم المدينة بسلام وأمان ، وقد أصبحت مالونيا مهوى طلبة العلم في الجزيرة، وأصبحت منارة لأهل العلم والأخلاق، يغدون إليها من الممالك الأخرى لتعلم الحكمة والحكم من الحكيم سنبلة ، فصارت مدينة هادئة آمنة لا تشارك في الحروب التي تنشب بين المغامرين والطامحين والهواة ، وأخذت فلسفة سنبلة الحكيم الملك تنتشر في مدن الجزيرة ، وأخذت أفكاره طريقها بين الملوك والعامة ، وكانت تقوم على العدل والمساواة بين جميع الناس وترك الظلم ..والاهتمام بأحوال الناس وتحسين حياتهم ، وتنظيم المدن ، ونشر المحبة والأخلاق الفاضلة بين العباد ، وغير ذلك من الأفكار الخيالية الحالمة

فقال بربار لسنبلة بعدما سمع أخبار وأحوال المدينة الطيبة : لقد نجحت أيها الفاضل نجاحا طيبا مشهودا ، فأدعو لك بالتوفيق وتحقيق أحلامك .. ما أخبار ذؤيب ؟

فقال سنبلة : هو بخير يعمل في مزرعة أبقار كما يشتهي ويحب .

فقام الأخوان بزيارته ، ثم شرح لهم صقير الطريقة التي يريد أن يعالج بها ذؤيبا ، فرحلوا للبحر ومعهم جنود ونيران وسفينة يريدون حرقها ، وعلى ظهرها ذؤيب وبعض الجنود .. الفكرة كانت محاولة تكرار مشهد الكارثة ، فأشعلوا النيران على أطراف البحر ، وكان صقير وذؤيب على متن السفينة والوقت ليل ، وكانت النار الكبرى تلقي نورها على السفينة .. اشتعلت فجأة نار على ظهر السفينة، وصاح جمهرة : الأعداء قتلوا جنودنا قتلوننا .. وصرخ الجنود كما صرخ جمهرة فصرخ ذؤيب على صراخهم صرخة مدوية ووقع على الأرض مغشيا عليه ، فطلب صقير إخماد النيران ونقلوه للشاطئ وادخلوه خيمة واستيقظ ذؤيب وهو يصيح : الموت للأعداء .. الموت للأعداء ..

ولما سكن من الصراخ والصياح قال صقير : ذؤيب ..ذؤيب لقد نجوت من الموت ..

عادت الذاكرة له بعد هذا المشهد ـ وهو احتراق السفينة وصراخ الجند المخيف بغدر الأعداء ـ عادت الذاكرة المفقودة لذؤيب ، وكان مذهولا تدور عيناه فيمن حوله ، فبكى بعد ذلك ، وقام صقير باسقائه شرابا فقال بعد استقراره في جوفه : كانت مذبحة رهيبة !

تذكر ذؤيب البحر وغزو سانتي ، فأخذ يهذي ويصرخ ، فقال صقير : هذه حمى لابد منها .. ونقول الحمد لله .. لقد تذكر المعركة والنيران والغزو .. ستعود الذاكرة بعد هذه الصدمة .

رجعوا لمالونيا بذؤيب الذئب برهان وذهب العبد مروان ، ثم عكف صقير على العلم والطب والحكمة في مدينة مالونيا ، ورحل بربار عنها ترك المدينة إلى الحياة في جزيرة البحر حيث ماتت زوجته الهندية ريهان وابنه بربارخان ينتظر ساعة الموت والنهاية .

هذه هي حكاية الشجاع أسيد بن بهرام ، وما جرى له ومعه من الأهوال في الحروب والقتال حتى صار ملكا عظيما تتودد إليه الملوك والفرسان ، ومع أحداث الزمان وعدم ثبات الأمر على حال اعتزل الحكم والسلطان ؛ ليكون كعامة الخلق، فأصبح بعد الأمر والنهي فريدا وحيدا في جزيرة في البحر، ينتظر ساعة النهاية الأبدية ، ولابد أن في حكايته العبرة والفائدة من تصارع الأحداث وتدافع الخلق، ومن القاع إلى القمة بين البشر والناس، مع التدبر في مصائب الدنيا ،

وما فيها من الحكمة والتدبير ، وإلى حكاية جديدة فيها تسلية مفيدة قد تخفف عن النفس بعض الهم ، وتزيل النكد عن الجسد مع أحداث ومغامرات الأبطال والأشخاص، فإلى قصة قطبة بن سنان ، وما جرى له في بلاد الإنس والجآن ، وأخبار ولديه سالك ومالك وأخبار عماد وحران وإيهاب .



قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

مملكة مالونيا والملك بربار




الفوارس
قطبة بن سنان
جمال شاهين
منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

٨

جمال شاهين

قطبة بن سنان

١٩٩٤

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

قطبة بن سنان



قطية بن سنان

قطبة يودع الدنيا

قطبة شيخ كبير يجلس على فراش الموت في ليلة معتمة شديدة البرودة ، وذات أمطار غزيرة ، وفي وسط البيت موقد النار ، تكاد ناره أن تخمد أنفاسها الأخيرة مع ساعات ليل طويلة ، هذا الشيخ الهرم الذي يجلس على فراش الموت ، وحوله أبناؤه مالك وسالك وأختهم نازك ، فكان الرجل المحتضر يقول لهم في تلك الليلة الباردة التى لا تنسى وصيته الأخيرة ـ وهم قد أسندوه على الوسائد المريحة، يستمعون وصاياه الأخيرة ـ فيقول : يا أولادي ! النهاية قد أقبلت ، وكأس الموت لابد من شربها اليوم أو غدا ، لا مفر من



الموت ،وعندي كلام أحب أن تعقلوه عني ؛ لعله ينفعكم في دنياكم.. فأنا خبرت الدنيا ، وعاشرت الإنس والجآن .. فالحياة الدنيا متاع زائل ، والأصحاب الأخلاء فيها قليلون ، وأنتم لا تعرفون عن أبيكم كثيرا من الأخبار ، ومن يعش منكم فسوف يسمع الكثير ، فلا تحزنوا وتأسفوا على ما سمعتم ؛ ولكن حسنوا من حياتكم وكونوا خيرا مني ، فكما تعلمون يا أولادي أنا تزوجت أمكم بعدما كبرت ودار بي الزمان، فأنجبتكم لي ، ورعتكم حق الرعاية حتى أتاها أجلها ، وانتقلت لدار الآخرة بما كسبت من الخير .. والصبر على أذى هذا الرجل الهرم قطبة ، فلعلها سامحتني ، فهي قد ماتت وأنا بعيد عنها .. وها أنا استعد للرحيل إليها .. فيا أولادي عندما أموت تقومون بدفني حسب الأصول والتقاليد ولا تبكوا على أبيكم قطبة بن سنان ؛ ولكن أوصيكم بفعل الخير والعمل الطيب ، وترك القبيح ، والحذر من الصديق السيئ الحسود فأحسنوا اختيار الخلان .. وبعد دفني أيها السادة اذهبوا إلى البئر المهجورة في أقصى البستان، وفي قعرها صخرة وهناك تحت الصخرة تجدون جرة فخارية محكمة الإغلاق ، فتخرجونها وتحضرونها الحجرة التي سأموت فيها ، ثم تفتحونها بعد ذكر اسم الرحمن في ساعة السحر ، وحذار أن يراكم أحد من أهل البلدة مهما كان لكم صديقا ، واحذروا أن تتكلموا بما فيها أمام الخلق ، فاكتموا سرها حتى تجنوا الثمار ، والآن انتبهوا لم أقول حتى لا تخسروا ما استطعت

تحصيله لكم بعد كل هذه السنين من الترحال في الأقطار .. من المهم أن تخرجوا الجرة من تحت صخرة البئر المهجورة ، وفي السحر وفي هذا المكان تذكرون اسم الرحمن ، وتفتحون الجرة ، ولسوف تجدون المال الذي جمعته لكم مع الأيام ، وستجدون معه صندوقين صغيرين جميلين ، وهما مقفلان، وكل صندوق معه مفتاحه ، فالصندوق الأحمر لمالك والصندوق الأخضر لسالك لا تنسيا ذلك، فاقتسما الذهب والمال بينكما بالتساوي ، ولا تعطوا نازكا منه شيئا ؛ ولكن احسنوا رعايتها ، وأكرموها غاية الإكرام والإحسان، ولا تبخلوا عليها بشيء مهما صغر، وأما الصناديق فلا تفتحوها حتى تتزوج أختكم ، فبعد سنة من زواجها يحق لكم فتحها، لا تنسوا ذلك يا أولاد ، ومن فتح صندوقه قبل ذلك الموعد يخسر ما فيه، ويندم على ما فرط وقصر ..

وبعدما التقط قطبة نفسا عميقا قال : وأما أنت يا ابنتي نازك فلم أنسك يا بنية ، فعلى وسطى حزام جميل ، وفيه خير وفير، فهو لك ، فإذا مت فالبسيه ولا تتخلي عنه في ليل ولا نهار ، ولا في بيت ولا حمام ، فهو حزام يحميك من أذى الشياطين والجآن ، فحافظي عليه واحذري أن يسرق منك ، فموتي قبل أن تفقديه ، واسمعوا ما أقول لكم الآن .. فلسوف يأتيكم رجل مهما طال الزمن ، وسوف يكون معه خطاب، فاحسنوا إكرامه مهما فعل وأساء إليكم ، ولا تقابلوا الإساءة بالإساءة بل الإساءة بالإحسان ، وهذا الخطاب مني عليه ختمي واسمي ، وقبل أن يرحل سوف يخطب منكم أختكم ، فإليه زوجوها ..

والتفت لابنته قائلا : هذا الرجل يتزوجك يا بنية! فأنا وهبتك إياه فارضيه، وهو سوف يروي ويذكر لك القصة في يوم من الأيام .. مهما كان بشعا وقبيحا فوافقي عليه، لا تنفري منه ، ولن تندمي ، وإن طلب منك ترك الحزام فارفضي، وقولي والدي قطبة بن سنان أوصاني بذلك ، وعاهدته على ذلك ، فسوف يترك هذا الأمر ، فاصبري يا نازك على قسوته وآذاه فهو يختبرك .

والتفت إلى الأولاد متابعا: المهم لا تزوجوها إلا له ، ولا تذكروا أمامه الصناديق ، وأنت يا نازك كأنك لم تسمعي بها .. ولا تزوجوها لأحد غيره ، فلو أتاكم خاطب أمير أو ملك أو غني أو فقير لا تنكحوها إلا للذي يأتيكم بخطابي ، ذلك الرجل الغريب ، وبعد زواج أختكم بسنة

افتحوا صناديقكم .. وفي الختام دعوا أختكم ترحل معه ، فإن فعلتم ما ذكرته لكم سعدتم وبعد عنكم الشر، وإن خالفتم ندمتم وتعبتم وخسرتم ، وحافظوا على بعضكم ، ولا تخسروا بعضكم، وتعاونوا على ما وهبتكم تعيشون سعداء ، ولا ترددوا على مجالس السلاطين، فيطمعون بما أوتيتم، ومرة أخيرة أقول لكم كونوا معا ، وساعدوا بعضكم بعضا ، ولا تفترقوا ولا تنسوا أختكم .. وتصدقوا عني بالأموال.. وداعا يا أولادي وسلام الله عليكم .

مع الفجر كان قطبة بن سنان يلفظ نفسه الأخير ، وكذلك النار قد لفظت نفسها الأخير، وخيم السكون على البيت ، وكانت الدموع تنساب على خدود الجميع مخرجة للحزن على فراق الأب رغم ما قاسوه منه في سالف الأيام ، ولما أشرقت الشمس ضعيفة؛ ولكنها معلنة بداية بزوغ فجر جديد .. واسى الاخوة أنفسهم ، وذهب مالك للسوق واشترى الكفن اللائق بأبيه ، وأخبر الأهل والجيران بالمصيبة ، وقبل أن تغيب شمس ذلك النهار كان القوم قد واروا قطبة الثرى ، وأصبح من سكان الدار الآخرة .

وتزنرت نازك بنت قطبة بحزام قطبة العجيب كما أوصاها الوالد ، واستمر الحزن والأسف سبعة أيام ، وحضر الأصدقاء وأخرجوهم من بيت الأحزان ، وذكروا لهم أن هذه الدنيا ما عليها أمان ، وذهب مالك إلى عمله مع تاجر الليف والحبال، وسالك إلى عمله مع الحداد كروان وكانا يعودان في المساء فيجدان أختهما قد أعدت لهم الطعام ، كما تعودا على ذلك منذ وفاة أمهما سروة ، بعد حين ذكروا أمر البئر ، وما سمعوه من والدهم من الكلام فقال مالك : سننظر هذه البئر المهجورة ، فلابد أنها ممتلئة بالأفاعي والعقارب.. فكيف سندخل فيها فهي عميقة ؟

فقال سالك : فكرت بالأمر .. نشتري حبلا من عند التاجر فروة ، ولابد من نزول أحدنا حتى لا ينكشف سرنا أو ينزل كلانا لنتعاون على إزاحة الصخرة.. ولسوف احضر قدوما أو فأسا من عند المعلم كروان، وتساءل قائلا: كيف دفنها أبونا هناك؟! كيف كان ذلك ؟!

احضرا ما يلزمهما لنزول البئر المهجورة وأغلقوا بوابة المنزل والبستان بشكل جيد ، وكان كل منهما ترخص من معلمه في غياب ذلك النهار ، ومع ضحى النهار كانوا يجلسون بالقرب من

حافة البئر، وقد أزاحوا من حولها الأعشاب، واتفقوا على أن ينزل سالك ؛ وذلك بعدما ثبتا طرف الحبل بوتد قوي وعقدوه فيه بقوة ، وقبل أن يتدلى سالك سمعوا صراخا عند بوابة البيت فأصغى مالك وقال : هذا صوت ابن عمنا بوصة ما الذي أتى به بمثل هذا الوقت ؟! فهو يعرف أننا نكون في العمل في مثل هذه الساعة!

فقال سالك : لنترك المكان ونرى ما يريد ؟ وتركوا الحبل المربوط حول البئر، وأسرعوا إليه ، وفتح له مالك الباب ، فدخل بوصة بسرعة وهو يقول : ما الأمر لماذا تغلقون الباب؟! .. هذه أول مرة أرى بابكم يغلق في النهار أنتم في كثير من الليالي لا تفعلونها هل من شيء يا مالك ؟



تضاحك مالك وقال : أبدا أبدا لا شيء ، ما الذي أتى بك علينا هذا الصباح ؟!

فقال بوصة: سألت المعلم فروة عنك فاخبرني أنك طلبت استراحة هذا النهار، فعجبت ، وأتيت أسأل عنك.. فإني أرى سالك أيضا في البيت ما الخطب أيها الأخ العزيز ؟!

فقال مالك ونبرة غضب في صوته : لا شيء يا ابن العم .. اتفقت أنا وسالك أن نترك العمل يوما أو بضعة أيام لنساعد اختنا نازكا بزراعة البستان وحراثته وإزالة الأعشاب والأوساخ منه وكانا قد وصلا لمدخل البيت حيث الحجرات فرحب به سالك قائلا : أهلا ببوصة .. هل من أمر ؟

رد مالك : بوصة قلق عليّ ؛ لأنني تركت العمل اليوم مع المعلم فروة ، فظن أن وراء غيابي شأنا ولما لمحك أمام البيت زادت دهشته لوجودك معنا في البيت فأعلمته أننا أخذنا إجازة لتدبير شأن البستان والأرض ومساعدة أختنا نازك في حرثه وزرعه وتشذيب أشجاره .

وبالحيلة استطاعوا أن يتخلصوا من ابن عمهم بوصة ، وصرفوه بالتي هي أحسن ، ثم عادوا للبئر ، وقبل أن يتدلى سالك طرق البيت متسول ، فتطيروا وذهب مالك وأعطاه رغيفا، وصرفه وهو يشتم ويلعن، وبينما سالك ينزل رويدا رويدا سمعوا صوتا ينادي على نازك ، فسحبه من

جديد وقال مالك : يبدو أن العمل في وضح النهار غير مناسب فلنعد للبيت حتى المساء .. فالبرد والريح تشتد .

فعادوا للبيت ، وكانت نازك قد سبقتهم ؛ فإذا عجوز جارتهم تريد الحديث مع نازك، فهي تتردد عليهم في العادة فرحبوا بها ، ودخل الشابان لحجرتهما يستريحان ويدفئون المكان ، وفي المساء ـ بعدما انصرفت العجوز، وقد شاركتهم طعام الغذاء ـ ارتفع تساقط الأمطار فأجلوا العمل ليوم آخر ، ومكث الشتاء أياما فلم يتمكنوا من الذهاب للبئر ، وذات يوم أتاهم ابن عمهم الكبير سدرة يسأل عن أخيه بوصة ، فذكروا له أنهم رأوه منذ أيام خلت ومن بعدها ما شاهدوه فذكر لهم سدرة أنه منذ يومين اختفى ، ولم يرجع للبيت ، ولم يقل لنا أين ذهب ؟ ولكن أحد أصدقائه ذكر لنا أنه نزل في بئركم المهجورة ، ثم ختم كلامه قائلا : فظننت أنكم تعلمون ذلك فصاح مالك : البئر .. ولماذا البئر المهجورة ؟!

انزعج الاخوة الثلاثة من كلام سدرة وأخذوا ابن عمهم نحو البئر المهجورة على مضض وغيظ ونادوا على بوصة من باب البئر فلا صوت ، فأشعلوا نارا على خشبة ونظر سدرة ثم قال : أشم رائحة قبيحة قد يكون هناك شخص ميت في داخلها ، فنادى بصوت عال ثم قال : لماذا هذا الحبل مدلى يا مالك ؟!

فكأنهم انتبهوا للحبل الساقط في البئر فقال مالك بغضب : قررنا تخزين الماء في هذه البئر ، فاشترينا هذا الحبل منذ أيام ؛ ولكننا مع الشتاء والريح لم نتمكن من العناية بالبئر.. والآن كيف سنبحث عن بوصة؟ .. فليأت صديقه الذي ذكر لك أنه نزل البئر ويخرجه .. ونسمع حكايتهم مع هذه البئر .

وفي صباح اليوم التالي أتى صاحب بوصة سورة ، وبعض الأصدقاء إلى منزل قطبة، فقال صاحب بوصة للجميع : جاءني بوصة قبل أيام ، وذكر لي أن في البئر ذهبا وكنزا لعمه قطبة، وأنه رأى أولاد عمه حول البئر، وأنهم وضعوا حبلا طويلا للنزول في البئر ، وفأسا للحفر عن الكنز الدفين ، فلما أتاني وأطلعني على الخطب، وأنه اكتشف أنكم تحاولون إخراج الكنز،

وأخفيتم الأمر عنه، فطلب مساعدتي للنزول لجوف البئر الجافة ، فحضرنا قبل ثلاثة أيام مع ساعات الفجر الأولى ، ونزل بوصة بمساعدتي ؛ ولكن فجاءة انقطع صوته ، فناديت عليه فلا جواب، فتركت المكان هاربا وخائفا وحائرا ، وأحضرت بعد الأصدقاء في اليوم التالي، وحاولت النزول ولكني خفت بعدما تدليت للنصف ، وناديت على بوصة ، فلم أسمع صوتا فصرخت أخرجوني فأخرجوني إلى أن جئت يا سدرة وسألتني .. فلابد أنه هلك في قاع البئر

انزعج الاخوة لهذا الحادث كثيرا ، وخشوا على ضياع كنزهم فقال مالك : إذن بوصة مات في قاع البئر ..حسنا هيا نخرجه .. أخرجوه وإذا وجدتم كنزا فخذوه يا إخوان.. نحن عندما أتينا بالحبل والفأس ليس ذلك لإخراج الكنز من بئر مهجورة ولو كان فيه كنز فهو من حقنا أولا وأخيرا .. نحن أردنا ملئها بماء المطر حتى تقوم اختنا نازك بزراعة البستان وسقيها بماء البئر.. فالبئر الأخرى صغيرة .. ونشرب من مائها ولا تساعدنا في السقي والزرع .. وقد ذكرنا هذا الكلام أمام بوصة ولم نذكر له كنزا وذهبا .

ذهب بعضهم واستأجر رجلين للنزول في جوف البئر ، واحضروا حبلا ثانيا ، وقد اتفقوا أن يتدلى الرجلان معا أحدهما يحمل مشعلا والآخر ليقوم بربط الجثة بأحد الحبلين، ويتعلق الاثنان بالحبل الثاني ، ونزل الرجلان معا ، وكانت النار قد بددت ظلام البئر ، ووصلا لقاع البئر ، فوجدا جثة بوصة منفوخة ورائحة كريهة ، فقاما بربطه بالحبل ، وقام الآخرون بسحبه وسحب، فلما خرجوا من البئر سألهم مالك : هل وجدتم عقارب وأفاعي في البئر ؟

فقال أحد العاملين : لا .. البئر نظيفة من الحشرات الكبيرة ، ولم نر سوى بضع حشرات صغيرة تزحف على جدران البئر .

فقال مالك ثانية : ولكن كيف مات هذا الرجل فيها ؟!

فقال أحد الرجلين بعد تقليب الجثة ، ولم يجدوا مكان أي ضرب أو سقوط : لابد أنه اختنق من قلة الهواء أو شيء آخر .

فقال سالك : هل وجدتم شيئا مهما في قاع البئر ذهبا مالا كنزا ؟!

فرد الرجل الآخر : البئر خاوية ، لا شيء فيها حتى نبته لا توجد بقاعها .

فقال مالك : نزل هذا الفتى ليستخرج كنزا أو ذهبا من قاع البئر .

فقال أحد الرجلين : لا يوجد في قاعها إلى التراب.. ضيع المسكين نفسه وروحه .

بعدما انتهوا من دفن بوصة اجتمع الاخوة الثلاثة للتفكير في شأن البئر وكيف سيخرجون الجرة التي حدثهم عنها أبوهم قطبة ؟

فقال سالك : الذي يحيرني كيف دفنها أبونا في البئر ؟! وهو رجل كبير كيف كان يهبط ويضع المال فيها ؟!.. أم أن أحدا فعل له ذلك ومتى دفنها؟! هذه البئر موجودة من قبل أن نولد ، وهي مهجورة من قبل نرى الدنيا .

فردت نازك على أخيها قائلة : ولكن الوالد كان يهتم بها كثيرا ..ولا أذكر أنه أتى من سفر أو رحلة إلا وزار البئر واشتغل قريبا منه .

فقال سالك : بحثت في أغراض والدي، فلم أجد حبلا واحدا عنده ، فكيف كان ينزل للبئر ؟!

فقال مالك وهو يفكر : قد يكون لها مدخل آخر فلنبحث في البستان .

صاح سالك : هذا هو الصواب..لابد أن للبئر مدخلا خفيا عن الأنظار .. ولابد أن يكون بين الأعشاب والشجر .

فقالت نازك محذرة : لنصبر حتى ينسى الناس قصة البئر .. فالناس تعشق قصص الكنوز والذهب .

فأيد مالك كلامها فقال : نعم القول ما تقولين يا نازك! .. فلنصبر فلابد من الصبر حتى لا ينكشف أمر الجرة التي يحاشرنا بها الناس أو يسمع بنا حضرة السلطان فنخسر المال والصناديق المجهولة .

كان الأخوان يمارسان العمل كالمعتاد ، وانشغل بال نازك بما سمعت من كلام أخويها حول المدخل الخفي لهذه البئر المهجورة ، وأدركت إدراكا تاما أنه لا يمكن للأب أن ينزل للبئر العميق بواسطة الحبل ، فصممت في قرار نفسها أن تبحث هي عن هذا المدخل خفية عن أخويها ، وقد

اجتهد الأخوان الاندماج في شغلهما ونسيان قصة هلاك بوصة الغامض ، وعندما يتحدث أحد أمامهما عن البئر والكنز وموت بوصة والجن والعفاريت لا يجد عندهما جوابا ، بل يغيران الموضوع والحديث إلى أن كان ذات ليلة بعدما تناول الأشقاء الثلاثة طعام العشاء ، قالت لهم نازك إنها وجدت في شجرة ضخمة تجويف غريب ، ويستطيع أن يدخل فيه إنسان نحيف البدن وأرشدتهم إلى تلك الشجرة ، ومع الفجر كانوا بجوارها دخل سالك في جوف الشجرة ؛ فإذا به يهبط إلى درجة ثم أخرى فعاد يقول لاخوته همسا : يبدو أن هذا مدخل لسرداب .. فليذهب أحدكم إلى البئر وينتظرني .. لابد من المغامرة ، فهذه أشياء نكتشفها أول مرة !

دخل سالك تجويف الشجرة مرة ثانية ، ونزل بضع درجات ، ثم هبط على الأرض بعد نزول درجات على شكل حلزوني ، ثم وصل لسرداب لا يستطيع الشخص الوقوف فيه ، فهمس وهو يحني قامته " لابد من المغامرة ، فهذا سرداب يسير نحو البئر .. هذا أحد أسرار قطبة بن سنان " .. فمشى عشرات الخطوات، فإذا هو فعلا في فتحة تطل على البئر ، فدلى نفسه منها ، فإذا هو في قاع البئر، فنادى فسمع صوت نازك ترد عليه.. كانت البئر شديدة الظلام ، وكان يسمع حركات بعض الحيوانات الصغيرة كالجرذ في السرداب ، فعاد لاخوته وقد تعفر بالتراب والأوساخ والعرق ، وكانوا ينتظرونه على أحر من الجمر والقلق ، فأعادوا الأعشاب حول جوف الشجرة الضخمة ، ودخلوا البيت وهم فرحون لهذا الاكتشاف.

وقال سالك : هكذا كان والدنا يدخل هذه البئر ؛ ولكن متى تم إنشاء هذا السرداب ؟

فقال مالك : لابد أن يكون ذلك قبل وجودنا على الدنيا من زمن طويل ، فها هي نازك ابنة البيت الدائمة ولم تعرف به إلا أمس .

فقالت نازك : ما فكرت بمثل هذا الأمر .. كان قطبة عندما يعود من رحلاته الطويلة يقضي أياما في العمل في البستان، وحول تلك الشجرة والمكان.. فكنت أعتقد أنه مهتم بالحفر حول الأشجار ورعايتها فحسب ؛ ولكن لما سمعت كلامكما تلك الليلة عن الطريقة التي كان يدخل بها الأب البئر أخذت أفكر وأتذكر أفعال أبينا في البستان والأرض.. وأخذت بالبحث دون

علمكما حتى وجدت ذلك التجويف في جذع الشجرة الضخمة ، فوقع في نفسي أنه مدخل سري لنفق .

فقال مالك : لنحافظ على هذا السر الجديد أيها الأعزاء .. ولكن كيف مات بوصة ؟! ومن قتله؟! لم يقتل بقرصة ثعبان أو عقرب ، ولم يختنق لأن السرداب يمنع الاختناق ، وسالك لم يختنق .. هل وصل للجرة وغدر به سورة وقتله خنقا ؟ ولكن كيف يخنقه وهو في أسفل البئر وسورة في أعلاه ؟!

فقال سالك : هذا ما أفكر فيه ! .. مات والدنا ، وحمل كثيرا من أسرار حياته الغامضة معه هيا للعمل ، واكتمي الأمر يا اختنا العزيزة حتى نتدبر شأننا ونستخرج كنز أبينا .

وأثناء النهار أتى رجال الشرطة رجال السلطان يسألون عن مالك وسالك، فذكرت لهم نازك مكان عملهما، فانقسم الرجال فريقين مجموعة ذهبت حيث يعمل مالك عند صانع الألياف والحبال فروة ، والأخرى إلى سالك الحداد العامل عند كروان الحداد ، وساقوهما إلى رئيسهما الزعيم جبرا ، ولما مثلا بين يديه قال لهما : أيها الأخوان علمنا بأن عندكم في البئر المهجورة كنزا وقد هلك فيها أحد الناس .

فذكر مالك قصة بوصة للزعيم جبرا ، فلما انتهى الشاب من القص قال جبرا : الملك الكبير مهتم بالأمر ، وهو مستعد للحصول على الكنز بأي ثمن ..

فقطع سالك كلام الزعيم فقال : يا سيدي الزعيم .. هذه البئر أمامكم فإذا كان فيها كنز ، كما تزعمون فخذوه فهي بئر عميقة ومهجورة .. وصدق أننا لم نخرج منها كنزا ولا ذهبا .. فهذا البيت أيضا أمامك .. فاذهبوا وتأكدوا بأنفسكم .. نحن قوم أحدنا يعمل حدادا والآخر عند جدال الحبال .. لو كان لدينا كنز لتزوجنا وتركنا العمل الشاق وعملنا لأنفسنا دكاكين كبيرة

فقال الزعيم جبرا : على رسلك أيها الشاب.. سنذهب ببعض الرجال وننظر هذه البئر .. لعلنا نخرج نحن كنزها إذا كنتما خائفين عن اقتحامها .

استسلم الشابان لأمر الزعيم جبرا وقال مالك: افعلوا ما شئتم.. فنحن في انتظاركم .

فرد الزعيم : صبرا .. سنذهب معا فهذه رغبة الملك الكبير .

وكما بدا للشابين كان الزعيم جبرا قد هيئ الرجال لهذا الشأن ؛ وكأنه كان ينتظر موافقتهما فحسب، فحزن الشابان لضياع الكنز وقال مالك لنفسه بحزن وأسف: إن كان لنا فيه رزق فلابد أنهم سيفشلون..وإن لم يكن لنا فيه رزق ونصيب فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ومثل هذا الكلام كان يدور في خلد سالك الشقيق الأصغر ، فسار الزعيم ومعه أعوانه ومعم مالك وسالك إلى البئر المهجورة ، فوجدوا الحبال ما زالت موجودة فيها ، لم يحاول الشابان رفعها ، فقام رجلان بتثبيت نفسيهما فيها ، وبدأ الآخرون يدلونهما قليلا قليلا، واصطف الآخرون يحدقون في البئر وإلى الرجلين الهابطين إلى قعرها ، وبعد وصول الرجل الذي يحمل المشعل إلى نصفه انطفأ نوره ، فأصبحا يعتمدان على نور الشمس والنهار ، ثم اشتد الظلام وأخذ الرجلان بالصراخ ويطلبون الخروج ، فأخرجوهما بسرعة ، فخرجا وهما يرتجفان من الرعب فصاح فيهما جبرا : ويلكما ما خطبكما ؟!

فقال أحدهم : النار اطفئت والظلام حالك .. وفي البئر أصوات غريبة ؛ كأنها أصوات جن وعفاريت تسكن في هذه البئر يا سيدي الزعيم .

فضحك الزعيم ورجاله وصاح فيهما : ما هذا الكلام الفارغ ؟!.. هذا جبن وخوف فلينزل غيرهما !

فقام آخران بالنزول ، ولما اقتربا من نصف البئر انطفأ الموقد، وأخذا بالصياح والصراخ ودب فيهما الخوف ، فأمر جبرا الرجال بالاستمرار في تدليتهما لقاع البئر، وزاد صراخهما حتى استقرا على أرض البئر، فلم يعد يسمع لهم صوت وخمد صراخهما ، فسحبوا الحبال فإذا هي خاوية من الرجلين ، فتبادل الجميع النظرات ثم قال جبرا لمالك : ما الأمر ؟! ألم تقل لي إن رجلين دخلا لإخراج جثة بوصة من قاع البئر ؟ كيف فعلتم ؟!

فأعاد مالك قصة بوصة وموته وإخراج جثته ، فأتوا بسدرة ثم ذهب سدرة وأتى بالرجلين الذين أخرجا جثة بوصة، فأتوا فنزلوا البئر وأخرجوا الرجلين فوجدوهما منهكين من الضرب

ويكادان يشرفان على الموت ، فعجب القوم من حالتهم، فأمر الزعيم بإعادتهم لبيوتهم ويقوم الطبيب على مداواتهم ، ثم خاطب الزعيم جبرا الرجلين اللذين اخرجا المضروبين قائلا : يوجد في هذه البئر سر .. كنز ما رأيكما بالنزول والبحث عنه ولكما ما شئتما ؟

فأظهرا الخوف والجزع ، وأنهما يخشيان من العفاريت التي تحمي الكنز والتعرض لهما بالصفع والضرب كما حصل مع هذين الرجلين ، وبعد تمنع رفض جبرا اعتذاراهما فربطوهما بالحبال ثم دلوهما مرة أخرى ، وبعد حين سمعا صراخهما وصياحهما فأخرجوها فكانا منهكين القوى ووجوههما صفراء من الخوف والرعب فقال الزعيم : هذا يؤكد أن بداخلها كنزا عظيما وأنها بئر مسحورة .. على كل حال سنفكر بالعودة مرة أخرى أيها الرجال .. فكوا هذه الحبال ، وخذوها معكم لا تبقوها هنا .. ففيها خطر على الشباب مالك وسالك .

فقال مالك : افعلوا ما شئتم أيها السادة .. ما تقولون بشراء هذه البيت ؟! .. فذلك الأمر يزعجنا ونخشى أن تؤذينا العفاريت بعدما انكشف سرها ؟

فقال جبرا ملوحا بالتهديد : تمهلا في الأمر وسوف نفكر بعرضكم .

أخذ جبرا رجاله وابتعد عن المنزل ، وهو في غيظ شديد من فشله، وعدم استيلائه على الكنز ، وكانت نازك وبعض الجارات يتابعن الأمر عن بعد ، فلما عادوا قال مالك لهنّ : إنهم يبحثون عن كنز مخبوءة في البئر؛ ولكن الجن والعفاريت منعتهم من الوصول إليه .

وقص على مسامع الجميع ما حصل وحدث للرجال الأربعة الذي نزلوا في جوف البئر المهجورة ، ولما انصرف الناس وجلا من حديث الجن والضرب والصفع والخنق ، قال مالك : أمر هذه البئر محير وغريب .. فمن ينزل للاستيلاء على الكنز يتعرض للأذى! ومن ينزل للإنقاذ لا يصيبه شيء؟! .. بوصة دخل لأخذ الكنز فمات مخنوقا بداخلها ؛ لأنه لم يجد من ينقذه ويخرجه فهلك ، فلما قام الرجلان بإخراجه لم يصبهما شيء .. أنت يا سالك دخلت البئر للمعرفة فلم يصيبوك بشيء .. فلما دخل رجلا الزعيم جبرا للنيل من الكنز تعرضا للضرب واللطم، وكادا أن يموتا ، فجاء الرجلان لأنقاذهما فلم يصبهما ضرر ، فلما أرغما على سرقة الكنز تعرضا للأذى

فقال سالك: إنني أتذكر الكلام الذي سمعناه من أبي ليلة موته في تلك الليلة الحزينة.. لقد ذكر الجن وعلاقته بهم.. وها هؤلاء القوم يتحدثون عن العفاريت والجن.. فلابد أن والدنا قطبة بن سنان يعلم الخطر الذي قد نتعرض له أو يتعرض له البئر فطلب من أصدقائه الجآن أن يحموا البئر وهذا الكنز .. الليلة بإذن الله سندخل البئر يا مالك نأخذ المشعل، ونمشى حتى الصخرة، ونحفر ونخرج الجرة ونخبئها حتى يأتي الرجل الذي سوف يتزوج نازك ، كما رسم لنا الأب الميت .. لابد من المغامرة أيها الاخوة قبل أن نفقد الجرة .

فقال مالك : أرى أن ننتظر حتى تخف عيون الفضوليين وينسى الناس أمر هذه البئر .

فقالت نازك : بل سيزداد مجيء الطامعين إليها ، فلنعجل بالأمر ، كما يقول سالك، وبما أن الأمر وصل للحاكم ورجال البلاد فلن يكفوا عن هذه البئر وعن هذا الكنز .

فقال مالك: يا اخوتي لو أخرجنا الذهب فلن نستفيد منه في هذه المدينة ، فكيف سنبيعه؟!.. فلنترك الجرة في حماية الجن .. والصندوقان أنتم تعرفان أمرهما .. فزوج نازك لم يأت بعد ..

فقال سالك : يا مالك! ولكن الوالد طلب منا إخراجها بعد موته ، ولم يطلب منا الانتظار.. فلنعجل بإخراجها ونتوكل على الله ..



كنز قطبة

وبعد تشاور وتحاور وافق مالك على إخراج الجرة ، فبعد نصف الليل حمل سالك الفانوس ، وحمل مالك الفأس، وتبعتهم نازك، فدخلوا من جوف الشجرة ونزلوا الدرجات ، وكان سالك يتقدمهم فوصلوا للسرداب ، وحنوا قامتهم ، ومشوا ببطء داخله حتى وصلوا فتحة البئر ، وتدلى سالك وتناول الفانوس والفأس من مالك الذي تدلى بدوره ثم نازك ، وبدأ الحفر تحت الصخرة ، وبعد ساعة استطاعوا رفع الصخرة جانبا ، وحفروا قليلا من التراب وأخرجوا الجرة الصغيرة ، ثم أحالوا التراب مكانه ثم أعادوا الصخرة مكانها، ولقد كانت أعصابهم مشدودة ومتوترة ، وصعدت نازك وتناولت الفانوس والفأس ثم الجرة ، وصعد مالك وتبعه سالك ، وسارت نازك أمامهم وعندما اقتربوا من جوف الشجرة سمعوا أصواتا في المنزل فقالت نازك : تمهلوا .. حتى أرى ماذا يريد هؤلاء الرجال ؟!

فقال سالك : بل أنا أذهب .. انتظروا هنا لا تخرجون وإذا اضطررتم للخروج فدعوا الجرة وتقدم نازكا ومالكا وخرج متسللا ، وما شعر الرجال إلا وسالكا بينهم ، وهو يقول: من أنتم ؟!

رجف الرجال وصاحوا معا : ويلك من أين أتيت ؟

فقال : هربنا لبيت خالتنا بعدما هبط الليل ثم احتاجت اختنا متاعا فجئت آخذه فمن أنتم ؟!

كانوا خمسة رجال ،ولولا شدة الظلام لرأوا حال سالك من التراب والعرق فرد أحدهم قائلا : لنا وقت طويل نبحث عنكم .

تظاهر سالك بالضحك الخفيف وقال : لماذا تبحثون عنا ؟ الحبال وقد أخذتموها

فقال رئيسهم : الملك الكبير يرغب برؤية البئر المسحورة .. فاستعدوا لزيارته ولا تتغيبوا عن المنزل .

فقال سالك بهدوء أعصاب ومتعجبا : الملك ! ملك البلاد يريد زيارتنا في هذا البيت .. يا مرحبا به .

فقال رئيسهم : نعم، الملك عماد بن واد بنفسه .. استعدوا ولا تتركوا البيت .. في الصباح بعد ساعات يسيرة سيكون هنا .

وساق الرئيس جنده وانصرف ، فنزل سالك على اخوته وروى لهما الخبر فقال مالك : أمر هذا الكنز محير.. الملك مهتم به بنفسه.. ما العمل أيها الناس؟! يظهر لي أن هذا الكنز سيجر علينا المتاعب والمشاكل .. فمنذ وفاة والدنا قطبة ونحن في هم وقلق وترقب .

فردت نازك قائلة : كانت حياة والدنا غريبة الأطوار شديدة الغموض ، وذهب وتركنا في الحيرة والجهل ..وقد نهلك ونحن في حيرة أيضا .. فما يجب أن نعمل الآن ؟

فقال سالك : رأسي يكاد أن يتصدع مما أسمع وما يحصل أمام أعيننا ، ما هذا الاهتمام الكبير بهذه البئر؟! كأنه مال لهم وفي بيوتهم .. وكيف وصل لعلمهم أن بها كنزا؟! نحن لم نتحدث لأحد .. فلعل أحدنا أخطأ وتحدث أمام آخرين.. تذكروا يا أخوان لعله أفشى السر من غير شعور

فأقسم الجميع أنهم كتموا السر، ولم يتفوهوا به أمام الناس .. والسؤال المحير على الشفاه كيف عرف بوصة بكنز البئر؟! .. هل سمعهم يتحدثون بذلك ؟!

فقالت نازك : إذا نزلوا البئر صباحا ، ولم يجدوا شيئا ، ولاحظوا الحفر فسيشكون بنا .

فاقترح أحدهم دلق بعض الماء في البئر لإخفاء حفرهم وأقدامهم ، ورأى أن يفعلوا ذلك قبل بزوغ الشمس من مشرقها ، وتابع قائلا : ندخله عن طريق السرداب ؛ لأننا لو قذفناه من باب البئر قد يكشف امرنا.. وأمرنا إلى الله.. أو نأخذ الصندوقين، وبعض الذهب ، ونخفيه ، ونعيد الجرة تحت الصخرة ؛ فإن وصلوا للجرة نكون أخذنا ما استطعنا ، ولن يكتشفوا ذلك

فقالت نازك : قد يفتشون البيت.. فاقترح أن نحفر حفرة للجرة في هذا السرداب وندلك الماء في قاع البئر لتختفي آثار الحفر والأرجل .. فالوصول لهذا السرداب ليس سهلا .. فبما أن الأمر وصل للملك ، فلابد أن أمر هذا الكنز خطير ومهم، وهناك غيرنا يعرف به .

نفذوا الاقتراح وعادوا للبيت ، يزيلون عن أنفسهم التراب والطين والعرق ، ولما أشرقت

الشمس الصفراء هيئوا أنفسهم لاستقبال الملك ، فارتدوا أحسن ثيابهم، ولما أضحت الشمس أقبل الملك وبرفقته الزعيم جبرا وعددا من الأجناد ، وأحيط البيت والبستان الكبير بالفرسان ورحب الاخوة الثلاثة بصاحب الملك والسلطان وقبلوا يديه فشكرهم ، وقال مطمئنا لهم : لا تخشوا شيئا أيها الشباب الطيبون لقد علمت بأن في هذه البئر المهجورة في بيتكم كنزا ثمينا .. وقد علمت بما جرى لابن عمكم بوصة، وكيف هلك عندما حاول استخراج هذا الكنز؟ وعلمت بما حصل لرجال الزعيم جبرا والأجيرين ، فتبين لنا أن هذه البئر مسحورة أو محفوظة فجئت بنفسي إليكم لنستخرج هذا الكنز الثمين فما قولكم ؟

ابتسم مالك بتهيب وقال : يا مولانا السلطان مرحبا بك في بيتنا ، ونحن ولابد أنهم ذكروا لك أننا لا علم لنا بكنز في هذه البئر ، هم اخبرونا بوجود الكنز، ونحن بشوق لرؤيته وما هي إلا بئر مهجورة ، ولما مات والدنا قطبة بن سنان فكرنا ـ نحن الاخوة ـ باستصلاح هذا البستان بزرع أرضه .. والزرع كما تعلمون يا مولانا يحتاج لماء باستمرار ففكرنا من الاستفادة من هذه البئر المهجور ، فأنا أعمل عند صانع الحبال المعروف فروة ، فاشتريت منه حبلا لتكون رشا للبئر ، وأخي سالك يعمل عند المعلم الحداد كروان فجلب لنا فأسا لنحرث بها الأرض ، فظهر لنا ابن عمنا بوصة فقصصنا عليه الحال، ثم أتى خفية عنا ونزل في البئر ومات مخنوقا ، وقالوا فيها بعد من العفاريت ، ونحن قلنا للزعيم جبرا أن يتصرف بالبئر كما يشاء ، ويبحث عن الكنز المزعوم بدون اعتراض ، بل عرضنا عليه أن نبيعه البيت لنبتعد عن الجن والعفاريت حتى أننا هربنا الليلة وخفنا من المبيت في البيت ..

ضحك الملك وقال : هذا الكلام أكثره وصل مسامعنا .. فظهر لنا أن هذه البئر لا يستطيع أحد دخلوها لأخذ الكنز ؛ فإذا كانت هذه الكنوز محفوظة باسم أحد فلربما تكونون أنتم ، فإذا نزل أحدكم فقد له يعترضه حرس البئر ؟!

فهم الشباب غاية الملك فقال سالك : أنا سأنزل ، وسأحمل الفانوس، وينزل معي رجل من رجالكم؛ فإذا هلكت يا ملك الزمان ، فأوصيك على أخي مالك وأختي نازك .

فشجعه الملك وقال : لا تخف يا بني! .. ولن يحدث لك شيئا .. هيا بنا لنرى هذه البئر .

احضر رجال جبرا الحبال والفأس والمصباح ، وتجمعوا حول البئر ، وتدلى سالك بأحد الحبال وهو يحمل القنديل، ورجل آخر بالفأس حتى وصلوا لقاع البئر، ودخلت أقدامهم في الطين والماء، ومكثا ساعة وهم يسمعون صراخا من الأعلى بين الحين والآخر من الرجال في أعلى البئر ثم أخرجوهما ، ثم قال رجل الملك : لم أجد شيئا يا مولاي سوى الماء والطين كما ترونه على أرجلنا، وصخرة حفرنا حولها وتحتها حتى خلعناها فلم نجد تحتها شيئا أيضا .

فقال الملك بدهشة : ماء.. أمر غريب ! من أين أتى الماء ؟! غريب كل شيء حدث هنا غريب على كل حال فعلت ما عليك يا سالك ، أشكرك على شجاعتك ، الأمر غامض.. فعلى كل حال هذا الكنز هو لكما .. ولابد أن تصلا إليه ، ومرا على الزعيم جبرا ليكافئكما عن هذا الإزعاج والخوف الذي أصابكم .

ثم أخذ الملك أعوانه وانصرف وهو حائر شاك ، وفزع الناس على بيت قطبة يسمعون الحكاية ولمعرفة سبب تجمع هؤلاء العساكر حول البيت.. فأعاد مالك على مسامعهم قصة الكنز ..وأن الملك عماد بن واد مهتم بأمره ، وجاء بنفسه ليشرف على إخراجه ولكنهم للأسف لم يجدوا الكنز المزعوم .

أرسل الملك بعد أيام يسيرة من هذه الحادثة يخطب نازكا زوجة له، فتعجب الاخوة من ذلك الطلب.. وتذكروا وصية أبيهم .. فاعتذروا للوسيط ، فطلبهم الملك فسار إليه الأخوان وحدثوه بوصية والدهم بشأن زواجها، فلم يقتنع فبعث وراء الفتاة وعرض نفسه عليها، فذكرت له قصة قطبة ، فصرفهم ، وتعجب الناس والفقراء خاصة من عدم قبول نازك بالزواج من ملك البلاد ، وتقدم إليها شباب في سنها يطلبون يدها ، فرفضتهم لنفس السبب حتى أن ابن عم لها طلبها من اخوتها فاعتذروا له وذكروا له وصية أبيهم ، ولما هدأت العاصفة ، وعاد الهدوء للبيت ذهب الاخوة للسرداب، وعلى ضوء المشعل اخرجوا الجرة الفخارية ، وإلى الغرفة التي خرجت فيها روح قطبة ، وعند السحر ذكروا اسم الرحمن بعد أن تأكدوا من عدم وجود

عيون الرقباء والمتلصصين ، وفتحوا الجرة فتساقط منها الذهب واللؤلؤ والفضة ، ثم اخرجوا الصندوقين فأخذ مالك الصندوق الأحمر ، وأخذ سالك صندوقه الأخضر ، ونازك تنظر إليهما بصمت وتفكير ، واقتسما المال بينهما بالتساوي بدون أن تأخذ نازك منه شيئا، ثم أعادوا الجرة للسرداب ، وبدءا يفكران كيف يتصرفان بالذهب بدون أن يقعا في قبضة الملك؟ ربما لو يكشف أمرهما فسوف يتعرضان للموت والأذى أمام كل الناس ، فما كان أمامهما إلا الرحيل من هذه المدينة وبيع المنزل الذي بناه قطبة ، ولكن كان يعيقهما عن تنفيذ هذا الاقتراح عدم إتيان زوج نازك المنتظر ، وبعد مرور سنة على وفاة قطبة أتاهم رجل غريب أعور العين مقطوع الأذن سليط اللسان قصير القامة دخل البيت عليهم بغير استئذان ، فما وجدت نازك نفسها إلا وهو عندها يتغزل بها بأقبح الألفاظ ، ويتوعدها بالضرب والإذلال ، ولما زالت عنها الدهشة والاستهجان صاحت به : يا وقح ! كيف تدخل البيت بغير إذن يا أقبح الرجال ؟! وتقول مثل هذه الأقوال القبيحة .. وليس عندي في البيت رجال

فراح يضحك بصوت يجلجل في حجرات البيت ثم قال : اسكتي يا ابنة قطبة أنا زوجك زهمان لقد خطبتك من أبيك وأنت صغيرة في المهد لا تحسني غير الرضاع .. فمتى يرجع الأخوان مالك وسالك ؟ اللذان طال بهما الانتظار لفتح الصناديق ومعرفة ما فيها من الأسرار .. رحمك الله يا قطبة فهذه عروس تفتن الغلمان فكيف بكهل مثل زهمان ؟! .. متى يعود الأخوان ؟ لابد أن النار تسري في دمائهما ويقولان متى يأتي عروس نازك الجميلة الموعود بزواجها من أبينا قطبة حتى يتركا البلد ويهجراه للتمتع بثروة قطبة بن سنان .. مساكين لا يعلمون ما قدر لهما عند الملك الديان !

فلما استوعبت نازك كلامه وصمت عن الكلام قالت : يا هذا آنت زوجي؟! الرجل الذي حدثني أبي عنه .. أأنت زوجي الذي طلب مني أبي أن انتظرك لأكون لك حليلة ؟! .

فضحك زهمان القبيح ضحكا عاليا وقال: نعم ، نعم ، أيتها الغزالة الصغيرة .. أنا خطيبك منذ عهد بعيد ، وسأكون زوجك من قريب .. أين اخوتك ؟ .

وصار يشتمهم ويلعنهم حتى دب الخوف في قلبها من قبح لسانه ، وقالت وهي ترجف من الخوف : هما في العمل .. أحدهما يعمل عند صانع الحبال فروة ، والآخر يعمل عند الحداد كروان .

فصرخ فيها قائلا : جهزي أفضل الطعام ، سأذهب وأحضرهما لنأكل الطعام، ونتعرف على أولاد قطبة بن سنان .

وغادرها وهو يقذفها بسوء الكلام والألقاب ، فأخذت بالبكاء على هذا الزوج ذي اللسان البذيء الوقح ، وتفكر كيف ستقضي حياتها عند هذا الرجل ؟! وكانت تتذكر وصية أبيها قبل عام فتكف عن البكاء والشكوى ، وتعلم أن عليها بالرضا والصبر، وأنها في اختبار وامتحان .

ذهب زهمان إلى مكان عمل مالك ، ودخل المكان وهو يسب ويلعن ويصيح على مالك بلفظ قبيح ومما قال : يا مالك يا هالك لي سنوات أبحث عنك ، وأسال عنك هنا وهناك .. فأنا زهمان خطيب أختك نازك.. أأصل الدار ولا أجدك في الانتظار.. فيا ويحك من لساني ذي الكلام القاني يا هالك بن هالك ! .

أدرك مالك المدهوش من هجوم الرجل الغريب عليه أن هذا الرجل القبيح اللسان والصورة هو الرجل الذي هم في انتظاره ؛ ليكون بعلا لأختهم نازك.. فحزن وأسف لاختيار أبيه لهذه الرجل البذيء وركبه الغم ، وأخذ بالاعتذار لصاحب الحانوت من سلاطة لسان نسيبهم القادم فقال : يا إخوان لا تغضبوا على صاحبنا زهمان وأعتذر لكم عن سوء كلامه ، وأمسك بيد زهمان وقال : هيا أيها الرجل فضحتنا أمام الخلق لا أدري كيف ستعيش معك نازك المسكينة ؟

فصاح زهمان قائلا : خزاك الله يا مالك ! أما أوصاك قطبة بحسن الأدب معي والكلام ؟

فرد مالك بحدة : لولا هذه الوصية يا رجل لرأيت مني العجب .. هيا للبيت ولا تكثر الكلام والشتم .

فقال زهمان سليط اللسان : فلنذهب لإحضار سالك المنافق يا ابن قطبة .

وفي متجر كروان الحداد أعاد زهمان الكرة بالسب والقذف والتحقير مما أزعج سالك ومن كان

معه في المكان ، وقال زهمان : يا نجس ! .. يا قليل الأخلاق يا ابن قطبة بن سنان أأصل بيتكم وما تكون في استقبالي؟ وما لقيتك في الانتظار ! يا مهان يا جبان لا تنظر اليّ شذرا مذرا أنا زهمان خطيب أختك نازك يا بن الكرام .

استمع سالك لقبيح كلام زهمان على مضض وصبر، ولم يتكلم وتذكر وصية قطبة لهم بالصبر على أذى ولسان هذا الرجل الموعود ، واعتذر للمعلم كروان والحدادين الآخرين من سوء لسان ضيفه ، وساروا الثلاثة للبيت فوجدوا نازكا قد صنعت الطعام من بين دموعها الغزيرة مما سمعت من قبيح كلام ممن سيكون بعلا لها ، وصبروا على هذا الرجل الغريب وحثوا أختهم على الرضا به فهو اختيار الوالد، وأعطاهم خطاب قطبة الذي ذكره لهم أبوهم قبل موته بساعات ، وكان فيه "لقد وافقت على زواج ابنتي نازك منك يا ولدي" وعليه اسم قطبة بن سنان بحبر ذهبي ، وأخبروه أن والدهم أوصاهم به خيرا ، وأوصاهم على الموافقة على طلبه وتزويجه لأختهم ، وبعد شهر أبدى الضيف رغبته بالزواج من نازك أمام أقرباء وجيران قطبة ، فعقدوا لها الزواج على الضيف الغريب الأطوار خضوعا لوصية قطبة لأولاده عند موته، فحزنت عليها الصديقات والقريبات، وأسف الأصحاب والأقارب من زواجها من هذا الرجل الغريب القبيح، فصبرت نفسها وقالت: إن والدها أوصاها بالزواج منه ، وعليها الرضا به مهما كان بشعا وقبيحا ، وإن اخوتها لم يجبروها على الزواج منه .

وعلم الملك عماد بن واد بزواج نازك من الغريب زهمان ، فاستدعاه للقصر ، فلما رآه تعجب من هيئته وصفته ، وحزن على نازك الصغيرة الجميلة أن تتزوج من مثل هذا الرجل القبيح ، فحاول إغراءه بالمال ليترك الفتاة الطيبة وينفصل عنها ، فأعاد الاخوة على مسامع الملك والحاشية وصية قطبة الغريبة والعجيبة ، فقام أحد الوزراء بتحريض الملك على الفتك به وتخليصها منه ، فابتسم زهمان وقال بصوت عال : آه!.. منك يا وزير السوء .. تحرض الملك عماد بن واد على الفتك بي ما بيني وبينك يا عدو الله ! وهل لأنني قبيح الخلق والخلق لا أتزوج مثل هذه الحسناء؟! .. فأنت يا وزير السوء لا تصلح بالجلوس في حضرة الملوك ..

استشاط الوزير غضبا ونارا لهذا الكلام الشديد ، ونهض وسل الحسام من غمده ، وأخذ بالتهديد والوعيد وهو يقول : لولا عظمة السلطان لأعدمتك الحياة يا نذل يا جبان يا زهمان الخسيس يا قليل الحياء يا جبان .

قهقهه زهمان عاليا وقال : لو أنك تستحي حقا كما تدعى يا وزير السوء ، وتحترم السلطان ما أخرجت سيفك بحضرته دون إذنه ، وهددتني به وأنا بحضرة الملك وجواره.. فأنا أتيت هنا بناء على دعوته ورغبته.. وهذه المرأة نصيبي وقدري، فكيف تعترض على إرادة الرحمن يا رعديد؟

استشاط الوزير وأكثر الحاشية غضبا من ألفاظ زهمان الغريب ، فقال الملك بحدة : كفى كفى أيها الرجلان .. إنكما في الحقيقة وقحان ، ولا تحترمان مجلس السلطان .. فالوزير اخطأ بامتشاق الحسام بحضرتنا ودون تصريح منا.. وأنت يا غريب أخطأت بالتطاول علينا وعدم لزوم الصمت والاحترام بحضرتنا فلابد من تأديبك لتكون عبرة لغيرك .

تقدم مالك سريعا وقبل قدمي السلطان طالبا العفو عن زهمان صاحب اللسان السليط ، وترجى الملك أن يعفو عن صهره الغريب ، وفعل سالك مثل مالك ، وتقدمت الفتاة نازك تتشفع بزوجها أيضا فقال الملك : حسنا قبلت شفاعتكم بعدم فصل رأسه عن جسده .. خذوه للسجن بضعة أيام ليتأدب في الكلام .

حزن الاخوة لما حل بزهمان ، وتوسلوا لولي الأمر أن يصفح عنه ليتزوج أختهم ويغادر لبلاده ويرتاحوا منه فصرفهم بغضب قائلا لهم : انصرفوا قبل أن أغضب عليكم .. ولا تكثروا من الكلام ؛ فلولا محبة الرحمن لأهلكتكم جميعا .. لقد طلبتها منكم فرفضتم ، ورضيتم بهذا الأجرب .. بقولكم أبونا وصانا .. لولا كراهتي للظلم والعدوان لأخرجتكم من الديار .. اغربوا عني .

فبكوا أمام السلطان وقال زهمان : الظلم ظلمات ، ومرتعه وخيم ، والعدل والإحسان فضله عظيم وذكره دائم بين الناس .. ما بيني وبينك لتأمر بحبسي وترفض شفاعة هؤلاء بي .. ؟

فغضب الملك وقال : أين الجند ؟ أما زال هذا الرجل أمامي ؟ اصمت أيها القذر الوقح! .. أين جبرا ؟ أين الحرس؟ ..وقبل أن ينفذ الجند أمر الاعتقال دخل الحاجب برسالة مهمة وهو يقول: يا مولاي العظيم! رسالة لك من الملك طهمان بن زلمان!

ساق الحرس زهمان والاخوة الثلاثة، وما كادوا يصلون لباب القصر حتى طلبهم الملك من جديد لديوانه ، فخاف الاخوة الثلاثة على أنفسهم وعلى ضيفهم ، وأن الملك أراد أن يفتك بزهمان وبهم ، ولما وقف الجميع أمام السلطان مرة ثانية كان الملك ما زال يمسك كتابا في احدى يديه وبين يديه رسول ، فلما وقفوا أمامه قال الملك وهو ينظر لزهمان : يا زهمان ما علاقتك بالملك طهمان ؟! .. وهذا ملك كبير يحكم ممالك من الإنس والجن .

تبسم زهمان وقال بصوت ناعم: صديقي وصاحبي .. تعرفت عليه منذ زمن فهو نعم الصديق والأخ يا ملك عماد .

فقال الملك بحيرة : الذي يحيرني أنه كيف علم أنك بحضرتي؟! وقد طلب مني تركك وعدم التعرض لك حتى تخرج من البلاد .. فأمرك يا زهمان خطير وغريب ومريب !.

فقال زهمان: أنا جئت من مملكة طهمان بن زلمان لأتزوج هذه الفتاة ..فأنا جندي من جنود طهمان

فقال الملك : اخرج من القصر سالما راشدا أنت وجماعتك .. وهنيئا لك الزواج من هذه الفتاة الطيبة .. وهنيئا لك أيتها الفتاة بهذا الزواج .. فزوجك ذو شأن كبير في قومه ؛ ولكنه متنكر ، والله اعلم .

فقال زهمان لرسول الملك طهمان : اشكر الملك عني أيها الرسول ، فهو لا يغفل عن جندي من جنوده ، وإن كان في مثل خلقي وأخلاقي ، وقل له أنا بخير ، وقد نكحت ابنة قطبة بن سنان وأعيش في كنف السلطان عماد بن واد .

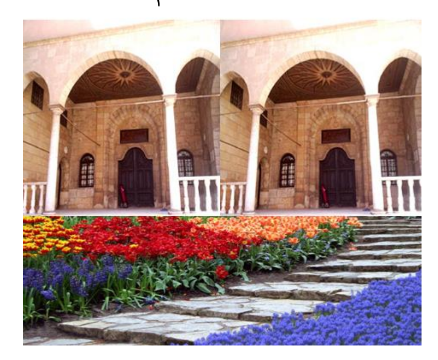
قفل الاخوة الثلاثة وزهمان للبيت، وهم أكثر احتراما لزهمان ، وشعروا بأنه رجل له سلطة وعشيرة عند الملك طهمان، فهو لم يخش وزير عماد ، ولا عماد نفسه ، وقد شتم الوزير بدون خوف أو وجل ، وحاول زهمان تشجيعهم على فتح صناديق قطبة ، فرفضوا وقالوا لم يحن الوقت

بعد ، وقد حاول زهمان أخذ الحزام من زوجته نازك فرفضت بشدة ، وصبر الاخوة على أذى زهمان حتى أعلمهم برغبته بأخذ زوجته والرحيل من هذه البلاد، فاشتروا جملا وهودجا لأختهم نازك ، وزودوهما بأفضل الهدايا والطعام والماء والمال ، وودعوا أختهم وداعا حارا ، كله دموع وبكاء على الفراق الصعب ، فقد اعتادوا على مقامها بينهم ، ومشوا معهم إلى آخر حدود البلد ، ولما حان ساعة الفراق بكت عيونهم بكاء قويا ، وقالوا لزهمان : يا زهمان لا تنسانا من الزيارات رغم شراستك وطول لسانك فقد اندمجنا معك ومع أخلاقك .. فنحن نوصيك على هذه المسكينة في بلاد لا نعرفها ، فهي أمانة في عنقك ، فهي وحيدة لا أهل لها إلا أنت ، ولا أصدقاء لها إلا أنت .

فقال زهمان بجد : اطمئنوا هي في حصن وأمان ، وقد نزوركم في كل عام مرة .

فقال سالك : ونحن كيف نزور اختنا ؟

فقال زهمان : لا تفكروا بذلك .. فعندما نشتاق إليكم نأتي إليكم .. فكروا بأحلامكم وأموالكم وأمامكم أهوال وأهوال .. فاحذروا يا أبناء قطبة أن تخالفوا وصية أبيكم وتفتحوا صناديق قطبة قبل العام .. وداعا أيها الأصدقاء .. لا تنسوا صهركم زهمان .



سر الصندوق

قفل الأخوان للبيت منهكين الأبدان ، يغمرهم الحزن والضيق على فراق حبيبتهم نازك، ولما ألقوا بأنفسهم على الفراش ، وقد خلت الدار من نازك وزهمان، قال مالك : كان الله في عون أختنا.. لا نعلم إلى أي البلاد ساقها.. آه ! لولا وصية قطبة ما أخذها هذا الرجل الغريب بل المجهول !

فقال سالك : يا رجل لولا وصية الوالد لتزوجت منذ عهد .. الملك خطبها وطلبها للزواج ؛ ولكن هذا الزهمان لابد أن له حكاية وقصة مع والدنا قطبة ..فهو جندي عند الملك طهمان الذي كما سمعنا يحكم قبائل من الإنس والجان .. أين يوجد هذا الملك ؟!

فقال مالك بامتعاض : علينا أن ننتظر سنة ؛ لنعرف سرا آخر من أسرار قطبة .. لقد انشغل القلب بمعرفة ما في هذه الصناديق البراقة تذكرت المال الذي ورثناه عن قطبة ماذا سنفعل به ؟ ما استطعنا أن نفيد نازكا منه بشيء ؟!

فقال سالك : كنا في راحة بال قبل موت قطبة بن سنان .. منذ هلك وأنا مشغول بحياته وأسراره ما علاقته بزهمان وطهمان والإنس والجان؟! أنسيت عفاريت البئر وموت بوصة واختناق الرجال ؟!

فقال مالك : هذه الأسرار مخزونة في الصناديق .. وسنعرف قصة قطبة بن سنان منها.. يا أخي لم نعرف اسم أبي زهمان ، ولا قومه وأهله ، ولا موقع بلاده في هذه الأرض .

فضحك سالك وقال: أما سألته عن ذلك رغم مكثه بيننا خمسة أشهر كأنها الدهر؟!

فعاد مالك يقول: نحن خضعنا لإرادة قطبة ، وانشغالنا بأمر الصناديق والجرة وزواج نازك لهذا المجهول أطار منا الذهن والافتكار.. فاستسلمنا وما حاولنا معرفة هذا الرجل الغريب وكشف أسراره ، فهو رجل فطن ذكي ..ولعله متنكر كما قال له الملك عماد .

فقال سالك: معك حق يا أخي لننتظر حتى تمضي السنة .. والآن فما رأيك بالزواج؟ فنبحث لك عن زوجة بين الأقارب والجيران ونزوجك.. فقد كبرت يا مالك! فأنت قد بلغت

الثلاثين من العمر .

تضاحك مالك وقال : قبل موت قطبة كنت أفكر بذلك.. أما الآن فلسوف اصبر حتى أعرف سر الصندوق ، ثم أفكر بالزواج .

فقال سالك : كما تشاء ، ولكننا نحتاج لامرأة في البيت.. تعد لنا الطعام ..وتعتني بالبستان .. ونحن لا نستطيع إدخال غريب للبيت حتى لا يطلع على سرنا وحالنا ، ولكن لابد من خادم للبيت .

فرد مالك : نحن حقا بحاجة لخادم وحارس تزوج أنت يا سالك .

فقال سالك : وأنا مثلك قلق من أمر هذه الصناديق .. فلنتعاون إذن على خدمة البيت، يعود أحدنا مبكرا قبل الآخر لإعداد الطعام وشراء الحاجات من السوق ، وفي اليوم التالي يعود الآخر وهكذا كل واحد يبكر بالعودة يوما حتى تنقضي أطول سنة في حياتنا .. ونرى ما خبأ لنا والدنا قطبة في هذه الصناديق .. وعلينا صباحا قبل الذهاب للعمل بأن نسقي سوية الأشجار والزرع ونعتني بالأرض .

اتفق الأخوان على هذا الترتيب لإدارة شؤون البيت ، وتدبير شأنهما بنفسيهما ، وعدم إدخال غريب عليهما البيت حتى تنقضي هذه السنة ، فقاما بتغيير أقفال البيت وتجديدها كلها .

مضت الأيام واقترب الموعد المنتظر لمعرفة أسرار الصندوقين اللذين ورثاهما عن أبيهما ؛ ولكن كما تعلمون الانتظار شاق على النفس ، والفضول دافع قوي للإنسان لمخالفة عقله، والشيطان له دوره .. أمام هذه الأشياء ضعف مالك، فذات يوم عاد مبكرا للبيت قبل أخيه ، فالدور في إعداد الطعام والطهي عليه ، وكذلك خدمة المنزل ، فحدثته نفسه بعد أن أعد الأشياء بالنظر إلى صندوقه وتفقده وتنظيفه ، وكان من عادته أن يتفقده في مخبئه الذي دفنه فيه بين الحين والآخر، فأمام حديث النفس ورغبتها ضعف ونسي قطبة وزهمان ونازكا وسالكا ونسي الموعد المنتظر ، وبدأ يعبث بالقفل والمفتاح وبدون شعور كما يقولون فتح القفل فتك تكة واحدة ثم ثانية ثم ثالثة ؛ فإذا بالصندوق ينفتح ، فوجد بطاقة من ورق مكتوب عليها " يا خسارة الأيام

بعد هذا الانتظار!" قرأ الجملة وما فكر فيها فرفعها ، فكانت تحتها بطاقة أخرى مكتوب عليها " الصبر ثمين وجزاؤه ثمين " قرأها ورفعها ، فوجد أخرى أسفل منها "العجلة فيها الندامة" فرفعها ، فوجد تحتها كتابا صغير الحجم،لكنه كثيف مكتوب عليه"أنا كتاب أسرار العلاج والشفاء ، ما من مرض وداء إلا له في داخلي دواء وشفاء إلا الموت والهرم "

قلب أوراق الكتاب لا شيء فيها اختفت منها الكتابة ، فأحس بغضب وغيض ، فوجد تحت الكتاب بطاقة أخرى مكتوب فيها "هذا كتاب له موعد ينتفع به مالكه، ومن خالف الموعد خاب وخسر ، ولا تعود الكتابة إليه إلا بإذن صاحب باب السر "

لما انتهى مالك من القراءة أدرك أنه ارتكب جريمة ، وأنه خسر هذا الكنز، فأصابه الندم والحسرة والحيرة ، وبعد تفكير قال : سأخفي الأمر عن سالك حتى أرى ما في صندوقه من أسرار ، ثم أقص الأمر عليه .



كان سالك قد أحس وشعر بأن أخيه قد تغير ، وحاله هائجة، وطبعه عجيب، وحاول أن يكون مع أخيه ، فما استطاع إلى أن حان موعد فتح الصناديق ، وفي الليلة التي اتفقا على فتح الصناديق فيها ، قال مالك لأخيه : افتح أنت أولا حتى نرى ما في صندوقك الأخضر .

أخرج سالك صندوقه الأخضر وفتحه تكة اثنتان ثلاث ، ثم انفتح الصندوق الأخضر ، فوجدوا ورقة كتب عليها "ما أحلى الفوز والنصر بعد الانتظار والصبر!" فلما رفعها ظهرت ورقة ثانية كتب عليها "الصبر ثمين وجزاءه ثمين" ، ثم ثالثة عليها "في الصبر والأناة السلامة" ؛ فإذا غمد صغير وبداخله سيف، وقد كتب على الغمد "هذا سيف من سيوف ملوك الجآن .. صنعه العبد عنان للملك "، وعلى الجهة الثانية كتب " من ملك هذا السيف لا يهزم أبدا " ، فاستل سالك السيف من غمده الذهبي؛ فإذا هو يلمع في الظلام كأنه شمس النهار ، وعليه أزرار فضغط على زر منها ؛ فإذا السيف يطول والزر الثاني زاد الطول وهكذا كل زر

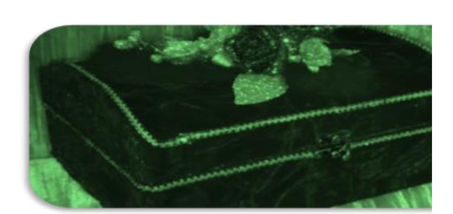
يطول السيف حتى يصبح طوله ثلاثة أذرع ، فهزه سالك بيده فسمع له صفيرا ؛ كأنه صفير وزعيق الجآن ، فعاد وضغط على الأزرار فكلما يضغط زرا يقصر طوله حتى عاد لغمده الصغير وقال معجبا : هائل عظيم هذا السيف إنه قوة كبيرة لنا !

ووجد تحت الغمد في الصندوق بطاقة كتب عليها "يا صاحب السيف .. هنيئا لك هذا السيف فكن شجاعا غير هياب للمنايا وطول الرماح .. واحفظه من السرقة والضياع "

فصاح سالك عندئذ من الفرح وقال : الله ! الله ! .. الآن يستطيع الفتى أن يتحدى الأشرار والظلام .. هذا كنز ثمين يا مالك بن قطبة .. هيا أرنا ما في صندوقك الأحمر .

كان مالك يبكي ويبكي فقال سالك عندما سمع بكاء أخيه ، وقد انتبه إليه، وقد وضع الغمد على خصره : مالك أخي الحبيب .. ما هذا البكاء في هذا اليوم السعيد؟! .. هل فتحت الصندوق قبل اليوم ؟!

بعدما خفف عن أخيه الهم ، وسمع اعترافه وعدم صبره إلى هذا اليوم ، هدأ من روعه وقلقه وقال : لا بأس عليك يا ابن أمي وأبي .. هذا السيف لنا جميعا ندافع به عن أنفسنا ضد من يعادينا ويحاول سلب مالنا .. هون عليك .. دعني انظر في صندوقك .



أعطاه مالك الصندوق ، ففتحه وقرأ الأوراق التي بداخله ثم قال : الحق أننا فقدنا شيئا جميلا وباهرا ، وبما أننا نملك هذا السيف والمال فلنسافر في الدنيا نسأل عن صاحب باب السر ، ونطلب منه أن يأذن بإعادة الكتابة لهذا الكتاب العجيب في الطب والحكمة ، ولابد أن يكون هذا الرجل ملك من ملوك الجآن ، ونحن كما تعلم يا أخي العزيز كنا ننتظر هذا اليوم لنرى ما في هذه الصناديق ، ثم نرحل لنتصرف في الذهب.. فالآن أصبح لنا هدف آخر ..إن لم يكن أهداف .

فقال مالك : لا داعي للرحيل يا سالك ! مبارك عليك سيف قطبة ، ولنبق بين الأهل والأصحاب ، ونتزوج وننسى أمر هذا الكتاب .

فقال سالك : ويحك يا أخي !.. هذا كلام لا يجوز .. فلنغامر فلنرحل كما كان يفعل قطبة حتى نعرف سر هذه الأشياء ، ومن أين جلبها أبونا ؟! فأمرنا ازداد غموضا، ولم نعرف الأسرار التي كنا نحلم بها ونمني النفس بمعرفتها .. المال موجود والسيف موجود وقوة الله معنا .

اقنع سالك مالكا بضرورة السفر والكشف عن أسرار قطبة وقال سالك: سنأخذ ما يلزمنا من الذهب والمال والسيف والكتاب، وندفن الباقي في السرداب المعروف، ونأخذ ما يلزم من الطعام والشراب ، ونتوكل على الحي القيوم ، ومن عاد منا سالما بعد هذه الرحلة المجهولة فالمال المتبقي حلال عليه ، وكلنا أمل أن نعود كلينا سالمين .

جهزا أمر رحليهما على حين غفلة من الناس ، فلما حانت ساعة الفراق اخبروا بعض الأصدقاء والأقارب عن قصدهم الرحيل والسفر والسياحة في هذه الدنيا، معتذرين للناس بأنهم بعد زواج أختهما صعبت عليهما الحياة ، فهما يفكران بالتنقل والحركة في أقطار الأرض لعلهما يكتسبان من حياتهما تجربة وخبرة جديدة ، وإن قدرت لهما الحياة سوف يعودان إلى هذه البلاد كما كان يفعل والدهما قطبة ، وأوصيا أقاربهما وجيرانها على البيت ، وطلبوا من سدرة ابن عمهم العناية بالأشجار والأرض والاستفادة من ثمارها في فترة غيابهما ، وقد أتى كروان الحداد وشيخ الحدادين في سوق الحديد مودعا لسالك ومالك قائلا : تعز علينا صحبتك يا سالك لقد كنت عاملا نشيطا وأمينا متقنا للعمل .. فأنا مستعد لدفع المزيد من الأجرة لك إذا كانت مشكلتكم المال لتبقوا هنا .

أثنى عليه سالك وشكر اهتمامه وقال : مللت هذه المدينة يا صاحبي ويا معلمي كروان .

فقال كروان : يا ولدي .. أزوجك ابنتي شيماء .. وابق عندنا ومعنا .

فقال سالك : هذا إغراء طيب لكننا عزمنا أمرنا .

فقال كروان : ما الذي يدفعكم لتركنا ؟ اصدقني القول أيها الابن العزيز .. فأنا لي خبرة وتجربة في الحياة الدنيا إن كان هناك أمر يشغلك فأنا أساعدك .

فقال مالك متأثرا بكلام معلم سالك : أنت رجل فاضل يا كروان .. نحن نريد أن نسافر لنبحث

عن شيء اسمه صاحب باب السر .

سكت كروان طويلا لما سمع كلمة " صاحب باب السر " مما أثار انتباه الشابين فقال سالك بلهفة : هل عندك علم عنه يا سيد كروان ؟!

فبعد تفكير ونظر رفع كروان رأسه وتلفت في عيون الرجلين ثم قال : قبل أن أقول لكم شيئا أيها الصاحبان.. فأمركما خطير وهذا اسم مخيف ، وعليكما بقص أمركما عليّ ؟

ذكر سالك له قصتهما وقصة الصندوقين بايجاز مبين ، وأمام تصميمها على الرحيل للوصول لصاحب باب السر خضع لهما كروان الحداد ، وتحدث عما يعرفه عن صاحب باب السر فقال : هذا الاسم لرجل من الجن ..عظيم في قومه .. وعليكما خطر منه ..ولسوف أدلكم على رجل يعرفه أكثر مني .

سر الأخوان لهذا الخبر ، واظهرا شكرهما لشيخ الحدادين ، فتابع الحداد كلامه قائلا : يا ولدي يا سالك .. هل تعرف الحداد " عماد " الشاب الأسمر الذي كان يزورنا بين عهد وعهد ؟.. هل تتذكره ؟ .. المهم هذا الشاب حداد مثلنا له محددة في طرف المدينة الشرقي ..هناك سوق صغير للحدادين كما تعلم .. فاذهبا إليه قبل سفركما .. واسمعا قصته مع صاحب باب السر والجنيات .

عماد الحداد



أخرا السفر والرحيل حتى يلتقيا بالشاب الحداد عماد، فلما أشرقت الشمس، وارتفعت في كبد السماء ، ذهبا لطرف المدينة الشرقي حيث يعمل الحداد عماد، ووجداه في دكانه فإذا هو شاب أسمر البشرة قوي البنية ، يجلس على مقعد وحوله بعض الشباب والغلمان ، فسلما عليهم، وذكرا له أن المعلم كروان أرسلهما إليه لحديث خاص ، وأنه سالك وأخوه مالك ، فصرف المعلم عماد العمال إلى أعمالهم ورحب بهما فقال : أهلا بكما وبالمعلم كروان ما عندكم ؟ فقال سالك : أيها الرجل الطيب .. نحن نريد أن نسمع قصتك وحكايتك مع صاحب باب

السر لأمر يهمنا ، وذكرا له طرفا من قصة الصندوق الأحمر ، فانتفض الشاب عند سماعها مثل الطير المبلول من المطر وقال : هذا الكلام لا ينفع في الدكان؛ فإن لي سنوات وسنوات في انتظاركما .. لنمش إلى البيت .

وصاح في عماله : معلم كلب .. انتبه للعمال والصناع ، وأنا سائر للبيت مع هذين البطلين، وعند الظهيرة أرسل لنا الطعام والغداء مع الغلام شهوان .. من أجود الطعام ، وإن تأخرت لليل فاغلق الدكان ..ومر عليّ يا معلم كلب .

ساق عماد الحداد الأخوين إلى بيته ، ولما جلسوا وشربوا الماء البارد قال لهما بشوق : إنني في انتظاركما منذ سنوات طويلة .. آه !.. يا مالك لو لم تتعجل بفتح الصندوق لعجلت بشفائي .

فقال سالك : لو لم يحدث ذلك لما عرفناك وبحثنا عنك .

فقال عماد : معك حق!.. على كل حال قصتي يا سادة قصة محزنة ، تدمي القلب، وسأضعها بين قلوبكم لتساعدوني ولا تنسوني إذا عدتم من عند الملك صاحب باب السر .. أنا في انتظاركم بشوق .. وسأدفع لكم كل مالي وكل ما أملك على أن أشفى من دائي .

فقال مالك : يا رجل شوقتنا لسماع مأساتك .. فلسوف نساعدك بدون أخذ مالك .. تكلم ؟

قال عماد : أريد أن أسمع قسمكما على مساعدتي .

فقال سالك : نسمع ثم نقسم .

فقال عماد : حسن ـ ومسح الدموع التي انسكبت على خديه ولحيته وتنهد من أعماق القلب ـ وقال : أنا حداد مثلك يا سالك ! وتعلمت الحدادة منذ الصغر عند المعلم كروان حتى كبرت وأتقنت المهنة والحرفة ، ففتحت هذه الدكان التي رأيتموها لأعمل بها وحدي ، ونجحت في مهنتي رغم بعد دكاني عن سوق الحدادين ، وصار لي زبائن في كل المدينة إلى أن كان يوم وقد انصرف العمال ، وظللت وحدي اكمل العمل لأحد زبائني ، وكان لي بجوار الدكان حجرة صغيرة إذا تأخرت إلى الليل أنام وأرقد فيها ، وفي ذلك اليوم تأخرت إلى نصف الليل في العمل وكنت اشتغل والدكان مغلقة ، ولما أنهيت ما كنت أعمل به أخذت أحد الفوانيس بعدما

اطفأت كل الفوانيس الأخرى ، ودخلت الحجرة الصغيرة لاستريح من تعب النهار والليل وأنام بضع ساعات ، وقبل أن تغفل وتنام عيناي انشق الجدار الذي أمامي ؛ فإذا بصورة فتاة جميلة كبدر التمام تقترب مني فظننت نفسي بداية في حلم .. فقلت بصوت مسموع مشوب بالخوف : هل أنا بعلم أم بحلم ؟!

فسمعت صوتا يقول برقة وحنان : بل في علم .. أنا جنيتك نجمة جارية الملكة بوبا .

فأصلحت جلستي وهمست قائلا : جنية !.. أأنت جنية ؟!.. وماذا تريدين مني ؟!

فقالت وهي تقف قريبا مني: أريد أن أتزوجك.. لقد رأيتك في جولاتي فعشقتك .. وجئت إليك لأتزوجك .. فلا تردني خائبة وتشمت بي صويحباتي يا سيدي عماد .. وأخذت تتغزل فيّ بكلام معسول حتى وقعت في هواها وعشقتها ، فصرت أتأخر في العمل لليل لأنام في تلك الحجرة .. فتأتيني جنيتي واجتمع بها بعد منتصف الليل عندما تترك خدمة سيدتها الملكة بوبا ، وبعد الحب والغرام وافقت على الزواج منها فهيئت لنا قصرا في مكان لا أعلم أين يقع ؟.. فكانت تأخذني من الدكان في الليل إلى القصر وتعيدني لطرف المدينة في ساعات الفجر الأولى فأمشي إلى عملي ولم أحدث أحدا بسري وبزواجي بعد ، كما أمرتني جنيتي نجمة ، وبعد أشهر من الزواج كسلت عن العمل ، ونفرت منه ، فاقترحت على سيدتي نجمة البقاء في القصر حتى انتهاء خدمتها عند سيدتها الملكة ، فانزعجت نجمة من هذا الكلام وقالت لي : يا حبيب لنبق كما اتفقنا يا سيدي ! نهارك في العمل .. وفي الليل معي حتى انتهي من الخدمة عند مولاتي الملكة بوبا .. ونعيش في بيت في بلاد الإنس يا سيدي عماد .

رضخت لطلبها شهرا آخر من الزمان .. وزاد كسلي وملّلي ، وتحدثت معها وفي هذه المرة صممت على البقاء في القصر نهارا ، فوافقت والدموع تملأ عينيها وقالت لي : سيدي عماد تمتع بغرف القصر كلها خلال النهار ، ولا تخرج على ظهر القصر أبدا حتى لا تندم بعد فوات الأوان ووصتني ألا أنسى هذه الوصية وإلا كان ذلك سبب للفراق والعذاب ، فلما انصرفت كأنني لم أسمع وصيتها ، ودفعني الفضول بعد حين إلى أن أصعد إلى سطح القصر ، فسمعت أنينا في

غرفة على سطح القصر الكبير ، فالخوف والفضول دفعاني إلى تلك الغرفة ، وفتحت الباب ؛ فإذا نجمة معلقة في الغرفة كأنها في عذاب وعقاب بل هي في عذاب وعقاب فصحت : نجمة زوجتي نجمة ؟!

فقالت من بين دموعها : وداعا يا سيدي ! لم تسمع نصحي في البداية ، ولا في النهاية .. سامحني يا سيدي! وسأذكر لك قصتي قبل أن يحضر الجلاد .. فقلت وأنا أحاول فك قيودها : تكلمي يا مولاتي .

فقالت بألم ودموع : دع الحبال فلن تستطيع حلها يا سيدي عماد ! .. لقد شاهدتك مرة في حفل زواج لأحد أصحابك ، وقد كنت مارة من هناك فأعجبتني وأحببتك وأثرت بي لواعج العشق والغرام ، فتتبعت أخبارك حتى عرفت مكان عملك ، وانتظرت فرصة لاجتمع بك إلى أن كانت تلك الليلة السعيدة وأحببنا بعضنا بعضا ، ثم قررنا الزواج على الشرع والحساب ، فجهزت حجرة في هذا القصر في هذا المكان البعيد ـ وهذا القصر المهجور كان لأحد مردة الجآن ـ وأحضرتك إلى هنا ، وكنا نعيش في رغد وسعادة ؛ ولكن مولاتي الملكة بوبا علمت بعشقي وزواجي وسري ، وكانت ترغب بتزويجي من غلام لها اسمه شداد ، وكان من أبغض الخلق إلى قلبي ، ولا أحبه ، فرفضت وذكرت لها أمري ، فأخبرتني بأن شدادا اعلمها بذلك كله ، فرجوتها أن تحررني من خدمتها ، وتطلق سراحي لأعيش مع حبيبي عماد فغضبت وقالت : لو أنك ذكرت ذلك سابقا لعلي رضيت وصرفت شدادا عنك ، أما الآن فلا ؛ ولكن يا نجمة سأسمح ببقائكما في القصر، ففي الليل عند عشيقك عماد ، وفي النهار سيقوم بجلدك شداد ، وعند كل مساء يفك قيودك لتذهبي وتـأت بعشقيك للقصر ، هذا مقابل خدمتك لي والعقاب مقابل خيانتك لي ، وستبقين على هذا الحال إلى أن يكتشف عشيقك عماد هذا السر، فعند ذلك سيصاب هو بالعذاب والمس والجنون في كل أسبوع مرة واحدة ، وهو اليوم الذي يكتشف فيه أمر عقابك ، وستبقون على هذا الحال إلى أن يأتي الأمير مالك بن قطبة بن سنان إلى بلادنا ، ويطلبني من والدي الملك صاحب باب السر ويتزوجني .. فأذكر له أمركما ؛ فإن رضي وعفا

عنكما باركت لكما زواجكما ، وهذا الشاب سيكون بين يديه كتاب فيه علاج لكل الأمراض ، فيداوي صاحبك مما حل به من جنون ومس .. يا سيدي عماد ! ذكرت لك ذلك لتبحث عن المالك بن قطبة فدواؤك عنده .

فقلت لما سمعت قصتها معي ومع الملكة بوبا : أخرج وكأن شيئا لم يحدث .

فقالت بحسرة وندم : فات الأوان فلا يمكن فتح الباب من الداخل .

حاولت فتحه فلم أستطع ، فوقعت في المصيدة فصحت : سامحيني يا مولاتي لقد سببت لك كل هذا الشقاء والعذاب .

فهاجت وقالت وكلها دموع وحرقة وحزن : بل أنت سامحني ، لقد جلبت لك كل هذا المصائب والمتاعب .

ولما أتى شداد غلام الملكة الجنية ، وفتح علينا الباب أصابه فرح قوي وسرور فقال وهو يضحك ويسخر منا: وقعتما في المصيدة يا غزالان !.. انتظرا حتى أعود .

وغاب ساعة من الزمان ، ورجع من عند الملكة بوبا ، وصفع عمادا صفعة طار صوابه من شدتها وحملني ورماني في طرف بلادنا وأنا أصيح كالمجنون .

وأما ما جرى لنجمة بعد ضرب عماد ، عاد إليها شداد بعدما انتهى من عماد ، وأطعمها الطعام وقال : سيدتي الملكة بوبا لا تريد أن تقسو عليك كثيرا ، فأمرت بحل وثاقك في الليل وإعادته في النهار .. آه ! يا نجمة القلب لو رضيت بي زوجا لك ما جرى لك كل هذا العقاب ، وما حل بصاحبك البلاء .

فقالت: أنا مستعدة الآن للرضا بك ، وأقبل بك من أجل صاحبي عماد .. سأطلب منه الطلاق وأتزوجك .

فضحك شداد ضحكة عالية وقال : فات الأوان أيتها المعشوقة! وهل أستطيع إغضاب الملكة مولاتي ؟ وداعا .

هذا ما جرى لنجمة بعدما صفع عماد الحداد، أما عماد فتابع الحديث قائلا: أيها الأخوان

العزيزان أصابني الجنون والعويل عدة أيام ، وتطببت عند الأطباء فما نفع دواء ، فكل أربعاء ـ وهو اليوم الذي دخلت فيه سجن نجمة ـ تصيبني حالة عنيفة من الجنون ، فيحملني العمال إلى المنزل وأنا في أسوأ حال حتى الليل ، فيخف ما بي من المس والجن ، ومما أوصتني به نجمة قبل الفراق أن أبحث عنك في كل البلاد من أجل الدواء الموجود في الكتاب الذي بين يديك يا ابن قطبة ، وقبل الختام فاعلما أنها أخبرتني أن شخصين حدث لهما مثلما حدث معي من الأهوال ، ذكرتهما لي نجمة أحدهما في بلاد الشمس في مدينة الغراب ، والآخر في بلاد القمر في مدينة البحر فكما أخبرتني نجمة المعشوقة لهما حكايات شبيهة بقصتي.. فاذهبا إليهما لعل عندهما ما يوصلكما أكثر مني لصاحب باب السر والد الملكة بوبا .. واعلما أنني قد بحثت عنكما حتى حفيت قدماي في كثير من المدن .. فعدت لمدينتنا هذه مدينة السرو انتظر مجيئكما ، كما ذكر لي صاحبي في هذا الكرب في مدينة البحر فقد قال "بأنك لابد أن تجدنا"، وما كشفت تفاصيل هذه القصة إلا لكما، وبعضها لسيدي كروان .. فعاهداني الساعة على مداواتي وشفائي وإعادة زوجتي إليّ .. نجمة المحبوبة .. إذا التقيتما بالملكة بوبا لا تنسيا أخاكما عماد الحداد .

حزن الأخوان لما أصاب هذا الإنسان من العذاب والعقاب وقال مالك : أعدك إن حصل ما سمعنا منك ، والتقيت بهذه الملكة الغريبة ووالدها صاحب باب السر أن أعالجك وأساعدك ، وأقسم بالله على هذا الوعد فاصبر أيها الصديق .

وعانقا الفتى ومسحا دموعه ، وبينما هم على هذا الحال المؤلم أتى الغلام شهوان يحمل أجود وأزكى الطعام ، فأكلوا وشربوا ، وانصرف شهوان بالآنية التي جلبها معه ، وقال سالك : سنسافر بإذن العلي العلام إلى مدينة الغراب ، ونبحث عن الشاب الآخر، ونعرف حكايته هل تعرف اسمه يا صديقنا ؟

فقال عماد الحداد : نعم .. اسمه " ايهاب " والثالث " حران " .

فقال سالك: احفظ الأسماء جيدا يا مالك.. وهل من أوصاف تساعدنا في معرفتهما؟

تبسم عماد وهو يرد قائلا: اسأل عن المجنون ايهاب .. فسيدلك عليه أهل البلد كلهم، فأنا الناس

يقولون عني "المجنون عماد الذي عشق الجنية حتى جننته وطيرت عقله " فيا أخوان لي أكثر من عشر سنوات في الانتظار .. فأرجوكما أن تتعجلا بشأني .. ولا تنسياني مع الأحداث التي ستمر بكما .



الحارس ايهاب

ودعا عمادا الحداد ، ورجعا لبيتهما ومكثا بضعة أيام أخرى ، ثم اشتريا بغلة ، وسافرا عليها إلى بلاد الشمس ، ومنها إلى مدينة الغراب ، وأخذت الطريق منهما عشرة أيام ، وكان دخلوهما لها في ضحى النهار ، فبحثا عن خان ينزلان فيه ويضعان البغل فيه ، ولما تم لهما ذلك نزلا إلى السوق واشتريا بعض الطعام ، وبعدما استراحا من وعثاء السفر ، سألا مالك الخان عن المجنون ايهاب فاستغرب الرجل وقال : غريبان يسألان عن ايهاب المجنون! .. فهذا شاب مجنون، قد عشق جنية حتى مات من العشق ، ثم تخلت عنه ، فهو هائم في الأزقة والحارات.

فقال سالك : أيها الرجل ـ بارك الله فيك ـ أرشدنا إليه لنسمع منه حكايته.. فصدق أننا جئنا من بلادنا بلاد السرو خصيصا إليه ؛ لعلنا نداويه ونشفيه من هذه اللمة .

فقال صاحب الخان : يا أبنائي .. لقد عرضه أهله على كل أطباء الدنيا ، فما نفع معه علاج ولا دواء ؛ ولكن سأرسل معكم ولدي؛ لعلكم تجدونه عند الحانوتي دهاج.

شكر الشابان الرجل الطيب ، وقادهما الولد إلى الحانوتي دهاج ، وكان بالفعل عنده المجنون ايهاب، فألقى الشباب السلام على الحانوتي الذي ظن أنهما قادمان لشراء كفن وما يلزم لغسل الميت ولباسه ؛ ولكنه سمع الفتى يقول : هذان يسألان عن ايهاب .. وهما غريبان يا سيد دهاج فقال الحانوتي وهو يلتفت إليهما : مرحبا بكما أيها الشابان ـ وأشار لايهاب ـ فهذا هو ايهاب الذي تبحثان عنه .



ونادى عليه ، فقد كان يجلس في داخل الحانوت ساهما مشغول الفكر واضعا رأسه بين يديه ، فأتى نحوهم وهو يقول : نعم ، يا سيد دهاج إنك ناديت عليّ .

فقال الحانوتي : نعم ، نعم ، هذان الشابان الغريبان يريدانك .

فالتفت إليهما والغضب في عينيه وبجفاء وصراخ قال : نعم .. أنا ايهاب ماذا تبغيان من مجنون مثلي ؟!

فاقترب منه مالك وقال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة : أنا اسمي مالك بن قطبة .. وهذا أخي سالك .. هل سمعت بهذه الأسماء ؟

فلما تيقن ايهاب من اسم مالك بن قطبة ، وقع مغشيا عليه ، فخاف الحانوتي وانزعج وقال : ما فعلتما بهذا المسكين ؟!

فقال سالك : لا تخف عليه .. هات ماء أيها الرجل فنحن لم نعمل معه شيئا إنما ذكرنا له أسماءنا

وبعدما مسحوا وجهه بالماء البارد عاد يهمس : مالك بن قطبة ! .. آه أيها البطل لقد طال الانتظار.. لي خمس عشرة سنة في انتظارك .. أهلا بكما ومرحبا .. لي مسكن فلنذهب إليه .

فصرف الأخوان الفتى ابن صاحب الخان ، وودعا الحانوتي ، وقادهم ايهاب إلى منزله ، وكان المنزل عبارة عن غرفة واحدة صغيرة عتيقة سوداء من سناج المصباح وشحباره ، فمن يراها يرثي على ساكنها ، وقد تنساب الدموع على وجنيته حزنا وألما ؛ ولكنهما لم يهتما بذلك كثيرا ، فهما يهمهما سماع قصة ايهاب التي قد تساعدهم في الوصول لصاحب باب السر .

فجلسوا جميعا وخيم عليهم الصمت ، ثم قال ايهاب : لقد أتيتم تسمعون حكايتي .. فيا أسيادي إنها قصة قديمة ، فأنا ايهاب فارس من فرسان السلطان ضرغام ملك هذه البلاد ، وقد كنت شابا قويا معروفا لأهل المدينة كلهم ، وقد عملت في خدمة الملك منذ الطفولة .. وأنا غلام دون الخامسة عشرة .. كنت محبوبا من الملك ضرغام .. وكان ـ يا أسيادي ـ للملك بستان صغير جميل .. فيه من أجمل وأفضل ثمار الأرض .. وكان فيه شجرة تفاح يحبها الملك ضرغام ، وله عناية خاصة بها ويحب ثمرها .. وكان ينتظر ثمرها بكل شوق وغرام ، وفي إحدى السنوات يا أسيادي عندما ذهب البستاني لقطف ثمرها الجميل فلم يجد عليها شيئا، فاستغرب وحدث الملك بما حدث فغضب الملك ، وفي العام التالي حصل مثل ذلك ، وفي العام الثالث حصل مثل سابقيه ، فازداد حنق الملك وغير البستاني والحرس، ومع ذلك فلم يفلح أحد في معرفة من يسرق الثمر ، فكلفني الملك ضرغام بحراسة الشجرة عند اقتراب نضج الثمر ويبدأ بالصلاح ، وحذرني من الفشل والخيبة ، وكل فرسان الملك كانوا منشغلين بالأمر وقصة هذه الشجرة ،

فلما اخبرنا البستاني ببدو صلاح الثمر بدأت نوبة الحراسة عندي ، فكنت أجلس بين أغصان وأوراق الشجرة من المساء حتى الصباح ، وكان البستاني يتفقدني طول الليل بالطعام والشراب حتى كبر الثمر ونضج وتعين وقت القطاف ، وفي ذات ليلة وبعد نصف الليل وبينما أنا أجلس على جذع شجرة والقنديل معلق على أحد الأغصان إذا بامرأة جميلة تحت الشجرة وهي تقول : طال الانتظار يا فارسي الجميل! .. صبرت فنلت أيها الفارس الحبيب!.. أنا حبيبتك "زهرة" أنا الجنية "زهرة" ، لقد أعجبتني فصممت على الاقتران بك، إذا وجدتني أهلا لقلبك وعينيك.. وفعلت هذا الأمر لأجعل منك فارس الملك الأوحد بأنك استطعت أن تحافظ على شجرة السلطان .. يا أسيادي! لقد سحرتني بجمالها الفتان، وعيونها الساحرة ، وكلامها المعسول، فوقعت في غرامها وعشقتها، وأصبح ملتقانا كل ليلة عند الشجرة بعد منتصف الليل ، ونغرف من سكرات الغرام والهوى حتى حان وقت قطف الثمار بعدما نضجت نضجا تاما ، وفرح السلطان فرحا عظيما لمحافظتي على تفاحته الخاصة ، وكافأني مكافأة مجزية ، وكانت جنيتي زهرة قد هيأت لنا قصرا جميلا ، لا أعلم في أي بقاع الدنيا يوجد ، فلما ازداد لهيب الهوى في أبداننا وأرواحنا اتفقنا على الزواج ، وكان ذلك بعد أن انتهى موسم قطف التفاح ، عندما كنت أعود للبيت من عملي ، وبعد منتصف الليل تأتي حبيبتي زهرة الجنية الساحرة فتسري بي إلى ذلك القصر ، فاقضي الليل عندها حتى الفجر، ثم تعود بي لبيتي ثم أسير لمكان عملي ، وقد علم المقربون مني قصة زواجي من الجنية وأني قد منعتها من سرقة تفاحة السلطان بزواجي منها ، فكنت يا أسيادي في سعادة ما بعدها سعادة ، زوجة جميلة فاتنة ، قصر جميل ، فارس من فرسان الملك ضرغام ؛ ولكن هذا الحال كما تعلمون لا يدوم ، فبعد سنة من زواجنا السعيد، وحياتي في قصر زهرة تقاعست عن العودة للمدينة ، وأحببت أن أنظر القصر في النهار وعلى ضوء الشمس ، فطلبت من زوجتي أن أقضي بعض الأيام في القصر أمتع النظر بمباهجه وبساتينه ، فترجتني أن اكف عن هذا المطلب ، وقد قالت والدموع تملأ عينيها : يا حبيب ! يا سيدي الفارس! لنبق كما نحن ، وكما اتفقنا، لنا القصر بعد منتصف الليل حتى الفجر ..

ونهارك عند السلطان وليلك في قصر الجنية زهرة .

توسلت !ليّ أن لا أغير نمط هذا الترتيب ، وهذا الحال حتى يحين الوقت المناسب لكشف أسباب الممانعة ، فوافقت أمام دموعها وحزنها وتوسلاتها، فمكثنا على هذا الحال عدة أشهر أخرى ، ثم عزمت وصممت على معرفة القصر والتمتع بمرآه في النهار والتفرج عليه وما فيه وما به ، فبكت وبكت وأنت واشتكت ، فأبيت وعزمت، فلما رأت عزمي وتشددي ولم تجدي دموعها في ردعي قالت بعين باكية حزينة : سيدي ايهاب يا قرة العين ! سأسمح لك بالبقاء في النهار ، ولكن احذر أن تصعد إلى سطحه فتندم أشد الندم.. يا سادة ! فكأنها بهذا التحذير تغريني بالصعود إلى ظهر القصر.. فوافقت على شرطها ، فلما انصرفت تفرجت على القصر حجرة حجرة ، ونزلت حيث الرياض النضرة والأشجار العملاقة مما سر الروح والنفس إلى أن كان نهار جرتني نفسي الضعيفة إلى ظهر القصر ، فسمعت أنينا خافتا وصوت ألم ؛ فإذا غرفة وحيدة على سطح القصر ، فاقتربت منها فازداد صوت الأنين وضوحا ، ففتحت بابها ونظرت ويا ليتني ما نظرت! فقد رأيت زهرة الفاتنة معلقة على الجدار بالحبال ، وهي في أرذل حال ، وسوط معلق بجوارها ، فصحت من الهول والذهول : ويلك من فعل بك هذا ؟!

فارتفع نحيبها وبكاءها وقالت : يا سيدي نصحتك فلم تنتصح .. ورجوتك فلم تأخذ برجائي.. سأذكر لك الآن حكايتي .. فاسمع الآن وبعد فوات الأوان وقبل عودة الجلاد مرة ثانية ..

فقلت وأنا أحاول فك القيود والحبال وإنزالها إلى أرض الحجرة : تكلمي يا مولاتي الجنية ؟ فقالت ببكاء وحزن وشفقة : دعك من هذه القيود.. فلن تفكها لو مكثت الدهر في حلها يا زوجي الحبيب .. فأطرقت برأسي نحو الأرض أسمع كلامها الخطير والعجيب فقالت : لقد رأيتك أول مرة في إحدى جولاتي ، وأنت تبارز الفرسان في الميدان بحضرة الملك ضرغام ، فتسمرت في مكاني أراقبك وأنظر إليك ، فهمت بك وعشقتك أيها الفارس ! وحركت في نفسي الحب والعشق والهوى والهيام ، فكيف الوصول إليك والبوح بالسر الكبير؟ فذكرت ذلك

لصديقة مخلصة .. فأرشدتني إلى تلك الحيلة لأصل إليك .. وتكبر في عين قومك .. وحصل ما رسمناه .. واجتمعنا تلك الليلة المشهودة وتعلقت قلوبنا ببعض إلى أن فكرنا بالوصال والزواج فجهزت هذا القصر ليكون مخدع حبنا وزواجنا كما تعلم ، وكان لنا ذلك، وهذا قصر مهجور كان لأحد مردة الجان يا مولاي ايهاب ! .. وأنا جارية عند الملكة بوبا ابنة ملك صاحب باب السر ، وكنت قديما جارية عند زوجته الملكة سنديان ، فوهبتني أنا ومملوك اسمه مرجان للملكة بوبا .. وكان هذا اللعين يعشقني عشقا مبرحا ، فلما تمكن من قلب مولاتي بوبا طلب منها أن تزوجه إياي ، فاعتذرت لمولاتي ، ولم تجبرني على ذلك إلى أن عرف سرنا فذكره للملكة ـ والملكة بوبا لا تحب لجواريها مثل هذه الأفعال ـ فغضبت ونصحتني بالبعد عنك ، فلم استطع ، لقد أصبحت لك زوجة ومعشوقة ، فزاد غضبها عليّ ، ورجوتها أن تعتقني من الخدمة فأبت ، ولما علمت أنني أسكن ذلك القصر المهجور مع حبيبي وسيدي ايهاب أمرت بحبسي وجلدي صباح مساء ، وسمحت لي بالالتقاء بك في الليل حتى الصباح ، ولما أعود بعد توصيلك لبيتك يأتي مرجان اللعين ؛ ليقوم على جلدي ساعة من الزمان وتعليقي بالحبال على أن لا أذكر لك ذلك ، وإذا انكشف الحال كما حصل اليوم.. فقد قالت لي الملكة : يا زهرة .. إن انكشف سرك لايهاب فسيصاب بالمس والجنون، ولن يشفى منه إلا على يد سيدي ومولاي الأمير مالك بن قطبة بن سنان.. وسوف اصفح يومها عنكم وتعودين لزوجك ايهاب إذا وافق الأمير مالك بن قطبة على هذا الاقتران .. وقالت : ومالك هذا الآن يا زهرة فتى صغير.. فانتظري واصبري فهو لابد أن يأتي لوالدي صاحب باب السر ويخطبني منه، كما وعدتني ساحرتي الكبيرة بذلك فيا أسيادي قالت زهرة : فهذا هو الأمر والسر يا سيدي ايهاب ! وقصتي وحبي لك ، فالآن عندما يأتيني مرجان في المساء لحل وثاقي كالمعتاد سيجدك عندي ، فسيقوم بضربك وسوف تصاب بمس من الجن ولا شفاء لك بعد الله إلا على يد الأمير مالك بن قطبة ، فهو يملك كتابا فيه أوصاف الشفاء من كل داء بإذن الملك العلام .. فعليك بالبحث عنه في بلاد الدنيا ليداويك.. وإن لم تجده فاصبر فسوف يأتيك بنفسه .. وداعا أيها الزوج الغالي .. وسامحني على

ما قد سببته لك من الشقاء والتعاسة ؛ ولكني حذرتك من الوقوع في هذا الفخ ؛ لأن مولاتي وعدتني بعدم التعرض لك إلا إذا كشف سر عذابي من قبلك .. فبكينا ورثينا لحالنا ، وقد حاولت الخروج فقالت : لا حيلة لك الآن فهذا باب لا يفتح إلا من الخارج فقط .

قال ايهاب للشابين مالك وسالك : وظللنا نتحدث إلى أن أتى مرجان ، فلما رآنا معا أصابه فرح شديد ، واغلق الباب ، وطار إلى مولاته بوبا ، ثم عاد إلينا ، وكله حقد وشماتة بنا فقال بفرح : هلكت يا زهرة وأهلكت صاحبك .

فقالت وهي مشفقة عليّ من العذاب والألم : يا مرجان يا من تدعي محبتي سأدع الفارس يطلقني وأقبلك زوجا على أن تدع الفارس من دون العذاب .

فضحك بسخرية شديدة وقال : فات الأوان يا زهرة .. ستبقين في الحبس هنا إلى أن يظهر مالك ابن قطبة ، ويتشفع لك عندي مولاتي الملكة بوبا .. وكلفت أن آتيك كل يوم بالطعام ، ثم أقوم بجلدك وأفك وثاقك طول الليل وأربطك طول النهار .. ثم صفعني صفعة عنيفة يا أسيادي فقدت من قوتها صوابي ، وأصبت بالجنون وحملني ورماني في بلادي ، فصرت مجنونا أدور في الشوارع والحارات .. وأنا أصيح وأنادي على زهرة زوجتي الجنية .. وفي اليوم الذي دخلت فيه الغرفة المحبوسة بها زهرة يزداد معي الجنون وفقد الصواب ، ولقد عرضني الملك ضرغام على أطباء الدنيا فلا شفاء إلى أن يأذن الله على يدك يا سيدي مالك بن قطبة .. فأنا في انتظارك كل هذه السنوات، وبحثت عنك في مواقع شتى حتى يئست من العثور عليك ، فعدت إلى مدينة الغراب انتظرك ، كما أخبرتني زهرة بأنك سوف تمر عليّ وتعرف قصتي .. وهذه يا أولاد قطبة سيرتي وقصتي وسبب جنوني فأرجوكم ساعدوني .

وأخذ في النحيب والبكاء فقال مالك مشفقا : أقسم برب العرش إن وصلت لتلك الملكة المسماة بوبا فلسوف أساعدك يا صديق ايهاب .. اصبر مضى الكثير، وظل القليل أيها الفارس أعرفت من صاحبتك زهرة أين تكون بلاد الملكة بوبا ؟ بل أين مملكة والدها صاحب باب السر ؟

فهز رأسه نفيا عدة مرات ثم قال : ويلاه!! .. لا علم لي بذلك ، ولكن لي صديقان حالهما كحالي

لعل عندهما علم عن بلاد صاحب باب السر ، فأولهما حران في بلاد القمر مدينة البحر ، والآخر في مدينة السرو اسمه عماد الحداد .. فهذه مأساتي يا أسيادي .

فقال سالك : ابشر أيها المسكين بالفرج والشفاء القريب بمشيئة الرب العظيم .. فإلى اللقاء ..

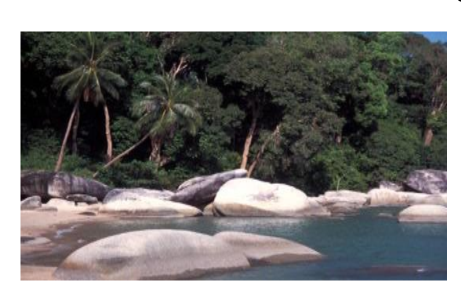
ولسوف نتابع المسير إلى بلاد القمر التي وصلا إليها بعد أسابيع من الزمن ، فنزلا في خان ، وبعد الراحة من النصب سألا صاحب الخان عن شاب يدعى "حران" ويقال إنه مجنون .

فقال صاحب الخان : ومن لا يعرف هذا المسكين؟!.. هذا شاب كان من خيرة شباب بلدة البحر ؛ ولكن المسكين عشق جنية البحر ، فأوردته المهالك ، وجننته فأصبح مجنونا هائما بها وينتظر خروجها من البحر كل مساء ويقول : لابد أن تخرج من الماء .. مهما طال الزمن .

فقال سالك : نحن جئنا من بلاد السرو لنحاول معالجته .

فضحك صاحب الخان وقال : هو يقول إنه غير مريض ، وقد حاول أهل البلدة وأهله من قبل معالجته فما شفي ثم قال : على كل حال إن كنتم راغبين برؤيته سيذهب معكما الخادم إلى البحر في المساء لتجتمعا به .. لعلكما تنفعاه فلربما جعل المولى الشفاء على أيديكم .

حران ونورا



وفي المساء أخذهما الخادم إلى جهة البحر في المكان الذي يجلس فيه حران ، كادت الشمس أن تختفي في البحر عندما أشار الخادم إليه وقال: هذا صاحبكم الذي تنشدون والسلام .

أثنيا على همة الخادم ، وتابعا الخطوات إلى حران الذي كان يجلس على صخرة ، وينظر إلى أمواج البحر وهي تتدافع نحوها ، ولما اقتربا منه سمعاه يقول : هل تخرجين الليلة يا مولاتي ؟ هل تخرجين أيتها الحبيبة ؟ طال الانتظار !

فسلما عليه ، فصاح بهما : ماذا تريدان أيها الشقيان ؟! جئتم تضحكون مني .. نعم ، سوف تخرج من الماء ، وتأخذني إلى الأعماق .. إنها امرأتي العظيمة .

فهمس مالك بشفقة وعطف : حران ! يا أخ حران نحن غريبان ، جئنا لنسمع قصتك لعلنا نخدمك ونساعدك ..

فأخذ حران بالضحك عاليا حتى ملأ المكان ، فأقبل بعض الصيادين الذين كانوا يرفعون شباكهم وآلاتهم مسرعين فزعين وهم غاضبون من هؤلاء الغرباء، فقال سالك عندما تجمهر عليهم الصيادون : أيها الناس لا تتعجلوا علينا ، نحن جئنا نتحدث مع هذا الشاب لأمر يهمنا ويهمه، فقد أتينا من بلاد السرو لنسمع قصته مع جنية البحر لعلنا ننفعه بشيء .

فأخذ الصيادون بالضحك والسخرية وقال أحدهم : أيها الشابان الغريبان ! خير لكما أن تنصرفا قبل أن تندما .

فقال مالك : يا قوم .. تمهلوا واسمعوا ، لقد أتينا خصيصا لنرى ونقابل هذا الإنسان المسكين الذي يناجي البحر ينتظر خروج حبيبته منه .. أنا اسمي مالك بن قطبة وهذا أخي سالك بن قطبة بن سنان .

وقبل أن يجيب الصيادون على الأخوين صاح حران أمام دهشة الحاضرين : ويلاه!!.. مالك! جئت يا مالك !.. يا سيدي! يا سيدي! طال الانتظار.. طال الصبر.. لي سنوات وسنوات في انتظارك يا مالك .. أهلا ومرحبا بك يا مالك .. أيها الناس ستعود حورية البحر .. هذا الشاب سيعيد لي عروس البحر .. تفرقوا وابتعدوا .. هذا هو منـقذي ..ها هو البطل الذي انتظره قد أتى كما أخبرتني حوريتي الجميلة .

تفرق الناس ، وهم مدهوشون مما جرى لابن مدينتهم حران ، عندما عرف أسماء هؤلاء الشباب وعانق حران الأخوين وصافحهما بحرارة والتزمهما ، واعتذر لهم مما بدأ من سوء خلقه معهما فقال : معذرة أيها الأخوان الحبيبان .. أنتم تعلمون حالي أكثر من هؤلاء الجيران .

فأجابه سالك بن قطبة بعطف وحنان ورقة : لا حرج عليك أيها الأخ الفاضل.. نحن جئنا من أجل الجلوس معك وسماع قصتك على أمواج هذا البحر العظيم .. كم يحوي هذا البحر من الأسرار ؟!

بكى حران وتنهد بعمق وقال: أنا مشتاق إليكم .. مشتاق .. أنتم ستعيدون لي السعادة الأبدية مرحبا وألف مرحبا بكم .. فأنا حران صياد مثل هؤلاء الصيادين، أحببت البحر ورضيت برزق البحر قليلا كان أم كثيرا .. تعلمت هذه المهنة من والدي ـ رحمه الله ـ وتفوقت على أقراني ، وكثرت رحالاتي في البحر وإلى الجزر لصيد السمك وغيره ، ولما بلغت العشرين سنة كنت سيد البحر هنا ، وسيد كل الصيادين .. والكل يرغب بمشاركتي والعمل بصحبتي .. والكل من هؤلاء الاخوة يرغب بمصاهرتي بأخت له أو ابنة ، وكنت عازفا عن كل هذه العروض ، وأرفضها إلى أن كنا عائدين إلى هذا الرمل الذي بجوارنا متأخرين من الليل ، فذهب من كان معي لبيوتهم، وظللت هنا لحراسة الأسماك والصيد حتى الفجر ، فأنا أنام وحدي وأعيش وحدي ـ وإن كان لي أم واخوة ـ فألقيت نفسي على هذه الرمال التي أمامنا، وبينما أنا مستلق على الرمال أنظر في السماء والنجم ، وأفكر بما جرى لنا في تلك الرحلة .. سمعت خطوات تمشي على الرمل .. فجلست فإذا حسناء قادمة نحوي بثياب زاهية؛ كأنها خارجة من أعماق البحر؛ كأنها حورية البحر التي نسمع عنها ، واقتربت وأنا كنت أظن نفسي أنني أحلم بذلك ، فسمعتها تقول بدلال وصوت رخيم عذب : سيدي حران أنا الجنية نورا! لقد وقعت في هواك وعشقتك .. وأنا راغبة بك بعلا وأهلا لي .. فلا تكسفني يا سيدي حران

فصرت يا أسيادي التفت يمينا وشمالا وحولي خشيت أن أكون حالما ثم سمعتها تقول بحنان : أنت يا سيدي مستيقظ لا تحلم .. أنا وقعت في حبك فاقبلني ..

لقد سحرتني بجمالها وحسنها ، ومع كلمات الحب والعشق التي تفوهت بها عشقتها.. فكنا نمكث في الحديث والغرام وتبادل همسات الهوى حتى الفجر .. أصبحت عاشقا للبحر عشقا مبرحا .. وانتظر نصف الليل بكل شوق وصبر.. ثم أصبحت حديث الناس والأصدقاء والإخوان.. وبعد شهور من هذا الغرام والهيام اقتضى الزواج والاتصال فتزوجنا .. فقامت بتهيئة قصرا للزواج من قصور الجآن، فكانت تأتيني بالليل وتطير بي إلى القصر وعش الزواج ومع الفجر تعيدني إلى هنا إلى البحر .. فيظن الصيادون أنني خرجت من أعماق البحر من عند

حوريتي الفاتنة.. كنا سعيدين بالحب والزواج .. ويزداد العشق في فؤادي لمحبوبتي نورا إلى أن كان يوما يا أسيادي أحببت أن أنظر القصر الكبير في النهار .. فعرضت عليها أن نقضي النهار معا في هذا القصر ، فاعتذرت لي وقالت : أنا لا أستطيع .. فأنا جارية من جواري الملك قشمر بن رهوان صاحب باب السر .. فخدمتي في النهار والساعات الأولى من الليل فعندما يظنون أنني أذهب إلى النوم آتي عندك يا حبيب! ولو علم مولاي الملك بحبي لك لحكم عليّ بالموت أو العذاب الأليم .. فدعنا نبقى كما نحن أيها الحبيب .. وكانت تتكلم بألم عميق وحزن شديد وكنت أحس أن هناك أمرا خفيا .. ورغم إلحاحي أيها السادة فما ذكرت لي غير هذا الكلام .. واستمرت حياتنا ، ولكن نفسي ما زالت تلح بمعرفة هذا القصر ومشاهدته في النهار.. وفي يوم آخر قلت : مولاتي ! أريد أن أرى هذا القصر في النهار وأدور في حجراته وأنزل بساتينه وأشجاره وأطياره ، فلما رأت تصميمي فقالت لي بحزن : يا حران أخشى أن تندم ويصيبك مكروه فلنبق على حالنا حتى يسرحني مولاي قشمر من الخدمة.. ونعيش في بيت جميل في موطنك قرب البحر .. أتوسل إليك ألا تلح عليّ بهذا الطلب .. وأمام فضولي وضغطي قالت باستسلام الذبيح : يا سيدي الطيب .. هناك جني اسمه " كزورة " من فرسان الملك قشمر رغب بالزواج مني فصدته وأبيت الاقتران به .. فهو لي كاره وعليّ حاقد ويتربص بي ليهلكني عند السلطان .. وأنا قد رأيتك ذات نهار في جولة من جولاتي فأعجبتني واستحسنتك ووقع حبك في قلبي ونفسي.. وفي تلك الليلة عند البحر جئت إليك معترفا بولهي بك وبحبي لك وعرضت نفسي عليك.. فرضيت بي يا سيدي الجميل وأنا خائف عليك من القوم؛ فإن انكشف سرنا سيعاقبوننا ويعذبونك إن لم يصرعوك فالحزن الذي تراه على محياي .. هو من خوفي عليك وقد ورطتك في عشقي يا حبيب .

فأكدت لها عمق الهوى الذي يجمع بيننا وطلبت منها عدم الخوف وعدم الحزن ، وأنه لا مفر من المقدور ، ولابد أن يكشف الجن أمرنا ..وكلما صدتني عن البقاء في النهار في القصر ازداد الفضول ولهب الشوق إلى معرفة أسراره ، ولما خشيت غضبي منها قالت : حسنا يا سيدي

الصياد !.. هذا قصر لأحد مردة الجآن يهجره في الليل ؛ لأنه يعمل في خدمة الملك قشمر ويحرسه فيأتيه في النهار فإن ظللت فيه نهارا فأخاف أن يراك ، ويحصل ما لا تحمد عقباه .. فهذا سبب منعي لك البقاء فيه نهارا .

فقلت : لماذا نسكن فيه يا مولاتي أصلا ؟

ردت قائلة : هذا مسكن مؤقت حتى أتحرر من خدمة الملك قشمر ..وزوجة هذا المارد ساكن هذا القصر الكبير صديقتي وتعرف سرنا .. وهي التي عرضت عليّ قضاء ليلي فيه .. رغم ما سمعت صممت على رؤية هذا المارد من مردة الجن وقضاء النهار في القصر .

فاستسلمت لرغبتي وقالت : حسنا يا مولاي!.. امكث فيه هذا النهار ، ولكن احرص أن يراك المارد أو أحد أصحابه ، وإن نجوت منهم يا صاحبي لا تفكر بإعادة التجربة وإلا طلبت منك الفراق.. وسأقضي عمري في حسرة وندامة على بختي ونصيبي .. أرجوك يا حران أن تبقى الحبيب .

ودعتني في الصباح وكلها خوف ودموع وبكاء ، فحاولت بث الطمأنينة في قلبها فقلت : توكلي على الحي الذي لا يموت .. اطمئني يا أميرتي سأتفرج ولن يروني قطعا بمشيئة الله .

بعدما بقيت وحيدا في القصر شعرت بالخوف والقلق ببقائي من غير أنيس في مكان مجهول ، فشجعت نفسي رويدا رويدا ، ودرت أتفرج على غرف القصر غرفة غرفة ، فدهشت مما رأيت فيه من الأشياء الجميلة وصناديق المجوهرات من الياقوت والمرجان واللؤلؤ .. فطار صوابي مما رأيت من المال والثروة حتى دخلت غرفة قلت في نفسي: هذه حجرة زوجة المارد! .. فنسيت نفسي فيها من الأحجار الكريمة والعقيق وأساور الذهب ، فما شعرت الا بصوت أبواب تفتح وتغلق .. فنظرت في الغرفة ، فوجدت سريرا فدسست نفسي تحته بسرعة الخائف وأنا أهمس بين جوانحي قائلا " كأن المارد وصل القصر .. وهذه الضجة منه " انقطع نفسي رعبا ، وخفت الافتضاح ، والحق أنني آيست عن روحي .. وقد اشتد خوفي على زوجتي الجنية نورا .. فلنا أكثر من سنتين في سعادة ونعيم ، وأسكن هذا القصر المجهول ، ولا أعرف منه شيئا ، فقد استبد

بي الفضول لمعرفة ما فيه .. فهذا ما دفعني لمشاهدته بالنهار ، وضغطت على زوجتي من أجل هذا الهدف .. وبينما أنا راقد تحت السرير سمعت صوتا بالغرفة ، كان المارد يتكلم مع زوجته فسمعته يقول : صديقنا المارد شرود سيتناول طعام الغداء معنا .. فهيئ لنا طعاما لذيذا بهذه المناسبة .. سأذبح وعلا .. وربما تأتي معه حليلته .. والآن دعيني أنام ساعة من الوقت.. فلا تزعجيني .. فردت قائلة : سأجلس في البستان استنشق عبير الأزهار والأشجار .. وعندما تستيقظ وتذبح الوعل فنادني .. وأثناء هبوطي سوف أشعل الموقد .. فشرود يحب الوعول المشوية .. وخرجت من الغرفة ، وألقى المارد نفسه على السرير، وغط في نوم عميق ، وله شخير يسمعه كل من في الهند والصين .. وفكرت بالتسلل فلم استطع ، فقد هبط السرير عليّ ولامس جسدي .. فصبرت على هذا الوضع حتى نهض المارد من نومه وهو يقول : احتاج إلى سكين قوية حادة فالوعول التي عندنا ضخمة وسمينة .. وخرج فتنفست الصعداء ، ثم خرجت من الغرفة التي سحرتني بما فيها من الأحجار الكريمة والسحرية الجميلة .

غامرت بالتفرج على باقي الحجرات حجرة حجرة ، ثم صعدت عندئذ إلى سطح القصر فقادتني قدماي إلى غرفة ، فيها أنواع كثيرة من السيوف والمدى فقلت : لابد أن المارد أخذ سلاحه من هنا .. وأنا أقلب النظر يا أسيادي في هذه الأشياء المعلقة على جدران الحجرة وقع نظري على خنجر صغير بين هذه السيوف والسكاكين، فقلت لو أخذته من بين هذه السيوف ما عرفوا به.. هذا أثر أحدث الناس به ، وكسبته من حياتي مع الجن ، فتناولته وأخفيته بجيب قميصي ، ثم قلت لنفسي "أشاور زوجتي عندما نتقابل ؛ فإن أمرتني بإعادته أعدته " كنت أرى المارد وزوجته من ظهر القصر، وهما يجلسان في البستان تحت شجرة عملاقة .. وحضر صاحبهما شرود ، وأتى المساء ، ولم يخرجوا من القصر ، فانزعجت وحضرت الجنية نورا ؛ وكأنها فوجئت ببقاء القوم ، فجلست معهم ساعة من الزمان ثم خرجت من القصر ، وكنت أراقبهم عن ظهر القصر ، وقلت لابد من تدبير مكان أقضي به الليل فبحثت عن زاوية أرقد فيها ، فوجدت كومة من القش والتبن فدخلت فيها وأخفيت نفسي ونمت .. وكنت أخشى أن يصعد أحدهم في

الليل إلى السطح أو إلى غرفة السلاح فيلحظني ويكشف أمري .. ثم أمضيت ليلتي ونهاري الثاني إلى أن حضرت نورا في الليل ، وهي مصفرة اللون ، فلما رأتني سالما حمدت الله على ذلك وقالت : كم قاسيت من الخوف والقلق عليك ؟! وكان لقاء ممتعا وجميلا بعد هذه المغامرة الخطرة ، فقلت لها : حضرت أمس وانصرفت .. لقد رأيتك عن ظهر القصر تجلسين مع القوم فقالت وهي تبتسم : من عادتي قبل أن آتيك أن أمر هنا لأتأكد من ذهاب المارد إلى عمله .. فلما علمت أنهما ماكثان خفت عليك جدا ؛ ولكنني توكلت على الله وانصرفت .. فماذا فعلت أنت في هذه الفترة ؟

فقال : قضيت ساعات متعبة ومتوترة ؛ ولكني شاهدت أشياء كثيرة وجميلة من ذهب وسلاح وطيور..

فقالت نورا الجنية : يا سيدي حران ! لا تنسى وعدك لي بأن لا تفكر بقضاء نهار آخر هنا بعد هذه المغامرة المخيفة .

فقال حران : لم أنس الوعد والعهد يا قرة العين .

استمرت حياتنا سعيدة وممتعة بعد هذه التجربة بضعة أيام ، وبينما نحن نائمان؛ فإذا بالمارد دجان فوق رؤوسنا ، فصاحت جنيتي فزعة ، وتوسلت إليه أن يكتم سرها وعدم فضحها أمام الملك قشمر ، وبعد تفكير طويل قال هذا الجني : هذه خيانة كبرى يا نورا !.. وفي ذلك خطر عليّ .. فيا ليتني لم أعرف شيئا فإن عرف الملك العظيم قشمر بإخفائي هذا الأمر عنه سيقتلني أيتها الحسناء.. وأنت تعرفين الملك وغضبه .. ولكن هل زوجتي تعرف بأمركما ؟

هزت رأسها بنعم ، فقال المارد دجان : أنتم فضحتم أنفسكم الذي دفعني لهذا الكمين .. ظننت أن زوجتي تخونني وتعشق غيري .. لقد وجدت خنجرا خاصا بي عند كوم قش على سطح القصر عندما كنت أنقل به للوعول والخراف .. فتعجبت من وجوده في كومة القش ، وقد لاحظت أيضا في القش والتبن مكانا ملبدا ؛ كأن شخص نام عليه ..فشككت بأمرزوجتي ، فعملت هذا الكمين.. وكلي ظن أنك هي .. تذكرت أنا الخنجر الذي أخذته من غرفة السلاح

يوم مكثي في القصر .. والجني يتكلم عنه فقلت لنفسي أسفا: لقد سقط مني أثناء النوم ، ونسيت أمره وراح عن بالي.. لقد جنيت على نفسي .. ثم سمعت المارد يقول لزوجتي نورا : يا نورا .. هذا الأمر لابد من كشفه للملك.. فمعذرة فأنت تعرفين كزورة لو عرف بالأمر لضربني.. ولا تحملينني مالا أطيق .. فهذا أمر مصيره الانكشاف اليوم أو غدا.. وأنا لا أستطيع إخفاءه .. وقد قلبت القضية يمينا ويسارا وشرقا وغربا فلا حل عندي إلا بإخبار رئيس خدم الملك قشمر بن رهوان وهو يتصرف .

وأوثقنا بالحبال يا سادة يا كرام قبل مغادرته ، وسمعته يقول لها مرشدا : حاولي أن تصل قصتك إلى ملك من ملوك الإنس .. الملك طهمان بن زلمان الذي يملك بلاد الاغمار .. فهو صديق للملك قشمر .. هذا ما أستطيع أن أنصحك به يا نورا .

فقالت بتوسل ودموع : انقل له خبري .

فتبسم الجني دجان وقال: قصتك خطيرة أيتها الجارية !.. سأذكر الأمر لزوجتي لعلها تنقله لملك الإنس طهمان .

حضر رئيس خدم الملك بنفسه مع مجموعة من الفرسان، وأخذونا لبلاد الجآن ، وبعد حين رأيت الملك قشمر ملك هؤلاء الجآن ، وقد كان ذا هيبة وجلال وعلى رأسه صولجان وتاج من الياقوت والأحجار الكريمة ، وحبات كبيرة من الجمان، ويلبس ثيابا كأنها الذهب الأصفر والديباج ، وعلى رأسه الجنود بالرماح والبنود ، وكان يجلس على سرير يعجز عن وصفه اللسان يا أسيادي .. وسمع تفاصيل قصتي بكل صدق ، واحضروا الجنية نورا فتكلمت بالقصة ، فلم تزد على ما بينت ، ثم سمعت الملك الجبار يأمر بقتلي على هذه الخيانة والجريمة الكبرى.. وهي الزواج من تلك الجنية.. ولكن قبل أن يسوقوني لتنفيذ أمر قشمر بن رهوان دخلت الملكة بوبا ابنة الملك بأحسن اللباس والجمال الآخاذ .. فسحرت العيون فحنى القوم لها الرؤوس تحية وإجلالا والتي قالت : يا أبي الملك قشمر بن رهوان .. لا تقتلها؛ ولكن تحبس هذه الجارية ، وتوكل كزورة بجلدها كل صباح ؛ لتكون عبرة لكل جارية تخون أسيادها وتعشق من غير

إذنهم .. ويصاب هذا الفتى الأنسي بالمس والجنون إلى أن يأتي الأمير مالك بن قطبة بن سنان .. فيشفع فيهما .. وينظر في أمرهما .. هكذا قالت الساحرة الكبيرة يا مولاي! .. لأن مالك بن قطبة لا يصل إلى هذه البلاد إلا إذا رأى والتقى هذا الفتى المنحوس واجتمع به .. ثم التفتت إليّ وقالت : فيا فتى الذي يدعى "حران" امكث في مدينة البحر من بلاد القمر إلى أن يأتيك مالك بن قطبة.. فاذكر له قصتك ، وأرشده لبلادنا فليذهب بداية إلى الملك طهمان بن زلمان ملك الإنس في بلاد الاغمار ، وهم سوف يدلونه ويرسلونه لبلاد الملك قشمر صاحب باب السر .. ليتزوج من الملكة بوبا ابنة الملك قشمر .

وعندئذ تقدم أحد الجند مني وصفعني صفعة على وجهي ورأسي ، طار عقلي من قوتها ، وحملوني ورموني في بلادي مضروبا بالمس والجن والهلوسة ، فهذه قصتي مع الجن والجنية نورا

كان الوقت يقترب من الفجر ، وهم يجلسون على صخرة البحر الساحلية يسمعون قصة حران الصياد البحري..وقال سالك بعد صمت خيم على الجميع : سبحان الله ! سبحان الرحمن مالك الإنسان!..مفتاحنا إلى تلك البلاد أنت يا حران .. في أي اتجاه تقع بلاد الملك طهمان ؟

فقال حران بحزن عميق: لا أدري .. فلي أكثر من عشرين سنة في هذا العذاب والعقاب يا أسيادي .. فيا سيد مالك عاهدني على مساعدتي وعدم نسياني إذا التقيت بمحبوبتك الملكة بوبا

فقال مالك بقوة وصدق : أعاهدك يا هذا الإنسان.. فحياتنا حلقات متصلة ببعض ، وسوف نعود إليك ومعنا نورا الحبيبة أيها الإنسان .

فقبل حران قدميها وهو يقول : أنا في انتظاركم .

فقال سالك مواسيا : اصبر أيها الإنسان! ذهب الكثير وظل القليل القليل والفرج قريب بإذن الله.

لقاء نازك



وودعاه وغادرا مدينة البحر وبلاد القمر ، وسارا يبحثان عن بلاد الاغمار لرؤية الملك طهمان ، وبينما هما يقطعان الفيافي والقفار ، ويسألان عن مدينة الاغمار ، وقد طال بهم الزمان ، ومضت سنة يسيران يبحثان ؛ فإذا هم بقصر عظيم معلق على العمدان في صحراء قاحلة لا إنس فيها ولا جآن ولا طير ولا حيوان إلا هذا البناء الشاهق المعلق .. ولا مدخل له ولا باب ، وهما منهكان من ركوب الدابة فقال سالك : لا ظل في هذه الصحراء إلا تحت هذا القصر الغريب الوحيد .. فلنستريح تحته .. لعلنا نجد به أحدا من الإنس أو الجآن .

ولما وصلا إليه تركا الدابة ، وربطاها بعمود من أعمدة هذا البيت المعلق، وجلسا يستريحان ويشربان ، ثم قام سالك بجولة حول القصر المعلق لعله يجد مدخلا لهذا القصر أو نافذة أو طاقة أو شيئا يدل على أن في هذا المكان أحدا ، ووجد في الجهة الشمالية للقصر فتحة كأنها نافذة فأخذ ينادي ويصيح : يا أهل هذا المكان ! وبعد برهة من النداء طلت امرأة منها وهي تقول : من أنتم يا سادة .. ماذا تفعلون في هذا الوادي ؟!

نظر سالك لوجه المرأة باستغراب ، واستمع لصوتها جيدا ثم قال : يا صاحبة المنزل .. لماذا تسكنين وحدك في هذا القصر المعلق ؟!

فقالت : يا هذا صوتك وشكلك ما هما غريبان عني! .. هل أنا من بلاد السرو ؟

فقال بلهفة : نعم يا أمة الله .. أنا من بلاد السرو .

فقالت وكان لا يرى إلا رأسها فقط: هل تعرف مالك بن قطبة وأخاه سالك بن قطبة ؟

فقال بدهشة واستغراب : يا أمة الله أمرك عجيب! .. في هذه الأرض القفراء وتعرفين بلاد السرو .. ومالك وسالك ولدي قطبة .. فأنا سالك بن قطبة بنفسه .!

فسمعها تقول: مه.. مه!! واختفت فإذا بباب يفتح ، ويتدلى منه سلما ، وسمعها تصيح بفرح لا يصدق : اصعد يا أخي أنا أختك نازك بنت قطبة .

فقال سالك : منذ سمعت صوتك قلت لنفسي الصوت صوت نازك والوجه ووجها ولكني غالطت نفسي .. وقلت: وهل يعيش إنسان في هذا المكان هذا مسكن جآن ؟

ونادى سالك على مالك الذي أتى مسرعا بعد أن كان نصف نائم من الإرهاق والتعب ، وعندئذ وصل السلم المصنوع من الحبال إلى الأرض ، فصعدا عليه ، فكانت درجاته أكثر من ثلاثين درجة ؛ فإذا هم أمام أختهم الحبيبة التي أخذتهم بالأحضان والتقبيل والبكاء من شدة الفرح واللقاء ، ولقد كانت لحظات عاطفية ممتعة وغريبة للأخت من جهة وللأخوين من جهة أخرى وبعدما عادت السكينة للنفوس ، ولهذا الاجتماع على غير ميعاد ، والكل مشتاق لسماع أخبار الآخر فقال مالك: والله يا نازك .. نحن بشوق إليك وإلى أخبارك منذ فارقتينا .. وكيف التقينا بهذه البطحاء القاحلة؟! ..فحدثيننا عما جرى لك منذ تفارقنا على أطراف بلاد السرو .

فقالت بحب وشوق: قبل الحديث أيها الحبيبان! سأعد لكما طعاما لذيذا..فإنكما جائعان ومتعبان .

فقال سالك : يا أختاه! صبرنا كثيرا ، ونستطيع أن نصبر بضع دقائق أخرى لنسمع حكايتك ، فلنسمع أولا ثم تفعلي ما شئت.. تكلمي يا اختنا العزيزة .

فأمام رغبتهما الجامحة أحضرت لهما بعض الشراب الطيب ، ثم قالت محدثة لهم أمرها وأخبارها: لما فارقناكم ، ظللنا نسير حتى ابتعدنا عن المدن والناس؛ فإذا بجسم يهبط أمامنا من السماء ؛ فإذا هو مارد من مردة الجن يقول : يا سيدي زهمان أرسلني الوالد لمعاونتك ونقلك إلى البلاد . أنا أصابني خوف ووهن ، وتحدث صاحبي مع المارد ، ثم رجع فطمأنني وقال لي : يا نازك لي إخوان من الجن .. فسنركب على متن هذا الجني الصديق إلى بيتنا الجديد ، فلا تخافي.. وتركنا الدابة ، وحملنا المارد إلى هذا القصر ، ثم أخرج لنا السلم الذي صعدتما عليه، ودخلت أنا وزوجي هذا البيت الغريب المعلق في الهواء؛ ولكني وجدت به الأثاث والمتاع والرياش والصناديق

الكبيرة الممتلئة بالثياب ، ثم ودع زوجي المارد ، وقال له : تعال غدا ، ثم اختفى المارد ، ورفع السلم ، واغلق الباب إلا هذه الكوة التي فيه تبقى مفتوحة ؛ لسماع مناد من أصحاب زهمان فهو بيت واسع غرفه سبعة .. وفيه خزان ماء كبير وطعام وموقد النار، ويقول زهمان إنه هيئه وأعده قبل مجيئه لبلاد السرو، وقد رضيت بهذا العيش ، وفي هذه القفار، لا نرى أحدا ، أحيانا تمر من حولنا بعض الوحوش والطيور الهاربة ، فتستظل بالقصر بعض الساعات ، ثم تختفي في الصحراء تبحث عن الماء والطعام .. ومنذ فارقتكم لا أرى إلا زوجي زهمان والمارد الذي يحضر كل صباح وينقله إلى مملكة الملك طهمان بن زلمان في بلاد الاغمار ، ويعود به في الليل ، وأحيانا أخرى يغيب عن البيت بالأسبوع والشهر لدواعي الخدمة في جيش الملك طهمان ، وقد وهبنا الله طفلة جميلة وهي الآن نائمة ، ولسوف تسر وتسعد برؤية أخوالها مالك وسالك اللذين حدثتها عنهما بكثرة .. وقد حاول زوجي اختباري.. فكان مما قاله لي : يا نازك إذا مر عليك أحد مهما كان حاله وماله لا تأذني بدخوله القصر ، فكان يرسل لي بعض الناس لمحاولة الإيقاع بي ، فكنت أنظر إلى صورهم ولا أسمح لهم بالكلام معي حتى جاء يوما رجل جميل الصورة والوجه والرأس على حصان أحمر، ونادى عليّ باسمي ، فطللت من الكوة فظننته زهمان ؛ فإذا هو رجل آخر ، وإن كان الصوت صوته فسمعته يقول : أنا زوجك زهمان يا نازك .

فقلت : يا هذا ما هذه الوقاحة ؟.. وهل غشم عليّ زوجي ؟! .

فذكر اسمكما وبلاد السرو والبئر المهجورة وبوصة والملك عماد ، فقص عليّ كل ما حدث في السرو والجرة والصناديق والحزام وأشياء أخرى أعرفها.. وأمرني بإنزال السلم.. فما فعلت ؛ فإذا هو يضع على وجهه قناعا خاصا ؛ فإذا هو زهمان زوجي .. وبعدما أقسم لي أنه زهمان فتحت الباب .. وأنزلت السلم وكشف لي الأمر بأنه أتى بلادنا متخفيا ليرى مدى طاعتنا لقطبة وأنه كان يمتحن وفائي وصدقي، فعندما يأتي في المساء سوف ترونه رجلا لا يشبه زهمان الذي تعرفانه ، وكنت قد رغبت بزيارتكما بمساعدة صاحبه المارد.. فقال لي وأنا غير مصدقة : سوف يأتيان إلى هنا .. وأرى أنه قد صدق .. ومنذ دخلت هذا المكان لم أخرج منه،

وأحيانا أصعد إلى سطح البيت أنا ونعمى فهذه قصتي .

فقال مالك : زوجك مليء بالأسرار يا نازك .. ويبدو لي أنه من أبناء الملك طهمان بن زلمان .. صدقي يا أختاه لحتى الآن لم نكشف سرا من أسرار قطبة الغريب الأطوار .

فقالت : سيظهر كل شيء .. الآن سأصنع لكم طعاما.. لابد أنكم اشتقتم للطعام الذي اصنعه لكم بيديّ .. آه! كم بكيت على فراقكم وأسفت لحالكم ؟! .. فكلما أضع الطعام بين يدي زهمان أذكركم فأبكي .

خافت نعمى في أول الأمر من الغريبين ، ثم تأقلمت معهما سريعا ، وفرحت بهما.. وبعدما أكل الاخوة من طعام أختهم .. استأذنوها بالنوم ريثما يأتي زوجها، فأدخلتهم غرفة جميلة الرياش فرقدوا فيها ، وعند الغروب أتى زهمان.. فلما هبط على الأرض قال للمارد : أليس هذا جملا يا صديقي ؟!

فرد المارد بقلق : نعم جمل مربوط .. ولكن لا أحد حوله .

فقال زهمان : انظر جيدا أيها الخادم الأمين .

فتحرك هنا وهناك ثم قال : لا أرى أحدا يا سيدي .

نادى زهمان زوجته ، فدلت له السلم وقال : يا ابنة الاجواد لمن هذه الدابة ؟! .. هل من إنس مر من هنا ؟!

فقالت : أجل ، فاصعد فعندي ضيفان عزيزان مالك وسالك .

فنظر زهمان للمارد وقال : انصرف هؤلاء أصهاري اخوة الأميرة .

وصعد زهمان مسرعا وهو يقول : أين هما ؟ فأنا بشوق لرؤيتهما .

فهمست : اهدأ يا أبا نعمى ! إنهما يرقدان في النوم .

وسمع الطفلة تقول بسعادة بينة : يا أبي عندنا ضيفان يقولان إنهما أخوان لأمي .. أحدهما مالك والثاني سالك .

احتضن الأب ابنته الصغيرة ورفعها بين ذراعيه وهو يقول : إنهم أخوالك أبناء البطل قطبة ..

لقد اشتقت إليهما .. ألم أقل لك يا ابنة الاجواد إنهما سيأتيان ؟ .. فبما إنهما قد أتيا فاستعدي للرحيل وترك هذا المكان .

ولما اجتمع مالك وسالك مع زهمان كان لقاء حارا بثت فيه الأشواق ، وجرت فيه ذكرى ذكرياتهم في بلاد السرو عندما أتاهم متنكرا وسليط اللسان فقال زهمان : مرحبا بكما .. فكيف عرفتماني رغم أن هذا الشكل لم ترياه سابقا .. أكيد أختكم أسرعت بكشف ذلك لكم .

فضحك مالك وسالك وقال أحدهما : حدثتنا أختنا عن تنكرك وقناعك والآن اسمعوا حكايتنا منذ افترقنا عنكم .

وسرد الأخوان على مسامع زهمان وزوجته الحكاية من البداية إلى النهاية ، وبعد ساعات من الليل انتهى الكلام ، وقد عجبت نازك مما سمعت غاية العجب ، وقال سالك : والآن جاء دورك يا زهمان لنسمع ما عندك .. ثم تنقلنا للملك طهمان في بلاد الاغمار .

فقال زهمان : نعم ..نعم .. جاء دوري في الكلام ..فأحب أن أعرفكم بنفسي .. فأنا أيها الأخوان والدي هو الملك طهمان بن زلمان .

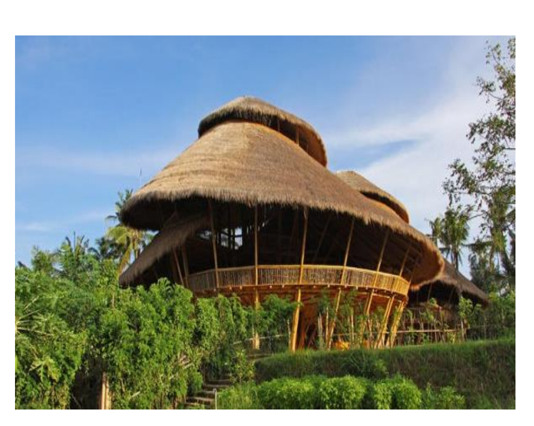
تبادل الأخوان النظر ، ثم نظرا لأختهما المندهشة للخبر، وقال زهمان : مالكم ؟

فقالت نازك : هذا الذي اعترفت به الآن قاله مالك قبل ساعات من الآن .

فقال زهمان ضاحكا: القصة قديمة قبل أن نولد جميعا .. وهي علاقة قوية بين جدي زلمان وأبي طهمان ووالدكم قطبة بن سنان.. فالذي أعرفه أن والدكم قطبة عندما ولدت نازك وهبها لأبي فاختارني طهمان زوجا لها ، وكان زواجي منها بعد وفاة قطبة كما اتفق الأبوان .. فأرسلني الوالد بعد موت قطبة بسنة لأحضر الفتاة، وامتحنها بضع سنوات .. وأنشأ لي هذا القصر وأمرني أن أنزلها فيه إلى أن تصلا إليه .. وباقي الرواية يا أخوان عند والدي طهمان .. فعنده الخبر اليقين والتفصيل الكثير.. وغدا ـ إن شاء الله ـ سيكون الرحيل عن هذا الوادي .

وفي الصباح أتى المارد لنقل زهمان للمملكة ، فأمره زهمان بإحضار بضعة من الرجال المردة لنقل القوم ، وما في القصر من متاع وأثاث .

أسرار قطبة



استقبل الملك طهمان مالكا وسالكا ونازكا استقبالا كبيرا ، ورحب بهم ترحيب الأب لأبنائه الغائبين عنه سنوات وسنوات ، وعانق حفيدته عناق المشتاق ، ثم قال : لقد طال انتظاري لكم فأهلا وسهلا بكم كلكم وشكر نازكا على الصبر والطاعة ، وطلب من زهمان القيام على استضافتهم ثلاثة أيام ، ثم التفوا حول الملك طهمان لمعرفة المزيد من الأسرار ـ أسرار قطبة ـ قال الملك طهمان : أرغب بداية بسماع ما معكم من الأخبار والأسرار . فتداول الأخوان الكلام ، فتحدثوا عن ساعات قطبة الأخيرة والبئر المهجورة والصناديق وزواج زهمان ورحيله .. وفتح الصناديق .. ومقابلة عماد الحداد وايهاب الفارس وحران الصياد .. ولما انتهوا من الكلام قال الملك : سأقول لكم قصة البطل قطبة بن سنان الذي لابد أنكم مشتاقون لمعرفة حكايته الغريبة ، وما رماكم على هذه البلاد ، وجمعكم بالملك طهمان ، وغدا بالملك قشمر بن رهوان ملك من ملوك الجآن .

فقال مالك : إي والله نحن بشوق لمعرفة هذه الأسرار يا ملك الزمان !

فقال طهمان بحماس : قطبة أخي وصديق أبي زلمان ، قطبة ترك بلاد السرو وعنده خمسة عشر عاما ، فقد تركها هاربا من والده سنان ، بعدما صرع إنسانا بطريق الخطأ ، عندما كانا يملأن الماء من بئر هناك في بلادكم ، ولكن ذلك الإنسان سقط في البئر فمات ، فهرب قطبة على أثر هذه الحادثة في الجبال والوديان ، ولقد كان والدكم قطبة ذا صورة جميلة يفتن بجماله من يراه من الرجال فكيف بالنساء العاشقات ؟! فنزل في بلدة واشتغل عند رجل كبير في أرضه أكثر من خمس سنوات مقابل الأكل والشرب والنوم عنده ، وفي إحدى المرات وهو يحفر في الأرض ضربت فأسه غطاء من الحجر العتيق .. فظن أنه وجد بئرا فيها ذهبا ، فرفع الغطاء الحجري ؛

فإذا حفرة فنزل فيها على أمل أن يجد ذهبا أو مالا فيترك العمل كأجير.. ويسافر في الدنيا قال لي : نزلت درجات كثيرة حتى دخلت نـفقا مظلما جدا ؛ ولكن مع تعودي الظلام بدأت أحسن الرؤية .. فمشيت بهذا النفق وأنا لا أدري إلى أين أسير؟! فلما وصلت نهايته وجدت نفسي أمام البحر ، فتعجبت من وجود هذا النفق .. وبعد تفكير قال : رجعت وخرجت منه ، وأغلقته وقد صممت على كشف سر هذا السرداب .. فدبرت سراجا .. وفي يوم تالي رفعت البلاطة ، ونزلت إلى النفق ومعي السراج ، ولم أسر بخط مستقيم مع السرداب سرت بالعكس فوجدت غرفة منحوتة في الصخر .. وكانت فيها امرأة مكبلة بالحبال .. فجفلت بداية منها وقلت بعد ذلك : من أنت ؟!

فقالت : يا هذا لعلك إنسي ؟!

فقلت : نعم أنا إنسان .

فقالت : ولكن كيف وصلت إلى هنا ؟!

فقلت : قدري .. ما قصتك ؟

فقالت : يا إنسي أنا فتاة من الجن .. وقد خطفني مارد طامعا بالاقتران بي رغما عني .. وأنا ابنة ملك من ملوكهم.. وبعد أن خطفني أتى بي إلى هذا المكان وأخفاني فيه .. ثم قالت : فإن أنقذتني منه فاعتبرني زوجة لك .

فقلت لها : وكيف اقتله وأخلصك منه ؟!

فقالت : هذا المارد جبار وسفاح ، ويملك سيفا صغيرا مسحورا إن سله على جيش لا يهزم .. فعندما يأتي إلى هنا يكون منهكا من التعب ، ويكون معه عجل صغير فيلتهمه فيثقل بالنوم ، فيقوم بحل بعض وثاقي لأسقيه الخمر ساعة من الزمن، فيسمعني من الكلام القبيح الفاحش والتهديد لوالدي الملك رهوان ، ثم يعيد وثاقي فيستغرق في النوم .. فأنت عندئذ اسحب السيف منه ، واقتله به .. وإن أنت نفذت هذا الكلام فاعتبرني جارية لك .

فقلت : والسيف لي أيضا ؟

فقالت : والسيف لك أيضا ، ولا تخف مني .. فقد هويتك واهتز قلبي لصورتك أيها الإنسان الجميل .

قال قطبة : فبعدما اتفقنا أطفأت السراج ، وخبأت نفسي بالسرداب إلى أن حضر ذلك المارد في الليل ومعه العجل الحنيذ والشراب المسكر، وحصل ما ذكرته الجنية، فلما سكر وأراد النوم وأعاد قيود المرأة بالحبال.. اضطجع وملأ شخيره بطن الأرض، فانتظرت ساعة حتى تيقنت أنه غط في نومه العميق .. فتسللت إلى الحجرة الصخرية ، ونشلت منه سيفه السحري ـ فهو سيف صغير ـ وبدون أن يحس ويشعر بي .. والجنية كانت تنظر إليّ بخوف وارتباك .. فأخرجت السيف من الغمد فضغطت على زر فكبر السيف وطال ، فأغمدته في صدره ، فصرخ صرخة عظيمة هزت المكان.. ظننت أن زلزلة قد حدثت ، ثم هلك المارد وعلى الفور فككت قيود الفتاة فأخذتني بالعناق وهي تقول : أنا جنيتك "عناق" .. لقد أنقذتني وأنقذت حياتي من هذا الوحش .

فصغرت السيف السحري ثم وضعته على صدري ، وطارت بي إلى بلادها ، وأخبرت والدها بالأمر فأكرمني غاية الإكرام ، ولما تأكدوا من هلاك المارد زوجوني بها، ومكثت معها سنتين، وأخبرتهم برغبتي بالرحيل والعودة لبلاد السرو .. فأعطتني شعرات من رأسها وقالت لي " إذا ضاقت بك الحال ، واحتجت إليّ احرق شعرة منها فأكون عندك في الحال" .. فلما عدت للبلد وجدت سنان ما زال عليّ غاضبا وناقما، فخرجت مسافرا مرة أخرى أتنقل بين البلاد والمدن .

وقال الملك طهمان : حتى وصل بلادنا بلاد الاغمار .. ولما دخل قطبة بن سنان بلادنا كنا نخوض حربا وقتالا مع جيوش الملك حيال ، فانحاز قطبة لوالدي ، وعرض خدمته عليه ، فشارك في المعارك حتى تحقق نصرنا على الأعداء بفضل سيف قطبة .. فأصبح له على أبي وعلينا فضل كبير وأصبحنا أصدقاء وزوجه أبي امرأة منا ، وكان من سوء حظ قطبة أن هذه المرأة كانت تعشق جنيا ، فصعب الأمر على قطبة من غدر وخيانة زوجته ، فأسر هذا الجني وأراد قتله فقال زلمان: لنصبر لنرى من ورائه يا قطبة .

وجاء وفد من قوم الجني لوالدي يطلبون جنيهم فرفض إلا أن يأتي ملكهم بنفسه، فحضر رهوان ، ولما سمع بقصة الجني الأسير وتغريره بامرأة قطبة الفارس ، ووجد أن قطبة كان زوجا لابنته ، فلما التقيا دهشا لهذا اللقاء، فتقرر أن يقتل الملك رهوان صاحبهم ، وقام زلمان بقتل المرأة الخائنة ، وأصبحت صداقة قائمة بين والدي زلمان ، والملك الجني رهوان ، ثم نشبت حروب بين ملوك الجن .. فطلب رهوان من أبي الفارس قطبة وبعض الفرسان.. فسير والدي قطبة وألف فارس للمشاركة في حروب الجن ، وبعد خمس سنوات من الحروب بين ملوك الجن خضعوا للملك رهوان ، وأصبح سيدا وملكا كبيرا ، وقد مات لنا مئات من الفرسان في هذه الحروب .. وازدادت الصحبة بيننا وبين والدي والملك رهوان ملك الجن ، وعاد قطبة بن سنان ومن ظل من فرساننا على قيد الحياة إلى بلادنا ، وألحق رهوان مائة من فرسان الجن ومردتهم بخدمة والدي زلمان ، وبعد حين طلب والدكم العودة لبلاد السرو لرؤية الأهل فأذن له أبي ، فحمله مارد من خدم والدي لتلك البلاد لمدة شهرين ثم يعود إلينا ، وفي هذه الزيارة كان سنان قد عفا عنه وسمح له بالبقاء ، فعندئذ اشترى أبوكم بيتكم المذكور وحفر الآبار وزرع الأشجار، ثم أنشأ السرداب ، فصار يقضي فصلا في بلادكم ، وفصلا في بلادنا حتى مات والدي فجلست على عرش الحكم مكانه ، وأصبح طهمان ملكا على بلاد الاغمار ، وكنا أصدقاء وأحباء وأصحاب لا نكاد نفارق بعضنا بعضا إلا بحكم الضرورة ، وبعد حين سمعنا نبأ هلاك الملك رهوان ملك الجن، فاستلم ولده قشمر الملك ، وخاض عدة حروب بعد وفاة والده لاستقرار ملكه وضد الذين خرجوا عليه ، واستعان بسيف الفارس قطبة بن سنان ، وأصبحت زوجة قطبة الجنية أخت الملك قشمر الساحرة الكبيرة في مملكة الملك قشمر بعد وفاة أمها الساحرة ، ولما عاد الهدوء لمملكة قشمر بن رهوان ، واستقرت الأوضاع عاد فارس بلادنا قطبة بن سنان للبلاد ، ثم عاد لبلاده ، فوجد أن أباه قد مات ، فحزن عليه ، ثم تزوج أمكم ، فأنجبت له مالكا ففرح بك فرحا كبيرا ، ولما بشرنا بك فرحنا له فرحا كبيرا ، ووهبنا لك كثيرا من الجواهر واللؤلؤ ، فلما علم قشمر بذلك أرسل وراءه ، وكانت له بنت ولدت منذ سنوات اسمها بوبا ،

فوهبها لمالك هدية وعرفانا بافضال قطبة ، ففرحت امرأة أبيك الجنية الساحرة ، ووضعت نصب عينيها رعايتك وتسهيل أمر زواجكما ، ووضعت لوالدك الكتاب الطبي العجيب ، وفرح قطبة بهديتها ، ولما انتهت منه أخذه أبوك ، وكما قلت كان والدكم مستمرا في التردد على بلادنا وبعد عامين أو أكثر ولد سالك ، فلما بشرني قطبة بذلك كان قد ولد لأخي ابنة فوهبتها لسالك بن قطبة ، ففرح أبوكم أيضا بهذه العطية ، وأخبرني أنه سيورث السيف السحري لسالك كما أن الكتاب الطبي لمالك .. ثم بعد ذلك بسنين يسيرة ولدت أمكم نازكا الجميلة ، فلما علمت بذلك ..أكرمني بها فوهبتها لزهمان ولدي ، هذه قصة أبيكم قطبة ، وقبل أن أنسى ، فالساحرة أخت الملك قشمر بن رهوان وزوجة أبيكم في ماضي الأيام وهبت لأختكم نازك عندما علمت بولادتها ذاك الحزام الذي تتحزم به أم نعمى ، فهو يحفظها من السحر ومن مردة الجآن ، والسيف الآن بيد سالك حسب وصية أبيه ، ومالك البكر غره الفضول وقلة الصبر فغامر وفتح الصندوق قبل وقته المحدد حسب وصية الساحرة ، فانمحت وزالت عنه الكتابة للأمر المقدر وللتعرف على الحداد عماد والفارس ايهاب والصياد حران، ولتعلموا بقصصهم ، وتصلوا لبلادنا ، ثم بلاد الجن ، وكانت الساحرة زوجة أبيكم قد أمرت الجن بحراسة البئر حتى تأخذا الكنز منه ، وقد دفع بعض الجن الكهان لتحريض ملك بلاد السرو على أخذ الكنز ، فسقط بوصة قتيلا لهم ، وفشل الملك عماد بالاستيلاء على الكنز كما طلب منه كهنته، ففشل ويئس من الأمر عندما تيقن أنه محمي بجن أقوى من جن كهنته ، ثم حاول الزواج من نازك ليوقع بكم في كيده وقد فشل ، وقد سعى لمنع زواج ولدي زهمان من أختكم نازك وهذا كله تعرفونه .. وهذه قصة أبيكم قطبة بن سنان رويتها لكم بكل صدق وأمانة ومن غير نقصان بإذن الملك العلام .. وبما أنكم وصلتم إلى بلادنا كما دبرت الساحرة لأبناء زوجها من السعادة والخيرات.. فسنحتفل بزواج الأمير سالك من ابنة أخي كما تم الاتفاق مع البطل قطبة بن سنان .. واليوم يوم الوفاء يا أولاد قطبة بن سنان.. ثم بعد ذلك نرحل لبلاد الجن ليتم زواج الأمير مالك من ابنة الملك قشمر .

فهنا قال سالك بشهامة : كلامك يا مولانا على الرأس والعين؛ ولكن قبل أن نفرح وليكمل سرورنا نحن.. فهناك ثلاثة مساكين عماد وايهاب وحران ونسائهم في بلاء عظيم.. وينتظرون رحمة رب العباد للخلاص من العذاب والأمراض .. فلنصبر حتى نخلص الرفاق من البلاء ليشاركونا الفرح بعد كل سنوات العذاب تلك .

فقال مالك بحماس : هذا يا مولانا هو عين الصواب .. فلنذهب بصحبتكم للملك قشمر بن رهوان ونحرر الشباب ونرى صاحب باب السر ونرى الساحرة امرأة أبينا ونعيد ما محي من الكتاب.. ثم نفرح بعد ذلك الفرح الكامل .

فسر طهمان من كلام الأخوين وقال مسرورا: كنت أرغب بسماع مثل هذا الجواب.. فعمل الخير ومساعدة الضعيف عمل كبير وجليل فإلى صاحب باب السر الملك قشمر بن رهوان .

خرج ملك الجن قشمر بنفسه لاستقبال الملك طهمان والوفد الذي أقبل معه ، فهم أصحاب وأصدقاء وخلان، وقد فرح الملك قشمر بولدي قطبة وترحم عليه كثيرا .. وذكر بعض مناقبه وحروبه معهم ثم قال: والدكم له علينا أفضال كثيرة .. ونحن مدينون لكم.. فمرحبا بكم في بلاد صاحب باب السر الملك قشمر بن رهوان .

واحتفى الملك بضيوفه الإنس وأقام لهم الولائم الكبيرة ، وعلمت الساحرة بمجيء أولاد زوجها ، وسعدت بلقائهم ، وسرت بهم وهي تحتفل بوصولهم ، وكانت الملكة بوبا فرحة وسعيدة بحضور زوجها الموعود الأمير مالك بن قطبة الفارس البطل المعروف ، وقد فرحت بلقائها بمالك واخوته ، وكان لقاء جميلا وهادئا ومشبوبا بالعوطف النبيلة ، وبعد أيام تحدث الملك طهمان بأمر مالك وسالك والكتاب ، فرد الملك قشمر فقال : يا مالك ! فأما أمر الكتاب فهو عند أمك الساحرة زوجة أبيك البطل قطبة ، وأمر الجنيات وأزواجهن مع زوجتك الملكة بوبا.. وسنلبي طلباتكم وحاجاتكم .

سار مالك وأخوه سالك إلى الساحرة ، وأعطياها الكتاب العجيب بالطب ، فقالت وهي تبش في وجوههم : على الرحب والسعة ـ يا أبناء الغالي ـ رحمك الله يا قطبة .. فلي مع أبيكم ذكريات

حسنة.. هل سمعتم بقصة قطبة مع الجن والملوك ؟.. وأخذت تذكر قصة المارد الذي خطفها ، ثم كيف قتله قطبة بكل شجاعة وقوة ؟ وزواجها منه ، ومشاركته في حروب الجن بسيفه السحري ، ولما انتهت من هذه الذكريات قالت: أما الكتاب فعندما تفكر بمغادرة هذه البلاد ، فستجد الكتابة قد عادت إليه كما كانت .

فشكراها الشكر المناسب وإلى الملكة بوبا مشيا ، وكانت في انتظارهم على أحر من الجمر، فرحبت بهما أحر ترحيب ثم قالت بدون حياء: ما أصعب الانتظار يا مالك! لقد عشقتك قبل أن أراك ورضيت بك بعلا من غير ممانعة.. فيا مرحبا بفارسي الجميل !

فرد مالك: أهلا بك أيتها الملكة بوبا جئت إليك راغبا بالزواج وطامعا به .. ولي عندك رجاء وهو العفو عن نورا وزهرة ونجمة وأن يذهب الداء عن أزواجهن ..وأن تسمحي لهم بحضور زواجنا في هذه البلاد .

فقالت بدون تردد : لك ذلك يا مولاي وزيادة! .. قد وقع في قلبك إنني قاسية القلب ..أو أشد من ذلك بأنني مجرمة يا سيدي مالك ! .. ولكن هذه قوانين وشريعة بلادنا .. وهي عدم زواج الجارية وعدم العشق والحب والخيانة أثناء سنوات خدمتها .. وهذه الشرائع قبل ولادتنا ورثناها كابرا عن كابر يا سيدي مالك .. ولا نستطيع أن نغير من قوانيننا حتى لا نفسد علينا جوارينا .. فالخادمة تتزوج بموافقة مولاتها ورضاها .. فمعذرة .

فقال مالك باسما: هذا شأنكم ! ولكن قدر لنا أن نتعرف على هؤلاء المساكين لنخدمهم .. فارغب منك يا مولاتي الملكة أن تعفي عن كل جنية .. وتحضر زوجها وصاحبها ليشاركونا الفرح .. ولا يكرهوننا ويحقدون علينا وقد وعدناهم بذلك .

فقالت : أمرك يا سيدي الأمير مطاع !.. فأنا لك جارية وفي تنفيذ أمرك راغبة وإلى غيرك من الرجال ما لي مطمع ولا طمعت.. وصبرت وانتظرت مجيئك بفارغ الصبر يا سيدي الأمير.. فأتمنى أن أحقق لك السعادة التي يمكن للمرأة أن تقدمها إلى زوجها الحبيب.. فعمتي الساحرة عاشت سنوات مع أبيك .. وهي لم تتزوج منذ افترقا .. وما زالت وفية له.. وتحبكم أكثر مني

إن لم أكن مبالغا في ذلك .



في ليلة حارة ، والقمر البدر يسطع نوره على البحر ، والصيادون منهمكون في عملهم وإصلاح قواربهم وتجهيزها للصيد ، وفي تلك الليلة كان يجلس حران الصياد الماهر صاحب الجنية نورا على صخرته المعهودة ، ينظر إلى البحر إلى الرمال التي كان يجلس عليها مع معشوقته الجنية ، وبينما هو ينظر في أعماق البحر في تلك الليلة منتظرا خروج جنيته حالما بمجيئها ؛ فإذا به يرى فتاة قادمة بثوبها الجميل الزاهي قادمة من صوب الماء تركض ركضا خفيفا فاتحة ذراعيها، تردد بصوت هامس جميل : حران .. حـ...ران .. يا زوجي الحبيب ..يا زوجي الصابر !

فلما رآها قفز عن الصخرة يركض نحوها ، ويصيح بأعلى صوته : جميلتي نورا .. نورا .. أيتها الزوجة الحبيبة .. قد عدت .. قد عفت عنك الملكة بوبا ..

وتشابكت الأيدي، وارتفع النحيب والبكاء، والتف الصيادون حولهم كالحلقة، وهم مستغربون من هذا المشهد.. ويتساءلون هل هذا حلم أم حق ؟! وقد تركوا أعمالهم وصيدهم فقد ظنوا أن ساعة الجنون أتت حران .. ولكنهم رآوه يقف مع حورية البحر حورية بيضاء.. ويبكي وهي تبكي مثله .. ونسي العاشقان الزوجان من حولهما ..واستفاقا على صياح القوم فصاح حران : يا قوم .. هذه حوريتي نورا .. زوجتي الجنية التي كنت انتظر عودتها وخروجها من البحر .. فها هي قد خرجت .. والتفت إليها وقال : آنا في علم يا نورا ؟

فقالت : نعم ، يا زوجي الحبيب انتهى العذاب.. لقد عفت عنا الملكة بوبا .. وأمرتني بالاجتماع بك لأخذك إلى بلاد باب السر .. فهناك مالك ينتظر ليزيل عنك السقم .. وما ألم بك من المس والجن .. لقد عفت الملكة عني .. وباركت زواجنا، وأعفتني من خدمتها طاعة للأمير مالك بن قطبة الشاب النبيل .

فقال فرحا جذلا : أحقا ما أسمع يا زوجتي ؟!

همست: نعم ، فلنحيا سعداء في بلاد القمر.. في مدينة البحر مع هؤلاء الصيادين.

فصرخ بقوة : أيها الصيادون !.. أيها الصيادون! .. لقد عادت حوريتي التي حدثتكم عنها.. فاخبروا الناس كلهم أن حورية حران قد عادت إليه .. وأن حران سيعود للبحر.. للصيد ، ولن يفرق بيننا يا نورا إلا الموت .. وهكذا أيها الناس انتهت مأساتي وعذابي ..



أما الفارس ايهاب فإنه كان يجلس عند الحانوتي وهاج كعادته ، وفجاءة وقبل الغروب لشمس ذلك النهار .. وقبل أن يغادر الحانوتي إلى بيته قال ايهاب : يا وهاج العزيز .. أشعر بأنني سأرى سيدتي زهرة .. جنيتي زهرة .. أشعر بروحي تتحرك في جسدي ..!!

فقال الحانوتي بأسف وشفقة : يا مسكين .. دعك من هذا الكلام .. فجنيتك يا ولدي قد جننتك وصيرتك إلى هذه الحال المشفقة .

فتـنهد ايهاب الفارس وقال : يا سيدي .. لا تقسو عليّ في الكلام .. دعني اخرج .

وأزاح الحانوتي من طريقه ، واندفع خارجا ؛ فإذا امرأة مقنعة تقول : يا صاحب الحانوت .. أعندك ايهاب؟

فتسمر ايهاب في مكانه عندما سمع اسمه وسمع صوت المرأة وهتف قائلا : ويحك يا امرأة فصوتك صوت زهرة !

فرفعت القناع عن نفسها وقالت صائحة : من ؟!.. زوجي وسيدي ايهاب؟! .. حبيبي الذي أشقيته معاي !

وعاد يصيح من هول المفاجأة وهو غير مصدق : من ؟! أنت زهرة ؟! أحقا أمامي زهرة ؟! يا صاحب الحانوت هذه زهرة الجنية !.. ألم أقل لك أنني أشعر وأحس بأنني سأرى سيدتي زهرة قرة العين !

فقالت بحنان وحب: نعم ، أنا معشوقتك زهرة .. لقد عفت عني الملكة بوبا يا ايهاب الحبيب.. وأذنت لي بالاجتماع بك وتجديد زواجنا .. وأن أحملك إلى بلاد صاحب باب السر لتقابل الأمير

مالك بن قطبة الفاضل الكبير .. ليزيل السقم عنك .

فصاح جذلا : أصحيح ما تقولين يا زهرة السنين ؟!

فقالت وهي مشفقة : صحيح ما أقول.. وسوف تتعافى مما ألم بك من الجنون، ونسكن في بلاد الشمس في مدينة الغراب.. زوجان حبيبان سعيدان لا يفرق بيننا إلا الموت يا سيدي!

فقال بوله وشوق : ما أحلى كلامك يا زهرة القلب وما أجمله !! وما أحلى اللقاء بعد طول الفراق .. الحمد لله على نعمه ..

فقالت بشفقة وحنان : اعف عني يا سيدي! بما سببته لك من هذه الآلام ، كل هذه السنوات لقد كنا في عذاب وعقاب ..

فقال : سامحتك يا سيدتي .. لا عليك يا زوجتي .. فكل سعادة ولذة في هذه الدنيا سيتبعها أذى وشقاء.. وقد تطول وقد تقصر يا زهرة الفؤاد ..



وأما الفتى الثالث صاحبنا عماد الحداد.. تأخر به العمل في الدكان ، فقال لكلب والغلمان : أريد أن أقضي هذه الليلة هنا لعلي ألتقي بمحبوبتي الساحرة نجمة .. إن قلبي مضطرب الليلة .. انصرفوا راشدين .

فقال المعلم كلب : دعك من هذه التخيلات يا صاحبي ودعنا نوصلك للبيت .

فقال : لا بأس عليكم .. لا أدري أحس بأنني سأرى نجمة .. انصرفوا راشدين وفي الغد تعودون .

فأغلقوا الدكان ، وتركوا عمادا في الحجرة المعهودة الغرفة التي قابل فيها نجمة أول مرة ، وألقى بنفسه على السرير، وراح يحلم ويتخيل ؛ فإذا الجدار ينشق ، وتخرج منه أمام ناظريه حسناؤه الجميلة الجنية نجمة فعدل جلسته وقال : إنك جنيتي نجمة! زوجتي نجمة صورتها نفس صورتك ؟!.

فسمعها تهمس قائلة : أنا نجمة صاحبتك وحبيبتك ..

فصاح وهو يقف : ماذا تقولين؟! .. هل أنا في حلم ؟!

قالت : لا .. أنت في الحقيقة في علم.. لقد عدت إليك يا سيدي .. لقد أطلقت سراحي الملكة بوبا.. وأعفتني من خدمتها..وباركت لي زواجي بفضل سيدي الأمير مالك بن قطبة وأمرتني بإحضارك لتحضر حفل زواج الأمير مالك ، ويداويك مما أصابك بسببي .. فالعفو يا سيدي عماد على ما أذيتك به كل هذه السنين .

فبكى الحداد ، وبكت الجنية ، وأنّ وأنّت، وشكى وشكت ، ثم قال : لا عليك يا قرة العين.. هذا حال الدنيا ، فرح وترح ، وحياة وموت، سلام عليك ومرحبا بك .. آه! لقد كنت أشعر الليلة قبل بمجيئك بأني سأراك هذه الليلة .

قالت : ذهبت لبيتك وانتظرتك ، فلم تحضر .. فجئت إلى هنا لاجتمع بك وأبشرك بالفرج والسلامة ونهاية مأساتنا وفراقنا .. وسوف أسكن معك هنا في بلاد السرو من غير خوف من شداد ولا غيره .. يا سيدي عماد

فقال جذلا : على الرحب والسعة يا زوجتي العزيزة .. متى سنرحل إلى الأمير الطيب مالك بن قطبة يا أميرتي ؟

فقالت : قريبا يا مولاي الحبيب .. سنطير إلى هناك ولسوف ترى مولاتي بوبا .. إنها ملكة جميلة وطيبة رغم ما صنعت بنا من العذاب.. فقانون بلادنا شديد .. ويحرم على الجواري الزواج بغير إذن الملكة .. فهي لا تستطيع ترك التقاليد التي درج عليها الملوك والملكات ..

فقال الحداد : أنت قلبك طيب وكبير يا نجمة .. ليت مولاتك تشعر بذلك .

فقالت : صدقني أيها الحبيب أن الملكة بوبا الذي يسمع عنها وعن أفعالها يظن أن قلبها قُد من حجر .. لا ، إنها طيبة القلب وهي ستتزوج من إنسي مثلي .. ستتزوج من مالك بن قطبة ؛ ولكن كما قلت لك تقاليد وقانون البلاد قاس .. ولا يرحم.. فلا تكرهها فهي ستكون زوجة صديقك مالك بن قطبة .

فقال عماد: وهل يكره المحب؟!.. كيف أكرهها ؟! قلبي المحب لا يعرف الكره يا نجمة

القلب؟.. المهم أن نعيش بسلام وأمان .

فقالت : اعلم يا سيدي أن الجنية إذا خرجت من خدمة الأسياد فلا دخل لهم بها ألبته .. فنحن سنعيش بإذن الملك العلام سعيدين ولا يفرق بيننا سوى الموت .

فقال وهو يحلم : أرجو ذلك .

****

هذه قصة الشباب الثلاثة ، وما أصابهم من البلاء بسبب العشق والغرام من بنات الجآن ، ولكن رحمة الرحمن تدرك المخلوقات في كل أوان ، وتزوج الأمير مالك ، كما هو مقرر من الملكة الجنية بوبا عن عطية الملك قشمر بن رهوان بحضرة الملوك والأمراء ، وكان زواجا مشهودا من ملوك الجآن ، ومن الملك طهمان صاحب السلطان في بلاد الاغمار، ثم تزوج الأمير سالك من ابنة أخ الملك طهمان بن زلمان، واحتفظ مالك بالكتاب ، واحتفظ سالك بالسيف السحري ، وعمت الأفراح البلاد ، ثم تنازلت الملكة بوبا عن الملك لأختها ، وسافرت مع زوجها إلى بلاد السرو بما حملت من المال والثياب ، وحصل لسالك مثل مالك ، ولما وصلوا الدار القديمة دار قطبة الفارس ، أتى الصناع وحسنوا المنزل ، وشيدوا على أرضه بناء جديدا ، فعادت الحياة لبيت قطبة المهجور منذ سنوات ، وسمع الملك عماد بأخبار مالك وسالك ، فجاء إليهما مباركا ومهنئا، وألحقهما بخدمة الديوان ، فاعتذرا وشكرا له اهتمامه بهما ، وحدثوه عن كنز البئر المهجورة فقال معقبا : ويحكما إنكما داهيتان! .. فعموما قصري مفتوح لكما في كل أوان .

فأصبحوا من سادة البلاد ، ويعم منزلهم الغريب والقريب ، وتعهدا بالإحسان للفقير والغني وعمل المعروف مع الصديق والعدو ، فأصبحت سيرتهم على كل لسان ، واشتغل مالك في صناعة الحبال ، وقام سالك بفتح دكان للحدادة كما كان ، ونساؤهما تعنيان بالبستان، وقد زارهما زهمان وزوجته نازك وبينهما طفلان نعمى وسلمى، وزاروا الملك في ديوانه ، وذكره زهمان بيوم تزوجه الأميرة نازكا، وغضب الملك عليه ثم قال له : أين الوزير يا نادرة الزمان؟!

فضحك الملك وقال: أما زلت تذكره ؟.. فهو موجود وما زال على كرسي الوزارة معدود

ومحسوب .

وأمضوا سهرة طيبة مع الملك، ثم عادوا لمنزلهم الجميل، وقد تعجب الجيران والأقارب من حسن صورة زوج نازك ، وهنئوها بهذا الزوج بعدما عرفوا أنه أمير ابن ملك عظيم ، وسمع الناس في بلاد السرو قصة قطبة بن سنان وحياته عند ملوك الجآن وحروبه معهم ، فكانت حكاية يتوارثها الناس جيلا بعد جيل ، ويتسلون بها في ليالي السمر لعلهم يجدون فيها عبرا وثمرا ، وهي تسلية للنفوس في لحظة ملل وفتر، ونستغفر الله من زلل اللسان وسوء البيان ، ونسأل الله حسن الختام ، ونعوذ به من الفتن وسوء الحال والمآل ، وهذه الحكايات كأنها أحلام وأوهام .

تمت

قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

قطبة بن سنان

صاحب ورافق الجن وسرواتها

وحصل على كتاب الدواء السحري

وجمع كنزا من حروب الجن

وخطب لولديه من بنات الجن

فسعى سالك ومالك للقاء

الحداد والفارس إيهاب والبحار حران

ومعرفة قصصهم مع الجنيات

ومساعدتهم للعودة للجنيات بعد حياة العقاب

فما هي أسرار قطبة؟


الفوارس
حصرم بن سلام
جمال شاهين
منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات الفوارس

٩

جمال شاهين

حصرم بن سلام

١٩٩٤

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

حصرم بن سلام


حصرم بن سلام

حصرم بن سلام

قال لي صاحبي هانئ بن دينار ذات مساء ، وهو يمسك يدي بيده ، وكان ذلك بعد أن صلينا صلاة العشاء في الجامع الكبير في وسط مدينة السلام : أيها الصديق الطيب ، لقد التقيت برجل كريم شجاع عركته السنون والأيام ، يسكن في طرف المدينة في منزل واسع كبير محاط بأشجار كثيرة ومختلفة الألوان والثمار، أشجار السرو الباسقة والصنوبر والحور والجوز والنخيل والتفاح ولا تنسى العنب والرمان والزيتون واللوز والليمون والخوخ ، جـنة من جنات الأرض ، وفيه أو فيها أيها الصديق الأزهار ذوات الألوان من الياسمين والورد والنرجس ، أسماء كثيرة ذكرها أمامي البستاني قيم البستان نسيت أكثرها ، فهي جنة رائعة ذكرتني بحدائق الوزير خالد الهندي التي كان يضرب بها المثل أيام مولانا أسد الدين أحمد بن السلطان نهار الدين عباس والتي أكثر من وصفها شعراء ذلك الزمان ، وتغنى بها أهل الطرب والغناء ، وفي هذه الجنة غرفة واسعة لجلوس الضيوف والسمر في ليالي الصيف والمطر فيها من الفرش النادر والثمين فيها بسط ووسائد مطرزة بالحرير وخيوط الفضة ، وعند صاحب تلك الجنة الغلمان ذو الحسن والبهاء والجمال الآخاذ ، وعن الجواري الحسان لا تسأل أيها الصاحب ، فهو يعيش كأنه ملك من ملوك الأندلس في الزهراء أو الزاهرة ، وصاحبي حصرم بن سلام سكن هذا القصر منذ عهد قريب ، عندما قرر أن يترك ويكف عن السفر والرحيل والترحال بين المدن والأمصار، فجاء مدينة السلام ينشد السلام والراحة ، ثم اشترى هذا المكان من الوزير أو قريب الوزير بهاء الدين أحمد وزير مولانا أمير المؤمنين سيف الدنيا وناصر الدين .

وتابع الكلام صاحبي ابن دينار قائلا : ولقد التقيت به منذ أيام ، فدعاني لقصره ، فشاهدت ذلك البهاء والجمال ، ودار بيننا الحديث عن الحوادث والـفقر والغنى ، فتبين لي أن صاحبنا حصرما صاحب حكايات ومغامرات ، وقصص ساحرات باهرات ، وهو يبحث عن إنسان كاتب أديب ، يسمع حكاياته ويدونها على وريقاته؛ لتكون تسلية لمن تقع بين يديه وتحت عينيه ليرى كيف كان فقيرا معدما لا يملك درهما ولا نقيرا ؟ وكيف كان أفقر الناس ؟ فأصبح بفضل

من الله ذا مال وفير وخير جسيم ، فتذكرتك يا سلامة ، ورأيت أنك خير من يسمع الكلام ، ثم يدونه على القراطيس ، ويجعل منه حكاية فيها عبر وثمرات ، فوعدت ذاك المفضال بإحضارك ؛ لتسمع تلك الحكايات العجيبات ، وتكتبها على أوراق لامعات ، ولسوف يجازيك خير الجزاء ، فيا أخي سلامة ما تقول في هذا العرض ، نذهب ونمشي إليه كل مساء بعد صلاة العشاء بإذن الله تعالى رب كل المخلوقات ، نتسامر معه ، ونسمع سوالفه ومغامراته ، ثم تعود للبيت ، وترسمها بقلمك الرائع يا سلامة بن محمود .

فلما سمعت كلام صاحبي هانئ في صاحبه الجديد حصرم قلت له : أمهلني أيها الصاحب يوما أو يومين ؛ لأرتب الأمر في ذهني وعقلي وأنظر في وقتي ، وافترقنا على ذلك .

وبعد يومين اثنين التقيت بصديقي ابن دينار ، وكان ذلك أيضا بعد صلاة العشاء عند المسجد الكبير في دار السلام ، وبـعد التحية والسلام ، قلت لصاحبي : خذني لصديقك الجديد ابن سلام لنسمع ما اتفق له مع الأيام من القصص والعبر والأخبار.

فاردفني على بغلته البيضاء ، وهو يقول مسرورا : لقد كنت متأكدا واثقا بأنك لن ترفض طلبي ولن تخيب اختياري يا حضرة الأديب الغالي .

وبعد مسير نصف ساعة من الزمان ، كان الغلمان يدخلوننا منزل وجنة حصرم بن سلام الذي رحب بنا أحسن ترحيب كأعز الأصدقاء والأصحاب ، وتعارفنا من جديد ، ودار بيننا السؤال والجواب عن الحال والأحوال حتى وصلنا بيت القصيد والغاية من الزيارة إلى ذلك المكان ، فأخذ نفسا عميقا ثم قال : يطيب بكم اللقاء ، وسأذكر لكم قصتي الأولى مع العميان في مدينة هاوان ولكن بعد تناول الطعام.

وكان رئيس الغلمان كأنه في انتظار الإشارة من صاحب الدار ، فجاءت المائدة وعليها ما لذ وطاب من الطعام والشراب ، ولما رفعت المائدة وغسلنا أيدينا بالماء الزاهر ، أحضرت الفواكه ذات الأشكال والألوان ، فأخذنا أنا وصاحبي بالقضم والهضم ، مرة من التفاح ، ومرة من الأجاص ، ولا تسأل عن الأكواب ذات الأصناف التي يضعها بين أيدينا الغلمان ، مرة عصير

البرتقال ، وأخرى عصير الرمان ، وانشغل مضيفنا بالكلام .

"حكاية الشيخ عبدون "

وكان يقول: أيها الصديقان العزيزان تبدأ حكايتي عندما غادرت وفارقت قريتي الصغيرة ، وهي بلدة صغيرة اسمها "جمانوسا "، وأذكر أن أبي مات وأنا غلام يافع ، لا أعي عن دنياي شيئا ، وكانت والدتي مريضة بمرض شديد ، وكنا نعيش على إحسان أهل اليسار في البلدة ، صحن طعام من هنا وآخر من هناك...وبعد سنوات من البؤس والشقاء ماتت أمي ولحقت بأبي سلام ، فظللت أنا وأختاي اللتين تكبرانني نعاني من الفقر والحاجة ، ومنذ وفاة أبي وأختاي تعملان وتخدمان في بيوت الناس مقابل عدد من الدريهمات حتى بلغت من العمر عشرين سنة فودعت أختاي مقررا الرحيل إلى مدينة كبرى ، باحثا عن الحياة الفضلى، والرزق الأوسع، مخلفا ورائي حياة البؤس والشدة ، فقلت : أضرب في الأرض لعلي أجد السعادة في بلدة أخرى فخرجت من القرية ، ولا أملك في سروالي سوى خمسة دراهم تصدقت بها عليّ أختاي ورغيف من الخبز ، وتوكلت على الحي الذي لا يموت ، ولم أتعلم في قريتي سوى رعي غنيمات لأحد الميسورين مقابل طعام وشراب وكسوة في العام مرة .

وقال حصرم بعد ذلك التقديم : فقطعت عدة قرى حتى وصلت إلى مدينة كبيرة عظيمة اسمها هاوان، يقال إن ملكها يدعى بالملك النبهان، وفي أول مسجد صادفني أمضيت ليلتي ، ولقد كان قيم ذلك المسجد طيبا أطعمني وسقاني ورثى لحالي؛ ولكنه عبد فقير مثلي يعيش على إحسان الاخرين وصدقاتهم ، ومع ذلك شاركني في قوته ، وكان يقسمه بيننا ، ومكثت أياما أتنقل من سوق إلى سوق ، ومن درب إلى درب ، وفي الليل أعود إليه أبيت عنده ، ومن خلال تجوالي في أزقة المدينة وأحيائها ومساجدها وأسواقها لاحظت أن الناس يتصدقون ويعطفون على العميان والعوران وذوي العاهات ، فوقع في نفسي أن أقلد العميان لأجمع مبلغا من المال أدبر به شأني ، فتقرر لدي أن أتظاهر بالعمى ، وأجلس على باب مسجد كبير أو سوق كبير متظاهرا بالعجز والحاجة، فملابسي رثة قذرة أكل عليها الدهر وشرب ، وعصبت رأسي بعصابة

وسخة، وطليت وجهي وجبيني ببعض الرماد والشحبار، وأغمضت عيناي ببعض الصمغ من إحدى الأشجار، وحملت عكازا عتيقة، وتمجلست أمام بيت من بيوت الله ، أطلب من الناس الصدقة والإحسان..وما خيب الناس ظني ، فهذا يلقي دانقا وآخر درهما..وهي مهنة سهلة هينة ، فكنت أمضي نهاري في التجوال بين المساجد والأسواق، وفي الليل أعود لصاحبي قيم المسجد السابق ذكره فأنام ، ولم أحدث صاحبي المؤذن بشيء من أمري ، ولا هو سألني عن ذلك .

ولكن إلى متى أستمر في التسول ؟! .. هذا ما كنت أفكر به ويؤرقني يا سادة يا كرام ! وما مضت عليّ بضعة أيام في هذه المهنة اللطيفة الا وثلاثة من العميان يحتكون بي ويتعرفون عليّ ، وبعدئذ قال لي أحدهم : بما أنك غريب عن هذه البلدة فإني لك ناصح .. فنحن نعمل عند الشيخ عبدون .. نشحد ونتسول طول النهار ، وفي الليل يحضر غلمانه ويقتادوننا إلى بيت الشيخ عبدون ؛ فنأكل وننام حتى الصباح ، ويأخذ الشيخ عبدون ما كنا قد جمعناه طول النهار.

وقال الشحاد الضرير الثاني : نعمل في النهار وفي الليل ندفع له المال ؛ فيكرمنا الشيخ عبدون بالأكل والحمام والمنام، ولا نتعرض للصفع والإذلال من غلمانه .. واعلم يا سيد عيد أن ذلك خير لك من أن تظل تبيت في الجوامع .

ولما طال صمتي قال ثالثهم : وإن رفضت ما نعرضه عليك نخشى أن يصيبك من سيدنا عبدون الأذى الكبير ، ويطردونك من المدينة شر طردة .. فهو المسؤول عن كل العميان وأصحاب العاهات الذين يتسولون في هذه المدينة يا غريب .. وأنت بحاجة لمأوى ومساعدة قال حصرم بن سلام : لما سمعت كل كلامهم أدركت أن عليّ خطرا إن لم أجتمع بشيخهم عبدون ، أو أن أتخلى عن حرفة الشحدة فلا أراه ، ولكن للدراهم حلاوة وخاصة لمحروم مثلي فاتفقت أن ألتقي بهم في اليوم التالي بعد صلاة العشاء أمام مسجد السلطانة ؛ لأصحبهم إلى الشيخ عبدون متعللا بأني راغب في وداع صاحبي المؤذن .

عدت لصاحبي حمدان واستودعته ما جمعت من مال أمانة عنده مظهرا له أني جمعتها من كد

عمل شريف ، ومعلنا له أني خارج للعمل خارج المدينة ، ولما ارجع إليه يدفع لي مالي ، وإن لم أعد فهو هبة مني إليه ، وفي الصباح ودعته وانطلقت لعملي المعروف لديكم أيها السادة الكرام يا قوم .. تسولت طول النهار، ثم اجتمعت بالعميان الثلاثة أمام مسجد السلطانة ، بعد خروج الناس من الجوامع مؤدين الصلاة المكتوبة لفرض العشاء، ومكثت معهم حتى أتى شاب طويل القامة يدعى "راحب" ، فرحب بي وعرفني على نفسه ، وقادنا لمنزل الشيخ عبدون ، وهذا الشاب وغيره من غلمان الشيخ المذكور مهمتهم قيادة العميان والعجزة إلى أماكن الشحدة صباحا ومساءً.. وهو والعميان الثلاثة يعتقدون أنني كفيف مثلهم ، وأني رجل كهل لست شابا ، فثيابي العجيبة الواسعة القذرة تظهرني بأنني ضعيف البنية وكبير في السن ..ولقد خشيت حقا أن أتعرض للضرب والطرد من بلاد الملك النبهان ، فصممت على مسايرتهم والتعرف على عبدون شيخهم وزعيمهم .

وقادنا راحب خادم عبدون إلى حي أو درب بدا لي من أفقر وأقذر دروب مدينة هاوان ، وفي آخر الحي أدخلنا الغلام من باب صغير ، كان مدخلا لعدد كثير من الغرف ، وسمعت لغطا كثيرا فتيقنت أن كل المتسولين يقطنون في هذا البيت الكبير .

فقال لي أحد العميان الثلاثة: هذا يا صاحبنا الجديد مجتمع العميان والعوران المتسولون في هذه المدينة .. يقوم الشيخ عبدون برعايتهم وخدمتهم مقابل ما يجمعونه خلال النهار ، وأخذ يسرد على مسامعي محاسن السيد عبدون ، وأنا صامت وكلي رهبة وقلق ، ثم أدخلوني على الشيخ عبدون فإذا هو رجل بدين مشدود العضل معتدل القوام واسع العينين مقطب الجبين أصلع قذر ، كنت أرى أنه قريب من الستين ، يجلس على كرسي فخم ؛ كأنه أحد ملوك الدنيا ، وأنا في ذلك الحين لم تقع عيناي قط على ملك ، فقذفت رؤيته في قلبي الرعب والوهن والهيبة ، وعلى يمينه زوجة ، وعلى اليسرى زوجة أخرى ، وأمامهم جاريتان ، فحياني أحسن تحية ورحب بي في مدينة هاوان خير ترحيب ، وأظهر لي حبه وعطفه وشفقته على العميان والضعفاء ، وأنه يأويهم من برد الشتاء وحر الصيف ، ويوفر لهم الزاد والحمام والعناية التامة ، فأبديت له شكري

وثناني على أريحيته وحبه للمساكين ، وبعد ذلك سألني عن اسمي وبلدتي وسبب مجيئي لهذه البلدة ، وحذرني في النهاية من الغدر وإخفاء أي شيء من المال الذي أجمعه من عباد الله طول النهار .

قال صديقنا حصرم بن سلام : الحق أنه ملأ قلبي رعبا مع أنني في قريتي النائية كنت أصرع الضبع وأفتك بالذئب، وكم انتفعت بجلودها أيام أن كنت راعيا ؟! .. رعبت من نظراته النارية القاسية الفاحصة ، ووقع في نفسي المغادرة إلى بلاد أخرى على الفور.. ولكني استجمعت شجاعتي التي اكتسبتها في "جمانوسا" وهززت رأسي راضخا بالموافقة ، وبعد هذه الجلسة قام غلمانه بتفتيشي وسلب ما معي من القطع المالية ، فظهر لي أنه رجل لا ذمة عنده ولا دين .. وله زوجتان عملاقتان مثله بل أشد شراسة ولؤما منه كما أبدت الأيام وعند انتصاف الليل أخذوني لغرفة الطعام ، فأحضرت لي الجاريتان السوداوتان طعاما من العدس والبصل وفاكهة ، ثم حضر غلام من غلمانه وأدخلني حجرة أنام فيها ، فوجدت فيها ستة من ضيوف الشيخ عبدون وترك الغلام يدي صارخا: نم يا عيد مع هؤلاء الناس ، فهذه حجرتك عند الرقاد .

كما قلت لكم سابقا لقد ملأ الخوف قلبي من عبدون وجماعته ، وهتفت مؤنبا نفسي :إنني قد تورطت في هذه العمل الشنيع وهذا جزائي ..ولكن لابد من الصبر ومعرفة أسرار هؤلاء القوم قبل عداوتهم أو الهرب من بين أنيابهم .



قال حصرم : أيها السادة الكرام ! فلما يصيح الديك لصلاة الفجر يأتي غلمان الشيخ ويوزعون علينا قطعا من الخبز ، أظن أنه ما يتبقى من وراء عشاء هؤلاء المساكين ، وخلال ذلك يبدأ غلمان عبدون بنقل هؤلاء إلى أماكن عملهم ، فيأخذ كل غلام اثنين أو ثلاثة ، ثم يعودون كرة أخرى ، وهكذا يفعلون بنا ليلا .

إذن هم يتركونهم عند أبواب المساجد ، وقلب الأسواق ليتسولوا ذلك النهار، ثم تتجمع كل مجموعة في الليل عند مسجد مسمى لها ، فيحضر الشاب القائد فيقودهم إلى قصر عبدون العتيد

فيأخذون ما جمعنا من مال ، وعلينا أن نخبر عبدون بكل شيء يحدث لنا في الأسواق ؛ فإذا حصلت لأحدنا مشكلة مع أي شخص عليه أن يحدث بها عبدون ، وإذا ظهر متسول جديد في المدينة على من التقى به أن يخبر الشيخ عبدون بأمره ، ولما يتجمع العميان والعوران وغيرهم من أصحاب المصائب فيؤخذ بنا إلى غرفة الطعام ، ومنها إلى غرف النوم ، ويوجد حمام للاغتسال ، ومسموح للمرء منا أن يستحم فيه مرة واحدة في الأسبوع ، وبعد حين يسير لاحظت أنه إذا شرد أحد أو اختفى لأمر ما ، ثم قبض عليه أو عاد بنفسه يحبس في غرفة مغلقة بدون هوادة أو رحمة عدة أيام ، ثم يعفى عنه ، ويحذر من تكرار فعلته وغيبته ، فإذا تكرر غيابه وعدم التزامه بأمر الجماعة أو أخفى ما أخذه من الناس أو بـعضه يحبس شهرا يذل فيه ذلا مهينا لا يطاق ، ثم يعفى عنه ، فإذا عاد للمخالفة من جديد يحبس حتى الموت ، ثم يقذف به على مزبلة في طرف المدينة الشرقي ، ولا يخبر أهله عنه إن كان له أهل أو أقارب ، والشرطة لا تكترث للأمر ، هذا العقاب اللئيم سمعت به من هؤلاء الضعفاء .

مكثت أشهرا أعمل للسيد عبدون ، وكنا نسمع من السيد عبدون السبّ والشتم القبيح إذا قصرنا في التحصيل ، وأحيانا كثيرة نتعرض للرفس والصفع من عبدون اللعين وزوجتيه الضخمتين، وأحيانا أخرى الحرمان من العشاء أو ننام في العراء، وقد حصل لي من كل ذلك الهوان ، فذات نهار لم أتحصل إلا على درهم واحد ، فاتهمني الرئيس بالغش والخيانة ونكران الجميل، وجرى تفتيشي ثلاث مرات، وصفعني صفعة طار لها مخي ورأسي حتى أنني مرضت منها أسبوعا كاملا، فحقدت على عبدون على أثرها حقدا شديدا ، وصممت أن أدمر عبدون تدميرا تتحدث به الأجيال في مدينة هاوان ، ويسمع به الملك النبهان وحاشيته .

وتابع محدثنا حصرم القص علينا بعد أن تعرض للصفع والتجريح من سيد الشحاذين الشيخ عبدون ، فقال : ولكنني أيها الصديقان في هذا الأسبوع علمت أين يخفي ذاك الرجل القاسي أمواله التي يسلبها من العميان والعوران ؟! فهو يضعها في غرفة زوجته "عبلة " فوقع في قلبي أن أحرق قلبه على ماله ، فبدأت أرسم خطة سرقة مال عبدون، والذي ساعدني على كشف

هذا السر أنه مع ضحى النهار يخلو المكان الا من عبدون ، تخرج الزوجتان بصحبة الغلمان ، وتخرج معهما الجاريتان السوداويتان المسئولتان عن إعداد طعام المساكين ، يخرج الجميع إلى الأسواق لشراء الأقوات ، وتحويل القطع النقدية إلى حلي وجواهر ، عندما انطلق القوم دخل عبدون إلى غرفة عبلة ؛ فكأن السيد عبدون نسي وجودي ، ولأنني مريض طريح الفراش، وكذلك لاعتقاده بأنني كفيف لا أرى، فلن أكشف سره، فدخل غرفة السيدة عبلة ، وأخرج جرة فخارية واسقط منها المال ، وأخذ في إحصائه ، فسمعت صوت المال، فتسللت وشاهدته وهو يعده ويعيده للجرة ، ثم يضعها في حفرة في غرفة السيدة عبلة ، ثم أهال عليها التراب والفراش ، وعدت لغرفتي سريعا أئن من المرض والألم ؛ فكأنه شعر بحركتي فزارني وهو هائج ، فقال: يا عيد ألم يخف مرضك وألمك بعد ؟! .. لقد مللنا من مرضك لقد أصبحت عالة على إخوانك وتأكل وتشرب وتنام على جيوبهم . وسب ولعن وصرخ ونوح ثم انصرف يتفقد أمواله .

المهم أيها الأصدقاء كبرت في مخي ودماغي فكرة تدمير الشيخ عبدون ، قلت لنفسي: اصبري يا نفس ..اصبر يا حصرم ، وتعافيت من مرضي وعدت لمزاولة المهنة كالعادة ، وظللت على ذلك ما يقارب أشهر ثلاثة ، أتحمل فيها ظلم عبدون وزوجتيه ،وأقول لنفسي الناقمة " اجمع اجمع سيصير كله لي "، واعلموا أيها الأصدقاء الطيبون أن عبدون هذا إذا مرض أحدنا لا يهتم به كثيرا ، ولا يحضر له طبيبا ؛ وإنما يتغاضى عن شغله بضعة أيام، فكنا نحن الضعفاء نعطف على بعض، ونواسي بعضنا بعضا إلى أن كان يوم قد مرض فيه أحد الشحاذين مرضا هلك على أثره ، فلم يدفنوه حسب العوائد البشرية ؛ ولكنهم أخذوه في جوف الليل وألقوه بالقرب من مزبلة بعيدة .. ولقد نسيت أن أذكر لكم أن عبدون هذا اللعين كان قد حذرني في أول الأمر من كشف أسراره ، أو الحديث عن شيء يجري في المنزل لأحد الناس ، أو أحدث أحدا بما أسمع في منزله الرهيب ، وبما أننا فقراء ضعفاء أصحاب عاهات لا أهل ولا مأوى فلا نستطيع أن نخبر أحدا بما يقع علينا من ظلم وذل ، فكان موت هبار قاسيا عليّ ، ونهايته السيئة في المزبلة قد

أحرقت قلبي ، وأعطاني دفعة أخرى من الشجاعة للانتقام من عبدون وزوجتيه وغلمانه ؛ ولكن هؤلاء العميان الحقيقيين بحاجة لمن يطعمهم ويوفر لهم النوم والدفء فرضوا بحياة الهوان عند عبدون الجبار القاسي القلب ، ومع هذا الحدث المرعب وضعت وأكملت خطة الانتقام .

فزرت صاحبي حمدان المؤذن وأخذت منه خمسين درهما ، ووهبته الباقي وودعته وداعا أبديا ، واستأجرت منزلا بخمسة دراهم في الأسبوع الواحد ، واشتريت ثيابا جديدة حسب الخطة ، فصرت خلال النهار أتسول بعض الوقت ، وامكث في بيتي حتى الليل ، ثم ارتدي ملابس التسول والفقر ، ثم اجتمع بمجموعتي عند أحد المساجد الموصوفة لنا ، فيأتي أحد غلمان عبدون ويقودنا للبيت ، ويأخذون ما جمعناه في النهار ، ونسمع الكلام البذيء الردي فنأكل وننام ، وقد عاهدناهم على بذل أقصى الجهد في التسول والرجاء .

اعلموا أيها الأصدقاء أنني أخضعت منزل عبدون للمراقبة أثناء النهار، وكما رويت لكم سابقا كان المنزل يفرغ تقريبا فترة الضحى ، فلا يبقى الا عبدون ومن يكون مريضا لا يستطيع العمل في ذلك اليوم ، فكانت الخطة اقتحام المنزل أثناء غياب القوم ، وذلك في يوم لا يكون أحد من العميان موجودا فيه ، وجاء اليوم سريعا ، فلما خرجنا مع غلام عبدون صباحا ثم تركنا في الأسواق كالعادة ، فعكفت إلى منزلي المستأجر ، فخلعت ثياب العمل ولبست ثيابا أخرى تظهرني شابا مفتول العضل ، وأخذت كيسا من الخيش وحبلا وسكينا طويلة ، وأسرعت نحو بيت عبدون أراقبه خفية ، وفي الوقت المعتاد خرجت الزوجتان والجاريتان والغلمان ، ففرحت لأن خطتي تتقدم كما رسمتها ، ولما اختفوا عن الأنظار تريثت قليلا حتى ابتعدوا ، فتقدمت نحو باب المنزل وقرعته بشدة ، ثم دفعته داخلا فإذا عبدون يخرج من غرفته هائجا وهو يصيح : من بالباب ؟ بل مَن أنت ؟!

فغيرت من لهجتي المعروفة لديه وقلت برباطة جأش : أنا غلام الشيخ جدعان الذي أرسلني إليك ..!

فصاح : مَن جدعان هذا ؟ يا هذا !

فقلت وقد أصبحت أمامه : يا سيدي ! ألا تـعرف الشيخ جدعان ..الشيخ المعروف لأهل المدينة كلهم.

فصاح : لا أدري مَن هو سيدك فأنا لا أعرفه ، ماذا يريد جدعون هذا أو جدعان مني ؟ يا غلام النحس!

وفي هذه اللحظة الحاسمة كانت يدي قد أمسكت بالسكين مسكا قويا وقبل أن ينهي كلامه كانت سكيني تنغرس في كرشه ، ولكمته لكمة قوية على الفور فوقع على الأرض طريحا يصيح ويخور ، فوضعت في فمه خرقة ، وأوثقته بالحبل الذي أحضرته معي ، ثم اقتحمت غرفة عبلة، وأخرجت الجرة وأفرغتها في الكيس، ووجدت فيها صندوقا فإذا هو ممتلئ بالعقود والجواهر فأفرغته هو الأخر وأغلقت الكيس ، وعدت لبيتي الخاص وخبأت المال في حفرة كنت قد أعددتها لـمثل هذه الساعة ، ومكثت حتى الليل ـ وكنت قد أزلت الدماء التي أصابت أنحاء من جسمي ـ فلبست ثياب التسول ، وقد هدأت أعصابي لهذه المغامرة الرهيبة ، وأخذت في التسول كالمعتاد ، وقد أعددت مبلغا أكثر من المعتاد لأسلمه لعبدون اللئيم ، ولما حضر غلام عبدون ليعود بنا إلى البيت كان متوترا وقليل الكلام ، وكأن كارثة حلت به بل هي كارثة ، ولولا الظلام لرأيت أن وجهه كان مصفرا ، وقادنا للبيت بهدوء وصمت ، ولقد كنت قلقا من أن يكون عبدون فطنا ، وعرف صوتي ولكنـتي؛ ولكني أقول لنفسي مطمئنا لها : هذا احتمال بعيد .. وهو يعتقد بأنني أعمى وكهل .

كان البيت هادئا لم يستقبلنا الشيخ عبدون ويشرف على سلبنا كعادته، استقبلتنا إحدى زوجتيه وأخذت منا ما جمعناه من المال ، واطعموننا العشاء بعجلة ، فأظهرنا دهشتنا وتعجبنا فنهروننا عن الاسترسال في الفضول وإلى غرف النوم ادخلوننا ، لقد كان المكان متوترا وكئيبا تلك الليلة فالغلمان خائفون والجاريتان كذلك ، وكان الصمت والحزن يخيمان على المكان .

وبعد أيام يسيرة اجتمعت بنا احدى الزوجتين ، وذكرت لنا أن لصا اقتحم البيت واعتدى على ولي نعمتنا الشيخ المحترم عبدون وسرق المال ، فعلينا أن نجتهد في الإصغاء هنا وهناك لعلنا

نعرف شيئا عن اللص الخطير ، ووعدت هذه الزوجة المساكين بدجاجة محمرة في الفرن ، دجاجة كاملة لكل من يأتي بخبر عن السارق والمال المسروق ، فسال لعاب المساكين لهذا الوعد الغريب.

قال صاحبنا الجديد حصرم بن سلام : المهم أيها الأصدقاء أنني أدركت أن القوم قد بلعوا الملعوب ، ولا يستطيعون فضح أنفسهم بإخبار شرطة الحاكم الملك النبهان ، وإنما غيروا نظام الخروج ، فكان يبقى غلام عند الشيخ ، وتبقى امرأة من نسائه في فترة الصباح ، فهم خائفون من عودة اللص مرة ثانية .

وبعد هذه الضربة خفت حدة القوم على العميان ، فقد خف السب والشتم ، وقل الاجتماع بعبدون ، وتعافى عبدون هذا بعد شهرين من الزمان ، وتحسنت صحته بأسرع مما ظننت ، فبدأت أفكر بملعوب جديد أو آخذ المال الذي سلبته وأغادر هاوان .

أيها الكرام خلال عملي بالتسول تعرفت على أسواق المدينة والتجار على مختلف ألوانهم ، وصار من ضمن عملي اليومي ترك شخصية الشحاذ من الضحى حتى العصر ، وخطر في نفسي أن أترك الشحاذ واعمل لي حانوتا وأتعلم مهنة جميلة ونظيفة ، فقررت عرض أحد العقود على تاجر الذهب والفضة ، فأخذت ذات نهار عقدا وذهبت لأشهر تاجر ذهب في هاوان وهو السيد زهران ، ولما تناول الرجل العقد وأمعن النظر فيه فأخذ يدقق النظر فيّ ، ويسألني عن اسمي وعملي فرابني ذلك النظر والكلام ، فقلت له : أنا يا سيدي خادم في بيت أحد التجار ، وحاول معرفة المزيد من المعلومات فتاغضبت وقلت : يا هذا كم تدفع فيه؟ فزوجة سيدي أمرتني ببيعه ومن دفع أكثر من السادة التجار بعته إياه .

فقال لي : كم دفعوا لك ؟ فأجبت : أنت أول تاجر أعرضه عليه .. وأنت أشهرهم في مدينتنا هذه .

فقال : ما رأيك أن تصبر على بقائه عندي لمساء الغد؟ وسأدفع لك فيه خمسين ألف درهم ، سأعرضه على ناس طلبوا مني عقدا قريبا من صفاته فتسفيد واستفيد .. وأما ثمنه اذا بعته

الساعة قد يبلغ سبعة الاف دينار.

فقلت : عرض مغرٍ ، هات دفعة مقدمة أو رهنا وسآتيك غدا مساءً على خمسين ألف درهم والزيادة لك يا سيدي ، وستسر سيدتي أم البشر بذلك . فقال وهو يضحك : هل الرهن ضروري ؟ .

فقلت وأنا أجاريه في الضحك : هذه يا سيدي الدنيا حياة أو موت وابن أدم طماع

فقال ضاحكا : أنت خادم ذكي ، ما اسمك أيها الخادم الأمين ؟

فقلت : خادمك نحلة ، خادم السيدة أم البشر ، وبما أن ثمنه كما قلت سبعة الاف فهات خمسة الاف .. وإذا بعته لصاحبك الذي ذكرت بالمبلغ المذكور دفعت لي الباقي وأخذت نصيبك .

قال التاجر : أعطيك خمسمائة درهم وغدا نتفاهم .

وبعد أخذ ورد قبضت ثلاثة الآف دينار وانصرفت وأنا قلق وحذر ، فعدت للبيت وأنا أتلفت حولي ، وعند العصر لبست ملابس التسول واتجهت نحو متجر زهران أراقبه إلى الليل ثم اجتمعت برفاقي في التسول حتى جاء غلام الشيخ عبدون وأوصلنا لبيت عبدون ، وفي الصباح الباكر بعد أن تركنا الغلام توجهت نحو متجر الذهب ، وأثناء مراقبتي للمكان شاهدت إحدى زوجتي عبدون تدخله ، ومعها أحد الغلمان ، فأدركت أنّ لزهران علاقة مع هؤلاء القوم ، وأنه اشتبه في العقد ، فلابد أنه هو الذي باعهم العقد فعرفه ، ولابد أنهم اخبروه بأمر السرقة ، فقررت عدم الذهاب لزهران مساء هذا اليوم كما اتفقنا ، ولاحظت أن زوجة عبدون منذ دخلت الحانوت لم تخرج بل ظلت قابعة فيه ، وغاب الغلام عند العصر ، ثم عاد بصحبة ثلاثة غلمان ، فأدركت أنهم ينتظرونني للقبض عليّ .



فتأكد عندي أيها الأصدقاء أن بين زهران الصائغ وآل عبدون علاقة تجارية، ولما هبط الظلام تحركت إلى مكان اجتماعنا بغلام عبدون ، فقدم الغلام راحب متأخرا ، ولما وصلنا البيت أرخيت أذني لسماع أحاديث عبدون وزوجتيه ، فسمعت إحداهما تقول:

إن السارق قد يقع قريبا فقد بدأ يظهر المال المسروق ، فقد أحضر خادم لأحد التجار عقدا لبيعه عند صاحبنا الشيخ زهران ، فكما تعلم فهو الذي باعنا العقد ، وكنت قد أسررت له بضياعه فوعدني بالمساعدة ، وقد عرض على الغلام خمسين ألف حتى يوقع به ؛ ولكن الغلام اللعين لم يحضر مساء هذا النهار كما اتفقا ، وسنستمر بانتظاره .

فلما سمعت هذا الكلام حمدت الله على حذري من زهران ، وشكرته تعالى على عدم وقوعي في فخه ، ثم رد عبدون على زوجته المتكلمة : وأنا سأخرج معكم لمتابعة الأمر بنفسي لعلني أصل لغريمي وأمسك بهذا الغلام .. ولعله هو الذي طعنني بالسكين ، وأعرف من هو هذا التاجر الذي يعمل عنده ؟ .

قالت المرأة : لا بأس نذهب جميعا ، وتذهب ضرتي لجلب الأطعمة ، وتبقى الجارية نرجس في البيت .

فصممت عندئذ على سرقة الشيخ عبدون مرة أخرى وضربه ضربة ثانية ، ولما انطلقنا بعد الفجر لممارسة عملنا النظيف ، ذهبت لبيتي الخاص وخلعت ملابس الشحاذ ، ولبست ملابس جميلة فعدت فتى جميلا ، وأخذت كيسا وحبلا وخنجرا وسرت إلى حي الشيخ عبدون ولما تأكدت من خروج القوم دهمت البيت، فخرجت نرجس من حجرتها معتقدة أن أحدهم قد عاد ، فوضعت يدي على فمها بسرعة قبل أن تصرخ وفي وقت وجيز كانت موثقة بالحبل ، واقتحمت غرفة عبلة وإلى الجرة فوجدتها فارغة ، فبحثت في أرضية البيت حتى وجدت أرضا طرية فحفرتها فوجدت فيها جرة أخرى فأفرغتها في كيسي وخرجت مسرعا لبيتي وأنا أقول القاصمة لعبدون .

وبعدت العصر لبست ثياب التسول ، واتجهت نحو دكان زهران اللعين فلم أرى قوم عبدون فلابد أنهم عرفوا بالأمر ، ولما عدت مساء كان البيت هائجا مائجا ومكثت أياما عندهم ، ثم تخليت عن شخصية المتسول ، واشتريت منزلا ومتجرا ، وجعلت من نـفسي ثريا قادما من بلد بعيد ، انتهت شخصية عيد المتسول، وأصبحت تاجر الحبوب الشيخ سلمان ، واشتريت عشرة

غلمان وجاريتين ، ولم تمض عليّ سنة حتى صرت أشهر بائع حبوب في مدينة هاوان ، والتف حولي أبناء التجار ، وتزوجت امرأة من المدينة ؛ ولكني للأسف أيها الأصدقاء الكرام تعلقت بالخمر والميسر والصيد ، فلم يطل بي المقام حتى فقدت كل الأموال من ذهب وجواهر ومتجر وغلمان وجواري ، كأني لم أملك شيئا ، ولم أجد من الناس من يعرفني ويقف معي في هذه المحنة ؛ لأنني صاحب ميسر ؛ وأنني شاب طائش فحزنت لحالي ، وقد فارقتني الزوجة التي لم تنجب لي ابنا ، ورثيت على نفسي ، ولعنت الخمر والنساء والمجون، وقررت الهرب خفية من هذه المدينة وكان لي ذلك، وهذا يا سادة يا كرام ما جرى لي في بلاد الملك النبهان من الأحوال والأخبار مع عبدون والعميان .. وحان الآن وقت المنام فقد هيأ لكم الغلمان غرف المنام.

فضحك سلامة وهانيء وقال أحدهما : في الحق لابدّ من النوم ؛ ولكن تباشير الفجر هلت ، فلنذهب إلى المسجد ونصلي مع المصلين ثم ننام ، وسوف نعود إليك مرة أخرى يا حصرم بن سلام !

الجارية ريم

قال سلامة مخاطبا صديقه : لـقد تأخرنا عن صاحبنا حصرم أياما ، فهل نذهب إليه الليلة؟

رد هانيء باسما: لنذهب أيها الكاتب اللبيب ! أولا نصلي العشاء في الجامع الكبير ، وبعدها نهبط عليه فلابدّ أنه على جمر في انتظارنا ، فقد زارني غلامه منذ يومين .

وأردفني صاحبي هانئ على بغلته البيضاء ، ومشينا نحو قصر صاحبنا الجمانوسي ، فوجدناه بشوق شديد لرؤيتنا والحديث معنا ، وبعد أن التزمنا وتعانقنا تعانق الأحباب ، وذكرنا له شوقنا له ومحبتنا لسماع كل أخباره وذكرياته في هذه الدنيا الواسعة ، وكعادته عند كل حضور أحضروا لنا أزكى الطعام والذّه ، وبعد رفع موائد الأكل والشراب، قدمت بين أيدينا أطباق الفواكه والحلوى والنـقل ، فقلت : اليوم بإذن الملك المتعال يا سيدنا ابن سلام نسمع منك الحكاية الثانية حكاية الجارية المغنية ريم .

فقال حصرم : على الرحب والسعة أيها الأحبة ، وأنا كلي شوق وهوى للحديث والسمر، يا

صاحبيّ تركت هاوان هاربا في جنح الظلام ، ولا أملك سوى بضعة من الدراهم كما قال الملك العزيز لا تغني ولا تسمن من جوع ، وبعد أيام يسيرة وقعت قدماي في مدينة اسمها "سلهوب" ، وعلى الفور ذهبت إلى تاجر كبير دلني عليه الناس ، وعرضت عليه خدمتي وحالي ، فرق قلبه لي وقبلني أجيرا عنده بدرهم ونصف في اليوم ؛ وكان ذلك عطفا منه ولغربتي ورضيت بذلك، وامتن عليّ بكوخ صغير لا يصلح الا للطيور والعصافير بجوار مسكنه الكبير.

وأمضيت شهرا في سلهوب وتعرفت على بعض أهل المدينة ، وعلى بعض عاداتها وأحيائها ، ثم استأجرت غرفة واحدة في درب من الدروب ، وكان التاجر حلوم قد زادني نصف درهم ، فأصبحت أقبض منه في اليوم درهمين كاملين ، وذات يوم وأنا والعمال الأخرون في الحانوت الكبير دخلت علينا امرأة صبية ، وبرفقتها شاب جميل الصورة ، من يراهما يظن أنهما من إماء الوالي وغلمانه ، واختارت الصبية ثيابا كثيرة ، وادعت بأنها جارية أخت الوالي ، وصدق سيدي حلوم كلامها، ولما تجهزت للإياب طلبت من معلمي أن يبعث معها أجيرا لقبض المال من سيدتها الأميرة ، ويعود بما لا يناسبها من الثياب ، ووقع الاختيار عليّ ، فحمل غلامها الثياب ، ومشت أمامنا ، ولزمت الصمت ، ولم أتحدث مع غلام الأميرة ، وظلا يسيران حتى وصلنا لشارع ضيق ، ودخلنا زقاقا لا يسع عرضه أكثر من نفرين ، ومشيت خلفهما إلى أن وقفنا أمام باب في وسط الزقاق ، فالتفتت إليّ الصبية وقالت : يا فتى انتظر هنا حتى يؤذن لك ودفعا الباب ودخلا ، وأنا مندهش من سكن أميرة تشتري مثل هذه الثياب الثمينة في حي أو درب كهذا ، وانتظرت ساعة، ولم يؤذن لي ، فصبرت نفسي ساعة أخرى وطرقت الباب ، لا إجابة ، فازداد انزعاجي وقلقي ، فطرقت بشدة لا مجيب ، ورفست الباب بـقدمي ، لا أحد رد عليّ، وبينما أنا في ضيق شديد هائج كالثور المذبوح؛ فإذا برجل يدخل الزقاق ، ولما اقترب مني ألقى عليّ السلام ، ثم قال : ماذا تفعل هنا أيها الشاب؟ فأجابته بصوت حانق : أنتظر جارية الأميرة التي دخلت من هذا الباب العتيق وأمرتني بالانتظار.

فاغرق الرجل بالضحك حتى أغضبني فنهرته فقال :أأنت غريب عن المدينة ؟!

فصحت به : لماذا السؤال ؟!

فقال ضاحكا : يا هذا ، هذا باب يؤدي إلى زقاق آخر ، ومنه إلى درب البطيخ، هذا ليس مدخل بيت أيها الصديق .

فصحت : ما تقول يا رجل ؟! ودفعت الباب ودخلت ؛ فإذا أنا بزقاق يربط هذا الزقاق بحي البطيخ كما قال الرجل ، فلعنت غفلتي وحسن نيتي وغبائي ، وقلت معزيا نـفسي : هذا مقلب كبير يا حصرم ..ماذا أفعل ؟! هل يصدقني سيدي حلوم ؟! .

وعدت لحلوم ورويت له ما جرى ، فكذبني واتهمني بالاحتيال عليه ، وجاءت الشرطة وقادوني إلى سجن المدينة ، وزارني فيه حلوم ، وعرض عليّ العفو عني، وإخراجي من السجن على أن أقر بأنني أخذت المال ، وأنني محتال طماع غرّ بي الشيطان ، فأنكرت ذلك ، وصحت به : أنا لا أكذب ، لست سارقا ولا محتالا ، ولم يخدعني الشيطان ، اذهب لأخت الوالي

واسألها عن الثياب والجارية والغلام ؛ لتتأكد أنهم احتالوا عليك وخدعوك وسخروا مني .

ولما انصرف حلوم ، قلت لنفسي : بدأت المعركة مع شطار وزعران البلدة سريعا ، ولن يهدأ لي بال حتى التقي بتلك المحتالة ، ومكثت في السجن أكثر من ثلاثين يوما، ثم أخرجوني لأنه لم يثبت ضدي شيء ، وأنني ضحية احتيال ونصب، فذهبت لمعلمي حلوم وطلبت ما تبقى لي لديه من أجر، فطردني شر طردة ، وقذفني بالسرقة والاحتيال ، فعذرته فهو صاحب المال ، فعدت لغرفتي العتيقة أفكر بأمري وبطريقة أصل بها إلى المحتالة ، وبعد تفكير عميق وصلت إلى أن أعمل عند تاجر خز آخر لعل تلك المحتالة تكرر الفعلة فتقع بين يدي ، وفي سوق كبير عرضت نـفسي على التاجر عبد الرحمن المشهور ببيع الثياب المنسوجة من الابريسيم والديباج والحرير والمطرز أكثره بخيوط الذهب والفضة والمصمم لعلية القوم ، ومن كثرة ترددي عليه وترجيه وافق على استخدامي رأفة بي وشفقة على حالي وحاجتي مقابل درهم واحد في آخر كل نهار ، وقد غيرت لون عمامتي ولبست عمامة خضراء لها ذؤابة بين كتفيّ ، وغيرت ثيابي التي كنت ألبسها عند حلوم ، وبعد شهرين من الصبر والترقب جاءت المرأة وغلامها للدكان ، ولما

تمحصتها وتأملتها أيقنت أنها غريمتي ، فكم فرحت لساعة الانتقام ! وفعلت بعبد الرحمن كما فعلت بحلوم ، ثم قال لي معلمي في النهاية : يا علي رافق هذه الجارية لقصر عمة السلطان ، واحضر ثمن الثياب منها وعد بالثياب التي لا يقع عليها الاختيار.

فوافقت على الفور ، وهيأت نفسي ، وأدركت أنهم لم يعرفوني لكثرة ما يرون من وجوه ، فحمل الغلام الثياب والجارية أمامه ، وأنا مشيت خلف الغلام كالأبله إلى أن وصلا للزقاق المعروف، ثم الباب الذي في وسطه ، فقالت لي المحتالة : انتظر هنا يا علي حتى تأذن لك عمة السلطان بالدخول ولتقبض المال وما يرجع من الثياب .

ودفعا الباب ودخلا ، فلما خرجا من الزقاق تبعتهما خفية ، ومن ثقتهما بأنفسهما لم يكونا ينظران للوراء ولو لحظة ، فسرت خلفهما حتى خرجا من حي البطيخ ، ومن درب إلى درب حتى وصلا لحي اللبن ، وأنا أسير خلفهما ، واجتازوا نصف درب الحي ودخلوا زقاقا واسعا إلى حد ما ، وفي بيت من بيوت ذلك الزقاق اختفيا ، فعرفت دارهما معرفة جيدة وعدت لمنزلي ، وقد اشتريت في طريقي ملابس تشبه ملابس شرطة الوالي ، واستأجرت حمارا ، ولما هبط الظلام لبستها وركبت الحمار وسرت نحو درب اللبن ، ثم دخلت الحي نفسه ، وإلى المنزل المذكور ، ثم طرقت بابه فخرج الغلام يقول : من ؟!

فقلت بصوت هادئ رزين : أنا أحمل رسالة لسيدة البيت من عمة السلطان .

فقال الغلام والدهشة ظاهرة في نبرة صوته : عمة السلطان ! وماذا تريد السيدة المصونة منا ؟!

وكنت قد ربطت الحمار وقلت: دعني أكلم سيدتك . فدخل وأنا خلفه فنادى: يا زمردة هذا الرجل كأنه من شرطة الوالي يدعي أنه قادم من عند عمة السلطان !

فرحبت بي المرأة وهي في غاية الدهشة : ماذا تريد مولاتنا منا وما علاقتنا بعمة السلطان ؟!

فقلت لها: أنت اليوم قد اشتريت لها ثيابا من عند البزاز عبد الرحمن .. ولم تصلها الثياب بعد فردت والحيرة تملأ كيانها:أأنا اشتريت لها ثيابا ؟! ما هذا الكلام ؟ أأنت مجنون ؟!

فقلت: يا جارية تأدبي ، ألم تأت ظهر اليوم لدكان البزاز عبد الرحمن التاجر المعروف ، وأخذت

ثيابا كثيرة لعمة الوالي أو السلطان، وكان معك هذا الرجل ـ وأشار لغلامها ـ وذهب معكم غلامه علي ، وتبعكم علي حتى دخلتم هذا البيت .

فصاحت : أبدا ، لم يحصل هذا ، أنا امرأة شريفة كريمة ، ولا أعرف الوالي ، ولا عمته ، ولكن من رماك علينا.

قلت لهما : قلت لكم الأجير علي تبعكما بعد أن شك في أمركما وأمر الزقاق ، فهات الثياب أو المائة دينار ثمنها بدون فضائح .. فأنا علي الذي تركتموني عند باب الزقاق ، وأخرجت مدية وضربت بها الغلام على عجل قبل أن يغدر بي .

فصاحت المرأة فقلت لها : لا داعي للصراخ ، أنتما محتالان دعونا نتفاهم ، فأنا لي عندكم ثأر، وذكرت لهم قصة غلام حلوم ، ثم قلت : فأنا ذلك الغلام أيضا، وأنا في انتظاركم منذ شهور عندئذ ظهر الخوف على المرأة ، وأيقنت أنني أعرف الحقيقة فتمتمت : حسنا نتفاهم يا سيد علي وهذا المسكين ماذا نفعل به ؟! .

فقلت : لا شيء الضربة بفخذه وهي خفيفة ، فلن يموت .

وكان الغلام قد أغمي عليه من الطعنة برأس الخنخر، فاسعفته بخرقة لففتها على فخذه المجروح ، ولما انتهينا منه همست : ماذا تريد ؟!

قلت لها : ما هذا الغلام منك ؟ ردت : هو زوجي .

فقلت: هكذا أنتما تعيشان على النصب والاحتيال! .. فماذا تفعلان بالثياب التي تحصلون عليها من التجار ؟.

فقالت ربما بصدق : نبيعها لتاجر آخر بسعر أقل ؛ ولكن بـعد مضي زمن وما تريد منا الآن ؟

فأجبتها قائلا : أنا رجل فقير وغريب عن هذا البلد ، فأرغب بأن أكون شريكا

لكم في هذه المهنة ؛ ولكن قبل هذه الشراكة علينا أن نعيد ما أخذتموه من المعلم عبد الرحمن ، فقد حبست شهرا عما سرقتموه من المعلم حلوم ، فأنا دفعت ثمن القضية السالفة عن حضرتكم وبعد كلام وجدال طويل تعاهدنا على كتم أمرهم ، ولا أفشي سرهم ، ومشاركتي في العمل

معهم ، ثم أعطتني المرأة المحتالة ثمن أقمشة عبد الرحمن لأدفعها إليه، وقبل الفجر غادرتها على أمل اللقاء بهم مساءً لنبدأ حياة الشراكة، وفي الصباح كنت أضع ثمن بضاعة المعلم عبد الرحمن أمامه ، ولقد كان غاضبا عليّ أشد الغضب والحنق ، ويظن أنني سرقت المال والثياب التي لم ترق لمزاج الأميرة ، ثم قلت له معتذرا عن تأخري : يا معلمي وبينما أنا عائد من قصر عمة السلطان التقيت بصاحب لي ، فأبى وأقسم إلا أن يأخذني لبيته ويضيفني فبررت بقسمه.. وها هو حقك قد وصلك ، واسمح لي بترك العمل عندك يا معلمي لقد وجدت عملا آخر .

فدفع لي أجري كاملا وزيادة درهمين ، وودعته والعمال الآخرين ، ورجعت لمنزلي فنمت حتى العصر ، ثم سرت نحو حي اللبن ، وهناك لم أجد الزوجين والدار مغلقة ، ولما دخل الليل قرعت الباب من جديد ، لا أحد يجيب ، ولم يعودوا، وتحدثت مع جيرانهم سائلا عنهم ، فأخبروني برحيلهم في ضحى اليوم ، ولا يعرفون إلى أين انتقلوا ، فأدركت أنني مغفل وأنهما هربا مني ، فهما لم يطمئنا لي فهمست لنفسي قائلا : ما زال لي عندهم دين ، وعليهم أن يسددوه حق ثياب حلوم ومكثي في السجن ثلاثون يوما.

فصرت أمر وأتردد على الحي مرتين في اليوم ، الأولى في الصباح ، والأخرى في الليل على أمل أن يرجعوا لمنزلهم ظنا منهم أنني قد نسيتهم ، أو يعودوا لأخذ شي من البيت قد نسوه ، وكان من عادتي وأنا أبحث عنهم في الليل أن ألبس ملابس شرطة حتى أوهم من يراني أتسكع في الشوارع بأنني من رجال العسس .



قال محدثنا حصرم بن سلام : أيها الأصدقاء وأنا عائد ذات ليلة من حي اللبن إلى منزلي ، والوقت يزيد عن نصف الليل بقليل ، وقد كنت منهكا من المراقبة والسهر وقلة الطعام ، وبينما أنا أجتاز أحد الأحياء سمعت صراخا عاليا فأصغيت أذني ، فكان مصدر الصراخ قريبا من المكان الذي توقفت عنده ، ولكني لم أعرف البيت الذي خرج منه الصوت ، فتسمرت في مكاني بالقرب من جدار منزل أنظر هنا وهناك .. لاشيء ، فقلت : لعله زوج يؤدب زوجته أو جاريته

وكدت أمشي لولا أني سمعت حركة أقدام وأصوات تتحدث بصوت منخفض ، فأخفيت نفسي بعتمة الليل ، ورأيت بابا لأحد الدور قد فتح ، وخرج منه رجلان يحملان بينهما شيئا ملفوفا بثياب ، وسمعت أحدهما يقول : هل ماتت ؟! فرد الآخر : إن لم تمت سوف تموت من نزف الدماء ، فلما سمعت ذلك أيها الأعزاء اقشعر جسدي وخفت ؛ ولكن الفضول قوّى عزيمتي ، فظهرت أمامها فجأة وأنا أقول صارخا : أيها الشابان ما هذا الذي بين أيديكما .. من المقتول؟!

فوقع المقتول من بين أيديهما من هول المفاجأة ، ومن الخوف الموجود في داخلهما ، وحاولا الهرب فقلت بسرعة : تمهلا ولا تهربا ، فأنا أعرف البيت الذي خرجتما منه .

فتوقفا على الفور ، وقلت لهما : ما الأمر؟!

فقال أحدهما : من أنت أيها الرجل ؟ ! فقلت : أحد الناس شاهد جريمة قتل ، أريد أن أعرف القصة ، لعلي أغض الطرف عنكم . ثم صحت بهما : احملا الجثة للداخل لأسمع الحكاية .

فحملاها ودخلوا البيت وأنا خلفهم وأنا أحاذر من غدرهم ، فلما وضعوها على الأرض ، قال أحدهم : أيها الشرطي انتظر حتى اخبر أهل البيت بشأنك لعلك تتفاهم معهم .

وبعد قليل كنت أجلس أمام امرأة جميلة فاتنة بحق ، وهي تقول : ماذا تريد أيها الشرطي من هؤلاء ؟! هذا رجل قد مات عندنا ونريد أن ندفنه .

فارتسمت على وجهي ابتسامة ساخرة وقلت هازئا : نعم .. نعم الميتة امرأة كما علمت وماتت مقتولة .. دفن في مثل هذه الساعة من الليل ! .. دعوني أسمع الحقيقة قد أعذركم وأكتم أمركم وأضفت قائلا " ولا أقوم بواجبي " موحيا لهم بأني من العسس .

فقالت المرأة : دعك من الحقيقة ، فهل لك بألف درهم تقبضها الآن وتنصرف وتنسى ما رأيت؟

كان طرحها جريئا ، فلزمت الصمت قليلا أفكر في الأمر وقلت لنفسي : لماذا أحشرها في موضوع كهذا ؟ والمقتول قد قتل ، ولن يعود للحياة ، وهذا رزق قد ساقه الله إليك يا حصرم خذ الألف واهرب يا فتى ، ثم هتفت قائلا : أيتها المرأة أنا لست أبلها..أما إذا دفعت لي مبلغا

محرزا من المال أستطيع بسببه ترك الشرطة، وأعيش به بقية حياتي هادئا سعيدا قد أوافق .

فأظهرت الابتسام في وجهي : أحسنت أيها الرجل الأمين ، كم تحتاج ؟!

قلت وأنا مرتبك : عشرة آلاف درهم ! .. إنها في الحق مبلغ زهيد مقابل صمتي وخيانتي لواجبي

فصاحت المرأة : أعطوه ما طلب .. احذر أن أراك مرة أخرى ، ولا تحاول أن تعرف القصة أو تحدث أحدا بما سمعت وشاهدت .

فقلت وأنا انتظر الرجل الذي ذهب لجلب الدراهم : إذا كان المبلغ كما اتفقنا فلن تروا وجهي مرة أخرى ؛ ولكن إذا وجدته ناقصا فسأكون مع الفجر هنا .

وأخذت الأكياس التي تحتوي المال، ولما أصبحت في الشارع تنفست الصعداء ، ودبت الحياة في كياني كله ، وأسرعت مهرولا إلى سكني العتيق، ونسيت الأمر كله أو تناسيته ، ونمت نومة مليئة بالأحلام المزعجة والمثيرة ؛ ولكني شحاذ أخذت على قبول ما يعطى لي ، فاعتبرت المال شحذة ؛ ولكن بطريق أخرى.

ولما صحوت من نومي القلق أحصيت المال فوجدته عشرة آلاف درهم كما طلبت ، فحمدت الله وشكرته ، وظننت أن أبواب السماء قد انفتحت لي ، أنا الذي كنت أعمل في النهار وأكد مقابل درهم واحد أصبحت أملك عشرة آلاف ، وتذكرت المرأة الحسناء وحسنها والمرأة المقتولة والرجلين ، وعادت بي الذكريات إلى مدينة هاوان حيث التجارة والخمر والمعاصي والطلاق ، ووصلت في النهاية بأن أنسى الماضي كله ، وأبدأ من هذه اللحظة ، وأعمل عملا صالحا نافعا .

اشتريت ملابس جميلة ، وسميت نفسي أحمد ، واستأجرت منزلا جديدا يليق بثروتي الكبيرة ، واكتريت حانوتا واسعا لبيع الكتب ونسخها ، لقد عرفت عنها بعض الشيء أثناء وجودي في هاوان من بعض الأصدقاء ، ثم بدأت العمل بثلاثة نساخ فقط وأنا رابعهم ، فصرت أشتري الحبر والورق وأنسخ كتب القدماء ، وبدأ طلاب العلم وعشاق الورق يترددون على دكاني ، وما مرت عليّ سنة من الزمان حتى صار لي صلة بالأمراء والشعراء في مدينة سلهوب ، وارتفع

عدد النساخ في حانوتي لسبعة ، كانت مغامرة جريئة فنسيت في غمرتها زمردة وزوجها والقتيلة والمرأة الحسناء وعبد الرحمن وحلوما ، وما انقضت السنة الثانية حتى أصبح يعمل لديّ أكثر من عشرين نساخا ، وأصبحت مشهورا بالوراق أحمد ، فاشتريت بيتا كبيرا ، وصار لي أصدقاء وأصحاب من علية القوم من أهل القصور والثراء ، ولا أنسى أن اذكر لكم أنه أصبح لدي خدم وجواري ، وعدت لأيام هاوان ، عدت للشرب والقمار والفسق ، وكانت تمر بي ذكريات هاوان السوداء ولا ارتدع إلى أن كان أن دعيت لسهرة في بيت لأول مرة ، والذي دعاني شاب تعرفت عليه يدعى "رباب" ، والده من أغنياء سلهوب ، وكان الهدف من هذه السهرة أن له أصدقاء يرغبون باللقاء بي والتعرف على شخصي شخص الوراق أحمد ، وخلاصة الكلام أني وافقت ورافقته لتلك السهرة ، وأحسن صاحب البيت ورفاقه باستقبالي ، وجلسنا في غرفة فارهة على بسط نادرة ، وجاء الطعام الكثير وبعده أجود أنواع الفواكه ، ولما اشتد الليل دارت كوؤس المسكر على القوم ، وأمر مضيفنا باستدعاء ثلاث جواري مغنيات ، وهن في أحلى الثياب والحلي وبين يدي كل واحدة منهن عودا ؛ ليطربننا بأفضل وأجمل الأنغام ، فجلسن على مقاعد وثيرة أعدت لهن ، والغلمان بين أيدينا يزقون علينا بالشراب والتفاح ، ولما أمعنت النظر في المغنيات الثلاثة تذكرت أيها السادة المرأة التي أعطتني العشرة آلاف درهم ، نظرتها بعمق ، وحملقت هي بي بعض الوقت ، فأنا عرفتها أما هي بدت كأنها لم تعرفني .

ولقد تغنين بأعذب الألحان والأصوات حتى فقدنا الصواب ، وسمعت صاحبي "رباب" يقول: لقد كانت عند حسن ـ مضيفنا ـ جارية أجمل من كل هؤلاء وصوتها أرخم منهن ، ولكنها قتلت ولم يعرف قاتلها ، لقد ماتت منذ ثلاث سنوات، كانت ذات صوت رخيم ، عصفور أو بلبل يشدو على غصن ، وكانت حسناء بمعنى الكلمة حسن وبهاء نادر .. جارية مغنية يهودية ؛ ولكنها للأسف ماتت مقتولة ، وما زال في نفس صاحبي عليها حسرة ، فهؤلاء الجواري المغنيات ملكه الخاص ؛ ولأن والده لا يحب مثل هذه الأحوال فاستأجر لهن حسن بيوتا خاصة ، ووضع تحت أمرهن الغلمان ، وبنى هذا القصر للسهر والحفلات .

فلما سمعت هذا الكلام عادت بي الذكريات لسنوات مضت إلى يوم التقيت بهذه الجارية المغنية التى كانت تغني أمامنا بأحلى أشعار الغزل والعشق والخمر، تذكرت أنها قاتلة مجرمة ، فهتفت محدثا نفسي : إن سبب جلوسي مع هؤلاء الشباب الأثرياء ..المال الذي وهبتني إياه .. لأنسى ما رأيت ولأنسى ما سمعت!

دارت بي هذه الأفكار واشتدّ برأسي الصداع ، وانصرفت الجواري المغنيات، ونمنا من الإرهاق والتعب في مكان اللهو والشراب، ولما استيقظنا من الهوى والفسق كانت الدنيا نصف نهار ، فعدت لبيتي منهك القوى والنفس .

المهم أيها الصديقان العزيزان أصبحت معروفا لدى الشباب الطائش الضائع؛ ولكن ذكرى هاوان والأفلاس والجارية القاتلة كل هذا كان يؤرقني ويقلق راحتي ، ولا أنسى الخوف من عقاب الله تعالى.

ودعانا بعد حين شاب آخر ابن نعمة ـ كما يقولون ـ من أصدقاء حسن إلى سهرة أخرى ، وبعد الأكل والشراب جاء موعد الغناء والشراب ، فظهرت مغنيات حسن الثلاث ؛ ليطربننا كالعادة ، وأثناء السهرة واستماعنا للغناء ضربت إحدى المغنيات زميلتها ، وأخذت عودها ورمته على الأرض بشدة، وتركت المكان مغضبة، فارتبك المكان ، وأخذت الجارية المضروبة تبكي وتصيح ، فاعتذر لها الشاب المضيف وحسن سيدها مما حصل ، وسمعته يقول : رحمك الله يا ريم !

وأخذنا بترك المكان ، ونحن أمام البيت قال لي رباب : هذه الجارية المغنية اسمها سمراء لها فترة من الزمن عصبية المزاج ، وتحدث المشاكل على أتفه الأسباب وأبخسها ، وأما ريم التي ترحم عليها أخونا حسن ، فهي المغنية التي وجدت مقتولة منذ سنوات ، وقد كلفته أكثر من مائة ألف دينار حتى تملكها ، وهي تتقن فنون الطرب والعزف على كثير من الآلات ، وهذه السمراء كانت تكرهها وتغار منها بسبب ولع حسن بها ، واعلم أنّ صاحبنا حسنا شك بأنها هي التي تخلصت منها وغدرت بها .

فقلت لصاحبي رباب : يا صاحبي سأفشي لك سرا .

فرد : ما هو؟! فقلت : سمراء مغنية صاحبك حسن هي التي قتلت جاريته "ريم" .

وكأن الشراب المسكر هو الذي دفعني لأحدثه بأحداث تلك الليلة الرهيبة ، وأطلعه على سري دون وعي مني ، وبالطبع أيها الأعزاء الكرام لم أذكر له أنني قبضت عشرة آلاف درهم منها لألزم السكوت .

لما سمع رباب اعترافي عقب قائلا : لقد صدق حدس حسن ، لقد شك فيها حسن يا أحمد ؛ ولكنه لم يصل إلى دليل قاطع جازم ، وقال يومها معزيا لنفسه "خسارة واحدة خير من خسارة اثنتين " ذهبت ايامك يا ريم.

وبينما نحن نترنح ونتكلم بصوت عال في الطريق إلى بيوتنا دهمنا رجال العسس ، فأخذنا بسبهم وشتمهم ، فقادونا إلى السجن وطرحونا فيه ، سجن مدينة سلهوب، ولي معه ذكريات كما تعلمون منذ سنوات ، وفي الصباح مثلنا أمام القاضي ، وثبت علينا تعاطي الخمر والسكر ، فقضى بجلدنا أمام العامة في ساحة خاصة لإقامة الحدود ، فجلد كل واحد منا ثمانين جلدة ، فأصابني الخزي والعار في بلدة سلهوب ، ونفر الناس عن دكاني ، وتبين لي أن أهالي سلهوب لا يتظاهرون بالموبقات كأهل هاوان ، ويحافظون على تقاليد وعادات الدين والأحكام رغم اختلاطي بكثير من الفساق والفجار ؛ ولكن غاب عن ذهني أن هذا يحدث في أجواف المنازل البعيدة عن الأحياء في الضياع والقصور ، فصرت أتردد على المساجد مظهرا التوبة والندم لأغير من صورتي أمام خلق الله ، ولم أوفق بإصلاح ما بيني وبين الناس ، وأنا كسول لم أتعود على العبادات ، فقررت الرحيل عن هذه البلدة ، فجمعت ما معي من مال فإذا هو خمسون ألفا من الدراهم ، فبعت الدكان واتفقت مع ربان سفينة ليحملني معه ، ولما حان موعد السفر ودعت صاحبي "رباب" ، وسألته أن يسلم على صاحبه حسن ، ويعتذر له عن عدم توديعي إياه مباشرة ، فقال رباب : سيصل سلامك واعتذارك ، وقد كلم سمراء بما سمعته منك ، فأقرت على الفور ولم تنكر الأمر ، وقالت مقرة : منذ قتلها وأنا أحيا حياة مظلمة! فصدم حسن

لاعترافها السريع ، وقد لزم البيت وحالته صعبة محزنة ، وتمنى لو أنه بقي على شكه ، ثم ودعني رباب قائلا : رافقتك السلامة إن عدت لسلهوب مرة أخرى لاتنسانا يا سيد أحمد .. هذه هي حكايتي الثانية يا أصدقائي الأعزاء وإلى لقاء آخر .

جزيرة الغراب

أكرمنا السيد حصرم بن سلام بالطعام الطيب ، وتحدثنا عن أخبار الأمراء والشعراء ، ثم جاء دور سماع الحكاية الثالثة من حكايات حصرم ، فقال أخي هانيء : ما عندك الليلة يا أخا الإسلام من أخبارك الجميلة والمسلية في ليالي الشتاء الحالكة ؟!

فقلت : لقد تركت يا سيدي سلهوب وركبت السفينة فإلى أين هذه المرة ؟

قال حصرم: يا إخوان ركبت مع القبطان شادور بن بهلول من ميناء مدينة سلهوب، وهو بحار كبير قديم أمضى عمره في البحار منذ الصغر ، مضت السفينة تمخر عباب البحر الضخم وهذه أول مرة منذ ولدتني أمي أركب البحر ، ووعدني الربان شادور أن يتركني في جزيرة جميلة من جزر البحر ، وركاب السفينة كانوا خليطا من البشر، وأكثرهم تجارا يحملون تجاراتهم ، فمن الركاب العربي والعجمي والهندي والتركي والرومي نساء ورجال وأطفال وشيوخ .

وانقضت أيام ونحن تحت رحمة ملك السماء والبحر ، ووقع في قلبي الحنين لقريتي جمانوسا واختاي ، لقد نسيتهما مع غمرة الأحداث ، وتمنيت أنني بالمال الذي جمعته عدت لبلدي القرية الهادئة الوديعة ، وأمضيت عمري بين قومي بدلا من هذه السفرة المجهولة ، عادت بي الذكريات إلى جمانوسا بلدتي الصغيرة الساكنة ، تذكرت الفقر والبؤس والحاجة ، ومع عواصف البحر وأمواجه العاتية نسيت قريتي، وأخذت أتأمل في الحكمة من خلق الله لهذا الكون وهذا البحر الكبير، وكبر العالم في نفسي ، وأتعجب من قدرة البارئ وحسن صنعه ، وبعد عشرين ليلة أو أكثر وصلنا إلى جزيرة سماها القبطان شادور جزيرة الطيور ، وأما أهل الجزيرة فيسمونها جزيرة الغراب ، وودعت القبطان وأعوانه وهو يقول : " في العام القادم بمشيئة الباري نلقاك هنا على هذا الشاطئ يا سيد أحمد ، فكل سنة نمر مرة واحدة على جزيرة الطيور أرجو أن توفق فيها

اتفقنا عليه أيها الشاب الذكي "وضحك وضحكت ، ومكثت السفينة يومين أمام ميناء هذه الجزيرة ، فقدم تجار المدينة خلالها وجرى التبادل بين الفريقين ، وغادر السفينة رجلان كانوا من سكان هذه الجزيرة ، وكنت قد تعرفت عليهما ، وجرى بيني وبينهم حديث ونحن على ظهرها ، وقد علمت منهما أن أهل هذه الجزيرة لا يتكلمون اللسان العربي ، ولما انتهت عملية البيع والشراء وركب من شاء من السكان السفينة ، فقد حضر الرجلان وصحباني إلى مدينتهم وأنا احمل هيماني وجراب زادي ، وطلبت منهما مساعدتي للعمل في بلدهم ، فرحبا بذلك ووعداني خيرا ، واستضافني أحدهم في بيته ، وأكرمني هو وأهله بضعة أيام حتى تعلمت منهم بعض المفردات التي أستطيع بها التفاهم مع هؤلاء الناس ثم اشتريت بيتا صغيرا ـ فبيوت الناس في جزيرة الغراب حجمها صغير ـ وللحق فهي جزيرة هادئة وادعة ، وممتلئة بالأشجار المثمرة وغيرها ، فهي أرض خضراء قلما ترى فيها بقعة لا يعلوها اللون الأخضر رغم مساحتها الكبيرة ، وبدا لي أن سكانها قليلون بالنسبة لمساحتها ، وأكثر أهلها يعملون بالصيد والبحث عن اللؤلؤ في أعماق البحر ، وقسم كبير ولكنه أقل من الطائفة الأولى يعملون في الفلاحة ، الناس فيها يرحبون بالغريب مع الحذر الشديد منه ، تفرجت على أسواق المدينة سوقا سوقا ، وبينما أنا أتمشى في أحد الأسواق يوما سمعت مناديا يصيح ، وفهمت من الناس أن هناك مبارزة للفرسان في ميدان الجزيرة الكبير ، فسرت نحو المكان ، كنت أبذل جهدا كبيرا لأتعلم كثيرا من لغة هؤلاء الناس حتى أستطيع الكلام معهم وأفهم ما يقولون ويـفهمون ما أقول .



من الممكن أيها الاصدقاء أن أتعلم الفروسية ، وأصبح من فرسان الملك والجيش ، ولكن هذا ربما يستغرق وقتا طويلا ، وأنا لا أريد الاستقرار في هذه الجزيرة ، فأيّ شاب أنـهى تدريبه واعتقد أنه أصبح من الفرسان ، وقد أتقن ركوب الحصان ، وأجاد اللعب بالسيف والسنان ، ويرغب بإظهار ذلك أمام السلطان والناس ، فيعقد له ميدان ، ويتبارز مع الفرسان ؛ فإن شهد له مبارزوه بالفروسية، وهبه الملك لقب فارس ،

ويلحق بكتيبة فرسان السلطان، وثمة من يتعلم الفروسية ولا يريد الخدمة والعمل في كنف السلطان والجيش فله ذلك؛ ولكنه لا يسمى فارسا، ولا يمنح ذلك اللقب ، إنما فروسيته لنفسه فحسب .



قال حصرم: هذا دفعني للذهاب لميدان الفرسان ، فذهبت إلى ميدان المبارزة لمشاهدة الفرسان الجدد ، والأهم لديّ مشاهدة ملك الجزيرة ، فهذه أول مرة أفكر برؤية ملك ؛ لأن هذه المشاهدات تقوم تحت رعاية السلطان أو نائبه، فشاهدت ملكا شابا وعددا من الأمراء والأميرات ، واحتشد عدد كبير من الأهالي لمشاهدة المبارزات والمسابقات ، فهم يجدون متعة في التفرج على الفرسان وسباق الخيل ، دخل أحد الفرسان الجدد على جواد أحمر فإذا هو شاب دون العشرين ، واستعرض الميدان أمام خلق الله بعض الحين ، ثم برز له سبعة فرسان فلعب مع كل واحد منهم كرة ، ثم هجموا عليه مرة واحدة ، وأظهروا من فنون اللعب ما يمتع الأبصار ، ما بين هجوم ودفاع ، ومما يثير النفوس ، ويسلي القلوب ، وبعد حين توقف اللعب وتقدم قائد السبعة إلى جهة الملك وتحدث معه قليلا ، ثم تقدم للميدان فارس آخر ، ثم سبعة من الفاحصين ، واستمر الاستعراض حتى الليل ، ثم قفل الجميع لمنازلهم وأنا من ضمنهم .
كنت حائرا في المهنة التي أرغب العمل فيها في هذه الجزيرة ، أأعمل صيادا أم مزارعا أم أتدرب على الفروسية أم اشتري سفينة صغيرة أنـقل بها الناس والأشياء من جزيرة إلى أخرى ؟! وقبل أن أختار مهنة أمارسها مات عظيم من عظماء جزيرة الغراب، فخرجت مع الناس إلى المدفن ـ إذا هلك كبير عندهم يخرج كل أهل الجزيرة الصغير والكبير والذكر والأنثى لتشييع جثمان الميت ـ فخرجت مع الناس إلى ساحة كبيرة ، اصطفت فيها مواكب الفرسان جماعات جماعات وعند زوال الشمس أقبل الملك والأمراء والأميرات والكهنة ـ فهؤلاء الناس يعبدون الأوثان

والكواكب ـ وبعد طقوس مارسها كبير الكهنة وأعوانه تـقدمت مجموعة من الفرسان وحملوا التابوت ، وتبعهم الكهنة والحاكم وحاشيته وعامة الناس تمشي خلفهم حتى وصلوا المدفن الكبير ـ مدفن الملوك ـ ، وكان طائفة من السادة في الاستقبال ، فتقدمت مجموعة منهم فاخذوا النعش ودخلوا به المقابر السلطانية ، وتوقف الملك ومن معه خارج المدفن ، ثم دخل كبير الكهنة إلى المدفن ، وبعد حين يسير دخل الملك والأمراء والحاشية إلى المقبرة ، ومكثوا ساعة من الزمن ، ثم خرج الملك يحف به الكهنة والـفرسان ، وخاطب الناس ببضع كلمات ؛ كأنه يشكرهم ، ثم انصرف الجميع إلى منازلهم.

يحيط بالمـقبرة تلك سور ضخم مكون من الحجارة البيضاء ومرتفع أيضا ، ومن الصعب تسلقه وعلى سورها الجميل المرتفع تماثيل لعظماء الأسرة الحاكمة ومن دخل في حضانتهم ، ولا يسمح للعامة بدخول المقبرة البته ، كانت لدي رغبة بدخولها ؛ ولكن لم يسمح لنا بالدخول ، وبذلت جهدي لدخولها لمشاهدة قبور هؤلاء الملوك والملكات ؛ ولكن هيهات هيهات ، فـقفلت عائدا مع العائدين ، وكلي شوق لدخولها ، فصرت كل يوم أقصدها من الجهات الخالية من الحرس لعلي أجد منـفذا أدخل منه .

ولم يطل انتظاري يا إخوان ، فمن محاسن الصدف وأنا أدور حولها ذات نهار أبحث عن منطقة أتمكن من الدخول منها ، أو أستطيع أن أقفز منها على سورها ، وقد جلست على حجر انظر البحر بعد تعب من الدوران ، فالشاطئ أمامي ليس بعيدا ، ولا يوجد أحد في المكان ، أرض خالية بين جدار المقبرة والشاطئ الا من أشجار قصيرة منتشرة ومتباعدة في المكان ، تعطي للمساحة جمالا لطيفا ، وبينما أنا أجلس متأملا لأمواج البحر المتدافعة ؛ وفجأة برز أمامي شخصان ، خرجا من تحت الأرض ، وبين أيديهما كيس ، ولما فوجئا بي ، لاحظت الخوف في أعينهما فقلت لهما : ويلكما ..لا تخافا من أين خرجتما؟!

لاحظت أنـهما أدركا من لكنتي أني غريب ؛ فكأنـهما تشجعا ، فرد أحدهما بحدة خفيفة : خرجنا من بطن الأرض .. وماذا تفعل أنت هنا ؟! فهذا مكان غير مسموح لأحد بالجلوس

فيه لو لمحك الحراس لخسرت دنياك .

فرددت عليه بنفس الحدة والقوة ، وأدركت أنهما في خوف وقلق : وأنتما ماذا تفعلان هنا ؟! بل ما يوجد في داخل الكيس ؟!

وبدأ بيننا شجار ، وحاولا إرهابي وتخويفي ، فأصررت على معرفة سرهما، فلجئوا لإغرائي ببعض المال ، ورمى أحدهم قطعة ذهبية عليّ ، على أمل أن أنصرف ، فوقع في نفسي عندما رأيت بريق الذهب أنهما وجدا كنزا ، فطمعت بأخذ المزيد ومعرفة السر ، فزادوا القطع ، فأبيت أخذها قبل معرفة سرهما ، فلما رأيا عنادي ، حاولا تهديدي بالقتل ودفني في هذا المكان فقلت لهما متحديا : افعلا إن كنتما تستطيعان ذلك .

فتقدم أحدهما محاولا ضربي ، فقبضت عليه ورفعته للأعلى وألقيته على الرمل ، فصاح من شدة الضربة ومتوجعا ، فقال رفيقه بخوف : إنك وحش ..ماذا تريد منا ؟!

فقلت : أريد أن أعرف من أين خرجتما ؟ ما قصتكما ؟!

فصاح المضروب وهو يتوجع: أيها الغريب إذا ظللت في هذه الجزيرة فإني قاتلك!

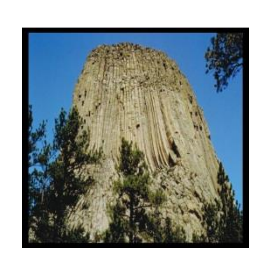
فرددت قائلا : سوف أشكوكما للملك هذه الليلة .

فلزما الصمت لحظات ، ثم قال الثاني : دعنا نتفاهم أيها الرجل ، سأقول لك القصة ، ولك ثلث ما في هذا الكيس على أن تقسم لنا بكل معبود تعبده على كتم أمرنا.

فهززت رأسي موافقا وقلت : هذا هو الكلام المقبول .

وفهمت منهما أنه إذا مات عظيم من أهل الجزيرة يدفنون معه كثيرا من أمواله وجواهره ، وهذان الرجلان قد حفرا نفقا يوصل للمقبرة ، فكلما مات شخص من هؤلاء السادة يصبر الرجلان بضعة أيام حتى تخف الزيارات للقبر الجديد، فيدخلون النفق ويستخرجان أموال وحلي الذهب ثم يسافران من الجزيرة إلى جزيرة أخرى لبيعه ، فهذه قصتهما ، فحدثتهما عن رغبتي لدخول المقبرة لمشاهدة قبور الملوك التي فيها ، فقلت لهما : أريد أن أدخل المقبرة من هذا النفق لأشاهد قبور هؤلاء العظماء .

وبعد قيل وقال اتفقنا أن يرافقني أحدهم أثناء دخولها ، دخلت مع أحد الرجلين النفق المخفي إلى المقبرة ، وخرجت من النفق لمشاهدة القبور الملكية ، وظل رفيقي في داخل النفق وهو يكاد أن ينفجر من الغيظ ، تفرجت على القبور ذات الأشكال الجميلة ، وبعض القبور مجسم عليها تماثيل لمن هو رميم بداخلها ، عرفت من صاحبي فيما بعد أن القبور المصور عليها التماثيل هي قبور الملوك والملكات .



قال سلامة: وهنا صارحنا صاحبنا حصرم بن سلام عن الهدف الرئيسي والغاية لاقتحامه هذه الجزيرة ومجيئه إليها ، فقال : أيها الأصدقاء لم يكن هدفي الوحيد مشاهدة هذه الحجارة والتماثيل ؛ ولكني جئت للجزيرة لإتفاق بيني وبين القبطان شادور ، لقد حدثني شادور أنه في قبر الملك الأول لهذه الجزيرة سيفا لا مثيل له في الدنيا، فأعود بكم للوراء قليلا ، فعندما تعرفت على القبطان شادور بن بهلول على ساحل مدينة سلهوب ، وجرى بيننا حديث ، ولما علم أنني أريد السفر لمكان جميل ، فيه مال كثير ، وبعد كلام واطمئنان ، قال لي : بما أنك رجل آفاق ، لا مال ولا أهل ، وتحب السفر والترحال في البلدان سأذكر لك قصة .

وتابع الكلام قائلا : أمر كل سنة مرة على جزيرة الطيور ، جزيرة أهلها بسطاء وملوكها آلهة ، وعندما يموت ملك أو سيد عظيم يدفنون بعض ماله معه وأشياءه الثمينة ، ولهم ملك مات قديما يسمى "برغوش" ، وهذا الملك كان إلها عظيما عند هؤلاء القوم ، ويملك الذهب والفضة والزمرد والياقوت والزبرجد ، وله سيف له بين الملوك شهرة ، مصنوع من الذهب والنحاس ، ومرصع بأثمن الجواهر والياقوت ، ودفن هذا السيف في قبر برغوش ، ذات مرة وأنا في ضيافة أحد الملوك جاء ذكر سيف الملك برغوش ، وكان هذا الملك مغرما بجمع التحف والأشياء النادرة ، فقال : ياشادور أنت رجل تتنقل بين المدن والجزر ؛ فإن جلبت لي سيف الملك برغوش من جزيرة الطيور وهبتك مائة ألف ذهبية ، أغنيتك للأبد وأرحتك من ركوب البحر ، فوعدته يا أحمد بالحصول على هذا السيف النادر ، وبما أنك رجل مغامر سواح في

الأرض فاذهب إلى هذه الجزيرة ، وحاول بذكائك وحيلتك الحصول عليه ، ويكون مال الملك بيني وبينك .

قال حصرم : بالطبع رضيت بعرض شادور، ومن أجل سيف برغوش دخلت جزيرة الغراب وهذا أيها الأصدقاء سبب اهتمامي في تلك المقبرة الملوكية ، وعليّ خلال عام كامل أن امتلك السيف ، وانتظر البحار شادور، فلما أصبحت بين القبور أخذت بالبحث عن قبر برغوش ، فلم أعرفه ، فعدت للنفق فوجدت الرجل في خوف ورعب شديدين ، فلما رأني قال : لقد تأخرت ، ظننت أنك وقعت بأيدي الحرس ، هيا نخرج بسرعة !

وخرجنا من النفق الخطير، ولما ابتعدنا عن المقبرة ودخلنا طرف المدينة قالا : ماذا فعلت ؟!

رددت عليهما : تفرجت على القبور والتماثيل المنصوبة فوقها .. وسمعت عن قبر الملك برغوش فأحببت أن أراه فلم أوفق إليه ، فهل بإمكانكما إرشادي إليه ، ولكم مني أجر ذلك ؛ لأني أنا أملك مالا كثيرا ، قلت لهم هذا الكلام لأني أدركت جشعهما وحبهما للمال فوعداني خيرا ، وصحبتهما لمسكنهما .

وفي صباح اليوم التالي صحبني أحدهم لتلك المقبرة ، وعرفني على قبر الملك برغوش ، ثم عدت لبيتي أجهز نفسي لفتح قبر برغوش واستخراج سيفه منه، وبعد يومين زرت الرجلين فلم أجدهما ، فقيل لي إنهما سافرا ، فهما يحبان السفر إلى الجزر القريبة ، فلهما مركب يتنقلان عليه فأدركت أنهما ذهبا ليبيعا ما سرقاه من قبر الأمير الذي مات مؤخرا ، فهتفت قائلا لنفسي : مهنة لطيفة وخفيفة .. سبحان الله ! والسبب في ذهابي للسؤل عنهما أنه خطر في بالي بأنهم قد يكونان أخذا سيف برغوش وباعوه ، فأحببت أن أعرف قبل نبش القبر ، والسبب الثاني التأكد من صدقهم نحوي وعدم خداعي ، والسبب الأخير محاولة إغرائهما بجلب السيف المذكور مقابل عدد من القطع الذهبية.

فلما لم أجدهما قررت انتظارهما فما زال هناك وقت طويل على موعدي مع القبطان شادور بن بهلول ، فصبرت نفسي حتى رجعا بعد ثلاثين يوما ، فظفرت بهما ، وقد انزعجا في البداية

فطمأنتهما ، وقلت لهما : اعتبراني صديقا ، ولن أفشو سركم ، وأريد منكم خدمة ومساعدة .
ثم كشفت لهما الغاية التي أريد ، فقلت هامسا : سمعت أيها الأصدقاء أن في قبر الملك برغوش سيفا جميلا ، وأرغب قبل رحيلي عن جزيرة الغراب في الحصول عليه ؛ ليبقى معي ذكرى أفتخر بها أمام الأقران في بلدي عن بلدكم ، وبما أنكم مختصون بسرقة القبور فلا يستطيع أحد أن يحقق لي ذلك الا أنتما ، وعرضت عليهما مالا كثيرا .
وبعد ثرثرة حول سيف برغوش قال أحدهم : الأمر ليس سهلا .. رغم المال الذي تعرضه علينا ، ولا يستهان به .. فاسمع ما أقول.. نحن لما اكتشفنا هذا الكنز ـ وهو أخذ أشياء الأموات ـ فاعلم أننا نأخذ أموال الذين يموتون حديثا ، أما القبور القديمة بل التي يمر عليها سنة لا نستطيع فتحها .. فهؤلاء الناس بعدما يدفنون الميت ينتظرون سنة على موته ، ثم يؤتى بالرسامين والنحاتين بعد بناء قاعدة صلبة على القبر فيلونون القبر ، ثم يضعون تمثالا للميت على القبر حسب عظمته وقربه من السلطان .. فقبر برغوش أو سيف برغوش نحن سمعنا عنه ولكن الأمر ليس هينا ، فنحن إذا أردننا أن ننبش قبره قد نحتاج إلى كسر تمثاله، وهذا أمر قد ينكشف بسرعة فنخسر أنفسنا.
فقلت لهما أمام هذه الحقائق : أنا جئت من بلاد بعيدة من أجل هذا السيف، فلابد لكم من مساعدتي وتدبيري ، ولكم مني عشرة آلاف قطعة من الذهب ، فهذا مبلغ كبير ويستحق المغامرة .
فطلبا مهلة يومين للتفكير في الأمر ، فلما التقينا بعدها وافقا على مساعدتي على أن يقبضا نصف المال قبل العمل ، فدفعت لهما خمسة آلاف قطعة ، وكانت خطتهما الحفر تحت الأرض حتى يصلا لقبر برغوش ، وبعد تسعين يوما من الحفر اقتربوا من الوصول إلى قبر الملك برغوش ، وحدثت داهية قبل إنهاء الحفر أن أعلنت الحرب في الجزيرة ، فقد احتل جنود غزاة ساحل الجزيرة ، وجاء موضع هبوطهم من جهة النفق الذي ندخل منه إلى المقبرة فتوقف العمل ، وتوترت البلد وخاف الناس ، وجرت المراسلات بين الملك الشاب والملك الغازي الذي طلب من أهل

الجزيرة أموالا كثيرة ونساء ، وانتشر جنود ملك جزيرة الغراب في المدينة ، وخرج بضعة آلاف منهم إلى جهة البحر لمواجهة الغزاة والتصدي لهم ، واستعد الفلاحون والصيادون للدفاع عن أنفسهم وأهليهم ، وخلال المفاوضات بين الملكين حدثت مبارزات بين فرسان الفريقين ، ظهر فيها للملك ضعف فرسانه في مقاتلة هؤلاء الغزاة ، فبعد شهر من النزاع والتفاوض اتفقوا على الصلح على أن يدفع للملك الغازي وجنوده خمسمائة ألف قطعة ذهبية وألف امرأة ، وأخذت المواثيق والعهود من الملك الغازي بالانسحاب وعدم المجيء مرة أخرى للجزيرة ، ولما سويت الأمور انصرف الغزاة بالمال والسبايا ، وبعد زمن قصير عاد الهدوء للجزيرة كأن شيئا لم يقع ولم يكن ، وتعجبت لقبول هؤلاء فقد أموالهم ونساءهم بهذه البساطة واليسر ، فجاء الجواب سريعا "نفقد بعض المال ولا نفقده كله ، ونفقد ألف امرأة ولا نفقد آلاف الرجال وكل النساء ، والنساء تذهب عن طيب خاطر! "وتابع محدثي قائلا : فهذه أمور طبيعية في الجزيرة بل في كل الجزر المحيطة بنا ، أحيانا يتبارز الملوك مع الملوك الغزاة ، ومن غلب صاحبه يشرط عليه ما شاء، ولا تتقاتل الجنود مع بعضها البعض .

قال سلامة وأخبرنا صاحبنا حصرم بن سلام : أن هذه الحرب أخرت إخراج سيف الملك برغوش ما يزيد عن شهرين ، ولما أصبح السيف بين يديه فتأمله جيدا فوجده كما وصف له ، ولفه بخرقة ناعمة ، ودفع للرجلين ما تبقى لهم في ذمته ، وهجر الرجلين ، ومكث ينتظر القبطان شادور ، وفي الزمن المحدد تقريبا وصلت سفينة شادور سواحل جزيرة الغراب، وكان بينهما لقاء جميل وممتع ، وودع حصرم معارفه في الجزيرة ، وقد احتفى شادور بصاحبه أحمد احتفاء كبيرا ، ولما نظر السيف أصابته رعشة ودهشة ، وهذه حكاية الشيخ حصرم بن سلام في جزيرة الغراب .

حكاية الكاهن

أيها الكرام ! لما التئم شملنا ذات ليلة عند صاحبنا الجديد حصرم بن سلام ، وفرغنا من ملء البطون بالشراب المباح والطعام الطيب ، جاء دور ملء الذهن والأذن بالاستماع والكلام ،

فحمدت الرحمن وصلينا على النبي العدنان صلى الله عليه وآله وسلم والصحب الكرام ، فقلت : وصل بنا الحديث يا سيدي حصرم عندما وضعت السيف الثمين بين يدي القبطان شادور بن بهلول على متن سفينته العملاقة .. قل لنا الآن ما الذي جرى بينك وبين شادور القبطان .

سكت برهة محدثنا ثم تنفس حصرم نفسا عميقا وقال : جملة حقائق لابدّ من التذكير بها ، فالموت حقيقة وحق ولابدّ منه بأي صورة كان ، والوفاء نادر بين الناس إذا تعاملوا بالمال والدينار ، والطمع كأنه طبع في بني آدم ، حاول شادور حفظ السيف عنده ، فقلت: يا صاحبي الحذر واجب ، وقد دفعت مبلغا كبيرا للحصول عليه ، والدنيا حياة وموت ، فلنذهب سوية إلى صاحبك الملك الذي حدثتني عنه ، والذي كلفك بالحصول على السيف .

فأظهر الغضب مني وقال : ويلك ! .. ألا تثق بي ؟!

فاعتذرت له عن سوء فهمه ، وذكرت له قصصا عن الغدر والخيانة والجشع والنفس الأمارة بالسوء ، والصحيح أنه أصبح لديّ خبرة ونظر ، وقد تكون فراسة، فقد رأيت الغدر والطمع في لمعان عينيه عند أول مرة لمست يداه السيف ؛ لذلك اتخذت جانب الحذر والحيطة ، والمال أيها الأعزاء يفرق بين الأخوة الذين هم من صلب أب واحد ، فكيف بيني وبين شادور؟! فقد التقينا عرضا ، وجرى بيننا الاتفاق الذي تعلمونه ، ومضينا في البحر أياما وأياما ، وفي ذات ليلة دافئة هادئة بعد عشاء لذيذ شعرت بالنعاس القوي الشديد ، فصعدت لظهر السفينة حتى أنام فنمت سريعا ، وما كدت استغرق في النوم حتى استيقظت على أيدي عدد من الرجال يحملونني ويلوحون بي في الهواء ، ثم قذفوني إلى البحر من غير شفقة ولا رحمة حتى أنني لم أتمكن من الصراخ والصياح ، كنت أتوقع الغدر من شادور ؛ ولكن ليس بهذه القسوة ، ومن سوء حظ شادور اللعين وأعوانه أني أضع السيف الصغير والثمين مشدودا على فخذي ، ولا أحفظه في متاعي ، والهيان على وسطي ، وقد حصل بفضل من الله ربي أن تعلمت العوم في جزيرة الغراب ، فلما ارتطمت بالماء استيقظت حواسي كلها ، وكذلك حبي للحياة ، وكنت قد صحوت من النوم وهم يحملونني ليقذفوا بي إلى الماء ، فلما خفت الصدمة بدأت أعوم في وسط

البحر الهادئ ، ثم تركت نفسي للأمواج تتقاذفني كيف شاءت؟ .. فما أن ظهر نور الصباح إلا وأنا أجد نفسي ملقى على الرمال .. فعمري لم ينته بعد ، وكنت في غاية الإنهاك بالطبع ، فنمت من التعب على شاطئ البحر .

فما استيقظت أيها الأصدقاء إلا وأنا بين يدي رجال يحملونني إلى غرفة صغيرة ، وحضر كاهن الجزيرة الصغيرة ، وتمتم عليّ بكلماته التي لا أفهمها ، وبعد أيام عادت لي قواي الذهنية والعضلية ، واستردیت عافيتي ، وعلمت أنني في جزيرة في وسط البحر اسمها " السمكة الحمراء " ، وقد فاجأني القوم بتنصيبي ملكا عليهم ؛ لأن ملكهم قد وافته المنية منذ أيام ، وأول غريب يهبط الجزيرة بعد وفاة الحاكم يجعلونه عليهم ملكا ، يحكم بينهم ، ويحل لهم مشاكلهم والحقيقة التي بانت لي بعد زمن قصير أنّ الحاكم الفعلي لهؤلاء الناس هو الكاهن الأكبر، ووجدتهم كفرة يعبدون شجرة ضخمة تقع في وسط الجزيرة ، فهي الإله الذي يقدسونه ويعظمونه ، ويحيطونها بالتبجيل والتعظيم والاحترام العجيب ، والكاهن هو الذي ابتدع لهم الملك الغريب حتى لا يختلفوا ، ويتصارعوا على الحكم ، رضيت بالأمر أو استسلمت للأمر ، وأصبحت ملكا على هؤلاء الجهال عبدة الشجرة ، وتعلمت لسانهم ، وزوجني الكاهن امرأة منهم ؛ لتقوم على خدمتي ورعايتي وصنع الطعام لي ، وتنقل أحوالي أيضا للكاهن الأكبر ، كنت ملكا يا أخي هانيء ! ويا أخي سلامة ! من غير حرس أو وزراء أو جنود كما في بلادنا ، وكأن الملوك السابقين لم يفعلوا أمرا كهذا ، فوقع في نفسي أن أصنع مملكة حقيقية هناك ، ملك وزراء حرس وجنود وشعب ؛ ولكني اكتشفت أنّ هذا الأمر يحتاج إلى وقت طويل ، وقد يسبب لي الصدام مع الكاهن الأكبر الذي هو مشغول بشهواته ، فهو مشغول بالزواج ، ففي مطلع كل بضعة أشهر يزفون له امرأة جديدة ؛ فإذا حملت خلال نصف سنة تبقى على ذمته حتى تلد ، وفي اليوم الذي يتزوج فيه يترك امرأة لم تحمل منه ، فإذا ولدت المرأة التي تحمل منه ولدا بقيت عنده للأبد ، وأما إن وضعت أنثى تركها زوجة لغيره ، وعلى الزوج الجديد تربية البنت نيابة عن الكاهن اللعين .

اعلموا يا أصدقائي أن أغلب طعام هؤلاء الجهال أكل السمك ، وقليلا من الخضار والأعشاب وأن هذا الكاهن مجرم كبير ؛ فإذا غضب على أحد الناس ذكرا أو أنثى رموه في البحر طعاما للأسماك ؛ لتطعمهم الشجرة الغاضبة لغضب الكاهن سمكا سمينا ، العجيب أن هذه الجزيرة معزولة عن الجزر الأخرى ، لا يوجد فيها قوارب ، ولا تمر عليها السفن ، فهم لا يعلمون أن هناك مدنا حولهم ، وأن بشرا في الدنيا مثلهم ، وأمام هذا الحبس ورؤية هذا الجهل المطبق على هؤلاء القوم ـ ما عدا الكاهن اللعين فإنه فطن خبيث ـ فكرت بقتله وإراحة هؤلاء الناس من ظلمه بطريقة ماكرة لا يشعرون بأني قاتله ، فتسألت من سيصبح الكاهن لهم بعد زواله؟! فعلمت أن له مساعدين يختفون في كهف من كهوف الجزيرة ، لا يخرجون منه ألبته ، فإذا مات الكاهن خرج أحدهم خليفة له ، وهؤلاء الخلفاء لا يظهرون للناس، ولا يجتمعون إلا بامرأة تقوم على خدمتهم ، وحاولت الوصول لهذه المغارة فخاف الناس من ذلك ثم حاولت أن أصل إليها عن طريق الكاهن فنهرني وقال : اهتم بأمرك ، ومتع جسدك ، ولا تتدخل في شأن الآخرين فعدت للهدوء والصمت ، وكبر في نفسي سفك دم هذا الكاهن سرا في غفلة من قومه ، فقررت البحث عن أفعى سامة ، واستخلص سمها وأدسه في طعامه أو شرابه .

ولقد تمنيت وأنا في تلك الجزيرة المعزولة عن العالم لو أنني أعرف ضروريات ديني لأنقلها لهؤلاء الجهال ، فأنا تعلمت قليلا في قريتي جمانوسا عند الشيخ حماد ، ولفقري المدقع طردني الشيخ فعملت بالرعي والحقول ؛ فلذلك علمي بالشرائع ضئيل حتى عندما كنت وراقا ـ كما تعلمون في مدينة سلهوب ـ لم أهتم بكتب الشرائع وما فيها من العلم والخير ، كنت أترك ذلك للعمال عندي حتى الصلاة ـ أيها السادة ـ لم أكن أتقنها ، كيف غيرها من أمور العبادة ؟ لقد تمنيت حقيقة وأنا مع هؤلاء الجهال لو أنني تعلمت بعض الشيء عن ديني لأعلمه لهؤلاء الجهال الذين يعبدون شجرة لا تضر ولا تنفع .

كما قلت لكم قدح في ذهني أن أتخلص من الكاهن لأعرف أسرار الجزيرة والكهف الذي يختفي فيه مساعدو الكاهن الغامض ، تابعت الكاهن ووضعته تحت مراقبتي ، فلم استدل منه على

الكهف ، والناس لا يتحدثون عن الكاهن إلا برعب ووجل ، ومن سألته سوألا حول الكاهن لم يعد يقترب مني ، بل يهرب عندما يلمحني من بعيد ، له سطوة غريبة عليهم ، فتسألت أكثر من مرة لماذا أنا ملك على هؤلاء ؟! حتى المرأة التي زوجوني إياها لا تتكلم بشيء عن ذلك ؛ وإذا سألتها ارتسم الرعب على وجهها ، وكنت أرى أنها عين الكاهن عليّ ، وكانت تغيب عني كثيرا ولا أهتم بذلك ، وقد شاهدت مشهدا يوما ما ، جعلني أفكر فعلا بقتل الكاهن الأكبر غيلة ، كنت يوما أجلس في قصري الصغير الذي هو عبارة عن كوخ على صخرة كبيرة ، وأهبط إلى الأرض بسلم مصنوع من جذع شجرة ، جاءتني زوجتي تدعوني لمقابلة الكاهن ، فذهبت على الفور ؛ فإذا هو يقاضي شابا تقاتل مع رفيق له ، وهما يصيدان السمك ، ولما ذكر كل واحد منهما ما عنده حكم على أحدهما بالموت لأنه سبّ الآلهة أثناء الشجار ، وطلب مني تنفيذ الحكم الصارم بالشاب ، وقام رجال بشد الضحية بالحبال ، وتدخلت وحاولت العفو عنه ، فصدني الكاهن اللعين ، وطلب مني أن لا أتدخل في قضائه ، ولا في شأن لا يهمني ، فتشاجرنا فغضب عليّ ، وأمر رجاله بتوثيقي في الحبال ، وحبسي بضعة أيام في كهف سد بحجارة ضخمة .

ثم عفا عني لما استعطفته ، وقبلت يديه ، واعتذرت له أمام أهل القرية ، لقد أذلني اللعين مذلة لم أنسها لليوم ، فكبر كرهي وحقدي عليه ، وتعجبت لماذا لم يقتلوني كما قتلوا ذاك الشاب الذي دافعت عنه؟! فقد رموه في البحر لتأكله الأسماك إرضاء للآلهة ، صبرت أياما ثم أخذت انطلق في البراري باحثا عن ثعبان سام أو ثعابين حتى تيسر لي ذلك ، وجربته في بعض الحشرات والسحالى ففتك بها فتكا سريعا ـ ولي معرفة بالافاعي عندما كنت راعيا في قريتيي القديمة ـ وقررت أن احتفظ به للوقت المناسب ، وأدسه في بيت الكاهن اللئيم لعله يلدغه ويقضي عليه، ثم هيأت نباتا ساما من خانق الذئب السام القاتل للذئاب والحيوانات للوقت المناسب أيضا ، وبدأت أفكر بوسيلة أوصل بها السم لقلب الكاهن الأكبر ، ففكرت أن أصنع وليمة كبيرة للكاهن مبينا له اعتذاري عن إساءتي لشخصه الكبير ، ومرضيا لغروره الكبير أيضا ، ودعوته فوافق ، وأحضر لي الصيادون سمكا كثيرا ، وقمت بشويه على النار ، وحضر الكاهن ورجاله

الخمسة وأكلوه ، وشربوا شرابا يصنعونه من أشجار تسكن الجزيرة ، واعتذرت للكاهن مرة ثانية عن خطئي وغفلتي نحوه ، فأبدى عطفه وعفوه عني ، ولم أضع له السم ، أردت أن يطمئن لي أكثر ، ويرتفع شكه عني ، هو ورجاله الخمسة ، ويقتنعون أني رضيت بالأمر الواقع ، وقدر لي أن أعرف من الصيادين أن أيّ صيد غريب فهو للكاهن ، فهم عندما يصيدون كلب بحر فهو لسيد الجزيرة المطلق ، لا ينازعه فيه أحد ، هو أيها الأصدقاء الملك الحقيقي لهذه القرية ، وما عرفت الفائدة والحكمة من وضعي ملكا على هؤلاء الناس الجهال ؟! حتى وأنا مسجون ظللت ملكا عليهم لم يخلعني اللعين ، وسوف أظل ملكا حتى الموت ، ملكا محبوسا في الجزيرة فهؤلاء الناس معزولون عن العالم ، ولا يعرفون السفن ولا القوارب .

ذات يوم وأنا أسير قرب شاطئ مهجور لا يستعمله الصيادون وجدت جثة ممددة عليه ؛ فإذا هي جثة أنثى فتاة صغيرة ، وعليها ملابس جميلة وزاهية ؛ كأنها عروس في ليلة فرحها، فدرت حولها ، وأخذت في تقليبها ، وجسست نبضها؛ فإذا هي حية ، فدلكت عنقها وصدرها ونقلتها إلى ظل شجرة ، وحاولت معالجتها فلم أفلح ، فأحضرت لها الكاهن الأكبر لعله يستطيع مداواتها ، فأمر بنقلها إلى قصره ، وتمتم عليها بشعوذته ، وسقاها شرابا عنده يعالج به مرضى الجزيرة ، فاستيقظت الفتاة وكانت تهذي ولا ندري ما تقول ، فأمر الكاهن نساءه أن يغيرن ثيابها بثياب دافئة وإشعال النار في مكان نومها ، وأمر كذلك بإطعامها من لحم الأرانب ومرقها حتى تسترد عافيتها ، وتذهب عنها الحمى التي أصابتها ، وجود هذه الفتاة في الجزيرة أجل من تنفيذي لحكم الموت الذي أصدرته ضد الكاهن ، بعد شهر عادت للفتاة نضارة ووجهها وجمالها الآخاذ ، وكانت تتكلم ولم نكن نفهم عليها ، فأخذت تجتهد بتعلم لغة أهل الجزيرة ، وما كادت تمضي بيننا فصلا من فصول السنة حتى أصبحت تتكلم بلسان القوم ، وعرفت أين تعيش ؟! وكنت بشوق ـ أيها الأصدقاء ـ لمعرفة حكايتها ، وما الذي رماها على هذه الجزيرة في وسط البحر الكبير ؛ ولكن قبل أن أسمع حكايتها وأجتمع بها ، نقل لي أن الكاهن يريد أن يتزوج هذه الفتاة ، وأنه سيتزوجها زواجا أبديا ؛ لأنها هدية من البحر له ، فنزل عليّ هذا الخبر كالصاعقة

في الليلة العاصفة ، وصحت : هذا الرجل يدفعني لصرعه كأنه سيموت بيدي هاتين !

كان من عادة الكاهن ورجاله الخمسة أنهم يخرجون عند انتصاف النهار يوميا إلى الشجرة المعبودة من دون الله فيطوفون حولها ، ثم يهجم عليه العامة يتلمسونه لأخذ بركاته ، ثم يعود لقصره الخشبي ، في هذا الوقت زارتني الفتاة الغريبة ، وطلبت مني إنقاذها من الكاهن ، فعطفت عليها وشجعتها على قتل الكاهن ، ودفعت لها السم الذي هيئته للفتك بالكاهن ، وقلت لها : اظهري رضاك بالزواج منه ، ثم ضعي له هذا السم في طعامه ، ولسوف أدافع عنك ولا تخافي وأنا معك .



وعادت خفية لمنازل الكاهن ، وقد علمت منها أن الكاهن حذرها من الاجتماع بي ، والفتاة شجاعة كما ظهر لي ، وبعد أيام يسيرة استدعاني الكاهن الأكبر للاجتماع به ، واختلى بي وكان يرقد تحت الفراش فإذا به يقول : سأموت يا أحمد فقد اقتربت النهاية ، فالسم الذي دسسته لي سيؤدي مفعوله ، وسأقول لك الأسرار التي كنت تبحث عنها وتسعى إليها ، اعلم أنني لست من هؤلاء القوم ، أنا مثلك غريب عنهم ، أنا صياد من مدينة النجق خرجت وخمسة من الصيادين في رحلة صيد ، فرمت بنا عاصفة إلى هذه الجزيرة ، وكان الناس هنا يعتقدون أن كل قادم إلى هنا من البحر إله ، فينصبونه سيدا عليهم يعبودنه مع الشجرة العملاقة أي أن الملك هو نائب الإله أو لسان الشجرة ، ومات ملكهم قبل مجيئنا بأيام ، ولما وصلنا إليهم جعلوني ملكا عليهم ، ورفاقي مساعدون لي ، فصاروا يقدسوننا والشجرة ، ولما استقر بنا المقام هنا وفهمت طباع وصفات هؤلاء الناس ولغتهم اخترعت لهم منذ خمسين عاما الكاهن الأكبر وجعلت أحد الصيادين الذين جاءوا معي ملكا مكاني اسما مثلك الآن ، دون الفعل الذي كنت افعله ، وبالتدريج نقلت التقديس لشخص الكاهن ، وتشاجرت مع رفاقي الصيادين فتخلصت منهم خفية ودفنتهم في كهف ، وأخبرت الناس أنهم اختفوا في كهف حتى يصبحوا بعدي كهانا، ونسيهم الناس ، وصرت أضع لهم الشرائع المناسبة ، وأنكح نساءهم وبناتهم ،

ويفعل الملك صاحبي مثلي إلى أن مات ، فأرسلت لنا الآلهة رجلا فنصبناه ملكا بدون ملك ، وانفردت بالسلطة والحكم عليهم ، ووضعت لهم طقوسا لعبادتي وعبادة الشجرة ، وكل ستة أشهر يزفون لي امرأة ، وأتخلص من واحدة لم تحمل مني أو أنجبت لي بنتا فيقوم أحدهم بالزواج منها ـ من زوجة الإله ـ ويربي هذا الزوج ابنة الإله ، ومنذ أن جئت إلى هذه البلدة ، وقد تزوجت مئات النساء فلم ارزق بولد ذكر إلا مرة واحدة ، وكم فرحت به ! وبدأت أعده ليكون الكاهن الأكبر ؛ ولكنه مات بعد عشر سنوات ، فحزنت عليه كثيرا ، وبالرعب وبالتقديس ما زلت إلها لهؤلاء الناس ، ومات الملك الذي سبقك ، فجئت أنت فجعلناك ملكا ؛ لاعتقاد هؤلاء أنّ أيّ شخص يأتي من البحر فهو إله قادم إليهم ، وهذا الأمر لا يضيرني ، ولا يحد من سطوتي عليهم وأنا بينهم منذ خمسين سنة ، فهذه قصتي يا أحمد التي سعيت لمعرفتها منذ وطئت قدماك هذه الجزيرة .. والآن أقول لك وداعا .. واعلم أن القاتل يقتل ولو بعد حين ، فهذا جزائي ، واستلم مكاني ، وسيأتي من يقتلك كما قتلتني! وعلم الناس بشدة مرض الكاهن، وأنه ولّى الكهانة للملك أحمد، ولما فاضت روحه ألقوه

للبحر ليمدهم بمزيد من الأسماك والطعام ، فهؤلاء القوم لا يعرفون الدفن .

ورث حصرم بن سلام قصر الكاهن ، وحرر نسائه من قيده ، وأخبر الناس أنه ملك وليس كاهنا ، فانزعج الناس أول الأمر وأصابهم الذهول ، وتيقن لهم أنّ الكهنة المختفون في الكهف لن يخرجوا ، وكشف لهم أحمد خداع الكاهن رويدا رويدا ، وأنه بشر مثلهم ، وأن وراء البحر أناس مثلهم يعيشون في الدنيا ، ولما هدأت الجزيرة بعد هذه الأخبار استمع حصرم لقصة الفتاة التي ساعدته على قتل إله الجزيرة ، فقالت : يا سيدي الطيب لقد أنـقذتني من هذا الكاهن اللعين .

فابتسم لها حصرم قائلا : بل أنت التي أنقذتني منه ، وأنـقذت هؤلاء الجهال منه وحدثها عن نفسه بعض الوقت ، ثم طلب منها أن تسمعه قصتها ، وما الذي رمى بها على هذه الجزيرة ؟
فقالت : أنا أميرة بنت الملك بوقة ملك بلاد السنجاب .

قطع حصرم كلامها قائلا وهو يتنهد : عندما رأيتك أول مرة على رمال الجزيرة وقع في نفسي أنك ابنة عظيم .. بل ظننتك حورية من حوريات البحر تابعي الحديث أيتها الأميرة !

فتابعت الأميرة الكلام قائلة : يا سيدي الملك أحمد .. خطبني أمير من أمراء بلادنا فرفضته ونسيت الأمر ، والتقيت بشاب من عامة الناس ، وجرى بيننا إعجاب وحب ، فخطبني من أبي الملك ، وبعد ضغط شديد مني على والدي زوجني من الشاب الذي اخترته لنفسي ، وفي ليلة الـفرح والاحتفال بزواجنا حدث أمر ، فمن عادات وتقاليد بلادنا أيها الملك بعد الانتهاء من الحفل الشعبي في ساحات المدينة أن يركب الـعروسان في سفينة صغيرة البحر ساعة من الزمان فنحن قوم نعظم البحر ونتبارك به كهؤلاء الناس الذين تحكمهم ، وهيئت لنا السفينة ، وركبت أنا وزوجي المختار السفينة وخمسة من البحارة الذين يخدمون والدي الملك ، ودخلنا الماء ليبارك زواجنا ، وتعمقنا في البحر ، وعند العودة غدر بنا البحارة ، فألقوا صاحبي في البحر ، وعلمت أنى مخطوفة ، وأن هؤلاء البحارة الخونة سيذهبون بي إلى الأمير الذي خطبني سابقا ورفضته ، وظننت أنّ الأمر قد انتهى ، فقادوني إلى جزيرة ينتظرني فيها الأمير، وبعد تـفكير عميق قررت الهرب منهم ، ثم العودة لأبي حتى ينتقم منهم جميعا ، ولما لاح لي ساحل هذه الجزيرة من بعيد قفزت إلى الماء مظهرا لهم أني أفضل الموت على الذهاب معهم ، وسبحت نحو ساحلكم ، وأنا فتاة تتقن العوم ، وقلت إن البحر سينقذني منهم ، فنحن قوم نعظم البحر، وهو أحد الآلهة التي نـقدسها يا سيدي الملك ! فظللت أعوم حتى وصلت إلى الشاطئْ فأغمي عليّ والباقي تعرفه ، وأنا لا أعرف ماذا جرى لزوجي ؟! هل نجا مثلي أم غرق في البحر؟ فهو من فرسان البحر، ولا أدري كيف سأعود لبلادنا أيها الملك ؟!.



أخبرنا حصرم فقال : فلما سمعت حكايتها أشفقت عليها ، ووعدتها خيرا ، وقلت لها إذا تيسرت لنا سفينة آمنة سنسافر معا إلى بلاد السنجاب ، ورتبت مع نـفسي لحرق الشجرة العملاقة التي يعبدها هؤلاء الناس ، فاستيقظوا ذات ليلة على ارتفاع اللهب من الشجرة العملاقة ، وجاءوا إلى قصري فزعين وهم يصيحون : الإله احترق !!..الإله احترق!! فصحت قائلا: إله لا يدافع عن نفسه كيف يكون إلها؟! إله لا يطفىء نفسه ، كيف ذلك ؟! ثم أجبت قائلا : لابدّ أنها شجرة كباقي الشجر، وذهبت معهم إلى الإله الذي كان يحترق ويحترق ، وحاولوا إطفاء النار بالماء فصحت قائلا : ويحكم إله لايطفي نفسه! ..دعوا هذا الإله سنبحث عن إله آخر .. من صنع هذا الإله أيها الناس فليصنع لنا إلها أخر؟!

فبدأ المستمعون يتهامسون ويقولون : ماذا يقول هذا الملك ؟!!

فصحت بحرارة وقوة وحماس : أيها الناس لنعبد الإله الذي صنع هذه الشجرة العملاقة ! المهم أيها السادة دفعتهم لعبادة إلهنا ربنا الله سبحانه ، ووجدت نفسي أدعو هؤلاء الناس إلى الإسلام الذي لا أعرف عنه الكثير .. آه!! كم ندمت على تقصيري في معرفة المزيد عن إسلامي ولو حفظت عددا من السور القرآنية لأفدت هؤلاء الناس بها ، وقلت إذا قدر لي العودة لبلادنا سأتعلم الدين الصلاة والصوم .. من المهم أن كلماتي بدأت تجد صداها في هؤلاء الأغبياء ، وبدءوا يعتقدون بوجود إله أكبر لهذا الكون.. إله السموات .. إله الأرض .. إله الشجر .. إله السمك والبحر ..إله كل شيء .. دعوتهم للصلاة لهذا الأله الأعظم ، علمتهم الدعاء والركوع والسجود ، ودعوته في السراء والضراء .

واعلموا أيها الأصدقاء أنّ رحمة الله واسعة وعظيمة جدا جدا، فكأن الله تعالى استجاب لدعاء أهل الجزيرة ، فهبطت على جزيرتنا سفينة تائهة في البحر، فاستقبلت أهل السفينة في فرح كبير وفرحت أكثر عندما وجدت أنّ أكثر ركابها مسلمون يعرفون شعائر الإسلام والدين ، وبعد أيام قرر قبطان السفينة بالرحيل ، وتطوع شاب بالبقاء في الجزيرة لدعوة الناس لدينهم الجديد ويعلمهم سورا من القرآن ، وعرضت على الفتاة الأميرة الرحيل مع هؤلاء ، فقالت : لن أرحل

إلا معك ياسيدي ..أريد أن أعرف هذا الدين الذي تدعون إليه ، أريد أنّ أعظم هذا الإله الذي تعبدونه وتـقدسونه وتخرون له ساجدين.

كان الشاب القادم نعمة كبرى من الله تعالى لأهل هذه الجزيرة ، وعلم الناس الصلاة والفاتحة والقرآن والصوم والإيمان ، لقد استطاع هذا الشاب نقل ما يحفظه عن الإسلام لهؤلاء ، فأحبوا الدين الجديد ، والإله الجديد حبا عظيما ، وبنينا مسجدا للجزيرة ، وتعلموا الآذان وألفاظا من العربية ، الحقيقة يا أصدقائي سررت من هذا العمل ، وهو اخراج هؤلاء من الظلمات إلى النور ودونا كل ما سمعناه من الشاب على الصحف والجلود ؛ وبعد سنتين قال الشاب : الآن انتهى ما عندي وأريد العودة لبلادي في أول سفينة تمر علينا ، وأنا أيضا عزلت نفسي عن الحكم ، وبينت لهم رغبتي بالرحيل لأهلي ، فقد طال عليهم الغياب ، وحثثتهم على تعلم صناعة السفن والقوارب ، وذلك بأن يرسلوا بعض أبنائهم لجزر مجاورة يتعلمون منهم ذلك وعليهم ألا يظلوا منغلقين على أنفسهم ، وعليهم كذلك ببعث بعض أولادهم الأذكياء لبلاد المسلمين ؛ ليتعلموا العلم الشرعي النافع وغيره ، ثم يعلموه للناس والجزر المجاورة ، والحق أنهم بكوا وحزنوا لرحيلي ، وتمنوا ألا تمر سفينة على بلادهم حتى أظل موجودا بينهم ، فشكرتهم شكرا جزيلا ، ثم واسيتهم قائلا : لعل الله يقذف بي إلى قوم بحاجة لي مثلكم .. أدعوهم للخير والسعادة .

ويسر المولى سبحانه سفينة سائرة لبلاد الشمس والصين ، فحملتنا أنا والشاب المعلم والفتاة الاميرة وعشرة من الغلمان الأذكياء مسافرين في طلب العلم، وفن صناعة السفن ، فأرشدتهم بالمسير إلى بلاد فارس أو بغدان أو الشام أو مصر ففيها زاد طيب .



ملك السنجاب

عندما زرنا صاحبنا حصرما بعد أيام من سماعنا منه حكاية الكاهن ، وتناولنا الطعام وما لذّ من الشراب الطيب ، أصغينا آذاننا لمحدثنا ابن سلام بعد أن قال هانيء : يا سيدي حصرم وصل بنا الحديث عندما ركبتم السفينة مغادرين جزيرة الكاهن جزيرة السمكة الحمراء فماذا جرى لكم بعد ذلك ؟!

قال حصرم : يا أيها السادة الكرام ! فهمت من الصبية الأميرة أنّ بلادها قريبة من جزيرة السمكة وفي أول مدينة رست فيها السفينة ودعنا الشاب المعلم والغلمان ، وأخذت الفتاة الأميرة وبحثنا عن سفينة مسافرة لبلاد السنجاب أو جهة تلك البلاد ، ولما تيسر لنا ذلك سافرنا ، ووصلنا لتلك الديار بسلام ، بدون عوائق تذكر في هذا المقام ، وكان هدفي الأول أيها الكرام رد الفتاة "صفا" لأهلها ردا جميلا ، وصلنا ساحل مدينة السنجاب ليلا ، ومن الميناء اكترينا حمارين من أحد الحمارين ، وطلبنا منه أن يوصلنا إلى قرب قصر ملك السنجاب (بوقة السالي) ، ولما وصلنا قلب المدينة كان الظلام قد خيم بشدة على المدينة ، ولما اقتربنا من قصر الملك صرفنا الحمار ، وبحثنا عن خان نمضي به ليلتنا ، وقد وجدنا ما أردنا ـ وكما تعلمون أيها الكرام ـ أن الأميرة لها بضع سنوات غائبة عن البلاد ، وهم يعتقدون غرقها وموتها ، وقد تقرر بيننا أن تذهب الأميرة إلى قصر والدها وحدها، وتطلعهم على جلية الأمر ثم ترسل ورائي لتعرفني على أسرتها ، ولما لاح الفجر بنوره الوضاح اتجهت الأميرة إلى القصر لتلتقي وتجتمع بأحبابها ، وغابت يومين ثلاثة أيام ، فاعتقدت أن الأميرة صفا نسيتني مع فرحتها بلقاء الوالد والوالدة والأحبة ، ففكرت بنسيانها والبحث عن الملك الذي يعشق الجواهر النادرة صاحب القبطان شادور؛ ولكن سمعت من صاحب الخان ذات مساء ، وهو يهمس في أذني أن فتاتي قد ادعت أنها ابنة الملك بوقة السالي ، وهي مسجونة في سجن الحوت ، تعجبت مما سمعت ، وسألته أول سؤال : كيف عرفت بالأمر ؟! فقال: لي صديق يعمل حارسا في السجن ، والفتاة طلبت منه أن يوصل إليك الخبر، وقد وهبته خاتما من أجل هذه الخدمة ، وعلم أن الفتاة تدعي أنها ابنة الملك

بوقة الأميرة صفا ، وأنها الأميرة التي اختفت يوم زواجها منذ سنوات ، وقيل إنها قد غرقت وماتت ، فلما سمعت كلامه صدقته، وقلت : يا هذا اكتم الأمر ودعني أفكر بالأمر ، وأقسمت له بإلهي العظيم أنها الأميرة صفا ابنة بوقة السالي ، ولابد أنّ التباسا قد حصل ، وسوف أبذل جهدي وذكائي في كشف السر .

وسألته عن خلق وطباع الملك والسادة الوزراء والأمراء ، وطلبت منه مساعدتي بالاجتماع مع رفيقه السجان ، وتم لي ذلك أيها السادة الكرام ، وفهمت من السجان أنّ الفتاة قد مشت إلى القصر وتحدثت مع رئيس الحرس "جهار" ، ولم يصدقها وكذبها ، وأمر بحبسها ، وهي مسجونة عندهم ، وتصيح وتقول :أنا ابنة ملككم ! أنا الأميرة صفا ! وقال لي : نحن لا نستطيع تصديقها ورئيس الحرس قد أمر بحبسها ، وقال " إنها مجنونة وكذابة " ، فقلت له : اذكر لها أنّ رسالتها وصلت اليّ ، واطلب منها الصمت حتى أدبر أمرها ، وأوصل أمرها للملك لوالدها ورويت له قصتها باختصار ، فصدقني ، وأوصيته عليها خيرا ، وأن يكتم الأمر حتى يحدث الله لها أمرا .

وبعد تفكير عميق وقلق على الأميرة قلت : على الأميرة خوف حتى أنهم لم يتحققوا من صدق أقوالها ، فرسمت فكرة لإخفائها وخطفها من سجن الحوت قبل فوات الأوان، وكانت الخطة تقوم على الهرب من السجن بمساعدة السجان جوهان، ورتبت الأمر مع السجان ، ففي نصف الليل دخل السجان غرفتها خفية عن زملائه ورفعها حتى وصلت إلى النافذة الوحيدة في الغرفة وكنت في انتظارها من خارج الغرفة ، فأنزلتها ثم اجتزت بها سور السجن ، وذهبت بها إلى مكان قد هيئته لإخفائها ، وقد تم لنا ذلك بسهولة ويسر وبمساعدة كبيرة من السجان جوهان الذي أظهر لأصحابه أنه متعب ، وتظاهر بمغادرة السجن واختبأ فيه حتى تم تنفيذ العملية بيسر وسهولة ، فعاد جوهان لبيته سالما مطمئنا ، وقد زودته بألف قطعة ذهبية جزاء مساعدته لنا ، وأخذت فتاتي واختفينا عن الأنظار بضعة أيام ، ثم تنكرت بشخصية شحاذ ، وعادت بي الذكريات إلى هاوان والشيخ عبدون ، ثم شاركتني صفا التنكر ، وبدأنا نتابع أخبار الملك

وجهار لاكتشاف الدافع الحقيقي وراء سجن الأميرة حتى نصل إلى طريقة توصلنا للملك بوقة السالي ، وفي المساء نعود للبيت الوضيع في حي الشحاذين والفقراء ، عرفنا من اختلاطنا بالناس أن أمر الأميرة كبر وعظم بعد هربها من السجن ، وأنّ رئيس الحرس غضب على حرس السجن أشد الغضب لتهاونهم في أمر المسجونة ، وأبعدهم إلى سجون أخرى ومواقع حراسة أخرى ، وعلمنا من صاحبنا السجان جوهان أنهم يبحثون عن الأميرة سرا ، فقلت له : هذا يؤكد أن هذا الرجل قد عرف الأميرة حق المعرفة ! ولو أنها امرأة مجنونة كما يزعم فلماذا كل هذا الاهتمام بهروبها ومعاقبة الحراس ؟!.

أيها الكرام مضت أيام ولم نكشف سر عداوة جهار لابنة الملك العائدة ، ولماذا لم يساعدها في الوصول إلى أبيها الملك ، فقلت للأميرة : سأحاول الاتصال بوالدك ، وسنترك التخفي لابدّ أن العيون قد خفت عنك بعد مضي أربعة أشهر من هربك من السجن ، وسنسكن في حي أحسن حالا من هذا الحي الفقير ، وهم اليوم يظنون أنك خرجت من المدينة .

لقد تأكد لنا يا صديقاي أن الناس يعتقدون بموت الأميرة وزوجها في مياه البحر الهائلة ، ولما تيقنت الأميرة أنّ زوجها قد مات عرضت عليّ الزواج من نـفسها لتكافئني على مساعدتي لها ، فاعتذرت وبينت لها أن هذا الأمر لا يشغل بالي كثيرا ، وحدثتها عن سيف شادور ، وختمت كلامي معها قائلا : عندما تعودين لأحضان والدك قد يكون لنا حديث في الموضوع ، أما الآن فلا ، ولكنها كررت المحاولة والرغبة ، وأصررت على الصبر والتأجيل ، ثم علمنا بعد رحلينا لحي آخر أن والدتها الملكة قد توفيت منذ سنوات ، وأن والدها تزوج من امرأة مشهورة بالجمال والدهاء والخبث ، وأن أخواتها كلهنّ تزوجن من أمراء وأبناء وزراء ، وكذلك اخوتها تزوجوا جميعهم ، وتبين لهم من تلقط أخبار القصر أن الملك الحقيقي والحاكم لبلاد السنجاب زوجته الملكة "شريكار" ابنة وزيره الأكبر سلحار، فلما تجمعت هذه المعلومات أمام صفا قالت : يا مولاي! كأنني بدأت أفهم سبب غضبهم عليّ ، وقالت أيضا : إنّ هذه الأميرة شريكار تكرهها وكان بينهما بغض وعداء خفي ، وتقول : ولا أدري كيف تزوجها أبي ؟! فهي امرأة ماكرة ،

ونفسها خبيثة ، وتحب الشر ، وتكره الخير ، وتعشق الدسائس والمكايد ، ولقد حاولت الزواج من أخي الأكبر بعد أن أوقعت بينه وبين زوجته ، فطلقها ؛ ولكني حذرته من القران بها ، وحدثته عن خبثها ومكرها فرفض عرضها ، وها هي تصل إلى قلب أبي .

قال حصرم : لما عرفت هذه المعلومات كلها قلت للأميرة بعد تفكير عميق أميرة صفا لابدّ أنّ هناك علاقة مهمة بين جهار قائد الحرس والملكة شريكار، وهي التي دفعته إلى سجنك وإخفاء أمرك عن أبيك .. فلو وصل الملك خبرك حتى لو كان كذبا فعلى الأقل يطلب رؤياك ليرى سبب انتحال شخص شخصية ابنته .. فالأرجح أن الملك لم تصله أخبارك أو وصلت إليه أخبار مشوهة ، فيلوح لي أن القائد حبسك رغبة لزوج أبيك الجديدة ، فهناك أمور مخفية ، وستظهر لنا مع الأيام والمهم أيتها الأميرة عليك أن تغيري اسمك ومن شكلك عند الخروج فأنت الآن "كاله" وأنا زوجك "جاريد" من سكان بلاد الراب أعمل في تجارة الخيول والبغال والحمير فلقد استأجرت مكانا واسعا في سوق الدواب اشتري بسعر قليل كميات كثيرة ونبيع بثمن عال ، فقضيتنا تحتاج للصبر والوقت ، فصبرت الأميرة ، وأنا أحببت أن اكمل معروفي معها ، وكنت أظن أنني سأمكث أياما في بلاد السنجاب ، وأغادرها باحثا عن الملك صاحب شادور البحار لأبيعه سيف الملك برغوش ملك جزيرة الغراب .

يا أصدقائي الكرام مع البيع والشراء للخيول صار لي معارف ، بعض الأمراء والأجناد ، وذلك كان غاية لي وطريقة للوصول لأهل الحكم والسلطان ، وقدر لي في إحدى الصفقات أن أشترى حصانا أصيلا وجميلا من سلالة عربية ماجدة ، وكان ثمنه غال جدا ، وهو حصان ملوكي ، قلت لنفسي "هذا الحصان سيجمعني بملك السنجاب الملك بوقة " ، ودفعت مبلغا لأحد المنادين ليمشي في أنحاء المدينة ؛ لينشر خبره بين جميع الأهالي ، وانتشر خبره في قلب بلاد السنجاب ، حتى أنّ جهار سيد الحرس في قصر الملك أتى لينظر إليه ، وأعجب به غاية الإعجاب من حسنه وقوته ودفع مبلغا كبيرا ؛ ولكني طلبت ثمنا له مائة ألف قطعة من الذهب الأحمر ثلاث مرات ، فدفع ثلث المبلغ فاعتذرت له ، وأرشدته لفرس غيرها ، فرفض وانصرف

وهو يقول : لا أعتقد أنّ أحدا غيري يدفع لك مثل ما دفعت ، فقلت : يا سيدي إن لم أجد من يدفع ثمنه المطلوب سيكون لك هدية مني .

ولم يطل الوقت فقد جاءني يوما رئيس ساسة خيل الملك ، وأخبرني أن الملك سمع من رجال حاشيته بالحصان الغالي وهو يرغب فيه ، ولما شاهده رئيس السياس أكد لي أنّ هذا الحصان أصيل ، ولابد أنه كان عند ملك عظيم ، وبين لي الرجل رغبة الملك بشرائه ، فوهبته أيها السادة للملك بدون مقابل ، فتعجب الناس من كرمي وسخائي وشهامتي! وطار صيتي في بلاد السنجاب كلها ، وأصبحت تاجر الخيل الأول في البلاد ، وأخذ الأمراء والفرسان يوصونني على شراء خيل لهم ، أمام هذه التضحية صرت أتردد على اسطبل الملك ، وازداد احتكاكي بالفرسان والوزراء وأخيرا تشرفت بمقابلة الملك بوقة السالي الذي شكرني على الحصان الهدية وأذن لي بزيارته والتشرف برؤيته في كل آن ، وجرني ذلك إلى التشرف بلقاء الملكة التي طلبت مني عددا من الخيول الأصيلة ، ومع اتصالي بهؤلاء السادة الكبار، وبترددي على قصر الملك ، وقد أعجبته حكاياتي وكلامي ، فأصبحت من علية القوم في أقل من ثلاث سنوات ، وبان لي أيها الأصدقاء الكرام أن الملك مخدوع بزوجته شريكار، وأن علاقة أثيمة بينها وبين جهمار رئيس الحرس ، وتبين لي أنّ بينهما قصة عشق وغرام ، فكان هذا الرجل أكبر من حجمه ، فقررت أن أصل لقلب هذه المرأة اللعوب ، فصرت أرسل لها الهدايا الثمينة من الجواهر والعطور بالخفية ، فما يمضي أسبوع إلا وأرسل لها شيئا جميلا خاتما قلادة إكليلا حتى أصبحنا أصدقاء ، وبدأت تجرؤ وتسمح لي بحضور جلساتها الخاصة مع صديقاتها الأميرات والأمراء ، فتأكد لي أنها امرأة مستهترة غارقة في ملذاتها وشهواتها الحيوانية ، وأن زوجها الملك لا علم له بهذه الأحوال وأنها تخدعه ؛ ولكن كيف سيعرف الملك هذا الأمر الصعب؟! .. اعلموا أيها السادة أنه أصبح بيني وبين هذه المرأة ود ، واعترفت لي بكل وقاحة بهواها لشخصي ، فقلت لها بكل جسارة "وعشيقك جهمار ماذا سيفعل بي إن علم؟! " فقالت بهدوء : لا تخف منه ، فهو ألعوبة في يدي فإن شئت أوردته المهالك أو نفيته إلى آخر بلاد السنجاب ، فقلت : وأنا أتصنع الهلع والولهة :

لا أحب القتل أيتها الحبيبة! .. نفيه أفضل حتى يخلو لنا الحب والغرام .

وكان ذلك بعد أيام ، وأنا أريد ذلك لتبدأ بينهما العداوة والبغضاء والشر ؛ ولعله يكشف الأمر للملك ، وحصل هذا ، فمن منفاه البعيد أرسل خطابا للملك يطلب منه مراقبة زوجته الخائنة ولم يذكر اسمه ؛ ولكني أنا أوحيت له بذلك ، وقد عرفت بأمر الرسالة من الملكة اللاهية ، قالت لي: أن أحد حسادها أرسل للملك رسالة يذكر له خيانتي الزوجية له ، والملك حدثها بأمر الرسالة ، فأقسمت له بأنها شريفة عفيفة ، ولا يمكن أن تخون مولاها وسيد نعمتها ، فوجدتها فرصة لأبتعد عنها ، فأظهرت لها الخوف والجزع ، وأنني يجب أن أبتعد عن مجالسها فترة من الوقت ، وكان ذلك ، وهي نفسها أخذت جانب الحذر ، وبدأت تبحث عن الواشي أو الواشية، ولم يخطر ببالها أنه جهمار ؛ لأن في ذلك خطر عليه كما قالت ، وهو إنما اقتنع بكشف أمرها للملك لأنه شعر بأنها استبدلته بعاشق آخر ، فرأى أن يتخلص منها وممن حل مكانه .

قال حصرم : وقبل أن أنسى أيها السادة الكرام فقد تأكدت أنها هي التي أمرت بحبس الفتاة صفا عند مجيئنا المدينة أول نهار ، وقد استدرجتها ليلة في الحديث عنها ، فقالت : لا أدري لماذا هذا الشعب يتذكرها ؟! إنها فتاة حقيرة ! لقد عشقت شابا مغمورا ، ورفضت الزواج من أمير فارس ، وغرقت في البحر هي وزوجها ، فقد غضب عليهما الإله وأكلتهما الأسماك ، والعجيب أنه قبل سنوات أتت فتاة تقول إنها الأميرة صفا ، فذكر لي جهمار ذلك ، فأمرته بحبسها والتخلص منها ، والأعجب أنها هربت من السجن واختفى أمرها .. فالأمر كما توقعت الأميرة صفا حقد وحسد وغيرة .. والملك بالطبع لم يعرف بأمر الفتاة وحياة ابنته ، ذات يوم أرسلت لي الملكة شريكار ، وعلمت منها أن جهمار قائد الحرس المنفي يريد الاجتماع بها في قصرها الخاص لأمر خطير ، واعترفت لي بذلك خشية أن أعرف بالأمر فيتغير حبي لها ونحوها ، فشكرتها على حسن ظنها بي وعلى شجاعتها نحوي ، وعرفت زمن اللقاء فذكرت ذلك لابن الملك الأكبر الأمير "جوري" ، فهو صديقي ، وجرى بيني وبينه حديث صراحة ، وأطلعته على جلية الأمر بالتفصيل ، والتقى بأخته سرا ، فلما أعلمته بالحقيقة كلها وموعد العاشقين ،

فكما قال لي: أخذت والدي الملك متخفين بزي جنود إلى قصر الملكة وسمعنا كل كلام شريكار وجهمار، وكان غاضب عليها ، ويهدد بفضحها أمام الملك إن لم يعد لقيادة الحرس ويعود العشق والود بينهما ، ويريد أن يعرف منها العشيق الجديد ، وكشف كثيرا من الأسرار القذرة أمام مسمع والدي ، فقال أبي : " هيئ سيفك " واقتحمنا الغرفة وعلى الفور قتلت جهمار والمرأة الخائنة ، وغضب الملك غضبا مرعبا ، وأمر بقتل كل الجواري والخدم وحرسها الخاص ، وجرت عملية تطهير مرعبة في كل القصور الملكية ، وما هدأت الأمور إلا بعد شهر من الزمان. ولما هدأت نفس الملك ، كشف له الأمير جوري عن حياة ابنته صفا والدور الذي لعبته من أجلها ، فتعجب الملك من شهامتي وكرمي ، وفرح بعودة الأميرة الملك وكل الناس ، وشكروني على الجهد والصبر الذي بذلته من أجل الأميرة ، ووهب لي الملك مالا كثيرا كثيرا ، وعرضوا علي مركزا رفيعا في بلدهم ، واعتذرت لهم وذكرت لهم قصة السيف الثمين سيف الملك برغوش ، وحاولت الفتاة الزواج مني مرة أخرى ، فتأسفت لها وللملك وقلت لهم : إن عدت سالما من بلاد الملك الشمام سآتخذ قرارا مهما في شأن الزواج ، وودعتها وودعت أهل السنجاب وقد أودعت أكثر أموالي عند الأمير "جوري "، ورحلت باحثا عن بلاد الملك الشمام ، فقطعت البراري والقفار والأنهار حتى دخلت مدينة يقال لها "ياقوتة" ؛ ولكن قبل أن أدخل قلب المدينة التقيت بعجوز شمطاء تجلس وحيدة عند شجرة عملاقة في السماء فقلت لنـفسي " لابد أنها تستظل من شدة الحر في هذا النهار " ، فألقيت عليها التحية بلساني ومشيرا بيدي ، فما سمعت منها جوابا ، فسألتها عن ماء ، فكذلك لم أسمع جوابا ، فصحت فيها قائلا : يا عجوز السوء .. أخرساء أنت أم لا تحبين الكلام مع الأغراب ؟ وإلى لقاء آخر يا سادتنا! وفي المرة القادمة تسمعون ما جرى لي في بلاد الياقوتة من أعاجيب الدهر ومكر الشياطين في بني الإنسان منذ غابر الأزمان والدهور، فحكايات الناس لا تنتهي ما دامت الحياة الدنيا قائمة، وغرائب الأيام لا نهاية لها ما دامت الحياة مستمرة .

الشجرة العجيبة



قال سلامة أخذت صديقي هانئا ، وانطلقنا على بغلته إلى قصر صاحب هذه القصص السيد حصرم بن سلام ؛ لنسمع منه حكايته مع العجوز الشمطاء في بلاد الياقوتة ، وكعادته رحب بنا ترحيبا كريما ، ولما انتهينا من أكل طيبات الطعام أحضر الغلمان أزكى الشراب المباح والفواكه اللذيذة والحلوى الجميلة الشهية ، وحينئذ حان وقت الاستماع فاعتدل حصرم في جلسته وقال : أيها السادة الكرام! تركتكم عندما ألقيت السلام والتحية على العجوز الشمطاء الجالسة تحت شجرة غليظة الجذوع وعملاقة تمتد في السماء ، ولما سألتها عن ماء ، فلم ترد عليّ صحت فيها ووصفتها بالسوء ، فقالت : يا مسكين أنا لست خرساء ؛ ولكني خائفة عليك من سوء المصير..وكثرة الكلام قد تؤدي بك إلى الهلاك .. فقلت عدم الرد عليك يدفعك للرحيل عاجلا ، وبما أنك ثرثار وتحب الكلام تعال فاجلس بـقربي لتسمع حكايتي .

فاقتربت منها وجلست بقربها كأني لم أسمع سوء مقالتها ، فقالت : أيها الشاب الغريب إذا كنت شجاعا ومقداما كن معي ، وساعدني على لقاء ابنتي "مي" فاقتل زوجها " راس" ولك كل الأموال الموجودة في بطن الشجرة .

فقلت : يا عجوز .. لم أفهم شيئا فسري الكلام ؟! .

قالت: أعرف أنك غبي فلم تفهم شيئا .. فاسمع من البداية لعل النهاية تكون على يديك .. يا ولدي في أعلى الشجرة تجويف إلى أسفلها ، وفي الأعلى حبل مدلى للأسفل .

ثم توقفت قليلا وأخذت نفسا عميقا ثم قالت : النصح لازم ، فيا ولدي إن أتى زوج ابنتي ورأك هنا عدمك الحياة .. فهل تستطيع الدفاع عن نفسك ؟!

فكرت قليلا وقلت لنفسي : يبدو أنّ وراء هذه العجوز قصة كبيرة ، فقلت لها هيا نغير المكان

إذا كان جلوسنا تحت ظل هذه الشجرة الفارهة فيه خطر علينا أيتها العجوز المليحة ! .. لنسمع حكايتك مفصلة .

فمشت العجوز وتبعتها حتى ابتعدنا عن الشجرة كثيرا فجلسنا فقالت : هل تستطيع الوقوف معي وتساعدني ؟ .

فابتسمت وقلت : لمَ لا؟! ..إذا استطعت يجب أن أساعدك ، وسوف أفعل من غير تردد أيتها العجوز المليحة .. ما قصة الشجرة وابنتك وزوجها؟!

فعادت تقول بحزن وألم: ابنتي مي فتاة جميلة ، ومحبوبة من كل الناس ؛ ولكن المسكينة حظها سيء وتعيس ، لقد رآها لص كبير ومجرم عتيد فخطفها منذ سنوات لا أعلم عددها ، وهذا الوحش اسمه يرعب الخلق ، ولا أحد يقدر عليه إلا رب العباد يلقب بالصمصام ، وإن تحدث أحد عنه في قوم ولوا مدبرين ؛ ولأنك غريب فتراك تسمع كلامي .. كلام هذه العجوز الحمقاء ولا تعرف أنت الصمصام جيدا ؛ ولكن لعل إنقاذ ابنتي مي على يديك يا غريب .. فمي محبوسة ومسجونة في جوف الشجرة التي كنا نجلس تحتها .. يا ولدي ما اسمك ماذا سماك أهلك لأناديك؟

فقلت من غير شعور وتفكير: حصرم بن سلام ! فهذه أول مرة منذ خرجت من قريتي جمانوسا أصرح باسمي الحقيقي ، أي لم أتخذ اسما آخر ، ذكرتني بأمي وحزنها عفا الله عنها .

فقالت : يا ولدي يا حصرم ! هذا الوحش فجعني بابنتي مي ، وليس لي غيرها في الدنيا ، لا ولد ولا زوج ، ولا أحد يقدر على مساعدتي ورفع الظلم عني وعن قرة عيني مي .

فكنت أسمع كلامها المكرر ، وأهز رأسي ، وأدرك أن مصيبتها كبيرة ، ثم قالت : في يوم من الأيام الخالية زارتني مي ، والدموع في عينيها، والنحيب في جوفها ، وذكرت لي حالها ، ووصفت لي هذه الشجرة يا سيد حصرم ، فهذا اللص الكبير الصمصام اللعين يسرق أموال الناس هو وعصابته الأربعون بدون رهبة ودون وجل ودون عقاب ، وكل الأموال التي يسرقها ويغتصبها من مدينتنا ومن المدن المجاورة يخفيها في بطن الشجرة ، وله ولعصابته في الجبل قصر ، وكل

صباح أول النهار يأتي إلى الشجرة ويصعد عليها وينزل في جوفها إلى ماله وزوجته مي ، ويبقى حتى الظهر ثم ينصرف لرجاله وجرائمه، وقد يغيب عنها الأيام والليالي هكذا قالت لي مي ، ويرسل لها الطعام مع بعض رجاله ..لا أحد يريد أن يسمع هذه القصة مني يا ابني يا حصرم ، لا أحد يصدقني ، فساعدني على إخراج ابنتي من سجن المجرم ، وخذ كل الأموال التي يجمعها اللعين.. فأنا يا سيدي كلما يزداد بي الشوق لابنتي أزور الشجرة لعلي أسمع صوت مي ، لعلي أرى إنسانا يصدقني ويساعدني .. فالله أرسلك لمساعدتي وإنقاذ مي من ذلك الوحش الآدمي فكن معي وساعدني .

بعد هذه الاستغاثة بي وتفكير عميق قلت : أيتها العجوز المعذبة ! أنا ذاهب إلى بلاد الشمام في مهمة ، وعندما أعود سالما من مهمتي سأعود إلى الياقوتة من أجلك ، فادع لي بالعودة سالما .. فعرفيني بيتك . فدلتني على بيتها ، فسألت بعض جيرانها عن عقلها وإدراكها ، فلم يتهمها أحد بالجنون والخبل أو الخرف، وجازفت وسألت عن الصمصام ، فلاحظت أنّ الرعب يرتسم على الوجوه عند ذكره ، فمكثت أياما في بلاد الياقوتة ، وأنا حذر من الوقوع بين يدي عصابة الأربعين ، ثم تابعت مسيري في قطع المدن والقرى والوديان والجبال ، تارة مع القوافل وتارة وحدي إلى أن وصلت لبلاد الشمام برعاية الملك الواحد القهار رب العزة الرحمن الرحيم ثم تفرجت على البلاد والعباد عددا من الأيام ، ثم يممت نحو قصر الملك الشمام صاحب البلاد وطلبت مقابلته لأني أملك جوهرة يرغب بها ملك تلك الديار، فالملك مشهور بين ملوك ذلك الزمان بعشق الجواهر والتحف النادرة ، فما كاد يعرف برغبتي والغاية منها ، حتى فرح ورحب، وأمر بإدخالي عليه على الفور ومن غير تأخير ، ولما سلمت عليه ونظرت في جلسائه كان من أعاجيب القدر أن رأيت غريمي شادور في ديوانه العامر بالرجال .. شادور القبطان القديم الذي فارقته منذ أكثر من عشر سنوات .. فارتبكت قليلا ثم قلت لنفسي " بيننا حساب .. فهو يبدو لي أنه لم يعرفني لاعتقاده أني مت قديما، وقد بلعتني القرش والحيتان " فرسمت على جبيني ابتسامة خفيفة ، وسمعت الملك يقول : من الضيف وما يحمل لنا ؟!

فقلت : خادمك يا مولاي حصرم بن سلام من بلاد الغرب ، وقد سمعت أنّ مولاي يحب النوادر من المرجان والياقوت والجمان ، فوقع بين يدي سيف جميل تحفة للناظرين ، فعلمت من الركبان رغبة مولانا صاحب الشأن العظيم أن له فيه رغبة ، فجئت به إليك يا أيها الملك الشمام! لعلي أفوز برضى الملك ، وأحقق له رغبته في امتلاك هذا السيف الجميل ، وأنال بعض الجزاء من صاحب الملك السعيد الملك الشمام !.

فابتسم الملك لحسن كلامي وطرب وقال سعيدا : هات ما عندك ؟.

فأخرجت السيف الملفوف بالحرير ، ووضعته بين يدي الملك وأنا أقول :هذا سيف الملك برغوش ملك جزيرة الغراب . وعدت القهقرى حيث كنت .

أخذ الملك المبهور يتفحص السيف وينظر إلى جماله ، وينظر إلى البحار شادور تارة وإليّ تارة أخرى ، وقال : كأنه سيف برغوش الملك القديم ..أيها الرجل من أين أحضرته ؟!

كان شادور يدقق النظر فيّ وقد تلون وجهه ، فقلت مجيبا الملك: يا مولاي .. حصلت عليه من جزيرة الطيور أو الغراب كما يسميها أهلها .

فعاد الملك يقلب السيف والغمد والجواهر التي عليه من جديد ، ثم قال بعد تدقيق نظر : كأنه هو .. كأنه هو !!

فقلت : مولاي ما الأمر ؟! ..إنه سيف الملك برغوش .

فقال الملك : أيها الرجل ! هذا ليس سيف برغوش الحقيقي ، فهو سيف يشبه .

صعقت لكلام الملك وذكرت له قصتي في جزيرة الطيور ، فقال معلقا : يبدو أنهم خدعوك .. خدعك اللصان يا حصرم بن سلام ! وعرفوا أنك لا تعرف سيف برغوش ، وأنت متلهف لسيف، ولا تعرف الصفة الحقيقية للسيف فخدعوك بهذا

فقلت : ربما .. رغم أنني تابعت الحفر معهم للنهاية ؛ ولكن يا ملك هذه البلاد كيف عرفت أنه المقلد ؟! ولم لا يكون هو الحقيقي ؟!

فنهض الملك عن سريره وقال : تريثوا أيها الناس حتى انظر سيف برغوش ، وحتى يتأكد هذا

المغامر أنه خدع .. ولسوف أشتري منك هذا السيف ، فهو يحمل بعض الجواهر الجميلة .

ودخل الملك القصر ، وران السكوت التام على القاعة ، فاقتربت من شادور وهمست في أذنه : أنا أحمد الذي ألقيته في البحر.

ففزع الرجل وصرخ : من أحمد ؟!

وأخذ رجال الملك ينظرون إلينا بدهشة وحيرة ، وعاد الملك يحمل سيف الملك برغوش المعتقد أنه الأصلي ، ورفع السيفين أمام الناظرين وهو يهتف قائلا : انظروا أيها الناس تزييف متقن إلى حد كبير ، ولولا أني متأكد أن هذا الشاب لم ير سيف برغوش الحقيقي لقلت إنه محتال كبير ، فالذي صنع هذا السيف لابدّ أنه رأى سيف برغوش .

فحينئذ قلت : شكرا سيدي الملك ! واعتبر هذا السيف هدية مني إليك ، رغم أنه كاد يكلفني حياتي ، فقد تعرضت لغدر القبطان شادور من أجله ، وأفصحت للملك عن الذي أرسلني لجزيرة الطيور ومكثت سنة هناك ، ولما عاد القبطان فرح بحصولي على السيف ، وحاول أخذه مني هو وبحارته ، ولما شعرت بطمعه أخفيت السيف وشددته على فخذي حذرا من غدرهم ولما نمت القوا بي في البحر ، وظللت أعوم حتى وصلت لجزيرة السمكة الحمراء ، ولي أكثر من عشر سنوات أتنقل من بلد لآخر حتى وصلت إليك أيها الملك ، وهكذا كانت النتيجة أنني احمل سيفا مزورا يا قبطان شادور!

عندئذ قال شادور: أعترف يا ملك الدنيا أنني طمعت بالثروة وحدي ، وأغراني الشيطان اللعين بالتخلص من هذا الشاب المغامر ، ولما رميناه في البحر اعتقدنا أننا ملكنا السيف ، ولقد كان ذكيا فطنا عندما احتاط لنفسه ، ولقد قلبنا السفينة رأسا على عقب فلم نجد السيف ، وغرق الرجل وأكلته دواب البحر وغرق السيف معه للأبد ، ولقد رأيت السيف جيدا ومسكته وقلبته فصدف أن تعرفنا على صانع جواهر ماهر لدرجة كبيرة ، فوصفت له سيف الملك برغوش ، فقلده تقليدا متقنا حتى اقتنعت أنا أنه سيف برغوش ، فجئت به يا ملك الدنيا .

فضحك الملك وقال: آه !! ما أطمع بني أدم! على كل لقد أرسلت وراء أمهر صانع جواهر في

بلادنا لينظر في أمر السيفين ؛ ولكنك اعترفت يا شادور قبل أن اكتشف كذبك ، فحسابك قادم يا قبطان شادور ، وأما أنت أيها الشاب المغامر سأعطيك عشرة آلاف درهم التي خسرتها للصوص القبور ، وعشرة أخرى مقابل الجواهر المرصوصة على السيف والغمد ، وعشرة ثالثة هبة مني إليك على أن تحدثنا شيئا من مغامراتك الأخرى ، كل هذا سوى المائة ألف هبة السيف فرويت لهم حكايتي مع الشيخ عبدون ، ومكث في ضيافة الملك بضعة أيام، ثم ودعته ، وسكنت المدينة بضعة شهور ، ثم رحلت بما أحمل من الهدايا والمال، وقد قررت أن أجعل مغامرتي القادمة في الياقوتة آخر مغامرة ، ومن ثم العودة إلى بغداد والحياة فيها حتى النهاية ؛ ولكن بعد المرور على جمانوسا وتفقد أختاي ، ولما دخلت الياقوتة وضعت أموالي في مكان أمين ثم استعددت للمعركة مع عصابة الأربعين يا أصدقائي الكرام .



لم أجتمع بالعجوز أم مي ، وبدأت أتردد على مكان الشجرة ، وبينما أنا يوما أتمشى بالقرب منها أمسك بي رجلان ، وسألاني ماذا أفعل هنا ؟ ! فقلت لهم عابر سبيل فضرباني وحذراني من المجيء إلى هذه المنطقة ، فقلت في نـفسي : لابدّ أنهما من عصابة الصمصام ، فانصرفت راكضا وأنا أتظاهر بالضعف والخور ، وزاد يقيني أن العجوز صادقة في قصتها ، فصرت أحمل سيفا قصيرا أخفيه تحت الثياب ومدية قوية ، وتذكرت كلمات العجوز مرة أخرى ، وبعد زمن يزيد عن شهر قررت اقتحام الشجرة ، فرصدت المكان عن بعد ، ولما خرج الصمصام من الغابة المحيطة بالشجرة كما حدثتني العجوز ، فانتظرت إلى الليل ، وتحركت إلى الشجرة ، وصعدت متسلقا جذعها الضخم حتى وصلت إلى ارتفاع عال ، فوجدت فيه فتحة كالنافذة لدخول شخص ، ووجدت الحبل متدليا للأسفل كما قالت العجوز ، فنزلت رويدا رويدا إلى أن أصبحت على الأرض ، وكان الظلام شديدا وحالكا لا يرى المرء اصبعه من شدته ، فوجدت نـفسي في نفق ، ولما أخذت على الظلام لمحت بصيص نور بعيدا عن جوف الشجرة فزحفت في النفق مبتعدا عن جوف

الشجرة ، ولقد كنت أسمع دقات قلبي ، وبعد سير مرهق وصلت إلى مكان الضوء المنبعث من تحت باب حجرة تحت الأرض ، وهمست قائلا : يا مي ! يا مي ! .. وكانت تقفت مي خلف الباب وقالت : من .. الصمصام ؟! فقلت : لأ ، أنا صديق ، لا تخافي ، أرسلتني أمك لإنقاذك أمك العجوز .

فتحت الباب فازداد النور ، ورأيت امرأة شابة تقف في عرضه ، وتحمل المصباح في يدها ، فعرفت الفتاة على نفسي ولقائي مع أمها ، وأنني قادم لمساعدتها للخروج من هذا الحبس الرهيب ، فبكت الفتاة بين يدي بكاءً مريرا حتى أبكتني لبكائها ، وذكرت لي قصة عذابها ، عذابها من الصمصام ، ولها أكثر من عشر سنوات تعيش في هذا القبر العجيب ، وكان لغرفتها نافذة صغيرة تطل على واد عميق يدخل منها الهواء وبعض الفضاء ، فتعجبت من حالها وصبرها ، ولما سألتها لماذا لم تحاول الهرب ؟! فقالت : أين المفر؟! ثم قالت : لقد سمح لي هذا المجرم مرة واحدة برؤية أمي ، وحذرني من الهرب ، وهددني بسفك دم أمي ، فقضيت أياما عندها ، فذكرت لها ما أعانيه من العذاب ومكان الشجرة ، وذكرت لي سوء خلق زوجها الصمصام وصفة مجيئه إليها ، فقلت لها وكلي غضب وهيجان : لابدّ من قتل المجرم غدا إن شاء الله ، وكنت قد رأيت كنوز ذلك المجرم من صناديق المال والذهب والفضة والعقود والسيوف الذهبية المزينة بالجواهر ، ثم رتبت معها الكمين لقتله ؛ ولكنه لم يحضر في النهار التالي فقد خرج في مهمة على ما وضحت مي ، فقد بعث أحد رجاله بالطعام والفواكه ، ولما هبط الرجل القادم طعنته على الفور ، وأخذت ما معه من طعام ، وهنا احترت كيف أتخلص من جثته عندما أخبرتني مي أنّ هذه الجثة ليست لزوجها ؟! فربطته بحبل وسحبته لأعلى الشجرة وألقيت جثته في الغابة لأثير القلق والتوتر في رجال العصابة ، وفي الليل سمعت رجالا بالقرب من الشجرة وقد وجدوا جثة صاحبهم ، وهم يتسألون عمن تجرأ على قتله ؟! .

وفي صباح النهار التالي هبط الصمصام جوف الشجرة ، وهو يزمجر ويصيح : مي .. مي ولما استقر على الأرض ، كان خنجري يغمد في صدره ، فخار كما يخور الحيوان الذبيح ، وقلت لمي

سأرميه من نافذة غرفتك في الواد العميق لتأكله السباع والكلاب ، وعملت من صناديق الأموال درجا وألقيته لوحوش البراري ، وهكذا خلصت الياقوتة من الصمصام وانتهى أمره ، وقلت لمي علينا أن نبقى هنا بضعة أيام ، فكلما جاء أحدهم صرعته وقذفته من الشباك على الوادي ، وفي الليل سمعنا حركة في جوف الشجرة ، فذهبت مي وقالت للقادم : الزعيم متعب ويأمرك أن تحضر غدا واجلب معك طعام لمدة أسبوع فالصمصام يريد الاستراحة ، فصدق الرجل على الفور وانصرف ، ثم عاد صباحا وهو يحمل سلال الطعام ، فقالت له مي : انزل يريد الزعيم الحديث معك ، هل جاء معك أحد ؟

رد اللص : معي روجا ، ونزل واستلمت مي منه السلال وتقدمته في النفق ، ثم فاجأته بطعنة مدية أوردته المهالك ، ولحقت جثته بجثة صاحبه ، فسمعت على أثر ذلك زئير الوحوش في الوادي كأنها تتصارع على من يبدأ الأكل من جثته ، وبعد قليل سمعنا صوتا ينادي في أعلى الشجرة فذهبت وقالت: روجا اهبط الزعيم مريض وغاضب ، فنزل من غير تفكير ولا تردد وما كادت قدماه تلامس الأرض حتى خر صريعا ، وألقى للحيوانات الجائعة ، فقلت : أربعة يا مي كم بقي منهم ؟

ردت قائلة : سبعة وثلاثون .

وفي اليوم التالي هرع للمكان جملة من الرجال ، وصعدوا معا للفتحة في أعلى الشجرة ، ولما سمعوا صوت مي قالوا : ما الأمر يا زوجة الزعيم ؟!

فقالت : الزعيم مريض وأرسل روجا وصاحبه لجلب دواء له من عند أحد الكهنة

فقال أحدهم: لم يحضر روجا أو صاحبه إلينا.

فقالت : قد يكونا ذهبا إلى الكاهن من دون المرور عليكم ..كم أنتم ؟

قال أحدهم : نحن خمسة ، هل يريد الزعيم منا شيئا ؟

ردت : انتظروا حتى أساله .. فها هو يصيح عليّ ، فقلت لها فلينزلوا للزعيم واحدا واحدا فهو يريد الحديث معهم .

فاقتربت من جوف الشجرة وقالت: انزلوا واحدا تلو الواحد ، الزعيم يريد الحديث معكم ، فلما نزل الأول ودخل النفق طعنته في صدره ، وقد وضعت يدي على فمه حتى لا يرتفع صوته وكما هو معروف أن الرجل المنتقل من الضوء للظلام الدامس يحتاج بضع دقائق ليرى جيدا في الظلام ، وقامت مي بسحب الميت إلى حجرتها ، وكان الثاني قد دخل النفق فلقي مصير صاحبه وفلتت منه صيحة؛ ولكنها خفيفة ، فقلت رافعا صوتي : لعلك تعثرت موهما النازل أني الرجل الأول ، وكان الثالث قد نزل إلى الأرض ، وقال : لمَ الصراخ ؟! ولكنه ما كاد يصل للنفق حتى لحقت روحه بصاحبيه ، ثم قتلت الرابع والخامس ، ثم قمت بقذفهم لواد الوحوش ، وما انتهيت منهم حتى أصابني وهن شديد ، لقد كانت ملحمة ، فقامت مي بغسل وجهي وسقي الماء ، وقدمت لي طعاما مما أحضره رجال العصابة ، وزاد صوت الضواري في الوادي لتصارعها على جثث المجرمين ، وامتلأ المكان من نزف دماء العصابة ، واستمر رجال العصابة يتوافدون على مخزن الزعيم سبعة أيام بلياليها حتى تمكنت من الفتك بالأربعين مجرما وزعيمهم ، وخرجنا من السجن ونحن كالغربان وإلى بيت العجوز التي فرحت فرحا كاد يهلكها ، فأخذت بتقبيل مي تارة وتقبيلي تارة ثانية ، فلقد كانت لا تصدق أنها سترى ميا مرة أخرى في حياتها، وطلبت منهما كتم أمر هلاك العصابة حتى أرجع إليهما ، وانطلقت إلى قصر حاكم الياقوتة ، ولما قابلته رويت له قصة مصرع الصمصام وعصابته ، وبعد جهد جهيد صدق كلامي ، فطلبت منه قوة من العسكر لمداهمة قصر الصمصام في الجبل وتطهيره من المجرمين ، وبعد أن رأى سرا بقايا جثث رجال العصابة في الوادي ارتفع الخوف عنه بعض الشيء وأعطاني سبعة رجال ، وهم غير مصدقين بمصرع الصمصام ، ويظنون أنها حيلة لتوريطهم مع الصمصام ، واقتحمت القصر وقتلنا ما فيه من كلاب الحراسة ، فلم نجد فيه إلا نساء وأطفال رجال العصابة ، وانتشر الخبر في الياقوتة ، وخرج الناس كلهم عن بكرة أبيهم يهدمون قصر الصمصام ، ويرون الرجل الذي صرعهم ، وعمت الأفراح في الياقوتة ، والمدن والقرى المجاورة عندما وصلتها الأخبار كانوا يهرعون إلى قصر حاكم الياقوتة ليتأكدوا من الخبر ، ويسمعون القصة من فمي ، ويذهبون

للوادي حيث بقايا الجثث والعظام ليزدادوا اطمئنانا ، وأصبحت في نظر الناس بطلا خرافيا ، ويزورون ميا لسماع القصة منها مرة أخرى ، وبدأ الرعب يخرج من النفوس رويدا رويدا ، وقد وهبني الحاكم كل ما وجدته في قصره من مال وخيل وما في جوف الشجرة ، فوضعت ما وجدناه في القصر في ميدان واسع في المدينة ، وذهبنا للغابة وقام الحطابون بحرق الشجرة المرعبة ولما سقطت على الأرض ظهر النفق السري ، وحفر الحفارون ثم دخلنا بالمشاعل والمصابيح حيث الكنوز ، ونقلت الكنوز إلى الميدان الواسع ، وأمام الملك طلبت من المنادين أن يدعو الناس الذين فقدوا شيئا أن يأخذوه من كنوز الصمصام ، وبعد شهر قلت لحاكم الياقوتة خذ ما شئت من كنز الصمصام وكان الحاكم لما تأكد له مصرع العصابة قد منحي كل كنوزه ؛ ولكني أحببت أن أعيد للناس ما سرق منهم ؛ ولكن تبين أن أكثره مسروق من بلاد أخرى ، فتقدم الملك للكنز وتناول بعض المجوهرات والسيوف المرصعة بالجواهر ثم قال : هذه الأشياء للذكرى ، فأنت وحدك تستحق هذا المال ، فلنا أكثر من ثلاثين سنة نعيش تحت رعب هؤلاء الطغاة ، والمفروض أن نعطيك من مالنا الخاص جزاء تخليصك لنا من شرهم وظلمهم .

وما أنهى الحاكم كلامه حتى تقدم تجار المدينة الكبار ـ وهم يحملون أكياس المال والثياب يستأذنون الملك في هدايتها لي ـ فسر الملك سرورا عظيما، وأذن لهم في ذلك ، فقبلت هديتهم ووهبت نصفها ونصف أموال الصمصام لأهل المدينة، وطلبت من الحاكم تزويجي ميا ، وكم فرحت الفتاة بي وكذلك أمها ! واحتفل أهل المدينة بزواجي من مي ، وقد مهرها السلطان المهر عني ، ومكثت عندهم سنة واحدة ،

ثم يممت على الرحيل إلى بغداد ، كما عاهدت نفسي وأنا في بلاد الملك الشمام . جهزت نفسي وزوجتي ميا وأمها ، ولحقت بقافلة متجهة لبلاد السنجاب حيث أموالي عند الأمير جوري ، فاعلموا أيها الأصدقاء أنّ هذا الأحداث التي رويتها لكم استغرقت من السنين ما يقرب من ثلاثين عاما ، فجهزت مائة بغل بغلمانها، وتحركت مع القافلة الكبيرة المتجه لبلاد السنجاب وما حولها من المدن الكبيرة ، وبعد مسير طويل وجدت الأميرة صفا في انتظاري ـ وكنت قد حدثت

ميا عنها ـ فتزوجتها عن رغبة ورضا منها ، ومكثت في ضيافة الملك بوقة السالي ، وبعد شهور قضيتها عندهم حملت الأحمال وهدايا الملك وثياب الأميرة ، وزودني الملك بسرية من الفرسان إلى بغداد ، وبرفقة القوافل ومن بلد لبلد وصلنا لبغداد البلد العظيمة عاصمة الملوك من بني العباس رحمهم الله ، وبحثت عن بيت كبير يليق بمقامي وجهادي في هذه الدنيا ، فوجدت ضيعة الوزير بهاء الدين أحمد قد عرضها الورثة للبيع بثمن عال ، فاشتريتها منهم حسب شهوتهم ، وها نحن نسكن فيها أيها السادة الكرام ، ثم تزود جنود الملك بوقة بما في بغداد من الخيرات والهدايا ورحلوا لديارهم ، وبعد الاستراحة والاستقرار ومعرفة بغداد وأهلها سررت بها غاية السرور ، وتركت أهلي بضعة شهور وسافرت إلى سلهوب ، فلقد تركت فيها بعض الأموال عند صاحبي رباب ، وكم كان اللقاء بعد طول غياب جميلا ورائعا ! وزرت الصاحب حسنا ، وعلمت منه أنه قتل مغنيته القاتلة ، ورويت لهم قصتي واستقراري في بغدان مدينة السلام ، وأنني تبت للرحمن ، وهجرت الخمر والميسر والخلاعة بكل أشكالها وألوانها ، وأنني استعد للحج بزوجاتي الاثنتين ، ثم ودعتهما ، ورحلت لجمانوسا قريتي الأولى باحثا عن أختاي بعد كل هذا الزمان ؛ ولكن فقد وجدتهما مفارقتين للدنيا فبكيت على قبريهما، وتصدقت على فقراء القرية من أجل روحيهما، وأكرمت ذريتهما غاية الإكرام ، وحفرت بئرا وسبلتها لأهل القرية ، وأخبرت الناس أنني نزيل بغداد فمن زارني سيجد عندي بمشيئة الرحمن غاية الوفادة والإكرام ، وعدت لبغداد ثانية فوجدت زوجتاي في قلق كبير عليّ ، فحدثتهما بما فعلت، وهدأت النفوس ، والتم الشمل من جديد ، ثم رحلنا لمكة من أجل فريضة الله الحج الأكبر، وزرنا مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم عدنا لقصرنا في سلام وأمان إلى أن كان يوم ذا شجون وعذاب ، لقد كنت في ضيافة أحد الأصحاب في وسط بغداد العظيمة نتسامر بقصص الحياة والدنيا عندما دهمنا رجال الوالي واتهموننا بالتآمر على السلطان ، ومكثت في السجن بضعة شهور وأيام إلى أن جاءت البراءة من رب البرية فحنن قلب السلطان علينا ، وأنا رجل لا مطمع لي في السياسة والحكم ، واسكن في ضواحي بغداد دار السلام ، فبعد العفو خرجت

مع نسائي صوب مصر وبلاد النيل ، ووكلت بقصري الغلمان تحت اشراف أحد السادة الكبار وعشت بتلك البلاد والديار سنوات ، وحالها في تلك الأوقات لا يسر البال ، ثورة على الوالي فلان أو مصرع الوالي فلان ، والظلم فيها منتشر مع عدم استقرار الحكم ، وقد جرت لي قصة فيها لا بأس من اضافتها يا أستاذ سلامة ، فقد جرت لي فيها قصة طريفة .

ذات ليلة عدت للبيت متأخرا قليلا ، فوجدت البيت لا شيء فيه قد سرقه اللصوص ، فأخبرت رجال الشرطة بذلك ، فوعدني الوالي خيرا وبمتابعة الأمر، فاشتريت فراشا ومتاعا جديدا ، ومرة أخرى تأخرت في السهر عند أحد الأصدقاء ، ولما عدت مع زوجتيّ للبيت ، وجدت البيت نظيفا مسروقا ، فأخبرت شرطة الوالي مرة أخرى فوعدوني خيرا وبمتابعة الأمر فاشتريت أثاثا جديدا ، وبعد زمن حضرت زواجا لأحد الأصدقاء ، ولما عدنا لبيتنا وجدنا البيت مسروقا مرة ثالثة ، فأخبرت الوالي ورجاله فوعدوني خيرا ، كلما أتأخر في السهر لسبب ومعي أهلي أجد البيت خاويا ، فقلت لنفسي لابد أن يكون هذا أمرا مرتبا ومحكما ، فرتب لي بعض الأصدقاء لقاء مع السلطان ، وأثناء صلاته في مسجده الكبير قصصت عليه أمري وتهاون شرطته في البحث عن السارق ، فاستدعى الوالي وكلفه بالقبض على السارق بأسرع وقت .

طال الانتظار ولم يقبض على المعتدي ، وأنا خلال هذه الفترة لم أتأخر في السهر ليلة واحدة ، وذات ليلة كنت وزوجتيّ عند إحدى الأسر الصديقة ، وتأخرنا يا قوم بالعودة ، ولما دخلنا منزلنا وجدناه نظيفا مما فيه من المتاع ، فعندئذ صممت أن أمسك اللص بنفسي ، فاشتريت أثاثا جديدا ، ولما دعيت لسهرة اتفقت مع زوجتيّ أن أترك السهرة فجأة بحجة ما وقلت لهما: لا تخافا سوف أعود إليكن، ونـفذت هذه الخطة ، فأثناء السهرة تحججت برغبتي بقضاء حاجتي ورجعت للبيت هرولة وسعيا واختبأت فيه ، وكم كانت المفاجأة قاسية عندما وجدت أنّ الذي يسرقني صاحبي الذي يدعوني لهذه السهرات عنده وعند الأصدقاء ! والله لقد كنت ألحظ تغيبه أثناء السهرة أو الحفلة ، ولم يدخل في بالي خيانته ، فشكوته لشرطة الوالي فحبسوه أياما ، وتركوه قبل أن يعيد لي حقي ، فرفعت أمره للوالي ؛ فإذا هو صاحبه فلم أحصل على شيء ، فلما رأيت

الظلم متفشيا ، ولا أحد يهتم بمصالح الناس ، والأمور لا تسير على ما يرام ، والعدل مـفقود عدت لبغداد عدت للهدوء والراحة ؛ ولكن للأسف ذلك لم يطل أيها السادة ، والشر ما زال كامنا في نفوس البشر ، والشيطان لا يموت ، فكنت أركب قارورة مائية (مركب بحري صغير) في ليلة مقمرة مع صاحب بغدادي ، والملاح يغني لنا وهو يجدف في مجاديفه ، والسهر في الليل والصيف في بغداد جميل ومثير ، فكيف مع ضوء البدر ؟! ولما اقتربنا من أحد الجسور على الدجلة سمعنا صرخة امرأة تطلب النجدة ، فنظرنا حيث الصوت ؛ فإذا امرأة تقف على حافة الدجلة تصيح وخلفها رجلان فألقت نفسها في الماء وكنا قريبين منها فجدفنا نحوها وانتشلناها من الماء ، وقام صاحبنا الملاح بمعالجتها ، وأخذت أنا وصاحبي بالتجديف مبتعدين بالمرأة عن الشابين اللذين يصرخان ويأمراننا بالتوقف ، وابتعدنا عنهما كثيرا ، وفاقت صاحبتنا البغدادية فنظرت إلينا ثم قالت : هل ابتعدنا عن هؤلاء الأشرار ؟؟

فقال صاحبي العراقـي : لا تخافي يا أمة الله ، فهل تسمعينا حكايتك ؟ لعلنا نستطيع مساعدتك ونرفع أمرهما للوالي .

فقالت : كيف تساعدانني منهما ؟! أحدهما أخي والأخر ابن عم لي يريدني حليلة ، وأنا لا أريد فهو رجل سوء صاحب شراب و فجور ، وأنا أحيا عند أخي وزوجته التي ترغب بالتخلص مني ليبقى بيت الوالدين الميتين لها ولزوجها ، وأخي يريد تزويجي لهذا الرجل الفاجر، وهذه الليلة أحضر أخي وابن عمي معهما شاهدان لعقد نكاحي ، فرفضت ، فقاما بضربي فهربت فتبعانني ، ولما رأيت النهر ألقيت نفسي فيه ، فاخترت الموت على الزواج من ابن عمي ، فسخركما الله لإنقاذي ، بارك الله فيكما ! فخذوني جارية لديكم ، ولا تردوني لأخي ، وبعد تفكير وتقليب للأمر بيني وبين صاحبي البغدادي اقترح عليّ أن أتزوجها ، فعرض الأمر عليها فوافقت، وتكفل صاحبي البغدادي بترتيب الشأن مع أخيها ؛ فإن لم يوافق سيزوجني إياها عن طريق القاضي مباشرة ، وأمام إغراء المال وافق الأخ ورد ابن عمه ، وتزوجتها على شرع الله وهدي نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي الآن عندي، ووهبني الله تعالى منها ولدا عاش

أشهرا ، ثم مات إلى رحمة الله الواسعة ، والحمد لله على كل حال ، فعندي ثلاث زوجات من ثلاث بلدات بفضل الله تعالى ، وأيضا لديّ صحة وعافية بفضل من الله تعالى ، وأما ذرية فلا ، فهذه قصتي يا سلامة من المبتدأ إلى المنتهى ، فاكتبها كتابة مقبولة فهي تسلية للقلوب في ساعات الملل والضجر، وقد يجد بها بعض البشر فوائد وعبرا .

فرد سلامة : إي والله! إنها لقصص مشوقة يا سيد حصرم ، فلحظات البؤس مع لحظات السعادة .. لحظات الفقر مع لحظات الغنى .. ساعة في البحر وساعة في البر، وساعة أخرى تحت الأرض .. فإنها لذكريات جميلة تستحق التدوين ، بعد أيام ـ إن شاء ربي ـ ستكون هذه القصة مكتوبة كما سمعتها منك، لم انقص منها حرفا ، ولم أزده أيضا ، فما أنا إلا ناسخ لم سمعت وحفظت ، والآن حان وآن وقت الانصراف .

فضحك حصرم وقال : ليس بدٌّ من المبيت ، فتباشير الفجر ظاهرة ، نصلي للباري ، ثم ننام ، فهذه آخر سهرة .

فضحكنا وقلنا : لا ، يا سيد حصرم ! لن تكون آخر سهرة ، لقد صرنا أصحابا وأصدقاء إلا أن تطردنا .

فابتسم وقال : يا سادة ما أجمل لقاء الأصدقاء ! إذا كان لغير دنيا وهوى ، لقد عاشرت أقواما هنا وهناك ، فكانت تربطنا الأموال والحرام ..فلتربطنا معكم الصداقة والحلال ومحبة الرحمن .

فابتسمنا وقلنا : نرجو ذلك يا ابن سلام .. يا أخانا الكبير ! وندعو لك بالخير والسلام من الله السلام .

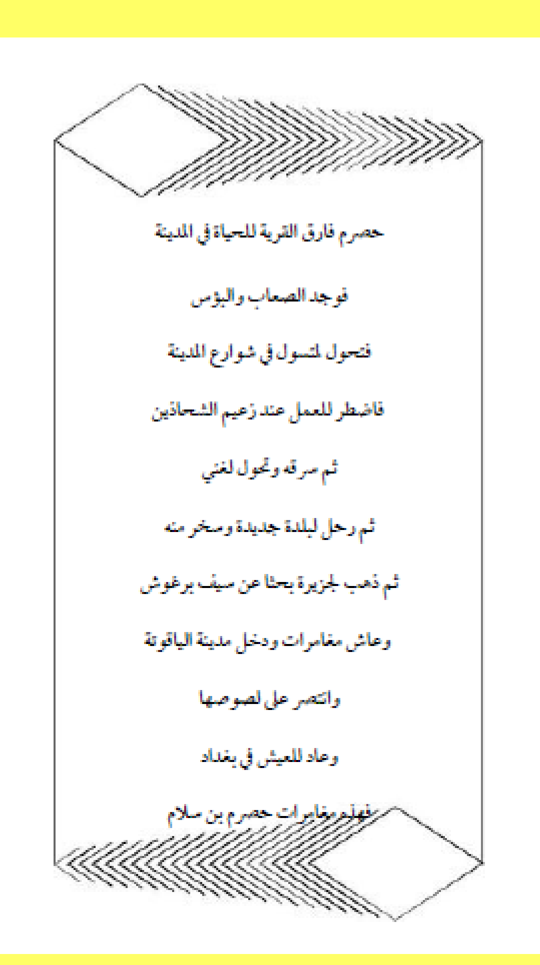
قال سلامة : عشت وكبرت ، وظللت أتردد على صاحبي حصرم بن سلام ، وقد شاب شعره وأصبح شيخا كبيرا ، وعاش حتى شاهد زوجته ميا وهي تموت، ومنذ عرفته أيها السادة الكرام وجدته طيب النفس كريما يعطي بسخاء يعشق الخير ويساعد الضعفاء ، ومرضت إحدى زوجتيه ، وأنفق عليها دون ملل وكلل ، وما زال يبذل الغالي والرخيص كما يقولون حتى هجمه الموت ، حزنت عليه جداً ، وتألمت لفراقه رغم فارق السن بيننا ، وقمت بغسله وتكفينه والصلاة

عليه ودفنه والتصدق عنه، وكنت وصيه على زوجتيه الأميرة صفا والمرأة البغدادية ، فحملني حملا ثقيلا، وقدر استطاعتي الضعيفة قمت بالواجب الملقى على عاتقي ، فهذه أيها الأصدقاء مغامرات وسيرة الصديق حصرم بن سلام نزيل مدينة السلام.

" تمت بحمد الله "

قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

حصرم بن سلام



حصرم فارق القرية للحياة في المدينة
فوجد الصعاب والبؤس
فتحول لمتسول في شوارع المدينة
فاضطر للعمل عند زعيم الشحاذين
ثم سرقه وتحول لغني
ثم رحل لبلدة جديدة وسخر منه
ثم ذهب لجزيرة بحثا عن سيف برغوش
وعاش مغامرات ودخل مدينة الياقوتة
وانتصر على لصوصها
وعاد للعيش في بغداد
فهذه مغامرات حصرم بن سلام


الفوارس
القصر المهجور
جمال شاهين
منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

١٠

جمال شاهين

١٩٩٤

القصر المهجور

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

القصر المهجور



القصر المهجور

بحيرة من الماء وسط أشجار كثيرة وكثيفة ، وأكثرها من أشجار البلوط ، فسميت هذه الغابة بغابة البلوط ، ولقد كانت عدة جداول تصب ماءها في تلك البحيرة ، وفصائل من الطير والبط تملأ تلك البحيرة ، وللوصول إلى هذه البحيرة الجميلة يحتاج المرء إلى قطع مسافات من الأميال بين الأشجار للوصول للبحيرة ، لذلك من النادر أن ترى صيادا عند هذه البحيرة ؛ ولكن الجندي "جرود" اجتاز تلك المسافات ليصل ماء البحيرة ، وعند شجرة بلوط كبيرة ألقى نفسه وهو يحدث نفسه بصوت مسموع :لا أعتقد أنهم سيبحثون عني ، وهنا تحت هذه الشجرة يمكنني أن أنام بكل طمأنينة وأمان .. لقد تعبت من كثرة المشي والسير على الأقدام.

وما كاد هذا الجندي ينهى كلامه مع نفسه حتى ذهب في بحر النوم ، وأخذ يحلم أحلاما كثيرة وغريبة .. ومع ساعات غروب الشمس استيقظ الجندي جرود ونظر إلى صفحة الماء .. فأدرك أن الليل قد اقترب ، فمسح عينيه من آثار النوم، وجلس وهو مشغول الفكر في خطوته القادمة فالتفت إلى جنبه ، فكم كان استغرابه؟! وهو يشاهد رجلا نائما قريبا منه ، فتفقد سلاحه وطعامه وقال لنفسه : ليس لصا .. يبدو أنه غريب مثلي ومنهك القوى .

فعاد للنوم من جديد ، وبعد حين سمع صوتا يوقظه وهو يهزه قائلا : يا رجل .. قم من نومك دخل الليل وأصوات الوحوش تهز الغابة .

فلما صحا من سباته قال : رجلان ! من أنتما ؟! عندما استيقظت قبل قليل وجدت حولي رجلا واحدا .. ولما أيقظتموني الآن أصبحتما رجلين ، من أنتما ؟! وما قصتكما ؟! وما الذي أتى بكما إلى هذه البحيرة ؟!

فقال أحدهم : من المهم الآن أن نحمي أنفسنا من الوحوش ، ومن تماسيح البحيرة ، ثم يروى كل واحد منا سبب مجيئه لغابة البلوط ولبحيرة البلوط .

فقال الجندي جرود : معك حق .. فلنتسلق شجرة عملاقة نقضي ليلتنا على أغصانها ، وبين أوراقها ..ونسمع الحكايات التي جمعتنا على هذه البحيرة .

فقال الثالث : حسن هذا !.. فهذه شجرة تستطيع حملنا هيا نتسلقها .

وتسلق الثلاثة إلى أعالي الشجرة ، ولما استقر كل واحد منهم على جذع من جذوعها ، قال أحدهم : فليبدأ كل واحد منا بالتعريف بنفسه ، وما الذي دفعه إلى هذه البحيرة وإلى أين هو سائر ؟

فقال جرود : بما أنني وصلت لهذه البحيرة قبلكم فسأبدأ بالكلام وأعرفكم بشخصي.. وسبب إتياني إلى هذه الغابة غابة البلوط .

وبعد برهة من السكوت قال : أنا جندي من جنود الملك الظاهر ملك بلاد القط والفأر.. اسمي الجندي جرود.. وخدمت مولاي الملك أكثر من ثلاثين سنة ، ومنحت وسامين، وسام الشرف ووسام الكرامة ، وكنت أتقاضى في العام مائة درهم كاملة تامة ، وعندي من العمر فوق الأربعين بسنوات، وخدمت والد الملك الظاهر وجده أيضا .. وما تزوجت رغم مرور هذه السنوات ، ولا أملك بيتا خاصا بي بعد كل هذه السنين من الخدمة لهؤلاء السلاطين ، متنقلا بين حرس السلاطين وجنود الحرب على الثغور والحدود .. وقد شاركت في معارك كثيرة تزيد عن عشر بصحبة الملوك والأمراء إلى أن كان ذات ليلة وقد تأخرت في الجبال في مهمة من قبل الأمير سهوان ، فلجأت إلى كهف في وسط الجبل أقضي به ليلتي؛ فإذا هو كهف مسكون، وفيه فراش وسيوف معلقة على الجدران ، ولا أحد بداخله ، فقررت أن اختبئ بداخله وأنظر من يسكن فيه .. وما حل الليل بظلامه حتى كان الكهف يمتلأ بالرجال .. فهم عصابة من اللصوص يسرقون في النهار وجنح الظلام ويبيتون في الليل فيه ، ونظرت زعيمهم من مخبئي ؛ فإذا هو شاب نحيف البنية طويل القامة أسمر الوجه ، وصوته مرعب كالرعد القاصف .. فأكلوا وشربوا وتفكهوا وتحدثوا عن مغامراتهم وقصصهم ، ومما سمعته منهم أنهم فقدوا مجموعة من اللصوص في مكان يسمونه القصر المهجور .. فعلمت أن هؤلاء المفقودين اجتازوا بحيرة البلوط ومنها إلى ذلك القصر المهجور، وعندما دخلوا فيه أو في الغرفة المسحورة لم يعودوا فقالوا : من دخلها لا يعود .. وقالوا : لابد أنها ممتلئة بالدر والياقوت .. وأخذوا يتحدثون عنها

وعن السحر وغموضها وسرها .. فأثاروا شهيتي أيها السادة لهذه الكنوز والأسرار ولهذا القصر المهجور.. وكشف هذه الأسرار والحصول على ما فيه من الذهب والمال .. فيا اخوتي من كثر شوقي لهذه الأموال ما صدقت أن يطلع النهار وينتشر اللصوص في الأرض ويخرجون من المغارة .. فلما خلا المكان منهم .. خرجت من مخبئي ، وتناولت أجمل سيف ، وعدت لبلدي وأنا أحلم بزيارة القصر المهجور .. فصممت على الهرب من الجيش ، وترك خدمة الملك الظاهر والبحث عن الذهب واللؤلؤ في القصر المهجور .. فأخذت إذنا من رئيسي بالاستراحة في البيت بضعة أيام .. ثم هربت نحو غابة البلوط ، ولما وصلتها ارتاحت نفسي ، وأيقنت أن جنود الملك لن يلحقوا بي ، ولا يمكنهم القبض عليّ ، فعندنا الجندي الذي يهرب من الجندية ، ومن خدمة الملك ، ويقبض عليه يسجن حتى الموت .. فهذه قصتي وسبب تركي لموطني .. وأنا سائر إلى القصر المهجور .. لعل السعادة تكون فيه !

فضحك الرجلان عندما سمعا قصة وسبب هرب جرود ، وتنحنح الرجل الذي وصل للبحيرة ثانيا وقال : أما أنا فسأتكلم بحكايتي وسبب وصولي لهذه البحيرة فيا أخي جرود ويا أخي المجهول ..وأخذ نفسا وتابع القول : أنا الجندي شروم من جنود الملك ظالم بن رداد ملك بلاد الغربان ، وقد حصلت على عدد من الأوسمة الملكية منها وسام الطاعة ووسام البطولة وغيرها ولي في خدمة مولاي ما يقارب الثلاثين عام ، وخدمت في حراسة الملك أكثر من عشر سنوات وقد كنت الفارس الوفي والحارس الأمين ، وقضيت بضع سنوات في حراسة ولي العهد هداد وأنا قبل وصولي لهذه البحيرة كنت في خدمة الأميرة وحراسة الأميرة بهدلة ابنة الملك وزوجة القائد الصنديد " وعود " فارس البلاد والعباد .. وأما قصة وجودي في غابة البلوط فهي قصة لطيفة ، وهي أن الأميرة بهدلة اشترت جارية جميلة وصغيرة ، وهذه الجارية قد نالت حظا وافرا من الأدب والقصص، وهي في أثناء مسامراتها لمولاتي الأميرة ذكرت لها قصة القصر المهجور وما يقال عنه من الأسرار والغموض، وحكاية الغرفة المسحورة التي ما دخلها إنسان ورجع وحدثتها عن كنوز القصر .. فاشتاقت مولاتي الأميرة لمعرفة أسراره وغموضه ، فكلمتني بذلك

وطلبت مني القيام بهذه المهمة، وإذا رجعت سالما من رحلتي فسوف تساعدني من الزواج من أختها الصغرى الأميرة " جانا " ، وأمام ذلك الوعد والإغراء فكرت بالأمر فتركت البلد والوطن ، وأتيت غابة البلوط ومنها سائر إلى القصر المهجور.. فهذه قصتي أيها الصاحبان .. فطريقي هو طريق الجندي جرود .

ارتفع ضحك الرجل الثالث على طمع صاحبيه ، وقال وهو يضحك : وأنا أيها السادة طريقي مثلكم إلى القصر المهجور ، وما جئت هذه البحيرة إلا لأصل القصر المهجور .. فيظهر أن طلاب هذا القصر كثيرون .. أترغبون بسماع حكايتي أم تنامون ؟

فصاحا معا : ويحك! .. هيا تكلم أيها الصديق! فهذا القدر قد جمعنا فسبحان الملك الديان ذي الجلال والإكرام !

فقال الرجل الثالث وهو يبتسم : وأنا أيها القوم جندي مثلكم من جنود الملك " فرجة " ملك بلاد الغمام .. وأنا مثلكم سائر إلى القصر المهجور ؛ لأعرف الأسرار التي يتحدث عنها العباد ، واسمي الجندي سامان ، وأنا في خدمة السلطان منذ عشرين سنة ، وما قصر صاحب الملك بالأنعام عليّ بأوسمة وأنواط وجوائز ، فقد منحني وسام الكرامة ، وآخر يدعى وسام الشجاعة وحياتي تمضي بين عملي في ديوان الملك والبيت .. وقد بلغت من العمر أربعين عاما ولم أتزوج من النساء بعد .. وأما حكايتي مع القصر المهجور؛ فإن أحد الملوك قام بزيارة مولاي فرجة ، وكان بصحبته بعض نسائه ، منهن إحدى ابنتيه الأميرة " توتة " ، فرأها ابن الملك فرجة ، فأعجب بها وحدث والده عن إعجابه بها ورغبته بالزواج منها ، فحدث الملك صديقه عن هذه الرغبة ، فاستشار الضيف ابنته فقالت " أوافق على أن يحضر لي كنز القصر المهجور الذي يقع بعد غابة البلوط " ، ولما سمع مولاي قصة القصر المهجور وما يحيط به من الأسرار والأوهام كلفني بمهمة اكتشاف القصر وزيارته والنظر في أسراره ، ثم بيان الأمر للملك فرجة قبل أن يذهب ولده لجلب الكنز الغامض .. فهذا أيها الأحباب سبب وجودي هنا ، وطلبي للقصر المهجور .

فقال جرود : كلٌ له غاية من زيارة القصر المهجور.. فأنا ذاهب للحصول على الثروة والغنى ، وصاحبي شروم ليتزوج ابنة الملك ظالم ، وصاحبنا سامان ليقدم خدمة ومعرفة لملكه فرجة .. ، وقد علمنا أن الفتى منا قد يفقد حياته قبل أن يظفر ببغيته وهدفه .. وبما أن القدر قد جمعنا .. فعلينا بالتعاون والتئازر والاتفاق حتى نتحصل على ما نشتهي .

وتعاهد الرفاق الثلاثة على الوفاء والمحافظة على بعضهم البعض، وعدم الغدر والخيانة ، ومن ثم معرفة أسرار القصر المهجور ، وأخذ المال الذي فيه بالتساوي بينهم ، وتناصحوا فيما بينهم وتحاذروا من الغدر والجشع والطمع ، ومدحوا حسن الوفاء وحسن الاتفاق الذي يؤدي للوفق والنجاح في تحقيق الغايات، ومع الصباح نزلوا الأرض وأكلوا وشربوا ، وتابعوا المسير لاجتياز غابة البلوط والبحيرة من عند أحد الجداول الضعيفة التي تصب فيه ، وبعد بحث وجدوا الجدول المناسب للاجتياز فاجتازوه للجهة الأخرى ، ومشوا حتى قطعوا الأشجار كلها فوصلوا لجبل واسع ، فصعدوا إلى قمته ، ومع اشتداد الليل اتفقوا على النوم والراحة حيث وصلوا ، واستصلحوا مكانا يبيتون فيه ليلتهم ، فاختاروا صخرة عملاقة فطرحوا أنفسهم عندها ، فقد أصابهم نصب شديد طول النهار ، فبعدما أكلوا وشربوا وحان وقت النوم اتفقوا بينهم أن ينام اثنان ، ويحرسهم الثالث بضع ساعات من الليل .

فقال جرود : ناموا أيها الأصدقاء ، وأنا أحرسكم في النوبة الأولى بما أنني سبقتكم لبحيرة البلوط ، ثم أوقظ الأخ شروم وأنام ، ثم سامان حتى الفجر .

فقال سامان : جيد هذا أيها الجندي!.. وإذا احتجت لنا في الليل لعارض ما فأيقظنا بارك الله فيك .

فقال جرود : توكلا على الحي الذي لا يموت .

وما مضت دقائق معدودات حتى غط الرجلان في نوم عميق في ظل حراسة الجندي جرود .. وبينما هو في مهمته المعتاد عليها لمح ثعبانا يتسلل نحوهم فاقشعر جلده ، ثم أخرج سيفه وهزه في الفضاء عدة مرات ، وتقدم بخطى ناعمة نحو الثعبان الزاحف، وقبل أن يضربه بالسيف

سمع الثعبان يقول : يا جرود .. لا تتعجل بقتلي .. فأنا لك صاحب وناصح .. ارجع لبلادك وانس القصر المهجور .. واقبل النصيحة .



تعجب جرود مما سمع فرد على الثعبان قائلا : لا أستطيع تنفيذ نصيحتك ، ولابد من الذهاب للقصر المهجور ، فقد كرهت الفقر والعمل عند السلاطين والأمراء

فقال الثعبان : أنت ترغب بالشقاء .. إذا دخلت القصر المهجور ، ووصلت للغرفة المسحورة فاختارالباب الأيمن .. وانتبه لغدر صاحبيك .. اقبل هذه النصيحة وداعا .

فقال جرود : من أنت أيها الثعبان الناصح الأمين ؟!

فقال الثعبان : أنا أحد خلق الخالق ادعى أبا زكريا .. أتذكر يوم أمر الملك بقتل جمع من الأفاعي والثعابين في القصر؟ .. ووقع بين يديك ثعبان صغير وأشفقت على صرعه وطرحته في الخلاء ، وهمست قائلا : عش .. لم تتمتع بحياتك بعد.. فاعلم يا سيد جرود أنا ذلك الثعبان الصغير الذي سمع هذا الكلام ، وما زال في قلبي .. وكنت الليلة الماضية قريبا من الشجرة التي جلستم تتحدثون فوقها فسمعت كلامكم ، وعرفتك من بينهم ، وتذكرت شفقتك عليّ .. وأنا أسمع عن خطر وضرر هذا القصر فأحببت منعك من التورط فيه والضياع في أسراره .

فقال جرود : أنت وفيٌّ يا أبا زكريا .. فنعم الصاحب ! ما رأيك بصحبتي في هذه الرحلة العجيبة ؟

فسر الثعبان لهذا الاقتراح وقال : فكرة جيدة ! ولكن كيف ستحملني وتخفيني عن البشر يا صاحبي ؟

فقال جرود : أخفيك في جيب سروالي أثناء المشي ، وفي الليل أطلقك في الهواء الطلق .

فقال الثعبان : رضيت على مرافقتك في هذه المغامرة الغريبة .

وتكور الثعبان حلقات دائرية وحمله جرود وادخله سرواله، وعاد حيث يرقد صاحباه وأيقظ

الجندي شروم ثم نام .



ومع النهار تابع الرفاق الثلاثة قطع الجبل الواسع حتى أدركهم الليل ، فجلسوا يستريحون وينامون بعد الأكل ، وكالبارحة قام جرود بالنوبة الأولى من الحراسة ، فلما غط الرفيقان بالنوم أخرج جرود الثعبان من جيب سرواله يتنفس ويتفسح ساعة من الزمان.. وبينما هو ينظر تارة إلى السماء والنجوم وتارة إلى أسفل الجبل والأرض سمع حركة قريبة منه فدقق النظر شرقا وغربا ؛ فإذا هو يلمح حرباة تتقدم نحوه ، فاستل خنجره فسمعها تقول : سيد جرود أنا قادمة إليك لأكون في خدمتك .

فقال جرود : سبحان الله! .. ما الأمر أيتها الحرباة ؟

فقالت : أنا ادعى أم مريم .. فقد كنت في غابة البلوط ، وأنتم تجلسون فوق الشجرة ، وسمعت حديثكم كله عن القصر المهجور ، وسرت خلفكم حتى أدركتكم، وقد سمعت كلام الثعبان معك أمس فأجلت مقابلتي لك لهذه الليلة أيها الصديق وإني راغبة في صحبتك إلى القصر المهجور لعلي أساعدك في ساعة ضيق تعصف بك .

فقال جرود : ومن أين عرفتيني أيتها الحرباة الطيبة ؟!

فقالت : كنت أجلس على الشجرة وأنتم تتسامرون عن القصر المهجور فاشتاقت نفسي لزيارته فكلي رغبة بصحبتك ، وعرفتك من تلك الليلة فقط .

فقال جرود : على الرحب والسعة يا أم مريم .. سأضعك في جيب السروال الأخرى .

فقالت: لا تذكرني يا سيدي للحية حتى لا تطمع بافتراسي ، وتغدر بي وتحرمني من التمتع بكنوز القصر المهجور .

فوعدها بذلك ، وأدخلها جيب سرواله وتوجه للنوم ، فأتاه الثعبان فأخفاه في السروال هو الآخر، وأيقظ صاحبه شروم واستسلم للنوم ، ولما أتى الصباح تابعوا المشي، وقد بدأ يظهر لهم القصر المهجور من بعيد على قمة جبل أمامهم ، ولا يفصلهم عنه سوى بضع قرى مسكونة ..

ومع الغروب كانوا قد وصلوا لأول قرية ، فاستقبلتهم امرأة عجوز ورحبت بهم ، وأخذتهم إلى كوخها ، ففرح زوجها وأبناؤه بالضيوف الثلاثة ، فأطعموهم واسقوهم وأرشدوهم لمكان ينامون فيه ليلتهم .. واتفق الجنود الثلاثة على الحذر، وأن يتظاهر جرود بالنوم ، ويقوم على حراستهم ثم شروم ثم سامان .. فنام جرود في مدخل الكوخ ، وبعد نصف الليل سمع حركة في مدخل الكوخ ، فنظر من بين رموش عينيه ، فلمح ابني العجوز يقفان على مدخله يتهامسان ومشى أحدهم نحوه ، فتحرك جرود فجفل القادم ورجع وهو يقول : فلنحضر باقي الرجال يا زمي فهم الآن نائمون .

شعر جرود بأن مؤامرة تحاك ضدهم فأيقظ صاحبيه وشرح لهم الأمر ، فتسللوا من الكوخ بخفة وحذر ـ ولقد كان كوخ الضيوف بعيدا عن منزل العجوز ـ فاختفوا خلف تل من الحجارة يرقبون الكوخ ، فشاهدوا بعد حين عددا من الرجال يتدافعون نحو الكوخ ، وهم يقولون ويتهامسون : هذا صيد طيب .. ثلاثة نفر.

وفجأة خرج السابقون في الدخول للكوخ يقولون : لا يوجد أحد أيها الرجال .. هل شعروا بنا ؟!

ودخل زمي وأخوه يفتشون الكوخ ، وخرجوا يقولون : لقد هربوا أيها الزعيم .

فسمع الجنود الثلاثة رجلا يقول بصوت عال : ابحثوا عنهم لابد أنهم في هذه المنطقة .

فقال جرود لرفاقه : هذا الصوت أيها القوم ؛ كأنه صوت زعيم العصابة الذي حدثتكم عنه في كهف الجبل القريب من بلاد القط والفأر ..

فقال سامان : يبدو أننا لابد من خوض معركة مع هؤلاء اللصوص .. فاشحذوا سيوفكم .

ثم قال : لا يمكن الاختفاء طويلا .. فلنظهر لهم ونقاتلهم قبل الفجر .

وبرز سامان للرجال وهو يصيح : أيها اللصوص نحن هنا .. نحن هنا .

فأحاط بهم اللصوص سريعا وصاح زعيمهم : أيها الجنود .. سلموا أنفسكم وهاتوا ما معكم من السيوف والمال.. وانصرفوا راشدين .. وأعاهدكم بأننا لن نتعرض لكم .

فضحك الجنود الثلاثة وقال جرود : وإذا فقد الجندي سلاحه ماذا بقي له من الشرف والكرامة ؟! .. فالأفضل لكم أنتم أن تنصرفوا راشدين قبل أن تصبحوا عالة على غيركم.. وتخسروا أطرافكم إن لم يكن رقابكم .. فعودوا إلى كهفكم في الجبل القريب من بلاد القط والفأر .

فقال الزعيم : من أنت كأنك تعرفننا أيها الجندي ؟!

فضحك جرود وقال ساخرا : وقد نمت في كهفكم ليلة .. وسبب وجودي هنا سماعي لكلامكم عن القصر المهجور .

فعاد الزعيم يقول : من أنت أيها الجندي الذي نام في مغارتنا ليلة آمنا مطمئنا ؟!

فكرر جرود الضحك والاستهزاء وقال : وقد أخذت من كهفكم هذا السيف الجميل .

فصاح الزعيم وارتفع صوت أعوانه فقال : هو أنت الذي أخذ السيف الذي كدنا أن نقتل أنفسنا عليه ؟! وقد تسرب الشك إلى قلوبنا ..آه .. فأنت رجل تستحق القتل جزاء حمقك .

واستمر جرود بالضحك ويرد على الزعيم بقوة : أيها الزعيم الأحمق .. ألم تسمع بالفارس جرود ؟ جندي الملك الظاهر ملك بلاد القط والفأر .. وهذا صديقي شروم جندي من جنود الملك ظالم بن رداد .. وهذا صاحبنا سامان فارس من فرسان الملك فرجة .. فالأفضل لك بعد هذا الكلام أن تأخذ رجالك ، وتتركنا نتابع السير للقصر المهجور .

قهقهة الزعيم حتى ملئت قهقهته الفضاء وقال : نحن لا نخاف هؤلاء الملوك ، ولو كانوا من الشياطين والعفاريت .. أيها الأبطال ائتوني بهم أحياء موثقين بالاحبال ..

وبدأت المعركة ويا لها من معركة ! ثلاثة من الفرسان ذوي الشأن ، وممن خدموا في حراسة الملوك والأمراء ، وعصابة من اللصوص الوحوش ، فشكل الفرسان مثلثا ليحموا ظهور بعضهم ، وبدأ الطعن والقفز هنا وهناك .. واستيقظ أهل القرية على الصراخ وصليل السيوف، وتجمعوا وهم يحملون المشاعل حول المتقاتلين يشاهدون هذه المعركة الغريبة .. فكنت ترى أطرافا مبتورة ومطروحة على الأرض ، ورجالا تنزف منهم الدماء ، ورئيس اللصوص يهدر

ويهمهم ويدمم ويصرخ من الغيظ والقهر لما أصاب رجاله من الخزي ، وتساقطهم بين جريح وبين صريع ، وما ظهرت الشمس حتى كان الزعيم مكبلا بالقيود ذليلا بين الجنود الثلاثة يضحكون عليه وعلى أعوانه ويرفسونه بأقدامهم ويقول له سامان : يا جبان كيف ترى نفسك أيها الحقير؟ أتريد أن تسلب جنود الملك سيوفهم ومالهم ؟!

فأقبلت العجوز التي استضافتهم تترجاهم للعفو عن ولديها الجريحين ، وبعد تفكير عفا الجنود الثلاثة عن "زمي " و "هلي" ابني العجوز، وساعدها الجمهور في نقلهما إلى بيتها ، ثم قام الفرسان بصلب الزعيم على شجرة أمام الناس في وسط القرية ، ثم طعنه سامان بخنجره قائلا : مت بخنجرك أيها الوغد الحقير .

وأثنى الناس على الجنود الثلاثة بما فعلوه بالعصابة وعلى ما أبدوه من الشجاعة والبطولة، وعرضوا عليهم البقاء في قريتهم ، فقال جرود : نحن في مهمة وهي الذهاب للقصر المهجور لفك أسراره وألغازه .. فأرشدونا للعين التي تستقون منها لغسل أبداننا وثيابنا من دماء هؤلاء العصاة المجرمين .

وكان الناس ينظرون إليهم بإعجاب وإجلال ورهبة لما رأوه منهم ، ولما قدموا لهم من الخدمة والخير بتخليصهم من كثير من هؤلاء اللصوص الذين يسومونهم العذاب والهوان ..

وأمضى الجنود يومهم في ضيافة أهل هذه القرية ، ومع صباح اليوم التالي تابعوا الرحلة ، وتحمسوا مع رؤيتهم للقصر وهم على أعلى الجبل ؛ لكن تفصلهم عنه بضع قرى ، فلما وصلوا القرية التالية وجدوا الناس متجمهرين في طريقهم .. فتعجبوا وقلقوا بعض الشيء ، وبدءوا يتحسسون سيوفهم وخناجرهم ؛ ولكنهم لاحظوا أن الناس يلوحون لهم بأيديهم بفرح وسمعوهم يصيحون : قد أقبل الأبطال الثلاثة !

واستقبلهم أهل القرية استقبال الفاتحين والأبطال ، وشكروهم على تغلبهم على اللصوص ، وقتلهم الزعيم ورجاله الذين يعيثون في الأرض فسادا ، ويستغلون هؤلاء البسطاء، ويسرقون تعبهم ، ويأكلون أموالهم وطعامهم بالإرهاب ، وساقهم شيخ القرية إلى بيته ضيوفا عنده ،

وكان خبر انتصار الجنود على العصابة قد انتشر بين القرى المجاورة بسرعة الريح ، وسر الجنود لما صنعوا لهؤلاء الضعفاء من الخير ، وبينما الناس يحتفلون بالجنود الثلاثة في بيت كبير القرية ، وقد دخل الليل أتى رجل يسعى من قرية جميلة يسأل عن الجنود الثلاثة ، فأخبره الناس أنهم في ضيافة شيخ القرية " عوران " ، وفي مضافة الشيخ ، وقف الرجل يعلن على الملأ : أيها الجنود الأبطال! .. أرسلني أهل قرية جميلة لأخبركم بأن الزعيم جمل لم يقتل .. وقد هرب ، وهو يتهددكم ويتوعدكم بالقتل والغدر فجئت أحذركم لتأخذوا حذركم .

فقال سامان بدهشة مما علم : أيها الرجل ما تقول ؟! لقد قتلته بيدي .

فقال المخبر : هذا ما شاهده أهل القرية .. فقد خدعك أيها البطل .

فقال سامان بغضب : كيف ؟ افصح أيها الرجل ؟!

فقال المخبر : عندما صلبته على الشجرة أمام الناس لتقتله .. فطلب منك أن تقتله بخنجره الجميل .. فأنت لبيت له تلك الرغبة الأخيرة عند الموت ، فهذا الخنجر خنجر لا يقتل فهو مصنوع من المطاط ، يوهم الضارب به بأنه خنجر حقيقي ، فعندما يضرب المطاط بالجسم ينفجر ويسقط منه لون دم ويلصق الخنجر المنفجر في جسم الضحية .. فيظن الضارب أنه قتل خصمه .. فلما خرجتم من القرية حضر ولدي العجوز زمي وهلي وحلوه واعتنوا به قليلا وكشف الأمر أمام الناس ، وأقسم بقتلكم .. وهجر القرية فأرسلني الناس إليكم محذرا من كيده وغدره .

فتذكر سامان المشهد وهو يسمع للحيلة فقال : نعم ، أيها القوم .. عندما تناولت الخنجر من غمده كان غريبا عليّ ؛ ولكني قلت لعل له في نفسه ذكرى ، وظننت أنه يريد أن يموت بسلاحه لحاجة في نفسه .. وضغط سامان على أسنانه من الغيظ وقال : سخر مني اللعين ! يا ويله! إن وقع بين يدي ثانية فلن أرحمه سأسحقه .. اذهب أيها الرجل إلى أهل بلدك .. وقل لهم أن الجندي سامان ورفاقه لن يهدأ لهم بال حتى يفتكوا بجمل ومن بقي حيا من رجاله .. ولا تخافوا منهم ، ولا تقلقوا ، فلابد أن يقع المجرم ولو بعد حين .

وأمضى الجنود الثلاثة ليلتهم في ضيافة أهل القرية حتى الصباح ، ثم شكروا شيخ القرية والأهالي وحثوهم على عدم الخوف من العصابة والتصدي لهم، وحذروهم من الضعف والجبن والاستسلام لهم ، وودعوهم وتنقلوا بين القرى قرية قرية حتى أشرفوا على القرية المجاورة للقصر المهجور ، وخبرهم قد سبقهم فرحب بهم السكان أحسن ترحيب ، وفي بيت كبير القرية سألوه عن القصر المهجور ، وما يقال عنه من الأخبار والأسرار، فأجاب الشيخ قائلا : في البداية أتمنى أن لا تغامروا بأنفسكم أيها الأبطال ! فهذا القصر من دخله لم يعد ، ولنا أكثر من خمسين سنة بجواره فلم نر ولم نسمع أن أحدا دخل الغرفة المسحورة وعاد ثانية ، فكل من يدخلها يختفي وتختفي أخباره .. وهذا قصر قديم منذ وجد آباؤنا هنا وهو قائم ، والناس لا تعلم ما فيه من غموض وأسرار، وكما سمعنا من الآباء والأجداد أن هذا القصر المهجور قد بناه أحد ملوك الدنيا ، وقد كان يقيم فيه شهرا من كل سنة هو وزوجته ، ثم يعود لعاصمة ملكه ، ويظل القصر مغلقا إلى حين مجيء الملك إليه ، فتدب الحياة في هذه المنطقة ، فكان يسبقه الخدم والجند لصيانة القصر وإعداده بشكل يصلح لسكنى الملك ، وبعد قدومه الشهر المعلوم ينصرف للمدينة حيث يحكم ويرسم ، هكذا روى لنا الأجداد ، ولما هلك الملك المذكور هجر القصر، ولم يعد يقترب منه أحد ، وسنة بعد سنة بدأ الناس والمغامرون يدخلون فيه واستولوا على أثاثه ومتاعه ، ولم يبق إلا الحجارة وباب الغرفة المسحورة ، لم يستطع الناس فتحها والاستيلاء على ما فيها ، فكثرت الشائعات حولها ، وأن العفاريت تسكنها ، ومن دخلها لا يعود .. فابتعد الناس عن القصر .. وأصبح أطلالا وآثارا .. فهذه حكاية هذا القصر أيها الجنود الأبطال .

وبعد لحظات قال جرود : بوركت يا شيخ ؛ ولكن كيف يدخل المغامرون إلى الغرفة المسحورة كما تقولون وبابها مغلق ؟

فقال الشيخ : يوجد فوق الباب كوة صغيرة ، يحشر الشخص نفسه فيها ويهبط إلى أرض الغرفة وبعد ذلك يختفى أثره .

ثم أخذ الحاضرون يتحدثون عن القصر المهجور ، هذا فقد صديق ..وهذا فقد قريب ، بعض

الناس أدخل رأسه ثم رجع قبل أن يهبط للأرض وتخطفه العفاريت، بعضهم تحدث عن باني القصر ، وأن امرأته كانت من الجن ، والكل يذكر قصة أو حكاية سمعها أو رآها ، والجنود يسمعون من هذا وهذا .

الغرفة المسحورة



ولما أشرق الصباح ، واستعد الجنود الثلاثة لدخول القصر تبعهم الأهالي، وشيخ القرية ينصحهم على عدم المغامرة بأرواحهم ، دار الجنود حول القصر فشاهدوا حجارة كبيرة استعملت في تشييده ، والأعشاب تحيط به ، ثم دخلوا من مدخله الواسع المتهدم الأبواب ، فرأوا تماثيل مرسومة ومنحوتة على الحجارة الكبيرة المبني منها الجدران والأسوار، ثم دخلوا قاعات القصر وغرفه ، ثم هبطوا إلى أسفله حيث الغرفة المسحورة التي تقع تحت القصر، ويهبط إليها بسبع درجات، وهناك كان الباب القديم الذي لم يستطع أحد خلعه وأخذه ، وكانت فوقه النافذة الصغيرة أو الكوة ، وكان الظلام عندما دخلوا دامسا ثم تبدد بعد قليل ، وتحسنت الرؤية لديهم ، وتحدث الجنود مع بعضهم ، وبعد تفكير عاجل حسموا الأمر ، فقالوا للشيخ ومن معه من رجال القرية : سندخل أيها الشيخ نحن الثلاثة سوية.. فشكرا لكم ولكرمكم ووداعا .

وحسب الترتيب الذي اعتادوا عليه طول هذه الرحلة تسلق جرود إلى النافذة ودلى نفسه إلى الداخل ، وتبعه شروم ، ثم تبعهم الجندي سامان وهو يلوح للناس بيده : وداعا.

ومكث أهل القرية بضع دقائق لعلهم يسمعون صراخا صوتا ، ثم عادوا أدراجهم لمساكنهم يتحدثون عن شجاعة ومصير هؤلاء الجنود الثلاثة .

سقط جرود على الأرض ، ثم قال لشروم : انزل رويدا رويدا .. فالعفونة تملأ المكان والأرض رطبة .

ولما أصبح الثلاثة على أرض الحجرة ، واعتادت عيونهم على الظلام نظروا يمينا شمالا للأعلى للأسفل ، شاهدوا حشرات تتراكض في هذه الغرفة الموحشة وفئرانا ؛ كأنها جفلت من إزعاجهم لها ، وهم يفحصون المكان الموحش للنفس والبدن شاهدوا مدخلا صغيرا ، فمشوا إليه ؛ فإذا هو باب إلى مكان آخر ، فهبطوا الدرجات بحذر ، وكالعادة في مقدمتهم جرود ويليه شروم فسامان ، وبعد سبع درجات ؛ فإذا هم في غرفة أخرى؛ ولكنها أصغر من الغرفة المسحورة ، كما يشيع الناس، وكان الظلام فيها شديدا ، فأخذوا يتحسسون المكان بأيديهم إلى أن وجدوا بابا فاجتازوه وعدوا سبع درجات ثالثة ؛ فإذا هم في غرفة أصغر من الثانية، كما بدأ لهم ، ووجدوا فيها بابا صغيرا فدخلوه وعدوا سبع درجات أخرى ؛ فإذا بغرفة فيها ثلاثة أبواب، فوقفوا حائرين لبعض الوقت.. هل يدخلون من باب واحد أم يدخل كل واحد من باب ؟! فتشاوروا فاقترح شروم قائلا : يدخل كل واحد من باب ويتفقد ما خلفه ، ثم نعود إلى هنا ، ونجتمع ونقرر الخطوة التالية ، أم ندخل معا من باب نتفحص المكان ثم نرجع وندخل الآخر ثم الآخر؟

قال سامان : الفكرة الأولى أفضل ، ونكسب بضع دقائق .. فينظر كل منا الحجرة التي سيدخلها ونعود .

فتذكر جرود كلام الثعبان الناصح فصاح : أنا الباب الأيمن !

فعجب الرفيقان من صياحه فقال شروم : أنا الباب الأوسط .

وقال سامان : وأنا الأيسر الباب الثالث .. هيا .

دخلوا ودخل جرود ، وعد سبع درجات ؛ فإذا هو يسير في نفق ، وليس غرفة وظل يمشي

ليصل إلى نهاية النفق ، ومشى ومشى دون أن يصل لنهاية النفق، ففكر في العودة فيقول : لعل نهاية السرداب قريبة .

ومشى أكثر من الأول ، وهو يهمس بين جوانحه لعل النهاية قريبة ، وظل يسير ويسير حتى كلت قدماه من الإرهاق والمشي والتعب ومن ضيق المكان ومن الرطوبة .

فجلس جرود يستريح حيث وصل وهو يهمس : لقد تهت في هذا السرداب الممتد ـ الله أعلم ـ إلى أين ؟! ولابد أن صاحبيّ حل بهما مثلما حل بي .. وأكيد أن كل شخص دخل من الغرفة المسحورة جرى له ما جرى لي .. أين أنت يا شروم ويا سامان ؟!

والحق أن هذا ما حصل للجنديين الآخرين .. عد كل منهم سبع درجات ؛ فإذا هو بنفق ، وسار في النفق رويدا رويدا على أمل وصول النهاية ، فطالت عليه النهاية .. فيعاود التفكير هل يعود بعدما اجتاز كل هذه المسافة أم يتابع فلعل نهاية النفق قريبة ؟ فيعاود المشـي حتى أصابهم الوهن والتعب .

استراح جرود ساعة من الزمن ، وبعد تفكير ونظر ، تراه يقول مرة أخرى لروحه : هكذا يصير مع كل من دخل النفق .. درجات ثم غرفة .. درجات ثم غرفة ثم نفق طويل فيضيع المرء بداخله على أمل الوصول للنهاية .. وللوصول للنهاية لابد من متابعة المشي .

ونهض وتابع المسير في النفق ، وقد تسرب لقلبه اليأس من الحياة ؛ ولكنه يقول : لم اصطدم بأي جثة بعد .. أم أن له نهاية ..سر .. سر..

ولم يعد يدري كم أمضى من الساعات في هذا النفق؟! ولكنه بعد مسير مرهق سمع صوت ماء جاري ، فدبت الحياة في نفسه ، وأخذ اليأس يتبدد في داخله ، ويقول فرحا بالحياة : النهاية لهذا النفق المعتم قد أتت .

ولما وصل للنهاية كان منهك القوى من المشي في السرداب محني الظهر ومن الجوع والعطش ، فقد وصل إلى مجرى نهر صغير ، ووجد قاربا مربوطا على طرف النفق ؛ كأنه وضع لمن يصل إلى نهاية النفق ، فانبطح على بطنه وشرب من النهر حتى ارتوى ، ثم قلب نفسه على ظهره ليستريح

ثم قال : لاستريح في القارب .



زحف إلى القارب زحفا ، وجلس فيه وهو يقول : سأتابع الرحلة .. لن أرجع للنفق والرفاق فات الأوان .

كان النهر الصغير تحت الجبل ، وبعدما نام بضع ساعات في القارب أخذ بالتجديف للخروج من تحت الجبل ، ومشى بضع ساعات بالقارب قبل أن يخرج من الجبل ويرى السماء ، فوجد الكون في حالة نوم ، فقد رأى النجوم فربط القارب بشجرة قريبة من النهر والنفق المائي ، وألقى بنفسه على الأرض فنام من جديد ، وما استيقظ إلا عندما رأى نفسه محمولا بين أيدي الرجال ، وهم يقولون : وصل الليلة !

فلزم الصمت ، بل تابع النوم من كثرة الإرهاق الذي أصابه خلال السير في السرداب الطويل واستيقظ مرة ثانية عندما ألقوه على فراش وثير في غرفة واسعة مفروشة بالأثاث الممتع ذي الألوان والجمال الفاتن ، وسمع أحدهم يقول : أنت مرهق ومتعب فتابع الاستراحة.. وبعد قليل سيقدم لك الطعام والشراب الطيب ويأخذونك للحمام يزيلون عنك الأوساخ والأقذار التي ألمت بك خلال الرحلة واعلم أنك في ضيافة الملك موسى .

وبالفعل بعد حين يسير احضر له الطعام ، فهجم عليه بشراهة ؛ كأنه لم يأكل منذ سنة وهو يتمتم : جميل ! .. طيب هذا الطعام .. لم أر له مثيلا !

أكل وشرب ونام ، ولما استيقظ قاده الرجال إلى الحمام بعدما ترك الثعبان أبا زكريا والحرباة أم مريم في شوارع المدينة بناء على رغبتهما ، فقد طلبا منه ذلك أثناء تناوله الطعام الشهي ، ولما رجع من الحمام نظيفا خفيفا انشغل فكره برفيقيه شروم وسامان ، وهل وجدوا مثلما وجد من الحياة الجميلة والراحة التامة والطعام اللذيذ؟ كأنه ملك من الملوك ، حوله رجال وغلمان يهتمون به ، قائمون على راحته وسعادته، وبينما هو غارق يتأمل بهذه النعم والخيرات حالما بدوام هذه

الأحلام دخل عليه رجل وهو يقول : أذن لك أيها الرجل الضيف بالتجول في البلاد مدة عشرة أيام ، ثم تعود إلى هنا .. وكلما احتجت للطعام والشراب أو نعست فادخل أي مطعم أو نزل وكل واشرب ونم على حساب الملك موسى.. وخذ هذه البطاقة ليشاهدها أصحاب هذه الحوانيت .

ودفع إليه بطاقة ملوكية ، وتابع كلامه : وأشهرها في أي مكان تحتاج فيه لخدمة ، مهما كانت هذه الخدمة فسوف تقدم لك .

وكان جرود قد لبس ثيابا من حرير ، ووضع سيفه على جنبه وخنجره على وسطه ، ووضع البطاقة الملوكية في جيب سرواله ، ونزل للمدينة يتمشى فيها ليلا على ضوء المشاعل والشموع والفوانيس المنتشرة في الشوارع الجميلة المرصوفة بالحجارة الناعمة الملونة ، رأى الناس يمشون ويلعبون ويتسامرون كأن الدنيا عندهم نهار ، ولاحظ في المدينة كثرة أماكن اللهو والترفيه ، ولاحظ أيضا أن الناس لم يلفتهم وجوده ، ولم يكترثوا بوجوده كأنه ليس غريبا بينهم أو ربما أن أكثرهم غرباء مثله .. شاهد التماثيل المنحوتة من الحجر والصخور في ميدان خاص بها ، ذهب إلى بحيرات العوم والغطس، دخل المطاعم والمنامات، زار الحدائق والبساتين ، شاهد معسكرات تدريب الجنود في مواقع مختلفة ، سار لميدان المبارزات في قلب المدينة .. مر على ساحة سباق الخيول .. زار أسواق المدينة المختلفة تفرج على حدائق الطيور والحيوان ، وشاهد حدائق الورد والأزهار .. تعجب من جمال المدينة والأشياء المتيســرة فيها حتى خيل إليه أن كل أهلها من السعداء والأغنياء ، فأمضى الأيام العشرة باستمتاع ولذة ، فنسى ساعات التعب التي قضاها في السرداب ، وهو يقول كأنه مفسر لسر عدم عودة الداخلين الغرفة المسحورة إليها ثانية : كيف من يرى كل هذه النعم والراحة يفكر بالعودة للسرداب ثم القصر المهجور ؟!

رجع للغرفة التي نزل فيها عندما دخل المدينة محمولا على أكتاف الرجال ، حسب موعده مع الرجال الذين يخدمونه وهو في غاية الفرح والمرح ، كان يقول : ما أروع بلاد الأجداد !

وجد الرجال يرحبون به ، وقدموا له الطعام اللذيذ والثياب الجديدة بعد حمام ساخن ، ثم تركوه

ينام حتى الصباح ، فاحضروا له الإفطار، ثم ساروا به إلى غرفة كبيرة في ديوان الحاكم فاستقبله شاب قاضي قائلا : أهلا ومرحبا بالبطل جرود .. أنا القاضي عين .. أرحب بك في بلاد الأجداد والجذور ، هل رأيت حسن بلادنا وحسن أخلاق شعبنا وأمتنا ؟ وهل رأيت حسن ضيافتنا ؟ وهل أعجبك كل ما رأيت أم لك انتقاد علينا أيها البطل جرود القادم إلينا من بلاد الفقر بلاد القط والفأر؟

فرد البطل جرود بإعجاب وامتنان وابتسام وخجل : يا سلام !!.. في الحق أن بلادكم جميلة ورائعة وساحرة وفاتنة ، فيها كل أنواع اللهو والرفاهية والمتع للعين والأنف واللسان والبدن والعقل ، فيها ملاهي المعازف والغناء، وملاهي الخمور والفجور .. يجد المرء فيها كل ما لذ وطاب من الشراب والطعام ؛ ولكن شيء لم أسترح له ..

فأشار له القاضي أن تكلم .. فقال : ولكن الناس هنا لا يهتمون بشؤون الآخرين كل يعيش وحده ولنفسه .. ولا يتدخلون في شؤون بعضهم بعضا .. كل يقوم بواجبه ولا يساعد أخاه أو جاره .

فلما سكت جرود عن ملاحظته ونقده ، استمر الصمت بينهما لحظات، ثم قال القاضي معقبا على كلام البطل جرود الأخير : هذا حق .. والسبب لهذا أيها البطل حتى يعتمد شعبنا الباسل على نفسه ، ولا يتكل أحد منا على غيره ، فعودنا الناس على ذلك .. وأنت إذا رضيت بالحياة في بلادنا ستصبح مثل هؤلاء .. والآن أيها الجندي البطل بعد أن قمنا باللازم نحوك وانتهت أيام الكرم والضيافة ما العمل الذي تحب أن تعمله في بلادنا .. فنحن شعب لا راحة عندنا إلا بعد إنهاء أوقات العمل وفي الأعياد .

فقال جرود بخبث : وهل يستطيع الرجل مغادرة هذه البلاد ؟!

فضحك القاضي لسوأل البطل جرود وقال : هيهات .. هيهات أيها الرجل .. من دخل هذه البلاد لا يستطيع الخروج إلا بإذن الحاكم ، وإلى بلاد بعيدة في آخر الدنيا ، فعليك أن تقنع نفسك بهذه الحياة في هذا المجتمع ، فنحن قوم لنا أعداء كثيرون ، ومن يدخل بلادنا ويعود لبلاده فهو

يعرض ديارنا وراحتنا وحياتنا للخطر .. فالذي يهرب يقتل ، وأما من خدم الملك وأخلص فله المكافأة .. البيت الجميل أو رحلة في بلاد الجمال أو قصر هناك .. فأنت يا جرود عشت سنوات طويلة من عمرك في بلاد القط والفأر، وخدمت الملوك والأمراء وما حصلت بعد كل هذه الخدمة والإخلاص على شيء من حطام الدنيا لا دار ولا مال .. أما عندنا فاخدم الدولة بإخلاص مدة يسيرة .. عشر سنوات فقط .. وستحصل على ما ترغب من المال الكثير الزوجة الجميلة .. البيت الواسع والحديقة .. والخيل .. والجوائز ..

فقال جرود : فهمت وعقلت كل ما قلت .. فما العمل الذي أستطيع القيام به وما أنا إلا مجرد جندي ، وأمضيت أكثر العمر حارسا للملوك والأمراء ؟!

فقال القاضي : ستلحق بمعسكر تدريب ، ثم تنقل للجيش .

ونادى القاضي أحد الرجال ، وأمره بأخذ جرود إلى معسكر تدريب ليتمرن ويلحق بجيش البلاد للدفاع عن ثرى بلاد الأجداد والآباء .

وبعد سنة من التدريب والتعليم والتمرينات ألحق جرود بكتيبة من كتائب الجيش المحارب ، ثم زوجوه فتاة حسناء ، ومنح مالا ، فاندمج اندماجا تاما في هذا المجتمع الجديد ، وأخذ يتأقلم معه وفيه ، وبعد حين أصبحت بلاده الأصيلة ذكرى تلوح له في الأفق والخيال البعيد ، وأصبح مقتنعا بالمحافظة على هذا الكيان والوطن الجديد ، ومحبا لحكام وأمراء هذا الوطن الذي منحه المال والبيت والزوجة ، ولا يزالون يغدقون عليه بالنعم ، وقد شارك مع الجيش في الحروب المختلفة وأصبح ولاؤه للدولة الجديدة ، وما عاد يفكر في بلاد القط والفار والأهل والأحباب



أما شروم الجندي الثاني فظل يمشي ويمشي في النفق ، وهو يعلل النفس ببعد قليل ببعد قليل حتى عجز عن التفكير بالرجوع ، وصمم على المتابعة للأمام ، ولما وصل نهاية النفق كان بالطبع في غاية التعب والنصب والمشقة ، ولقد كان من حسن حظه أنه هو الذي يحمل الطعام والماء، فأكل وشرب بعض الشيء ، ثم نام ، ولما استيقظ

مع ضحى النهار وجد نفسه في صحراء فصمم على البحث عن ناس أو شيء في هذه الصحراء الجرداء ، وبينما هو يسير فيها ، والهموم تملأ روحه لاحظ وجود ماء بحيرة ماء صغيرة ، فزحف إليها فشرب حتى ارتوى ، وبينما هو كذلك إذا برجال يحيطون به وسمعهم يقولون : رجل غريب !

فأوثقوه بحبل وساقوه إلى رجال الحاكم ، فظنوه جاسوسا في بادئ الأمر قد تسلل للبلاد ، وبعد تحقيق وتدقيق أخرجوه من السجن ، وتوعدوه شرا إن حاول الهرب والخروج من البلد ، فما كان أمامه إلا الصبر والرضا بما حل به ، وبعد حين التحق بجنود الحاكم الذي كانت تدور الحرب بينه وبين بلاد الأجداد من زمن إلى آخر، ثم انضم شروم لرجال الأمير عطية الذي خاض عدة حروب مع جيرانه من الملوك ليكوّن دولة جديدة ، وقد نجح في ذلك ، وأصبح الأمير عطية بعد حين ملكا كبيرا يحكم عدة مدن وبلاد ، وارتفع شروم بارتفاع سيده الجديد ، وأمضى الملك الجديد أكثر من ثلاث سنوات يوطد دعائم مملكته ، وقد نسي الجندي شروم بعد كل هذه السنوات بلاده والملك ظالم بن رداد ، وتعجب من حاله وأحوال الناس الذين يعيش بينهم ، حروب مستمرة مشتعلة فيما بينهم ، الصديق اليوم يصبح عدوا غدا، وعدو الأمس يصبح اليوم صاحبا وخليلا ، مع فقر وجوع يغشى البلاد والعباد ، وجنود يصرف عليهم من الأموال والمنافع مالا يعلمه إلا الله لشراء ولائهم للسلاطين ، وعجب من سيده الجديد عطية أنه إذا ظهر قائد يخشى منافسته ، فإما أن يزوجه أخته أو ابنته أو قريبته أو يتزوج هو أحدى قريباته أمه أو عمته أو أخته أو ابنته ؛ ليحافظ على ولائهم لعرشه وسلطانه ، ويأمن غدرهم والانقلاب والتآمر عليه ، فكان من نصيب شروم أن تزوج من ابنة عم للملك عطية ، فأصبح بذلك من كبار السادة ، ولاحظ شروم أن الملك عطية مستعد لمحاربة كل الناس ؛ ولكنه يتجنب الحرب والقتال مع بلاد الأجداد التي يحكمها الملك موسى ، لكثرة جنوده وعتاده .. وبعد خمس سنوات قد قضاها في بلاد الملك عطية أصبح قائدا كبيرا في الجيش ، وهكذا أمضى شروم حياته ما بين حرب أو فتنة أو خروج على حاكم حتى تمكن عطية من إحكام قبضته على

البلاد والعباد



حاول الملك عطية كثيرا تجنب الحروب مع بلاد الأجداد ؛ ليحافظ على مملكته الناشئة؛ ولكن ملك تلك المدينة أراد أن يوقفه عند حده ، ويحجمه ، فشن عليه حربا ، وكانت حربا قاسية خاضها جنود الملك عطية وقادته مرغمين ، ووقع الكثير منهم أسرى عند الملك موسى ، وأمام ضغط الملوك المجاورين توقفت الحرب على مضض ؛ ولكن الملك عطية أصر على متابعة القتال والتحدي ، فأخذ يحشد الجنود من جديد للثأر ، وكان ملك بلاد الغرب الملك " عديد الشديد " قد توسط لدى الطرفين لإنهاء الحروب والقتال بينهم وحقن دمائهم ، وما زال يتشفع لدى الملك موسى للعفو عن الأسرى وقادة جيش الملك عطية ، وكان ممن وقع وسقط في الأسر الجندي المعروف شروم ، وهو عندما دخل هذه البلاد قد تبدل اسمه فأصبح يسمى القائد ثعلبا .

دعى ذات يوم الجندي شروم أو ثعلب لغرفة رئيس السجن للتحقيق معه ، فلما رآه رئيس السجن دقق النظر فيه كثيرا ، ثم صرف كل من كان في الغرفة ، وتقدم من شروم وهو يقول :

ما اسمك أيها القائد ؟!

فرد شروم : شروم .

سكت رئيس السجن قليلا ثم هتف قائلا : ما موضعك في جيش عطية ؟

فرد شروم وهو شارد الذهن : جندي من جنوده .

عاد رئيس السجن يقول : ولكنهم قالوا إنك قائد كبير ، وملك بلاد الغرب تدخل لدى مولانا الحاكم الملك موسى ليعفو عنكم .. وهل يهتم الملوك بكم لو لم تكونوا كبارا ؟!

فعاد شروم يقول : لا ، أنا مجرد جندي صغير .

فجأة صاح رئيس السجن : سيد شروم .. هل تذكر القصر المهجور؟!

انتفض شروم وقال بتعجب : القصر المهجور ..!!

تأكد لجرود مدير السجن أن هذا صاحبه شروم أثناء الرحلة إلى القصر المهجور ، فقال : أتذكر عندما دخلت مع صاحبيك سامان وجرود ذاك القصر ؟

نهض شروم عن المقعد الذي يجلس عليه ، وهو يحدق النظر في جرود الصديق القديم ثم همس : أيعقل يا هذا أن تكون صاحبي القديم جرود ؟!

احتضن الرجلان بعضهما البعض وقال : أجل .. أنا جرود .

وروى كل واحد قصته وما جرى له مع الأيام ، وتذكرا الصديق سامان ، وتمنيا اللقاء به ، ومكث ثعلب في سجن صاحبه جرود سنة من الزمان ، دخل عليه صاحبه جرود قائلا : سيحضر وفد من قبل الملك عديد الشديد ، ووفد من قبل الملك عطية ليجتمعوا بوفد من عندنا ليتفاوضوا على فك الأسرى ، وسيمرون عليكم في السجن ، فاستعد لرؤياهم وأخبر جماعتكم بذلك .. واسمع يا صديقي القديم إذا كنت قد آثارت البقاء في بلادنا سأتشفع لك عند الأسياد ففكر في هذا العرض يا صاحبي .. فنحن أقوياء، وجيش مملكتنا من أقوى جيوش هذه الممالك كلها .. وعندنا حرية مطلقة ، ولا أحد يفرض نفسه على الآخرين ، وعلاقتنا متينة مع أكثر الممالك العظيمة ، وعندنا المال الكثير الكثير ، ومن النعم الكثير الكثير ويمكن أن تمنح بيتا واسعا ومالا كثيرا وزوجة شابة حسناء كما حصل لي .

فلما سكت جرود عن ذكر حسنات بلاد الأجداد ، قال شروم بعد نظر عميق في عيني جرود : مقابل ماذا كل هذه الأشياء ؟!

فقال جرود بحماس : أن تحافظ على هذه البلاد من الحاقدين المبغضين ، وتخلص لمليكها وشعبها وبس ..

هز شروم كتفيه ورد : بعد مقابلة الوفد الزائر سأفكر بعرضك الجميل يا صاحبي الجميل .

وبعد أيام حضر رئيس وفد ملك الغرب ، ورئيس وفد الملك عطية للسجن لرؤية الجنود والقادة الذي سقطوا في الحرب الأخيرة ، فاستقبلهم جرود أحسن استقبال، ولما وقعت عينه على وجه رئيس وفد ملك الغرب تذكر صاحبه سامان جندي الملك فرجة ، وتحدث معه ،

وعرفه بنفسه وماضيه .. ، فتذكر سامان ذلك ، وتعجب للقدر كيف جمع ثلاثتهم في هذا السجن ؟! وكانت المفاجأة للجميع ! بأنه قادم للمساعدة في الإفراج عن صاحبه شروم ، وبعد مقابلة السجناء والاطلاع على أحوالهم ، دعاه جرود لبيته ليسمع قصته ، وفي الليل كان سامان رئيس وفد الغرب في ضيافة رئيس السجن ، ولما خلا المكان استمع جرود لحكاية صاحبه.

قال : دخلت النفق مثلكم .. امش .. امش.. وأنا محتار هل أعود أم أبحث عن نهاية النفق ؟ أتابع البحث ، لابد أنني اقتربت وهكذا إلى أن يئست من العودة ، وعزمت على الوصول لنهاية النفق ، فبين سير وراحة حتى وجدت نفسي على حافة بحر ، فنمت من الفرح لما شاهدت السماء وظللت أياما انتظر سفينة تمخر عباب الماء فألوح لهم عساهم يحملونني معهم .. رأيت مركبا فلوحت لهم بثيابي ، فلما رأوني قدموا إليّ فحملوني معهم ، وذكرت لهم بعض قصتي فتركوني في بلاد الغرب ، وهناك بدأت حياتي من جديد .. فتعلمت لغتهم ولسانهم ونسيت بلادي ووطني ، ووجدت الحياة جميلة هادئة ثرية .. نكحت امرأة منهم ، وكان والدها رجل كبير في تلك البلاد ، وعلى صيته وسمعته بدأت ازحف في المجتمع الراقي إلى أن أصبحت من رجال الدولة ، ولما حدث الحرب بينكم وبين الملك عطية تعاطفنا معكم ، وقد ذكروا لنا ضعفكم وكره هؤلاء وحقدهم عليكم ، فجمعنا لكم المزيد من المال والسلاح وكم فرحنا بنصركم على الملك عطية ! وقد أسرتم كثيرا من جنوده وقادته ، فأحب ملكنا أن يصلح ذات البين بينكم ، وطلب منكم العفو عن الأسرى لتهدئة الخواطر وكف الدماء ، وبالعفو عنهم تتعاطف الشعوب معكم ، ومن أجل هذه الغاية وغيرها تدخل حاكمنا عديد الشديد ، ولتنعموا بالسلام والوئام ، ويعم الخير والمال على العباد والبلاد .



خرج شروم ورفاقه من سجن بلاد الأجداد بشفاعة بلاد الغرب ، وعاد لبلاده وعاد سامان لبلاده ، وظل جرود في بلاده ، وبعد سنين أتى خبر لجرود فيه أن صاحبه القديم والسجين عنده شروم قد أصبح ملكا

على بلاد الواحات بدلا من الملك عطية الذي أصيب بمرض عصيب لا يستطيع بسببه حكم البلاد ، فصار القائد ثعلب هو الحاكم الجديد ، فأرسل له جرود رسالة يهنئه فيها بوصوله لأعلى كرسي في البلاد من بعد أن كان جنديا يبحث عن الذهب والجواهر ، ويكاد أن يضحي بحياته من أجل ذلك الهدف .

سافر جرود إلى بلاد الغرب والتقى بصاحبه سامان ، ومكث عنده بضع سنين ثم رحل إلى بلاد الواحات ، والتقى بصاحبه شروم الملك ثعلب ، ورحب به في البلاد ، وحذره من كشف نفسه وصداقته له أمام القادة والجنود ، وأصبح جرود بصحبته القديمة لشروم عينا على مملكة ثعلب واستغل صداقته ومعرفته بالجندي شروم للاطلاع على أسرار الحكام الجدد للبلاد ، وكان ينقلها لبلاد الأجداد عن طريق أم مريم الحرباة القديمة ، وذات يوم كان أحد الجنود قد سار لاستدعائه للملك ثعلب ، فسمع حديثه مع أم مريم ، ورآها تخرج وفي فمها ورقة فخطف الورقة منها وقتلها ، واطلع قادته عليها ، فوضعوا جرود تحت المراقبة الدقيقة، فتبين لهم أنه عميل وعين لمملكة الملك موسى ، فذكروا ذلك لثعلب فتغاضى عن الأمر ، وعلى عدم اهتمام الملك ثعلب بهذه القضية قام مجموعة من القادة بتمرد وعصيان على الملك وعزلوه وفي السجن طرحوه ، واعتقلوا الجندي جرود وأخضعوه لتحقيق طويل وعنيف ورموه في سجن عميق ، وقام أبو زكريا الثعبان بنقل خبره لبلاد الأجداد ، ثم سقط أبو زكريا أسيرا فأهلكوه ، وحكم قاضي القادة الجدد على جرود بالموت أمام العامة ، وتوسط ملك الغرب عديد الشديد لديهم للعفو عنه ، وأتى سامان من أجل هذه الغاية ؛ ولكن القادة الجدد رفضوا الشفاعة ، واعدموه الحياة بوجود سامان ، فغضب سامان لموت جرود وقفل لبلاده حزينا على نهاية جرود .. ثم نشبت الحرب من جديد بين بلاد الأجداد وبلاد الواحات ، ودامت أكثر من خمس سنوات ، ذاقت فيها جيوش البلدين ويلات الحرب ، ودمرت البلاد والعباد على أثر موت الجندي القديم جرود .. وقبع الجندي شروم في سجنه حتى المات .. فهذه قصة الجندي جرود وصاحبيه شروم وسامان في بلاد ما وراء القصر المهجور .

قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

القصر المهجور



التقى ثلاثة جنود عند بحيرة البلوط

وتبين انهم يقصدون القصر المهجور

دخلوا الغرفة السرية فوجدوا ثلاثة أبواب

فاختار كل واحد منهم بابا

فوجدوا انفسهم في ثلاثة بلدان

كل بلد لها نظام حكم يختلف عن الأخرى

وكانت الحرب والأسر

والتقوا من جديد

فعليك فك رموز هذه القصة العجيبة



نمير وزعيط في جزائر البحر

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

١١

جمال شاهين

١٩٩٥

نمير وزعيط في جزائر البحر

منشورات المكتبة الخاصة

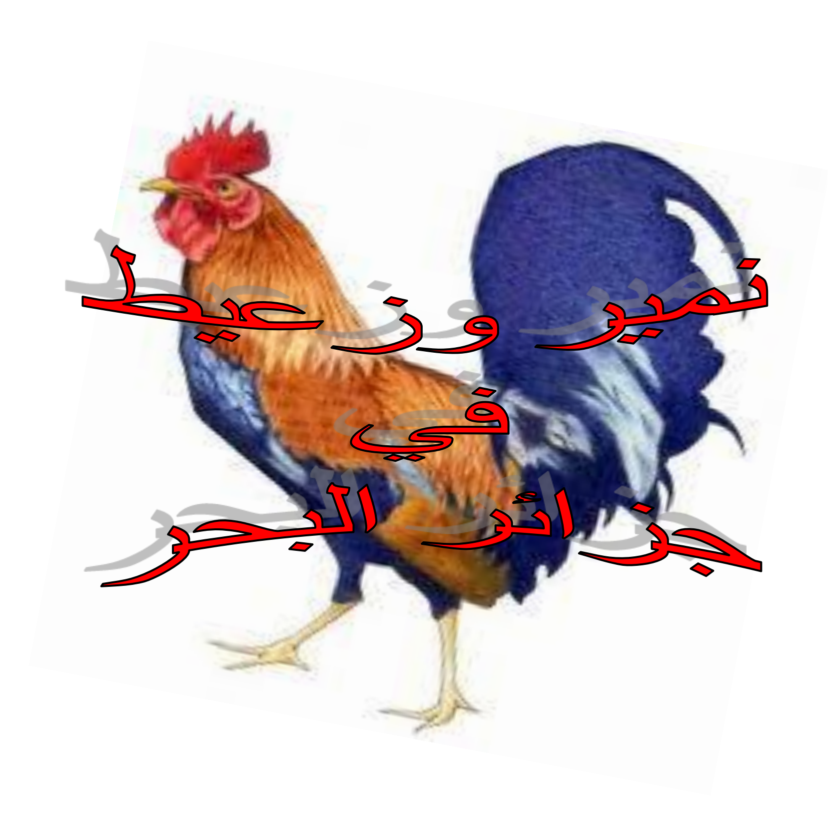
٢٠٢٣/ ١٤٤٤



قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

نمير وزعيط في جزائر البحر


نمير وزعيط
في
جزائر البحر

حكم الملك دريد

قال الراوي جابر بن نادر : فمن القصص العجيبة والحكايات الغريبة التي سمعنا من الرواة والتي هي أغرب من خيال الشعار ، قصة الأمير نمير بن دريد واخوته الأبطال ، وما حدث لهم مع الأيام والزمان ، وتبدأ حكاياتنا هذه – أيها السادة الكرام – في السنوات الأخيرة من حياة الملك دريد ، عندما مرض الملك الجبار ذو السطوة والاقتدار دريد بن انهار ملك بلاد الغال والمال ، وعجز الأطباء والحكماء عن وصف الدواء ، فدخل عليه القادة والقضاة والعلماء والسادة الأكابر، وبعد أن دار الحديث والكلام تكلم كبير القضاة طالبا من ملك البلاد في ذاك الزمان دريد بن انهار بتعيين أحد أبنائه العشرة خليفة له عند وقوع المقدر ، حتى يبايعه الأكابر ، ولا تحدث فتنة وصراع بين الاخوة العشر على التاج ، فرحب الملك العتيد باقتراحهم ، وفرح لمصلحتهم على الدولة من الضياع والانهيار ، وطلب من وزيره فهد بن عاد باستدعاء أبنائه من قلاعهم ومدنهم العشر التي يحكمونها للنظر في ولاية العهد ، وبعد حين أقبل الأمراء من ولاياتهم وبصحبتهم وزرائهم ، والتفوا حول الملك العجوز دريد بن انهار، وأخبرهم أنه في صحة متداعية ، والموت قريب ولا مفر منه ، وأن لديه رغبة بتعيين أحدهم وريثا على تاج المملكة الواسعة الأطراف ، وطلب منهم الاتفاق على اختيار واحد منهم وليا له يستطيع حمل الأمانة وأعباء هذه المملكة الكبيرة التي تضم خمس عشرة مدينة ومئات الآلاف من العساكر والأجناد القوية ، فأمهلهم الملك ثلاثة أيام للتشاور واختيار أحدهم ، ولما مضت المدة حضروا بين يدي الملك ، ووجد أن ثلاثة منهم يطمعون بخلافته والسبعة الآخرين قنعوا بما بين أيديهم من حكم الولايات ، فوهبهم الملك حكم ولاياتهم للأبد حتى هلاكهم ، وأشهد على ذلك العلماء والحكماء والقادة ، وصرفهم إلى قلاعهم ومدنهم ، وأما الثلاثة الآخرون فمنحهم خمسة أيام للتشاور والتفاهم بينهم ، وأن يتنازل اثنان للآخر ؛ ولكنهم أصروا على خلافة الوالد دريد ، فصرفهم للتفكير مرة ثالثة ، وأمهلهم سبعة أيام كاملات ، وعادوا بعد تلك الأيام السبعة ، وكل واحد منهم يريد أن يكون الملك الأكبر ، ولم يتنازل بعضهم للآخر فجمع الملك الأعيان

والأكابر في ديوان الحكم ، وأحضر بين يديه الأبناء الثلاثة ، وأمام ذلك الجمع نطق بهذا الكلام : أيها القادة والأبطال ! وأيها الحكماء والأفاضل ! طلبتم مني تعيين خليفة لكم من بعدي .. فجمعت الأبناء العشرة ، وطلبت منهم اختيار واحد ؛ ليكون الوريث لهذا الملك الكبير ، فتنازل سبعة منهم عن هذا الأمر العظيم ، وأصر هؤلاء الثلاثة ـ وأشار لأبنائه ـ على عدم التنازل لواحد منهم ، فلذلك سأطلب من كل واحد منهم نفيلة .. مطلبا صعبا ، فمن حققه على الوجه المطلوب دون الآخرين ، فهو الأحق بهذا التاج وسأعطيهم مهلة أخرى قبل سماع مطالبي ، ومن طلبت منه الطلب وانسحب أمرت بقتله دون رحمة وهوادة .. انصرفوا وعودوا لهذا الاجتماع بعد ثلاثة أيام لنرى ونسمع ..

عاد القوم بعد المدة المطلوبة واجتمعوا في الديوان أمام الملك دريد ، وبينهم الاخوة الثلاثة وهم مصرون على عدم التنازل، ويطمع كل واحد منهم بالتاج الأكبر، فبعد أن سكنت الأصوات والخطرات قال الملك : يعجبني هذا العناد والإصرار على تاجنا العظيم .. أيها الناس ! سنكلف الأمير نميرا بالسفر لبلاد الصاد ، فقد علمنا أن عند مليكها أسدا مشهورا يرعب به الخلق ، فاحضر لقومك رأس أسد ذلك الملك الطاغية دون تأخير .. وأما ابننا سبع الغاب فعليك بالسفر لبلاد الزمام ، فعند حاميها ثعبان ضخم يرعب به العباد ، فاحضر رأسه دون تأخير أو إمهال .. وأما الأمير جرادي فقد نقل إلينا أن في بلاد الراق زعيما يسوم الناس سوء العذاب .. فلا بأس أن يرى هؤلاء الكرام رأسه أمامهم ، ولخلاص تلك الأسر والبلاد من ظلمه وسوء خلقه ..ومن عاد غانما وسابقا فهو الأحق بهذا التاج الذي فوق هامتي .. وسيكون ابني شميس حاكما من بعدي إن أدركني الموت حتى يعود الفائز منهم بما طلب منه فاذهبوا ونفذوا ما كلفتم به ، ولا أحب أن أرى وجوهكم إلا بعد تحقيق ما طلبت منكم .

خرج الاخوة الثلاثة من مجلس الملك إلى أحد البيوت للتشاور والتدبر ، فأرسل كل أمير إلى نائبه على ولاية المدينة التي يحكمها إرسال ألف فارس إلى مدينة السوق ، واتفق الاخوة أن يسيروا معا إلى المواقع الثلاثة بجنودهم لغزو تلك البلاد ، وإحضار ما طلب منهم والعودة

سوية فوالدهم لم يشرط أن يذهب كل واحد منهم بمفرده إنما طلب تحقيق تلك الغايات والسابق هو الفائز ، ولما تجمعت الجنود في مدينة السوق ، تحرك الأمراء الثلاثة جميعا ، فساروا بداية إلى مدينة الصاد ، وبعد عشرة أيام دخلوا أطرافها ، فكتبوا لحاكمها رسالة يطلبون منه رأس الأسد الذي يخيف به الشعب أو يستعد لقتالهم ، فلم علم مضمون الخطاب غضب ذلك الملك المشؤوم ، وأصدر الأمر لجنوده وقادته بالاستعداد والخروج للقتال وأسر الأمراء ؛ ليكونوا طعاما للأسد المخيف .. والتقى الجيشان خارج أسوار المدينة ، وهزمت جنود الملك وتشتتوا أمام فرسان الغال والمال مم دفع الملك للخروج بنفسه ؛ ولكن كانت جنوده تحارب بوهن ، وما احتدم القتال حتى رأيت ذلك الملك مصروعا ، وولت جنوده الأدبار في التلال والوديان ، ودخلت جنود الأمراء المدينة تفتك بالعساكر والناس حتى فزع أشراف المدينة للأمراء يطلبون الأمان والسلام ، وهم على استعداد لدفع المال وما يفرض عليهم ، فلما منح الناس الأمان عاد الهدوء للمدينة ، طلب الأمراء قاضي المدينة وسألوه عن قصة الأسد والملك المصروع ، فقال لهم : هذا الأسد أحد الأسود الكثيرة للملك الميت ، فإما أن يصطادها أو يشتريها ..وأما هذا الأسد الضخم فقد بنى له قصرا معلقا على أعمدة وجعل له بابا في سقفه يقذف منه الطعام والشراب والضحايا من بني الإنسان ، فكل من يحكم عليه بالموت يطرح لهذا الأسد المرعب حتى اشتهر أمره بين الناس ، وتوحش الحاكم وأكثر من الفتك بالناس ليشبع شهوته وشهوة السبع .. فهذه قصة الأسد !.. فطلب الأمير نمير أن يدلوه على قصر الأسد ، وانطلق هو الأمراء وعدد من جنودهم لمصارعة الأسد ، وهرع الناس لرؤية مصرع الأسد المرعب .. تسلق نمير السلم إلى سطح قصر الأسد ونظر المكان ، وسمع الناس زئير الأسد عندما أحس بهم ، فرج المكان من حدة زمجرته وصياحه مما أوجف القلوب ، فطلب الأمير من فرسانه أن يدلوه إلى قصر الأسد ، وبعد تردد منهم وأمام رغبة والده بقتل الأسد ، وأخذ الرأس أنزلوه رويدا رويدا ، فلما استقر على الأرض قفز عليه الأسد سريعا معتقدا أنه ضحية رميت له فانحرف الأمير ببراعته وقوته عن طريقه ، واستعد للقفزة التالية التي تلقاها بسيفه الفولاذي

فخر الأسد جريحا ، فأتبعه بضربة قاصمة ، ثم حز رأسه ، وأصدر الأمر لجنوده بقتل كل وحوش الملك المصروع ، وهدم قصر الأسد ، وبعد أيام ودعوا أهل المدينة بعدما نصبوا عليها ملكا يدفع الجزية للملك دريد ، وساروا بجنودهم إلى بلاد الزمام لقتل الثعبان المرعب ، ولما حطوا رحالهم بقربها أرسلوا رسالة لأهل المدينة والملك يخبرونهم بسبب زيارتهم لبلادهم وحاجتهم ، فرفض الملك وأرسل جنوده لقتالهم فانهزموا شر هزيمة ، ثم استسلم لهم الملك ، وأذن لهم بقتل الثعبان ، فتقدم سبع الغاب إلى جحره وعرينه فألقى له حملا صغيرا شغله به ، ثم هجم عليه وقتله وقطع رأسه ، وأراح الناس من رعبه ، وشدوا الرحال إلى بلاد الملك الظالم في بلاد الراق ، ولم علم الزعيم بالغاية من مجيء هؤلاء الناس إليه وغزوهم لبلاده استعد للحرب والدفاع عن نفسه ؛ ولكنه أمام فرسان مدربين غزاة انكمش في قصره بعد هزيمة جنده ، فعرض عليهم الأموال والذهب فأبوا إلا رأسه وقاموا بحصاره ، مما اضطره للخروج للقتال قتال المستميت حتى هلك وجزت رأسه ، وتحررت البلاد من ظلمه وطغيانه ، وعاد الأمراء إلى بلادهم غانمين ظافرين ، فوجدوا الملك ما زال على قيد الحياة فوضعوا الرؤوس الثلاثة أمامه ، فتعجب الناس من فعلهم واتفاقهم واجتماعهم ، ولم يتفقوا على التنازل عن العرش

لأحدهم ، فتسأل الناس والملك : ما الغاية من فعلكم هذا ؟!

فقال نمير : نحن اخوة ، أبونا واحد وأمنا واحدة ، ولا نريد أن نخسر أنفسنا فاتفقنا والاجتماع قوة .

وقال سبع الغاب : نحن اخوة أبناء أم وأب ، فكيف نضحي ببعضنا من أجل رأس أسد وثعبان وظالم ؟!

فقال جرادي : بما أننا اخوة ونحب بعضنا قلنا نقاتل معا .

صرفهم الملك دريد، وبعد أيام عقد لهم مجلسا آخر ، قد جمع فيه السادة والأعيان من الأمراء والفرسان تحدث فيه دريد بن انمار فقال:أيها الأمراء والوزراء! أمام رغبة أبنائي الثلاثة في خلافتي معا ، قررت بعد تفكير ونظر إما تقسيم مملكتنا هذه إلى ثلاثة ممالك ، كل ملك تخضع

له مدن وولايات، أو أن يحكم كل واحد منهم سنة وهكذا، أو أن يسافروا في البلاد وتتويج ملكهم بديك الجزائر جزائر البحر ، فمن أتى بالديك دون الآخرين ، وعاد ظافرا ناجيا فهو وريثي ، فاختاروا ما ترونه مناسبا لكم .



فبعد تشاور رضي جرادي بحكم ثلث الملكة ، وأن يستقل في ولايته وحكمه إن قبل أخواه بذلك ، أما نمير فقال : أما أنا فسأذهب وأبحث عن ديك جزائر البحر ، وسيكون سفري بمفردي مع خادمي الأمين " رجب " .

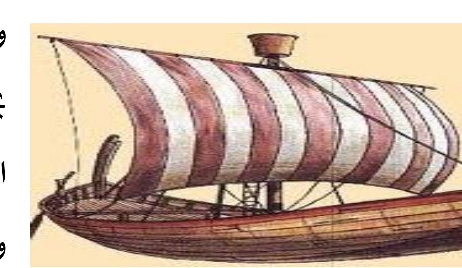
وقال سبع الغاب : لو رضينا بالاقتراح الأول لكان خيرا لنا ! .. أما أمام رغبة نمير في جلب ديك جزائر البحر فسأخرج من طريق أخرى ابحث عنه .. فالبحر لا يحتاج لعساكر للمساعدة فتكلم دريد : أنتم تتنافسون على ثلثي المملكة .. ولكن من أحضر هذا الديك المجهول ، فهو ملك هذه البلاد كلها مع الثلث الذي سيتولاه جرادي ، أو يسافر للبحث معكم .

فعندئذ خضع جرادي لرغبة الملك ، ورأى أن لا مفر من الرحيل ، فأخذت المواثيق والعهود من الأمراء والأكابر على أنه من أتى بالديك قبل أخويه أصبح الملك الأكبر لبلاد المال والغال ويحق لأبنائه وراثة الملك من بعده ، وبعد أيام انطلقوا لمدنهم التي يتولون حكمها ، وكل منهم يسأل عن ديك الجزائر جزائر البحر ما هو ؟ وأين هو ؟!

قال جابر بن نادر : وهكذا أيها السادة الكرام ! بدأت رحلة المتاعب للوصول إلى التاج الملكي بسبب عدم الرضا بالقليل ، فلما عاد الأمير نمير إلى ولايته التي يحكمها نيابة عن والده والتقى بزوجته الأميرة " ظبا "، وقص عليها حكايته منذ سفره إلى عاصمة الملك في تلك البلاد ، فنصحته بالتخلي عن التاج الكبير، وأن يقنع بحكم هذه المدينة كسائر اخوته السبعة ، فغضب منها واحتد ، وصفعها على وجهها بعد أن حقرها وذمها ، وقال لها غاضبا : أتريدين مني أن أظل هنا بين الخدم والجواري والطعام والشراب ؟ ألهذا خلق الرجال والفرسان وأبناء الملوك

فغادرته الأميرة غاضبة باكية ، فخرج لديوانه واجتمع بقادته وفرسانه ، وذكر لهم الأمر وما جرى بينه وبين والده واخوته والقضاة ، وسألهم عن جزائر البحر ، فاحضروا له سحرة المدينة وكهنتها ، وسألهم عن جزائر البحر وديكها ، فلم يحر أحد منهم جوابا ، وذكر له أحدهم أن ساحر الجبل قد يعرف المكان ، فطلب منه الأمير بإحضاره أو يسافر إليه بنفسه ويأتي بالخبر ، فسافر الساحر وعاد بعد حين ليخبر الأمير بأن جزائر البحر بلاد بعيدة ، وهي سبع جزر في البحر العظيم ، يحكمها سبعة ملوك جبابرة ، ويخضع هؤلاء الملوك الجبابرة لملك أعظم منهم ، فهو يملكهم ويحكمهم بمساعدة الديك العجيب الديك الساحر ، ولا يعلم سره إلا قليل من الخلق .. والطريق إلى جزائر البحر، هو السفر من مدينة غندور البحرية في رحلة طويلة قد تستغرق سنة أو سنوات .

فلما علم الأمير نمير الأخبار عين نائبا له ، وودع أمراءه وقادته ، ورجع إلى قصره فعلم أن امرأته هربت إلى أهلها وقومها ، فلم يكترث للأمر ، وأوصى قيم القصر على القصر ، ثم أخبره بأن يرسل خادما لوالد زوجته وزوجته ، ويخبرهما بسفره لبلاد جزائر البحر، وأوصاهم بأن زوجته إذا وضعت مولودا ذكرا أن تسميه "زعيط " ، وإن كان المولود أنثى فلتسمها ما تشاء، وجهز نفسه هو ورجب خادمه ، وركبا فرسين وسارا إلى مدينة غندور البحرية ، فبعد شهور من السير في الجبال والوديان والقيعان والمدن والقرى وصلا إليها، وباعا جواديهما وثيابهما الثمينة ، ولبسا ملابس العامة والبسطاء والفقراء ، وبحثا عن مركب مسافرة إلى جزائر البحر في تجارة من التجارات .



وبعد ضنك وتعب وجدا من قبل أن يحملهما على ظهر سفينته على أنهم من البحارة على أن يهربا لما يصلا إلى هناك ، ولما تجهزت القافلة البحرية للسفر إلى تلك الجزائر ، وكانت تتكون من عدة سفن ممتلئة بالبضائع والتجار ، وعلم نمير من البحارة

والنوتية أنهم لا يسمح لهم بدخول تلك الجزر إنما يحطون رحالهم في مدينة قريبة من هناك يتبادلون البضائع مع تجار الجزر ويقفلون عائدين بعد رحلة تستغرق سنة مع تسهيلات ربانية من رب البحر والسموات والارضين السبع ، وعندما يصلون لمدينة " الكمن "، هناك عليهما أن يختفيا ويكمنا حتى تنصرف السفن ثم يدبرا أمر انتقالهما لتلك الجزر ، فأول جزيرة من تلك الجزر لا تبعد عن مدينة الكمن سوى ساعات في الماء ، حلت الحبال وانطلقت السفن التجارية تمخر عباب البحر العظيم إلى بلاد جزائر البحر ..كانوا أحيانا أثناء الرحلة ينزلون بعض الجزر في البحر ، أو بعض المدن البحرية يتزودن بالطعام والماء أو بيع بعض البضائع وشراء غيرها ، مرت الأيام والشهور والسفن تعوم على سطح البحر ، وقد واجهت الأمواج العاتية والعواصف الهائجة والرياح الشديدة ؛ ولكن عناية وحماية الخالق العظيم حفظتهم حتى نزلوا مدينة الكمن في الموعد المحدد ، سنة من السنين بخسائر طفيفة في الأرواح والأموال ، رست السفن وثبت بالأوتاد الكبيرة والحبال المتينة ، وأخذ الناس من التجار والبحارة بالهبوط إلى الساحل ، فوجدوها مدينة مزدحمة بالخلق من مختلف الأجناس والألوان واستمر الموسم شهورا حتى باع الناس ما أحضروه من البضائع الجميلة من الثياب والتوابل والخيول والأنعام والعطور والسيوف والرماح والمدى والقسي ، واشتروا من جواهر تلك البلاد وثيابها وأصوافها وسيوفها وحبوبها ، وبعد حين قررت قافلة الغندور العودة لبلادها بعدما شروا من الطيور والوحوش الغريبة الأشكال والألوان ، وطلب البحار الذي حمل معه نميرا ورجبا منهم الاستعداد للاختفاء حتى تختفي السفن في البحر بضعة أيام ، فيعملان أنهما تأخرا عن السفن بحجة ما ، وسينتظرون سفنا قادمة من بلاد الغندور، فلابد من قافلة قد خرجت من تلك المدينة البحرية جهة مدينة الكمن ، وسافرت القافلة واختفى الرجلان بضعة أيام ، وكان نمير ورجب خلال الفترة التي قضاها التجار بالبيع والشراء يسألان ويتحريان عن جزائر البحر والملوك السبعة والملك الأكبر "جـنـفل " صاحب الديك الساحر ، وكانا يتحصلان على المعلومات ببساطة وسذاجة ، وقد عملا عند أحد التجار في مدينة الكمن على أمل مجيء سفن من مدينة الغندور ،

وبينما هما على هذا الحال قدم أحد الأمراء من الجزر إلى المدينة يرغب بشراء عبيد وغلمان ، فطلبا من سيدهما التاجر أن يبيعهما للأمير، ويقبض ثمنهما فلعلهما يجدا أن الحياة أجمل وأحسن في تلك الجزر ، فوجد هذا الطلب قبولا واستحسانا لدى التاجر ، فقبله بسذاجة وجشع ، ونزل لسوق العبيد والجواري فباعهما للأمير على أنهما رقيق ، وقبض ثمنهما وانصرف غير مبال بهما .

فساقهم رجال الأمير مع من اشتروا من الرقيق ، وحملوهم إلى سفينة الأمير ، وفي الليل دخلوا بهم الجزيرة الأولى " جزيرة الضفدع " ، وهناك ألحق نمير في خدمة قصر الملك دوق بر ، وأما رجب فجاءت خدمته في إحدى قصور أميرات الجزيرة عمة الملك ، ورتبا أمرهما على التواصل أثناء الخدمة خارج القصر ، فيلتقيان في الأماكن العامة ، وقد تعجب رجب لصبر مولاه على هذه الأحوال والحياة حياة الخدم والعبيد ، وأن يعمل خادما عند الأمراء والتجار للوصول إلى ملك الجزائر الأعظم " جنـفل "، وهو الأمير الفارس ذو الخدم والحشم ..مع الأيام أصبح نمير من الخدم المقربين من الملك لذكائه وخفته وحركته والغاية التي يسعى اليها فصار يأخذه الملك معه في الحل والترحال .

وقد أتى يوم أن طلب الملك الكبير من الملك دوق بر أن يزوره .. ففرح نمير لهذه الزيارة ، وكان من الخدم المحظوظين فسمح له الملك بالرحيل معه ، ولما تجهزت سفينة الملك دوق بر انتقل إليها الملك ومعه بعض رجال الحاشية والخدم ، وبعد عشرة أيام في البحر وصلوا للجزيرة الكبرى جزيرة تخت الملك للملك جنـفل ملك ملوك هذه الجزائر كلها ، السيد الأكبر لجزائر البحر، وكان كبار الأمراء والوزراء في استقبال الملك ، وساقوه إلى قصر استقبال الضيوف ، وفي الصباح التالي انطلق الوفد وخدمهم لمقابلة الملك الأعظم صاحب الديك الساحر ، وبعد المعانقة بين الملكين والترحيب وحسن الاستقبال تحدث الملك جنـفل أمام الملك دوق بر وحاشيته من أمراء وخدم قائلا : لقد قبضنا على شاب قدم من بلاد يقال لها المال والغال طامعا في الحصول على الديك الساحر ..!!

ظهر الخوف على وجوه السامعين وتابع الملك جنـفل الكلام : وهو ـ أيها الملك ـ ابن ملك

عظيم في البر سمعنا بعض أخباره يدعى دريد بن انهار ..واعترف الشاب بسبب إتيانه لهذه الجزائر،وأنه هو وأخواه يتنافسون على تاج تلك المملكة، فقد طلب منهم والدهم جلب ديكنا الساحر ، ومن أتى به قبل الآخرين فهو وريث ذلك الملك الكبير يا دوق بر ، فهو ملك عظيم مثلنا تماما ، وقد تمكنا من القبض على أحدهم ، ويبقى اثنان ، ولابد أنهم دخلوا الجزائر ساعين لتحقيق شهوة والدهم بسلب ديكنا العظيم حامي هذه الجزائر ، فشددوا الحراسة وعليكم باليقظة من جهتكم وانتبهوا للغادي والرائح ، وقد أوصيت الملوك الآخرين بالانتباه لصيد هؤلاء المتلصصين .. وأرى أن الأمر خطير والحذر مطلوب .

فأيد الجميع كلام الملك ووجوب الحيطة والحذر ، ثم قال الملك دوق بر : وما فعلتم مولاي الأعظم بالأسير ابن ذلك الملك ؟

فقال جنـفل بعظمة وكبر : فقد قذفناه في سجن المدينة ريثما نقبض على أخويه ، فإما أن يكونا قد دخلا الجزيرة واستقرا فيها أو هم في الطريق إليها ، ولسوف يغامران للوصول إلى هذه الجزيرة للحصول على ديكنا الأكبر الأفخموعندما نقبض عليهما نفكر بأمرهما ، أو يشير علينا ديكنا الأكبر الأفخم في شأنهما سنرسل جاسوسا لبلاد المال والغال ، ونرى ما الذي سيفعله ذاك الملك القوي عند ضياع أولاده وهلاكهم ؟! فهو كما قيل لنا يحكم خمس عشرة مملكة نحن لا نريد حروبا مع أهل البر رغم بعد بلادهم عنا .. ومن أسيرنا سنتعرف على أخويه .

الأمراء الثلاثة في الجزر

وبعد أيام عاد دوق بر لجزيرة الضفدع ، وهو مشغول الفكر في أبناء الملك دريد بن انمار وهذه المخاطرة الكبيرة ،وما الذي دفعه لإرسال أبنائه لهذه الجزر؟! .. لابد أنه مجنون يريد الموت لهم وقرر أن يرسل جاسوسا من طرفه لتلك البلاد يأتيه بأخبار الملك دريد وأبناء الملك دريد ، وبعد نظر وتدبر طويل أسر لخادمه سحنون بالرحيل لتلك البلاد، وكان ذلك بإيحاء من سحنون نفسه موهما إياه أنه يعلم لسان أهل البر لعيشه معهم قبل أن يأخذه صيادوا الرقيق عبدا ويبيعونه في الكمن ، وسحنون هذا هو نمير بن دريد ، ثم ودع نمير رجبا وسار لمدينة الكمن مع إحدى السفن ، ومنها مع أول قافلة بحرية مسافرة لمدينة الغندور ، لقد استأجر مكانا في إحدى السفن وبعد عام وصل الأمير لمدينة الغندور ، ومنها سافر لبلاده وزار قصره وأمراءه خفية لتنكره ، وتأكد من رحيل أخويه لتلك الجزر ، وقد علم بسقوط أحدهم في أسر الملك جنـفل كما تحدث الملك جنفل بذلك أمام الملك دوق بر ، وأما الآخر فلا أخبار عنه ، وقد علم أن والده قد هلك وناب عنه شميس أخوهم الأكبر حتى يعود أحدهم بالمطلوب، وعلم أيضا أن زوجته قد أنجبت أثناء غيابه ولدا وما زالت في قصر أبيها ، وطلب من الأمراء والاعوان إخفاء أمر زيارته لخطورة الأمر، وبعد أشهر من الزمان قضاها متنكرا في بلاده سافر لمدينة الغندور، ومنها إلى مدينة الكمن ، وبعد سنة وشهور كادوا يهلكون فيها في البحر وصلوا إليها، وذهب لوالي المدينة فنقله بقارب خاص إلى الملك دوق بر ، فلما استراح من سفره دخل على الملك وقص عليه أخبار الملك دريد وقصته مع أبنائه الثلاثة وسبب مجيئهم لهذه الجزائر، فقص عليه قصة قتل الأسد والثعبان والملك الظالم ، ومن ثم طلبه لديك جزائر البحر ، وأنهم خرجوا من سنوات لجلب الديك الساحر ، ولم يعودوا لبلادهم ، بل انقطعت أخبارهم عن أهليهم ، وأخبره بموت الملك دريد ، ويقوم بولاية الملك الابن الأكبر لدريد الأمير شميس حتى يرجع أحد الأبناء الثلاثة بالديك .. ففرح الملك لهذه الأخبار وهذه الحكاية ، ونقلها لملك جزائر البحر برسالة طويلة ، وعلى أثر قرائتها طلب الملك الأكبر مقابلة الجاسوس سحنون ، فبعثه الملك دوق بر لمقابلة ملك

الجزائر السبع ، فدخل على الملك جنفل ، وروى له قصة الملك دريد وأبنائه المتنافسين على العرش الأكبر لتلك المملكة الكبيرة في البر، فاستمع ملك الجزائر لرحلة سحنون بطرب ، وأعجب بذكائه ونشاطه ، فطلب من ملك جزيرة الضفدع أن يتخلى عنه ويهديه إياه ويلحقه بخدمه ، ففرح سحنون بذلك وانتقل للحياة مع خدم الملك الأكبر ، وأعجب شيء اكتشفه الأمير نمير في قصر الملك الكبير أن أخاه جرادي يعمل في قصر الملكة في حدائقها الخاصة مع كبير البستانيين، فقد شاهده في إحدى سهرات الملك والملكة في الحدائق الفاتنة ، ولا يدري عندما شاهده هل عرفه جرادي كما هو عرفه أم لا ؟! ومما عجب له أكثر فأكثر أن اكتشف أن أخاه الآخر سبع الغاب يخدم مع طهاة القصر ، فتسأل سحنون " من هو المسجون من اخوته في سجن الجزيرة كما تحدث الملك الكبير للملك دوق بر من سنوات مضت ؟! " هذا كله أثار العجب في نفسه ، وتيقن أن اخوته جادون مثله للوصول لديك الملك ورغب وتمنى أن يعرف كيف وصلوا إلى هنا قبله ؟ وتمنى الجلوس معهم ، ولكن الأمر صعب وشاق وخطر .

وتبين للأمير نمير أن الملك يضع ديكه الساحر في قصر خاص لا يدخله أحد سواه وسوى المسؤول عن طعام الديك الذي لا يخرج من القصر بل ينام ويأكل فيه ، فيحضر له أعوانه طعامه وطعام الديك ، فيقوم بواجبه تحت حراسة ألف جندي يحيطون بالقصر لا يسمحون لأحد بدخول قصر الديك إلا لصاحب الطعام وحده .

لا يسمح لأحد بالدخول على الديك من الملكات والملوك والأمراء والأبناء إلا من أذن له الملك وبصحبته أيضا ، فيدخل فيرى الديك على كرسي من الذهب الإبريز ، فتيقن لنمير أن الوصول للديك أمر صعب إن لم يكن محالا .. وأمر يحتاج لسنوات وسنوات ، فتعجب عن معرفة أبيه لهذا الديك لصعوبة هذا الأمر وتحديهم به ؛ ولكنه صمم أن لن يضعف ، ولسوف يحتال حتى يرى هذا الديك المقدس والمحروس بكل هذه الشدة والحذر والجند ، أما كيف فهذا تركه للأيام والزمان ؟!

علم سحنون أن ساحر البحر قادم لزيارة ملك جزائر البحر ، فخرج الملك الأكبر بنفسه

لاستقبال الساحر مع كبار الحاشية والسحرة ، وكان سحنون ضمن الخدم الذي ساروا مع جنـفل ، فقد أصبح خادم الملك الأول ، فهو المشرف على طعامه وشرابه ومقابلاته ، وصل لذلك لصغر سنه وذكائه وسرعته وفهمه على الملك حتى ملك عليه حواسه ولمسيره إلى بلاد الملك دريد ونقل احوالها وأخبارها ، قبل الملك جنـفل قدمي الساحر ورحب به ، وكان بين يديه ذليلا مما أدخل الاستغراب في قلب نمير، فهو أمام ملوك الجزر الأخرى كالأسد المتوحش والطاووس المزهو بألوانه وريشه ، وها هو أمام الساحر كالكلب الذليل ، صورتان مثيرتان للدهشة والسؤال ، سار الملك وحاشيته بين يدي الساحر حتى وصل لقصر خاص أعد له أو قصر مخصوص له ، فلما وصلوا القصر دخل ساحر البحر الرهيب المنظر إلى القصر ، وانصرف الملك الأكبر إلى ديوانه ؛ ليطلع على أخبار المملكة وأسرارها حتى الليل ، وعندئذ ذهب بحاشية من الأمراء وخدمهم إلى زيارة قصر الساحر ومسامرته ، فاستقبلهم الساحر ساحر البحر ، وبعد انتهاء المسامرة قال الملك : أيها الساحر الجليل !.. لقد أرسلت وراء ملوك الجزائر السبعة ليتشرفوا برؤيتك وسماع نصائحك الكريمة .

فتنحنح الساحر وقال : حسنا فعلت.. واعلم أيها الملك أني راغب في زيارة الديك يا ملك جزائر البحر .. فلي مدة طويلة لم احظ برؤيته .. شغلني المرض عنه .

فقال الملك : متى تشاء أيها الساحر الكبير ؟! .. أيناسبكم صباح الغد ؟

فطمع نمير خادم الملك بأن يحظى بمثل هذه الرؤية والمقابلة ، فما صدق أن انبلج الفجر ، وخرج الساحر الكبير من قصره بصحبة الملك لمقابلة الديك الساحر الذي كان صوته يملأ المكان مظهرا الفرح في ذلك الصباح بصياحه العالي؛ كأنه يرحب بالساحر الكبير .. وتقدم الملك إلى قصر الديك بين يدي الساحر ، ولقد كان صاحب الطعام في انتظارهما ، ولم يؤذن لأحد بالدخول معهما ، وتقدمهما صاحب الطعام بلباسه المميز ، وهو يحمل بين يديه طعاما من أجود أنواع الحبوب والحب للديك على صينية من ذهب ملون ، ولما اقتربوا من الديك المنتصب فوق كرسي من الذهب ، قبله الملك جنـفل بعد أن لزم الديك الصمت ، وفعل مثله الساحر ،

وقلدهما صاحب الطعام ، ثم وضع المائدة المصنوعة من الجواهر النادرة وعليها وعاء الحب والماء وابتعد إلى طرف المكان ، وتكلم الساحر مع الديك بحضرة الملك ، ومكثا زمنا عنده ثم خرجا ، وبعد قليل لحق بهما صاحب الطعام ، وهو مستغرب من غضب الديك بعد مقابلته لساحر البحر في هذا الصباح المشرق الجميل ، وسمع سحنون الساحر وهو يقول للملك : الديك يقول إن في مملكة السلطان أعداء يسعون لهلاكه ! ويقول إنكم مسكتم أحدهم وما زلتم تبحثون عن الآخرين .. ما الأمر يا ملك الجزائر العظام ؟!

فقص الملك جنـفل على مسامع الساحر قصة الملك دريد وأبنائه الثلاثة ، وبين له كيف قبضوا على أحدهم ، وله سنوات يقبع في سجن الجزيرة ، وكيف نصبوا كمائن للأخوين الآخرين ؟! بل أرسلوا جاسوسا إلى بلاد المال والغال ، ولما تحدث الملك عن سحنون خادم دوق بر سابقا ، نظر ساحر البحر إلى الخادم سحنون بعمق وإعجاب ، مما أثار القلق في نفس سحنون ، ثم رآه يبتسم له ويبارك شجاعته ، ثم طلب من الملك أن يجعله في خدمته ؛ ليسمع الحكاية منه ويسمع أخبار تلك البلاد البعيدة في البر ، فأصدر الملك الأمر لخادمه سحنون بخدمة الساحر بكل جد وعزم ، فأظهر سحنون امتنانه لرضا ساحر البحر عنه ، وتقدم وقبل يد الساحر وهو يتظاهر بالخوف والوجل والرهبة ، فربت الساحر على ظهره ، وأخذه معه إلى قصره ، وهناك روى نمير قصة سفره لبلاد المال والغال ، وكيف عرف قصة الملك دريد وأبنائه العشرة ؟ وذلك عندما كلفه سيده دوق بر بالسفر لتلك البلاد ومعرفة قصة أبناء الملك وسبب مجيئهم للجزيرة ، وكيف وقع أحدهم في قبضة الملك جنـفل ؟ واختفى أثر أخويه الآخرين ، ولهم أكثر من خمس سنوات ولم يجدوا لهم خبرا ولا أثرا ، فلما انتهى سحنون من القص قال ساحر البحر : أنت خادم نشيط وذكي ومخلص يا بني ! .. لابد من رؤية هذا السجين يا سحنون ونسمع منه ونعرف مصير اخوته .. فكما قلت له خمس سنوات في السجن ، ولم يقبض على أخويه بعد ، ولا ندري هل وصلا الجزائر مثله أم لا ؟!.. فاذهب لمولاك الملك

واذكر له رغبتي في رؤية السجين والكلام معه .. أسرع يا ولدي وأخبره بهذه الرغبة .

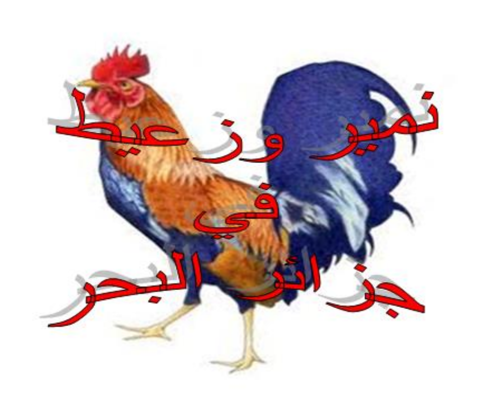
أسرع سحنون وأخبر الملك برغبة الساحر الذي أمر بدوره قائد الحرس بجلب السجين فورا ولما مثل السجين أمام الساحر ؛ فإذا هو رجل هزيل أصفر الوجه كالأموات فسأله الساحر عن أمره ، فقال بضعف : إنه ابن دريد الملك لبلاد المال والغال وقص قصة مجيئه لهذه البلاد كما رواها سحنون ، وبين له أنه جرادي وأن اسم أخويه سبع الغاب ونمير ، وذكر أنه ترك ملكه طمعا في تاج المملكة الكبير ، وأتى إلى هذه البلاد كتاجر ، ثم تسلل بقارب إلى هذه الجزيرة على أمل الوصول للديك الساحر ، وأخذه قبل أخويه ؛ ليفوز بالملك ملك الملك دريد الذي يحكم جزائر البر ، وأثناء إقامته بالجزيرة تعرف على بستاني يعمل في الحدائق والبساتين ، فقص عليه قصته على أمل مساعدته ، فوشى به هذا الرجل للملك الكبير فرموه بالسجن ، وطلب من الساحر وترجاه أن يعفو عنه ، وأن يعيده لمملكته ، ووعده بأنه لن يعود للجزيرة ثانية ، وأنه نادم على أعماله ، وقال : هذه قصتي أيها الساحر الكبير ! فأطلب منك العفو ، وأعدك أنني لن أعود لهذه البلاد ثانية ، وإذا لقيت أخواي نميرا وسبع الغاب سأثنيهما عن المغامرة إلى هنا .. ولا أعتقد يا ساحر البحر بمجيئهما هذه الجزر بعد كل هذه السنوات ، والأمر غير ميسور لتحقيق المطلب الغريب لأبي الملك دريد الذي أظنه قد فارق الحياة ، فلما خرجنا متفرقين كان على وشك الموت فكان مطلبه أيها الساحر ؛ كأنه يريد التخلص منا عندما أرسلنا إلى هنا ، لا أن يهبنا التاج ..

فقال الساحر بعظمة وكبر: نعم قد هلك أبوك دريد بعد خروجكم من بلادكم بشهور! وتولى الحكم الابن الأكبر شميس على أمل نجاحكم فيما ورطكم فيه أبوكم .. ستبقى في السجن حتى نعرف مصير أخويك ، ثم نفكر بأمركم .

وأمر الساحر بعودة السجين للسجن ، وقد سر من سحنون ، فقد تأكد لديه أنه خادم نشيط ، ويعتمد عليه في المخابرات والمراسلات ، ولما خرجوا بالسجين من قدام الساحر الأكبر ، قال الساحر : ولكن الديك خائف ! وأخبرني أن أعداءه ما زالوا في الجزائر أحياء يرزقون ! فنحن بحيرة من أمرنا ، فالبحث عنهم ليس هينا في كل هذه الجزائر مع مرور هذه السنين ، فآلاف الغرباء يدخلون البلاد من تجار وصيادين وبحارة ومغامرين ..وهذا الرجل ما وقع لولا الوشاية

والوصول للديك أمر عسير ، فحوله ألف رجل يحرسونه لا ينامون ليل نهار ؛ ولكن عقول الإنس مرعبة فلا يعدمون حيلة فيصلون إليه ..ومن كلام سحنون وكلام هذا الأسير يريدونه حيا ، وهذا ما يضعف مهمتهم ؛ ولكن قد يقتلونه ويأخذونه جثة .. أنا أحس بقلق غامض في كياني المريض .. لا أدري يا سحنون ما مصدره ! وما أدري الذي يدفعني لمصارحتك بهمسات داخلي أيها الخادم .. ؛ ولكنني لمست فيك الفطنة وحسن الخدمة والعمل في طاعة مخدومك .. لقد فارقت الجزيرة بمهمة طويلة كان بإمكانك الهرب والبقاء في ذلك البر .. فتشجعت وتكلمت أمامك بخوفي وقلقي .

فأخذ سحنون يقبل قدمي الساحر على هذه الثقة التي اولاه اياها ساحر الجزائر السبع ، وقد بكى بين يديه متظاهرا من جديد بالإخلاص والامتنان لثقة ساحر البحر به ، مما أدخل بعض الطمأنينة على قلب الساحر ، فإن الوصول للديك بالأذى والشر ليس أمرا ميسورا أمام هذا الكم الهائل من الحرس والاحتياطات ومن نشر العيون والإخباريين بين الناس وأماكن تواجد الغرباء ، فأثنى الساحر على الخادم سحنون وصرفه ؛ ليفكر في شكوى الديك والخاطر الداهم



استقبل الساحر ملوك الجزائر الوافدين لرؤيته ونيل بركاته ، ومكث في الجزيرة الكبرى بضعة شهور ، وهو السيد المطاع والآمر الناهي ، ثم ودع الديك وطمأنه وأنه في مأمن وحوله ألف حارس في نوبة حراسة دائمة ، وهم من فرسان الملك المعتبرين ، وقبل أن يغادر ساحر البحر الجزيرة الكبرى عائدا إلى الجبل الذي يسكن فيه في أعلى جبل الجزر عرض على سحنون أن يعلمه السحر ، ويجعله من تلاميذه لم لمسه فيه من ذكاء وفطنة ، وأظهر سحنون السعادة والفرح للفكرة ، وترك أمره لسيده الملك جنـفل الذي تخلى عنه سريعا لرغبة مولاه ساحر البحر ، فوهبه خادما وتلميذا له ، وانتقل سحنون مع الساحر إلى مسكنه في الجبل جبل سمعان ، وقبل وصوله

لكهف الساحر خرج رجال يلبسون الملابس السوداء ، ولا ترى إلا عيونهم لاستقبال الساحر الكبير ، ولما التقوا ارتموا عليه يلتمسون بركاته ورضاه ودعائه ، وبعضهم يقبل يديه ورجليه فالتفت الساحر لخادمه الجديد فقال : هؤلاء تلاميذي ، فمنهم من له عندي منذ خمسين سنة ، ومنهم من له ثلاثون سنة ، ومنهم عشر .

الكهف كهف السحرة ، بيوت منحوتة في الصخر ، وفي صفحة الجبل حجرات صغيرة وكبيرة سار الساحر وخلفه الاتباع والتلاميذ على سلم منحوت من الصخور حتى دخلوا الكهف المفروش بالسجاد والحرير ، ومعلق في جوانبه على أعمدة صغيرة من الرخام الفوانيس الصغيرة والكبيرة ، وهناك طاقات أو حفر منحوتة في الجدران للمشاعل والشموع ، قل قصر داخل الكهف ، فلما دخل الساحر حجرته في تلك المغارة الكبيرة الواسعة أخذ التلاميذ سحنونا الخادم الجديد للساحر، فادخلوه إلى مكان الاستحمام ، فحمموه وجملوه وألبسوه ثوبا فضفاضا أخضر وعرفوه على المكان حيث غرف الطعام والمنام ، وذكروا له آداب التعامل مع الساحر ومعهم وواجباته والغاية من جلبه إلى كهف السحرة ، وما قضى نمير عاما بصحبتهم حتى أصبح موضع سر ساحر البحر ، واندفع يلتقط علومهم بقوة وثقة حتى شعر أن التلاميذ الآخرين يحسدونه على تقدمه عليهم بهذه السرعة الغريبة ، وعلى حظوته لدى الساحر ، وفي كل يوم يكتشف نمير سرا من أسرارهم ، ويتضح له أمرا غامضا خفيا من أمورهم ، مضى عام آخر وسحنون يتقدم حظوة عند الساحر ، ويخدمه بإخلاص وتفان ؛ كأنه نسي ملكه والغاية من وجوده في هذه الجزائر ، وكان طامحا بكشف سر الديك الغريب وسبب تعظيم الساحر والملوك له ، ولاحظ سحنون أن للساحر حجرة داخل الحجرة لا يسمح لأحد مهما كان مقربا أن يدخلها ، فقد حاول سحنون كشف سرها بذكاء وبدون أن يشعر به أحد ، فلم يتمكن من ذلك فغض الطرف عن هذه الرغبة وترك ذلك للأيام ، وذات ليلة استيقظ في آخر الليل فزعا ، فقد سمع ضجة في المغارة الكبيرة ، فترك حجرته فإذا التلاميذ يخرجون من جحورهم ، ويتجمعون أمام حجرة الساحر ، وأشعلت المشاعل في الكهف ، فهرع مثلهم إلى غرفة الساحر الذي كان

يجلس في غرفته وعيناه محمرتان ، والزبد يخرج من شدقيه ، والغضب مرسوم بوجهه ، وبين يديه رجل من رجال الملك جنـفل ، فلما اكتمل التلاميذ ، ولم ينبس أحد منهم بهمسة ، فهم ينتظرون نطق الساحر بكلام ، فنهض قائما ووقف أمام باب الحجرة ، فقال بغضب حاد واضح في نبرات صوته: أيها التلاميذ الأعزاء !.. أيها السحرة في هذه الجزائر! .. جاءتني الليلة رسالة من ملك ملوك الجزائر السبعة الملك جنـفل ..

وسكت حتى التقط أنفاسه ثم قال : أيها السحرة !.. هناك رجال يتآمرون علينا في هذه الجزيرة فديك الجزيرة .. تعرض للقتل أيها السحرة !.. لقد دسوا له السم . فردد الكهف صدى أصوات السحرة : السم .. السم .. !!

فعاد الساحر يصرخ : نعم السم ! .. وضعوا له سما ؛ ولكنه لم يمت ؛ ولكنه مريض .. وهو بحاجة لعلاج .. فسيذهب جماعة منكم لمداواته .. وإن عجزتم فابعثوا لنا .. فاختاروا سبعة مهرة من بينكم للقيام بهذه المهمة العظيمة .

وذهب سبعة منهم مع رسول الملك جنـفل لعلاج الديك الساحر المسموم ، فبعدما عاد السحرة لحجراتهم يدعون بشفاء الديك ، جلس سحنون الخادم بين يدي الساحر والحزن والتأثر على وجهه ثم قال برقة ودموع : مولاي الساحر ! .. كيف اجترؤا للوصول لديكنا العظيم ؟!

فتنحنح الساحر بضع مرات وسعل عدة مرات ثم قال : اعلم يا ولدي ! أن أحد طهاة الملك شارك في العملة المشؤومة ..علمت أن صاحب الطعام المختص بالديك الساحر مرض مرضا شديدا اسكنه الفراش ، فاختاروا طاهيا آخر من طهاة الملك للقيام بالواجب حتى يتعافى خادمه من مرضه .. فقام هذا الطاهي المجرم اللعين بعد حين بوضع السم للديك .. الذي اكتشف الأمر بعد أن أكل نصف الطعام، فشعر بطعم غريب في جوفه ، فصرخ صراخا مرعبا ، ففزع الحرس وأتى الملك .. فقبضوا على الطاهي المجرم فإذا هو ابن الملك دريد الذي حدثتني عنه آنفا .. فقد أتى ذاك المجرم الجزائر متنكرا منذ سنوات حتى استطاع أن يعمل طاهيا في قصر

الملك .. فله أكثر من سبع سنوات يدبر لهذه المكيدة حتى أتته الفرصة .. ألم أقل لك أن بني آدم لا يعجزون عن حيلة لتحقيق غاياتهم ؟ .. سبع سنوات وهو مجرد طباخ ، إنه ماكر ! .. لقد بقي عدو واحد من الثلاثة ولسوف يقع !.. والويل لهذا الأمير إن هلك هذا الديك ! .. فالديك يا سحنون هو الملك الحقيقي لهذه الجزائر كلها .. هذا سر أول مرة انطق به فاحذر أن تفوه به لأحد أعرف أن الدهشة قد أصابتك لما تسمع .. الأسرار كثيرة يا ولدي في هذه الجزائر .. نعم الديك هو الملك الحقيقي للجزيرة يا سحنون الأمين !.. وسأفصل لك هذا السر يوما ما .. فاصبر وكن كعهدي بك .. بعد أيام سأرسلك للجزيرة لتنظر في الأمر العظيم ، وتقابل الملك وتسمع منه ، وتقابل الديك .. وذلك بعدما يعود السحرة من علاج الديك ، فأنا سني لم تعد تساعدني على الحركة .

وظل سحنون بين يدي الساحر حتى الفجر ثم عاد لحجرته ، وهو يفكر بما أصاب أخاه سبع الغاب بعدما حاول اغتيال الديك الساحر ، وأخشى ما يخشاه أن يقتلوه قبل أن يساعده في النجاة .. بعد شهر رجع السحرة وابلغوا الساحر أنهم عالجوا الديك ، وبدأ يستعيد ويسترد عافيته ، وهو يدعو لك ويتمنى رؤياك في أقرب وقت ، ففرح الساحر لسماع هذا الكلام ، وأرسل خادمه الخاص سحنون إلى الجزيرة الكبرى لمقابلة الملك والديك وسبع الغاب بن دريد فرحب الملك بخادمه السابق وسر للحظوة التي وصل إليها عند ساحر البحر واسمعه قصة الجريمة .. وذهبا سوية إلى زيارة الديك ، وكانت هذه أول مرة يرى فيها سحنون الديك فوجده متأثرا من السم ، فيه هزل وصوته مهزوز ، فقبله وتمنى له العافية ، ونقل إليه تحيات الساحر وسلامه وتهنئته له بالعافية والنجاة من الموت ، واجتمع سحنون بصاحب الطعام المريض ، وعرف أنه تعرض للسم هو الآخر، وأن الطاهي " شبرة " أسقاه سائلا منهكا للقوى ومسببا للغيبوبة حتى يصل للديك ، ووصل فعلا ودس له السم ، وقد نجا الديك من موت محقق ، ولولا القدرة الإلهية لهلك ، ، وذهب سحنون لسبع الغاب ، فسأله بعدما دار بينهما الحديث لماذا أردت قتله وأنت تريده حيا ؟!.

فتبسم سبع الغاب وقد عرف أخاه وقال : طال الانتظار ومللت ! ولم أعد اصبر فقررت التخلص منه حتى لا يكسب أحدنا الرهان والتاج..ففكرت في تخديره وسرقته؛ ولكن كان ذلك مستحيلا ، وكيف الخروج به من هذه الجزائر البعيدة عن بلادنا ؟ .. وهل أنت مرتاح عند ساحر البحر ؟!

فرد سحنون بحلم قائلا : سوف أصل للديك يوما ما ، وإن مكثت ألف عام .. إلى اللقاء .. سأفعل ما بوسعي حتى لا يقتلوك ، ولسوف أزورك ثانية لأعرف كيف وصلت إلى هنا أيها الصعلوك ؟! إلى اللقاء ، وربما ساعدتك في الهرب من هذه الجزائر .

عاد سحنون لكهف ساحر البحر وطمأنه على الديك ، وعلى صاحب الطعام وقص عليه تفاصيل المؤامرة ، وقد طلب من الملك زيادة الحيطة والحذر من الأشخاص الذين يتعاملون مع الديك ، وعرض الطعام وتقديمه على عدد من الطيور قبل أن يقدم للديك .



الغزاة

ضحك ساحر البحر وقال : أجل الرجال كثير .. الرجال كثير ! وأنت يا سارمون ما تقول ؟

فتنحنح سارمون ثم قال : إذا كان الرجل مزعجا فابعثه في مهمة لا يعود منها حيا .. ولا تتعب نفسك بالتفكير فيه ..

فعاد ساحر البحر يتكلم كأنه حالم : أعجبتني شجاعته وجرأته عندما التقينا قبل سنوات ..

لقد اشتراه دوق بر عبدا رقيقا من مدينة الكمن ، فقد أسره قراصنة البحر وباعوه رقيقا في الكمن لتاجر كبير ، ثم باعه التاجر لرجال الملك دوق بر ، فأرسله لبلاد المال والغال – يحتاج المرء لاثني عشر شهرا أو أكثر ليصل إليها – بما فيها من المخاطر فمع ذلك ذهب إليها ، وأتى بأخبارها للملك دوق بر وعاد ، رحلة ثلاث سنوات .. لم يهرب ! كان بامكانه الحياة في تلك البلاد والمدن .. أي وفاء هذا ! وأي شجاعة هذه ! وكانت معلوماته صادقة ؛ لأنه وقع بين أيدينا ولدان من أبناء تلك البلاد ، وتوافقت الأخبار التي أتى بها بما قالوا ، فهذا يؤكد مسيره لهناك .. ثم أهداه دوق بر للملك جنـفل الأسير .. ثم انتقل ولاؤه لي ، فوقع في البداية من نفسي موقعا حسنا ، وعلمته الكثير من أسرار السحرة ، فتعلمها فأتقنها بسرعة يحسد عليها ؛ ولكني كلما ادقق النظر في عينيه أتوجس منه خيفة ؛ ولكن من ماذا ؟ لا أدري .. أسئلته وأحاديثه مع تلاميذي أحيانا تثير كوامن القلق في نفسي ، وقد مشى منذ أيام للجزيرة ينظر ما حل فيها وما جرى فيها من دمار وفساد .. وأريد أن اقذف به في مهمة صعبة ومرعبة ؛ فإذا نجا من خطرها وشرها سأهبه تاجي ، واقذف نخزات قلبي أدراج الريح ، وأرى أنه أحق به من غيره ، وأن الوسواس لا أصل له ..

ولما لم يعقب أحد على أفكار الساحر ، تابع الكلام قائلا : فلنترك خادمنا سحنونا الآن .. فأين بقية الأعوان ؟! نحن سبعة ، فلم يحضر سوانا .. لقد أرسلت لهم رسلي ، ووعدوني بالمجيء ، ولم يحضر سواكما .. أريد أن أسمع منكم أخبار الجزر ، ومدى استعدادهم للتمرد الحاصل.. أنت يا مفروق ساحر جزيرة اللوى ما عندك ؟

تلفت مفروق يمينا وشمالا ثم قال : حقيقة يا مولاي ! إن الجزيرة التي أعيش بجوارها لحتى الآن هادئة ؛ ولكنها لا تخلو من التوتر والفوضى .. هذا قبل الأحداث الكبيرة التي عصفت بالجزيرة الكبرى ، فكثير من الشبان الجدد يفتعلون المشاكل ، ويتشاجرون مع الجند ، وتحدث معارك بينهم ؛ ولكن هذا المعارك لم تخرج عن سيطرة الملك الشاب .. وأما الأحداث الكبيرة التي ألمت بالجزائر ، وبالأخص الجزيرة الكبرى كانت مفاجئة لي ولأعواني السحرة ، بل أصابنا الذهول والرعب ! وها هو ملكنا يستعد للدفاع عن جزيرته أو يستسلم لنمرال .. فالأحداث التي جرت في جزيرتنا لم تدفعنا للتشاور معكم ، لم تكن ذات أهمية في نظرنا .. الأحداث الساخنة كانت تجري في جزيرة مورا وجزيرة لولا ، ومع ذلك لم يصل إلينا منها شيئا، لقد كانت العاصفة محكمة التدبير ومفاجئة ، ولما سمعنا بها أصاب الملك جنفل أصابنا الرعب والقلق، وها هم يحاصرون جزيرة برقا .

تنهد الساحر الكبير ثم قال : الحق أننا في كبرى الجزر تفاجئنا بالهجوم ، والذي ساعد هؤلاء على الفوز تعرض الديك الساحر لمكيدة قتل من طرف لا علاقة له بهؤلاء المهاجمين .. فقد حاول ابن أحد ملوك البر البعيد قتله .. وقص عليهم قصة الأمير سبع الغاب والملك دريد ، ثم استمع من الساحر سارمون ساحر جزيرة " هبوب الريح " عن أحوال الجزيرة وأخبارها فلم تكن تختلف عن أخبار جزيرة اللوى كثيرا ، ثم أظهر ساحر البحر الغضب وقال : أود لو اجتمع بساحري جزيرة مورا ولولا ، فلا أدري ما الذي أعاقهما عن هذا اللقاء وأخرهما عن الحضور ؟! فجزرهم غير محاصرة ، بل هي مشاركة في المؤامرة التي تجتاح هذه الجزر ، وستنتظران يوما آخر ؛ فإن لم يحضر أحد من السحرة ، ستعودان لبلادكم ، ولسوف ترون وتسمعون شدة انتقامي من العصاة والمتمردين والغادرين .. سأتركم الآن وأعود للكهف ، وسيقوم العبيد والخدم بما يلزمكم ، وإن أتى أحد من كبار السحرة فاخبروني بواسطة الخادم نبهان .

وودعهم الساحر ، وعاد من ممر سري إلى كهفه ، واستمع سحنون ورأى كل شيء ، وأخذ

يستعد للخروج من الحجرة الرابض فيها ، ويتحين الفرصة للانسحاب دون أن يشعروا به ، وكان يقول لنفسه : ماذا ستفعل أيها الساحر ؟! .. فالمتآمرون في عرينك..فقد كبرت وهرمت وأعلم ما هي المهمة التي ستطلبها مني أيها الساحر الخبيث !

ومع جنح الظلام تسلل للنفق ومنه إلى الكهف ، وهو يتسمع أمامه وخلفه فلم يسمع حسا ، فتيقن أنه لا أحد منهم شعر به من هؤلاء السحرة والخدم .

ومع ضحى النهار كان سحنون يقف أمام الكهف السري في الجبل ، ويعلن عن نفسه ففتحت الصخرة التي تشكل بابا للكهف فدخل ، ولما وصل للحجرة وقبل أن يدخلها طلبوه لساحر البحر ، فأسرع إليه وقبل يديه وقدميه ، وبكى وهو يحدثه عن حال المدينة والناس والدمار والجثث وأسر الملك وتدمير قصره وسلب أمواله وسبي نسائه وبناته وتدمير قصر الديك وهرب السجناء ، فبكى وأبكى وهو يحدثهم بما حل في البلاد من بؤس وشقاء وفناء بعد عز ورغد عيش ونعيم .. فتمزق قلب الساحر من جديد مما سمع ، ولما فرغ سحنون من وصف المشاهد التي رآها في الجزيرة الكبرى ، قال ساحر البحر بحقد وبغض وثورة : سوف ترون يا أبنائي شدة بأسي وحقدي على هؤلاء الجبابرة العتاة !.. سحنون الشجاع .. هل أنت قوي وشجاع ومطيع لأستاذك ومعلمك ساحر البحر ساحر السحرة في كل هذه الجزائر رغم قصر المدة التي جلستها بين يدي ؟

فصاح سحنون بكل ثقة وجرأة : أنا ولدك المطيع الوفي ، مرني بما تشاء وسأنفذه ولو ذهبت هذه وأشار لصفحة عنقه .

ظهر السرور على وجه الساحر وقال : أيها الشاب الشجاع سأكلفك بمهمة صعبة .. أريد منك أن تكون سيف نقمتي .. أريد منك أن تعدم نمرال اللعين الحياة ..أريد أن يهلك هذا الحليف الوحش لهؤلاء الخونة .. هل أنت أهل لذلك ؟!

نهض سحنون وقال بقوة وحماس : سأفعل أيها الساحر ، متى تريد أن تبدأ ؟.

فسكنت روح الساحر قليلا وعاد يقول : بعد أيام ثلاثة انطلق لتنفيذ هذه المهمة الجبارة واعلم

أيها الإنسان أنك إن نجوت منها سالما ستكون أكبر السحرة في هذه الجزائر كلها ..ستكون خليفة ساحر البحر ، وترثني ، وسأطلعك على الأسرار العظمى التي تطمع لها الأعناق .. أسرار حكمي وسيطرتي على كل هؤلاء الناس .. بعد أيام ثلاثة سآمرك بالانطلاق ، فاذهب إلى مكانك واستعد لهذه المغامرة والمقامرة .

في ليل اليوم الثالث وسحنون يستعد للرحيل في صباحه قبل بزوغ فجره ؛ لتحقيق شهوة الساحر بقتل القائد البربري نمرال ، دخلت قوات غريبة وجنود كثيفة الكهف السري ، وقبضوا على كل من كان فيه من التلاميذ والسحرة والخدم ، وربطوا بالحديد والقيود ، وساقوهم إلى شاطئ الجبل حيث البحر ، فأدرك سحنون أن المؤامرة قد تمت للقضاء على ساحر البحر ، وندم على أنه لم يخبر الساحر بما سمع أثناء عودته من زيارة الجزيرة الكبرى ، وعلم من الجنود أنهم ما زالوا يبحثون عن الساحر والديك ، وأنهما اختفيا رغم أنهم قلبوا الكهف حجرة حجرة ، وأخذوا ما فيه من الكنوز والسيوف وحملوهم في سفينة ، وكان قائد الحملة على كهف السحرة شابا دون العشرين .. وأثناء سيرهم في البحر أمر هذا القائد بإلقاء السحرة والتلاميذ في الماء ليتخلص منهم ؛ ولكنه قبل قذفهم في الماء أشفق عليهم فطلب من جنوده فك قيودهم حتى يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم أمام حيوان البحر ، وبعد دقائق كانوا يطرحون في الماء ، فكان سحنون الأسير يقول : هكذا أموت طعاما للأسماك والحيتان !! وداعا أيها التاج ! .. تاج المال والغال ..وداعا يا تاج الساحر الكبير !.. وداعا يا دنيا !



الأمير زعيط بن نمير

عادت الأميرة ظبا إلى والدها غاضبة من زوجها الأمير نمير بن دريد الملك ، وقصت على أهلها الإهانة التي لحقت بها ، فتألم الأب وأنزلها في قصره وأكرم وفادتها حتى فاجأهم رسول الأمير بخبر سفره إلى جزائر البحر ، وأعلمهم بوصية ورغبة الأمير بالمولود القادم ، فولدت الأميرة الغاضبة مولودا ذكرا اسمته "زعيط" كما أوصى والده ، ولما عاد الأمير بعد سنوات عينا للملك دوق بر لم يعلم بعودته إلا المقربون والأخصاء ، ولم يسأل عن الأميرة ، ولا عن ولدها إنما علم بولادتها فقط ، واختفى مرة أخرى كما يعلم القراء ، فعاش الغلام في كنف جده والد أمه ، ولما بلغ سن الفرسان من آل دريد أخبرته أمه عن قصة أبيه وأعمامه العشرة ، وأنه أحق بالتاج من الأمير شرارة نائب أبيه على مدينة الحمراء ، وسمع الفتى قصة أبيه وطمعه بتاج المملكة الكبرى بلاد الغال والمال وسفره لجزائر البحر للإتيان بالديك الساحر ، ثم اختفاء أمره وأخباره ، فذهب للحمراء مطالبا بعرش أبيه ، فغضب عليه أهل المدينة وطردوه شر طردة وعيروه بأن يبحث عن أبيه قبل أن يطالب بعرش أبيه .. فتأثر زعيط من كلامهم الجارح والحاد وعاد لوالدته غاضبا حانقا على عدم تربيتها له في قصر والده ، وقد نمت في رأسه فكرة البحث عن أبيه الأمير نمير ، وحاولت أمه بكل قوة ثنيه عن ذلك الهدف ، وحاول ذلك جده وأخواله، فأبى وأقسم الأيمان المغلظة ، وأنه لابد من المسير إلى جزائر البحر وأن يعرف مصير والده الذي ذهب منذ سنوات ، ولم تعد تسمع أخباره ، وأمام إصراره وعدم مبالته بغضب والدته ، ندمت أمه ظبا على إطماعه بتاج أبيه ، فقالت له : اذهب إلى عمك جرادي حاكم مدينة كرمه ، فقد تجد عنده أخبار عن والدك الملك .

فرحل زعيط إلى عمه بأسرع وقت واجتمع به وعرفه بنفسه ، فرحب به جرادي، وروى له مغامرته إلى بلاد وجزائر البحر ومحاولته الحصول على الديك الساحر ، وأنه تعلم الزراعة ورحل إلى تلك البلاد مع خادمه المخلص زهدوم ، وكيف وصلا لبلاد الجزيرة الكبرى إحدى الجزر السبعة ؟ وكيف صنع حيلة للوصول للملك جنفل بأن أوهمهم بأن زهدوم هو جرادي وقبضوا

عليه وسجنوه وقربوه هو ، فأصبح بستانيا من البستانيين الذين يعملون في قصر الملكة ، وحدثه عن صبره ومحاولته للوصول إلى الديك وفشله ، وأخبره أنه رأى أباه نميرا هناك ؛ ولكنهما لم يجتمعا لخطورة الأمر ولتنافسهما في الوصول للديك ، وذكر له أن عمه الأمير سبع الغاب حاول قتل الديك بحيلة ذكية ، وقد فشل هو الآخر وقبض عليه وطرح في سجن الجزيرة ، وقد التقى به أبوك في السجن ، ثم اجتاحت الجزائر فتنة كبيرة ومرعبة، وحدثه عن بعض تفاصيلها ، فهرب السجناء ومنهم خادم جرادي وسبع الغاب ، وبعد نجاتهم من القتل والحرق مرات ومرات عادوا إلى هذه البلاد ، وأخبره أن آخر أخبار والده أنه انتقل للعمل مع ساحر الجزيرة أكبر السحرة ساحر البحر الكبير فانتقل لجبل السحرة ، وذكر له دخول البرابرة مع القائد نمرال الجزيرة الكبرى وتدمير الجزيرة وحرقها ، ومن ثم اقتحم هؤلاء الغزاة جبل السحرة وأهلك السحرة ؛ ولكنهم لا يعلمون علم اليقين بموت والده أو حياة سحنون وهو اسم أبيه في تلك الجزر، ومكث زعيط أياما في ضيافة عمه ، ثم سار إلى مدينة عمه سبع الغاب الذي أخبره بقصة رحيله لتلك الجزر وعمله طاهيا حتى وصل لقصر الملك جنفل طاهيا والعمل في مطبخه ، ومن ثم محاولته تسميم الديك الساحر بعدما حاول قتل صاحب طعام الديك ، وحدثه عن فشله في قتل الديك ونبذه في السجن ، وقد أتاه سحنون خادم ساحر البحر على السجن ، ثم حدثت الكارثة الكبرى في الجزيرة ، وهربه من السجن وخادم جرادي ، ثم تكلم عن التقائه بالأمير جرادي ، وعودتهم إلى بلادهم بعدما سنحت لهم الفرصة بعد اختفاء دام أكثر من عام ، وذكر له أن القائد البربري نمرال أرسل جيشا لجبل السحرة وأخذ السحرة والتلاميذ وألقاهم في جوف البحر ؛ ولكنه لا يعلم علم اليقين، هل كان بينهم سحنون الأمير نمير أم لا ؟ ولكنهم علموا أن ساحر البحر الكبير لم يقبض عليه أثناء وجودهم في الجزيرة ، وقد اختفى هو وديكه ، وقد يكون آخرون نجوا من تدمير جبل السحرة ، وبين له أنهم تحروا عنه فلم يصلوا ليقين ، وعادوا لبلادهم بعد غياب طويل يزيد عن عشر سنوات ، ومكث زعيط أياما في ضيافة عمه سبع الغاب كان كل حديثهما عن جزائر البحر والديك الساحر ، ثم ودع

عمه وأبناء أعمامه ، وعاد لأمه وروى لها ما علمه من أعمامه ، وبين لها تصميمه وقراره الأخير بزيارة جزائر البحر ؛ ليتأكد من موت أو حياة الملك نمير .

بعد أيام معدودات شد زعيط بن نمير رحله إلى مدينة الغندور ، ومن هناك سافر مع قوافل البحر إلى جزائر البحر، وبعد رحلة طويلة وصل زعيط لمدينة الكمن، وظل فيها أشهرا حتى تمكن من الانتقال إلى جزيرة الضفدعة ، وبرفقة شاب يكبره بسنين يدعى " حسن " ، ولما دخلاها على حين غفلة من أهلها اشتغل حسن عند حداد ، وعمل زعيط مع صاحبه حسن في صناعة السيوف والسكاكين والأسنة ومشاقص النبل ، وسكن زعيط مع صاحبه حسن في بيت واحد استأجراه من رجل اسمه شوان ، ولقد كانت خطة زعيط بسيطة وهي الاحتكاك بأهل الجزيرة والتعرف على الناس قبل الاستفسار عن أخبار والده وساحر البحر وديك الجزائر ، وكان الحب متبادلا بين حسن وزعيط ، وذات يوم دخل عليه شوان وبعد التحية والسلام شرقا وغربا في الكلام ، فسأله الرجل الشيخ عن صنعته ، فذكر له أنه ابن أحد التجار الكبار ، وقد جاء مع قافلة لمدينة الكمن ، ولما باع سلعه واشترى غيرها من سلع هذه الجزائر أرسلها مع عمه وأقربائه ، وقرر السياحة في هذه الجزر والتعرف على أهلها وطباعهم وعاداتهم وأخلاقهم فتصادق مع حسن الحداد في الكمن ، ثم أتيا إلى هنا إلى جزيرة الضفدعة ، وعلم زعيط أن شوان هذا كان يعمل في تربية وتكثير الطيور وبيعها في الأسواق ، ولما كبر سنه ورق عظمه ترك العمل وهو يستعد لساعة الرحيل إلى العالم الآخر العالم الجميل الفاتن ، وتكررت المجالس بين زعيط وحسن وشوان ، واستطاع زعيط معرفة أحوال الجزائر والسحرة والملوك ومعارك البربري نمرال ، وعلم منه أن هذه الجزيرة تابعة الآن لجزيرة مورا ، فبعد أن هزم نمرال البربري حكام الجزر، وخضعوا له ، فأخذ حاكم مورا السابق في زمن جنفل الجزيرة الكبرى بدلا من جزيرة مورا التي تنازل عنها لنمرال على أن لا يتدخل نمرال فيه وفي حكمه ولا جزية عليه ، وكذلك جزيرة لولا لا جزية عليها لتعاونهم معه في اهلاك الملك جنفل وساحر البحر .. وتملك الجزر الستة الأخرى ملكا تاما يحكمها كيف شاء؟ لإن تلك الجزر تحالفت معه من البداية، فخضعت

له الجزر كلها ، فبعضها بالقوة وبعضها بالاتفاق والشروط ، ومنها جزيرة الضفدعة ، المهم أصبح هذا البربري سيد الجزر الأكبر .. فنزل جيشه الكبير مورا ، فهو سيد الجزائر هذه منذ بضع سنين لا ينازعه فيها أحد فلما سمع زعيط هذه التفاصيل والقصص الأخرى قال بهدوء : ولكني علمت أن ساحر البحر الكبير ما زال الملك نمرال يبحث عنه .. ما حكاية ساحر البحر ؟!

قال ذلك من غير ابداء أي اهتمام موحيا لجاره شوان أن الأمر لا يهمه كثيرا إنما يسمع لمجرد تسلية وتمضية الوقت والقضاء على الملل ، فأخذ شوان يقص قصص السحرة في الجزر بحماس وادعاء علم وفهم ، ثم الحديث عن الساحر ساحر البحر والديك الساحر ، وقد اختفيا أثناء الحرب المدمرة في الجزيرة الكبرى وجبل السحرة ، ولا أحد يعلم هل هم أحياء يرزقون أم أموات يبعثون ؟! وحول هذه الاشخاص كان الحديث يدور بينهم في أغلب الأحيان ، وفهم زعيط في نهاية المطاف أن معرفة أخبار ساحر البحر وسر اختفائه لا تعرف إلا بالاتصال بالسحرة والكهان في الجزر ، فكل جزيرة لها ساحر وله اتباع ، فقد تعاون سحرة مورا ولولا مع نمرال عند استيلائه على المدن ، وعلم زعيط أن الملك جنفل ملك الجزيرة الكبرى قديما ما زال يقبع في سجن نمرال ، ولم يعف عنه نمرال ولم يعدمه الحياة بعد .

فرسم زعيط في نفسه خطة للاتصال بالسحرة وتعلم السحر ، ولما وجد شوان هذه الرغبة في نفس زعيط ، وعده بأن يرسله لأحد السحرة الذين يعرفهم وله علاقة بهم ، فأظهر زعيط الفرح والشكر لشوان ، وبعد حين يسير كان زعيط في قصر أحد السحرة الذي رحب به ، وبعد حديث وتعارف قال الساحر : يسرني أن أرى شابا صغيرا مثلك له تعلق بهذه الوظيفة القاسية التي تحتاج لإرادة صلبة ومجاهدات وصوم .. وأخذ يشرح له تفاصيل الانضمام للسحرة في الجزر وعمل السحرة في الجزر ، وما يحتاجه التلميذ حتى يصبح ساحرا جديدا ، ومن ثم يترقى في درجات السحرة والكهنة ، وبعد حديث طويل أظهر الشاب زعيط تعطشه وشوقه للدخول في سلك السحرة ، واطلع زعيط صديقه حسنا على رغبته الجديدة واتصاله بأحد السحرة ونيته في

دخول هذا الميدان ، ولحق زعيط بعد أيام بمعبد السحرة ، وبدأ يتلقى التعليمات والتمارين ، وأظهر نباهة وشوقا للمهنة الجديدة ، واجتاز المجاهدات المفروضة على المريدين والتلاميذ ، وأنهى برنامج الصوم المطلوب ، وقد تعرف خلال هذه الفترة على كبار السحرة في المعبد الكبير معبد السحرة في جزيرة الضفدعة ، وفي خلال سنتين قضاها في المعبد أصبح من التلاميذ الخمسة تلاميذ ساحر المعبد الأكبر ، وتفوق على زملائه فأصبح خادم ساحر المعبد الأول ، فكان يرافقه في زيارته لقصر الملك والأمراء ، وخلال هذه المدة التي قضاها بين أيدي السحرة في معبد سحرة جزيرة الضفدعة لم يصل لشيء عن والده سحنون أو حتى ساحر البحر المفقود ، وبعد زمن أرسله ساحر المعبد مع بعض التلاميذ لزيارة معبد السحرة في جزيرة المورا ومقابلة ساحر الجزائر الكبير ، فرح زعيط لهذه الزيارة لعلها تقرب أمره وغايته ، وبعدما تمت مقابلة ساحر الجزيرة الكبير وكبار السحرة فيها ، وقع الاختيار عليه هو ومريد آخر للبقاء مع سحرة الجزيرة ليتعلموا المزيد من السحر والكهانة حتى يلتحقوا بخدمة ساحر المعبد الكبير الساحر " شردوق " ، وبعد سنة ألحقهم شردوق الساحر بجزيرة السحرة فترة من الزمن ، ثم عادوا وقد ازدادوا علما ومعرفة بالسحر والكهانة ، فلما رجع وقد اجتاز التمارين والمجاهدات الطويلة ألحقهم شردوق بخدمته ضمن الأربعين ساحر ومع الأيام أصبح زعيط عريف عشرة ، وظل يتقدم ويترقى في سلم السحرة حتى أصبح رئيس الأربعين ، ثم جعل نائبا للزعيم شردوق ، وقد اطلع على الكثير من أسرار العمل وعن الخدمة مع الملوك والحكام ، ورغم هذه الدرجات التي ترقى إليها لم يعرف عن أبيه سحنون شيئا ، ولا عن ساحر البحر السابق ، ولا عن الديك الساحر ، أصبح زعيط ذا شأن في الجزر ، فهو نائب الساحر الكبير وهو قريب من الثلاثين عاما فلو هلك شردوق ، فأمامه فرصه أن يبايع كبيرا للسحرة في الجزر إذا وافق كبار السحرة في الجزر الثمانية ، وذات يوم دعي ليرى زوجة الملك نمرال ، فهي مريضة وعلى فراش الموت ، فانطلق إليها مع مجموعة من السحرة ، وقرأوا عليها أورادهم السحرية، وبشروها بالنعيم الأبدي لقاء وجزاء صبرها على مر الحياة والمرض ، ثم دخلوا على الملك وبشروه بموت زوجته

القريب ، وعليه أن يهيئ نفسه للحداد ولدفنها حسب الأصول المتبعة ، وبعد أيام طلبوه للملكة المريضة ثانية ، وطلبت أن يدخل وحيدا ليقرأ عليها أوراد السحرة ، فتعجب زعيط لهذا المطلب الغريب ، وبعد تشاور مع السحرة والتلاميذ أذنوا له بالدخول وحده ليقرأ أورادهم السحرية على المحتضرة ، فلما رأته رحبت به ، وبعد كلام عن الموت والمرض والعذاب والحساب عرضت عليه الملكة أن يتخلى عن ثياب السحر والسحرة ، وأن يصبح نائبا للملك نمرال مقابل الزواج من ابنتها ، فتعجب زعيط لهذا المطلب أكثر من تعجبه عندما طلبته وحده واصابته الحيرة فذكرت له أن ابنة لها رأته أكثر من مرة أثناء دخوله للقصر ، وأنها عجبت من حسنه وجماله ومن عمله مع السحرة ورغبت به بعلا ، وقد حدثت الفتاة أمها بهذا الإعجاب والميل ، فاعتذر زعيط وخشي أن يكون في الأمر دسيسة وكيد ، فبين لها أن رجل المعبد لا يتزوج النساء وإلا حل عليه غضب جميع السحرة في الأرض البر والبحر وطاردته اللعنة والعذاب هو وزوجته ونسلهما إن لم يقتلوه ، فطمأنته من ناحية الملك ، وسيحميه من شر السحرة ولعنتهم ، ولن يصيبه سوء ، فهو سيكون صهر الملك الجبار نمرال ، فبين لها أن الملك قد يحميه أثناء حياته ؛ ولكن بعد مماته كيف يحميه من غضب السحرة ونقمتهم ؟ فأكد لها أن لا خلود للملك فينتقموا منه بعد موته وذكر لها الأخطار التي ستصب عليه وعلى ابنتها ، مما دب في قلبها الرعب والقلق على ابنتها ، فاقتنعت بالخطر الذي سيحيق بها والخوف عليها من أذى السحرة ، وقرأ عليها زعيط الأوراد ووعدها بكتم الأمر ، وعاد إلى المعبد مع السحرة وهو مهموم يفكر بهذا الخطر الداهم ، ويشاور نفسه ، هل يحدث مولاه الكبير الساحر شردوق بما سمع أم يكتم الأمر كما وعد ؟

ففي الصباح التالي أعلن زعيط أمام السحرة في المعبد عن الصوم عشرة أيام، فحبس نفسه في حجرة من حجر المعبد ، وإذا نوى ساحر الصوم فهو لا يخرج من كهفه البته حتى تنقضي المدة التي نذرها ، فلما أرسلت الملكة المريضة وراءه اعتذروا لها بصومه عشرة ايام ، فدهشت الملكة فطلبت من الملك أن يتدخل ، فهي لا تحب أن يقرأ أورادهم عليها أحد سواه ، فاعتذر لها الملك بدوره وأرسل إليها مجموعة من كبار السحرة ، فرضيت على مضض بالأمر الواقع ، علم زعيط

بالأمر ، فطلب الخلوة مع كبير السحرة شردوق ، وكشف له السر الذي دفعه للصوم ، فعجب للأمر ؛ ولكنه لما علم بإلحاح الملكة على حضوره أكثر من مرة ، وتدخل الملك بنفسه وألزم زوجه بقبول غيره من السحرة ، وأن "زعيط " دخل الصوم، تأكد من صدقه وحسن كلامه ، فقال له فيما بعد : أخاف عليك الفتنة أيها الساحر ، فسأرسلك لجزيرة السحرة عدة شهور حتى تذهب روح الملكة ، وهي عندما تعلم برحيلك لن تكاشف الملك بهوى ابنتها فاستعد للرحيل سرا .

قنع زعيط بهذا الحل ، وهاجر من المورا إلى جزيرة السحرة ، وهناك رحبوا به ترحيبا كبيرا ، فهو نائب أكبر ساحر في الجزائر ، وأتم صومه هناك بعدما مدده أربعين يوما لانقطاعه بالرحيل وذات ليلة طلب أحد التلاميذ الخلوة معه، فأذن له، ولما انفردا قال التلميذ : هنا رجل قادم من بلاد بعيدة يرغب المسارة بحديث ، وهو خائف ، فطلب مني أن اذكره لك ، والأمر كما يخبر خطير ، ولا يريد أن يعرف به أحد أو يراه أحد وهو يتكلم معك بسره .

فلما أبدى زعيط استغرابه لهذا الكلام قال : كيف نتقابل إذن ؟!

فقال التلميذ : فكرنا في الأمر .. فاقترح أن تسيح يوما في الجبل وفي طرف الجزيرة .. فهو كما يقول سر خطير .. فهو سر رجل يحتضر وينتظر الموت .

فكر زعيط بهذا الأمر الغريب ثم قال للتلميذ : حسنا ، غدا أعطيك الجواب .

أدرك زعيط بعد ذهاب التلميذ أن هنا في جزيرة السحرة أناسا خطرين ويتآمرون ، وأن لساحر البحر الهالك قديما رجالا هنا ، وأحس أن لساحر البحر القديم أعوانا ويدا في طلب هذه المقابلة فصمم زعيط على المغامرة ، وطلب السياحة في جبال الجزيرة لمدة يوم وليلة ، وهذا أيضا من طقوس وعبادات السحرة في هذه الجزائر .

قاده التلميذ إلى مغارة في جوف الجبل ، وبعد حين كان زعيط يجلس بين يدي شيخ هرم فان يتهادى بين رجال ، والتقت العيون ، وأشار الشيخ الهرم للرجال بالانصراف ثم قال بدون مقدمات : أنا ساحر البحر يا ساحر الملك نمرال .

تبسم زعيط وكأنه لم يفاجأ وقال : لقد عرفتك ! رغم أنني لم أرك .. ولقد تمنيت هذا اللقاء أيها الساحر الكبير !

دهش الساحر القديم وتمتم : أنت تمنيت هذا اللقاء ؟! وهل كنت تعلم أنك قادم للقائي ؟ وهل كنت تعلم بحياتي ؟

قال زعيط : شعرت بذلك .. ومن معاشرتي للسحرة في جزيرة الضفدعة والمورا عاصمة الملك ومكثي هنا سابقا أثناء التدرب تأكدت أنك لم تمت ؛ ولكنهم يخافون من الحديث عنك .. فوقع في نفسي حب هذا اللقاء .. لذلك لما حدثني تلميذك عن السر والمسارة لم أخش على حياتي .. لأن أي ساحر طامع في مكاني يدس لي هذه الدسيسة ، ومع ذلك وافقت على السياحة يوما حسب اقتراحك لتلميذك .. والآن ماذا تريد أيها الشيخ الفاني ؟!

قال الساحر: قبل أن أذكر لك لماذا أحببت رؤيتك ؟! أريد أن أعرف لماذا تمنيت لقائي ؟!

فقال زعيط : ألا تريد أن تفصح عن طلبك قبل أن تعرف لماذا تمنيت لقاءك ؟!

أجابه ساحر البحر القديم : تكلم يا ولدي فأنت صغير .. هل بلغت الأربعين ؟!

ضحك زعيط وقال : بعد الثلاثين بسنة أنا دخلت سلك السحرة صغيرا أيها الشيخ الهرم .. وأنا أعرف قوتك وعلاقتك مع الديك الساحر ذاك الشيطان .. واعلم أن اتباعك قتلوا بعدما أسروا في كهفك في جبل السحرة ، والذي تمنيته أن أعرف كيف لم تقع بالأسر ؟! رغم أن الخائن والخونة كانوا من رجالك ، وهم الذين فتحوا صخرة الكهف للغزاة الأقوياء ، فدخل جنود نمرال الكهف ، فأين اختبأت ؟! وأريد أن أعرف ما جرى للديك الساحر لشيطانك ، ولتلميذك الخطير سحنون ؟ .. هذه التي أريد جوابها وتمنيت اللقاء من أجلها ..!!

بكى الشيخ الساحر بكاء مرا ثم قال : ذكرتني بتلك الأيام الخوالي ، أما سحنون الشجاع فوقع في أيدي الغزاة قبل أن يخرج بساعات لتفيذ مهمة عظيمة ، وعلمت أنهم قذفوا بهم لمياه البحر وأما الديك فمات متأثرا بالسم الذي أسقاه إياه ابن الملك دريد أحد ملوك البر ، وأما أنا فلي حجرة خاصة ، وفي داخلها مدخل لحجرة أخرى ، لا يدخلها أحد غيري ، اجتمع فيها بالديك

الجني الذي يأتيني بأخبار الجزيرة الكبرى ليلا بدون أن يحس به أحد ، ويدخل من سرداب فلما هجم الجند على كهف جبل السحرة كنا معا ، فدخلنا السرداب واختفينا بداخله حتى انصرفوا فعدنا إلى الكهف واختفينا عن الأنظار حتى تحين ساعة الانتقام ، وقد رتبنا أمورنا ولم يبق إلا القليل .. فنحن بحاجة ومساعدة أمثالك الشباب الطامحين في منصب كبير السحرة .. فقد كشفت لك ما تريد ؛ لتعلم أني أضع ثقتي فيك ، فكن معي وسأمنحك تاجي ، ولا يغرك ضعفي الآن وقوة شردوق ، فشردوق هذا كان من تلاميذي في يوم من الأيام ، وقد طردته وحقرته ، فهو قد انتقم مني وأفسد عليّ رجالي ؛ ولكني سأسحقه فكن معي وسوف تسر، فأنا لم يبق لي في الحياة إلا أيام .. فسأجعلك وريثي الأوحد إن تعاونت معنا للانتقام من هؤلاء البغاة فعندي رجال ينتظرون اللحظة المناسبة ليثوروا في الجزر الثمانية وفي جزيرة السحرة أيضا .. واعلم أن المجرم نمرال سيموت وستقتل جنوده وفرسانه ، ولن أكشف لك سرا إذا قلت لك بأنني أعددت رجالا ليقتلوه ، وهم يتحينون الفرصة والساعة المناسبة لسفك دمه .. فإذا تعاونت معنا ستجد منا الجزاء الحسن ، وأنت تعلم أن نمرال هذا غاصب وقادم من خارج الجزر ، وشعوب الجزيرة خاضعون له من خوفهم ، وسوف تضعف قوته ويزول ويهرب جنوده فنحن في حاجة لبعض السادة والسحرة الكبار في صفوفنا حتى نستطيع إتمام هذا المشروع العظيم .. ثم سيتبعها عملية تطهير كبرى في معابد السحرة فماذا تقول أيها الساحر الطفل الذكي

بعد صمت طويل قال زعيط : سمعت لأفكارك الخطيرة وأقوالك العجيبة ، وأعلم أن روح الانتقام تغلي في نفسك أيها الساحر ! وأنك تريد إعادة ملك قد زال ، وقد تنجح وقد لا تنجح فالخونة كثر بيننا أقولها بصراحة .. وأنت تعلم أن من أكبر أسباب سقوطك وتدمير الكهف كهف الجبل ضعف رجالك وتلاميذك المقربين ، وأما أنا فتلميذ ترقى في درجات العلم والسحرة حتى وصلت لأن أكون نائبا لكبير سحرة الجزائر ، فقد يجعلني شردوق الساحر وريثا له .. وأنت تعرض عليّ أن أتعاون معك وأكون خليفتك ، وهذا الأمر غير مضمون كما أرى أيها الساحر الكبير ؛ ولكن بما أنك كاشفتني بالأمر الخطير وأسرارك فسألزم الحياد ؛ وكأنني لم

أسمع شيئا .. فوضعي خطير ..

ابتسم الساحر الهرم بحزن رهيب وقال : تلزم الحياد ؟! وكيف أصدق ذلك ؟!

وصفق بيديه فحضر بضعة رجال وأحاطوا بهم ، وسمع الساحر العجوز يقول : تحدثت أمامه كلاما خطيرا .. فلا أحب أن يعود لصومه .. فليمت ، فهو في سياحة ولن يدري أحد بموته .

فقال زعيط بثقة وقوة وضحك فيه نبرة سخرية : تمهل أيها الساحر ! .. فلو قتلتني فلن تعود لك المكانة الأولى ، ولن تنتصر على شردوق ، فهو يعلم أنك تعيش في كهفك السري مختبئا هاربا .. وأنك تتردد على الجزيرة ، وذكرت لك أن بين رجالك خونا . . وعيونا ! .. فشردوق يريد لك أن تموت حزينا مهموما متحسرا .. وأنا لست غبيا حتى أقدم لهذا المكان من غير آخذ احتياطاتي ، وأصدق تلميذا لا معرفة لي به ولا ثقة لي به .. وأنا قبل هذا اللقاء كشفت سر هذا اللقاء لبعض تلاميذي الذين لن يعرفهم جواسيسك في جزيرة السحرة .. وأنا لما أردت الحياد لأني لا أريد أن أدور في صراع على منصب لا أطمح إليه .. فقد عرض عليّ هذا المنصب من شردوق ومن الملك المرعب نمرال ، وعرض عليّ أيها الساحر خلع ثوب السحرة والكهنة والزواج من ابنة الملك نمرال .. ولابد أن جواسيسك هناك عرضوا عليك كثرة ترددي على الملكة .. واعلم أنني جئت لهذه الجزيرة خوفا من الفتنة ومن العودة لحياة العامة .

فقال الساحر بعد تأمل ونظر : سأتوقف عن قتلك هذه اللحظات ؛ ولكني سوف أحبسك وأخفيك عن الأنظار لنتحقق من صدق ما تقول .

قرية الصيادين

وأمر الساحر رجاله أن يوثقوه ويسوقوه إلى قرية الصيادين ، وعند صيادي البحر يحبسونه حتى تنجلي معركة الثأر ، فقام الرجال بتقييده ، ولما دخل الليل حملوه إلى البحر ، ومن هناك ساروا به إلى قرية الصيادين ، وهي قرية مليئة بأكواخ الصيادين وهي قرية كبيرة .. وهي قرية يسكنها الصيادون فنسبت إليهم ، ومع آخر الليل كان زعيط ينقل لأحد الأكواخ الخاصة برجال صيد الساحر ، فقذف في حجرة تحت الأرض ، وأوصوهم بالمحافظة عليه ، وأنه رجل خطير ، وخطره على الجميع ، وعليهم رعايته حتى تأتيهم أوامر أخرى من الساحر ، ورجعوا للبحر ، ومن رآهم ظنهم من الصيادين حضروا بصيد أو أنهم جماعة خارجون للصيد في البحر وجد زعيط نفسه على أرض رطبة عفنة فابتسم وقال : لابد من قسوة العيش .. ولابد من الصبر وأدرك أن حياته في خطر ، وعليه أن يفكر بطريقة يهرب بها من هذا المكان بدون إمهال ، وقبل أن تبزغ الشمس بخيوطها الذهبية كان زعيط يحل قيوده ، ويتسلل من سجنه هاربا ، وظل يمشى حتى وصل إلى بيت له أشجار كثيرة ، فتسور جداره ، وقفز إلى داخله بخفة الغزال ، فأصبح بين الأشجار ، ولما وصل للبيت هدأت أنفاسه قليلا ، وأخذ يصغي ويتلفت يمينا وشمالا ، فلم يسمع الا أصوات الطيور والبلابل تغرد في ذلك الصباح ، وعجب في نفسه لوجود هذا المنزل الجميل في قرية الصيادين الممتلئة بالأكواخ ، وبعد لحظات شاهد امرأة ورجلا يجلسان في مدخل البيت ، فصنع حركة أشعرت صاحب البيت بوجوده ، فدهش الرجل ودخلت المرأة البيت ، فتقدم إليه زعيط وهو يطلب المغفرة ويعتذر أشد الاعتذار ، وذكر للرجل حاجته للاختفاء من مطارديه ، وقص على الرجل بعضا من قصته ، فعطف عليه الرجل ، وقاده إلى منزل أخفاه فيه وقال له : سوف أعود لك واستمع قصتك بالتفصيل ، فأمرك خطير وقصتك تثير الاستغراب ؛ ولكن ثق بي واطمئن لي ، ولا تحاول الهرب سوف أخفيك وأدافع عنك .

وعاد الرجل حيث كان يجلس هو والمرأة وطمأن زوجته وقال لها : رجل هارب من أناس يطاردونه ، فقد كان مسجونا عندهم ، وحل قيوده وهرب ، ولا تذكري شيئا لأحد من الناس

حتى نتدبر الأمر ونسمع حكايته .



عند الظهيرة حضر رجال وسألوا صاحب البيت عن رجل دخل منزله ، فأنكر الرجل وقال : للأسف أيها الصيادون لم نشاهد ما وصفتم ..ولكن أسمح لكم بالتفتيش في البساتين وبين الأشجار ؛ فلعله دخل عن طريق الأسوار والشجر ، ولكن ما قصة هذا الرجل الهارب ؟!

فرد أحدهم : هو خادم لنا عاقبناه فحبسناه فغافلنا وهرب .. وهذا المنزل يقع في طريقه ، وقد سألنا عنه في كل الأكواخ المبعثرة في الطريق .. فلم يره أحد فقلنا لعله تطفل عليكم .

فهز صاحب البيت كتفيه وعاد للجلوس وقال : على كل حال ابحثوا في البستان وأطرافه قد يكون لجأ إلى هنا .. أما أنا فلم أره .. تفضلوا .. ولا أعتقد أن رجلا هاربا يدخل منزلا كهذا..لأنه يعرف أنكم ستقصدون هذا البيت للسؤال والبحث عنه .

انتشر بعض الرجال في أطراف البساتين وعادوا بعد حين وهم يقولون : لا أحد هنا ، لعله قفز إلى البحر .

فرد آخر : لقد رآه أحد الناس يسير في هذا الدرب المؤدي لهذا المنزل .. فتابعوا البحث في الأكواخ الممتدة من هنا .. فهو رجل خطير ..

فسمع صاحب المنزل هذه الكلمة فقال : رجل خطير ! ولكنكم قلتم إنه خادم لكم .. وهل هذا الخادم بهذه الخطورة ؟!

هزوا رؤوسهم وخرجوا يتابعون بحثهم عن زعيط الذي لا يعرفونه جيدا ، هم رأوا رجالا دخلوا به إلى حجرة معتمة في ظلام معتم وطرحوه فيها ، وأمروهم بالمحافظة عليه والإحسان إليه إلى حين وانصرفوا ، وهم تابعوا نومهم ، ولما استيقظوا في الضحى بعد سهر طويل كما هي عادة أولئك الصيادين تذكروا السجين، فأخذ أحدهم له بعض الطعام ، فوجد القيود ولم يجد

السجين ، فاضطربت أمورهم وأصابتهم الصاعقة ، فأخذوا يبحثون هنا وهناك عن غريب لا يعرفون صفته الصحيحة ، وعندما أتى الليل أخذ صاحب البيت الذي لجأ إليه زعيط الهارب طعاما وماء وذهب بهما إليه ، ولما انتهى زعيط من طعامه وشرابه ، وعادت إليه حيويته سمع الرجل يسأله: والآن تكلم أيها الرجل الغريب؟ وكن مطمئنا لي ولا تخش أحدا .

فقال زعيط ممتنا : بعدما أكلت طعامك ، وشربت ماءك ، وأخفيتني لا حاجة بي إلى دليل لأثق بك .. سأقول لك من أنا .. فاعلم أيها الشجاع أنا الساحر هارون نائب الساحر شردوق ساحر جزائر البحر .. لابد أنك تعرفه أو تسمع به ؟

فقال الرجل : كيف لا ؟! ولي في هذه الجزائر أكثر من ثلاثين سنة وكيف لا أعرف شردوق وهو أهم رجل في هذه الجزيرة ؟! .. ولكن ما الذي قذف بك إلى قرية الصيادين ؟! .. فأنت رجل تعيش عند الملوك والأمراء وكبار السحرة وبين المعابد والقصور !!

فقال هارون : معك حق ؛ ولكن لهذا حكاية سأذكرها لك لعلها تنفعك وتفيدك فاعلم أيها الرجل أنني أنا فعلا نائب شردوق الساحر ، وقد أصبح وريثه يوما ما ، وأني سأذكر لك سرا صغيرا جدا احذر أن يعرفه أحد غيرك ، فأنا رجل من رجال السحرة ، وأنا صغير بالسن بالنسبة لكبار السحرة ، ومن يصلون لهذه الرتبة والمكان الرفيع يستطيع الدخول على الملوك والأمراء والقصور كما تعلم .. فشاهدتني إحدى الأميرات بل قل بنت الملك نمرال ، فوقعت منها موقعا مقبولا ورغبت بي بعلا ، وأنت تعلم أن رجال السحرة والكهنة لا يتزوجون وإلا عوقبوا بالسجن أو القتل ، وهذا الإعجاب لم أعلم به إلا من فترة وجيزة عندما دعيت لقصر الملكة المحتضرة لأقرأ عليها أوراد المعبد مع مجموعة من الكهنة ، وهو عملنا المعتاد ؛ ولكنها طلبت الخلوة وكشفت لي رغبة ابنتها ، فرفضت وبينت لها الخطر المحدق بنا بسبب هذا العمل فطمأنتني بقوة نمرال وجبروته ، فقلت لها إنهم يهلكوننا بعد موته ، وذكرت لها من العلل والأسباب حتى صرفت نظرا عني ، وحاول الملك معي مرة أخرى ، فبين له الكاهن الكبير شردوق شر هذا الأمر المحدث في تقاليد السحرة والمعابد ، فنذرت الصوم والخلوة حتى لا

تتصل بي الملكة وتحاول إغرائي ، وطلب مني شردوق بالاعتكاف في جزيرة السحرة لإبعادي عن خطر الملكة حتى ترحل روحها للعالم الأبدي الآخر ، وفي جزيرة السحرة التقيت ببعض السحرة الذين يتآمرون على شردوق الأكبر ، وحاولوا استمالتي إليهم ، وجمعوني بساحر رهيب له ذكريات قديمة في الجزيرة ، وهو ساحر حاقد وناقم على الملك نمرال وأعوانه وكبير السحرة شردوق ، ويحاول إعادة أمجاده الميتة .. وبما إنك ابن هذه الجزائر من ثلاثين سنة لابد أنك تعرفه وتسمع عنه ، فهو ساحر البحر الكبير ذو السطوة والجبروت في عهد الملك جنفل أسير الملك نمرال .

جفل الرجل لسماع هذه الأقوال ، ثم اغمض عينه كأنه يتذكر ، ثم قال : ساحر البحر الكبير ساحر جبل السحرة ما زال حيا ! .. هذا شيء عجيب ! .

فعاد زعيط يقول : نعم ، هو حي منذ حادثة جبل السحرة ، فقد نجا بواسطة الدهاليز الخفية في الجبل .. اجتمعت بهذا الكاهن الحاقد وعرض عليّ العمل معه مقابل خلافته وتاجه ..

فأخذ الرجل يردد : تاجه .. تاجه ..!!

فقال زعيط : نعم تاجه ! .. فوعدته بالتزام الحياد ، فلم يعجبه الأمر فأراد قتلي ؛ ولكن لكلام هددته به ، أمر رجاله بحبسي في قرية الصيادين عند أعوان له لإخفائي عن الأنظار حتى يروا ردة فعل اختفائي في هذه الجزائر ، وعلى أثرها يفكرون بنهايتي .. فهذه قصتي وسبب وصولي إلى هنا أيها الرجل الشجاع ! .. فاعلم أنك الآن في خطر عظيم لمعرفتك هذه الأسرار ! وكذلك لإخفائك لي ، وأنا لن أنسى معروفك ما حييت ، وإذا عدت لمكان عملي في جزيرة المورا سأجزيك خير الجزاء .

بعد أن عرف الرجل صاحب البيت هذه الحقائق المذهلة عاد للبيت مودعا هارون قائلا : بعد ما تسكن الأمور أيها الساحر الكبير سأفعل ما يؤمنك من هؤلاء الوحوش الكواسر .

فقال هارون : أشكرك أيها السيد المجهول على أفعالك الطيبة، واعلم أنني أتمنى أن أرد لك الجميل .. وإني لحظت في تمتماتك وبريق عينيك حكاية فيا حبذا لو سمعتها على نور هذا المصباح

لعلي أساعدك وأخدمك في يوم من الأيام .. مع السلامة أيها الرجل الشجاع .

لاحظ صاحب المنزل توتر الوضع في قرية الصيادين ، وظهور رجال من الجزر ، وتردد تلاميذ السحرة إلى القرية ، فعرف وأدرك أنهم يبحثون عن صاحبه هارون ، وبعد فترة هدأت الأوضاع والحركة ، وخف رجال ساحر البحر القديم ، وقد اقتنعوا بهربه من قرية الصيادين أو اقنعوا أنفسهم بذلك ، ولما اطمأن هذا الرجل على الأمر ، طلب من صاحبه الهارب أن يعمل معه في الصيد ، فهو صاحب عدد كبير من قوارب الصيد ، وأحضر له ملابس صياد ، وغير من شكله وشاربه ، وبعد أيام أعلن هذا الرجل أمام الذين يعملون معه عن رغبته برحلة صيد طويلة ، فجهز مركبا كبيرا له ولزوجته وللذين سيذهبون معه ، وانتشر الخبر في القرية بأن الصياد الكبير عبلوم اشتاق للصيد ونزول البحر ، فهو له زمن لم يركب البحر .. ولما تجهز المركب كان مع عتمة الفجر يركب عبلوم وزوجته وزعيط وعدد من البحارة المركب ، وانطلق القوم إلى الصيد ومن جزيرة إلى جزيرة حتى وصل المركب لجزيرة المورا ، وفي المكان الذي يصطاد فيه أهل الجزيرة رسا المركب ، ونزل عبلوم وزوجته والصياد المتنكر للتفرج على الجزيرة ، وطلب عبلوم من الرجال الصيد حتى يعود من زيارة بعض الأصدقاء ، ومن ثم مشوا إلى المعبد الكبير، ولما دخلوا المعبد طلب هارون مقابلة رئيس المعبد ، ولما عرفه الرئيس قبل قدميه وعانقه وفرح لعودته ، فقص عليه بعض الخبر ، وطلب منه أن لا يخبر أحدا لخطورة الأمر ، وعليه إعلام الساحر الكبير شردوق ، وحضر الأخير على الفور واستمع لحكاية زعيط ، فغضب غضبا شديدا ،واطلع الملك على جلية الأمر ، وما تعرض له الساحر هارون من الخطف ، فقامت قيامة جزيرة المورا وقامت حملة بقيادة أحد القادة إلى الجزيرة الكبرى ، واحتلوا جبل السحرة وقبضوا على الساحر الكبير ومن وجدوه هناك ، وقامت حملة أخرى بالذهاب إلى جزيرة السحرة ، وانتشر خبر الحملات في الجزائر الأخرى انتشار النار في الهشيم ..

ولما وصل ساحر الجزيرة القديم ساحر البحر إلى جزيرة المورا خرج الناس لرؤيته، فكان يوما مشهودا في تلك الجزيرة ، وبعد أيام عقد كبار السحرة جلسة واصدروا حكمهم الصارم على

إعدام ساحر البحر ، فنصبت له مشنقة كبرى في أكبر ميادين الجزيرة ميدان الفرسان ، وتلا عليه هارون الحكم الصارم بموته أمام الناس ، وأتي بالملك الأسير الهزيل جنفل وبعض قادته وشاهدوا مقتل ساحر البحر الذي كان اسمه يهز قلوب ملوك الجزائر كلها في السنوات الخوالي وعلموا أن ديكه الساحر قد مات منذ سنوات من السم الذي وضع له من أحد أبناء البر ، ولما قتل انصرف الناس عنه ، وبقيت جثته معلقة لبضعة أيام كما أمر الملك نمرال والساحر شردوق فاقترب من جثته الرجل الذي ساعد هارون بالاختفاء بعد انصراف الناس عنه وهمس : وداعا أيها الشيخ الماكر !! ..كم قبلت قدميك ولثمت يديك ؟!..كنت أحد تلاميذك.. كنت تعدني بتاجك.. ولا أدري كم شخص وعدته به ؟! .. كنت الزعيم المطلق لهذه الجزائر .. ولك أكثر من خمس عشرة سنة تعيش خائفا قلقا طريدا .. وقد سقط ديكك وصاحبك سحنون .. وها أنت رأيت جنـفل الملك الميت .. إن عاقبة الظلم سوداء .. وداعا يا سيدي !! .. والآن يا نمير ألا تريد أن تعود لبلادك ؟ .. أما زلت تذكر بلادك يا نمير تركتها من أجل التاج الكبير .. وجئت إلى هذه الجزائر فغرقت في بحرها وهمومها .. أين أنت يا سبع الغاب ؟ أين أنت يا جرادي ؟ هل ما زلتما أحياء ؟ أليس لي ولد من الأميرة ظبا ؟ هل يا ترى هو حي يرزق ؟!

ولم يستيقظ نمير من غفلته إلا عندما ربت أحدهم على كتفه فجفل ؛ فإذا هو يرى هارون يقول : أين أنت ؟ وأنا أبحث عنك ، وأنت تقف هنا عند هذا المجرم .. هل تعرفه يا عبلوم ؟!

ضحك عبلوم ضحكة قصيرة ثم قال : لقد كنت خادما له في يوم من الأيام أيها الساحر .. لقد انتقمت لي ولنفسك منه .

فقال هارون وهو يفكر بعبارة عبلوم : انتقمت لك ! .. ألا تذكر أنني قلت لك يوما أن لك حكاية يا عبلوم ؟ رأيت ذلك في عينيك ونحن في قرية الصيادين ألا تحب أن اسمعها ؟

فقال عبلوم : أخشى إذا سمعتها أن تلحقني بصاحبي القديم ، ورفع رأسه إلى جثة الساحر المعلقة .

قال هارون : آ .. ألهذا الحد أيها الرجل الشجاع ؟ أنت تشوقني لسماع حكايتك وعلاقتك بهذا

الساحر ، وكيف انتقمت لك مع أنك تعيش بعيدا عنه في قرية السمك والصيادين ؟!

فعاد الوجوم والحزن لعبلوم وقال : لهذا أيها الساحر قصة طويلة ، ولا أدري إن كان الوقت مناسبا لسردها ، وأخاف على نفسي منك ومن أسيادك .

فقال هارون : يا رجل لك عليّ معروف كبير .. أنت انقذت حياتي وعذابي من هؤلاء الطغاة الذين لم أسيء لهم قيد أنملة ، ورغم ذلك حكموا عليّ بالموت والذل .

قال عبلوم بحزنه وغموضه : أيها الساحر ! حكايتي لا تهمك كثيرا ، فأريد أن أعود لقريتي ، وفعلت ما استطعت أن أقدمه لشخصك الكبير ، فوداعا .

وأراد أن يمشي ، فقبض عليه هارون من ذراعه وقال : ألا تريد أن نكافئك ؟ فالملك منحك مالا كثيرا ويرغب برؤيتك وشكرك ..؟

فقال عبلوم وهو يرفع يد هارون عن ذراعه : لا أريد شيئا .. ولا أرغب برؤية الملك أيها الساحر فاعفني من ذلك .

فقال هارون : أمرك عجيب !!.. أحد يرغب الملك برؤيته وهو يزهد في هذا .. إن هذا شيء عجيب !.. الساحر الكبير شردوق يرغب بمنحك بركاته والثناء على شجاعتك .

فرفض عبلوم وقال : يا سيدي ! لا أريد ذلك دعني أعود لقريتي .. وأعيش بالهدوء الذي كنت أعيش فيه قبل أن نلتقي .

فقال هارون باستغراب : أمرك عجيب وغريب !! .. هل من شيء يمنعك عن مقابلة هؤلاء السادة والكبار ؟

فرد عبلوم : لا شيء ؛ ولكني عاهدت نفسي أن ابتعد عن السحرة والملوك .

فقال هارون : يا رجل شوقتني لمعرفة حكايتك .

فقال عبلوم : إن كنت فعلا ترغب بسماع حكايتي وقصتي ، فدعني أرحل وزرني في بيتي في قرية الصيادين وسأفتح لك قلبي يومذاك .

فتنهد هارون بعمق وقال : سأفعل إن كان هذا يرضيك .. وسألحق بك بعد أيام ، وسأرتب

أمر رحيلك أيها الرجل الشجاع .

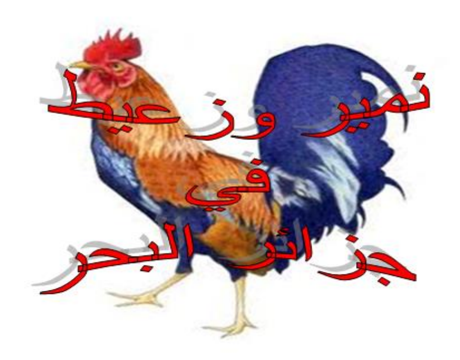
وجهز له مركبا خاصا ووضع فيه صناديق المال والهدايا والثياب ، وودعه بكوكبة من السحرة وأرسل معه حرسا أوصلته لجزيرة السمك والصيادين .

انتهت عاصفة مقتل ساحر البحر في الجزائر الثمانية ، وعادت الأيام هادئة رتيبة بالنسبة لزعيط أو الساحر هارون ، فانشغل من جديد يفكر بأبيه سحنون ، فالسحرة يؤكدون موته ليلة الهجوم على جبل السحرة قديما ، وساحر البحر الهالك يرى ذلك فقال لنفسه متسائلا : هل مات والدي نمير حقا ؟ .. الساحر اللعين لا يدري بالضبط ؛ ولكنه منذ افترقا لم يجتمعا .. عندما خرجت غاضبا من بلادي ظننت الأمر سهلا ، ولي سنوات ولم أصل لشيء يقيني ، لم أتيقن من موته ، ولم أتيقن من حياته ..ولكنهم ذكروا أنه قذف في اليم ، هل غرق وأكلته الحيتان ؟ .. جثته لم تظهر لأحد ، وقد تكون ظهرت عند قوم لا يعرفونه .. الملكة المريضة التي ظننا أنها ستموت عادت تطلبني من جديد ألا تريد أن تموت ؟! ألم تيأس مني بعد كل هذه الأحداث الجسام ؟ هل أهرب وأعود لبلادي دون أبي ؟ .. صديقي حسن سأزوره .. ثم أزور صديقي الصياد عبلوم .. سأهجر هذه الجزيرة حتى تهلك روح الملكة .



بعد أيام سافر زعيط لجزيرة الضفدعة ، وزار صديقه حسنا الحداد ، فوجده أشهر حداد في الجزيرة وصاحب حانوت كبير في الحدادة ، وعنده العمال والخدم ، وله زوجة وأولاد ، فمكث عنده أياما ، والصداقة لم تنقطع بين زعيط وحسن ، فكان كلما أتى جزيرة الضفدعة ينزل عند صاحبه حسن ضيفا، وبعدما قضيت الزيارة ودعه وسافر للجزيرة الكبرى لينتقل منها إلى جزيرة الصيادين أو قرية الصيادين ، فقد كان في داخله شعور مهم ويدفعه إلى هذا اللقاء ، وهو لقاء عبلوم شيخ الصيادين ، ووصل لقرية الصيادين بعد تنقل في المراكب وبعد جهد .. وسار

إلى بيت الصياد عبلوم فوجده مغلقا ، فاستغرب هذا ، فسأل عنه الجيران فقيل له إنه قد سافر منذ أسبوعين ولا ندري أين سافر وذهب؟ فتألم هارون لفشله في لقاء عبلوم ، وسار للبحر حيث يتجمع الصيادين فالتقى بجمع منهم فسألهم عن عبلوم شيخهم فذكروا له أنه سافر إلى جزيرة الضفدعة ولسوف يعود .. فترك له رسالة صغيرة عندهم ، ورحل لجزيرة السحرة ، وطلب كهفا واعتزل فيه .



الفارس نمير

نعود لنمير بعد مقتل ساحر البحر صديقه القديم ، فمكث أشهرا ينتظر زيارة الساحر هارون فلم يأت ، ثم فكر بالعودة لبلاد المال والغال بعد الثلاثين سنة التي مضت وهو في جزائر البحر وغلبه الحنين والشوق إلى دياره وقومه ، فودع الصيادين ، ولم يخبرهم بقراره النهائي لأنه هو نفسه متردد في الأمر ، فأخبرهم برغبته بالذهاب لجزيرة الضفدعة ، وهناك قرر أن يتخذ القرار الأخير الحاسم ، فأخذ زوجته ورحل من جزيرة إلى جزيرة حتى نزل في جزيرة الضفدعة ، فبحث عن منزل يسكنه ، فدلوه على حسن الحداد ، فقد أصبح من الملاك في الجزيرة بعدما استقر في الجزيرة ، فاجره حسن حجرة ، وللقدرة التي يريدها الله جرت الأحداث التالية ، ذات يوم ونمير جالس في بيته طرق بابه شوان الرجل الهرم الذي هو على حافة القبر ، ولكنه مازال يتحرك من مكان لأخر ، فرحب به نمير ، فقال شوان بعدما استقر على الوسادة التي قدمت قال : من أي الجزائر الرجل ؟

قال نمير للعجوز : من قرية الصيادين قرب الجزيرة الكبرى .

فقال شوان : آ..آ .. جزيرة بعيدة ، ولكني أعرفها ، أنا دخلت كل الجزر في أيام الشباب والقوة أنت صياد إذن ؟

فرد نمير : بالتأكيد أنا صياد ؛ ولكني صياد ماهر .

فعاد شوان يقول : هل تعلم أن هذه الحجرة الجميلة التي تنزل فيها كانت لي ؟ .. سبحان الله ! دنيا فعلا عجيبة .. حسن هذا الذي أجرك هذا المكان ، كان يسكن فيها هو وصاحب له اسمه زعيط ..

جفل نمير لهذا الاسم ، فقد تذكر بلاده وظبا والمولود ووصيته لها بتسمية ولده" زعيط " ، فسرح في الماضي البعيد .. الملك دريد وسبع الغاب وجرادي ؛ ولكنه همس فقال : بلاد بعيدة كيف سيأتي إلى هنا ؟! وما يهمه من أمر أبيه .. ؟! فهو لم ير أباه لينشغل به .

فعاد يستمع للشيخ شوان الذي صمت لشرود عبلوم وعجب لتمتمته وسمعه يقول: مالك

شردت الذهن أيها الصاحب ؟! .. صدق أن حسنا وزعيطا سكنا في هذه الحجرة .. فعمل حسن حدادا وبرع في عمله وكبر ، ثم استقل بالعمل وتزوج امرأة من هنا ، واشترى بيتا مجاورا لبيتي ثم اشترى مني هذه الحجرة فيما بعد .. فهو ينزل فيها ضيوفه أو يؤجرها للمسافرين ، وأما زعيط وهو الأمر الأغرب أيها الصاحب ..

فقال نمير وكله شوق لسماع أخبار زعيط الذي انقبض صدره لذكره ، وتفاعلت العواطف في كيانه من أجله : الأمر الأغرب ! .. كيف .. تكلم أيها العجوز الفاني ؟!!

فقال العجوز شوان : زعيط هذا عندما أتى الجزيرة أتى لا عمل له ولا حرفة ، اشتغل مع حسن بضعة أيام ، فحدثته يوما عن السحر والسحرة ، فتعلق بهما فدفعته إلى أحد أصدقائي السحرة فأعجب به وألحقه بمعبده ، فتعلم السحر والكهانة ، وترقى في درجاتها ، ورحل لجزيرة المورا وتعلم وكبر حتى أصبح نائب الساحر الكبير شردوق ، فهو اليوم الساحر الكبير هارون ..

فردد الصياد اسم هارون عدة مرات وهو في دهشة كبيرة ، مما أثار عجب شوان ، ثم صفن لهذه الحكاية الغريبة وقلبها شرقا وغربا ثم قال : زعيط صاحبك وصاحب حسن أصبح هارون نائب شردوق .. كيف أصدقك يا هذا ؟!

فاحتد الرجل شوان وهو يقول : صدقني يا هذا ! وأقسم لك على ذلك .. بل قد زارنا منذ أسابيع .. أنت تقول شوان عجوز خرف .. اسأل حسنا .. لقد قدما من الكمن معا ، وسكنا عندي معا ، ثم أصبح زعيط الساحر هارون ، واعلم أنه رجل طيب، فهو ما زال يرسل لي مالا بين حين وآخر عرفانا منه بادخاله سلك السحرة .



كان نمير حائرا في تصديق ما يسمع ، فقال للرجل بشرود : صدقت ! هذه دنيا غريبة أنت الذي حببت إليه عمل السحرة فأصبح ساحرا كبيرا .

فقال شوان بفخر ونشوة : إيه يا صياد عبلوم ..في سنوات معدودات إنه شاب ذكي فطن .. فهو من سلالة الملوك كما ذكر لي صاحبه حسن .

وما صدق نمير بعودة حسن الحداد في الليل حتى زاره واستمع منه قصة الساحر هارون فأكدها وهو يقول : نعم ، جئنا معا إلى هذه الجزيرة .. فعملت مع الحدادين ، والتحق رفيقي زعيط الصغير بالسحرة كما حدثك الشيخ شوان ..وقد سار في درب السحرة لغاية في نفسه وحاجه في نفسه ، فقد أتى وأقبل لهذه الجزائر باحثا عن والده.. فأبوه ملك ابن ملك كبير كما قال لي ذلك ، وقد قضى سنوات طوال في البحث عنه ولم يجده ، فقد يأس من البحث ، وهو يفكر بالعودة إلى أمه إن لم يكن قد عاد ، لقد قدم إلينا منذ أسابيع ثم غادر إلى إحدى الجزر .

فظهر الاصفرار الشديد على وجه عبلوم ، فقطع حسن الحديث عن صاحبه الساحر وقال : ما بك يا سيدي هل من شيء ؟! .. هل أنت مريض ؟!

فرد عبلوم: رأسي تؤلمني اسقني ماء ، ستعود لي العافية ، ما زال في العمر بقية .

خرج حسن للإتيان بكوب ماء لضيفه ، وكان عبلوم يتمتم بدهشة : زعيط .. هارون .. ولدي يا لها من مفاجأة شديدة ! .. لقد انعطف إليه قلبي عندما دخل عليّ البستان أول مرة ! ابني ! ولكن كيف يخطر هذا في قلبي ؟ ابن لم أره وهو لم يرني .. لماذا أتى يبحث عني ؟ دنيا .. دنيا !! لقد أحببته ونحن في قرية الصيادين .. ليتني كلمته عن قصتي إنه يبحث عن سحنون .

عاد حسن بالماء فشربه عبلوم ، وعادت إليه أنفاسه ثم قال : لم تكمل قصة صاحبك زعيط يا حسن ، فقد ظننت أن العجوز شوان قد خرف .

فعاد حسن يؤكد صدق شوان فقال : تعرفت على زعيط في مدينة الكمن ، وتعمقت بيننا الصداقة ، فكشف لي أمره وسبب مجيئه لهذه الجزر ، وأنه قادم من بلاد المال والغال للبحث عن أبيه الأمير نمير ، وقص على مسامعي قصة طويلة بين فيها الأسباب التي أتت به لهذه الجزائر، فلما عرض عليه شوان العمل في سلك السحرة وجد ذلك قبولا في نفسه ، وفعلا تعلم وتقدم رويدا رويدا ومن درجة إلى أخرى حتى أصبح نائب كبير السحرة في الجزائر كلها ، وما زال صديقا لنا يودنا ويعطف علينا ، وقبل شهر زارني وأخبرني أنه مازال يبحث عن أبيه ، فاخبرني أنه التقى بالرجل الذي كان يخدمه والده ساحر البحر القديم ، وحدثه عن والده واختفائه بعد

أسره من قبل رجال نمرال ، وهذا الساحر قتل منذ شهور ، فهذه غاياته يا سيدي .

وقص نمير عليه قصة التقائه بهارون في قرية الصيادين ، وهذا هو سبب اهتمامه بقصة الساحر هارون ، ثم ختم قصته قائلا : هذا شاب مخلص ووفي لأبيه ! رغم أنه لم ير والده منذ ولادته .

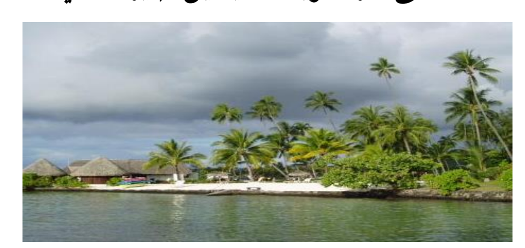
فقال حسن : هذا هو الغريب في أمره ! له تعلق كبير بوالده رغم أنه عاش في بيت جده والد أمه بعد رحيل والده الأمير نمير لجلب ديك الساحر الذي يتحدث عنه الناس بهلع وخوف .. وقرر هذا الشاب البحث عنه ؛ لأنه لما كبر وأراد أن يعتلي ملك أبيه ، رفض أهله وشعبه ذلك حتى يعلم مصير أبيه .. فصمم على اللحاق بأبيه ، وها هو له أكثر من عشر سنوات يتحرى ويبحث ولم يتيقن من حياته ولا من وفاته .. إنني أحزن واشفق عليه كثيرا ..

وامضيا زمنا يتحدثون عن الساحر هارون وأبيه ثم انصرف نمير لبيته ، وهو يفكر ويحلم بلقاء هارون ويقول : هل هو ابني حقا ؟!.. سأنزل جزيرة المورا .. آه يا بني ! .. عشنا سوية وأكلنا سوية ونحن لا نعرف بعضنا بعضا .

ودع نمير حسنا وشوان ، وأخذ زوجته ورحل إلى جزيرة المورا ، فلما أتاها ترك زوجته في الخان وذهب لمعبد السحرة يطلب لقاء الساحر هارون ، فأخبروه أنه سافر إلى جزيرة الصيادين ولم يعد بعد ، فأسف نمير لذلك ، ومكث أياما في المورا ، ثم رحل إلى الجزيرة الكبرى ، ثم استأجر مركبا إلى قرية الصيادين ، ولما وصل المكان رحب به الأهالي وأصحابه والرجال الذين يعملون على مراكبه ، ولما انتهى الترحيب سألهم عن الساحر هارون ، فتذكروه واحضروا له رسالته القصيرة التي يخبره فيها بحضوره إليه ولسوف يعود ، فسأل الصيادين هل عاد فنفوا ذلك .. ولكن لا صبر عند الانتظار ؛ ولكن أين يبحث ؟ ! فسألهم هل حدثكم بشيء ؟! أين ذهب ؟ أين مشى ؟! فنفوا ذلك فشكرهم ، وأخذ يدبر ويفكر بالموضوع وكيف يتصرف ؟ وهل ينتظر أم يتحرك ؟ ومكث شهرا في الانتظار ويصبر نفسه ، ثم سافر للمورا ثانية ، وطلب رئيس المعبد ولما تمكن من مقابلته ذكر له أنه الصياد الذي انقض هارون من رجال ساحر البحر القديم ، وهو يود مقابلة الساحر هارون لأمر ضروري ومهم ، فحاول الرئيس معرفة هذا الأمر

الضروري فقال بإصرار " إنه لا يتكلم إلا لهارون لأنه أمر شخصي " وأمام إلحاحه همس رئيس المعبد بأذنه قائلا : الساحر هارون في جزيرة السحرة في عزلة تامة .. ولا يعلم أحد بذلك إلا أنا وكبير السحرة ، واحذر أن تذكر هذا لأحد من الناس انصرف ، وسلم على الساحر هارون، واذكر له أن الملكة تودع الدنيا ، وسوف يفهم عليك .

فودعه عبلوم وسافر إلى جزيرة السحرة ، ولما وصل إليها طلب الحديث مع رئيس الجزيرة ، فلما التقاه أبدى له رغبته بلقاء الساحر هارون ، وأنه يحمل له رساله شفوية من رئيس معبد جزيرة المورا ، فأخبره رئيس الجزيرة أن الساحر هارون غادر الجزيرة منذ أيام ، ولم يذكر له وجهته ، فأكد عبلوم أهمية اجتماعه بالساحر هارون ، فأقسم له الرئيس أن الساحر هارون خرج من عزلته ، وأنه خرج ولم يذكر لهم جهة انصرافه ، فخاب رجاء وأمل عبلوم باللقاء فقال لنفسه : لعله مشى جهة قرية الصيادين فإليها المسير .



سافر للجزيرة الكبرى جزيرة الذكريات ، ومنها إلى قرية الصيادين ورغم لهفتة الشديدة على لقاء ابنه فلم يجده فيها ، فامتلأت نفسه بالإحباط بعد أن داعبها بعض الأمل ، فعجز عن طريقة يصل بها لزعيط ، وندم بأنه لم يكشف السر لحسن الحداد لعل زعيطا يمر به ، فأراد أن يكشف السر لزوجته ؛ ولكنه خشي أن تفشيه لأحد ، فهي لا تعلم سوى أنه يرغب برؤية الساحر هارون لحاجته إليه ، فظل شهرا يفكر ويقلب الأمر شرقا وغربا وعلى أمل مجيء الساحر كما ذكر ذلك في الرسالة التي وضعها بين أيدي الصيادين ، وفي ذات مساء قال لزوجته إنه صمم أن يتنقل من جزيرة إلى أخرى ، ومن جحر إلى جحر حتى يجد الساحر هارون ، وعرض عليها الانفصال والفراق إلا إذا رغبت بالبقاء معه وتحمل مشاق البحث ، فهو يفكر بعدم العودة لهذه الجزيرة ؛ ولكنها رضيت بالفراق ، فصحتها لا تساعدها بالدوران وكثرة ركوب البحر، فوهبها البيت والمراكب التي يملكها ، وأعلن أمام الصيادين انفصاله عنها ،

وأعلم الرجال الذين يعملون عنده أن زوجته المنفصل عنها هي المسئولة عنهم من الآن فصاعدا فعليهم أن يتعاملوا معها .. فعرض أحد الصيادين نفسه عليها زوجا فقالت له : سوف ننظر في الأمر .. فاعملوا معي كما كنتم تعملون مع سيدي عبلوم .

ثم أردفت تقول أمام الصيادين : واعلم يا سيدي عبلوم .. أنك متى حللت في هذه القرية ؛ فأنت ضيفي العزيز على الرحب والسعة ، ولا تتردد بضيافتي في أي وقت تشاء .



وودعهم عبلوم ورحل إلى جزيرة السحرة مرة أخرى يبحث عن ولده الساحر هارون ، وهناك سأل وتحرى عنه فتبين له أنهم لم يسمعوا عنه خبرا منذ غادر المكان ، فانتقل لجزيرة المورا وقابل رئيس المعبد الذي استغرب لاختفائه ، وأرسل رسولا من طرفه، ولما عاد الرسول أكد أن الساحر هارون قد اختفى منذ شهور ، فاطلع رئيس المعبد ساحر الجزائر الأكبر شردوق الذي فوجئ هو الآخر بالخبر ، وقلق على حياة الساحر هارون ، وطلب من رئيس المعبد البحث والتفتيش خفية دون إثارة للموضوع أمام الأمراء والسحرة .

فتركهم نمير يبحثون وسافر إلى جزيرة الضفدعة ، ولما دخلها مشى لمنزل حسن الحداد ، فعرفه حسن فأحسن استقباله ، فسأله نمير عن الساحر هارون ، فقال حسن : لقد كان هنا منذ شهرين فمكث أياما ثم انصرف .

فصعق نمير للخبر فأغشي عليه ، ولما أفاق عجب حسن لما أصابه ، فكشف نمير له أمره ؛ بأنه والد زعيط ، فبكى حسن تأثرا وأسفا ، وأخذ يضرب كفا بكف ويقول : يا ليتك ذكرت لي ذلك في المرة السابقة يا سيدي الأمير !! .. لقد حضر هنا زعيط يائسا من لقائك وحياتك ، فهو لا يعرف أنك والده ، فهو يعتقد أن والده قتل في ذلك الحادث .

فروى له نمير قصته من الألف إلى الياء ، فقال حسن بعدما انتهى الأمير من قصته وأخذ في

النحيب : يا لها من قصة تكتب بإبر الذهب ورموش العين ! .. والآن يا سيدي الأمير فأنبئك بآخر ما قاله لي في الزيارة الأخيرة إنه يفكر بترك الجزائر والعودة إلى أحضان أمه الحزينة خائبا فاشلا ولا أدري هل نفذ ذلك أم لا ؟! .. وبما أنك تركت السحرة يبحثون عنه ، ولم تجده ، فأقول لعله عاد لبلاده ، فسوف نرحل صباحا إلى الكمن ونسأل عنه يا سيدي .

فقال من بين دموعه الغزيرة التي ما بكت قديما : لا داعي لسفرك سأذهب وحدي

فرد حسن قائلا : سيدي ! سوف أساعدك قدر الإمكان .. فلي أصحاب كثر في الكمن .. وإن التقيت به سأرسله وراءك ، فما عليك إلا أن تسافر لبلادك ، فقلبي يحدثني برحيله إلى هناك ، لقد كان يتحدث عن أمه بشوق الولهان .

سافرا إلى الكمن وقام حسن بالمطلوب ، واستفسر وبحث ، فعرف أن سفنا تحركت منذ أسابيع إلى مدينة الغندور ، فرجح حسن سفره مع إحدى السفن ، فشكره نمير على ضيافته وكرمه وودعه وهو يقول : لابد من العودة الآن سأفتش عنه الدنيا بأكملها وداعا يا حسن ! فإن جاءك أو عرفت بحياته فاذكرني له ، وإنني ذاهب للبحث عنه في بلاد الدنيا كلها ، وسوف يكون مستقري في بلاد المال والغال .

اللــــــقاء

انتظر الأمير نمير قافلة مغادرة لبلاد الغندور ، وبعد طول انتظار تجهزت قافلة فسافر نمير معها ولما وصل للغندور سافر لبلاده متنكرا بصورة جواب آفاق في الأقطار والأمصار ، وسكن في خان ، فعرف أحوال البلاد وأخبارها وما جرى فيها في كل العقود الماضية التي قضاها في جزائر البحر ، ثم سافر للمدينة التي تسكن بها زوجته ظبا ، وقضى أياما يسأل ويتحسس أخبار الأمير زعيط فلا خبر ولا أثر، فاحتار نمير في حاله وحال ولده ، فيتساءل " هل أعود للجزائر ؟! .. جزائر البحر .. آه يا أبتاه ! لقد جنيت علينا .. لا لا ، بل نحن جنينا على أنفسنا! .. الحمد لله .. فسبع الغاب حي ، وجرادي حي ، وأنا حي .. إنهم عادوا إذن ونجوا وها هو كل أمير مستقر بأمارة ومدينة .. آه لقد أمضيت عمري اركض وراء الوهم ! وعدت ومعي الوهم الكبير .. أشرب حسرة التاج .. وحسرة الولد .. هذه هي الدنيا يا نمير بن دريد .. ماذا أعمل هل أعود لمدينة الحمراء ؟! .. إنني لم أنس اسمها بعد..واكشف نفسي..وهل يصدقنني أبناء العمومة ويعطونني ملك مدينتي ؟ هل ينكرونني ؟! لا يستطيعون ، فأخي سبع الغاب يعرفني ، وكذلك جرادي لا لن اكشف نفسي قبل أن يظهر ولدي زعيط .. هل أرحل لجزائر البحر ؟! الزمن ! آه منك يا زمن .. احتاج لسنوات للوصول هناك هل يتقابل زعيط بحسن ونجتمع ؟ أريد الحياة لأرى ولدي وأعانقه وأشم رائحته قبل وداع هذه الدنيا !

ترك زعيط عزلته في جزيرة السحرة ، وتدبر حاله وتذكر أمه وحن إليها حنانا كبيرا شغلت نفسه وأحلامه ، وترجح لديه هلاك أبيه ، فقرر أن يعود للبلاد ، فخرج من جزيرة السحرة وخلع ثوب السحرة المعروف ، وتنقل من جزيرة إلى أخرى حتى التقى بحسن كما ذكرنا ، وحدثه بحنينه وشوقه لأمه ولبلده وفعلا سافر للكمن ، ومنها إلى الغندور ، ولما ترك الغندور وسار باتجاه بلاده دخل مدينة اسمها " حمار الرحى " ، وكان دخوله مع الضحى ، فشاهد الناس جماعات وأفرادا وبكثرة ، فسأل أحد الناس عن الأمر ، فقال الرجل : ابنة الملك قد بلغت سن الرشد ، وسوف تخرج للساحة العامة ساحة المدينة ؛ لينظر إليها الشباب والناس ، ومن

استحسنها ورغب بزواجها ، فليتقدم لوالدها يخطبها منه ، فيختبره الملك بسؤال والملكة بسؤال والابنة بسؤال ثالث ، ومن نجح في الإجابة فيكون لها بعلا دون سواه .. هكذا يزوج الملك بناته ومن نجح في الإجابات يصبح صهر الملك ولو كان رجلا فقيرا معدما .



راقت الفكرة لزعيط وصمم التريث في هذه المدينة ؛ لينظر الأميرة المعروضة للزواج لعله يفوز بنكاحها إذا وقعت من نفسه موقعا طيبا ، فيخطبها من والدها ويعود بها إلى أمه بعد أن فشل بأن يعود بأبيه ، فسار مع الناس إلى الساحة العامة ، وهناك وجد الناس بالآلاف ، وعند الظهيرة ظهرت الأميرة " زهرة " على جواد أبيض وثياب زاهية ، وخلفها ثلاث جواري على خيول حمراء مزركشة بالأجراس والقماش الملون ، وخلفهم كوكبة من الفرسان .. ودارت الأميرة ساعة في الميدان أمام أعين شبان المدينة ، وهم يحيونها ويرمون عليها الأزهار والورود ، ثم توقفت أمام عرش الملك والأمراء ، فنهض رجل جهوري الصوت وصرخ بأعلى صوته : ابنة الملك العظيم الأميرة زهرة قد بلغت سن القران !! وها هي ظهرت أمامكم ، فمن وجد في نفسه قوة لمصاهرة الملك فديوان الملك مفتوح يرحب بكم .. هلموا أيها الناس إلى مصاهرة الملك .

وصفق الناس طويلا ، ثم أخذوا بالانصراف لمنازلهم ونواديهم ، وتبعهم زعيط بن نمير ونزل في فندق في المدينة يلتقط أخبار الخاطبين والطامعين بمصاهرة الملك بنكاح ابنته الأميرة زهرة التي كانت في الساحة كالبدر ليلة تمامه، فعلم أن أكثر من عشرة شبان تقدموا للأميرة وفشلوا في الاختبار ، وحبسوا حتى ينجح أحد الناس بخطبتها فيخرجون من السجن ، صبر نفسه حينا من الزمن في الانتظار حتى علم أن الخطاب قلوا ، فزحف لديوان الملك ، وقدم نفسه بأنه غريب وشاهد الأميرة في ذلك اليوم الغريب ، وهو مستعد للامتحان ، فرحب به الأمراء وأذنوا له برؤية الأميرة العروس والحديث معها ، فأول من يسأل الخاطب عادة الأميرة نفسها ثم الملكة ثم الملك ، فلما دخل على الأميرة تفحصته من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه ، ثم سألته عن اسمه

وحاله ، فبكى صاحبنا ، فتعجبت الأميرة وقالت بدهشة وخوف : ما بك ولماذا تبكي ؟!

فقال من بين دموعه : أنا مثلك أيتها الأميرة أمير ابن أمير ، فهل طرق مسامعك اسم الملك دريد ملك بلاد المال والغال فهو جدي ؟

فقالت : يحدثنا الآباء عنه .. فهل أنت حفيده ؟!

قال : أجل ، يا ابنة الكرام ! وقص عليها بعض قصته ، فبكت الأميرة بكاء حزينا ورق قلبها له فلما طال الحوار دخل عليها الحرس فصرفتهم ، ثم قالت له : ذهبت إلى جزائر البحر تبحث عن أبيك ؟ وصنعت ما صنعت من أجل أن ترى أباك الذي تركك في بطن أمك باحثا عن العلا إنني معجبة بك ووقعت من نفسي موقعا جميلا ..سأدعوك لتقص قصتك على أمي وأبي ؛ فإن وافقا عليك سأقبلك بعلا وأعفيك من الأسئلة لشهامتك وحبك لأبيك ؛ ولأنك اخترتني وأنت الأمير ابن الملك .. ولكن هل أنت واثق من نفسك وتريد الأميرة زهرة حليلة لك ؟!

فقال : إي والله .. سأقص حكايتي على والديك ؛ ولكني سوف أجاوب على أسئلتكم .

ضحكت الحسناء وقالت : سأكشف لك السر .. سر الأسئلة أيها الأمير الشجاع الطيب .. فهل تريد فتاة مثلي زوجا مقداما خيرا منك ؟! فلقد أثرت فيّ حكايتك أشد التأثير أيها الفارس سنوات عظيمة من شبابك أفنيتها في البحث عن أبيك .. هذا شيء عظيم !.

لقد سحر زعيط من كلماتها وذاب بها شوقا وهياما ، ذلك الشاب الذي قضى سنوات عمره وشبابه في معابد السحرة والكهنة فقال بانجذاب : وأنا أعجبت بك أيما إعجاب ! ولكني سوف أجاوب الأسئلة كباقي الخلق ، وإن نجحت سأرضى بك، وإن فشلت فهذه قسمتي أيتها الأميرة .

فقامت الأميرة تتمشى في الحجرة ، ثم التفت للفارس النبيل وقالت : تمهل أيها الفارس ! .. سأقص عليك قصة الأسئلة وأسبابها .. حتى لا تظن بنا سوءًا .. اعلم أيها الرجل أن والدي ملك مسالم ، وله من البنات خمس ومن الذكور واحد فقط ، فلما بلغت أختي الكبرى سن الزواج طلبها كثير من الأمراء ، فاحتار أبي في الاختيار من يقبل ومن يرفض ؛ لأنه يريد إرضاء الجميع

ففكر في القضية ، ووضع هذه الطريقة أو سمها هذه الحيلة وهي الاختبار .. فإذا أعجبت الفتاة منا بأحد الأمراء دون الآخرين ، فتذكر الفتاة موافقتها على فلان لوالديها وهو مناسب لها ، فتكون المخطوبة قد تفاهمت مع من رضيت به ، وأنها اختارته على سائر الناس والفضلاء ، وتسأله سؤالا امام مجلس الحكماء تكون قد أعطته هي جوابه ، فيعتقد الآخرون أنهم فشلوا في الاختبار والامتحان ، وأن فلانا قد فاز عليهم وعرف الإجابة ، والأمير الفائز يعتقد أنه هو حقا الفائز ، ويبقى مقدرا الفضل للأميرة التي فضلته على الآخرين وذكرت له الأجوبة قبل جلسة السؤال ، وبهذه الحيلة اللطيفة يتجنب الملك الصراع والتنافس على الأميرات ، فالفائز مسرور والخاسرون مسرورون أيضا .. واعلم أن هذا السر لم يكشف إلا لك ، ولا يعلمه إلا أبي وأمي والأميرة المخطوبة .. وها أنا قد كشفت لك الأمر قبل الموافقة عليك من أبي وأمي ؛ لأن قلبي يكاد أن يخرج من صدري هوى لك أيها الفارس .. ولي أختان تزوجتا بهذه الطريقة ، ولتعلم أن أزواجهما لا يعلمان بهذه الحيلة ؛ ولكني سحرت بقصتك أيها الأمير !

فأبدى الفارس امتنانه الكبير لحبها الجميل له ، ووعدها بالسعادة والوفاء وسمعها تقول : وغدا عندما أسئلك امام القضاة سيكون معك الجواب ؛ فإذا أجبت بالصواب ، ستقابلك الملكة وتتعرف عليك متظاهرة أنها عرفتك لنجاحك بالاجابة على السؤال الأول - لأنني ساعرفك عليها بعد قليل – وسأهمس لك بجواب اليوم التالي ، وستدخل على الملكة في اليوم التالي وسوف تقابلك وتسألك سؤالا أمام القضاة ، وكذلك يفعل أبي في اليوم الثالث ما دمت قد رضيت بك .. وما يفعل والدي ذلك إلا حماية للمملكة من الفساد والخراب ..

فتكلم زعيط بكلام جميل يعبر فيه عن مكنون قلبه وهواه بها ، وعن اعجابه بحيلة الأب لاختيار أزواج بناته ، فعادت الفتاة تدافع عن هذا الحيلة قائلة : فإذا رضيت الأميرة بشاب ووافق هواها واتفقا واقتنعت بأنه الزوج المنتظر تذكر له البنت منا سؤال الغد وجوابه ، وهو يتظاهر بعدم معرفته أمام القضاة ، ثم يكشفه للأم ثم للأب ، فيظن الزوج أن الأميرة كشفت له الجواب للحب الكبير له في قلبها .. ولكني صادق في الميل لك أيها الأمير .

فعاد الأمير يعلق قائلا : الحق أنها حيلة جميلة ولطيفة ! تريح والديك من المشاكل والقلاقل والآن فما سؤالك يا أميرة الدنيا ؟ .

ضحكت الأميرة ووقفت أمامه وقالت : السؤال هو هل تعرف اسمي ؟ .. اسمي زهرة وهو المعروف بين الناس وأما اسمي الحقيقي " نور القمر " لا تنس ذلك يا سيدي الأمير !.. وبعد غد تسألك أمي عن اسمها .. فاسمها الملكة جويرية ، وإن سألت غير ذلك فاجب حسب معرفتك وثق بأنني سأكون لك بعون الله ..

فقال ضاحكا : أنا سعيد بلقائي بك .

وعاد الحرس يطرقون الباب ، ففتحت لهم الباب وقالت لهم : اين والديّ ؟.

وذهبت به الى والدتها الملكة ، ثم جاء الأب ملبيا النداء ، وسمعوا قصة الأمير زعيط وتأثروا بها غاية التأثير ، وسلموا بزواج الأميرين ، فالملك دريد بن أنهار رغم هلاكه منذ عقود ما زال الناس يتحدثون بسيرته وحروبه ، ثم ودعهم وقفل للنزل وهو سعيد بما حصل معه من رضا الحسناء عنه ، وعجب من حيلة هذا الأب ليتجنب أهل الشر وتنافسهم على نكاح بناته وقال : حيلة لطيفة !.

في اليوم التالي ادخلوه على مجلس القضاة ، وكانت الأميرة زهرة تجلس بينهم ، وبعد الترحيب شرح له أحد القضاة فكرة الاختبار ، ثم سألته الأميرة متظاهرة بالجدية عن اسمها ، فأحسن الجواب ، وخرج القضاة معلنين توفيقه في الجواب ، ثم اتت الملكة لتتعرف على صهرها حسب الترتيب المعتاد ، وتركوه مع الملكة الأم برهة من الزمن ، وهنأته بفوزه بقلب الأميرة زهرة وأوصته عليها خيرا ، فوعدها خيرا، ثم أشاع الحرس أن الشاب أحسن الجواب ، وقبل مغادرته مجلس الملكة ذكرته زهرة بجواب الغد ، فشكرهما وهو مسرور من حبها له ، وعاد في اليوم التالي وادخل على القضاة والملكة ، وبعدما رحب به من قبلهم سألته الملكة عن اسمها المخفي عن الناس ، فبعد تمهل مصطنع أجاب زعيط أمامهم ما همست له به الأميرة زهرة ، فتبسم القضاة لتوفيقه ، وتسأل هو بين نفسه ، هل هؤلاء القضاة يدركون تلك الحيلة اللطيفة ؟! ، واثنت

عليه الملكة ، وأعلمته أن الملك سيقابله بعد خروجه من هذه الحجرة ، ولما انصرف القضاة أخذه أحد الحجاب لغرفة ينتظره فيها الملك ؛ ليجري بينهم التعارف كالمعتاد وكانت زهره هناك ترحب به وهمست له بحل اليوم الثالث والأخير قبل أن يجلس قبالة الملك وفي اليوم التالي وأمام القضاة سأله الملك عن اسم ولي العهد ، فأجاب بما أخبر به يوم أمس وعندئذ طلب الملك منه أمام مجالسيه بعدما عرف عن نفسه أن يحدثهم عن نسبه وقصته في جزائر البحر ، فقص عليهم قصته وقصة أبيه الأمير نمير ، فانفعل القوم لهذه القصة والمغامرة العظيمة ، ورحبوا به صهرا لملكهم وزوجا لابنة الملك ، ثم أعلنت الأفراح في المدينة بموافقة الملك على زواج ابنته زهرة من الأمير زعيط بن نمير حفيد الملك المشهور دريد بن انهار ذلك الملك الجبار الحاكم لعدد كبير من المدن والأمصار في ذلك الزمان ، ولقد تم الزواج السعيد ، وفرح الأمير بزواجه من الأميرة زهرة ، ومكثا سنة في رعاية الملك الوالد ، ثم استأذن الأمير من عمه الملك واصهاره بالعودة لبلاده ، فتجهزت قافلة الأميرة والحرس اللائق ، وكان الأمير قد أرسل رسولا إلى أمه وأخواله بخبره ، ثم مشت القافلة تقطع الأراضي والأودية حتى وصلوا البلد ، فخرج الأمراء وجده العجوز والد ظبا لاستقباله والفرح بعودته حيا بعدما يئسوا من حياته ، فرحبوا به وبعروسه ، وكان لقاء تحدثت عنه المدينة والأجيال ، وفرحت به أمه فرحا شديدا ، وأنزلوه في قصر جميل ، ولما استراح من وعثاء السفر قص قصته على أهله وأخواله ، فعجبوا منها غاية العجب، وفرحوا لعودته سالما من جزائر البحر ونجاته من كيد ساحر البحر ، وأقيمت الأفراح في المدينة الصغيرة فرحا بعودته وزواجه ، وسار خبره في القرى والمدن إلى أن وصل للأمير نمير فتحفز للقاء الكبير والمهم في حياته ، فسار متنكرا لمدينة زوجته ظبا ، ولما هيأ نفسه وروحه للقاء والاجتماع ، ذهب لقصر الأمير زعيط وذكر للبواب حاجته ورغبته في مقابلة الأمير لتهنئته بعروسه ، وقل له عبلوم صياد جزائر البحر في قرية الصيادين على الباب .

دخل الحاجب على الأمير ، وذكر للأمير ما سمعه من الرجل ، فظن الأمير أن الحاجب مخبول أو مجنون ، فطلب منه إعادة الرسالة ، فلما سمعها ثانية قفز مسرعا نحو الباب ؛ كأن به جنة ،

وأن ما تفوه به البواب كذبا وخبلا ؛ ولكنه وجد الصياد عبلوم بشحمه ولحمه يقف بالباب ، فالتزمه وعانقه وبكى وهو يقول : الصياد عبلوم يا إلهي !! كيف أتيت من تلك الجزائر ؟! بل كيف عرفتني وعرفت بيتي ؟!

وعادت الذكريات بالأمير زعيط وعبلوم لأول لقاء كان بينهما في قرية الصيادين ، ودخلا إلى ديوان الضيوف ، وهو يرحب به أشد الترحيب ، وجاءت أمه وزوجته يرحبان بضيف الأمير عندما علما أن ضيفه من جزائر البحر ، وأنه ذاك الصياد الذي انقذ الأمير من مطاردة رجال ساحر البحر ، وأخفاه في بيته حتى اطمئن على حياته ، ثم رافقه لجزيرة المورا ، فقدمتا له الشكر والامتنان على حسن معروفه ، فبكى وانتحب الأمير نميرا بكاء شديدا عندما رأى زوجه ولم تعرفه ، فبكوا لبكائه ؛ وفجاءة أمسك عن البكاء ، والتفت للأميرة ظبا وقال بنبرة حادة أدهشت السامعين : ظبا ! ظبا ! .. ألم تعرفي بعلك أيتها الأميرة ؟!

نظر إليه القوم بدهشة وذهول ،ونظرت إليه ظبا بشدة ووقفت تحدق به ، ثم صاحت مذهولة مصدومة : الأمير نمير ! .. الأمير نمير بن دريد !!

فأغشي عليها وصاح زعيط : أبي .. أنت أبي ! عبلوم أبي !!

وصاح الأمير بانفعال شديد : نعم ، أنا أبوك يا زعيط أنا سحنون الذي مشيت تبحث عنه !

وسقط مغشيا عليه ، ووقع الصراخ في البيت ، ففزع الخدم وحضر الأمراء على الفور ،

والحقيقة كما يقول الرواة كانت ساعة رهيبة عجز القلم والرواة عن وصفها ، دموع تملأ الآماق وتنساب على الوجنات ، وتنهدات تخرج من أعماق الأفئدة ، شهقات وزفرات عنيفة تخرج من الرئات ، وهناك قبلات ومعانقات حارات ، واستمر النشيج والشهيق والزفير ساعات حتى عادت الأرواح والنفوس لهدوئها وسكونها مما ألم بها من انفعالات وعواطف جياشة ، وكم كان اللقاء ممتعا رائعا بعد فراق طويل .. طويل ! سنوات وسنوات ! وسمع الحاضرون قصة الأمير نمير مفصلة محفوظة في الصدور ، وكيف قبضوا عليه كالعصفور في كهف ساحر الجبل ؟ وهو يستعد للانطلاق لاغتيال ملك البرابرة نمرال ؛ ليصبح خليفة لساحر البحر ، وسيق إلى السفينة

مكبلا بالقيد والحبل ؛ ومن ثم قرر قائد الحملة بالتخلص منهم وقذفهم في وسط البحر طعاما وقوتا للأسماك ، وذكر لهم شفقة القائد من موتهم مكبلين موثقين ، لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أمام حيوان البحر ، فأمر بقذفهم محررين من القيود حتى يحاربوا الأسماك والحيتان في قاع البحر ، وكان نمير من أوائل من قذف بالماء ، فلما أحس بالماء قال : أحببت الحياة ، فرفست الماء بقدمي ، فإذا أنا على سطح الماء بالقرب من مؤخرة السفينة الكبيرة التي تمشي على مهل في عرض البحر ، وهم يقذفون الأسرى رويدا رويدا .. فتعلقت بها وجسمي في الماء ورأسي على سطح الماء مخفي في مؤخرة السفينة ، وكانت تسير وأنا متشبث بالحياة ، فحمدت الله على شفقة القائد علينا وفك قيودنا وإلا أكلتني الأسماك فعلا ، ومضت السفينة وأنا قابض على أحد الحبال في المؤخرة وأخشى النوم والضعف ، وأخشى أن يكشفوني فيغرقوني ؛ ولكنهم غارقون في شرابهم وخمرهم حتى وصلت السفن والسفينة التي أنا متعلق بها إحدى الشواطى ، وفي ظلام الليل تسللت إلى الرمال والمرجان ، وأخفيت نفسي حتى رحلوا مع انتصاف النهار ، وكنت منهك القوى ؛ ولكن رغبتي بالحياة جعلتني أقاوم الموت والضعف ، فأكلت من السمك الميت على الشاطىء ، وشربت بعض الماء ونمت ولا أدري كم نمت ؟ ثم مشيت ؛ فإذا أنا في قرية الصيادين ، ولي بها معرفة عندما كنت في خدمة ساحر البحر ، وتظاهرت أمامهم بأني صياد غدر به أصحابه من إحدى الجزر وألقوني في البحر ، وبدأت حياتي مع الصيادين باسم عبلوم ؛ لأنني كنت من الرجال المطلوب التخلص منهم لعلاقتي المهمة بساحر البحر ، ومع الأيام كبرت في الصيد ، وبنيت ذلك البيت الذي أخفيتك فيه يا زعيط ، وأصبحت من كبار الصيادين في تلك القرية ، وتزوجت امرأة منهم تخدمني إلى أن التقيت بك وتعرف ما جرى ، ثم كنت يوما في زيارة جزيرة الضفدعة وسكنت عند شاب اسمه حسن الحداد وجار له اسمه شوان ، وذات يوم كان العجوز يتحدث معي وذكر اسمك أمامي فتذكرت هذا الاسم الذي أوصيت والدتك أن تسميك به ، وتطور الأمر وذكر لي بعض أخبارك وأنك الساحر هارون ؛ ولكني شككت بكلامه واتهمته بالخرف حتى التقيت بحسن فقص عليّ حسن قصتك ومجيئك للجزيرة

تبحث عن والدك نمير ، ولم أكشف نفسي لحسن هذا ، وقد ظننت أنني سألقاك في جزيرة المورا فعلمت أنك خرجت منها وذهبت لقرية الصيادين ، فوجدت رسالتك وسرت لجزيرة السحرة ومرة هنا ومرة هناك ، ولم أعثر عليك ، فعدت لقرية الصيادين انتظر مجيئك مرة أخرى كما ذكرت في الرسالة ؛ ولكنك لم تحضر ، وطال الانتظار، ففارقت زوجتي ووهبتها أملاكي ، وعدت إلى جزيرة السحرة ، واجتمعت برئيس المعبد في المورا ، وقاموا بالبحث عنك سرا ، وغلب على ظنهم موتك من قبل أعوان ساحر البحر الهالك انتقاما منك لدورك الخطر في القضاء على ذلك الساحر اللعين ، وندمت أنا بعدم كشف شخصيتي لحسن ، فرحلت إليه وذكرت له من أنا فبكى وانتحب ، وذكر لي أنك كنت عنده من شهور وربما سافرت لموطنك الأول ، فغامرت وجئت إلى هنا متنكرا ، فصدمت عندما علمت أنك لم تعد ولم أسمع لك خبرا، وعدت للحمراء أفكر بالأمر وبالعودة لجزائر البحر ، وكلي أمل أن أراك ، وأتمنى أن تمر على حسن فينبئك بالأمر ، وهذا الأمل الذي منعني من السفر ثانية لتلك الجزر ، ولما سمعت بخبر عودتك وظهورك أتيت إليك سريعا يا ولدي .. فهذه هي قصتي أيها الناس !! لي أكثر من أربعين سنة أبحث عن المجد والأمجاد .. وأحمد الرب أن قدر لي هذا اللقاء بولدي قبل الموت وغدا يا أهلنا سنعود إلى مدينتنا وملكنا..وستكون أنت الملك يا زعيط ، ولن أحكم أحدا ، وسأعوض أمك عما فقدته بغيابنا عنها كل هذه السنوات .. وأطلب السماح والعفو ..وأعلم أن الأيام التي مضت لن تعود .. ما فات مات .. إنما تكفينا سعادتك يا ولدي !

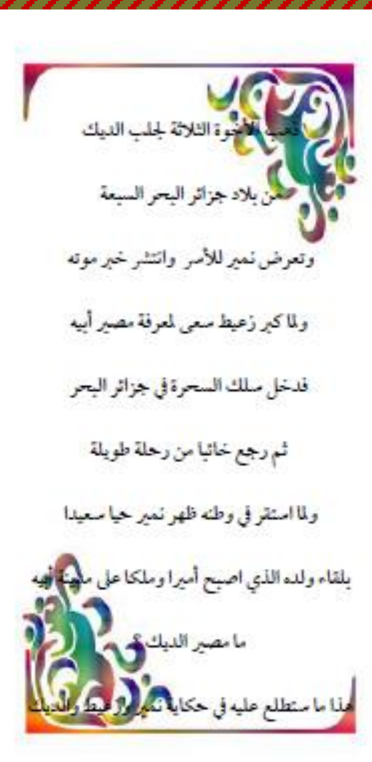
وعاد الجميع للدموع والعتاب والصبر على حوادث الزمن ، وتجهز صباحا الأمير نمير والأمير زعيط وزوجاتهم ، وأرسل الملك نمير وفدا إلى مدينة الحمراء يبشرهم بعودته بعد هذه العقود من السنين والضياع ، فخرج الناس ومن يتذكر الأمير نميرا أو سمع به لاستقباله بعد ذلك الغياب الطويل العجيب ، فاستقبل استقبالا حسنا ، وتنازل الورثة للعرش عن التاج بدون إثارة مشاكل ، فالملك نمير معروف بفروسيته ، وإنه ما غادر البلاد إلا طمعا بحكم المدن الخمس عشرة ، وعين الأمير زعيط ملكا على مدينة الحمراء ، وأقيم احتفال كبير بمناسبة هذا التتويج

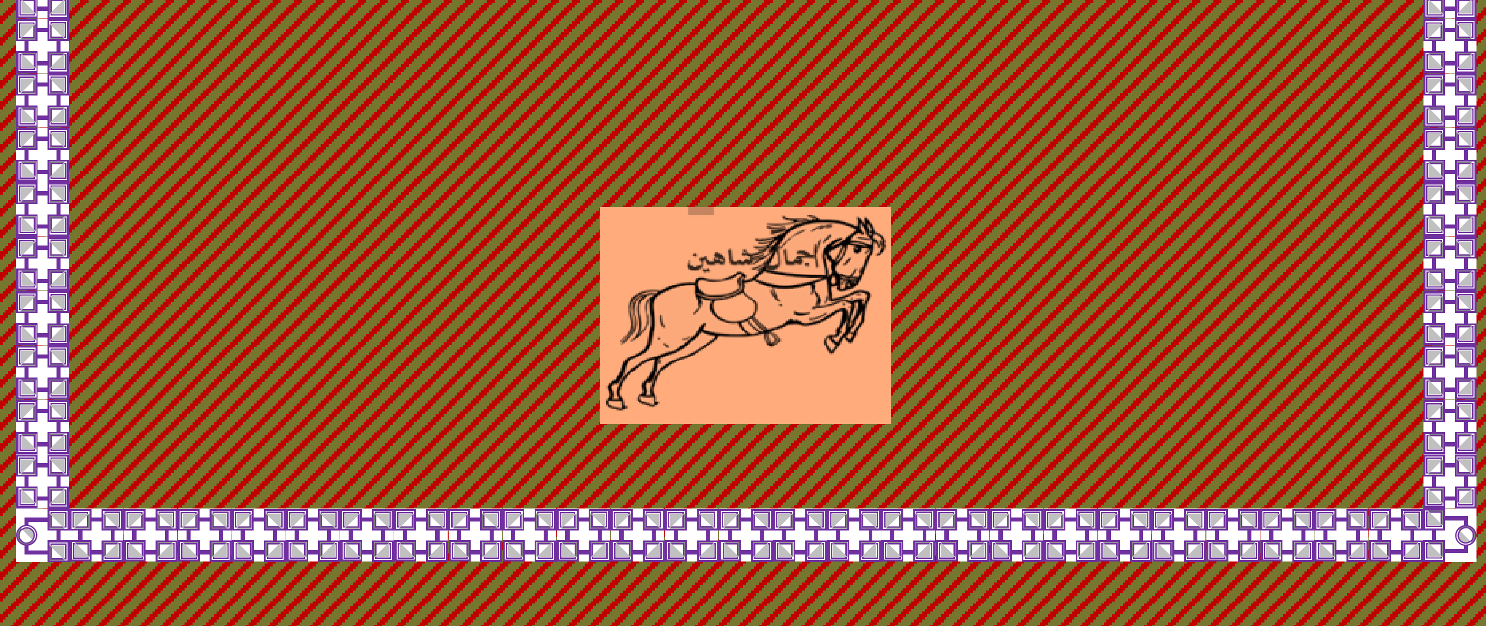
دعي إليه اخوة نمير الملوك الأحياء وأبنائهم ، وحضر جمع كبير من الأمراء والأميرات من كل المدن لمشاهدة الأمير نمير بعد هذا الغياب الطويل بعدما اعتقدوا جميعهم هلاكه في تلك الجزائر وليسمعوا قصة الأمير نمير بن دريد في جزائر البحر ، وكان من جملة الحاضرين سبع الغاب وجرادي ، وهكذا أيها السادة الكرام انتهت قصة الأمير نمير وولده زعيط ، ويقول لكم الراوي جابر بن نادر : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وإلى لقاء آخر في قصة أخرى غريبة وعجيبة من حكايات الناس وغرائبهم في غابر الزمن ، قصص تسلي النفوس ، وتبعد عنها الملل فحكايات الأمراء كثيرة وحكايات الناس أكثر .



قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

نمير وزعيط في جزائر البحر







انتقام الفارس شهدون

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

١٢

جمال شاهين

١٩٩٦

انتقام الفارس شهدون

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤



جمال شاهين

انتقام الفارس شهدون


انتقام
الفارس شهدون

حكاية كهف الشروق

كانت البداية في كهف الشروق في جبل عظيم من جبال الشرق ، هذا الكهف العملاق كان مدرسة من مدارس سالف الزمان، كان الحكيم شردي يستقبل تلاميذه ويعلمهم فيه .. وكان شردي حكيما شيخا هرما عندما بدأت هذه الحكاية .. وشردي هذا له تلاميذ من كافة المدن والقرى في تلك الأرض الواسعة ، وقد وصل كثير من مريديه وأتباعه إلى مراكز ومناصب في إمارات ذلك الزمان ، وكان بعض التلاميذ يأتون من بلاد وأماكن نائية لينهلوا من حكمة شردي والاعتكاف في كهفه الشهير كهف الحكمة والتأمل ، وكان هذا الزاهد الحكيم يقبل الهدايا والهبات من الأمراء والحكام في الولايات المختلفة وينفقها على تلاميذه وضيوفه ، وكان بعض التلاميذ يمكثون عشر سنوات عند الحكيم، وبعضهم أكثر من ذلك ، ثم ينطلقون في الأرض ينشرون أفكار وأحلام شردي الحكيم لإسعاد البشرية وبني الإنسان ، وكان بعض الحكام يقبلون وصاياه التي يرسلها لهم ، ويحترمون كلامه ويقبلونه ويعظمونه ، ومن التلاميذ ما زال ملازما للحكيم منذ خمسين سنة كتلميذه "بزغ" وتلميذه "شرم" ، وكان لهما في قلب سيدهم احترام خاص وكبير، وبعض التلاميذ لهم ما يقارب الثلاثين في كهف الشروق ، منهم التلميذ المشهور بالذكاء والحيلة "حمدون" ، وهذا الرجل يعتبر أمين سر الشيخ الزاهد وله عند سيده مقام محبوب ، وهو أيضا محبوب من أكثر التلاميذ ، فهو جاد وقت الجد ، وهازل وقت الهزل والمزح ؛ ولكن كانت البداية لهذه الحكاية عندما كان حمدون في مهمة خاصة لمولاه الحكيم عند أحد الملوك في بلاد بعيدة قبل أكثر من عشر سنين ، ولما قضى المهمة وعاد باتجاه كهف الشروق وفي غابة من الغابات وجد عند شجرة من الأشجار غلاما يبكي بكاء حارقا للفؤاد وهو دون الخمس سنوات ، فتحدث معه وسأله عن سبب وجوده ، فوجد أنه ضائع تائه من أيام ، فأطعمه وسقاه وحمله إلى الكهف وتبناه وسماه شهدون ، وكان ينادى بابن حمدون ، ونحن الآن بعد هذه الحادثة بعشر سنوات ، وقد شب الغلام وأخذ العلم عن الحكيم شردي وتلاميذه ، وكان شردي يستعد للسفر الأخير، فهو طريح الفراش فراش الموت ، والمريدون

حوله جزعون لرحيله ، ومنهم شهدون بن حمدون ، وبدأت القصة منذ اعلان وفاة الحكيم وجعل بزغ خليفة له بناء على وصية الشيخ ورغبته، تم دفن الحكيم ووري جثمانه التراب قرب نهر الشرق القريب من كهف الشروق ، وقد خيم الحزن على الكهف بشدة وحسرة على فراق الحكيم ، ثم قام المريدون ببيعة الحكيم بزغ بعد دفن الحكيم شردي ، وبعد هدوء الكهف ببضعة أيام تقدم شرم من بزغ قائلا : أيها الخليفة!.. سأمكث أياما ثم ادع الكهف واعتزلك أيها الخليفة أنا وأتباعي إلى كهف آخر بعيد .. فأرجو مباركة ذلك العمل حتى لا نسيء لسيدنا ومولانا الحكيم شردي.. فأنا لا أجد نفسي لك طائعا فاقبل عذري .

تلفت بزغ الخليفة حوله ثم قال بهدوء : لمَ لم تقل هذا أمام مولانا الزاهد أم أنك تحسدني على خلافة الزاهد ووراثتي مكان الشيخ الجليل يا شرم ؟!

فقال شرم : كانت لدي الرغبة بالانفصال ؛ ولكن لمحبتي للزاهد صبرت حتى توفاه الملك العظيم، وكان السيد على فراش الموت منذ سنوات فلا يمكن إزعاجه بالانفصال بعد كل هذه العقود الطوال ، وقد بايعتك على استحياء منه حتى لا يموت وفي قلبه حسرة علينا ، ونفسي لا ترضى بالخضوع لحكمتك ، ولا أحب أن يرانا التلاميذ الصغار في تنافس وصراع على خلافة الزاهد ، وأنت الوريث الشرعي ، أفلا يحق لي أن أرعى كهف الحكمة وانشر فلسفة وحكمة الزاهد؟!.. سأمكث أياما أخرى أبكي على روح الحكيم شردي ، ثم أسيح في الأرض بمن يريد أن يتبعني من التلاميذ ، ولعلنا نعود نادمين إليك أيها الحكيم ! وتطيب النفس لأخذ الحكمة منك ، ولا أحسدك، فالحسد شر أيها الأخ .. أما الفراق فليس بشر.. فهو قتل للشر والحقد والحسد .

فقال بزغ: أيها التلاميذ لقد سمعتم ما نطق به الأخ شرم بحضرتنا من الكلام الأليم، ومن نقضه لبيعتنا إماما لكم ، ولا أحب الفساد في الأرض ، ولا أحب أن أكون جبارا في الأرض ، ولا أحب أن تأخذني العزة بالإثم ، وأمامكم أقول أنني سأفكر وأتامل بكل ما سمعته منه ثم يكون عندي الجواب وحسن الصواب .. عد يا شرم إلى حجرتك ، ولا تخرج منها حتى أنظر في أمر ا

لانفصال والانشقاق .

وحصل هرج ومرج في الكهف، وغادرهم الحكيم الجديد إلى حجرته بالكهف قبل أن يكمل البيعة لنفسه معهم ، وطلب حمدون للتشاور والتدارس في هذه القضية الكبرى التي يواجهها ، ولما خلا بزغ بحمدون خاطبه قائلا : ما تقول أيها الحكيم الشاب فيما جرى اليوم من الزاهد شرم ؟!

فبعد صمت عميق قال حمدون : سأقول بحرية وصراحة وجرأة يا سيدي الحكيم بزغون .

فقال بزغون ببطء وهدوء : تكلم بكل صراحة وراحة وصدق ، فالأمر جد خطير وكبير ، تكلم ودع الأمانة بين عينيك واجعل الصدق هواك .

فقال الحكيم حمدون : النصح صدق ، والغش كذب ، فاسمع مني الكلام الحصيف يا سيدي بزغون ، فحكايتنا نحن الحكماء تلاميذ الحكيم شردي الآن تذكرني بحكاية سمعناها من الحكيم أيها الحكيم .. حكاية الثور والحمار والكلب .

فقال بزغون ببطء وتأمل : وما حكايتهم أيها الحكيم حمدون ذكرني بها ؟

فقال حمدون : هؤلاء الثلاثة كانوا في مزرعة الفلاح "سمران" ، لقد كانوا في راحة بال ، كل قائم بواجبه خير قيام دون قلق ولوم ، كان الكلب يقوم بحراسة الماعز والغنم والأرض والدار وكان الثور يقوم بحراثة الأرض دون كلل وملل ، وأما الحمار فكان ينقل عليه صاحبه سمران الطعام والثمار إلى سوق المدينة ، وكان هذا الحمار يفتخر على صاحبيه براحته وحب صاحبه له دون الآخرين ، ويكرمه بالعلف والعشب والشراب إلى أن كانت ليلة وعاد الكلب من سهرة مع إخوانه الكلاب كما اعتاد أن يفعل في أكثر الليالي، فعندما يرقد الجميع يخرج إلى أصدقائه، ولما عاد تلك الليلة وجد صاحبه في انتظاره ، فلما وصل انهال عليه ضربا بالعصا على ظهره استيقظ على أثرها من غفلته وسباته وفر هاربا صارخا، وعاد مع الفجر متسللا وعرف من الحمار أن أحد الذئاب سلب حملا صغيرا في غيابه ، فهو لم يقم بواجبه ، فعرف الكلب خطأه فابتعد عن البستان والمزرعة ؛ ولكنه أخذ يتردد عليها باستمرار فله فيها ذكريات وأحلام ، وقد

رأى أن صاحبه أحضر كلبا آخر ليقوم بحراسة الدواب والثمار فيأس حينئذ من رضا صاحبه وسيده ؛ ولكنه ظل يتردد على الثور والحمار مظهرا لهما ندمه وأسفه على تفريطه وتقصيره ، وذات يوم شكى له الثور من التعب من كثرة الحرث ، وأن الحمار يفتخر عليه كثيرا ، وأنه حمار سمران المدلل المنعم ، فوجدت هذه الشكوى هوى في نفس الكلب ، فأراد أن يفسد على سمران ثوره وحماره ظانا أنه ينتقم من سمران فقال مخاطبا الثور : يا صاحبي العزيز أنت ثور أحمق وجاهل لا تستطيع تدبير شأنك .. الحمار ألا يستطيع أن يحرث مثلك وتستريح ؟

فقال الثور : يا صديقي الكلب أنا لا أستطيع أن أقوم بعمل الحمار وأحمل سيدي سمران والسلال والأقفاص إلى السوق .

فقال الكلب الماكر : يا عزيزي الثور .. أنت تتعب من كثرة الحرث .. فلماذا لا يساعدك الحمار في هذه المهمة ؟ .. تظاهر بالمرض أيها العزيز وقلل من بلع الزاد الذي يقدم لك ، فتصاب ببعض الهزال ، فيحزن عليك سمران، فيريحك من الحرث ، فيضطر أن يحرث بالحمار وبهذه الحيلة البسيطة تستريح من الحرث .

وبعد صمت عميق قال الثور فرحا : إنها فكرة ! ولابد من تنفيذها ليحرث صاحبي على هذا الحمار المتكبر المتعجرف.

فودعه الكلب وهو يقول : سأعود بعد أيام لأراك متظاهرا بالمرض يا عزيزي الثور .

قام الثور الغبي بتنفيذ الخطة ، فبينما هو يحرث في الأرض صدم نفسه بشجرة كبيرة ، فخر صريعا يخور من شدة الألم خوارا مؤلما ، فانزعج منه الفلاح وحزن عليه صاحبه ونقله إلى الحظيرة ، وقدم له الماء والطعام فرفضهما واستمر في ثورته وهياجه المفتعل ، وقام سمران بمتابعة الحرث بواسطة الحمار وهو خائف على الثور من الموت والهلاك ، ولما شاهد الثور صاحبه يحرث على الحمار سر وعاد له الهدوء وأكل ما قدم له من طعام وماء ، أما الحمار المدلل فقد تألم من الحرث وظهر عليه التعب سريعا فأخذ بالتذمر والسقوط ، وكان سمران كلما أخرج الثور للحرث، فبعد وقت قصير يطرح نفسه على الأرض متظاهرا أنه ما زال مريضا فيأخذ بالخوار الحاد فيعيده

الفلاح لحظيرته ، ويكمل العمل بالحمار ، وبعد حين شكى الحمار للكلب المطرود ما حل به من الإرهاق والعرق والتعب ، وأن الثور يتظاهر بالمرض والضعف والجنون للهرب من الحرث ، فقال له الكلب مشفقا : وأنت يا صديقي القديم تظاهر بالمرض والضعف والإغماء فيضطر سيدك أن يخفف عنك، فيبيع الثور ويشتري ثورا شابا ، وتعود لأيام الراحة والضحك والسرور أعجب الحمار بمشورة الكلب فأثنى عليه وشكره وقال : هو ما تقول .. فالثور أصبح حسودا لي وعجوزا أيضا فليأخذه سمران للجزار .

وتركه الكلب ، وترك في قلبه فكرة سوداء ، وأقنعه بتلك الحيلة ، وأظهر الحمار ضعفه ومرضه لسيده ، فانزعج الفلاح سمران من قلة نشاطه وحركته ، ولما يئس من ضعف الاثنين أخذهما للسوق في المدينة، وباع الحمار لأحد الناس، وباع الثور لأحد الجزارين ، واشترى ثورا صغير العمر وحمارا قويا ، وعاد بهما لأرضه .. فهذه حكاية الثور والكلب والحمار يا حكيم بزغون .. فبما أن صاحبنا شرم طامع في الخلافة للزاهد شردي ، وقد اختارك الزاهد لهذا الكهف فدعه ينصرف ويسعى في بلاد الله الواسعة ، وأذن لمن شاء بالانصراف ، فكم من التلاميذ دخلوا هذا الكهف وخرجوا كما تعلم أيام الزاهد الحكيم شردي .. فالحكمة والعلم يحتاجان إلى هدوء وروية ومحبة وخروج من نوازع الحياة الدنيا .. فهذه مشورتي يا حكيم بزغون .

فلما خيم الصمت عليهما قال بزغون : الاتفاق جميل وطيب ، فلو ظل الثور والحمار والكلب على وفاق وقناعة ورضا ، وكلٌ يقوم بدوره ، وكلٌ قام بواجبه ، ولم يدخل بينهم الحسد والكره ما طرد الكلب وما ذبح الثور وما بيع الحمار .. فأنا لا يهمني يا أخي حمدون ذهاب شرمون وغيره من المريدين .. فهذا أمر طبيعي أي الفراق ؛ ولكنه تلميذ عاشر الزاهد طويلا ، ولم تمض أيام على خروج روحه يريد الفراق، فإن خرج من هنا نخشى أن يتقول علينا كثيرا ، ويشكك في وراثتي للحكيم ، وهو كذلك نقض للبيعة الأولى ، فلو بايعني ثم استأذنني في السياحة في الأرض لكان الأمر غير ذلك..وعلى كل حال لا أحب أن يصير بنا كما صار في غابة الطيور يا حمدون .

فقال حمدون : وما الذي صار في غابة الطيور يا أخي يا بزغون ؟!



فبعد صمت والتقاط نفس عميق قال الزاهد بزغون : اسمع يا ولدي الذي جرى في غابة الطيور ، قيل إنه كان يعيش في إحدى الغابات الكبيرة عدد كبير من الطيور العملاقة ، واجتمعت هذه الطيور ذات مرة على أحد الصقور وقد أصابه صياد بسهم ، ولم يقتله على الفور بل طار ونجا إلى الغابة ، فالتمت الطيور حول الصقر الجريح تواسيه، وتتحزن لما حل فيه، وهو يصيح ويزعق من الألم والوجع، وكثر اللغط بينهم إلى أن قال أحد الطيور : يا طيور الغابة نحن لماذا لا ننصب طيرا منا ملكا علينا ؟ نطيعه ويقودنا للأنتقام من بني آدم الذين يعتدون علينا ، ويصيدوننا فإذا هجمنا معا على الصيادين فروا وخافوا منا ويخشوننا ، ولا نعود نرى مثل هذا المسكين يتأوه ويتعذب بيننا .

فقال طائر آخر متحمسا للفكرة : كلامك مقبول ؛ ولكن العداوة بيننا وبين الصيادين لا تنتهي بتنصيب ملك علينا فهي عداوة جذورها قديمة .. ولكن لا بأس من تنفيذ الفكرة .. إنني أتألم لهذا الصديق المصاب .. المهم يا ولدي حمدون ! أعجب الاقتراح القوم ورأوا في الاجتماع والاتحاد قوة ، فاختاروا أكبر الصقور سنا ونصبوه ملكا ، ثم دفنوا صاحبهم المصاب بعدما فارقته النسمة وهم ينظرون إليه بحسرة وألم .. ولما استقر الصقر الأسن ملكا اتخذ حاشية من الطيور التي بايعته ملكا عليهم وفرض عليم طعاما يقدمونه له كل يوم مقابل تسلطنه عليهم ومضت الأيام وأشرف الصقر الهرم على الموت ودخل في مرض الوداع ، فطلبت منه رعيته اختيار وريث له ، وبعد تفكير عميق وتشاور مع حاشيته المقربين وجد بينهم ثلاثة يطمعون في الرئاسة والزعامة ، وبعد تدقيق وتدبير اختار صقرا كهلا وبايعته الطيور ومات الملك ، ولما واروه التراب تسلطن الملك الجديد على طيور الغابة ، وبعد حين انشق الطائران الآخران اللذان كانا طامعين في الملك على الصقر الكهل ، وأعلن أحدهم نفسه سلطانا ، وعين الآخر وزيرا وخليفة له من بعده ، وحدثت بين الطيور فتنة ومعمعة ، ورضخ الملك الكهل للأمر وما حصل

من المنشقين ، وأما الملك المنشق فقد أعلن أمام أتباعه وأنصاره أنه رفع عنهم وجبة إطعامه هو والحاشية ، فسرت الطيور من هذا العبء الذي انزاح عن كاهلهم ، وزعم أنه مجرد قاض بينهم ليفض أي نزاع يحصل بين أتباعه، ومع الأيام وجد الملك الكهل نفسه وحيدا وأتباعه يتناقصون ويلحقون بغريميه، فعزم الاعتزال والتنازل عن سلطانه ، فزار الصقر المتمرد وأعلمه برغبته ، وترك الغابة لخصمه اللدود إلى غابة أخرى ، وبعد ذلك قام الوزير بدس السم في طعام الملك الغاصب خفية عنه فأرداه قتيلا ، فهذه يا حمدون قصة غابة الطيور ، فأنا أخشى الفتنة والنزاع وأن تذهب تعاليم وحكم شردي أدراج الرياح .. فالاتحاد قوة.. وإخضاع شهوات النفس للروح قوة .

فقال حمدون: نحن لسنا في غابة طيور أيها الزاهد.. ولسنا نتنافس على ملك دنيا .. نحن كلنا استقينا الحكمة والعلم من الزاهد شردي ، فمهمتنا نشر هذا العلم بين الناس والحكام ..وكم من التلاميذ في حياة الحكيم شردي حملوا العلم وساحوا في الأرض والبلاد ! .

فعاد بزغون يقول : ولكن شرمون طامع بكرسي شردي .. وتنازلي عنه خيانة للزاهد شردي .. على كل سألتقي به مرة ثانية لعله يعدل عن فكرة الانشقاق والانقسام .. وأخبر التلاميذ بلقاء هام ضحى الغد..نحن علينا أن نتنافس في الخير والعلم والحكمة ، ونحذر الشر ونزغ الشيطان بيننا ، ولابد من الإيثار مع الإحسان ، وكذلك من المهم المحافظة على أفكار وتعاليم فيلسوفنا العظيم شردي

ضحى اليوم التالي عقد القوم اجتماعا خطيرا وفاصلا ومهما في كهف الشروق من جبال الشرق العاتية ، وتكلم فيه خطيبا الحكيم بزغون وريث الزاهد شردي كلاما طويلا ، ذكر فيه فضائل الحكيم الزاهد شردي ، وترحم عليه وبكى وأبكى المريدين ، ومجد وأثنى على التلاميذ الخلص ودعاهم للتمسك بتعاليمه وحب الخير والإيثار من أجل الجميع، وترك الأنانية ، وحب الرياسة والحذر من مكر الشهوات ، ثم أعلن في الختام بانفصال الحكيم شرمون عن الكهف ، وأظهر لهم رغبة شرم في تأسيس مدرسة في بلاد بعيدة ؛ لنشر تعاليم الحكيم شردي في هذه الدنيا، وبين

لهم موافقته على ذلك ورضاه ، وأنه أذن له بذلك الابتعاد ، ولمن شاء منهم بأن يتبعه ويصحبه، ثم أذن لمن شاء بمغادرة الكهف والسياحة في الأرض ، وبعد أن انتهى الحكيم من خطابه العاطفي انصرف التلاميذ إلى حجراتهم الصخرية ، ودخل شهدون على أبيه حمدون بعذ ذلك الخطاب ، وأعلمه برغبته بمغادرة الكهف وخلع ملابس الزهاد والحكماء والسعي في مناكب الأرض والدنيا ، فتعجب الأب من هذا المطلب ، وذكر له أنه ما زال صغيرا دون العشرين ، والحياة مليئة بالشر والفساد والظلم والقسوة ، فقال شهدون : يا والدي الطيب أرغب في رؤية الدنيا والاحتكاك بالناس مللت من دروس الحكمة .. ونفسي لا تعشقها كثيرا .. أريد أن أتعلم الفروسية والرماية .. أريد أن أملك جوادا وسيفا .

حاول حمدون الحكيم ثني ولده شهدون عن الخروج للدنيا ، وصعب له الفراق وقسوته ؛ ولكن الفتى أصر وصمم على الخروج للدنيا والتعلم منها ، وقال له في نهاية المطاف : اصبر عاما آخر حتى يشتد زندك..يا ولدي فالدنيا مليئة بالأشرار والفجار

فقال شهدون: لابد من الخروج من هذا الجبل ومشاهدة العالم والناس .. أنا بحاجة لدروس أخرى .. الفروسية وركوب الخيل والأفيال وقتل النمور والضباع .

فلما يئس الأب من إقناع ولده وتلميذه شهدون من البقاء ولو عاما واحدا قال : انتظر أياما حتى أكتب لك كتابا إلى أحد ملوك الدنيا.. فالملك جهازون ملك بلاد الفند صديق قديم لي ، ولديه مدرسة لتدريب الفرسان، سأرسلك إليه يا شهدون، وعندما تلقاه ادفع له كتابي ، وانقل له تحيات الزاهد بزغون ، وأعلمه بموت الحكيم الزاهد شردي .

شهدون يغادر الكهف

ولما جهز حمدون رسالة التوصية بولده وتلميذه شهدون إلى ملك بلاد الفند قام الشاب الصغير بوداع الحكماء والتلاميذ ، وتزود ببعض الخبز والماء ، وانحدر من الجبل برفقة بعض التلاميذ الذين قرروا مغادرة العزلة والعلم ، ومن ثم السياحة في الأرض لنشر مبادئ وتعاليم الحكيم شردي ، وبعد أيام دخلوا أول مدينة مأهولة بالبشر ، وتركهم شهدون وتابع سيره منفردا بعدما أمضى فيها يومين استراح فيهما وتزود بالطعام والماء ، وبينما هو يمشي وحيدا في أحد الوديان بين جبلين عظميين لمح أمامه خيالا فصاح به فسمعه الخيال فتوقف عن المسير وانتظره وقال : ما بك أيها الغلام ؟ ولم تصرخ ؟

فقال شهدون : يا هذا أين طريقك ؟ .. إنني ذاهب إلى ملك الفند فأرشدني إلى الدرب الصحيح ؟

فقال الخيال : ملك الفند ولماذا ؟!

فقص شهدون قصته القصيرة للخيال بصدق وطمأنينة فقال الرجل : إنها بعيدة أيها الشاب الصغير وتحتاج إلى أسابيع حتى تحل فيها .

فقال شهدون : أين دربك يا أخي ؟ ألست ذاهبا إليها ؟

فقال الفارس : لا ، اسمع أيها الفتى فأنا هارب من قومي ، فأنصحك أن تسير وحدك ، وتبعد عني حتى لا يصيبك أذى بسببي فبعد قليل سترى عددا من الفرسان يطاردونني .

فقال شهدون : ولماذا أيها الفارس ؟!

فرد عليه قائلا : حكاية لا داعي لذكرها على مسامعك ، ولكن امضِ فإذا التقينا مرة أخرى في هذه الحياة الدنيا سأذكرها لك .

فقال شهدون : يا هذا شوقتني لسماع حكايتك !

فقال الفارس : اصغ يا هذا إنني أسمع صوت خيل مقبلة من بعيد وداعا ، ولا تقل إنك رأيتني تذكر الفارس "عيون" يا أخ شهدون .. سلاما عليك .

ووكز حصانه وانطلق يسابق الريح هاربا من مطارديه ، وبعد ساعات أدركت شهدون عصابة من الفرسان فاستوقفوه وسألوه عن الفارس الهارب ، فاحتار شهدون بالإجابة هل يكذب ؟! أم يصدق ؟! ولكنه قال : فارس تبحثون عنه ولماذا أيها الأسياد ؟!

فنهره أحدهم وصاح فيه:هل رأيته؟ فارسا يركب فرسا حمراء سار من هذه الطريق؟

فقال شهدون وهو يهز أكتافه نفيا : أبدا !!

فتركه الفرسان وتابعوا ركضهم ، وتابع بطل قصتنا سيره أيضا حتى دخل بلدة مسكونة فبحث عن مأوى ، فأرشده الناس إلى بيت عجوز القرية، العجوز "شهبانة" ؛ فإنها ترحب بالأغراب والاضياف ، فاستقبلته العجوز استقبالا سارا وقدمت له الطعام الطيب والشراب البارد ، فسر منها شهدون وقص عليها قصته القصيرة ، وحياته في كهف الشروق ، وتتلمذه على يد الحكيم شردي وأبيه حمدون ، وتركه ذلك السكون والراحة والزهد في الدنيا ، وتعلقه في الفروسية ، وأنه سائر لبلاد الفند لتعلمها ، فعرضت عليه العجوز شهبانة المكث عندها ، وأن تكون له أما ترعاه ويرعاها ، وتعلمه صنعة يرتزق منها ، وأنها سوف تنكحه فتاة جميلة طيبة مثله ، وأمهلته ثلاثة أيام يفكر في عرضها ، وفي إحدى الليالي أحس شهدون بحركة في البيت بعد منتصف الليل ، فاسترق السمع فلاحظ أن العجوز استقبلت رجلين فظنهما للوهلة الأولى ضيفين أغراب مثله ؛ ولكنه شعر بحركة قرب الحجرة التي يرقد فيها ، وسمع العجوز تقول لهم : إنه نائم يا حازم .. لماذا جئت الليلة ؟! هل من شيء ؟!

فسمع المدعو بحازم يرد على العجوز : هناك أشياء .. أين تريدين أن نجلس؟ .. فالأمير زمرار مرهق جدا ومتعب .

فبغتت العجوز وقالت وهي تلتفت للرجل الآخر : ويحك ! أمعك الأمير ولم تنطق باسمه ، ظننته أحد رجالك .. اتبعوني إلى غرفتي الصغيرة .

تعجب شهدون من هذا اللقاء وطار النوم من عينيه من لقاء بين عجوز وأمير ورجال ، فحركه الفضول لاستماع كلام القوم ، فتسلل من حجرته إلى غرفة العجوز بخفة الهر، وهناك تمكن من

سماع أشياء غريبة ، علم أن الأمير زمرار أخ لأمير هذه المدينة ، وأنه غاضب على أخيه وطامع في تاجه ، وهو مطارد ورجال الأمير يبحثون عنه للفتك به، وله أنصار في المدينة، ويلتقون في بعض الأحيان في بيت هذه العجوز الماكرة لشهرتها باستقبال الأغراب وفتح بيتها للضيوف وعابري السبيل ، ولما سمع شهدون الحكاية عاد لغرفته يفكر في هذه الحياة وفي هذه الحكاية الجديدة .. فارس هارب يطارده قومه لماذا ؟! وهذا أمير يطارده أخوه لأنه ينافسه على الحكم ؟ وبعد تأمل قال لنفسه : الرحيل خير لي ..وتأوه قائلا : آه يا نفس ! إنني خالفت تعاليم الحكماء والزهاد ..كذبت وتلصصت وتجسست .. لا ، أنا كذبت لانقض الرجل الهارب .. ليتني عرفت قصته قد يكون ظالما .. الفضول داء حذرنا منه الحكيم شردي ، ولكني لم أتخلص منه ، فإني قد مارسته الآن .. نعم ، أنا تجسست لأحذر من هؤلاء الناس .. الرحيل يا شهدون .. الرحيل .. وبعد انتهاء موعده مع العجوز اعتذر لها ، وبين لها تصميمه على الذهاب إلى بلاد الفند وتعلم الفروسية وعندما يعود سيمر عليها ، ولما أصبح خارج البلدة قال : سأمر عليها .. إنني كذبت عليها متى سأعود ؟ ولماذا أعود إليها ؟! لا أهل ولا مال ولا وطن لي هنا .. اللسان ينحرف إلى الكذب .. من غير وعد لماذا كان الوعد ؟! وداعا يا عجوزتي الطيبة .

مشى شهدون وظل ماشيا حتى أطل على قرية من قرى الدنيا مع ضحى أحد الأيام ، فشاهد حائطا مزروعا بأحلى الأشجار والثمار من جنان العنب والتين والرمان ، فقرر أن يستريح في هذا البستان الجميل، فدخل من مكان مهدوم من جدار البستان ، ولما أصبح في داخل البستان صاح بصوت عال : يا صاح .. يا صاحب البستان ..نادى بصوت عال ، فلم يسمع همسا ولا حسا ، فتناول بعض الثمار فأكله، ثم رقد تحت شجرة فنام من الإرهاق والمشي ، ولم يطل به المنام ، فقد استيقظ على أحد السودان يهزه بشدة وهو يقول : ماذا تفعل هنا أيها الغلام ؟!

فتح شهدون عينيه وجلس فرأى حوله رجلا بثياب جميلة تبهر العيون والأنظار وبين يديه خمسة من العبيد السمران الأقوياء الأشداء كما توحي هيئاتهم ، فلما نظرهم تذكر أنهم ينتظرون الجواب فقال بهدوء : أنا شهدون بن حمدون من تلاميذ الحكيم شردي الكائن في جبال الشرق..

وأنا سائر إلى ملك بلاد الفند الملك جهازون يا سادة يا كرام .. ونزلت استريح هنا من تعب السفر والترحال وقد ناديت قبل الدخول يا صاحب البستان ، فلم أسمع الجواب ، فوجدت ثلمة مهدودة ، فدخلت منها وأكلت بعض الثمار ، ثم نمت .. فهذه قصتي بالتمام والكمال يا أيها السيد ويا أيها السودان .. أراكم تنظرون إليّ بغضب وشرر يتطاير من أعينكم ما الذي بيني وبينكم ؟!

فقال الرجل الوسيم ذو الثياب الفاتنة : ألم تر رعيان عندما دخلت من هنا يا شهدون ؟

فهز رأسه نافيا رؤية أحد غيرهم ، فقال السيد موضحا الصورة لشهدون : هذا ـ وأشار لأحد العبيد ـ تشاجر مع بعض الرعيان الذين هدموا السور ودخلوا البستان فضربوه ..فأتانا في القصر الكبير فجئنا نبحث عنهم فوجدناك .. واعتبر نفسك أيها الغلام الرشيد ضيفا عندي وحياك الله في قريتنا .

فقال شهدون : جزاك الله خير الجزاء ..فأنت وسيم وكلامك وسيم .. ولا أحب أن أثقل عليك أيها الفاضل فدعنى استرح قليلا وأتابع المسير أيها المفضال .

فاحتد الرجل وقال : هذا لا يكون أيها الضيف .. يا مرحبا.. والتفت للرعيان وقال : أيها الغلمان انظروا خارج البستان وابحثوا عنهم ثم رمموا الجدار .. وهيا أيها الفتى إلى قصرنا الجميل .. فأنت ضيفنا ونحن نحب الضيفان .. فأنا سمعت عن الحكيم شردي ولي أخ من زمرة أتباعه من قديم الزمان .

فقال شهدون بحزن : مات شردي الحكيم منذ أسابيع وتصدر القوم تلميذه الوفي بزغون أيها السيد الفاضل .

وسار شهدون برفقة السيد، وكان حديثهما عن حياة الحكيم شردي وتلاميذه وزهدهم وحبهم للحياة الآخرة ، وعن فلسفتهم ونظرتهم للإنسان والكون ، وبعد زمن يسير وصلا إلى قصر شاهق البنيان بين الأشجار العملاقة وروضات من الأشجار المثمرة والمزهرة تملأ الجو بأريجها وسمع أصوات الخيل والدواب فغبطه شهدون على هذه النعم ، وانتشر الخبر في القصر بقدوم

ضيف على السيد مهران ، فجلس الضيف في إيوان القصر وقدم له الشراب البارد وعصير الليمون ، ووضع بين يديه أشكال وألوان مختلفة من الفواكه المحمولة بأواني الذهب والفضة ، وأمضى شهدون نهاره في الفرجة والمشاهدة في قصر السيد مهران ، فتفرج على الجواري والغلمان والطيور والخيول والكلاب والبقر والعجول والأغنام والفهود والصقور، فخيل إليه أنه ينزل في قصر ملك من ملوك الدنيا مما دفعه لأن يقول لأحد الغلمان : هل سيدك ملك من ملوك الدنيا ؟!.

فابتسم الغلام لانبهار الضيف الزاهد وقال : لا .. إنما ورث كل هذا عن والده لقد كان والده من حاشية الملك ملك مدينة الجلاء فأقطعه هذه الأرض فصنع عليها كل هذه الخيرات .

فقال شهدون : وهل المدينة بعيدة ؟

فرد الغلام : هي مدينة تبعد عن هذه القرية مسيرة نصف يوم .

فعاد شهدون يسأل الغلام وهو يتفرج على الحدائق الغناء فقال : وهل لصاحبك ذرية ؟

فأجابه الغلام : ورث مولاي مهران هذه الأرض هو وأخوه من والدهما .. وقتل الأخ في حياة الوالد وبعد أيام تبعه الوالد فانتقل هذا الملك كله للسيد مهران .. ولا أولاد عند سيدي مهران وكان قد تزوج امرأة في حياة والده ، ولما قتل أخوه طلقها واعتزل النساء والزواج ، وهو يمضي جل وقته في الصيد والقنص ومطاردة الوحوش والغزلان .. وله أخت تسكن المدينة تزوجت من أحد أمراء الملك ، وينزل للمدينة بين كل فصل وآخر مرة واحدة ..

وفي المساء عاد شهدون من جولته في أملاك السيد مهران ، وهو يتعجب من فضل الله تعالى على خلقه ثم سأل نفسه : لقد أخبرني مهران أن له أخا من أتباع شردي ولكنه لم يذكر لي اسمه لعله من الاتباع القدماء .. وربما لما عاد إلى بلده قتل .. ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ووجد السيد الكبير ينتظره على مدخل القصر فلما رآه قال : أهلا بك أيها الشاب الصغير .. لعلك تمتعت بما رأيت من نعم الله علينا أيها الهاجر الزهد والحكم .

فرد الفتى قائلا : تبارك الله .. ما شاء الله لا قوة إلا بالله .. جنة من جنات الدنيا أيها السيد

الكريم إنها تجلب السرور إلى النفس، وتغبط عليها، ولست لك بحاسد، فالجلوس مع الحكماء يزهد الفتى في مثل الجنات .

وبعد تناول العشاء أخذ الرجلان يتحدثان ويتسامران حتى نصف الليل ، ثم طلب السيد مهران أحد عبيده وقال له : امض بالسيد الصغير إلى حجرة خاصة يقضي به ليلته ، وقم على خدمته حتى الصباح .

فشكره شهدون وقال للخادم : دلني على منامي ، وأنا أخدم نفسي أيها السيد الكريم ومع الصباح سأودعك أيها الصديق ، ولعلنا نلتقي ثانية ، وأعرف منك سر قسمات الحزن المرتسمة على وجهك في يوم من الأيام .

فقال مهران بدهشة : على وجهي حزن ؟!

فتبسم شهدون وقال : على مثلي لا يخفى ذا .

فابتسم مهران بدوره وقال : لابد أن أحدهم حدثك شيئا .. على كل حال أشكرك على قبول ضيافتي ، وأحب أن تبقى أياما تستريح من تعب السفر، وأسمع المزيد من حكم وعلم الحكيم شردي .. فالرحلة طويلة أيها الصديق ..

ومضى شهدون إلى غرفة نومه ، ولما استلقى على الفراش تذكر الأيام التي قضاها مع العجوز الطيبة، وشكر الله سبحانه الذي يسخر له هؤلاء الناس، ويحميه من أذى الجبال والوديان والوحوش ، وفي الصباح الباكر كان شهدون يودع مضيفه وداعا حارا ؛ كأنهما أصدقاء منذ سنوات ، وقام السيد باهداء شهدون حمارا وزوده بالماء والطعام والمال رغم أنفه ، وحثه على العودة والحياة معه بعد تبليغ الرسالة .

فابتسم شهدون بعد تقبله هدايا الرجل وقال : سوف أفعل إن شاء الرب سبحانه .

وركب الحمار وانطلق يقطع البلاد والجبال الشواهق حتى أشرف على مدينة جديدة وبحث عن خان ينزل فيه، فدله الناس إلى خان في وسط المدينة ، فاستقبله صاحب الخان أحسن استقبال، وأنزله في حجرة صغيرة ، وقاد حماره للاصطبل ، وبعدما استراح قدم له الطعام ، فشكره

شهدون وتحدث معه قليلا ، ثم دخل حجرة النوم ، وأثناء الليل سمع ضجيجا في الخان ، فاسترق السمع فسمع مالك الخان يتحدث مع رجل قريبا من الاصطبل ، ورآه من شق الباب قد دفع حماره لذلك الرجل وقد قبض منه نقودا ، ثم هدأت بعد حين تلك الضجة ، وغرق شهدون في سبات عميق، وهو يظن أن الرجل سيجلب حملا على ظهر الحمار ، فراح يحلم بحماره وصاحب الخان .

ومع الصباح الباكر سمع دقا على الباب فجفل واستيقظ واستعاذ بالله من الشيطان وشره وقال : من يطرق الباب ؟!



فرد صاحب الخان بضعف مفتعل : أيها السيد الصغير .. افتح الباب لقد حدث أمر .. قضية

قام شهدون منزعجا وفتح الباب وهو يتمتم مستفسرا:ما الأمر يا صاحب الخان؟! هل مات الحمار ؟!

فقال الرجل متظاهرا بالحزن والأسف : يبدو يا سيدي أن أحد اللصوص استولى على حمارك الليلة .. فقد ذهبت صباحا لأضع له العلف ، فلم أجده ، فبحثت عنه فلم أعثر عليه .. فعليك يا سيدي أن تبلغ رجال الحرس لعلهم يمسكون باللص .. لقد سرق غرباء كثيرون .

فهز شهدون كتفيه وهو يسمع ويدير القضية في رأسه وقال متهكما: لا عليك أيها السيد .. ابحث عنه مرة أخرى ، ولما استيقظ تماما سوف أشاركك البحث ، لا تأسف ولا تحزن ، ما هو إلا حمار .. والأمر بيد الله ..

وانصرف سيد الخان متظاهرا ومهتما بالبحث عن حمار شهدون ، وعاد شهدون يحلم بحماره وخيانة هذا الرجل وقال : الحمد لله رب العالمين..خلصتني منه على كل حال..ولن أدفع لك درهما واحدا يا خبيث جزاء خيانتك.. إيه يا دنيا !

لما استوت الشمس في كبد السماء، وقد تناول شهدون إفطاره وقرر الرحيل، فطالبه صاحب الخان بثمن المنام والطعام والشراب ، فضحك شهدون وقال : خذه من ثمن الحمار .. عندما تجد

الحمار خذه أو بعه ـ وغمز بطرف عينيه هازئا ـ لأحد اللصوص .. وخذ حقك .. واعتبر الحمار لك وداعا يا محترم .

بلع الرجل ريقه وسكت فقال شهدون : كم يبق لي من ثمنه ؟ .. على كل حال أيها المحترم سامحتك وداعا يا صاحب الخان ..واحذر عاقبة الخيانة .

رحل شهدون عن هذه البلدة بدون حماره ، وبعد أيام وليال قليلة وجد نفسه خلف قافلة من الجمال والبغال والتجار فلحقها ، وأخذه الحرس الذين يحمون القافلة من اللصوص وقطاع الطرق إلى رئيس القافلة الشيخ الكبير " نادرما " فرحب به شيخ القافلة، واستمع لقصته فاطمئن له وتيقن أنه عابر سبيل وليس عينا لقطاع الطرق أو عينا لأحد الأمراء الغزاة ، واستضافه على مائدته ، وبعد حين ومع الفجر تعرضت القافلة لهجوم عدد كبير من اللصوص الملثمين ، ودارت معركة شرسة بين اللصوص وحرس القافلة استمرت بضع ساعات ، ثم اختفى من نجى من اللصوص في الجبال والكهوف والوديان ، وسقط بعضهم أسرى وبعضهم جرحى ، ولما قدموا لرئيس القافلة علم أنهم من عصابة شديدة الخطورة في هذه الوديان ، وعلم أن زعيمها رجل أعور قوي البأس يدعى " سلطان الزمان " ، فأمر الرئيس بقتلهم ورميهم للكلاب والسباع ، وعجب شهدون من قسوة الزعيم مع كرمه الشديد معه ، فلما سارت القافلة وبعدت عن المكان قال الشيخ : هؤلاء مجرمون أيها الحكيم الصغير!.. أشرار ولصوص أنذال كانوا يريدون سلب أموالنا ، ولو عفونا عنهم سيعيدون علينا الكرة مع من نجا منهم ، فنحن نتخلص منهم ، ونخلص الناس من ضررهم ، ونبقي واحدا منهم حيا جريحا ليخبر قومه بقسوتنا حتى ينتشر الرعب في أفئدتهم ، وما من مرة أدخل هذا الوادي الأسود إلا وأتعرض لعصابة الأعور المسمي نفسه سلطان الزمان .. ولابد يا ولدي من القسوة والشدة في بعض الأحيان .

ومشى معهم شهدون حتى ساروا في درب لا يوصل لبلاد الفند ، فودعهم وسار في دربه ، وهو يتعجب من أحوال الناس والدنيا ويقارن بحال أهل الكهف الهادىء الوديع ، وبينما هو يمشى

وحده غارقا في أحداث الدنيا تفاجأ برجل مقنع يلقي عليه التحية ، فجفل منه أولا ثم رد عليه تحيته بأحسن منها ، وشاهد ثيابه الرثة الممزقة ، فرثى لحاله وحزن عليه وأشفق عليه عندما سمع قصته ، وهي تتلخص بأن لصوصا اعترضوه وأخذوه لكهف وأخذوا منه ماله وطعامه ومزقوا ثيابه ثم طرحوه كسير الجناح ، فقاسمه شهدون طعامه وذكر له بعض قصته ، وسار الرفيقان حتى الليل فمالوا إلى كهف يقضيان ليلتهما فيه ويستريحان من تعب الطريق ، وبعد العشاء تظاهر شهدون بالنوم فهو غير مطمئن من رفقة صاحبه الأشعث "حزوم" فقد رابه شأنه ، وبعد وقت أخذ يتقلب شهدون يمنة ويسرة متظاهرا أنه مستغرق في النوم ومن بين أجفانه المطبقة كان يراقب صاحبه الذي كان هو الآخر يتظاهر بالنوم العميق ، وكان شهدون قد وضع كيس نقوده عند رأسه واحتفظ بالخنجر تحت إبطه ، وطالت المراقبة حتى غلبه النوم من شدة التعب ، ولما دخلت الشمس الكهف نهض من نومه ، فلم يجد صاحبه فقال لنفسه : لم تخف علي هيئته.. لص ساذج غبي ، وأخرج كيس نقوده الثاني من صدره وتفقد نقوده وهو يقول : لن يجد فيه إلا قطعا قليلة من النقود .. وبحث عن جراب الطعام فلم يجده .



بـلاد الـفـند

فقام من مكانه ، وترك الكهف سائرا إلى بلاد ملك الفند جهازون ، ذات نهار أطل شهدون على سهل واسع وشاهد عجبا..المكان ممتلئ بالجنود والرايات والخيول والدواب والخيام والفرسان، فأدرك أن هنا معركة قائمة أو ستقوم ، فاحتار هل يهبط ويسأل أم ينأى بنفسه عن المتصارعين؟

ولكن قبل أن يقرر سمع الصراخ والطبول والصهيل واشتباك بين الطرفين ، فأخذ يتابع الفريقين ومع انتصاف النهار شاهد الجيش الذي أمامه يتقهقر ويتفرق الفرسان يمينا وشمالا ، وخصومهم يطاردونهم وهم يهتفون بالنصر ، وفجأة وجد نفسه أسيرا مع الأسرى موثقا بالحبال ويقاد مع من وقع من القوم، ووضع في إحدى الخيام مع طائفة من الأسرى، وعلم من مرافقيه أن هذه المعركة نشبت بين جند الملك جهازون ملك الفند وملك بلاد الأهوال، لقد قتل أحد أبناء ملك الفند على يد ابن ملك بلاد الأهوال الملك "برديس"، وكانا قد التقيا عند عين ماء وهم يطاردون وحوش الفلاة ، وتشاجرا وتبارزا فقتل ابن الملك برديس ابن الملك جهازون ومن معه من الفرسان، فغضب جهازون وحضر لقتال هؤلاء القوم فالتقوا بهذا السهل وقد قتل ابن الملك برديس في هذه المعركة، وهرب من هرب من جنوده وأسر من أسر، ولسوف يسوقونهم أسرى لبلاد الفند، وفي الصباح التالي انتهت المطاردة لفلول الجيش الهارب ، وأمر قائد الحملة الناس بالعودة إلى البلاد للقاء الملك جهازون ، ثم الاستعداد لمعركة جديدة ، فحمل الجرحى من الطرفين على ظهور الخيل والدواب وقيد الأسرى كالأغنام بعد أن تم دفن القتلى ، فكان شهدون يتعجب من حاله ويقول : عجيب يا دنيا .. آدخل بلاد الفند أسيرا مكبلا بالحبال ؟! صبر صبر يا نفس ! "

وبعد أيام دخلت الحملة المنتصرة مدينة الفند، وكان الناس في استقبالهم ، وعلى رأسهم الملك بنفسه ، وعلقت رأس ابن الملك برديس على خازوق أمام أحد أبواب المدينة ليراه الناس ، وقد طيف بالأسرى في أنحاء المدينة ، وهم في غاية الذل والمهانة، ثم أخذهم الجنود إلى سجن الدولة، وتحمل شهدون المذلة والمهانة كباقي الأسرى ، ولما دخل السجن دفع الرسالة التي يحملها من حمدون لقائد السجن، وترجاه أن يوصلها للملك ، فعجب القائد من أمر هذا السجين ، واستمع لقصته ، ووعده بتوصيلها لملك البلاد بأقرب فرصة عندما تهدأ وتسكن الأوضاع بعد هذا النصر والثأر، وبعد حين دعي شهدون لمقابلة الملك الذي استمع إليه ورحب به أشد ترحيب ، وحزن لما علم بموت الحكيم شردى وقال : رحمه الله .. لقد أمضيت بصحبته خمس

سنوات أيها الفتى وقلت إن الحكيم بزغون جلس مكانه إنه أهل لذلك .. وأين حمدون الآن ؟ فقال شهدون : انقسم التلاميذ فريقين بعد وفاة شردي الحكيم ، والزاهد حمدون ممن فضل البقاء في كهف شردي، وطلبت منه أن يأذن لي بالانطلاق في هذه الدنيا، وقد اكتفيت بعشر سنوات من الحكمة والعلم ، وأظهرت له الرغبة بتعلم الفروسية لأصير من الفرسان المحاربين .. فلما تأكد ورأى إصراري وتشبثي بذلك أرسلني إليك وذكر لي أنك تعرفه حق المعرفة .

ابتسم الملك لأسيره أو ضيفه وقال : أجل أيها الفتى! فأنا أعرفه حق المعرفة.. كنا أصدقاء وجلست بصحبتهم خمس أو ست سنوات .. وسأنفذ رغبته وإلحاقك بمدرسة الفرسان لتحقق رغبتك في تعلم الفروسية والقوة .

وأخذ الملك يسأله عما درس وتعلم ، فوجده حافظا لمواعظ الزاهد وتعاليمه ، فسر به سرورا طيبا ، وقال مشجعا له : إن أحسنت الفروسية وأتقنتها يا شهدون ستكون من أبطال المدينة ذوي الشأن .

وأرسله مع غلام إلى مدرسة تدريب الفرسان ليبدأ بالتدريب والمران .

مكث شهدون ثلاث سنوات يتعلم ويتدرب على فنون السيف وركوب الخيل والرمي بالنبل والطعن بالرمح ، وبعد مضي هذه السنوات أحضره مدربه الخاص إلى الملك جهازون وقدمه للملك بأنه الآن قد أصبح فارسا من فرسان الملك الأشداء وقوي عوده واشتد ساعديه وعضلاته ، وأنه معد الآن لمبارزة الفرسان ، فجعل له الملك موعدا ليتبارى مع الشجعان ، وفي اليوم الموعود نزل شهدون لميدان الفرسان على حصان عربي أصيل أعطي له أثناء التدريب والتعلم ، فاستعرض نفسه أمام الملك وحاشيته ساعة من الزمن في كر وفر حتى أدهش الحضور بخفته وحركاته ، ثم نزل له فارس فتصارعا وتطاعنا حتى غلبه شهدون وعلمه ببضع علامات بالزعفران والحناء ، فنزل له آخران ثم ثلاثة ، وكلهم فاز عليهم بنشاطه ولياقته حتى استحسن الحاضرون مهاراته وبراعته ، فأمر الملك حينئذ أن يدخلوه على أسد ليرى شجاعته أمام وحش الفلاة ، فجئ بقفص كبير فيه سبع مهيب ، ووقف الفرسان الأشداء برماحهم على شكل دائرة

كبيرة ، وفي وسطها شهدون بحسامه الحاد بدون جواد ، وفتح القفص فخرج الأسد القوي يتمطى ويزمجر زمجرة تدب الرعب في القلوب ، فوجد شهدون الشاب المشهر سيفه أمامه ، فقفز السبع عليه قفزة مرعبة ، فما كان من شهدون إلا أن تلقاه بسيفه على هامه بقلب أقوى من الحجر الصلب ؛ فإذا الرأس يشق قسمين وتناثرت الدماء عليه ، فصاح الناس وماجوا ، وفرح الملك بفارسه الجديد وأمر له بثياب أخرى ، وطلب منه أن يحضر للقصر بعد أن يستريح لينظر في أمره وفرح شهدون لمَ صار إليه من القوة والشجاعة ، ومن صموده أمام الأسد ملك الغابة والوحوش وفوزه عليه ، فصاح هاتفا فرحا : أين أنت يا حمدون لتراني ؟! لقد تحقق الحلم .. وأصبحت فارسا من فرسان الملك جهازون .

ثم أردف همسا : ولكن هل سأقتل بقوتي بشرا ؟! هذه أول مرة أرى الدماء تسيل من يدي !.. يا الهي العظيم !.. لا .. لأ .. سأستعمل قوتي في نصر الخير ونصر المظلوم ودفع الأذى عن الضعيف .. ولكن لو أمرني الملك بقتل أحد الناس من خصومه هل أرفض ؟! .. لا تتعجل الأمر أيها الفتى .. سأترك البلاد ولكن أين تذهب ؟ .. إذن لماذا تعلمت الفروسية ؟! .. هناك جرح غامض في الأعماق .. الهروب إلى الغابة البعيدة .. لقد تركت أمي .. هربت خوفا من القتل والسفاحين .. الحياة .. قتل .. دم .. هناك جرح عميق في نفسي يستيقظ .. صبرا أيها الفتى إنك لم تنس الماضي مع أنك كنت طفلا ذا خمس سنوات .. أمي أمي ! ماذا جرى لها ؟ تركتها وهربت .. بل هي طلبت مني أن أهرب كانت تقول : اهرب يا ولدي للغابة.. سيقتلونك إنهم يكرهوننا ويبغضوننا إنهم يحقدون علينا .. من هم؟! من هم هؤلاء ؟! يا لثارات أمي .. إني أتذكر دموعها الحارة على خدي ؛ ولكنها كانت تقول : إنهم يقتلون الرجال أبي لم أره ! لقد مات وأنا رضيع هكذا كانت أمي تحدث أخي خلدون .. أين أنت يا خلدون الآن؟! .. عندما ركضت نحو الغابة لم أرك .. هل ركضت قبلي ؟ سأبحث عنك يا أمي .. لقد حققت حلمك وحلمي وأصبحت فارسا .. سأدافع عن المظلومين بسيفي وخنجري .. الخير لابد له من مقاتل محارب .



كان شهدون في الليل في قصر الملك ، وقد لبس حلة ملكية جميلة ، وقد تقلد حساما مرصعا بالجواهر الثمينة ، وكان قد أتى القصر ممتطيا متن جواده وهو ساهم الذهن شارد إلى الأفكار التي تجمعت في ذهنه عندما فتك بالأسد الرئبال ، وكان القصر كله في استقبال شهدون ، وقد أنير بالشموع الكبيرة والقناديل المعطرة، وكان الحرس يحيون شهدون ويباركون شجاعته رغم صغر سنه، وقام الملك جهازون بنفسه يرحب به ويعانقه وهو يهتف : مرحبا بفارسنا الجديد .. مرحبا بشهدون بن حمدون الحكيم .. الآن يا حمدون جمعت العلم والفروسية فيحق لي أن اعتبرك ولدي وأفخر بك.. وقال بحزن : لقد صرع ولدي فعوضني الله الكريم بشهدون الفارس ..يا مرحبا يا مرحبا بالفارس الهمام .

خجل شهدون من كلمات المدح والثناء التي سمعها من فيه الملك وحاشيته وشكرهم بكلام لطيف وبأحلى عبارات الثناء والود والمجاملة، وقد أحس شهدون الحسد في عيون كثيرة لما حباه به السلطان من حسن الكلام والمدح ، ثم عاد الملك يقول وهو مسرور : أيها الفارس الصغير .. لتصبح فارس مملكتنا الكبير وندا قويا لهؤلاء الفرسان والقادة الذين ينظرون إليك بحسد وغيظ كما أرى في بريق العيون .. فعليك أن تثبت لهؤلاء الأبطال بأنك تستحق ما ألقيته على عاتقك من لطيف الكلام والثناء .. فعليك أن تخرج غدا في حملة من ألف فارس وتغير على بلاد الملك برديس لتشفي غليلي على فقد ولدي المحبوب قتيل الغدير يا ولدي يا شهدون .

جرت همهمة بين الفرسان لكلام الحاكم الغريب فقد سكنت الحرب منذ سنوات بين الخصمين، فأخذت الوجوه تنظر إلى بعضها البعض في حيرة ودهشة، ولما عاد الصمت والهدوء للمكان نطق شهدون الفارس فقال : سأفعل يا ملك الزمان .. وسأسير غازيا لبلاد الملك برديس مع أنك عجلت في هذا الأمر إلي .

نظر الملك وحاشيته ووزير الملك إلى شهدون بعجب لجسارته حتى أن الوزير غضب واحتد

وقال : ما هذه الوقاحة أيها الفارس ؟!

فقال شهدون بعجلة وذكاء وهجوم: حتى أنت يا سيدي الوزير لي حاسد ؟! .. إني أرى أن الملك أوسع صدرا منك ، أنا اعتبرت الملك والدي .. أنا عندما أتيت هذا الديار كما تعلم يا مولاي الملك جئت لأتعلم الفروسية ..جئت لأتعلم الفروسية فقط ! وما كنت أحلم بأن أصبح فارسا من فرسان الملك جهازون .. كنت راغبا بتعلم الفروسية والعودة لبلاد الشرق وأبي حمدون .. وبما أن الملك يريد أن يمتحنني ويضعني في ميدان المملكة ومن فرسانها فعليّ أن أكون أهلا لثقة الملك فيّ مع ما أشار إليه الملك من الحسد نحو شخصي الضعيف من كثير من هذه العيون التي تنظر إلي ..فغدا أيها السلطان سأغزو بلاد عدوك برديس .. فأنا أحب الصراحة وأبغض التملق .. وعلى كل بعد الحرب إن قدرت لي الحياة سأغادر .. ولكن سأقضي وقتا في بلادكم إذا رغبتم ببقائي قبل الرحيل .

قال الملك : حقا إنك لصريح ولجريء ولقوي يا شهدون وتستحق أن تضع حسامك في خدمة الملوك وتنسى حياة الكهوف .. والوزير قد أساء إليك بحسن النوايا فهؤلاء القوم لم يعرفوا مثل هذه الصراحة معي ، وهذه الجسارة تفقد الإنسان رأسه ؛ ولكنك غريب وضيف وحكيم فنغفر لك ما قلته أمامنا ، وعندما تعود ظافرا سنخيرك بالبقاء هنا وتحت حمايتنا أو تعود لكهفك عند والدك حمدون والزاهد بزغون .

ونظر إلى فرسانه وحاشيته وصاح منبها : حياة شهدون تهمني أيها الفرسان فلا تسيئوا إليه ..

والتفت إليه وقال له وللآخرين : إنك في أمان السلطان .. اذهب يا شهدون واستعد للثأر .

حيا شهدون الملك وانصرف إلى بيته القريب من مدرسة التدريب التي تلقى فيها دروس الفروسية والقيادة ، وهو يفكر بهذه الحملة التي لا ناقة له فيها ولا جمل كما قيل في المثل ، وفي الصباح الباكر كان الفارس شهدون في ميدان الفرسان يمتطي صهوة الجواد وهو مرتد عدة القتال من الدرع والمغفر والجنود بين يديه ، وكان قد كتب خطابا للملك برديس يخبره بزحفه نحو بلاده للثأر لابن الملك جهازون أو يسلم نفسه للملك جهازون ، وقد انطلق الرسول

بخطاب شهدون للملك برديس ، وكان هذا الخطاب حتى لا يأخذهم غدرا وغيلة إنه يريدها حربا متكافئة ، وانطلق الألف جندي بقيادة الفارس شهدون لمنازلة الملك بدريس ، ولما اقترب من بلاد برديس كان الملك في انتظاره بجيشه الجرار ، وفرسانه المغاوير ، وفي نفس السهل الذي حدثت به المعركة التي أسر فيها شهدون سابقا ، فتعجب من الأقدار فقد تذكر عندما وقف يتفرج على المعركة وعلى الفرسان ، وكيف سقط أسيرا ؟! فقال لنفسه : هل ننتصر يا ترى على هؤلاء الرجال ؟

فأرسل غلاما للملك برديس يعرض عليه اللقاء قبل الحرب بين الفريقين ، فرضي الملك ، ونصبت في وسط الميدان خيمة صغيرة وتقدم نحوها القائدان أمام عيون الفرسان من الطرفين خوفا من غدر أحد الطرفين بالآخر، فترجل الفارسان عن جواديهما وتصافحا وتكلما وتجادلا حتى قال الملك برديس : أنا أكبر فيك كرهك للظلم والبغي والعدوان يا فارس شهدون ؛ ولكن أن اسلم نفسي للملك حيا فهذا صعب لا تقبله نفسي ولا جندي ولا قومي ، فنحن لا نحب إراقة الدماء وسفكها والفساد في الأرض .. نعم أخطأ ابني بقتله ابن الملك جهازون ، ولكن ذلك طيش شباب وتسرع من كلا الفريقين ، وقتل ابني جزاء وفاقا ، فهل يبقى للملك عندي ثأر؟! ابن ملك مقابل ابن ملك .. فقدومكم علينا بعد هذه السنين من الصمت للاعتداء علينا ظلم وعدوان ، ونحن لم نطالب بثأر في مقتل رجالنا وفرساننا ، وتقبلنا الهزيمة لأننا اعتبرنا أنفسنا ابتدأنا بالظلم .. ولا عذر لكم الآن في ظلمنا .

فسكت الفارس لحظات ثم قال : يا مولاي الملك! أنا أبغض الظلم ولا أريد أن أسفك الدم الحرام من أجل فلان أو فلان .. فالصلح خير وأريد أن أصلح بينكم هل من حل عند شخصكم ؟

فعاد الملك يقول : لا أستطيع أن أطيعك وأسلم نفسي لمولاك .. ولا أستطيع وأنا أرى أخلاقك الكريمة أن أغريك بالمال لتلحق بي إنني أراك رجلا حكيما وتدافع عن المبادئ التي تعلمتها في كهف الشروق ، مع أنك لو شرفتني في بلادي لزوجتك إحدى بناتي الأميرات ، وأمنحك قصرا

جميلا لم تر مثله في الأحلام .

تبسم شهدون وتذكر مهران وبساتينه للحظات وقال: يا مولاي وهل إذا وافقت على عرضك يدع مولاي جهازون قتالك؟ .. لا .. لا ستبقى المشكلة قائمة .. فالحل عندي الصلح ، أما كيف سأعرض عليك رأيي ؟ وأرجو أن تقبله حتى لا نريق دماء هؤلاء الناس من أجل لا شيء الحل أيها الملك أن تكتب خطابا للملك جهازون تظهر له الأسف والحزن على ما جرى ، وتبدي رغبتك في الصلح وحقن الدماء وإنهاء حالة الحرب ، وتعرض عليه الوحدة بين مدينتكما ، وتزوج إحدى بناتك لأحد أبنائه أو العكس .. فبهذا لا تراق الدماء ولا يستمر مسلسل الثأر والدم هذه خطتي .

صمت الملك صمتا عميقا وطويلا يفكر بالصلح بين المدينتين وقال في النهاية : دعني انصرف الآن وأتشاور مع القادة بمبادرتك ؛ ولكن هل هذا الاقتراح من عند مولاك ؟

ضحك الفارس وقال : لا ، إنه من عند نفسي لأنني أكره الظلم والاعتداء والعدوان كما قلت لك في أول الكلام ، ولم أرق دما بعد ، وصدق أن الملك جهازون لا يعلم بذلك فإذا كتبت فسأكتب له أيضا أشد أزرك وأقنعه بالصلح والسلام .. فكر يا مولاي بما جادت به قريحتي لعلنا نحقن دماء الناس .

احتضن الملك الفارس وصاح : إنك نبيل يا شهدون ورجل سياسة وحكمة ولست رجل فتك وسفك .. غدا نجتمع في هذه الخيمة .

وودعا بعضهما البعض ، وركب كل منهما جواده وعاد إلى معسكره .

لما اجتمع شهدون بالقادة الذين تحت إمرته سألوه عما حدث بينه وبين الملك برديس ، ومتى ستنشب المعركة ؟ فقال بهدوء : بذلت جهدي حتى لا تراق قطرة دم .

فعجب القادة لما سمعوا من قائدهم ، فذكر لهم خطته مختصرة ، فازدادت دهشتهم لذكائه وشفقته حتى أن أحدهم صاح : إنك يا شهدون تحب العدل ! ولولا أني خبرتك في ميدان التدريب لقلت إنك تخاف الدماء والموت .

فرد عليه الفارس بثقة قائلا : جئتكم من بلاد بعيدة وحدي ، قطعت فيها غابات وجبالا وأودية وكنت ابن خمس عشرة سنة .. ولو كنت أخاف الموت والدماء ما وصلت سالما أو قطعتها وحدي؛ ولكني جبلت على حب العدل والإحسان وكره العدوان والبغي من غير سبب .. ألم يقتل فرسانكم ابن الملك برديس انتقاما لمقتل ابن ملكنا جهازون؟ .. فلماذا تتجدد الحرب والمعارك ؟! .. إني أرى من بعيد رسولا قادما من جهة ملكنا جهازون .

وصل الرسول في حالة من الإعياء الشديد إلى خيمة القائد شهدون وهو يتمتم قائلا : قطعت المسافة على نفس واحد يا سيدي القائد لأمر جلل وخطير .. هذا كتاب الملك !.

وأخرج الرسول كتاب الملك وقبله وناوله للقائد شهدون ، فتناول منه الرسالة وقبلها وفضها فإذا فيها " عد حالا الوضع خطير والتفاصيل في قلب الرسول "

نظر القائد بخوف وقلق للرسول وقد ظهر التوتر على قادة الفرسان والجند وقال شهدون للرسول : ويحك .. ما الخطب ؟!

بعدما تناول الرسول الشراب وشرب قال : سيدي القائد ! .. بعدما خرجتم من البلاد قدم نحونا جيش عرمرم يريد غزو بلادنا والتقت الفرسان بالفرسان ، والحرب سجال بيننا..والملك بحاجة للجنود والفرسان الذين معك ويقول لك " دبر الأمر مع الملك برديس وعد حالا " فهؤلاء الغزاة يريدون المال والنساء وتدمير البلد والقضاء على الملك جهازون .

فابتسم شهدون وهو يقول : أرايتم تدبير السماء أيها الرجال ؟! فالظلم ظلمات الآن ـ إن شاء الله ـ ستعرفون من هو شهدون ابن حمدون عندما يدافع عن الحق وأهله ؟

فأرسل رسولا يطلب اللقاء بالملك برديس قبل غروب الشمس الذي دهش للأمر والتقيا في الخيمة خيمة الأمان وقال شهدون : أيها الملك رب السماء يهيئ لك الفرصة في السلام وإنهاء العداوات ، ولكن قبل أن أقل لك ما جدّ في الأمر ما رأي قومك ورجالك في تجادلنا حوله صباحا ؟

فرد الملك:انقسم القوم قسمين ؛ ولكن الأكثر يرغب في الصلح ما الذي جدّ عندكم ؟

قص شهدون الأمر بصدق على مسامع الملك فدهش الملك ثم قال : إنها فرصة للقضاء عليكم فقال شهدون : بل فرصة لنذهب معا لدحر أعداء الملك جهازون ، وسيكون هذا موقفا كبيرا لدى الملك ، وسيعيد الصفاء لكم ولهم، واحذر الظلم والغدر أيها الملك .

فقال الملك : إنك يا شهدون شديد الدهاء إن أفكارك تدهش النفوس .. الظلم مرتعه وخيم نعم .. إنها فرصة للسلام إن الأقدار تخدمك يا شهدون .

وفي الصباح التالي كان الجيشان يتحدان بعد أن خدمها القدر ويسيران نحو بلاد الفند ، وكان الملك برديس يقول لشهدون همسا ومداعبا : إنها فرصة طيبة أيها القائد الصغير لننصبك ملكا على بلاد الفند .

فعاد شهدون يكرر : الظلم سيئ ، والغدر أسوأ ونهايته سيئة ، والخيانة نهايتها الموت والهلاك ، ولا أطمع بمثل هذا المنصب أيها الملك الجميل .

كان الرسول الذي بعثه الملك جهازون قد سبق الجيش يبشر الملك بعودة جيشه المحارب وبصحبته جيش عدوه ، فانتشر الخبر في المدينة سريعا ، وعجب الناس لاتفاق الطرفين المتحاربين ، وموافقة الملك برديس على محاربة الغزاة مع عداوتها البغيضة .

واطلع الناس على دور شهدون في الصلح بين البلدين ، ثم اطلع الملك جهازون على الرسالة التي وصلته من الملك برديس ورغبته في الصلح والاحتكام للعقل والإنصاف والسلام ، وأمام ضغط الغزاة وما حل بأطراف المدينة من دمار ، وخروج الناس إلى قمم الجبال رضخ جهازون للصلح وتقابلوا في قصر الملك ، وكان اللقاء مشهودا بين القادة والفرسان من الفريقين ، وكان الفضل لشهدون الذي أصبح ذكره على كل لسان ، وقاد شهدون الفرسان نحو ميدان المعركة حيث يتصدى الجنود للغزاة، والتقى بالقادة والفرسان ، واطلع على سير المعارك والمبارزات ، ثم كتب رسالة شديدة اللهجة لقائد الغزاة يطلب منه الانصراف وترك البلاد في سلام ، فهزئ القائد من شهدون ومن جسارته وطلب مبارزته ، وفي الصباح برز شهدون أمام الفرسان فصال وجال في الميدان ، وطلب مبارزة الأبطال فسقط إليه فارسا فأرداه قتيلا مضرجا بدمه ، فأتاه

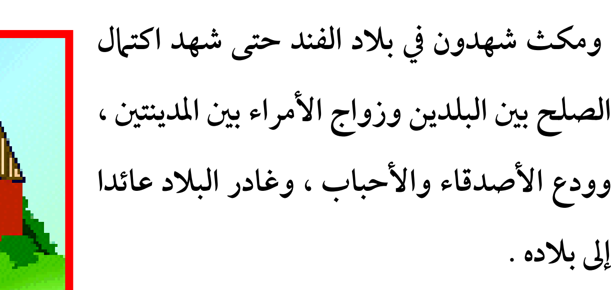
آخر فأضحى صريعا ، فطلب ملكهم أو قائدهم للمبارزة ؛ ولكن زعيمهم أمر بهجوم الجيش فبدأت معركة رهيبة بين الفريقين استمرت لليل ، ثم انفصل الجيشان لتالي الأيام ، دارت معارك قوية بينهم لمدة عشرة أيام ، ثم اجتمع الوزير بالقادة والفرسان واستمع لآرائهم في هذه الحرب الضروس الدائرة منذ شهر ، فتكلم القادة والفرسان بآرائهم حتى وصل القول لبطلنا الفارس شهدون، فاقترح أن يرسل خطابا شديد اللهجة للملك الغازي "زهمان" للكف عن العدوان والانسحاب بأسرع وقت ، وفي نفس الوقت نعد خطة هجوم شرسة وقوية كما اقترح القائد " جاليش " نصف الجيش يقاتل في النهار والنصف الآخر عند دخول الظلام حتى سطوع شمس النهار.. وأنا مستعد للقتال في الظلام .

فكتب الوزير رسالة تهديد ووعيد للملك زهمان ينصحه فيها بالابتعاد قبل فوات الأوان ، فجاء الرد بالموافقة على ترك تدمير البلاد إذا دفع الملك جهازون ألف قطعة من الذهب ومثلها من الفضة وألف ناقة وألف فرس وألف قطعة من الثياب ومثلها من الدروع والسيوف والرماح والمدى وألف جارية فإذا جاءت هذه الآلاف العشرة فعند ذلك يرضون بالصلح ويوافق الملك زهمان عليه ، فلما سمع شهدون بذلك قال : هذا هو البغي والاستخفاف بعينه غدا ننفذ الهجوم الأخير ، وقد أمرت فرساني بلبس ثياب حمراء أثناء الهجوم الليلي ، وأمرت الغلمان بإشعال النيران الضخمة والمشاعل العالية وسيشاركني في الهجوم فرسان الملك برديس وجنود جاليش والنصر من عند الله .

بدأت المعركة صباحا بنصف جيش الملك جهازون ، ودافع الجنود والفرسان دفاعا قويا باسلا عن بلادهم ووطنهم وقد استطاعوا أن يصمدوا أمام هجوم الأعداء القوي وصدوا هجومهم ولما أقبل الليل دخل فرسان شهدون المعركة وقاموا بهجوم عنيف ، ويا لها من ليلة ليلاء كأنها ليلة من ليالي السعير ، وتقدمت الجنود تقاتل الأعداء المنهكين حتى وصل شهدون والفرسان إلى خيام الملك زهمان الذي قد ولى هاربا من هول المفاجأة والهجوم الكاسح ، وما بزغت الشمس حتى كانت جيوش الملك جهازون تطارد فلول الجيش المنهزم في الوديان والجبال ،

وطلب شهدون من جنود النهار الاستمرار في المطاردة قبل أن يلملم المنهزمون فلولهم ، وكانت أخبار النصر الكبير قد وصلت لقصر الملك والشعب فعمت الأفراح في البلاد .

فلما عادت الجنود والعساكر للمدينة وهي مظفرة ومكللة بأكاليل النصر والسرور أمر السلطان بإقامة الأفراح والولائم لمدة سبعة أيام من خزائن الملك ، وارتفع صيت شهدون بعد هذه المعارك ، وزادت شهرته ، وأثنى عليه الجميع أشد الثناء ، وأقروا له بالفروسية وحسن القيادة والتدبير، وأيضا كثر الحساد له ، وقام الملك باستقباله وأهداه فرسا من أفراسه الخاصة ودرعا وسيفا وخوذة ورمحا ودبوسا ومدية ورغبه بالزواج من ابنة الوزير، فشكره شهدون وذكر مكارم الملك وقال : يا مولاي .. أنا أحب أن تزوج أحد أبنائك الكرام من بنات الملك برديس لتصفى النفوس .. كما اقترحت عليه ونصحته ، وأما أنا فما زلت صغيرا على الزواج .. بل إني أفكر بالرحيل والعودة لأبي حمدون ، فلي أكثر من ثلاث سنوات مفارقه ، ولم أسمع عنه خبرا .


ومكث شهدون في بلاد الفند حتى شهد اكتمال الصلح بين البلدين وزواج الأمراء بين المدينتين ، وودع الأصدقاء والأحباب ، وغادر البلاد عائدا إلى بلاده .



عصابة سلطان الزمان

مضت أيام وشهدون يقطع البراري والقفار على متن جواده الهدية من الملك جهازون ، وذات مساء قبل هبوط الظلام وبينما هو يسير في أحد الوديان إذ أحاط به عدد من الخيالة ، وصاح به أحدهم بصوت مرعب : انج بنفسك أيها الرجل المتدثر بثياب الفرسان .. وانزل عن حصانك، وهات مالك ولك حياتك.

أوقف شهدون جواده وتلفت حوله ثم قال بكل هدوء : من زعيمكم أيها الأبطال ؟

فتقدم رجل ضخم كأنه الفيل وهو يضحك برنة عالية ساخرة وقال : أنا الزعيم أيها الشاب الناعم المدلل !.. فهذه ثيابك تدل على أنك من أبناء اليسار والثراء .. ولقد سمعت ما قال شهوان .

فظل شهدون ينظر إلى الزعيم بقوة وقال : أنت رئيس هؤلاء الأوباش ـ والتفت لرجاله ـ هل هو حقا سيدكم ؟

فهمهم الرجال بصوت مرعب وعيون تقدح منها الشرر حتى أن أحدهم قال : إن الزعيم يصبر عليك كثيرا .. حتى ثيابك يريدها الزعيم سلطان الزمان .

فقال شهدون : إذا فعلت ما تريدون هل تدعون لي حياتي ؟ واستل سيفه بسرعة البرق وتابع كلامه وهو يلوح بسيفه : فهذا السيف هدية من الملك جهازون ملك بلاد الفند ، وهو مرصع بالجواهر النادرة التي لا أظن أنكم رأيتم مثلها وهزه وصاح : انظروا إلى هذا السيف الملوكي ، وهذا الحصان أيضا هدية من الملك جهازون وهو من خيوله الخاصة فما وقع بين أيديكم مثله على ما أظن .. وهذا السرج الذي أجلس عليه من أفضل السروج وأثمنها وهو هدية من الملك برديس بن قان.

سال لعاب اللصوص مع بعض القلق من ذكر أسماء هؤلاء الملوك ، ثم تشجع الزعيم وصاح : أيها الغلام .. أتسخر منا ونحن عصبة ؟!

قال شهدون : أيها السادة .. هذه بضاعتي ـ وأخرج قلادة من عنقه ، ولوح بها أمام أعينهم ـ

وتابع قائلا : وهذه القلادة هدية من الملك برديس أيضا .

فصاح أحدهم : إنك تثير لعابنا للفتك بك .. ماذا تريد بهذا العرض المغري ؟!

فقال شهدون : ماذا أريد ؟! .. حقا ماذا أريد ؟ .. هذه الأشياء تستحق مني أن أدافع عنها .. أليس كذلك يا سلطان الزمان ؟ .. وأنا لا أحب الغدر أيها السادة .. فاعلموا أنني شهدون بن حمدون أطلب منكم أن تدعوني أمر من هذا الوادي بدون قتال وإلا أفنيتكم جميعا أو أموت دونها.

همس أحدهم في إذن الزعيم الأعور بكلام ، ثم قال الأعور لشهدون : يا هذا سمعنا عن شجاعتك وعن بسالتك .. ولك الأمان منا حتى تخرج من هذا الوادي .. على أن تعطينا من بعض ما معك ..

قال شهدون : الحمد لله على النعم .. وعلى الشجاعة يا سادة ! ما رأيكم بأن تدعو هذه القرصنة وتلحقوا بي وبخدمتي، وتتوبوا إلى الله ، وتدافعوا عن الخير، وتحاربوا الظلم كما رسمت لنفسي فالأشرار كثيرون في الدنيا.. وأنا أعلم أن الذي دفعكم لقطع السبيل هو الظلم والفقر والجوع وأنا مثلكم مظلوم .. هربت إلى الغابة وأنا ابن خمس سنوات ، وتركت الصدر الحنون صدر أمي ، وتكفلني رجل كريم فعلمني حب الخير والضعفاء والمساكين من بني البشر .. وتعلمت السيف وفنون القتال وخططه والكيد ومكره لأحارب الأشرار ، وأرفع الظلم عن كل مظلوم ألتقي به ، وبما أننا التقينا وأنتم مثلي مظلومون فاتبعوني ولنتحد على مقاومة الظلم وإنقاذ الضعفاء والمظلومين في أي مكان !

وتكلم شهدون عن الطغاة والطغيان والظلم والفساد والفقر والخير والشر حتى أبكى العيون من حسن كلامه وتعابيره حتى أنه نزل عن الجواد ، وترك الحذر ، وأحاط به الرجال وهم يبكون ويصيحون ولسان حالهم يقول : لم نسمع بمثل هذا الكلام من أحد قبلك يا شهدون !

ولما هدأت العيون ودقات القلوب الباكية قال الزعيم الأعور : لقد سحرتنا يا شهدون يا أبا الضعفاء والمساكين .. نحن عبيد لك افعل بنا ما شئت .

فقال شهدون بتأثر بليغ : بل أنتم أحرار كما جئتم إلى هذه الدنيا ، وكلنا عبيد لرب العبيد والعباد نحن ضحايا الظلم والظالمين.. وأنتم بأفعالكم هذه تظلمون ، وفي كل مرة تعترضون قافلة لتنهبوها تفقدون بعضكم ، من نجا اليوم قد يقتل غدا ، وكل محروم يلجأ إليكم .. ولكن الدائرة تدور على الباغي ، ويموت الإنسان منكم ولا أحد يترحم عليه .. ويموت ولا أحد يهتم بدفنه ومواراته التراب .. أما الإنسان الذي يدافع عن الحق فهو ممدوح في الدنيا والآخرة .. فهو يموت من أجل غاية.. فلنغير من نفوسنا ونعاهد الرب العالي بالدفاع عن الحق والمظلومين .

وما بزغ النهار حتى كان شهدون زعيما لهؤلاء الأشرار ، وقد لانت قلوبهم القاسية ، وكلهم رغبة في تنفيذ أوامره ، وانطلق الزعيم وجماعة منهم واحضروا صناديق المال التي أحرزوها من خلال عملهم في سلب الناس ، وأحضروا بقية الرجال معهم فإذا هم ما يقارب الخمسين رجلا.. وفي أول مدينة اشترى لهم شهدون ثيابا جديدة وخيولا وسيوفا لمن لا يملك سيفا وفرسا ، حتى أن ملك تلك المدينة وصله خبرهم فأرسل إليهم واجتمع بشهدون وعرف منه قصته معهم ، فباركه وأثنى على قدرته وشجاعته وقال : لقد كان يزعجون رعيتي بين الفينة والأخرى فجزاك الله خيرا لقد خلصتنا من شرورهم .

ومنحهم المال والخناجر الجميلة على سبيل الذكرى ، ولما تجهزوا رحل بهم شهدون إلى مكان وأخذ في تدريبهم وتمرينهم على فنون الدفاع والهجوم ، وبعد زمن يسير كان بين يدي شهدون أربعون فارسا، كل عشرة منهم تحت إمرة عريف، وكان سلطان الزمان رئيسا عليهم وأمير القوم شهدون الفارس الحكيم ، كان شهدون يرغب في البحث عن أهله أمه وأخيه خلدون ، فظل يمشي بهم حتى وصل للغابة التي وجده فيها أبوه حمدون ، وعند شجرة عملاقة جلس شهدون يبكي حتى عجب منه فرسانه ورجاله فقال له الزعيم : ما الأمر يا أميرنا ؟ .. إنك تبكي بكاء حارا ومؤلما !

استمر الشاب بالبكاء والقوم حائرون حتى رأوه تنهد أخيرا وقال : أيها الطيبون سأذكر لكم قصتي .. منذ سنوات بعيدة فقدت أمي ، تركتها في المدينة ، وأتيت إلى هنا هاربا ؛ لأنجو من

القتل .. هكذا قالت لي أمي .. كنت صغيرا ذا خمس سنوات .. هربت أمام إلحاح أمي إلى هذه الغابة ، ثم التقطني الحكيم حمدون وهو عائد من سفرة من سفراته ، فنقلني إلى كهف الشروق في جبال الشرق ، ورباني وعلمني القراءة والكتابة وبعض العلم حتى مات سيد الكهف الحكيم شردي، فانقسم القوم إلى فريقين وخرج فريق من الكهف ، فقررت أنا بدوري ترك العلم لأتعلم ركوب الخيل والفروسية ، فأرشدني والدي حمدون بأن أذهب لبلاد الملك جهازون بكتاب منه ، فهو صديق له ، وقد تعلمت الطعن والضرب والرمي في ثلاث سنوات ومكثت بعد التدريب سنة ، ثم قررت البحث عن أمي ، فالتقيت بكم ، وجرى بيني وبينكم ما تعلمون فهذه حكايتي ، أريد أن ألقى أمي لأعرف الحكاية ، لماذا دفعتني إلى الهرب للغابة قبل حضور الرجال ؟! .. من هم هؤلاء الرجال الذين تخاف أمي منهم عليّ ؟!

فقال سلطان الزمان : إنها قصة محزنة يا سيدي الأمير! .. ستجد أمك التي كانت تخشى عليك القتل من هؤلاء الرجال ، ومن أجل ذلك حثتك على الهرب إلى الغابة .. ستجدها إن شاء الله

فقال شهدون : أرجو ذلك .. أيها الاخوة الطيبون .

وبينما هم في هذه الأشجان سمعوا صراخا آتيا من أحد أطراف الغابة فقال أحد الرجال : هل سمعتم يا سادة ما سمعت ؟! صوت بل أصوات تصرخ .

أشار شهدون لرجلين أن ينظرا الأمر لعل أحد الناس يحتاج لمساعدتهم، فانطلق الرجلان وعادوا بعد حين وهما يقولان : هناك مجموعة من العبيد ، ومعهم عدد من النسوة يعذبونهن .

فقفز شهدون على جواده وقال للقوم : اتبعوني .

وانطلق سريعا إلى مكان الصراخ وحوله رجاله ؛ فإذا بعدد من العبيد وبينهم ثلاث فتيات مشدودات الوثاق ، وهن يصرخن من الضرب بالسياط ، وفوجئ العبيد بالفرسان تحيط بهم على صورة دائرة ، فقفز بعضهم على خيلهم ، فقال شهدون بصوت مرتفع : ما الحكاية ؟!

فصاحت امرأة منهن : أنقذنا منهم يا سيدي الفارس .. سأقول لك أنا الحكاية .

فصفعها الرجل الذي هو قريب منها، فصرخت ، وقال لها والنار تتطاير من عينيه : اخرسي

أيتها الحمقاء .

فقفز شهدون عن جواده ، واقترب منه وصفعه على وجهه صفعة قوية طرحته على الأرض ، فاستل الرجل خنجره وأخذ يزمزم ويدمدم وهو يقول بغضب عنيف : ويحك ألا تحترمنا وتخشانا ؟

وانقض على شهدون ؛ ولكنه قبل أن يصل إليه هجم عليه ثلاثة رجال فصرعوه وسحبوا منه الخنجر وأوثقوه بعمامته ورموه بين يدي شهدون ، وأمرهم الأمير بحل وثاق الفتيات وقال مخاطبا العصابة : من كبيركم ؟

فقال رجل منهم والشرر يتطاير من عينيه الحمرواتين وقال : أنا زعيم القوم أنصحكم بتركنا ولا تغتروا بكثرتكم ، فرجالي كثيرون وسوف يأتون بعد قليل ودعوا شأن هؤلاء النسوة ، ولا تأخذكم الحمية والشهامة فنحن أهلهن .

اقتربت الفتيات بعد أن فك الرجال قيودهن من شهدون وهن يقلن : لا تتركنا أيها الشاب إنه مجرم .. إنه سفاك إنه متعطش للدماء .

أمر شهدون رجاله أن يقدموا لهنّ الماء والطعام وهو يقول : ما الحكاية ؟!

فقال زعيم السودان : لا حكاية ولا شكاية .. انصرف أيها الفتى إنني أراك صغيرا على مقارعة الفرسان .. أنا العبد البطل الصنديد " دوان " فارس الفرسان ومذل الشجعان .

ضحك شهدون لافتخار العبد وقال له ساخرا : فارس الفرسان! وأشجع الشجعان! وتهين العذارى وتخطفهن يا دوان ..الفارس الحق ما يعرف البغي والعدوان.. تكلمي يا فتاة عن قصتكم مع فارس الفرسان العبد الصنديد دوان ؟

احتج دوان بشدة ، فأمر شهدون رجاله بربط كل العبيد بالحبال ، وهم يصيحون ويولولون .

فقال شهدون : لما نسمع الحكاية من البداية وإلى النهاية ننظر في أمركم أيها الكرام .. تكلمي أيتها الفتاة الصغيرة ، ولا تخش شيئا وأنتن الآن في حماية سلطان الزمان والفارس شهدون بن حمدون .

نظرت الفتاة التي تريد أن تتكلم للعبد دوان نظرة كلها خوف وقلق ثم قالت: يا سيدي الفارس أنا ابنة ملك بلاد السمر ، وأولاء أختاي ، فنحن ثلاث أميرات يا سيدي شهدون .. وهذا العبد من فرسان أبي ، وهو فارس شديد البأس ، وله أفضال كثيرة على أبي والبلدة ، وأبي الملك يحترمه ويكرمه هو وجميع فرسانه الزنج غاية الإكرام والاحترام إلى أن كان يوما رآني فيه فطمع بالزواج مني ، وأرسل لي بهدية ثمينة مع امرأة من فصيلته ، وحدثتني عن رغبته بالاقتران بي ، فاعتذرت لها بأدب ورفضت الهدية وتجاهلت الأمر، فما كان منه إلا أن كلم أبي بالأمر ، فاستغرب والدي طلبه ، واعتذر له هو الآخر بأدب واحترام ؛ ولكن دوان أصر وأغلظ القول لأبي ، فطرده أبي هو ورجاله من البلد إلى أن كنت أنا وأختاي في نزهة قرب النهر ، فخطفنا رجاله وأتوا بنا إليه وكان في انتظارنا في هذه الغابة .. فهو يعذبنا ويهيننا لاحتقارنا إياه ، فهذه القصة يا سيدي الفارس شهدون .

فقال شهدون متعاطفا : طبن مقاما أيتهن الأميرات .. فأنتن الآن بأيدي أمينة بإذن الله ، ولابد أن أباكن يبحث عنكنّ ، كم تبعد مدينتكن عنا ؟

فقالت إحداهن : نصف نهار جهة الشرق .

فأمر شهدون بحمل الفتيات على خيولهم، وحمل دوان وأعوانه على خيولهم ، وتحركت القافلة مع المساء ، ومع نصف الليل كانوا يدخلون مدينة السمر التي كانت في قلق وغضب على اختفاء الأميرات الثلاث ، ولقد فرح السلطان فرحا كبيرا عندما اجتمع ببناته من جديد ، واحتضن شهدون ورجاله وهو يقول لهم : أنا مدين لكم أيها الفرسان ! فيحق لك أن تأخذ تاجي وملكي لقد أعدتـم لي شرفي وكرامتي .. لقد غفلت عن مكر دوان .

وأنزلهم الملك في قصر الضيافة ، وأمر بحبس دوان ورجاله حتى الصباح لينظر في أمرهم ، وأمر بتشديد الحراسة عليهم .

ولما طلع النهار وارتفعت الشمس في السماء كان الملك همام يستقبل شهدون وسلطان الزمان في إيوان القصر ، وكرر شكره لهم ثانية ، ورحب بهم أجمل ترحيب ، وبينما هم يتحدثون أعلن

الحاجب عن وصول الوزير الذي دخل ، فوجد الديوان عامرا بالفرسان والوجوه الغريبة ، فأصابته دهشة فاقترب من الملك وهو يتلفت في الوجوه ، وكان ينتظر أن يتكلم السلطان ، فقال السلطان معرفا بوزيره : هذا وزيرنا يا أمير شهدون .

وكان شهدون يحدق النظر بشخص الوزير، فقد رآه من قبل ، ونظر الوزير بدوره إلى الرجل الذي خاطبه الملك بشهدون فرآه أصغر القوم ، وسمعه يخاطبه قائلا : أيها الوزير ! .. لقد التقينا منذ سنوات في أحد الأودية .. وأذكر أن اسمك عيون يا هذا ؟!

دهش الوزير وأخذ يتذكر فقال : نعم ، اسمي عيون.. وكيف التقينا إني لا أتذكر؟! .. ذكرني أيها الأمير ؟

فقال شهدون وهو ينظر للملك المستغرب من معرفة الشاب الفارس شهدون لوزيره عيون : نعم ، إنك لا تذكر ، إنك كنت يومها هاربا من مطارديك .. وسألتك يومذاك عن بلاد الفند ، وذكرت لي أن لك قصة وقلت لي إذا التقينا ثانية ستروبها لي .. يا سبحان الله! ها نحن اجتمعنا ثانية .. واعلم أنني يومها التقيت بعد فرارك بمطارديك وكذبت بأنني لم ارك.. ولقد كانت أول كذبة تكون مني يا سيدي الوزير من أجلك!

دق الوزير على رأسه وقال متذكرا ذلك اليوم وبدا مرحا : إيه والله !! .. إني بدأت ألمحك في صفحات المجهول .. ولكنك كنت صغيرا جدا يومها ، وقلت إنك من تلاميذ الحكيم شردي إني أتذكر تلك اللحظات الخاطفة .

فقال شهدون وهو يهز منكبيه باسما : نعم .. أيها الوزير حياك الله وبياك ..

رحب الوزير بشهدون وتعانقا عناق الأصدقاء بعد غياب طويل ، وسر الملك لتعارفهما ، وقص على مسامع الوزير والحاشية حكاية شهدون والأميرات المخطوفات ، وصنع الملك وليمة كبيرة لشهدون وفرسانه الأربعين ، وفي المساء استضاف الوزير شهدون ، وبعدما استقر بهما المكان قال الوزير وهو يضع بين يدي شهدون تفاحة كبيرة :أيها الفتى حدثني بحكايتك ، يومذاك رأيتك في حال واليوم في حال آخر!

قص شهدون على الوزير حكايته منذ التقيا في الوادي ، ثم وصوله لبلاد الملك جهازون والتدرب على الفروسية ، ومشاركته في الإصلاح بين الملك جهازون والملك برديس،ومحاربتهم للملك زهمان وانكسار جيشه، ثم التقاؤه بسلطان الزمان، ومن ثم التقاؤهم ببنات الملك همام في الغابة بين يدي العبد دوان ، وفي النهاية قال : هذه قصتي أيها الوزير عيون .. والآن أحب أن أسمع حكايتك التي وعدتني بسردها في يوم من الأيام .. وها قد قدر الله لنا اللقاء .. فهات ما عندك يا سيدي الوزير .

قال الوزير : أيها البطل الهمام .. قبل أن أصبح وزيرا للملك همام كنت قاضيا في هذه المدينة ، ذات يوم اشتكى رجل بأن أحد الأمراء غصبه ضياعه واحتال عليه ، وأخذها منه وطردوه من البلد ، فجاءني وروى لي حكايته مع ابن الملك الأكبر ، فاتصلت بالسلطان وذكرت له الشكوى والرجل المظلوم ، فغضب الملك على ولده ونفاه من البلد إلى مدينة تحت حكم ملك صديق له حاولت ثني الملك عن هذا النفي ؛ ولكنه أصر على النفي .. ومولانا الملك يكره الظلم والبغي والإثم ، فحقد عليّ هذا الفتى حقدا قاتلا ، وكان له أصدقاء فأخذوا بمضايقتي ومعاكستي ، فقررت ترك البلد سرا ؛ لأن الملك عجز عن حمايتي فهربت بالخفية ، ويومها رأيتك بالوادي ، وقد علم بعض رجال ابن الملك بخروجي سرا ، فعندما علموا بهربي قاموا يطاردونني ، وظللت أكثر من سنة أتنقل من مكان إلى آخر، ولما سوّى الملك الأمر بينه وبين ابنه أرسل يبحث عني ، فلما هدأت الأمور أيها الصديق عدت وجعلني الملك وزيره وعزلني عن القضاء ، هذه هي قصة هربي أيها الصديق العزيز ، وقد عادت المياه لمجاريها كما يقولون ، وخف التوتر بيني وبين ابن الملك بموته ، فقد هلك في أحد أسفاره .. وقصة هؤلاء العبيد أنت تعرفها .

وأمضى شهدون وبعض رجاله الليلة في ضيافة الوزير ، ولما ظهر الصباح ساروا لديوان السلطان فرحب بهم الملك ترحيبا كبيرا ، وبعد ساعة من الزمان أطلع شهدون الملك وحاشيته برغبته ورجاله بالرحيل للبحث عن أمه التي فقدها منذ أكثر من خمسة عشر عاما ، فأكرمه الملك ورجاله بالهدايا والسيوف وصحبهم لطرف المدينة ، ورجع لتخت الملك يحكم ويرسم

وأما شهدون الحكيم وعصابته فواصلوا المسير إلى الغابة وقبل أن يدخلوها إذ بهم يفاجئون بدوان ومعه مائة من العبيد والأعوان ، وكان يعترضهم وهو يقهقه بصوت يتجاوب صداه في الفضاء ، وكان شهدون ورجاله في دهشة من هذه المفاجأة الحقيقية ، فقد تركوه في السجن ، فصاح شهدون وقد سيطر على نفسه وأعصابه : بهذه السرعة وجدت فرصة للهرب .

فاستمر في قهقهته وهو يصيح ساخرا : أنا في انتظارك من أول يوم أيها المنقذ .. أنا لم أقض في السجن إلا بضع ساعات.. أنت أيها الغر لم تعرف دوان أخذتنا على حين غرة .. وانشغل الملك بالترحيب بك والثناء على بطولتك..وأنا أعددت لك هؤلاء الرجال الأشداء ليثخنوك بالجراح ويرسلوا رأسك لذاك الملك الرعديد .

فقال شهدون : جميل هذا! .. أنت الآن مستعد للنزال ؟ .. فلنتبارز ومن قتل صاحبه فالرجال الآخرون في حل .

أخذ دوان يضحك ويزمجر ويقول بثقة كبيرة : ستموت أنت وهؤلاء الأنذال اللئام .

وأشار لرجاله بالهجوم ، وكان رجال شهدون على أهبة الاستعداد فتصدوا لهجومهم ، وبدأت المعركة ويا لها من معركة ! .. وصبر رجال شهدون ساعة من الزمان ، فأخذ رجال دوان يتململون أمام ضربات شهدون وفرسانه ، وكان دوان يشجعهم ويمنيهم بالغنائم والذهب بفوزهم؛ ولكنهم بدأوا يتساقطون واحدا تلو الآخر، واقترب شهدون من دوان وكان بينهما عراك شديد تكسرت فيه الرماح ، وفجأة رأى دوان يده تطير من ضربة سيف حاسمة وسقط عن جواده ، فتركه شهدون يولول ويصيح وهجم على رجاله الذين أخذ أكثرهم بالتقهقر والنجاة بالروح ، ثم خلا الميدان منهم بعد اختفاء صوت دوان ، فبحث شهدون عن دوان فلم يجده فقال : لقد قطعت يمينه ، ولم أكمل عليه وها هو قد هرب .

شوك الفلاة

تفقد شهدون رجاله ، فلم يقتل منهم أحد بفضل الله إنما هي بعض الجراحات ، قد كان شهدون قد دربهم أحسن التدريب ، وهم يلبسون الدروع وبين أيديهم أشهر السيوف في ذاك الزمان ، وداووا جراحاتهم ، وبعدما استراح الفرسان عدة ساعات تابعوا السير نحو الغابة التي دخلوها مع جنح الظلام ، فقرروا المبيت فيها فأشعلوا النيران ، وتناوبوا على الحراسات حتى الصباح ، ومع شروق الشمس استيقظ الرجال ، وكانت طريقهم إلى مدينة تسمى "شوك الفلاة" ، ونزل شهدون على أحد أطراف المدينة ، وأخذ سلطان الزمان وبعض الفرسان ودخل المدينة يسأل عن أم خلدون ، إنه ما زال يرسم في مخيلته المنزل القديم، ذهب إلى هناك وسأل، لا أحد يعرف من هي أم خلدون؟ لا أحد يتذكر صفتها؛ ولكنهم صدفوا رجلا كهلا قال له : يا هذا.. إنني أتذكر رجلا كان يعيش هنا منذ عشرين سنة بهذا الاسم .

وساقهم حيث المنزل، ولكنهم لم يجدوا صاحب البيت فيه، وكانت قرب البيت شجرة فجلسوا تحتها ينتظرون الرجل المذكور، وبينما هم يستريحون في ظل الشجرة العملاقة اقتربت منهم شرذمة من الفرسان بقيادة رجل كهل كث اللحية جهوري الصوت يقول لهم : أيها الرجال أنتم مقبوض عليكم بأمر الحاكم .

فقال أحدهم : ولماذا ؟ ألأننا غرباء عابري سبيل ؟! .

فقال الرجل : أرجوكم اتبعونني ومن غير جدال ، ولا احتجاج ، ولا فوضى ، وهناك تكلموا بما أردتم .

فقال شهدون : أيها الرجل سنذهب معك ؛ ولكن هذا ـ وأشار للدليل ـ ليس منا هو منكم جاء بنا ليدلنا على رجل يعيش هنا اسمه سعيدون فاسمح له بالانصراف

فقال الكهل : كلامك لطيف أيها السيد ، ولكن لا أسمح لأحد بالانصراف فمطلوب مني أن أحضركم جميعا .

قال شهدون : حسنا أيها البطل الشهم اركبوا أيها الرجال على خيولكم واحملوا معكم أخاكم

فعاد الرجل الكهل يقول : مهلا أيها الرجال .. لا تركبوا أخشى أن تهربوا .. سلموا أسلحتكم وخيولكم وإلا ..

فاحتد شهدون وقال بحدة: إلى هنا وبس !.. إما أن نركب خيولنا وعلى جنوبنا السيوف وإلا القتال يا هذا .

فأشار الكهل إلى رجاله فأخرجوا سيوفهم واستعدوا للقتال .. وفي هذه الأثناء كان شهدون قد قبض على الكهل فجأة وطرحه أرضا وهو يقول : لا ينفع معك إلا هذا ..

ثم كتفه وشد وثاقه ، ثم قال لفرسان الحاكم ورجاله : هيا سيروا بنا إلى مولاكم الحاكم .

وأشار لسلطان الزمان بإحضار الفرسان ، فتخلف سلطان الزمان عن القافلة على حين غفلة ، وبعد ساعة من الزمان كان شهدون يطرح الكهل أمام الحاكم الملك خبرون وهو يقول : ما علمنا في البلاد التي جبناها شرقا وغربا أن يتعرض لنا ملك بالأسر والهوان .

وقف الملك خبرون مضطربا وغاضبا وقال : هذه جريمة كبرى أيها الفارس !

فقال شهدون : شهدون بن حمدون الحكيم .

فقال الملك بغضب : من رعايا أي ملوك الدنيا أنتم ؟

فقال شهدون : من رعايا ملك هذه البلاد .

فاحتار الملك وقال : ماذا ؟! أتهزأ بنا أيها الفارس ؟!

فقال شهدون بصدق : معاذ الله .. أنا من هذه البلاد شوك الفلاة ..

وقص قصته قصة هربه للغابة قبل سنوات ، فلما انتهى منها التفت الملك إلى وزيره ونظر إلى عينيه نظرات عميقة ثم هتف دهشة : أيمكن هذا ؟ .. ولكنك قلت أن أباك حمدون ؟

فقال : الحق أنني لا أعرف أبي جيدا ، لقد هلك وأنا رضيع ، وكان يدعى على ما أذكر "سالمون"، ولي أخ اسمه خلدون ، وتركت أما، وهربت من العدو المجهول للغابة، فكفلني الحكيم حمدون في كهف الشروق فصار أبي .. ولكن الأصل أنني من هذه البلدة ..

كان الملك كلما ذكر علما من الأعلام أثناء كلام شهدون ينظر إلى وزيره فإذا الوزير يقول

هامسا : لقد اعتقدنا أن ذرية سالمون هلكت جميعها .

فاشتد غضب الملك وهو يحدق النظر في عيني وزيره الذي قال : لا عليك يا ملك الزمان أمر ومضى .

فقال شهدون والريبة تغزو قلبه : إني أسمع كلاما أشعر بأنه يخصني أيها الملك هل تعرفون أبي يا كرام ؟!

فقال الملك: لا يا شهدون .. فأنت قادم تبحث عن أهلك وأمك ولكن نصيحتي إليك بأن تترك البلد وتخرج فورا ، وسوف أعفو عنك لتجرئك على خادمي وإن قبضت عليك مرة أخرى فمصيرك السجن والموت .

فضحك شهدون وقال : ما هكذا تتحدث الملوك العادلة ؟ .. فأنا صديق ملك بلاد الفند الملك جهازون ، وصديق الملك برديس ، وكثير من الملوك ما رأينا أحدا يخاطبنا بالظلم ويطردنا ، ولا يساعدنا في البحث عن أسرتي التي فقدتها منذ عمر .

فنهض الملك عن كرسيه وقال : لا أحب أن أسمع مثل هذا الكلام في حضرتي ، وأنا صبّرت نفسي عليك .. أنا أعفو عنك لصداقتي لملك الفند .. ما هذه الضجة يا وزيري ؟!

خرج الوزير وعاد بعد قليل وهو يقول : فرسان هذا الرجل يسألون عنه .. انظر إليهم الفارس حتى يطمئنوا على حياتكم .

شكر شهدون الملك وقال : هيا أيها الفرسان .. إلى اللقاء يا ملك الزمان .

فقال الملك بغضب : إنك جسور .

فرد شهدون : ألم تسمع بي أيها الملك الصنديد فاسأل صديقك ملك الفند ؟

وغادر القصر سريعا وخرج من المدينة على عجلة ، وهناك عقد اجتماعا مهما مع فرسانه ، وفي هذا الاجتماع تقرر خطف الوزير لمعرفة حقيقة سالمون، وفي مغارة كبيرة في أحد الجبال اتخذت مقرا للنوم وتدبير الخطط نزل شهدون وفرسانه ، وبدأ يرسل الرجال بثياب العامة إلى المدينة متنكرين ليرسموا حيلة يصطادون فيها الوزير .

مضى شهر من الأيام ، وقد نسي الملك ووزيره شهدون وجماعته ، وقد تجمع لدى شهدون معلومات عن قصر الوزير وحركاته ؛ وذلك بواسطة العيون التي سكنت المدينة ، في الليل يتسلل أحد الرجال ويلتقي بالعيون ، ويأخذ منهم الأخبار وينقلها لشهدون ، وقبل تنفيذ الخطوات الأخيرة من خطة خطف الوزير، تنكر شهدون على صورة رجل أعمى ودخل المدينة برفقة رجل يقوده ، وزار قصر الوزير ونظر موقعه وعدد حراسه، ثم سار لبيت سعيدون ولم يجده ، وبعد أيام من تنكره عاد للكهف ، ووضع الخطة النهائية لخطف الوزير وزير الملك خبرون ، وقبل تنفيذ الخطف لاستجواب الوزير، نزل شهدون البلدة سرا ورتب الأمور والتقى بالرجال الذين نزلوا وسكنوا المدينة ، وبالقرب من منزل الوزير بعد ثلثي الليل ترك رجاله حول القصر ، واقترب من حراس القصر ، وطلب عريفهم وذكر له رغبته في مقابلة الوزير لأمر هام ، وأمام إصرار شهدون على لقاء الوزير وعدم تصريحه بالسر الذي يريد أن يبوح به للوزير أرسل عريف الحرس جنديا للوزير الذي رفض المقابلة في مثل هذا الليل وفي مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ؛ ولكن الجندي لما ذكر له اسم شهدون بن حمدون وبعد تردد أذن له بالدخول عليه، ولما التقيا قال له الوزير غاضبا : هل عدت للمدينة مرة أخرى ؟! .. ألم يحذرك الملك من البقاء هنا ؟ وما هي الأسرار التي ترغب في نقلها اليّ في مثل هذا الوقت ؟!

فقال شهدون بصوت خفيض : لقد غادرت المدينة أنا والفرسان ؛ ولكن بعد زمن وقع في نفسي أنك تعلم سر اختفاء أمي وعائلتي فجئت إليك لأسمع القصة وأعدك أنني بعدما تطمئن نفسي لما عندك من الحقائق أن ادع المدينة والتحق ببلاد الفند أو كهف الشروق أيها الوزير .

فغضب الوزير بشدة وغيض وقال : ألهذا جئت اليّ ؟! .. أيها الجنود اطردوه وانبذوه خارج القصر .

نهض شهدون وهو يقول : شكرا لك .. سأخرج بنفسي لا داعي للطرد والشدة .

وقاده الجنود إلى خارج القصر ، فشكرهم على تعاونهم وعاد للجبل ، وبعد أيام ثلاثة طلب من رجاله تنفيذ خطة خطف الوزير كما رسمها ، كان لشهدون عين حول قصر الوزير ترصد

الموقف ، وقبل السحر تقدم فارس متنكر بلباس حرس السلطان ، وطلب رئيس حرس الوزير وقال له بشدة متظاهرا أنه يعرفه : يا همران ألم يأتك "بلمز" – اسم أحد خواص الملك – لقد أرسله الملك باستدعاء حضرة مولانا الوزير .. فالملك يرغب بلقائه ، وقد تأخر "بلمز" ، ولم يحضر الوزير فأرسلني مولاي الملك إليه .

فقال رئيس الحرس : لم يحضر "بلمز" وهل أنت جندي جديد ؟!

رد الرجل : لا.. ولكني التحقت بحرس الملك حديثا .. لقد كنت من جنود حرس مولانا القاضي مشهورون .. عجل بإخبار الوزير بحاجة الملك إليه .. لا أريد أن أعود ثانية سلام .

وتظاهر بالانصراف فصاح رئيس الحرس : تمهل يا هذا حتى أتكلم مع سيدي الوزير .

فقال الرجل : صديقك شبل .. أخبره أن الملك يريده في بستان الورود قرب النهر إلى اللقاء .

ابتعد شبل ، ودخل الحرسي ،وأيقظ الوزير ، وأطلعه على رسالة السلطان ، فنهض ولبس ثيابه وقال : أين الجندي ؟

فرد أحد الحرس : ذهب أمامك يا سيدي ليطمئن الملك على قدومك .

فقال رئيس الحرس : هل اتبعك يا سيدي ؟

فقال الوزير : حديقة الورد ليست بعيدة .. لا داعي .

ومشى الوزير وحده في جوف الليل نحو حديقة الورود حتى توارى عن قصره ، وانحرف يسارا نحو طريق يؤدي إلى الحديقة المذكورة ، وفيها اقترب منه رجلان بلباس حرس الملك وقال أحدهم : سيدي الوزير هل حضرت ؟

فرد بسرعة : نعم .

فقال أحد الحرس : نحن في انتظارك يا سيدي .

واقتربا من الوزير ، وقام أحدهم بوضع يده على فمه فإذا هو مكبل بالحبال بدون صوت ، ومشوا به مائة خطوة ، ثم حمل على بغل، ومن مكان إلى آخر أصبح الوزير في كهف الجبل ، ووجد نفسه بين رجال تقدح عيونهم جمرا ، ثم قدم له طعام وماء ، ولا أحد يكلمه حتى أشرقت

الشمس ، وبدأت الحياة يوما جديدا .

دخل شهدون على الوزير المخطوف ، وهو يلبس إحدى ملابسه الأميرية التي حصل عليها من ملوك الفند وبرديس ، وبعد التحية قال شهدون بقوة : اسمع أيها الوزير باختصار أرغب معرفة الحكاية من البداية وإلا أرسلت رأسك إلى مولاك الملك ، وسوف يكون هو الآخر هنا بعد أن يرى رأسك مضرجا بالدم بين يديه .. أريد أن أعرف قصة أمي وأبي وأخي خلدون .

فرد عليه الوزير بسخط وحقد : لا كلام عندي أيها الجبان الغادر .

فرد شهدون: أتيتك بالحسنى .. جئت القصر لأسمع فطردتني .. فكيف سأجبرك على الكلام إن لم أخطفك لتـعرف قوتنا وتفوه بما في صدرك من أسرار ؟

فقال الوزير: لا أتكلم إلا بحضرة السلطان .

ففكر شهدون بشرط الوزير وقال : كيف يكون ما تريد ؟!

قال الوزير بحقد: تصرف ..

فجحره شهدون لحظات ثم قال بعنف : حسنا ، بعد ثلاثة أيام سأعود إليك ثانية لعلك تبوح بالأسرار عندما تذوق طعم الأسر والهوان .

لقد اضطربت المدينة اضطرابا شديدا على اختفاء الوزير، وأصابت الدهشة الملك وحاشيته وقد احتاروا في تفسير غياب الوزير .. ومضت ثلاثة أيام ولا حس ولا خبر عن الوزير ، وفي الجبل أصر الوزير على عدم الحديث ، وهو يعلم علم اليقين أن شهدون لن يقتله قبل أن يعرف سره العميق ، التقى به شهدون مرة أخرى ، ولكنه رفض الكلام ، فلما يئس منه أخبره بأنه سيظل سجينا حتى تضعف نفسه عن المقاومة ، ووقع في نفسه خطف الملك خبرون وتشاور شهدون مع رجاله في ذلك وقال سلطان الزمان : إذا كان في خطفه يؤدي للغاية التي تسعى إليها من كشف السر فافعل مع في ذلك من أخطار.

فقال شهدون بحزن قاتل : إني أريد أن أعرف مصير أهلي .. لو تكلم اللعين لتركته وغادرت هذه البلدة إلى مكان نرى فيه ظلما فنرفعه عن الناس .. أريد أن أرتاح يا سادة .

وأخذ في البكاء والنشيج حتى أبكى القوم معه ثم قال : دعوني أفكر أيها القوم .

وبينما هم يودعون زعيمهم إذ دخل أحد الرجال قائلا : لقد وجدنا الرجل الذي نبحث عنه منذ دخلنا هذه المدينة وقد أحضرناه .

دخل الرجل العجوز ، فرحب به شهدون ، وأمر له بالطعام والماء، ولما استراح من صعود الجبل سأله الفارس الحزين عن أم خلدون فقال الرجل بألم واضح في كلامه ونبرات صوته : نعم ، إني أذكرها أيها الفارس .. لقد كنت جارا لها منذ سنوات طويلة ؛ ولكن ما علاقتك بها وما شأنك بها ؟!

تمالك شهدون نفسه وأعصابه وقال : سأقول لك فيما بعد أيها الشيخ الطيب ما شأني معها ؛ ولكن قل لي أين هي الآن ؟ وما تعرفه عنها ؟ فإن ذلك يهمني .

حسن الشيخ الكبير من جلسته وقال : بما أنكم غرباء ولستم من أهل هذه البلدة سأذكر لكم قصتها أيها الاخوة الكرام .. هذه السيدة الفاضلة كانت زوجة لأحد قضاة شوك الفلاة يدعى القاضي سالمون ، وكان هذا الفاضل يحب الأمانة والعدل ونصر الضعيف ورفع الظلم عن الفقراء والمساكين ، وذات مرة شكت إليه امرأة من عامة الشعب أن ابن الوزير المفقود منذ أيام قتل زوجها ، وأمر رجاله بنهب متجره الكبير في سوق المدينة ، واستمع القاضي لشكوى المرأة وذهب وعاين الموقع ، واستمع من أصحاب الحوانيت ، فدخل على الملك وطلب القصاص من ابن الوزير ، فغضب الوزير منه أشد الغضب ، ولكن مولانا القاضي طلب تحقيق العدالة ورفع الظلم والقصاص من القاتل ، وأصدر أمرا باعتقال ابن الوزير لمحاكمته محاكمة عادلة ، وحاول الملك تهدئة الأمر ، وثني القاضي عن هذه الحكومة ، وفي أثناء الجدال والمناورات قام أحد أبناء القتيل باغتيال ابن الوزير وهو في سجن القاضي ، افتعل الشاب معركة ولما حبس مع ابن الوزير فغدر به ، فجن الوزير واتهم القاضي بالتواطىء مع القاتل ، فأمر بحبس واعتقال القاضي للتحقيق معه وبعد شهور حكم عليه بالقتل هو وابن القتيل الأول ، وصودرت أمواله وطردت زوجته وولداها ، كان للقاضي ولدان أحدهما خلدون ، وكان في ذلك الحين شاب ابن

عشرين سنة ، وولد صغير اسمه عمارون ابن ثلاث سنوات ، المهم أن الأسرة ذاقت الذل والهوان والفقر بعد مقتل الأب القاضي حتى أن أقاربهم ابتعدوا عنهم خوفا من بطش الوزير ، وبعد سنة ونصف من مقتل القاضي سالمون حاول خلدون قتل الوزير ، فكمن له في طريقه ؛ ولكن الطعنة كانت ضعيفة وفاشلة فقبض عليه وأعدم بعد أيام والولد الآخر كما أخبرتني أمه أن رجلا مشفقا أخبرها أنهم يريدون قتله قبل أن يكبر، فأمرته أمه أن يشرد جهة الغابة الكبيرة ، وبعدها لم نسمع عنه شيئا ، فقد قيل أن الوحوش افترسته ، ومنهم من قال أن أحد الناس أخذه ورباه ، وظلت الأم تعيش في المدينة في بؤس شديد وشقاء مرعب حتى ماتت منذ سنوات قليلة فحزنت عليها ، وتركت الحي الذي كنت أسكن فيه ، وما كنت أظن أن أحدا في الدنيا يسأل عنها في يوم من الأيام إلى أن وجدت هؤلاء الرجال في انتظاري عند البيت ، وحدثوني بأمرك وحاجتك ، فجئت بدافع الفضول لأرى من هو الفارس المهتم بهذا الأمر بعد كل هذه السنين
كان شهدون ومن حوله من الرجال يبكون بحرارة وحزن عندما مات الأب والأخ ثم الأم ، وأخذوا يواسون أميرهم ويعزونه بألفاظ المواساة والصبر حتى أن الرجل شاركهم البكاء، وهو مدهوش لأمرهم، فتسأل عن ذلك فقيل له " إن هذا هو الابن الهارب الذي اختفى عمارون" تفاجأ العجوز وزاد نحيبه، وقام يعانق الأمير ويبكي ويحدثه عن أمه بحرقة وعن العذاب الذي تعرضت له من رجال الملك والوزير ، واستمرت الدموع والتنهدات تنزف، وشهدون كلما خفت الدموع يقول : حدثني يا سيدي الشيخ عن أمي المعذبة ..أمي المفجوعة بزوجها وولديها يا الله يا الله ! أرأيتم أيها الرجال كيف حفظني المولى لأنتقم من هؤلاء الظلمة والفجرة ؟ .. أرأيتم كم من التضحيات يدفع الإنسان من أجل إحقاق الحق ورفع الظلم ؟! .. ولكن الطغاة لا يرون العدل ولا يحبونه إذا اقترب منهم ..أنا سيف النقمة يا طغاة شوك الفلاة .

وبعد ساعات من الذكريات والدموع الغزيرة هدأت نفس الأمير شهدون ، فرقد على فراشه ونام نوما عميقا .

بدأ التفكير في خطف القاضي الظالم أو المشارك في الظلم والذي حكم على سالمون بالموت فإذا

هو كبير قضاة الملك خبرون، ونزل شهدون البلدة متنكرا بزي رجل فقير أعمى ولقي عيونه في المدينة ، وطاف حول قصر كبير القضاة ، وجمع المعلومات عنه وعن حركته ليرسم خطه نقله إلى الجبل ، وبعد تفكير ونظر رأى شهدون أن يتبعوا معه نفس خطة خطف الوزير يستدعى ليلا لقصر الملك ؛ لأنهم اكتشفوا أن رجال الحاكم لم يعرفوا الحيلة التي سقط فيها الوزير ؛ ولاعتقاد بعض الناس أن الوزير اختفى بنفسه ؛ لأن رئيس الحرس أخفى سر خروج الوزير ليلا ، ولما تهيأت الخطة نفذت بحذافيرها ، فكان كبير القضاة بعد أيام يجلس مع الوزير، فلما رآه دهش وتعجب الوزير من خطف القاضي ، فزاد خوفه وقلقه وتيقن القصاص والموت ، وطلب لقاء شهدون ، فرفض اللقاء بهم حتى يجلب إليهم الملك فهمس في أذن القاضي : ساعة الحساب دنت أيها القاضي !

فقال القاضي بخوف وتوتر : الانتقام ممن ؟!

فتبسم الوزير بغيظ من تظاهر القاضي بالبراءة وصاح : منا !.. لابد أنه عرف الحقيقة.. عندما دخل علينا بعد كل هذه السنين أشرت على الملك بقتله ، فقال "دعه إنه لن يعرف شيئا، ولن يستطيع فعل شيء" .. إنه ابن سالمون القاضي القديم .

جفل القاضي وصرخ فزعا وصاح : ويلاه! .. إنه الموت الأحمر!

دخل الرعب في قلب القاضي ، وأحس أن سيف العدالة فوق عنقه، وتسربت لنفسه الضحايا الذين فتك بهم بدون روية وإنصاف ورحمة، ضحايا المصالح والهوى والشهوة .

وتعجب الملك من اختفاء القاضي المشهور ، وقيل له خرج بعد منتصف ولم يعد، ولما دقق في الأمر كم كانت دهشته عندما علم أن حرسيا من حرسه ذهب إليه في الليل يطلبه للملك! فأنكر الملك طلبه له ليلة أمس ، وعرف أنها حيلة لاصطياده ، فاتصل بحرس الوزير ووجد أن الأمر حصل مثله مع الوزير، فأحس وشعر بأصابع شهدون تتحرك وتعمل، فعادت به الذكرى إلى القاضي سالمون ومقتله، فردد بين جوانحه : هل حان سيف العدل والانتقام ؟! .. هل لي من لقاء بشهدون ؟.. ولكنه ترك البلدة ولم يعد .

طلب الوزير الجديد وحثه على البحث عن رجل اسمه شهدون ، وذكر له أهم أوصافه ؛ ولكن كيف يرون البحث عن رجل مجهول الإقامة؟!

أما شهدون فكان يفكر في خطة وحيلة لاختطاف للملك خبرون ونزعه من بين حراسة الأشداء ، وقال لنفسه : لن نعدم ثغرة نصل منها إليه .. العدل لابد أن يتحقق ويأخذ مجراه .. القصاص القصاص أيها الظلمة .

اندس رجال شهدون بكثرة في المدينة لرصد حركات وأخبار الملك ، وبعد حين قصير تحقق لديهم معلومات كافية عن قصور السلطان وأكثر الأماكن التي يتواجد فيها ويتردد عليها ، وكانت المعلومات تقدم وتوضع أمام شهدون ليجد فيها الثغرة التي يستطيع أن ينفذ منها إلى السلطان ، وكان البحث عن الوزير والقاضي قد خف ، وقد يئس رجال الشرطة من الوصول إليهما ، فقد خطفا بطرق محكمة غامضة ، وكان من الأخبار التي جمعت بين يدي شهدون عن الملك أنه أحيانا يخرج ليلا في نزهة على أحد القوارب في النهر الذي يحاذي المدينة ، ويخرج الملك من قصره عند النزهة البحرية عند نصف الليل ومعه بعض الحراس الأشداء إلى قصره القريب من النهر ، ويمكث فيه ساعة من الوقت ، ثم يصعد القارب مع أحد ندمائه والبحارة ويتجولون في النهر ساعة ثم يعودون للقصر النهري ، فقد رأى شهدون أن فرصة خطف الملك في النهر فرصة طيبة ومشجعة لأنهم لن يتوقعوا هجوما على الملك في النهر.. وبدأ يرسم الخطط المناسبة فقد قام رجلان من أصحابه بشراء قارب صيد من أحد الصيادين ، وتمرنا عليه ، وقاما بربطه في مكان مناسب من النهر حتى يخرج الملك في ليلة من الليالي للنزهة ، ثم يتم اعتراضه في النهر ومن النادر أن يعمل الصيادون والملاحون في الليل في تلك البلدة ، وفي ليلة من الليالي وبعد طول انتظار أخبر شهدون بذهاب الملك إلى قصر الماء أو قصر النهر .. فقاد مجموعة من الرجال إلى موضع القارب الرابض على طرف النهر.. وبعد حين مر القارب من ناحيتهم ، وكان عليهم اعتراضه أثناء العودة للقصر ، فركب خمسة من الرجال على متن القارب ودخلوا وسط النهر ، فلما عاد قارب الملك اعترضوه فظن أصحاب الملك أنهم جماعة من السكارى والمتسكعين ؛

ولكنهم صعدوا قارب الملك بسرعة ، وبدأت معركة لم تدم طويلا لأن المفاجأة سهلت لهم الانتصار ، فكتفوا رجال الملك الأربعة ، وكمموا أفواههم ، وفعلوا بالملك المرعوب مثلهم وقادوهم للشاطئ ، وقد أصابهم الجزع والخوف الشديد ، وكان رجال شهدون ينتظرون على طرف النهر بين الأشجار ، وقد نزلوا بحذر شديد خوفا من أن يكون أحد سمع صراخ المعركة وبعد ساعات كان الملك خبرون أسيرا في الجبل يجلس بين يدي الوزير والقاضي ، وهو مصفر الوجه يشابه الأموات من الرعب ، فلما رآهم دهش وقال : من أتى بكم إلى هنا ؟! فاستمع لقصص خطفهم ، وروى لهم ما جرى معه بانذهال شديد ، وعند الظهيرة دخل عليهم شهدون وبعض الرجال والزعيم الأعور سلطان الزمان ، ورحب شهدون بالملك الأسير وقال : أيها القوم جمعتكم لقضية قديمة تعرفون تفاصيلها ..وهي مصرع والدي القاضي سالمون وأخي خلدون وأمي المعذبة.. فهل عندكم من دفاع وحجج تقولونها أمام هؤلاء الرجال لعلنا نمتنع عن القصاص العادل والانتقام الحاضر؟ .. هات أيها الوزير حجة تدفع بها عن نفسك العقاب ابنك قتل زوج المرأة ظلما وعدوانا .. فلماذا لم تمكن القضاء أن يقتص منه؟.. ألأنه ابنك؟! وأنت أيها القاضي لماذا أدنت سالمون القاضي المدافع عن الحق والعدالة واتهمته بالمشاركة بقتل ابن الوزير ؟ هات حجة ترفع بها عن نفسك القصاص.. وأنت أيها الملك تعتبر شريكا لهم في الجرائم .. قتل زوج المرأة ومقتل أبي وأخي خلدون .. فهل عندكم من شيء تدفعون به انتقامنا عن أنفسكم المجرمة فأسمعوننا إياه ؟!

صمتوا لم يتفوه أحدهم بكلمة، لم تسمع سوى لهاث أنفاسهم، وترى نظرات أعينهم الواهنة ، فغادرهم وأمر شهدون بعودة جميع الأعوان من المدينة استعدادا للرحيل عن هذه البلاد، وبعد أيام تحرك الفرسان مع أسراهم الثلاثة ، وكانت طريقهم الغابة المشهورة ، ومكثوا فيها أياما ، ثم تحركوا إلى بلاد السمر ، فرحب بهم الملك همام ووزيره عيون ، ولما استقروا في ضيافة الملك حدثهم الملك عن غارات العبد دوان على المدينة ، ونشره الفساد والقتل والرعب في أطراف المدينة ، فقص عليه الأمير شهدون معركته معه ومع رجاله وهربه مقطوع اليد ، ثم قص عليهم

قصته مع ملك شوك الفلاة ، فتعجبوا من جسارته على خطف الملك ووزيره وقاضيه ، وحزنوا لمقتل أبيه سالمون وأخيه خلدون ، فعرض عليه الملك الاستقرار في المدينة وتزويجه إحدى بناته الأميرات ، فاعتذر الفارس بعدم رغبته في الاستقرار في مكان واحد ، وعندما يفكر بالأسرة والأولاد يفعل الله ما يشاء ، فطلبوا منه المساعدة في القبض على العبد المتمرد دوان ، فطلب شهدون من سلطان الزمان رئيس القوم أن يختار له عشرة فرسان يتابعون معه المسير بالأسرى إلى كهف الشروق ، ويبقى الآخرون لمساعدة القوم حتى يعود من الكهف ، فسر الملك والأمراء بذلك، وقويت عزيمتهم بهؤلاء الفرسان الأشداء ، وتحرك شهدون ومعه عشرة فرسان على رأسهم جموح والأسرى الثلاثة ، واستمر السير حتى وصلوا للكهف بالأحمال ، معهم الطعام والثياب والهدايا لأهل الكهف من شيوخ شهدون وأصدقائه التلاميذ فاستقبلهم التلاميذ ، ورحبوا بهم والتقى شهدون بوالده بالكفالة حمدون ، وانسكبت بينهما الدموع والعبارات الصادقة بعد غياب أكثر من سبع سنوات ، وقد فوجئ بموت الزاهد بزغون ، وقد جلس على كرسيه الحكيم الزاهد حمدون ، وبعد الراحة قص شهدون على والده الزاهد مجمل حكايته الذي عاد لمعانقة ولده قائلا : لقد حزت الفروسية والشجاعة ، فقد مر بنا أحد تلاميذ الكهف من بلاد الفند ، وحدثنا عن أخبارك الطيبة ، وعجبنا لعدم وصولك إلينا مع أنك خرجت من تلك البلاد متجها إلينا ، وقد جاءنا رسول من الملك جهازون يطلب عودتك لبلاد الفند ، فقد تعرضت بلادهم لغزو جديد ، وقد هلك كثير من فرسانه ، ولحق بمدينة الملك برديس فهو في حالة قاسية فقد تحالف عليه خصومه.. فعليك يا ولدي يا شهدون أن تذهب لمساعدته، فهو يجمع جنده الناجين في بلاد الملك برديس .. فقد أحزننا حالهم جدا .

تعهد الابن أمام والده بنصرة ملك الفند وقال : دعني أتابع حكايتي أيها الزاهد .. فقص عليه لقاءه مع قطاع الطرق ، والملك همام والبحث عن والدته ، ومن ثم قصته مع الملك خبرون ووزيره وقاضيه وثأره عندهم .. واستمع حمدون لقصة موت والد شهدون بحزن وبكاء، فبكى هو ومن كان عنده من التلاميذ وفي نهاية المطاف قال شهدون : فيا والدي العزيز جئت أطلب

منك النظر في أمر هؤلاء الطغاة ، وهل يحق لي الانتقام منهم وقتلهم وتخليص البشر منهم ومن ظلمهم ؟ .

وبعد حديث طويل حول الموضوع ذهب حمدون وجلس مع خبرون ووزيره وقاضيه ، وذكر لهم مقتل القاضي سالمون ومقتل ابنه خلدون ، ومحاولة قتل الطفل عمارون ، وأمام حديث الحكيم حمدون قال الملك : صدق كل ما تفوهت به أيها الحكيم !.. لقد فعلنا ذلك في لحظات ضعف واغترار بقوتنا وسلطاننا؛ ولكن بعد هذه الرحلة في الجبال والوديان والذل الذي رأينا وحل بنا ألا يكفي هذا كفارة لنا ؟! .. فلنا أكثر من شهرين في ذل وهوان ، ونحن مستعدون أن ندفع أموالنا وملكنا لشهدون هذا ويغفر لنا جناياتنا ونسأل الله أن يتوب علينا .. إننا نادمون نادمون .

فقال حمدون : أيها الوزير أتقر بجرمك كما أقر سيدك الملك ؟

فقال الوزير والدموع تنساب على خديه : وهل بعد هذه المذلة والعذاب أن لا أعترف بما اقترفت يداي؟ .. لقد اعتادت نفسي على الجبروت والظلم يا سيدي الحكيم كنا نرى العدل والقصاص إهانة لنا وطعن في شرفنا كيف نتساوى نحن مع السوقة ونحن الأكابر والسادة ؟ ولكن بعد الحياة في الكهوف والسير في الجبال والوديان عرفنا الحياة ، أنا اعترف أنني غضبت من القاضي سالمون ، وأغريت الملك عليه والوقوف معي والتخلي عن القاضي بحجة أن لا نظهر ضعفاء أمام العامة من الشعب والأمة ، وأطلب الصفح ، وأنا مستعد لترك كرسي الوزارة للأمير الشهم شهدون .

فالتفت الحكيم للقاضي قائلا : وأنت أيها القاضي وممثل العدل والتعاليم والآداب ؟

فتنهد القاضي وقال : آه ! ماذا أقول يا سيدي الحكيم ؟.. الفتنة واغراءات الوزير اثتني عن الحق والوقوف معه ، ورأيت بجبني وربما بحسدي مصلحتي الوقوف مع الأقوياء .. نسيت قوة الله وعقاب الله .. نسيت عاقبة الظلم والعدوان .. أنا أقر بأنني تآمرت مع الوزير وبرضا الملك أن نتخلص من القاضي الأمين الشجاع سالمون وابنه خلدون .. وجرى ما جرى .. وفي

هذين الشهرين نسيت السعادة والمال والعز والقوة يا سيدي .. العفو والصفح .

سكت حمدون حينا ثم قال : حسنا أيها القوم !.. فقتلكم بعد اعترافكم لن يعيد الحياة لسالمون والأموات ، وأنتم باعترافكم تستحقون الموت .. أمهلوني أياما حتى أنظر فيما سمعت منكم وأتشاور مع شهدون لعله يتنازل عن حقه.. فاعلموا أيها السادة أنه أحضركم إلى هنا حتى يرى أنكم تستحقون القتل بعد كل هذه السنين ، ولم يقتلكم في بلادكم حتى لا يقتلكم شهوة وهوى واعلموا كذلك أن شهدون ولدي بالرعاية والكفالة.. وأنا علمته الحكمة والعلم ، وأرسلته للملك جهازون يتعلم الفروسية ، فنجح فيها نجاحا يفرح القلب .. وسأجد في قلبه رحمة لكم لعلكم تعرفون الرحمة فيما بعد ، وبما بقي لكم من حياة .

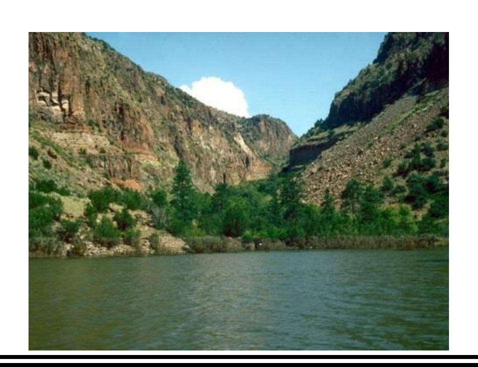
فهجموا عليه يقبلون يديه ، ويبكون ، وقد أحسوا بأمل في الحياة ، وتابع حمدون كلامه كأنه محذرا : مع أن التغير في طباع السادة والملوك ليس هينا .. سلام سلام .

تحدث الحكيم مع ولده شهدون بالحوار الذي حدث بينه وبين السادة الثلاث وإقرارهم وندمهم ورغبتهم في العفو والتوبة ، فأخذ شهدون بالبكاء والنشيج ، فتركه حمدون ساعة من الزمان ، ثم عاد إليه وقال : يا ولدي يحق لك أن تقتلهم فهم مجرمون سفاكون للدماء البريئة ، ويحق لك يا ولدي أن تعفو عنهم .. ولكني أرى أن قتلهم لن يعيد الأموات ، ولن يغير الحال وهم عرفوا الظلم وعاقبته ، وأن القصاص يأتي ولو بعد حين .. فالعفو عظيم لعلهم يغيرون من أسلوب حياتهم مع البؤساء والضعفاء ، ولك ثلاثة أيام تنظر في الأمر المناسب لك .. ففكر على مهلك يا ولدي الطيب .

وبعد الأيام الثلاثة كان شهدون في حضرة والده ، وأخبره أنه اختار الصفح والعفو ، وتركهم لله يفعل بهم ما يشاء ، وبعد أيام كان الأسرى يغادرون الكهف الواسع إلى بلادهم شوك الفلاة، ومعهم تلميذ من تلاميذ الكهف لنشر تعاليم شردي، وغرمهم الحكيم إرسال مؤونة طيبة للكهف كل سنة ، وإرسال بعض التلاميذ ليتعلموا الخير وينشروه في مدينتهم ، ولما وصلوا بلادهم بسلام كانت البلاد في صراع على الحكم والملك ، ووجد الملك ولديه منقسمين لحزبين

والجيش مقسوم بينهم ، ودهش الناس من عودة السلطان بعد هذا الغياب ، ومعه أيضا الوزير والقاضي .

وخلال أيام هدأت الأمور والنزاعات بين المتنافسين على الحكم والمناصب ، فغير الملك وبدل وعزل ، وأمر بنشر تعاليم الكهف والفيلسوف شردي في المدينة والمساواة بين الطبقات ، وأرسل مع تلميذ الكهف خمسة غلمان ، وقافلة من الطعام والثياب ، وتحميهم مجموعة من الفرسان ، فلما وصلوا للكهف سر الحكيم من ذلك وقال لشهدون : أرأيت عفوك ماذا صنع يا ولدي ؟! فها هي تعاليم شردي الزاهد تجد قبولا في مدينة شوك الفلاة .. وأطلب منك بعد هذا النصر على النفس وشهوة الانتقام أن تتحرك لمساعدة صديقنا القديم جهازون ، وأرجو أن لا يكون قد فات الأوان .



مصير شهدون

ودع شهدون والده ، وأخذ فرسانه العشرة وأسرع نحو بلاد الملك همام ، ولما وصلها وجد الأفراح تعم البلاد بسبب مصرع العبد الظالم دوان ، وقد صلب في قلب المدينة ، وقد أنعم الملك همام على الفارس جالود بسيف مرصع بالياقوت والزمرد ، وجالود هذا أحد فرسان الأمير شهدون ، فقد رتب كمينا لدوان فاستدرجه إلى طعم وفتك به وبرجاله ، وقد قص شهدون على مسمع الملك والأمراء ما فعله بالأسرى الثلاثة ، وأطلعه على مهمته الجديدة ، وأخبر رجاله بذلك ، ثم خيرهم بالبقاء في خدمة الملك همام أم السير معه إلى بلاد الفند ، فآثروا الرحيل ودوام الصحبة، فجرى لهم وداع تخللته ذكريات عميقة ، وأسف الأمراء لفراق هؤلاء الفرسان الشجعان الذين لا ينصرون إلا الحق ، ويدفعون أذى وشر الطغاة والجبابرة ويمنعون الظلم ، وتمنى لهم الملك النجاح في غايتهم القادمة وقال له مودعا : هذه مدينتكم في أي وقت أيها المغامرون الطيبون .. وسوف أرسل مجموعة من الغلمان لكهف الشروق للاستفادة من تعاليم الحكيم شردي، ونشرها في البلاد .. فهذا وعد مني بذلك .. وقد كنت أرغب بأن تكون صهرا لي ، فأنت إنسان لا يفرط بك ، ونحن مدينون لكم ولشجاعتكم .

وتعانق الرجلان ورافقوهم إلى ظاهر البلدة ، وعادوا لبلادهم ينعمون ببعض الهدوء والراحة بعدما قتل وهلك العبد الجبار دوان ، وسار الأمير المحارب شهدون ورجاله في الوديان والهضاب والجبال حتى أقبلوا على مدينة من المدن ، فلما أشرفوا عليها تذكر شهدون أنه دخلها من قبل ، وعاش فيها أياما مع العجوز شهبانة ، فأرسل بعض الرجال إلى أسواق المدينة ليتزودوا بالطعام ، وساق معه ثلاثة فرسان ومشى نحو بيت العجوز شهبانة ، ولما رأته العجوز عرفته على الفور وقالت بفرح ودهشة: الله! الله! كبرت أيها الفتى ! .. لابد أنك صرت فارسا وحققت غايتك ، فقد سمعت صهيل جوادك..أو معك فرسان .. أهلا أهلا بضيفي الصغير .

وأمرت العجوز جاريتها أن تقدم لهم الطعام والفواكه، وجلست تتحدث معهم، وقص شهدون عليها بعضا من أخباره حتى أنها كادت ألا تصدق ما تسمع ؛ ولكنها لما رأت ما عليه

من مخايل الفتوة والقوة والذكاء والعضلات والهيبة والفرسان والسيوف المزدانة بالجواهر أقنعت نفسها بصدق ما تسمع ، ثم سألها عن نفسها وعن أخبار الأمير زمرار وهل جلس على تخت أخيه ؟ فأصابتها الحيرة والاستغراب وقالت : أعرفت بقصة زمرار ؟

فضحك وقال: في الليلة التي جاءك هاربا متخفيا سمعت بعض الحديث بدافع الفضول أيتها العجوز .. أخبريني ما جرى لهم ولصاحبك حازم .

ضحكت العجوز شهبانة وقالت : إنك حذر وفطن وذكي الفؤاد يا شهدون .. لقد كان يجتمع هو وبعض أصدقائه عندي؛ ولكنهم فشلوا في مشروعهم ، ووقعوا في قبضة الأمير زيدان .. فمنهم من قتل ، ومنهم من هرب ، ومنهم من ألقي في السجن .. والأمير ما زال يقبع في السجن منذ سنوات ، وإني خشيت على نفسي ، وقبض عليّ ؛ ولكني ذكرت للقاضي أن بيتي مفتوح للأغراب والأضياف ـ وهذا أمر مشهور عني ـ ولا أهتم بمن يتآمر ويبيت عندي ، وشهد لي بعض الناس فتركوني ، وقد سلم المولى .. ثم تنهدت وقالت : آه! يا شهدون لو أنك فارس كما تدعي فتشفع لهذا الأمير المنكوب .

ابتسم الفارس شهدون ورد قائلا: ولكنه طامع في ملك أخيه ، فكيف يصفح عنه الملك ؟!

أجابت العجوز شهبانة : هو الابن الأكبر لوالدهم قسرون ، ولكن أمه ماتت وهو صغير، فأهمل الوالد تربيته بعدما تزوج من امرأة جميلة وداهية ـ وهي والدة الملك الحالي زيدان ـ فدفعت الأب بأن يجعل ولاية العهد لابنها ، ولما مات قسرون الأب التفت جماعة حول زمرار وأقنعوه بأنه الأحق بالولاية والحكم ، فطمعت نفسه لهذا المنصب، وهؤلاء الجماعة لهم مصالح ومطامع ، فخرج على أخيه بالسيف، فأباح الملك دمه فكبر الصراع ، وحاول زمرار وأعوانه إحداث فتنة تطيح بالملك زيدان ، فحدث الصراع بين أنصار الفريقين؛ ولكن أم الأمير زيدان استطاعت أن توقع به وبرجاله بالدس والحيلة والاغراءات حتى سقط ، فعطف عليه الملك زيدان ، واكتفى بحبسه، فهذه قصتهم بالتفصيل أيها الشهم .. فلو تشفعت فيه عند الأمير ، فإنك تنقذ جاهلا وليمش في أرض الله الواسعة ، ولن يعدم بلدا تؤويه .

فقال شهدون بحماس : سأفعل إكراما لك أيتها العجوز الماكرة والتقي بالأمير زيدان فإن رضي كان بها ، وإن لم يرض لن أفعل شيئا.. فأنا ذاهب في مهمة ، ولست بحاجة لصراع جديد.. ولكن من أجل كرامتك عندي، ومعروفك عليّ في الأيام الخوالي يا عجوز شهبانة سنحاول .

تناول الفرسان الطعام عند العجوز، وما كادوا ينتهون من الطعام حتى أحاط جنود الملك بالبيت ، وتقدم عريف الجند وطلب مثولهم بين يدي صاحب البلاد ؛ لأنهم مقدمة لجيش غازي، وقد أسروا مجموعة أخرى في سوق المدينة ، فنهض شهدون عندما سمع الكلام والاتهام وودع العجوز وهو يبتسم لها ويقول : أرجو أن أتمكن من تحقيق رغبتك مع هذا الأمير أيتها العجوز الطيبة كل السلام عليك .

وخرجوا من بيت العجوز فإذا بالفرسان يقبضون على خيولهم ، فتكلم الأمير شهدون مع رئيس الجند بكلام لطيف، فترك الجنود الخيول لأصحابها ، وساروا جميعهم إلى قصر الأمير زيدان .

ولما دخل الأمير شهدون باب القصر وجد رجاله الخمسة الذين نزلوا إلى السوق أسرى مكبلين بالقيود وملقون على مدخل القصر ، فغضب شهدون لهذا المشهد ، ونزل عن جواده نحوهم وهو يصيح : من فعل بكم هذا ؟!

فاعترض طريقه الحرس وإذا بصوت في شرفة القصر يقول بصوت عال : نحن فعلنا بهم هذا وسنفعله معكم .

توقف شهدون عن المشي وأدار رأسه ونظر للأعلى وقال : لابد أنك أمير البلاد .. الأمير زيدان دهش السامعون وقال الأمير : آ.. إنك تعرفني أيضا .. من أنت ؟! ولأي الملوك أنت تابع أيها المجهول ؟!

فقال شهدون وهو يتبسم : أيها الملك ..أنا الأمير شهدون بن حمدون .. لعلك سمعت بهذا الاسم من الركبان والتجار.

وشاهد الجميع أن شخصا يهمس في أذن الملك كلاما ، فنطق الملك على أثره : أنت شهدون بن

حمدون فارس ملك بلاد الفند الملك جهازون.. الملك الهارب عند خصمه القديم الملك برديس فقال شهدون: نعم أيها الملك ! أنا فارس من فرسان الملك جهازون .. وبما أنك سمعت بنا فأطلب منك يا ملك هذه البلاد .. أن تأمر رجالك بفك أسر رجالي على الفور، ورد خيولهم وأموالهم .

تلفت الملك حوله وإلى رجاله وصاح : أتهددننا في عقر دارنا أيها المجهول ؟!

رد الفارس وفي صوته نبرة الضيق والغضب فقال : أيها الملك السعيد ! اعلم أنني في حالة من الغضب الشديد ..وإني أضغط على أعصابي قبل أن تنفجر بشدة لأول مرة في حياتي .. فأرجوك أن تأمر بفك القيود قبل فوات الأوان .

عجب الملك من هذه الجسارة ، وظن أن الرجل هو الملك وهو الخادم ، فأخذ يقهقه ويقول بغضب : إنك مغرور جدا يا هذا وصاح في الحرس : اقبضوا عليه أيها الجنود الجبناء .

وفي لمح البصر كان شهدون يمتشق حسامه ويحاكيه رجاله الثلاثة وفي دقائق خاطفة فكت قيود الرجال الخمسة ، وكانت معركة سريعة وخاطفة ، وبعد قليل كان فرسان شهدون الآخرون قد أتت بهم العجوز كما طلب منها شهدون خفية عن الجنود ، وفي ساعة كان الملك مأسورا بين رجال شهدون مطروحا على الأرض باحتقار شديد وفي دهشة مرتسمة على وجوه رجال القصر وأمر شهدون الأهالي الذين التموا على صوت المعركة بنهب القصر ، وبينما هم في ذلك حضرت بعض الكتائب بعد أن لملمت نفسها لتدافع عن البلاد؛ ولكنهم فوجئوا بأن الملك ووزيره وبعض الأمراء أسرى بين يدي الأمير شهدون وفرسانه الأشداء ، ونصحهم شهدون بالانصراف ، وقاد الأسرى إلى خارج المدينة ، وعمت الفوضى في المدينة من نهب وسلب ؛ فكأن الناس كانوا ينتظرون هذه الساعة ، ثم لحق أعداد غفيرة منهم بشهدون وفرسانه وهم في استغراب لهذا الحادث العجيب، وتقدم بعض الأكابر من شهدون يتشفعون بملكهم المخطوف فأمرهم بالمسير للسجن وإخراج الأمير زمرار لتنصيبه ملكا عليهم ، فانصرف أكثر الناس إلى المدينة ، وخيم الهدوء على المكان فقال شهدون للأمير زيدان: كيف ترى نفسك الآن ؟!

فقال زيدان بانذهال واضح في ألفاظه : ما كنت أظن أني سأرى في حياتي رجلا مثلك بهذه الجرأة والقوة والسرعة والجنون!

فقال شهدون : لن أطيل معك الكلام .. هل تحب أن تعود لعرشك أم أضع أخاك مكانك ؟

فقال بانكسار : ماذا أقول وأنا في الذل والهوان ؟ فالأمر لك .. !

وكانت العجوز شهبانة التي سمعت بهذه الأحداث الكبيرة ، وقد أعجبت من سرعة شهدون بالعمل قد تبعت الناس ، وقد سمعت الحوار بين الملك وشهدون فتقدمت من شهدون وقالت : يا أمير شهدون أنا أمك شهبانة .. أطلب منك العفو عن الأمير زيدان وإعادته لملكه.. فالأمير زمرار رجل ضعيف ومريض لا يصلح لقيادة الناس، وسوف يعطف عليه أخوه الملك ويكرمه ويخرجه من السجن ويجعله من وزرائه .

فسكت شهدون بضع دقائق ثم أمر بفك قيود الملك وأعوانه ثم قال بقوة : أنا ذاهب لنصرة الملك جهازون الهارب .. وسأنفذ ما قالت العجوز الطيبة شهبانة للمعرفة القديمة التي كانت بيننا ..واحذر أن أسمع أنك غدرت بأخيك بعد ذهابنا ، وعليك بإكرام هذه العجوز .. وعليك أن تنسى ما جرى بيني وبينك .

وعاد الناس لمدينتهم بملكهم المذهول ، وتباطأت العجوز لتقول لشهدون : ما كنت أظن أنك بهذه القدرة والجسارة يا ولدي ! .. عندما أتيتني أول مرة كنت طفلا نحيفا رقيقا .. إيه عجيبة دنيانا ! وكم هي عجيبة !! .

مكث القوم حول المدينة أياما حتى تأكدوا أن الملك عفا عن أخيه وأكرمه ، فتحركوا إلى مدينة الملك برديس الذي تلقاهم بفرح وحبور شديدين ، وتألم شهدون لما حل بهم من الذل والهوان وروى الملك جهازون له ما حل بمدينته من الدمار، فوعده شهدون خيرا ، وبدأ سريعا بإعداد الفرسان ، وما مضت بضعة شهور حتى كان بين يدي شهدون خمسة آلاف فارس مستعدون للثأر والموت ، فزحف بهم شهدون إلى بلاد الفند ، وبعد مسير طويل وصلوا إلى الطرف الغربي من المدينة ، فأرسل رسالة إلى نائب الملك زهمان الأمير مهران ، كان في الرسالة بضع كلمات

"الحرب .. الحرب .. الحرب" تلقى الأمير الرسالة وأمر جيشه بالخروج لصد الأمير الفارس شهدون ، فجرت معارك بين الطرفين وذات يوم طلب شهدون مهران أمير البلاد للمبارزة ، فلما رآه شهدون تذكر أنه التقى به قديما ، فدهش الرجلان عندما شاهد بعضهما الآخر فقال شهدون : ويحك ألست ذلك السيد المعتزل في أرضه بعد موت أبيه وأخيه ؟!

وقال الآخر: ألست ذلك الفتى الذي ترك الكهف ؟! وكان قادما لهذه المدينة لتعلم الفروسية !

فقال شهدون بدهشة : نعم .. أنا شهدون وقد أصبحت فارسا بفضل الله .. لا أدري يا سيدي كيف سأبارزك وأنت قد وعدتني بأنك ستذكر لي قصتك إذا التقينا ثانية ؟! .. كيف سأسمعها إذا قتلت ؟ .. وكيف تسمح نفسي بذلك وقد أمضيت عندك أياما وأكلت طعامك وأخذت من مالك ؟! .. أين زهمان اللعين ؟

فقال مهران: أواثق من نفسك أيها الفارس ؟! .. فلنتبارز .. فأنا أعفيك من دمي ومن معروفي

فقال شهدون : لن أقتلك يا هذا .. أرسل لي غيرك .. أرجوك افعل ذلك ؟

فضحك مهران وقال : أنت حكيم تحمل أحلام شردي ، كيف أصبحت مغرورا ؟!

رد الفارس قائلا : لا ؛ ولكني واثق من نفسي أيها الفارس .

فقال مهران وهو يسحب سيفه ويهوي به على شهدون : إذن فلنتقاتل .

ابتعد شهدون عن الضربة الغادرة، وأخرج سيفه من غمده ، والتقى السيفان وبعد حين كان مهران أسيرا بين يدي شهدون ، وأمر شهدون رجاله بالهجوم ، ودارت معركة حامية الوطيس وهزمت الحامية التي تحكم المدينة ، وفرح الناس بانتصار شهدون وفرسانه ، ودخلوا المدينة التي فتحت أحضانها لفرسانها ورجالها، ولما علم زهمان بهزيمة جنوده في بلاد الفند أتى بنفسه للانتقام ، فزحف بجيش جرار .

وكان جهازون قد أمد شهدون بجيش آخر، وعاد للبلاد بصحبتهم، وبجيش كبير من جنود الملك برديس على أثر النصر الذي حققه شهدون على رجال الملك زهمان.. ولما أتى جيش زهمان دارت معارك كبيرة ، وكان من نتيجتها مقتل زهمان، فزحف شهدون لبلاده ونهب خزائنه ،

وزحف إلى بلاد الملوك الذين ناصروه ودمر مدنهم ، وخاصة مدينة الجلاء ، وخضع له ملوك تلك المدن ، واعتذروا له عن تحالفهم مع زهمان، واعتذروا للملك جهازون بأنفسهم ودفعوا أموالا كثيرة لهم ، وبعد سنة من القتال والطحان عاد شهدون والفرسان لبلاد الفند مظفرا منتصرا ، واستقر الملك لجهازون بحماية الفارس الحكيم شهدون وجيشه المظفر ، ورحب الناس بفارسهم والجنود الظافرين ، وصمم الملك على تزويج شهدون من إحدى بناته فاعتذر الفارس ؛ ولكن الملك أقسم الأيمان المغلظة على هذا الزواج ، وأمام هذا الإصرار من الملك والأمراء تزوج الأمير شهدون من الأميرة شموخ صغرى بنات الملك جهازون، ثم أذن شهدون لفرسانه الأربعين بالزواج من بنات الأمراء والوزراء والاستقرار في بلاد الفند في رعاية الملك جهازون .

ثم أرسل الملك جهازون أموالا وغلمانا لكهف الشروق، ورسالة للحكيم حمدون سيد كهف الشروق ووريث الحيكم شردي والحكيم بزغون ، أطلعه فيها على النصر وزواج ولده من ابنته وبينما الناس في غمرات الأفراح والعدل جاءت رسالة من أحد السجون رسالة من الأمير مهران فتذكره شهدون وذهب لزيارته بنفسه ، وفك قيده وأخرجه وهو يقول : أنت ضيفي وصديقي وقاده إلى قصره القديم وهو يقول : الدنيا دول يا سيدي !

فقال مهران : أنت السيد وأنا العبد .. والدنيا دول كما قلت .. عندما أتذكر اليوم الذي رأيتك في بستاني غلاما يقطع الفيافي والقفار وحيدا عجبت منك ، وأدركت أنك شجاع .. وأما أن أراك بهذه القوة والشجاعة ما فكرت بذلك قط أيها الصديق .. عندما علمت بقتلكم زهمان لم أكن أصدق ذلك .. إنه شرس عنيف دموي .. لقد كبرت وصنعت المعجزات أيها الامير !.. الدنيا ما لها أمان ..ولا يوجد فيها قوي !

بعد الضيافة كان شهدون يسأل مهران عن سبب تركه صيده وأملاكه ؟ فقال مهران : سأقول لك أيها الفارس النبيل .. كان أبي من رجال الملك عدون ملك بلاد الجلاء ، وكان لي أخ أكبر مني ، وأخ أوسط ، ولنا أخت واحدة تزوجها أحد الأمراء على كره منا نحن الاخوة أخي

الأوسط تعلق بالعلم والفلسفة ، فسار نحو كهف الشروق ومكث خمس سنوات ثم عاد إلينا ، ثم اختفى بدون علمنا من جديد ، ونسيناه إلى أن كان يوما قتل فيه أخي الأكبر من قبل ابن عم الملك ، ولم نستطع فعل شيء ، فمات والدي حزنا وكمدا وحسرة ، ولا أملك قوة ولا حيلة ، وكنت متزوجا من إحدى الأميرات فطلقتها ، وقررت العزلة وسكنت في القرية التي مررت بها أثناء طلبك للفروسية في هذه البلاد ، وظللت على هذا الحال .. الهروب من الدنيا والناس ، ولقد كنت فارسا في حياة أبي .. وكنت أنزل المدينة لزيارة أختي المظلومة إلى أن حلت الكارثة بجيش زهمان ، ونجا هو من الموت ، فلجأ للملك عدون ، فأمده بجيش من الغزاة ، وأعاد الكرة على بلاد الفند حتى انتصر عليهم ، وشتت فرسانهم وأذلهم بعد سنين من الحرب والقتال وهو صديق قديم لي ، فلما أتم انتصاره زارني في عزلتي ، واقنعي بترك العزلة والحزن ، فوهبني حكم بلاد الفند مع حامية من رجاله وجنود الملك عدون ، فمكثت حاكما لها نيابة عن الملكين حتى عدت يا شهدون وانتصرت علينا.. ويا ليتني بقيت في عزلتي ! والآن ما أنت فاعل بي ؟!

ضحك الفارس شهدون كثيرا ، وقال ضاحكا : سأعطيك حمارا وصرة من المال تعود بهما إلى قريتك وتتابع عزلتك.. وأنصحك بالزواج لعل الله يهبك وريثا .. وكما ترى فالدنيا للأقوياء والفرسان يا فارس الصيد والقنص !



قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

انتقام الفارس شهدون



تعلم الحكمة في كهف الشروق حتى شب

ورحل لتعلم الفروسية لحاجة في نفسه

وهي الانتقام والثأر من قتلة أسرته

فخاض الحروب بعصابته

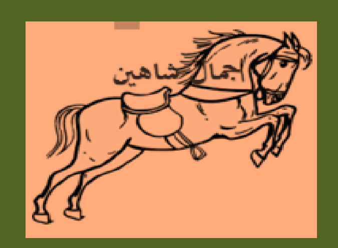
وفي رحلة الفروسية التقى بالوزير الهارب

والأمير المعتزل والعجوز المتآمرة

فصار فارسا يدافع عن الحق

فهل حقق الانتقام ؟

هذا ما سيعرف في نهاية القصة!





الأميرة تاج اللوز وولديها

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

١٣

جمال شاهين

١٩٩٨

الأميرة

تاج اللوز

ووليديها

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤



جمال شاهين

الأميرة تاج اللوز وولديها

جمال شاهين



الأميرة تاج اللوز

الأمير الكبير معن لقد أصبح اليوم ملكا على البلاد والعباد ، وذلك على أثر وفاة والده الملك الشهير شيبان النابغي ، فلقد كان الأمير معن يخشى أن ينافسه أخواه ربيع و زيدان على عرش المملكة، والذي كان يؤرقه ويزعجه أكثر من ذلك أن يبايع الناس أخته تاج اللوز ملكة على البلاد ؛ لمحبة والدها الملك لها ، ولكثرة حديثه عنها ، لذلك لما تسلم الكرسي وبايعه الخلق من الأمراء والوزراء تنفس الصعداء، وفرح بالتاج عندما وضع على رأسه أشد الفرح ؛ بل كان أسعد البشر لتسلطنه على خلق الله ، فلما عاد إلى بيته الخاص في الليل وجد زوجته والأميرات ينتظرنه لتهنئته بالملك ، ولما انصرفن ولم يبق في الديوان إلا هو وزوجته الأميرة عبلاء فقال بقلق : لم أر أختي تاج اللوز معكن ؟!

فنظرت إليه زوجته بضيق وقالت : من أنت لتأتي إليك تاج اللوز؟!

فقال بغضب خفيف : أنا الملك .. أنا سيدها ومولاها الملك معن بن شيبان!

قالت : لقد أرسلت إليها خادمي الخاص يدعوها للقصر ؛ ولكنها اعتذرت بأعذار أوهى من خيط العنكبوت ..!

نهض الملك عن كرسيه وهو يقول : صبرا يا عبلاء .. ستعرف هذه المغرورة من أنا ؟! من هو الملك معن ؟!

فقالت الأميرة هامسة ومنبهة لشأن ما: الشعب يحب الأميرة يا معن!.. لا تتهور .. واعلم أن أباك خشي عليكم من الفتنة وضياع الملك من العائلة .. فرضي بأن تكون أنت وريثه الشرعي.. فقال ببطء كأنه استوعب التحذير: لن أتهور أيتها العزيزة ، وكيف أتهور وأنت تشيرين عليّ في الوقت المناسب ؟!

وفي حجرة النوم قالت الأميرة : أخواك .. ! ما أنت فاعل فيهما ؟!

فقال : أما الآن فلا شيء يدور في خلدي نحوهما .

فقالت الأميرة بحزم وعزم : المهم يجب أن تكون ولاية العهد لابنك حسن .

فرد عليها قائلا بدهشة : حسن !! وهل يصلح .. إنه صبي صغير وذو حمق .. وعلى كل سوف أفكر بذلك فيما بعد أيتها الملكة .. سأصنع لك حفلا بهيجا يوم تنصيبك ملكة بعد سنة من اليوم.

فقالت بتبرم :أنتظر سنة لأصبح ملكة .. لم لا تخلع أمك التاج من الآن ؟!

فقال ضاحكا : النظام أيتها الحمقاء .. النظام !!

هذه أحلام وأفكار الملك الجديد على بلاد النعام ، خلاصتها الخلاص من اخوته مع أنه أصبح ملكا بموافقتهم ومباركتهم ، ومع أنه اتفق مع زوجته أن لا يتهور ، وأن يحسب لكل خطوة مائة حسبة ، وها هو في اليوم التالي عزل الأمير ربيعا عن قيادة الجيش الملكي ، وعين ابن عمه سالم أخا امرأته عبلاء مكانه ، وعلى أثر ذلك العزل اعتكف ربيع في منزله وقصره ، مما أثار قلق معن فألقى به في السجن ، ولما تدخل الأمير زيدان الشقيق الثالث لإصلاح ذات البين عزله عن قيادة الحرس الملكي، وسلم المنصب لابنه الكبير صعب ، فغضب زيدان أشد الغضب ، وترك المدينة سرا قبل أن يقبض عليه ، والتجأ لملك بلاد الشرف ، ولما علم مكانه أرسل الملك معن رسولا إلى ملك تلك البلاد يطلبه منه ، على أثر هذه الأحداث المتلاحقة أرسلت الأميرة تاج اللوز رسولا إلى أخيها الملك تطلب حضوره للاجتماع بها أو أن تذهب إليه فوافق على مجيئها ، ودخلت القصر الكبير بفرسانها السبعة ووصيفاتها ، وأمر الملك لما أدخلت عليه بصرف الحاشية فلما خلا المكان من سواهما قالت بقوة وجسارة معهودة فيها : أيها الملك الجبار .. ما الذي تفعله بالمملكة ؟! كيف تسمح لنفسك بعزل أخويك من مناصبهما وتخون وصية والدك الذي لم يبرد جسده بعد ؟! إن الظلم يؤذن بزوال الملك عن الأسرة أيها الملك المغرور !

فرفع الملك صوته غاضبا وقال : ويلك!! .. هذه وقاحة لم اعهدها فيك أيتها الأميرة .. كيف تخاطبي مليكك بهذه الجسارة والقحة ؟! .

فصاحت هي الأخرى : لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام .. اخرج أخاك من السجن، واعتذر له، واعد له منصبه ، ولا تقطع رحمك أيها الأحمق .. فإن كنت متضايقا من وجوده بقربك فوله

إحدى المدن .. وأيضا أرسل في طلب أخيك الهارب ، واعتذر له أيها الملك الأحمق

فزاد الغضب في قلب الملك معن ، ورعد وزمجر ، وخرج الزبد من شدقيه ورفض عروضها ثم قال بعد ذلك ساخطا: كنت أظن أنك قادمة بلين ولطف لتشفعي لهما .. أتعلمين أيتها الحمقاء أني سأرغمك على الزواج من أحد الأمراء لعل رأسك تلين وتتعلم كيف يكون الكلام مع الملوك؟.. ولن أدللك كما كان يفعل أبي المسكين معك .

ضحكت الأميرة وقالت : أيضا هذه تتدخل فيها!.. يا معن يا ابن شيبان .. سأمهلك ثلاثة أيام أنت وزوجك الماكرة ، وفي اليوم الرابع إن جاءني الرسول وبصحبته ربيع عفوت عنك ، واستقر لك التاج وإلا ستعرف من هو الأقوى أنا أم أنت وعبلاء الحمقاء .

فقال بحدة وهياج : ويلك!! .. ومن أدراك أنني سأنتظر ثلاثة أيام أيتها المأفونة لأرضخ لك .

وصاح بصوت مزق قاعة الحكم : أيها القائد نعمان ..

فتح نعمان الباب .. وسمع الملك يقول : آمرك بالقبض على هذه الأميرة المتمردة فورا .

وقفز نعمان قائد حرس القصر الكبير هو وجنوده ، وأحاطوا بالأميرة وهم يرتجفون خوفا .. فالأميرة تاج اللوز كانت ابنة الملك شيبان المدللة ذات الجمال والقوة ما غلبها فارس في الميدان ورفضت الزواج إلا من بطل مغوار يهزمها في الميدان ولعب الرمح والطعن بالسيف ، ولزمن هذه الأحداث ما التقت بفارس وتمكن منها، فاستلت سيفها من غمده ، وخرج له صفير يقذف الرعب والوهن في القلوب، وابتعد الملك إلى سلم صغير وهو خائف من فشل جنوده ، فهو لا يجهل قوة وشجاعة الأميرة فهي ابنة أبيه فالتفتت إلى أخيها وقالت : أيها الملك .. دعني انصرف قبل فوات الأوان .

فقال بغضبه السابق رغم خوفه وقلقه : لا يصلح ملكان في دولة .. لا تقتلوها أيها الفرسان .. لقد اخترت لها بعلا لعلها تعود أنثى تحبل وتلد .

فقال قائد حرس القصر نعمان : أيتها الأميرة سلمي سيفك .. نحن نعلم أنك خير من حمل السيف.. ونحن ننفذ أمر الملك..ويعز عليّ أن استلم سيفك ولكن ولكن..

اشتد غضب الأميرة وضحكت بحدة وقالت : خذه .. إن استطعت .

وقبل أن يرد نعمان كان سيفه يحلق في فضاء الديوان والأميرة تقول : اذهب إليه يا نعمان .. لن أقتلك .. هذا قصر أبي لن تسيل على فرشه دماء إن شاء الله .

بهر الملك والفرسان لسرعتها في نزع سيف نعمان من قبضة يده القوية ، فالملك يعتبره من أقوى الحرس وأشدهم بأسا ، فعاد نعمان بالسيف في جنون وغضب ، ووقف أمامها بتحد أكبر وقبل أن يعبر عن غضبه كان السيف يطير ثانية من بين يديه وقالت بهدوء : أيها الغبي .. لا أدري كيف يرضى بك معن حارسا على حجرة نومه ؟ ابتعد أيها الأنسان.

صاح الملك : أيها الفرسان اهجموا عليها .

لم يتقدم أحد ومشت الأميرة بثبات وهدوء نحو الباب ، والملك والفرسان في دهشة وحيرة وذهول، ونعمان يبكي ويعض أنامله من الغيظ والقهر والفشل ، ولما اعتلت صهوة جوادها التفتت إلى الذي يتبعها ببدنه وهو مسلوب الإرادة : بعد ثلاثة أيام أيها الملك .. وإلا سأنزع هذا التاج عن رأسك .

وسمعت الحاشية والوزراء هذا الكلام الغاضب ، ودخلوا على الملك المذهول وهو يصيح : لا يصلح ملكان في دولة .. يجب أن تموت هذه المغرورة .. إنها حمقاء .. إنها .. إنها ...

اجتمع الملك معن بزعماء الجيش والحرس ، وشاورهم في خطر الأميرة تاج اللوز على العرش والاستقرار، وتدخلها بشؤون المملكة ، ولما انتهى الملك من ذكر المخاطر التي تتعرض لها المملكة من أخته، قال سالم قائد الجيش وابن عم الملك: أرى يا مولاي أن تمهلها الأيام الثلاثة لنرى ما تفعل بتهديدها لنعذر أمام الناس إن أسأنا لها !

فقال صعب قائد الحرس : أرى يا والدي أن تعتقلها ، وتقذف بها إلى سجن حتى تلين رأسها ومن تحرك من الأمة والشعب نفتك به أو نرميه في سجن أو بئر عميق تنهشه الأفاعي والعقارب وأشار بعض القادة بالمصالحة ونفيها من العاصمة الملكية ؛ لأن الدم سيجلب الدم .. والقتل سيجلب القتل .. وتنشب حرب داخلية تفتك بالجميع ، ولما كثر لغطهم قال الملك في النهاية

: سأصبر ثلاثة أيام أيها القادة ؛ لنرى ما في جعبتها من شر وفساد؛ وليعرف الشعب مدى حبنا لأختنا ومدى صبرنا على تدخلها في شؤون ملكنا .

ولما التقى الملك بزوجته عبلاء خاطبته بحدة وقوة : ماذا فعلت بالملكة الجديدة تاج اللوز؟

فقال بدهشة : أوصلتك الأخبار؟ .. لقد سحقت نعمان أمهر الفرسان بلحظات ؟! إنها قوية لقد خشيت على نفسي منها .. إنها وحش في ثوب امرأة !

أخذت عبلاء بالضحك والسخرية ، وسمعت الملك يقول : لم نفعل معها شيئا .. سأنتظر ثلاثة أيام لنرى ماذا ستفعل أختنا بنا ؟

فصاحت به بحقد جلي على الأميرة : تنتظر .. ولماذا تنتظر ؟! تحرك بسرعة وفورا .. قبل أن تنزع التاج عن مفرق رأسك إن لم يطر رأسك .. أيها الأحمق .. إنها وحش كاسر .. عليك بحبسها ، بل اسفك دمها ودم كل من يتطاول للتاج والعرش .

فقال بانبهار : أأقتلها؟ !! لا .. هذا أمر قاس جدا .. بل انتظر كما أشار قائد جيشنا الأمير سالم .. ولقد أحطت قصرها بالعيون .

فقالت الأميرة بأسف واستسلام : أرجو أن لا تندم .

فقال : يا زوجتي الحبيبة .. يا عبلاء الحمقاء .. الناس تعشق الأميرة .. كم من معركة خاضتها مع أبي ؟! وكانت تساعد في كل انتصار ، لها قلب أقوى من حجر الصوان .. بل سحقت كبرياء نعمان ونزعت سيفه مرتين .. وأنت تعلمين من هو نعمان ؟! إنها قوية .. ولا أدري لماذا أخافها وأخشاها ؟

فقالت بمكر وخبث : الحيلة تغلب الشجاعة والقوة .

فقال باستسلام : هات ما عندك من الحيلة يا ابنة العم ؟

فقالت : نزوجها من سالم قائد الجيش.

فغر الملك فمه من الاستغراب وقال بدهشة وتعجب مما اقترحت : سالم أخوك !! وأي حيلة في هذا ؟!

ردت الأميرة عبلاء بمكر : ارسل إليها رسولا يعرض عليها الزواج من القائد سالم ابن عمها مقابل العفو عن ربيع وزيدان .. ولسوف يدبر سالم نفسه معها ويلين رأسها الصلب .

صمت الملك لحظات ثم قال : إنها تكرهك وتكره سالما أشد الكره فكيف ترضى به زوجا لها إن هذا لشيء عجاب يا ابنة الكرام ؟!

فقالت : حبها لاخويها يدفعها للموافقة والرضا بالقائد سالم .

فقال بحيرة وشك : لا أدري المعاني البعيدة التي تودين الوصول إليها من هذا الزواج .. ولكني سأطيعك لأنني أثق براجحة عقلك .. وافعلي ما تفكرين فيه .

فسرت الأميرة من موافقة زوجها على خطتها وعرضها الغريب ، وأبدت امتنانها للملك وهي تقول : سأدبر الأمر .. لا عليك أيها الملك السعيد .. ارقد مطمئنا من ناحيتها .. واهنأ بالا في ملكك العامر يا قرة العين .

وأرسلت الأميرة وراء الأمير سالم قائد الجيش وشرحت له فكرتها ، فأظهر رفضه الشديد في بداية الأمر وعادت تقنعه قائلة : أيها الأمير .. عندما تتزوجها ستعود امرأة حسناء ناعمة لطيفة تنشغل بالهوى والعشق والأولاد والبنات .. وحبها لربيع وزيدان سيدعها تتنازل عن قسوتها وحميتها .

فقال وهو غير موقن بنجاح زواجه : وإن فشلت في ذلك الحب ؟!

فاقتربت من أذنه وهمست بحقد وبغض شديد على الأميرة تاج اللوز : تتخلص منها .. بقتلها خفية .. ولا يشعر أنصارها ومحبوها بذلك .

فقال هو الآخر بصوت هامس : وبعد ذلك ألا يصحو ضمير زوجك ؟!

فقهقهت الأميرة الحاقدة، وقالت بسخرية وثقة كبيرة بتدبيرها للأمور : لن يصحو .. فهو لا يفكر إلا بأن يكون سيدا مطاعا ملكا على البلاد والعباد ، وهمه رحلات الصيد ومطاردة الوحوش .. وعندما أتوج ملكة سأكون أنا الملكة الحقيقية للبلاد أيها الأخ الكريم .

مرت لحظات من الصمت الغريب ، ثم قال القائد وهو يهز كتفيه استغرابا : كلامك جميل !

ولكن عواقبه وخيمة .. ولكني طوع بنانك يا أخية ، فهذه أول مرة في تاريخ أسرتنا من يستلم منا قيادة الجيش ، بل من ستصبح ملكة .. وذلك بفضلك وجهدك الدؤوب .. دائما نحن في الرتب الدنيا .. لقد كان أبى ذليلا حقيرا أيام الملك شيبان بل لا أعقل كيف زوجك شيبان من ابنه معن ؟! .. ولكنك ذكية ماكرة تحسنين التخطيط والتدبير .

فقالت بخيلاء وغرور : كما رسمت وتزوجت معنا ، ورسمت أن يكون ملكا سأدبر الأمر وانقل الملك إلى أسرتنا .. فبزواجك من تاج اللوز تكون الخطوة الأولى على درجات العرش ابنك منها سيكون الملك المتوج وسوف يعود العز والمجد لأسرتنا دون أبناء عمومتنا أيها القائد

فقال سالم قاطعا أحلام أخته : هذا إذا وافقت على الزواج مني مقابل العفو عن أخويها وإن رفضت ماذا ستفعلين ؟

فنظرت إلى عيني أخيها بقوة وقالت بقسوة وحقد ظاهر : يجب أن تموت كما قال سيدك الملك لا يصلح ملكان في دولة !

ثم أرسلت خادما للأميرة تاج اللوز تطلب لقاءها، فوافقت تاج اللوز والتقت الأميرتان زوجة الملك وأخت الملك وقالت تاج اللوز لها باحتقار جلي : آ .. ما في جعبتك أيتها البلهاء ؟

ابتسمت الأميرة عبلاء وقالت بصوت ضعيف ذليل : أنا لست بلهاء يا ابنة العم .. أنا امرأة أخيك .. أنا عبلاء الأميرة الحسناء ..

فقالت تاج اللوز: نعم .. ما العرض الذي جئت به ؟؟ ترغبين بتزويجي من سالم لينجب لك ولدا يصير ملكا .. أو تدسين لي سما .. أو ..

صعقت عبلاء وفغرت فمها دهشة لَم تسمع وقالت : مولاتي .. ماذا تقولين ؟ .. وأين أولاد أخيك عن وراثة الملك ؟! .. أولادي .. هل سأتخلص منهم ليصير ابن أخي ملكا ؟! .. جواسيسك ينقلون إليك أفكار غريبة يا حبيبتي .

فقال الأميرة وهي تهز رأسها : ماذا أقول؟! .. هذا كلامك أيتها البلهاء .. لن أتزوج سالما لأرى كيف تمكرين بي ؟ .. فانصرفي في أمان الله يا ابنة العم ..

عادت عبلاء للقصر ، وكلها غضب وسخط وخزي ، وكان سالم في انتظارها ورآها وهي في هذه الصورة الغاضبة الحاقدة فقال : ما بك أيتها الأميرة ؟!

فقالت : كل القصر جواسيس لها .. كل القصر عيون علينا .. لقد نقلوا لها كل الكلام الذي تكلمت به أيها الأحمق .. يجب أن نتخلص منها على الفور .. إنها شيطانة !

صعق سالم لما سمع وقال : ازداد خوفي ورعبي منها .. لمَ كل هذا الصراع يا ابنة أمي وأبي ؟!



أمر الملك معن بمحاصرة قصر الأميرة بناء على طلب الأميرة عبلاء ، وتحرك سالم على الفور وحاصر القصر من جميع الجهات ، واضطربت المدينة على الفور، وانتشر الخبر بين الناس أن الأميرة تاج اللوز قد حوصرت وأن أخاها الملك يريد القضاء عليها ، فتجمع الناس واتجهوا نحو قصر الأميرة، فطردهم الجنود شر طردة فعادوا لبيوتهم يتوجسون شرا سيعم البلاد ، وبعد ثلاثة أيام من الحصار أمر الملك الجند بإحضار أخته مكبلة بالقيود ذليلة ، فاقتحم الجنود القصر ، ولم يجدوا سوى الخدم وبعض الجنود يحرسون الأبواب ، ولم تكن الأميرة ولا حرسها الأشداء في القصر لقد تركت المدينة بعد مقابلتها للأميرة عبلاء ، وهي الآن في طريقها إلى مدينة الجنود في شمال البلاد ، فلم علم الملك والأمراء بهرب الأميرة دب في قلوبهم الوهن ، وخشي الملك من تمرد في صفوف الجند ، فوهبهم الأموال والمكافآت ، وكان يقول لزوجته : بدأ التاج يهتز فوق رأسي أيتها الأميرة !

فقالت الأميرة بحنق لفشلها بالقبض على غريمتها: سأرسل وراءها سفاكا ليسفك دمها .. اطمئن أيها الملك السعيد .. ولن يهتز التاج وأنا على قيد الحياة .. أنا أو هي في هذه الدنيا .. ولسوف ترى ما تفعل الملكة عبلاء .

وبينما الملك يتشاور هو والموالون له من الأمراء والقادة جاءه رئيس السجن ليخبره بهرب أخيه ربيع ، فصعق الملك وكاد يقع عن سريره ، ووضع يده يتحسس التاج فوق رأسه ، وبعد أيام وصل الخبر أن الأميرة تاج اللوز نزلت مدينة الجنود ، وأعلنت تمردها على الملك ، وأخذت

تحشد الجنود والفرسان ، فتجمع حولها ما يزيد عن ألف فارس ومتطوع ، وفي هذه الأثناء لحق بها أخوها ربيع فسرت بلقائه ، وجرى بينهما حديث طويل وعتاب قال لها معاتبا : ألم أقل يا تاج اللوز أن معنّا يحقد علينا ..وقد ملئت زوجه قلبه علينا ؟!

قالت وهي تشعر بالأسف : لا أنكر ذلك أيها الأمير .. ولكني قصدت منع الفتنة وانقسام البلاد وما كنت اعتقد أن يتحرك بهذه السرعة .. وما عهدته شجاعا في المعارك وتدبير السياسة والحكم إنها البلاء.. كل البلاء من الحية الرقطاء زوجته وأهلها .. كانوا يخططون ويدبرون.. ولم نحسن تقدير خطرهم ومكرهم .

فقال: على كل حال .. لا مجال للتلاوم الآن .. فهل يكفي هؤلاء الفرسان لقتال جنود الملك شيبان ذوى العدة والعدد الكبير؟!

فقالت بحدة وضيق : أليس لنا أنصار وأعوان في جيشه وحرسه ؟!

فقال : لقد علمت أنه أبعد كل فارس ومقاتل هواه معنا .. ولقد غير وبدل في العرفاء والقادة وأعطى ووهب.. فبين يديه المال والذهب والفضة والخيل والسيوف .

فقالت : ألا نقاتلهم؟! ..أم هل نبحث عن حليف؟ ومن يرضى من الملوك أن ينصرنا ويؤيدنا والتضحية من أجلنا ؟! فأنت تعرف أن أباك لم يدع لنا صاحبا ! ما من ملك إلا له مع جولة ومقتلة ، فهذا غزاه في عقر بيته، وذاك قتل أخاه أو أباه أو ابنه .. بل أرى أنهم اليوم مسرورون لما حل بنا من الشقاق والفراق .. وهذا ما كنت أخشاه ! ومن أجله سكت عن عدم إبعاد معن عن الملك والحكم .

فقال : ما العمل ؟

فقالت : نقاتل .. ندرب هؤلاء الأبطال، ونلاقي بهم جنود معن ، والنصر بيد الله يهبه لمن يشاء

فقال بخوف : يا أخية .. عددهم قليل.. وجنود الملك الزاحفون يزيدون عن عشرين ألف مقاتل .

فصرخت غاضبة: أين أصدقاؤك في هؤلاء الجنود ؟! .. ألا يمكن أن ينقلبوا على رؤسائهم ؟!

فقال بضعف وخور جلي : سأحاول .

فصاحت مرة أخرى : لابد من المعركة .. إما النصر وتحطيم عملاء الماكرة التي سخرت منا كلنا أو الهزيمة والموت ببسالة دفاعا عن شرفنا وكرامتنا .. لا حياة للجبناء .

خيم الصمت على الأميرين ثم قال ربيع : أرى لقاءنا معهم انتحارا .. والاعتماد على انقلاب الجنود على زعمائهم أراه انقلابا ضعيفا .. يا أختي العزيزة .. فلنترك المدينة ونبحث عن ملك نصير خير من نخسر هؤلاء الأبطال يا تاج اللوز .

قالت : سوف اجتمع بهم وأرى ما يقولون .

التقت الأميرة بالفرسان وحاكم المدينة وتبين لها أن المدينة لا تصلح للحصار والصمود أمام جنود الملك وأنصاره في المدينة، فشعرت بالخذلان والهزيمة، وقررت الخروج من البلاد ومن شاء أن يتبعها نحو بلاد الشرف حيث سبقهم زيدان فليفعل ، ورحب بهم ملك تلك البلاد البطل جيل الصبوان ووعدهم خيرا ، وأخبرهم خبر رسول الملك معن الذي أتى يطلب زيدان ولم تمض أيام حتى وصل وفد معن يطلب من الملك جيل الصبوان تسليم الأمراء أو الحرب بين المدينتين .

فأمر الملك بضيافة الوفد ، والتقى بالأمراء الثلاثة تاج اللوز وربيع وزيدان وذكر لهم مطلب أخيهم الكبير معن فقالت الأميرة : أشر علينا أيها الملك !

قال : في الحقيقة أيتها الأميرة أنا في حيرة من أمري .. لا أستطيع أن أنسى الحروب التى دارت بين بلدينا سابقا وكم هلك فيها من الأبطال والرجال ؟ .. وما صدقنا وأن جرى الصلح بيننا وانتهت المعارك بيننا ، وتسليمكم لا أستطيع فعله ، فالأفضل أن تخرجوا سرا من البلد ..وادع أنكم هربتم على حين غفلة منا .. وأنصح لكم بالمسير للملك عدنان ملك بلاد الوادي .. فهو فارس مغوار وبطل كرار لا يشق له غبار .. وعنده جيوش لا يعلم عددها إلا الرحمن .

قالوا : هذا رأيك ؟

رد الملك : أجل !

وقبل أن تمضي أيام الضيافة على وفد الملك معن انتشر خبر اختفاء الأمراء واتباعهم ، فغضب الوفد من الملك جيل الصبوان وعادوا لبلاد النعام ، ولقد أصبح الأمراء الثلاثة في حالة يرثى لها وهم يقطعون البراري والقفار والوديان والجبال ، وكانت الأميرة تاج اللوز تقول : لقد ذللنا ذلا شديدا لا يمكن نسيانه يا زيدان .

فقال بأسف وحزن : أسأنا تقدير خصومنا أيتها الأميرة .

فقالت بحسرة ودموع: ليتنا التقينا بجيش الملك وقاتلنا يا ربيع حتى الموت .. لم يترك لنا والدنا حليفا وصاحبا .

فرد ربيع : النصر لا بد له من صبر ومعاناة .

ولما وصلوا لبلاد الملك عدنان رحب بهم وأحسن وفادتهم ، واستمع لقضيتهم ووعدهم خيرا وأسكنهم في منازله وضيافته ريثما يصل وفد بلاد النعام ، ولم يطل الانتظار فقد اقبل الوفد ـ وفد الملك معن ـ يطلب استلام اخوته الأمراء الهاربين، فطلب مهلة ثلاثة أيام يفكر بالأمر مع كبار قومه ، التقى الملك عدنان بالأمراء الثلاثة وقص عليهم مطالب الوفد ، ثم قال : أيها السادة إذا قمت بمساعدتكم فما جزائي مقابل تضحيتي ببضع مئات من فرساني وجنودي ؟

سكت الأمراء قليلا ثم قال عنهم ربيع : ماذا تريد ؟ كل فارس يشارك في القتال له مائة دينار وجواد ودرع وسيف .. وكل من يقتل يعطى ورثته ألف دينار .

فقال عدنان الملك : وأنا سيد هؤلاء الفرسان !

فقال ربيع وهو حائر من غاية الملك : ما تطلب لنفسك من المال والثياب والخيل فهو لك!

ففكر الملك قليلا ثم نظر نحو الأميرة فلمعت عيناها وقال : لا أريد ذلك .. أريد الأميرة تاج اللوز حليلة لي !

نظر القوم في بعضهم بعضا دهشة ، وران عليهم الصمت وتكلمت الأميرة فقالت : سيدي الملك .. إنني لا أصلح أن أكون زوجة .

فأجابها قائلا : اعلم أنك ذات شجاعة وفروسية ولكنك في النهاية امرأة أيتها الأميرة الحسناء

وردت بشيء من الغضب : نعم، ولكن صعب أن أعود أنثى .. تصلح للحب والغزل والأولاد أيها الملك .. أخشى أن تندم على تضحياتك فيها بعد .

فقال بهوى وعشق : لن اندم أيتها الأميرة .. فأنا أعرض عليك ملكي ؛ فإذا كنت تكنين محبة لأخويك الهاربين، وتريدين أن تضعي تاج بلاد النعام على رأس أحدهما فاقبليني بعلا لك .

فقالت : دعني أفكر في الأمر قبل اتخاذ القرار الحاسم والمهم .

فرد عليها قائلا : ولكن رسل أخيك الأكبر ينتظرون .

فصرخت في وجه فجأة محتجة : دعهم ينتظرون .

غادرهم الملك يتشاورون ويفكرون ، وحاول اخوتها الضغط عليها للموافقة على شرط الملك وأمام إصرارهم قالت : غدا صباحا سيكون قراري بين أيديكم .

واجتمعت بأحد فرسانها الأشداء وأصرت له بأمر وفي جوف الليل هربا من بلاد الملك عدنان ولم علم عدنان في الصباح بهربها اشتد غيظه وحنقه ، وأمر بحبس أخويها وفرسانها ، وذهبت أحلامه بالزواج من الأميرة أدراج الرياح .

ولما ابتعدت الأميرة تاج اللوز وفارسها تميم عن بلاد الملك عدنان ، قررت التنكر وإخفاء شخصيتها ردحا من الزمن ثم العودة لبلاد النعام للمكر والكيد والاحتيال ، فخلعوا ملابس الفرسان في أول بلدة وصلوا إليها وباعوا جواديهما ، ولبسا ملابس عامة الناس ، وتظاهرا بأنهما زوجان مهاجران من بلديهما لضيق اليد والحاجة ، وبعد أيام نزلا بلدة أخرى خوفا من الطلب والعيون ، واستمر تنقلهما بين المدن سنة من الزمان ، ثم قررا العودة لبلاد النعام سرا على صورة جارية للتاجر تميم الذي أصبح خاتما وجاريته رمح ، وقامت الأميرة ببعض التشوهات على ووجهها وشعرها حتى أصبح من كان يعرفها يشك في شخصها ، وبعد عدة شهور من الرحيل نزلا بلاد النعام ، فاشترى تميم بيتا جميلا قرب النهر الكبير ، ثم بعد حين اشترى دكانا يبيع فيها الملابس ومعه

جاريته رمح ، ومكثت الأميرة متنكرة ثلاث سنوات في مملكة أبيها تحاول زعزتها دون فائدة تذكر ، وقد تأكد لها أن الملك قد استقر لأخيها معن ، وأن أخويها ربيع وزيدان يقبعان في سجن المدينة بعدما تسلمهما من الملك عدنان ، وأن عبلاء أصبحت ملكة البلاد وهي التي ترسم وتحكم وما زالت تتحرى وتبحث عنها في بقاع الدنيا كلها ، حدثت بعض القلاقل في الجيش والحرس ولكن الملك أخمدها بسرعة وفتك بالمتمردين بشدة وقسوة ، ولما رأت الأميرة أنها عاجزة عن إحداث فتنة والانتقام وأن اتصالاتها مع كبار أهل المدينة قد فشلت وخشيت من فضح نفسها قررت الخروج من بلاد النعام للبحث عن نصير قوي، وفي الطريق تخلى عنها تميم لمرض ألم به ، واعتذر لها عن متابعة الرحيل معها، فقال لها في الختام : مولاتي أرى أن المرض اشتد عليّ ، وسأعود لبلادي أموت فيها .. وإن قدر لنا الاجتماع مرة أخرى ستجدين البيت والدكان في انتظارك وأنا الخادم الأمين

أثنت عليه الثناء الحسن وعذرته ، وأخذت بالتنقل بين البلاد والمدن وهي متنكرة بزي شاب رث الثياب حتى دخلت مدينة الهناء مساء يوم مثقلة بالتعب والغم ، وإلى أقرب خان نزلت وحطت رحلها ، وفي إحدى الغرف ألقت نفسها على الفراش لتنام وتستريح من وعثاء السفر ولكن القلق والتفكر بحالها وفشلها في القضاء على غريمتها عبلاء ، وانتصار معن عليها منعا عنها النوم تلك الساعات، وعجبت لجبن الناس والجنود وسكوتهم على الظلم ، وأدركت أن الجنود لا ناقة لهم ولا جمل في هذه الفتنة ، والأجور ما زالت تدفع لهم.. فلماذا يتدخلون في شأن لا يعينهم ؟ اخوة يتصارعون على العرش والملك .. فهم مع المنتصر والقوي ، فكانت تبكي وتشهق من القهر والفشل وتقول : لقد أخطأت في تـقدير قوة خصومي بل لم أكن أراهم أصبت بالغرور والعجب.. وغرتني قوة ساعدي وعضلاتي ، ونسيت العقل والتدبير والحيلة فتوهمت أنني سيدة قوية ؛ والناس مع القوي فخذلوني .. إنما العتب على أبي .. لقد عود الجنود والحراس على الذل والطاعة العمياء .. لا ألوم إلا نفسي لقد كانت علاقتي مع الجنود والفرسان هشة لقد ظننت أن أخواي محبوبان من الجند .. حتى اتصالي مع بعض القادة خفية أثار الفزع

والخوف والرعب في نفوسهم وأبو الاجتماع بي .. حتى تميم فارسي القوي ملّ صحبتي .. لقد انتصرت عبلاء ! كانت تحسن علاقتها مع القادة وزوجاتهم وبناتهم ها هي هداياها وأموالها قد نفعتها .

وبينما أميرتنا تناجى نفسها سمعت صوتا أمام حجرتها فظنت أن أحد اللصوص يريد أن يتسلل لحجرتها ، فتحفزت ونهضت بسرعة، وأصغت بكل حواسها إلى الصوت فسمعت صوتا يقول : الحجرة جاهزة أيها الأمراء والسادة .. وهذا الطابق خال من الزبائن .

وسمعت فتح باب مجاور لحجرتها الصغيرة ولاحظت من ثقب الباب عدة أشخاص يزلفون منه فقالت : إما أربعة أو خمسة ثم سمعت صوتا يأمر قائلا : حائر .. قف عند أول السلم وانتظر حتى نخرج إليك، وإن حاول أحد الدخول فامنعه واخبرنا بالأمر .

ابتعدت أقدام حائر ، وانشغل ذهن الأميرة بهؤلاء الرجال ، وأحست أن بالأمر شيئا خطيرا .. أمراء يجتمعون في خان في جوف الليل وليس معهم نساء ، فاتخذت قرارا بالتلصص عليهم لتعرف لماذا التقوا هنا سرا ، ففتحت الباب بخفة القط وتقدمت نحو حجرة الاجتماع ، فسمعتهم يتحدثون بصوت مسموع ، وأحيانا تخفت حدة أصواتهم ، وأدركت من مجمل حديثهم أنهم يرغبون بالقضاء على السلطان وتولية ابن عمه مكانه ، وأن أحدهم اتفق مع قاتل مأجور للغدر بالسلطان أثناء مروره لقصره بعد عودته من ديوان الحكم والملك ، وأن هذا القاتل الغادر ينتظر وقت الإشارة لتنفيذ جريمته ، وأنهم يفكرون بطريقة يبعدون حارس الملك عنه أثناء عودته لقصره ليتمكن السفاح القاتل من أداء مهمته ، وعقد هذا الاجتماع للتفكير بطريقة لإبعاد الحارس هائل عن الملك أثناء انتقاله من قصر الحكم إلى قصر النوم في الليل .

وكانت الخطة الرهيبة أنهم اتفقوا على ليلة لقتل السلطان ، ووضعوا خطة لإبعاد الحارس هائل وتتلخص أنه عندما يخرج الملك من الديوان حيث بيته ، فعندما يصل إلى الجسر الموصل لقصره يعترضهما خادم للحارس تم تجنيده لهذه المؤامرة ، ويخبر سيده الفارس الحارس أن سيدته مريضة وهي في خطر شديد وربما هي تحتضر وعلى مسمع من السلطان ، فلابد أن السلطان

سيأذن له بالانصراف ، ويقطع الجسر وحده ، وهناك قبل ولوجه القصر سيلتقي بالقاتل السفاك فيطعنه ويختفي ، وفي الصباح عندما يأتي صاحب الحديقة فسيكتشف الجثة إن لم يسمع أحد صرخة الملك ، ثم سيعلم الناس بالخبر ، ولتسارع الأحداث سيتهم الناس الحارس بالغدر به وقال أحد المتآمرين : وهذا يعتمد على شجاعة الخادم وحسن إتقان دوره وشهامة الملك أيضا في التصريح لحارسه أثناء المرور بين القصرين بالذهاب للزوجة المريضة .. لأن الحارس إذا لم يبعد لن ينفذ السفاح جريمته .

اطلعت الأميرة على هذه المؤامرة الهائلة والرهيبة والخطط الشيطانية ، ولما رسمت صورة هؤلاء الشياطين على ذاكرتها والذين كانوا يجتمعون على ضوء الشموع تسللت عائدة لحجرتها ، وهي تعجب للشر الموجود في بعض نفوس خلق الله ، وسمعت هاتفا في داخلها يقول : قد يكون هذا الملك طاغية يستحق الموت .. أنسيت أخاك معنا ..فوجمت وهي في دهشة وحيرة وعادت تسمع نفسها تقول : لماذا يرغبون بالفتك بالملك وتنصيب ابن عمه ؟! هل هو مثل أخي معن ناكرا للجميل .. متسلط وظالم ؟؟ هل تسكت عما سمعت أو تخبر الملك بهذه الصدفة .. وهل يصدقها السلطان؟ .. الحل أن تعرف من هو السلطان وصفات هذا السلطان ؟

عند بزوغ الفجر انسل الرجال المتأمرون الواحد تلو الآخر ، فهدأت أعصاب الأميرة ، واستسلمت لسلطان النوم بعد ذلك الإرهاق الشديد، وأمضت ساعات يسيرة مع النوم ، ثم رحلت عن الخان إلى خان آخر ، وأخذت تجمع أخبارا عن السلطان المسمى سمعان، فعلمت أنه تولى الحكم من زمن يسير، وهو شاب في الثلاثين من عمره ، وهو محبوب من شعبه ، وقد استلم الحكم بعد وفاة عمه الذي أخذ الحكم بعد وفاة والد سمعان ؛ وذلك عن وصية أبيه ، وعلمت أن ابن عمه أي ابن الملك المتوفى يطمع في الملك فقالت في نفسها : لابد أن يكون أحد المتآمرين .. ولكن كيف أصل للسلطان سمعان؟ يجب أن أصل .. فكتبت رسالة ودفعت بها للكتبة الذين يجلسون أمام ديوان الملك يرفعون له شكاوي المظلومين، فرفعت شكوى على أنها مظلومة ترغب برفع مظلمتها للسلطان ، فلما ادخلوها على قاضي الملك وعلمت أنها بحضرة

القاضي قالت له : إن قضيتي لا يساعدني فيها إلا السلطان بنفسه ولن أتكلم بها إلا أمام مولانا السلطان .

وأمام إصرارها ورفضها بالحديث للقاضي قال لها القاضي وهو يظنها رجلا : أيها السيد عد بعد يومين حتى نكلم مولانا السلطان ويستطيع مقابلتك ورؤيتك .

فشكرته وخرجت وهو يعتقد أنه يكلم رجلا ، ومن حسن حظ السلطان أنه وافق على الاستماع لشكواها لما قص عليه القاضي عن إصرارها على لقائه ، وبعد يومين أتت تاج اللوز لديوان المظالم واستقبلها القاضي وكان معه السلطان فقال لها القاضي : أيها السيد .. ها هو صاحب السلطان يستمع إليك .

فنظرت للسلطان وقالت : مولاي السلطان أرغب بالحديث إليك في خلوة .

فدهش السلطان والقاضي والحراس فوافق الملك ، فاقترب منها الحرس وبحثوا عن أسلحة تخفيها في ثيابها وعجبوا أنها امرأة فقالت : أنا امرأة .

فأبدى الملك والقاضي تعجبهما، فخلعت الشارب أمام الجميع فقال الملك : عجيب ! ما عندك يا بنية ؟

وبعد انصراف القاضي قالت بصوت هامس : هناك يا سيدي من يتآمر عليك وروت له قصة سماعها للمؤامرة صدفة ومن غير قصد ، فلما انتهت من الكلام ابتسم لها وقال مصدقا لها : اعلم بذلك أيتها الفتاة الشجاعة ؛ ولكنهم يستعجلون موتي .. هل تعرفين أحدا منهم ؟

فردت بثبات : لا، أنا غريبة قادمة من بلاد بعيدة .. والقوم حددوا يوم الجريمة والطريقة .

وفكر الملك قليلا ثم قال : أشكرك يا أختاه .. أنت الآن أصبحت حياتك في خطر ويجب أن أحميك .. الآن وبعد قليل سأرسلك مع أحد رجالي المخلصين ليخفيك في أحد بيوتنا، وبعد فشل الخطة سأكافئك .. واستمع لحكاية تركك لوطنك فيبدو لي أنك تحملين حكاية كبيرة وجاءت بك الأقدار إلى هنا وأنا أحب نصر المظلومين .

عجبت الأميرة لذكاء الملك وشجاعته أيضا فقالت : نعم ، أيها الملك الذكي لي حكاية مؤلمة

عندما تنجون بإذن الله من الحاقدين.. سأقصها عليك لترشدني للصواب .

ولما انتهى الحديث بينهما ، وأثنى على شجاعتها رغم أنها غريبة لا تمت للبلد بصلة استدعى الملك القاضي والحرس وكأنه لم يسمع بمؤامرة على حياته وأظهر الثبات والشجاعة ، وقال للقاضي : أشكرك أيها القاضي بأن سهلت لهذه المرأة بعرض شكواها على آذاننا ، وأمر أحد فرسانه بالسير بها إلى أحد المنازل وأمره بالمحافظة عليها حتى يرفع الظلم عنها ، وانصرف السلطان بـعد ذلك لقصر الولاية والحكم



وفي الليلة المرسومة لقتل السلطان، وأثناء انصراف الملك لقصر النوم والنساء القريب من قصر الحكم والأمارة ، وعند الجسر الواصل بين القصرين تقدم غلام وخادم الحارس هائل وأخبره بمرض زوجته المفاجئ ، وأنها ترغب برؤيته وكأنها تموت في هذه اللحظات ، وكان الكلام على مسمع من السلطان الذي كان يضحك في سره ، وعلى الفور دفعت الشهامة والنخوة والحمية الملك أن يأذن للحارس هائل بالإسراع لحضور اللحظات الأخيرة من حياة زوجته ، وتابع الملك المسير بشجاعة وثبات ، واجتاز الجسر الفاصل بين القصرين وهبط إلى الممر الذي يدخله لقصره الآخر ، وعند إحدى الشجرات الكبيرة خرج له رجل مقنع وهو يقول : أنا قاتلك أيها السلطان خذها من يد سبع الغاب .

وكان القاتل قد استل خنجرا طويلا واندفع نحو السلطان بسرعة ليكون للمفاجأة أثرها على الملك ، وانقض القاتل على الملك، ولكنه حاد عنها بشجاعة وثبات أعصاب ، وكان الفرسان المتربصين بالمكان قد أحاطوا بالقاتل ، فحاول طعن نفسه، فلم يمكنوه وسمع الملك يقول : لقد فشلت المؤامرة أيها القاتل المأجور .. فشلت يا سبع الغاب !

واقترب الملك منه ورفع اللثام عنه وهو يقول : يا ترى هل التقينا من قبل يا سبع الغاب ؟!!

ثم قال : لا .. إنها أول مرة أرى هذا الوجه العفن .

وبعد قليل أقبل هائل يجر الخادم الخائن مكبلا ويرميه أمام الملك وقال الملك : الحمد لله لقد نجونا من كيد الخائنين احضروا لي القاضي الآن .. أريد قبل بزوغ الفجر أن يكون كل المتآمرين أمامي.

وبالفعل ما كادت الشمس تسطع بنورها حتى كان القتلة المتآمرون بين يدي القاضي ، وهم يقرون بخيانتهم ورغبتهم بتنصيب ابن عم الملك ملكا على البلاد .

وانتشرت الأفراح في البلاد بعدما علم الناس فشل العصابة باغتيال مليكهم ، وبعد ذلك أحضر الملك تاج اللوز ، وأظهرها للناس وبين شجاعتها لهم وأنها هي التي كشفت خبر المتآمرين للملك بعد أن سمعت حديثهم من غير اتفاق ، وأخبر رجال الدولة بأنه سيتزوجها لمَ قدمته من أجله ، وفوجئت الأميرة بعرض الملك ، ولم تستطع التعقيب على كلامه ، وحاولت أن تتكلم أمام الملك بقصتها ؛ ولكنه رفض الاستماع قبل الزواج ، وأعلنت الأفراح بمناسبة زواج الملك سبعة أيام بلياليها وكان ذلك ، وتزوجت الأميرة الغريبة من الملك الشاب سمعان ، وكم عجب ودهش وفرح لما علم أنها أميرة وابنة ملوك وأخت ملوك ، فزاد بها فرحا وحبورا ، وسعد بأن كانت زوجته الأميرة تاج اللوز بنت الملك المعروف شيبان النابغي ، وأخبرها أنه سمع ببعض أخبارها من الرواة والركبان ، وسعدت الأميرة بهذه الزوج بعد يأسها من إعادة الملك من أخيها الأكبر لأحد أخويها الآخرين ، وسرت لعودة العز لها بعد ذل هذه السنوات ، ومن التنقل بين المدن والأمصار ، وفرح الناس باختيار الملك وخاصة عندما أنجبت للملك غلامين ، وزادت المحبة في قلب الملك لزوجته وامتلأت نفسه ولها وعشقا ، وذات ليلة كانت تجلس الأميرة أو قل الملكة تاج اللوز مع زوجها في خلوة من الناس والصبيان فقال لها الملك : أيتها الملكة الجميلة .. هل نسيت بعد هذه السنوات السبع ثأرك عند أخيك وزوجته ؟

تفاجأت الملكة بالسؤال ودهشت فقالت : مولاي السلطان! .. ما الذي فطنك بحكايتي وجرحي القديم ؟!

فقال : السنوات التي مضت لم تمسح الحزن عن محياك الفاتن .. الحزن ما زال مطبوعا على وجهك أيتها الملكة .. لم استطع أن أنسيك جرحك !

فقالت بحزن : الحق يا مولاي أنني لم أنس ورضيت بالحال لحبك الكبير لي ولولديك .. وأشكر الرب الذي يسرك لي .. فقد خففت من اتراحي وآلامي .

فقال الملك : أيتها الزوجة المخلصة .. والله لو أنك كنت الملكة لقاتلت معك لأعيد التاج براقا فوق رأسك رغم كل الناس ، ولكن الملك أخوك ابن أمك وأبيك.. والشعب والجند يريدونه ووقفوا معه ضدكم .. فلن نستطيع عزله ، ولو نصبنا أحد أخويك الآخرين بعد هذه السنوات قد لا يستقر الأمر والأمن في مملكة أبيك ، وتتصارعون على التاج من جديد ، فمن أجل ذلك تجاهلت المتآمرين على مملكتك أيتها الحبيبة ولو أنها قريبة من بلادنا لضممناها لمملكتنا ولكن

فقالت بقلق ظاهر : ولكن ماذا يا مولاي الملك ؟!

فقال بفرح مما سيقول ويخبر: ولكن عندي أخبار قد تدخل السرور على قلبك، وقد تدفعنا للتدخل في شؤون مملكة أبيك .

فقالت : عجيب أمر مولاي السلطان هذه الليلة ؟!

فقال الملك ضاحكا : لقد وصلتني أخبار عن بلاد النعام.. موطن مولاتي الملكة الجميلة ..

فقالت : جميل أنك ما زلت تذكر موطني وتهتم بأخبارها! .. هات ما عندك يا مولاي ؟

فقال : لم أنس موطنك ألبته.. وكنت انتظر الظرف المناسب .. لقد نـقل لنا أحد التجار القادمين من بلاد النعام ..

فقالت الملكة بلهفة وشوق : عجل وانطق بما في قلبك من الجواهر .

كانت الملكة تاج اللوز بشوق كبير لسماع أي شيء عن مسقط رأسها ، إنها ما زالت تذكر الجاه والقوة أيام ملك أبيها ، وتذكر الذل الذي لحقها من أخيها وزوجته ، وترك أنصارها لها وخضوعهم لعدوتها عبلاء ، فسمعت الملك ينقل لها ما سمع قائلا : لقد اخبرنا المذكور أن بلادكم قد سيطرت عليها الملكة ، وطردت زوجها الملك ، بل حبسته ولكنه تمكن من الهرب ،

والبحث عنه قائم على قدم وساق .. وسأرسل عينا من رجالنا يأتينا بالأخبار الكاملة فما تقولين؟!

لزمت الأميرة الصمت برهة ثم قالت بحقد دفين عجب منه الملك : إنها شيطانة ! .. لسوف تضع أخاها ملكا .

وروت له العرض الذي عرضته عليها قبل مغادرتها قصرها هربا لمدينة الشمال ، وكيف خذلها الفرسان والجنود ؟ ، وروت له أطماع عبلاء في نقل الملك لأسرتها ثم قالت : العين الذي تريد إرساله دعني ألقاه قبل رحيله لأكلفه ببعض الواجبات ..

لم ينقضِ وقت طويل حتى عاد الرسول بالأخبار عن بلاد النعام ، وأخبرهم أن الملكة عبلاء هي الملكة الوحيدة للبلاد ، وأخوها سالم نائب لها ، والملك المخلوع معن لا أخبار عنه ، واخواها ربيع وزيدان قد اختفيا من البلاد منذ زمن بمساعدة بعض أصدقاء والدهما الملك شيبان ، وهناك صراع على العرش بين أبناء معن واخوة عبلاء لم يحسم بعد، والغلاء يعم البلاد نتيجة الفوضى في الحكم ، ولما انصرف العين ، قال الملك للملكة : جاء دورنا الآن أليس كذلك ؟!

فقالت كأنها تحلم : ألا يحق لي يا مولاي أن استرد عرش والدي وأضع التاج على رأس ابني غالب؟!

فقال الملك بقلق وحب : ونفترق يا تاج اللوز ! .. كيف نعيش متباعدين أيتها الحبيبة ؟

فهتفت بصدق ووفاء : لن نفترق أيها البطل .. أنت قرة العين والقلب .. عندما نبعد هؤلاء اللئام عن السلطنة ، نضع نائبا لك على تلك المملكة حتى يكبر ولدك غالب فيستقر ملكا على مملكة جده شيبان ، ويكون أسامة ولي عهدك هنا .

فقال الملك : أفكار مقبولة .. إن بلاد النعام تبعد عنا شهرا والعودة شهر .. مسافة بعيدة ؛ ولكني سأغزوها حتى يذهب عنك الحزن بعد كل هذه السنين من الصبر والانتظار .. وأخشى أن أفقدك يا أم غالب .

فقالت : أنا معك وأطوع لك من بنانك أيها البطل الهمام .

فقال بحماس ورضا : حسنا أيتها الملكة ! سأجهز جيشا بعشرة ألف خيال وأغزو بهم بلاد النعام بنفسي وأعيد لك التاج .. وعلى شرطين أحب أن اسمع موافقتك عليهما .

فقالت بحب وامتنان : مولاي الملك أنا تحت أمرك !

فقال : وعندما ننتصر على قومك وأهلك لا تطلبي مني ترك حكم هذه البلدة فهي مملكة آبائي وأجدادي .

فقالت : والشرط الثاني يا مولاي ؟

فقال بثقة : الأسرى والقادة من قومك وموطنك أنا أتحكم بهم ولا تتدخلي في شأنهم مهما فعلت بهم .. هل توافقين على هذين الشرطين ؟! .

قالت : أوافق يا مولاي ! المهم أن أرى ابنة عمي تقبع في السجن وطريدة مثلي وكل اخوتها معها

فقال : ليس لك هذا أنا الذي أحكم عليها وعلى غيرها .

فقالت : لك ذلك .

فقال : اتفقنا أيتها الملكة.



أخبر وكشف الملك سمعان للوزراء والقادة بحكاية الأميرة تاج اللوز ابنة الملك شيبان ، وأنها من بلاد النعام ، وأنه قد أرسل عينا لتلك البلاد وهو يفكر بغزو تلك البلاد لتكون مملكة لابنه الأمير غالب في مستقبل الدهر ، وبعد مشاورات ومهامسات وافق الوزراء والأمراء على اقتراح الملك ، وتم تنصيب الأمير الصغير أسامة نائبا للملك بوصاية كبير القضاة والوزير بهروان وعم الملك الأمير نعمان ، وأوصى الملك أحد رجاله المخلصين بالأمير الصغير وصاية خاصة؛ وإذا شم رائحة الغدر من الحاقدين الناقمين عليه فعليه أن يهرب بالأمير إلى الغابة ، كان الملك يخشى من أولاد عمومته الغدر بولده أملا بعودة التاج إليهم بعد موت الملك ، وبعد شهور خمس اكتمل استعداد الجيش المحارب ، وتقدم بهم نحو بلاد النعام ، وبعد شهور قليلة وصل الجيش الغازي لأطراف بلاد النعام ، ولم يتعرض لأي معارضة من الملوك الذين مر

بأطراف بلادهم وخصوصا بلاد الشرف وبلاد الملك عدنان ، ولما وصل طرف بلاد النعام انتقل خبر الجيش الغازي إلى الملكة عبلاء ، فانزعجت لهذا الغزو المفاجيء ، وجمعت القادة والأمراء وأرسلت الجواسيس فعاد الجواسيس يخبرونها بأنه جيش قادم من بلاد الهناء بقيادة الملك سمعان ، فتعجبت الملكة والأمراء والرؤساء من هذا الجيش الغازي والزاحف إليهم رغم أنه لا عداوة وثارات بينهم ، وبينما هم في حيرة من دوافع هذا الجيش الغازي أتاهم رسول ومعه خطاب فيه بعد التحية والسلام : لابد أنكم علمتم من نحن ، أنا الملك سمعان ملك بلاد الهناء ذو الفرسان المشهورة والمغاوير الكرام الذين لا يشق لهم غبار ، جئنا إليكم لنأخذ حقنا عندكم وبغيكم علينا ، فأرسلوا وفدا عنكم للقائنا أو اخرجوا بفرسانكم إن كان لديكم أبطال ومغاوير ثم ختمت بختم الملك سمعان ، فلما قرئت الرسالة على الأمراء والقادة ارتبكت الملكة والأمراء لإعلان الحرب ، فهم منذ أكثر من عشر سنوات لم يخوضوا حربا قوية ، وقد التهوا بالدسائس والمؤامرات والصراع على العرش وطرد أسرة شيبان النابغي عن الملك ، فبعد تداول ونظر أمرت الملكة قادة الجيش بالاستعداد للحرب والدفاع عن ثرى البلاد والتاج وقالت للرسول : اخبر سيدك سيأتيك الجواب قريبا وانصرف راشدا .

ولما انصرف الرسول عقدت الملكة جلسة طويلة مع أنصارها ورجال الحكم وكان لسان حال القوم يقول : ما هو حق هذا الملك عندنا وكيف بغينا عليهم؟! وبعد تشاور وتحاور بينهم تقرر أن يذهب وفد لمقابلة الملك سمعان ومعرفة حقه عليهم ، وفي نفس الوقت يستعد الجيش للحرب والدفاع ولقاء الأعداء ، وترأس الوفد قاضي الملكة وابنها حسن وابن أخيها سالم وأربعة آخرين ، فاستقبلهم الملك سمعان أحسن استقبال ، ولما سألوه عن الحق والبغي ، أشار للطفل غالب الذي كان يجلس على سرير صغير بين الأمراء ، وقال لهم : هذا ولدي غالب هو صاحب الحق وقد اعتديتم عليه .

استغرب القوم هذا الكلام ، وطلب القاضي من الملك سمعان توضيح الأمر فقال الملك : تكلم يا غالب .. وقل لهم ما فعلوا بك ؟؟

فالتفتت كل العيون نحو الصبي الصغير ، وأخذ هو الآخر يحدق فيهم ، وقد ران الصمت على الجميع ثم قال الفتى : نعم ، أيها الناس أنا غالب بن الملك سمعان ملك بلاد الهناء.. وأمي هي الملكة تاج اللوز ابنة الملك شيبان النابغي .. فجئت إليكم أطلب عرش جدي من مغتصبيه والسلام .

فقفز حسن كالملسوع وهو يقول : أنت ابن تاج اللوز؟! .. كيف هذا ؟.. لقد ماتت الأميرة منذ سنوات لقد قتلها أحد رجال أمي !

فظهرت الملكة تاج اللوز من وراء الستار حيث كانت تسمع لقاء الملك بوفد الملكة وقالت : أنا الملكة تاج اللوز بشحمها ولحمها !! .. لم تقتلني أمك يا حسن يا ابن أخي .. لقد سخر منكم القاتل .. أنا تاج اللوز ابنة الملك شيبان وزوجة الملك البطل الهمام سمعان وأم الغلام غالب ملك بلاد النعام .. أتيت أطلب عرش أبي واسترد كرامتي وغربتي .

فصارت في الخيمة الكبيرة غمغمة وضجة، وقال الملك سمعان لما صمتوا: أيها الوفد الكريم .. سمعتم الحق الذي نطلب ، وعلمتم البغي الذي حاق بالأميرة وأخويها ربيع وزيدان ، ثم اتبعتم بهم معن الملك .. ومعكم ثلاثة أيام إما أن تتنازل الملكة عن الملك أو الحرب بيننا واعلموا أن معي عشرة آلاف خيال وورائي مثلهم .. والآن عودوا لمملكتكم ، واسمعوا قولها الفصل .

وخرج الوفد وهم في ذهول وخوف ، ولما علمت عبلاء بظهور تاج اللوز خافت على العرش، وأرسلت وراء القاتل المأجور فاعترف بالحقيقة ، فأمرت بالخلاص منه ، واحتارت فيما تفعل ، فأشار عليها الفرسان بالتنازل عن العرش ، وندموا على خلعهم معنا ، فلو كان حيا وملكا ما استطاعت تاج اللوز أن تطالب بالعرش ، ولما رأت خور فرسانها ، وهم لا يحبون الحرب ، وليس لديهم همة للتضحية من أجلها، خلت بأخيها سالم قائد الجيش فأشار عليها بالتسليم والخضوع للملك سمعان ، وطلب الأمان لها ولأسرتها وقال أيضا : فالمقاومة لا تجدي ..وأرى الشعب بعد كل هذه السنوات ما زال يهتف بحياة تاج اللوز ، فأرسلت وفدا للملك سمعان بالموافقة على التسليم والخضوع لتاجه على أن تبقى في حمايته وحده ، ولا تتعرض لأذى من الملكة

تاج اللوز ، هي وأفراد أسرتها ومن تدخله في حمايتها ، فوافق الملك سمعان على مطالبها وقال : لها ذلك ، وخاطب زوجته قائلا : ها قد عاد إليك السرير الملكي أيتها الملكة .. وهؤلاء القوم أخذوا الأمان مني .

ودخلت الملكة تاج اللوز المدينة ، وقد خرج أهلها يرحبون بها ويحيونها ، ولما استقر ملكها على البلاد بلاد النعام أعلنت ابنها البكر ملكا على البلاد ، وبحثت عن أنصارها القدامى وأحاطت ابنها بهم ، ورتب الملك سمعان أمر جيش الملك غالب والحراس عليه وعين الملك ألف فارس من رجاله لحمايته والمحافظة عليه، وبعد سنة من الزمان كر الملك سمعان عائدا إلى بلاده وفي صحبته الملكة تاج اللوز

فلما وصل الملك سمعان لبلاد الهناء، كان في انتظاره مفاجأة ؛ فقبل شهور من عودته حدثت في البلاد فتنة أشعلها بعض أبناء عمه بينهم وبين أنصار الملك الذين يمثلهم القاضي ، وتمكن القاضي والمخلصون للعرش من إخماد الفتنة وقمع الطامعين ، فمنهم من هرب ومنهم من زج في أعماق السجون ، وقد تألم الملك لهذا الغدر ، وأما الأمر القاسي هو اختفاء الأمير أسامة ولم يظهر له أثر ، فلما جلس الملك على تخت الملك وسمع هذه الأخبار واطلع على التفصيلات ، قرر أن يؤسس لواء من الجند المماليك ، فأمر وزيره بهروان بشراء آلاف المماليك من بلاد الجآن ذوي قوة وصحة ، وذوي أعمار صغيرة ؛ ليقوم على تدريبهم ليكونوا حرسا خاصا للملك وأولاده ، وأرسل أحد الثقات إلى الغابة يبحث عن أسامة وحارسه سماء ، فسار الفارس نحو الغابة ومكث شهرا وعاد من غير أن يجد أحدا ، فتنكر الملك بزي آفاق وأخذ معه خادمه نديم وذهب حيث الغابة يبحث عن أسامة الصغير وبعدما يأس من العثور عليه في الغابة اجتازها إلى أقرب المدن يسأل هنا وهناك ، واقترب من مساكن صيادي الوحوش والطيور في الجبال والغابات ، وعندهم وجد حارسه سماء جريحا مريضا ، فقد طعن طعنة نجلاء كادت تعدمه الحيات ، فقال له الصياد الذي يعتني به : إنه مصاب منذ شهور .. لقد وجدته في الغابة الكبيرة في إحدى جولات الصيد، وكان مطعونا ولكن به حياة ، فأحضرته مع إخواني الصيادين إلى مسكني هذا،

وقام على علاجه أحد الأطباء ، أتينا به من المدينة ولم يتكلم منذ حضر بكلمة ، ولكني أدركت أن وراءه حكاية وأمر عظيم .. وأنت أول إنسان يسأل عنه .

فأثنى الملك على الصياد ورفاقه ومروءته وقال أيضا : جزاك الله خير الجزاء .. عندما وجدتموه مصروعا في الغابة ألم تجدوا مكان الحادث شيئا ثيابا ترشد على الجناة ؟

فقال الصياد : لا شيء وجدناه هناك .. ومن أنت أيها الرجل ؟

فقال الملك : أنا سيد هذا الرجل .. تعال نجلس بجواره لعله إذا رآني يعرفني وينطق بسره .

ودخلا إلى حجرة المريض سماء الذي كان مستيقظا ، فما كاد يرى سمعان حتى وضع يده على رأسه وهمس بصوت ضعيف : آه .. مولاي الملك هنا !

فلما سمع الصياد كلام المريض فاحتار هل يدهش من نطق المريض أم من وجود الملك في بيته ؟! فأخذ يتمتم باستغراب : الملك .. الملك .. الملك !

فقال الملك : الحمد لله على سلامتك يا سماء .. الحمد لله على حياتك .. اطمئن سوف أجد المجرمين الذين غدروا بك .. كيف ترى نفسك الآن ؟

قال وهو يشير للصياد : الحمد لله أني رأيتك يا مولاي .. كنت أخشى الموت بعد أن رأيت الحياة قبل رؤيتك .. أسامة ضاع .

فقال الملك : لا عليك يا صاحبي .. المهم الآن حياتك وإن كان أسامة حيا سأجده بإذن الملك العلام .. قل لنا ما الذي حصل معكم ؟

فقال الجريح : أيها السلطان الشجاع خشيت على أسامة الأمير من الفتنة وتذكرت نصيحتك فأسرعت وأخذت الأمير إلى الغابة وإلى الكهف الذي أرشدتني إليه، وأثناء سيري في الغابة شعرت بأني متبوع من أناس فصعدنا شجرة كبيرة ، واختفينا بين أغصانها وأوراقها يومين ، ولما نزلنا وبدأنا نسير على الأرض أدركنا ثلاثة رجال وطلبوا الغلام فقلت لهم : إنه ابن الملك سمعان فارس وملك هذه البلاد .

فرد أحدهم نحن لا يهمنا سمعان ولا أم سمعان .. دع الغلام وانج بحياتك فقلت لهم من

أنتم أيها الأبطال؟ فقال آخر بغرور لا تهتم بذلك ، فنحن من بلاد النعام لنا عند سيدك ثأر، وخطف مني الصبي وطعنني طعنة غادرة قوية في صدري فوقعت على الأرض ميتا ، لم استيقظ يا مولاي إلا عند أخي هذا الصياد وهو يفحص بي ، ولم استطع الكلام من ذاك اليوم حتى رأيتك وعرفتك

رغم تنكرك بثياب الرعاع ، فهذا ما جرى لي يا مولاي الملك .

فقال الملك بتفكير عميق : إذن عدونا في بلاد النعام .. صف لي الرجال يا سماء .

وصفهم الجريح ثم قال : كان أحدهم ينادي على قاتلي عندما خطف مني الغلام وطعنني بالخنجر تسرعت يا قرمان .

فقال الملك بعزم وتحد : سوف أضع القتلة بين يديك يا سماء بعون الله وحوله وقوته .. هل تستطيع الحركة لابد من العودة للبلاد للاعتناء بك قبل الرحيل لبلاد النعام ؟.

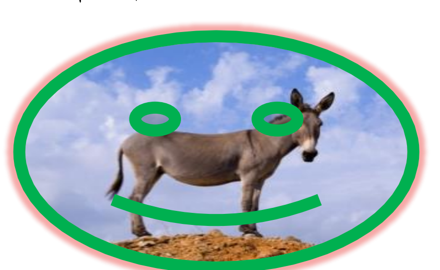
دفع الملك صرة من المال للصياد وعرفه على نفسه أكثر ، وطلب منه زيارته في قصره في بلاد الهناء وأخذوا في التجهيز للرحيل ، ثم مشوا للبلاد ووصلوها بسلام ، فأمر الملك طبيب القصر بالاهتمام بسماء وحياته ، وحدث الملك تاج اللوز عن قصة سماء والخاطف القاتل قرمان وأنه من بلاد النعام .

فأسرعت الملكة تتهم وتقول : إنها لعبة من عبلاء .. لقد كان قلبي يحس بذلك الغدر أيها الملك إنها أفعى رقطاء .. فالحرب بيني وبينها لم تنته بعد ، يا ويلها إن قتلت أسامة لأشربن من دمها!..

أما قرمان هذا لم أسمع به ، لابد أنه أحد أعوانها والقتلة الذين يعملون معها .

فقال الملك : أيتها الملكة سنغادر إلى بلاد النعام زائرين بحجة أنك راغبة بزيارة ولدك الملك الصغير ، وسأكون معك متنكرا بصورة فارس من جنود الملك ، وهناك لا أريد أن يعرف أحد بالغاية الحقيقية لعودتنا العاجلة ، إنما الغاية شوقك لولدك بعد فقدك لابنك الأصغر ، فهو الذي عجل بعودتك ، وللمحافظة على ابنك الباقي، وأنا ورجالي سنحاول الوصول والبحث عن المنحوس قرمان ..

ورتب الملك أمر البلاد مع القاضي ووزيره بهروان وقادة الجيش وولاة المدن ، وخلال هذه الفترة تحسنت حالة سماء البدنية، واسترد الكثير من العافية وأصبح مستطيعا وقادرا على ركوب الحصان أو الحمار، وتحرك الملك المتنكر والمتخفي والملكة بكوكبة من الفرسان والجواري في اتجاه بلاد النعام ، وبعد مسير طويل وبطيء وصلوا لبلاد النعام ، ولا يعلم من الفرسان المرافقين للملكة أن الملك سمعان معهم إلا القليل ، فقد كان متنكرا لحاجة في نفسه ، ولقد استقبل الملك غالب وأعيان البلاد الملكة تاج اللوز أحسن استقبال ، وفرحوا لعودتها إلى بلدها الأول ، وأنزلهم الملك في قصر الضيافة ، ولم يعلم أن والده معهم .



كان الملك يفكر بطريقة وحيلة يصل بها إلى قصر الملكة المخلوعة عبلاء بدون أن تعرفه فغير من شكله وقص الكثير من لحيته وشعره ، ولبس من ثياب الخدم والعامة ، وفعل مثله سماء ، وبعد تعرف على أحوال عبلاء الماكرة توصل إلى حيلة قد يصل بها إلى قصر الملكة عبلاء وقلبها .. كان سمعان جميل الصورة كما مر معنا آنفا ، فطلب من زوجته تاج اللوز أن تهبه غلاما لأم عبلاء فحلق لحيته وشاربه وتزيا بزي الغلمان غلمان القصور ، وصنعت الملكة حفلة بمناسبة رجوعها إلى مسقط رأسها بعد غياب طويل ، ودعت إليها سيدات العائلة وأثناء الحفلة قالت الملكة لامرأة عمها أم عبلاء : لقد علمت يا سيدتي أنه لم يبق عندك أحد يخدمك فأحب أن أكرمك ، فوهبت لك هذا الغلام الشاب يقوم على خدمتك في شيخوختك تعال يا ميس .

فتقدم ميس من الملكة فقالت له : لقد وهبتك لامرأة عمي .. فقم على خدمتها خير قيام وخاطبت المرأة قائلة : واذا لم يعجبك فسأستبدله بآخر .

فرحت الأم العجوز لهذا الغلام، وتقبلته بسعادة وفرح، ودعت للملكة بحرارة، فلقد ملّت من كثرة ما طلبت من أبنائها خادم يساعدها مع خادمتها الأخرى .

مر الأمر دون أن يحدث قلقا ومن غير أن يلفت الأنظار ؛ لأنه لا يتخيل أن يصبح الملك

سمعان عبدا رقيقا يخدم أم عبلاء ، وحتى عبلاء التي لم تحضر الحفلة لم تكترث للأمر ؛ لأنها مشغولة بالبحث وعقد الدسائس للوصول للتاج ثانية فهي ما زالت تبحث عن زوجها الهارب المختفي لعل عودته تغير الأحوال في البلاد، فهو الملك الشرعي والوارث الأول للملك شيبان النابغي ، ومضى شهر وسمعان خادم لأم عبلاء وأم سالم المنزوي في بيته منذ خلعه عن قيادة الجيش ، وقد كان ميس خلال الشهر يدفع الأم أن تطلب من ابنتها بأخذه وترسل لها خادمة صغيرة أو غلام صغير يقوم على رعايتها مع خادمتها العجوز، وتم ذلك بيسر وانتقل ميس للخدمة عند عبلاء ، وأصبح من ضمن خدمها ، وبدا لها أنه غلام نشيط وقوي ، ومع الأيام كان من غلمانها المقربين، وأصبح قريبا من اتصالاتها وخبايها وخفايها، ويستطيع أن يسمع همساتها لرجالها وحاشيتها ، وعلم بعضا من أفكارها وأحلامها ومساعيها من غير أن تشعر من ناحيته بريبة وشك ، وما هو إلا غلام يتنقل من سيد إلى سيد ، ولن يخطر ببالها أن هذا الغلام الذي يقفز أمامها بين الحين والآخر الملك سمعان ، وهي في هذا الحين لا تفكر بقتل الملك غالب أو تاج اللوز لتخشى من العيون ، كان همها الأول البحث عن زوجها الطريد معن ، فترسل العيارين هنا وهناك ، وتوصي التجار الراحلين المتنقلين بين المدن بالبحث والسؤال عنه ، وكذلك الرواة والشعار إلى أن كانت ليلة ذات برد شديد أخبرها الغلام ميس أن رجلا متنكرا يريد رؤيتها والاجتماع بها يدعى نعيما .

فأمرت الأميرة بإدخاله خفية من غير أن يشعر به أحد ، والتقت به في إحدى الحجرات ، ثم صرفته بعدما أعطته صرتين من المال في كل منهما خمسمائة قطعة، وسمعها تقول له وهي تودعه : حافظوا عليه حفظا تاما .. فأمه تعتقد أنه ميت .

بالتأكيد أدرك الملك سمعان أنها تتحدث عن ولده ، ففرح وسر لبقاء ولده على قيد الحياة ، وفكر بأن يلحق بنعيم هذا ليعرف المكان المختفي فيه فلذة كبده ؛ ولكنه قال لنفسه : الآن اطمئن قلبي على ولدي ، وأنه ما زال حيا .. صبرا أيها الفتى .. ما الذي تبغيه هذه المرأة من خطفه وإخفاءه ولسوف أعرف بإذن من خلق السماء والأرض ؟! .

كلما مضى يوم ارتفعت ثقة عبلاء بغلامها ميس الشاب النشيط ، فأصبحت تثق في إخلاصه لها أكثر ، فكانت ترسله في مراسلات خارج قصرها للاتصال باخوتها وأتباعها، وذات ليلة طلبت منه أن يحضر لها أخاها سالما خفية عن الأنظار، فجاء به خفية ، وعندما اجتمعا لم يفته من حديثهم كلمة ، وكان اجتماعا عجيبا ، فقد حضر اللقاء السري رجل آخر كان يقول لهم : لم نستطع إشعال الفتنة في بلاد الهناء رغم ما بذلناه من أموال .. والعجب أيها السادة أن الملك سمعان له زمن مفقود، ويقال أنه ذهب يبحث عن ابنه أسامة بعدما وجدوا حارسه حيا وأحضره الملك للقصر وقام على علاجه ثم اختفيا .

فقالت الأميرة بخوف وقلق : ولكني علمت من قرمان أن هذا الحارس انتقل للعالم الآخر .

فأجابها الرجل: يبدو أن الطعنة لم تكن مميته .. المهم أنني علمت أن الملك عالجه وسمح لتاج اللوز بالمسير إلى ولدها الآخر، واختفى هو وخادمه للبحث عن ولده؛ فلذلك لم نتمكن من الفتك بالملك سمعان، وطال انتظار عودته فقررت أن أعود وأضع بين يديك هذه الأخبار .

كان الملك سمعان ميس يسمع هذا التقرير وهو في غاية الدهشة لجسارة هذه المرأة وقسوة قلبها وسيطرتها على هؤلاء الاتباع ثم سمع الرجل يقول : ما العمل يا مولاتي الملكة ؟

لم ترد فورا بل لبثت تفكر في الأمر برهة ثم قالت : لا بأس عليكم أيها الفرسان .. سأدفع لكم مالا كثيرا ، وعليكم أن تعودوا لبلاد الهناء ومتابعة المهمة السرية، فلابد أن يعود هذا الملك اللعين إلى ملكه ؛ فإذا قتلناه ستحدث بلبلة وارتباك في بلده وبلدنا .. ونحن ما زلنا نبحث عن الملك الشرعي معن ووصلتني بعض الأخبار أنه حي ويسكن في مدينة بعيدة ، يعيش أسيرا عبدا عند أحد الإقطاعيين في مدينة الصعد ، فأرسلت ابني حسنا وأخي مهران وقرمان لتحريره من العبودية .. فاطمئنوا فنحن ما زلنا نعمل ، ولن نكف عن تحرير بلادنا من هؤلاء الأوغاد .. فإذا قتلتم سمعان اضطربت البلاد عندهم وعندنا ، ولابد أن يعود التاج ليستقر فوق رأسي ، ثم رأس أخي سالم القائد الفاشل الذي لم يستطع أن يدافع عن مملكتنا أمام هؤلاء الغزاة .

فأخذ الأمير سالم يدافع عن نفسه ، ويبين ضعف الجنود والفرسان، وانشغالهم بمصالحهم

الفردية ، وعدم رغبتهم في القتال والموت من أجلنا ، فلما انتهى من كلامه أمرته عبلاء بأن يعطى مالا كثيرا للرجل ليستمروا في المهمة الكبيرة التي كلفتهم بها الأميرة ، ثم تسللوا متفرقين، وكان ميس قد تظاهر بالنوم عندما خرجوا من حجرة اللقاء ، ولم يظهر عند خروجهم لأن سيدته أمرته بالذهاب إلى النوم عند بداية الاجتماع ، وكان يتعجب الملك من قدرات هذه المرأة على تحريك هؤلاء المغامرين هنا وهناك ، وأرسل رسالة لتاج اللوز بشرها بحياة أسامة وما اطلع عليه من معلومات ، وطلب منها أن ترسل رجالا يترصدون هؤلاء القتلة في بلاد الهناء وحبسهم حتى ينتهي رقه وعبوديته .



كان الملك معن لما طرد وخلع عن كرسيه بذل وهوان وندم بعد فوات الأوان، فهرب من المدينة ومشى أياما وأياما حتى وقع في أيدي لصوص فاسترقوه وباعوه في سوق النخاسين بدراهم معدودة ، وتنقل من يد تاجر لأخر حتى وصل لرجل إقطاعي من بلاد الصعد ، فهو يعمل في أرضه وجناته ويرعى شؤون الدواب والخيل مع عدد كبير من الرقيق ، وحاول مرة الهرب فتعرض للأذى الشديد ، وحرم أياما من الطعام حتى ندم على محاولة الهرب ، وقبل يدي صاحب الأرض حتى رق قلبه له وعفى عنه ، وكان يحدثهم في كل مجلس يجلسون فيه بأنه ملك يحكم البلاد والعباد ، فيسخرون منه ويظنون به الظنون من البله والجنون ، وأصبحوا يتندرون بحكايته حتى وصلت هذه النوادر لرجال الملكة عبلاء ، فأرسلت ابنها حسنا وأخاها مهران وسفاحها قرمان وبعض الفرسان لإحضاره فمشوا متخفين إلى بلاد الصعد حتى استطاعوا أن يلتقوا به ، فلما شاهدوه بالذل والهوان بكوا أشد البكاء، وأسفوا على عقوقهم وجريمتهم في حقه ، ثم حرروه من صاحب الأرض، وعادوا به إلى بلاد النعام وهو في حال

صعبة ، يرثي عليه كل من رآه وسمع حكايته في الرق والعبودية ، فأمرت الأميرة بالاهتمام به والعناية به حتى عادت له الصحة يوما بعد يوم ، وقامت بالاعتذار له والندم والأسف حتى قنع

بأسفها ، ولما استعاد حيويته بعض الشيء أعلمته بعودة تاج اللوز للمملكة وهي الآمرة الناهية وأن عليه أن يظهر أمام الناس مطالبا بعرشه وملكه ، ولما وافق بعد رفض شديد وتهيأ الأمر طلبت من حسن وأخيه الكبير صعب أن يذهبوا به للسلام على أخته ، ثم يطالبها باسترداد العرش ، وكان ميس قد تابع كل هذه الأفعال ، واعلم تاج اللوز بها أولا بأول ، فلما دخل على الملك الصغير في ديوانه ، رحبت به أخته أحر ترحيب وحاول تقبيل قدميها اعتذارا فقبلت عذره وأمرت له بـقصر يقضي فيه بقية عمره ، فذكر لها حاجته بأنه الملك الحقيقي والشرعي للبلاد فقالت له أمام السادة : لقد علمنا أنك خلعت نفسك يا أبا صعب للملكة عبلاء التي تنازلت بدورها لولدي غالب حفيد الملك شيبان فلم يـعد لك حق تطالب به .

وأكد القاضي والقضاة خبر خلعه نـفسه وعدم صلاحيته للحكم ، وحاول مرة أخرى إثارة ولايته ، فأمر الملك غالب بحبسه في قصر وإبعاد زوجته وأهله عنه ، ووضع عليه حراسة من فرسان بلاد الهناء ، ومكث أياما ثم قضى نحبه ولم يكترث أحد لموته حتى ولا تاج اللوز .

أمام هذا الفشل قررت الأميرة عبلاء أن تثير القلائل في البلاد ، فأمرت رجالها باغتيال أحد القضاة ؛ ولكن ميس أفشل الأمر ، وتم القبض على الجناة فأودعوا السجن ، ومرة أخرى حاولت قتل أحد الفرسان الألف ـ فرسان بلاد الهناء ـ وتم القبض على الفاعلين قبل وقوع الجريمة ، ومرة ثالثة أمرت بقتل قائد الحرس القديم فنجا أيضا ، فعجبت عبلاء لفشل رجالها وبالطبع كان الجناة لا يعلمون من يسيرهم إنما هم قتلة يقبضون أموالا مقابل أفعالهم الشنيعة ، ولكن في المرة الأخيرة أمر القاضي بمثولها بين يديه ، وذكر لها أن أحد القتلة يتهمها بالتحريض فأنكرت ، ولم يستطع القاضي إثبات التهم عليها واشتراكها فيها ، فأدركت أن الشكوك تحوم حولها فعادت للهدوء ، وأصبح تفكيرها حينئذ محصورا بقتل تاج اللوز لتشفي غليلها بموتها وبينما الأميرة عبلاء في ضيق وشدة لفشل رجالها وأنصارها بإثارة الفتنة في البلاد أتاها نعيم فادخله ميس سرا عليها ، وعلم أن ولده مريض وهم يخشون عليه الموت فجاء يسألها المشورة فلما علمت ذلك توترت وخشيت على الصبي، فأمرته أن ينصرف إلى بيت سالم وغدا سترسل

له الأوامر ، وفي الصباح أرسلت ميسا يستدعي طبيبها أيام ملكها للبلاد ، ولما التقت به أغرته بالمال الكثير ليرافق نعيم لمعالجة أسامة ، فلما وافق أرسلت ميسا لقصر الأمير سالم للمجيء بنعيم ، وكان ميس قد أمر سماء وبعض الفرسان أن يستعدوا لمطاردة نعيم ، وكانت المفاجأة أن الأميرة كلفت ميسا بمرافقتهم ليعود بالطبيب ، فقادهم نعيم إلى خان في طرف المدينة واكترى لهم بغلتين ، وانطلق بهم نحو الجبال والغابات يقودهم إلى المكان المخفى فيه أسامة ، وبعد مسير استمر يومين ، وفي كهف عملاق في أحد الجبال كان الأمير المخطوف يرقد على سرير الشفاء وحوله عشرة رجال ، فلما وصلوا سمع ميس أحد الرجال يقول : لقد تأخرت يا قرمان وقد ذهب بنا الظن هنا وهناك .

فرد قرمان : لا .. الأميرة أخرتني يوما أيها الفرسان ، وقد أرسلت معي طبيبها القديم وخادمها ميس ليعود بالطبيب .

اقترب الطبيب من المريض فإذا هو فتى صغير فقال له : من أنت أيها الفتى ؟

فوضع قرمان يده على فم المريض وقال للطبيب : سيدي الطبيب عالجه فقط ، ولا تتكلم معه أرجوك .

نظر إليهم الطبيب بدهشة وهز كتفيه وقال : حسنا أيها الأبطال .

وأخذ يفحص الغلام وهو يحدق النظر فيه بتعجب ويقول في نفسه : من يكون هذا الغلام الجميل؟!هل هو ابن لها ؟ ولكن زوجها هرب منذ سنوات ولماذا يخفونه في هذه الجبال ؟!.. أرى هؤلاء الرجال كأنهم مجرمون .

ولما فحصه وعرف وجعه أخذ يصف لهم الدواء المناسب من الأعشاب البرية ، وكان ميس يقف في مدخل الكهف وهو يتوعد عبلاء بالهلاك والعقاب ويقول : ويلك يا امرأة إن قضى ولدي نحبه لأحرقنك حرقا أنت وعشيرتك وأنصارك كلهم .

ولما انتهى الطبيب من تحضير الدواء قال لقرمان أو نعيم : أيها السيد سأعود لبلاد النعام .. وإذا لم يتحسن هذا الصبي خلال سبع ليال انزل به المدينة ولا تتأخر إذا كانت تهمك حياته ولسوف

اركب له علاجا قويا .

فقال قرمان بغرور : حسنا يا طبيب .. وأحذر أن يعلم أحد من خلق الله أنك أتيت لهذا المكان حتى لا تخسر حياتك .. لا أدري لماذا أرسلتك الأميرة ؟! .

فصاح الطبيب بغضب : ويحك هذا الغلام في خطر شديد أرجو أن يجتاز هذه الحمى على خير لقد أحسنت الأميرة ببعثي معكم .

في أثناء المعالجة كان سمعان الملك التقى بسماء والفرسان الثلاثة وشرح لهم خطة وهي أن يعودوا للملكة تاج اللوز، ويحضروا سرية من الفرسان وعربة لنـقل الأمير أسامة وإخفائه لحين ساعة الانتقام ، ولم يشعر الرجال باختفاء ميس ظنا منهم بأنه انطلق لقضاء حاجته ، ولما رجع كان الطبيب يستعد للعودة فركب كل منهما بغلته ، وقفلوا نحو بلادهم عائدين، وأثناء الطريق كان الطبيب يقول لميس : من هذا الفتى الصغير أيها الخادم الأمين ؟.

فيرد عليه الخادم الأمين قائلا : دعك من هذا أيها الطبيب .. ولا تشغل نفسك بمعرفة المزيد ، فأنت تعرف قسوة قلب مولاتي الأميرة ألم تطلعك على أمره ؟!

فقال الطبيب : لا ..لا .. ولكنها رجتني رجاء حارا أن اذهب مع المدعو نعيم ذاك لأعالج مريضا يهمها أمره وحياته كما قالت .

فقال ميس بقلق : وهل من خطر عليه أيها الطبيب البارع ؟

فرد الطبيب البارع : الحق أن أمره صعب.. وأرجو بما قدمت له من علاج أن تخف آلامه بمشيئة الله ، وإن اجتاز الأيام السبعة وهو على قيد الحياة أرجو أن يشفى تماما بإذن الله .. وعلى سيدتك أن تنـزله المدينة ليسترد الصحة بشكل أفضل ، فهؤلاء وحوش لا يحسنون العناية بمريض ، وكلهم يريد موته لولا خوفهم من بطش الأميرة بهم .

فقال ميس : أرجو عافيته ورضا الأميرة بعودته للبلاد .

ثم قال لنفسه : آه يا ولدي! اصبر بضعة أيام فقط وسوف تعود لحضن والديك .

أخبر وأطلع الطبيب الأميرة على ما قام به ، ونصحها بإحضاره ليقوم على رعايته إذا كان يهمها

أمره ، فشكرته الأميرة على جهده ، وقد حاول أن يعرف منها سر الغلام فقالت : سوف تعرف أمره فيما بعد يا عزيزي الطبيب .. وأرجوك أن تنسى كل شيء رأيته وسمعته .

فوعدها بكتمان ما سمع وما رأى ، وكان سماء قد اطلع تاج اللوز على رحلتهم ووصولهم لأسامة ، فقررت أن تذهب بنفسها مع السرية لتنفيذ خطة سمعان ، فأشيع أن الأميرة تريد زيارة زوجها سمعان ببلاد الهناء ، فخرجت ومعها سرية الفرسان، ولما ابتعد الفرسان عن جهة بلاد الهناء تحركوا حيث الجبال المختفي في أسامة ، ولما اقتربوا من المكان ـ وهم يسيرون بحذر ـ وضعوا كمينا محكما لصيد الرجال العشرة ورئيسهم قرمان ، وكان للمفاجأة دورها في تلك الوديان والجبال ، وحوصر الكهف في عز النهار وسقط كل من فيه بأيدي الفرسان وكبلوا بالحبال والقيود ، ولكن قرمان وآخر لم يكونوا فيه أثناء الهجوم فقد ذهبا لإحدى المدن لجلب الطعام ، وفكروا بانتظارهم ولكن حاجة الأمير للعلاج والرعاية وخوفهم عليه فقرروا العودة للبلاد بعجلة ، ولما عاد قرمان بعد يوم من الغياب صعق عندما وجد الكهف خاليا ولم يجد الأسير ولا الرجال ، فوقع في نفسه أن عصابة من عصابات الجبال قد أوقعتهم وأخذوهم أرقاء فانطلق وصاحبه يبحثون هنا وهناك ولكن كثرة آثار الخيل غمت عليهم ، ولم تساعدهم في التحري والبحث فلم يجدوا شيئا ، فوقع في نفسه أن الأميرة ربما أرسلت إليهم ، فاتفقا على الرحيل لبلاد النعام ومعرفة الأمر واطلاع الأميرة على جلية الحادث ، ولما دخل المدينة وتحرى علم أن الأميرة لم ترسل أحدا للجبل ، ولا لها علم بما جرى لرجاله ، فصمم أن يخبرها فالتقى بها وحدثها باختفاء الأمير والفرسان التسعة ، فصعقت الأميرة للخبر وصفعته على وجهه صفعة اطارت الشرر من عينيه ، وأخذت تشتمه وتحقره ، فقد فقدت أعصابها ، وهمّ هو الآخر بقتلها بأن يضع خنجره في صدرها ؛ ولكنه كان يهابها ويخافها ويعلم شدة مكرها فعاد يتذلل لها : سيدتي الملكة أنا خادمك المخلص ذهبت لجلب المزيد من الطعام للرجال كالعادة فلا تغضبي عليّ .. ولا تدعيني أغضب عليك سأبحث عنه في كل الدنيا جبالها ومدنها .. سأحضره لك يا سيدتي .

فقالت بحدة : ألم تجد من رجالك جريحا قتيلا ؟!.. ألم تحدث معركة؟!

فقال بدهشة : العجيب أنني لم أجد أثر معركة وقتال .. ولا دماء .

فقالت : أيعقل أن يكون قد وصل إليكم الملك سمعان ؟! فهو قد ترك بلاده للبحث عن ولده كما اخبرني رجالنا الذين ذهبوا لهناك .

فأخذ قرمان يردد أمامها الكلام الناعم ، ويعدها بالبحث عنه وقلب الأرض للوصول إليه حتى هدأت الأميرة وعاد إليه سكونها من جديد وقالت : أنا آسفة يا قرمان ! لقد اطار الغضب صوابي .. لقد أذهب الفشل ما بقي لدي من دماغ .. آه .. لقد انتصرت عليّ تاج اللوز.. هزمتني تلك الملكة المغرورة .. علمت أنها غادرت لزيارة زوجها .. وبعد غياب بضعة أيام رجعت تقول : إنها رأت حلما أثناء الطريق فخافت على ولدها فعادت هي ومرافقوها .. حتى رجالي في بلاد الهناء لم يأتني خبر عنهم فهل قتلوا سمعان ؟ .. وها هو الأمير الصغير ضاع واختفى .. وقد كان الورقة الأخيرة بيدي لأحمي نفسي من بطش أعدائي يا قرمان .. وعادت تصرخ من القهر والغل : يجب أن تجده .. ابحث عنه في كل مكان في كل المدن والجبال .. لا تعد أيها البطل إلا بخبره اليقين .. والآن اغرب عني دعني أبكي على فشلي وخيبتي .. آه !.. لقد حاولت أن أجعل من أسرتي أسرة عز ومجد وحكم .. لكن آبائي جبناء واخوتي ضعفاء ..لا همة عندهم للمجد والعلا والسيادة يا ليتني صبرت على حكم معن وظللت ملكة تحكم وترسم .. إن نساء المدينة يخشين زيارتي ودعواتي.. وكذلك يتجنبن دعوتي لحفلاتهن يا قرمان .. عليك بالبحث الجاد عنه، ولك كل ما تشتهي عندي ولا ترني وجهك إلا ومعك خبره أيها المنحوس .

وبعد أيام ثلاثة أتاها قرمان وأخبرها أن الذي أنقض أسامة أمه الملكة تاج اللوز ، وهو يعالج الآن في قصرها ، فشكت في الطبيب ، فقال قرمان : إنهم لا يثقون في الطبيب ، ولم يخرج من المدينة إلا يوم أخرجناه نحن .

فاحتاروا بمعرفة كيف وصلت تاج اللوز للأمير أسامة في تلك الجبال والوديان؟! فأمرته أن يجهز فرسا في الخان للهرب من المدينة قبل شفاء الأمير الصغير ، وفي غفلة من خدمها وجواريها

هربت الأميرة من بلاد النعام برفقة فارسها قرمان ، ولما اكتشف ميس هربها لانشغاله بولده المريض، وعلم من إحدى جواريها أنها هربت للشمال شمال البلاد ، فهجر القصر واسترد حريته

بعدما اجتازت الأميرة الهاربة عبلاء بلاد النعام كلها هي وفارسها قرمان ، وبينما هما في بلاد العبيد والسودان هجم عليهم مجموعة منهم وأخذوهم لملكهم همام الذي أمر بحبسهما بضعة أيام ، ولما حضروا بين يديه اتهمهم بقتل أحد السودان، فأنكر قرمان وقال: يا سيدي الحاكم نحن عابرو سبيل .. ولا نعرف المقتول وقبض علينا رجالك شبهة .

فقال الحاكم : من أي البلاد أنتم ؟

فقال قرمان : نحن يا سيدي من بلاد النعام ، بلاد الملك غالب بن الملك سمعان ملك بلاد الهناء في هذا الزمان .

فالتفت الملك السوداني لرئيس حرسه وقال : ما تقول أيها الأمير بهم ؟

فقال رئيس الحرس : لم نجد أغرابا في المدينة يا مولاي سواهما .. والشهود ذكروا أن القتلة من الأغراب البيض وليس من السودان .

فقال قرمان : يا مولاي الحاكم .. هذه امرأة ـ وأشار لعبلاء ـ وإنها الملكة السابقة لبلاد النعام زوجة الملك معن بن شيبان .

فقال ملك السودان : وأين زوجك عنك ؟

فقالت : قد مات منذ زمن يا ملك الزمان .

فضحك ملك السودان ثم قال : يا رئيس الحرس ابحث عن القاتل .. واعلمي أيتها البيضاء أنني سأتخذك زوجة لي .. فما زال يرتسم على وجهك بعض الجمال .. لعل الله يهبني منك ولدا أبيض يكون ملكا على السودان في قادم الأيام .

وأمر بعض اتباعه بأخذ المرأة إلى حجرات النساء ليصلحن من شأنها وتجهيزها للزواج منه ،

وأمر آخرين بحبس قرمان حتى يظهر القاتل الحقيقي .

فصاحت الأميرة : يا ملك الزمان أتقهرني على الزواج منك وأنت تعلم من أنا ؟ .. أنا الملكة عبلاء ملكة بلاد النعام .

فقابل صراخها بصراخ وقال : أنت هنا جارية .. أمة .. يكفي أنني عفوت عنك وعن هذا الرجل.. ولم نقتلكم بصاحبنا.. ومن أدرانا أنك ملكة وزوجة ملك ؟ .

فصرخت وولولت قائلة : نحن لم نقتله .. رجالك قتلوه واتهمونا بقتله لسوء حظنا .

فعاد هو الآخر يصرخ ويقول: مهما صرخت وولولت أنت أسيرتي وستصبحين لي حليلة رغم أنفك .. وملكة على بلاد السودان أيكفيك هذا ؟!.

فهدأت وقالت : أليس للمرأة عندك صداق .. أم قهرا واغتصابا ؟.

فرد عليها : بعد النكاح وإنجاب الولد نعطيك مهرك .

فقالت : أقتل نفسي قبل أن تصل اليّ .

فقال : ويلك يا امرأة بدأت أصدق أنك ملكة! .. ما المهر الذي تبغينه ؟

فقالت بحقدها المعهود : مهري أيها الملك الأسود .. هو قتل الملكة تاج اللوز ملكة بلاد النعام فإن فعلت ذلك سأكون لك الخادمة المخلصة الجارية التي تحبك إلى آخر يوم من دنياي .

فقهقه الملك الأسود وقال ضاحكا ومستهترا : ابشري بهذا المهر .. سأكلف بضعة من السودان بقتلها من أجل عينيك الساحرتين ، ورفع صوته ثانية بالضحك والقهقهة وسمعها تقول : لن تتزوجني قبل أن أرى رأسها يتدحرج أمامي.. وإن أجبرتني على الزواج منك قبل ذلك ستجدني جثة هامدة .

فقطع ضحكه وقال : إنك قوية وعنيدة وشرسة لكني وقعت في هواك .. سأنفذ رغبتك خذوها إلى قصر النساء حتى نجلب لها المهر .. وحذار أن تحاولي الفرار فالموت ينتظرك .

فقالت : لن اهرب أيها الملك .. وتأكد أنك إذا انتقمت لي من تاج اللوز ملكة بلاد النعام سأكون لك الجارية الخادمة المطيعة .

وجهز ملك السودان أربعة من السودان ذوي الحيلة والذكاء، ورافقهم قرمان لبلاد النعام للفتك بالملكة تاج اللوز مهرا لعبلاء ، دخلوا المدينة متخفين وبسلام، وفي فندق من فنادقها نزلوا ومشى قرمان لقصر الأميرة عبلاء ، واجتمع بجاريتها الخاصة ووجد الغلام ميسا عندها ، وعلم منهم أنهم يبحثون عن الأميرة الهاربة ، وكشف قرمان لميس الأمر كله معتقدا أنه من المخلصين للأميرة ، غادر ميس القصر بعد انصراف قرمان الذي ما زال يتردد على قصر الأميرة بين الحين والحين ليصل إليها أو تعود فجأة ، وقد صح ما توقعه ، وأرسل الفرسان للقبض على قرمان والسودان الأربعة، داهم فرسان الملك غالب الفندق وأسروا الرجال الأربعة وقرمان ، وبعد التحقيق والتدقيق أرسلت الملكة تاج اللوز وراء ابن عمها سالم وأبناء أخيها حسن وصعب وأخبرتهم بمكان أمهم ، وأرسلتهم برفقة أحد السودان للمجيء بها قبل أن يتزوجها ملك السودان ، ولما علم ملك السودان بانكشاف أمره ووقوع رجاله بالأسر غضب غضبا شديدا على الأميرة ، وأمر بسجن أولادها وأخيها ، وأرسل رسالة للملكة تاج اللوز يأمرها بإطلاق سراح الأسرى قبل أن يقتل رسلها إليه ، ولما علمت عبلاء بفشل رجال ملك السودان بالفتك بغريمتها، وحبسه لأبنائها وأخيها سالم صعب عليها الأمر ، وحقدت حقدا قويا قاتلا على ملك السودان، وعرضت عليه غزو بلاد النعام لتحرير الأسرى وأسر تاج اللوز ، فوافق على ذلك الغزو على شرط أن يكون ذلك بعد زواجه منها بعام ، فرضيت الأميرة ، وتزوجت من ملك السودان ، وعفا عن ولديها وأخيها سالم بمناسبة النكاح ، وعادت رسله للملكة تاج اللوز يخبرونه بأن الملكة ستجهز جيشا لغزو بلاد السودان إن لم يعد الأمراء والأميرة لبلاد النعام ، فسخر من ذلك وأعلن النفير العام ، وقد غضب الأمراء من زواج أمهم من ملك السودان ، وعنفوها أشد التعنيف على فعلتها تلك حتى خافت أن يفتكوا بها فقالت : إنني اكره تاج اللوز كرها يكاد أن يفجر قلبي .. وأريدها أن تموت ولو تزوجت الشيطان نفسه من أجل القضاء والانتقام منها .

فقال حسن بحدة : كفاك حقدا يا أماه! .. كفاك حقدا يا أماه! لقد دمرت حياتنا بأحقادك ،

التاج ليس لنا، لقد فقدناه بسبب غرورك وكبريائك وحقدك ، ونحن الآن أصبحنا عبيدا عند هذا العبد الحقير، لقد كرهنا الحكم والملك .. وسوف أدور في الدنيا واهجر هذه المدينة ولن أبـقى في بلاد النعام .

فقالت : وأنا لقد ضحيت بنفسي وراحتي من أجل أن تصير ملكا يا حسن .

فقال بسخرية : ملك مغموس بالدماء .. لا أريد هذا الملك .. لقد فرطنا في أبينا من قبل من أجل هذه الملك ، وكدنا نقتل أعمامنا من أجل هذا الملك ، وها أنت أصبحت جارية عند هذا العبد من أجل ملك لن يصل إليك .. وداعا يا أماه وداعا يا أخي صعب وداعا يا خالي .

وخرج حسن هائما على وجهه في هذه الدنيا ، وأما صعب وسالم فقد بينا لها رغبتهما بالعودة إلى أولادهم وزوجاتهم في بلاد النعام ، وحاولت منعهما وفشلت فتدخل ملك السودان في شأنهما وغضب عليهما وأمر بحبسهما ، فقال صعب لخاله : هذا ليس غريبا على أمي.. لقد تخلت عن أبينا من أجل أحلامها في الملك، وتزوجت هذا اللئيم من أجل كرهها وحقدها لتاج اللوز مع أنها ملكة عادلة محبوبة من الرعية وجنودها .

واستطاعا بالمال رشوة حرس السجن، وهربا في جنح الظلام إلى بلاد النعام، ودخلاها بسلام ودخلا على الملكة أم أسامة واطلعاها على خبرهما وزواج الأميرة من ملك السودان ، واستعدادهم لغزو بلاد النعام ، وهجر حسن لها غضبا وحزنا ، وقد ساح في الأرض ، فأكرمتهما تاج اللوز ومنحتهما المال والضياع .



نسير مع حسن الذي ترك أمه وأخاه وخاله وهام على وجهه في البلاد ، واستمر في سفره وترحاله من قطر إلى قطر حتى نزل إلى جزيرة البحر ، وارتاح فيها ، وقرر الاستقرار فيها وقضاء دنياه فيها ، وبعد زمن يسير اشتغل عند أحد التجار الكبار ، واظهر نشاطا وهمة وحيوية في العمل ، فسر به صاحب المتجر وأكرمه

غاية الإكرام ، ثم بعد حين أخذ يسمح له بزيارته في البيت ومشاركته في السهر مع ضيوفه والتعرف عليهم ، وذات ليلة وبينما هو وصاحب المتجر التاجر رضوان سائران لزيارة أحد الأصدقاء فتحت لهما الباب صبية جميلة ، فلما وقع نظر حسن عليها هام بها عشقا وهوى ، وسأل رضوان عنها ، فأخبره أنها ابنة صديقه زيدان فقال له حسن الولهان : ألا يزوجني بها صاحبك زيدان ؟ .

فقال التاجر رضوان باسما : أراك وقعت في هواها من أول مشاهدة يا ولدي ؟!

فقال حسن معترفا : إي والله! لأول مرة تهوى نفسي النساء أيها الأب الكريم .. تحرك قلبي نحوها .

فقال التاجر : أمهلني أياما ولسوف أكلم والدها .. فهو رجل غريب عن هذه الجزيرة مثلك .

ولم يطل انتظار حسن ، فقد اخبره رضوان بعد أيام قليلة أن والد الفتاة أبدى اهتماما بالأمر ، ودهش كثيرا عندما علم أنه من بلاد النعام ، ويريد أن يقابله ويراه الليلة ، فهو يعرف تلك البلاد منذ زمن بعيد ، وفي الليل انطلق حسن لبيت التاجر زيدان وقد لبس أجمل ثيابه، ووضع على بدنه أفضل الطيب، وبعد الاستقبال والطعام قال زيدان : أعلمني رضوان بغايتك، ولا أرى فيك ما يعيب والذي أدهشني أنك من بلاد النعام ، فحدثني عنها ما أخبارها .. فأنا مهاجر قديم من بلاد النعام وكذلك أخي .

فقال حسن : أنتم من بلاد النعام .. هذا أمر غريب يا سيدي !

فقال زيدان أبو أحمد : ما حكايتك وما الذي أتى بك إلى هذه البلاد ؟!

فقال حسن وقد خفق فؤاده كثيرا : أكلمك عن نفسي على أن تحدثني عن نفسك .

فقال زيدان : لا بأس يا ولدي .. سأكلمك عن بلدي .

فقال حسن : يا سيدي أصدقك القول .. أنا اسمي حسن واسم أبي معن.. وقد كان ملكا للتلك البلاد .

جفل زيدان وقال وهو ينهض : انتظر أيها الشاب لسوف أرسل لأخي ربيع ليسمع حكايتك

معي .. وسوف تذهب عنك الدهشة بعد قليل .. فنحن أهل وأقارب ..فأنا عمك الهارب من بطش أمك .

قال حسن : أدركت هذا عندما اخبرت أنك من بلاد النعام .

وأرسل وراء أخيه الذي أتى على الفور وبعد أن هدأت النفوس قال زيدان : تكلم يا حسن قل لنا ما حكايتك؟!

فقال حسن : كما قلت لك يا سيدي قبل قليل ، أنا الأمير حسن بن الملك معن بن الملك شيبان النابغي .. كنت صغيرا عندما كان أبي ملكا على بلاد النعام ، ثم هرب أبي بعدما غضبت عليه أمي ، وخلعوه عن العرش ، ثم غزت بلادنا جيوش بقيادة الملكة تاج اللوز ـ وهي عمتي ـ وتنازلت أمي الملكة عبلاء عن العرش لابن الملكة تاج اللوز الملك غالب بن الملك سمعان ، وهو مليك البلاد هذه الأيام ، وقامت أمي الحقودة والمتكبرة بإثارة الفتن في البلاد ، ولكن أمرها ومكرها فشل ، فهجرت البلاد هاربة تبحث عن نصير.. تريد أن تفعل كما فعلت الأميرة تاج اللوز ، فوقعت في يد ملك السودان أسيرة ، وعلمنا بذلك فأرسلتني الملكة تاج اللوز وأخي الأكبر صعبا وخالي سالما لفك أسرها ، فتزوجت ملك السودان على أمل أن يقتل لها غريمتها تاج اللوز ، فلما رأيت ذلك الهوان والحقد صممت على عدم العودة لبلاد النعام ، وتركت أمي وخرجت هائما في الدنيا على وجهي باحثا عن الراحة ، فجاء بي القدر إلى هذه الجزيرة الجميلة، وقبل أيام كنت وصاحب المتجر المعلم رضوان في زيارتكم ففتحت لنا الباب صبية جميلة، وقعت من نفسي موقعا حسنا، فرغبت بالزواج منها، وعرضت الأمر على المعلم رضوان، وكلمكم في ذلك .. وهذه حكايتي معكم ومع بلاد النعام

فقام الرجلان بتعريف حسن على نفسيهما من جديد ، وتعانق الرجال وتباكوا ، وقال أحدهما : أنت حسن الصغير ابن أخينا معن! .. لقد كنت طفلا صغيرا أيام بداية مشاكلنا مع أمك وأبيك والحق على أبيك الضعيف .. لقد كان ضعيفا أمام أمك ونزواتها وطموحها .. والحق أن أمك كانت عنيفة وحقودة مع أننا أهل وأقارب .

وقصوا عليه حالهم ومطاردتهم من قبل أنصار أمه ، وحبسهم في البلاد بعدما سلمهم الملك عدنان لما رفضت تاج اللوز الزواج منه ، ثم هربوا من السجن بمساعدة بعض المخلصين من رجال الملك شيبان ، وتنقلا بين المدن والقرى حتى وصلوا لهذه الجزيرة واستقروا فيها منذ ما يقارب العشرين سنة ، ولما فصل لهم حسن قصة تاج اللوز، وكيف عادت للبلاد بعدما تزوجت من الملك سمعان الذي أحبها وأنجبت منه أميرين الملك غالب ، الملك على بلاد النعام والأمير أسامة الذي سيصبح ملكا على بلاد الهناء ، ففرح الأخوان لسماع هذه الأخبار الحسنة، ولتملك تاج اللوز لبلادهم ، وفي نهاية الليل قال زيدان : رغم الجروح التي صنعتها أمك وأخي معن ابشر سأزوجك من الأميرة مي إذا رضيت هي بك بعدما تسمع لحكايتنا .. وعلينا يا أخي ربيع أن نسير لبلادنا لرؤية أختنا الملكة بعد كل هذه السنين .



وبعد أيام جهزا مركبا للسفر لبلاد النعام ، وأخذا معهما الهدايا وأوصوا أولادهما على أملاكهما وحسن ، وسافرا إلى زيارة الملكة تاج اللوز التي ما كادت تسمع بمجيئهما وحياتهما حتى خرجت هي والملك سمعان لاستقبالهما والترحيب بهما ، ولقد كان لقاء عاطفيا مشهودا بالقبلات والزفرات والتنهدات ، وقد فرحوا بلم الشمل بعد تفرق وغياب وتشتت في بقاع الدنيا ما يقارب العشرين سنة ، وقصا عليها قصة حسن ابن أخيهم ومجيئه للجزيرة ، وفرحت الملكة بهذا الخبر وشجعته على تزويجه من ابنته ليعود للأسرة صفاؤها واجتماعها ، وأخبرتهم أن ملك العبيد غزا بلاد النعام ؛ وعاد ذليلا مهانا بعدما رأى نصف جيشه بين قتيل وجريح ، وعاد لبلاده خائبا خاسرا ، وقد علمنا أنه يسوم زوجته عبلاء سوء العذاب لما حل به من الخيبة والخسران ، ولقد أرسلنا لها رسولا من طرف ولدها صعب وأخيها سالم لتعود للبلاد، فأبت وأصرت على البقاء في بلاد السودان رغم الذل والعذاب الذي يصيبيها من زوجها ، ورفضت عفو الملك سمعان

وهي تعيش هناك بين عبيد وخدم ونساء ملك السودان وبعد حين ودع الأخوان أختهما ورجعا للجزيرة الخضراء على أمل العودة من جديد لبلاد النعام .

وكان الملك غالب قد أصبح شابا بعد هذه السنوات ، واستقر الوضع في بلاد النعام ، وملّ الملك سمعان من التنقل بين البلدين ، فودع ولده بعدما زوجه من فتاة من بنات الأسر الكبيرة في البلاد ، وأخذ زوجته الملكة تاج اللوز ، وعادا لبلاد الهناء بعد كل ذاك العناء ، فهدأت النفوس وعاد الهدوء والوئام لتلك البلاد ، وقد تزوج حسن من ابنة عمه مي ابنة الأمير زيدان بعدما عادوا للحياة في بلاد النعام ، ولما تزوج الأمير أسامة من ابنة القاضي تنازل الملك سمعان عن الملك لولده أسامه ، فأصبح ابني تاج اللوز ملكين متوجين، أحدهما في بلاد النعام والثاني في بلاد الهناء ، وهذا آخر ما جرى للأميرة تاج اللوز من الأخبار أيها السادة الكرام وسلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته وإلى اللقاء في قصة أخرى من حكايات الناس يا ناس .

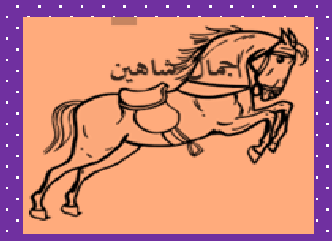
وهكذا تمت قصة الملكة تاج اللوز وولديها غالب وأسامة



قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

الاميرة تاج اللوز ووليدها







الفارس

جبل بن مجدو

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات الفوارس

١٤

جمال شاهين

١٩٩٩

الفارس جبل بن مجدو

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤



جمال شاهين

الفارس جبل بن مجدو

جمال شاهين



حصار المدينة

دخل الشاب حجرة أمه مندفعا بقوة ، فخلع البيضة الفولاذية التي تغطي رأسه وطرحها أرضا وأخذ يد أمه مقبلا لها ، وكان يرتعش من الخوف ، وممتقع اللون ، وكانت ثيابه ممزقة ، وتنتشر بقع الدماء الجافة عليها ، ثم ألقى سيفه المخضب بالدماء على طاولة في الحجرة ، ورمى نفسه على سرير متين في الحجرة ، واقتربت منه جارية من جواري الملكة الأم بمنديل كبير ، فأخذت تمسح العرق والتراب والدماء عن وجهه الجميل ، ولما أنهت الجارية مهمتها ، قالت الأم التي لزمت الصمت حتى أنهت الخادمة مهمتها : إنك مرهق اليوم يا ولدي ، وكأنك اشتبكت مع الأعداء ؟!

فتنهد الشاب بعمق ، وسالت دموع على خديه ، وتناول كأس ماء من يد جارية فشربه دفعة واحدة ، وأخذ غيره ، وما زال يشرب حتى ارتوى فقالت الأم : احضري الطعام يا جارية لسيدك .. هل التقيتم اليوم بجنود الملك الظالم ؟!

فأغمض عينيه وهز عنقه وقال : أماه !.. إن الأمر لصعب !.. وإنهم أشداء .. عليهم لعائن الله وغضبه .

وأقبلت الجارية بالطعام ، وتركته أمام الأمير الذي تناول منه قطعة لحم وبدأ يلوكها ، وأمه تنتظر أن يكلمها عن معركة اليوم ..ولكن الأمير كان مذهولا ومتعبا ، فلم يتفوه بشيء ، وبينما هو يزدرد الطعام دخل أخوه الأمير ماجد الحجرة ، وهو يقول بصوت حاد وصاخب : أأنت هنا أيها الفارس ؟!.. وأبي يبحث عنك .

فقال الأمير شبرو : لقد رأينا الموت أيها الأمير !! .. ماذا يريد أبي ؟!.. لقد نجونا من موت محقق .. إنهم أشداء ..وبأسهم شديد .. وكم نجا من فرساني ؟!

فأجاب الأمير ماجد ساخطا : أقل من مائة .. لقد دمرت كتيبتك تدميرا كاملا .. وأبوك غاضب عليك غضبا شديدا .

فصرخ شبرو وهو يقف بعنف : ماذا أفعل لأبي ؟ إنها معركة مرعبة يشيب لها الولدان ..

اعلم أنني بدأت أخشى على المدينة الهلاك والدمار ..على أبيك أن يضع هذا الحساب في نفسه وقلبه ..فلابد من الاستعداد للهرب وترك المدينة ..لن نصبر أمامهم أكثر من أيام معدودات .

ابتسم الأمير ماجد وقال : أرى الخوف ملأ قلبك من هول هذا اللقاء ألهذا الحد هم أقوياء ؟

فقال شبرو : لن أقول لك جرب .

فرد ماجد قائلا حانقا : سوف أجرب أيها المتهور .. ألم نقل لك لا تخرج لقتالهم ؟ .. فبسبب خروجك ومعركتك الفاشلة دب الرعب في نفوس الفرسان والجنود .. وفي الأهالي .. كان عليك أن تموت مدافعا عن مدينة الآباء والأجداد .. لماذا رجعت ؟!

فقالت الأم : ماجد .. اهدأ يا ولدي .. أرى أن الأمر خطير ؟!

فقال ماجد : نعم يا أماه ! ..ظن شبرو أنه بفرسانه الألف سيهزم هؤلاء الغزاة المحترفين الحاقدين .. فخرج بألف بطل ، واصطدم بالعدو العنيد على أبواب المدينة ، فخسر في معركته تسعمائة فارس ، وعاد بمائة مذهولين ، مما قذف الرعب في رجالنا وناس البلاد ..لقد نصحته قلت له قبل خروجه يا ابن أمي وأبي دعك من التهور ..نحن محاصرون وهم كثر .. نصبر على الحصار ، ونرميهم بالنبال والسهام والنيران ، وقال له الوزير أحمد دع الغرور يا أمير شبرو فصاح فينا شبرو إلى متى نبقى تحت رحمة الحصار ؟ والأعداء لهم أكثر من ستة أشهر يحاصروننا ولم نفعل شيئا ، وضاقت المدينة بأهلها وسكان القرى ، وأخذت بعض العائلات تترك المدينة إلى مدن مجاورة وقال وهؤلاء لن ييأسوا ولن ينهزموا من غير قتال ، وأصر يا أماه على ملاقاة جيش الملك الضبع بألف فارس .. وأخذ ماجد يصرخ في وجه أخيه المهزوم والناجي من معركة الباب بحدة وسخط : لماذا لم تمت كما مات فرسانك ؟! .. أين شجاعتك ؟ لماذا هربت وتركت رجالك يموتون ؟!

صاح شبرو : الموت .. الموت ..ماذا أفعل ؟! لقد تساقط فرساني حولي .. فكان لابد من التراجع .. ألست بشرا ؟! ألا تخاف الموت أيها البطل ؟ اخرج إليهم .. أرنا بطولتك وقوة قلبك ولزمت الأم الصمت أمام ما سمعت من هول الضحايا الذين دكت أعناقهم على أبواب المدينة

المحاصرة منذ شهور من قبل جنود الملك الضبع ملك بلاد العقرب ، وبينما هما يتصارخان دخل الحجرة الملك شامة بن غلان صاحب وملك مدينة الدب القطبي ، دخل الملك والحزن والأسى مرتسمان على قسمات وجهه الكبير ، ولما أبصر ولديه شبرو ابنه البكر والأصغر منه ماجد قال لشبرو بحدة : أأنت هنا أيها الفارس ؟! أجئت تحتمي بأمك ؟ ماذا فعلت بفرسانك ؟ قتلتهم قتل النعاج .

فقال شبرو بغضب خفيف :أبي أنا أدافع عنكم ، عن كرامتكم ، عن شرفكم ، عن بناتكم وأطفالكم .. أيها السادة ..لم أتِ هنا لاحتمي بأمي ..أنا جئت هنا لأني رأيت الموت ، وكلي حزن على ما جرى لفرساني الأشاوس في هذه المصيبة .. إنهم أقوياء أشداء .. اهربوا اهربوا قبل فوات الأوان .. فهاهم أقوى الرجال قد قتلوهم .. وهم يا والدي لن يتركوا المدينة قبل دخولها واستسلامها لهم .

فقال شامة بن غلان : آه !! ..لقد قتلت الناس بتهورك ..والحق كأنهم بعد هذه الضربة القاصمة لخير فرساننا يستعدون لاقتحام المدينة ، فاستعد أيها الفارس للقاء .. واحذر الهرب الموت خير لك ولنا من الهرب ..كان عليك أن تموت مع رجالك .. اذهب يا ماجد إلى رجالك واستعدوا لصد أي هجوم منهم ، فحركاتهم تدل على أنهم سيعملون شيئا يريدون أن يستفيدوا من نصرهم وقذفهم الخوف والوهن في قلوبنا ..وأنت يا شبرو بن شامة التحق بكتيبة ابن عمك راسب .



كانت مدينة الدب القطبي من المدن الكبيرة تخضع لحكم الملك شامة هي وما حولها من القرى الصغيرة ، وكانت تعيش في هدوء وأمان ونعيم ورغد من العيش ، ولها جيش قوي مدرب تدريبا جيدا للدفاع عن المدينة ، وعن أمنها الداخلي ، والمحافظة على أسوار المدينة العالية ، وكانت تصد الغزاة والطامعين إلى أن حاصرها الغزاة الجدد ، فهجر أهل القرى قراهم ومزارعهم ولجئوا إلى المدينة الحصينة المحصنة تحصينا ضخما بأسوار قوية من ثلاث جهات ، وأما الجهة الشرقية فهي عبارة عن جزء من سلسلة جبال عالية تحيط بالمدينة من تلك الجهة ؛ فبذلك تشكل السور الرابع للمدينة ، ومنفذها الوحيد نحو مدن الشرق ، وعلى هذه الجبال حامية من الجند للمراقبة والحراسة .

وقد حاول شبرو دفع الغزاة برجاله الأقوياء ، فأصيب بنكسة كبيرة ، فخسر جنوده وعساكره ونجا من الموت بأعجوبة ، وكان من نتيجة معركته تلك أن دب القلق والوهن في قلوب الناس وبدأوا يهربون إلى الجبال ، وزاد رحليهم للمدن التي وراء ذلك الجبل العملاق ، وحتى أن جيش المدينة أصابه القلق والشك ، ففرسان شبرو كانوا من أشد فرسان الملك شامة وكانت كتيبة الأمير شبرو كتيبة الموت والمهمات الدفاعية القاسية .

وشدد المحاصرون الحصار المضروب حول المدينة ، فمع كل شروق يوم جديد يدع الناس منازلهم ويصعدون إلى الجبال الوعرة خوفا من حجارة المنجنيقات المتساقطة على المدينة ، وبعضهم يتابع المسير إلى البلاد المجاورة .

وأمام هذا الضغط الشديد اندفع الملك شامة والأمراء بترحيل أبنائهم الصغار إلى أصدقائهم من ملوك المدن الأخرى خوفا من وقوعهم أسرى ، وأن يستعبدهم ويسترقهم جيش الملك الضبع ، وأمام شدة هذا الحصار ، وضعف الإمدادات من الأقوات ، وهرب كثير من التجار ، وخوفا من هرب الجند بعد مغادرة عائلاتهم ، كان على الملك ووزيره وقواده اتخاذ قرار حاسم إما الاستسلام وإما ملاقاة العدو ، فالحال ضاق بالعباد ، فإما أن يدحروهم أو يموتوا موتة الأبطال والشرفاء .

التقى الملك شامة مع زوجته الملكة جملة بنت يوسف وأطلعها على أمر البلاد والعباد ، وأخبرها برغبته في نقل أولاده الصغار سليل وحريف والأميرة حظوظ في المرحلة الأولى إلى مملكة الملك الجفال حاكم بلاد الريح البعيدة عن بلادهم مسيرة شهر ، فجهزهم الملك سرا بقافلة صغيرة من الخصيان والجواري ، وبحراسة خمسة من العبيد الأشداء ، ورسالة توصية بهم إلى ذلك الملك وقد قلد السادة ملكهم ، فأرسل الوزير أحمد ابنه الصغير ليث إلى مدينة مجاورة لدى ابن عم له هناك ، وكذلك فعل قائد الجيش القوي ربيع بأن أرسل ابنه الصغير قيس واخوته الصغار ذكورا وإناثا إلى مدينة الظاهر لقرابة بعيدة بينهم ، وأمر الملك الناس أن يصعدوا نساءهم وضعفاءهم إلى أعالي الجبال حتى ينجلي الموقف بعد المعركة الحاسمة المقبلة ، فصعدت أعداد كثيرة من الناس إلى الكهوف ينتظرون مصير البلاد ، وحذرا من الوقوع في ذل الأسر .

ولما حان وقت الخروج لصد العدو بعد ذلك الحصار الطويل ، خرج الملك شامة بنفسه وحوله وزيره وقائد جيشه والأمراء وبين أيديهم أولادهم الفرسان ، واصطف الجيشان أمام أسوار المدينة ، ودارت رحى المعركة بين جيوش الدب المحاصرة منذ شهور وجيش الملك الضبع ملك بلاد العقرب ، وبعد أيام من العراك الشرس ، أدرك الملك شامة قوة خصمه وكثرة عدد جيشه فتشاور مع الوزير والقادة على طلب الصلح مع هؤلاء الغزاة مرة أخرى ، فأرسل رسولا عاقلا يعرض الصلح على الملك الغازي ، فرضي الملك الضبع بالصلح على أن يسلموا له المدينة تسليما كاملا مع الخضوع التام لملكه وحكمه ، وأعلمهم أن المال لا يكفي لفك الحصار وإنهاء القتال .

فتجدد القتال بين الطرفين ، وخاضت جيوش الملك شامة معركة حامية الوطيس ، قتل فيها الملك وولداه الأمير شبرو والأمير ماجد ووزيره وقائده وكثير من أبناء اخوة الملك والأمراء والجيش ، وجرت مذبحة للأسرى ، واستسلم أهل المدينة ، ودخل الغزاة مدينة الدب ، وعاثوا فيها فسادا وقتلا وتدميرا ، وأباحها الملك الضبع لجنوده ثلاثة أيام كاملات ، فجرى فيها القتل والنهب والسلب ، وما نجا من الموت إلا كل طويل العمر .

فكانت حدثا تناقله الركبان بين المدن والعمران ، ولما علم الهاربون في أعالي الجبال والحامية الصغيرة ما حل بمدينتهم من دمار وهلاك تفرقوا أيدي سبأ ، وهربوا خوفا من بطش الأعداء الغزاة ، وهكذا ماتت مدينة الملك شامة ، وتشرد الناس أمام هؤلاء الغزاة والملك المخيف الضبع ثم مكث الغزاة فيها حينا ، وغادرها الضبع فرحا بنصره ، وترك عليها حامية من جنده قوامها ألف فارس ، على رأسهم فارس يسمى الغضبان ، وأمر هذا الحاكم برفع العذاب عن الأهالي والسماح بعودة الهاربين ، فعاد الضعفاء والفقراء والأرامل والأيتام ، وأصبحت بلاد الدب تابعة لمملكة الضبع الذي تحرك غازيا لبلد آخر يضمه لمملكته الكبيرة .



ومما هو جدير بالذكر هنا وفي هذا المقام أيها القارئ العزيز ، أن قافلة الأمير سليل وحريف ابنا الملك شامة المقتول تعرضت لعصابة من قطاع الطرق عندما ابتعدت عن جبل مدينة الدب ، وهي في طريقها كما تعلمون إلى بلاد الملك الجفال ، وجرى الحادث في ظلام الليل الدامس ، فهرب العبيد الحراس ، وتمكن أحد الخصيان بالهرب بالأمير سليل ، واختفى به في كهف في ذلك الوادي ، ونجا به من رجال العصابة الشريرة ، ثم تابع المسير به إلى بلاد الريح .

ووقع الأمير حريف وأخته الأميرة حظوظ في أسر العصابة ، وباعوهم رقيقا في بلد أمامهم ، وهي مدينة الشرق وسيأتي لها ذكر ، وكان حريف عندما سبي ذا سنوات ثلاث وتكبره حظوظ بسنة واحدة ، وأما الأمير الذي نجا فعمره ست سنوات .

ولما حلت الهزيمة الساحقة بجيش الملك شامة تابع الهاربون من أسرته ـ الملكة الأم جملة بنت يوسف وابنتي الملك قسمة وجميلة وأخوات الملكة وأخوات الملك ونساء الأسرة الحاكمة ـ المسير نحو بلاد الملك الجفال صديق الملك شامة ، ولما وصلوها كانت كارثة ضياع الأمراء أمامهم فازداد نحيب الأم الثكلى ، ولقد قام الملك الجفال ونساؤه بتخفيف المصاب عنهم بحسن الكلام والأمل ، وأن الأيام دول ، والظلم مرتعه وخيم ، والصبر مفتاح الفرج ، ومنحهم قصرا واسعا يسكنون فيه ، وكذلك أعطى ومنح كل من لجأ إلى بلاده من أهل مدينة الدب ، وواسهم

بالمال والطعام والإحسان والمساكن ، فلما جاءتهم أخبار خروج الضبع من بلادهم بدأوا يعودون رويدا رويدا إلى ديارهم ومنازلهم . وأرسلت الأم الخصي الذي نجا بسليل يبحث عن ولديها المفقودين في المكان الذي فقدوهما فيه وحوله من المدن ، فغاب حينا من الوقت ثم عاد من غير شيء ، فأقسمت الأم الثكلى أمام العائلة أن تنتقم لزوجها وأبنائها القتلى ، وأن تسترد ملك زوجها ، وطلبت من الملك الجفال أن يهتم بولدها سليل ، ويعلمه مع أولاده ليوم الثأر والانتقام من قاتل أبيه الملك الضبع .

فلندع الآن الأمير سليل يتدرب في بلاد الريح ويستعد للعودة لدياره ، هو وأبناء أعمامه وأخواله للثأر من الغزاة واسترداد كرامة الآباء والأجداد ، ثم نتابع ما حدث للأمير حريف ، وهو بطل من أبطال القصة ، فقد باعته العصابة لتاجر من التجار الكبار في بلدة الشرق ؛ ولكنه مات بعد سنوات قليلة فورثه أقرباء التاجر ، فباعوه لامرأة مكث لديها سنوات ، ثم وهبته غلاما لابنها داود من زوجها الأول وسيأتي لهم ذكر بـأذن الله عزّ وجل. وأما الأميرة حظوظ فقد ابتاعتها امرأة ، ثم باعتها بعد خمس سنوات لأميرة من أميرات البلاد فعاشت جارية في قصر الأميرة تخدم الأميرة ، وقد حاولت خلال هذه المدة أن تصل لأخيها حريف الذي افترق عنها في تلك المدينة ؛ ولكن جهدها المتواضع لم يسفر عن شيء يذكر ، ثم تزوجت مولاتها الأميرة من أمير في مدينة اللؤلؤ ، وأخذت حظوظا معها إلى القصر الجديد ، فضعف الأمل بلقاء حريف ، فلنتركها هي الأخرى الآن في قصر الأميرة رشاء جارية تخدم سيدتها بإخلاص ؛ ولكن ذكرى الماضي ما فارقت خيالها ، وما زالت ترتسم على محياها الجميل .

ابن الخباز

نتقدم بك أيها القارئ الكريم إلى المدينة المأسورة بعد ما يقارب عشر سنوات على الأحداث التي بدأنا بها هذه الحكاية ، وهي سقوط مدينة الدب بأيدي الغزاة الذين يتزعمهم الملك الضبع الكبير ،صاحب السطوة والقوة الملك الغازي الذي لا يحب إلا الغزو وتدمير البلاد والعباد وإهلاك الزرع والحرث والنسل ، وتذكرون أن هذا الجبار أحد جبابرة الأرض قد ترك حامية

من ألف محارب ، يسكنون قلعة الحكم وقصر الملك شامة ، وعلى رأسهم الغضبان ، ويحكمون الناس ، ويجمعون للضبع كل عام خراجا مقداره خمسة آلاف قطعة ذهبية ، فكانت المدينة تعيش في ضنك وتعسف تحزن عليه الحجارة ؛ ولكن هؤلاء العتاة والقساة القلوب الجباة فقلوبهم أشد قسوة من الحجارة ، فهذه القسوة وسوء الأخلاق كانت تثير الناس وتستفزهم ، فيثورون على الجنود بين الحين والآخر ، فيقوم الجند بسفك دم بعض الناس من غير شفقة ، ولا عطف، ولا رحمة ، واستمر الحال على هذه الصورة حتى كانت حادثة الخباز مجدو الساحر .

لقد كان مجدو الساحر يعمل في فرن له مجاورا قلعة الحكم ، وهو خباز معروف في المدينة منذ أيام الملك شامة المقتول ، وبعد هزيمة الملك اختفى هذا الخباز في الجبال كما فعل أكثر الناس حتى هدأت الأحوال ، وأخذ الهاربون بالرجوع لبيوتهم وأعمالهم ، فعاد الخباز للمدينة وباشر عمله من جديد في فرنه ، وبسبب قرب الفرن من قصر الحامية كانت له علاقات حسنة مع رجال الحامية ، فيأخذون من عنده الخبز ، فيدفعون الثمن أحيانا وأحيانا كثيرة لا يدفعون ثمن خبزهم ، ومع ذلك كان يمدهم بالخبز الساخن ، ويدفع لهم ما يستحق عليه من الإتاوة لملكهم الضبع ولهم ، ولقد كان لهذا الخباز ولد وحيد اسمه جبل ، فكان جبل عندما رجع أبوه إلى المدينة المهزومة صبيا ذا عشر سنوات ، وكان صبيا نشيطا وذا بنية قوية مع فطنة وذكاء ملموس فكان مجدو الخباز يرسله بالخبز إلى رجال الحامية صباحا ومساء ، فتعمقت علاقة الغلام بالفرسان داخل القلعة ، واعجبوا بخفة حركته وذكائه ونشاطه وسرعة تنفيذه للأعمال التي يكلفونه بها .

واهتم بجبل أحد قادة الحامية ، فأخذ يعلمه السيف وركوب الخيل ، فوجد منه ذلك القائد حماسا وحبا للفروسية ، وكان يطمع هذا القائد بأن يجعله هو وعدد آخرون من الصبية من رجال الحامية عندما يكبرون ويصبحون رجالا ؛ لتعويض أي نقص في رجال الحامية نتيجة موت أو اغتيال بعضهم ، وقد حدث خلال السنوات الماضيات انقسام رجال الحامية إلى حزبين ، فكان من أثر هذه الانقسام المزيد من العذاب والسخط على سكان المدينة ، فكل جماعة تحاول أن تجمع

أكبر قدر من الأموال ؛ لتثبت للضبع أنها الأحق باستلام قيادة الحامية ، فكل صراع يحدث داخل القلعة يترك أثره على الناس والشعب الضعيف إلى أن غضب الغضبان حاكم الحامية وحزبه على الحزب الآخر الذين من ضمنهم القائد الذي ضم جبلا وبعضا من شباب المدينة لجنده الخاص الذين جندهم جبل للعمل في خدمة هذا القائد .

وفي الفتنة الأخيرة تجاوز جبل العشرين من العمر ، وحبس الغضبان قادة الحزب الآخر ، واعتقل ناسا من سكان المدينة ، منهم الخباز مجدو لعلاقته القوية مع الحزب الآخر ، وفي ساعة غضب وسكر أمر القائد الغضبان بالفتك بخصومه ، والخباز معهم ، ومن أوقعهم نصيبهم في قبضته تلك الأيام العصيبة ، وقتل أيضا خصمه القائد ، فاشتد غضب الناس لهذه المذبحة الرهيبة الظالمة ، وشكوا أمرهم للملك الضبع الذي أيد الغضبان ،وأرسل إليه مددا يدعمون ملكه وجبروته فازداد طغيانا وإثما .

وفي أثناء حملة التصفية والصراع الأخير بين رجال الحامية ومن يلوذ بهم من أهل المدينة كان الشاب جبلا خارج المدينة ، ووصل إليه الخبر بقتل أبيه فصعق لهول الأمر ، وكان برفقته شابان من سنه وجيله ، أولهما شاب قد تدرب مع جبل في داخل الحامية ينادى هزبر ، ولقد كان والده فلاحا ذا أطيان قتل يوم دخول الملك الضبع بلاد الدب ، وأما الآخر فهو ثعلبون وهذا ابن جندي استسلم يوم المعركة التي مر ذكرها فقتلوه بعد الأسر ، فهؤلاء الثلاثة أصدقاء طفولة ، ثم أصبحوا أصدقاء في ظل رجال الحامية ، فتعلموا المبارزة والفروسية في قلعة الغضبان الحاكم فلما جرت حادثة مقتل الخباز مجدو الساحر ،كان جبل ورفيقاه في الصيد بين السهول والصحارى ،فلما نقل إليه الخبر المفجع أثناء عودته للمدينة لم يدخلها ، وأقسم أمام صديقيه هزبر وثعلبون بالانتقام من الغضبان بل من كل رجال الحامية وطردهم من المدينة ، فعاهده صديقاه على الوقوف معه في هذا الأمر والتعاون معه لحقدهم الدفين على هؤلاء الجنود الغاصبين .

واتخذوا وكرا في الجبال المحيطة بالمدينة من جهة الشرق الجبل العملاق ، ونشطوا في تجنيد

الشباب الحاقد الناقم لمقتل أب أو أم أو أخ أو ابن أو عزيز عليه ، وقام الفرسان الثلاثة بتدريب هؤلاء الشباب خفية عن عيون وجواسيس الحامية ، وقد وضح الهدف أمام أعينهم ، وهو تحرير المدينة من الغزاة والثأر من الظالمين ، وما كاد ينصرم العام حتى كان بين يدي الفرسان الثلاثة ما يزيد عن مائة ثائر متمرنون على القتال ، فاتفقوا بينهم البدء بالانتقام ، واتفقوا على خطف أحد رجال الحامية الأقوياء لبث الرعب في قلب الغضبان وأعوانه ، فوقع الاختيار على خطف الزعيم جحدر أحد نواب الغضبان الأربعة في أيام غيابه أو ذهابه للقاء الملك الضبع ، وكان الرئيس جحدر يسكن في منزل خارج قصر الحامية ، فهذا أحد الدوافع القوية للبدء به في حملة طرد الغزاة ، وفي ليلة ماطرة أعد الكمين ، فتسلل جبل وبعض الفرسان ليلا إلى المدينة منحدرين من أعلى الجبل ، وكان من عادة جحدر هذا الانصراف من القلعة بعد منتصف الليل ، ومعه عدد قليل من حرسه ، وقبل أن يصل إلى منزله كالمعتاد أحاط به الكمين وأردوا حرسه بين قتيل وجريح ، وتم خطف الرئيس جحدر بسرعة ، ونقل على متن دابة إلى منزل في المدينة أعد لهذه الضربة القوية ، وألقي فيه مكبلا بالحبال ، وقد كان جحدر من أشد الناس قساوة على العباد ، ولا رحمة تجدها في قلبه ، وهو رجل الغضبان القوي ولما علم الغضبان من الجرحى بخطف نائبه جحدر غضب غضبا لا مثيل له ، وأمر رئيس الشرطة بالبحث عنه وعن الخاطفين فورا ، فوجده الرئيس بعد أيام مقتولا ، فانزعج الغضبان واشتد حقده وغضبه لمقتل رجله جحدر ؛ ولكنه لم يكد يضع خطة الانتقام حتى جاءه خبر صاعق آخر يفيد بأن رئيس شرطته هو الآخر رحل إلى العالم الثاني ، فأصدر الغضبان أمرا بقتل عدد من السجناء تنفيسا لغضبه وتدمير الحي الذي وجدت به جثة كل من جحدر ورئيس شرطته لقذف الرعب في نفوس الأهالي .

ورد الناقم الثائر جبل ورفاقه باقتناص المزيد من جنود الحامية ، فاستشاط الغضبان جنونا وسفكا للدم الحرام ، وقد تفاعل الناس مع هذه الأحداث المنظمة مع شدة ما يلقون من اضطهاد وعذاب نتيجة تلك الأحداث ؛ ولكن كان الموت في نظرهم تلك الأيام العصيبة خيرا من الحياة بذلة وهوان ، فأمام الحرب المعلنة على رجال الحامية ، أرسل الغضبان يخبر مولاه الضبع بما يجري

في البلاد ، فأرسل الملك الضبع قائدا جديدا للحامية اسمه مرعب ؛ ليستلم السلطة في القلعة ، ومعه كتاب عزل الغضبان والأمر بعودته إلى مدينة العقرب الأحمر ولقطت عيون جبل الخبر ، فوضع الفارس جبل كمينا جريئا للقائد الجديد مرعب وحاشيته قبل وصولهم للمدينة وقتلوهم قتلا ذريعا ، فكبر الخوف في قلب الغضبان وزاد هيجانه وفتكه بالناس ، ولما علم الملك الضبع بالمصيبة الأخيرة بعث قائدا آخر ، واقتيد الغضبان إلى سيده مكبلا بالحديد والقيود هو وأعوانه متهما باغتيال وتصفية القائد مرعب والتقصير في السيطرة على المدينة ، فطرح في السجن حتى ينظر في شأنه .

وقد حاول القائد الجديد المسمى النمر الأبيض رفع المظالم عن السكان وتخفيف الضرائب عنهم ، وأظهر لهم حبه للعدل ، فعفا عن عدد من الناس المساجين ؛ ولكن هذا الأمر والتزييف لم يطل ، فما كاد يتعرض أحد أخصائه للموت حتى كشر عن أنيابه وعاد لأصله وما ربيّ عليه من الظلم وسفك الأرواح والدم ، فصار يحبس الناس على التهمة والشبهة بالانتماء لعصابات الجبل .

وبدأ الصراع الحاد يشتد بين رجال الجبل الذين كانوا يزيدون مع كل ضربة لعدوهم ومع كل طغيان يرتكبه الغزاة وبين رجال الحامية ، فأصبح تحت قيادة جبل وهزبر وثعلبون ما يقارب من خمسمائة فارس يرغبون بالثأر والموت لرفع الظلم والذل والهوان عن المدينة ، وقد صار لجبل عيون أكثر يعملون في المدينة ، وحتى في نفس القلعة الغاصة بالجند ، وجعل جبل لكل خمسين رجلا من رجاله قائدا ، وتشاور الفارس المشهور في ذلك الحين بابن الخباز مع قادة الفرسان العشرة ورفيقيه هزبر وثعلبون ، فاقترح بعض المتحمسين بعمل هجوم مفاجئ على القلعة وطرد الحامية ، ولكن كثرة جنود الحامية منعتهم من التفكير في مثل هذا الاحتمال ، وكذلك شبح عودة الملك الضبع للمدينة مرة أخرى ، فهم لا يستطيعون محاربة الضبع وجنوده الجرارة في الوقت الحاضر ، فوضع جبل خطة بأن يرحل عدد من الرجال الأذكياء إلى بلاد الضبع ، ويرسلون لهم أخبار وتحركات الملك الضبع ومحاولة التخلص منه إذا أمكنهم ذلك ، فاختار جبل عشرة منهم

وعلى رأسهم الفارس هزبر ، ومن ضمنهم شاب له معرفة واهتمام وعناية بالحمام الزاجل ، فأخذوا معهم عددا منه لبلاد العقرب ، وأمرهم جبل بالدخول إليها على ثلاث دفعات ، وانطلقت عيون جبل إلى بلاد العقرب الأحمر ، واستمر ابن الخباز باصطياد وتصيد رجال الحامية فردا فردا واثنين اثنين حسب ما تأتيه رسائل جواسيسه ، وذاك النمر الأبيض يزداد إجراما في الناس ، ثم أغار جبل ليلة على حراس الحامية وسقط في تلك الغارة عدد كبير من رجال النمر الأبيض مما دعاه إلى طلب المزيد من الفرسان من سيده الضبع ، وكانت جواسيس الملك الضبع في الحامية أيضا تنقل له أخبار الحامية والمدينة والرعب الذي سيطر على الجنود ، ولم يعد أحدهم يخرج وحده من القلعة ليلا أو نهارا خوفا من رجال ابن الخباز أو حتى من غدر الأهالي .

ولما اطلع الضبع على هذه الأحوال فعقد مجلس حرب ، وتقرر على أثره إرسال حملة قوية لمطاردة رجال الجبل وإعادة الهيبة لسلطة الحامية ، وسحق كرامة الناس في مدينة الدب القطبي فأمر بتجهيز ثلاثة آلاف فارس أهل لمطاردة الجيوش في الجبال والوديان للقضاء التام على الفارس جبل وأتباعه ، الفارس الذي قض مضجع الملك الضبع تلك الأيام ، وتولى قيادة الحملة رجل قوي شرس من رجال الضبع المشهورين بالحرق والتدمير ، فكان القائد الجديد لهذه الحملة ، هو الأمير ظالم وهو ابن أخ الملك الضبع ، وهو اسم على مسمى كما يقولون ، فتجهزت الحملة خلال أيام ، وكان هزبر ورفاقه قد بعثوا رسالة بواسطة الحمام الزاجل الذي يمتاز بالحفظ للاماكن التي ربيّ فيها ، وفي نفس الوقت أرسلوا رجلا منهم يخبرهم بأمر الحملة وينصحهم هزبر بإخلاء الجبل خوفا من بطش الأمير ظالم لكثرة الجنود المصاحبين له ، ويعلمهم أنهم لا يستطيعون الغدر بالملك الضبع وصعوبة الوصول إلى قصـره الذي يقع في قلعته المرعبة .

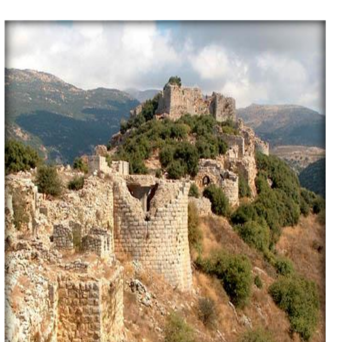
ووصل الرسول بعد وصول الحمامة ، فسر القوم من الحمامة ، وسمعوا رسالة الرسول ، فطلب جبل من رجاله على الفور بإخلاء الجبل والابتعاد عنه فترة من الوقت ، فهم لا يستطيعون محاربة جيش مرة واحدة لقلة عددهم وضعف تدريبهم لملاقاة الجيوش ، وقد حاول البعض الاعتراض

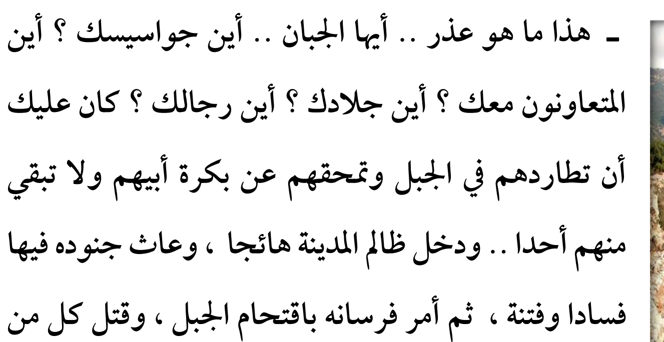
فبين لهم جبل أن الهرب المؤقت في مثل هذه الأحوال خير من المواجهة ، ثم يعودون للكر من جديد ، فأطاع الفرسان أميرهم ابن الخباز ، وتفرقوا إلى جبال أخرى ومدن مجاورة وإن ظلوا على اتصال مع بعضهم بعضا حتى يروا ما يفعله القائد ظالم .



فلما اقترب الأمير ظالم من مدينة الدب خرج النمر الأبيض مرحبا ، وشكى له قلة الفرسان وقوة المتمردين الثائرين فرد عليه ظالم باحتقار : أيها الفارس .. أنت رعديد جبان .. ثلة من الأطفال يقودهم ابن خباز .. طفل ربيتموه وصنعتوه في القلعة يفعل بكم هذه الأفاعيل ! .. لقد نسيت واجباتك واشتغلت باللهو والحفلات .. ماذا أقول ؟! ابن خباز ابن عجان ! .. صبي سخر منكم ..وأزعج ملكم .. وتعجزون عن حماية أنفسكم .. ويحكم !.

فاحمر وجه النمر غضبا وقال : أيها الأمير أنت تعرف من هو النمر الأبيض ؟ .. لقد خبرتني في معارك هائلة .. إنهم يكرون علينا في جنح الظلام .. وليس مواجهة فيلق بفيلق .. إن سلاحهم الغدر والاحتيال والغيلة .





ـ هذا ما هو عذر .. أيها الجبان .. أين جواسيسك ؟ أين المتعاونون معك ؟ أين جلادك ؟ أين رجالك ؟ كان عليك أن تطاردهم في الجبل وتمحقهم عن بكرة أبيهم ولا تبقي منهم أحدا .. ودخل ظالم المدينة هائجا ، وعاث جنوده فيها فسادا وفتنة ، ثم أمر فرسانه باقتحام الجبل ، وقتل كل من يجدونه فيه ، وتنقيب الكهوف كهفا كهفا ، ومكثوا أياما يبحثون وينقبون حتى ملوا ، ولم يقبضوا على إنسان واحد ، فاحتد الظالم غضبا وشماتة على النمر الأبيض ، وأرسل عيونه يبحثون عن ابن الخباز ، ووضع جائزة كبيرة من المال لمن يساعد في الدلالة على أي رجل من رجال الجبل وقضى الجند شهرا في الجبال دون فائدة ترجى فهبطوا للقلعة .

لقاء جبل وقيس

وأما جبل بن مجدو الساحر فانطلق بمائة فارس نحو مدينة الظاهر ، وهي مدينة لا تخضع للملك الضبع ، وتبعد مسيرة عشرة أيام عن بلاد الدب ، وعندما اشرفوا عليها التقوا بمعسكر لجيش وخيام منتشرة في صفحة جبل ، وقرب نبع ماء ، فلما اقتربوا من الماء أحاط بهم فرسان على صهوات جيادهم وهم مشرعو رماحهم ، فطلب جبل الحديث مع رئيسهم ، فمشى أحد الرجال أمامه حتى أوصله للرئيس ؛ فإذا هو شاب من جيله يبدو في العشرين من عمره ، فذكر له جبل نـفسه وبعضا من قصته مع الملك الضبع الغاصب لبلاد الدب ، فعانقه الشاب ورحب به ترحيبا كبيرا ، وذكر له أن اسمه قيس بن ربيع ، وهو من بلاد الدب ، وسره الاجتماع به ، وأمر قيس عشيرته وإخوانه بحسن استقبال رجال الفارس ، ثم أعلمه بعدما دخل به خيمته الكبيرة المنصوبة وسط الخيام أن والده كان من قادة الملك شامة بن غلان المقتول ظلما وعدوانا قبل أكثر من عشر سنوات ، وهؤلاء الناس والفرسان كلهم قبيلته التي كانت تقاتل مع الملك شامة الملك الضبع ، وقتل منهم من قتل ، ومن ضمنهم والده القائد ربيع ، وهم ينزلون بجوار ملك وصاحب بلاد الظاهر ، وهم يستعدون للكرة على الملك الضبع وتحين الفرصة المناسبة للثأر لإبائهم وأجدادهم ، وأبدى الأمير قيس وشيوخ عشيرته سرورهم بجبل وفرسانه وأخبارهم ، وعجبوا من أفعالهم في أعوان الملك الغاصب ، وفي النهاية قال قيس بن ربيع : هل يا ترى يطاردونكم أيها البطل ؟!

قال جبل : ليس ذلك مؤكدا ، ولنا رجال في المدينة ، وحتى لنا أعوان في عاصمة ملك الضبع نفسه .

قال قيس : مرحبا بك أيها الفارس ! واعلم أنه لنا أكثر من عشر سنوات نحشد الرجال والشبان والفرسان ، ونحن في انتظار مجيء الأمير سليل بن شامة من بلاد الريح ، وننتظر فرصة تلوح في الأفق يضعف فيها الضبع ، ونكر على المدينة الجريحة ، ونحررها من رجال الطاغية .. فحياكم الله .

وبعدما أكرم الأمير قيس جبلا ورجاله بطعام لذيذ ، اقترح عليه قيس أن يضم رجاله لرجال قبيلته ، فقال جبل : يشرفني ذلك أيها الأمير .. وهدفنا واحد .. ولكن كما يبدو لي أن أمركم طويل ، وتنتظرون الأحداث الكبار ، وأنا ورجالي سنستمر في مقارعة حامية الضبع وجنوده حتى يقضي الله أمرا مفعولا ..وعندما تجهزون للهجوم الشامل فسوف أكون أنا ورجالي بين أيديكم .

فشكره الأمير قيس ثم قال : افعلوا ما شئتم أيها الفرسان .. وابقوا على اتصال معنا

ـ أكيد .. سأفعل هذا يا سيدي الأمير !.. فنحن أبناء وأهل وطن واحد .

لما قتل القائد ربيع ، وهرب الناس والجنود ومن نجا من المعركة الكبيرة الفاصلة للدفاع عن ثرى المدينة ، كان ممن هرب الأمير قيس الصغير مع أمه واخوته الصغار وشيوخ العشيرة والمرضى والنساء والأطفال ، واستقر بهم المقام عند صاحب مدينة الظاهر الذي رحب بهم وواسهم وأسكنهم في طرف المدينة ، ولحق بهم الناجون من قبيلة القائد ربيع ، فاجتمع في المكان الرجال والنساء والجرحى والكبار ثم التئم شمل العشيرة من جديد ، ومع الأيام خفت حدة حقدهم على الضبع وتناسوا قتلاهم وسلموا الأمر لله ، وكانوا يفرحون عند سماعهم بفشل للضبع أو جيشه ، ويحزنون عندما يسمعون بانتصار جديد له على ملك من ملوك الدنيا ، وقد نصبت العشيرة قيسا الشاب سيدا وشيخا للقبيلة ، ولهم أكثر من عشر سنوات يعدون الفرسان والرجال ليوم الثأر ومسح العار ، وهم على اتصال دائم مع الملكة الأم جملة بنت يوسف بل خطب الأمير قيس جميلة بنت شامة .. ، وينتظرون فرصة مناسبة لعقد النكاح والزواج ، وذلك عن موافقة ورضا الأمير سليل الوارث لملك شامة .

وجاءت الأخبار للفارس ابن مجدو بأن الأمير ظالم يستعد لمطاردتهم بعد أن اقتحم رجاله الجبل ومكثوا فيه شهرا من غير فائدة ، واتفق ظالم مع رؤساء جنده على مطاردتهم في كل الدنيا .. ولما علم جبل ذلك الخبر أرسل وراء رجاله للعودة خفية إلى الجبل قبل أن يبدأ ظالم بمطاردتهم ، وفي الجبل العملاق اجتمع جبل برجاله وقال لهم : سنصنع كمينا مدمرا لظالم وفرسانه ،

ونجعل الجبل ملحمة خالدة .

وصعد الفرسان القابعون في المدينة سرا إلى الجبل ، وملأ رجال جبل الجبل ، وأبلغ جبل رجاله أنهم إذا سمحوا لظالم بمطاردتهم هنا وهناك ، فسيكون هذا خطرا كبيرا على فنائهم ، ويصبحون تحت رحمة الملوك الذين يلجئون لبلادهم ، وقد يقعون في حماية بلد يخضع للملك الضبع ، فعليهم بقتال العدو قتال المستميت ، وذهل الجميع أمام الحقيقة التي وضعهم تحتها الفارس ، فما كان أمامهم إلا القتال حتى الموت ، ولم يطل الانتظار فقد أصدر الأمير ظالم أمرا للنمر الأبيض بأن يقود ألفين من الفرسان والجنود في حملة مطاردة في المدن والقرى المجاورة لتلك الجبال العملاقة ، وبدأت الحملة تصعد منحدرات الجبال العالية ، فلما دخلت الحملة أحد الوديان العميقة والضيقة تدحرجت عليها الحجارة الضخمة حينا من الوقت ، ثم هجم عليهم فرسان الجبل ، فدارت معركة رهيبة يشيب لها الولدان ، قتل فيها النمر الأبيض ومن معه قتلا ذريعا ، ولم يبق منهم أحد ، وغنم جبل خيلا وبغالا وطعاما وسيوفا ورماحا وأموالا كثيرة .

ولما علم ظالم بالكارثة جن جنونه ، وقتل من حرسه خمسة من شدة غضبه وثوران قلبه ، وهو يصيح بأعلى صوته : ويلكم !.. ويلكم ..! ألم تخبروني أنهم فارقوا الجبل وهربوا ؟؟ ولد جبان ابن خباز يصنع بكم هذه الأعاجيب .. ألا لعنة الله عليك يا غضبان لماذا قتلت ذلك الخباز ؟!

وأمر بتحرك الجند نحو الجبل ، وكانت معركة أخرى في الوديان ، وفشلوا أمام تساقط الحجارة وهربوا بعدما فقدوا عددا آخر منهم ، فمرض الأمير ظالم ، وفقد صوابه من شدة الفشل ، وصمم أن يخرج بنفسه للقاء هؤلاء الفتيان ، وكان من نتيجة هذه الانتصارات الساحقة على جنود الضبع أن لحق كثير من شباب المدينة بجبل وفرسانه ، فقد بهرتهم شجاعته وزال عنهم اليأس والتردد في مقارعة ومقاومة الحامية الظالمة .

وبينما الأمير ظالم يجهز حملة جديدة ليقودها بنفسه للانتقام ورد الاعتبار ، جاءته رسالة عاجلة من الملك الضبع يأمره بإخلاء المدينة والعودة للبلاد ، فهم يتعرضون لغزو من الملك جبرون عدوهم العنيد حاكم بلاد التين ، فجن جنون ظالم ، وترك حامية من بقايا الجند الذين جاء بهم

وعلى رأسهم قائده جمرة وانصرف عائدا لملكه .

ولما سمع جبل بهذه الأخبار وتأكدت له ، وليس في الأمر خدعة ، ثم جاءته رسالة بالحمام الزاجل تبين له دوافع انسحاب ظالم ، فتحرك بسرعة مهاجما القلعة ومستغلا الفرصة لطرد الحامية ، وبعد حصار يسير من رجال الجبل والأهالي استسلمت الحامية لجبل ، وتركوا أموالهم وسلاحهم ، وحجز جبل بعضهم رهائن في سجن القلعة ، وأذن للآخرين بالرحيل لملكهم سالمين ، وأعلن الناس والفرسان جبلا زعيما وحاكما وقائدا للمدينة وأميرا للبلاد ، ولقد أصبح ابن الخباز سيد بلاد الدب القطبي ، وأرسل جبل وراء صديقه هزبر وجعله وزيرا له ، وعين ثعلبون قائدا للجيش الناشئ والحرس ، وحث الناس على إعادة ترميم الأسوار والأبراج بأعلى سرعة قبل عودة جيوش الضبع ، وجند جبل كل الشباب ، وامتلأت المدينة بمعسكرات للتدريب ، فأمست مدينة الدب مدينة حرب .

ولما رجعت جيوش الضبع مهزومة من مدينة الدب ، غضب وثار الملك الضبع على ابن أخيه ظالم ، وألقى به في السجن مع الغضبان حتى تنتهي الحرب بينه وبين الملك جبرون والجيش الذي يحاصر بلادهم ، وبعد معارك شديدة خاضها الفريقان ، وقد استمرت بضعة أشهر تم الاتفاق بين الطرفين على إنهاء الحرب ردحا من الزمن ، فعاد الجيش الغازي بهدنة مؤقتة ، ورجع الضبع لقصره فعزل وولى وقتل وحبس .



رحيل الفارس

هدأت الحروب قليلا وارتاحت النفوس ، وسكن الضبع قليلا ثم أحضر ظالما بين يديه ، وقام بصفعه وبصق على وجهه ووبخه واحتقره ، وهو يصرخ ويسب عليه ثم قال : ثلة من الصبيان يجعلوننا أضحوكة أمام ملوك الأرض .. أطفال يصنعون برجالك ما صنعوا وأنت القائد العظيم .. فارس بلاد العقرب .. ماذا أقول لك ؟!



وكان الضبع يتكلم هذا الكلام بصراخ وغضب ، وكان ظالم يتذكر نفسه وهو يتلقى هذه الكلمات المهينة ما قاله لقائد الحامية النمر الأبيض المقتول ، وكانت عيناه مثل النار ، فصاح في عمه من القهر والغيظ قائلا : مولاي الملك .. دعني واصفح عني ولسوف اسحقهم سحقا وأطاردهم جميعا ولو وصلوا بلاد الريح .. اعطني فرصة أخيرة .. ولسوف ترى ما يفعل ابن أخيك ؟

ـ حسنا أيها القائد الجبان .. سأجهزك بألفي رجل فقط ، وأريد منك أن تحرق مدينة الدب حرقا لا أريد أن أسمع باسمها ثانية .. اقتل الرجال .. اسبِ النساء .. وأن تأتيني فوق ذلك بابن صانع الخبز حيا .. أريده حيا .. أتسمعني .. حيا يا ظالم ؟ .

ـ أمرك يا مولاي .

فصاح الملك الغاضب وهو يبصق عليه مرة أخرى : خذ معك ذاك الجبان المسمى الغضبان ، وما هو بغضبان .. إن لم تأتوني بابن الخباز .. لا أريد أن أراكم أحياء ..

ونقل لجبل أخبار هذه الحملة الجديدة على جناح حمامة ، فاتخذ قرارا جريئا وشجاعا ، وهو أن يصنع كمينا لجنود ظالم في الطريق بين المدينتين ، فاختار ألفا من الفرسان ، واتخذ حذره من جواسيس الضبع ، فمنع خروج الناس من المدينة حتى يرجع من الكمين ، وفي موقع مناسب في الطريق بين المدينتين ، وضع جزءاً من فرسانه ، وطلب منهم إخفاء أنفسهم جيدا ، والابتعاد

بخيولهم إلى حينما يدخل رجال الضبع الوادي ، ويصبحون في منتصفه ، فيطبقون عليهم من الامام والخلف ، ويحشرونهم بينهم ، وتقدم جبل بنصف الجيش للأعداء منتظرا وصول الخصم ودخل ظالم والغضبان وجنودهما الوادي وهم مطمئنون ، ويتلمظون شوقا لتدمير مدينة الدب والقبض على فارس المدينة ، وتراهم يودون الوصول لمدينة الدب بسرعة الريح ، ولما تقدموا في الوادي تجاه مدينة الدب تبعهم جبل والذين معه ، وسار خلفهم رويدا رويدا ، وقد تبعهم فرسان جبل بحذر شديد ، ولما رأوهم قد اشتبكوا بالفرسان الذين أمامهم هجموا عليهم من الخلف ، ودارت ملحمة أخرى ، وسقط القتلى والجرحى ولم ينج من رجال الضبع إلا من استسلم ، ووقع ظالم والغضبان أسرى ، واقتيد الأسرى للمدينة أذلاء مهانين ، وعلى مرأى من أعين سكان المدينة استل الفارس جبل سيفه ، واجتز به رأس الغضبان قاتل الخباز مجدو ، وقام ثعلبون بقطع رأس الأمير ظالم ، وأمر الأمير جبل بتعليق جثتيهما ليراهما الناس ، فهم لا يزالون يذكرون جرائم الغضبان وأفعاله القبيحة مع السكان ، وازداد حب الناس للأمير جبل والفرسان .

ولما علم الضبع بالكارثة الأخيرة هم أن يخرج بنفسه لقتال الفارس جبل وفرسانه ، ولكن خشي من أعدائه أن يستغلون فرصة غيابه وخروجه ، ويطول الحصار فيهاجمون مدينته ، فهو لم يترك ملكا قريبا منه إلا أساء إليه ، فقال لوزيره شمروك : أيها الوزير ما العمل بهذا اللعين ؟ لقد استقوى على فرساننا وقتل ابن أخي والغضبان والنمر الأبيض وقبلهم مرعب وجحدر ؟

فكر الوزير قليلا وقال : أيها الملك .. لابد من قتله وسفك دمه وجعله عبرة للناس وعبرة لمن اعتبر ؛ فإن هيبتنا ضعفت وأهينت منذ تصالحنا مع الملك جبرون ، وظهور هذا الفتى في الميدان ونحن اليوم نعاني من شدة ، فأرى يا سيدي الملك أن تجهز جيشا كبيرا لتدمير بلاد الأمير جبل عن بكرة أبيها .

ـ ألا تخشى على بلادنا من الأعداء المتربصين ؟

فرد الوزير على تردد الملك فقال : يذهب نصف الجيش ، ولا أتصور أحدا ممن حولنا يفكر

بالاعتداء علينا لمعرفتهم بشدة بطشنا وقسوتنا .

ـ حسنا أيها الوزير جهز نفسك لقيادة الحملة .

ـ أمرك يا مولاي .. ولكن أريد قبل أن يعرف الناس بأمر الحملة أن تمنع خروج الناس من المدينة حتى لا يتسرب أمرها لجبل ؛ لهذا فاسمحوا للناس بالدخول فقط حتى أصل لبلاد الدب فلابد أن لهذا الرجل المجنون من أعوان هنا ينقلون له أخبارنا أولا بأول .

فأصدر الملك الضبع في الصباح الباكر أمرا بإغلاق أبواب المدينة كلها ، ولا يؤذن لأحد من الناس بالخروج إلا بكتاب وإذن من الملك نفسه ، وعدم الممانعة بدخول الناس إليها لأمر خطير ولكن خبر الجيش الزاحف علمه جبل عن طريق الحمام الزاجل ، فأظهر امتنانه لهزبر وصاحب الحمام على هذه الطريقة في المراسلات ، وقال لهما : لقد نفعت حماماتكم نفعا مهما فقد جاءت رسالة وفيها خبر حملة كبيرة جديدة بجيش ضخم على بلادنا بقيادة الوزير شمروك بنفسه لحرقنا.

فعقد جبل مجلس حرب لقادته ورؤساء الفرسان والجند ، واتفقوا على أن يطلبوا المساعدة ممن حولهم من الملوك للتصدي لجنود الضبع مع تعزيز الحماية للأبواب والأسوار .

وكان صاحب مدينة الظاهر قد تلقى رسالة من الأمير جبل ينشده المساعدة ، واتصل هو بدوره بالأمير قيس وأطلعه على الحال ، فاجتمع قيس برجال قبيلته وتدارسوا الشأن ، فقال له بعضهم : نحن لا نقاتل تحت راية هذا المغامر .. اخبر الأمير سليلا وأمه الملكة بالأمر ، وحثهم على العودة للبلاد ، فإن وافقوا على العودة للبلاد نعود معهم .

فأرسل الأمير قيس وفدا إليهم ليقص عليهم أخبار المدينة الأخيرة ، وأن البلاد تتعرض لهجوم شرس من الضبع ، والأهالي بقيادة الفارس جبل يدافعون عنها ، ويطلبون المزيد من المحاربين للصمود وصد الغزاة ، وأن رجال العشيرة لا يرغبون بالقتال تحت راية الأمير جبل وأنهم يرغبون بالقتال تحت راية الملك الوارث سليل بن شامة .

تركت الملكة الأم بلاد الريح بلاد الملك الجفال ، هي وابنها الشاب الفارس والفرسان الذين

معهم ، وساروا نحو مدينة الظاهر فرحب بهم حاكمها ، واجتمعوا بالأمير قيس ، وتقرر على أثر هذا الاجتماع أن يذهب الأمير ليث بن أحمد ابن الوزير المقتول مع الملك شامة للاجتماع بالأمير جبل وفرسانه والاتفاق معهم على عودة الملك الشرعي لبلاد الدب القطبي ، ومحاربة الملك الضبع تحت الراية الملكية .

فحمل الأمير ليث الرسالة المختومة من الملك سليل التي تؤيد سفارته للفارس جبل ، فوصل للمدينة المحاصرة منذ أيام والتي تقاوم وتقارع فرسان الضبع ببسالة وهمة عالية ، ونقل ليث للأمير جبل ورجاله رغبة الملك سليل بالعودة لبلاده واستلام حكمها ، وبين لهم وذكرهم بأنه هو صاحب الحق في الولاية عليها ، ووراثة عرش آبائه وأجداده ، ودار جدل كبير بين وفد الملك سليل بقيادة الأمير ليث ورجال الأمير جبل ، وقرأ الأمير جبل رسالة الملك سليل التي يبين فيها شكره الجزيل والعظيم للفارس ولكل الثائرين والأمة أيضا ، وأن صنيعهم لا ينسى وأن محاربتهم للملك الضبع لا تنقل ولاية العرش إليهم ، وأنه من حق الملك سليل المطالبة بعرش الآباء والأجداد ، وأعلمهم فيها أن الملك شامة دافع عن البلاد وعن ثراها حتى أصابه الموت ، ولم يفرط بشبر واحد منها ، وأن الملك سليل سوف يكرمهم ، ويعترف بفضلهم ، ويمنحهم الأوسمة ، والمناصب اللائقة بهم وبشجاعتهم ، ولما اطلع القوم على رسالة الملك وما فيها من أفكار وحقائق لا تغيب عن الأذهان ، وأمام هذا الظرف الشديد الحرج ، وخوفا من الانقسام والصراع على ملك مهدد ، قال الأمير جبل منهيا الجدال والنزاع : أيها القوم .. نحن نريد الدفاع عن بلادنا وأرواحنا ودمائنا..وكلنا أبناء هذا البلد .. وأنا لم أثر على الحامية طامعا بملك وتاج فمرحبا بالملك سليل بن شامة وألف مرحب ..الملك على العباد والبلاد والملك شامة هو الملك الشامخ الذي قاتل عن هذا الثرى حتى قتل هو وأولاده شبرو وماجد فمرحبا بالملك سليل ملكا علينا .

ورجع الملك سليل ومن معه من الأهل والأقارب والأصدقاء والهاربين إلى مملكة الآباء إلى المدينة المحاصرة ..واستمر الوزير شمروك محاصرا للمدينة شهورا حتى أرسل الضبع وراءه

آمرا له بالعودة على الفور ، فعدوهم جبرون يحشد جيوشه ، ويجمعها لغزو بلاد العقرب والدخول في حرب جديدة ، فارتد الوزير خائبا لبلاده وهو في غيظ شديد .

وفرح الناس باندحار جيش الضبع ، وتم الاحتفال بالنصر وبتتويج الملك سليل ملكا على بلاد الدب القطبي ، ولقد عم السرور المدينة ، وسر الناس بعودة أبناء الملك شامة والملكة الأم للحكم ، وعين الأمير قيس قائدا للجيش كما كان والده ربيع قائدا للجيش ، وعين الأمير ليث ابن الأمير والوزير أحمد وزيرا للبلاد ، ومنح جبل وفرسانه منازل الفرسان وقادة كتائب وفرق ولما هدأت الأحوال ، واستقرت الأمور تنازل الأمراء الثلاثة جبل وهزبر وثعلبون عن الرتب العالية والألقاب التي أعطيت لهم ، وغادروا البلاد حذرا وخوفا من انقسام الناس والجيش ، وترك هذا القرار ارتياحا لدى الملك ووزيره وقائد جيشه ، وسروا لذلك الفعل مع حبهم للفرسان الثلاثة وتقديرهم لجهودهم الجبارة في الانتصار على الضبع وحاميته .

فللنفوس حظها من الحسد ، وهم يخشون من أنصارهم المتعلقين بهم الفتنة في البلاد ، فلنترك الآن الملك سليلا يحكم بلاد الدب القطبي بالعدل والإنصاف ، ويقوي الجيش للدفاع عن البلاد أمام الغزاة والطامعين والأعداء ، ولم ينس الملك الشاب وصايا جبل ونصائحه بتقوية الأبراج والحراسات حول الأسوار ..وأيضا قبل أن نغادر مع فرساننا الثلاثة مدينة الدب القطبي نقول أن الأمير قيسا تزوج من الأميرة جميلة أخت الملك سليل ، وتزوجت أختها قسمة من الأمير ليث في نهار واحد .

مدينة الشرق

وفي أحد الفنادق كان جبل يطلب من صاحب الفندق حجرة تسع ثلاثة رجال ، ويوصي صاحب الخان على جيادهم الثلاثة التي قادها غلام الفندق إلى الاصطبل المخصص لضيافة الخيول ، وأعد لهم صاحب الخان طعاما في مطبخ الفندق ، ولما أخذ الأكل يستقر في بطونهم وأجوافهم قال هزبر متسألا: ما العمل أيها الأمير ؟!

فقال جبل : أشيرا عليّ أيها الوزير ويا أيها القائد ؟

فارتسم الضحك والتبسم على تلك الوجوه المعفرة بالغبار والعرق ، ثم قال ثعلبون وهو يضع كوب الماء بعدما أفرغه في جوفه : لنا زمن نتنقل من بلد إلى آخر ، فهل سنقضي عمرنا بالسفر والترحال هنا وهناك ؟

فقال هزبر : لا أعتقد أن هذا ما يفكر به الأمير جبل .. المعروف والمشهور بابن الخباز !

وضحك الفارس ثعلبون وهو يردد : لقد أصبح الخباز مجدو مشهورا !

فقال جبل مجيبا : حقا لا أدري !.. لعلنا نمضي العمر في السفر والترحال ، ولكن اعلموا أننا في استراحة ، ولا أظن أيها الفرسان أن الملك الضبع يستطيع أن يصبر طويلا على عدم غزو بلادنا فلابد أن يعود إليها ، ولابد لنا أن نعود إليها يوما ما .. وكما قلت لكم أيها الأصدقاء الأفاضل نحن لا يحق لنا أن ننازع الملك سليلا ملكه ، أو ننزع الملك من أسرة الملك شامة .. فشامة ملك عادل وشجاع ، وقاتل ودافع عن المدينة حتى الموت ، وكذلك وزيره أحمد وقائده ربيع .. لم يخونوا ولم يفرطوا في البلاد .. فمن أجل هذا التاريخ الناصع لا يحق لنا أن نتسيد على البلد عنوة وقد أخذنا ثأرنا والحمد لله ، أو لنقل بعض ثأرنا من الملك الضبع ، فقد قتلنا الغضبان ورجال الغضبان ، وقتلنا ابن أخ الملك الضبع .. فلا أظن أيها القوم الكرام أن الضبع ينسانا ، ولابد أن نلتقي مرة أخرى .

فقال ثعلبون : إذن علينا بالسياحة في الأرض .

فقال جبل : مؤقتا .. وهذه مدينة الشرق مدينة كبيرة ، كنت وأنا طفل أزورها بصحبة عمي ، وفيها نهر كبير ، فلنسكن فيها ردحا من الزمن ، نتابع منها أخبار بلدنا .. وبعد أيام سيلحق بنا غلامنا الثلاثة ، ويأتون لنا بأخبار المدينة ، ولقد ذكرت لهم اسم هذه المدينة ، واسم هذا الفندق المعروف لكل التجار والمسافرين وسننتظرهم هنا .

فقال هزبر : هل سنبقى ونمكث هنا كثيرا أيها الصديق ؟

رد جبل بحيرة : لا أدري ! .. فلنصبر بضعة أيام ، فعندما يعود الغلمان ننتقل لبيت أوسع .. وسأزور صديق عمي وأذكره بنفسي ليساعدنا في استئجار مسكن لنا وللخدم .

سار جبل صباحا إلى السوق الكبير باحثا عن صديق عمه ، فوجده في متجره القديم ، وبين يديه غلمانه ، فعرفه الفارس بنفسه وذكره بعمه ، فتذكره التاجر رمضان ، ورحب بجبل ، ثم ترحم على عم وأب فارسنا الأمير جبل ، وعادت به الذكريات إلى السنوات الخوالي ورحلاته إلى مدينة الدب مع قوافل التجارة ، وقام الرجل باستئجار مسكن واسع للفرسان في قلب المدينة ، واشترى لهم غلاما وجارية هدية منه ؛ لتلك الذكريات ، فأثنى عليه الفارس الثناء الحسن ، وقص عليه بعضا من أخبار مدينة الدب ، وأن الملك سليلا قد عاد ملكا على البلاد ، وقد تحررت من قبضة الملك الضبع بفضل الله ومنه ، ففرح التاجر رمضان بهذه الأخبار ، وقال : الحمد لله على خلاصكم من ذلك الضبع السيء الذكر ، واعلم أنني منذ ضمها الضبع لملكه منذ ما يزيد عن خمس عشرة سنة لم أرحل إليها ولو مرة واحدة .. الحمد لله على فك أسرها .

ـ ولكن ذاك اللعين ما زال طامعا في حكمها وامتلاكها .

فقال التاجر والاسى واضح في نبرات صوته وقسمات وجهه : لقد حزنت كثيرا لموت الملك شامة ، فأنا أعرفه جيدا ، ولسوف أحرك تجارة لمدينتكم ما دام قد انحسر عنها حكم الضبع .. ثم ودعه قائلا : سيكون بيننا لقاءات أيها البطل جبل بن مجدو .. أنت من الشجعان ! .. فقد سمعنا بعض أخبارك .. والناس تتحدث بما فعل ابن الخباز بجنود الملك الغاصب الضبع ـ أهلكه الله ـ ولكن الذي لم يخطر ببالي أن تكون ابن الخباز مجدو أخ صديقنا .. لقد أكلت من أرغفة أبيك الكثير الكثير .. رحمك الله يا مجدو .. رحمك الله .

وبعد مغادرة التاجر رمضان المسكن المستأجر ، ترك جبل الخادمين وانطلق إلى الفندق ، فوجد صديقيه ينتظرانه على أحر من الجمر ، فلما رأياه سكن روعهما ، فطمئنهما على نفسه ، وتحدث مع صاحب الخان وشكره ، وأعطاه ما استحق له عليهم من مال ووصف له صور غلمانهم الثلاثة ، ثم قال : احبسهم عندك ، وسأمر عليك كل يوم من أجلهما إما صباحا وإما مساء .. أيها الصديق !

فشكره صاحب الخان ، ووعده بالاهتمام بأمر الغلمان ، واعتلى الفرسان ظهور جيادهم ،

وانطلقوا نحو منزلهم في مدينة الشرق ، فسر الفارسان للمسكن الجديد ، وكان همّ الفرسان الثلاثة ما هو الشأن القادم في حياتهم ؟ ورجع الغلمان من مدينة الدب ، وذكروا لهم أن مدينتهم تنـعم بالهدوء ، ويعيش الناس في أمان يصاحبه قلق وخوف من المجهول ، وما يدبره لهم الضبع من المكر والكيد ! ومتى تأتي ساعة الانتقام ؟ .. فلقد كان الضبع في ذلك الوقت ملكا مرعبا ومزعجا لجيرانه ورجلا عدوانيا ، فشبح الضبع ما زال في قلوب وعقول أهل المدينة الكبار الذين عاصروا غزوه للمدينة ، وذكر الغلمان الثلاثة للفرسان الثلاثة أن الملك سليلا يحصن الأسوار ويقويها ، والجيش في تدريب مستمر ، وهم يستعدون لزواج الأميرين قيس وليث من الأميرتين جميلة وقسمة أخوات الملك سليل ، والناس يتحدثون عن ضياع اخوة الملك ، الأمير حريف والأميرة حظوظ منذ سنوات أثناء هربهم ورحليهم لبلاد الريح في آخر أيام الملك شامة ولا يعلم مصيرهم إلا الله ، وذكروا أيضا أن الضبع مازال مشغولا بالملوك حوله ، ولم يتفرغ بعد لمدينة الدب ، فقال هزبر متمنيا على الله الملك الجبار : نرجو أن ينسى هذا الشيطان أمرها للأبد وماذا يقول الناس عنا ؟!

فأجاب أحد الغلمان قائلا : الناس تثني عليكم خيرا كثيرا ، ويلهجون بذكركم وبشجاعتكم ، وهم يتمنون لو ظللتم بينهم للدفاع عن المدينة ، ويجاهر بعضهم عاتبا على الملك الشاب لسماحه برحيلكم ، وبعضهم الآخر يرى أن هذا التصرف من الحكمة لوحدة الأمة والشعب والتفاف الجميع حول الملك سليل .

قال جبل مخاطبا الغلمان الثلاثة بعد أسابيع من عودتهم : أيها الأبطال .. من منكم سيذهب إلى مدينة الدب ليأتينا بأخبارها ؟.. أخبار قومنا وأهلنا .. فكما تعلمون نحن ابتعدنا عن قومنا خوفا من ضعف الأمة وظهور قيادتين في المدينة .. ونرغب أن نبقى على معرفة تامة ومستمرة بأحوال المدينة حتى نتدخل في الوقت المناسب .. فليذهب أحدكم ويمكث هناك نصف شهر وعندما يعود يذهب الآخر وقتا مثله ، ثم الثالث وهكذا حتى نبقى على اطلاع دائم على أحوال إخواننا حتى يزول خطر الضبع اللعين عن بلدنا.

فرتب الغلمان أدوارهم ، وانطلق صاحب الدور الأول مسافرا لبلاد الدب ، فالأمير جبل لا يريد أن تحدث فتنة بسببه ، واختار النفي الاختياري لمصلحة البلد ، وخشي من بقائه في مدينته المحبوبة وعودة الملك الشرعي من إحداث فتنة ، والصدام مع الأميرين قيس وليث ، وهو كذلك لا يريد في نفس الوقت التخلي عن مدينته وأهله أمام الملك الضبع .



غدر الخال

وصل خبر إلى أذهان الفرسان الثلاثة مفاده أن ملك المدينة وسيدها قد مات ، وأن القوم قد بايعوا ابنه الصغير أسعد وريثا وملكا على مدينة الشرق ، والذي أثار أذهان الفرسان أكثر أن خال الملك الصغير الجديد قام بعزله وخلعه وحبسه في سجن المدينة ، فاضطربت أحوال البلاد بين أنصار الملك المسجون وأنصار الملك الغاصب ، وانتشر الجند في الحارات والدروب والأحياء الصغيرة والكبيرة ، ولزم الفرسان بيتهم أثناء هذه الفتنة إلى أن طرق الباب عليهم ذات ليلة التاجر رمضان صديق عم جبل الذي فاجأهم قائلا : أيها الفرسان جئتكم بأمر خطير ولولا معرفتي بشجاعتكم لما طرقت بابكم في هذا الوقت ؛ ولكني علمت من غلمانكم ومنكم أيضا الكثير من أخباركم .. وكما تعلمون أيها الأصدقاء أن البلاد يعصف بها محنة وفتنة وصراع على عرش الملك سعيدان ، وترون طمع الأمير ربيع وخلعه ابن أخته الملك الصغير أسعد ، وفرض نفسه حاكما على المدينة ، وملكنا الشرعي يقبع الآن في السجن وأنصار أبيه المخلصون يرغبون بتخليصه من السجن قبل أن يقتله الملك الغاصب خفية ، فيرغبون بإخراجه من البلاد خفية ، فقد كمل ترتيب الأمر بحيث يقومون بتهريبه من السجن بواسطة بعض الحراس المخلصين للملك الهالك ، وأريد منكم أن تحموه وتحرسوه وتوصلوه إلى مدينة اللؤلؤ التي هي شرق مدينتنا ، فأخته الأميرة رشاء زوجة ولي عهد تلك المدينة الأمير خالد .. ولن ينسى الملك الصغير لكم هذه المساعدة ، وكذلك نحن أنصار وأصدقاء الملك السابق .. لا ننسى لكم هذا المعروف إن شاء الله .

وبعد تفكير عميق ودقيق رحب الفرسان الثلاثة بالمهمة ، ووافقوا على حماية الملك الصغير والهرب به من مدينة الشرق إلى مدينة اللؤلؤ ، وانصرف التاجر رمضان بعد موافقتهم على القيام بهذه المهمة الخطيرة والشجاعة أيضا ، ولم تمض أيام قليلة حتى كان الملك الصغير ذا الخمسة عشر ربيعا في بيت الأمراء الثلاثة خفية ، ولما انتصف الليل انطلقوا برفقة رمضان حتى أخرجهم من أحد أبواب المدينة نحو مدينة اللؤلؤ متجهين شرقا على أمل العودة إليها – مدينة

الشرق – بعد أيام يسيرة ، وهي مدة إيصال الملك المخلوع عند أصهاره وزوج أخته الأمير خالد ، وكان جبل قد أوصى غلمانه بمتابعة أخبار مدينة الدب ، والبقاء في البيت حتى ينتهوا من هذه المهمة ويعودوا إليهم .

كان الأمير جبل يتقدم القوم على صهوة جواده ، والملك يليه ، والفارسان خلفهما يسيرون بعجلة من أمرهم ، وما كاد الفجر يملأ الدنيا سطوعا ، فإذا هم بكوكبة من الفرسان تتراكض خلفهم وتحيط بهم ، فأدرك الفرسان أن أمر الملك الهارب قد اكتشف وعلم ، وأن أعوان الملك الجديد يطاردونهم فاستعد الفرسان للقتال ، ونصح جبل رجال الملك الغاصب بالعودة ونسيان الأمر فأصروا على أخذ السجين ، فجرت المعركة التي لم تدم إلا ساعة من الزمان ، ولىّ على أثرها فرسان الملك هاربين ، وقد تركوا بعضهم بين قتيل وجريح ، وتابع الفرسان والملك مسيرهم مسرعين نحو مدينة اللؤلؤ .

وقطعوا المسافة بين المدينتين في ثلاثة أيام ، ودخلوا بالملك أسعد إلى قصر الملك أحمد بن خالد الذي رحب بهم أشد ترحيب وأحسنه ، وشكرهم على شجاعتهم وحمايتهم للملك الصغير ، وأتت أخت الملك المخلوع الأميرة رشاء ترحب بأخيها ، وتسمع منه قصة غدر خالهما ثم أبدت شكرها للفرسان ، وقد قدم إليهم بدوره الشكر أيضا الأمير خالد ، وأنزلهم الملك أحمد قصر الضيافة ، ونزل الملك أسعد في قصر أخته .

وأعد الملك أحمد جيشا صغيرا بقيادة ولي العهد ليغزو بلاد الشرق ، وينزع الملك من الملك الغاصب ، ولما تجهزت الحملة انطلقت إلى بلاد الشرق ، وظل الملك أسعد والفارسان جبل وهزبر في ضيافة الملك أحمد ، ورافق الحملة الفارس ثعلبون ، وأوصاه جبل بحسن الطاعة للأمير خالد ، ومحاولة الاتصال بالتاجر رمضان والغلمان .

والتقت الحملة أثناء سيرها إلى مدينة الشرق بقافلة كبيرة ؛فإذا هم من سكان تلك المدينة هاربون من ظلم الحاكم ربيع أبي جملة ، فعندما هرب الملك أسعد ألقى ذلك الغاصب بأنصاره وأنصار أبيه في أعماق السجون ، وأعدم بعضهم الحياة ، واستقوى أنصاره على الحكم وأصبح

حال البلاد سيئا ، والناس تهرب بنفسها وأموالها خوفا من بطش جنود أبي جملة ، فلما سمع الأمير خالد الأخبار تركهم يتابعون الهرب نحو بلاده ، واستمر الجيش يزحف حتى انتهى إلى أطراف مدينة الشرق ، فأرسل الامير رسالة للملك الغاصب يدعوه فيها إلى الاستسلام والتنازل عن العرش المغصوب وإلا الحرب ، فرفض الملك ربيع الدعوة وخرج فرسانه لمقاتلة جيش الأمير خالد ، فدارت بينهم معارك ومبارزات ؛ ولكنها لم تسفر عن فوز لأحد على الآخر ثم طلب الأمير خالد من أبيه المزيد من الجنود فأمده بألف محارب ، واستمر القتال المتقطع بينهم شهرين ولم يتمكن جيش الأمير خالد من تحقيق النصر على رجال أبي جملة الذين كانوا يفتحون أبواب المدينة ويقاتلون ساعة من الزمن ، ثم يكرون عائدين داخل الأسوار ، ويقوم الرماة على الأسوار بتغطية انسحابهم ، وتغلق الأبواب وراءهم ، وأحيانا لا يخرجون تلك الساعة ، وأمام عجز جنود مدينة اللؤلؤ عن دخول المدينة وهطول موسم الأمطار مبكرا رجعوا لبلادهم خائبين يجرون أذيال الخيبة ، وأخذوا بالاستعداد لحملة جديدة مع مطلع الصيف وآخر الربيع وكان ثعبلون قد تسلل للمدينة خلال حصارهم لها ، والتقى الغلمان ، واطلع على أخبار المدينة منهم ، فعلم أن التاجر رمضان زج به في السجن ، ولما انسحبت الحملة عاد معها ، ولما اختلى بصاحبيه روى لهما أخبار فشل الحملة وسبب ذاك الفشل ، وأن صديقهم رمضان يقبع في السجن ، وذكر لهم أن مدينة الدب ما زالت تستعد للدفاع عن نفسها أمام حملات الضبع .

وكان الرفاق الثلاثة يفكرون بعد فشل حملة الأمير خالد بالرحيل إلى مدينة الشرق ، فناشدهم الملك الصغير البقاء معه حتى النصر الأخير القادم ، واعتبرهم من أصدقائه المخلصين ، فرضوا بالبقاء إلى حين ، وأصبحوا ضيوفا على الملك أحمد يقضون أوقاتهم في صحبة فرسان الملك ، أو في زيارة لصديقهم أسعد الذي ينزل في قصر الأميرة ، وأحيانا أخرى يرافقون الأمير خالدا رحلة صيد في البراري والتلال يصيدون الأرانب والثعالب .

ذات ليلة ممطرة خرج الفرسان من قصر الضيافة الذي ينزلون فيه لزيارة الملك أسعد للسمر عنده ، فوجدوه يستعد للانطلاق إلى العشاء على مائدة الأميرين خالد ورشاء ، فأرادوا العودة

فأقسم عليهم أن يرافقوه للعشاء والسهر هناك ، فمشوا سوية نحو جناح ولي العهد في ذلك القصر الكبير ، فاستقبلهم الأمير وزوجه خير استقبال وسعدوا بمجيئهم ، ودار الحديث بينهم حول الحملة العسكرية القادمة لإزالة أبي جملة ، واقترح عليهم الأمير جبل بأن يجعلوا لهم عيونا في مدينة الشرق ينقلون لهم أخبار الملك الغاصب وجيشه والناس ، واقترح عليهم هزبر أن يحاولوا خلال هذه المدة إغراء بعض القادة في الجيش بالانضمام إليهم ، ويكون الإغراء بالمال والمناصب الرفيعة ، واقترح عليهم ثعلبون الاتصال بالتجار الكبار وإغرائهم بالتعاون مع الأمير أسعد الملك الشرعي للبلاد .



وبينما هم يخططون ويقترحون دخلت الأميرة وخلفها الغلمان والجواري يحملون أخونة الطعام والشراب ويضعونها أمام الأمراء ، وبدأت الأفواه تشتغل والأضراس تطحن ، فلما أكل القوم ما قدر الله لهم ، وشربوا من ألوان العصير ما لذ منه وطاب ، فحينئذ أظهر الفرسان ثناءهم للأميرة وخدمها على حسن الطعام والشراب ، فابتسمت الأميرة رشاء لثنائهم ، والتفتت لجاريتها حظوظ وقالت للأمير جبل : أيها الأمير .. أيها الفارس المغوار ..لن ننسى فضلك وحمايتك لأخي أسعد .. وأما هذا الطعام الذي راق لكم فوجهوا الشكر في إعداده وإتقان صنعه لجاريتي العزيزة حظوظ التي تشرف بنفسها على إعداد الموائد الخاصة لضيوفي منذ أكثر من خمس سنوات .. فجزاها الله خير الجزاء ..

فطفق الجميع يحدقون النظر إلى الجارية العزيزة للأميرة رشاء ، وكانت الجارية تقف في وسط القاعة تلقى الأوامر على الخدم والغلمان ، وقد غمرها الحياء من الإطراء الذي سمعته من الفرسان ومن مولاتها الأميرة ، وأمعن النظر إليها جبل ، ودقق فيها نظره ، ثم هتف وهو مازال يحدق النظر إليها معجبا : والله إن لطعامها لذة !..ولكني أرى على محياها الحسن التصوير الحزن العميق .. أيتها الأميرة ؟!

فخطفت الجارية النظر في عيون جبل عندما سمعت كلامه عن حزنها ، وردت الأميرة قائلة

باسمة : إن لك نظرة حادة أيها الأمير !.. فاعلم أنني منذ اشتريتها والحزن مرتسم على وجهها ولا تريد أن تخبرني بسببه ..ولقد حاولت أكثر من مرة عتقها لعل الحزن يختفي عن وجهها الجميل ؛ ولكنها تأبى الحرية وتصر على البقاء جارية وعندي أيضا .

وعندما أخذت الأميرة تتحدث عن الجارية العزيزة لديها ، وقد راقت في عيني الفارس جبل تركت الجارية القاعة حياء وهربا من العيون التي سلطت عليها ، وتابعت الأميرة حديثها بعدما لقطت أنفاسها قائلة : ولكنها تذكر شيئا من ألمها في بعض الأحيان للجواري ، ومما علمته عنها من هؤلاء الجواري أنها تذكر أن أباها ملك عظيم ، وأرسلها وهي طفلة واخوة لها إلى صديق له ، فخطفتها عصابة أثناء الرحلة ، وبيعت جارية في مدينة الشرق لامرأة ، ثم وصلت إليّ بعد ذلك .. فهذا ما أعرفه عن حزنها يا سيدي الأمير !

فقال جبل معترفا بتأثير حزنها عليه : إن الحزن المجسم على وجهها أثر على نفسي وقلبي أيها السادة .

فابتسم القوم لاعتراف جبل وتأثره ، وقال الأمير خالد مداعبا الفارس : لعلك هويتها أيها الفارس .. فلا أظن أن الأميرة تهبها لك .

فأخذ جبل بالضحك وقال : نحن الفرسان اليوم لا استقرار لنا للتمتع بالزواج والجواري ، فاليوم هنا وغدا هناك ، قبل شهور كنا في مدينة الشرق ، وقبلها كنا في بلاد الدب عند الملك سليل بن الملك شامة

وفي تلك اللحظة التي ذكر فيها جبل أسماء سليل وشامة كانت الجارية حظوظ قد عادت للغرفة ، فلما سمعت تلك الأسماء صرخت فجأة صيحة دهشة ثم أغمي عليها .. فهرعت الأميرة والجواري نحوها ، وارتبك مجلس الأمراء ، ولزموا الصمت حائرين حتى فاقت الجارية وقالت بصوت باك حزين مؤلم : لقد سمعت عند دخولي اسم الملك شامة يا السادة ؟!

فحدقت بها العيون وقال جبل : نعم أيتها الفتاة ، أنا من بلاد الملك شامة لعلك من تلك البلاد وترغبين بالذهاب إلى هناك .

فهمست الفتاة قائلة : يا سيدي الفارس .. هل تعرف الملك شامة ؟!

فقال جبل بأسف وحزن : نعم أيتها الفتاة .. ولكني عندما قتل الملك شامة كنت ذا سنوات عشر .. رحم الله الملك شامة . فصاحت الفتاة مرة أخرى وقالت : وهل قتل الملك شامة ؟! وأغمي عليها مرة أخرى ، فقال الأمير خالد مفسرا : إن لهذه الجارية قصة كبيرة على ما يبدو مع ذلك الملك ..!

وكانت الأميرة رشاء وجواريها يعالجن الفتاة ، وانشغل الأمراء كلهم بالتخمين حتى عادت الفتاة لوعيها من جديد فقالت للجميع مبينة لما ظهر منها : الملك شامة كما اذكر .. هو أبي .

فصاح الفرسان الثلاثة معا : أبوك ؟!

فقال ثعلبون بسرعة : لابد أنك الأميرة المفقودة .. أتذكر يا جبل أن أحد الغلمان أخبرنا مرة أن هناك ابنا وابنة قد فقدوا تلك الأيام العصيبة ؟.

فصاحت الفتاة : نعم ، أنا هي الفتاة المفقودة يا سيدي الفارس .. الأميرة الصغيرة التي سرقتها العصابة وعمرها أربع سنوات وفرقوا بينها وبين أخويها ..

وروت لهم تفاصيل حكايتها ؛ كأنها مشاهد حية محفورة بدماغها لم تنسها رغم صغر سنها ، وأنها تذكر أن بلادها كانت تخوض حربا ضروسا ، وفي غمار الحرب وخوفا على الصغار من الأسر والقتل أرسلهم والدهم مع بعض غلمانه وخصيانه لمدينة أكثر أمنا ، وفي الطريق عرضت لهم عصابة مجرمون فخطفوها وأخاها حريفا وباعوهما في مدينة الشرق ، واختفى حريف يومذاك من حياتها . فطمئنها جبل على أمها وعلى أخيها سليل ، وقص على مسامعهم بعضا من أخبار بلاد الدب ، وما انتهت الجلسة حتى أصبحت الجارية حظوظ الأميرة حظوظا ، وتقرر أن يعود بها الفارسان هزبر وثعلبون لبلادها معززة مكرمة ، وبعد أيام جهزها الملك أحمد بن خالد وشدّ لها هودجا ، ووهبت عددا من الجواري والغلمان والكثير من الهدايا من الأميرة وزوجها الأمير ووالد الأمير وأرسل الملك أحمد عددا يسيرا من الفرسان يصحبونها إلى بلاد الدب على رأسهم الفارسين هزبر وثعلبون .

جبل الرعب

وما مضت عدة ليال على رحيل الأميرة ؛فإذا ثعلبون يدخل قصر الملك أحمد وهو في حالة يرثى لها دامي الجسد ممزق الثياب ، وروى لهم الحكاية والمأساة فقال بعين دامعة : بعدما قطعنا مسافة طويلة من الأرض أيها الكرام ، وذات نهار ونحن نقطع واديا للمبيت في أحد الكهوف بعد أن تبين لنا أننا لن نستطيع الوصول لقرية أو مدينة ذلك المساء نبات فيها ، فخرجت علينا عصابة من المجرمين يزيد عددهم عن الأربعين ، وحدثت بيننا وبينهم معركة يشيب لها الصغار ، فقتلنا منهم مقتلة عظيمة ؛ ولكن عددهم تغلب على قوتنا وشجاعتنا ، فلما رأيت فرسان الملك سقطوا قتلى ، ورأيت هزبرا سقط مضرجا بدمه ، فعولت على الهرب لأخبركم ، فهربت ووقعت الأميرة وجواريها وغلمانها أسرى في قبضة العصابة ، ولما اشتد الظلام عدت لمكان المعركة أبحث عن جرحى ، ولأخذ جثة صديقي هزبر لدفنها ، فلم أجد حيا منهم إلا هزبرا ، وبه جرح عميق ، فتقهقرت به للوراء حتى وصلت حصاني ، وسرت به إلى إحدى القرى وأشرفت على تضميد جراحه ومواساته ، وجئت إليكم أيها السادة للقيام بالواجب .



فنهض جبل وعانق ثعلبون عناقا حارا ، ثم قال بغضبه المعروف به أثناء قتاله لرجال الضبع : أقسم بالله العظيم أمامكم أيها الأسياد ! لأقلبنّ الأرض شبرا شبرا حتى أجد الأميرة حظوظ بنت شامة ، ولسوف يرى هؤلاء اللصوص الأوغاد يوما لم يشهدوا له مثيلا في حياتهم الماضية من جبل بن مجدو الساحر .. قاهر الملك الضبع .. في الصباح الباكر تكون قد استرحت أيها الفارس واستعددت للمعركة .

وعرض عليه الملك أن يرسل معه جيشا صغيرا فأبى وقال : سأذهب وحدي يا مولاي وبرفقتي ثعلبون فقط ليدلني على مكان المعركة .

وفي الصباح الباكر تجهز الفارس جبل جهازا حربيا كاملا ، وتحرك معه الفارس ثعلبون للبحث عن الأميرة المفقودة التي تركت أثرا لا ينسى في قلب الأمير جبل يوم أغمي عليها مرتين عند العشاء في قصر الأمير خالد .

وتفقد الفارسان في طريقهما الجريح هزبرا ، وأوصوا به الفلاحين خيرا ، ووعدوهم بحسن النوال ، وتابعوا المسير الليل بالنهار حتى هبطا الوادي الذي جرت به المعركة ، وبينما هما يسيران في ظلمة الليل وقد اقتربا من غدير ماء ليشربا وتشرب خيولهما سمعا صوتا خلفهما فأخذا حذرهما ؛ فإذا هم برجال ثلاثة على ظهور خيولهم يقولون : من الرجال ؟!

فقال جبل : عابرو سبيل .. من القوم ؟ !.

فقال أحد الرجال وفي نبرة صوته تهكما واضحا : عجبت لكما أيها الفارسان ! كيف تدخلان وادي الرعب ؟ هذا وادي الزعيم الهائل السبع العادي .

فقال جبل متجاهلا الاسم : لقد فقدنا منذ أيام قافلة في هذا الوادي ، لعلكم أنتم ممن اعترضها أيها الرجال ؟!

فقال آخر في صوت فيه تهكم وسخرية : أأنتم قادمون للبحث عن القافلة والأسيرة التي تدعي أنها أميرة وأخت ملك ؟!

فقال جبل بهدوء تام : نعم أيها الرجال .. ومن هو هذا الزعيم الهائل الذي ذكرتم اسمه قبل قليل ؟!

فقال أحدهم : أتحب أن تراه أيها الفارس ؟!

فقال جبل متهكما : أرغب برؤية هذا الصنديد وعناقه .. فأنا الفارس المشهور بابن الخباز .. جبل بن مجدو .. أتمنى أن أرى سيد هذا الوادي .

فصاح أحدهم وهو يضحك : لقد سمعنا بهذا الاسم ..فسيدي كله شوق للقياك أيها الجبل .. فاتبعاني ولا تحاولا الفرار والهرب .

فقال جبل ساخرا : ولمَ الهرب ؟! ونحن بحاجة لنرى زعيمكم .. وكلي شوق لرؤية هذا

الضرغام الهائل .. سيد هذا الوادي !

ومشى الخيال أمامهم ، وتبعه جبل وثعلبون ، وخلفهما الرجلان الآخران ، وفجأة حاولوا الغدر بهما وإسقاطهما عن جواديهما ، فسقط ثعلبون عندما عقر أحدهم جواده ، وقبل أن يعقر الثاني جواد جبل كان جبل قد فتك به والحق به آخر ، وانقض بسرعة على الأول المذهول وأوثقه بالقيود ، وتمت هذه الحركات بسرعة أدهشت ثعلبون والأسير الذي رفعاه على الجواد مكبلا ، واعتلى ثعلبون أحد الأفراس ، وتركوا الخالية تسير أمامهم حتى وصلت إلى منحدر فاستدارت لتصعده ، وبدأت رحلة الصعود في الجبل ، وبعد مسير خلف الفرس الخالية التي سارت أمامهم ، وصلوا نحو كهف واسع ،كانت مشاعل النار تجعل ليله نهارا ، وكان فيه رجال يأكلون ويقهقهون ، ويملأ صوتهم وصياحهم الجبل الهادئ في ذلك الظلام ، فلما اقتربوا من الكهف سمعوا من يقول بصوت عال : لقد عاد الرجال يا أبا الأسود !

ولكنهم لما شاهدوا رجلهم مقيدا على ظهر الفرس أدركوا أن الرجلين الذين معه ليسوا صاحبيهم ، فنهضوا عن الطعام مسرعين ، وقد استلوا سيوفهم من أغمادها ، وبعضهم استل خنجره ، لقد كانت مفاجأة لهم أن يقتحم عرينهم غريب ، وظل زعيمهم أبو الأسود جالسا حول المائدة يأكل الطعام غير مكترث لما يحدث في الكهف الواسع ، فنزل جبل عن حصانه ، واقترب منهم وهو يقول بصوت قوي مهيب : أيها السبع العادي ! .. أنا جبل بن مجدو المعروف بابن الخباز .. قاهر الملك الضبع إذا لم تكن تعرفني وتسمع بي .. جئت إليك أطلب الأميرة المخطوفة منذ أيام .. ابنة الملك شامة وقد سمعتم ما قلت !

فهاج رجال السبع وارتفع صياحهم ، وترك السبع العادي الطعام ، فناوله أحدهم منديلا فأخذ يمسح به يديه وفمه ، وقد أشار لرجاله بالصمت ، وقال مخاطبا رجاله : حلوا وثاق رجلنا .

فتقدم اثنان منهما وحلا الأسير المكبل ، ثم نظر الزعيم إلى جبل باحتقار وقال : اسمك جبل بن مجدو .. وضحك ضحكا مدويا ثم قال مخاطبا الأسير : ما الأمر يا جبان ؟

فقال الرجل الذي حل وثاقه ، وقد ملأ الخوف والجبن قلبه من السبع العادي سيد هذا الوادي

: يا سيدي !! كنا نتفقد الوادي كالعادة ، ولما مررنا بالغدير وجدنا هذين الرجلين ، وحاولنا الفتك بهما ؛ ولكنهما كانوا أسرع منا ، فقتلوا صاحبيّ وأسروني ، وتركوا الفرس تقودهم لهذا المكان .

فعندئذ أشار السبع العادي لأحد رجاله إشارة ، فأغمد على أثرها خنجره في صدر الرجل على الفور ، وحينئذ قال جبل بهدوء يتخلله انفعال مكبوت : أيها الرجل مرة أخرى أقول لك أنا جبل .. ابن الخباز قاهر الملك الضبع ورجاله .. لا تخيفني حركاتك أيها المغرور وقتلك لهؤلاء الناس .. أريد الأميرة المخطوفة .. أين ذهبت بها ؟! أين أخفيتها ؟ لابد أنها ذكرتني لك واحتمت باسمي ؟

فأخذ السبع العادي بالضحك العالي والقهقهة ، وما كاد يفيق من ضحكه حتى كان جبل يضع السيف على عنقه وينخزه فيه ، وهو طريح الأرض كالثور المذبوح ، وجبل يصيح : حركة واحدة من رجالك أغمد السيف في عنقك وأقتلك أيها الغدار .

كانت مفاجأة مذهلة لجميع من كان في الكهف وفعلة سريعة ، وصاح جبل مرة أخرى : ابتعدوا أيها الأنذال !!

وكان ثعلبون المدهوش كالآخرين قد اقترب من جبل وهو مشهر سيفه ومستعد للعراك فقال جبل : أيها الزعيم أين أرسلت الأميرة ؟.

فقال السبع العادي بصوت مبحوح وغضب حاد وعيون يقدح منها الشرر : لا أدري أيها الحقير وقبل أن يكمل سيل شتائمه طعنه جبل طعنة نجلاء ، وهجم على رجاله بسرعة البرق قبل أن يفيقوا من الصدمة ، وهم كانوا في دهشة وصدمة مما يجري ، وفعل ثعلبون مثل صاحبه ، ولم تكن سوى سويعة من الزمن حتى قُتل عدد منهم ، وهرب آخرون ، وسقط آخرون جرحى يئنون من الألم ، وعانق ثعلبون جبلا وهو يضع سيفه في غمده وهو يقول بانبهار وعجب : والله إنك ـ يا جبل ـ رجل شديد ، لقد سيطرت على الموقف بسرعة .. وأقر لك بأنك أشجع الشجعان !!

فابتسم جبل قائلا : كان لابد من السرعة مع هؤلاء الوحوش ، فهؤلاء ليسوا شجعانا كمل يخيل إليك بل هم جبناء ؛ ولكن كثرتهم تساعدهم في مثل هذا الوادي البهيم فيتظاهرون بالشجاعة .. إنما الشجاعة في الحرب في لقاء الأبطال والفرسان وجها لوجه .

واقترب من بعض الجرحى وقال بقوة : أين الأميرة ؟

فما كان منهم إلا أن أقروا بأنهم اعترضوا القافلة المذكورة ، وفتكوا برجالها ونقلوا الأميرة ومن معها إلى قصر قلعة الجبل أو جبل الخوف ، كما يسمونه ويسميه الناس ، ويوجد القصر في وسط الوادي على قمة جبل عال ، وكان الزعيم يستعد للذهاب إلى القصر ، وأن هذا الكهف وكر من أوكار العصابة المنتشرة في هذه الجبال ، فطلب جبل من صاحبه إحضار الأموال الموجودة داخل الكهف ؛ ولكن أحد الجرحى اللصوص قال : أيها الفارس لا يوجد شيء هنا كل الأموال في قصر الزعيم .

فنظر إليه جبل لحظات وقال : ابحث يا ثعلبون لنرى صدق القائل .

فتناول ثعلبون مشعلا واندفع إلى جوف الكهف ، وفي حفرة داخل جدران الكهف عثر على صندوق صغير ، فعاد يقول : هذا صندوق الأميرة على ما أظن يا أمير جبل .

فقال جبل وهو يتأمله : نعم لقد أهدته لها الأميرة رشاء .

ثم طعن الرجل الكاذب فأرداه قتيلا وقال : ثعلبون العزيز لنأخذ أسيرين يقوداننا إلى القصر وانظر أخفهم إصابة وكبلهما ولنرفعهما على جوادين .

وقال الفارس مخاطبا الجرحى : سيأتي قومكم لمساعدتكم أيها الجبناء إن كانوا يهتمون بكم وبحياتكم .

وقد حاول الرجلان اللذان وقع الاختيار عليهما التنصل من مهمة الإرشاد والدلالة ، فقال جبل بقوته التي شاهداها منذ ساعة : ليس أمامكما إلا أن ترشدانا أو الموت .

فتلاقت عيون الجريحين ثم أحنيا رأسيهما بالموافقة والطاعة ، ونزلوا إلى الوادي المخيف ، وكان الفجر قد ملأ المكان بنوره الوضاح ، ولما استقروا في منبسط الوادي سمعوا صوت خيول

تتراكض باتجاههم ، فقال جبل لصاحبه : كأنهم لملموا جراحاتهم .

واقتربت الفرسان منهم فاستل الفارسان سيفيهما ، وصاح جبل كالأسد الرئبال : ماذا تريدون الثأر .. لابد أنه قد صعب عليكم العيش بعد موت كبيركم المأفون .. مجرم لص قاطع طريق يضحك على نفسه وعليكم مسميا نفسه السبع العادي .. وما هو بسبع ؟!.. فالأحق أن يقال الكلب العادي .

فرد أحدهم ساخطا : جئنا لنثأر لزعيمنا الكبير أيها النذل الحقير .

وأشار لفرسانه بالهجوم ، فتلقى جبل اندفاعهم ، وكان الأمير ثعلبون يحمي ظهره ، ثم أغمد جبل سيفه ونازلهم بالرمح ، فمن لمسه سنان الرمح جندله عن جواده صريعا أو جريحا ، في الحق إن جبلا كان جبلا لا يخشى الموت ولا يهابه ، ويعلم أن المنية إذا جاءت تهيأت أسبابها ، وحروبه مع ولاة الضبع على بلاد الدب كما يعلم القراء أكسبته خبرة وقوة قلب وشجاعة يعرفها القراء لهذه القصة ، فما مضت ساعة من الوقت حتى فتك بأكثرهم والباقي جرحى مطروحين أرضا يئنون من ألم الجراح فقال ثعلبون فرحا ومعجبا : لله درك يا جبل ! إنك والله لسيد الفرسان .. قد قُد قلبك من الصوان .. مع أنني شاهدت كل معاركك مع رجال الضبع وفرسانه ؛ ولكنك هذا الليل أثبت أنك فارس الفرسان ، وأنك نادر المثال في هذا الزمان .. فهؤلاء المجرمون يـقذفون الرعب في أقوى الرجال الأشداء ..أيام قتالنا للضبع كنت تقاتل ومعك الفرسان والرجال ، أما هنا فإنك تقاتل وحدك .. أين هزبر ليراك يا سيدي الفارس ؟!

فقال جبل مبتسما : أشكرك يا صاحبي على هذا الثناء ، ولا تنسى أنك معي .

وتابعوا المسير نحو قصر السبع العادي في الجبل المخيف أو جبل الخوف كما يسميه رجال السبع وبعد ساعات من المشي وصلوا لدرب يصعد بهم إلى جبل الرعب أو الخوف ؛ فإذا هو جبل عملاق يصل إلى عنان السماء ، فقال أحد الأسيرين : أترى هذا الجبل العالي يا سيدي الفارس ؟! فعلى قمته الشامخة قلعة وقصر الزعيم المقتول .

فقال جبل وهو يقفز عن حصانه : ثعلبون العزيز .. فك أحد الأسيرين .. ليذهب إلى أعلى

وحده ويرسل لنا الفتاة وجواريها وغلمانها وأموالها .. وسيد الجبل الجديد لنتفاهم ونتفق .
ففك ثعلبون أحد الرجلين الذي قال : يا سيدي الفارس ! لا أستطيع الصعود يقتلني الحراس
فرد جبل باسما : اذكر لهم مقتل سيدهم السبع ومقتل الفرسان الذين أرسلوهم للتخلص منا وأعلمهم أنني لن أتخلى عن الأميرة ، ولن أعدم حيلة في الوصول إلى أعلى الجبل ولو كانوا ألف مجرم ولو مكثت هنا مائة سنة .. وكل من يهبط أفتك به .. هيا اصعد ولا تتأخروا في الرد
فقال الرجل مستسلما : سأحمل رسالتك يا سيدي الفارس وأرجو أن أبقى على قيد الحياة .
فقال جبل : قل لهم إن الأمير جبل بن مجدو أمنني على حياتي ، وتأكد أنهم لن يمسوا شعرة منك انطلق أيها الرجل ولا تخف .
واعتلى المصاب الجواد ، وصعد المنحدر حتى وصل لرجال القلعة ، ونقل لهم رسالة الفارس جبل بن مجدو ، وما حين مضى حتى كان رجل كبير الجثة أعرج اليمين ومعه بعض الرجال ينحدرون ويتقدمون على بغال وخيول نحو الفارسين ، وهم يرفعون راية بيضاء إشارة للسلام ولما رآهم الفارسان اعتلوا ظهر جيادهم حذرا من الغدر ، وبعد التحية والسلام ، قال الرجل ذو الجثة الضخمة الأعرج وهو على ظهر البغلة : أيها الفارس !!.. نقر لك بالهزيمة ولم تر عيوننا مثلك .. لقد حدثنا صاحبنا عنك وعن قوتك الهائلة وجسارتك .. وقد حدثنا رجالنا الهاربون قتلك لزعيمنا السبع العادي وعن معركة المغارة .. والأميرة آتية ورائي معززة مكرمة ، ونحن نعتذر عن الأذى والإزعاج اللذين سببنهما لكم .. ونعتذر عن القتلى الذين قتلناهم من رجال الملك أحمد بن خالد ..وسنذكر اسمك كثيرا ، ولن ننساه أبدا ؛ ولكن لنا شرط واحد نود الموافقة عليه .
فقال ثعلبون : شرط .. يا ترى ما شرطكم ؟!
فرد الرجل المفاوض الضخم : شرطنا الوحيد أن لا تعودوا مرة أخرى لهذا الوادي .
فأخذ الفارس جبل يمشط لحيته بيده ، وهو يفكر بطلب العصابة ، ثم قال بقوة : أيها الرجل كلامك مقبول ، وسأنسى الآن اعتداءكم على الناس وظلمكم للناس ، وسأصفح عن قتلكم

رجالنا ، فقد أخذنا بعض ثأرنا ..ولن أقبل شرطكم الوحيد كما تقول إلا عندما أرى الأميرة ومن معها ، ويا ويلكم من ابن الخباز مجدو الساحر إن أصابها سوء ، وأرجو ألا أعود إليكم في يوم من الأيام .. وإن عدت إلى هذا المكان ثانية فاعلموا أنني سأدمر هذه القلعة عن بكرة أبيها وإن وقع أحد الناس ممن يخصني أمرهم بين أيديكم فاعفو عنهم من غير تردد ، ولا تأخير بل أكرموهم ؛ لأنني والله العظيم إذا جئت أيها الرجل إلى هذا الوادي لن أرحمكم البتة ..هذا مطلبي .. هل علمتم ؟

كان جبل يتكلم والشرر يتطاير من عينه ، فقال سيدهم الجديد : لقد علمنا من هو جبل بن مجدو !.. اطمئن من احتمى باسمك أو أرسلت رسولا من طرفك إلينا من أجله سترى منا ما يسرك ، لن ندفعك للمجيء إلينا ، فنحن بعد هذه المعارك حريصون على صداقتك ورضاك أيها الفارس الشجاع !



نجاة الأميرة

وقف الجميع صامتين وعلى حذر شديد حتى هبطت الأميرة حظوظ وهي مصفرة الوجه باكية العيون ، وخلفها جواريها وخدمها وغلمانها ، فقال الزعيم الأعرج : ها هي الأميرة أيها الشجاع لم تمس بسوء !

فلما شاهدت الأميرة الفارس جبلا وتيقنت شحصه ردت إليها الحياة ، وأجهشت بالبكاء بصوت مسموع ، لقد كانت تظن أنهم ينقلونها إلى مكان آخر ، فلما بكت تمزق قلب جبل ، ونزل عن جواده ، واقترب نحوها وهو يقود الجواد بيده فقالت : أنت !!

فقال الأمير جبل بحزن : نعم أنا أيتها الأميرة .

فعادت تقول بقلب دامع حزين : أنت يا سيدي الفارس الذي أنقذني من الموت والعار !!

فقال وهو يرنو إليها بعينيه : لا عليك أيتها الأميرة الكريمة .. الحمد لله على سلامتك ونجاتك من هؤلاء الوحوش ..ودفع إليها منديلا صغيرا تمسح به دموعها قائلا : خذي هذا امسحي به هذه الدموع .. وما أنا إلا خادمك الأمين يا ابنة الأكابر .

فأخذت منديل الفارس بأيد ترتعش تمسح دموعها وتقول : أنت خادمي الأمين ! .. بل أنا خادمتك يا سيدي الفارس .. ما أدري ما أقول لك ؟!

فقال جبل : لا شيء .. أنا قمت بواجبي نحو أميرة من بلادي ، وقد أكلت من طعامها اللذيذ

وهنا ارتفع صوت زعيم العصابة قائلا : أيها الشجاع هل انتهى ما بيننا ؟

فالتفت إليه جبل ورد قائلا : أشكرك على حسن تعاونك .. وودت لو علمت اسمك لعلنا نلتقي في يوم من الأيام القادمة .

فرد الرجل بجفاء : سننسى ما فعلت بنا أيها الشجاع ، ولا حاجة لك بـمعرفتي .. انصرف راشدا وعلى ما اتفقنا عليه .

فقال جبل متهكما : أشكرك مرة أخرى .. أرجو منك أيها الرجل العاقل أن تتوب وتئوب وأن تدع الإجرام .

فصاح الرجل كأنه لم تعجبه النصيحة بالتوبة والأوبة : لا تنسى شرطنا أيها الشجاع ؟

رد جبل فقال : علمت .. ولكن لي كلام أخير قبل الفراق .

وهنا قالت الأميرة لجبل : أيها الأمير .

فالتفت إليها وقال : هل من شيء أيتها الأميرة ؟؟

قالت بلهفة : سيدي الأمير ! إنني مدينة لك بحياتي وشرفي وحريتي .. ولكن هناك كثيرا من المظلومين في قصر هؤلاء الوحوش يتوقون للحرية مثلي .. لعلك تكمل إحسانك يا سيدي الفارس إليهم .

فسمع رجل العصابة مطلب الأميرة واستوعبه فقال : أيها الشجاع ! انصرف راشدا ودعك من الآخرين .

فقال جبل وهو يحدق النظر فيه : أيها الرجل العاقل !.. لقد سمعت قول الأميرة أخت الملك سليل بن شامة سيد وملك بلاد الدب القطبي .

فقال الرجل وهو مقهور : أيها الشجاع .. انصرف ودع الناس .. الصبر له نهاية .

فقال جبل بغضب : ويحك!! .. وهؤلاء المظلومون الذين بين أيديكم ، وقد تشفعت فيهم الأميرة ، وقد ذكروا أمامي ، هل أتخلى عن إنقاذهم ؟! ماذا يقول الناس عن الفارس جبل بن مجدو ابن الخباز نصير الضعفاء ؟!

فقال الرجل الأعرج بصوت خشن : ها هي الأميرة لم تمس بسوء أو أذى ..فاذهب بها سريعا قبل أن يثور غضبي .. وبيننا دم الزعيم !

مشى جبل بقوة نحو الرجل وهو يقول بحدة شديدة : يبدو أنك بعد لم تعرف الفارس جبلا .

وقبل أن ينهي كلامه كان قدامه ، وقفز قفزة خاطفة محكمة وسريعة ، وأغمد خنجره بصدر الأعرج فطرحه أرضا يتلوى ، وهو يصيح حانقا : أيها الأوغاد .. إنكم تجهلون الفارس ابن مجدو .. لا رحمة لكم .

فصاح الرجل المطعون صيحة وهو يخر للأرض صريعا ، وهرب رجاله كالأرانب ، فصاح

فيهم جبل : إذا أقبل الليل ولم ينزل المظلومون فاعتبروا أنفسكم أمواتا أو تقتلونني ..

وسمع الجميع في هذه اللحظة قول الرجل المطعون : غدرت بي أيها الخائن ؟!

فالتفت إليه جبل وصاح قائلا : أوه .. لم تمت بعد ! وهل أنتم أشراف ؟!حتى أعاملكم بالشرف أيها الحقير .. تسلبون الناس وتقطعون السبيل فايّ شرف لكم ..!!

ثم صاح برجاله : تعالوا خذوه .. فهو لم يمت بعد .. إنه يلبس درعا تحت ثيابه .. ونفذوا ما أمرتكم به ، ويا ويلكم إن صعدت إليكم ..

فعاد الرجال وحملوا الجريح بين أيديهم وهم يرتجفون خوفا ورعبا ، وعندما مروا من جوار الفارس حاول أحدهم الغدر به ؛ فإذا هو بقبضة الفارس ، ولم يمهله ثوان يلتقط فيها نفسه بل قتله على الفور ، فدب الخوف والرعب في قلوب هؤلاء العتاة من المجرمين ، وصعدوا بصاحبهم الجريح كأنه عفريت حل بينهم ، وحل وثاق اللص الذي ساقوه معهم من الكهف الذي قتل فيه السبع العادي وأمروه بأخذ جثة صاحبه ، وقبل غروب الشمس هبط الأسرى من قلعة الجبل ، وهم يلهجون بالدعاء للأميرة والفارسين ، وصافحوا الفارس وشكروه فقال لهم : اشكروا الله العظيم الذي سخرني للمجيء هنا .. هل ظل من أحد في قبضتهم أيها الناس ؟

فأجابه أحدهم قائلا : لقد أمر زعيمهم لهب الليل الزعيم الجديد أحد رجاله أن يصيح في القلعة مناديا بحرية كل من فيها كرامة للأمير الفارس ابن مجدو الساحر .

فكانت النساء المحررات يبكين من الفرح ، والرجال يعانقون الفارسين بسعادة ، ويثنون على الأميرة الثناء الدافئ ، ولما رأى جبل كثرة الأسرى أرسل عددا منهم إلى القصر يطلبون الطعام والدواب ، وأمر بعض الناس بإشعال النيران لصباح الغد للخروج من هذه الجبال العالية ومن هذا الوادي المخيف ، وقد جلس الفارس بالقرب من الأميرة وبجواره ثعلبون بعد أن هدأت عواطف الناس نحوه ، وقد أمر بعضهم بالحراسة حذرا من غدر هؤلاء المجرمين .

وكانت الأميرة تجلس على صخرة ، ووضعت أمامها نار من الحطب ، وجلس الفارسان قربها وكل منهما يمسك بمقود جواده ، وكانت الأميرة تشعر في هذا المكان وهذا الوادي المخيف

بحب جارف لهذا الفارس الشاب الذي يجلس قريبا منها كالحارس الأمين ، وهو الذي ملأ قلوب هؤلاء الغلاظ الأفئدة رعبا ، وهو الذي قهر جيوش الضبع ، وهو الذي قتل الوحش المسمى السبع العادي وهو .. وهو .. لقد كانت مبهورة بشبابه وقوته ، وهو الفتى الذي لا يخشى الموت ولا يهابه ، وكأن الشجاعة مجسمة فيه ، لقد سمعت ورأت رجال العصابة يتحدثون عنه برعب قبل أن يهبطوا بها .. فلما أخذ بالحديث معها تشجعت وعرضت نفسها عليه زوجة ، وأن يكون لها سيدا وبعلا ، فسر جبل لصراحتها واعتبر هذا شجاعة أكبر وأعظم من شجاعته ؛ ولكنه قال : أنا سعيد بك أيتها الأميرة ؛ وليس لي إلا أن أقول إنني أعدك إذا فكرت بالزواج يوما من الأيام سأفكر فيك .. ومع ذلك لا ألزمك بانتظاري ..فإن يسر الله لك زوجا صالحا فاقدمي ولا ترددي .. فأنا فارس جوال ، لا أفكر بالاستقرار في بلادنا .. فلم يعد لي مقام فيها .. وعندما تصلين أهلك بسلام ستعرفين الأسباب لذلك .. ولكني سأقاتل عنها الملك الضبع إلى آخر لحظة من حياتي .. ولسوف أعود لبلاد الملك أحمد بن خالد وأساعد الملك أسعد في استرداد ملكه المسلوب في بلاد الشرق .

فقالت الأميرة المبهورة بالشجاعة التي كونها جبل في كيانها : سوف انتظرك ما دام بي عرق ينبض .. أيها البطل .

فرد قائلا وهو متأثر من عواطفها لشخصه : قد يطول الانتظار يا مولاتي .. وتذكري دائما ما أنا إلا ابن خباز في مدينتكم العامرة .

فردت غاضبة : أيها الأمير .. أنت لم تعد خبازا ولا ابن خباز .. بل أنت سيد الفرسان وأميرها

فقال : كفاك مدحا أيتها الأميرة !! أنت في حل من الوعد .. وإذا فكرت يوما بالارتباط بأنثى سوف أفكر فيك .. هذا وعد مني .. هذا إذا وجدتك عزباء في ذلك اليوم .. ولكني استحلفك بالله العلي العظيم إنك إذا وجدت الكفء من الرجال فانكحيه ، ويكفيني ما سمعت من مشاعرك الطيبة نحوي.. فحياتي أيتها الأميرة منذ قتل أبي على يد رجال الغضبان الخيل والموت والقتال .

وكان هذا الحوار الدافئ يجري على مسامع الأمير ثعلبون ، فعندما وصل الحوار بين الأميرة والفارس جبل إلى هنا قال ثعلبون معجبا بأخلاق صديقه : أيها البطل لم أعرفك حق المعرفة إلا هذه الأيام !!.. عندما رأيت حزنك على الأميرة وهي جارية في قصر الأميرة رشاء .. ظننت أنها وقعت من نفسك موقعا حسنا ، فقلت لنفسي بأن الفارس عشق وأحب الجارية .

فقطع جبل استرسال ثعلبون فقال : صدقت أنا ظننت نفسي أنني قد عشقت الأميرة ؛ ولكن النساء لم تستقر في وجداني بعد ؛ وإن أخذت الأميرة منه موقعا حسنا .

فقالت الأميرة : كل فتاة تتمناك أيها الفارس لعلها تنجب منك بطلا صنديدا مثلك ، لا يهزه الرعب والخوف ، فحب الشجاعة طبع فطري .. على كل حال سرتني معرفتك والحديث مع فارس مثلك ، وإن كنت أتمنى أن تعود معي للوطن ؛ ولكن يبدو من كلامك أنني سأعود إلى بلادي مع فرسانك .

فقال جبل : لقد أصيب هزبر وهو يتداوى ونسأل الله له الشفاء.

وأتت الخيول والبغال والحمير والطعام ، وفي الصباح الباكر ركب عليها الناس وساقهم إلى مدينة اللؤلؤ ، وقد مروا على هزبر الجريح وحملوه معهم ، وكان جبل قد أرسل بشيرا للملك أحمد الذي خرج بنفسه للترحيب بهم جميعا ، وقد سر من شجاعة الفارسين ، وهنأ الأميرة بنجاتها وسلامتها ، وتمنى للفارس هزبر العافية ، وطلب من طبيبه الخاص بالإشراف على مداواته ، وبعد أيام انطلق الأسرى لبلادهم ، وجهز الملك الأميرة مرة أخرى وأرسل معها مائة فارس على رأسهم ثعلبون لتصل لبلادها سالمة ، ونصحهم بالسير بين المدن والقرى واجتناب الوديان والغابات والأماكن المجهولة ، وفي أقل من شهرين عاد الفرسان من مدينة الدب التي غمرتها الأفراح والسعادة بعودة الأميرة المفقودة حظوظ ، وتمنوا عودة الأمير حريف ، ولقد علم القاصي والداني بدور الفارس جبل بإنقاذ الأميرة من براثن السبع العادي ورجاله ، فأصبح جبل في نظرهم فارس الدنيا الأوحد ، وازداد إعجاب الأميرة به أكثر عندما أخبرتها أمها بما صنع جبل لهذه المدينة ومعاركه الشرسة مع رجال الحامية ، وأخبرتها أمها عن تنازله عن حكم

البلاد لما رجع أخوها الملك سليل ، وازدادت الأم به إعجابا وحبا عندما روت لها حظوظ ما فعله جبل برجال العصابة ، وأنه اعتذر عن الزواج منها في الوقت الحالي لتجزيه بعض ما قدم لها من الخير والمعروف ، فقالت الأم متأثرة غاية التأثر :إنه لرجل والرجال قليل لـقد أعاد لنا الملك والسلطنة وقوى جند المدينة وأسوارها وأبراجها وفعل لك ما فعل ولم يأخذ شيئا .. ليته تزوجك يا ابنتي ! لقد أحببت هذا الفارس رغم أنني لم أره بعد ..فهو يستحق كل خير ويقول أخوك الملك في حقه إن الأمير جبلا لم يترك البلاد إلا خوفا من انقسام الأمة ، فكثير ممن حارب وقاتل معه يعشقونه ويحبونه حتى الموت يا ابنتي العزيزة فنعم الفارس جبل !!



عودة ملك

لما اقترب الربيع على مدينة اللؤلؤ الجميلة ، زاد الفارسان من تدريب وتمرين الرجال الهاربين من مدينة الشرق استعدادا للمعركة القادمة ، فلما أشرف فصل الربيع على الوداع كان جبل وثعلبون وهزبر الذي تعافى من جراحه قد أعدوا ما يزيد عن ألف متدرب ، وقد درب عدد منهم على ركوب الخيل ، فكون جبل منهم سرية فرسان ، وتهيأت رجال وفرسان الشرق للقتال واسترداد ملك الملك الصغير أسعد ، وكانت العيون قد نشطت في نقل أخبار المدينتين وأمر الملك أحمد ابنه الأصغر سلطان بالاستعداد لقيادة الحملة من الفرسان والرجالة التي تعداد رجالها خمسة آلاف ، وفيها من أمهر فرسان المدينة وشجعانها ، وخرج جبل وصاحباه مع فرسان ورجال مدينة الشرق قائدا لهم ، ومشت الجنود والبيارق اللؤلؤية مع مطلع فصل الصيف ، وظلت تزحف إلى أن حطت رحالها وأحمالها في سهل واسع أمام أسوار مدينة الشرق وقد كان معهم رسالة تصالحية من الملك أحمد بن خالد للملك الغاصب ربيع أبو جملة ، وحمل الفارس ثعلبون الرسالة الملكية ، وكان يرفع علما أبيض يدل على أنه رسول ، ففتح له باب صغير زلف منه ، وانطلق برفقة فارس من فرسان الباب والحراسة إلى قصر الأمارة والحكم ، ثم أذن له بالدخول على الملك ، فدفع إليه رسالة الملك أحمد ، وصرف الرسول لدار الضيافة ، وبينما هو ينتظر الجواب أقبل إليه عدد من الجنود المسلحين وساقوه إلى سجن المدينة ، وهو في حيرة مما يجري له ، ومن الغدر الذي حاق برسول الملك أحمد .

ولما جاء الليل أحضروه قدام الملك ، فخاطبه قائلا : أنت تسأل نفسك وتقول لمَ حبسني هؤلاء الكرام ؟!

فأمعن إليه ثعلبون النظر وأخذ يتأمل وجهه وعينيه ثم قال : نعم !!

فنهض الملك عن كرسي الحكم ، ونزل درجات العرش ، وقد أشار لرجل واقفا في قاعة العرش وقال : انظر يا هذا إلى هذا الرجل أتعرف هذا ؟

هز ثعلبون رأسه بالنفي ، فقال الرجل بإشارة من الملك : ألا تذكرني أيها الرجل ؟ .. ألا تذكر

يوم هربتم بالأمير السجين ؟ .. ألم يلحق بكم كوكبة من الفرسان ؟ وحاولوا استرداد الأمير منكم ؛ ولكنكم قاتلتموهم بشدة وتابعتم الهرب .. فأنا أحدهم . وابتسم الجندي .

فقال ثعلبون ساخرا :آ .. الآن تذكرت ؛ ولكنكم كنتم عشرة بل أكثر من عشرة ، وتركبون جيادا قوية ، وكنا يومها ثلاثة ، فقتل بعضكم وهرب الآخرون مثل القطط السارقة .. نعم ما زلت أذكر ذلك الصباح !!

فصاح الملك غضبا: صه أيها الأحمق .

فصاح ثعلبون وهو يحد النظر في عيني الملك الغاصب وغير مكترث لغضب الملك : ألم يهربوا أيها الملك ؟ نحن كنا ثلاثة فقط ، فخافوا من الموت وهربوا .. أذكر ذلك اليوم جيدا .

فصاح الملك ثانية : اسكت أيها الرسول .. فهذا هو سبب حبسك أيها الصعلوك .. من أي البلاد أنت ؟! أنت لست من بلادنا ولا أظنك من بلاد اللؤلؤ ؟!

فقال ثعلبون : اسمي ثعلبون والدي جندي قتل في عهد الملك شامة ملك بلاد الدب .

فقال الملك : وما الذي أتى بك لبلادنا ؟! وما الذي جمعك بابن أختي المخلوع ؟!

فرد الفارس فقال : نحن رجال ثلاثة كنا عابري سبيل وفي زيارة لبلادكم الآمنة ، فعرض علينا أحد الناس حماية الأمير الصغير وأن نذهب به إلى مدينة اللؤلؤ ، فوافقنا وليس لنا سابق معرفة بابن الملك سعيدان .

فقال الملك ؛ كأنه اكتشف كنزا : ومن هو هذا الرجل الشريف الذي عرض عليكم هذه الخدمة ؟! ومن هما صاحباك ؟

فأجاب ثعلبون على السؤال الثاني فقال : أما صاحبيّ فأحدهم الفارس المغوار الأمير هزبر قاهر الفرسان في ساحة الوغى ، وأما الآخر أيها الملك فهو البطل الكرار والفارس المغوار الذي ليس له مثيل في هذا الزمان البطل الجرار حامي الحمى يوم الوغى ، وأمهر من ركب الحصان وحمل الرمح والسنان وخير من طعن بالسيف والخنجر الأمير جبل بن مجدو الساحر المشهور بين الأنام بابن الخباز بطل بلاد الدب قاهر الملك الضبع حاكم بلاد العقرب .

فجفل الملك والحاشية عندما تفوه ثعلبون باسم جبل ابن الخباز فهو الاسم الذي سارت به الركبان ، فقال الملك بعدما تدارك نفسه وزالت دهشته : جبل بن مجدو .. هذا خصمنا ؟!

فقال ثعلبون : هذا اسمه قد فعل بكم ما فعل ؟! فكيف لو ترون طعناته ؟ واعلموا أيها السادة أنه اقتحم الوادي المرعب برجل واحد معه ، وصرع السبع العادي الذي تهابه الملوك وتدفع له الأموال والهدايا ليكف شره عنهم وعن مدنهم وقوافلهم ؟!

لقد كان السبع العادي ذا أخبار مرعبة ، وشهرته معروفة بين البلدان ، فقال الملك الغاصب : وهل قتل السبع العادي أيها الرجل الطويل اللسان ؟!

قال ثعلبون بفخر ، وهو يحاول قذف الرعب في قلوبهم بأخبار الأمير جبل وشجاعته : نعم منذ شهور صرعه الأمير الشجاع جبل ، وفتك بكثير من أتباعه ، والآن ها هو الأمير مع ألف فارس من رجال مدينتكم الهاربين ، قد أعدهم ودربهم تدريبا قويا للمشاركة في هذه الحملة ونصيحتي إليك أيها الملك ولهؤلاء الكرام الرضا بالصلح ، وأن تتعاون مع ابن أختك .. فالأمير جبل خصمك ، وهذه بعض أخباره ، ولابد أنك سمعت أخباره مع الملك الوحش الضبع .

فقال الملك متضاحكا : أيها الرجل ! لا تظن أنك تقذف الرعب في قلوبنا بالحديث عن مولاك ابن الخباز هذا ، ولكن الحق يقال إنني سمعت شيئا عنه..أما قتله للسبع العادي رجل الجبال والعصابات المخيف فهذا أول مرة أسمع به وأعلم أنه قاتله ..وأن السبع العادي قد قتل !!.. فهذا فارس إذن يحسب له ألف حساب .. فالرسالة التي حملتها لنا أيها الرجل يعرض فيها عليّ الملك أحمد بن خالد صهرنا صهر ملكنا الميت الصلح والتفاهم مع ابن أختي ، وأنا رجل مسالم لا أحب إراقة الدماء ، ولا أفعل ذلك إلا مجبرا مكرها .. واعلم أيها الرسول الناصح أنا لا أحب عداوة سيدك الشجاع جبل ، ولكن لديّ رغبة بالحديث والاجتماع به ؛ لنتفاهم قبل أن أوافق على التفاهم مع ابن أختي الهارب أو القتال حتى آخر نسمة من جندي الأوفياء فهل اعتمد عليك بنقل هذه الرغبة إليه والإتيان به للتفاهم حول بعض الأمور ؟

ودار الحديث بينهم حول ذلك الأمر ، وأظهر الملك الغاصب حبه الشديد للسلم والسلام

والبعد عن الدسائس والفتك والغدر ، ثم انطلق ثعلبون إلى معسكر الأمير سلطان آخر الليل وقد وعده الملك ربيع بإرسال رسالة في الصباح تتضمن هذه المعاني ، وفيها رد على رسالة الملك أحمد ، وأن القرار النهائي سيكون بعد الالتقاء بالبطل الكرار جبل بن مجدو .. ووصل ثعلبون لمعسكر الأمير سلطان ، ونقل إلى خيمة الأمير ، فوجده ما زال ساهرا هو وأمراء الجند والفارسان جبل وهزبر ، فقص عليهم كل ما حدث بالتفصيل ، وبعد سكوت طويل قال الأمير مخاطبا جبلا : ما ترى أيها الفارس بما سمعنا ومما حصل للأمير ثعلبون ؟

قال جبل لما وجه إليه السوأل : هذا رجل غادر !.. فأول غدره أنه غدر بابن أخته وغدر بأنصاره ثم غدر برسول الملك أحمد .. فلا أمان لهذا الرجل الغدار .. وأرى أنها حيلة للقبض عليّ ، والذي أفكر فيه أيها السادة أن يذهب صديقي هزبر منتحلا شخصيتي ، وينتحل أحد فرسانكم المجهولين اسم هزبر ، فهم لا يعرفون جبلا من هزبر ، هم يذكرون وجوها منعتهم من استعادة الملك أسعد فقط .. وإذا رأيتم خطرا عليكم فاكشفوا لهم الحقيقة وأن غدرهم مكشوف .. وغدا عندما يحضر الرسول فلن أحضر هذا اللقاء ، وأنتم تظهرون هزبرا أمامه على أنه جبل .. هذا ما أشير به الآن أيها القوم .

فاستحسن القوم حيلة جبل لمعرفة جدة ربيع نحو الصلح والسلام ، وتعين أحد الفرسان ليقوم بدور هزبر ، ولما جاءت رسالة الملك الغاصب صباحا مبديا فيها التفاوض ورغبته في الصلح بعد لقاء الفارس جبل ، وركب الفرسان الثلاثة جيادهم عند المساء مع الرسول متجهين إلى قصر أبي جملة الذي رحب بهم أشد الترحيب ، وأبدى ترحيبا زائدا بالفارس جبل ولقد كان الاستقبال في قاعة العرش التي استقبل فيها ثعلبون أمس .

ولما انتهت المجاملات قال الملك وفي صوته نبرة تهكم وسخرية : أهلا بالبطل والفارس المغوار جبل بن مجدو الساحر – مشيرا بكلتا يديه إلى هزبر – ثم قال : أأنت قاهر الأبطال والصناديد من الرجال .. والفاتك بالمجرم الخطير السبع العادي ؟!

فهز هزبر رأسه وكتفيه وقال : نعم يا ملك الزمان أنا المدعو جبل بن الخباز مجدو .. جئت بناء

على طلبك ورغبتك بالاجتماع بي ؛ ولننظر في أمر الصلح بينك وبين الملك الصغير أسعد .. أسعد ابن أختك . ونطق هزبر كلامه الأخير بنبرة فيها حدة مظهرا لسامعيه أنه الفارس جبل

فحينئذ قال الملك لأحد الرجال ـ وهو نفس الرجل الذي شهد على ثعلبون يوم أمس ـ : هل هؤلاء هم الفرسان الثلاثة الذين دافعوا عن السجين الهارب منذ شهور ؟

فقال المشار إليه : نعم .. نعم هم هؤلاء الثلاثة يا مولاي ! إنهم هم الذين فتكوا ببعض رجالنا وهربوا بذلك الصبي .

فقال الملك وهو يهبط عن كرسي الحكم : يا جبل .. أنت الآن بين أيدينا ، وها هم جنودي قد أحاطوا بك .

وفي هذه اللحظات كان عدد كبير من الجنود يدخلون القاعة ويحيطون بالفرسان وهم مشهرون رماحهم وسيوفهم في وجوه الفرسان ، فأخذ هزبر يضحك بصوت عال وقال : هذا آخر الغدر أيها الملك ؟!

فصاح أحد رجال الملك : ماذا قلت أيها الرعديد ؟

فسكت هزبر قليلا ثم قال : قلت هذا آخر الغدر أيها الملك .

فكأن الملك فطن لمغزى كلام هزبر فقال : هل كنتم تتوقعون ذلك أيها الحقير ؟! .. سوف ادعك في السجن حتى أنتهي من رجالكم في السهل ، ثم أنصب لكم مشنقة في ميدان المدينة ؛ لتكون أنت وأصحابك عبرة لغيرك من الصعاليك والأقزام

فرد هزبر بهدوء : افعل ما بدا لك أيها الرجل ، ولكن اعلم أننا لا نخشى الموت الذي تتوعدنا به .. وغدرك حسبنا حسابه . فقال الملك الغاصب بدهشة : كيف ؟!

فقال هزبر : عندما جاء ثعلبون وأخبرنا برغبتك بلقاء الفارس الداهية جبل ، قال إنك من أغدرهم ، وإنها حيلة للقبض عليه ، ولما سأله الأمير سلطان كيف عرفت قصده ؟ فقال الأمير جبل ...

فأخذ الملك ربيع يضحك وقال : ماذا قلت يا جبل ؟! أيها الفارس الداهية لن تسخر منا .

فأدرك هزبر معنى كلام الملك فضحك ضحكا عاليا هز القاعة ، وهمس لنفسه أثناءه إنه يظن كلامي أنها حيلة لأوهمه بأنني لست جبلا ، وملأ الضحك قلب الملك بالخوف والقلق ، وأكمل هزبر كلامه : قال جبل للأمير سلطان إنك رجل غادر ، لا أمان لك ؛ لأنك غدرت بابن أختك ونزعته من الملك ورميت به وبأنصار أبيه في أعماق السجون ، ثم غدرت برسول الملك أحمد ، وهذه صفات وأفعال الغادرين .. فأدركنا أنك غادر .

لم يثر الملك غضبا بل قال : وماذا فعلتم لتحذروا غدري أيها المحتال ؟!

فقال هزبر : هذا سرنا أيها السيد .. واعلم أننا إذا لم نرجع لمعسكرنا حتى صباح الغد .. فذلك أمارة على أنك غدرت بنا ، فيتأكد غدرك للأمير سلطان .. وهذا كان على مسمع من أذنيّ رسولك

وأكد الرسول ذلك قائلا : نعم يا مولاي ! سمعت الأمير سلطان يقول لهم موعدنا الفجر ثم نرى

فهز الملك رأسه ، وأشار لقائده بأن يقذف بهم في السجن ، وأن يحضرهم في الصباح ليرى ماذا يفعل قومهم ؟ فجردهم الجنود من سيوفهم وأسلحتهم وساقوهم مكبلين بالقيود للسجن ، ولما أغلقت الأبواب قال ثعلبون : إن جبلا هذا أذكى الناس ؛ وليس أشجعهم فحسب ، لقد كان يحدثني عن السلم والصلاح كأنه هو المظلوم والملك أسعد الظالم .. فهل نفهمه أن جبلا ليس بيننا ؟ فرغم اعترافك الجلي بأنك لست جبلا ما زال يعتقد ويصر على أنك الفارس جبل وأنك تسخر منه بادعائك أن جبلا كشف غدره .

فقال هزبر : فليبق على غبائه .. فهو غبي ، ومن حوله أغبى منه ، لا أدري كيف ملك هذا الرجل هؤلاء الناس ؟!

فقال صاحبهم الثالث : مصالح ومطامع يا سيدي الفارس !

آخر أخبار مدينة الشرق

فلما ملأت أشعة الشمس مدينة الشرق والجبال والسهول حولها ، ولم يرجع الفرسان الثلاثة لمعسكر الأمير سلطان ، قال له جبل :أرأيت يا سيدي غدر هذا الرجل ؟!

فقال سلطان : ننتظر إلى المساء ، ثم نرتب خطة الهجوم .

فرد جبل قائلا : كما تشاء أيها الأمير فلنصبر حتى الليل .

وأما في قصر الأمارة فقد أحضر قائد الحرس السجناء الثلاثة ، وأراد سفك دمهم على سور أمام جيش مدينة اللؤلؤ ، فقال له هزبر : أما الآن فاعلم أيها الملك أنني لست جبلا كما تتوهم فجبل أذكى من أن يقع في فخك ، فأنا الفارس هزبر .. وقد حاولت أمس إيصال ذلك إليك فلم تدرك ذلك واعتقدت أنني أمكر بك .. فلا تعجل بقتلنا حتى تسفر المعركة عن نهايتها ، ونحن اسرى بين يديك .. تستطيع سفك دمنا وقتما تشاء .

فانزعج الملك واشتد غضبه ، وأدرك في هذه اللحظة ذكاء جبل ؛ ولكنه في قرار نفسه ما زال الشك داخله ، ويخشى أن تكون حيلة من جبل للنجاة من الموت والهرب ، وأن الفارس الذي يقف أمامه هو جبل ، فبعد تشاور مع حاشيته أمر بإعادتهم للحبس حتى يتأكد من شخص الرجل الذي يحاوره ، ولقد بلغ الخوف من جبل بنفسه مبلغا عظيما ، فطلب أحد الجواسيس وأرسله إلى المعسكر ليتأكد من وجود جبل فيه .. ولكن هذا الجاسوس وقع في أيدي القوم ، وتم استجوابه واعترف لهم بمهمته ، وبين لهم ما تعرض له الفرسان من الخطر ، فقال جبل للأمير والقادة : لابد من الهجوم فغدا ـ إن شاء الله ـ تبدأ المعركة فاستعدوا للقاء وأعلموا الجنود بذلك .

وسكت الفارس رويدا ثم تكلم قائلا : سوف أدخل المدينة قبلكم على أني رسول ضمن وفد من ثلاثة رجال غيري قد اخترتهم لهذه المهمة الجريئة .. وعندما يدخل الوفد للمدينة تزحفوا نحو باب المدينة الذي أمامكم ، ويكون مائة خيال على أتم استعداد للهجوم ، فعندما تفتح الأبواب أو أحدها يقتحمونه مسرعين وبكل قوة

فقال الأمير : وكيف سيفتح الباب ؟!

فقال جبل : سأكون كما قلت قبل لحظات أحد الوفد الذاهب لمقابلة الملك الغاصب ، ونعرض عليه الصلح والعفو عن الفرسان الثلاثة مقابل العفو عن جاسوسه ، ونحن عائدون سننقض على حرس الأبواب أثناء فتحهم الباب ، فيندفع المائة مسرعين ، ولسوف يكون للمفاجأة دورها وأثرها ، وعندما يسيطر الخيالة المائة على الأبواب يدخل باقي الجند ..

فقال سلطان بانبهار : إنها خطة جريئة ومغامرة كبيرة !!

فقال جبل : لابد منها أيها الأمير .. وإلا طال الحصار .. مائة فارس إذا دخلوا المدينة والأبواب سيدب الرعب في جنود الغاصب ، ولا تنسى أن أكثرهم يخضعون له مكرهين .. وأنصار الملك الصغير والمتعاطفون معه سوف يتحركون وينضمون إلينا .

فقال سلطان : على بركة الله أيها الفارس الذكي .

تهيأ الجيش باكرا للمعركة ، وتقدمهم مائة فارس نحو الباب الكبير ، وانطلق وفد من أربعة فرسان على صهوات جيادهم يحملون راية بيضاء تقدم بها رئيسهم ، وأخذ الرماة على الأسوار حذرهم عندما رأوا الجيش أمام الأبواب ، ففتح حراس الأبواب الباب لدخول الوفد المفاوض ، فلما وصل الوفد إلى قصر الملك أراد الحراس أخذ أسلحتهم ، فرفضوا وقالوا ليكلمنا الملك من الشرفة وأعطوا الرسالة ـ رسالة من الأمير سلطان ـ لأحد الحراس الذي نقلها للملك ، فأطل عليهم ـ على رسل الأمير ـ بعد قراءتها من شرفة القصر وقال صائحا حانقا : ما دمتم جئتم تنشدون الصلح وترغبون به لماذا زحف جيشكم نحو الأبواب ؟!

فرد رئيس الوفد بصوت جهور : فعلنا ذلك أيها الملك إشارة وإمارة للحرب والمعركة الحاسمة فتبسم الملك وقال : لا أدري ما شأن جنود الملك أحمد بهذه المدينة ؟! .. إنها بلادنا والناس لا ترغب في حكم أسرة صهري أبي أسعد .. فلماذا تقتلون أنفسكم من أجل غيركم ؟!

فقال رئيس الوفد : والأسرى الثلاثة ألا ترغب بمبادلتهم بجاسوسكم الأسير ؟

فصاح الملك : قل لمولاك أن ينصرف عن ديارنا ، ولا شأن له بمشاكلنا ؛ فإذا انصرف عائدا

لدياره قد أعفو عنهم ، وإلا فلتبقوا مائة سنة أمام أبواب مدينتا .

فقال رئيس الوفد : حسنا أيها الملك هذا آخر كلام لدى مولانا الملك .

فقال وهو يدير نفسه لداخل الحجرة : نعم ، قولوا ذلك لمولاكم .

وقفل الوفد عائدين تحوطهم ثلة من الفرسان ؛ليخرجوهم من الأبواب ، وعندما وصل الوفد لباب المدينة قام حملة المفاتيح بفتح الباب ليخرج الفرسان الأربعة ، ولما فتح الباب بدأ الهجوم على الحراس وحملة المفاتيح ، كانت معركة سريعة ومفاجئة ومفاجأة مذهلة ، واندفع المائة فارس من الأبواب مسرعين كما رتب لهم ، ولم تمض دقائق حتى تمت السيطرة على الأبواب ، وقاوم الرماة ولكن كانت مقاومتهم ضعيفة مع المفاجأة ، ودخلت جيوش الأمير بهمة عالية ، فأخذت جنود المدينة تهرب من أمامهم وأكثرهم استسلم ، واستمر الزحف حتى قصر الأمارة ، وتمت محاصرته من الناس والجنود ، وهم يهتفون بحياة الملك أسعد .

وخلال ساعات أعلن قادة الجند استسلامهم لجبل وولائهم للملك أسعد ، وتم اعتقال قادتهم وانطلق جبل مسرعا إلى السجن ، فأخرج الفرسان الثلاثة والأسرى والتاجر رمضان واندفعوا نحو قصر الأمارة الذي استسلم حراسه خوفا من البطش والتنكيل بهم وخوفا من الموت الذي توعدهم به جبل ، فاقتحم جبل والفرسان الحجرات يبحثون عن الملك الغاصب ووزيره وقائد حرسه ، فوجدوا الملك مختبئا عند النساء ، وهو يرتجف من الخوف ، فانتشله جبل من بين النساء كالحمل الوديع ، وكان يبكي ويقول : العفو .. العفو .. العفو أيها الكرام فأخذه جبل إلى خارج القصر وهو يحمله كالعصفور ، ثم طرحه على الأرض وهو يقول للناس المتجمهرين : هذا هو الملك الغاصب الغادر أيها الناس !!

فقال هزبر للملك الذليل : هذا هو جبل أيها الملك الأحمق الغبي !.

فنظر الملك المهزوم إلى جبل الرجل الذي حمله من بين نسائه كما يحمل الكبش أو الحمل الصغير وقال الملك باستغراب ورعب : أأنت جبل ؟! لقد كنت مع الوفد الأخير ؟

فأجاب الفارس باسما : نعم ، أنا جبل بن مجدو الساحر .. يا غادر يا غاصب ..

وأمر جبل رجاله بحبسه في خيمة حتى ينظر في أمره ، وفي مساء ذلك اليوم دخل الأمير سلطان وحاشيته وحرسه المدينة وهو مسرور للنصر الذي تحقق بدون اراقة دماء تذكر ، لم يقتل الا عدد قليل من الطرفين ومئات من الجراحات ، وأعطى الأمير أهلها الأمان والسلام ، وأرسلت البشائر إلى مدينة اللؤلؤ وتدعو الملك أسعد بالعودة لبلاده ، وجاء الملك أسعد بن سعيدان إلى مدينته من جديد المدينة التي ورث ملكها عن أبيه ، ورافق الملك ولي عهد مدينة اللؤلؤ الأمير خالد وزوجته الأميرة رشاء ، وخرج أنصار الملك وأصدقاء والده لاستقباله والترحيب به عند مدخل المدينة ، وفرح الناس بعودة الملك الشرعي للمدينة ، ولما استقر على كرسي الحكم وعرش الآباء والأجداد فقد جعل من الفرسان الذين دربهم الفرسان الثلاثة في المنفى حرسه وقادة جيشه وشرطته ، وأزاح وأبعد كل قادة الجند الذين تعاونوا مع خاله ، وقدم أبو جملة للمحاكمة التي قضت بموته لخيانته وإفساده هدوء البلاد ، ولكن الأمير جبلا بعد تشاور مع الأمراء والأمير سلطان قائد الحملة تدخلوا وخففوا الحكم بالسجن حتى الموت لقرابة ربيع من الملك أسعد وللرحم التي بينهم ، ولما استقرت الأحوال انسحب الأمير سلطان بجيشه إلى بلاده ، ومنح الملك أسعد الفرسان مناصب رفيعة في مملكته ، ولكنهم اعتذروا عن قبولها ورضوا بحمل لقب فارس المدينة ، وأصبح لكل واحد منهم حق البقاء الدائم في البلاد كأيّ مواطن أصيل ، ولهم الحرية بترك البلاد وأخذ أموالهم وأملاكهم معهم ، ووهبهم الملك قصرا من القصور التي ورثها عن أبيه بما فيه من الخدم والجواري ، وأحبهم محبي الملك كالتاجر رمضان الذين أصبحوا موضع فخر دائم في حديثه ، وقد حاول إغرائهم بالزواج من ثلاث فتيات من أهل المدينة للاستقرار فيها والارتباط بها ، فاعتذروا عن الزواج ، وبينما هم في سعادة النصر ورفع الظلم عن الملك أسعد جاءتهم الأخبار من بلاد الدب ، أن الملك الضبع يحاصرها ، ويطلب من الملك سليل تسليمه الفارس جبلا للصلح بين المدينتين ، فأعلمه الملك أن جبلا قد غادر البلاد منذ زمن ، وبالطبع لم يصدق الضبع ذلك ، وما زال محاصرا لها ، فلما سمع الفرسان أخبار موطنهم من غلامهم ، قال جبل : أيها السادة .. ما رأيكم أن ندخل مدينة العقرب الأحمر ، ونتعرف

عليها وعلى ذلك الملك الأحمق ؟ فقد ثبتنا حكم صديقنا أسعد ، ولم تعد بنا حاجة للبقاء هنا .

أصابت الدهشة الفارسين ، وقال هزبر : وكيف نتعرف عليه وهو يبحث عنك ؟! وأنا كما تعلمون أعرف تلك المدينة جيدا .

فقال جبل : أنت عشت فيها يا سيدي لمتابعة تحركات جيش الضبع ، أما أنا فأفكر بطريقة لتدميرها .

أبدى الفارسان ذهولهما لأحلام الفارس فرد جبل على ذهولهما قائلا : سوف نخلع ملابس الفرسان ونلبس ملابس التجار ، ومع قوافل التجارة ندخلها ونستقر فيها ، فندرس أحوالها وأخبارها ونعرف أماكن الضعف فيها ، ولعلنا ننفع قومنا أكثر ونحن هناك .. وهذا الضبع ملك عنيد فها هو يبحث عن رأسي !



مدينة العقرب الأحمر

ولما اطمئن الفرسان الثلاثة على أن الملك أسعد سيطر على البلاد سيطرة تامة أخبروه بحاجتهم للرحيل والسياحة في الأرض ، وأوصاه الأمير جبل على غلمانهم ، وفي ليلة ظلماء خلعوا ملابس الفرسان وارتدوا ثياب التجار ، وعلى حين غفلة من أهلها غادروا المدينة إلى مدينة أخرى ، وهناك اشتروا بغالا ودوابا وشدوا عليها بضائع من الحبوب والأقمشة ، ومع إحدى القوافل المتنقلة بين المدن شرقا وغربا تنقلوا معهم حتى وصلوا



بلاد العقرب عاصمة ملك الضبع ، وفي أحد الخانات الكبيرة والخاصة بالتجار حطوا رحالهم وأموالهم ، وهزبر كما تعلمون سكن في هذه المدينة عندما كان عينا لجبل أثناء حروبه للضبع وعرفها بشكل جيد ، فرأى جبل وثعلبون أنها مدينة عظيمة كبيرة جدا ، يقسمها نهر عظيم يأتي من جهة الشمال ، ويصب ماؤه في البحر الكبير الذي يشكل جنوبا للمدينة ، ورأوا أسوارا عالية ومحاطة بأعداد كثيرة من الأبراج الحصينة ، وشاطئ البحر عليه عدد آخر من الأبراج الدفاعية ونقاط للحماية ، وبعد تأمل دقيق للمدينة أدرك جبل أن أضعف نقطة لدخول المدينة حربيا من جهة البحر ، فأسوارها حصينة ومنيعة ، فجيش قوي مدرب قد يستطيع دخولها من جهة البحر ويدمرها ، وأما قصر الضبع فهو داخل قلعة ضخمة على قمة جبل كبير ، وبروج صغيرة تحيط بأسوار القلعة تظهر لك أن الضبع كأنه سجين في بلاده ، والأسوار منتشر عليها الجند كأنهم في حرب .

وتعرف الفرسان الثلاثة على جبالها ووديانها وميادينها وأسواقها ومراكبها ، وخلال المدة التي أمضوها يبيعون وضحت الخطة المناسبة في أذهانهم ، فأولها البقاء في المدينة ، وفتح متجر فيها لبيع الحبوب يتولاه هزبر لخبرته القديمة في المدينة ، واتفقوا مع صاحب القافلة التي أتوا معها وبصحبتها أن يمدهم بالحبوب التي يجمعها من المدن التي يمر بها ويرسلها إليهم مع غلمانه ،

ولما اتفقوا مع التاجر استأجروا متجرا ، وأصبح الفارس هزبر هو التاجر أمام تجار السوق ، وتسمى بالتاجر معروف الباهر ، واشتروا غلامين للعمل في الحانوت ، وهكذا بدأ تاجر القافلة يمدهم بالحبوب ، وهم يبيعونها على قسمة بينهم ، وكان جبل وثعلبون يتنقلون في المدينة بحرية وراحة تامتين ، ودرسوا المدينة دراسة واعية تنفعهم في اللحظة المناسبة لتدمير المدينة ، وعلموا من معاشرتهم للناس أن أكبر أعداء البلاد هو ملك بلاد التين الملك جبرون ، وقد دارت بين الطرفين معارك طاحنة منذ سنوات طويلة ، وهي متكررة حتى اليوم ، ولقد تصالحوا مرات عديدة ، وكان الصلح ينقض ولا يدوم ، فكانوا يرون الصلح بينهم هدنة للاستعداد لمعركة جديدة ، وأكثر مدة صمد الصلح بينهم دام ثلاث سنوات ، وبينما هم يلتقطون أخبار المدينة ويدرسون نقاط الضعف فيها جاءتهم الأخبار بعودة الوزير شمروك مرة أخرى بحملة فاشلة قادها على بلاد الدب ، ففرح الفرسان لفشله ، وأن جهدهم لم يذهب عبثا في تقوية وتحصين مدينتهم .. ثم علموا أن الضبع يخطط لحملة تأديبية لبلاد التين لاعتراضهم قافلة تخص مملكته أثناء وجود الوزير غازيا لبلاد الدب ، فأرسل الضبع الرسائل لولاة الأقاليم الخاضعة لحكمه بأن ترسل كل ولاية ألف فارس للمشاركة في الحملة التأديبية ولما تجهزت الحملة وتوافدت عساكر المدن ، واجتمعت أمام أسوار المدينة في معسكر كبير ، اتفق جبل مع رفيقيه بمصاحبة الجيش متطوعا ضمن المتطوعين من عامة الناس لخدمة الجنود في قتالهم وحصارهم لبلاد التين ويقوم المتطوعون عادة بصيانة السيوف والرماح والأقواس والمنجنيقات وأدوات الحرب الأخرى ومساعدة الجرحى ودفن القتلى وخدمة الحملة عامة ، فأحب الفارس الاطلاع على أحوال وقدرات جيش الضبع خلال القتال من العمل ضمن المتطوعين .

ولما تهيأت العساكر خارج أسوار مدينة العقرب واكتملت ، جعل الملك الضبع قائدا عليها زوج ابنته الأمير الشرس والمشهور بالقسوة الفارس عادي الليل ، وانطلقت الحملة نحو الشمال الغربي حيث تقع بلاد التين .

وبعد أيام التقت الحملة القوية بعساكر الملك جبرون في منطقة سهلية بين المدينتين العظيمتين

وتصادمت عساكر الفريقين عدة أيام وسقط منهم مئات الضحايا ، ولم يحسم أحدهم النصر على الآخر ، وبدأت تجري بينهم مفاوضات للهدنة والمسالمة ، وأثناء تبادل المراسلات كانت تحدث بينهم مناوشات ومشاجرات ورمي بالنشاب والمدافع الصغيرة إلى أن كان ذات ليلة رجعت سرية من سرايا الحراسة حول معسكر بلاد التين بأسير كبير من فرسان الضبع ، ولما تبينه الملك جبرون قائد جيش التين بنفسه ؛ فإذا هو قائد حملة الضبع وأميرها الفارس عادي الليل صهر الملك الضبع ، فعجب الملك والأمراء والقادة من وقوع هذا الفارس وثلاثة آخرين معه ، فعلم من قائد السرية التي أسرتهم أنهم وجدوهم في البرية يصطادون الأرانب والثعالب فصنعوا لهم كمينا وصادوهم صيد الأرانب بعد أن ساقتهم الأرانب التي يطاردونها إلى منطقة سيطرة هذه السرية ، فأنبه الملك وحقره ، وأمر بنقله سريعا لمدينة التين في نفس الليلة مخفورا ، وأمر الملك جبرون قادته بالاستعداد لمعركة هائلة صباح الغد ، وقضى جيش القائد عادي الليل الليل يبحث عن القائد والفرسان الثلاثة الذين معه ، ولما أصبح الصباح داهمتهم جنود التين ، فجرت معركة كبيرة دارت فيها الدائرة على عساكر الضبع التي تعرضت لخسارة قاسية ، ففر الجنود والقادة بعدما وقع عدد كبير منهم بين قتيل وجريح ، واستسلمت أعداد أخرى ، فدبت الفوضى في معسكرهم ، وأخذ فرسان الملك جبرون بمطاردة الفارين ، ومن نجا وصل لبلاد العقرب وهو في حالة من الذل والهوان لا توصف ، ولما ابتعد الهاربون أحاط فرسان الملك جبرون بمعسكر العامة وساقوهم آسارى ، فكان ضمن من استسلم الفارس جبل فقد سلم نفسه ، ولم يحاول الفرار ككثير من الناس ؛ لأن العامة عادة تكون في مؤخرة الجيش أو آخر ميدان المعركة ، فسيق مع الأسرى إلى بلاد التين ، وهناك وضعوهم في ساحة واسعة حتى يتقاسمهم الأمراء والفرسان الكبار ، كان من العرف الجاري في بلاد التين أن قادة الجيش والفرسان الكبار الذين يملكون أراضي زراعية وإقطاعيات ملكية ، أنهم يمرون على الأسرى من العامة والخدم ، فيأخذ القائد أو الفارس عددا منهم للعمل عنده في قصوره وأملاكه ، أو يدفعون له فدية مقابل حريتهم ، فتقدم أحد القادة الكبار للساحة التي حبس فيها العامة ليختار

ما يناسبه منهم للعمل عنده ، وهذا القائد الذي تقدم أولا هو القائد المشهور في بلاط الملك جبرون الأمير سالم بن قنبرة ، وهو قائد محنك وكبير في السن ، وقد خدم بداية في جند والد الملك جبرون ، وما زال له احترام كبير لدى الملك جبرون ، ونزل القائد عن جواده فأمسك به أحد خدمه وتقدم من الأسرى وخلفه بعض رجاله وقيم قصره ، وكان قبل أن يترك الجواد قد دار دورة حول الأسرى ينظر إليهم ، فلما نزل عن الجواد أخذ يشير إلى الأسرى ، فكلما أشار لشخص سحبه قيم الأمير فأخذه رجاله ، فاختار خمسين شخصا كان بينهم الأمير جبل وشابان آخران يهمنا أمرهم في هذه الحكاية ، الأول اسمه ضيغم شاب جميل الهيئة في العشرين من عمره والثاني اسمه جدار ، فلما انتهى الاختيار تقدم قائد آخر للأختيار وهكذا ، وأخذ قيم القائد سالم الأسرى الخمسين إلى قصر الأمير بحراسة رجال القائد ، وهناك أكرمهم القيم خضرون بالاغتسال بالماء الدافئ ووهبهم الملابس الجميلة ، وقدم لهم الطعام اللذيذ والشراب البارد ، وأنزلهم في مكان واسع حتى يراهم السيد سالم بن قنبرة في الليل بعد رجوعه من مجلس الملك .

وفي الليل بعد أن عاد القائد سالم من مجلس الملك جبرون ، وتناول طعامه مع زوجته وأسرته كالمعتاد ، انتقل إلى جناح آخر في القصر ليقابل الأسرى الذين أعدهم قيم القصر خضرون وهيأهم لمقابلة القائد ، وفي قاعة واسعة التقى بهم الأمير ، فجلس على كرسي معدا له ، وطفق يدقق النظر في سيمائهم ، ويسأل بعضهم عن أسمائهم وأعمالهم في بلادهم ، ثم قال : أيها الشباب أنتم أصدقاء لي .. فمن منكم يرغب بشراء حريته فليذكر اسمه للقيم حتى يدبر قيمنا أمره ، ويطلب الفدية من أهله ليرسلوها لنا مقابل حريته .. ومن أحب البقاء في بلادنا للعمل في أملاكنا فليذكر اسمه والعمل الذي يتقنه ؛ فإن كان له زوجة وولد سنسعى بإحضارهم إن شاء وهؤلاء أحرار ؛ ولكنهم خدم لنا في أملاكنا وقصورنا ، ولا أريد استرقاق أحد منكم .

وأخذ خضرون القيم ويساعده الكاتب بكتب أسماء الذين يرغبون بدفع الفدية ثم يصرفهم حتى يتم ترتيب طريقة لأخذ الفدية منهم وإطلاق سراحهم ، فخرج عشرون رجلا منهم ، ثم تقدم الباقون الراغبون بالحياة في أملاك القائد ، فدون القيم أسماءهم والأعمال التي كانوا

يمارسونها في بلادهم ، ثم قال أحد الأسرى للقائد سالم : يا سيدي القائد أنا أرغب في العيش والحياة في ظلكم ؛ ولكن لي زوجة وأم في بلاد العقرب أحب إحضارهم ، وإنني أعاهدك أمام يالله وأمام هؤلاء القوم إنني سأعود بهم لنعيش في كنفك أيها الأمير .

وقال آخرون مثله فدون الكاتب إشارة بجانب أسمائهم ، فوعدهم القائد بتدبير أمرهم ثم صرفهم ، وظل ثلاثة رجال ، فقال لهم القائد سالم : وأنتم لا أهل لكم هناك ولا أموال ؟!

وأشار إلى أحدهم وهو المدعو جدار فقال الشاب : اسمي جدار .. لي يا سيدي أم وأب واخوة وهم ليسوا بحاجة لرعايتي ، ولسوف أخبرهم ببقائي حيا مع أحد العائدين ، وأما أنا فلدي الرغبة في المكث هنا والحياة في حماكم ، لقد كرهت بلاد العقرب وضقت بها ذرعا .

فقال القائد سالم : مرحبا بك ، واعلم يا جدار أنك حر ، وإذا لم يطب لك العيش في كنفنا بعد أن تعاشرنا فعد لأهلك سالما .. وأنت أيها الشاب القوي البنية أليس لك أهل ؟ وأشار لجبل .

فرد الفارس وهو يبتسم : أنا يا سيدي لي أسماء كثيرة ، وأعمل عند التاجر معروف الباهر تاجر حبوب في مدينة العقرب ، وأمرني السيد معروف بمرافقة الحملة للخدمة كغيري من الضعفاء ويناديني السيد معروف باسم صخرة .. ولا أهل لي في مدينة العقرب الأحمر .

فقال القائد وهو يتأمل جبلا : لقد ارتاحت نفسي إليك يا صخرة .. أم تريد العودة لسيدك ؟

فابتسم جبل وقال : هنا أو هناك سيان عندي يا سيدي القائد .. فقد تركت بعض الأشياء عنده فإن احتجتها أحضرتها ، فقد سكنت وارتاحت النفس إليك أيها القائد .

فقال سالم مشجعا لجبل : أحسنت يا صخرة ، وإن كان يبدو لي في عينيك كلام .. ويبدو لنا على محياك الشجاعة والجرأة وحسن الجواب وسنكرم نزلك ..خضرون ليعمل هذا الشاب هو وجدار في حظائر الخيول .. وأنت ـ وأشار لضيغم ـ قلت لي ونحن في الساحة إنك غلام لسيد من بلاد الشرق قتل في المعركة ، وكانت مهمته تزويد الجيش بالسيوف وعصي الرماح والأقواس .

فقال ضيغم : اسمي ضيغم يا سيدي الأمير ! وأنا غلام للسيد داود .. وهذا ما ذكرته لك صباحا

فسيدي يدعى داود ، ونحن من مدينة الشرق ، وهو تاجر في بيع السيوف والرماح وغيرها من آلات الحرب يشتريها من المدن ويبيعها في مدن أخرى .

فقال سالم : أنت غلام جميل وصغير يا ضيغم وزوجتنا فقدت أحد الغلمان وتصلح أنت للعمل داخل القصور ؛ ولكن بما أنك من بلاد الشرق ، قل هل هو حق ما قيل عن رجوع ابن الملك سعيدان لعرش بلاده بعدما طرده خاله عنه ؟

فهز الفتى رأسه بالإيجاب وقال : هذا حق يا سيدي .. لقد اغتصب خال الملك ملك ابن أخته الصغير بعد وفاة والده بل طرحه في السجن ؛ ولكنه نجا بمساعدة أنصار أبيه ، ولجأ إلى الملك أحمد بن خالد صاحب بلاد اللؤلؤ ـ فأخت الملك الصغير حليلة لولي عهد تلك المدينة الأمير خالد ـ فجهز ذلك الملك جيشا لجبا قويا ، وانتصر به على الملك الغاصب ، ورد الحكم لصاحبه الملك أسعد .. وقد جرت معركة في داخل المدينة ولكني وسيدي داود يومذاك لم نكن في المدينة فلما عدنا وجدنا الأمور قد عادت لحالها ونصابها منذ سنة مضت .

فقال سالم : أحسنت يا ضيغم ! هل ترغب في البقاء عندنا ؟

فقال ضيغم : أنا أسيرك يا سيدي .

فقال سالم : لقد عفونا عنك وأعطيناك حريتك .

فقال ضيغم : أنا عبدك وغلامك المخلص يا سيدي ! فمنذ وعيت على نفسي وأنا عبد رقيق فلا حرمني الله من إحسانك .

فقال سالم : أنت حر يا ضيغم .. خضرون .

فرد خضرون : نعم يا سيدي .

فقال سالم : يصلح هذا الغلام للعمل داخل القصر مع الغلمان والخدم ، فأكرم مثواه وعلمه على خدمة القصر .. وأما صخرة وجدار فألحقهما في حظائر الخيل .. أيها الشباب نحن نحسن لمن أخلص لنا ونعفو عمن أساء لنا بحسن قصد .

وغادر القائد المكان إلى حجرات النساء ، وأخذهم خضرون لغرفة أخرى وقال : باتوا الليلة

هنا وفي الصباح نراكم .

وفي تلك الغرفة قال جبل لضيغم : هل أنت من مدينة الشرق ؟

فرد ضيغم باسما : نعم يا أخي .

فقال جبل صخرة : إنني أعرف هذه البلاد وعشت فيها فترة .. وأعرف التاجر رمضان المشهور هناك .

فقال ضيغم : صدقت ، فهو معروف ومن أشهر تجار السوق ، وأنا أعرفه ؛ ولكن علاقة سيدي داود به ضعيفة ، فنوع عمله يختلف عن نوع عملنا ، فنحن نتنقل بين البلاد نبحث عن صناع السلاح ، ونشتري منهم ثم نبيعه في أماكن أخرى ، فحياتنا في ترحال دائم ، وكانت علاقة سيدي داود قوية من رجال الحكم والحرب في مدينة العقرب الأحمر ، وكان تجار تلك البلدة يدفعون لنا أسعار مغرية ، فلذلك كنا نرافقهم في بعض حملاتهم ونمدهم بالرماح والسهام الجديدة ، ونشتري منهم ما يكسبونه من مغانم الحرب والأسرى ، وخرجنا هـذه المـرة معهم ، فلما أسر عادي الليل لم يدر أحد بأسره ، وجرت المواجهة فأصيب سيدي بسهم في عنقه فمات ووقعت أنا في الأسر كما ترى ، فهذه قصتي أيها الصديق ، فعلاقتي ببلاد الشرق أنني وجدت نفسي فيها وكبرت فيها وترعرعت فيها ، وأنا لا أدري مكان مولدي الأول .. وأنت حدثنا عن نفسك ؟

فقال جبل باسما : كان مولدي أيها الأصدقاء في مدينة يقال لها الدب ، فيوما أعمل عند القائد فلان ويوما آخر عند التاجر فلان ، فعرفت الدنيا ، فقد عرفت مدينة الشرق ولي أصدقاء طيبون فيها ، وكذلك بلاد اللؤلؤ ..وفي النهاية دخلت مدينة العقرب عاصمة ملك الضبع .. وكنت قبل أسري أعمل عند تاجر الحـبوب معروف الباهر ، ولما خرجت هذا الحملة خرجت معها فهذا يا صديقاي ملخص سيرة حياتي .. فاعتبرني يا ضيغم صديقا لك وأخا لك .

فشكره ضيغم على عطفه وصداقته ، وحدثهم جدار فقال : أما أنا أيها الرفاق ! فقد ولدت في مدينة العقرب وترعرعت فيها ، وقد وعيت وأنا أرى بلادنا في حروب مستمرة ، وخرجت في

هذه الحرب خادما لأحد الفرسان فقتل ووقعت أسيرا ، وكانت مهمتي معه مساعدته في حمل آلات الحرب التي تخصه ومراعاة حصانه .. ولقد تخلصت منه لعلي أجد الراحة والسعادة عند هذا السيد الجديد .

فقال جبل : اعتبرني صديقا وأخا لك يا جدار .

فقال ضيغم : وأنا صديق لكم .

وتعاهد الأسرى الشبان الثلاثة على الصداقة والاخوة في ظل هذا السيد الجديد ، وفي الصباح ألحق ضيغم للخدمة داخل القصر ، فأخذه رئيس الخدم ليعلمه كيف يدخل على الأمير والأميرة وبنات ونساء القصر والأعمال التي سيقوم بها ، وقاد خضرون جبلا وجدارا إلى حظائر الخيول الخاصة بالقائد سالم ، ووزع باقي الأسرى الذين يرغبون بالبقاء على البساتين والحدائق المختلفة للأمير .

ونقل جبل رسالة مع أحد العائدين لجلب الفدية إلى التاجر معروف الباهر يطمئنهم فيها على حياته ، ويحثهم على عدم القلق على شخصه ، وكان جبل يمضي أيامه مع الخيل يطعمها وينظفها ويمرنها ، وفي الليل يزور هو وجدار صديقهم ضيغما في غرفة منامه عند القصر ، ويعودان للنوم بالقرب من حظائر الخيل في الموضع المخصص لنومهم ، وأحيانا يزورهما ضيغم ، وكان جدار يكثر الحديث عن الضبع وقصص ظلمه للعباد وطغيانه وحبه لسفك الدماء وقتل الجنود والفرسان أثناء غضبه ، ويتحدث عن عطشه الشديد للحروب ، وتعمقت الصداقة بين الشبان الثلاثة في ظل القائد سالم بن قنبرة ، وعلم جبل من ضيغم أن الملك الضبع وافق على صلح جديد بين البلدين ، ودفع أموال كثيرة لفداء الأسرى من الجند والفرسان ، وفدى نسيبه زوج ابنته عادى الليل بمبلغ ضخم من المال ، وعلم ضيغم من مجالس سيده أن الحرب بينهم لا تنتهي فهم يتحاربون منذ عشرات السنين ، ولا يثق طرف بالآخر ، يستريحون ثم يستعدون لجولة أخرى من الحرب ، فالعداء مستفحل بينهم .

جبل يظهر في بلاد التين

ومضت الأيام رتيبة هادئة إلى أن كان ذات ليلة عنـدما قام خادم القصر ضيغم بزيارة لصديقيه صخـرة (جبل) وجدار بمنزلهما القريب من حظائر الخيول ، وبـعدما أكل الثلاثة ما أتاهم به ضيغم من طعام القصر دار الحديث بينهم ؛ وفجأة قال ضيغم : هل تعلمون أيها الأصدقاء أنه قد حدث اليوم حدث جلل في هذا البلد ؟!

فانتبه إليه الرجلان وقال صخرة : ها .. ماذا جرى يا صديقنا ؟!

فقال ضيغم بحزن خفيف : سمعت سيدي سالما يحدث خضرون القيم بأن مصيبة حلت على البلاد ، فقد تعرض أحد أبناء الملك للأسر .

فقال جدار بدهشة كبيرة : الأسر ! .. هل أسره رجال الملك الضبع ؟!

فقال ضيغم : لا .. لا .. القصة كما سمعتها .. أن الملك جبرون قد خطب فتاة لأحد لأبنائه منذ سنة – قبل مجيئنا لهذه البلاد – ابنة الملك العادل ، وهذه البلاد قريبة يا صخرة من بلاد الملك أحمد التي تعرفها كما قلت لي سابقا !

فهز جبل رأسه قائلا : نعم أعرفها ، بلاد اللؤلؤ ، وقد عشت فيها.. أكمل أيها الصديق !

فعاد ضيغم للحديث قائلا : المهم أن هناك بلدا يحكمها ملك يقال له العادل ، وبينه وبين الملك جبرون صداقة وعلاقات وطيدة وطيبة مما دفع الملك جبرون أن يخطب ابنة الملك لابنه سالك وقبل شهر من هذا اليوم سافر الأمير وأصدقاؤه وعدد يسير من الفرسان لإحضار الأميرة العروس ؛ ليتم زفافهما هنا ، وفي أثناء عودتهم مروا من واد يقال له الوادي المرعب أو جبل الرعب تسكن فيه عصابات مرعبة .. أسمعتم به ؟

فرد جدار : ومن لم يسمع به ؟!!.. إنه واد الموت ..ولكننا سمعنا أيضا أن سيد هذا الوادي قد قتل .. وقد تزعم هؤلاء الأشرار رجل يقال له الأعرج مشهور بين الناس بلهب الليل .

وقال جبل أيضا : نعم يا ضيغم إنني أعرف هذا الجبل .. بل أعرف السبع العادي ، وأعرف الرجل الذي قتله وخلص الناس من شره .

فقطع جدار الحديث قائلا : إنك يا صخرة رجل خطير !!.. تعرف الكثير من البلدان ..وما قلته الآن حكاية وأيّ حكاية ؟! كيف تعرف رجال ذاك المكان المرعب ؟!

فابتسم جبل لملاحظة جدار الذكية وقال : سيأتي يوم وأقولها لكم ..آ .. ماذا حدث للأمير سالك ؟

فعاد ضيغم يقول : وهل تعرف السبع العادي حقيقة يا صخرة ؟!

فقال جبل : نعم ، والتقيت به مرة واحدة في ذلك الوادي ؟

فقال جدار مستغربا : ويحك يا صخرة !!.. التقيت بالسبع العادي نفسه وكيف ذلك ؟! .. من يدخل هذا الوادي إما أن يموت ، وإما أن يصبح عبدا ذليلا لرجال الجبل .

فرد جبل بهدوء ومن غير انفعال : حق ما تقول يا جدار ؛ ولكنني نجوت منهم بفضل من الله وحده .. اكمل يا ضيغم .

فقال ضيغم متابعا القصة : المهم أيها الأصدقاء أن هذه العصابة المرعبة تعرضت للأمير وعروسه وما يحملون من الأموال والهدايا والثياب ، ودافع حراس الأمير عنهم فقتل بعضهم وفر آخرون فوصلوا وأخبروا الملك بما جرى ، وها هو يعد حملة لغزو الجبل وإنقاذ الأميرين .

وخيم السكون على المكان عندما سكت ضيغم ، وقطعه جبل قائلا بجد لضيغم : صديقي .. قل لسيدك سالم بن قنبرة أن لي معرفة برجال ذلك الوادي أو جبل الخوف ، وأنني أستطيع تقديم خدمة لهم تسر القلوب .

استغرب الصديقان لكلام صخرة ولهجته الواثقة والقوية بما يقول ، فقال : لا تستغربا .. لقد عركت الدنيا والملوك والأمراء والتجار .. فأكون لك شاكرا يا ضيغم لو نقلت رغبتي لسيدنا القائد .. وعجل بنقل هذه الرغبة قبل فوان الأوان يا صديقي .

فقال جدار : والله يا صخرة إن وراءك شأن كبير ، وإنك لفارس عظيم وما أنت بسائس خيل! لكن لماذا أنت متنكر ؟! هذا مالا أفهمه ولا أعرفه ، ولا أظنك من بلاد العقرب .. فعندما تعتلي ظهر الجواد أو أراك تمرنها ؛ فكأنك فارس عاش وتربى بين الخيول .

فقال جبل باسما : لا تشغل قلبك بي كثيرا يا جدار ! سوف تعرف كل شيء في حينه .. الآن علينا إنقاذ ابن الملك يا ضيغم ..اذهب الآن لسيدك ابن قنبرة وقل له رسالتي قبل فوات الأوان وغادرهم ضيغم مسرعا لسيده سالم وعرض عليه رغبة جبل بإنقاذ الأميرين ، وبعد حين يسير كان صخرة بين يدي القائد سالم الذي قال : صخرة ! لقد ذكر لي غلامنا النشيط كلاما مثيرا عنك .. فهل أنت حقا تعرف رجال الجبل ؟!

فقال جبل والابتسامة ترتسم على محياه : أيها القائد .. لقد دارت بيني وبينهم معركة ذات أيام خوالي ونصرني الله عليهم ..فلما سمعت هذا الخبر المزعج لمولانا القائد ولمولانا الملك ولنا ، أدركت الخطر المحدق بابن الملك ، فلم يطب لي الصمت وأنا أستطيع أن أنقذ إنسانا .

فأخذ القائد يدقق النظر في الشاب الذي يقف بين يديه ثم قال : لقد ذكر لي قيم قصرنا خضرون أنك ماهر في ركوب الخيل ومداعبتها .. مع أنك ادعيت أنك تعمل عند تاجر !

فقال جبل : لا يخلو ـ يا مولاي ـ المرء من حب الخيل واعتلاء صهواتها وإن كان يعمل عند تاجر .. والتاجر الذي أعمل معه في مدينة العقرب تاجر حبوب معروف واسمه معروف الباهر ولقد زارني غلام له من أيام قليلة يحثني على العودة للبلاد ، وإنهم مستعدون لدفع الفدية لفك أسري ، فأخبرته أنني حر وأرغب بالبقاء هنا .

فقال سالم بحيرة : لا أدري يا صخرة ! كلما أنظر في عينيك أشك بأنك مجرد عامل أو غلام حانوت أخشى أن تكون قائدا كبيرا يا صخرة .. ونكبت بك الأيام .. ولكن أقول لنفسي .. إن الضبع قد فدى كل الأسرى من الجند والقادة فلو كنت قائدا من قادته لافتداك .

فقال جبل متبسما : أيها الأمير .. لقد خدمت عند بعض الأمراء ، ولم تكن أول شخص أخدمه فإن كنت ترى يا سيدي أنني شخص غير مرغوب فيه أرحل سريعا .

فقال سالم باستسلام : لا عليك أيها الشاب المجهول ..نعود لموضوعنا ما مدى معرفتك برجال الجبل ؟

فقال جبل : يا سيدي القائد .. كنت أحيا فترة في مدينة اللؤلؤ ، وهناك تعرفت على فتاة وقد

خطفها رجال الجبل فسعيت لإنقاذها منهم ، فجرت بيني وبينهم معركة ، وانتصرت عليهم وحررت الفتاة من أسرهم بفضل الله ، وعادت لأهلها آمنة مطمئنة .. قد تشك في قولي أيها القائد ؛ ولكني سأكتب لهم رسالة ولسوف يأتيك الأمير وعروسه سالمين بمشيئة الرحمن .

فقال سالم : إنك تدهشني بما تقول لم تبلغ الثلاثين من العمر كما اعتقد .. ولكن هيئتك ونبرة صوتك وحدة بصرك توحي بأنك فارس باسل .. ليتك تصارحيني بسرك يا صخرة قد أساعدك في الوصول لغايتك الخفية .

فرد جبل باسما : إذا نجحت يا سيدي القائد بإنقاذ الأميرين أعدك بأن أكشف لك سري .

فقال سالم وقد ارتاح قليلا : اعلم يا صخرة منذ رأيتك للوهلة الأولى وأنا أقول لنفسي إن هذا الشاب يحمل سرا ، فبريق عينيك لا يخفى على رجل مثلي .. حسنا احتفظ بسرك حتى نرى نهاية لخطف الأمير .. اكتب الرسالة لأطلع الملك جبرون عليها ، وأذكر له أمرك قد يقتنع ولا يرسل الحملة .

كان ضيغم وخضرون يستمعون للحوار بين الرجلين وهما في غاية الدهشة وينتظرون ايّ أمر فعلى الفور أحضر ضيغم قرطاسا وقلما ، فكتب جبل رسالة لسيد الوادي المرعب قال فيها بسم الله .. يا سادة الجبل ..رسالة من الجبل أنا كالجبل ..جبل .. لقد علمت أنكم اعتديتم على أمير وأميرة ، وأنتم لابد أنكم ما زلتم تذكرون ما فعلت بكم يوم دخلت جبلكم .. فلا أحب أن أزوركم مرة أخرى للعهد الذي بيننا فأرجو إرسال الأمير والأميرة ومن معهما من الناس والأموال والمتاع قبل أن أغضب إنكم تعرفون ما حل بالسبع العادي صخرة الجبل .

وتناول القائد الرسالة وقرأها ثم قال مستريبا : هل يعقل أن تفعل هذه الكلمات فعلها في أولئك القساة الأفئدة ؟! سنرى أمرك أيها الشاب الغريب العجيب .. جهز الموكب يا خضرون لزيارة الملك .

ودخل القائد سالم في ذلك الليل المعتم على الملك جبرون وأطلعه على أمر صخرة ، وقرأ عليه الرسالة ، فتعجب الملك وقال بعجب وتفكير : ما هذه القوة في هذه الرسالة يا قائدي الكبير

هل يعقل أن تفعل هذه الكلمات فعلها وتخيف هؤلاء القوم ؟!! بل الأعجب من هو صخرة هذا ليكون له التأثير عليهم ويخيفهم ببضعة سطور ؟!

قال القائد : هو أسير وقع بين أيدينا في معركتنا الأخيرة عندما انتصرنا على فيالق الضبع ، وهو من عامة الناس ، وليس من الجند ولا القادة وإلا افتداه الضبع .. ولكنه يحمل سرا وعدني بكشفه إذا نجحت رسالته في عودة الأميرين .

قال الملك بحيرة : لعله يفكر بالهرب أيها الأمير ؟

ابتسم القائد وقال : هو حر ، لقد أعتقته من أول يوم رأيته .

قال الملك : هذا أمر محير ! .. هل يعقل أن يكون من تلك العصابة ؟!

فرد الأمير : وماذا يستفيد من إطلاق سراحهم يا مولاي ؟!

فقال الملك : إن أمره لغريب .. هل نرسله بالرسالة ؟ ولكنه قد لا يذهب إليهم ويختفي .

فقال القائد : نرسل الرسالة مع بعض الفرسان الناجين ، وبعدها نفكر بسر هذا الرجل وقوته

فقال الملك : هو ما تقول .

وأمر الملك عددا من الفرسان بحمل الرسالة إلى رجال الجبل والاستمرار بتجهيز الحملة ، وانطلق الفرسان برسالة جبل على الفور ، وهم في غاية الوجل والتوتر ، وما مضت عشرة أيام حتى كانت القافلة تعود ، وفيها الأمير سالك وعروسه والأسرى والجواري والأموال والهدايا وهدية خاصة من رجال الجبل لصخرة ، فازداد عجب الملك والقائد سالم والوزير وأمراء الجيش والناس لقوة هذه الرسالة التي انتصرت على رجال الجبل بدون سيف ولا جواد ، وبعد أن تم استقبال العروسين وتهنئتهم بالعودة سالمين ، قال جبرون لقائده سالم : إن هذا لسحر أين هذا الرجل ؟! فوالله لو كتبت أنا الملك مائة رسالة ما أطاعوني ..وفوق ذلك أرسلوا سيفا مرصعا بالجواهر اعتذارا لهذا الرجل المدهش ، ويقول ابني سالك إنهم اعتذروا لهم أشد الاعتذار وقال أيضا يا أبي ما كادوا يطلعون على الخطاب حتى دب فيهم الرعب والخوف كأن جيشا دهمهم ، وأصدر زعيمهم الأعرج أمرا عاجلا بالتخلي عنا وإكرامنا وإعادة كل شيء

يخصنا .. وتنهد الملك وقال : أريد أن أراه يا سالم !! .. الليلة أزورك مع بعض الأمراء لنرى من هو هذا الصخرة ؟! من هو هذا الساحر ؟!

فرد سالم قائلا مُرحبا وفرحا : على الرحب والسعة يا مولاي ! وأنا مثلك يا سيدي الملك تملكتني الدهشة والحيرة من هذا الرجل .. وقع في نفسي أنه مجنون مغرور يسخر منا ؛ ولكن الغريق كما تعلم يتعلق بقشة يا مولاي .. مع أنك عندما تراه ترى رجلا وديعا هادئا ، ومع ذلك عندما يبدأ الكلام تحس بقوة صوته صوت رجل شديد تعود إلقاء الأوامر ؛ كأنه فارس قوي ؛ ولكن لماذا يرضى أن يبقى سائسا للخيل ؟! .. هذا ما أتمنى أن أعرفه الليلة يا مولاي .. فأنا في انتظاركم يا مولاي .

ولما انتهت الأفراح والاحتفال بعودة العروسين سالمين ، أعلن الملك أن أفراح الزواج ستبدأ غدا لمدة سبع ليال ، وهبط الليل فاعتذر الملك من المهنئين بسلامة ولده سالك لزيارة القائد سالم ، وانطلق الملك ووزيره الأكبر وأمير جيوشه الأكبر وحاشية من الأمراء والقادة ، وركب قائد حرسه بين يديه إلى قصر الأمير سالم بن قنبرة الذي استقبل الملك وحاشيته بصفين من الغلمان بالثياب اللامعة ، وقد اصطفوا من مدخل القصر الخارجي حتى مدخل قاعة الاستقبال في جوف القصر ، وقد استقروا على الكراسي المريحة والأرائك الكبيرة ، وقد وقف الغلمان والجواري بين أيديهم ، وانتهى الترحيب التقليدي فقال القائد سالم : مولاي الملك ! هل نضع الطعام بين أيديكم أولا أم تحبون رؤية خادمنا المخلص صخرة ؟

فقال الملك : أحببنا أن نكرمك يا قائد سالم ، فجئنا إليك لنسمع ونرى رجلك الغريب ، ولم نرسل وراءه فهو يستحق منا الجزاء الواسع .. فأين صخرة هذا ؟!

فقال سالم : أمر مولاي .

وكان خضرون قد هيأ صخرة للدخول على الملك فألبسه ثيابا جميلة عليها إشارات رجال القائد سالم ، فلما أشار القائد لخضرون بإدخال الشاب ، فتح خضرون أحد الأبواب وهو يقول بصوت عال : مولاي الملك .. صخرة الجبل بين يديك .

فدخل جبل الفارس يمشي رويدا رويدا حتى اقترب من كرسي الملك جبرون بقلب قوي غير وجل ؛ كأنه معتاد على مجالسة الملوك والأمراء ، وألقى السلام والتحية على الملك ثم قال بأدب جم : خادمك المخلص ـ يا مولاي الملك ـ صخرة .

فحدق الجميع الملك والأمراء النظر في هذا الرجل الواقف أمامهم بثبات غير هياب وهم يتخيلون الرسالة الساحرة ، فخيم السكون والصمت التام على المكان بضع دقائق ثم قال الملك : أأنت صخرة ؟.. الذي كتب تلك الرسالة السحرية .. يا هذا لقد عملت عملا عظيما ومثيرا تستحق عليه جائزة كبرى .. ما علاقتك بهؤلاء المجرمين .. بل من أنت ؟!

تلفت جبل بنظره في جميع الوجوه التي تبحلق به وقال : مولاي الملك أنا جندي مطيع ، وقصتي تبدأ من بلاد الدب القطبي .. هل يحب مولانا أن يسمعها ؟

فقال الملك وهو يهز رأسه : تكلم أيها الشاب .. ولا حرج عليك بما تقول !

فقال جبل : أولا يا مولاي الملك ويا سيدي القائد ..عندما وقعت أسيرا كان ذلك بإرادتي ورغبتي ، ولقد كان باستطاعتي الهرب كما هرب كثير من الناس ؛ لأننا كنا في مؤخرة الجيش ولم أخرج في هذه الحملة للقتال ، فاعلم يا مولاي أنني أنا لست من بلاد العقرب ولا من أسراهم بل أنا عدو للملك الضبع .. وحاقد عليه حقدا لا يعلمه إلا الله وحده ..ولما سألني القائد عن اسمي ذكرت له أن لي أسماء كثيرة وصخرة أحدها ..أما اسمي الحقيقي الذي سماني به أبي المقتول ظلما عندما ولدتني أمي .

وتريث قليلا ثم تابع الكلام قائلا : أنا اسمي أيها القوم الكرام جبل بن مجدو الساحر المشهور بابن الخباز .

فما كاد فارسنا ينطق باسمه المعروف في هذا الجمع حتى نهض الملك والأمراء عن مقاعدهم ، وتقدم الملك نحو جبل وهو يقول : ويحك أيها الفارس !! .. أنت جبل بن مجدو ..قاتل الغضبان وظالم وغيرهم من فرسان الضبع .. ماذا أقول ؟! إن مقامك الجلوس في القصور لا سياسة الخيول .. يا مرحبا بالبطل ! يا مرحبا بالبطل !!

وتعانق الرجلان عناق الأحباب والأصدقاء بعد طول غياب ، ونسي الملك مقامه ، وكان الملك يقول : إيه !! ..كم تمنيت أن أراك يا ابن مجدو كلما أسمع عن معاركك مع جنود الضبع

فقال جبل : نعم ، يا سيدي أنا جبل .

وتعانق الرجلان مرة أخرى عناقا حارا ، ولقد فعل القادة كما فعل مليكهم ، وكان أكثر الحضور دهشة الشاب ضيغم ، وكان يقول لنفسه : أأنا كنت أرافق وأصادق هذا الفارس الشهير الذي أعاد الملك الصغير أسعد لـعاصمة ملكه ؟!

فقال الملك معجبا ومتأثرا : أسد والله ! إنك أسد من أسود الدنيا في هذا الزمان يا أمير جبل .. لقد وصلتنا أكثر أخبارك ، وما صنعته بقادة وفرسان الضبع مع قلة فرسانك ورجالكم .. لقد فرحنا لقتلك النمر الأبيض والغضبان وظالم ومرعب وغيرهم .

فقال جبل كأنه يتذكر وقد جلس بين يدي الملك جبرون : نعم أيها الملك ، كنت صغيرا عندما امتلك الضبع بلادنا وقتل ملكنا العظيم شامة ورجاله ، وكان أبي خبازا بجوار قلعة الحكم ، عاد للبلاد لما هدأت الأحوال ، وترك الضبع الغضبان حاكما على بلادنا ، وقد كنت صبيا أقوم بنقل الخبز لرجال الحامية ، وتعلمت الفروسية عندهم على أمل أن أكون جنديا من جنودهم ، ولكن دب الصراع بين قادة الحامية ، فقتل الغضبان اللعين والدي مجدو ولم أكن في المدينة يوم مصرعه وإلا قتلوني .. فأقسمت أن أنتقم منهم ، فصعدت للجبال أنا ومن أصيب بمثل مصيبتي بفقد أخ أو أب أو صديق ، وكثر الحاقدون والناقمون حتى قويت شوكتنا ، وأصبحت زعيما للثائرين ، وقاتلنا رجال الضبع ببسالة حتى غادروا بلادنا ، ورجع ابن الملك شامة مطالبا بعرش أبيه ، فتنازلت عن الحكم أنا ورجالي ، وغادرت البلاد خوفا من الفتنة والحسد والصراع الداخلي ، وما زال صراعنا مع الضبع مستمرا ، وكنت قد كونت وأسست جيشا قويا ، وحصنّا الأسوار لتصمد أمام جحافل وحقد الضبع ، فسافرت وصديقاي هزبرا وثعلبون إلى مدينة الشرق ، وهناك وجدنا صراعا على عرش المدينة ، فقمنا بنقل الملك الصغير أسعد لمدينة اللؤلؤ عند الملك أحمد بن خالد – فأخت أسعد الملك الصغير زوجة لولي عهد تلك المدينة والبلاد –

وأثناء وجودنا هناك في بلاد الملك أحمد التقينا بجارية عند أخت الملك الصغير ، تبين لنا أنها ابنة الملك شامة ملك بلاد الدب ضاعت وفقدت وهي صغيرة الأميرة حظوظ بنت شامة ، فجهزها الملك أحمد وأرسلها لبلادها ، وذهب عدد من الفرسان وعلى رأسهم هزبر وثعلبون لتوصيلها فهي أميرة من بلادنا ، وقد اخطأوا الدرب ودخلوا الواد المرعب ، فأسرت الأميرة وخدمها ، وقتل الفرسان وجرح هزبر جرحا بليغا ظنوه ميتا ، وهرب ثعلبون إلينا ، وروى لنا ما حدث ، فأقسمت أن أحرر الأميرة من الأسر ، وأراد الملك أحمد أن يرسل معي سرية من الجند فأبيت ، واقتحمت الجبل أنا وثعلبون ، وقتلت السبع العادي وعددا لا بأس به من رجاله ، فاستسلموا لنا ، فردوا الأميرة ومن معها ومتاعها ومن كان بحوزتهم من الأسرى صاغرين ، وحذرتهم من غضبي ومجيء للجبل مرة أخرى ؛ فإني أحرق الجبل عليهم ، وحذرتهم من التعرض لشخص يهمني أمره أو احتمى باسمي ، أو رجل أو امرأة وقعوا في أيديهم وأرسلت في طلبهم فعليهم بالعفو عنهم فورا ومن غير تردد أو تأخير ، فهم يا مولاي يعرفون انتقامي ويعرفون سيفي ، وكان صديقي هزبر قد جرح ، فقام ثعلبون على إسعافه ونقله لإحدى القرى قبل المجيء إليّ ، ثم تعافى بفضل من الله ، وعدنا به وبالأميرة والأسرى لمدينة اللؤلؤ ، ثم انطلق الأسرى لبلادهم وأهليهم والأميرة لبلدها ، ثم جهزنا حملة لخلع الملك الغاصب ربيع بقيادة الأمير سلطان بن أحمد ، والحمد لله فقد نصرنا الله على ربيع ، وعاد الملك أسعد لحكم بلاده ، ولما استقرت أحوال مدينة الشرق غادرناها تجارا إلى مدينة العقرب لدراسة أحوالها ، لعلنا نتمكن في يوم من الأيام من القضاء عليها يا ملك الزمان ..ولما خرجت الحملة الأخيرة جهة بلادكم قررت أن أسير مع الحملة ؛ لأرى قتالكم فقد علمت أنكم العدو اللدود لهم ، وقد نصركم الله عليهم فسرني ذلك ، واستسلمت لجندكم راغبا بالتعرف عليكم .. والباقي تفصيله عند القائد سالم بن قنبرة .

كان حديثا ممتعا وإن لم يكن مفصلا ، فأثنى الملك والأمراء والقادة على الفارس ثناء حسنا ، وفهموا سر قوة الرسالة السحرية ، وقال أحد القادة : لماذا يا أمير جبل لم تهاجم بقومك مدينة

الضبع ؟

فرد قائلا : هذا حلمي يا سيدي ، ولكن جيش بلدنا جيش صغير ، جيش دفاعي لا يتجاوز عشرة آلاف راجل ، وبلاد العقرب جيشها كثير ، فهي مملكة كبيرة تضم عدة أقاليم ، وهذه المدن تمده بالرجال والسلاح والأموال ، فالانتصار عليه بجيش صغير أراه صعبا ، فالدفاع هو الوسيلة الأنسب لحالنا ..فقوينا الأبراج والأسوار والرماة الذين يحمون تلك الأسوار ، وها هو الضبع بين كل حين وآخر يحاول اقتحامها فيرتد خائبا ، ولكن الحصار يرهق البلاد والعباد .

فقال الملك : صدقت أيها الأمير ! .. فنحن لو لا كثرة أبنائنا وشدة بأس فرساننا ما نلنا من الضبع قلامة ظفر ..، ولكننا الآن نتفاءل بوجود جبل بيننا ، لعلنا نسحقه ونكف شره عن بلادنا وبلادكم .

رد جبل فقال : هذا هو هدفي وما أطمع في تحقيقه أيها الملك السعيد فأنا جندي لديكم .

فقال الملك : غدا أيها الفارس الشجاع ستشاركنا الاحتفال بزواج الأميرين ، وبعد ذلك نحتفل بمنحك لقب فارس كبير في بلادنا ، ونفكر بتزويجك امرأة من ديارنا .

فقال الأمير جبل : أشكرك يا مولاي ..ولي صديقان في بلاد العقرب ، فهل تسمح لهما بالحياة في بلادكم ؟

قال الملك مُرحبا : تسرنا صحبتك أيها الفارس ، وصديقك صديقنا ، ومعروفك بإنقاذ حياة ولدنا في أعناقنا .. فمرحبا بك وبأصحابك والتفت الملك جبرون حينئذ إلى قائده سالم وقال : ما أخبار طعامك أيها القائد ؟.



لابد من الزواج

بدأت الاحتفالات في بلاد التين كلها بزواج الأمير سالك بن جبرون ، وتزينت مدينة الشجرة عاصمة ملك بلاد التين بالرايات والبيارق ، وأخذت كل قبيلة تظهر ولاءها وحبها لصاحب السلطان الملك جبرون ، وكان الملك قد أوصى قادة وأمراء الأجناد بالانتباه والحذر من الأعداء والغادرين ، وفي الليلة السابعة تم زفاف العروسين في قصر الأمارة والحكم ، ويومها استقبل الفارس جبل صديقيه وقص عليهم القصص ، فقال هزبر : هذا أحسن حل لصراعنا مع الضبع يا جبل أن نخدم في جيش جبرون .. لقد فعلت المعركة الأخيرة فعلها في الضبع ، فلقد فتك وسجن وعزل ونفى وطرح صهره في السجن ، ثم عفا عنه لخاطر ابنته .

قال جبل : صدقت ، فبقاؤنا هنا قد ينـفع بلادنا ، ولعلنا في معركة آتية يتنصر بها هؤلاء القوم على الضبع نطلب من الملك جبرون أن يشمل صلحه بلاد الدب ، ونسعى بإقامة حلف بين المدينتين .

وكان جبل ما زال نزيلا في قصر القائد سالم الذي رحب ترحيبا طيبا بالفارسين ، وكان من أسعد الناس بهؤلاء الأصدقاء الفرسان ، فأهل الشجاعة يحبون الشجعان ، فقال : غدا نذهب نبارك لمولانا الملك ويتعرف عليهم الملك يا أمير جبل .

وممن سعد أيضا بالفرسان غلام القصر ضيغم ، فلقد سر لصداقته لهؤلاء الفرسان الأشداء ، وقد هزه تاريخ الفارس جبل هزا ، وقد جاءت الأخبار أن الملك الضبع يعد جيشا لمعركة جديدة ، وكان الملك جبرون بدوره قد استقبل الفرسان الثلاثة ، وجرى احتفال خاص في قصر الملك للاحتفاء بهم ضيوفا في مملكته ، منح فيه الفرسان رتبة فارس في بلاط الملك جبرون ، ويعطى الفارس جوادا أصيلا من جياد الملك الخاصة وسيفا ورمحا ودبوسا وخوذة ومدية وقوسا وجعبة ممتلئة بالسهام ودرقة صغيرة وملابس الفرسان الخاصة ببلاد التين ودرعا فولاذية ، ولكن لون ملابس جبل تختلف عن لون ملابس صاحبيه ، فلون ملابسهما أخضر ، ولون ملابس جبل كانت حمراء وزرقاء ، وهي تدل في بلاد التين على أنه فارس خاص من فرسان الملك ، يحق

له الدخول على الملك وهو يلبسها في أي وقت شاء مع تقدير كبير له من كل الجنود والفرسان مع إبداء الاحترام والطاعة له في أرجاء المملكة ، وأصبح الفرسان في حفلة التعارف من رجال البلاط الملكي ، ووهبهما القائد سالم قصرا صغيرا في أرضه .

وجاءت الأخبار تؤكد أن الضبع قد أعد جيشا وجهته بلاد التين للثأر من الهزيمة السابقة وعلى رأسه الضبع ، وغايته مسح بلاد التين عن وجه الأرض ، وذات مساء انطلق القائد سالم والفرسان الثلاثة زائرين للملك ، وكان جبل يجلس بجوار الملك الذي همس قائلا له : أريد أن أزوجك أيها الفارس فما تقول ؟

قال جبل هامسا : أشكر اهتمام مولاي بي ..سأقول لك شيئا واكتمه عليّ .

فروى له جبل ما جرى بينه وبين الأميرة حظوظ في واد الرعب ، ووعده للفتاة بالزواج منها إذا رغب بالزواج في يوم ما ، ثم قال : والآن لا رغبة عندي للنساء .. ولكن إذا علمت بزواج الأميرة ذات يوم قد أفعل ..فالوعد دين في عنق الفارس الشريف يا مولاي .

فرد الملك بحماس : لا بأس عليك أيها الأمير ، سنرسل رسولا خفيا لبلاد الدب ليأتينا بأخبار الأميرة ..فإن تزوجت زوجناك بحسناء من بلادنا ؛وإن لم تتزوج أرسلنا سالما طالبا وخاطبا لها

قال جبل : مولاي الملك .. دع هذا الأمر لله .. فأنت تعلم أن الضبع حاقد عليّ حقدا شديدا .. وقد أرسل للملك سليل يساومه على رأسي ؛ ليكف شره عن بلاد الدب ؛ ولكني كنت مفارقا للمدينة للأسباب التي أخبرتك بها ، ورفض الملك سليل العرض بالطبع .

قال الملك : على كل حال فكر بالأمر أيها الفارس .. واعلم أن الضبع أعد جيشا لغزو بلادنا .

وأثناء عودة الفرسان لبيتهم روى لهم ما جرى بينه وبين الملك من حديث فقال القائد سالم : لابد من الزواج أيها الفارس فقد كبرت ! .. أذكر أنني تزوجت امرأتي الأولى وأنا دون العشرين

خرج الضبع غازيا لبلاد التين ، وخرج الملك جبرون على رأس جيش كبير لصد هجوم الضبع وجنده ، وفي الطريق التقى الجيشان ، وكان الفرسان الثلاثة ضمن كتيبة القائد سالم بن قنبرة ، ودارت بينهم معارك حامية الوطيس ، أزهقت فيها الأنفس الكثيرة ، واستمرت الحرب بينهم

مستعرة أكثر من شهر ، ثم رضخوا للسلم والهدنة كعادتهم ، وانسحب كل جيش لبلده ، وقد أبلى الفرسان الثلاثة في المعارك بلاء حسنا عرفه القاصي والداني ، وأقر لهم الفرسان بالقوة والشجاعة ؛ لذلك جدد الملك إكرامهم غاية الإكرام .

وقال الملك يوما لجبل : ما ترى من حل لحروبنا الدائمة المستمرة من عشرات السنين مع ذلك الضبع ؟ هل من طريقة لديك للانتصار عليه وسحقه ؟! .. منذ عهد والدي والحروب قائمة بيننا .

قال جبل وهو ينظر في سؤال الملك : هل يأذن لي مولاي بالسوأل قبل الإجابة عن سؤالكم ؟

قال الملك : اسأل يا جبل ؟!

قال الفارس : ما أسباب ودوافع هذه الحروب المتوارثة يا مولاي ؟!

تبسم الملك الصديق وقال : أحسنت أيها الفارس الصديق بسؤلك هذا ! .. أنت قد لا تعلم لماذا غزى قديما الضبع بلادكم بلاد الدب ؟

قال جبل بحيرة : الحق يا مولاي لا أدري ! ولم أفكر بمثل هذه السؤال على أهميته

فقال جبرون بعد استغراق لزمن في الماضي : أنا ابن خمسين ، وأدرك كثيرا من أسرار هذه الحروب التي بدأت من قبل أن تولد .. فاعلم أيها الفارس الشجاع أن الملك الضبع هذا حفيد للملك الجبار الملقب بسيد السباع .. فسيد السباع هذا كان عبدا أسود .. وهو خادم ورقيق للملك حامد بن سالم ملك بلاد العقرب ، ولقد كان هذا العبد قويا فارسا شجاعا .. وكما يقال لقد كان للملك زوجة تعشق هذا العبد ، وتختلي به خلسة ، ولم تنجب من زوجها حامد فمكرت به حتى مات ، فنصبت ملكة على البلاد ، وبعد فترة الحداد أعلنت زواجها من عشيقها سيد السباع عبد زوجها الميت أو المقتول .. فأصبح السيد الآمر الناهي بواسطة زوجته الملكة التي أنجبت منه بعد زواجهما مولودا ذكرا ، فقويت شوكته أكثر .. وقيل أن بناته منها ولدتهم وهي على ذمة زوجها الأول ..فلما ولدت الولد الذكر طغى وتجبر ، ووسع المملكة بالسيطرة على المزيد من المدن الضعيفة والمجاورة ، فخضعت تلك المدائن لحكمه وجبروته ، وقد طال

حكم هذا الملك أكثر من أربعين سنة ، ولما مات استلم الحكم ابنه من تلك الملكة العاشقة ، وحاول هذا الابن أن يمد حكمه لبلادنا وذلك في أيام والدي رحمه الله ، فبدأت الحروب بيننا ، وكان السبب لاشتعالها أنه أرسل لأبي وفدا يخطب أختا لي للزواج ، فرفض أبي واعتذر بأدب جم ، فحقد الابن علينا ، ثم أخذ يتحرش برجال القوافل التي تخص بلادنا ، ثم قمنا بمحاصرته فرضخ للسلم ، ثم حاول غزونا ؛ ولكنه فشل ، وحكم هذا الابن أربع سنوات فقط ثم هلك وليس له خلف ولا ذرية ، فكان لسيد السباع حفيد من إحدى بناته من الملكة العاشقة ، فعين ابن سيد السباع وهو يحتضر ابن أخته خلفا له ، فأصبح الضبع حفيد سيد السباع ملكا على بلاد العقرب الأحمر ، وكان شابا في العقد الثالث من العمر ، وكان ذكيا وفارسا ومقداما كجده سيد السباع ، فسيطر على الحكم ، وكثر أنصاره وقل معارضيه ، فأصبح السيد المطاع وقويت شوكته وسيادته ، فحصن بلاده ، وسيطر على البحر سيطرة تامة ، ولما ركز حكمه أرسل لوالد الملك شامة طالبا إحدى بناته للزواج .. فهؤلاء القوم يحبذون الزواج من بنات الملوك القدماء ؛ ليدعموا ملكهم وحكمهم ، والتفاخر بين ملوك الأرض بمصاهرة الملوك .. ، فاعتذر والد شامة الملك ونسي الأمر ، وبعد موت الملك والد شامة بسنوات رغب الضبع بامتلاك مملكة الدب وباقي القصة تعرفه .. فأسباب هذه الحروب شخصية وأحقاد دفينة مع جشع وغرور وأكل أموال الناس واشغال الجنود والقادة بحروب حتى لا يفكرون بعزل وتغيير الحاكم فهكذا بدأت بيننا الحروب أيها البطل ، ولقد حاول مرات أن يدمر بلادنا ؛ لينفس عن ثارات خاله ، ونحن حاولنا تدمير بلاده للخلاص من شره ؛ ولكن قوتينا لحتى الآن ما زالتا متكافئتين والنصر بيد الله .

قال جبل : حقائق جديدة أطلع عليها أيها الملك العزيز !.. فكثير من المتحاربين لا يعرفونها..كم من الناس ذهبوا قتلى من أجل شهوات الملك الطماع الجشع ؟!.. واعلم أيها الملك أن مدينة العقرب الأحمر حصينة جدا وفتحها صعب ، وأضعف تحصيناتها من جهة البحر ، ومع ذلك عليه حاميات وأبراج قوية ، فأنا درست مدينة العقرب دراسة واعية ، والملك الضبع كما تعلم

يحيا في قصر داخل قلعة حصينة ، وله قصور أخرى في المدينة ، والقلعة عليها حرس كثير كأنها في حالة حرب دائمة .

فقال الملك : هذه معلومات متوفرة لدينا..فهل لديك حيلة لتدمير هذه المدينة ؟

فقال جبل بشرود :إنني أفكر بذلك منذ كنت نزيلا في بلاد الضبع ، وأرجو من ربي أن يمكنني من تحقيق هذا الحلم وتدمير مدينة العقرب وحرق الضبع فيها .. فلقد طغى وبغى ، وزاد طغيانه وإجرامه .. وسوف أصل لحل يوما ما أيها الملك !

فقال الملك جبرون متفائلا : نرجو أن يكون قريبا ..نعود للزواج ، وهل فكرت بالزواج الذي حدثتك عنه قبل الحرب الأخيرة ؟

فأجاب الفارس : الزواج سنة الله في خلقه ؛ ولكن حب الحرب والسفر المستمر أسباب تشغلنا عن التفكير فيه أو الإقدام عليه في الوقت الحالي يا مولاي .. ولكن صاحبي استسلما لضغطي عليهما ووافقا على الاقتران من بنات مملكتكم وبلدكم إذا لم يكن لديكم عارض أو مانع .

أخذ الملك بالضحك ثم قال : يسرنا هذا يا جبل .. فزواجهما يعني بقاؤكم ، سأكلم القائد سالم صديقكم الأول ، فعنده خمس فتيات ناضجات ، فلقد كنت أرغب بتزويج ابني سالك من إحداهن ، ولكن الفتى أصر على الزواج من ابنة الملك العادل ..كنا مرة في زيارة وضيافة ذلك الملك الصديق ، فرأى الولد الصبية فوقع في هواها وجرى ما قدره الله ..في أقرب فرصة سأكلمه أيها الأمير . .

فقال جبل متعجبا بعد أن سكت الملك : القائد سالم عنده بنات في سن الزواج !.. لي سنة أعيش في قصره وبساتينه ما رأيت إحداهن قط !

فقال الملك باسما : النساء الحرائر في بلادنا من النادر أن يشاركن أزواجهن اللقاءات والزيارات لقد رافقتنا مرات أيها الصديق في الزيارات التي نقوم بها للأمراء والقادة ، فلا تستقبلنا النساء البتة .. فزواجكم من بناتنا يقوي رباطكم بنا أيها الفارس .

فقال جبل باستسلام : صدقت يا مولاي الملك !

أرسل جبل غلاما من غلمان الملك ـ اختاره له الملك ـ ؛ ليأتيه بأخبار الأميرة حظوظ أخت الملك سليل حاكم بلاد الدب ، وأثناء انتظارهم عودة الغلام الرسول ، جاءت رسالة من الضبع يطالب فيها برأس الفارس جبل ؛ لأن معلومات وصلته تؤكد وجوده في بلاد التين ، ومقابل تسليمه للضبع يعقد بين البلدين صلحا دائما ، فغضب الملك جبرون لهذه الرسالة ، وزاد احتقاره للضبع ، ورفض العرض غاية الرفض ، وقال معلقا وحانقا :لو أن هذا اللعين متفوق علينا لقلنا جاز له أن يطلب منا هذا المطلب منتصر يشرط على مغلوب ..فرجل أكل طعامنا وقاتل معنا ، وفوق ذلك صنع لي معروفا بأن أنقذ ابني من الذل والأسر .. أين الشهامة والكرامة أيها الناس ؟! ..هل أخون صديقي وضيفي ؟! لقد طغى وتجبر اللعين ، متى يأتي اليوم الذي أحرقه فيه حرقا ؟

قال جبل مسرورا من شهامة الملك : هون عليك أيها الملك .. فهذا رجل مجنون لا يستحق منك هذا العناء والغضب ، وسوف يأتي يوم نتخلص فيه منه .. فأنا أكرهه أكثر منك يا مولاي ..!

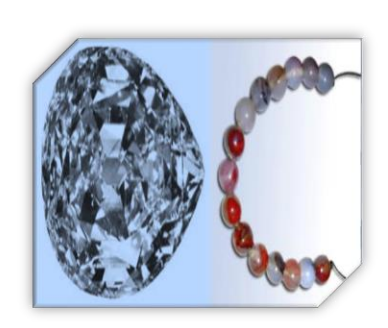
ثم أمر الملك بكتابة رسالة قاسية شديدة الاحتقار للضبع وقال لرسول الضبع بغضب : قل له إنك جبان ولا عهد لك ولا زمام ..وليس بيننا إلا السيف والموت الزؤام .

أتى غلام الملك من بلاد الدب يخبرهم أن الأميرة حظوظا ما زالت عزباء وترفض الأزواج ، وجيوش الضبع تحاصر المدينة ، وقد طلب الضبع من الملك سليل تزويجه أخته الأميرة لرفع الحصار وإنهاء الحرب بينهم ، والأسرة المالكة تفكر بهذا العرض ، فقال جبل معقبا وبغضب خفيف : ويحهم يفكرون في ذلك .. إنه قاتل أبيها !!.. ولكنهم ـ وتنهد ـ يعانون من شدة الحصار والحرب المتكررة ..وسكت لحظات وقال : لعلها تفكر بالوصول لقاتل أبيها وتقتله يا مولاي ! .. إنها طريقة جريئة ؛ ولكن الضبع ماكر مخادع .

فقال الملك : هل نخطبها لك أيها الأمير ؟

فقال للملك :آه !!.. ليتها تتزوج يا مولاي ! .. لها في النفس موقع كبير ..وأنا رجل سيف ، لا أريد أن استسلم لدقات قلبي ..فحياتي الخيل والقتال والدماء والموت والترحال ..قد أفكر

بالسكون يوما ما ولكن بعد القضاء على الضبع اللعين ..فهو يكرهني ويحقد عليّ ويطالب برأسي مع أنه لم يرني في حياته ولو مرة واحدة ، وإنني أبغضه أيضا مع أنني لم أره ولو مرة واحدة حقد عجيب ـ أيها الملك ـ مع أنني رويت نفسي من دماء قومه ، وسفكت دمهم لمقتل مجدو الخباز ؛ ولكن ما زال الحقد عليه يملأ نفسي .. نار مشتعلة يا مولاي في صدري .. فأقول اعفني من الزواج في الحين الحالي ، ولنسعى في تزويج الفارسين هزبر وثعلبون من بنات قائدنا الكبير سالم إذا رضي عن طيب خاطر وحب يا مولاي الملك !



بنات القائد

وفي خلوة خاصة بين الملك جبرون وقائده ابن قنبرة حدثه برغبته بتزويج هزبر وثعلبون من فلذات كبده ، وعن اعتذار جبل عن الزواج في الوقت الحاضر ، فرحب سالم بالفكرة والرغبة وشكر الملك على اهتمامه بهذا الأمر ، ثم قال : غدا يكون الرد بين يديك ، سأشاور الأم وبناتها وأخاهم الوحيد يا مولاي .

قال الملك : شاور نفسك أولا ؛ فإن رأيتهما كفئين لهنّ فشاور من تشاء بعد من أسرتك وعشيرتك .. واعلم أيها الأمير أن هذا الزواج يعمق من علاقتنا بهؤلاء الفرسان ، ويدفعهم للثبات والبقاء في ظل عرشنا ،فلا أحب أن نخسرهم فهم خلقوا للحرب والقتال ..فالزواج يزيد من حبهم لهذه البلاد والتمسك بها ؛ فإن اعتذرت فسوف نكلم القائد موسى ، ونطلب اثنتين من بناته أو بنات أخيه .

فقال سالم : غدا أرد عليك يا مولاي .

فلما عاد ابن قنبرة لقصره أقنع نفسه بمحاسن الفارسين ، وأنهما من الرجال البواسل ، وأنها رغبة الملك قبل كل هذا ، وأخبر زوجته برغبة الملك ، فاستدعت الأم أكبر بناتها الأميرة مها والأميرة جؤذر ، وأمام أبيهما ذكرت لهما رغبة الملك بتزويجهما من الفارسين ثعلبون وهزبر ، وبعد تأمل ونظر قالت الكبرى : من اخترت لي يا أبي ؟

فقال الأب : لم اختر أحدا .

فقالت مها : يا جؤذر هل اخترت أحدهما ؟

ضحكت جؤذر وقالت : إني لم أعرفها يا عزيزتي لأختار أحدهما ، ولم نسمع بأسمائها الا حديثا أبي صباح الغد قبل مسيرك للديوان نقول لك رأينا بهم .

فقام الأب تاركا لهن حرية التفكير والاختيار وقال : حسنا فكرا بالأمر .. واعلما أنني لن أضغط عليكما بالموافقة ، وهذه أيضا رغبة مولانا الملك ..حرية الموافقة . وغادر المكان .

وقبل أن ينطلق الأمير لديوان الملك مر هو وزوجته على حجرة الفتيات ، وبعد التحية والسلام

قال : ما قولكنّ الآن ؟

فقالت الصغرى منهن جؤذر : ما دمت يا والدي العزيز ترغب من تزويجنا من هذين الفارسين الغريبين عن بلادنا .. فأنا أرغب ممن يكون لي زوجا منهما بهدية ، تتحدث عنها نساء بلاد التين كلهن ، ولقد سمعت أن لملك الهند حسن خان جوهرة خضراء من اللؤلؤ ، لا مثيل لها في الدنيا فريدة في جواهر هذا الزمان ، وأن من ملك تلك الجوهرة لا يرى الفقر في يوم من الأيام ، فمن أحضرها منهما فهو بعل لي وأنا خادمة بيته .. وأنت يا أختي العزيزة ما تطلبين ؟!

فقالت الكبرى مها : أما أنا فقد سمعت – يا أبي العزيز – وعلمت أن لهذا الملك ابنة متزوجة من ملك كبير في بلاد الهند اسمه علي خان ، وقد أهدى هذا الملك يوم الزواج لزوجته عقدا من اللؤلؤ الصغير نادر المثال ، من وضعته على جيدها لا ترى سقما في يوم من الأيام ، ويقولون عن هذا العقد إنه يحفظ الإنسان من السم والسحر والحساد ، فمن أحضره منهما فهو بعل لي وأنا خادمة له للأبد .

فقال سالم متعجبا من طلبات بناته : ما هذه الأفكار أيتها البنات ؟!

فقالت الأم : أليستا هاتين بنات القائد العظيم سالم بن قنبرة أحد قادة الملك العظيم جبرون ؟! وإنهن سوف تتزوجان فارسين غريبين .. فتحبان وترغبان أن تفخرا على أترابهما بمثل هذه الهدايا .

فقال سالم : ولكن في ذلك خطر كبير على الفارسين .

فقالت الأم : وما قيمة الحياة بدون خطر أيها الأب الكبير ؟!

فقال : ويحكن !.. وكيف أفاتح الملك بذلك ؟!

فقالت : البنات يكلمنه بذلك .

قال : أفعل بإذن الله .

ونقل القائد سالم ما سمعه من الأم وبناتها للملك ، فاجتمع الملك بهن فأصابته الدهشة وقال : عادة قديمة كانت قد ماتت في بلادنا فلا داعي لإحيائها .. وموت الفارسين خسارة كبيرة ،

وإن كنتن لا ترغبن بالزواج نقبل اعتذاركن .

فبيّن له رغبتهن بالزواج إنما أردن شيئا يتميزن به عن بنات القادة والأمراء ، فاستسلم الملك قائلا : ولكن سأنقل هذه الرغبة لهما أيتها الأم إلى اللقاء أيتهن الحسناوات .

والتقى الملك بالفرسان – وذكر لهم ما جرى بينه وبين القائد سالم وبناته – وقال : لقد وقعنا في حرج شديد .. وأترك الأمر إليكم .. فلو أجبرنا قائدنا على هذا الزواج يكون ذلك سوء خلق لا ترضونه لي .. وإن صرفنا النظر إلى بنات غيره أسانا للقائد سالم .. فالرد النهائي لكما أيها الفارسان .

فقال جبل : يا مولاي ! إذا كانت الفتاتان تعتذران عن الزواج منهما ، فلا حرج على سيدنا القائد فقد قبلنا اعتذاره .

فقال الملك موضحا : هذا المطلب ليس اعتذارا وعدم رغبة بالزواج .. إنما هي عادة قديمة درجت في بلادنا في زمن غابر ،كان الأبطال والفرسان القدماء المميزون يمارسونها إكراما لزوجاتهم ..وهي تظهر بين الحين والحين ، ولكم الخيار بقبول الشرط وبعد أيام ثلاثة نسمع ردكما .

فقال هزبر بحماسة وسرعة : مولاي الملك أنا سأتكفل بجوهرة حسن خان .

وقال ثعلبون : وأنا يا مولاي الملك عليّ بعقد اللؤلؤ من ابنة حسن خان .

فقال جبل : مهلا أيها الرفاق !!.. فالعجلة تورث الندامة .. اقبلوا طلب الملك ، وفكروا بالأمر ثلاثة أيام ، لا تتسرعا أيها الفارسان .

فقال هزبر متحمسا : لا حياة بدون خطر .. ولا يجوز في شرع فارس مثلي أن يقال في حقه أنه خطب فتاة ، وطلبت منه هدية فعجز عن إحضارها ..ويحق لها أن تفخر بالهدية على بني قومها بعد يومين سأسافر .

فقال ثعلبون : صدقت يا هزبر ! سنسافر معا إلى مدائن الهند .

فقال جبل أمام حماس وتحدي الفارسين : اعلموا أيها الأصدقاء ، ويا مولانا الملك أنني ذاهب

معكم ، فلن أتخلى عنكم .. إما أن نحيا معا أو نموت معا .

وتعانق الفرسان الثلاثة ، فقال الملك بغضب وأسف : لقد أسانا لكم أيها الفرسان ! كنت أظن أن قائدنا العزيز لديه رغبة بتزويج بناته بسرعة .

فقال جبل : لا حرج عليك مولانا الملك .. لله الأمر من قبل ومن بعد .

كان عليهم المسير نحو الشمال ثم الانحراف نحو الشرق ، وعليهم اجتياز بلاد ومدن وجبال وقفار ليصلوا ممالك الهند الكثيرة ، فقد قطع الفرسان مراحل باتجاه الشمال الشرقي ، وهبطوا ليلا على مدينة ، فبحثوا عن فندق يستريحون فيه بضع ليال ، فلهم أكثر من عشرة أيام يقطعون الفيافي والقفار ، وكانوا لا ينزلون في البلدان إلا للحاجات الضرورية من أكل وشرب وغيره ، فصمموا على البقاء في هذه المدينة للراحة البدنية لهم ولخيولهم بضعة أيام ، فهذه أكبر مدينة يدخلونها منذ خرجوا من بلاد التين .

وبينما هم رقود مطمئنون في فندق كبير في مدينة النجمة الصغيرة ، يريحون أبدانهم المنهكة من ركوب الجياد ليلا ونهارا ، وعند نصف الليل استيقظ الفرسان على صراخ وأصوات مزعجة عالية ، وكان مصدرها صحن الفندق والشوارع القريبة من الفندق ، فنزل جبل إلى الطابق الأسفل حيث الضجة والعويل ، فرأى جمهرة من الناس على ضوء المصابيح المعلقة على الجدران ولاحظ أن أكثر الموجودين من النساء والصغار ، يولولن ويبكين والخوف مرتسم على وجوههم ، فاقترب جبل من صاحب الفندق الذي يقف بين هؤلاء الناس ، وعليه التأثر والذعر والانزعاج ، فقال : يا صاح ما الخطب ؟!

فجاءه صاحب الفندق عندما سمعه وقال : أيها السيد الغريب ! ارجع لغرفتك وأغلق عليك بابك أو إن استطعت أن ترحل الآن فارحل .

فقال جبل بقلق : قل ما الأمر ؟!

فرد الرجل قائلا : دعك من الفضول يا غريب .

فقال جبل لرجل يقف قريبا منه : ما الأمر يا رجل ؟!

فقال الرجل : معركة شديدة تدور في المدينة ! .. ألا تسمع صوت السيوف وصهيل الخيول ؟ فقصر السلطان قريب من هذا الفندق ، فحدثت فيه فتنة ، انقسم العسكر طائفتين ، فريق مع السلطان ، وفريق مع الوزير ، وهم يتصارعون ويتقاتلون ، وهذه نساؤهم قد هربن من القصور والدور بعدما قتل أو جرح أزواجهن أو أبناؤهن أو آباؤهن ، ولجئن للفندق حتى تنتهي هذه المجزرة ، فهذه هي الحكاية أيها الغريب .

ولزم الرجل الصمت ، فوضع جبل يده على منكب صاحب الفندق وهو يقول : اتبعني يا سيدي .

فتبعه صاحب الخان ، وهو يصيح في خدم الفندق : لا تفتحوا الأبواب لأحد ، يكفي ما لجأ إلينا احذروا دخول الجنود الهاربين .

وتقدمه جبل إلى غرفة الفرسان ولما جلسا قال له : أيها الصديق ما القصة لهذه الفتنة ؟!

فقال : ألم تسمع ما قاله لك الرجل ؟

قال : بلى ، سمعت ولكني لم أسمع أسباب هذه الفتنة .

فقال الرجل : إنك فضولي يا هذا !

فرد جبل فقال : يا هذا أنا عابر سبيل ، والإنسان يحب معرفة الأخبار والحقائق .. فلقد كنا ننوي المكث عندك أياما ؛ ولكن أمام هذه الفتنة قد نغادر صباحا..فهل تذكر لنا أسباب هذه الفتنة قد نساعد في إخمادها ؟

فقال : من أنت ؟!

أجابه جبل : لا يهم من أنا .. المهم أن تسمعني .

فاستسلم الرجل لرغبة الغريب وقال : سأقول لكم أيها الفرسان ..فاسمع ..هذه فتنة ومصيبة قديمة تثور بين الحين والحين ، الجند في مدينتنا انقسم إلى قسمين ، قسم يدعم ويؤازر السلطان والثاني مؤيد للوزير أبي المعالي ..فالسلطان كثير الظلم للرعية ، والوزير محبوب من الناس ، ويحاول بكل قوة منع ظلم السلطان وطغيانه ، فيتصادمان ، والسلطان لا يستطيع عزل الوزير

لأنه ذو شوكة ، وله أنصار بين الجند ، ويخشى السلطان على نفسه منهم ، وكلما تحدث مظلمة في المدينة يحدث بين عسكر السلطان وعسكر الوزير قتال ودمار أيتام وأرامل فالنهار الماضي اعتدى جنود السلطان على أحد الأسواق ونهبوها ؛ لأن جنديا قد اعتدى عليه بعض غلمان السوق ، فذهب لقائده شاكيا ، فغضب ذلك القائد على أهل السوق ، واستأذن السلطان بتأديبهم فأذن له ، فقام القائد وجنوده بتأديب السوق ، فهرب الناس والتجار إلى الوزير وشكوا له ظلم القائد والعساكر السلطانية ، فأمر الوزير بحبس القائد الغاضب لضرب جنديه ، فغضب أصدقاؤه وملكه ، وها هم يتقاتلون وفي الصباح ينتهي الصراع ، واعلم أن هذا الأمر متكرر بين الفترة والأخرى ، ويمكن أن أقول وأنا صادق ، ما يكاد شهر يمضي وخلا من مجزرة ثم انصرف الرجل فعادوا للنوم ، وحاول الفرسان النوم ؛ ولكنه استأذن وتركهم أيقاظا يتحدثون عن الضحايا والضعفاء وما يصيبهم من عسف الطغاة وحبهم للسلطة وشهوات الفتك ، وصباحا أحضر غلمان الفندق الطعام للفرسان في حجرتهم ، فسألهم الفرسان عن آخر أخبار المعركة فقالوا : انتصر جنود الوزير أبي المعالي ، وقتل من الفريقين حوالي خمسين رجلا ، وعدد كبير من الجرحى من الجنود والأهالي ..وكان أمر الوزير بإعدام القائد المحبوس الذي حاول أنصاره إخراجه من السجن وراء المعركة ، فجرت المعركة ، فكان رجال الوزير لهم بالمرصاد ، فقتل من قتل ، ورملت من رملت ، ويتم من يتم ، ورضخ مولانا السلطان لشروط الوزير ، وهكذا أيها السادة تمضي الحياة في هذه المدينة .. نسأل الله العافية .

فردد الفرسان آسفين لضحايا المعركة : آمين .

وخرج غلمان الفندق ، وأخذ الفرسان بالأكل ، وفجأة اقتحم عليهم الغرفة شاب ممزق الثياب دماؤه منتشرة على وجهه وملابسه ، وهو يستغيث : ساعدوني أيها الرجال ! لا أريد أن أموت ساعدوني .

فنهض الفرسان عن طعامهم قائمين ، وقد قبضوا على مقابض سيوفهم ، وقال جبل وقد أغلق الباب وراء الجريح : من أنت ؟ وما أصابك ؟!

فقال الشاب وهو يجلس على الأرض من الارهاق والخوف : أنا مطارد يا سيدي ! العساكر تطاردني .. إنهم خلفي .. يريدون رأسي .

فربت الفارس على كتفه وقال : اهدأ أيها الأخ .. ذراعك تنزف دما ..

فتقدم ثعلبون وربط ذراع الشاب بخرقة ، وفعل بساقه مثل ذلك ، وأخذ يمسح وجهه بخرقة مبللة بماء ، ثم تفقد رأسه فوجد فيه جروحا يسيرة وسطحية ، وبينما هم يسعفون الشاب اللاجئ لحجرتهم طرق الباب بعنف ، فقال جبل بهدوئه المعهود : من الطارق ؟

فصاح قائد المجموعة المطاردة : افتح الباب ، لقد لجأ إليكم مجرم .

فقال الشاب الجريح بتوسل ورجاء يدمي الفؤاد : أرجوكم أنـقذوني لا أريد الموت .

فقال جبل وقد أشفق عليه وأخذ يمسح على رأسه : لا تخف أيها الشاب .

ثم فتح الباب ووقف أمام الجنود قائلا : أيها الرجال من أنتم ؟!

فقال قائد المجموعة بصوت حاد : أبتعد عن الباب وإلا قتلناك .

فرد جبل فقال : لقد استنجد بنا أيها القوم !

فصاح الرجل بصراخ وغضب : ابتعد أيها الغريب .. ودعنا نأخذ خصمنا الملعون إنه من رجال السلطان الظالم .

فرد جبل بكل هدوء : هو منكم من بلدكم من إخوانكم ! .

صمت القائد قليلا ثم قال : أيها الرجل المحترم دع العدالة تأخذ مجراها .

فعاد جبل يقول : ألا يكفي موت خمسين رجلا لتضعوا سيوفكم في أغمادها ؟!

فقال القائد وقد خفض صوته وراح يحد النظر في جبل : من أنت ؟!

فقال الفارس : أنا جبل بن مجدو النزيل في بلاد التين من فرسان الملك جبرون .. هذا هو أنا .

فقال القائد باضطراب : مرحبا بالفارس .. ألا تريد أن تسلمنا هذا المجرم ؟

رد جبل باسما فقال : طلب حماية الفارس .. وأنا بنفسي سأسلمه للوزير ليعفو عنه .. ألستم من حصة الوزير ؟

رد الرجل فقال : بلى .. نحن بانتظارك لنذهب سوية .

قال جبل : أحسنتم .. بعض الوقت أيها الشجعان .

وأغلق الباب والتفت للشاب فقال : ما قصتك ؟!

فأجاب الجريح : يا سيدي الفارس حظي أنني من رجال السلطان .. فلما دارت المعركة ليلا شاركت مع رفاقي في المعركة وإلا قتلني رفاقي وادعوا أن جنود الوزير قتلوني ، فلما حلت الهزيمة بنا هربت إلى منزل ؛ ولكن صاحب المنزل غدر بي ؛ لأنه من أنصار الوزير ، فاستدعى الجنود فأحاطوا بي ، فدافعت عن روحي حتى تمكنت من الهرب منهم ، فلجأت لهذا الفندق ، وجند الوزير يركضون خلفي ، فأرشدني صاحب الفندق لحجرتكم ، فهذا ذنبي أيها الفرسان

قال جبل : لا بأس عليك ، سأشفع لك عند الوزير أبي المعالي .. تجهز يا ثعلبون للسير معنا وأنت يا هزبر ابق هنا للضرورة .

فلبس الفارسان سلاحهما وأخذوا الشاب ، وانطلقوا مع الجند إلى قصر الوزير سيرا على الأقدام وترك الشاب بحماية ثعلبون ، واستأذن على الوزير فأذنوا له، فعرف الوزير بنفسه وذكر حاجته فقبل أبو المعالي شفاعته ، ودخل ثعلبون والجريح والقائد على الوزير ، فسمعوا جبل يقول : مبارك أنت أيها الوزير ! أشكرك واعتبرني من أصدقائك .

وتقدم الجندي الجريح وقبل يدي الوزير وقال : يا سيدي الوزير ..ما أنا إلا عبد مأمور .. إن رفضت الأوامر قتلوني .

فقال الوزير بأدب جم : حسنا – أيها الجندي – قبلنا شفاعة الفارس جبل فيك .. فمعرفة فارس مثل جبل خير منك انصرف راشدا .

وأصدر أمره لأعوانه بالعفو عنه وعدم التعرض له ، والتفت للفارسين قائلا : أنتم ضيوفي .

قال جبل : قبلنا ضيافتك أيها الوزير ، ولن أنسى معروفك هذا .

ونزل الفرسان الثلاثة ضيوفا على الوزير أبي المعالي الذي تصالح مع الملك آخر النهار ، واتفق الخصمان على دفع الدية لأولياء القتلى ، قتلى الوزير يؤديهم الوزير ، وقتلى الملك يؤديهم الملك ،

ولما رجع الوزير لقصره وجد جبلا في انتظاره يسأله قائلا : يا سيدي الوزير أليس لديكم حل لمنع هذا التنازع المتكرر ؟!

ابتسم الوزير أبو المعالي ابتسامة عريضة وقال : الحل موجود ؛ ولكن السلطان لا يريده .

ـ لِمَ ؟!

قال الوزير : نحن يا سيدي الفارس أهل البلد وسكانها الأصليين ..سكناها من مئات السنين وكنا ننعم ونرتع بنعم الله وفي رغد من العيش ، ولكن حدث حدث من قبل أن نرى نحن الدنيا ونولد ، وهو أنه قد جرى صراع بين الأسرة الحاكمة لهذه البلاد والقرى من حولها ، وتنازع أخوان على العرش والحكم ، فلجأ المهزوم إلى مملكة تبعد عاصمتها عنا مسيرة أيام قلائل ، فأرسل معه الملك شداد ملك تلك البلاد جيشا ، واسترد المهزوم الملك من أخيه وقتله أو قل قتله الغزاة برضا الأخ ، وكان الملك شداد قد اشترط على المهزوم الهارب إليه أن تخضع المدينة له ولحكمه ، وما هو الا مجرد نائب عنه ، وتدفع الجزية له كل عام ، ولما انتصر المهزوم واستقر على العرش ،حاول التخلص من قبضة الغزاة ، فغضب عليه شداد ونزعه عن الحكم الذي خان بلده من أجله وقتله وأكثر أسرته ، وخضعت البلاد من يومها للملك شداد خضوعا كاملا ، وجعل عليها ملكا من بلاده ، يتوارثونها كابرا عن كابر ، وبقيت الوزارة في أهل البلد الأصليين الذين أنا منهم ، طبعا سياسة لقمع المعترضين والثائرين ، فهذا السبب الحقيقي للصراع .. وفي هذا الزمن تسلطن علينا فوندا ، وهو ظالم يحب العنف والدم ، والناس يدفعون الضرائب المفروضة كالمعتاد كل سنة لجابي الملك شراب من أحفاد شداد الهالك ، ولكن فوندا هذا لا يكف عن الظلم والسلب ، والناس تتعاطف معي لأني منهم وأحب العدل ، وأحاول أن أخفف الظلم عنهم ، ولي أنصار بين الجند ، ولقد شكونا أمرنا لحفيد شداد مرات ؛ ولكنه لا يسمع فالسلطان فوندا إذا ترك الظلم تنتهي المشاكل ، ونعيش بسلام ، فحتى في حروب الملك شراب يذهب جنودنا للحرب معهم .. فالحل كما ترى في يد السلطان والتمسك بالعدل والإحسان .

فقال جبل بأسف ومتذكرا بلاده أيام سيطرة ولاة الضبع عليها : سنعبر بلاد الملك شراب في

طريقنا لممالك الهند ؛ فإذا تمكنت من مقابلته سأذكره بالظلم الواقع عليكم لعله يرفعه ويزيله أو يخففه .

فقال الوزير بحزن شديد : إنه يعلم بالألم الذي نعانيه ! وهو يحب ذلك ..كم من مظلوم ذهب إليه شاكيا باكيا ؛ ولكنه يظن بالسكوت عن ولاته تبقى المدينة ذليلة خاضعة .

وكان جبل وهو يسمع قصة الوزير وأهل النجمة الصغيرة ، يتذكر مأساة قومه وبلده مع الضبع ، فرأى الطغاة في كل مكان ، وسمع الوزير يتابع كلامه قائلا : لا تحزن كثيرا أيها الفارس لا عليك .. تعودنا العيش على هذه الظروف والحال .

فقال جبل : سنسافر قريبا – وأعانكم الله ورزقكم الصبر – هذه شريعة الطغاة .. القوي يسيطر على الضعيف ؛ ولكن للظالم يوم شديد إن لم يكن في الدنيا كان في الآخرة .

فقال الوزير بمرارة : هذا عزاء الضعفاء على كل حال !

وأمضى الفرسان ثلاثة أيام في ضيافة أبي المعالي ، ثم رحلوا باتجاه مدينة الملك شراب المسماة بلاد الملوك العظام ، فحطوا رحالهم فيها بعد أيام ، وفي خان كبير نزلوا ، وبعد أيام من الراحة والنزهات في هذه المدينة الكبيرة الواسعة الكثيرة الخلائق تبين لهم أنها مدينة جميلة واضحة النظافة كثيرة الحمامات والحدائق والأشجار حتى قال ثعلبون : إنها لمدينة جميلة نظيفة خضراء فشوارعها وطرقاتها مرصوفة بالحجارة الملساء الملونة !!.. فهل يعقل أن ملكها ظالم ؟!

فقال هزبر : هذا ما يثير عجب النفس .. هل تفكر يا جبل بلقاء ملكها ؟!

فرد جبل قائلا : أفكر بذلك ، ولسوف أقابل الوزير أو نائبه قد نخدم صاحبنا أبي المعالي .

كاتب الوزير

انطلق جبل وحده إلى ديوان الوزير آملا بأن يحظى بلقائه ، فكتب عريضة مبديا الرغبة في مقابلة الوزير ، فنقلها كتبة الديوان إلى كاتب الوزير الذي سمح لهم بإدخال هذا المتظلم عندما قرأ ما فيها من الشكوى والألم ، فلما أصبح جبل أمام كاتب الوزير ، خاطبه الكاتب – وهو يتفحصه ويتأمله – قائلا : أيّ ظلم لحق بك أيها الشاب ؟! .. إنك بحضرة كاتب مولانا الوزير ، وسوف تصل مظلمتك للوزير .. قل يا ولدي .. اسمك جبل بن مجدو كما قرأت في ذيل الصحيفة .

هز جبل منكبيه وقال : نعم يا سيدي هذا اسمي ! .. ومظلمتي أشرت لها في الكتاب الذي بين يديك ..وهي إنني كنت قبل أيام في مدينة فوندا ـ السلطان فوندا ـ فجرت فيها مذبحة بين نائب الملك شراب وأهل المدينة ، فقتل في المذبحة ما يزيد عن خمسين نفسا غير الجرحى ، وكذلك الأموال المنهوبة والمحروقة .. فلو يا سيدي أمرتم برفع الظلم ، وأمرتم نائب الملك بالعدل بين الناس والعطف عليهم ، وعدم إيذاء الخلق وإهانتهم .

قال كاتب الوزير : هل قتل لك قريب ؟ هل أصبت بعاهة ؟ هل حرق بيتك ومتجرك ؟ هل سلب مالك ؟!

فقال جبل : لا شيء مما ذكرت يا سيدي ، لم يقتل لي قريب ، ولم أصب بأذى ، ولم يحرق لي بيت أو متجر ، ولم يسلب لي مال .. ولكن أصاب إخواني بني الإنسان كل ما ذكرت .. القتل والسلب والحرق والتلف والعاهات ، فلم ترض نفسي بالصمت والرضى بما جرى من أجل بني الإنسان .

فقال الكاتب وهو ينهض عن مقعده : ما دام لم يصبك شيء أيها الرجل ، فلم يعد بي حاجة لسماعك يا أخ جبل ! .

فقال جبل متجاهلا طرده : سيدي ! تذكر أن الظلم عاقبته سيئة ، والظلم ظلمات يوم الحساب عند الله رب العباد .

فرد الكاتب بضيق شديد : اخرج قبل أن أغضب عليك ، ما دام لم يمسسك ضر فاحمد الله ،

وانصرف قبل أن أوذيك .

فقال جبل : سيدي الكاتب !! دعني أقابل سيدك الوزير لـعل شكواي تجد لديه أذنا صاغية .

فغضب الكاتب وقال بحدة : إنك رجل وقح ! أيها الجنود .. خذوه للسجن .

ودخل الحراس ، وقادوا جبلا إلى سجن من سجون المدينة ، فاستقبله السجناء وانهالوا عليه بالسوأل عن ذنبه وجريمته ، فاحتار بما يجيبهم ليريح فضولهم ، وعند الغروب دخل عليهم قائد السجن وأخبرهم أن الأميرة ضميرة بنت الملك شراب قادمة ؛ لتختار عددا منهم للعمل في قصرها وبساتينها .. فدهش جبل لهذا الكلام ، وقال لأحدهم : ما هذا الكلام ؟! أنا غريب عن بلادكم .

فرد المسئول بهمس : هذا هو الطريق الوحيد للخروج من السجن ، فمن دخل السجن أيها الشاب في بلادنا لا يخرج إلا بأعجوبة أو ينـقل للخدمة في قصور الأمراء أو الموت في السجن فكلما احتاج أمير أو قائد لعدد من الخلق للعمل في قصره وأرضه ، أقبل إلى السجن وأخذ ما يلزمه من السجناء ، فقد أصبحوا عبيدا له يتوارثهم الأبناء عن الآباء .

فقال جبل : حسبنا الله ونعم الوكيل .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

وأتت الأميرة ضميرة للسجن يتقدمها قائد السجن ، فاختارت خمسة من المساجين للعمل عندها ، وكان فارسنا جبل بينهم مستسلما للأمر ؛ليرى نهاية هذه اللعبة ، وفي اليوم التالي جاء أمر من كاتب الوزير يطلب السجين جبلا ، فأطلع قائد السجن الرسول أن الأميرة ضميرة قد استرقته ونقل لقصرها ، فلما علم كاتب الوزير بذلك أصابته الدهشة ، وقال الكاتب لثعلبون : لقد تعقد الأمر أيها الفارس .. أنا ظننته من تلك المدينة اللعينة ! ولم أفكر بأنه عابر سبيل .. بل لم يخطر لي أنه ذلك الفارس المشهور الذي وصلت أخباره لهنا ..اترك لي العنوان الذي تسكن فيه وسأتدبر الأمر .

وتركه ثعلبون عائدا للخان ، وأطلع هزبرا على المأزق الذي وقع فيه جبل ، ثم قال : علينا أن نغير مكان سكننا حذرا من الغدر .. فلنترك خيلنا هنا ونخرج كأننا ذاهبون لزيارة صديق .

فقال هزبر : الحذر واجب ..هذه ورطة نسأل الله أن يسلم منها .

وتظاهرا بالخروج لزيارة صديق ، وبفندق صغير باتا ليلتهما ، وفي الصباح ذهب ثعلبون لديوان كاتب الوزير ، فلم يجده ، وقيل له إنه غادر المدينة بمهمة ، وسيعود منها بعد أيام .

وأما صاحبنا جبل فسيق مع الأميرة إلى قصرها ، وبات ليلته الأولى مع الخدم ، وكان يقول لنفسه : سنصبر قد يكون في هذا الأمر خير لصاحبنا أبي المعالي !

وفي النهار التالي طلبته الأميرة ضميرة ، فلما دخل عليها قالت : لماذا يريدك كاتب الوزير ؟!

فأجابها : لا أعلم !.. هو الذي رماني في السجن .

فقالت : وهو الذي يسأل عنك !

فقص جبل حكايته مع الكاتب ، فقالت : أنت من أهل تلك المدينة ؟! لقد زرتها أكثر من مرة فأخت السلطان فوندا صديقتي .. هل ترغب بالعودة لمدينتك ؟

فقال : أحب أن يرفع الظلم عن أهلها .

فقالت : وما شأنك أنت برفع الظلم ؟

فقال :لا أحب الظلم يا مولاتي الأميرة .

فقالت وهي متجهمة الوجه : أنت سجين ، وأصبحت عبدا لي .

فقال : لا بأس أيتها الأميرة ! .. وروى لها قصة القتال في مدينة النجمة الصغيرة ، فلما انتهى ، قالت بغير مبالاة : لا تهتم إلا بنفسك وانس الآخرين ..أرجو أن أرى إخلاصك في العمل والخدمة لعلي أحررك وأعيدك لأهلك في تلك البلدة .

وأمرت قيم قصرها بأن يأخذه لعمله المعين له ، ويحترس من هربه واختفائه ، وبعد يوم أسر له غلام من غلمان القصر أمرا خفيا ، ولما انتصف الليل تسلل إلى باب من أبواب القصر الخلفية واخترق البساتين والحدائق يتبع الغلام الذي أسر له سرا خلال النهار حتى وصلا لباب خارجي للقصر ، فلما وصل إليه عاد الغلام واختفى ، فوجد جبل كاتب الوزير في انتظاره ومعه ثعلبون وهزبر فقال الكاتب بعجلة : أعتذر إليك أيها الفارس ! .. وسأحاول أن أخفف الظلم عن

صاحبك أبي المعالي ..وأرجو أن تغادروا الليلة الآن البلاد ، وإذا قدر لكم العودة لبلاد التين فاذكروني للملك جبرون ، فهو صديق قديم وقولوا له يهديك السلام والتحية صديقك أحمد بن طارق ، وركب الثلاثة على ظهور خيولهم ، وودعوا الكاتب وداعا حارا خارجين من المدينة قبل أن تدرك الأميرة ضميرة هرب جبل ، فاجتازوا قرى وغابات وديارا حتى أشرفوا على مدينة الجبال العالية مع الغروب ، وبينما هم مندفعون نحوها وجدوا في طريقهم شيخا كبيرا يركب حمارا أبيض يمشي رويدا رويدا ، وخلفه ثلاثة غلمان يلبسون ثيابا متشابهة وذات لون واحد ، فألقوا السلام عليه ، فرد التحية بأحسن منها ، ثم توقف وهتف : يبدو لي أيها الفرسان أنكم غرباء عن هذه البلاد ؟!

فقال أحدهم : نعم أيها الشيخ الجليل .. ما هذه البلدة ؟

فرد الشيخ : إيه !!.. إنها بلاد الجبال العالية لصاحبها الملك المعروف مالك بن حماد الأسناني فهل أنتم رسل قادمون على الملك ؟

قال هزبر : لا ، أيها الشيخ الجليل .

وقبل أن يكمل هزبر كلامه واعتذاره ، قال الرجل على الفور : أنتم ضيوفي .. اعتبروا أنفسكم ضيوفا عندي عند والدكم الشيخ خليل ..والتفت لأحد غلمانه وقال : مهران .. اذهب بهؤلاء الأسياد إلى بيت الاضياف حتى أقضي حاجة قريبة وأرافقكم .

اعتذر الفرسان للشيخ وشكروا له مرؤته ، فأقسم على ضيافتهم ، وتابع الشيخ رحلته ، وساق مهران الفرسان لبيت الأضياف الخاص بالشيخ خليل ، وأوصى الخدم هناك بحسن الضيافة لضيوف الشيخ خليل ، وانقضى الليل ولم يروا صاحب البيت ، فاستفسر جبل عن ذلك ، فقال أحد الخدم لدار الأضياف: نحن قلقون على سيدنا !..لقد علمنا مساء أمس أنه ذاهب لزيارة ابن عم الملك مستشفعا لأحد الناس .. فقصر ابن عم الملك يقع خارج أسوار المدينة ، وها هو قد تأخر ولم يأت ليلة أمس .

ومضت ليلة ثانية ولم يظهر السيد خليل وحتى غلاميه اللذين كانا بصحبته لم يظهرا ، فعندئذ

طلب جبل من رئيس الخدم أن يأذن لهم بترك السكن ، فقال الخادم : لو خرجتم يا سيدي ورجع الشيخ ولم يجدكم سيغضب علينا ، فاصبروا حتى يتضح الأمر .



وكان الفرسان خلال اليومين الماضيين ، قد تفرجوا على المدينة ، واختلطوا بأهلها ، وفي صباح النهار الثالث قادتهم أقدامهم إلى شمال المدينة ، وهناك وجدوا أنفسهم يندفعون مع الناس إلى ميدان كبير ، والناس تتحدث بحماس شديد ، وهم متجهون لمشاهدة مصارعة الفرسان للأسود ، فقال جبل لصاحبيه : فلنمش مع هذه الجموع ، ونشاهد هذه المصارعة المتراكض إليها هؤلاء البشر .

ولما وصلوا للمكان ، وجدوا عددا هائلا من الخلق يملئون مدرجات ميدان الصراع ، وما زالت الناس تتزاحم وتتدافع إلى حلبة المصارعة ..مدرجات على شكل دوائر وفي وسطها ملعب يجري فيه الصراع ..وفي وسط الملعب المعد للمصارعة قفص من الحديد ، ولكنه قفص كبير كالسور والسوار ، وهو مكشوف السقف ، ويـقف حول هذا القفص المستطيل الشكل المرتفع الجدران بحيث لا يستطيع الأسد القفز عنه عدد من الجند ، بعضهم يحمل الرماح والسيوف ، وبعضهم يحمل الأقواس والسهام ، وفي إحدى جهات هذا القفص الحديدي الكبير أو ميدان المبارزة يوجد باب أو أكثر يدخلون منه الأسد والفرسان ، وبين القفص والمدرجات التي تجلس عليها الجماهير يوجد مضمار ؛ ليدور فيه الفارس بعد أن ينتصر على الحيوان أمام الناظرين ، ويبدأ الاحتفال بوصول الملك أو من ينوب عنه .. واختار فرساننا الجلوس قريبا من القفص على المدرجات السفلى ، ولا يفصلهم عن حلبة اللقاء سوى المضمار الذي يحيط به الجند ؛ ليمنعوا الناس من الجلوس عليه ، وكانت منصة جلوس الملك والأمراء قريبة أيضا من القفص ، وحولها الحرس المدججون بالسلاح ، وبعضهم على ظهور الجياد ، ولم يطل الانتظار لبدء الاحتفال ، فقد أقبل الأمير قوس بن جاد ابن أخت الملك نائبا عن الملك هذا اليوم ، فلما جلس

الأمير في مكانه بعدما حيا الجماهير ، نفخ في الأبواق برهة من الزمن ، ثم حيا المنظمون للحفل الأمير واستأذنوه ببدء المصارعات الرهيبة .

تقاليد غريبة

دخل القفص الحديدي شاب يحمل سيفا طويلا ، ويرتدي ملابس خاصة بهذه المصارعات الغريبة ، ويعلق على وسطه خنجرا طويلا ، ويعقد على رأسه عصابة حمراء ، وطفق يرقص ويركض أمام الجماهير ، وقد حيا الأمير والجماهير بكلتا يديه ، وكان يقف على أحد أبواب القفص عدد آخر من المتسابقين يتهيئون لدخول القفص ، ولما انتهى الشاب الفارس من رقصاته فتح باب القفص من جديد ، ودخل عدد من الرجال يحملون قفصا في داخله أسد جائع منذ أيام ، ووضعوه في ركن من أركان القفص الكبير ، ثم خرجوا وأغلقوا باب القفص الكبير ، وخيم الصمت على الجماهير وهم يشاهدون الشاب المصارع يتراقص وهو يتقدم نحو قفص الأسد وفتحه ثم ابتعد ، وفتح الباب كله برأس السيف الطويل ؛ ليخرج منه الوحش ؛ ليبدأ الصراع ، بعد برهة ترك الأسد قفصه ، وأخذ يحدق النظر في المكان ، وكانت الجماهير صامتة كأن على رأسها الطير ، ثم ارتفع صراخ الناس مع اشتداد زئير الأسد الغاضب ، وبدأت المطاردة بين الحيوان المفترس والإنسان العاقل حتى فقد الشاب توازنه فوقع على الأرض ، فانقض عليه الأسد سريعا فصرعه ، وقبل أن يبدأ الأسد الولوغ في وليمته ، قفز للميدان فارس آخر ، فتحول إليه الوحش وبدأت معركة أخرى من جديد ، وقد تمكن الأسد الهائج الجائع من سفك دم الفارس الثاني ، فدخل ثالث فلحق بصاحبيه ، فقال جبل لصاحبيه : تراودني نفسي باقتحام عرين هذا الأسد المتوحش وقتله .



ولما صرع الثالث دخل القفص فارسان ، وكانت معركة شرسة بين الأسد والرجلين ، فهجم الأسد على أحدهم فصرعه ، ولكن الشاب قد تمكن من طعن الأسد قبل سقوطه ، فترنح الأسد من الطعنة ، فقد أنهكت قواه ، ونزف دما غزيرا فوقع ، فهجم عليه الفارس الآخر وطعنه برمحه

فزأر زئرة النهاية ثم خر ميتا ، فارتفع صياح الجماهير وبكاؤهم وتصفيقهم بالفوز على الوحش الذي قتل ثلاثة وجرح رابعا جرحا بليغا ، ولابد أنه قد ترك خدوشا على الخامس ، دخل عمال يحملون التراب فنثروه على الدماء ، وآخرون أخذوا القتلى والجريح وجثة الأسد ، ثم دخلت القفص فتاة حسناء ، علقت في عنق الشاب المنتصر إكليلا من أزهار المدينة ، ثم غادر الشاب القفص متقدما إلى منصة الأمير قوس بن جاد وصافحه وقبل يده ، فقام الأمير ووضع على رأس الفارس تاجا براقا يسمونه تاج الفرسان ، وقلده سيفا وثوبا ذا تطريز خاص موشى بالذهب يشبه العباءة وربطه حول عنق الفارس ، وقدم له جوادا فقفز عليه الشاب الفائز ، ودار دورة واحدة في المضمار حول القفص الحديدي ، والناس تصفق له وتهنئه بالفوز على الأسد وعلى منزلة الفارس التي تحصل عليها ، ثم تقدم الفارس الجديد إلى مكان تتجمع فيه فتيات حسناوات يلبسن الثياب الزاهية ، وهن من بنات طبقة النبلاء في تلك البلاد ، وكن كأنهن في حفل عرس ، فخلع الفارس التاج الذي ألبسه إياه الأمير واختار إحدى الفتيات ، ووضع التاج على رأسها ، فأمسكت بيده فسحبها من بينهن نحو الجواد ، ورفعها على متن الحصان أمام تصفيق وفرح الناس ، ثم ركب خلفها ودار في المضمار مرتين ، ثم وقفا أمام الأمير ، فبارك لهما بالزواج ، ونفخ في البوق عدة نفخات ، ثم ارتفع صوت جهوري عال معلنا أن الشاب فلان من عائلة فلان قد أصبح فارسا نبيلا وزوجا لهذه الفتاة من بنات النبلاء ، وذكر اسمها واسم أبيها النبيل أمام النبلاء والناس ، فيرتفع صراخ الناس وصفيرهم وتصفيقهم في الساحة ، وهكذا امتزج الفرح والموت في هذا المكان ، وأصبح هذا الشاب الفائز من طبقة النبلاء في هذه المدينة ، وجلس الشاب وعروسه بمكان قريب من الأمير والنبلاء .

وبدأ الاستعداد لجولة أخرى من المصارعة ، فنفخ في البوق ، فدخل القفص هذه المرة شابان يطمعان أن يصبحا من طبقة النبلاء ، وبعد أن رقصا وحييا الأمير والجماهير المحتشدة لتنظر هذه المبارزات المتوحشة ؛ ولتشاهد هذا الصراع المخيف ، أدخل العمال قفصين في كل واحد منهما أسد جائع .. فقام الفارسان بفتح البابين لتنشب المعركة ، ومع زئير الأسدين يرتفع صياح

الجماهير ، وكانت معركة ويالها من معركة ! كان كل شاب مشغولا بأسد يثيره إما بسيفه الطويل أو أحيانا أخرى برمحه ، وفي نفس الوقت على الفارس أن يحذر قفزة أو غدرة من الأسد الآخر .. مطاردة مرعبة ! .. تمكن أسد من خصمه..والتف الأسدان على الواحد ، فهجم الشاب بقوة وسرعة بخنجره على أحد الأسدين وطعنه بعجلة ، وقبل أن يتمالك نفسه كان الأسد الثاني يرديه قتيلا ، ودخل الميدان على الفور فارسان ، وانتصر الشابان على الأسد وقتلوه وقضوا على الأسد المطعون ، وعلا صراخ وصياح الجماهير ابتهاجا وانفعالا بنصر الشابين المصارعين ، ودخل العمال فسحبوا الجثث كلها ونثروا التراب على الدماء ، ثم دخلت صبية حسناء ووضعت في عنق كل فارس عقدا من الأزهار البرية المنتشرة في المدينة ، ومشى الفارسان جهة الأمير وصافحاه وقبلا يده ، فنهض وألبس كل منهما تاج الفرسان وخلع عليهما ثياب الفرسان ، وقلدهما السيوف القصيرة ثم قدم لهما جوادين ، فركباها ودارا راكبين عليها حول القفص الكبير دورة واحدة وإلى موقع الحسناوات مشيا ، واختار كل واحد منهما فتاة وألبسها التاج ، وأركب كل واحد فتاته على جواده ، وداروا في المضمار دورتين أمام فرح الناس وتصفيقهم الحاد ، ثم تقدموا نحو الأمير ثانية ، فبارك لهم الفوز والعروس ، ونفخ البوق ثم ارتفع الصوت معلنا أن هذين الشابين أصبحا من طبقة النبلاء ، ثم جلسا بجوار الفارس الفائز قبلهما قريبا من مجلس الأمير .



ولما انتهى الاحتفال بالشابين بدأت جولة ثالثة ، فلقد دخل القفص هذه المرة ثلاثة فرسان ، ورقصوا الرقصة التقليدية أمام الأمير والجماهير ، وحيوا أميرهم والناس ، ثم أدخل الحلبة ثلاثة أقفاص للأسود الهائجة ، ولما خرج حاملو الأقفاص تقدم الفرسان وفتح كل واحد باب قفص ، وحدث الصراع المثير ، وهزمت الأسود الثلاثة البشر الثلاثة ، فتكومت جثث ثلاث تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وقبل أن يدخل فرسان ثلاثة آخرون ..حدث أمر جلل ، وهو أن أسدا كان يقف قريبا من باب القفص الكبير

حيث يدخل الفرسان ، فلما فتحوا الباب ليدخل منه الفرسان زأر الأسد فجأة ، فاضطرب من يفتح الباب وابتعد للوراء وترك الباب مفتوحا مذعورا ، فخرج منه الأسد بسرعة وتبعه الآخران ، ودبت الفوضى بين الناس ، وحتى حملة الأقواس الذين مهمتهم الفتك بالأسد الهائج إذا تعذر الانتصار عليه ارتبكوا ولم يحسنوا التصرف ، فأصاب الجميع الذعر والهلع ، وأخذت الجماهير تتراكض نحو الأبواب والمدرجات العليا وتتزاحم فوق بعضها البعض ، وارتفع الصراخ والعويل ، وارتبك حرس الأمير لهذه المفاجأة ، فاستل الأمير سيفه ليدافع عن نفسه .. ورأى الفرسان الثلاثة جبل وثعلبون وهزبر المشهد المثير ، فما كان منهم إلا أن استلوا سيوفهم ، وهجم كل واحد منهم على أسد ، وكانت الأسود قريبة من بعضها البعض ، وما هي إلا دقائق خاطفة حتى كانت الأسود الثلاثة صرعى جثثا هامدة على الأرض ، فقد تمكن كل فارس من القضاء على أسده بضربة واحدة ..فضج وارتفع صياح الناس من الفرح ، ومن قوة هؤلاء الشباب وشجاعتهم ودهش الأمير قوس ومن حوله من الأمراء والنبلاء من شجاعة الفرسان وسرعة فتكهم بالأسود الغاضبة ، وسار الأمير نحوهم بحماس واضح وهو يقول : مرحى مرحى أيها الأبطال !! .. إنها شجاعة نادرة !!.. وعانقهم وضمهم لصدره وهو يتمتم بكلمات الإعجاب والثناء ، ثم قال : أود التعرف على ذواتكم أيها الأبطال !

فذكروا له أسماءهم ، وأنهم من بلاد الدب ومسافرون لبلاد الهند ، فرحب بهم ثانية وقال : عملتم اليوم ـ أيها الشجعان ـ عملا عظيما وكبيرا !

فقال جبل : نحن ننزل ضيوفا عند الشيخ خليل العابد .

فقال الأمير : أحسنتم أيها الضيوف الكرام .. لقد فعلتم أمرا عظيما ، إنها لكارثة ! وسأل أحد رجاله قائلا :كم أحصيتم من القتلى أيها الصاحب ؟

فرد الرجل : لم يقتل إلا خمسة أنفس وكثير من الجرحى والمصابين ، وأكثرهم بسبب التزاحم والتدافع يا سيدي الأمير .

وعاد الأمير مرة أخرى يرحب بالفرسان ، فقال : أيها الفرسان أرحب بكم في قصري .. وأنتم

ضيوفي .

وأمر بنفخ الأبواق معلنا انتهاء الحفل لهذا الموسم ، ومشى الفرسان بصحبة الأمير وحاشيته ، ونظرات الإعجاب من الناس تطاردهم وتتابعهم بدهشة وثناء وفضول .

وقد تعرف الأمير في قصره على الفرسان أكثر فأكثر ، ولما علم الغاية من سفرهم لبلاد الهند ذات الممالك الكثيرة والتي تخضع للملك الكبير فرهودا ، فذكر لهم قوس أن القائد الشهير شهرون من كبار قادة الخان الأكبر صديق له ، ويمكنهم الاستفادة منه لتحقيق غايتهم عند حسن خان وصهره علي خان ، وتناول الفرسان العشاء مع الأمير قوس ، ثم شكروه على حسن الضيافة والكرم ، واستأذنوه بالعودة لمنزل الشيخ خليل الذي كان في انتظارهم على أحر من الجمر ، فرحب بهم ترحيبا كبيرا ، واعتذر لهم أشد الاعتذار عن تأخره عن لقائهم ، وحدثهم عن سبب هذا التأخر قائلا : أيها الكرام عندما رأيتموني وأنتم داخلون إلى المدينة كنت ماشيا لقصر ابن عم الملك ابن حماد .. فلي جار تشاجر مع أحد النبلاء ، فقذفوه في السجن ، فلما علمت بالأمر انطلقت لابن عم الملك لعلاقة وصداقة قديمة كانت بيني وبينه فعندما قابلته وذكرت له شأن جاري وذاك النبيل .. تنكر لي ، وما كان منه إلا أن سجنني أنا وغلماني عنده في القصر تأديبا لي لإزعاجه بأمر تافه ، ولم يعف عني إلا اليوم عندما توسط لي أولادي لدى مولانا الملك فأطلقني فهذا سبب تأخري عليكم ، وما زال جاري صاحبي نزيل السجن .

فحدثه الفرسان عن المصارعة التي شاهدوها صباح اليوم ، وعن لقائهم بالأمير قوس بن جاد ووعدوا الشيخ أن يكلموه من أجل صاحبه السجين ، فشكرهم الشيخ وبارك شجاعتهم وأثنى على نخوتهم ، وقال : للأسف الشديد نحن بلد طبقي ، فهناك طبقة الأمراء من أسرة الملك وأقربائه ، ومن ضحكت له الدنيا ونكح منهم فيصبح من طبقتهم ، ثم طبقة النبلاء وهؤلاء أصحاب الأراضي والبساتين الواسعة وقادة الجيش والشرطة ، والطبقة الثالثة طبقة العلماء والأدباء ومن دار في فلكهم ، ثم طبقة العامة وهم أكثر سكان المدينة والأرياف ، ثم طبقة العبيد والخدم والغلمان ، وقد ابتدع أحد أجداد الملك ابن حماد بدعة نقل أبناء هاتين الطبقتين

الاخريتين العامة والعبيد لطبقة النبلاء والملاك الكبار بمصارعتهم للأسود .. ففي كل سنة تحدث فتنة الأسود أربع مرات في كل فصل مرة ..فيتنافس أبناء العامة والعبيد على مصارعة الأسود ، فمن حالفه الحظ وفاز وقتل أسدا أصبح فارسا ونبيلا ، وتزوج فتاة يختارها من بنات النبلاء ؛ ليصبح نبيلا لقتله الأسد فتشبه بالنبلاء ، وبزواجه اختلط دم أبنائه بدم النبلاء ، ويستطيع أن يخدم مع الفرسان في الجيش ، ويحق له شراء العقار وأن يقتني العبيد والغلمان ؛ لأن العامة ممنوعون من ذلك ، فليس لهم إلا المساكن التي يأوون إليها ويعيشون فيها ، وقد يسمح لهم بحديقة صغيرة حول المنزل ، ومع بداية كل فصل تبدأ هذه المصارعات القذرة والمرعبة ، ثم ظهرت فيها بعد طبقة سادسة قد تولدت واعترف بها بعد صراع شديد ، وهي طبقة كبار التجار والصناع ، لا هم من العامة ولا هم من النبلاء .. وأنا من هذه الطبقة أيها الفرسان ! فقد علقت التجارة منذ الصغر ، أخذتها عن أبي وأعمامي وأخوالي ، فسافرت شرقا وغربا ، ودخلنا بلاد الدب والعقرب والتين وغيرها من الممالك والمدن ، ورحلت لبلاد الهند التي ترغبون بالسير إليها ، ولي أصدقاء هناك من قدامى التجار ، وما بنيت هذا المنزل إلا لاستقبال الأصدقاء من التجار وأبنائهم ، ولسوف أذكر لكم أسماء بعض التجار في الهند إذا وجدتموهم على قيد الحياة قد يخدمونكم في تلك البلاد .

وفي الصباح صحبوا الشيخ إلى ديوان الأمير قوس ، فحدثه الشيخ عن قصة جاره ، وقبل الأمير شفاعة الفرسان فيه ، ثم ودعوه بعدما آذنوه بالسفر ، وكذلك أثنوا على مضيفهم الشيخ خليل وودعوه راحلين لمدائن الهند الذي قال لهم أثناء الوداع : إنه لم يبق بينكم وبين بلاد الهند سوى مدينة واحدة من المدن الكبيرة وهي المدينة المغلقة .

ممالك الهند

واجتازوا عدة مراحل ، ثم دخلوا على المدينة المغلقة التي تفصلهم عن ممالك الهند العديدة ، وعلى صديق من أصدقاء الشيخ خليل نزلوا ، فاستقبلهم أبناء ذلك الصديق أحسن استقبال نيابة عن والدهم المسافر في رحلة تجارية ، ثم استضافوهم ثلاثة أيام ، ثم تابع الفرسان السير والرحيل ، وبعد مسيرة أيام معدودات دخلوا بلاد الهند ، وقد كانت أول مدينة تواجههم من ممالك الهند مملكة حسن خان ، وجنوب منها تقع مملكة علي خان ختن الخان حسن ، وكلتا المملكتين خاضعتان لمملكة الخان الأكبر الملك الجبار فرهودا الذي عاصمة ملكه تقع في قلب القارة الهندية ، وقد علموا أن بلاد الهند الشاسعة كلها يحكمها ملكان كبيران متنافسان ، أحدهما الخان الأكبر فرهودا ، وتخضع لحكمه أكثر من عشر ممالك في غرب وجنوب القارة الهندية وبعضها في الشمال ، وفي أقصى بلاد الهند ملك كبير آخر تخضع له ممالك شمالية وشرقية وجنوبية وفي وسط القارة ، وهو الملك الأكبر سرهوت ، وهذان الملكان يتنافسان للسيطرة على كل بلاد الهند .. ومن حسن حظ الفرسان الثلاثة أنهم عندما دخلوا البلاد كان صراع كبير قد نشب بين تلك الممالك ، وقد كانت مملكة حسن خان وزوج ابنته علي خان من المالك الغربية لبلاد الهند ، وكلتا المملكتين ضمن مملكة الخان الأكبر فرهودا ، ولا تستطيعان الاستقلال عن قبضته القوية أو حتى الانضمام للملك سرهوت ؛ لبعدهما عن حمايته وعاصمة ملكه ؛ لوجود الكثير من الممالك تفصلهم عنه ، ومن بينها مملكة فرهودا نفسه ، وكانت الحروب مستمرة بين فرهودا وسرهوت ولا تكاد تقف ، فكل طامع بحكم الآخر ، ولقد كان من سياسة فرهودا أن كل مملكة تابعة لسلطانه وخاضعة لتاجه أن تمده كل سنة بعدد معين من جنودها ؛ للمشاركة في حروبه الدائمة ، ثم يرجع المحاربون القدامى ويأتي غيرهم ، وتمده المدن بالسلاح والعتاد والأموال المفروضة لتموين حروبه ، وهو يدعي بذلك أنه يدافع عنهم أمام عدوهم المشترك سرهوت ، ومن يتمرد على هذه الأحكام من الممالك الصغيرة يغزو بلاده وينهبها جنوده ، ويقتل من ناسها من يقتل ، وقد يقتل ملكها أو يعزله أو يحبسه ، فهذا هو منطق القوة والبطش لدى فرهودا ،

وتحدث في بعض السنوات الجافة وكساد التجارة وأحوال داخلية في المدن فيعجز الحاكم أو الملك التابع من جمع الأموال المطلوبة فتحدث مشكلة كبيرة بينه وبين الخان الأكبر فرهودا ، فتبدأ المفاوضات والمناورات حسب المصالح والأهواء والظروف .

فعندما دخل الفرسان الثلاثة مملكة حسن خان وعاصمتها مدينة العدل ، علموا من الناس أن هناك تحالفا من عدة ممالك متمردة على الملك الأكبر ، فقد رفضوا دفع الجزية المفروضة عليهم وأن الخان الأكبر سرهوت يدعمهم ويثيرهم على فرهودا ، ويعدهم بالحرية والاستقلال ، وهو يعد جيشا لغزو مملكة فرهودا والقضاء عليها ، وفرهودا غاضب عليهم ويحشد جيوشه الكثيرة والقوية لسحق هؤلاء المتمردين والعصاة ، وكان أحد وزرائه قد اقترح عليه تخفيف الجزية عن تلك المدن المتمردة أو حتى إلغائها ، فيفشل حلفها مع سرهوت الأكبر ، ولكن كبرياء ذلك الجبار وغروره كانا يمنعانه من الرضوخ لمثل هذا الاقتراح ، فقسم الممالك العاصية قسمين ، وطلب من قائدين كبيرين من قادته أن يتولّ كل قائد منهما قسما لتأديبه وسحق تمرده ويعيدهم للحظيرة رغم أنوفهم ويزيد الضريبة عليهم ، وأبقى ثلث الجيش لصد غدر غريمه سرهوت الخصم العنيد ، وللدفاع عن درة المدن عاصمة الملك الأكبر .

وعندما استقر الفرسان في المدينة ،كانت جيوش الملك فرهودا قد اقتربت منها وعسكرت في الجهة الشرقية لمدينة العدل ، وكان حسن خان قد أرسل لحلفائه بالتمرد يطلب منهم العون والمساعدة ، ويخبرهم بوصول القائد مرهوب لأطراف المدينة ، ودارت المناوشات بين الطرفين .. وفي هذا الأثناء وصلت جنود علي خان صهر الملك ونسيبه واشتد الصراع ، ولقد كان جبل ورفاقه ينزلون عند أحد التجار الكبار من أصحاب الشيخ خليل ، وقد أطلعهما التاجر محسن على أسرار ودوافع هذه الحروب ، وأخبر جبل مضيفهم عن أسباب مجيئهم لهذه البلاد ، وأبدوا استعدادا للقتال بجانب الملك حسن حتى يتحقق النصر أو الموت ، فنـقل محسن هذه الرغبة لأحد جلساء الخان حسن ورغبة الفرسان بالقتال والغاية من مجيئهم لهذه البلاد ، وحدثه عن فروسيتهم وشجاعتهم واستعدادهم لمقاتلة مرهوب وغيره للحصول على تلك الهدايا الثمينة

التي قطعوا المسافات الطويلة من أجلها ، فقال له جليس الملك :سأعرض الأمر على الملك .. فلقد انتصرت جيوش فرهودا الأخرى على المالك العاصية وعملت الفظائع في خمس ممالك ، وقد استسلم جنود تلك المدن ، والخان حسن في قلق شديد .. والقائد مرهوب يستعد لملحمة فاصلة لينافس صاحبه .. ونجدة سرهوت الأكبر لم تظهر بعد

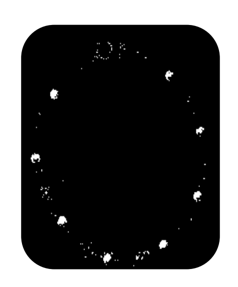
وعاد التاجر يقول للفرسان : وعدنا صاحبنا خيرا ..والحق أن جوهرة حسن خان جوهرة نفيسة ، يضرب بها المثل في هذه الديار .. أما أنها تمنع الفقر عن مالكها فقيل عنها ذلك لثمنها الضخم ولحسن صنعتها ولا يملكها عادة إلا الأغنياء والملوك ، فهؤلاء الناس لا يعرفهم الفقر بسبب كبر ثمنها عند بيعها .. ولا أدري هل يضحي بها الملك فيهبها أو يبيعها ؟! .. ومع ذلك فملكنا حسن سخي ومن أسخى الملوك الذين حكموا هذه البلاد ! .. وأما عقد ابنته فوهبه لها زوجها علي خان ، وسبب شهرته أيها الأصدقاء أن له حكاية ، فهو عقد من حبات اللؤلؤ الصغير اللامع جدا ، ورثه الملك علي عن أجداده القدماء ، فقد قيل إنه كانت زوجة لأحد أجداده ، قد صنعته لتحميه من السم والسحر اللذين كان يخشاهما ذلك الجد في تلك الأيام ، وأظن أن هذا كذب وإنما هي حيلة لعلاج الجد من خوفه الدائم من السم والسحر أو لمنع أعداء الملك من نساء القصر من سمه أو سحره .. فقيل ذلك عن ذاك العقد .

فقال ثعلبون : نرجو أن يوافق الملك على طلبنا وعرضنا .. مرهوب مقابل الجوهرة والعقد .

علم حسن الملك بقصتهم ، فأرسل وراءهم ، فشرح له الأمير جبل القصة ، فتعجب الملك منها ومن مطلب الفتاتين الغريب وقال : قد وصلت أخبار تلك الجوهرة لبلادكم والنساء تتحدث عنها ! .. الغلمان والرقيق هم وسيلة لنقل مثل هذه الأخبار ..إن هذا شيء عجيب ! وستكون لكم الجوهرة الخضراء بإذن الله إذا انتصرنا في المعارك ، ولسوف أكلم صهري وابنتي بشأن العقد العزيز .

والتقى الفرسان بالقائد الشهير شهرون في قصر الملك حسن ، فبين لهم أن الملك فرهودا غضب عليه فهرب واختفى ، فلما نشبت الحرب لجأ لحسن خان ، فذكروا له لقاءهم بالأمير

قوس بن جاد ، فوعدهم هو الآخر بالمساعدة على الحصول على العقد إذا كسروا جيوش فرهودا الظالمة .



ولقد وافقت ابنة الملك وزوجها عن طيب خاطر ونفس على إهداء الفرسان القادمين من الغرب العقد إذا ظفروا بمرهوب ، وتم النصر والفوز على الخان الأكبر ، فقال جبل : نحن جندك أيها الملك العظيم ! لقد غمرتنا بكرمك وجودك ، ونحن لا يطيب لنا الانصراف قبل أن تنتصروا على الملك فرهودا أو يقضى الله أمرا كان مفعولا .. واعلم أيها الملك أننا معكم ولو لم نأت لهذه الأشياء الغالية على نفوسكم ، فالحمد لله الذي جعل هذه الأشياء سببا للحضور لبلادكم والتعرف عليكم وعلى سخائكم .

والتحق الفرسان بالمحاربين أمام أسوار المدينة ، وشارك الفرسان بالمعارك الضارية التي نشبت بين الفريقين ، وظهر للعيان شجاعة وبسالة الفرسان ، وذات نهار طلب جبل مبارزة الأعداء فنزل إليه فارس فجندله وثاني أعدمه الحياة وثالث صرعه ، ثم اشتبك الجيشان حتى الليل ، وفعل هزبر في اليوم التالي ما فعله جبل في اليوم السابق ، وقلدهما ثعلبون في النهار الثالث ، ثم اتفق الجيشان على الاستراحة عدة أيام ، ثم تكرر القتال فطلب جبل مبارزة مرهوب ، وكان جبل قد اتفق مع قادة الفرسان والجيش على أنه إذا قتل مرهوبا أن يهجم الفرسان هجوما شاملا ، ولكن مرهوبا كان فارسا معدودا بين الفرسان ، فلم يتمكن جبل من القضاء عليه ، وعادت الجيوش لخيامها ، وتعهد الفارس أمام الفرسان بلقاء آخر في الصباح ، ولكن كانت في الصباح مفاجأة في انتظارهم ، فقد أصبحوا فلم يجدوا جيش خصمهم ، فقد وجدوا خياما فارغة ، فكأن الأرض انشقت وابتلعت مرهوبا وجيشه ، انسحبوا بدون أن يشعروا بانسحابهم ، وفي آخر النهار تبددت حيرتهم عندما جاءتهم رسالة من الملك الأكبر سرهوت تطلب منهم الزحف لمحاصرة عاصمة ملك فرهودا الذي طلب عودة جيش مرهوب سريعا لأن البلاد في خطر ، ولقد تمت محاصرة عاصمة الخان فرهودا من الجهات الأربعة وبعد حصار محكم استسلم الخان

فرهودا للخان سرهوت ، فنقل لمملكة سرهوت مكبلا بالقيود ومعه قادته ووزراؤه وخاصته ، ونصب أحد أبنائه الصغار مكانه ، وأخذت كل أموال البلد تعويضا للخسائر التي لحقت بسرهوت ، وضمت مدينته إلى مملكة سرهوت ، فأعلن الملك سرهوت نفسه ملكا وسيدا لكل ملوك وخانات الهند ، وقد منح الممالك التي كان يحكمها فرهودا الاستقلال على أن تبقى موالية لعرشه ، ورفع عنها الضرائب ، فتحررت مملكة حسن خان من حكم فرهودا ، وكذلك مملكة علي خان ، ومكث الفرسان الثلاثة ثلاثة أشهر أخرى في ضيافة حسن خان حتى هدأت الأوضاع واستقرت الأحوال ، وفي حفل جميل قدم الملك الجوهرة الخضراء هدية لهزبر من أجل عروسه جؤذر بنت سالم ، وقد أهدى الملك علي خان العقد الثمين للفارس ثعلبون ، ووهب جبل الهدايا الذهبية من الأمراء والفرسان الكبار ، ومكثوا أياما يسيرة بعد هذه الحفلة ، ثم غادروا الهند ظافرين بما جاءوا من أجله .



مـقتـل الفـارس

ترك الفرسان الهند فائزين ظافرين بالجوهرة الخضراء والعقد اللؤلؤي ذي الحب الصغير ، وكان يبدو لهم أن أمر العودة ميسور وسهل ، ولكنهم قبل أن يصلوا المدينة المغلقة ، وبينما هم يجتازون إحدى الغابات عرضت لهم عصابة كبيرة ، فحدثت بينهم معركة قوية ، ولما أدرك المهاجمون شدة الفرسان اختفوا داخل الأدغال ، فقال جبل : أرى أن الأمر يحتاج منا للحذر ، وعلينا أن ندور من حول المدينة المغلقة ونقطع الجبال والوديان حتى نصل مدينة الجبال العالية ونستريح فيها بعض الوقت .

فتركوا المدينة المغلقة فلم يدخلوها والتفوا من حولها قاصدين بلاد الأمير قوس ، ووصلوها بعد جهد وتعب شديد ، فاحتفل بهم الأمير وهنأهم بالسلامة ، ونقلوا له تحيات صديقه شهرون ومكثوا في ضيافته يومين التقوا فيهما بالشيخ خليل ، ونقلوا له سلام صديقه التاجر الهندي محسن فلما أخذت الجياد راحتها وتزودوا بالقوت تحركوا نحو بلاد الملك شراب ، وقبل الوصول إليها أدركهم الليل في إحدى القرى ، فنزلوا على شيخ القرية ضيوفا ، فرحب بهم وأنزلهم في دار الأضياف ، وهنا جرى لهم ومعهم حدث رهيب ، فبينما هم نائمون في غرفة الضيوف يستريحون من تعب الطريق بعد أن نالوا قسطا من طعام أهل القرية ، وقبل بزوغ الفجر سمع جبل صوت صهيل الخيل في الاصطبل ، وكان صهيلا مزعجا كأن الخيول تموت .

فأيقظ على الفور صاحبيه ، واستلوا سيوفهم من أغمادها وفتحوا باب الحجرة ؛ فإذا صحن الدار ممتلئ بالرجال ، وشيخ القرية يقول : إنهم هنا أيها الناس .. دعوني فأنا لا أعرفهم ..هم نزلوا علينا ضيوفا عابري سبيل .

فصاح جبل : دعوا الرجل .. من أنتم وماذا تريدون ؟!

فقال زعيم اللصوص : أيها الفرسان .. إنني أطاردكم منذ خرجتم من بلاد الهند .. أنا الزعيم المشهور شمراخا زعيم العفاريت والشياطين .. لقد علمت أنكم حصلتم على جوهرة حسن خان وعقد علي خان .. أريدهما حالا .. لقد اعترضكم رجالي في أول الدرب ولكنهم فشلوا

فتبعتكم بنفسي .. هاتوا هذه الأشياء أدع لكم أرواحكم ..واعلموا أن معي مائة بطل لا أظنكم تنتصرون عليهم .

فقال جبل : ولماذا تريدهما ؟!

فقهقه الرجل حتى شبع ثم قال : أتريدون أن تعرفوا أيها الفرسان ؟

فقال جبل : نعم ..ولماذا طاردتنا كل هذه الأيام ؟! فقط لتأخذهما .. بل لماذا لم تأخذهما من الملكين نفسيهما ..بدل أن أتعبت نفسك ورجالك بمطاردتنا يا شمراخا ؟!

عاد شمراخا للضحك الشديد مرة أخرى وقال : معك حق أيها الفارس ..السبب أنني ابن أخ الملك حسن .. فحسن خان عمي .. وهذه الجوهرة كانت لأبي ، فأخذها عمي من أبي رغم أنفه وقد طالبه أبي بها فرفض ، ثم تخلص من أبي حتى مات مقهورا ، فثرت عليه فحبسني فهربت من السجن ، فأمسيت مجرما قاتلا أبات في الجبال والمغارات المظلمة كالوحوش .. ثم رغبت بالزواج من فتاة جميلة ، فطلبت الجوهرة الخضراء مهرا ، فطلبت الجوهرة من عمي وأعلنت توبتي فحقرني وأذلني ، فأقسمت أن أملك هذه الجوهرة ، وماتت تلك الحسناء على يدي هاتين ـ وقبض على يديه وضغط عليهما بقوة ـ مقتولة لما أصرت على ذلك المهر .. إلى أن علمت أنكم حضرتم لبلادنا وحصلتم على تلك الهبات ، ورحلتم بها فصممت على الحصول عليها .. فهذا سبب مطاردتي لكم .

فقال ثعلبون : أنت قلت إن المرأة التي عشقتها قد ماتت فلم يعد بك حاجة لتلك الجوهرة .

فقال شمراخا بغضب : سأدفنها معها لعلها تسامحيني .. لا تكثروا الجدل .

تراجع الفرسان لداخل الغرفة وأغلقوا الباب خلفهم ، وطالب جبل بخلع النافذة والقفز للشارع ، فالشارع أوسع للقتال من البيت ، وفي حركات سريعة كان الفرسان يصارعون رجال شمراخا في الشارع ، فكانت مبارزات شيقة ثلاثة أبطال يقارعون مائة رجل ، وفزع أهل القرية على صياح الفرسان وصراخ الجرحى ، ولما تبين للناس الظالم من المظلوم صاح الناس : أيها الناس .. إنهم ضيوفنا قاتلوا معهم .

فتحمس الناس للهتاف ، فأخذوا بقذف اللصوص بالحجارة والتراب ، وازداد حماس الناس مع شجاعة الفرسان الثلاثة ، وأمام هذه التطورات أمر الزعيم رجاله بالمغادرة والابتعاد وهو يعض على أنامله من الغيظ ، فسحبوا جرحاهم وتركوا قتلاهم ، وكان شيخ القرية ما زال بين يدي الزعيم كالرهينة ، فحذرهم جبل من أخذ الرجل معهم ، ولكنهم لم يكترثوا لتهديد الفارس ولا حتى إلى قسمه الذي أقسم فيه أن يبديهم عن بكرة أبيهم إذا لم يتركوا الشيخ ، بل لما ركبوا خيولهم وابتعدوا قليلا قتلوا شيخ القرية أمام أعينهم انتقاما من أهل القرية ، وانطلقوا مبتعدين نحو الجبال ، فندم أهل القرية على حشر أنفسهم في أمر لا يعنيهم ، فواسهم الفرسان وأقسموا أمامهم بالثأر لقتيلهم ، وأنهم لن يغادروا القرية حتى ينتقموا لهم .. واندفعوا نحو اصطبل بيت الاضياف ليركبوا جيادهم لمطاردة العصابة ؛ ولكنهم للأسف قد وجدوها مقتولة فأسفوا عليها أشد الأسف ، فقال جبل لأهل القرية : أعندكم خيل ؟

فرد أحد الناس قائلا : لا يا سيدي الفارس لا خيل في هذه القرية .

فقال جبل :كم تبعد عنكم مدينة الملك شراب ؟

فأجاب الرجل : نصف نهار .

فعاد جبل يسأل فقال : ألديكم حمار أو بغل ؟

فقال الرجل : لدينا حمار .

فقال جبل الغاضب : علينا به ؛ ليذهب أحدنا للمدينة لشراء ثلاثة جياد ؛ لنطارد هؤلاء المجرمين ، ويبقى معكم اثنان لحمايتكم وبث الطمأنينة في نفوسكم .

وتشاور الفرسان عندما مشى بعض الناس لجلب الحمار ، فقال هزبر : أنا أسير للمدينة فلا أحد يعرفني فيها إلا كاتب الوزير .

فقال جبل : امش على بركة الله .

فلما أحضر القروي حماره ، ركبه هزبر وسار جهة المدينة لشراء الجياد .. وأحضر الناس للفارسين لبن الماعز ليشربوه .

ومضى النهار كله وهبط الظلام والفارس هزبر لم يعد للقرية ، فتسرب القلق والخوف لقلبي الفارسين ، وأمضيا الليل حول موقد النار وما ظهر هزبر ، ولما استيقظ الناس فجرا أقبل نحوهما رجل يصيح إن جثة الفارس معلقة على شجرة في مدخل القرية الغربي .. فتجمدت أقدام الفارسين وهما يسمعان النبأ ، وبعد حين هرع الفارسان ومن كان معهما ساهرا إلى مدخل القرية ، وعلى شجرة هناك كانت جثة هزبر معلقة تتأرجح في الهواء الطلق ، ففقد جبل صوابه وهو يحل الجثة ويهبط بها على الأرض ، وأغمي على ثعلبون لهذا المنظر المرعب ومن هول الحقيقة والصدمة ، واسترجع الفارس جبل وعانق الصديق الميت ، وبكى الفارسان عليه بكاء الثكالى وطفقا يناجيانه وهم في حزن وهم شديد ، ثم وارياه التراب ،



وحلف بالله جبل بأنه لن يرحم لصا أو قاطع طريق بعد هذا اليوم .. وأدرك الفارسان أيضا أن المجرم مصمم ومصر على سلب الجوهرة ليدفنها في قبر محبوبته المقتولة ، وتوقع جبل منهم هجوما على القرية ، فرسم خطة للثأر والانتقام ، ولكن قبل أن نتابع معكم نهاية هؤلاء اللصوص ، نبين لك أيها القارئ العزيز كيف قتل هؤلاء المجرمون أحد أبطال هذه الحكاية وهو الفارس الشجاع هزبر ، فلقد قتل هذا البطل بعدما خاض الفرسان معركة ضارية فجر أمس كما تعلمون ، وقد أنهكت هذه المعركة الفرسان ، وركب هزبر الحمار متجها للمدينة لشراء الجياد لمطاردة العصابة والقصاص لشيخ القرية القتيل ، فكان يسير هزبر وحده وكان شمراخا قد أمر بعض رجاله بمراقبة تحركات الفرسان ، فلما شاهده الراصدون أخبروا زعيمهم ، فأمر بعضهم بمتابعته ، ولما أخبروه أنه متجه للمدينة ، خشي الزعيم أن يكون ذاهبا لطلب نجدة ، فترك بعض رجاله لمراقبة القرية خفية ، وأسرع خلف هزبر بباقي الرجال ، فما شعر الفارس إلا وهم يحيطون به ، وقد قفزوا عن خيولهم ، فحدثت معركة نادرة ، فارس واحد يقابله عشرات اللصوص ، واستبسل الفارس بالدفاع عن نفسه ، ولكن الكثرة قد غلبت الشجاعة ، فقتل هزبر مضرجا بدمائه على أيدي هؤلاء اللصوص ، وانتهت حياة هذا الفارس ، وأمرهم الزعيم

بقتل الحمار حتى لا يعود للقرية بعد أن نقلوا جثة البطل عليه ، وفي الليل طلب منهم الزعيم التسلل لمدخل القرية لتعليق جسد الفارس على شجرة في مدخل القرية .

أدرك جبل أن مداخل القرية المعتادة مراقبة من رجال العصابة ..فلما أشتد الظلام على القرية تسلل الفارسان من طريق غير مطروق نحو مدينة الملك شراب سيرا على الأقدام ، وفي حذر شديد حصلوا على جوادين قويين عن طريق صاحبهم أحمد بن طارق كاتب الوزير ، وما أشرقت الشمس حتى كانا في القرية ، ووجدا حال القرية يرثى له ، فلقد داهمها المجرمون مرة أخرى عند الفجر ، وعاثوا فيها فسادا وأحرقوا بعض البيوت ليرغموهم على طرد الفارسين ، فدار جبل وثعلبون ومن تبعهم من الرجال حول القرية يبحثون عن وكر اللصوص والقتلة ، فلمحوا رجلا يركض نحو الجبل أمامهم ، فهمز جبل جواده وانطلق خلفه ، فأدركه وهو يصعد الجبل ، فقفز عن الجواد وأمسك به فتدحرجا على الأرض قليلا ثم توقفا ، ووضع جبل الخنجر على عنقه وهو يقول بحدة : أين قومك أيها الحقير ؟

فأشار الرجل إلى الجبل ، فلما وصل إليه ثعلبون والناس ربط يديه من الخلف ، وأمره أن يسير أمامهم ، واعتلى جبل جواده ، فمشى الرجل أمامهم معتقدا أن العصابة إذا شاهدوه خلصوه ، فلما رأى المجرمون أن جبلا وثعلبون وعددا من أهل القرية صاعدون إليهم أمرهم الزعيم بالهجوم ، فبدأوا ينحدرون تباعا جهة الفارسين ، فقتل جبل الأسير سريعا ، وتلقى المجرمين برمحه قبل أن يتجمعوا حولهم ، ولم تمض ساعة من الزمان حتى كان أكثرهم بين قتيل وجريح فجبل عندما يعتلي صهوة الجواد فارس لا يشق له غبار ، ثم صعد الجبل ومعه ثعلبون حيث اتخذت العصابة وكرا وفتكوا بمن وجدوه فتكا ذريعا ، ولم يبق منهم حيا إلا الزعيم ، وقد قبض عليه جبل وحمله بين يديه كالفرخ أو الحمل وألقاه يتدحرج على صفحة الجبل ثم تبعه ـ وقد أمر ثعلبون والأهالي بالفتك بجميع الجرحى من غير رحمة ولا هوادة ـ فأدركه في بطن الوادي يئن ويصيح من الألم ، ولما انتقم أهل القرية من كل المجرمين ، قاد جبل شمراخا إلى القرية وعند الشجرة التي علق عليها هزبر علقه جبل حيا أو قل فيه بقية الروح ، ثم سفك دمه بيده ،

ثم أمر أهل القرية بدفن جثث القتلى حتى لا تفزع الوحوش على رائحتها ، وقضوا أياما في القرية حتى اطمأنوا على الناس من بقايا العصابة ، وقد ذرفوا خلالها الدمع الغزاز على صديقهم الفارس البطل هزبر ، ثم لملموا خيول العصابة وأموالهم من سيوف وخناجر ووزعوها على أهل القرية حتى هدأت نفوس الناس بعد هذه الأحداث المثيرة ، وكتب جبل رسالة لكاتب الوزير شرح له فيها الأحداث ويوصيه على أهل القرية وبمساعدتهم عند الضرورة وفي حالة تعرضهم لمن نجا من رجال العصابة ، واعتذروا له عن عدم دخولهم المدينة خشية الوقوع بين يدي الأميرة ضميرة التي هرب جبل من قصرها .



ضيغم السجين

حل الفارسان ضيفين على الوزير أبي المعالي ، وفرح بلقائهم ، وحزن على مقتل الفارس هزبر وعزاهم أحر العزاء ، وبين لهم أن سياسة الملك شراب نحوهم قد تحسنت بعد لقائهم بكاتب الوزير ، واستراحوا عنده بضعة أيام ، ثم ودعوه منطلقين إلى بلاد التين فدخلوها فأمضوا ليلتهم الأولى بفندق ، وعند الضحى اتجهوا لقصر وديوان الملك جبرون الذي سر سرورا لا يوصف عند رؤيتهم وبعودتهم ، فحمد الله على رؤيتهم ثانية ، وهنأهم الأمراء والقادة على سلامتهم ، وفي عيونهم سؤال أين هزبر ؟! فقد لاحظوا غياب الفارس هزبر ، ولكنهم لا يجرئون على السؤال لمَ لمحوه من الحزن المخيم على ووجوههم ، ثم تجاسر الملك المتهيب فقال : أيها الفرسان إني ألمح الحزن يرتسم على وجوهكم .. وإني لأستحي أن أسأل ؛ فإن قلبي يحدثني بمصاب كبير أصابكم .. أين هزبر البطل ؟!

فتساقطت الدمعة المتجمدة في عيون الفارسين ، وسالت الدموع وارتفع النشيج ، وبكى الفارسان بكاء غزيرا ، فذرفت دموع كل من كان في المجلس تأثرا ببكاء الفارسين ، وأدركوا أن الفارس قد مات ، فترحموا عليه وتأسفوا لمهلكه ، واختصر لهم جبل الرحلة الطويلة التي امتدت أكثر من سنة ، وبعد أن انتهى جبل من رواية الرحلة ومقتل الفارس هزبر أثناء العودة وبعد الظفر بالجوهرة ، دفع رسالة للملك من حسن خان ، ووضع الجوهرة الخضراء والعقد اللؤلؤي أمام الملك على مائدة صغيرة ، فانشغل الملك جبرون بقراءة رسالة ملك الهند التي تؤكد وصول الفرسان لبلاده ومشاركتهم في حروب ممالك الهند ، وفيها الثناء العظيم على الفرسان الثلاثة وشجاعتهم ، ويبارك لهم بهبته لهم بالجوهرة والعقد ، وتمنيه لهم السعادة بزوجاتهم ، ولما انتهى الملك من قراءة الخطاب الطويل أبدى الملك ثناءه على جبل وثعلبون وترحم كثيرا على الفارس هزبر وقال : لقد خسرنا فارسا عملاقا .. ولكن الموت مشيئة مالك الأرواح والأجساد ..والصبر محمدة عند الشدائد .. ورحم الله الفارس هزبر رحمة واسعة !

ثم تأمل الملك الجوهرة والعقد ، ثم قدمها للأمير سالم الذي ما زال الدمع في عينيه ثم قال

للملك : إنها ساعة ضعف عندما استسلمت لأفكار البنات !

فقال الملك : خذهما أيها القائد .. إنها مشيئة الرب ، ولا مفر من قدر الله وأمره .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

وأمام إصرار الملك تناول القائد سالم بن قنبرة الهدايا وهتف قائلا : مولاي الملك .. إن صاحب الجوهرة قد هلك .. فليس لنا إلا العقد .

فقال جبل بحزم : معذرة أيها الملك وأيها السادة ! هما للبنتين .. واعلموا أيها السادة أننا لن نأخذ هذه الهدايا فهن هدايا للبنتين .. وقد طلب مني صديقي ثعلبون يا مولاي الملك أن اعتذر لكم عن هذا الزواج .

فاستغرب القوم فقال ثعلبون : أقسمت أن لا آخذ هذه العطايا أيها السادة العظام ، وإنني أعتقد بعد مقتل صديقي العزيز لا أستطيع إسعاد الأميرة .. ولا أحب أن أظلمها بصحبتي .. فهل ترضون لي كلما أرى الأميرة أن أتذكر أخي هزبرا ؟! فهو صديقي وأخي منذ الطفولة المبكرة ولا أحب الظلم للفتاة ولا لنفسي .

وأجهش الفارس بالبكاء من جديد .

فقال الملك جبرون وقد اقتنع بكلام ثعلبون واعتذاره فرد : لا بأس عليك أيها الفارس سننظر في اعتذارك .. الأيام دواء للجراح وللآلام .. وهزبر لا شك أنه عزيز عليك أكثر منا ، ولا يمكن نسيانه بين عشية وضحاها .. إيه يا ولدي ! كم فقدنا في هذه الحروب من الأحبة والأبناء والاخوة ؟!.

وأصدر الملك أمرا بمنح الفارسين قصرا بالأثاث والخدم ، فلزم الفارسان المنزل الذي وهبهما إياه الملك ، وكان يقوم على خدمتهم غلام وجارية ، ولما استيقظا من نومهما آخر النهار من ذلك اليوم الذي التقوا به بالملك جبرون ورجاله وجدا أن الخدم قد أعدوا لهما الطعام ، فأكلا ما قسم الله لهما ، وأرسل الأمير جبل الغلام إلى قصر سالم بن قنبرة يسأل عن صديقيه ضيغم وجدار .

فأتاه الغلام بأخبار مزعجة ، وهي أن الأمير سالم قد أمر بحبس ضيغم منذ شهور في سجن

المدينة ، وأما جدار فهو في زيارة لأمه في بلاد العقرب ، فانزعج جبل وثعلبون لحبس ضيغم ، واستفسرا من الغلام عن سبب رميه بالحبس ، فقال الغلام : الصواب لا أعلمه ؛ ولكن صديقي رمح أحد غلمان القائد سالم أسر لي بكلام قد يكون هو الحق !

فقال جبل : أخبرنا ما قال لك رمح هات ما عندك .. أسمعنا أيها الغلام الذكي ؟

فقال الغلام بصوت منخفض : أخبرني رمح صاحبي – وهو خادم الأميرة الصغيرة ابنة القائد سالم – قال لي : إن ابنة الأمير تعشق الشاب ضيغما ، وإنها كانت تلتقي به سرا .. وعرفت الأم بالأمر من الفتاة التي كاشفتها بذلك ، وأبدت لها رغبتها بالزواج منه .. فرفضت أمها وغضبت منها ومن الغلام ضيغم ، وكشفت الأمر للأب ، فرمى به في السجن .. هذه هي القصة التي أسرها لي رمح ، بل طلب مني إخبارك بها يا سيدي الفارس .

فقال جبل مفكرا بما سمع : أحسنت يا غلام ! أبلغ صاحبك رمح هذا أنني راغب بلقائه فأتنا به .

رد الغلام بحماس : غدا ليلا سيكون عندك يا سيدي الفارس .. فهو لا يستطيع في النهار مغادرة القصر .

ولما غادرهم الغلام قال جبل لثعلبون : لم يخبرني ضيغم بهذا الهوى ؟!

فقال ثعلبون باسما : لا تنسى يا صاحبي أنه لنا أكثر من سنة خارج البلاد .

قال جبل : صدقت يا ثعلبون .. حب حدث بعد رحلينا .

فقال ثعلبون : المهم أن لا يكون الشاب قد تعلق قلبه بالفتاة ، فمن الصعب والشاق أن يتم هذا الزواج ، فلا أظن أن الملك جبرون يرفض شفاعتنا فيه ويخرجه من الحبس ، ولا حتى الأمير ابن قنبرة نفسه .

قال جبل : هو ما تقول .. المهم أن لا يكون المسكين أحب الآنسة ..فإني أحببت هذا الشاب منذ رأيته أول يوم في قصر الأمير سالم .. وهو يبادلني هذه العاطفة النبيلة يا صديقي ! وكأننا أصدقاء منذ عهد بعيد .. ثم سكت لحظات وتابع قائلا : واعلم أيها الصديق أن هذا الشاب

إذا تبين لي حبه لابنة ذلك القائد سأساعده .. وسنعلم مدى وفاء هؤلاء القوم لنا .

فقال ثعلبون متضاحكا : قد يوافق سالم هذا ويشترط عليه مهرا يورده المهالك كما اشترط علينا

فقال جبل : معك حق !!.. ولكن يبدو لي من كلام رمح لغلامنا أن الفتاة نفسها تعشق الفتى فلن تفعل ما فعلت أختاها .

فقال ثعلبون بعدما تنهد بعمق : رحمك الله يا هزبر ! ..ما كان له رغبة بالارتباط بامرأة ؛ ولكني ضغطت عليه رغبة بالاستقرار في هذه البلاد وحياء من الملك جبرون الذي كان يلح علينا بهذا المطلب ..لا إله إلا الله .

فتـنهد الفارس أيضا وهو يقول : لا إله إلا الله .. رحمك الله يا هزبر ! لقد كان نعم الصديق والأخ .. ونعم البطل بين الأبطال .. آه ! كم كنت أطرب لضرباته وصولاته وزعقاته في القتال آه ! ولكن الموت نهاية كل حي يتنفس فوق الثرى .

قال ثعلبون كأنه حالم : أذكر البداية يا جبل ! عندما كنا في مدينة الدب ندب على أرضها معا ، وعندما أذهب معه إلى الحقول التي يملكها والده ..ونأكل من ثمارها ونشرب من ماء بئرها .. ولقد رأيتنا نبكي على تلك الرياض الجميلة بعد أن دخلتها جيوش الضبع الوحش الضاري .. فجعلتها خرابا ، وقتل والد هزبر أثناء الاجتياح الوحشي لبلدنا الهادئ الوديع .. لقد كنا فتية صغارا ..آه .. كم كرهنا الغزاة وحقدنا عليهم ؟! .. مات أبوه مقتولا بأيديهم ..وقتل أبي بعده بقليل .. فأمسينا أيتاما ، وكبرنا وكبر الحقد معنا .. ولكن لا حول لنا ولا قوة .. ثم التقينا بك عندما كنت تتمرن في القلعة ، وجندتنا للعمل والتدرب مع رجال الحامية – ضحك وقال – لنكون من جنودهم ، ولكن سبحان الله غدروا بمجدو الساحر صانع الخبز وأشهر خباز ببلاد الدب ..حزنّا للغدر الذي أصابه ! وكم سعدنا لغضبك وبغضك وحقدك عليهم ؟! وعادت بنا الذكريات لسنوات اليتم الأولى .. لقد كان الانتقام حلمنا الأكبر كم ملئت نفوسنا فرحا وحبورا وغبطة ونحن نقارع رجال الضبع ؟! ..وكم تعجبنا من الأقدار عندما صرنا سادة المدينة ؟! .. وعجبنا من نبلك وشجاعتك عندما خلعت نفسك عن الحكم بعد أن أصبحت

السيد الكبير في البلاد !.. فازداد حبنا لك يا جبل ! فصرت لنا الأخ والأب والصديق والسيد وكم فتنت بك وأنت تصرع السبع العادي ورجاله لجرحهم لهزبر ؟! .. أوه !!..حظه مع اللصوص سيئ ! .. لقد كان عملك يومها سريعا وجريئا لا تعطي الخصم فرصة للحوار والمجادلة .. ذكريات كثيرة تتراءى لي أيها الفارس منذ مقتل هزبر .

فقال جبل متذاكرا تلك الصور الماضية : أيام أمضيناها معا ..لنا ما يزيد عن عشر سنوات في هذه الأهوال ..كم من الدنيا رأينا !..كم من مدينة تركنا فيها ذكر فروسية لم نكن نحلم بها ؟ ولكن خسارتنا بهزبر كانت فظيعة !!

كانت الدموع تتساقط مع كل ذكرى وموقف حتى استسلموا للنوم من جديد ، وما استيقظا من نومهما إلا على صوت الغلام وهو يعلمهما بمجيء زائرين ؛ فإذا هم مجموعة من فرسان الملك والأمراء قدموا لتعزيتهم .. ومضى النهار وهما يستقبلان ويودعان الأصدقاء ورجال الحكم ، ولما سكنت الأنفاس ورقد الناس على فرشهم ، ولم يعد يسمع إلا صوت نباح كلب ونهيق حمار ، دخل رمح غلام القائد سالم حجرة الفارسين ، فرحبا به ، وأزالا عن نفسه الخوف والرهبة ثم قال له جبل : أخبرنا يا رمح عن القصة بتفاصيلها دون أن تخفي عنا شيئا حتى نستطيع أن نخدم صديقنا ضيغما ؟

فقال رمح : أشكركما !.. فضيغم صديقي كما هو صديقكم ..فمنذ أن دخل القصر وعمل معنا في الخدمة الداخلية ونحن نحبه ، ولقد كان محسنا متقنا لعمله ، ولم يطلب منه شيء إلا نفذه على خير ما يرام ..ولقد كان من ضمن عمله أن يسمح له بالدخول إلى مساكن النساء ، يدخل على الأم الكبيرة زوجة الأمير ، وعلى أخواته وقريباته ، وكذلك على بناته ، وهو شاب مهذب خجول ، ومن ثم وسيم فارع الطول ، وقد نال رضا نساء القصر يا سيدي .. ومضت الأيام هادئه حتى أصبح ضيغم يدخل ويخرج كما يشاء .. فكان من سوء حظه أن الأميرة الصغيرة ابنة القائد الأميرة ريم وقعت في هواه وعشقته ، وهذا علمته من جارية لها أطمع بأن أتزوجها كما وعدتني سيدتي زوجة الأمير سالم .. أحبت الفتاة الصغرى ضيغما المسكين الغافل عن هذا الحب

وبدأت تهتم به وتثيره ، وهو في غفلة من أمرها ولا يعيرها أدنى اهتمام للبون الشاسع بينهما .. عبد وإن كان حرا وابنة قائد من كبار قادة الملك جبرون .. لم تصبر الصبية على تجاهله فصارحته بحبها له .. فاعتذر لها الشاب أشد الاعتذار عن هذا الغرام .. وظن أنها قبلت عذره وتابع عمله كالمعتاد ، ولكنه في النهاية استسلم للهوى وتناسى الفارق الطبقي بينهما ، وهذا حدث وأنتم خارج البلاد ، فأصبحا عاشقين ويخلوان معا ، ولا يعلم بسرهما إلا جاريتها الخاصة .. ولكن الأمر خطير بالنسبة لضيغم فطلب منها أن تساعده في الوصول لحل ، فاعترفت لأمها فغضبت عليها وكرهت الشاب وأبعدته عن قصر النساء ، وأمام إصرار الفتاة على الاقتران بالفتى المعشوق كشفت الأم القصة للقائد فغضب غضبا شديدا من وقاحة ابنته ، وأمر بحبس ضيغم في السجن لتقطع الأمل منه .. فهو فيه منذ شهور أربعة ، ولما علمت الفتاة بعودتكم من بلاد الهنود ، طلبت مني أن أروي لكم القصة .. فضيغم صديقكم لتساعدوه وتخرجوه من أعماق السجن .

قال جبل متأسفا وراثيا : مسكين حقا يا ضيغم !..بل مسكين الضعيف في هذه الدنيا ! .. لقد تطاول على الأسياد .. كيف يهوى العبد أو الغلام الحر الأميرة أو الآنسة من بنات هؤلاء القادة والأمراء ؟! .. وإن بحثت ودققت يا ثعلبون في جذور هذه الأسر لوجدتها قد كانت أسرا معدومة ، وربما كانت رقيقا في يوم من الأيام الماضية .

فقال ثعلبون : هكذا الدنيا أيها الصديق !.

فقال جبل : أتذكر مدينة الجبال العالية يا أبا الوفاء ؟

رد ثعلبون فقال : نعم ، أذكر .. مدينة الأسود !

فقال جبل : أتذكر يوم الأسود وصراع أبناء الطبقة الفقيرة للأسود ؛ ليصبحوا نبلاءويتزوجوا بنات النبلاء ؟ أرأيت كم تفتك الأسود بهؤلاء الشباب ؟! ولكنهم يصرون على مقاتلتها .. إنها فكرة قاسية ؛ ولكنها وسيلة لتحقيق تطلعات الطبقات الكادحة الفقيرة لرغبتهم في العلو والسمو كباقي بني الإنسان!

فقال ثعلبون : معك حق فكرة ذكية من ملوك تلك البلاد .. ماذا سنفعل لهذا المسكين ؟! .. فليس هنا أسود ليصارعها ضيغم ليصير نبيلا .

فقال جبل : يا رمح .. أترغب سيدتك فعلا بالزواج من الشاب الوضيع ضيغم ؟!

ـ إنها يا سيدي منذ حبس ضيغم لا تأكل إلا البلغة ، ولا تخرج للبساتين كعادتها الأولى بل هي منزوية في حجرتها ، وقد أصابها الوهن .. فهي ترغب رغبة أكيدة بالاقتران بذلك الشاب النبيل .

فقال جبل : قل لها لتهتم بصحتها وتخرج للبساتين ولتصبر ، وقل لها إن الفارسين جبلا وثعلبون يسعيان في أمرهما بإذن الله ، فعليها بالصبر والتحمل حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا

فسر رمح مم سمع وانطلق مسرعا نحو قصر القائد سالم ، فوجد الأميرة الصغيرة في انتظاره فقص عليها ما جرى ، ثم ذهب لفراشه حيث يرقد فنام .



زار الملك جبرون وبعض قادته الكبار الفارسين في قصرهما ، وقدموا له التعزية والمواساة ، وأخبرهما الملك أنه ذبح ألف خروف صدقة عن الفارس هزبر ، وأمر بتوزيعها على الفقراء والأيتام والأرامل ، فشكره الفارسان على تعاطفه وجوده ، ثم أثنى الملك وقادته على الفرسان الثلاثة ، وأعادوا ذكر كثير من محاسن الفارس الميت ، وانتقل الحديث أن الحزن على الأموات مهما ارتفع حبهم لهم ، فعلى الإنسان أن يهتم بالحياة وعمارة الكون ، فشكر جبل الملك على وده وصداقته ومحبته ثم قال جبل : يا مولاي .. وأنا في بلاد الملوك العظام التي يحكمها في هذا الزمان الملك شراب التقينا برجل يعرفك حق المعرفة يدعى أحمد بن طارق .. وقد خدمنا خدمة جليلة ، وهو يعمل كاتبا للوزير هناك ، وأرسل لك سلاما وأشواقا .

فقال الملك محاولا التذكر هيئة وذات الاسم المذكور : وعليكم وعليه السلام .. ولكن من هو أحمد بن طارق هذا ؟! وردد الاسم مرارا ، ثم قال : قلت يعمل كاتبا للوزير ، عمره كم يا ترى

فقال جبل مؤكدا ما نقل : هو يعرفك حق المعرفة وقال إنه لك صديق منذ عهد قديم وهو من عمرك كما أرى

وأخذ الملك جبرون يتذكر ويتذكر حتى تذكر فقال : نعم ، نعم ، تذكرت من هو صاحب هذا الاسم ؟! نعم ، هو من أصدقاء الطفولة .. أبوه طارق بن بدر .. هذا رجل كان من فرسان أبي منذ عهد بعيد ، وكان له ولد يدعى أحمد .. وقد جرى بين طارق هذا وفارس آخر من فرسان أبي – رحمه الله – شجارا كبيرا ، أصلح بينهم الملك الوالد ، وأمر والدي بنفي طارق هذا من البلاد .. فخرج هو وأسرته وبعض أقاربه من البلاد ، ويبدو من كلامك أنه استقر في تلك المدينة ومنذ ذلك العهد لم نعد نراهم أو نسمع أخبارهم .

رد الفارس فقال : هو ما تقول أيها الملك !.. ولما علم أننا من أصحابك ورجالك ساعدنا وأخرجنا من ضيق قد ألم بنا في تلك المدينة ، والحق أنه رجل عنده وفاء !

فقال الملك : جزاه الله خيرا .. أرجو أن أراكما في ديوان الحكم غدا كفاكم حزنا .

فقال جبل : سوف نفعل يا مولانا الملك ؛ ولكن لي طلب عند مولانا الملك .

فقال الملك متبسما : طلبك نافذ قبل أن أسمعه .

فقال جبل بخجل : بوركت يا مولاي ! ولكني أحللتك مما قلت حتى تسمع طلبي .

ضحك الملك وقال : قل ما هو طلبك الذي أحللتني منه ؟!

قال جبل : لي صديق يوم أن كنت خادما سائسا في قصر سيدي القائد سالم بن قنبرة ، فلما عدت من رحلتي وجدته طريح الحبس والقيد ، وفي نظري ما فعل ذنبا كبيرا ليقذف به في السجن .

فدهش الملك وقال : كيف ذلك ومن هو ؟!

فقال الفارس بهدوئه المعهود : صديقي ضيغم عشقته – يا مولاي– ابنة القائد الكبير سالم ، فرغبت بالزواج منه ، فرفض الأبوان ولهما الحق في ذلك ؛ ولكن ليس لهما الحق بحبسه كما أظن

كان طرده أحكم وأعدل أليس كذلك يا مولانا ؟!

فقال الملك : من ضيغم هذا ؟

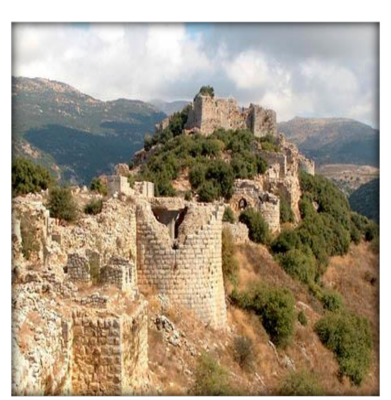
رد جبل قائلا : كان معي أسير عندما دخلنا هذه البلدة ، فهو أحد أسرى حربكم مع الضبع .

وذكر له بعضا من قصة ضيغم وأسره ، فقال الملك على أثر سماع القصة : أيها الفارس لأني أحبك وأقدرك سأفعل من أجل صاحبك ما أستطيع ، واعلم أن قانون بلادنا يسمح للقادة الكبار بتأديب غلمانهم ومواليهم بالسجن .. سأكلم ابن قنبرة .

فقال جبل متشجعا من تعاطف الملك معه : مولاي !! وما ذنب الشاب إذا تعلقت به الفتاة ؟!

وروى للملك ما شاهده في مدينة الجبال العالية ، وحدثه عن نظام الطبقات ومصارعة الأسود فوعده الملك بإخراج صاحبه من السجن وقال : أما الزواج فاعلم أني لا أستطيع إرغام أو حتى الطلب من قائدتا الكبير ذلك .. دع ذلك للأيام .

جزيرة النمور



وخرج الملك من بيت جبل وهو يتمتم لنفسه له في عنقي دين ، لقد أنقذ ولدي ، وقاتل عدونا ، وخسر صاحبه من أجل فتاة منا ، لابد من العفو عن ضيغم فلما وصل لديوانه وجد القائد ابن قنبرة جالسا مع الحاضرين فتشفع لديه للغلام ضيغم ، وذلك عن شفاعة الأمير جبل فقال القائد : افعل ما تراه مناسبا يا مولاي .. هو والحق يقال شاب مخلص وخادم طيب ؛ ولكن الفروق التي بيننا تمنعنا من تزويجه بابنتنا ، وحبسته لتقطع الأمل من اللقاء به .

فقال الملك : أنا لا أتحدث عن زواج يا قائدتا هذا شأنك .

فأمر الملك بإخراج ضيغم من السجن ، وإرساله إلى قصر الفارسين جبل وثعلبون واستقبل الفرسان ضيغما بالعناق والالتزام وهنئوا بعضهم بعضا ، ولما علم الشاب بمقتل هزبر

بكى وأسف وأظهر حزنه العميق عليه ، ثم روى لهم قصته مع الأميرة ريم ، فلم تزد على ما قاله رمح وختم اعترافه قائلا : سوف أرحل عن هذه البلاد ؛ لعلي بالبعد أسلوا عن حبي لهذه الفتاة فأنا أعرف من أنا ؟ .. وأنا أعرف من هي ؟! .. صدقوني أنني قاومت هذا الغرام بكل قوة ؛ ولكني ضعفت وغلبني الهوى فهمت بها .

فقال جبل متأثرا من ضعف ضيغم : أيها الإنسان .. سأبدأ بتعليمك الفروسية لتصبح منا .. واعلم أنني تأكدت أن الفتاة تحبك وترغب بك بعلا لها .

فقال ضيغم بحسرة وغصة : أعلم هذا يا سيدي ! وأنا أتمنى أن تكون من نصيبي ؛ ولكن كما تلاحظان فإن الأمر ليس سهلا ميسورا .. فالابتعاد خير لي وخير لها .

فقال ثعلبون مازحا : أتصبر على الفراق أيها العاشق ؟

فرد ضيغم وهو يتنهد بعمق وألم : لقد صبرت أكثر من ثلاثة أشهر في السجن ، ولولا تدخلكم لمكثت فيه العمر كله ..من يفكر بي ؟!من يسأل عني ؟ .. فماذا فعلت لي ؟؟ ولكن فكرة تعليمي الفروسية قد ترفع من مقامي في المستقبل عند هؤلاء الناس .

فقال جبل مشجعا : أحسنت .. اصبر قليلا يا ضيغم ! ثم نفارق هذه المدينة سوية .. ولا تيأس من اللقاء بها في يوم من الأيام ، وسلم الأمر كله لله .

فقال ضيغم : متى يبدأ الدرس الأول يا سيدي الفارس .

قال جبل : صباح الغد إن شاء الله .



ومكث جبل شهورا ثلاثة في بلاد التين بعد عودته من بلاد الهند ، ثم استأذن من الملك بالرحيل فتعجب الملك ورجاله من هذا الطلب ، فقال جبل : مولاي ! لا أنسى كرمك وحبك لنا ..

واعلم أنني سأبقى جنديا من جنودك أيها الملك ، وعندما أعلم في أي وقت أنك في قتال مع العدو سأكون مع جيشك الباسل .. ولن يهدأ لي بال حتى أتخلص من الضبع فقدر علينا أيها الكرام الترحال بين مدن الدنيا .

وبعد جدل طويل اقتنع الملك بأفكار جبل ، وقال لهم مودعا :اعلموا أيها الفرسان ..أن المنزل سيبقى لكم ، وهو في انتظاركم في أي وقت حللتم فيه هذه المدينة .

وغادر الفرسان بلاد التين ، وقبل المغادرة وصلت لضيغم رسالة من ريم تعده فيها بالصبر والانتظار ، وأنها لن تتزوج إلا منه مهما طال الزمن ، وسار الفرسان نحو البحر الكبير ، وكان جبل يرى أن النصر على الضبع لا يتحقق إلا بهجوم قوي من جهة البحر وهجوم آخر متزامن معه من جهة البر ، وقد سيطرت هذه الفكرة الصعبة على قلب الفارس ، فهو سائر للبحث عن حليف بحري ليغزو به بلاد العقرب ، وقد تفاهم على ذلك مع ملك بلاد التين ، وصل الفرسان إلى مدينة القمر مدينة تقع في الشرق وجنوب بلاد التين ، ومنها مشوا إلى ميناء تابع للمدينة ، واتفقوا مع ربان سفينة كبيرة مسافرا إلى جزيرة النمور بأن يحملهم إليها مع جيادهم فوافق وقبض أجرته ، وبعد عشرة أيام تجهزت السفينة وأخذت حمولتها من الركاب والبضائع واستعدت للإقلاع ، ولما جلس الفرسان في أماكنهم في جوف السفينة علموا من القبطان أن الوصول لجزيرة النمور يحتاج لسبع ليال في أحوال جوية طبيعية ؛ وإذا ساعدتهم الرياح قد يصلون في خمسة أيام ، وتحركت السفينة الضخمة في هدوء إلى الجزيرة ، واستمتع الفرسان بهذه الرحلة البحرية ، ومضت الرحلة هادئة حتى رست على ساحل جزيرة النمور بسلام ، وهبط الفرسان وعدد من الناس وبعض التجار وصعد آخرون ، وعلم جبل من الربان أن كل نصف شهر ترسو سفينة من بلاد القمر على سواحل جزيرة النمور ، وأخبره أن هناك مراكبا صغيرة تنتقل بين المدينتين ، وبعد استراحة يوم أو أكثر تابعت السفينة سفرها إلى جزائر أخرى ، كانت جزيرة النمور جزيرة واسعة وفيها الجبال والأنهار الصغيرة والغابات ، وعدد سكانها كثير ، ويحكمها ملك كبير في السن لما وجد فيها جبل ورفاقه ، وكان قصره بعضه في البحر ، وأكثره

في البر ، والأمن والعدل والهدوء ينعمون بهم أهل تلك الجزيرة ، ويتبع لها عدة جزر صغيرة ، ولا يخلو منزل من منازلها من مركب كبير أو صغير ، فأغلب سكانها يعملون في صيد البحر ، وفي حي قريب من أحد سواحل الجزيرة استأجر الفرسان بيتا واسعا ، ومن ثم اشتروا غلاما وجارية للقيام على خدمتهم ، ولما استقر الفرسان في الجزيرة درسوا أوضاع الجزيرة ، وأخذوا يتعلمون العوم والغطس تحت الماء ، وتملكوا قاربا صغيرا يدخلون به البحر ، وكان جبل في نفس الوقت يتابع تدريب ضيغم ، ويعلمه فنون القتال بالسيف والقفز على الجواد والكر والفر ويساعده ثعلبون في ذلك ، ومضت عليهم سنة في الجزيرة وهم ينعمون بالهدوء والحياة المستقرة فصار على أثرها ضيغم فارسا من فرسان السيف والسنان ، فقد أتقن فن المبارزة والمطاردة والعوم .

وانتشر فجأة في الجزيرة الهادئة عصابة تعيث في الأرض فسادا ، وقد قتل بعض الناس ، فانزعج الملك الشيخ مروان بن أسد ، فطلب من رئيس شرطته التحرك بسرعة للقضاء على المفسدين ، فقد تكدر الناس لهذه الجرائم الغريبة على أهل الجزيرة المسالمة الوادعة.. فلما حدثت جريمة أخرى اضطر الحاكم لعزل رئيس الشرطة وتعيين رجل آخر مكانه للقيام بمهمة القضاء على العصابة ، فأعلن الرئيس الجديد مكافأة مجزية لمن يرشد على هؤلاء المجرمين الذين أخلوا بأمن وهدوء الجزيرة ، وانشغلت البلد بهذه الجرائم التي دهمت الجزيرة وكثرت الاشاعات المرعبة ، وبينما القوم منشغلون بذلك الهم احتل جيش من الغزاة أحد سواحل الجزيرة ، فاضطربت البلاد لهذا الحديث ، وأدرك الحاكم ووزيره أن هذه الجرائم دبرت لاشغال الناس عن الجيش الغازي وأن هذه العصابات كانت تمهد لنزول واحتلال الساحل من غير أن ينتبه الناس لهم .

فقد هبط ما يزيد عن خمسة آلاف محارب على ساحل البحر في منطقة خالية من السكان والحراسات كانت تحملهم سفن كبيرة ، فذعر أهل الجزيرة للحدث ، فطلب الحاكم من قائد الجيش وحرس السواحل بالاستعداد والتحرك العاجل لميدان القتال لصد الغزاة وطرد الأعداء وقبل خروج الجيش جاءت رسالة للحاكم من الملك الغازي يطلب منهم أموالا وأنعاما وعبيدا

وإلا الحرب ، وعلى الفور رفض الملك مروان بن أسد مطالب الملك شهلب ملك جزيرة النمر الأحمر ، والتقت جيوش الجزيرتين ، وظهر للفرسان الثلاثة الذين يتابعون الأحداث أن جند الجزيرة لا يصلحون للقتال والدفاع عن جزيرتهم ، وأدركوا أنهم لا صبر لديهم على الحرب وويلاتها ، وسوف يرضخون للغاصب ، فقال جبل لرفيقيه : إنها فرصتنا لنتدخل في شأن هذه الجزيرة !!

فذهب لقصر الحاكم مروان وعرض عليه سيفه بجسارة ، ووجدت هذه الجسارة ارتياحا لدى الحاكم ، ووعده الملك خيرا كثيرا إن استطاع دحر العدو ، فصحبهم الوزير لميدان القتال ، فوجدوا أن قائد الجيش قد أرسل وفدا للتفاوض مع الملك شهلب على التسليم والرضوخ لشروطه ومن غير علم الملك ، فغضب الوزير ، وأخبر القائد بعزله ، وأرسل وراء الوفد بالعودة وقطع المفاوضات ، فقال القائد مبررا ضعفه : إنهم أقوى منا ولا قدرة لنا على الاستمرار في الحرب ، فنسالمهم على بعض المال أحسن من أن نخسر الأنفس والأموال كلها !

فلما سمع جبل الفارس الشجاع كلام وتعليل قائد الجيش للمصالحة تدخل بحنق خفيف وقال : أأنت قائد جيش ؟! إني أراك مع عدوك ؟!

وأخبر الوزير قادة الجند بأن الفارس الأمير جبل بن مجدو قد أصبح قائدا للجيش حتى تنتهي هذه المعركة ، فعليهم طاعته وتنفيذ خططه ، فاستغرب الأمراء والقادة لهذا الرجل الغريب ، ولم يروه إلا في هذه اللحظة ، فتابع الوزير قائلا : بعد الانتصار على العدو ستعلمون من هو الفارس المشهور بابن الخباز جبل .

فسخر قائد الجيش المعزول وبعض القادة مما سمعوا وضحكوا وقال : سنرى ما يفعل فارسك أيها الوزير ؟! ..من هو جبل هذا ؟!

فبادر جبل بالكلام فقال بصوت قوي : أيها الرجال ! .. لماذا أنتم جيش ؟ لماذا أنتم قادة ؟ أليس من أهم واجباتكم حماية البلد من العدو والدفاع عن الملك والناس في هذه الجزيرة ؟!.. فالجندي الحقيقي عليه أن يقاتل حتى يموت قائده ورئيسه ، وفي تلك اللحظة إما أن يموت

الجندي متأسيا بقائده أو يستسلم ..فهذا ملك غازي يطمع في أموالكم ومتاعكم ، ولن يكف عن غزو بلادكم إن لم يجد صدا ودفاعا قويا .

وأخذ جبل ينفث في روعهم الحماس والاستبسال ويهيجهم على الحرب ، ثم قال في النهاية : من يحب أن يقاتل معي أعداء بلاده فليبق ؟ ..ومن أراد أن ينسحب فليتبع قائد الجيش المعزول ؟ فلا أريد أن يبقى معنا إلا من أحب الموت والنصر

فانسحب قائد الجيش وعدد كبير من أعوانه ، ولم تمض ساعة على خطاب جبل حتى خلا الميدان ولم يبق مع الفرسان إلا ما يقارب ألف مقاتل ، فقال الوزير : ماذا فعلت أيها الفارس ؟!

قال جبل بحماس وثقة : هؤلاء هم الجنود الحقيقيون أيها الوزير .. فأرسل رجالك إلى المدينة يستصرخون الناس ويناشدونهم من أحب أن يدافع عن نفسه وماله وعرضه فليلحق بالجيش واعلم أيها الوزير لو ظل هؤلاء في الجيش لخذلوه وقت الشدة .

فبعث الوزير مستسلما لارادة جبل مساعديه للمدينة ينفذون طلب الفارس ومناشدة الناس للدفاع عن شرفهم وجزيرتهم ، وفي هذه الأثناء طلب جبل مقابلة الملك شهلب ، فلما التقيا قال له : أيها الملك ماذا تريد من هؤلاء الناس المسالمين ؟!

فرد عليه الملك شهلب : طلبنا بعض الأموال وبعض الخيل والأنعام والعبيد والإماء ؛ فإن رفضتم فلن نغادر الجزيرة هذه قبل أن نأخذ مطالبنا .

فقال جبل : أيها الملك !! ولكن هذا ظلم وجور ، ولا يجوز أكل مال الناس بالباطل .

فقال الملك : هذه مطالبنا .

فقال جبل : ما رأيك أيها الملك بغير ذلك ؟

فقال : تكلم ؟

فقال جبل : إنني اعرف بلادا تسمى بلاد العقرب ، وهي مطلة على ساحل البحر ، وفيها من الأموال والأشياء الكثير الكثير.

فقال شهلب : أتريد أن تصرفني عن بلادكم إلى بلاد بعيدة ؛ لتتخلص مني وتهلكنا ، فهذه حيلة

لا تنطلي علينا ادفعوا أو دافعوا ؟

فقال جبل : ولكني سأحارب معكم .. إن ملك تلك المدينة ظالم طاغية لا يعرف الرحمة .. فنحن بمحاربته نخلص الأرض من شره ونكسب أمواله .

فقال شهلب : من أنت ؟!

فقال جبل : أنا أحد الذين صارعوا ذلك الجبار من جهة البر قبل مجيئي لهذه الجزيرة ، ولولا قلة جيشي وحصانة مدينته لحطمته وسحقته ومزقت مملكته تمزيقا . تفوه جبل بكلماته الأخيرة بعنف وشدة وحقد وقوة .

فقال الملك شهلب : دعنا من أفكارك وأحلامك وأحقادك الآن .. فلنتبارز فإن فزت عليّ أفكر بما عرضت عليّ .

فقال جبل : أخشى أن تغضب عليّ إذا فزت عليك .

فقهقه الملك وقال ساخرا : تغلبني أيها الفارس ! أنت لم تعرف يا مغرور شهلب .

فقال جبل : فإن كان ولابد .. فلينزل لي أقوى فرسانكم ؛ فإن انتصر عليّ أقر لك بالغلبة ، وإن هزمته اتفقنا على الصلح .. وإني أرغب بأن نكون أصدقاء .. ونغزو في البحر معا .

فقال شهلب : راق كلامك لي ..وسيبارزك أشجع فرساننا لنرى غرورك .

فركب جبل جواده وأشار لثعلبون بالاقتراب ، وأطلعه على جلية الأمر ليخبر الوزير ، واستدعى الملك أبرع فارس عنده شبورة ، وتناطح الفارسان ، فشبورة من الأبطال المعدودين عند الملك شهلب ، ولكنّ جبلا فارس عنيد ومجرب ، وقد خاض مئات المعارك ؛ لذلك خلال دقائق كان سيف شبورة يفارق يده ، وتطاعنا بالرماح وفي وقت يسير تخلى شبورة عن رمحه ووقع عن جواده ، فقفز جبل عن ظهر جواده وتشابك الفارسان بالأيدي ، ثم بطح جبل خصمه ووضع الخنجر على عنقه لحظات ثم تركه ، وهو يقول : معذرة أيها الفارس .. اذهب لمولاك وقل له كيف رأيت طعنات الفارس ؟

وكان الملك يراقب المبارزة فدهش من قوة جبل وسرعة حركته فصاح : اثنان أيها الفارس ؟

فأجابه جبل وهو يرفع يده متحديا : أرسل أربعة .

فأحاط به أربعة فرسان ، فقال لهم : كل من طار سيفه من يده يعتبر مهزوما .. ومن سقط عن حصانه يعتبر مهزوما كذلك..لا أرغب بقتل أي فارس منكم .

فهزوا رؤوسهم بالموافقة ، والتقت السيوف ، فبان للعيان أن جبلا فارس الهيجاء وبطل المعارك المجرب ، وما هي إلا دقائق حتى كان كل فارس يذهب لالتقاط سيفه المحلق في الهواء ، فصاح الملك : عشرة يا جبل ؟!

فقال جبل : عشرة !

فاندفع عشرة فرسان بإشارة من الملك ، فوضح لهم جبل شروط الصراع ، فكان الفارس ضربة واحدة إما أن يطير سيفه في الفضاء أو يقع عن ظهر جواده ، وانتصر البطل على عشرة ، فقال الملك المتعجب والمنبهر من قوة جبل الباهرة : أمثلك كثير ؟!

فأشار جبل لثعلبون أن يتقدم ، فقال ثعلبون للملك بعدما حياه : أنا مستعد لملاقاة فرسانك .

فقال الملك المبهور لفرسانه : أين صروفة ؟

فأجاب صروفة : سيدي !

فأشار له الملك لمبارزة ثعلبون ، وطلب جبل من ثعلبون ألا يقتله أو يجرحه وتبارزا ، وثعلبون لا يقل عن جبل فروسية وخبرة ، ففاز على الفارس بسهولة ، فنزل اثنان فلحقا صاحبهما ، فتحداه عشرة فغلبهم ثعلبون ، فعقدت الدهشة الملك وفرسانه لقوة هذين الفارسين ، فقال لمن حوله : لابد أنهم من الجن !

فقفز الملك عن جواده وتقدم نحو الفارسين مستسلما ومعجبا من بأسهما وعانقهما بحرارة ، فقال جبل : ما ترى يا صاحب التاج ؟

فقال الملك : يجب أن تعلمنا هذه الفنون أيها الشجاع .. إنكم والله من سادة الفرسان ! .. كنت أظن أنه لا يوجد لنا مثيل في الدنيا ..فأنا أقر لكم بالهزيمة .. وهذه أول مرة أشاهد مثلكم في حياتي !

فلقد تركت الشجاعة أثرها على قلب الملك فانجذب للفارسين ثم قال : كيف لم تنتصر على ذلك الملك الذي حدثتني عنه .. الملك الظالم ؟!

قال الفارس : جيوشه كبيرة ، وقلاعه حصينة ومتينة ، فلا يمكن دخلوها إلا من جهة البحر ، ومن أجله جئت لهذه الجزائر أريد جيشا قويا لأغزو به ذلك الملك الطاغية .

فقال الملك شهلب : أمرك غريب ! ولابد من سماع قصتك .. ما العمل الآن ؟

قال جبل : تتصالح الجزيرتان ونذهب إلى الملك مروان وتتحالف الجزيرتان وبعدها نغزو بلاد العقرب فهناك الخيرات الكثيرة والكنوز العجيبة التي يجمعها الضبع بجبروته وظلمه وبطشه

وكان جبل قد أشار للوزير وزير الملك مروان بالمجيء ، وقد لبى نداء جبل فأقبل مسرعا وهمس في أذن جبل : أقبل الناس وهم يحملون المدى والحراب والعصي .

فقال جبل : أرأيت حب الناس لوطنهم ؟!.. على كل حال انتهت الحرب .. وسننظم جيش البلاد المهلهل الضعيف .. لقد رضي الملك شهلب بالصلح والسلام بين الجزيرتين .

فتقدم الوزير من الملك شهلب وصافحه ، وصافح وزيره ومن معه ، ورحب بهم ضيوفا على البلاد ، فأخذ الناس بالهتاف للفارس جبل والترحيب بالملك الغازي ، وفرح الناس للصلح ، وتقدم وفد مع الملك بصحبة الوزير والفرسان ووجوه أهل المدينة إلى قصر الملك مروان ، وعقد الملكان صلحا بين المدينتين ، واعتذر الملك شهلب عن إساءته لأهل الجزيرة ، وتعهد بدفع ديات الذين قتلهم رجاله والتعويض على من أصابهم ضرر ، ولما تم عقد السلام بينهم ، وهب الملك مروان الفرسان الثلاثة ثلاث جواهر باهرة الجمال والحسن ، وأهدى للملك ورجاله هدايا قيمة ، وصنع لهم وليمة عظيمة ، وبعد أيام ثلاثة غادر الملك الغازي والفرسان بصحبته الجزيرة إلى جزيرة النمر الأحمر ؛ ليضعوا خطة ذكية يحتلون بها مملكة الضبع ، فكانت الخطة هي تكوين جيش قوي من رجال الجزيرتين ، يعدهم الفرسان الثلاثة لخوض حرب قوية مع التحالف التام مع الملك جبرون والملك سليل ، هؤلاء من البحر وأولئك من البر ، ثم قال جبل بعد أن بسط خطته : الخطوة الأولى صناعة عدد من السفن الكبيرة لتحمل الجنود والخيل والطعام ، وصناعة

المئات من المراكب المختلفة الأحجام ، وإعداد بحارة محترفون لهذه السفن والمراكب .. ثم تابع فقال : وسأعد عددا من الفرسان ؛ ليقوموا هم بإعداد الفرسان الذين سوف يشاركون في المعركة الفاصلة .. وخلال سنوات ثلاث أو أربع أو خمس تجهز السفن والجنود وتنطلق الحملة الكبرى التي حلمت بها منذ سنوات .. بعد أيام سأعود واتفق مع الملك مروان ، واشرح له تفاصيل الخطة .

وشرح جبل للملك شهلب وحاشيته قصته مع الملك الضبع وبلاد العقرب ، ثم اتفق جبل مع صناع السفن المهرة على صنع سفينة كبيرة كل سنة وما استطاعوا من المراكب ، وذلك في كل جزيرة ، وقام جبل وثعلبون بتدريب مائة فارس في كل جزيرة ؛ ليقوموا هم بدورهم في تدريب وإعداد الفرسان للحملة المطلوبة ، ولما دخل الشتاء طلب جبل من ضيغم بالمسير لبلاد التين وبلاد الدب ليأتيهم بأخبار المدينتين ، فتنكر ضيغم وسافر برفقة غلام لهم .

ضيغم في بلاد الدب

فلنترك جبلا وثعلبون يعدون جيشا بحريا قويا لغزو بلاد العقرب الأحمر ، ونسير مع فارسنا الجديد ضيغم ، ففي أول سفينة سائرة إلى مدينة القمر أخذ ضيغم والغلام مكانا لهما ، وبعد أسبوع وصلوا إليها فاستراحوا فيها يومين آخرين ، ومنها ساروا نحو بلاد التين ، والتقى ضيغم بصاحبه جدار ، ومكثا فيها نصف شهر ، فعلم أن معركة عنيفة حدثت بينهم وبين الضبع ، ثم عادوا للصلح الهش ، وعلم ضيغم أن أحد قادة الملك جبرون قتل في الحرب الأخيرة ، وأن الملك جبرون أقسم على غزو بلاد العقرب مطلع الصيف القادم ، ولم ينس صاحبنا ضيغم غرامه في هذه البلدة ، فاتصل بصديقه رمح ، فعلم منه أن فتاته ما زالت على الوعد والعهد ، ولقد راودته نفسه بالسعي للالتقاء بها ؛ ولكن صاحبه جدار حذره من ذلك الاندفاع خشية الوقوع بين أيديهم ورميه في الحبس من جديد ، وقد وافق جدار على مصاحبته في رحلته لبلاد الدب ، فتخلص جدار من خدمة الأمير سالم ، وقبل الرحيل كتب ضيغم رسالة للأميرة المحبوبة بث فيها أشجانه وأشواقه ، وأنه ما زال على العهد ، ولابد أن تتغير الأحوال والعقبات ، ولابد من

اللقاء بمشيئة الله ، وفي يوم مغادرتها دفع جدار الرسالة لرمح ولما قرأت الأميرة الرسالة طلبت من رمح مساعدتها للقائه ، فأخبرها أنه غادر البلد ، فكانت بين الفترة والأخرى وكلما تخلو بأحلامها ونفسها تقرأ الرسالة ، وما خطه العاشق من كلمات الهوى والغرام والأمل ، فتملأ نفسها بالحياة والحب ، حتى أن أمها لمحت هذه اللمحات الخاطفة في حياة ابنتها الكئيبة ، فتابعت الأمر ، فوقعت بين يديها الرسالة ، فقالت لنفسها بعدما قرأتها : لقد أسأت لك يا ابنتي بمنعك من الزواج منه ؛ ولكن أنت أميرة بنت أمير وقائد ، وهو عبد رقيق كيف يكون هذا الزواج ؟! .. وأبوك الآن مريض لو أطلعته على هذه الرسالة قد يموت من الألم والقهر .

وحاولت معرفة الطريقة التي وصلت بها الرسالة للأميرة فلم تصل لشيء ، وتحرت عن ضيغم فثبت لديها أنه ترك المدينة منذ زمن بعيد ، ولم يرجع إليها فركنت للصمت ، وأنها دخلت إلى القصر عن طريق العبيد ، ولما علمت ريم أن الرسالة عند أمها زاد حنقها وجفاءها لأمها ، وأصرت على عودة الرسالة إليها ، فاستسلمت الأم لرغبة الفتاة وأعادت الرسالة وهي حائرة في الخطوة الصحيحة لمعالجة أمر هذه الفتاة التي خرجت عن تقاليد الأسرة وتعلقت بشاب خادم لهم حتى انتشر هواهما في كل المدينة .

وكان ضيغم وجدار والغلام برمو قد ابتعدوا عن بلاد التين متجهين إلى بلاد الدب القطبي التي وصلوا إليها من غير عقبات تذكر ، فلمسوا على الفور أن المدينة ما زالت في حالة حرب وتوتر وكثرة الحرس على الأسوار ومداخل المدينة ، وتغلق أبوابها مبكرا مع غروب الشمس ، ولا تفتح في الليل البتة ، فقال ضيغم لرفيقيه : سنمكث هنا زمنا مناسبا .. فهذه المدينة ولد فيها الأمير جبل والأمير ثعلبون ، وفيها تعلموا فنون القتال .. وأصبح صديقي جبل أميرا لها بعد أن طرد الغزاة عنها .. وهو قد أسس جيشها القوي .. فلنسكن في فندق جميل في قلب المدينة .

ولما حل عليهم الظلام ولم يغادروا المدينة أخبرهم صاحب الفندق أن رجال الشرطة يطلبونهم لأنهم من الأغراب ..فقادهم شرطي إلى مكان مراقبة ومتابعة الأغراب ، وهناك سألهم قائد الموقع عن سبب تواجدهم في المدينة ، فذكروا له أنهم قادمون من بلاد التين ، واعترف لهم جدار

بأنه كان يعمل في قصر القائد سالم بن قنبرة من كبار قادة الملك جبرون ، واعترف ضيغم بأنه كان غلاما للأمير سالم ، وأن الأمير أعتقهما فغادرا البلاد ، وأن الشاب الثالث غلام لهما ، وهم يرغبون بالحياة في هذه المدينة ، فقال القائد : سوف نتثبت من هذه المعلومات ، واحذروا أن تكونوا من جواسيس الضبع فعقابكم السجن إلى الأبد إذا ثبت عليكم ذلك . وأخلى سبيلهم . فأدرك ضيغم أن الأمور متوترة ، وهناك حذر شديد من الغرباء ، وأن أصحاب الخانات والفنادق يتعاونون مع رجال الشرطة ، فقال ضيغم لأصحابه : علينا الحذر في تصرفاتنا ، فهم يعيشون في قلق دائم من الملك الضبع .

وبعد أيام قد قضوها في الفندق استأجروا بيتا صغيرا ، وذات مساء قال الغلام برمو : سمعت الناس يتحدثون عن مبارزات ومسابقات ستقوم غدا بين الفرسان فما رأيكم بالفرجة عليها ؟

قال ضيغم : لا بأس .. ذكرنا بذلك صباحا .

وسار الأصدقاء ضحى إلى ميدان المسابقات ؛ فإذا هو مكان فسيح معد للمبارزات ومسابقات الخيول ، والناس تتوافد لمشاهدة فوج جديد من الفرسان قد أكملوا تدريبهم ، فلما حضر أمير الجيش القائد قيس دخل الفرسان للميدان يستعرضون ما تعلموه أمام قائد الجيش ، فيتبارز فرسان قدامى مع فرسان جدد ، ثم جرى سباق على ظهور الخيل بين المتنافسين ، ويستمر الاستعراض حتى العصر ، ثم يثني الأمير على المشاركين ، وينصرف الجميع فرحين بانضمام فوج جديد من الفرسان للجيش ، وعلم ضيغم أن التدريب مفتوح لكل سكان المدينة فقال لصديقه جدار وهم عائدون للبيت : ما رأيك أيها الصديق بتعلم الفروسية في هذه المدينة ؟! فأنت تنضم لسلك الفرسان ، وأنا أختبر نفسي وأتاكد من التدريب الذي تلقيته من الفارسين فقال جدار : فكرة جديرة بالاهتمام .. فلنلتحق بمدرسة تدريب الفرسان .. فجارنا سعيد مدرب فيها فلنتحدث معه ، قد أصير فارسا مثلكم ؛ ولكن ألا نتأخر بالعودة على الفارس جبل ؟

فقال ضيغم همسا : الفارس غير مستعجل على رجوعي ؛ لأنه يقوم بمهمة كبيرة تحتاج لسنوات

فقال جدار : إذن على بركة الله أيها الصديق الطيب .

والتحق الشابان النزيلان بمدينة الدب بمدرسة إعداد الفرسان بشفاعة من جارهم المدرب سعيد ، وجرت لهما الاختبارات اللازمة ، فلما اجتازاها رخصوا لهما بالالتحاق بالتدريبات الخاصة بالفروسية ، واكتشف ضيغم خلال فترة التمرين والتدريب أن تدريبات جبل وثعلبون أقوى وأشد ، وبعد مضي شهور ستة أخبرهما مدربهما أنهما يستطيعان المشاركة في العرض القادم للفرسان ، وبين المدرب لضيغم أنه فارس متقدم على أقرانه ، ففرح ضيغم بهذه الشهادة .. وجاء يوم الاستعراض المنتظر ، وعلى جواد التدريب الذي قدمه له المدربون استعرض ضيغم مهارته أمام الأمير قيس والناس حتى شك مدربه أنه هو الذي دربه ، وأما جدار فقد قدم عرضا متواضعا ، ثم أتى دور المبارزة والمصارعة ، فقد تفوق ضيغم على عدد من الفرسان القدامى ، مما دفع قيس أن يقول لمدربه : هذا فارس بارع يا أبا مالك ؟!

فرد المدرب قائلا : هو ما تقول يا سيدي الأمير ! ..حركاته وطعناته تذكرني بفارسنا القديم جبل بن مجدو مدربي الأول ..وهذا الشاب نزيل على بلادنا فأصله من بلاد التين ، وقد كان غلاما عند القائد سالم بن قنبرة هو وصاحبه جدار ، وقد تأكدنا من ذلك أيها الأمير ..فلما أعتقهما من الرق قدما لهذه المدينة .

فقال قيس : أخشى أن يكونا دسيسة ؟!

قال أبو مالك : اطمئن يا سيدي الأمير لقد تأكد لقائد مراقبة الغرباء أنهم من بلاد التين .

فقال قيس : على كل حال هو فارس جيد ومع ذلك احذروه حتى نتأكد من وفائه لهذا البلد .

فقال المدرب : سوف نكلفه بمهمة تظهر لنا إخلاصه من غشه .

وتقدم القائد للجيش قيس ، وهنأ الفرسان الجدد على همتهم ونجاحهم ، ورحب بالتحاقهم في الجيش وانتهى الاحتفال .

وبعد أيام من هذا الإنجاز في حياة ضيغم وجدار علموا أن الشرطة قد قبضت على عصابة جواسيس تابعة لبلاد العقرب ، ومن ثم تم إهلاكهم أمام أعين الناس ، فعذر الصديقان القوم

في شدة متابعتهم للأغراب، وكان هذا الحدث يتردد في مجالس أهل المدينة الصامدة ، وبينما هما في زيارة لجارهم المدرب سعيد الذي ساعدهم بالانتساب لمدرسة تدريب الفرسان يهنئونه بولادة حفيد من ابنه الأصغر ، أتاهم رسول من مدربهم أبي مالك بصحبة الغلام برمو ، فانطلقوا إليه مسرعين فرحب بهم وهدأ من روعهم وقال : اتبعوني إلى قصر الأمراء وقلعة الحكم .

فمشوا نحو القلعة الضخمة والمحصنة والمكتظة بالجند والفرسان المهرة ، وأدخلهم إلى قاعة واسعة ، وهناك قال لهم أبو مالك وهو يشير لضيغم : أيها الفارس .. لقد أثبتّ أنك جدير بحمل السيف الذي تضعه على جنبك ، وأثبتت بأنك الفارس الجديد بالاعتلاء على سرج الجواد .

كان الفارسان حائرين وخائفين من هذه الدعوة العاجلة ، فما زالت الحيرة ترتسم على وجهيهما رغم تطمينات المدرب لهما في الطريق ، فهم يخشيان وشاية ضدهم تغرقهم في محنة قاسية ، فبعد أن أثنى المدرب على فروسيتهما ، قال المدرب : الحق أن الذي أشار عليّ بالاستفادة من بسالتكما ولترتفع مكانتكما في البلاد الأمير قيس أمير الجيش ..فسترافقان سرية من الفرسان لتنفيذ مهمة ملكية .

فارتاحت أعصابهما للكلمات الأخيرة ، وقال ضيغم : ما هي هذه المهمة ؟!

أبو مالك : هل أنتم مستعدون للعمل مع فرساننا من أجل بلادنا أم تخشون على حياتكم ؟

فقال ضيغم : أيها القائد سوف ترى من إخلاصنا وتعاوننا ما يسرك ويؤكد لكم أننا صرنا منكم فرد المدرب فرحا بما سمع فقال : هذا ما أكدته للقائد قيس ..والآن فاعلما أن قافلة كبيرة لنا تحمل تجارة لمدينتنا تعرضت لسطو من قطاع السبل .. بالقرب من جبل الرعب ، فقد داهم المجرمون القافلة وقتلوا الحراس ، وقد سلب اللصوص الأموال والجمال والبغال والغلمان والتجار ، ومن نجا وهرب وصل ليلة أمس ، وهم في وضع مؤلم .. فمولانا الملك يريد إرسال حملة من مائتي فارس لغزو الجبل المرعب وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الناس والأموال ..هذه هي

المهمة التي نرغب بمشاركتك بها أنت وصاحبك جدار ، وهي مهمة خطيرة يحفها الهلاك تذكر ضيغم صديقيه جبلا وثعلبون ومغامرتها مع وحوش ذلك الجبل وقتلهم لزعيم الجبل ، ورد على القائد المدرب بحماس ودون تردد : أنا أرحب بالمهمة ، فما تقول يا صاحبي ؟

فقال جدار بحماس : أنا معك أيها الصديق أين ما تحل وترحل ؟.

وأخذهما المدرب بعد رضاهما إلى أمير الجيش قيس ، فرحب بهما وأثنى على نخوتها ومرؤتها ، ووعدهما بحسن المكافأة وبالمحافظة على غلامهما برمو ، ومنحهما جوادين ، وعين ضيغما مساعدا ونائبا لقائد الحملة الفارس العملاق شهاب ، وانتشر خبر الحملة بين الناس فسعدوا لذلك وارتاحت نفوسهم لها ؛ لما أصابهم من الألم بخسران القافلة وسرقتها من رجال العصابات والجبال .

اجتاز فرسان الحملة الجبل العملاق المحيط بالمدينة ، وتابعوا السير إلى جبل الرعب أو جبل الخوف الذي مر ذكره في أول القصة ، فقطعوا إحدى الغابات بدون حوادث تذكر سوى مرض بعض الفرسان ، وعندما اقتربوا من الجبل والوادي المخيف أرسل قائد السرية مع غلامه رسالة شفوية لرجال الجبل يطلب منهم القافلة والأسرى أو الحرب .



جبل في المعركة

وعاد الرسول ومعه بعض رجال العصابة ، فقال أحدهم : يا رجال مدينة الدب ينصحكم الزعيم لهب الليل سيد هذا الوادي بمغادرة هذا المكان قبل فوات الأوان ..هل سمعتم ؟!

فأجابه قائد السرية شهاب : لقد سمعنا أيها الرجل ! ونحن لن نغادر هذا المكان قبل أن نسترد أهلنا وأموالنا أو الموت .. ننتظر لصباح الغد ؛ فإذا لم تعيدوا ما سرقتموه سندخل عرينكم ونقاتلكم حتى النصر أو الموت .

فصاح رسول لهب الليل : أنتم مصممون على القتال ؟

فصاح رجال السرية : نعم ، وألف نعم .

فقال مهددا ومخوفا : احذروا أيها الموتى ، لا تدرون متى ننقض عليكم ؟

وعاد رجال العصابة أدراجهم إلى قلعتهم في قمة الجبل ، وأمر شهاب رجاله بالحذر والتهيؤ لدخول وكر الثعلب .

ولما ظهر الصباح وأشرقت الشمس بنورها الوضاح وملأ النور الفضاء ، كان رجال الجبل يعسكرون قرب فرسان مدينة الدب وعلى رأسهم الزعيم لهب الليل الرجل الأعرج الذي طعنه جبل في صدره ولم يقتل للبسه يومئذ الدرع ـ كما يذكر القراء لهذه القصة الممتلئة بالفرسان ورجال السيف ـ وعرض عليهم الزعيم الانسحاب مرة أخرى ، فأبوا وقال عنهم شهاب : لن ننسحب ولن نستسلم أيها الجبناء ؛ فإن كان لابد من الموت فمن الذل والهوان أن يموت الإنسان جبانا .. إلى الموت يا فرسان الملك سليل بن شامة .. إلى الموت أيها الرجال البواسل !

وتصايح الفرسان ودارت معركة بين الأشراف وبين الأنذال ، وسقط القتلى من الطرفين ، ولقد بذل شهاب وضيغم جهدا متواصلا ، ولكن كان عدد اللصوص يفوق رجال السرية ، وهم مقاتلون مهرة ؛ لأن كثيرا منهم فرسان منفيون أو حاقدون على ملوكهم ، وثائرون على بلادهم فاندمجوا في حياة الجبل ، وما أشرفت الشمس على المغيب حتى استسلم كثير من أحياء مدينة الدب من هول وشدة المعركة رغم مناشدة شهاب لهم بالصبر والثبات والقتال حتى الموت ،

وظل شهاب وضيغم وجدار وعدد قليل يقاتلون بشجاعة وجلد ، ثم أطبق عليهم رجال الجبل فمنهم من قتل ، ومنهم من جرح وسقط عن جواده كجدار ثم مات ، ومنهم من جرح وأخذ أسيرا كشهاب وضيغم ، وانتهت المعركة بهزيمة لفرسان مدينة الدب ، فأمر لهب الليل بلم وجمع الغنائم وحرق الجثث وقيادة الأسرى والجرحى إلى قصر الجبل .

فلندخل القلعة وقصر العصابة .. فهو قصر يقع على قمة جبل من تلك الجبال ، وهو قصر ضخم ضمن أرض واسعة ، فيه أكثر من مائتي حجرة ، ويصعد إليه بسلم صخري يزيد عن خمسمائة درجة ، وجنب السلم منحدر تسير عليه الخيول وغيرها ، وخلال صعود السلم تجد هناك عددا من الكهوف يتمركز فيها رجال لحماية الدرب ، وهم يحملون الأقواس الكبيرة ، وفي الدرب محطات استراحة يوجد فيها الماء والفواكه .. وحول القصر أو القلعة الأسوار العالية ، وهناك الأشجار العالية والكثيرة وعين ماء وحدائق وبساتين وخدم وغلمان وكلاب حراسة شرسة ، وحراس منتشرون على الأسوار ، فالمكان قرية صغيرة فوق الجبل ، فقاد رجال العصابة الأسرى والمستسلمين إلى ذاك القصر ، وهم في حالة يرثى لها من الذل والهوان والتعب ، فعندما وصلوا باب القلعة واجههم باب من الحديد الصلب ، وفتح لهم الباب ، ولما أدخلوهم أغلق الباب الضخم ، فسيقت الخيول للحظائر ، وقيد الأسرى إلى غرف خاصة وذهب رجال العصابة إلى حجراتهم للاستراحة من عناء المعركة ، ومن كان جريحا قام طبيب القلعة بمداواته والعناية به ، فهؤلاء الضحايا قد يصبحون عمالا في أرض القلعة أو سقاة ماء ، أو ينضموا لرجال العصابة ، ومن يحاول الفرار عادة يقتل سريعا ، والغلمان والجواري يبقون لخدمة رجال ونساء العصابة ، ويزعم الناس أن هذه القلعة كانت قديما لأحد الملوك ، ثم هجر الموقع ، ثم عرفه المطاريد والهاربون من ملوكهم وأسيادهم حتى تزعم هؤلاء السبع العادي فرمم القصر ، وأعاد بناء الأسوار بواسطة أسراه ومساجينه فأصبح قلعة صعبة المراس على الحكام ، فعجزت عنها الجيوش ، ومل الملوك عن محاصرتها والنيل منها ، وكبرت العصابة بعتاة المجرمين من بلاد شتى ومن رجال الحكم الحاقدين والفارين ، وكان السبع العادي قد ملأ الدنيا رعبا بقسوة قلبه وشدة

فتكه بالناس ، حتى كان بعض الأمراء يتفادون شره بالمال أو يستعينون به في تصفية خصومهم ويدفعون له الأموال والعبيد ، فلما قتل هذا المجرم على يد الفارس الشهير بابن الخباز ، استلم الزعامة لهب الليل وهو صديق السبع العادي الحميم ، وكان ذراع السبع القوي ، وكان شرسا عنيفا قويا ولا رحمة في قلبه ، فكان رجال العصابة كلهم يهابونه وينفذون أوامره بحذافيرها ، فكان السيد المطلق في تلك القلعة ، وحوله حرس خاص لا يغفل عن عيونهم لحظة واحدة من أصحابه القدماء ، وفي اليوم التالي للمعركة أرسل لهب الليل وراء الأسرى ؛ لينظر في شأنهم ويوزعهم على الواجبات التي تحتاجها القلعة بعد مقتل ما يزيد عن مائة رجل منهم في الملحمة الأخيرة ، فجمعوهم له في ساحة ، فخرج إليهم يحف به رجاله الأشداء ، فطفق يمعن النظر إليهم دقائق ، ثم أخذ في توزيعهم ، فمنهم من يختاره للعمل في البساتين ، ومنهم للحراسة في أطراف القلعة ، ومنهم للخدمة في نقل الماء ، ومنهم من رشحه للعمل مع رجال العصابة في تنفيذ المهمات ، وهؤلاء يخضعون لتدريب ؛ ليرى مدى إخلاصهم وولائهم لرجال الجبل ، ولما جاء دور ضيغم ، قال له لهب الليل : أيها الشاب ! لقد كنت قويا ومحاربا شديدا .. ولمحت براعتك في السيف والدفاع والهجوم .. ما اسمك ؟

كانت ذراع ضيغم قد تعرضت لجراح بليغة أكثر من باقي جسده ، وقد لفت بخرقة ، وكان يمسح عليها عندما سأله لهب الليل عن اسمه فنظر إليه وهزّ رأسه وقال : ضيغم .. هذا اسمي فقط ، ولا أعرف اسم أبي .

فقال الزعيم بصوت خشن : ضيغم هذا اسم مخيف ! .. انتظر هنا حتى أرى ما يناسبك من العمل معنا يا ضيغم .

ثم أشار الزعيم لشهاب الجريح أيضا قائلا : أنت قائد السرية ؟.

فهز شهاب رأسه بحزن قاتل وقال : هذا حق ، وما عليّ إلا طاعة ملكي الملك سليل وقائده الأمير قيس ، ولا أظن أيها الزعيم إلا أن يأتيك الملك بجيش جرار لإنقاذنا .

فضحك الزعيم وقال : قد يفعل أيها الجندي الباسل ! ..ولكن عدوكم الضبع قد يستغل

الفرصة أو أرسل إليه رسولا يخبره بترككم المدينة ...

وقبل أن يتابع الزعيم كلامه مع شهاب ، تذكر ضيغم في هذه اللحظة الأمير جبلا ورسالته لرجال الجبل ، فقطع استرسال الزعيم فجأة وقال : أيها الزعيم ! أحب أن أذكر أمامك أمرا قبل فوات الأوان ...

فصفعه أحد رجال العصابة القريبين منه على خده صفعة طار لها صواب ضيغم وقال : يا كلب !.. لا تتكلم قبل أن يأذن لك الزعيم أيها الحقير .

وضع ضيغم يده على خده المصفوع ، وقد طفرت الدموع من عينيه المحمرتين من شدة الغضب وقال وهو يضغط على شفته من الغيظ والقهر : لن أغفر لك هذه الصفة يا جبان آه يا سيدي ! يا جبل بن مجدو .. أين أنت لترى ما يفعل بي هؤلاء الجبناء ؟!

وكان الرجل يهم بصفعه مرة أخرى ؛ ولكنه لما سمع اسم الفارس جبل بن مجدو يخرج من بين شفتي ضيغم توقفت يده فجأة في الهواء ، ونظر في عيني الزعيم فوجده مبهوتا مثله ، وقد ملأ الفزع نفوسهم ، فقال الزعيم بعد صمت قد طال لضيغم : ويحك !! .. أتعرف أنت الفارس جبل بن مجدو الشهير بابن الخباز ؟!

فرد ضيغم وقد أدرك ما فعل اسم الفارس جبل بهؤلاء الوحوش الضارية فقال : هو أخي وصديقي ومدربي على ركوب الخيل واللعب بالسيف .. ابن الخباز حبيبي ، ولن يغفر لكم ما فعلتموه معي .. فعندما غادرت بلاد الدب مع هذه السرية أرسلت له خادمي برمو أيها الأنذال ولسوف يأتي بمشيئة الله .

فقال لهب الليل : ويحك .. لمَ لم تذكر لنا ذلك قبل هذه المعركة ؟! .. فجبل صديقنا وبيننا وبينه عهود !.

فدهش الأسرى ما أحدثه ذكر جبل في هذا المكان ، فعاد ضيغم يقول وهو يتذكر ما عرفه من أخبار جبل مع هؤلاء القوم : أنت وأنتم تعرفون ما فعله جبل وثعلبون بالسبع العادي ، وما أصابك أنت منه يا لهب الليل ، ولولا الدرع التي كانت على صدرك لكنت من سنوات تحت

الثرى ولابد أنكم ما زلتم تذكرون تلك الرسالة عندما خطفتم ابن الملك جبرون وزوجته ؟
فقال لهب الليل والنار تتأجج في صدره : ويحك إنك تعرف كل شيء !.. أين جبل الآن ؟
فقال وقد فطن للرعب الذي أصابهم من الحديث عن الفارس جبل : لقد التقيته في بلاد التين وعلمني الفروسية والشجاعة .. وسوف يأتي إليكم عندما يخبره غلامي برمو بموتي ، فهم الآن يعتقدون موتنا .. وهو هذه الأيام في جزيرة النمور إحدى جزر البحر الكبير ؛ ولكنه سيجيء .
فقال لهب الليل كأنه مواسيا نفسه : إنها بعيدة !!
فقال ضيغم : ليس على الفارس شيء بعيد .
فاعترف لهب الليل صراحة أمام الجميع فقال : ما خشيت أحدا من الناس في هذه الأرض خشيتي هذا المخلوق ! فهو مرعب سريع الطعن مع ذكاء حاد ، سأكرمك أيها الشاب وأعفو عنك إكراما له ..لقد توعدنا هذا الرجل وحذرنا من عودته لهذا الجبل ؛ وكأني أحس أن نهاية هذا الجبل ستكون على يديه .. سأعفو عنك وعليك الرحيل إليه عاجلا لتمنعه من المجيء إلينا وتعتذر له عن خطأنا نحوك .
فقال ضيغم بشجاعة : أرجو أن لا يكون الوقت قد فات ..
فقال لهب الليل : عليك بإصلاح الأمر
فقال ضيغم : وهؤلاء الأسرى بل والقافلة التي سلبتموها ، ألم تعلموا أن الفارس من بلاد الدب ؟! وأن الأميرة التي تعرضتم لها قديما الأميرة حظوظ هي أخت ملك بلاد الدب الملك سليل بن شامة .. وهؤلاء الفرسان الذين قتلتموهم بعضهم أصدقاء وتلاميذ جبل بن مجدو الساحر ؟
فقال لهب الليل : ويحك أيها الصعلوك !! ..لم نفطن لذلك إلا الآن ، لقد نسينا أن جبلا فارس تلك المدينة ..والمهم الآن لدينا أن تنجو بنفسك .
فقال ضيغم : وماذا أقول لسيدي الأمير ؟! .. أأقول له نجوت بنفسي ؟! فاسمعوا أيها الأسياد إما أن أبقى معكم حتى يعلم الفارس بأمرنا ، وإما أن نخرج كلنا ، وسأشفع لكم عند الفارس

في دماء القتلى فقط .

فأمر الزعيم الحراس بأخذ الأسرى إلى حجرهم ، ودخل القصر ليتشاور مع جماعته ، وقال لهم : أكثركم تعرفون بسالة الفارس جبل .. وبسالة هؤلاء الناس ، لقد قاتلوا لآخر لحظة ، وقتلوا منا مائة محارب ؛ فإذا أتانا اللعين وسرية منهم سنهلك .

فقالوا : افعل ما تراه مناسبا أيها الزعيم !

فقال : سوف أفعل .

وكان من نتيجة الاجتماع أنهم استدعوا ضيغما مرة أخرى ، فقال له الزعيم : اعلم أيها الشاب أننا صدقنا أنك صديق وتلميذ للفارس الشجاع ابن مجدو ، واعلم أنني لو علمت أنك خدعتني ولا علاقة لك بجبل ، فلسوف آتي بك ولو كنت في عنان السماء أو في بلاد الهند عند الملك سرهوت ..سننسى ما جرى بيننا وبين بلاد الدب إكراما لصديقنا الفارس وللعهود التي بيننا ، وسنعيد الأموال والبغال والجمال والأسرى ونرضى بالهزيمة من أجل ابن الخباز فقط !.. وبين له احترامنا له واعتذارنا عن الخطأ الكبير الذي وقعنا فيه .. وأننا ما زلنا على العهد .

وصدرت الأوامر من لهب الليل بالعفو عن أهل مدينة الدب ، ورد أموالهم إليهم كلها ، وأخلى سبيلهم تجارا وفرسانا ، فهبطوا الجبل سائرين نحو بلادهم ، وهم يلهجون بذكر فارسهم القديم جبل المخيف ، ويتعجبون من أمر ربهم ، ويتحدثون عن الرعب الذي أصاب هؤلاء القوم من اسم جبل فقط ، وهم في غاية الغرابة من الرهبة والخوف الذي في نفوسهم من الفارس جبل بن الخباز مجدو ، وكانت الغبطة والفرح تملأ نفوسهم ، وكان الجميع يمدح جبلا ، ويتذكرون بطولات جبل محررهم من حامية الضبع ، ويشكرون ضيغما على شجاعته وإيثاره وتصميمه على الإفراج عن الجميع ..وبينما هم سائرون جهة بلادهم التقوا بجيش كبير ؛ فإذا هو جيش مدينتهم زاحف للثأر لهم ، فحدثهم شهاب بما حدث ، فقفلوا عائدين وهم يلهجون بمدح فارسهم الشهير ، ويشكرون ضيغما أيضا على بسالته ووقوفه أمام العصابة بثبات وقوة ، فقال له بعض الناس : لماذا لم تفعل ذلك قبل القتال ؟!

فقال : والله ما كنت أعلم أن اسم الأمير يؤثر فيهم هذا التأثير ، وهو على بعد آلاف من الأميال عنهم ، فالفارس الآن يحيا في جزيرة النمور ، وإلا يا قوم ما خسرت أخي جدارا ولقد كنت أرى أن فرساننا سينتصرون عليهم ، وأثناء تحاور الزعيم اللعين والقائد شهاب تذكرت جبلا وقبل أن أتحدث عنه صفعني ذلك الحارس اللعين كفا ، فرددت اسم صديقي الأمير متمنيا وجوده ، فجرى الانقلاب الذي شاهدتموه بعد ذلك !

فقال المدرب أبو مالك الذي قدم مع الجيش : عندما كنت أمرنك يا ضيغم كنت ألمح فيك حركات الفارس جبل ؛ ولكني استبعدت لقائك بك !



الأمير حريف

كان لعودة القافلة بما تحوي من مال ورجال ، وعودة من نجا من الفرسان صدى كبيرا في المدينة وكان الاعتزاز بابن مدينتهم ابن الخباز أثرا كبيرا بتخفيف المصاب عن نفوس المفجوعين بفقد عزيز وحبيب ، ولما سمع الملك سليل الحكاية استغرب ، وقال متمنيا عودة الفارس : ليت الفارس ظل عندنا ! .. أريد أن أرى الفارس ضيغما يا وزيرنا العزيز ..لنسمع منه ونسأله عن صديقنا جبل .. والله ما كان لنا أن نسمح له بمغادرة البلاد ؛ فإذا اسمه يفعل هذا الفعل في هؤلاء القساة الأفئدة ، ويجب تخليص الناس من شرهم .

فقال الوزير ليث بن أحمد : ليس لهذه المهمة الجبارة إلا البطل الشجاع جبل بن مجدو .

وقد انتقلت أخبار جبل وضيغم للملكة الأم جملة بنت يوسف وابنتها حظوظ التي كانت في ذلك اليوم من أسعد البشر ، فهي ما زالت متعلقة بالبطل وتنتظر عودته للوطن ، فكانت تخاطب أمها بسعادة وبشر ظاهرين على محياها الجميل ، فهي منذ عهد بعيد لم تسمع عن الفارس شيئا ، فقد قالت وكلها غبطة : أرأيت يا أماه ؟! .. من هو الفارس جبل ؟! .. إنني مازلت أذكر تلك الأيام التي عشتها مع هؤلاء العتاة .. ثم أتى الفارسان وحدهما من غير جيش أمام تلك العصابة الكبيرة من السفاكين والسفاحين ، وقلما ينجو إنسان من شرهم إذا أخطأ الدرب ومر بالقرب من واديهم ، بل يغيرون على المدن من حولهم ، ويثيرون الرعب والفتك فيها ويختطفون الأطفال من ذويهم .. أذكر جبلا عندما وقف كالأسد الهصور يهتف عندما طعن زعيمهم ، ولم يمت من طعنته لارتدائه درعا أوه لم تمت بعد ! .. وهل أنتم أشراف حتى أتعامل معكم بالشرف أيها المجرم الحقير ؟ .. وتسلبون الناس وتقطعون السبل فأيّ شرف لكم ؟! وكان من جملة كلامه يا أماه أن حذرهم من عودته ثانية للجبل ، وها هم لما سمعوا باسمه وخشوا من مجيئه تركوا الأسرى والأموال .. أماه أريد أن أرى صديق جبل .. أريد أن أسمع منه أخبار البطل الكبير جبل ..

قالت الأم متأثرة بكلام ابنتها ومما سمعت عن البطل : ما زال هواه في قلبك يا ابنتي رغم مرور

كل تلك السنين ..سأنسى أن أباه خباز كان يعمل بجوار القلعة من أجلك يا حظوظ .. لقد أنقذ حياتك وشرفك وأعادك إلينا ، ومن قبل أعاد لنا التاج المسلوب بعد أن طرد حامية الضبع وها هو اسمه الساحر أعاد للناس الفرحة بعد أن خيم عليهم الحزن الشديد .. الرجال بأعمالهم وأفعالهم وليس بنسبهم فحسب !!.. إنك تحبينه يا بنيتي منذ أن عدت من مدينة اللؤلؤ وأنت تهوينه ، لقد أدركت ذلك منذ الوهلة الأولى .. وكذلك من شدة إصرارك على رفض الزواج .. فأسأل الله صدقا أن يكون قدرك وحظك .. سأكلم الملك لتري الشاب ضيغما ..كم أود أن أراك زوجة يا حبيبتي !

قالت الأميرة : سيأتي يوما ما ـ أماه ـ إنه وعدني أنه لن يتزوج حتى أتزوج قبله .. إنه كريم شجاع كان يرى أنه جبل ابن الخباز ، ويراني حظوظا ابنة الملك شامة .

كانت تتكلم عنه بوله وهوى ، وقد اشتهر اعجابها ورغبتها بالفارس منذ عادت للبلاد ، ويحق لها ذلك فهي قد لمست شجاعته بنفسها ، فإن الشجاعة فخر النساء

في الأولين والآخرين ، وما زالت النساء تعشق الفرسان والشجعان والشجاعة .

استقبل الملك سليل والأمراء الفارس ضيغما أحسن استقبال ، وأنعم عليه الملك بوسام الشجاعة ، وروى للقوم قصته مع رجال لهب الليل ، وختم القصة قائلا : والذي دفعني للجوء إلى ذكر الأمير جبل أمامهم أني تذكرت حادثة ، وهي أن ابنا للملك جبرون وقع في أيدي هؤلاء المجرمين ، فكتب إليهم الفارس رسالة ، فأخلوا سبيله من غير تردد أو تأخير .

فقال الملك : إيه يا ضيغم أنت شجاع ! فقل لنا أين البطل جبل هذه الأيام ؟ بل كيف التقيت به وعرفته وتعلمت منه الفروسية ؟

قال ضيغم وهو يتذكر الأيام الأولى له مع جبل : التقيت به ـ يا مولاي ـ في بلاد التين في قصر القائد الأمير سالم بن قنبرة ، ثم أصبحنا أصدقاء ، فعلمني على الفروسية ، ثم غادرنا إلى جزيرة النمور ، فهو يتردد الآن بينها وبين جزيرة النمر الأحمر .

فقال الملك باستغراب : وماذا يفعل هناك ؟!

تلفت ضيغم إلى الحاضرين وقد احمر وجهه وهو ينطق و يجيب : الأمر سر خطير ـ يا مولاي ـ يمكنني أن أقوله لك ولوزيرك وللأمير قيس .

فأشار الملك للقوم بالانصراف ما عدا الوزير وأمير الجيش ، فقال ضيغم :الحق يا مولاي أن الأمير جبلا يخطط ويدبر للقضاء على مملكة الضبع .

ذهل الثلاثة وصعقوا لما سمعوا وقالوا بدهشة كبيرة : ماذا تقول ؟!

قال ضيغم : ما بكم ؟!

ابتسم الملك واسترد هدوئه وقال : لقد قلت أمرا عظيما يا ضيغم !!. . فنحن حلمنا الأكبر أن نرتاح من الضبع ، فلنا عشرون سنة نحارب ونقارع هذا الملك اللعين .. أفصح عما أجملت ؟

فقال ضيغم : الذي أعرفه أن الفارس جبلا جذره من هذه المدينة ، وقد هلك أبوه فيها من قبل رجال الضبع .

فقال الملك : نعرف هذا .

فتابع ضيغم الكلام : الفارس الشجاع جبل يحقد حقدا هائلا على الضبع ، فيريد صديقي تدمير مدينة العقرب ، فحارب مع جيوش الملك جبرون ردحا من الحين ، ثم تبين له أن جنود بلاد التين وحدها لا تحقق النصر الكامل على بلاد العقرب الأحمر ، وكان الفارس قبل مسيره لبلاد التين قد دخل بلاد العقرب ودرسها شبرا بشبر ، فوجد أن أضعف نقطة لاحتلال المدينة هي غزوها من جهة البحر ، فلجأ لبلاد النمور لإعداد جيش قوي يغزوها من جهة البحر ، وبالتعاون مع جيش الملك جبرون من البر ، وقد سمعته يقول لثعلبون بأنه قد يتعاون معكم في المعركة النهائية ، فمن أجل هذا رحل الفارس لجزيرة النمور .

وبعد فترة صمت ووجوم قال الملك المذهول من طموح جبل وصبره : إنه فارس جبار ! هكذا الرجال المخلصون لبلادهم يا أبا الهيثم !

فرد الأمير قيس : إي والله ! إنه لفارس عملاق يا مولاي !.

ودعا الأمير ليث فقال : بارك الله في همته ومرؤته !

فقال ضيغم : لذا يا سيدي الملك أرجو أن لا يتسرب هذا الأمر حتى لا يصل للضبع فيقوي تحصيناته البحرية ، فهو لا يتخيل مثل هذا الهجوم في يوم من الأيام ، ولا يتخيل أن يهاجمه أحد من البحر والماء ، هكذا يتحدث الفارس الشجاع أيها الأسياد !

فأظهر الملك بعد هذه الأسرار ثناءه ووده على ضيغم ثم قال : ولماذا تركت صاحبك وجئت بلادنا ؟!

فقال ضيغم : طلب مني الفارس أن أسكن بلادكم لحين ، فهو يتابع أخبار حروبكم مع الضبع ومنذ فارقكم وعينه عليكم ، وهو ما زال الآن في طور إعداد السفن الكبيرة والفرسان ، فقال لي انزل بلاد التين وبلاد الدب وأتنا بأخبارهما مع الضبع .

فقال قيس : بما إنك فارس وتلميذ جبل فلماذا التحقت بمدرسة التدريب ؟!

تبسم ضيغم وقال : أنا في الأصل - يا سيدي ـ عبد فقدت أهلي قديما وصغيرا ، وكان لي سيد في بلاد الشرق ، وقتل في معركة بين الملك الضبع والملك جبرون ، ووقعت أسيرا عند القائد سالم بن قنبرة ، وهناك التقيت بجبل وجدار ، فأصبحت غلاما للقائد سالم ، وقد ذهب الفارس جبل وصديقاه هزبر وثعلبون لبلاد الهند ، ولما عادوا وجدا القائد الكبير قد غضب عليّ وألقاني في السجن ، فتشفع لي جبل وأخرجوني من السجن ، وعلماني الفروسية ولم اختبر بعد ، ولم أشارك في معركة كفارس ، فوجدتها فرصة للتثبت من تدريبات جبل ومن قوتي ، فنجحت عندكم ؛ ولكنني فشلت عند رجال الجبل ، ولم أكن كجبل بن الخباز .

فقال الملك : بل أنت شجاع وقوي !!.. لقد ذكر لنا القائد شهاب أنك قاتلت ببسالة لأخر لحظة ، وكان لديك قوة مخاطبة لرجال الجبل .

فقال ضيغم : أشكره يا مولاي ! وهو أيضا قاتل حتى الموت .

فقال الملك متحمسا ومبتهجا : أمام هذه الأخبار والحقائق يا ضيغم سوف نعد جيشا لليوم المنشود .. متى أنت مسافر للقاء الفارس ؟

قال ضيغم : لم يحدد لي الفارس وقتا للعودة ؛ لأن الحرب التي يعد ويخطط لها جبل تحتاج

لسنوات من الإعداد ..على الأكثر خمس سنوات ؛ فإذا مللتم مني سافرت .

فابتسموا لمداعبة ضيغم وقال ليث : أبدا أيها الفارس ما دام جبل صديقك فأنت صديقنا ، وها هو وجودك بيننا قد أفاد البلاد والعباد .

وأكد الملك ما تفوه به وزيره فقال : أنت صديقنا يا ضيغم ، فمتى شئت فاحضر مجالسنا ؟ ولن ننسى أنك مواطن صالح ، ولا يذهب معروفك وفضلك على هذا البلد سدى .

فقال ضيغم بخجل وحياء : الشكر لكم الشكر لكم .. واعلموا وثقوا أن جبلا الفارس الشهم يحب هذا البلد حبا كبيرا ، ويريد أن يفعل من أجله المستحيل .

فقال الملك : نحن نعرف جبلا وإخلاصه ، ولقد لمسناه ؛ ولكنه اختار تركنا لأسباب خاصة ، يكفي هذا منك الليلة يا ضيغم .. وسنلقاك مرة أخرى لتحدثنا عن رحلة جبل للهند .

اطلع الملك على رغبة أخته حظوظ بالحديث مع ضيغم ، فقص عليها القصة ، فقالت : أريد أن أراه ، ولسوف أسأله بعض الأسئلة عن الأمير جبل بن مجدو .

فتبسم الملك وقال : ما زال هواك مع الفارس يا أختاه !.

ورخص لها الملك الشاب الالتقاء بضيغم ، وبعث رسولا خاصا يخبر ضيغم برغبة الأميرة حظوظ بالحديث معه ، ففرح ضيغم من هذا الطلب ، وكان يرجوه ، فقد أوصاه الأمير جبل بأن يأتيه بأخبار الصبية التي احتلت موقعا حسنا في قلب الفارس ، فقد حدثه جبل عنها عندما رآها أول مرة في بلاد اللؤلؤ ، ولولا غربته وترحاله الدائم لتزوجها ، فقد جاءت الفرصة للحديث مع الفتاة التي يهواها صاحبه ، فهو يعرف الهوى ولواعجه ، فما دخل الليل حتى أسرع إلى القصر ملبيا رغبة الملك ، فوصل إلى قصر النساء ، ووجد خادما من خدم القصر في انتظاره ، ثم سار به الخادم نحو غرفة كانت تجلس فيها الملكة الأم والأميرة حظوظ ، فأوقفه الخادم حتى يستأذن له بالدخول ، فأذنت له الملكة وتهيأت لاستقباله ، ففتح الخادم الباب مشيرا له بالدخول ، فدخل ضيغم وهو يلقي السلام ، وأغلق الخادم الباب ووقف عنده ينتظر أي أمر فلما رأت الملكة ضيغما وتبينت هيئته وسمعت صوته قفز قلبها في صدرها وازداد اضطرابه ،

وحدث مثل ذلك لحظوظ التي أحدقت النظر في هيئة الشاب الجميل الذي اهتز قلبها لمرآه ، وحتى ضيغم نفسه خفق قلبه بشدة وأحدق النظر في الأميرة والملكة الأم ، وبدأ عليه الارتباك والاضطراب المفاجيء مع تعوده الدخول على الاميرات عندما كان خادما في قصر ابن قنبرة ، فقالت الأم وهي تحاول السكينة : اجلس يا بني .

فخرجت كلمة يا بني لذيذة دافئة من أعماق قلبها ، ثم تابعت بدون أن تدري أو تعي : يا بني لقد حن إليك قلبي .. كأنك عشت في أحشائي !

فقالت حظوظ : أماه ما تقولين ؟!

فاقتربت الأم من أذن ابنتها وهمست قائلة : أحس أيتها البنت كأنه ابني حريف .

فقالت حظوظ بهمس : والله يا أماه إن هذا الشعور قد راودني كأنه أخي المفقود !

فقالت الأم : معذرة أيها الفارس .. أهلا بالبطل ومحرر القافلة المكلومة والجند .. مرحبا بالفارس ضيغم ابن .. وسكتت .

فقال ضيغم : مرحبا بمولاتي الملكة ، أنا لا أب لي ، قصدي أنني لا أعرف إلا أن اسمي ضيغم أما من هما أبواي فكل ذلك مجهول عندي .

فقالت الأميرة : نأسف لإحراجك ؛ ولكن أين ولدت يا ضيغم ؟

فقال ضيغم : يا مولاتي الأميرة ! صدقيني لا أدري ؛ ولكني أذكر أنني عشت طفولتي في مدينة يقال لها الشرق .

اضطربت الأم وابنتها مرة أخرى وقالت حظوظ : مدينة الشرق .. الشرق !!

فقال : نعم كنت غلاما عند تاجر ، ثم مات ، فورثني الورثة ثم باعوني لامرأة ، ولما ترملت وتزوجت آخر وهبتني لابن لها من زوجها الأول يسمى داود ، فهذا ما أذكره من طفولتي القاسية .. غلام رقيق يتنقل من أسرة لأخرى .

فقالت الأميرة : ألا تذكر يا ضيغم أن لك اسما آخر ؟! لا تستغرب من هذه الأسئلة .. أكيد ذكر لك الملك سليل أننا سنتحدث معك عن الفارس البطل جبل .. ولكن بعد حين سنقول

لك سبب هذه الأسئلة .. ولما لزم الشاب الصمت عادت الأميرة تقول : ألا تذكر أنك كنت تمشي مع ناس وأنت صغير ؟ وفي شدة الظلام هجمت عليكم عصابة وخطفوك بشدة وعنف وكانت معك فتاة صغيرة مثلك وحملوكم إلى مدينة الشرق .

سكت ضيغم طويلا قبل أن يرد وكان يعصر ذاكرته ثم قال : إي والله ! إن هذا المشهد المرعب يكاد لا ينسى .. ليلة مظلمة .. نمشي .. نمشي وفجأة انقض علينا رجال ملثمون ..صراخ .. إني أذكر هذا المشهد ، صرخت بكيت ، وكانت جواري فتاة تصرخ وناس يصيحون ويركضون أيتها الأميرة كأنك كنت معي .. إنني أتذكر تلك المشاهد المرعبة الباكية ..

فقالت الأميرة بارتباك وانفعال عنيف : ألا تذكر أنهم كانوا ينادونك باسم حريف حريف ؟!

فصاح الشاب دهشة واضطرابا : والله .. إن هذا اسمي الضائع !.. الاسم الذي أبحث عنه ولم أجده .. هذا اسمي وأنا طفل صغير جدا ..إنه محفور في قلبي .

فصاحت الأميرة بلهفة وقوة وهي تنهض قائمة عن مقعدها : أماه !! .. أماه !! .. إنه أخي المفقود .. إنه حريف يا أماه ! .. أنا أختك وهذه أمك! .. أنا حظوظ التي كانت معك يوم داهمتنا العصابة ، وفرقوا بيننا وباعونا رقيقا وكم بكينا عند الفراق .. ؟!

كان ضيغم مبهوتا مذهولا ، وكان يرى الحادث الباهت القديم قويا ثم صاح : أجل .. أجل يا أختاه ! واحتضن الشاب أخته وهو يقول : لقد خفق قلبي لمرآكم عندما رأيتكم للوهلة الأولى وترك أخته واحتضن أمه وعانقها بحرارة وشوق ، والدموع تنساب من العيون المحمرة ، وتصعد التنهدات الحارة من الصدر وهو يهتف : أماه ! وهي تقول : ولدي حريف !

وتبكي بحرارة ، ودخل الخادم على صوت التنهدات والزفرات ، فشاهد الأم تحتضن الشاب الضيف وهي تبكي ، فاستغرب وأسرع إلى حجرة الملك ، وأسر له بالأمر ، فأتى الملك مسرعا وهو في حيرة مما سمعه من الخادم ، فدخل ورأى السعادة والدموع فقال بحيرة : ما الذي يقوله الخادم ؟!

فصاحت الأم المذهوله من المفاجأة الكبيرة وهي تشير لضيغم وتبكي : سليل .. هذا أخوك

الضائع حريف .. هذا أخوك المسروق .

فبهت الملك وارتبك وهو يتمتم : ماذا ؟ ماذا ؟!

واحتضن أخاه وهما يبكيان ويقول : ضيغم أخي ! ..أمس عندما حدثني أنه لا أهل له خفق له قلبي وتذكرت أخي حريفا .. يا الله ! ما أعجب قدرتك ! أماه هذا أخي !!

فقالت الأم : نعم يا ولدي .. اكشف عن إبط أخيك الأيسر ستجد شامة بنية صغيرة حولها شعرات صفراء .

فمزق حريف القميص على الفور ، ورفع يده اليسرى إلى أعلى ، فأحدق الملك في الشامة التي حولها الشعرات الصفر ، ثم أخذ يصيح ويرقص : حريف حريف حريف يا الله !

وانتشر الخبر في القصر ، فهرعت الأميرات جميلة وقسمة وأخوات الملك شامة وبناتهن والأمراء فامتلأ قصر النساء بالرجال والنساء الأقارب ، وكانت ساعات وأيّ ساعات .. لحظات من السعادة محملة بالدموع العزيزة .. دموع اللقاء .. دموع الفرح .. دموع الذكريات فجأة تجد نفسك ابن ملك من ملوك الدنيا .. إنها لحظات مثيرة .. ومن خلال هذه الدموع العزيزة والغزيرة كان ضيغم يرى الأميرة ريما فيقول لنفسه لقد أصبحت كفئا لك يا ابنة قنبرة !.. ماذا أقول لصاحبي جبل ؟ .. يا لك من دنيا .. الحمد لله على فضله .

أمضى الأمير حريف الليلة في حجرة أمه وهم يتحدثون عن حلاوة اللقاء والذكريات.. وما وجد من الشقاء وهو يتنقل من سيد إلى سيد ، ثم قال : وما أحسست بحلاوة الحياة إلا عندما التقيت بسيدي الفارس جبل بن مجدو !.

ونظر لأخته التي احمرت وجنتاها من غمزه فقالت : ما أكثر ما تلهج باسمه !.. واعلم أن أرسلنا وراءك لتحدثنا عنه فحدث ما حدث .. يبدو لي أنك تحبه كثيرا يا أخي ؟!

فسكت هنيهة ثم همس قريبا من أذنها ، وقال : وأنت ألم تحبيه جدا ؟! .. فمن عرف الفارس أحبه بسرعة .

ازداد احمرار وجنات الأميرة ، ونظرت لأمها واتبعتها بأخرى للملك ولأختيها جميلة وقسمة ،

ثم قالت : إنك لجريء مثل صاحبك يا أخي الصغير ..كم بكيت لفراقك ؟ حتى أن المرأة التي اشترتني ندمت على شرائي من كثرة البكاء ، وفكرت بالتخلص مني أكثر من مرة .

فقال الملك : هنيئا لنا عودتك أيها البطل ! ونشكر الله على هذه المنة العظيمة ، وعلينا يا أماه أن نصلي شكرا لله .

فقالت الأم : هذا يوم سعادة كبيرة لي ولكم ؛ ولكن الأمل في هذا اللقاء لم يخبو في صدري منذ ضياعه ، وسأصلي شاكرا لله وأتصدق على الفقراء والمساكين .. اللهم لك شكرنا ولك المنة .

ثم أمرت الجواري بتجهيز غرفة للأمير وتهيئة الحمام لاغتسال الأمير ، وأخذ الأمراء والأميرات بالعودة إلى حجراتهم ومنازلهم ، وقالت الأميرة حظوظ بعد انصراف عماتها وخالاتها وأختيها لحريـف : أترغب بالنوم أم السهر ؟

فنظر لأمه وأخيه وأجاب قائلا : بل نسهر الليل كله ، إنني مشتاق لكم .. مشتاق .. كيف ننام وقد جمع الله شملنا بعد ضياع طويل ؟! .

فنظر الملك لزوجته وقال : أما نحن نستودعكم الله .. فالأيام بيننا إن شاء الله .

وغادر المكان تتبعه الزوجة ، فهمس حريف في أذن الأميرة : إن الفارس لم يتزوج بعد .. إنه يحبك أيتها الأميرة ؛ ولكنه يكابر نفسه ، ولا يرى أنه كفء لك ، فأنت ابنة شامة وهو ابن الخباز مجدو الساحر .

فقالت بصوت مسموع لأمها : ويحك .. أحدثك جبل بهذا الحب ؟! ثم ارفع صوتك فأمي تعلم رغبتي بالاقتران بصاحبك جبل .

فالتفت حريف نحو أمه فسمعها تقول : إنها ترغب به منذ أن أنـقذها من مجرمين الوادي .

فقال حريف باسما : وها هو اسمه قد أنـقذني يا أمي .

فقالت : حق هذا !!.. فقد زادت مكرمات الفارس علينا .

فقال حريف : يا أمي قد رفض الفارس الزواج من بنات الأمراء ، فكم ألح عليه الملك جبرون بالزواج ؟ وأصر هو على الرفض ؛ لأن قلبه خفق مرة لفتاة وهي جارية في قصر من قصور

الأمراء ، ووعدها متى نوى الزواج أن تكون حليلته إذا ظلت من غير بعل ؟ .. والله لو طلب الفارس ابنة الملك جبرون لوهبها له جارية ، ولكن الفارس وعد وعدا ووعد الفارس دين .. فقد أرسل الملك جبرون عندما أراد أن يزوج جبلا رسولا خفيا لبلادكم ليرى هل تزوجت الأميرة حظوظ ؟ فوجدها الرسول لم تتزوج بعد .. فاقتنع الملك بتزويج ثعلبون وهزبر ، فخطب لهما من بنات الأمير سالم بن قنبرة ، وأرادت الفتاتان الدلال والفخار على فتيات المدينة ، فطلبت الصغرى من خطيبها هدية جوهرة حسن خان ، وطلبت الكبرى عقد زوجة علي خان من ملوك بلاد الهند ، فذهب الفرسان الثلاثة لبلاد الهند وأحضروا تلك الأشياء ، ولكنهم وهم عائدون فرحون من بلاد الهند ، عرضت لهم عصابة مجرمة ، وكان هزبر المسكين وحده في مهمة فغدروا به وقتلوه ـ ودمعت عينا حريف على هزبر وهو يتحدث عنه ـ ثم قتلهم الفارسان جميعهم انتقاما لصديقهم .

فقالت الأميرة بحزن فهي تعرف الفارس هزبر : هل مات الفارس هزبر ؟!

فقال حريف وهو يمسح الدمعات المتساقطة على خده : نعم يا أختاه ! غدر به اللصوص رحمة الله عليه .. أتعرفينه ؟

فقالت بحزن : إيه يا حريف .. لقد دافع عني بواد الرعب حتى سقط عن جواده مضرجا بدمائه عندما وقعت بين يدي عصابة الوادي ؛ ولكنه لم يمت وقد أسعفه ثعلبون الشجاع .. يا سبحان الله ! ها هو يقتل مرة أخرى على أيدي المجرمين .. رحمك الله يا هزبر .

أكمل حريف باقي القصة ومغادرتهم بلاد التين إلى جزيرة النمور ، وحدثهم عن أحلام جبل للقضاء على مملكة الضبع ، وحثهم على إخفاء الأمر عن الناس ، فعلقت الأم قائلة : إنه رجل مبارك !! ما زال يعمل من أجلنا .. أحسن الله إليه ، ونحن نرغب بزيارته لبلادنا لنزوجه من أختك الأميرة يا حريف .. طال الانتظار

فقال الأمير وهو سعيد بما يسمع :سآتي به ـ إن شاء الله ـ قريبا ، ونخطبه للأميرة التي ما زالت تنتظر الفارس الجميل على حصانه الأبيض ليطير بها إلى عنان السماء .. وأيّ فارس جبل ! إنه

سيد الفرسان ، قلبه قُد من الصخر يا أماه ، إنه لا يهاب الموت يقاتل بضراوة ويحب أصدقاءه يفرح لهم ، ولي قصة في بلاد التين ، وكيف أخرجني الفارسان من السجن ؟ وروى لهما حكايته مع الأميرة ريم ابنة القائد سالم ، ثم عاد للحديث عن جبل فقال : بعد أن أخرجت من السجن تعهد جبل بأن يعلمني ضرب السيف وركوب الجياد ومقارعة الأبطال .. وفعل ذلك

فقالت الأم مازحة : أرى أنك تحبه يا ولدي أكثر من أختك ؟

فضحك الأمير وقال : حب الأخ لأخيه والضعيف للقوي العزيز .

وقالت الأميرة : نفهم من قصتك أنك عاشق ولهان لابنة سيدك سالم إذن أيها الأمير .

فقال : أحبتني الأميرة الصغيرة فهي أصغر بنات القائد الخمس .. فأحببتها وظننت أن الزواج منها ميسورا ، فغضبت عليّ الأم ثم الأب وطرحوني في السجن ، فلبثت فيه شهورا يسيرة ، فلما عاد الفارسان الصديقان من سفرهما وعلموا الحكاية ، تشفعا وعفا عني الملك سريعا .. ولكن كيف العبد الغلام ضيغم يتزوج ابنة القائد الكبير ؟!

فقالت الأم : عليك أن تعذر القائد سالم وزوجه ، فالأمر صعب يا ولدي .. وعادات الناس الخروج عنها ليس بالأمر الهين .. أما زلت ترغب بتلك الحسناء الأميرة ؟

فقال : بالتأكيد يا أمي .

فقالت الأميرة : ستبذل أمك الملكة جهدها لتحقيق رغبتك يا أخي الصغير .

فقالت الأم : سأحدث الملك سليلا أبا شامة ؛ ليرسل وفدا يخطبها أيها الولد العزيز ..وأنا الآن قد نعست سأقوم للنوم ، لا تنسى الحمام يا ولدي ! فقد أرسل لك سليل ثيابا تليق بك .

وأحضرت الجارية لهم الطعام فأكلوا جميعا ، وودعوا الأم وانتقلوا إلى حجرة الأميرة ، فلما جلسا قال : اعلمي يا أخية أنني منذ التقيت بالفارس وهو من أحب الناس إليّ ، وأتمنى من أعماق قلبي أن يكون من نصيبك ، وإن كنت أتمناه له وأنا ضيغم ؛ فإنني أتمناه الآن أكثر ..فهو رجل الوفاء ، لقد حدثني الأمير ثعلبون عندما عرضت نفسك عليه يوم الوادي العصيب ، ومع حبه لك لم يستغل الموقف والأثر الذي تركه عليك بإنقاذه لك من هؤلاء العتاة المجرمين

فقالت الأميرة وهي تتذكر تلك اللحظات : لقد كان زعيمهم يريدني سرية أمة له ، والله ـ يا حريف ـ إني وهبته نفسي عندما أنقذني من العار والخوف والهلاك في ذلك اليوم الموحش ، لقد كنت في يأس شديد من العودة للحياة الدنيا ..فكنت عاجزة عن الشكر والامتنان للأمير .. ومع ذلك اعتذر الفارس وقال أن لا وقت لديه للزواج .

فقال حريف متأثرا بما سمع ، فهو يدرك ما هو وادي الرعب : لم يرد إحراجك .. فهو يعلم من هو وأنك ابنة ملكه ؟..وخشي أن يكون إعجابك به في لحظة ضعف أمام ذلك المشهد البطولي .

قالت : يا الله ! .. إنه مرهف الحس شديد الذكاء والفطنة .

فقال الأمير معجبا بصديقه الفارس : لقد تبارز مع عشرة فرسان أمامي وانتصر عليهم !

وأمضت حظوظ وحريف ليلة خالدة من ليالي العمر حتى سمعت الأميرة كل الأخبار والمعارك التي خاضها جبل بن مجدو فارس الأحلام ، ثم ذهب حريف للاغتسال ، وقامت الأميرة للنوم لتحلم في الساعة التي تلتقي فيها بالبطل المنتظر .



نهاية جبل الرعب

لقد عم الفرح الأسرة المالكة وأهالي مدينة الدب بظهور الابن الضائع ، ولما كملت مشاعر الفرح ، عقدت الأسرة الحاكمة اجتماعا للنظر في أمر حريف والأميرة ريم ، فقال الملك سليل مخاطبا أخاه الأصغر : ما خطوتك القادمة ؟

فرد حريف : أفكر الآن بالانطلاق إلى الأمير جبل وأطلعه على الأمر .

فقالت الأم : أتريد أن تبتعد عنا يا ولدي ؟

فقال مؤكدا ما تفوه به آنفا : لابد من الذهاب بنفسي للفارس - يا أمي ـ لأحدثه بما سرني ، لقد قال لي ذات ليلة إنك يا ضيغم لم تولد رقيقا ..إني كلما أحدق النظر في عينيك اللامعتين أراك أميرا من صلب أمير ؛ ولكن .. ولكن .. ثم يسكت ، وأنا كنت أعتقد لحظتئذ أن كلامه لمواساتي ولوعده لي بنيل الأميرة ريم .

فقال الملك : أرى ـ يا أخي ـ أن نرسل وفدا يطلب يد الأميرة قبل سفرك للقاء الفارس .. ربما تكون الفتاة قد تزوجت أو خطبت .

فقال حريف : سوف أكتب لها رسالة وأحدثها عن نسبي ، وأحثها على الصبر حتى ألتقي بالأمير جبل والأمير ثعلبون .. هذا ما أراه مناسبا .

فقال الملك : افعل ما تشاء يا عزيزي الأمير !

فكتب الأمير رسالة للأميرة ريم ، فصل لها فيها التطورات الأخيرة من حياته ، وأرسلها مع غلامه برمو إلى بلاد التين قائلا له : ثم انتظرني في مدينة القمر .. فندق الديوك الثلاثة .

وبعد رحيل برمو بأيام ودع الأمير أخاه الملك وأهله ، وحثهم على تقوية الحراسات والمزيد من التدريب للفرسان والجنود ، وبشرهم أن النصر قريب ، وأن النصر مع الصبر ، ولابد للطغاة من يوم يزولون فيه ، وأوصى أخاه على أمه الغالية ، وودع أخواته ، وركب جواده منطلقا لمدينة القمر وبرفقته ثلاثة فرسان لحمايته ، وفي فندق الديوك الثلاثة التقى الأمير بغلامه برمو ، فأعلمه أنه سلم الرسالة لرمح ، ثم استأجر لهما مكانا في سفينة ، ولما سافرت السفينة بهما عاد الفرسان

لبلادهم ، وبعد مسير سبعة أيام بلياليها رست السفينة على ساحل جزيرة النمور ، ثم استأجرا عربة لتنقلهما لمنزل الأميرين ، ولكنّ الأميرين لم يكونا في البيت ، فهما في قصر السلطان ، وبينما الأمير يتحدث مع الخدم ، ارتفع صوت مرتفع ينادي معلنا عن وفاة ملك جزيرة النمور مروان بن أسد ، وأخذ المنادي يعدد ويذكر بعض مناقب ومحاسن السلطان على العامة المتجمعون حوله ، ثم يغير مكانه ويعيد الخبر على مسامع الناس من جديد ، فترحم الأمير عليه وقال : أعدوا لي غرفة للنوم ، وعند حضور الأمراء أيقظوني ، فأنا متعب من ركوب البحر .

وكان جبل وثعلبون ضمن الأمراء والقادة في قصر السلطان ساعة وفاة الملك الذي كان يحتضر منذ أيام ، ولما خرجت الروح لبارئها بدأ الاستعداد لدفن الميت ، وقد بايع الأمراء ابن أخ السلطان ملكا على البلاد والعباد السلطان أمجد بن بلال بن أسد ، فالملك مروان لم يكن له ولد يخلفه ، وكان أمجد هذا أكبر أبناء اخوة الملك الميت ، وهو في العقد السادس من عمره ، ثم تقرر دفن الملك مساء ، فاستأذن الفارسان القوم عندما حضر أحد الغلمان وأخبرهما بعودة ضيغم ، وتعانق الفرسان وقد لاحظوا البشر على وجه حريف ، وعلى مائدة الطعام حدثهم الأمير حريف بكل ما جرى ، ولما علموا أنه الأمير حريف المفقود يوم سقوط مدينة الدب في يدي الضبع أصابتهم الدهشة ، وعادوا للعناق من جديد ، ثم همس جبل وهو يتذكر أول لقاء له بحريف : ألم أقل لك يا حريف مثل هذا الكلام ؟! .. اعلم يا سيدي الأمير عندما رأيتك أول مرة ، ونحن سائرون إلى قصر القائد بن قنبرة لمحت فيك دم الملك شامة .. فهناك شبه بينك وبين الأميرة حظوظ لا يلحظه إلا المدقق الخبير ، فأنت بعيد الشبه عن الملك سليل لذلك كنت أشعر هذا الشعور الخفي ؛ ولكن الأحداث لم تسعفنا للوصول للحقيقة .. والآن نقول مبارك عليك الأميرة ريم .

وقال ثعلبون : الحمد لله على فضله أنك عرفت عشيرتك وأمك وأباك ، وأنك من نفس موطننا ومن أكابرنا .

وكان حديثهم عن الحنين للوطن ، وأنه قد طال غيابهم عنه ، ثم قال جبل : ولكنه وطن مهدد

من الأعداء ، مهدد من الحاقدين ، يحتاج منا إلى بذل المزيد من الجهد والعرق لإبعاد الخطر عن الوطن إلى الأبد أيها السادة والفرسان .. الحمد لله على نجاتك من رجال الجبل أيها الأمير الصديق ، ولتفرح الأميرة ريم بهذه الأخبار .. هل فعلت شيئا من أجلها ؟ ورحم الله الصديق جدارا .

فبعد أن ترحموا على الصديق جدار ، قال حريف : أراد الأهل أن يخطبوها .. فأجلت ذلك حتى أراك وأنظر رأيك ، فأنت سيدي وأخي الأكبر ومعلمي ؛ ولكني أرسلت لها خطابا مع الغلام برمو أخبرتها بحقيقة أمري .. وأنا انتظر أوامرك ، فأنا لا أنسى الأيام التي عشتها بصحبتكم ، ولا أنسى اللحظات التي فعلها اسمك في عتاة وطغاة الجبل .

فقال ثعلبون : أصيل يا ابن الأجواد !!.. وحمدا لله على سلامتك ، ورحم الله صديقنا جدارا .

ثم قدم حريف الهدايا التي أرسلتها أخته الأميرة للفارسين ، وقال : هما من الأميرة حظوظ ، وهي تهديكم السلام ، وتترحم على الفارس الصنديد هزبر .. وإنها ما زالت تذكر يوم الوادي وتتذكر وعد الفارس .

فتأمل جبل الخاتم الهدية مليا ثم قال : ما أخبار الأميرة يا أخا الأميرة ؟

فقال حريف : تحيا بحمد الله ، وعندها الأمل بعودة الفارس يوما ما .

دهش جبل وقال : ماذا قلت ؟!

رد حريف فقال وهو يتبسم : الأمل .. تنتظر الفارس ابن الخباز لتقترن به .. الكل هناك في انتظارك أيها الفارس .. قل شيئا يا ثعلبون .

فقال جبل : أنا سعيد بها أسمع منك ، وأشكرك يا ضيغم عفوا الأمير حريف .. وأتمنى أن أكون عند حسن الظن بي .

فقال حريف : أشفق على قلبها يا أخي .. لا تريد من الرجال في هذه الدنيا إلا الأمير جبل .

فقال جبل : عندما نقضي على بلاد العقرب أحزم أمري في موضوع الزواج أيها الصديق الوفي لقد ظلمت الفتاة معي ؛ ولكنك يا حريف خبرت حياتي لا استقرار في مكان .

فقال ثعلبون مشجعا : لما تظلمها يا سيدي الفارس .. امرأة خفق قلبها بحب الفارس الكبير .. وإنها لتستحق أن تعشق أيها الصديق .. وأنا أعلم وحريف يعلم أنك تحبها وتتمنى وصالها.

فقال حريف :إن جبلا من الرجال القلائل في هذا العهد ، يا سيدي عليك أن تنسى أنك ابن خباز ، فأنت اليوم فارس الهيجاء قاهر الأعداء بل أنت كنت أمير بلاد الدب قبل عودة الملك سليل .

وقال ثعلبون : والأميرة اختارتك وأهلها يرحبون بهذا الزواج ، وها هو أخوها الشجاع يدعوك للاقتران بها ، ولا تنسى كما قال أخونا حريف إنك سيد وأمير وفارس ، وكم من ملك منحك هذا اللقب في بلاده ؟! .. لقد كنت كما قال الأمير حاكما لبلاد الدب أثناء المحنة التي مرت بها المدينة ، ومنحك الملك سليل منزلة أكبر الفرسان في بلادنا .. والملك أحمد بن خالد فعل مثله ، والملك أسعد ، ثم الملك العظيم جبرون ، وملوك الهند وملوك الجزر ، فأنت سيد الفرسان وناصر الضعفاء وقاتل اللصوص والسفاحين .

وقف الفارس فجأة وهو يضرب برأسه وقال : لقد نسينا جنازة السلطان مروان أسرعوا ! وأمر الغلمان بإعداد الجياد للمشاركة في دفن السلطان ، ولما آذانهم الغلمان بأن الخيول جاهزة ، تقدم جبل رفاقه نحوها ، فلما وصل للحصان وأراد أن يضع قدمه في الركاب لمح شخصا مندفعا نحوه بخنجر ، فألقى نفسه بخفة على الأرض ، ومن تحت قوائم الجواد نهض سريعا ، فأصابت طعنة الرجل جنب الحصان ، وبخفة الفهد كان جبل يقبض على عنق الغادر ويطرحه أرضا ، ويضع قدمه على صدره ، وقد لاحظ هروب شخصين فقال بانفعال وصوت متوتر : ثعلبون أسرع وراءهما .

حدثت هذه المحاولة لاغتيال الفارس بسرعة ، وعلى الفور قفز ثعلبون على جواده منطلقا خلف الفارين اللذين كانا يركضان في أرض البستان المحيط بالمنزل ، وقد قفزا عن سوره المنخفض ، وأرسل جبل أمرا لحراس الميناء بإغلاقه ، ولما هدأت أعصابه رفع قدمه عن الغادر وقد استل

خنجره عن وسطه وقربه من عنق خصمه ، وقال بهدوء يشوبه اضطراب خفيف : لمن تتبع أيها الغادر ؟

فقال الرجل وهو يرتجف من الخوف : العفو يا سيدي الفارس ! ..صدر لي الأمر بقتلك ، ولا أستطيع أن أرفض وإلا قتلني هذان الرجلان الهاربان .

فصاح جبل : قل من أرسلك يا جبان ؟

فقال الرجل : أعطني الأمان يا نادرة الزمان .

رد جبل بغضب : لا أمان لك .. تكلم نفد صبري .. من الذي كلفك بهذه المهمة القذرة يا نذل يا جبان ؟

فقال الرجل : العفو عند المقدرة يا سيدي الفارس ! .. أرسلني لهب الليل زعيم الجبل .

فتمتم جبل وكرر اسم لهب الليل مرات ثم قال : لهب الليل .. يا لها من مفاجأة !!

فعاد رجل العصابة يقول : أيها الفارس .. لقد ضاق زعيمنا بك ذرعا ، والخوف منك يملأ قلبه وقلب رجاله الأشداء ، فلما سقط صاحبك هذا أسيرا بين أيدينا ـ وأشار لضيغم ـ علمنا منه أنك نزيل جزيرة النمور ، فقرر الزعيم التخلص من الرعب المتمثل بشخصك ، فوقع الاختيار عليّ لتنفيذ رغبة الزعيم ، ولا أستطيع القول لا .. فإذا رفضت قتلوني فورا .. بل أرسل معي هذين الرجلين حتى لا أهرب ، وإن نكست قتلاني .

فقال جبل الغاضب : ويلك ولو جئت إليّ لخلصتك من ذلك !

فقال : يقتلونني سريعا .

فقال جبل : حسنا أيها الغادر سأرسلك الآن للسجن !

فجاء رجال الشرطة وقادوه إلى سجن الجزيرة ، وانطلق الفارسان للمشاركة في الجنازة ، وبعد الدفن رجعوا مع القوم للقصر ، وتمت المناداة بالملك الجديد أمجد بن رباح ملكا على الجزيرة ، وخرج المنادون يعلنون ذلك للأهالي ، ولما هنأ الأميران السلطان الجديد قفلا عائدين للبيت ، فوجدا ثعلبون قد أمسك بالرجلين بمساعدة الأهالي ، وهما مقيدان ، وهو في انتظارهما ، فلما

شاهدهما جبل قال : أرسلكما لهب الليل ؟!

فأقرّا بالمؤامرة ، فقال جبل : لماذا لم تحاولوا الهرب ؟!.. لماذا لم تلجئوا إلينا ؟! فأنتم تعرفون قدرتنا على حمايتكم .

فقال أحدهم : لا نستطيع يا مولانا يده طويلة ، وكم شاهدنا ما حل بالذين تمردوا أو حاولوا الهرب من الجبل ؟!..ثم لم يعد الزعيم يطيق ويحتمل الخوف الذي تسببه له فظن بقتلك العلاج لمرضه .

فقال جبل مهددا ومتوعدا : حسنا أيها الأوغاد ! سوف أنفذ ما وعدته به ، وآن الأوان أن أريح الخلق من شر الجبل ومن يسكن الجبل .

وأرسلهما للسجن وأوصى قائد السجن بالمحافظة عليهما ، ونبه وحذره من هربهما ، ومن حاول ذلك فأمره بقتله بدون هوادة ، فهم من أشرار الخلق ويستحقون الموت مرات ، وأمر بفتح الميناء أمام حركة السفن والمراكب ، ورحل إلى جزيرة النمر الأحمر ، والتقى بالملك شهلب ، وتفقد مكان صناعة السفن والمراكب ، وكان قد تم إنجاز سفينة ضخمة تسع أكثر من مائتي فارس بخيولهم وطعامهم وسلاحهم ، وما زال العمل قائما على قدم وساق لصناعة المزيد من السفن والمراكب ، ثم تفقد مكان تدريب الرماة المهرة والفرسان ، ولما اطمئن أن الأمر يسير كما خطط له ، ومكث أياما في ضيافة الملك شهلب ، ثم أخبره بمحاولة اغتياله من بعض أعدائه رجال لهب الليل زعيم جبل الرعب ، وهو يريد غزو الجبل والقضاء التام على مجرميه ، فانزعج الملك من محاولة قتله ، ورحب وتحمس لفكرة غزو جبل الرعب ، ثم أصر الملك شهلب على صحبة جبل في هذه المعركة ، وبعد جدل عقيم رضخ الأمير لرغبة الملك ، فجهز الملك مائة فارس وحملتهم السفينة الكبيرة الجديدة ، وركب الملك وجبل سفينة الملك الخاصة مع حرسها الكامل وابحروا إلى جزيرة النمور ، فنزل الملك شهلب ليعزي الملك الجديد بوفاة عمه مروان ثم يبارك له بالملك ، وكانت السفينة التي أنشأتها هذه المدينة أيضا للحملة المخطط لها تجهزت ، فقد سبق ثعلبون وحريف الأمير جبلا عندما أراد الملك شهلب مرافقتهم بنفسه ، فأعدوا السفينة

والبحارة وانتخبوا مائة فارس ، فلما وصل جبل بصحبة الملك ركبوا السفينة ، وكان جبل قد طلب من ثعلبون وحريف بعد تجهيز السفينة وإصدار الأوامر للبحارة الذهاب لبلاد الدب لإعداد مائتي فارس والالتقاء به عند خربة تسمى قرية الماء قرية قريبة من جبل الرعب أو الخوف ، وودع الأمير جبل السلطان أمجد ، وتحركت السفينتان وبعض المراكب الصغيرة ، وخلفهما سفينة الملك شهلب إلى ميناء مدينة القمر ، وبعد سبعة أيام وصلوا الميناء فرست السفن والمراكب فيها ، وركب الفرسان خيولهم وساروا إلى مدينة القمر نفسها ، ومنها اشترى جبل جمالا وبغالا وأحمالا ثم ساروا إلى قرية الماء ، وكانوا قد تركوا البحارة وبعض الحراس عند السفن والمراكب ، فاستمروا يقطعون الجبال والوديان ومن ثم اجتازوا النهر الكبير الذي يقع جنوب بلاد التين ويصب في البحر الكبير بعدما يجتاز بلاد العقرب ، فلما وصلوا قرية الماء نصبوا خيامهم ووضعوا الحراسات اللازمة حتى لحق بهم فرسان مدينة الدب بقيادة الأمير حريف والفارس ثعلبون ، فتجمعت فرسان من مدن ثلاثة .. النمور .. والنمر الأحمر .. والدب القطبي للقضاء على رجال الجبل وكانت عيون جبل ترصد الجبل والوادي ، فأتت معلوماتهم تؤكد لجبل أنهم في غفلة مما يدبر لهم ، فهم لا يخطر في بالهم من غرورهم أن يدخل عرينهم أحد مقاتلا لهم ، فالرعب من وحشيتهم ينتشر في كل المدن القريبة والبعيدة من حولهم ، فزحف الجيش إلى الجبل خلال الليل ، وكان جبل قد شرح للقادة والملك شهلب الخطة مفصلة ، فبعد الفجر يبدأ التنفيذ .

عند الفجر تحركت قافلة من البغال والجمال التي تزيد عن مائة حيوان تسير بخط مستقيم وطويل يتقدمها بعض الفرسان وعلى يمينها ويسارها أيضا بعض الفرسان وعلى مؤخرتها عدد منهم ، ودخلت القافلة الوادي كأنهم لا يعلمون الخطر المحدق بهم ـ وهذه الجمال والبغال هي التي ساقها جبل معه من مدينة القمر ـ وقد بلع رجال العصابة الطعم ، فاندفعوا من مواضعهم المختلفة نحوها وأعلن حماة القافلة استسلامهم ، فأحاط كثير من فرسان لهب الليل بهم ، وبدأوا يجمعونها وهم يضحكون ويهنـئون أنفسهم بهذا الصيد الكبير ، وقد نزل كثير من فرسان الجبل

عن جيادهم يمسكون بخطام وحبال الدواب ، وما شعروا إلا وهجوما قويا من فرسان على خيولهم على رأسهم الفارس جبل وثعلبون ، وتحول أسراهم لفرسان محاربين يحيطون بهم ، وقد تم الفتك بهم سريعا إلا من هرب في الوديان وصعد الجبال ، واختفى في الكهوف والشعاب وكان انتصار ساحق وسريع .. وكانت الأوامر القتل السريع لا أسرى ، وما هي إلا ساعة حتى لم يبق مجرم يقاتل أو حيا ، كانت معركة سريعة ، ونفذت الخطة كما رسمت ، وكان ثعلبون ومن معه من الفرسان قد أغلق الطريق الموصل لقصر الجبل ، وبارك الفرسان والملك شهلب لجبل على نجاح خطته وحيلته في استدراج أكبر عدد منهم قبل الصعود للجبل ، وكان الملك شهلب مسرورا من نجاح خطة جبل غاية السرور ، فقد انتصروا ولم يفقدوا أيّ رجل ، وكان جبل قد أبقى فقط على حياة اثنين من المجرمين ، فقال أحدهم معتذرا : كم نصحت الزعيم بعدم التعرض للفارس ابن الخباز !

فقال جبل متهكما : لا وقت للاعتذار .. فات الوقت .. اصعد أنت ورفيقك هذا إلى لهب الليل وقولا له بتسليم القلعة قد ينجو بحياته .

فركبا بغلتين وانطلقا ليبلغا الرسالة وهما مجردان من أسلحتهما ، وطلب جبل من ثعلبون أن يأذن لهما بالصعود ، وقال جبل بعد ذهاب المجرمين : سأصعد الآن ومعي مائة بطل السلم ، وبعد ساعة تتبعني يا ثعلبون بمائة أخرى ، وبعدك بساعة يتبعك الفارس شهاب بمائة ثالثة ، ويبقى الملك شهلب والأمير حريف هنا على مدخل هذا الجبل بمائة ، واحذروا الهاربين والمختبئين في الكهوف .

وتقدم جبل بفرسانه على ظهور خيولهم ، وقد حاول بعض حراس الطريق منعهم من الصعود ولكنهم تساقطوا أمام رماة الأقواس المهرة والخوف الذي ساعد على هزيمتهم ، ومنهم من هرب في شعاب الجبل ، وظل جبل يصعد حتى وصل باب القلعة من غير أن يفقدوا محاربا واحدا سوى بعض الجراحات التي ألمت ببعض الفرسان في المعركة الأولى ، فعندما أصبحوا أمام باب القلعة انهالت عليهم سهام الرماة ، فتترسوا بالصخور وبجيادهم التي أصابتها السهام

وبعض الأشجار ، وانتشر الفرسان حول المدخل حتى يصعد باقي الجيش ، وقد أمر جبل بحرق الأشجار الواقعة خارج الأسوار ، فحجبت كثافة الدخان والنار عنهم رماة رجال العصابة وضايقتهم ، وقد رمى جبل رسالة بسهم يعد فيها من استسلم وتعاون معهم بالإبقاء على حياته وحفظ روحه ، ومن أصر على البقاء والقتال والدفاع فمصيره الموت .

وتعاهد رجال القلعة على الصمود والدفاع حتى آخر رجل ، ولما اكتمل صعود المئات الثلاثة تقدم عدد من الفرسان بسلالم مكلبة فعلقوها على الأسوار ، ثم صعدوا الأسوار يرمون خصومهم بالسهام والنبال ، وقام بعضهم بإشعال النار بالأشجار من داخل القلعة ، وارتفعت النار إلى عنان السماء ، وابتعد حراس الأسوار عن النيران ولهيبها ، وخلع بعض الأبطال الأبواب ، وهدم بعضهم مواضع من الأسوار ، ثم اندفع الفرسان رويدا رويدا داخل القلعة ، وأخذ رجال لهب الليل يتساقطون واحدا تلو الآخر ، وتم القضاء التام عليهم ، وتمت محاصرة القصر ، وقتل كل الرجال الذين احتموا فيه وعلى رأسهم لهب الليل ، وأسرت النساء والجواري والغلمان والصبيان ، وتم الاستيلاء على كنوز العصابة وأموالها وخيولها ، وأمر جبل بنقل هذه الأشياء لأسفل الجبل عند الملك شهلب ، ثم بدأ هدم القصر وإتلاف الأسوار والأشجار وردم عين الماء بحيث لا يتمكن أحد من العيش على قمة هذا الجبل بعد هذا الدمار الشامل ، وأشعلت النيران في المكان حتى أصبح قاعا صفصفا ، ثم صاح جبل بقوة ونشوة النصر والقتال : لقد انتهى لهب الليل !! فليرقد الناس على فرشهم آمنين مطمئنين بأمان وسلام .. بوركت السواعد التي سحقت هذه القلعة وهذه العصابة .

وأمر جبل بحمل الأموال والغنائم إلى قرية الماء ؛ ليتم توزيعها على رجال الحملة ، وبعد أن استراح القوم بضعة أيام في أكل وشرب وسعادة ، واحتفلوا بالنصر على عصابات الوادي المرعب ، وأكمل الرجال تدمير القصر بعدما حرقوه ، فقد رخص الأمير للنساء والغلمان بالحرية ، فمن كان له أهل ومدينة سمح له بالانصراف إليها ، ومن ظل ورغب بالاسترقاق وزع على الفرسان لمن شاء ، وقسمت الأموال والأنعام على الجميع ، وتناقل الركبان خبر هلاك

جبل الرعب والخوف على يد الفارس جبل بن مجدو ، ولما أرادوا التفرق أقسم الأمير حريف على دعوة الملك شهلب والأمراء والقادة على زيارة مدينة الدب ، ولقد حاول جبل التخلص من هذه الدعوة ، فهمس حريف في أذنه مهيجا له ومرغبا : أتخشى رؤيتها ؟!

فقال جبل بارتكاب وحياء : نعم أيها الصديق .

وقبل الملك شهلب الدعوة ، وصرف فرسانه إلى مدينة القمر بما كسبوا إلا بعض خواصه وحرسه ، وأمر جبل فرسان جزيرة النمور بمصاحبة فرسان جزيرة النمر الأحمر إلى مدينة القمر والانتظار هناك ، وصحب معه بعض قادته ، فكما تعلمون فإن جبلا هو أمير الجيش في جزيرة النمور ، وتحركوا إلى مدينة الدب التي وصلتها البشائر من أيام بالنصر الكبير ، فخرجت المدينة عن بكرة أبيها ترحب بالضيوف والفرسان المنتصرين ، وكان يوما مشهودا في بلاد الدب ، والتقى الملك الشاب سليل بالملك شهلب والأمير جبل وثعلبون وغيرهم من الفرسان والقادة وهنأهم على السلامة وعلى الظفر على مجرمي الجبل المرعبين ، ودخلوا المدينة والناس ترحب بهم ، وأعدت لهم مائدة عظيمة ، وجاءت التهاني من ملوك المدن المجاورة للأمير جبل ، وقد أتت تهنئة من الملك جبرون ودعوة لزيارة بلاد التين ، فأخبر جبل الرسول أنه سيلبي الدعوة هو والملك شهلب ، ومضت سبعة أيام في ضيافة الملك سليل ، فاستأذن الملك شهلب بعدها بالسفر من الملك سليل فأذن له ، فلم علم حريف بذلك قال لجبل : ويك الأميرة لها أيام تستعد للقاء الفارس ! وأنت تتعذر بانشغالك مع الملك شهلب .. سر إليها وودعها يا أخي .

فقال جبل بعد تردد : خذني إليها .. لأننا مسافرون غدا بعون الله ..فأنا مستعد للقاء مائة فارس ولا ألقى الأميرة حظوظا بضع لحظات .

فاستأذن الأمير حريف من الملكين ، وأخذ جبلا لقصر أمه ، وكان حريف قد أرسل غلامه قبله يخبرهم بزيارة الفارس لقصر النساء ، فكانت الملكة والأميرات والجواري في استقبال الفارس جبل ذائع الصيت ليشيعنه بأبصارهم ، فكن يحطنه بنظرات الإعجاب والإكبار ، فشجاعة فارسنا أضحت مضرب الأمثال في مدينة الدب وغيرها ، وكل منهن تهمس في أذن

جارتها : هذا هو الفارس جبل ابن الخباز مجدو الساحر !!.. قاهر الفرسان والأعادي .. هذا ابن مدينتنا !!

فلما وصل الملكة حياها بحياء شديد ، وكذلك في تحيته للأميرة العاشقة ثم قال : أنا خادمكم المخلص .

فقالت الأم : أهلا بك يا فارس الدنيا ! ..لماذا تتهرب من لقائنا منذ وطئت قدماك أرض آبائك وأجدادك يا أمير الفرسان ؟

كانت الأميرة في غاية السعادة وغاية الحياء والارتباك وهي ترى الفارس يقف أمامها ، وكما يقولون كانت العيون هي التي تتكلم عما في قلبيهما ، ورد جبل على الملكة فقال : إنني لا أتهرب من لقائكم ولكن ..

فقالت الملكة : أنا أعرف أنك تخجل من ابنتي الأميرة .. فيا أيها الفارس إنها ترغب فيك بعلا فأنا أخطبها لك .

فأمسك جبل بيد الملكة وقبلها قائلا : يا أمي أنت كريمة !!.. اعلموا أيها الناس أن لقاء مائة محارب أهون عليّ من مثل هذا الموقف .. قبلت أيها الأم .

فقال حريف وهو يعانق جبلا : مبارك أيها الأخ العزيز .

وصافح أخته مهنئا وهو يقول : مبارك أيتها الأخت ! فها هو الفارس جبل قد ترجل عن جواده ولان قلبه لأختنا العزيزة .

ثم قال فارسنا وقد ملأ الحياء روحه وقلبه : مبارك لنا . وتناول يدها وقبلها ، وزغردت النساء فرحا ، وقالت الأميرة : مبارك لك أيها البطل .. أيها الزوج الحبيب ، وها أنا قد وفيت بوعدي وأرسلت الأم وراء الملك سليل ، فلبى نداءها سريعا ، فأطلعته على موافقة الفارس أخيرا على الزواج ، فضحك الملك وقال : وهل وافق الفارس أخيرا يا أماه ؟!.. مبارك يا أختي العزيزة ها قد تحقق حلمك بالفوز بقلب هذا الرجل الشهم النادر في زماننا هذا ..ومبارك يا عزيزنا جبل بن مجدو وعانقه مهنئا ، وأعلنت الأفراح بمدينة الدب .

أزواج

فرح الناس جميعهم في مدينة الدب الخاصة والعامة بهذه المصاهرة ، فسكان المدينة يعرفون جبلا ويحبونه ولا ينسون أفضاله عليهم ، وتعهد الملك شهلب بدفع صداق الأميرة هدية منه لصديقه الفارس ، وتعهد أيضا بتزويج أخته للأمير ثعلبون ، وأعلن الملك سليل الأفراح في البلاد لمدة سبعة أيام ، وكمل زفاف الأميرين بسلام وهدوء ، والتقى العاشقان في عش الزواج وأمضوا أسبوعا آخر في كنف الملك سليل ، ثم قال الملك شهلب للملك سليل : سنسافر أيها الملك الكريم .. فما تقول يا فارسنا العريس ؟

قال جبل : لقد جهزت نفسي وعروسي يا مولاي .. سنمر على الملك أسعد في مدينة الشرق ثم بلاد التين لنشارك الأمير حريف زواجه .

وجهز الملك سليل سرية من الخيالة للذهاب مع الأسرة الحاكمة لخطبة الأميرة ريم التي وافق أبوها بناء على رسالة تلقاها من الملك سليل وأخرى من جبل ، فسار الملك شهلب وجبل لبلاد الشرق ومنها لبلاد التين للاحتفال بحريف ، وسار سليل وأمه وأخواته ونساء أخريات والفرسان لبلاد التين ، وتولى قيادة البلاد الأميران قيس وليث .

استقبلت بلاد الشرق الفارس والملك شهلبا استقبالا حارا ، ورحب الملك أسعد بضيوفه ، وأهدى الملك شهلبا وجبلا ومن معهما هدايا ملكية ، وكان الملك أسعد قد تزوج ، ووهب ذكرا فسماه جبلا ، فجاء الصبي جبل وعانق سميه الفارس وضيوف أبيه ، فوهبه جبل سيفه ، ودعا له بطول العمر والقوة والحياة السعيدة ، وأظهر الملك أسعد فرحه وابتهاجه بزواج الفارس من الأميرة حظوظ ، وأمضوا ثلاثة أيام في ضيافته ، ثم رحلوا إلى بلاد الملك جبرون ، فخرج جبرون بنفسه مرحبا بهم ، وعانق الفارس عناقا طويلا تخللته الدموع ، وقال : كم سررت عندما علمت بزواجك من الأميرة ؟! فإنني أحبك أيها الصديق حبا كبيرا .

وأظهر الملك جبرون فرحه بلقاء ثعلبون والملك شهلب ، وقام جبل وثعلبون والملك شهلب بزيارة القائد سالم بن قنبرة المريض ، ودعوا له بالعافية والسلامة ، وحضر الملوك والأمراء خطبة

وزواج الأميرين حريف وريم ، ومكثوا شهرا في ضيافة الملك جبرون .. وكان جبل قد أطلع الملك جبرون على جهوده للقضاء على مملكة العقرب ، فلما انتهى من تفصيل الأمر ، قال الملك : أو تستطيع ذلك أيها الشجاع ؟ .

فقال جبل : مضى سنتان وخلال سنتين أو ثلاث ـ إن شاء الله ـ سيكون الأسطول البحري جاهزا لحمل الفرسان المدربين ، وسيتم ذلك الهجوم بالتعاون معكم ، أنتم والملك سليل ، تشغلونهم عنا من البر ونحن ندخلها من البحر ، ثم نطبق عليهم ، وأسأل الله وحده أن ينصرنا على الضبع اللعين .. وأوصيك يا مولاي ببلاد الدب ، فكلما حاول اللعين الهجوم عليها فتأمر بتحريك جيشك المظفر ، فينقل له جواسيسه ذلك فتراه يرفع حصاره المتكرر على بلاد الدب حتى أبعث إليكم رسولا لتزحفوا نحو بلاد العقرب .

فقال الملك جبرون : أنا رهن إشارتك أيها الصديق الوفي ، فمنذ أن التقينا وأنا أرى بوجهك الفرج والنصر .. فكما أن الضبع عدوك وعدو بلادك ، فهو عدونا ، فابشر بما يقر عيناك .. لقد أنهكتنا هذه الحروب المتكررة ، نود من أعماق أفئدتنا أن نرى نهاية لها .. فكم من الأطفال فقدوا آباءهم ؟ وكم من الشباب قتلوا أو خسروا أعضاء من أبدانهم ؟ .. فنحن نطمح بنصر ساحق

فقال جبل بحماس وثقة : اقترب الوعد الحق يا مولاي .

قال الملك : نحن في انتظار الإشارة .. وإن مت ولم أشهد هذا اليوم سأوصى ولدي الكبير بالإصغاء إليك أيها البطل !.. لقد أخبرتني أم العيال أن الأميرة حظوظا أسعد النساء في الدنيا بزواجها منك ، وهي تحبك حبا ما كنا نتخيله أيها الفارس الصديق ، فاحرص عليها ولا تفرط فيها أبدا .

قال جبل ممتنا : هي في عيوني وقلبي يا مولاي ! وكيف أنسى كل سنوات الانتظار التي انتظرتها من أجلي ؟.. فأنا أحب سعادتها ، ليت أبواي على قيد الحياة ليشاركوني هذه السعادة وهذا الفرح الكبير.

وغادر الملك شهلب ومن معه بلاد التين إلى مدينة القمر ، ثم ساروا للميناء فركبوا سفنهم

ومراكبهم وعادوا إلى جزائرهم سالمين .

وبعدهم بأيام أخذ الأمير حريف عروسه وعاد مع أهله وفرسانهم إلى مدينة الدب ، وهم أيضا في غاية السعادة والحبور ، أولا لزواج الأمير حريف من محبوبته الأميرة ريم ، وثانيا إنهم وجدوا حليفا قويا يدعمهم في مواجهة حملات الضبع .

رحب الملك أمجد بالملك شهلب واستضافه وفرسانه يومين ، وأخذ الملك شهلب ثعلبون معه إلى جزيرة النمر الأحمر ليزوجه من أخته ، كما قطع على نفسه عهدا بذلك أثناء إقامته في بلاد الدب ، وتقرر أن يمكث جبل بضعة أيام ثم يتبعهم للاحتفاء بزواج الفارس ثعلبون ، وأعد جبل المنزل الذي يسكن فيه ؛ ليكون لائقا بالأميرة حظوظ ، ثم تفقد مرسى صناعة السفن والمراكب ، فوجد الأمور تسير على ما يرام ، وتفقد معسكرات إعداد البحارة والرماة والفرسان ثم عاد للبيت مسرورا ، فوجد الأميرة تستقبله بفرح آخر فقالت الأميرة : هل من جديد أيها الحبيب ؟

رد قائلا : الحمد لله ، الأمور تمضي كما رسم لها ، متى نلحق بثعلبون لنشاركه فرحه ؟

قالت : في أي وقت تشاء أيها الحبيب ؟

رد قائلا : أدام الله عليك السعادة ـ أيتها الزوجة الطيبة ـ غدا نسافر ـ إن شاء الله ـ ثم يتبعنا الملك أمجد وأمراء البلاد لحضور الاحتفال الكبير الذي سيقيمه الملك شهلب لثعلبون وأخته ، إنه نعم الملك والأخ .

وفي مركب خاص بالأمير جبل ركبه هو وزوجته وبعض خدم الأميرة وساروا لجزيرة النمر ، فرحب بهم مليكها والسعادة والغبطة تغمره ، وذبح لهما من الخراف اللذيذة ، وأحسنت زوجة الملك وبناته وأخواته في استقبال الأميرة ، وسررن بها سرورا عظيما ، وهي سعدت بترحيبهن وحفاوتهن وودهن وبشاشتهن ، وأخذن يسألنها عن الفارس الذي خلب عقل وقلب الملك ، فحدثتهن عن أمرها ومعرفتها بالفارس ، فلما سمعن حديثها ظنن أنها تبالغ في الحديث عن بعلها وقرينها ، فلما اجتمعن بالملك وحدثنه حديث الأميرة ، فقال الملك ضاحكا : إن حظوظا

لم تعرف جبل بعد ..آه .. لقد هزم عشرة من فرساني الذين كنت أباهي بهم الدنيا مرة واحدة وفي المعركة التي رحلنا إليها في البر عندما أغار على المجرمين كان كأنه العاصفة الهائجة .. يهربون من أمامه كالأرانب سقط بينها سهم .. ارتعبوا من صوته .

فقالت : أمعقول هذا ؟!

فأجاب بحماس وإعجاب : نعم معقول .. استعدوا وتهيئوا لزواج أختي بالأمير ثعلبون ، فعندما يصل الملك أمجد تبدأ الاحتفالات من أجلهما .

ولما حضر الملك أمجد بن بلال وحاشيته أعلنت الأفراح في جزيرة النمر الأحمر ، وتزوج على أثرها الأمير الفارس ثعلبون من أخت الملك شهلب الصغرى ، ولما تم الفرح والعرس غادر جبل الجزيرة موصيا الملك وثعلبون بمتابعة صناع السفن وتدريب الفرسان للمعركة الفاصلة التي يحلم بتحققها الفارسان .

وذات مساء عاد الأمير للبيت وهو يحمل رسالة ، ولما ألقى السلام ، قال للأميرة التي كانت تحمل رضيعها المولود منذ أيام : أيتها الحبيبة وصلتني رسالة اليوم عن طريق الحمام من الأهل في بلاد الدب ، وفيها أن الضبع الشرير قد رفع حصاره عن المدينة الحزينة عندما سمع بأن الملك جبرون يعد جيشه لغزو بلاد العقرب ، وفي الرسالة أيضا أن الأمير حريف قادم لزيارتنا ومعه أمنا الغالية وزوجته وبعض الأميرات ، ويطلب إرسال مركب لتحملهم ، فأذن لي الملك بإرسال مركبه ببحارتها وحرسها ، فأرسلت برمو الخادم معهم لانتظارهم في مدينة القمر ، والآن كيف حالك اليوم وحال المولود أشهب ؟

فقالت وقد سرت بما سمعت : نحن بخير ما دمنا في ظلك يا سيدي الفارس !!.. وإنني في شوق لأمي .. هي الوحيدة التي كانت تواسيني وتحثني على الصبر والتحمل ، فما يقدره الله لابد من حصوله .. وحريف أيضا رغم قلة عشرتي له لضياعه الطويل إنني أحبه جدا كأنني عاشرته سنوات ربما لحبه الكبير لك .. آه .. كم يحبك حريف يا جبل ؟! .. يحق لي أن أغار من حبه لك يا أميري الجميل .. فمرحبا بالجميع .. أيها الحبيب أريد منك جارية خاصة بابننا .

فقال : سأهتم بالأمر ..وسأفارقك بضع ليال أزور فيها جزيرة النمر ، فقد أرسل لي ثعلبون أن السفينة الكبيرة الثانية قد جهزت ، فاصبح لدينا هنا اثنتان وهناك اثنتان ومئات المراكب ، فقد اقترب الفجر يا قرة العين .

فقالت الأميرة ضاحكة : كيف أفقد هذا الوجه الحسن ليلة واحدة يا سيدي الفارس ؟

فقال باسما : عليك أن تتعودي ذلك يا أميرتي الحسناء ، فعندما تجهز الحملة قد أغيب عنك أشهرا أو قد أقتل .. فهذه حياة الفرسان .

فقالت : الله !! وتتركني هنا وحدي !

فقال : هناك حل .. عندما يقترب موعد الحملة تذهبين لبلاد الدب .

قالت : سوف أفكر في ذلك بوقته يا فارسي الجميل .



وسار الفارس بمركب صغير مع اثنين من البحارة إلى جزيرة النمر ، وتعرض المركب لعاصفة قوية في البحر ؛ ولكن الله سلم من شرها ، واطلع جبل على السفينة الجديدة ، وتابع بنفسه تدريبات الفرسان ومكث بضع ليال عندهم ، ثم قال لثعلبون : قد نبدأ الهجوم الصيف القادم بمشيئة المولى .

وقفل الفارس عائدا لجزيرة النمور ، واستقبل ضيوفه القادمين من بلاد الدب ، فأمضوا في ضيافته شهرا ممتعا ، ولما انتهى موسم الشتاء أمر جبل بعرض كبير للجيش الذي أعده للمعركة فوجدهم ما يقارب خمسة آلاف مقاتل ، وكلهم مستعد للغزو والقتال ، ومثلهم في جزيرة النمر ولما دخل فصل الصيف تجمعت الجيوش على أرض جزيرة النمور ، وكان قد تم إنجاز سفينتين اخريتين فأصبح في كل جزيرة ثلاث وآلاف المراكب ، واستأجر جبل أربع سفن كبيرة ، وركبت الجيوش على السفن والمراكب والقوارب ، وحملت الأقوات والأعلاف والماء والخيول والسلاح ، وأعلن النفير العام ، واجتمع جبل مع قيادات الجنود ، ووضح لهم خطوات المعركة وكان جبل قد زار مدينة العقرب من البحر ليعرف كما تستغرق الرحلة البحرية إليها ، وحدد

مواقع النزول المناسبة ، ولما تحركت الحملة أرسل رسله لبلاد التين والدب يأمرهم بالتحرك لمحاصرة بلاد العقرب وإشغالهم عن الهجوم البحري القادم ، وكانت المراسلات لتنسيق الهجوم قد بدأت بين جبل وجبرون وسليل مع بداية فصل الربيع ، ثم أتت رسالة بواسطة الحمام من الملك جبرون تبين أنه قد جهز ما يزيد عن عشرة آلاف فارس ومثلهم رجالة ، وأتت رسالة من الملك سليل تبين أنه أعد عشرة آلاف محارب وهم في طريقهم لبلاد العقرب ، ولما وصلت أخبار خروج الملك جبرون لغزو بلاد العقرب للملك الضبع أصدر أمره لقادته لملاقتهم قبل الوصول للمدينة ، ولكنه لما علم بحلف جبرون وسليل وخروجهما معا لحربه دهش بداية للأمر واجتمع بمستشاريه وكبار قادته يتدارسون الوضع الغريب ، فمنهم من قال : ننتظر حتى يتجمعوا ، ومنهم من اقترح البقاء داخل المدينة وقرر الضبع في النهاية الخروج لملاقتهم أمام المدينة ، وأرسل للمدن التابعة له بمده بأقوى أبطالهم ، واجتمعت جنود الملك جبرون المريض ـ والذي أصر على شهود هذه المعركة ، وعلى قيادة الحملة بنفسه ـ وجيوش مدينة الدب بقيادة أمير الجند قيس ، واشتبكت العساكر بعضها ببعض ، وكان يدور القتال بينهم يوميا قتالا ضاريا ، واستمر القتال أياما ، وكانت جيوش الملك جبرون والأمير قيس مهمتها اشغال عساكر العقرب حتى يدخل جبل بجيوشه المدينة ، ثم يقتحمونها هم جهتهم .. ولما اقتربت عساكر جبل من المدينة طلب من القادة أن يكون النزول مع الفجر ، ولما تشرق الشمس تكون الفرسان على سواحل المدينة ، واحتل جبل الساحل وتخلص من حامية البحر سريعا ، وسقطت البروج بسرعة ، فهم لم يتوقوا مثل هذا الهجوم العنيف والسريع فكانوا صيدا سهلا ، ودب الرعب في المدينة فتمت السيطرة على المدينة في ساعات ، وجيوش البر تغلبت على عساكر الضبع ، فمن هرب نجا ومن استسلم نجا ، ثم اندفعت العساكر البرية لداخل المدينة ، وسقطت المدينة بأيدي الغزاة ، ولم يبق إلا قلعة الضبع فتمت محاصرتها ، وأمر جبل بحرق المدينة وأذن للناس بالرحيل ، وبدأ جبل بهدم أسوار المدينة بواسطة الأسرى ، وكانت بعض السرايا تطارد فلول الجيش المنهزم ، وفي خلال أيام أصبحت المدينة خاوية على عروشها سوى قلعة

الضبع المحاصرة ، وقد وصلت أخبار الكارثة التي حلت بالجيش والمدينة للضبع فأصابه الجنون ولعن الساعة التي غزا فيها بلاد الدب ، وتذكر قتله للملك شامة وتخريبه لبلاد الدب وغيرها من البلاد ، وتيقن أن ليس للدنيا أمان ، وأخذ يكيل السباب والشتم للغضبان الذي سفك دم ذلك الخباز الذي أنجب هذا الفارس ، وشدد جبل الحصار حول القلعة ، وأخذ المنادون يطوفون حول القلعة يدعون الجنود والعسكر للتسليم ، ويعلنون من استسلم نجا ومن أسر بعد دخول القلعة مصيره الموت ، ولكنّ المحاصرين أصروا على البقاء ، ولم تنفع معهم تحذيرات جبل ، وعلم جبل أن بعض المدن التابعة لمملكة العقرب تتحرك للهجوم على جيوشه ، فأرسل الفارس رسائل لملوك المدن يدعوهم للطاعة حقنا للدماء والأموال ، ولكن بعضها رفض الاستسلام وأصر على الثأر ، فأرسل جبل خمسة آلاف محارب مع ثعلبون يقاتلون الرافضين في عقر دارهم ، وقاد هو مثلهم في جهة أخرى ، وظل الملك جبرون والملك شهلب والأمير قيس يحاصرون قلعة الضبع ، وقامت الجيوش بحروب سريعة في المدن الغاضبة ، وتم تأديبها بعجلة فاجأت قيادات تلك المدن ، فالمدن التي أعلنت الحرب على جبل عزل حكامها وأسرهم ، ومنحها الاستقلال عن مملكة الضبع الزائلة ، والمدن التي رضيت بالطاعة ترك حكامها وأعطوا الاستقلال عن مملكة الضبع ، وكذلك فعل ثعلبون مثلما فعل جبل ، وهكذا تفتت مملكة الضبع العظيمة إلى ممالك شتى كما كانت قبل ظهور الضبع وجده ، ثم عادت الجيوش تتابع حصار القلعة ، وأمام ضغط الحصار الشديد ، واليأس من إمدادات المدن التابعة للضبع ، وكذلك قد ضاق المحاصرون بالحصار الذي لم يتعودوه ، ومن نـقص الأقوات ، فازداد ضغط الجياع من الجند وزاد عصيانهم ،فأخذوا يستسلمون للأمير جبل ، وطلبوا الأمان ثم فتحوا أبواب القلعة فأخلى سبيلهم فخرجوا بأنفسهم من غير سلاح هم ونساؤهم وأطفالهم ، ودكت أسوار القلعة بالأرض ، ودخل الفرسان قصر الملك الضبع ، وساقوه أسيرا هو وأفراد أسرته ومن معه من الوزراء وقادته الكبار الذين لم يشاركوا في القتال خارج الأسوار ، ووضعهم الأمير جبل في أقفاص ، وتم الاستيلاء على كنوز مملكة الضبع كلها ، وأمر جبل بحرق القصور ثم ردمها ،

فأصبحت أطلالا كأن لم تكن عاصمة ملك في يوم من الأيام ، وباع جبل الأسرى لتجار الرقيق ووزعت النساء والأطفال على المحاربين ، وقسمت الأموال والأنعام على المقاتلين ، وأهلك جبل رجال الضبع الكبار ، فأمست مدينة العقرب الأحمر حديث السمار في تلك الأيام ، ثم انصرفت الجنود لبلادها وهي تحمل الغنائم الكثيرة ، والذين قتلوا من محاربين المدن الأربعة أرسلت غنائمهم لذرياتهم وورثتهم ، ومن القادة من كان نصيبه أميرة من الأميرات السبايا فباعها بدريهمات ، ومنهم من صمم على أخذها جارية وخادمة له ، فقلما فارس من بلاد التين ومن بلاد الدب لم يمت له أب أو أخ في حروب الضبع الطويلة ، فأكثرهم موتورون ، وعادت جنود جبل إلى سفنها ومراكبها ، ثم قال جبل : ماذا نفعل بالضبع يا مولاي الملك جبرون ؟!

فقال جبرون : لقد قمت بعمل عظيم يا جبل ! .. هذه هي نهاية كل باغي وطاغي .. لا دوام لدولة الظلم والعدوان ، الحق لابد أن يعلو مهما طال الزمان .. وكل من ساعد وشارك وسكت عن الظلم واستمرئه سيصيبه العذاب والهوان ،كانوا مسرورين بظلم وبغي الضبع ، ويتنعمون بأموال الناس ، ويتندرون على ضعف الضعفاء ، فها هم قد صاروا ضعفاء ، ها هي الكنوز التي سفك الضبع من أجلها آلاف النفوس استولى عليها غيره ، قد جمعها للآخرين فالأيام دول إنك يا جبل أشفيت غليلنا ، فكم من الأبطال فقدنا في الدفاع عن أنفسنا من جبروته وطغيانه فكم من الجرحى والمصابين يعيشون بيننا من عدوانه ؟! فكم من الأموال ضاعت من أجل تغذية هذه الحروب الظالمة ؟! .. وإنك يا ابن الاجواد محارب لا يشق لك غبار ، وفارس صبور وخصم لا يرحم خصمه العنيد المكابر .

فقال الأمير جبل مخاطبا الأمراء والقادة : أيها الملوك والأمراء ! كم من السنوات والأعوام وهو يثير الرعب في المدن والقرى ؟! .. كم من الملوك قتلهم وضم أملاكهم لملكه ! فها هو قد جمعها لغيره ؟ ! ..كم سنة وأنتم تتصارعون ؟ .. وكم من الرجال والنساء ذهبوا لشهواته وحبه للسيطرة وإذلال الخلق ؟!.. نحن في بلاد الدب لا ننسى ما فعل ببلادنا من الفتك والنهب والأسر وما حل بالحقول والحدائق والضيعات ؟ وما فعل بالملك شامة ووزيره ليث وقائد

جيشه ربيع ؟!.. هذا يوم عيد عندنا ، منذ ما يزيد عن عشرين سنة وبلادنا في حرب وحصار معه ، فقد آن للناس بترك السلاح والنوم من غير خوف وتهديد بالاحتلال .. فالمشاهد الدامية ما زالت مرسومة على وجوه أهل مدينة الدب ، وما زالت تلك الفظائع في ذهني مع أنني كنت صبيا ابن عشر سنوات .. فالملك سليل والأمير قيس لم يشاهدا تلك الصور ، لقد أبعدهما والداهما عن تلك الفظائع .. فلما عدنا رأينا الجثث المحروقة والمشوهة .. النساء البواكي في الطرقات .

فقال جبرون : إنني أعرف الضبع .. بل كلهم يعرفون الضبع أنه وحش ! .. ما أنت فاعل به بعدما سمعنا منك هذا الكلام ؟

فقال جبل : هناك عجائز في مدينة الدب فقدن أولادهن وأزواجهن في الحرب يرغبن بمشاهدة الضبع في قفصه .. سنأخذ الضبع في قفصه إلى مدينة الدب ليراه أهل تلك المدينة الصابرة .. وها هم أولاده وذريته قد أصبحوا عبيدا وإماء .. فلنذهب به للمدينة لنحتفل بنصرنا هناك ثم نذهب لبلادكم بلاد التين ونكمل الفرح ، فمن حقنا أن نفرح بعد كل هذه التضحيات .

طلب جبل من بحارة سفينة الملك شهلب أن يأخذوها ويسيرون بها إلى مدينة القمر وينتظرونهم هناك ، وتحرك الملك جبرون ومن بقي معه من قومه إلى مدينة الدب ، وكذلك الملك شهلب والأمير جبل وثعلبون وقيس وأمراء جزيرة النمور

واستقبل الملك سليل الملوك بالترحاب الكبير ، وأمر بذبح النوق والأبقار ، وكانت الأفراح منتشرة في البلاد ، وأبواب المدينة مفتوحة باستمرار ، وخف عدد جنود الحراسات عن الأسوار والأبراج ، فهم يحلمون بالسلام الذي كان ينعمون به أيام الملك شامة ، وشاهد الناس الضبع ، فقد وضع في ساحة عامة فرجة للجماهير ، وهو يقبع في قفصه كالحيوان ، وبينما الناس حوله يتفرجون عليه ويشتمونه ويحقرونه ويبصقون عليه ، طفق يصيح ويصرخ وهاج كالوحش فترة من الزمن ، ثم سكن جثة هامدة ، فأمر جبل بنقله لبلاد العقرب المدمرة ودفنه هناك .. وهكذا انتهت أسطورة الملك الضبع ، ذلك الإنسان الوحش الذي كان لا يحلو له إلا سفك دماء

ضحاياه .. فقد قهر الملوك وسبى الآباء والأطفال والنساء وارتكب الأثام والشرور وسلب الأموال والأمتعة



احتفلت بلاد الدب بالنصر الكبير ، وأعلنت أن الأمير جبل بن مجدو صانع هذا النصر بطل خالد لا ينسى ذكره في تاريخ المدينة ، وأن تدون قصة بطولاته في صحائف تتلى على التلاميذ ، وأن كل ذكر يولد هذا العام يسمى جبلا ، وكل أنثى تسمى حظوظا ، حتى لا ينسى هذا العام من ذاكرة الأجيال .

وتحرك المنتصرون لبلاد التين التي كانت الأفراح قد أقيمت فيها منذ عودة الجيش المظفر ، واحتفل الناس بعودة الملك وضيوفه الكرام ، وذبحت الذبائح الكثيرة شكرا لله وتكريما للضيوف ، ووقف الملك جبرون يقول في جمع كريم من أهل المدينة : الحمد لله الذي أحياني حتى رأيت الضبع قتيلا ذليلا !

ثم أعلن أمامهم أن الفارس الشهم جبل بن مجدو بطل من أبطال المدينة هو وثعلبون ، وأنهم مكرمون وأسرهم ومن اتصل بهم إلى الأبد ، وما دامت بلاد التين قائمة وموجودة على وجه الأرض ، ولهما راتب سنوي من بيت مال الدولة والملك كالفرسان والأمراء ، فتنازل الفارسان عن راتبيهما للفقراء في البلاد ، وعندما تهيئوا للرحيل كان المرض قد قضى على الملك جبرون وانتهى الأجل فمات ، فحزنوا عليه حزنا كبيرا ، وبكاه جبل بكاء عظيما ، ولبثوا أياما أخرى ، ثم استأذن الملك سليل بالرحيل فأذن له الملك الجديد .

وقال الملك سليل مخاطبا جبلا : أيها الفارس ! وقد وضعت الحرب أوزارها ألا تريد أن تستقر في بلاد الدب بعد كل هذه المعارك الطاحنة والترحال في البر والبحر فأنت منا ونحن منك ؟.

فقال جبل : أنا يا مولاي أصبحت ابن هذه المدن كلها ..كلكم أهلي وعشيرتي .. ولكن استقر بي المقام في جزيرة النمور ، وقد قمت بواجبي نحو الأهل والأصدقاء .. فدعني على راحتي أيها الملك العزيز ! وسأبقى منكم وتبقون مني ..والحمد لله الذي نصرنا على الضبع ، وارتاحت

نفوسنا من همه والتفكير به .. فسلم أيها الملك على أمي الملكة ، ومتى اشتقت إليكم يا أخوال أشهب زرتكم ؟ وأرجو يا مولاي ألا نحمل سيفا بعدما وضعت الحرب أوزارها وعليك الآن أن تهتم برفاهية شعبك مع عدم الغفلة عن تقوية الجند ، فالأيام دول كما تعلمون فالقوي لا يظل قويا ، والضعيف لا يبقى ضعيفا .

وتعانق الأمراء والفرسان ، وودع الأمير حريف جبلا وثعلبون بالدموع وتمنى لهما السعادة ، وشكروا الملك شهلب على شجاعته وشهامته ، وأوصوا الأمير جبلا على أختهم حظوظ .

ثم سافر الملك شهلب وأمراء الجزيرتين نحو مدينة القمر ، ومنها إلى جزيرة النمور التي تجددت بها الأفراح بعودة الأمير المظفر قائد الجند ، وأكرم جبل أبناء الذين قتل آباؤهم أو أبناؤهم غاية الإكرام ، وأعتق جبل كثيرا من الأرقاء ، وعفا عن المساجين الثلاثة الذين أرسلهم لهب الليل لقتله ، وأمرهم بمغادرة الجزيرة ، ولما تم الاحتفال بالنصر الخالد بجزيرة النمور أخذوا معهم الملك أمجد للمشاركة بالاحتفال الأخير في جزيرة النمر الأحمر ، ولقد استقر ثعلبون الفارس في جزيرة النمر الأحمر في قصر خاص شيده له الملك شهلب هدية العرس ، فلما وصل البيت تناول أحد الغلمان منه الحصان ليضعه في زريبته ، ودخل ثعلبون حجرة فخلع ملابس الحرب وعلق سيفه على الجدار ، وقال : أرجو أيها السيف أن تستريح الآن !

وخاطب الأميرة التي كانت تنظر إليه باسمة ضاحكة قائلا : أرجو أيتها الأميرة أن لا نحتاج إليه مرة أخرى ، وآن لنا أن نستريح من حروب ، لها أكثر من خمس وعشرين سنة في بلاد الدنيا الواسعة .

فقالت الأميرة : مبارك النصر ، وحمدا لله على رجوعك سالما ظافرا .. وقد آن لك أن تستريح يا سيدي الفارس يا قرة العين !..كم شقيت أنت والفارس جبل ؟! لقد حدثنا أخي الملك عن بعض معارككم ورحلاتكم ، وأدهشنا بما سمعنا حتى أننا عندما سمعنا الأميرة حظوظ تروي لنا بعضها ظننا أن حبها وهواها للفارس دفعاها لقول تلك المبالغات ؛ ولكننا لما سمعنا الملك شهلب يرويها لنا قلنا إنها لم تقل لنا شيئا ..فإني أعددت لك الحمام ؛ لتزيل عن بدنك أوساخ

الحرب يا سيدي الفارس !

فقال : أحسنت أيتها المرأة الجميلة الطيبة ، فعندي خبر جميل سأقوله لك .

فقالت بلهفة وفضول : ما هو ؟!

فقال وهو يدرك كم ستفرح زوجه عندما تعلمه : لقد اتخذ صديقي الوحيد في هذه الدنيا سيدي الفارس جبل ابن الخباز قرارا صارما ومهما ، وهو البقاء في جزيرة النمور ، فهي قريبة كلما اشتقت إليه ركبت المركب الصغير وسرت لزيارته .

فغمر الفرح نفس الأميرة ، تلك الأميرة الطيبة ، فهي لم تعرف جبلا وحظوظا إلا من سنوات قليلة ، ولكنها أحبتهم من كل قلبها ، ألا تحب من أحب أخوها وزوجها ؟! فأظهرت فرحها الغامر لهذا الخبر ، وكانت تخشى من عودة جبل لبلاده ، فيضطر ثعلبون المخلص لصديقه أن يتبعه ثم قالت : أيها الحبيب سأبشرك بشيء يفرحك كما أفرحتني .

فقال : هات أيتها الأميرة .

فقالت : عما قريب سأضع لك مولودا تقر به عينك .

فقفز الفارس في الهواء من الفرح مرات ثم قال : مبارك أيتها الأميرة .. إنني والله لسعيد مع أنني كرهت النساء بعد مقتل صديقنا هزبر ؛ ولكنك قد غيرتيني.



فلنترك صاحبنا ثعلبون يحتفل مع زوجته الأميرة بفرح قادم إن شاء الله ، الإنسان يفرح عندما يعلم أن مولودا قادم له ..فهذا يعني امتدادا لحياته .. أو كأنه بدأ الحياة من جديد ..فلندع المنزل تخيم عليه السعادة والحبور والغبطة والسرور ، ونعود إلى بطل هذه الملحمة الخالدة .. فالفروسية وحديث الأبطال من الأشياء التي تحبها النفوس وتلذ لها ، وتحب أن تسمعها الآذان وترددها في كل حين ، فمن سنن الله الخالدة في الأرض نشوب الحروب ، فالحروب تُكون الدول ، وتهدم

الدول ، وما زال القادة يحبون الحروب ليوسعوا ممالكهم أو لنشر العدل أو الظلم ، أو قد تكون الحروب لرفع ظلم عن أناس ضعفاء ، والحروب أيضا هي التي تظهر لنا الأبطال والعمالقة في القتال وتدبير وتنفيذ الخطط الذكية والحيل واستغلال لحظات الغفلة والضعف في الخصوم والأعداء .



آخر الحكاية

صاحبنا جبل وهبه ربه الذكاء والفطنة ، وكذلك الشجاعة ، فكان لا يهاب خصومه مع حذر منهم ، فها هو يركب مركبا ، فيها زوجته والملك أمجد وبعض نسائه ، وكانوا في غاية الفرح والمرح .. فالنصر الكبير يستحق فرحا كبيرا من الأبطال ، فبعض القادة من نصر صغير أو قتل عدو واحد يملأ الحبور قلوبهم ، فكيف بفارس كجبل ظل سنوات وسنوات وهو ينتظر اليوم الذي يظفر فيه على الضبع مخرب بلاده ومدمر بلاده بلاد الدب ومثير الرعب قي قلوب أتباعه قبل أعدائه ! ..كم من القرى مسحها عن الوجود ؟ ..كم من الأيتام والأرامل ترك في البلدان التي اكتوت بشره وناره ؟ ، كان الضبع يعشق الشر ، فهل فكر الضبع يوما ما أن مدينته بل قصره وقلعته ستتخليان عنه ويصبحان ركاما من الحجارة ؟ .. وهل فكر بأنه سوف يهزم ويموت مقهورا داخل قفص ؟! كم من مرة وقف ينظر إلى الحيوانات المفترسة وهي في أقفاصها تلتهم أعداءه ومن غضب عليهم من رعاياه ؟ لقد كان اسمه يثير التوتر والقلق في قلوب الناس في بلاده والبلاد التي امتد إليها حكمه .. لا أظن أن غروره سمح له بذلك النظر ولم يقرأ يوما كلمة إن الأيام دول كان همه حربا جديدة أموالا تدخل خزائنه ، نساء جدد يدخلن سرا ياه

وقصوره .. فهو ملك جبار حوله جنود عمي لا حياة لهم إلا الغزو والنهب والسلب والقتل .. وكان يرى ذاك الذكي أن هؤلاء الجنود .. هؤلاء الوحوش إن لم يوجههم لذلك قد يتآمرون عليه .. فالجيوش الكبيرة تحتاج لأموال كثيرة ، فالغزو والحرب يسهل له ذلك .. فقتل الناس والمدن يؤمن ويوفر لهم ذلك .. ولكنهم من جشعهم وغرورهم لا يفكرون في لحظة من اللحظات المتأنية أنهم هم قد يكونون الضحايا ووقود الحرب .. ومع ذلك لابد من استمرار الصراع بين الخير والشر ، ولكل منهما أنصار وأعوان .

بعد حين من المسير على سطح البحر ، حلت مراكب الملك أمجد وفارسه الشهم جبل في جزيرة النمور ، وخرج بعض الأهالي والسادة يرحبون بالموكب القادم ، ومشى الملك مع مستقبليه إلى قصره ، ومشى الفارس جبل وزوجه وخدمها وحوله بعض الفرسان إلى قصره ، وعلى مدخل القصر كانت الجواري يستقبلن سيدتهن ..وترك الفارس ابنه أشهب يمشي ويدب على الأرض وحده بدون مساعدة ، وتخلت الأميرة عن رضيعتها الصغيرة ماجدة تدرج على الأرض ، ولما استقروا في حجرة من حجرات القصر ، قالت الأميرة : الحمد لله على عودة الفارس سالما من هذه الحرب .. ليتني كنت معكم في مدينة الدب لأرى قاتل أبي يا سيدي الفارس !

فقال جبل : كنت أرغب بإحضاره إلى هنا ليرعى أغناما بدلا من رعاية البشر ، ولكنه مات مقهورا ، فانفجر دماغه من الغل والحقد .

فقالت : وكيف تركت أمي يا سيدي الفارس ؟

فقال : لقد قالت بعد موت شامة ابتسمت مرتين مرة ، عندما وافقت على الزواج من الأميرة حظوظ والمرة الثانية عندما جاءت البشائر تخبرنا بهزيمة الضبع .. وانتهاء أسطورة مدينة العقرب .

فرددت الأميرة : الشكر لله .. وبارك الله جهودك ، فمع قسوة هذه الحرب ، وكم راح فيها من النفوس ؟! ولكنها أدخلت السعادة على قلوب الثكالى من سكان مدينة الدب والتين .. علمت أن الضبع عندما انتصر علينا ازهق أرواح ما يزيد عن عشرة آلاف نفس .

فقال جبل : القاتل يقتل ولو بعد حين يا أميرتي .

فقالت : الشكر لله .. لابد لكل ظالم من زوال .. والآن ألا تفكر يا سيدي الفارس بالعودة لوطننا الحبيب ، وقد آن لسيفك أن يستريح ؟

تبسم الفارس وقال : وطننا الحبيب .. أليس هذا وطننا الحبيب أيتها الحبيبة ؟! لا تحزني .. فأنا قد اتخذت قرارا منذ فارقت بلاد الدب ـ أيتها الحبيبة ـ أن أحبها وأخدمها ؛ ولكن لا أستقر فيها .. لا تدمعي ولا تبكي إنني أتألم من بكائك .

فقالت : دعني أبكي يا سيدي الفارس ، لقد كنت أحلم بأنك عندما تحقق انتصارك هذا سترجع لمسقط رأسك .. وطنك الحبيب .

فقال جبل بقلب حزين : أيتها الحبيبة ارفقي بي .. لم يعترض أهلك رجال وطنك على مغادرتي لهم منذ القدم .. لا تبكي يا قرة العين .. ولولا حبي لبلادي ما فعلت كل ما تعلمينه ..ولكن لا مكان لي فيها ، مكاني هنا في هذه الجزيرة التي ساعدتني على تحقيق الحلم وهو القضاء على مدينة العقرب .

فتنهدت الأميرة وقالت : ماتت الأحلام يا سيدي .

فرد الفارس الآسف الحزين : أميرتي ! أنا مستعد أن أذهب بك غدا ـ إن شاء الله ـ لوطنك فأنا وطني كل البلاد .. الدب .. الشرق .. اللؤلؤ .. التين .. النمور .. النمر .. فهذه الأسماء كلها وطني .. سأذهب بك إلى وطنك الوحيد ، ألم أقل لك يوما في وادي الرعب لا تنتظريني أيتها الأميرة .. فأنا طائر محلق في فضاءات الدنيا .. سأسير بك إلى أهلك عزيزة مكرمة ، وسأترك لك فلذات كبدي أمانة في عنقك ، وأرحل إلى أرض فيها حرب أسلي نفسي بها .

وتساقطت الدموع من عيني الفارس ، فقالت الأميرة : سيدي الفارس .. إنك تظلمني بهذا الكلام .. تقتلني بكلامك وتجرح مشاعري الكبيرة نحوك .

فقال باكيا : أميرتي ! ما دمت لا تستطعين البقاء معي أينما أكون ؛ فإني أسامحك ، وإن شئت انفصلت عنك .

فأجهشت الأميرة بالبكاء الغزير والنحيب ، فاضطرب الفارس وترك الغرفة ، وخرج إلى بستان أمام قصره ، وأخذ هو الآخر بالبكاء بكاء ينفس من ضيق الصدر ، وما توقف الدمع إلا عندما وضعت الأميرة الحسناء يدها على رأسه بحنان وعطف ، وهي تقول من بين دموعها : مولاي الفارس !.. إن بكاءك وشهيقك وتنهداتك سمعتها من داخل القصر ..سامحني يا سيدي !.. كنت أحلم بأن أعود لمدينتي العزيزة يوما ما .. فليبق ذلك حلما .. ولا يمكن أن أتخلى عنك .. لقد فكرت بكل ما عاتبتني به ، فوجدت أن الحق معك ، وأن مكانك هنا ، ولا مكان لك في بلادنا .. فمكانك مع هؤلاء الناس الذين رضوا بأن يحاربوا معك ، وبذلوا مهجهم وأقواتهم وأبناءهم من غير أن يكون لهم غاية أو ثأر أو حقد على الضبع .. أرجو أن

تقبل أسفي ، فهم أحق الناس بك ، هم كانوا في النهاية أهلك

فنهض جبل قائما وأخذ يتأمل عيون زوجته الذابلة من كثرة البكاء وقال : حظوظ .. أحق ما أسمع أم مجاملة أم مداهنة ؟!

فنظرت إليه بعتب وقالت : سيدي الفارس !.. لقد أخلصت لك الحب .. سأسير معك حيثما تكون .. هذا الكلام من عقلي وقلبي .. هيا نعود أيها المحب إلى الصفاء والود ؛ فأنا ليس لي في هذه الدنيا إلا أنت .

فقال مبتهجا جذلا : ما أرق هذا الكلام وأحلاه يا ابنة الكرام !..فالفارس عندما يترجل عن جواده منهيا حروبه فهو بحاجة لصدر حنون وقلب كبير وعطف كالصغير أيتها الزوجة المخلصة .. صدقي يا أميرتي ! أن سعادتنا في البعد عن بلاد الدب ، فأنا ابن خباز ، وهذا معروف لأهالي مدينة الدب ، مع أن أفعالي صنعت لهم ما صنعت فسأبقى في نظرهم ابن صانع الخبز.. يتهامسون ضحكت له الأيام .. فلا ينسى أبناء اخوتك وأخواتك وأقربائك غدا عندما يكبرون أن الأميرة حظوظ تزوجت من الشاب الوضيع جبل .. ينسون الحروب والعرق والدم والتفكير الذي قدمناه من أجلهم ويعيرون أبناءنا .. وشجاعتي ظهرت من قبل أن أعرفك ؛ ولكنهم يظنون بعد حين أنني متسلق .. وهذا الشعور أنا ضعيف أمامه ، ولا أستطيع أن أتخلص من

هذا الإحساس .. أما هنا يا حظوظ فالناس لا تعرف إلا الفارس جبلا ، الأمير جبل الذي دفع عنهم أذى الملك شهلب .. أمير تزوج أميرة ، فيكبر أبناؤك ولا يرون أباهم إلا سيدا وأميرا .

فرفعت الأميرة كف الفارس وقبلتها ، وقالت : سامحني سيدي الفارس !.. هي لحظة ضعف وحنين غلبتني .. أنت سيدي وزوجي وقرة عيني ووالد أشهب وماجدة .

فقبل الفارس بدوره يد زوجته ، وقد غمرت السعادة كيانه من جديد ، وقال : اعلمي كم سيبتهج الأهل والأصدقاء عندما نذهب إليهم زائرين بين الحين والآخر ، سيستقبلوننا بحفاوة وحب وفرح غامر .

قالت : صدقت يا أبا أشهب ! .. أعدك بأن لا أطلب منك الآن أو غدا الرحيل .. فهذا شأنك سكنت هنا أو هناك .. فأنا أعلم مقدار حبك الكبير لي .

فقال جبل : حسن هذا ! .. الحمد لله أنني أسمع هذا الكلام منك .. فسعادتنا بعد هذه السنين من الحروب والسفر أرى أنها هنا ؛ ولكن لا يعلم الغيب إلا الله وحده .. فأنا أعتذر عن أيّ إساءة أساتها إليك بكلامي .. فنحن جاهدنا حتى جمع الله بين قلبينا .. ألا تذكرين عندما رأيتك أول مرة في قصر الأميرة رشاء في مدينة اللؤلؤ ؟ يوم تعشينا أنا وأصدقائي عند الأمير خالد ، في ذلك اليوم خفق لك هذا الفؤاد معلنا بدء الغرام ؛ ولكن الأمور يومها تطورت بسرعة ؛ فإذا أنت قد تحولت فجأة من جارية إلى أميرة ..وليست ايّ أميرة ؟! ..لا .. إنها الأميرة حظوظ بنت شامة .. ابنة مدينة الدب .. ، فضغطت على فؤادي ونحن نستعد لمعركة استرداد ملك الملك أسعد .

فقالت : وأنا يومها تمنيت أن أكون جارية عند الفارس جبل .. لقد لحظت نظرات عينيك إليّ فخشيت أن تكون نظرات عطف وشفقة ..ولما انكشفت حقيقة أمري في تلك الجلسة أدركت أنه قد أصبح بيني وبينك جبل كبير ، ثم عجبت من أمر الله عندما أسرني رجال الجبل ، وجرى ما جرى على يديك .. لقد يئست من العودة للدنيا ، فلما أنقذتني فلم أملك إلا أن أهبك روحي فقد غمرتني بمعروفك النادر .. كم أصابني من الخوف والهلع وأنا بين هؤلاء الوحوش ؟! ..

تمنيت لو بقيت جارية أمة .. أنا الأميرة الشريفة سأكون زوجة لص .. قاتل .. مجرم .. يا الهي ! يا الهي !.. هذه لحظات لا تنسى يا سيدي الفارس ! ..مازالت تثير الرعشة في بدني وقلبي .. فعندما أقبل إليّ أحد الرجال وقال لقد نجوت أيتها الأميرة فهناك رجل مرعب يريدك أتعرفينه فقلت من هو هذا الرجل المرعب الذي يريد لي الحياة ؟ وتمنيت أن يكون جبلا .. دعوت الله أن أسعد بالقرب من روح الفارس جبل ، وأن أكون من نصيب الفارس ، وقد استجاب الله لي رأيت القوة والبأس والشجاعة والغضب اللواتي بذلهنّ الفارس من أجلي .. فعلمت أن حبك لي كبير .. ذاك الجميل لا يمكن نسيانه ، وإن تظاهرت بتجاهله .

فقال جبل : كم أنت مسامحة ولطيفة ومخلصة ؟ ! .. ليتنني شاعر لأصف هذه العواطف الجياشة في قصيدة خالدة يتناقلها الركبان بين الأمصار والأقطار يرددونها من جيل إلى جيل .

فقالت : كفاني هذا الكلام منك ، وأن أبقى في قلبك المحب .

وعاد السكون والصفاء لهذين الزوجين بعد هذه العاصفة ، ولكن كما يقولون السعادة لحظات قصيرة ، فبينما الفارس جبل في مجلس السلطان أمجد دخل أحد غلمان جبل راكضا نحو المجلس يصيح : سيدي الفارس جبل !.. لقد خطفوا ابنك أشهب !.. سرقوه رجال البحر .

فقام القوم كلهم فقال جبل للغلام : اهدأ يا غلام .. اهدأ وقل ما حدث ؟!

فقال الغلام وهو يلتقط أنفاسه المتسارعة : سيدي ! كان الغلام يلعب في البستان .. وغفلت عنه الجارية ، فقد دخلت القصر لأمر ما .. وفجأة سمعنا صراخ الطفل ، فهرعنا نحن والحرس سريعا إليه ، فلمحنا رجلا يحمل أشهب راكضا جهة البحر ، وكان آخر ينتظره فتناول الآخر الطفل ، وقفز الرجل عن السور ، ثم انطلقوا بقارب صغير في البحر ، فرماهم بعض الحرس بالسهام ولكنهم ابتعدوا .

فقال جبل : الحمد لله على كل حال .. ما أصاب المرء لم يكن ليخطئه ..كنت أظن أيها السادة أن سيفي قد آن له أن يستريح من الطعن والضرب .

وطلب من أمراء البحر البحث والحركة عن الطفل الصغير والخاطفين ، واستأذن من الملك

للعودة لبيته ، فقفل عائدا ومعه الغلام ، فوجد زوجته تحتضن ابنتها ، وهي تذرف الدموع ، فلما رأته مقبلا نهضت قائمة تقول : سيدي جبل ! ذهب أشهب ، هل يصير به ما صار بأمه وخاله حريف ؟!

أجاب جبل بهدوء : هذا أمر الله وقدره .. لا تجزعي أيتها الحبيبة .. إنما الصبر عند أول اللقاء والصدمة الأولى . . فهذه حياة الرجال والفرسان .. ما شاء الله كان ، وما شاء الله فعل .. فلقد أرسلت فرسان البحر يطوفون حول الجزيرة .. فالأمر لله من قبل ومن بعد .

فقالت وهي تكفف الدموع : ظننت أن الحروب قد انتهت وأقبل السلام والهدوء ، وانتهى الشقاء والموت والخطف والأسر .

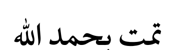
فقال مشجعا ومصبرا لها : الحرب لم تنته يا أميرتي العزيزة .. إنما وضعت أوزارها إلى حين .. إلى أجل ..فاصبري ..فلنصبر ، فالنصر مع الصبر .. فالله هو المعطي ، وهو الآخذ ، وكل شيء عنده إلى أجل مسمى .

فقالت وقد بدأت روحها تعود إليها : الحمد لله رب العالمين .. إن كلامك بلسم .. هي مصائب لابد لنا من الصبر والتحمل .. لقد مكثت جارية أكثر من خمس عشرة سنة .. فقدت فيها الأب والأم والأخ .. وها أنا أفقد اليوم الابن .

ولما هبط الليل عاد أمراء البحر وهم يحملون الطفل أشهب ، فقد وجدوه على متن مركب وحده ، لقد تركه الخاطفون واختفوا ، مما أدهش جبل والقوم ، فقال أشهب الصغير : تركوني يا أبي وأعطوني هذه !

وأخرج من جيبه ورقة دفعها لأبيه ، فتناولها جبل وقرأ فيها :

هذا ابنك قد عفونا عنه .. فاحذرنا في المرة الاخرى



قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

الفارس جبل بن مجدو



جندوه ليكون فارسا للحامية الغازية والحاكمة لبلاد الدب
والده كان خبازا مجاورا للقلعة
حدثت فتنة بين رجال الحامية وقتل الفران مجدو
فنهض ابنه جبل للثأر وقتل سادات القلعة وبلاد العقرب
وطرد رجال الضبع وعاد ابن الملك شامة ملكا ووريثا للعرش
وخرج جبل من البلاد خشية الشقاق والفتنة
فساعد ملك الشرق للعودة لملك البلاد
وانقذ الأميرة وابن جيرون من عصابة جبل الرعب
ورحل لبلاد الملك جيرون ودخل بلاد الهند وغيرها
ثم عاد مظفرا ودمر جبل الرعب على ساكنيه
واتبعها بمدينة العقرب
واصبح حديث الركبان والرواة في ذلك العهد





سيف الزمان وجميلة

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

سيف الزمان وجميلة

قصص حكايات الفوارس

١٥

جمال شاهين

٢٠٠٢

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤



قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

سيف الزمان وجميلة

جمال شاهين

سيف الزمان وجميلة



الملك خصيب

كان الملك خصيب بن مرار يجلس في ديوانه الكبير بين أمرائه وأعوانه ، وبين يديه وزيره الأكبر غراب بن عقاب ، وكان القوم يتحدثون ويتهامسون ويتنادرون ويضحكون ، والملك ينظر إليهم بصمت وكآبة ، ولا يشاركهم مرحهم وفرحهم وتندرهم مما لفت نظر الوزير غراب فاقترب منه قائلا : مولانا الملك ما الأمر ؟!

حدق الملك الساهم بوزيره مرة أو مرتين ، ثم هزّ رأسه بضع مرات ، ولم يرد ، فكرر الوزير السوأل ظانا أن الملك لم يسمعه جيدا ، فعندئذ قال الملك بعد تنهد عميق : آ .. يا وزيري .. إنني مهموم .. حزين !

فتظاهر الوزير بالحزن ، وقال بحزن ورقة : ويحي !! ما الذي يكدر ويحزن مولانا الملك ؟! عسى أن نفرج همه وحزنه .

فتنهد الملك مرات عدة ثم همس : ولدي الكبير ما زال رافضا للزواج يا أبا عقاب .. وأنا أرغب أن أنكحه امرأة قبل هلاكي ؛ لأرى أحفادي وأسعد بهم .. أخشى أن ينقطع نسلنا يا وزيري .. فولدي الصغير كما تعلم مريض وعليل ، ولا يستطيع الإنجاب رغم أنني كما تعلم أنكحته مرتين ، فلم يفلح بالإنجاب ، ولم يقدر له الله العظيم ذلك ، وأما الأمير قيس فقد تجاوز الثلاثين سنة وما زال مصرا ورافضا لفكرة الزواج .

فقال الوزير مواسيا مولاه الملك خصيب : لا تحزن يا مولاي ! .. التدبير كله بيد الله .. وأنا تحدثت أكثر من مرة مع ولدك الأمير قيس في هذا الأمر، وهذه الرغبة ؛ ولكنه عنيد .. وقد تكلم معه ولدي صقر، وهو صديقه ورفيقه وخليله ، وأظهر لنا تعجبه من عدم ميله للنساء والجميلات .

فقال الملك: وهذا ما يخيفني ويزعجني !..أخشى أن تندثر سلالتنا يا أبا عقاب ، ويزول ملكنا ويتحول لأبناء عمومتنا .

فقال الوزير : سوف أتكلم مع الأمير قيس مرة أخرى ، إئذن لي الآن بزيارته ، فهو الآن يلعب في قصر الأقواس ، فكما علمت من ولدي صقر أنهما اليوم يجلسان في القصر ، فهما يستعدان لرحلة صيد في البراري والوديان .

فهمس الملك والحسرة تملأ كيانه : ما أكثر ما يذهب للصيد !! يا ليته يصيد غزالة إنسية ! حاول أيها الوزير الشجاع لعل الأمر يجري على يديك .

فسلم الوزير على الأمراء ، وغادر الديوان ، وركب جواده وتبعه خادمه ، ومشيا نحو قصر الأقواس ، وهذا القصر من القصور الكبيرة والقديمة في بلاد الملك خصيب بن مرار ولما دخل الوزير ذاك القصر علم أن الأمراء والفرسان قد خرجوا للصيد مبكرين ، فتردد الوزير قليلا مفكرا ، ثم تابع المسير وراء الأمير قيس وأصدقائه الفرسان ، ومع المساء وقبل حلول الظلام أدركهم ، ولما علموا بقدومه جفلوا وخافوا وظنوا أن أمرا سيئا قد حدث للملك ، فلما طمأنهم على حياة الملك وعافيته عاد الهدوء لأعصابهم ونفوسهم ، وبعدما أكلوا ما أعده لهم الخدم والغلمان ، قال قيس : ما الذي دفع بوزير أبينا الملك للحاق بنا ؟! لابد أن الشأن خطير!

فقال الوزير : جئت للحديث معك أيها الأمير ..

وتحدث الوزير عن حزن أبيه وهمه وغمه وقلقه على الملك وعلى الحكم ؛ ولما انتهى من شرح مراده للأمير الوارث لعرش بلاد الرايات قال الأمير قيس : ألا يريد أبي أن يبقى الأمل في صدري .. يا عماه ؟! أخاف إن تزوجت ولم أنجب الولد المطلوب ، فماذا يحل بي ؟ بل ماذا يحل بأبي ؟! الملك بيد الله يؤتيه من يشاء .. ها هو أبي تزوج عددا كثيرا من النساء ولم ينجبن إلا البنات .. وذا أخي المسكين سعيد تزوج امرأتين ولم يخلفن منه .. فظهر أنه عقيم ..فلماذا لا يبقي الأمل في نفسي يا عماه ؟!.

وأخذ الوزير يتحدث ثانية عن حزن وغم وكرب الملك وميله الشديد ليراه متزوجا ، وبعد إلحاح شديد وحديث من الأمراء وضغط من الجميع على الأمير الفارس قيس بن خصيب قال الأمير مستسلما : لقد سمعت كثيرا أيها الأسياد ! .. وأنا سأحقق هذا الحلم للملك خصيب

ابن مرار وأجرب الزواج .

فصفق الجميع من الفرح ، وارتفع صوتهم بالسعادة والغبطة ، فهم يعلمون كم تؤرق هذه القضية سيد البلاد وملكهم المحبوب ! ولما خيم عليهم الصمت من جديد ، فقال الأمير قيس : يا وزير بلادنا !.. أنا سأحقق رغبة أبي بالزواج ؛ ولكني لن أتزوج أيّ فتاة ؟ .. لقد سمعت بفتاة جميلة حسناء يضرب بها المثل في الحسن والجمال والبهاء ..

لمعت وتوهجت عيون الجميع على وهج النار ، فقال الوزير بتردد وبطء : من هي هذه الحسناء يا ابن الأجواد ؟!

فعلق صقر بن غراب قائلا وهو متذكر لماض قريب : أخشى يا قيس أن تكون هذه الحسناء الفتاة التي رأيناها قبل شهور في وادي الثعالب ؟!

فصاح قيس وهو يتظر لصديقه صقر : نعم .. هي يا صقر .. قلت يومها لنفسي إن فكرت بالزواج لن أتزوج إلا من تلك الفتاة أو مثلها إنها جميلة وشجاعة .

فقال صقر : ولكنها عاشقة ! .. ألم يقل لنا الفارس الذي كان يرافقها إنه يحبها ، وهي ابنة عمته يا سيدي الأمير ؟

فقال قيس : كأنه قال ذلك ؛ ولكنه لم يكن خطيبها ، ولم تشر هي إلى ذلك .. وهي ابنة ملك .

فقال الوزير : من هي هذه الساحرة التي تتكلمان عنها ؟!

قال قيس متابعا ومبررا : كما علمنا من الشاب رفيقها أو حارسها أنها الأميرة سلمى ابنة الملك جعد بن همام..

هتف الوزير فرحا : الله .. الله !! .. هذا الملك من أبناء عمومة أبيك .. وجدكم واحد حسنا أيها البطل ! سنرسل إليهم وفدا ، ونرى ما يكون .

ومع الفجر تابع الفرسان رحلة صيدهم ، وقفل الوزير مسرورا إلى الملك خصيب وقص عليه الخبر ، فطار الملك فرحا ، وعاد إلى قلبه السرور والابتسام ، وأعلن الأفراح في البلاد لموافقة الأمير على الزواج .

لقد غمرت الأفراح قصور الملك والأمراء على استسلام الأمير الوارث وقبوله بالزواج ، ولكن شاب فرحهم قلقا بأن ترفض الأميرة سُلمى ابنة الملك جعد بن همام الاقتران بولي عهدهم وملكهم في المستقبل ، وقد تسّار الملك مع وزيره في هذا القلق ، وبعد تأمل ونظر استعد الوزير غراب بنفسه للذهاب إلى بلاد الأكباش أوأبو كبشة حيث يحكم الملك جعد ..ولما تجهزت الهدايا المناسبة ، وجهز الوفد المرافق ، سار بهم الوزير غراب ليلا ونهارا إلى تلك البلاد ، وبعد حين اقترب منها ، فأرسل بعض غلمانه رسلا للملك جعد الذي تلقى خبر الزيارة بدهشة واستغراب وأرسل وزيره النبهان لاستقبال الوزير غراب وزير ابن عمه خصيب ، ولما التقى الوزيران تعانقا عناق الأصحاب ، وتصافح الرجال مع الرجال ، ومشى الوزير النبهان أمامهم إلى قصر الضيافة ولما اطمأن عليهم ، ورتب أمر طعامهم وشرابهم قال : الملك في انتظاركم يا ابن العم ! فأثنوا عليه الثناء الحسن ، وشكروه على حسن وفادته واستقباله ، وعند المساء سار الوزير غراب والوفد المصاحب له إلى قصر الملك جعد الذي رحب بهم ، ورحب بزيارتهم ، وقبل هدايا ابن عمه خصيب ، وسأل عنه وعن صحته وأخباره ، ثم أفصح له الوزير غراب عن القصد والغاية والدافع لهذه الزيارة ، وقال الملك بعدما سمع الكلام ووعاه : مرحبا بكم ، ومرحبا برسول ابن عمي .. وبعد أيام ثلاثة ستسمعون الجواب .. وحياكم الله وبياكم في ديارنا ولما انصرف الضيوف تحدث الملك جعد مع كبار الأمراء وقادة الفرسان وأهل مشورته بأمر هذا الزواج ، وسمع منهم الكلام ، وكان أكثرهم يرفضون تزويج الأميرة في بلاد بعيدة وأن قومها وأهلها أولى بها ، وكان أشد الرافضين خالها نحاس ، فهو كان يطمع بأن ينكحها من ولده الفارس ماجد حارسها الأمين وحارس قصرها ، ثم صرفهم الملك بعد السماع ، وأبقى وزيره النبهان الذي أثنى بدوره على الملك خصيب ، وأنه من الفرسان الشجعان والملوك الكرام ولا يتردد في مساعدة المظلومين ، وأن ابنه هو ملك المستقبل ، وفي المصاهرة للكرام تتقوى الصلات والعلاقات ، وختم كلامه أن الرأي النهائي للملك والأميرة نفسها .

وتشاور الملك بعد ذلك مع زوجته أم الأميرة سُلمى ، فأنكرت هذا الزواج ، وذكّرت الملك أن

الأميرة هواها مع الأمير ماجد ابن أخيها ، وهم ينتظرون اللحظة المناسبة لفتح هذا الموضوع وهذا الزواج ، وأمام أمها أظهرت الأميرة رفضها للعريس الأمير قيس ، وأمام أبيها عندما انفرد بها تركت الأمر له ، وأنها لا تريد إثارة القلاقل بهذا الزواج ، وكان الملك جعد نفسه يكره زواج ابنته من ابن خالها ؛ ولكنه لا يريد إثارة الصراع داخل المدينة فأخوال الأميرة وعشيرتهم كثر ، وفرسان لا يستهان بهم حين النزال والمعارك العظام ، فالتقى بخال الأميرة ووزيره ، وبعد حديث قال الملك جعد : الرفض أيها السادة سهل ؛ ولكنه سيوغر صدر ابن عمنا علينا والأيام دول ، ومجاملة الملوك لابد منها ، والاعتذار لهم ليس كالاعتذار للسوقة ..وبعد تفكير وصلت لأمر سأعرضه عليكم .. فإن لبى ابن عمنا طلبنا نزوجه ابنتنا ، وإن اعتذر نكون قد تخلصنا منه بأدب وذكاء وفطنة ، وبقي حبل الود متصل بيننا .

ولما حضر الوزير غراب إلى ديوان الملك جعد ليسمع الجواب قال الملك : أيها الوزير الحكيم وزير ابن عمي خصيب ..اعلم أنني شاورت الأهل والقوم ، فمنهم الرافض لهذه المصاهرة ، ومنهم المبارك ، وحتى لا يغضب علينا ابن عمنا .. فنحن نطلب منه ثلاثة مطالب ؛ فإن وافق عليها حصل الزواج .. فما تقول ؟!

فقال الوزير بقلق : اشرط أيها الملك ..فأرجو أن يوافق سيدي الملك على شروطكم ..فما الشرط الأول ؟



فقال الملك : فنرى أن يهبنا الملك خصيب جواده العظيم دموع

فقال الوزير : أرجو أن يوافق مولانا الملك فالفرس دموع عزيزة على الملك خصيب .زهات الشرط الثاني ؟

فقال الملك : لقد سمعنا عن سيف الملك فردوس .. سيف ملك الصين لابن عمنا خصيب .

فقال الوزير غراب : وهذه أصعب من الأولى إنها هدية ملك !

فقال الملك : وأما الثالث ..فأول مولود يولد للأميرة سواء كان أنثى أم ذكرا أن يربى ويحيا في

بلادنا.. فاذهب بهن إلى مولاك الملك ، ونرجو أن لا تطول إجابتكم ؛ فإن ابن خالها الأمير ماجد بن نحاس طامع بنكاحها أيها الوزير الشجاع .

قفل الوزير غراب عائدا إلى البلاد ، وهو يحمل مطالب الملك جعد لقبول الأمير قيس زوجا لابنته سُلمى ، وبعد مسير طويل استغرق سبع ليال دخل الوزير والوفد على الملك خصيب في ديوانه العامر بالرجال والفرسان ، ولما تعانق الرجال كانت الاحداق تنتظر جواب وكلام الوزير ، فهمس قائلا :

هل أتكلم يا ملك الزمان بحضرة الناس ؟

فتلفت الملك حوله وهمس : هل رفض الملك جعد غايتنا ؟!

فقال الوزير : لم يرفض ولم يقبل وإنما اشترط شروطا .

فصاح الملك الشيخ : ارفع صوتك أيها الوزير أمام السادة الأكابر وأخبرنا بشروط ابن عمنا !

فسعل الوزير غراب عدة سعلات وقال : أيها الملك العظيم ! .. فالملك جعد ملك بلاد الأكباش بعدما شاور رجال قومه ووزيره وأهله ، بان له أن بعض القوم يرفض وخاصة خالها نحاس ، فهو طامع بأن ينكحها لولده ماجد ، وبعضهم راغب بمصاهرتنا يا ملك الزمان ، فأراد الملك جعد أن يخرج من هذا الحرج بحيلة لطيفة ، فاشترط ثلاثة شروط .. فأولها رغبته بملك فرسكم العظيمة والشهيرة دموع .

فبهت الجميع لهذا المطلب ، فهذه الفرس سليلة خيل ذات نسب عريق ، وهي عزيزة على الملك ولها معه تاريخ قديم ..ولما لم يتكلم الملك بشيء ، تابع الوزير غراب قائلا : وأما المطلب الثاني يا مولاي الملك ..رغبة الملك جعد بن همام بتملك سيفكم سيف الملك فردوس .. سيف ملك بلاد الصين المشهور والمعروف عند الملوك والفرسان .

فقال بعضهم : هذا الطلب أشد من الأول .. وما المطلب الثالث أيها الوزير ؟!

فقال الوزير : هو أعجب وأغرب من الأوليين ..فهو يطلب الحفيد الأول من ابنته ؛ ليكون ضمن ملكه ، وأن يعيش ويتربى تحت رعايته .

فخيم الصمت على وجوه القوم برهة من الزمن، ثم قال الملك وقد تنهد تنهدا عميقا: الأخيرة تخص قيس سأتكلم مع الأمير .

اجتمع الملك بابنه قيس وذكر له شروط ومطالب الملك جعد ، فاستغرب الأمير لهذه المطالب وبعد تفكير عميق وصمت طويل ، قال الأمير : إنني لا أعلم لماذا يطلبون هذه الأشياء ؟!.. أقلة خيل عندهم ؟! أقلة سيوف لديهم ؟!.. ولماذا يريدون ولدنا ؟ ألا يثقون بابنتهم لكي يحرموها من ولدها ؟! هذا إذا أنجبت ؟ !

فقال الملك : لا تقل ذلك .. ستنجب بمشيئة الرحمن ، يا ولدي ! لا تخف ولا تهتم ، فهذا أمر مالك الكائنات .. فإذا لم يخلف أخوك فهذا لا يعني أنك لا تخلف .. فكم أنجبت أنا من البنات أما هذه المطالب فهي اعتذار مبطن .. فهم ليسوا بحاجة لدموع ولا لسيف فردوس .. وهذان أنا مستعد للتخلي عنهما يا ولدي .. فزواجك مهم عندي ، مهما عزت عليّ هذه الأشياء ، فأنت أعزّ وسعادتك أعزّ وأهم .. أما الشرط الثالث فهو لك ؟

فقال الأمير : ألا نستطيع أن نحتال على عدم الوفاء به ؟

فقال الملك : هذا عار في شرعة الملوك ، وقد يسبب الحرب الضروس بيننا .. فالوفاء من شيم وأخلاق الملوك الكرام يا ولدي !.

فعاد الأمير للصمت من جديد ، ولما استحثه والده على الكلام قال : الأمر لك يا أبي ! إذا كنت ترضى بالتخلي عن حفيدك الأول فأنا راض وموافق .

فعانق الملك ولده وقال : ألست أنت الذي تريد أن تنكح بنات الملوك ؟!.. فلعلنا بعد مجيء المولود نتدبر الأمر معهم ونسترجعه ثانية ..فسأرسل الوزير غراب مرة أخرى بمطالبهم وهيئ نفسك للزواج ، ولا تخرج للصيد حتى يتم هذه الأمر .

أخبر الملك خصيب وزيره والأمراء والقادة موافقته على شروط الملك جعد ، وأعد للوزير سفارة جديدة ، وكان الوزير قد أرسل بدوره عبدا من عبيده يبشر الملك جعد بموافقة الملك خصيب على مطالبه الثلاثة ، ويحثه على تجهيز العروس ، وبعد مسير طويل دخل الوزير غراب

على الملك جعد بالهدايا الكثيرة من ثياب وجواهر وخيل ، ومن ضمنها سيف الفردوس والفرس دموع ؛ ولكن الوزير لم يجد البشر والسرور على وجه الملك والأمراء ؛ بل وجدوا الكآبة والحزن والأسف .

فقال الملك بأسف وحزن : كان يجب أن يغمرنا الفرح والسعادة بحصولنا على هذه الأشياء النادرة ؛ ولكن بعدما وصلنا خادمكم وأخبرنا بموافقة ورضا الملك خصيب ، وأنك قادم خلفه اختفت الأميرة سُلمى والأمير ماجد ، لقد هربا ، ولم نجدهما أيها الوزير ، ويقول حارس الباب إنه فتح لهما باب المدينة الغربي ليلا ، وقد ادعيا أنهما ذاهبان في حاجة لنا ، ولليوم ونحن نبحث عنهما يا وزير الخير .

فضرب الوزير كفا على كف ، وقال بحدة : لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .. إنها مصيبة عليكم وعلينا !!

فتدخل نحاس خال الأميرة المختفية ووالد الأمير المختفي ، وقال متغاضبا : أنتم السبب أيها الوزير ! ما الذي أتى بكم لبلادنا طالبين بناتنا ؟!

فقال الوزير بحدة أيضا : اسكت يا هذا ! .. فهذه عادة الملوك والسلاطين.. يخطبون لإبنائهم بنات الملوك والأشراف .. أخشى أن تكون أنت الذي ساعدهما على الهرب .. أتدري أن هذه الفعلة قد تثير الحرب بين البلاد ؟ وتجلب الخراب للبلاد والعباد .

فصاح نحاس : ويلك !!.. أتهددننا في عقر دارنا يا غراب ؟

فقال الوزير بغضب : ويحك إنك مثير حرب !.. والله لو لم يرغب الملك بتزويجنا ابنته سُلمى لاعتذر ولم يشرط علينا .

وارتفع الصياح في ديوان الملك جعد الذي لزم الصمت خلال هذا الجدال الحاد ، واهتزت السيوف في أغمادها ، فصاح الوزير : يا ملك البلاد !.. قل لي ماذا أقول للملك خصيب ابن عمك ؟.. هل أترك جواده دموع وسيفه الفردوس أم آخذهما ؟ ..فإني أخشى إن عدت بهما غضب الملك أرشدني أيها الملك ؟

فصاح بعض أصدقاء نحاس : لسنا بحاجة لهداياكم وأموالكم .

فقال غراب : ما هكذا يرد على هدايا الملوك والكبار .. فنحن جئنا حسب طلبكم .

فصاح جعد الملك وهو يشير لهم بالصمت : إنني لن أغفر لولدك يا نحاس فعلته السوداء .. أهكذا يفعل ببنات الملوك ؟! يهرب بهن .. إنني قاتل ولدك وابنتي معه .. هذا عار كبير ابنة الملك جعد بن همام تهرب مع فارس صعلوك ..ويحكم وتريدون مني أن أثير حربا مع ابن عمي بعد عملكم الأسود الشنيع .. لا يا سادة ! أنا أطلب منكم إحضار ابنتي وماجد حيين أو ميتين .. فهذه إهانة كبيرة لا يمحوها من تاريخ أسرتنا إلا الدم والموت .

فانحنى نحاس يقبل قدمي الملك الغاضب ، ويطلب حياة ولده الجاهل ، فلم يصغ الملك لهذا الرجاء ، فانتقل إلى الوزير غراب وترجاه وتوسل إليه بالشفاعة لولده عند الملك ، فقال الوزير : ليتكم تدبرتم الأمر قبل ذلك ..لماذا فكرتم هذا التفكير الساذج ؟! كان عليك أن تدبر الأمر مع الملك قبل طلبه مطالبه.. قبل أن يشرط علينا.. لا أن تحث ولدك على خطف الأميرة ؛ وأنا أرى يا نحاس أن تحاول الوصول لولدك وتقنعه بإعادة الأميرة ، وسينصلح الحال ، وغضب مولانا الملك سيزول .. وأنا تارك هدايا مولانا الملك خصيب وعائد لبلادي ؛ لأنظر قول الملك خصيب ، وأدعو الله أن لا يغضب لهذه الإهانة الكبيرة ، وتثور الحرب بيننا من أجل ذلك السبب .

غادر الوزير بلاد الملك جعد والنار والغيظ يملأن صدره وقلبه ، ودخل على الملك خصيب مهموما مغموما ، ولما علم الملك بجلية الأمر انفجر بركان الغضب في جوفه وصدره وصاح وصرخ ، وغضب الأمراء والأمير قيس وأقسم الأخير بالرب المعبود أن يبحث عن الأمير ماجد والأميرة سُلمى وينتقم منهما ، فسعى الوزير لمنعه عن هذا التصميم ، وطلب منه الصبر والتروي حتى يروا ماذا سيفعل الملك جعد ونسيبه نحاس ؟ وأخذ الملك خصيب يتهدد بالحرب والويل لبلاد الملك جعد.

وبينما القوم مهمومون منشغلون بالخطوة القادمة لهذه الإهانة التي لحقت بهم أقبل الوزير

النبهان ، ومعه وفد من كبار رجال البلاد يـقدمون الاعتذار الشديد للملك خصيب ، وأتوا معهم بالفرس دموع وسيف الفردوس ، وبعد كلام وعتاب واعتذار ، تقدم الوزير النبهان وقال أمام الفرسان والأمراء : نحن نعتذر أشد الاعتذار عما بدر من هرب الأميرة والأمير ماجد بن نحاس .. وها هو الأمير ماجد بنفسه بين أيديكم .

ودفع الوفد شابا ضعيفا مريضا أمام الملك ، فتعجب الملك والحاشية من مرآه ، وتابع الوزير النبهان الكلام : يا سادة .. لقد دفع الهوى وسوء التقدير هذا الفارس المثخن بالجراح عندما سمع بتنازل الملك خصيب عن جواده وسيفه لئن يهرب بفتاته الأميرة !.. ولما وصل وادي السرحان قرب جبل ضربان اعترضته عصابة من رجال الليل وقطاع الطرق ، فأثخنوه بالجراح وخطفوا منه الأميرة سُلمى بنت جعد .. وساقه بعض الرعاة وعابري السبيل إلى مأمن ، وعالجوه ، ولما تحسن حاله أحضروه لبلادنا .

وأمره الوزير أن يكشف عن صدره وظهره ، فشاهد الرجال أثر الجراح الكثيرة ، وعجبوا لحياته بعد كل تلك الطعنات ، ولما شاهد القوم حال الأمير ماجد ، عاد الوزير النبهان للكلام فقال : أيها السادة ! البلاد كلها مشغولة اليوم بالبحث عن الأميرة الهاربة والمفقودة ؛ وجئنا إليكم لتتأكدوا من حسن نوايانا نحوكم .. ونأسف لعدم حصول هذا الزواج الكبير في تاريخ مدينتنا فكلنا رجاء بأن تقبلوا اعتذارنا ..

وبعد كلام كثير دار في مجلس الملك ، قبل الملك خصيب الاعتذار ، وعفا عن الأمير ماجد ، وأمر بإكرام الضيوف ، وبعد ثلاثة أيام عادوا لديارهم لينعموا بالسلام من جهة الملك خصيب بن مرار .



كان الأمير قيس يجلس مع صديقه صقر بن غراب ، ومعهما غلامه عبس الفارس الأسمر يتسامرون تحت ظل الأشجار في قصر قيس وفجأة قال الأمير قيس : إنني أفكر أيها الصديق الفارس! بالبحث عن الأميرة المخطوفة ؛ لتـعرف من هو قيس الذي هربت منه مع فارس جبان ، تركها ضحية بين أيدي الأوباش واللصوص ؟

فقال صقر : دعك من ذلك الشأن .. فلابد أن هؤلاء اللصوص قد أنكحوها لزعيمهم ، وأسكنوها في إحدى المغر، ولم تـعد تلك العذراء التي تحلم بها .. فليبحث عنها قومها بل فارسها المسمى ماجدا وما هو بـماجد .

فقال قيس : إنها جرحت كبريائي أيها الصديق .

فقال صقر : وماذا ستفعل بها إذا التقيت بها بعد أن صارت عشيقة للصوص والشطار .. لعلك تعشق أيها الفارس ؟!

فقال عبس الأسمر : أليست هي المرأة الأولى التي خفق لها فؤاده يا صقر الفوارس ؟! أليست هي التي جعلته يقبل الزواج بعد رفض عنيد ؟ أليست هي التي جعلته يغامر هذه المغامرة ؟! ويتنازل والده الملك عن أعز خيوله وعن أجمل سيوفه.. ؟؟

فتهد الأمير قيس وقال : أجل أيها الصديقان .. هي الفتاة التي سحرتني بعيونها ، واهتز قلبي لسهام عينيها يوم وادي الثعالب إنها فاتنة ساحرة ! ولا أدري كيف تعلقت بذلك الـماجد ؟!

فقالعبس: مع أني أشك بحبها له ..لم تكن حركاتها في ذاك اليوم توحي بذلك الحب بينهماولكن القرب قد يكون السبب.. وقد يكون هو أفرس فرسان بلادها

فصاح صقر : مصيبة أن يكون آخر كلامك صحيحا ! إنه كثير الكلام والفخر .. لقد رأيناهم أثناء الصيد .. غلمانه هم الذين يصيدون ويطاردون .. كما قال أحدهم هو ليس له إلا الكلام الجميل اللامع البراق .

فعاد عبس يقول : أعود فأقول ربما تحبه وتهواه ومن أجل ذلك هربت معه .

فقال قيس : وهذا ما يحيرني ؟! إنني لاحظت أثناء لقائنا ذاك أنها تعبث به ، وإلا لما سمحت

لنـفسها بالجلوس معنا والحديث معنا .. بل كانت تسترق النظر اليّ أكثر من مرة .

فقال عبس ضاحكا : إي والله ! إني لاحظت ذلك .. وهذا ما دفع ماجد للحديث عن الحب الذي بينهما حتى لا نتورط ويقع أميرنا في هواها .

فاعتدل الأمير في جلسته وقال بجد وحماس : هل تظنون أن ماجداً غرر بها وسلمها للصوص أوه ؟!.

ونهض واقفا وقال : أيها القوم أشعر أن في الأمر مكيدة ! .. لابد من الوصول إليها فإلى وادي السرحان أيها الرفاق .



قيس في وادي السرحان

خلع الأمير قيس ثياب الأمراء ، وتنكر بثياب العوام والرعاع ، وطلب من صديقه صقر إخفاء خبر تنكره ، وأرسل وراء غلامه جُبار وكلفه بالوصول إلى وادي السرحان والالتقاء باللصوص وشطار الجبل ، ورحل قيس وفارسه الأسمر عبس متخفين إلى بلاد الأميرة سُلمى وكان قد كتب رسالة خاصة لوالده يخبره بذهابه للبحث عن الأميرة ويحثه فيها على الصبر وعدم الخوف والقلق ، ودفعها لـ صقر وسافر متنكرا إلى مدينة الأكباش ، وبعد أيام دخلوها بسلام ، وفي فندق صغير سكنا ، وهدفهما الوصول إلى رجال الأمير ماجد بن نحاس ، فقد وجدا البلاد منقسمة على بعضها البعض منذ ضياع الأميرة ، فالملك جعد بن همام يجمع رجاله وعشيرته وقومه وأنصاره من العشائر الأخرى ، ويتهم الأمير نحاسا وأصهاره بالغدر والخيانة وخطف الأميرة الشريفة ، ونحاس يتحدى ويحتمي بعشيرته وأعوانهم ، ويكاد الصراع والقتال أن ينشب بين الفريقين ، والوزير النبهانوعشيرته يحاولون منع اندلاع الحرب ، ويحثون الجميع على البحث عن الأميرة في كل أقطار الدنيا وبين رجال العصابات ، وعلموا أن فرسانا من قوم نحاس يطالبون بخلع الملك جعد وطرده من البلاد ، فهم أهل البلاد الأصليين ، وما جعد إلا دخيل عليهم ، وقد تغلب آباؤه وأجداده قديما على مدينتهم أبو كبشة ؛ ولكنهم يخشون مناصرة الملك خصيب بن مرار لابن عمه ، فهم يتمهلون ويتروون في قضية عزله وطرده ، وكانوا يرون بزواج الأمير ماجد من الأميرة سُلمى أفضل السبل للوصول للعرش وتاج المملكة ؛ ولكن طلب الأمير قيس للأميرة وموافقة الملك قلب تدبيرهم وأحلامهم ، واختفاء الأميرة وضياعها ضاعف القضية ، فكان المندفعون من قوم نحاس يطالبون باستخدام القوة والعنف وإزالة حكم الملك جعد وعشيرته وعدم الانتظار أكثر من ذلك ، ولكن بعض الكبار يعارضون ذلك ويحثون على النظر والتأمل وعدم الاندفاع وراء حماس الشباب ، ويشجعون الوصول للحكم بالطرق السلمية والهادئة ، والوزير النبهان يحاول تهدئة الأمور وإعادة الوئام للقبيلتين قبل استفحال الأمر بينهما وقبل سقوط الدماء الحمراء بينهما ، فهو يتردد بين رجال القبيلتين

للإصلاح والوئام ، هكذا كان الوضع السائد عندما نزل قيس وعبس المتنكرين باسم الربيع ومسعود الراعي مدينة الأكباش ، وبعد حين تعرف الرجلان على أهم أصدقاء الأمير ماجد ؛ فإذا هو ابن عم له شاب فارس كثير الحماس للفتن والمعارك ، فهو يجمع حوله شبابا وعبيدا من قبيلته وينفث في روعهم حب القتال وإعادة الملك لقبيلتهم الكبيرة والأكثر عددا من قبيلة الملك جعد ، وكذلك كان يحرض ماجدا على التمرد وإراقة الدماء وعدم سماع المعترضين على الحرب ، فانضم الرجلان إليه بحجة الحماس والانسجام مع مطالبه ، وطمعا بالمناصب والجاه ، ولم يطل بهم المقام حتى أصبحوا من رجال ماجد والمحيطين به في ترحاله وقيامه واجتماعاته ، بل أصبح مسعود الراعي عبس من حرسه المقرب ، فكان عين قيس عليه

لقد تمكن الأمير قيس (الربيع) والغلام الفارس عبس من الانضواء ضمن رجال وأنصار الأمير ماجد بمساعدة ابن عمه غمر الرحال ؛ ولأن الأمور متوترة لم يدقق في شخصياتهما وما هم الا من الرقيق ، وقد كادت الأمور تشتعل بين أفراد قبيلة الملك جعد وأفراد قبيلة الأمير نحاس عشيرة الجرادة ، وقد دارت بينهم معارك صغيرة استطاع الوزير النبهان وبعض العقلاء من احتوائها ؛ ولكن ما زالت الأمور تتفاعل وتغلي الصدور على بعض ، وأثناء ذلك تعرضت أطراف البلاد لغزو اللصوص وقطاع الطرق وهرب سكان الريف والقرى نحو المدينة الكبيرة وانزعج الملك جعد ووزيره النبهان لهذا الحال ، وقد قل الأمان في أطراف البلاد ، وبينما البلاد تشتعل على نار هادئة ، وقد أخذ اللصوص يتحرشون بالبلاد ، دخل المدينة رجل وأسر في أذن الأمير ماجد الذي تعافى من الجراح التي اصطنعها خبرا طار له صوابه ، وجمع له كبار معاونيه ، ووصل هذا السر لأذن مسعود الراعي ، وعلى أثر هذا السر جمع الأمير ماجد مائة فارس من رجال القبيلة ، وأخلص الرجال إليه وغادر المدينة خفية عن أبيه واخوته وأعمامه ، وكان من ضمن الفرسان المائة مسعود والربيع ، وسار بهم أياما وأياما حتى وصلوا وادي السرحان حيث جبل ضراب الكبير ، و يقال له أيضا جبل السرحان ، وهناك أفصح لهم الأمير عن سر هذا المسير العاجل فقال : أيها الأبطال .. لقد وصلني خبر عن ابنة عمتي الأميرة سُلمى ، وقد

قررت تحريرها من أيدي اللصوص ؛ ليعرف السادة من أهل بلادنا قوتنا وشجاعتنا وتصرفت بدون مشورة الكبار للعجلة وعدم التردد وتشتت الأقوال .

فأثنى الفرسان على شجاعة الأمير ونخوته ، وفرحوا بسماع خبر عن حياة الأميرة المفقودة منذ شهور ، ولما توغلوا في وادي السرحان تركهم ماجد واختار مسعودا أكثر الرجال حماسا له ولأفكاره ، وسار به نحو سفح جبل ، وبعد مسير متعب دخل به واد عميق ، وهناك التقى ماجد بعدد من الرجال المختفين بالجبل ، وبعد أن صافحهم وحياهم التـقى بزعيمهم ؛ فإذا هو رجل كث اللحية ضخم البدن .

فخاطبه ماجد بغضب ؛ وكأنه يعرف الرجل حق المعرفة : أبا الليل ! .. لقد أخبرني ناطور خبرا مرعبا .. ماذا فعلتم بالأميرة ؟! أين اتفاقنا ؟!

تنحنح الرجل الضخم عددا من المرات قبل أن يرد قائلا : لقد جرى لنا ما كدر صفونا وتعهدنا لقد زارنا سيد اللصوص وكبير هذا الوادي الملك غضبان أبو الرجال ..وأنت تعرف من هو هذا السيد الكبير !!.. ولقد شاهد ابنة عمتك الأميرة واستحسنها ورغب بها .. فقصصت عليه بعض قصتك فقال إذا شاءها فليأت مدينتي على جبل الرملي في نهاية وادي السرحان الغربي .. والأميرة نفسها وافقت على الاقتران به والسير معه ، فقد كرهتنا وملت صحبتنا ، ونحن كما تعلم لا نستطيع محاربة ملك اللصوص وسيد هذا الوادي .. وإن كان لديك رغبة بابنة عمتك فإليه فامش .

تناول ماجد الطعام معهم ، ثم قال : ما العمل يا أبا الرجال ؟! .. فسيد الوادي صعب المراس ألا تشفع لي عنده ؟

بصق الرجل الضخم ومسح وجهه ولحيته ثم قال : الذي لمسته من بقاء الأميرة خلال هذه المدة الطويلة بيننا أنها كارهة لك ؛ بل حاقدة عليك وناقمة ؛ فأرى أن تدعها لمصيرها الأسود زوجة أو عشيقة لملك اللصوص ، وربما أن تكون هي التي دست له خبرا عن وجودها هنا لتنتقم منك .. فالنساء ماكرات قليل الوفاء عندهن ! فكيف بمن هي لك كارهة ؟!..وأنا أرسلت

لك رجلي فور انصراف الملك عنا حتى لا تظن أنني اتفقت معه عليك .. فنحن استفدنا كثيرا من صداقتك لنا ؛ ولكن كما تعلم لا نستطيع أن نعادي أبا الرجال فهو زعيم وادي السرحان من غير منازع ، وكل المدن غاضبة علينا ، فلا نقدر دخولها علنا كما تعلم ، ولا أظن أنني أفيدك بشيء عند الملك ما دامت الأميرة قد قبلت الاقتران به

فتظاهر الأمير بعدم الخوف ورد قائلا : لـقد أتى معي مائة فارس ، كلهم أطوع لي من بناني .

فقال أبو الليل بنبرة فيها غضب : ألا تفهم أيها الرِّجال ؟! .. أتريد أن نحارب أبا الرجال ؟ إنه أمر صعب ..بل مستحيل .

فقال ماجد محاولا إغراء صديقه رجل الجبل : يا هذا ! إذا تزوجت هذه المرأة قربتني من المُلك وسيكون لكم مكان مناسب فيه ، وهو خير لكم من حياة المفازات والوديان .. والأمير قيس قد صرف نظره عن الزواج من أميرتنا اللعينة ..لقد سحرها بعينيه ورجولته في وادي الثعالب وهي قد سحرته بجمالها وحسنها حتى عجل بطلبها .. إيه على الأيام ..!!

فقهقهه أبو الليل وبعض رجاله على تحسرات ماجد وقال : لقد فازت بالزواج من ملك ! وهو خير لها من أمير ابن ملك ، ومن أمير حارس لها يحلم بأن يكون ملكا .. اسمع أيها الفتى ! إنني لك ناصح ، دع السير إلى مدينة الملك غضبان فلن تلقى خيرا ، وعد لبلدك ، وفكر بحيلة أخرى تصل بها لتاج مدينتك .

بعد أن فشل ماجد بإقناع أبي الليل ورجاله بمساعدته قفل عائدا نحو رجاله وفرسانه فوجدهم في غاية القلق والخوف عليه فقال : لقد قابلت زعيم هذا المكان ؛ لأن الرجل الذي ساقنا إلى هنا أحد رجال هذا الزعيم ، وهو الذي أخبرني عن وجود الأميرة عنده ، وقد أتى ملك اللصوص الغضبان أبو الرجال وأخذها منهم إلى مدينة في نهاية وادي السرحان من جهة الغرب ، وقد نصحني الرجل بالعودة وعدم الخوض بكم غمار هذه المعركة لكثرة اللصوص الذين يملكهم ذاك اللعين ، ولن تكفي شجاعتنا لدحرهم فما تقولون ؟!

أخذت الهمسات والأفكار تتناقل بين الرجال هنا وهناك ، وبعد طول جدل تقرر العودة للبلاد

وعدم المخاطرة من أجل إنقاذ الأميرة ، واتفقوا على عدم الحديث أمام قومهم وأهل مدينتهم عن سبب خروجهم المفاجيء من المدينة ، ولا يتحدثون عن حياة الأميرة بين أيدي المجرمين ، وهذا ما حصل فعلا فيما بعد ، فارتد الأمير عائدا خائبا بفرسانه نحو مدينة الأكباش وهو في غيظ شديد ؛ ولكن أثناء هذه العودة اختفى الربيع ومسعود من بين المائة فقد أطلع عبس الأمير قيس على كل ما سمعه من ماجد وأبي الليل ، فأدرك الأمير كما توقع آنفا أن الأميرة تعرضت لمكيدة ومكر ، وسيقت لوادي السرحان ؛ لأنها وافقت على الزواج من الأمير الفارس قيس بن خصيب ، فلما استوعب الأمير الأمر استشاط غضبا وكرها لـماجد ، واتفق هو ومسعود على الاختفاء والسير إلى مدينة ملك اللصوص لإنقاذ الأميرة ، وأثناء الليل هربا وابتعدا عن مكان الأمير ماجد وجيشه ، وهؤلاء لما اكتشفوا غيابهم لم يهتموا ويكترثوا لغيابهم كثيرا ، وظنوا أنهم سقطوا في إحدى الحفر والكهوف ، وكانت خطة قيس السقوط بين رجال سيد الوادي الغضبان ، وظلا يسيران بحذر من واد إلى واد ومن جبل إلى جبل حتى وصلوا إلى جبل الرملي ، وهنالك تم القبض عليهم من قبل رجال الملك أبي الرجال وقادوهم إلى سجن المدينة .

ومدينة اللصوص هذه مدينة صغيرة بعيدة عن العمران والمدن ، وهي على جبل الرملي ، وهو جزء من الجبال الكبيرة جبال ضراب ، وهذه الجبال العالية والممتدة يقطنها اللصوص والمجرمون والهاربون من العدالة والثارات والولاة ، ومع طول الأيام قام الغضبان بتشييد هذه القرية للصوص ولرجاله ، فشيدوا البيوت وتزوجوا النساء ، فكبرت المدينة ، وأصبح الغضبان سيد وادي السرحان الأكبر ، ومن لم ينضو لرجاله وعصابته كان يحذره ويهادنه ، ويقبل شفاعته ويخشاه ، وأثناء زيارة الغضبان لمنطقة أبي الليل شاهد الأميرة سُلمى المحبوسة عندهم ، وسمع بعض قصتها ، فهويها وتـعلق بها ، وأرغمهم على تسليمها له ، وساقها نحو مدينته وهو طامع بالزواج منها ، وهي وافقت على ذلك ؛ ولكن بعد تقديمه مهر لها ، وسر الغضبان برضاها ، وانتفخ تيها ؛ فإنها أميرة بنت ملك ، ووعدها متحمسا بأي مهر ولما سمع طلبها دهش

واستغرب ، وقد طلبت منه الفرس دموع والسيف فردوس ، فعشق الرجل الفرس ورغب بالسيف ، وسار بعض رجاله إلى مدينة أبو كبشة ؛ لعلم الأميرة بأن السيف والفرس في بلاد أبيها ، كما أخبر رسول الملك خصيب ووزيره غراب ، ولما علم ماجد بالأمر ـ كما روينا قبل سطور ـ جاء برجاله راغبا بإعادة الأميرة والظهور أمام قومه بمظهر البطل الفارس المنقذ ؛ ولكنه أمام تثبيط أبي الليل جبن وضعف وتخلى عن أميرته وزوجة الغد ، وعاد لبلاده بكل حنينه وجبنه ، وأيضا رجع رجال الملك الغضبان يخبرون الملك بأن السيف المذكور وتلك الفرس رجعا لبلاد الملك خصيب ، ومن شدة هواه للأميرة وحبه لأرضائها والتبيان لها عن هذا الحب والشوق أمرهم بالسير إلى تلك البلاد البعيدة والإتيان بهما من أجل عيون الأميرة سُلمى ابنة الملوك الأكابر .

ودخل قيس وعبس كأسيرين مدينة الرعب ، وبعد مضي أيام في السجن أخرجوهما وألحقوهما بحلقة تدريب ؛ ليكونا من رجال المدينة عندما تبين لهم أنهم لصوص لا أهل لهم ولا وطن .. أثناء التدريب في حلقة السلاح علموا بقصة الأميرة سُلمى ، وكان هدف الأمير وغلامه الوصول للأميرة بأي طريقة والحديث معها ومعرفة مكنونات قلبها ، ومن ثم السعي لتحريرها من أيديهم وقبضتهم .. وقد بارك الأمير في قلبه للأميرة شجاعتها وقدرة تحملها للحياة في هذه الجبال والوديان بعد أن كانت تحيا في القصور وبين الحرس والخدم ، وقد صدق ظنه بأنها تعرضت لمكيدة كبيرة ، وهو كله شوق لسماع حكايتها مفصلة ، وكان يسأل مسعودا فقال :

هل يا ترى يتمكن هؤلاء اللصوص من سرقة سيف الفردوس والفرس دموع ؟!

فيقول مسعود : الحيلة والمكر والكيد قد تسهل المهمة .

وبعد حين من الزمان عاد بعض الرجال الذين بعثهم الغضبان لبلاد الرايات ، وأخبر الملك بفشلهم الذريع ، فقد أسر بعضهم ، وقتل بعضهم ، وهرب الباقون ، وذكروا صعوبة الوصول للسيف والفرس ، فاستشاط الغضبان غضبا وغرورا وكبرا ، وأقسم أمام رجاله بأن لا يتزوج الأميرة سُلمى حتى يملك السيف والفرس دموع ، وفرحت سلُمى لهذا القسم ، وقالت

لنفسها : لابد أن رسالتها وصلت لـ قيس ، وفرح قيس أيضا بفشل رجال الغضبان ، وزاد طمعه بتحرير وإنقاذ الأميرة .. وأرسل الغضبان الغاضب خمسين رجلا وعلى رأسهم قائد شجاع من أفضل رجاله لجلب السيف والفرس .

ولم يطل الانتظار فقد جاءت الأخبار بمقتل الكثير منهم ، وعلى رأسهم قائده المفضل ، وظهر لهم بأن الوصول للسيف ودموع من المستحيلات ، وقد ازداد هوى وعشق الغضبان لتملكهما أكثر من تملكه للأميرة .. فجمع كبار رجاله للتشاور ، فشار عليه بعضهم لمعرفته لصلابته وعناده إذا صمم على امتلاك شيء أن يتحالف مع كل اللصوص في وادي السرحان ويغزو بهم بلاد الرايات ، فسر الغضبان من هذه المشورة ، وبدأ يفكر بها ويحلم بتحقيقها لتأديب الملك خصيب بن مرار ، بل فكر بقتل الملك خصيب غيلة ، وأثناء انشغال الناس بمقتله أن يغزوهم ويسرق الفرس والسيف ، وأخذت هذه الأفكار تراوده ويخطط لتحقيقها .

لقد اشتد الغضب بملك اللصوص الغضبان ، وصار هدفه الأعلى تدمير الملك خصيب ابن مرار والقضاء عليه وامتلاك فرسه دموع وسيفه الفردوس ، وبينما هو يفكر ويحلم بتحقيق ذلك أتاه أحد رجاله الناجين من قبضة فرسان الرايات يخبره أن الملك خصيب يعد جيشا لغزو وتدمير مملكة اللصوص ، فازداد قلق الملك الغضبان من هذا الخطر الداهم ،أو بدأ يشعر بأن هؤلاء القوم أقوياء ، فبث جواسيسه ورجاله في وادي السرحان ، وبدأ يتصل برؤساء العصابات ويعرض عليهم التحالف للدفاع عن جبالهم أمام الخطر القادم ، وأجّل محاولة قتل الملك خصيب .



كان قيس وعبس محجوزين في حلقة السلاح ، يتدربان ويعدهما رئيس الحلقة للانضواء تحت

ظل العصابة أو ملك اللصوص ، ولم تصل إليهم أنباء هزائم رجال الغضبان ولم يتمكنوا من الوصول لقصر الغضبان ، فما زالت الثقة بهم ضعيفة ، ولكن أمام التطورات الأخيرة أخبرهم رئيس الحلقة بقرب إلحاقهم بفرق العصابة ، وأحس الفارسان بأن خطرا يهدد الجبل ، ولكن رئيس الحلق كتم عنهم الحقيقة ، فظنوا أن الأمير ماجد قادم لإنقاذ فتاته سُلمى ، وخلال أسابيع ألحق الرجلان بمجموعة يرئسها الزعيم الملقب بـ غضبة الليل من كبار معاوني الغضبان ، فساقوهما نحو مقر زعامته فرأياه رجلا ضخما جدا كثير الجروح والإصابات في وجهه ، شعره ضخم ومنفوش ، فتعجب قيس من خلقته ، ولما سمع ثناء رئيس الحلقة عليهم قال بصوت ضخم جهوري : هل أخبرتهما جزاء من يحاول الهرب أو خيانة الأسياد؟

فهز رئيس الحلقة رأسه مرات ومرات وهو يؤكد له صدق انتمائهما لعصابات الجبل قائلا : لهما عدة شهور بيننا .. ويكفي أننا حافظنا على حياتهم .. وهما لصان هاربان يا سيدي .. وهما هاربان إلينا أمسك بهما رجالنا وذلك أثناء دخولهما الجبل.. فهم في أول الطريق .. ، وألقينا عليهم تعاليم وآداب الجبل ، وما عليك إلا أن تمتحنهما ؛ ولكني واثق منهما .. فطول مدة إعدادهما كانا مستسلمين وطائعين ، أرجو أن يكونا عند حسن ظن الجميع يا سيدي الزعيم .

فصاح غضبة الليل : حسنا أيها الرئيس ! سيكون فحصهما قريبا ، فهناك خطر داهم على الجبل كله .

وبعد أن تكلم معهما الزعيم مرغبا ومنذرا أشار لأحد رجاله بأن يرشدهما لمنامهما ، وأن يلقي عليهما آداب التعامل مع غضبة الليل ، كان قيس يخوض هذه المغامرة بقلب أقوى من الحجر ، فهو واثق من قلبه وسيفه ، ولم تمض أيام أخرى حتى علم مصدر الخطر القادم الذي يتهدد جبل ضراب فهمس لـعبس : هل يا ترى يزحف جيشنا لقتال هؤلاء اللصوص والقتلة ؟!

فقال عبس : أرى أن الغضب اشتد بحضرة الملك خصيب من محاولتهم الاستيلاء على فرسه وسيفه ، وأنت تعرف مقدار تعلقه بهما ، ولابد أنه اعتبر محاولتهم الفاشلة إهانة له ، فأمر بتجريد الجيش لتأديبهم وزجرهم .. واعلم أيها الفارس أن طلب الأميرة للسيف والـفرس دموع رسالة

خاصة إليك أنت أيها الأمير !

فقال قيس متذكرا : نظرات وادي الثعالب لم تغب عن بالي ، لقد أصابنا الحب والهوى ، ولكن ذاك اللعين حجب الرؤيا عنا .. كيف سنصل للأميرة قبل وصول الجيش ؟!

فقال عبس : القضية أننا لا نثق بأحد من الرجال ، وكلهم ينظر إلينا بريبة رغم هذه المدة التي قضيناها بين ظهرانيهم ، قاتلهم الله ما أمكرهم ! ولكن لن تعجز عقولنا من الوصول إليها ، وسأحاول ذلك بأقرب فرصة سانحة.

قال الأمير بقلق : تحرك بسرعة .. أخشى أن يحاول هذا اللص الزواج منها قبل لقاء جيش بلدنا

فقال عبس : صبرك عليّ ، أيها الأمير سأصل إليها بمشيئة الرب .

كثر تردد كبار رجال الجبل على ملك اللصوص ، والكل يعاضده على الدفاع عن الجبل ووادي السرحان وبذل الغالي والرخيص من أجل المحافظة على جبلهم وواديهم ، وتفتق ذهن الغضبان بعدما بايعه رجال العصابات من جديد أن يبادر بالهجوم ، ورغب بإرسال جماعة تصرع الملك خصيب لتثبيط عزيمة جيشه الزاحف ، وقد أمل أن ينشب صراع داخل البلاد فيستغله لسلب الفرس والسيف ، ووقع اختياره لتنفيذ هذه المهمة الصعبة والقوية على مساعده غضبة الليل ، فاجتمع به سرا ، وأطلعه على خطته المفاجئة والجريئة التي تتلخص بالسير برجاله إلى بلاد الرايات ، وهناك يقوم ثلاثة أو أربعة رجال بالغدر بالملك بأي طريقة أو حيلة .

فتفكر غضبة الليل بما كلف به ، ورد قائلا : مَن مِن الرجال يضحي بنفسه من أجلنا ؟!

فصاح الغضبان غضبا : ويحك !! يجتهدوا أن ينجحوا .. أريد ذلك هل تسمع ؟

فقال غضبة : إني أسمع لو اضطررت تنفيذ ذلك بنفسي .. وبعد أن يقتلوا ذلك الملك اللعين ؟

قال الغضبان : حينئذ سيضطرب وضع المدينة ، وستنشرون الخبر في جيش الملك القادم نحونا فيفت ذلك من عزمهم لغزو مملكتنا، وأنت وباقي القوم عليكم بالوصول للسيف والجواد ، فقد علمت أن الحراسة شددت عليها .. لقد هزمني هذا الملك ، وأنت تعرف أنني لا أسمح لأحد بأن يقهرني وينتصر عليّ ، أكاد أجن يا غضبة الليل يا فارس الجبل ! ألستم رجال الشدة

كم من البلاد داهمنا وسلبنا ونهبنا ؟!

تنهد غضبة الليل وقال : يا ملك الجبل .. بلادهم بعيدة يا ملك الزمان .. مسيرة عشرة أيام حتى نصل إليها .

فقال الغضبان بقوة وصياح : غدا تحركوا ، سأرسل مـعكم غلامي ضرغام .. فاحذر أن يأتيني بضعف رجالك وتقاعسهم .

فأقسم غضبة الليل بالولاء والوفاء وتحقيق رغبة الملك ، ولما غادرهم الملك جمع غضبة رجاله وفيهم قيس الربيع وعبس مسعود ، وأخبرهم أن الملك كلفهم بمهمة شاقة دون أن يفصح لهم عنها ، وقال بسخط واضح للعيان : مع بواكير الفجر سنكون على جيادنا ونسير نحو الشرق أيها الـفرسان .

ارتبك قيس وعبس لهذه المهمة ، ولكنهما تظاهرا بالحماس لها، وأعلنا شوقهما لها ، وأنهما يريدان أن يثبتا لسيدهما الجديد أنهما عند حسن ظنه وثقته بهما .

ولكنهم قبل أن يصلوا لبلاد الرايات التقوا بالجيش الزاحف نحو وادي السرحان ، ولمحتهم طلائع الجيش فطاردوهم ، فسقط بعضهم وهرب بعضهم ، وهم أكثر من خمسين رجلا ، فلم يكن اختفاؤهم سهلا ، وممن نجا الزعيم غضبة الليل ، ولم يتمكن فرسان المدينة من الاستمرار في مطاردته ، فساقوا من وقع في أيديهم نحو خيمة رئيس الحملة الذي كان الأمير صقر بن غراب ، فأخبر الأمير صقر بوقوع عدد من فرسان ولصوص وادي السرحان بين يدي سرايا الطلائع ، فأمر بحبسهم ، وأمر الأمير مالك بسماع أقوالهم ، ولماذا كانوا بهذا العدد الكبير ؟ وهل هم مـقدمة لجيش اللصوص ؟ وإلى أي البلاد سائرون ؟ وبينما الأمير صقر يجلس في خيمته الكبيرة ومعه قادة الحملة يصطلون حول النار في جوف الليل البهيم قدم الأمير مالك عليهم ـ وهو الذي كلف بالتحقيق مع أسرى العصابة ـ هامسا بأذنه كلاما نهض الأمير على أثره جالسا على الفور بعد أن كان متكئا وهو يصيح : ويحك أمعقول هذا ؟!

فقال مالك هامسا من جديد : إي والله إنه الأمير قيس ؛ ولكنه أشار لي بأن أتظاهر أنني لا

أعرفه ، ومعه غلامه عبس .

فرك الأمير أذنيه وقال : ما العمل ؟ إنه لا يريد كشف سره .. حسنا .. ورفع صوته قائلا : وماذا يريد هؤلاء الرجال ؟ ومن يقصدون ؟!

فقال الأمير مالك بصوت مسموع للجالسين : إنهم من رجال الوادي ، وهم مكلفون بمهمة، لم يـفصح لهم عنها زعيمهم غضبة الليل .. وغضبة الليل لم يمسكه رجالنا فقد نجا وهرب .

فقال الأمير صقر ملتفتا لقاضي العسكر : ماذا يرى قاضي العسكر والجيش ؟؟

فتطلع قاضي الجيش الأمير هلال نحو أمير الجيش وقال : يساقون إلى بلاد الرايات ويحبسون مع باقي الأسرى السابقين حتى تنتهي هذه الحملة فننظر في شأنهم أيها الأمير .

فعلق صقر قائلا : نعم الرأي أيها القاضي !

وهمس في أذن مالك قائلا : هذه فرصة لتحضر قيسا وعبسا من غير أن يكشف أمرهما

وعاد مالك للأسرى ، وأخبرهم بفتوى القاضي هلال ، فسر قيس لفطنة صديقه صقر وقام مالك بترحليهم مجموعات مجموعات .. مجموعة ثلاثة ومجموعة خمسة ومجموعة أربعة ، وجعل قيسا وعبسا مجموعة ، وتم الترحيل خلال الليل وعلى فترات ، ومع الفجر كان الأمير قيس بين رجال الخيمة الأميرية يـقص على القوم قصته وحكايته ، فتعجب الفرسان من شجاعة قلبه ومن رميه بنفسه بين رجال الوادي ، ولما انتهى كلامه ، قال : الآن أسمعونا حكايتكم وسر مجيئكم لهذا المكان ؟!

بعدما أكل الأمراء والقادة الطعام قال صقر : بعد سفرك المفاجئ أيها الأمير ! أرسلت الرسالة لوالدك الملك ، فحزن حزنا شديدا عليك ، وكاد يعلن الحداد عليك ، وأرسل خلفك العيون فلم يعرفوا لك خبرا ، وبعد حين أتانا الغلام جُبار ـ الفارس الذي أرسلته لوادي السرحان ـ فأنبأني بأن الأميرة سُلمى أسيرة عند رجال الوادي باتفاق بينهم وبين الأمير الغادر ماجد .. وأنها فتاة مسكينة وجريحة .. وأن الأمير ماجد احتال عليها ، وسار بها خارج البلد على أنها ذاهبة لمقابلة الأمير قيس خارج أبواب المدينة ، وبعدما مشى بها حين من الزمن هجم عليهم

اللصوص فساقوهما نحو وادي السرحان ، وهناك علمت الأميرة أنها مخطوفة باتفاق الأمير ماجد مع رجال العصابة ، فبكت ما استطاعت البكاء ، ثم عاد ماجد لبلاده بالقصة المعروفة لك ، وصدق الناس أنهما تعرضا لقطاع الطرق .. استطاع جُبار الاختفاء في كهوف الجبل قريبا من الأميرة وعلم بقصتها ، وبينما هو يفكر بإنقاذها أتى زعيم اللصوص المسمى الغضبان وأخذها عنوة من أبي الليل وتبعها جُبار بخبث ومكر ، ولما علم بمطالبها من شيطان اللصوص عاد إليّ فأخبرني بالأمر فاتخذت جانب الحذر من رجال الغضبان ، فلما أقبلوا فمنهم من قتل ومنهم من أسر ، وتركنا أحدهم ليخبر قومه ، ثم عادوا كرة أخرى ، فغضب الملك خصيب حينئذ ، وأمر قائد الجيش ووزيره غراب بإعداد جيش لمقاتلة رجال وادي السرحان وتأديبهم فأشرت على أبي بقيادة هذا الجيش للوصول للأميرة التي استنجدت بنا ، وقد تمنيت أن تكون معنا ، وها قد استجاب المولى سبحانه .

قال الأمير قيس : لقد صدق حدسي عندما قلت لكم إن في الأمر مكيدة ، إن عينيها الساحرتين كانتا تتكلمان في وادي الثعالب .. فماجد اللعين حارس لها وعين في آن واحد إنه ليطمع بنكاحها لينقل الملك إلى قبيلته .. أرجو أن لا ينتشر خبر وجودي في الجيش أيها الأمراء والفرسان .. سأبقى متنكرا ورجلا من رجال الغضبان ، وسأعود للجبل أنا وعبس متظاهرين بالهرب والنجاة منكم .. وأنتم تابعوا مسيركم لقتال هؤلاء المجرمين واللصوص .. فنحن لم نعرف الخطة من نزولنا عن الجبل رغم معرفتهم بخروجكم لقتالهم .. أظن أننا كنا سائرين لبلاد الرايات لفعل أمر كبير .. في الليل القادم سأهرب أنا وعبس ونمشي إلى الجبل بغير خيل والآن اسمحوا لنا بالنوم أيها السادة .



قيس و سُلمى

استقبل غضبة الليل رجليه الهاربين بفرح كبير ، وسر من نجاتهما وفلتهما من الجيش الغازي ، وعلم منهم أن بقية الأسرى ساقوهم زرافات زرافات إلى مدينتهم وبلادهم الرايات ، وأخبروه أن الجيش ما زال مستمرا في الحركة لقتال أهل الجبل ، وكان الغضبان زعيم الوادي قد تلقى فشل رجله القوي بالغضب الشديد ، ولكنه تحمل الفشل وأجل الحساب حتى انجلاء المعركة القادمة ، وقد أدرك أن الملك خصيب مصمم على تدمير الجبل وعصاباته ، وكذلك قد أدرك غضبة الليل أن حياته أصبحت مهددة بالموت ، وأن نجاح الملك في المعركة معناه القضاء عليه فأخذ يفكر بالهرب قبل المعركة لينجو من قبضة سيده الجبار ، ولما أخذ الغضبان يتجاهله في اجتماعاته واستعداداته للتصدي للغزاة أطلع غضبة الليل بعض رجاله برغبته بالهرب والانفصال والنجاة بأرواحهم وأنفسهم ، فانزعج قيس وعبس لهذا الانقلاب ، وأصبح وضعهم في خطر ، فالهرب فيه خطر على حياتهم إذا فشلوا بالنجاة من قبضة رجال الغضبان الآخرين ، وإذا عرف الغضبان سرهم أيضا قد يقتلهم قبل محاولة الهرب .. فافتعلوا معركة مع بعض رجال غضبة الليل ، وهربوا نحو رجال الزعيم الغضبان وطلبوا حمايتهم ، فقبل هؤلاء حمايتهم عندما عرفوا أن زعيمهم يفكر بالهرب ، فألقى بهم الغضبان في سجن المدينة ، وهم في السجن حاول أحد الرجال قتلهم فكتفوه وسلموه لحراس السجن ، فارتفع وزاد غضب الغضبان على غضبة الليل وجماعته ، فأصدر أمره بالقبض على غضبة الليل ، فأبى الاستسلام ، ودارت معركة بين رجال الفريقين ، مما دفع الغضبان بدفع المزيد من الرجال لمحاصرة قصر غضبة الليل وقد أهدر دمه ، وقد حاول بعض الزعماء الموالين لغضبة التشفع له ، ولكن الغضبان الغاضب أبى وأصر على الثأر لرجاله الذين قتلوا ، وكبر النزاع فانحاز بعض الزعماء لغضبة الليل ، فارتفع حنق الغضبان وأدرك أن سلطته قد ضعفت وتهاوت على هؤلاء اللصوص ، ومن شدة حقده وقهره أمر بحرق القصر ـ قصر أو بيت غضبة ورجاله ـ على من فيه ، فارتفع الصراخ والصياح والهرج والمرج ، فخرج غضبة الليل ورجاله على خيولهم فقاتلوا

قتال المستميت حتى فتحوا ثغرة في الحصار المضروب عليهم ، ولكن كثرة رجال الغضبان تمكنت منهم فسقط غضبة الليل جريحا ، فأمر الغضبان بشويه حيا ليكون عبرة لكل زعيم يتمرد عليه ، ولم تجدِ توسلاته وصراخه ، فحرقه وحرق قصره وفتك برجاله إلا من استسلم سابقا قبل المعركة الأخيرة ، على أثر هذا الحدث المرعب الوحشي أخذ كثير من رجال العصابات يهربون ويبتعدون عن وادي السرحان ، فقد عمت الفوضى في الكهوف والجبال لهذا الحدث المرعب ، وقد نسوا كم من القرى حرقوا وقتلوا ودمروا خلال حملاتهم وغزواتهم ! وقبل وصول جيش الأمير صقر الذي يزحف رويدا رويدا وجد الغضبان ملك اللصوص نفسه أنه وحيد في الميدان ، ولم يبق معه سوى مائتين من رجاله، وقد تفرق عنه زعماء اللصوص الآخرون ، وقد وصلت إليه الأنباء بدخول الجيش الغازي بداية وادي السرحان وجبل ضراب فأشار عليه بعض رجاله الأشداء بالانسحاب وعدم تحدي هذا الجيش الزاحف ، وبعد تردد وممانعة قوية استسلم لفكرة الهرب فأعد النساء والأطفال للمسير أولا ، واحتاروا في أمر الكنوز والأموال التي يسلبونها من القوافل والمدن ، فأخفوها في كهف عميق في جوف الليل ريثما يعودون ، ولما تم أمر دفنها في جوف كهف عميق أمر قسما من رجاله باللحاق بقافلة النساء وكان الأمير قيس وغلامه عبس قد استغلا الفوضى التي دبت في الجبل والوادي وهربا من السجن ، وسارا خلف قافلة النساء وبعد مسير مضن أدركا قافلة النساء ، ولكنهم وجدوها محاطة بحراسة مشددة ، فلم يتمكنا من الوصول إلى خيمة الأميرة سُلمى ، وذات صباح وهم ما زالوا يلتمسون حيلة يصلون بها للأميرة سمعوا صريخا وضجيجا في خيام النساء ، فأصغوا السمع فعلموا أن الأميرة سُلمى قد اختفت ، ولم تبت الليلة الفائتة في فراشها ، فأدرك الأمير أن الأميرة قد هربت أو تعرضت لسوء وغدر جديد ، ولاحظ أن القوم توقفوا عن البحث ريثما يصل ملكهم ، ولم يتابعوا البحث عن الأميرة الغائبة ، فقام الأمير وغلامه عبس بمهمة البحث وبعد يومين من تعقب الآثار أدركوا الأميرة في أحد الوديان مع غلامه جُبار ، ولما شاهدهم جُبار من بعد ظن أنهم من رجال الغضبان ، فاستعد للقتال فأشهر سيفه حتى اقترب منهما

الرجلان فصاح فيهما : لن تأخذوها حتى تقتلوني .

وكانت الأميرة منهكة القوى من كثرة المشي وفي وضع حزين ومؤلم ، وسمعت كلام جُبار للرجلين فاستعدت هي الأخرى للموت والقتال فأشهرت سيفها وتمنت لو أنها تركب جوادا ولكنها قبل اللحاق بـجُبار الذي كان يعترض الرجلين ويتقدمها باتجاه الرجلين بعشرات الخطوات فوجئت به يعانق الرجلين ، ويقبل يد أحدهما ، ولولا ثقتها بإخلاص الغلام لها ، وقد رافقها منذ شهور في وادي السرحان لظنت فيه المؤامرة والخيانة ، ولكنها لما أمعنت النظر في عيون القادمين عرفت من هو هذا الرجل ؟ .. فهذه عيون قد رأتها منذ سنة أو أكثر في وادي الثعالب فاهتز قلبها وخفق خفقانا شديدا وهمست : الأمير قيس !

فقال بهمس وهو يقترب منها : أجل أيتها الأميرة أنا قيس بن خصيب قد وصلت إليك أخيرا كيف أنت ؟!

فقال بذهول وخشوع : بخير .. إنني بشوق لرؤيتك أيها الشجاع !!

فقال : لا بأس عليك .. ها نحن التقينا كما تواعدت عيوننا !

وجلسا على الأرض يتحدثان ويتناجيان حتى سمعا عبس يقول : أيها الأمير .. أسمع حوافر جياد في قلب الوادي .

فقال جُبار : ربما كانوا من رجال الغضبان .. فإذا اكتشف الغضبان هربنا لابد أنه سيلحق بنا فهو لا يرضى بالهزيمة مرتين .

ولم يطل الانتظار فقد ظهر بضعة رجال يركبون خيولهم وجيادهم ، ولما لمحهم عبس جيدا عرف أنهم من رجال الغضبان فقال للأمير : تسعة رجال وتسعة جياد !

امتشق الأمير الفارس سيفه وهزه بضع مرات في الهواء حتى علا أزيزه ، وشاهدهم الفرسان من بعيد ، فاندفعوا نحوهم فرحين ومسرعين ، وكان بعضهم يعرف الربيع ومسعودا فدهشوا لوجودهم مع الأميرة ، ولما وصلوا إليهم فقال رئيسهم بصوت عال مخاطبا للأميرة : لقد جن الزعيم من هربك أيتها الأميرة ! .. أنت سبب كل هذه البلايا ثم تهربين ! وأنتم ما الذي

جمعكم بالأميرة ؟ ألم تهربوا وتخرجوا من سجن المدينة ؟!

فتقدم عبس مسعود منهم ووقف أمامهم وهو يصيح فيهم : أيها الرجال .. اهربوا قبل فوات الأوان .. فهذا الأمير قيس بن خصيب ، وقد أقبل إليكم لإنقاذ محبوبته الأميرة سُلمى ابنة جعد .

فتهامس الرجال بدهشة ورددوا : الأمير قيس !! الأمير قيس !!

فهتف قيس : نعم أنا الأمير قيس فارس الغبراء .. وأنا تركت الملك والديار والأهل للوصول للأميرة .. وها هو جيش والدي الملك قادم لإنقاذ الأميرة أيضا .. فالنصيحة أن تهربوا كما هرب أسيادكم .

فتناقش الرجال فيما بينهم وقال رئيسهم : أيها الأمير .. لا يمكن العودة بدون الأميرة فالقتل مصيرنا .. فلنتحارب فهنا موت وهناك موت .

فقال الأمير : أنا أعطيكم الأمان .

فقال رئيسهم : لا نريد أمانك ، نريد الأميرة الخائنة .



نشبت معركة شرسة بين الفرسان واللصوص ، وقد تمكن الأربعة من قتل خمسة وجرح أربعة فصرفهم قيس ، وبعدما استراحوا قليلا ركبوا جياد القتلى وأخذوا الجواد الخامس ، وساروا نحو بداية وادي السرحان حيث جيش بلادهم ، وبعد أيام من السير المتتابع وصل الأميران وعبس وجبار الجيش ، ففرح الأمراء بعودة قيس والأميرة معافيين ، وأرسل صقر بشيرا للملك خصيب ، وتابعوا المسير نحو مدينة اللصوص ، وقاموا بتدميرها ، وأعملوا فيها النيران ، ومكثوا هناك أياما ، ثم أخذوا بالعودة ، وبعد حين وصلوا لبلاد الرايات ظافرين منصورين فرحين ، وسر الملك خصيب بعودة ولده بعروسه من بين لصوص ومجرمي وادي السرحان ، وتقرر ذهاب الوزير غراب لبلاد أبي كبشة للاتفاق مع الملك جعد على زواج الأميرة سُلمى

وكان الوزير قد أرسل غلاما له ليبشر الملك بحياة ابنته ، ولكن الغلام رجع بأخبار سيئة ، فقد وجد أن الأمير نحاس قد طرد الملك ، وشرد عشيرته ، وحبس الوزير النبهان وكبار الخصوم وذلك بعد معارك دامية بين العشيرتين ، واستولى على الملك عنوة ، ولما علم الملك خصيب بهذه الأخبار غضب أشد الغضب واستاء منها وأصابه الضيق والغم ، وأخذ يفكر بغزو بلاد الأكباش ولكن الوزير غراب أمره بالصبر والتريث حتى يعلموا أين هرب الملك جعد ؟ وجاءت الأخبار بعد حين يسير ، فقد نزل ضيفا على أحد الملوك ، وأنه هلك في إحدى البلاد المجاورة تأثرا وحزنا ، وقد قتل كل أولاده وكثيرا من أمراء عشيرته خلال المعارك مع قبيلة نحاس ومن حالفهم ضد الملك جعد ، ومن تأثره بالحادث الصعب صدم ، وأصيب بموت مفاجئ ، فقال خصيب بغضب : لابد من قتل نحاس وأولاده .. كيف يهلكون ابن عمنا ونسكت على ذلك ؟!

فقال الوزير : بلادهم بعيدة عنا أيها الملك السعيد ! وعشيرة نحاس كثيرة الأفراد .. ولا وريث للعرش بعد مقتل أفراد وأسرة الملك جعد .. سأرسل بعض خاصتنا للاجتماع برجال الملك الميت ، ونرى رأيهم ، ثم نقرر الخطوة القادمة .

حزنت الأميرة سُلمى حزنا شديدا على موت والدها وأهلها واخوتها ، وحقدت حقدا عظيما على خالها نحاس وأمها ومقتتهم مقتا قاتلا ، وزاد حنقها على ماجد ، وصممت في أعماق نفسها على الثأر والأنتقام ، ووعدها الأمير قيس خيرا ، وأن يدعمها بجيش من جيوش أبيه حينما تأتي ساعة الثأر والإنقاذ وقال : ولكن علينا أن ننتظر عودة رجال الوزير غراب قبل الإقدام على شيء أو التسرع في الأفعال .

تأجل زواج الأميرين عدة أشهر حتى هدأت الأحوال وهدأت نفس الأميرة على قتلاها ، ثم عقد النكاح ، وتزوج الأمير قيس الأميرة سُلمى بنت الملك جعد ، وأسكنها في قصر الأقواس ورغم الاحتفال البهيج بالزواج كانت الأميرة حزينة جدا يوم فرحها ، ولولا المشقة والجهد الذي بذله قيس ورجاله ؛ لإنقاذها وإخراجها من وادي السرحان لربما عزفت عن الزواج ،

فقد كان قلبها أسود من الحقد والكره لماجد وأبيه نحاس .



عندما علم الهاربون من قبيلة الملك جعد بحياة الأميرة سُلمى أخذوا يتوافدون على بلاد الرايات من كل حدب وصوب ، فكثرت أعدادهم في المدينة ، فأنشأ الأمير قيس مدينة جديدة بين بلاده وبلاد أبي كبشة سماها مدينة سُلمى على اسم زوجته ، وانتقل إليها وأخذ يحشد فيها رجال بلاد الأكباش ، وكان الأميران يتنقلان بين المدينتين ، وبعد خمس سنوات من الإعداد للمعركة دخل الأمير قيس على والده الملك يطلب منه قطعة من جيشه ، والإذن بمحاربة الملك نحاس ، وليسيروا إلى مملكة الملك جعد بن همام للثأر ، فبارك الملك الشيخ خصيب هذه الخطوة ، وأمر وزيره غراب ببذل الجهد المناسب لمساعدة الأميرة سُلمى باستعادة عرش أبيها ، وكان يرون أنه من حقها ومن حق أولادها من الأمير قيس ، وبعد أيام كادت مدينة سلمى تخلوا من الناس ، عندما خرجت القبائل الموالية للأميرة لمحاربة الملك نحاس وعشيرته ، وكان الملك نحاس وقومه على علم بتحركات الأميرة سُلمى ؛ ولكنهم لما رأوا تلكؤها ظنوا أنها قنعت بالحياة في بلاد الرايات ، وقد فكروا باغتيالها أكثر من مرة ؛ ولكن حذرهم من غضب الأمير قيس ووالده كان يمنعهم ، ولما علموا بقدومهم للثأر والانتقام ، تقرر أن يخرج عقاب أكبر أبناء نحاس لمحاربة جيش الأميرة قبل وصولهم للبلاد ، فهم لم يطمئنوا بعد للبطون والأفخاذ التي تقطن مدينتهم بعد ، فالتقى الجيشان على بعد مسيرة يومين من بلاد أبي كبشة ، ودارت المعركة العنيفة بين الفريقين ، وبعد أيام من القتال الدامي والشرس أخذت جنود الأمير عقاب تتقهقر وتنسحب ، فما هبط الظلام حتى خلت أرض القتال منهم فقد هربوا وتركوا جرحاهم وخيامهم وقدروهم وقفلوا عائدين لبلادهم ، فسر الأمير قيس لهذا النصر ، وأمر بإسعاف الجرحى وإرسالهم لمدينة سُلمى مع الأسرى والمستسلمين حتى تنتهي المعركة الفاصلة ؛ فينظر في أمرهم ، ودفن القتلى من الفريقين.

ولما عاد الأمير عقاب لوالده مهزوما قلق القوم ، وتعاهدوا من جديد على القتال والصمود ، بل أرسلوا رسالات لبعض الملوك المجاورين يطلبون مساعدتهم وتدخلهم مقابل الأموال ، وأكثرهم اعتذر ورفض التدخل في هذا الشأن؛ ولكن الملك جنيدة بن غالب ملك بلاد المر وافق على المساعدة مقابل ألف ناقة وألف جواد وألف سيف وألف رمح وعشرة آلاف قطعة من الذهب،وبعد تفكير بمطالب الملك جنيدة رضي الملك نحاس بذلك ، وتم الاتفاق على ذلك ، فأرسل لهم الملك ألفي فارس من أشد فرسانه، وذلك بعدما وصله جزءا من هذه القيمة ولم علم الأمير قيس بذلك التحالف كتب إليه كتابا يحذر فيه الملك جنيدة من التدخل ، فسخر منه وأهان رسوله ، فتوعده الأمير قيس توعدا شديدا ، وأرسل لأبيه والوزير غراب يعلمهم بذلك التدخل، فاشتد غضب الملك خصيب على جنيدة ، فأمر بإعداد جيش لجب لغزو بلاد المر ، وكان على قيادة الجيش الأمير الشجاع صقر بن غراب ، ولما وصلت الأخبار للملك جنيدة ندم على تدخله بين الفريقين عندما رأى أن الحرب ستنقلب على بلاده ؛ ولكنه أصر على التحدي والصمود ، وأعد آلاف الفرسان لملاقاة جيش بلاد الرايات .

ولما استراح جيش قيس من أثر المعارك تقدم بهم نحو مدينة الأكباش ، وبعد أيام أحاط بها من جهة الغرب ، وخرج لهم ثانية الأمير عقاب بن نحاس ، وخرج معهم جنود الملك جنيدة ودارت معركة كبيرة بين الطرفين ، بذل فيها الفريقان كل قوة وصبر وثبات ؛ ولكن بعد أيام من الصراع وضح للجميع أن فرسان الأمير قيس وفرسان الأميرة سُلمى أشد وأقوى ، وأن رجال جنيدة لم يفعلوا شيئا يذكر ، فازداد خوف نحاس وزعماء قبيلته من العاقبة ، فظهر فيهم الانقسام ، وأخذ الكبار يعاتبون نحاسا على إصغائه للصغار والشباب وحماسهم ، وطالبوه بإخراج الوزير النبهان والسادات من قبيلته وقبيلة الملك الراحل جعد ومحاولة الصلح مع الملك خصيب والأميرة سُلمى ، ومع اشتداد المعارك وكثرة القتلى في فريقه أمر بإحضارهم من السجن ، وحاول التفاهم معهم ، فأجاب الوزير النبهان : بعد كل هذه السنوات تريد التفاهم معنا يا نحاس ؟!

فصاح بعض الشباب : صهٍ أيها الحقير .. قل الملك نحاس .

ضحك الوزير المحبوس النبهان منذ سنوات وتمتم هازئا : الملك نحاس!.. يا الله ! .. دافعوا عن هذا الملك .. إيه لقد نسيتم عاقبة الظلم والافتراء ، وتحلمون بأمجاد قديمة نسيتم ما صنع آل جعد لهذه البلاد وللعباد !

فقال نحاس: أيها الوزير ! أنت رفضت وزارتنا وقبلت السجن وفاء لمولاك الهالك .. ولم نأت بك لنسمع مثل هذا الكلام .. رأى كبار قومنا أن يجعلوك شفيعا لنا عند الملك خصيب والأميرة سُلمى وستذهب رسولا منا ، وسيرافقك بعض سادة العشيرة ومن آل جعد أيضا .. فنحن نريد أن نسمع شروط الصلح .. فالحرب كما تعلم أخذت الكثير من الأنفس والشباب والرجال .. فالصلح سيد الأحكام أيها الوزير .

وبعد جدال وعتاب وافق الوزير بالسير لملاقاة الأمير قيس وزوجته الأميرة سُلمى ، ولما اجتمع الوزير بالأميرة وزوجها وعرض عليهم صلح نحاس قالت الأميرة هازئة حانقة : وعلى ماذا نتصالح ؟! على وقف القتال فحسب ؟!

فقال الوزير : على حقن الدماء وحل المشاكل بالكلام والسلام .

فقال قيس : لا كلام ولا سلام .. الحل الوحيد القتال حتى الموت أو الاستسلام ، ولا مكان لقبيلة نحاس وعشيرته في هذه المدينة .

فقالت سُلمى : وأن يسلم لنا الأمير ماجد بن نحاس ليأخذ جزاءه ، ثم يخرجون من المدينة من غير خيل ومال وسلاح .

ولما سمع الوزير شروط الأميرة للصلح ، قال النبهان لشيوخ عشيرة نحاس: ها أنا نقلت رسالتكم للأميرة ، فانصرفوا راشدين ، وأما أنا فسأبقى عند ملكتنا الجديدة .

وعاد شيوخ عشيرة نحاس فأخبروه بشروط الأميرة وتصرف الوزير النبهان ، فعض على أنامله من الغيظ ، فصاح ماجد : يا أبي ! علينا أن نقاتل حتى الموت .

فقال نحاس يائسا : هذا هو الحل .. سأخرج غدا للقتال بنفسي .

وتجدد القتال بين الفريقين ، وتمكن أحد قادة الأمير قيس من اقتحام المدينة أثناء القتال ، فدب الصريخ في المدينة أن جنود الملك خصيب دخلوا المدينة ، فانهار جيش نحاس وتفرقوا يمينا وشمالا ، وسقط نحاس جريحا ، فسيق إلى خيمة السجن ، وما أتى الليل حتى كان قيس والأميرة سُلمى يدخلان قصر الأمارة والسلطان ، ويعطيان الأمان للناس والجنود الهاربين ، وكانت سُلمى قد كلفت بعض رجالها وأقاربها بالبحث عن جثة الأمير ماجد ، فلما ظهر الصباح كانت المدينة قد بايعت الأميرة سُلمى ملكة على البلاد والعباد ، وأمرت الملكة الجديدة كل رجل من قبيلة نحاس قد اختبأ في بيته أن يخرج من المدينة ناجيا بروحه فقط ، ومن نجا من جنود جنيدة سيق للسجن ، ولم يجدوا ويعثروا على جثة الأمير ماجد ، فقالت الملكة لنفسها : لابد أنه هرب قبل سقوط المدينة !

وبعد أيام يسيرة عاد الهدوء للمدينة ، وجمعت الأموال والخيول ، فأمرت الملكة بإعطاء جنود الملك خصيب كل فارس وجندي جوادا وعدة حرب ومائة قطعة ذهبية ، ومن قتل خمسمائة قطعة ذهبية لأهله ، ونبذ نحاس في السجن ، ومعه كبار عشيرته وأبناؤه الذين لم يقتلوا اثناء المعركة الفاصلة .

ضياع الأمير

وبينما أهل مدينة أبي كبشة غارقون بالأفراح والليالي الملاح ، وقد أرسلوا البشائر للملك خصيب بن مرار ، جاءتهم أخبار مؤلمة خصوصا للملكة الجديدة سُلمى والأمير قيس دخل عليهم جُبار الخادم المخلص ليلا ، وأسر لهما خبر ضياع الأمير الصغير سيف الزمان .. ابنهما البكر ذو الأعوام الأربعة ، تفاجأ الأمير والملكة لهول الخبر ، ولما تماسكا أعصابهما التي اهتزت قال قيس : كيف ذلك أيها اللعين ؟!

فقال الخادم الأمين بحزن ودموع : لا ندري كيف غفلت عنه العيون يا سيدي الفارس؟! نحن نتابع أخباركم ورسائلكم ، وقد سررنا بانتصاراتكم ، وقبل أيام كانت الجارية نعمة تلاعب الأطفال الثلاثة في أطراف قصر الأميرة في مدينة سُلمى كما تعلم ، وعطش الأميران الصغيران فذهبت بهما الجارية لتسقيهما ، وتركت الأمير البكر سيف الزمان يلعب على الأرجوحة ، ولما دخلت القصر سمعت صرخة ؛ ولكنها لم تهتم بها ولم تكترث لها ، فلما أسقت الأمراء عادت حيث تركت الأمير الصغير فلم تجده على الأرجوحة ، فنادت هنا وهناك ولم تسمع ردا ، ولم تشعر بحركة فتذكرت الصرخة .. فتمشت نحو الأسوار ظانة أنه تسلق على السور وبحثت بين الأشجار فلم تجده ، فأسرعت إليّ ، فنهضت مسرعا أنا والغلمان الآخرون نبحث عنه ، فلم نعثر عليه داخل أسوار القصر ولا حول القصر ؛ ولكننا وجدنا خطوات غريبة وآثار أقدام تتجه ناحية السور القريب من مكان لهو الصبي ، أبلغت رئيس الحرس الفارس كراز فأمر بالبحث في أطراف المدينة وحول القصر، فلم نجد له أثرا ، فقد اختفى أو سرق الأمير ، ولما يئسنا من البحث جئت إليكما بهذا الخبر السيئ ..

وبعد صمت قاتل همست الأميرة قائلة : أتظن أن ماجدا اللعين قد فعلها ؟!

تطلع الأمير في عينيها وقال ببطء : أتظنين ذلك ؟! يا الله !! يا ويله !!.. سأقتله شر قتلة وأشرب من دمه اللعين .. هذا جبن ونذالة !! سأعود للبلاد يا ملكة سُلمى .. ابقِ هنا لترتيب أمر هذه البلاد وسأطلعك على الأخبار أولا بأول ..

ذرفت الملكة سُلمى الدموع الغزيرة وقالت من بين الدموع المنهمرة كالمطر : إنه حقود !! مجرم قاتل !! سأبحث عنه في كل بلاد الدنيا وأهلكه .

فقال الأمير قيس : سأرسل عبس الشجاع وراءه .. ابحث لي عن عبس يا جُبار وسنتحرك صباحا إلى المدينة .

أحضر جُبار عبسا، فأطلعه الأمير قيس على جلية الخبر فحزن وأسف ، ثم قال متسائلا : أتظن أنه استطاع الفرار والوصول لبلادنا بهذه السرعة ، وأن يـفعل هذه المكيدة إني أشك في ذلك ، فيوم المعركة الأخيرة كان ماجد هذا بين الفرسان ، فقد سمعت صوته وكنت قريبا منه قبل أن يتوارى عن الأنظار .

فقال قيس : ليس لنا أعداء إلا هو !

فقال عبس باسما : ويح الأمير!!.. فنحن لنا أعداء كثر ، كل قوم ماجد أعداء لنا ، ولا تنس الملك جنيدة .

فقال : ولكنه مشغول بالحرب مع بني قومنا .. وما الغاية من خطف ابني ؟! .. فـماجد هو صاحب المصلحة الأولى في إيذائي أنا والملكة أم سيف .. هذه مهمتك يا صديقي العزيز ؛ فأنا راحل مع الفجر نحو البلاد لأدبر الأمور ..

حزن الناس لما عرفوا بقصة اختطاف ابن ملكتهم ، وأصاب الملك خصيب حزنا شديدا على فقد الأمير الصغير ، وكادت تذهب روحه من الأسف والبكاء على الحفيد الغالي ، وانتشرت عيون قيس و خصيب في البلاد والأمصار ؛ ولكن لا حس ولا خبر ولا أثر هجر أكثر الناس مدينة سُلمى بعد رحيل قيس و سُلمى عنها ، واجتمع الوزير غراب بالتجار وطلب منهم البحث والسوأل عن ابن أميرهم أثناء رحلاتهم وتجاراتهم .. وأثناء البحث أخبر الأمير صقر الملك خصيب أن الملك جنيدة يرغب بالاستسلام والصلح ولقاء الملك ، فبعد تشاور أمر الملك خصيب القائد صقر بوقف القتال وإرسال الملك جنيدة وفدا من قومه لإتمام الصلح ، وبعد حين أقبل الملك جنيدة على بلاد الرايات يطلب العفو والسماح من الملك خصيب

بعدما قبل رأسه ويديه واعتذر وتأسف وندم لتسرعه بالتحالف مع الملك نحاس الغاصب لعرش بلاد الأكباش .. وبعدما تم الصلح كان من ضمن شروطه أن ينكح الملك جنيدة ابنته الوحيدة للأمير قيس ، فرضي بذلك النسب وتصالحوا على القتلى وجرى الصلح بينهم .. وعاد جنود الملك خصيب إلى البلاد ، وبعد ردح من الزمن تم زفاف الأميرة الشماء على الأمير قيس بن خصيب .

وكان قيس يقضي فصل الربيع في بلاد أبي كبشة عند زوجته الملكة ، ثم يعود لبلاده ثانية ، وحاولت الملكة أخذ أولادها عندها ، فرفض الملك خصيب ذلك حتى يكبروا ويصبحوا شبانا فالأمير مرعي أصبح ابن ثلاث سنوات ، والأميرة الصغيرة ابنة سنة ونصف واسمها الأميرة جميلة .. وكانت الملكة تتردد على مملكة خصيب في فصل الخريف فتمكث أسبوعين ثم تعود لإدارة شؤون مملكتها ، وسر الأمير قيس بابنة الملك جنيدة الشماء ، واكتمل فرحه عندما وهبهما الوهاب منها ابنا جميلا مثلها ، فعمت الأفراح في الممالك الثلاث ، ولكن الغصة بفقد الأمير سيف الزمان ما زالت في حلوق القوم ، ولكن الأيام تنسي وتضعف الذكرى ، ولم يتمكن عبس وجُبار وغيرهم من رجال وحاشية الأمير قيس من الوصول للفاعل والخاطف ، وفشل مثلهم التجار بسماع أي خبر يخص الأمير المخطوف ..

وأتت السنون وقضى الملك خصيب نحبه ، وأقيمت عليه الأحزان وأطعم الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام ، وذبحت عنه الأنعام ، ووزعت عن روحه الأموال ، ثم بويع قيس بالملك وريثا لأبيه خصيب .. والعجب أن الفرس دموع فرس خصيب قد ماتت بعده بأيام قلائل فتعجب الناس من ذلك ..

حادثة في الغابة

نحن الآن بعد عشرين عاما مضت على ملك قيس على بلاد الرايات ، وقد أعلن الأمير مرعي ابن الملكة سُلمى الشاب الصغير ملكا على بلاد الأكباش ، فقد تنازلت والدته عن العرش ، وكثر ترددها على بلاد زوجها ، وأصبحت ابنتها جميلة شابة حسناء مطلب الفرسان والأبطال من أبناء الأمراء والوزراء في بلاد الرايات ، وقد ترك الملك قيس أمرها لنفسها لتختار من تشاء من الرجال بعلا لها ، فكانت تصدهم بلطف واعتذار مهذب .. وذات نهار ركبت جوادها وسارت معها ابنة الأمير صقر الأميرة عبلة ، وابنة الأمير عبس الأميرة حُسن وغيرهن من الفتيات الأميرات ، وخرجن على جيادهنّ نحو الغابة الكبيرة المحيطة بالمدينة من ناحية الشرق ، وكن سعيدات مرحات وهن يتراكضن على خيولهنّ ، ويسخرن من بعضهن البعض ، ويمزحن بصوت مرتفع ، والسرور يملأ وجوههن وعيونهن ، وعند العصر وبينما هنّ غارقات في اللهو والمزح والسرور والمرح والسعادة ظهر بينهن فجأة فارس على جواد أحمر شاب جميل الصورة ، وإن كان في وجهه كثير من الندبات وآثار الجروح ، وكانت الشجاعة تظهر على محياه ، وقد فوجئن به ، وهو أيضا قد فوجئ بهن ، ولكنه تمالك نفسه سريعا وقال صائحا محذرا : اركبن جيادكنّ أيتهنّ الفتيات واهربن بسرعة !



فتلكأن رويدا ثم قالت إحداهن بجرأة : من أنت ؟! ومن أنت لتأمرنا ؟ !وما الذي أتى بك إلى هنا ؟! فتبسم الشاب لها وقال : خلفي رجال يطاردونني .. أخشى عليكن منهم ، فاركبن جيادكنّ وانصرفن قبل فوات الأوان .

فسخرن منه ومن تحذيره ، وإن أحسسن بالخطر من وجوده بينهن بهذه الصورة المخيفة ، وقبل أن يتمادين بالسخرية معه ظهر ثلاثة رجال على جيادهم كأنهم يطاردونه فداروا حوله ، وقال أحدهم بصوت عال : الزعيم يأمرك بالعودة .. ويحذرك من التمرد ومن غضبه يا سيد الفرسان

ثم انتبه الفارس المتكلم للصبايا فقال بدهشة : أوه ! من هؤلاء الجميلات يا سيد الصعاليك ؟
والتفت إليهن وقال : من أنتن أيتهن الفاتنات ؟ ومن أي البلاد أنتن ؟!
أخذت الفتيات يركبن ويعتلين جيادهن والقلق مرتسم على وجوههن ، فلما لم يسمع الرجل جوابا منهنّ ، قال للفارس الأول : من هؤلاء أيها الأمير ؟!
فهز الفارس الشاب رأسه قائلا : لست أدري .. إنهن يتنزهن هنا .
فقال الرجل المطارد مخاطبا الفتيات : هل أنتن من بنات بلاد الرايات ، فهي أقرب المدن لهذه الغابة ؟
فهززن رؤوسهن بـ نعم
فقال : يا أمير الفرسان ما رأيك بأخذهنّ للزعيم فسوف يصفح عن إهانتك وخروجك ؟!
فقال الفارس الشاب بجسارة : حذار يا قرادة من مس أي فتاة بسوء .. اذهبن بسلام أيتهنّ الناعسات .
فصاح المدعو قرادة : لا تتحركن قبل أن تنبذن الدمالج والأساور والأقراط والقلائد اللواتي تحلين بهنّ أنفسكن ..
فقال الفارس الشاب مرة أخرى بحدة وقوة : قرادة .. لا تدعني أقتلك ..إياك أن تأخذ شيئا من هؤلاء الحسناوات .
فصاح رجل آخر : لا داعي للتظاهر بالشجاعة والشهامة يا سيد الفرسان !.. ارجع للزعيم قبل أن يهدر دمك .. ودعنا نتصرف مع هؤلاء النسوة .
ولم ينتظر القائل ردا بل اندفع نحو الفتيات ، فأشهرن سيوفهن بلمح البصر وأردينه قتيلا ، فدهش الرجال لسرعتهن وشجاعتهن ، فأخذ سيد الفرسان يقهقه عاليا ويقول شامتا : أقدم يا قرادة .. جرب نفسك ها هو صاحبك ربع سقط مجندلا بدمه .
اشتد حمق وغضب قرادة لمقتل رفيقه ولسخرية الشاب منهم ، وأمر رفيقه بالمشاركة بالهجوم عليهن ، فتصدت الأميرات لهم ، وجرحن قرادة جرحا بليغا فسقط على الأرض يتلوى من

الألم والغيظ ، ثم تبعه صاحبه ..

فقال الفارس : آلله .. آلله .. آ لله .. !! لقد خلصتنني من شرهم ومن الفتك بهم .. وداعا يا قرادة .. لقد أشفقت الفتيات من قتلك .. وداعا ..!

وحيا الفتيات الثائرات بيده ملوحا بعد أن شكرهن على شجاعتهن ، وقبل أن يبتعد سمع إحداهن تصيح عليه : أيها الشاب الفارس .. لم نعرف قصتك ؟! واسمك ؟!

نظر إليهنّ وتبسم وقد أدار جواده ناحيتهنّ وقال بروية : نحن لصوص !.. وقطاع طرق ! .. لسنا من الأشراف ، فلا تشغلن أنفسكن لمعرفة اسمي ! وداعا يا بنات حواء .

واختفى في جوف الغابة ، وبعد زوال الدهشة عنهن قفلن عائدات إلى المدينة ، وهن غير نادمات على قتل هؤلاء اللصوص ، واتفقن على أن لا يذكرن هذه الحادثة لأهلهن خوفا من منعهن من الخروج للغابة ثانية أو إرسال الحرس معهن ، ولكن قصة الشاب المطارد ما زلن يحلمن بسماعها،ومعرفة سبب هربه من هؤلاء ، وعدم طمعه بذهبهن وزينتهن مع اعترافه بأنه لص وقاطع طريق ، وفي الصباح التالي لهذه المعركة تفاجأ أهل المدينة صباحا باختفاء فرس من جياد الملك قيس الفرس ورد ابنة الفرس دموع المشهورة .. فقد وجدوا الحرس والسائس نياما والفرس مفقودة .. كانت حادثة كبيرة جدا في المدينة والبلاد .. اصطبل الملك يتعرض للسرقة .. فتعجب الناس من جرأة اللصوص أو اللص ، وكانت الأميرة جميلة تتحدث مع الأميرة عبلة بنت صقر وحُسن بنت عبس ، وكان الاستغراب والإنزعاج مرتسم على وجوههن فقالت عبلة : هل ترين لما حدث معنا مساء أمس في الغابة علاقة في هذه الحادثة العظيمة ؟!

فقالت حُسن : ولكن هل يستطيع رجل واحد تخدير الحراس ويأخذ الفرس وحده وبدون مساعدة ؟!

فقالت جميلة : هل يا ترى للشاب الذي فارقنا يدا في الموضوع ؟! .. ولكنه مطارد ويدعونه للعودة إلى زعيمه وسيده المجهول .. ولكن لديّ إحساس أن للقاء البارحة مع هؤلاء المجرمين

يد في شأن الفرس ورد .. من تجرأ على إيذاء الملك قيس بن خصيب ؟!

فقالت عبلة : هل نصارح الآباء بحادثة الغابة ؟!

أجابت جميلة ابنة الملك قائلة : إنني حائرة لدرجة كبيرة .. أخشى أن لا يكون لحادثة الغابة شأن بأمر الفرس .. فلنصمت وننتظر تتطورات الحكاية فالأمر شديد الغموض!

تم إلقاء القبض على قرادة وسرماح جرحى في الغابة وبجوارهم القتيل ربع فاقتيدوا للمدينة وهم في آخر رمق من الحياة ، فقدم لهم الدواء وادعيا أنهما تخاصما مع القتيل فجرحهما وتمكنا من صرعه ، فأمر الملك بعلاجهم والعناية بهم حتى يتأكدوا من قصتهما .

مضت بضعة أشهر ولم يعرف الملك من سرق الفرس التي ورثها عن أبيه خصيب ؟ وكان الوزير غراب العجوز مستغربا للحادثة ، وتذكر أيام زواج الأمير قيس ومحاولة سرقة الفرس دموع من قبل رجال وادي السرحان ، فاجتمع بابنه الوزير عقاب الذي حل محله في الوزارة وتحدث معه في ذلك الماضي ، فتذكر الوزير عقاب ذلك ثم قال معقبا : الجبل !! .. تلك قصة قديمة يا أبتاه ! .. هل ظهرت أميرة جديدة تبتغي الفرس مهرا لها ؟!

فقال الوزير الشيخ الكبير : الفرس دموع وذريتها مطلوبة من الملوك والأمراء .. فابحث عن رجل شجاع نجيب عارف بحيل ومكر اللصوص ؛ وليرود لك جبل ووادي السرحان .

فقال عقاب بحيرة : يا أبتي! .. من الرجل الفطن الذي يحسن القيام بهذه الريادة ؟ .. لقد كبر جُبار .

فقال غراب : يا ولدي ابحث سوف تجد.. فالشجعان متيسرون في كل وقت وحين ، وليبق هذا الأمر مخفيا بيننا وبين رجلك أيها الوزير .

اهتم عقاب الوزير باستشارة أبيه ؛ ولكنه في قرارة نفسه كان يستبعد أن يكرر رجال الوادي غلطهم القديم ، ولكن الناس تنسى ، فلعل لهم زعيما جديدا قد نسي ذاك الماضي ، وكان يقول : لديّ ثلاثة رجال يمكنني أن أثق بهم في هذه المهمة المرعبة والقاسية ؛ ولكنهم شجعان ومضرب المثل في الشجاعة في بلاد الرايات .. أحدهم ابن الأمير عبس الأمير أشجع ، فهو

فارس بطل كأبيه ، وهناك ابن أخي صقر الأمير أسد بن صقر وثالثهم الفارس حازم بن حمدان الحملي ، وهذا الأمير أفرسهم وأذكاهم .. سأتحدث معه ؛ فإذا وافق وعاد سالما سأنكحه ابنتي رماح ، لا أظنه يرفض إذا سمع بهذا الزواج .. هل أصارح أبي بذلك ؟ سأفعل حتى لا يرفض هذا الاقتران إذا رجع سالما.. أبي يحب أن تبقى بناتنا في عشيرتنا .. ولكن الفارس حازم لا يفرط فيه ، فنعم الصهر ونعم البعل ، ونجاحه في هذا المهمة ستقر به أعين القبيلة وأبي قبلهم

وبعد أيام عاد الوزير عقاب للتشاور مع أبيه في شأن إرسال الفارس الذي وقع عليه الخيار حازم بن حمدان الحملي ولما سمع غراب بقصة الزواج تردد كثيرا قبل أن يوافق وقال : أنت تعلم يا عقاب أن بنات أرباح - عشيرة الوزير غراب ـ لا تنكح إلا لأبناء العشيرة أو عشيرة الملك .. وأما رجالنا فيتزوجون ممن يشاءون .. وهذا عهد سرنا عليه قديما ، ولم يشذ عنه إلا بعض الأفراد لأحوال خاصة .

فقال عقاب : يا أبتاه ! .. القوم يعيبون علينا هذا التعصب لهذا المبدأ ، ولن يضيرنا بين الحين والآخر لو تساهلنا في الالتزام بهذا التقليد العشائري .. الفارس حازم من خيرة فرسان البلاد ، وله مستقبل في حرس الملك الكبار، وكذلك لا تنسى أن والده قتل في معارك الشرف ، وعمه من السادة القضاة ، فلا ينقصه شرف .. والمسير لوادي السرحان فيه مخاطرة كبيرة ، وإذا لم يكن أمامه إغراء كبير لا أراه يندفع لهذه القضية ، فالأمير قيس والأمير عبس وجُبار لولا الملكة سُلمى ما انطلقوا إلى وادي السرحان في تلك الأيام .

فتنهد الوزير الشيخ تنهدا عميقا وقال مستسلما : إنك تقول الصواب يا ولدي ! لابد من المحرك والمشجع .. فهذه قصة خاصة .. افعل ما تراه صوابا ، والحق أنني فكرت بإلغاء هذا التقليد القديم في أسرتنا الكبيرة من أيام الملك خصيب ، فكثير من فتيات القبيلة تحرم من الزواج إذا طلقت أو ترملت أو كبرت سنها إن لم يرغب بهن أبناء العشيرة .. فبعد زواج حازم من ابنتكم الغالية وقدرت لي الحياة إلى ذلك اليوم الذي يعود فيه من وادي السرحان سالما ظافرا بالأخبار سأفكر بإزالة هذا التقليد الأعمى والساذج .

انشرح صدر الوزير عقاب لكلام أبيه ، وسر لموافقته ، فقد كان يخشى تشدده وتزمته لهذا الأمر وسر أكثر لتفكيره بإنهاء هذه العادة التي تحرم الكثير من نساء القبيلة من الزواج ثانية وثالثة، وبعد أيام أسر الوزير للفارسحازم الغاية ، وبعد نظر وتفكير عميق وافق على هذه المهمة الدقيقة والخطيرة .. فخلع زي الفرسان ولبس لباس العامة والفقراء ، وخرج من المدينة متجها لوادي السرحان .. وبعد مسير ميسر كان يطرق وادي السرحان ، ويسكن في أحد الكهوف القريبة من مدينة ملك اللصوص الغضبان ، وبعد حين قبضوا عليه مختبئا في أحد الكهوف ، وهو في حالة سيئة ، فأخبرهم أنه قد قتل إنسانا في قريته ، وفر هاربا من أهل القتيل وبعد حبسه بضعة أيام ألحقوه بحلقة السلاح ليتدرب ومن ثم يصبح ابن جبل، فهم يسمون أنفسهم ابناء الجبل لحياتهم في جبل ضراب ، وما كاد يمضي عليه ثلاثة أشهر حتى أصبح من رجال الجبل ووثق به القوم ، وكان يحب ويسعى أن يسمع أخبار الغضبان الرجل العجوز سيد الوادي العظيم ، فعلم أن الغضبان أعمى البصر ، فقد ضعف بصره ولم يعد يرى الأشياء المادية ، وهو حبيس قصره بين أولاده الكثر وزوجاته وغلمانه وخاصته ، وعلم أن الذي يدير مملكة الجبل مساعده القديم أبو هند ؛ ولكنه ألعوبة بيد الفرسان الشباب من رجال الجبل ، ولكنه استطاع توحيد مملكة اللصوص في وادي السرحان والجبل ، ويساعده في ذلك سيد الفرسان ، ويسمونه بالأمير زوابع ، وابن الملك الغضبان كلب الليل وأخوه وعل الجبل ، وعلم حازم أن هؤلاء الثلاثة هم المرعبون في الجبل منذ سنوات .. وأن هناك تنافسا خفيا وحادا بينهم ، ويظهر ذلك بينهم بين الحين والآخر .. وعلم أنهم يعدون لغارة كبيرة على مدينة أبي كبشة ، فعجب حازم لهذا الاختيار ، فقال له أحد الرجال الذين قويت علاقته بهم : يقولون إن هناك حسابات قديمة بينهم .. فهم منذ شهور قد استولوا على جواد من جياد ملك بلاد يقال لها بلاد الرايات .

صعق حازم لسماع هذا الخبر ، وكاد أن يفتضح أمره لولا أنه تدارك نفسه في آخر لحظة وقال صائحا ومخفيا دهشته: الله .. الله .. الله !! .. أمعقول هذا يا سيدي البطل ؟!

فقال الرجل الكهل وقد رأى الدهشة والاستغراب على ابن الجبل الجديد : إيه والله ! .. أعرف

أن هذا يدهشك ، فسرقة ملك ليس كسرقة غني أو أمير .

فقال حازم : صدقت يا أخي .. سرقة ملك هذه قصة عجيبة! لابد أن تسمعني الحكاية بالتفصيل ، فقد شوقتني لهذه الشجاعة والجرأة .

فقال الرجل متحمسا ومعتقدا سذاجة وبساطة صاحبه : اعلم يا سعود الهنا.. أن الأمير زوابع فارس كبير !! لم ير مثله في وادي السرحان .. فكثيرا ما أرسله ملكنا الغضبان في مهمات صعبة بل طلبه بعض الملوك أصدقائنا ؛ ليساعدهم في قتل خصومهم ومغامراتهم .. وفي كل مرة يسير فيها يعود بطلا جديدا رغم أنه لم يبلغ الثلاثين سنة من العمر.. أنا أذكر الأيام الأولى له في جبلنا أتي به طفل صغير .. لقيه الغضبان فتكفله ، وصنع منه مجرما عنيدا شرسا ؛ كأنه ابن مجرمين متوغلين في الإجرام والسفك .

فتظاهر حازم بالسذاجة وقال : والله إن قصتك تفتح الشهية يا أبا السعد .. طفل صغير أصبح أميرا وفارسا مهابا رغم كثرة الأبطال الكبار في الجبل .

فقال أبو السعد مظهرا إعجابه البالغ بـزوابع : إي وربي ! إنه لفارس قوي مهيب! شاركت معه في عدة غارات ، فرأيت الشجاعة والإيثار وقوة القلب منه .. عندما تراه في المعركة تظن أنه الأسد قد فارق عرينه غضبا وزمجرة .. ولكنك عندما تعاشره تتمنى له الخير والسعادة والحياة في القصور بدلا من هذه الجبال والكهوف .. هذا هو الفارس الأمير زوابع .. فمنذ أتي به وترعرع هنا وشب أطلق عليه الغضبان لقب الأمير ، ومنذ صغره وهو يدفعه في كل الغارات والمعارك حتى صار البطل المرهوب والمحبوب .

فقال حازم : حدثني عنه فقد شوقتني لرؤيته والاجتماع به .

فقال أبو السعد بحماسه السابق : سوف تراه ..

كان حازم يستمع بإعجاب عن فارس الجبل زوابع ، وأبو السعد يتحدث عنه بحماس وإعجاب غريب ، ولما انتهى الكلام على شجاعة البطل زوابع قال وفي عينيه نظرة حزن : لكن الجبل ساكن على بركان هائل!! .. فأولاد الغضبان يحزبون الرجال سرا ، فكل واحد منهم

يجمع حوله الأعوان للاستيلاء على الملك .. ملك اللصوص والوادي .. والأمير زوابع طموح ويحب السيادة على اللصوص والجبل .. وقد غرس فيه الغضبان هذه الصفة ، وحدث من شهور خلت أن اشتد التنافس والصراع بين الثلاثة ، وأراد الغضبان الملك أن يحسم الصراع المخيف لرجال الجبل ، فاقترح عليهم أن الفارس الذي يأتي بفرس ملك بلاد الرايات المعروفة باسم ورد ، وهي من الخيل المشهورة بين الملوك والسراة ، يستحق أن يكون زعيم الجبل بلا منازع ، وهذه الحكاية لها حكاية قديمة جدا حدثت منذ ربع قرن .. المهم يا صاحبي سعود أن الملك اقترح على الأبطال الثلاثة التسابق على إحضار الفرس والسابق له الحق أن يصبح سيد اللصوص ، فوافق الفارس زوابع وكلب الليل على هذا التحدي ، ورفض وعل الجبل هذه الفكرة ، وعرض المبارزة حتى الموت ، فأبى الغضبان وأبو هند هذه المبارزة وحثا على سلب فرس الملك قيس ملك بلاد الرايات ، وتقاتل زوابع ووعل الجبل وتصادما ، وكاد يقتل ابن ملكنا الغضبان ، وخشي القوم أن يكبر القتال بين رجال الرجلين ، كل سيد في هذا الوادي له جماعة تعمل معه في قضاء المهمات المختلفة لسادة الجبل ، وتحيز الغضبان لولده وعل الجبل عندما رآه صريعا بين يدي الفارس .. فغضب الفارس ، فهو محسوب بأنه ولد للغضبان ، وإن لم يكن من صلبه ، فلما غضب زوابع ترك الجبل غاضبا ووعد الغضبان بفرس الملك قيس ؛ ليثبت له أنه سيد الجبل بغير منازع ، وانطلق لبلاد الرايات غاضبا ووحيدا ، ثم ألحق به الغضبان ثلاثة رجال ليردوه عن مهمته ، وأن الملك يرغب بمصالحته رغم معرفته بعناده ؛ ولكن فارسنا عنيد يا صاحبي سعود ! فسار إلى تلك البلاد وسطا على اصطبل الملك وأتى بالفرس ورد مما أدهش القوم .

وعاد حازم للتظاهر بالإعجاب والسذاجة معا فقال : والرجال الثلاثة الذين تبعوه ماذا فعلوا

فقال أبو السعد : أخبر الفارس بأنهم قتلوا في إحدى الغابات .. ولما عاد بالفرس ورد أبى أن يهديها للغضبان ، وإنما أراد أن يثبت للجميع بأنه أحق رجل بوارثة الغضبان ، ثم هدأ الصراع فكلما مرض الغضبان استيقظ الصراع الكامن ، فنحن مقبلون على أيام عصبية يا صاحبي ..

فقال حازم متخوفا: إنك تثير وتهيّج الخوف في نفسي .. أنا لولا قتلي لقريبي اللعين ما خرجت لهذه الجبال المخيفة .

قال أبو السعد : معك حق ! لولا ظروف كل شخص منا لما سكن هذا الجبل إنسان ..لا تخف يا سعود مع الأيام ستتعلم وتتعود على قسوة حياة الرجال والجبل ، فلي أكثر من خمسين سنة أحيا ها هنا .

كان حازم جاسوسا ذكيا وفطنا في الجبل ، وكان يفكر ويرغب بالتقرب من سيد الجبل القادم الأمير زوابع ، فلربما تمكن من أخذ الفرس ورد ورجع ظافرا بها للبلاد.. ولكنه يخشى هذا التقارب لما هو قادم من صراع قاتل على سيادة وملك الجبل صراع تلوح آثاره من تصرفات رجال الجبل وتحزبهم وتعصبهم ، فالغدر من شيم اللصوص ، والشجاعة قد لا تنفع مع الغدر القاتل ، فكان يتظاهر بالبلاهة والسذاجة ، وأنه قتل قريبه في لحظة ضعف ودفاع عن النفس ، واستقر في العمل بالزراعة وسقي الأشجار في مدينة اللصوص والمراقبة عن بعد

وسمع حازم بالغارة التي قادها زوابع لسرقة أموال الملك في بلاد أبي كبشة ، وتعجب لنجاح اللصوص وهؤلاء الأشرار بسرقة دار الخزانة وجلبهم عدد من صناديق الأموال ، فهمس لنفسه : إن زوابع هذا مجرم عتيد وشجاع ! لقد سرقوا الخزنة ولم يصب أحدهم بأذى ، وقد أخذ فرس الملك قيس بدون أن يكشف أمره .. لابد أنه صاحب عقل ذكي نشط .

وهذه الضربة الجديدة لاحظ حازم أنها رفعت أيضا من قوة زوابع عند الأسياد القدامى في الجبل ، حتى أن الغضبان اعترف بتفوق زوابع على كثير من الأسياد وكبار اللصوص ، وقد اقتربت السنة أن تنقضي للفارس حازم وهو يقبع بين هؤلاء الوحوش في نظره ، فحينئذ فكر بالعودة لبلاده وقد علم الكثير من أسرار الجبل ، وقد عجز لحتى الآن عن مشاهدة ورد الفرس المسروقة ليتأكد من ذلك ، فكيف بسرقتها منهم ؟! فهو يفكر بالهرب والنجاة ، ثم قص ما جمعه من أخبار على الوزير عقاب ، والتنعم بالزواج من ابنة الوزير ؛ ولكنه خشي من افتضاح أمر هربه ، وأن سقوطه بين أيديهم هارب يعني إنهاء حياته وموته المحقق، فهو يفكر بطريقة وحيلة

يخرج بها من الجبل سالما ومن غير أن يهتم لغيابه أحد ولكن قبل أن يغادر الجبل بحيلة ما علم أن أحد الملوك أصدقاء الغضبان ـ وعجب لصداقة الغضبان بالملوك والأمراء ـ قد أرسل رسولا لغضبان ملك اللصوص يطلب منه ألف مقاتل ومحارب للمشاركة في تأديب وزيره الثائر عليه ، وأنه وعده بالأموال الكثيرة وثروة الوزير المتمرد ورجاله ، فاجتمع رؤساء اللصوص الكبار ، وبعد تشاور دام يومين وافق مجلس اللصوص على انتخاب ألف فارس كما يزعمون ، وتقرر أن يقودهم وعل الجبل أميرا عليهم ، وانطلق وعل الجبل بالألف فارس نحو مملكة أرمان لمساعدة ملكها جعلان على وزيره الثائر شمعار ، وقد قويت شوكة الملك برجال الجبل الأشداء ، وحميت المعارك بين الطائفتين ؛ ولكن الوزير لم ينقصه الرجال والموالين له من قبيلته وأبناء الشعب الناقم على الملك الظالم .. فلم يتمكن الملك جعلان من القضاء على ثورة الوزير، بل شعر بقرب احتلال قصره عندما بدأت أسوار المدينة تضعف أمام الحصار وقوة فرسان الوزير ، فطلب من وعل الجبل أن يضع خطة لصد الوزير وفك الحصار عن أهم الأبواب لوصول الإمدادات الغذائية لأنصار الملك ؛ وليستطيع التجار والقوافل الدخول والخروج ، فوافق وعل الجبل ورسم خطة قتالية هجومية ، ودارت معركة سقط فيها وعل الجبل وأكثر رجاله صرعى لها ، فحمل وعل الجبل ينزف دما إلى قصر الملك ، وهناك ذكر وصيته ولفظ أنفاسه الأخيرة ، فلما وصلت أخبار هذه المعركة وهذه الهزيمة لرجال الجبل كثر الصراخ والعويل ، واجتمع رجال الجبل في مجلسهم للتفكير في رد الاعتبار لفرسانهم وقتلاهم والثأر لابن ملكهم ، فكان الغضبان يقول لولده كلب الليل وربيبه الأمير زوابع : ها أنتم ارتحتم من خصم عنيد لكم !!.. أثرت شهية وعل للحرب .. هذا ما تريده يا كلب الليل !

صاح كلب الليل مدافعا ورافضا الأتهام : يا ملك الزمان ! .. لم يكن وعل الجبل ينتظر أن أثيره وأهيجه ليندفع لمساعدة جعلان .. إنما رسالة ابنة جعلان هي التي حركته ، فأسرع لطلب القيادة فها هو الفارس زوابع قد طلب القيادة .. أليس كذلك أيها الرجال ؟!

دارت همهمة اعترف الرجال الكبار على أثرها على صدق هذه المعلومة ، فعاد كلب الليل

يصيح : نحن لا نرى العشق والهوى مهما في حياة رجال الجبل .. ولكن الفارس المغرور عندما كنا في ضيافة جعلان قبل سنوات التقى بالأميرة الأرملة ابنة جعلان ، فحدثها عن شجاعته وبسالته ومقامه الكبير في الجبل ، ورغبها بحياة الجبل ، وربما أصبح ملكا للجبل في يوم ما .. وأصبحا عاشقين .. فلما جاءت رسالة جعلان وخصته الأميرة برسالة ظن أنها فرصة مواتية للزواج منها ، فهذا السبب الحقيقي لإقدامه يا ملك الجبل وليس كلام مني أو من غيري .

هز الغضبان رأسه الضخم ، وكأنه يتذكر قصة الأميرة سُلمى وقال : قصة جديدة!!.. ألا يوجد نساء عندنا لنعشق بنات الملوك والأمراء ؟!.. هذا هو سبب سقوطه إذاً.. الثأر يا قوم الثأر ..!!

فقال زوابع على حين غرة من جدالهم : لماذا يا سادة لا نؤازر الوزير شمعار ما دام أن كفته هي الراجحة ؟!.. وأن الملك غير محبوب من رعيته .

فثار الغضبان وهاج وصاح : ويلك يا زوابع .. أتستهين بثأري؟!

فقال زوابع : أيها الملك ! نحن أرسلنا البطل وعل الجبل ليقاتل من أجل المال والثروة فلو أرسل إلينا الوزير العرض قبل الملك هل نرفض عرضه ؟!



كثر الهرج والصياح في مجلس رجال الجبل وصرفوا الاجتماع إلى لقاء آخر ، كان حازم يتابع هذه الأحداث من خلال عمله في بستان قصر الملك ملك اللصوص أو قل ملك وادي السرحان .

وقبل أن ينتهي الحداد والحزن على ابن الملك الأمير وعل الجبل انتخب رجاله ابنه البكر زعيما لهم ، ولما تمت مبايعته طلب من جده أن يسيره للثأر لروح أبيه.. فاجتمع مجلس الجبل ، وبعد نظر في القضية رفض الزعيم أبو هند هذا الطلب وقال : نخشى أن تتعرض للقتل فتكون المصيبة شديدة .. إن كان لابد من الثأر والقتال مع جعلان فالأحسن إرسال زعيم غيرك .

فتنطحت ابنة وعل الجبل لقيادة فرسان الجبل ، وكانت هذه الفتاة كغيرها من فتيات الجبل من

الفرسان والشجعان ، وكانوا يدربونهن لحماية الجبل أثناء الغارات والحملات ، فبعد جدال عقيم مع أبناء الميت وعل وافق الغضبان على إرسال حفيديه للثأر لوالدهما ، ولم يصغ لاعتراض عمهما كلب الليل ، ولا لاعتراض الزعيم أبي هند ، فتشكل جيش من ألف محارب ، وفيه من الفتيات المحاربات ، وساروا نحو بلاد الملك جعلان ، ولكن قبل انفصالهم عن وادي السرحان اعترضهم الأمير زوابع وحث الفتيات على عدم المسير للقتال خارج الجبل، وأن لا يغيرن سنن وطرق الجبل ، فرفضت الأميرة غزاله ابنة وعل الجبل ، وأظهرت عيانا الكره والبغض للفارس البطل .. فتحمل الأمير شتمها وسبها واحتقارها وكر عائدا للجبل وخلفه حراسه السبعة ، رغم موافقة الغضبان على مسير أولاد القتيل فقد كان على خوف وقلق شديدين عليهما، وكان يبكي من القهر والعجز عن الثأر لولده المقتول ، وكان في قرارة نفسه يتمنى أن يتحرك زوابع لهذه المهمة ، ولكن أسياد الجبل يريدون إبعاده عن هذه المهمة خشية حسد كلب الليل وخشية ارتفاع شعبيته أكثر في الجبل ، ولم تطل الأخبار فقد جاءت بشائر انهزام الملك جعلان أمام الثائرين بزعامة شمعار ، وقد تم تنصيبه ملكا على المدينة أرمان ، وعلم أهل الجبل بقتل الكثير من رجالهم ، وأسر الكثير منهم ، وعلى رأس الأسرى الأميران ابنا وعل الجبل، فاستشاط الغضبان جنونا وغضبا وقهرا ومن هول الصدمة سقط ميتا ، فتم إعلان الحداد على روحه وجسده ، وشيد له قبر في المكان الذي عينه قبل موته بسنوات .. وتقرر أن يكون الحزن عليه ثلاثة أشهر تسعين يوما ، وخلال هذه الشهور أرسل أبو هند وفدا لمفاوضة الملك الجديد شمعار للصفح والعفو عن رجال الجبل وعلى رأسهم الأميرين ، ولم تمض هذه الشهور الثلاثة حتى عفا الملك شمعار عن رجال الجبل فرجعوا بالخزي والعار ، وكل هذه المدة لم يتمكن الفارس حازم من مغادرة الجبل إلى أن كان يوم فقد طلب منه زعيم الزراع في قصر الغضبان أن يسير إلى مكان لإحضار بعد الأعشاب العلاجية بناء على توصية طبيب القصر، ففرح حازم لهذه المهمة التي لم يكن يحلم بها ، ومشى إلى المكان المشار إليه ، ولما اقترب منها سار إلى المخرج من وادي السرحان ، فتيسر له ذلك ولم يعترضه أي أحد من رجال العصابات ، فهو يتزيا بزيهم

فظنوه بريدا مكلفا بمهمة خارج وادي السرحان ، وبعد أيام كان يخرج من وادي السرحان سالما نحو بلاده ، ولما وصلها دهش كل معارفه من عودته ، وكانوا قد ظنوا أنه قتل في الصيد كما أشيع في البلدة ، واجتمع بالوزير عقاب الذي آيس من عودته وكان نادما على إرساله ، فأطلعه الفارس على كل شيء علمه في وادي السرحان ، فتعجب الوزير مما سمع وقال : لابد أنها أيام قاسية عليك يا حازم ! ولكنك عدت بأخبار طيبة ، هل رأيت الفرس ورد ؟

فقال حازم: العجب كل العجب يا سيدي الوزير ! إنني لم أتمكن من رؤيتها طول هذه المدة ، فهي ملك لفارسهم الشجاع زوابع ، وهو الذي سرقها من اصطبل الملك ، وهو فارس قوي ، وأكثر رجال الجبل يحبونه أو يرهبونه ، وقد حاولت أن أعرف أين يخفي الجواد ؟ فلم يتيسر لي ذلك ، وهناك الغلطة يا مولاي تكلف الإنسان حياته ، وأصعب شيء عندهم الخيانة ، فالقتل عندهم بعجلة ومن غير تدبر وترو، فكل الغارات التي تصيب المدن والبلاد فهي من رجالهم ، وهم الذين سرقوا خزنة الملك مرعي ابن الملك قيس ملك بلاد الأكباش

فقال الوزير : للحديث تتمة .. فسر لأهلك ، وأرح نفسك ، وانتبه لنفسك ، واحذر غدرهم سوف أتشاور مع الملك في أمرهم وفيما سمعت منك .

مشى عقاب لوالده وأخبره بكل ما نقله إليه حازم ، فهتف الوزير الشيخ : هذا ما توقعته أيها الوزير .. إذن لقد هلك الغضبان ملك الجبل ! .. إنه رجل مرعب ومخيف وفاتك لا يرحم يا ولدي !.. تكلم مع الملك قيس بذلك وسأفكر بالأمر المناسب .. اسمع لرأي الملك أولا .. فسوف يسر لهذه الأخبار رغم حزنه على جواده ، ثم أدخل عليه حازم يقص عليه حكايته في جبل ضراب ووادي السرحان .



جميلة وورد

ذهل الملك قيس وهو يسمع قصة رجال الجبل ، وتجدد حزنه لسرقة جواده ، وسر لموت الغضبان ، ولما انتهى الوزير من سرد القصة على مسامع الملك قال الملك : لابد أن هذا الفارس المسمى زوابع هو الذي التقى بالبنات في الغابة .. أتذكر لما حكم القاضي على الرجلين بالموت لقتلهما صاحبهما أو خصمهما ؟!.. رجلي الغابة .. يومذاك أتتني الأميرة جميلة ابنة الملكة سُلمى وحدثتني بقصة الفارس المطارد والرجال الثلاثة ، وأن البنات هن اللواتي قتلن الرجل اللص وجرحن الآخريين .

فهتف الوزير مصدقا: أجل أيها الملك أذكر ذلك! .. وحدثتني ابنة أخي صقر بذلك .. إذن لقد كان الفارس زوابع هو الذي قدم لسرقة الفرس ، وتخلى عن الرجال الجرحى .. ولكن للأسف لقد هلك الرجلان في السجن ! .. ولو بقيا على قيد الحياة لتأكدنا منهما وسمعنا منهم أخبار الجبل .. سيكون الفارس الشجاع حازم بين يديك يا مولاي ! ليحدثك بنفسه برحلته ومغامرته في جبل السرحان .

فرد الملك قائلا : لا بأس .. هيئوا حملة جبارة وقوية لغزو الجبل وتدمير مملكة اللصوص على أهلها مرة أخرى .. سوف يرون شدة بأسنا قاتلهم الله .

فقال الوزير : أمر مولانا الملك ؛ ولكن لديّ اقتراح إذا أحب مولانا سماعه .

فقال الملك : تكلم أيها الوزير!

فقال الوزير : نحن بالتأكيد وبعد مشيئة الله سبحانه سننتصر عليهم ؛ ولكن أخشى أن يهربوا كما فعلوا في المرة الماضية ، ولا نستطيع الاستمرار في مطاردتهم ؛ لتفرقهم وتشتتهم بين الممالك والمدن .. فأرى ـ يا مولاي الملك ـ أن نخاطبهم بالحسنى بأن يردوا ويعيدوا لنا الجواد .. وأموال الملك مرعي .

فقال الملك بعد تأمل : سأدرس ما تفوهت به أيها الوزير.. لو أنكم تزورون حضرة الأب الكبير وتسمع مشورته فهو وزير حكيم وبارع .

فرد الوزير : سأفعل أيها الملك الشجاع .

كان وقع رسالة الملك قيس على رجال الجبل كوقع السوط على جلد المجلود ، وتذكر الرجال القدامى غزو جيش ملك بلاد الرايات لجبلهم ، وتذكروا حرق غضبة الليل وتمزقهم وهربهم فأعاد الكبار القصة على مسامع الشباب والفرسان ، فاشتعل الغيظ في قلب زوابع وصاح قائلا بغروره المعهود : ومن هو قيس هذا ؟! .. ألهذه الدرجة تخشون جيشه؟!

فقال أبو هند مخاطبا زوابع : أيها البطل دعك من الـغرور..علينا أن نفكر بروية ، ونـعرف بماذا نرد على رسالته ؟! فنحن خبرنا الملك قيس وجيش بلاد الرايات .

فقال زوابع : ويلكم ! ألم أسرق وحدي جواده من اصطبله؟! .. أين جنده وحرسه ورجاله ؟!

فقال أحد الرجال القدامى : سرقة جواد ليست كما التعرض لغزو جيش مدرب وكثير الفرسان والرجال .. الشجاعة وحدها لا تكفي أيها الأمير.. ماذا حل بفرساننا عندما قاتلوا جيش شمعار أيها السادة ؟!

فقال الأمير غير مكترث لمَسمع من اعتراض : لماذا ننتظر أن يغزونا هو ؟! .. لماذا لا نغزوه نحن في عقر داره ؟!

فأجاب أبو هند قائلا : مملكته بعيدة عن جبلنا أولا ، وثانيا جنوده كثر أيها الشجاع .. فدعونا نفكر بروية وهدوء قبل أن نحسم الرد .. فالأمر صعب ، وأنا كان رأيي من البداية عدم التحرش بذاك الملك ، ولكنك يا زوابع أصررت على التحدي رغم معرفتك بالخطر الجسيم ، وأنت بنفسك أخبرتني عن شجاعة فتياتهم وقتلهن لرجالنا ، فكيف رجالهم ؟! ولكن الأمر المهم أيضا أن نعرف كيف عرفوا بأن الجواد عندنا ، وأننا سرقنا أموال بلاد أبي كبشة .. فهذا يدل على أنه كان بيننا جاسوس لهم .. وإن لم يخب ظني قد يكون ذلك البستاني الذي اختفى من الجبل فجأة وظننا أنه سقط في بعض المغارات العميقة وهلك ..

ودار الجدال حول البستاني سعود يريدون أن يتذكروا له موقفا يدل على تجسسه ، فلم يجدوا دليلا واحدا يؤكد شكهم ، ورجح بعضهم أنه سقط في أحد الحفر والآبار المخفية ، فحسم أبو

هند أمره قائلا : ربما .. والأيام ستظهر الحقيقة .. المهم عليكم أيها السادة بالتفكير بالرد المناسب على ملك تلك البلاد .. نجتمع غدا ليلا لنسمع المشورة ثم نتخذ القرار الحاسم .. انصرفوا .

وتفرق أمراء الجبل والسادة والزعماء نحو بيوتهم ومنازلهم على أمل اللقاء غدا .

عندما اجتمع رجال الجبل الكبار مرة ثانية كانت الآراء كثيرة ، منهم من يرى رفض طلب الملك قيس وزاد بمهاجمة وغزو بلاده .. ومنهم من اقترح قتله غيلة لإثارة الرعب في قومه ومنهم من رغب في السلامة بإعادة الفرس وأموال ولده مرعي ملك بلاد أبي كبشة ، وهناك من أشار بعدم الرد وإهمال الجواب .. فأبو هند من دعاة السلم وإعادة الفرس والمال ، وكان زوابع من دعاة غزو بلاد الرايات وإثارة الرعب فيها ، وكان الأمير كلب الليل ابن الغضبان من دعاة غض الطرف وعدم الرد على الملك والاستعداد للدفاع والقتال ضد أي غزو ، ولما لم يجتمعوا على قول صرح لهم زوابع بأمر مثير وخطير وعجيب ، فقد عرض عليهم خطف الملك قيس وإحضاره للجبل والتفاهم معه ، واستعد هو لتنفيذ هذا الاقتراح الخطير ، فبعد زوال البغتة عن الجميع قال أبو هند : قبل أن نوافق أو لا نوافق أيها الاخوة على ما تفوه به زوابع علينا أن نفكر برد مناسب على الملك قيس.

فصاح كلب الليل : فأفضل رأي رأيي .. عدم الرد وإهمال الرسالة .

فتم الاتفاق على ذلك ، فأحضر رسول الملك قيس وأخبروه أنهم سيتشاورون في الأمر ويرسلون رسالة للملك قيس بعد التدبير والتفكير ، فانصرف الرسول راشدا بعدما أمضى ثلاثة أيام في وادي السرحان ينتظر الجواب .

كان الأمير كلب الليل يحث أبا هند بالموافقة على اقتراح زوابع بل قال : أعرف أنكم ستقولون أن هذه فرصة للتخلص من منافسي على زعامة الجبل ؛ ولكنني أقول على رؤوس الأشهاد أن الفارس الكبير أمير الفرسان زوابع ربيب والدي الغضبان إذا رجع سالما وأحضر لنا الملك قيس حيا إلى الجبل ، فهو الملك المطلق علينا أيها السادة الكرام .. أنا ورجالي سنكون تحت أمره وقيادته وأطوع له من بنانه ، ولا نعصي له أمرا ، أو نتمرد على قراراته .

وجم القوم لهذا العرض ، وأخذت أبصارهم تتطلع للأمير زوابع سيد الفرسان ، فحملق فيهم الفارس بعض الوقت ، ثم هتف قائلا بحماسه المعهود وغروره المعروف : أترضون كلام الأمير كلب الليل ؟! وينتهي الصراع بين فرساننا ، وتقبلون زعامتي لكم راضين إذا أحضرت أنا الملك قيس إلى هنا حيا اسيرا ، ولا تنازعونني الملك .. ملك الجبل ووادي السرحان .. ثم تدافعون معي حتى الموت عن الجبل إذا أصر فرسان بلاد الرايات على القتال ولا تولون الأدبار جرت همهمة ولغط كبير في القاعة التي يتشاورون فيها ، فقد كانت كلمات زوابع قاسية وخطيرة ومرعبة ، فعاد كلب الليل يتعهد بالولاء والثبات والرضا عن طيب خاطر واقتناع بحكم زوابع إذا نفذ وأتى بـقيس للجبل ، ولما سمع أمراء الجبل وقادته كلام كلب وكلام أبي هند وافقوا على هذه المغامرة الكبيرة ولم يقدروا خطورتها بالقدر المطلوب ، فقال زوابع : وأنا إن نجحت في مهمتي في جلب الملك إلى هذا الجبل ، وفرضنا عليه شروطنا السلمية ووافق عليها وتوجت سيدا لهذا الوادي سأكون عند حسن ظن الجميع ، وسترون مني كل خير وولاء ووفاء لهذا الجبل ولرجاله الصغار والكبار الذكور والإناث ، وسأعرض عليكم خطتي التي رسمتها من أجل خطف الملك قيس بن خصيب .

ولما اجتمع السادة مرة أخرى ، عرض عليهم ربيب الغضبان خطة خطف الملك قيس ، فعجب الأمراء ورجال الجبل لخطته الجسورة وتمنوا نجاحها ، وعلى أثر سماعها كتبوا رسالة للملك قيس يخبرونه فيها برد الجواد ورد ، وتقدمهم الرسول بأيام ، وبعده سار زوابع وعدد من فرسانه لتنفيذ الحيلة والمكيدة ، ومعهم الهدايا للملك قيس وأعوانه ، ومعهم كذلك الفرس ورد ابنة دموع .. وكان الملك قيس قد استقبل رسول الجبل ورحب به ، ودخل قلبه الفرح لقرب عودة الفرس المسروقة بعد كل هذه الشهور والأيام ، ولما اقترب زوابع من بلاد الرايات نشر رجاله حول مداخل ومخارج المدينة واختبأ هو وباقي الفرسان في أحد الوديان ، وسار ثلاثة رجال ومعهم الفرس ورد إلى قصر الملك مع ضحى النهار وإشراقة الشمس الأولى ، ولما دخل القوم القصر كان في استقبالهم الملك قيس بنفسه ووزيره عقاب وكثير من رجال الحاشية والأهل

والأصحاب ، فعودة ورد لها معزة ومحبة عظيمة في نفوس القوم ..فتسلم الملك الجواد بشوق وحنان وعانقه وأخذ يداعبه ويتفقده ويذرف الدمع على عودته بعدما يئس من حياته ، وأخبره الرجال الثلاثة بأنهم سوف يردون الأموال التي سرقوها من مملكة أبي كبشة ، ثم ودعوه وانصرفوا وهو يحذرهم من التعدي على بلاده وبلاد ولده مرعي ، فوعدوه خيرا وغادروا المدينة وكان القوم سعيدين بعودة الجواد وظل الملك ومن معه يداعبون الفرس ، وقد لاحظوا توتره واحمرار عينيه الشديد ونسبوا ذلك لتعب الطريق وغربته ، وإن أحسوا بأنه غير تعب .. وفجأة قالت ابنة الملك جميلة : يا أبتي دعني أركبه وأدور به في ميدان القصر ، فهو صديقي العزيز .

وقد اقتربت منه وتحسست رأسه وعنقه وساقه ووضعت رجلها في الركاب ثم امتطه ، فأظهر الجواد الفرح ، فأمسكت بالمقود ودارت به عدة دورات في ساحة القصر سعيدة به.. ثم اندفعت به فجأة خارج القصر ، وانطلق بها الجواد مسرعا في نفس الدرب الذي أتى منه فصاح أحد رجال الملك: كأن الجواد قد هاج .. أدركوا الأميرة !

وقد أحست الأميرة أن الجواد الذي اعتلت متنه غير طبيعي الحركة ، فسايرته في الاندفاع ، وإن حاولت أن تلجمه ، فأصر على الانطلاق فسايرت نفسها معه .. فإذا هو يخرج من المدينة نحو الصحراء والجبال ، فكان يسير بقوة وسرعة عجيبة ، وشاهدها رجال زوابع الذين أسرعوا إلى زوابع في الوادي المختبئي فيه ، فانطلق هو ومن معه من الرجال خلف الجواد الهائج والثائر ، وكانت ورد أسرع من جيادهم ، وقد سبقتهم الأميرة بمراحل ، وظل الجواد يركض في الصحراء حتى تعبت الأميرة فسقطت عنه في أحد الحفر الرملية ، وظل الجواد منطلقا حتى هبط الليل فاصطدم بصخرة كبيرة فخر ميتا ، ولما أدركه زوابع ورجاله وجدوه ميتا ، ولم يكن عنده راكبه ، فانتظروا حتى الفجر وبحثوا عن الراكب ، فلم يجدوا أثرا للملك ، فهم كانوا يعتقدون أن الملك يركبه ، فقد أطعموا الجواد عشبة مهيجة له على أمل أن يركبه الملك بعد كل هذه الحنين فينطلق به الجواد خارج المدينة دون حرسه ، فيدركونه فيأخذونه أسيرا ، ولما نقل لهم عيونهم انطلاق الجواد كما دبروا ومكروا سروا لذلك ، وانطلقوا خلف الجواد الثائر والمتمرد ؛ ولكنه

سبقهم بساعات ، فلما أدركوه لم يجدوا عنده أحدا ، فأدركوا أن طلبتهم قد سقط في الطريق فعادوا القهقرى يبحثون عنه ، وبينما هما يسيرون أحسوا بفرسان الملك يتدافعون تترى تترى ، فتواروا عن أعينهم ، ولما ابتعد فرسان الملك تابعوا البحث عن الملك .. ووصل رجال الملك إلى حيث الجواد الصريع ، ولم يجدوا الأميرة عنده ، ووجدوا حوله آثار خيول وأقدام رجال ، ولما اقترب الليل قفلوا عائدين لبلادهم ، وقد شملهم وغمرهم الحزن والأسف والبكاء على الأميرة وعلى الجواد .



أما الأميرة جميلة بنت قيس عندما سقطت عن متن الجواد الهائج، وقد فقدت التوازن وأنهكها التعب المفاجيء ، فارتطمت بالأرض ففقدت الوعي على الفور ، ومن حسن حظها أنها لم تصرع من شدة الضربة ، وكان وقوعها العنيف على أرض رملية ، ولم تكن أرض صلبة وإلا قتلتها .. فبعد أن استيقظت وجدت نفسها في خيمة صغيرة ، فأخذت تتلفت يمينا وشمالا وشاهدت امرأة قريبة منها فهمست بضعف واستغراب : أين أنا ؟!

فقالت المرأة بفرح : حمدا لله على سلامتك أيتها الفتاة الشابة.. لقد وجدناك في الصحراء مطروحة في حفرة ومغمى عليك،وقد نزفت بعض الدماء من رأسك وفمك .

عادت جميلة تتذكر ما حدث ثم قالت : واه .. كيف أتيت إلى هنا ؟!

فقالت المرأة : ألم أقل لك أننا وجدناك في الصحراء ؟! .. أنا وزوجي كنا نحتطب فوجدناك فحملناك على حمارنا وأتينا بك إلى خيمتنا في هذه الصحراء الكبيرة .

فأغمضت جميلة عينيها ، وأخذت تتذكر ثانية ما جرى لها ، ركبت الفرس ورد ، ودارت بها عدة دورات في ساحة القصر ، ثم اندفع الجواد بها إلى خارج القصر ، فجارته في غضبه ، ثم انطلق مسرعا نحو الصحراء وهو يركض بقوة وسرعة.. ثم رأت نفسها تطير عن ظهره وتسقط

على الأرض ، فقالت : يا أمة الله .. ألم تكن بجواري فرس عندما التقيتم بي ؟!

فقال المرأة الصحراوية : لا يا ابنتي .. كنت وحيدة ، وقد ظننا للوهلة الأولى أن قوما قتلوك وألقوك في تلك الحفرة ، ولما تبين لنا أنك حية جئنا بك إلى هنا ، فأنت في خيمة خالتك أم النهار واحمدي الله أن قدر لنا رؤيتك وإلا مت في تلك الحفرة أو أكلتك السباع والذئاب والضباع .

فتمتمت الأميرة بالحمد والثناء على الله ، ثم راحت في نوم جديد .

حكاية عبسان

كان الملك وحاشيته في وجوم شديد وهلع كبير ، فلما عاد الرجال أخبروا الملك بموت ورد واختفاء الأميرة ، وأنهم وجدوا حول الفرس الميتة آثار أقدام بشرية وحيوانية ؛ ولكنهم لم يجدوا الأميرة ولا آثار أقدامها .

فهبط الملك على الأرض تضعضعا ووجعا وترك عرشه وقال : لم تجدوا آثارا لها ؟!

فرد أحدهم : بحثنا وفتشنا .. لا أثر لثياب ولا أقدام .

فقال الوزير عقاب : إنها مكيدة كبيرة من رجال الجبل يا مولاي ! .. والله أعلم إنهم كانوا يقصدونك أنت أيها الملك بهذا المكر الرهيب !

فأكد عدد من رجاله هذا الاحتمال الغادر ، فقال بحزن : وماذا يريدون مني ؟!

فقال الوزير : حياتك أيها الملك !

فقال الملك مهددا : حسنا يا زوابع ويا كلب الجبل أو كلب الليل ! حسنا يا أبا هند الأيام بيننا فليخرج رجالنا بكثرة للبحث عن جسد الأميرة ؛ ولتذهب طائفة لدفن الجواد الهالك وتتبع الآثار ، والويل لرجال الجبل مني .

وبعد تفكير ونظر تأكد للملك أنها حيلة من رجال الجبل ، وأن حياة الملك كانت في خطر ، فلو ركب هو الجواد الهائج لحصل له أمر سيئ ؛ ولكن لم يقدر له الضرر بهذه الحادثة ، ولكن الأميرة ابنته ، فكانت المصيبة كبيرة على الملك والدولة .. فمحاولة الغدر بالملك جريمة ، وهذا أمر خطير ، وفقد جميلة وورد كل هذا من الكوارث ، ولما رجع الباحثون من غير جميلة أقسم قيس أن يدمر الجبل على ما فيه ، وأن يطاردهم ولو لآخر الدنيا ، فأمر قائد الجيش بأن يعد جيشا لجبا لهذه المهمة ، وصمم أن يهلك كل من يجده في جبل ووادي السرحان ، وأن يثأر لابنته وجواده العزيز .

وقد علم رجال الجبل بفشل محاولة خطف الملك قيس، وأن ابنته هي التي ركبت الجواد ، وأنها اختفت ولم يعثروا عليها في الوديان والصحراء ، ودب الخوف في رجال الجبل ، ووصلهم قسم

الملك قيس ، وأخذوا يتعاتبون ويتلاومون ويتشاتمون ويتشاجرون ويشمتون ، فصاح كلب الليل : ويحكم كلكم وافقتم على خطة زوابع ولكن مشيئة الله غلبت مشيئتنا .. وركبت الأميرة الجواد ؛ ولكن أين سقطت ؟ أين ذهبت جثتها ؟ لو وجدناها لاستطعنا أن نساوم الملك عليها ونمنعه من الوصول لبلادنا وجبلنا .. فقد سمعت أنه أرسل للملوك من حولنا للتحالف معه ضدنا ، فهو يريد إبادة الجبل وساكنيه .

فران الصمت على الجميع فقال أبو هند: وما عسانا فاعلين أيها القوم ؟! .. فقد حكمنا على أنفسنا بالهلاك .. فهل نقاتل حتى الموت ؟! أم عندكم رجاء وحل ؟

فقال زوابع وكله ألم وضيق : كانت خطة قوية وجريئة ؛ ولكن كما قال أخي كلب الجبل كما يحب أن يسميه رجاله وأعوانه .. القضاء لم يحكم على الملك أن يركب على الجواد ، كان الأمل أن تدفعه اللهفة والاشتياق بعد كل هذه الشهور والأيام من الفراق أن يعلو ظهر الجواد لهفة وشوقا فيحدث ما حدث ؛ ولكن تلك اللعينة ركبت قبل والدها ، ورغم مطاردتنا للجواد الهائج مما أكل وأطعم ، ولكنه كان سريعا يسابق الريح العاصف فسبقنا بمراحل ، فهذا ليس بأيدينا فلا داعي للولولة كما تفعل النساء والبنات ، ولا ينفع البكاء اليوم فهي حرب مفروضة علينا من قبل أن نضع هذه الحيلة والمكيدة ، وأنا ورجالي مستعدون للقتال حتى آخر رجل وآخر نفس ، وسندافع عن مملكتنا بكل قوة وصلابة وعناد

فقال أحد الزعماء مبينا بعض الحقائق : نحن لم ندافع يوما عن هذا الجبل أمام أي جيش غزانا نحن دائما نكر ونفر ونغزو ونساعد ، فنحن لسنا العدد الكبير الذي يستطيع الدفاع والصمود أمام الفرسان الكثر والغزاة ، نحن قوم غارات وغدر ، فلذلك قررت أنا وأتباعي بعد تشاور معهم بالهرب والانسحاب ، فمواجهة جيش الرايات هو انتحار وجبن .

فضج القوم لهذه الإعلان الصريح ، وعلا الصراخ والشتم من جديد حتى عاد كلب الليل يقول : يا سادة .. كفى كفى .. فالذي قاله صاحبنا كلام مقبول .. فنحن أهل غارة واختباء .. ونحن منذ موت والدي الغضبان لم نستطع الاتفاق على ملك لهذا الجبل ، وأنا سأطلب مثل صاحبي

فأطلب من رجالي وأتباعي الخروج من الجبل قبل أن يتحالف الملك قيس مع من حولنا من الملوك والأمراء ، وينقضوا علينا انقضاض السبع على ضحيته ، وداعا أيها الجبل ! وداعا أيها الرفاق! ومن شاء منكم البقاء فليمت وليدافع عن هذه الكهوف والحجارة .

فصاح زوابع بغضب : ويلكم كلكم جبناء ! .. جبناء ! أتهربون مثل القطط ؟! وقد كنتم تدعون الشجاعة وتطمعون بالملك .

فصاح كلب الليل : لا ملك بعد اليوم ، اقذف واشتم كما تشاء ، ودعنا نسمع أخبارك يا ملك الجبل .

وخرج كلب الليل ساخرا هازئا من الشجعان ، والرجل الزعيم الآخر خلفه ، ودب الذعر والرعب في الجبل قبل أن تقبل جيوش بلاد الرايات ، ونتركهم يهربون ويتفرقون ، ونعود للأميرة جميلة في خيمة أم النهار .. علمت الأميرة أن ساقها مكسورة ومجبرة ، وكانت تحس وتشعر بألم عميق ، وقد أدركت بذكائها المشهود أنها كانت ضحية مكيدة كانت مدبرة ضد والدها من رجال الجبل ، ولابد أنهم أطعموا الجواد مادة حادة مهيجة.. فحمدت الله أنها كانت هي الضحية بدلا من والدها الملك .. ولم تذكر لأم النهار اسمها الحقيقي فسمت نفسها الغالية وأنها كانت تركب جوادا فجمح بها فطرحها أرضا وهرب ، وصدقت أم النهار وزوجها قصة الفتاة ، واهتما برعايتها والاعتناء ببدنها ، ولم يكد يمضي عليها الشهر حتى ملت الحياة ، وتمنت الهلاك .. فساقها ما زالت تؤلمها ، وأحست أنها مقطوعة عن الدنيا ، وعجبت لحياة هؤلاء في هذه البادية الخالية من الإنس والجن ، ولم تسمع صاحبتها تحدثها يوما عن حياتها الماضية وسبب نزولها هذا المكان المهجور ، ولم تحاول إشباع فضول جميلة بقصص الماضي .. فأدركت الأميرة أن لهذين الشخصين حكاية غامضة وكبيرة ، وقد فشلت كل محاولة لسماعها ، وتواسي نفسها قائلة:وأنا لي حكاية لا أستطيع مصارحتهم بها الآن وأنا ضعيفة..يا الله !! لليوم لم يصل رجال أبي إلى هذه الخيمة القديمة !

وتأخذ الأميرة بالبكاء والابتهال إلى الله أن ييسر أمر عودتها لديارها ، فهذا ما حدث مع

أميرتنا بعد انتقالها لخيمة أم النهار .. نوم أكل وتأمل وبكاء وخوف .



وتقدم الأمير صقر بجيش جرار نحو جبل السرحان للقضاء على كل اللصوص والمجرمين وأسر نسائهم وأطفالهم والاستيلاء على أموالهم وخيولهم ، وبعد مسير بطيء دخل الجيش وادي السرحان ، ولم يلتقوا برجل واحد ، فظن صقر والفرسان أن هناك مكيدة ، فشددوا الحراسات في الليل وإشعال النيران ، وبعد أيام وصلوا إلى جبل الرملي حيث مملكة الغضبان وقصره ، فوجدوه خاليا والقرية خالية خاوية على عروشها ، فتعجب القوم لهربهم العاجل ، وأخذهم أموالهم ، فقرر الأمير صقر الاستمرار في مطاردتهم حسب رغبة الملك ، وأرسل خلفهم الطلائع ، وبعد مسير دام شهر علم أنهم لجئوا إلى أحد الملوك الكبار ودخلوا في حمايته ، فأمر الجيش بالتريث ، وأرسل خطابا للملك قيس وأخيه الوزير يطلعهما على جلية الأمر .

فلما تلقى الملك قيس خطاب قائد الحملة العسكرية الأمير صقر بن غراب جمع مجلس الملك وتشاوروا في الأمر ، فاقترح القاضي ابن عدون مخاطبة الملك بهراما في شأنهم وتعديهم على بلادنا وعبادنا .. وقال : لابد أن هؤلاء اللصوص ورجال الجبل قد بذلوا له الأموال حتى يقتنع بحمايتهم ، ونحن بالتأكيد لن ندفع له أموالا ليسلمهم لنا .

وأكد أكثر السامعين أفكار ابن عدون ، فأصدر الملك لكاتبه أن يكتب رسالة يشرح للملك بهراما قصة سرقة الجواد والمكيدة التي دبروها ليهلكوا بها الملك قيس.. وأرسل رسالة أخرى للأمير صقر يأمره بالمكث في وادي السرحان ، وأمر بإرسال المزيد من الإمداد لهم من الطعام والأعلاف ، واقترح أحد الفرسان على الملك قيس إنشاء قلعة قوية في وادي السرحان ، ويمدها بالميرة والفرسان إلى حين من الأيام حتى لا يفكر اللصوص بالعودة لجبل السرحان ، فأعجب الملك قيس بهذه الفكرة وناقشها مع وزيره عقاب فقال : نبني قلعة حصينة على قمة جبل السرحان ، ونجعل فيها المخازن الكبيرة ، ونسير لها الماء الدائم ، ونجعل فيها حامية من

ألف فارس ، وكل بضعة أشهر ثلاث أو ست يتبدلون ويعود القائمون هناك للديار ، وهذا أيضا قد يغنينا عن الصراع مع الملك بهراما إذا رفض عرضنا وصداقتنا ، وأظنه سيرفض ، وأهم أمر أن ننظم أمر البريد بين هذه القلعة وبلادنا ، فمسيرة عشرة أيام ليست بالأمر اليسير ؛ ولكن بالصبر وطول الأناة نمنع المطاريد والمجرمين من الاستقرار في الجبل والعودة إليه ، ويمكن أيضا إنشاء حامية صغيرة أخرى بين القلعة وبلادنا للإمداد بالميرة والسلاح والجند عند الحاجة العاجلة أيها الوزير الفطن ، فكر ورتب هذه الأفكار واعمل على تنفيذها .

فأبدى الوزير تفهمه لمقاصد الملك قيس ، واجتمع مع فرسان وقادة الجند والتقى بمهرة البنائين في بلاد الرايات ، وبدأ الإعداد لإنشاء هذه القلعة المحصنة في جبل ووادي السرحان ، وقد جاءت الأخبار برفض الملك بهراما التعاون مع الملك قيس للقضاء على رجال الجبل بل هدد وتوعد من يتطاول عليهم ، فأمر الملك قيس قائد الحملة الأمير صقر بالمكث في جبل السرحان عدة أشهر حتى يرسل فريقا غيرهم من الفرسان ، وأعلمه بموضوع إقامة القلعة، وبدأت الإمدادات والعمال المهرة يتحركون أفواجا أفواجا إلى وادي السرحان ، وقد تم اختيار الجبل المناسب لبناء القلعة الكبيرة على متنه ، فبعضهم قام بتشييد القصر والمنازل ، وآخرون ببناء الأسوار العالية والأبراج ، ونتركهم قليلا ونعود للأميرة جميلة بعض اللحظات والأوقات ، بعد حين تحسنت ساق الأميرة ، وأصبحت قادرة على الحركة والقيام والقعود والابتعاد عن الخيمة بدون إرهاق ومشقة كبيرة ، وفرح أبو النهار وأم النهار بهذه الصبية الحسناء ، وجعلوا من أنفسهم لها أبا وأما ، وهي رحبت بذلك ولم تحاول كشف حقيقة نسبها لهم ، وبينما هي تقف يوما على تلة قريبة من الخيمة تنتظر عودة والديها من المحطاب وصيد الأرانب والطيور ؛ فإذا بها تلمح خيالا شخصا على دابة ، فتعجبت من وجوده في مثل هذه الصحراء القاحلة ، وتعجبت أكثر عندما شاهدته يتقدم نحو الخيمة كأنه يعرف المكان ، فبعد حين وصل إليها ، فتعجب هو الآخر من رؤيتها في هذا المكان ، فنزل عن الجمل بعدما أناخه وقال : أين أم النهار وزوجها ؟؟ بل من أنت ؟!

فقالت بابتسامة صغيرة : ابنتهما !

فضحك الرجل وقال : ابنتهما من أين جاءوا بهذه الابنة ؟!

فقالت : أتعرفهما يا هذا ؟!

فضحك من جديد وقال : كيف لا أعرفهما أيتها الفتاة ؟! ولماذا أتيت إلى هنا ؟! فأنا أخ لأم النهار أيتها الفتاة الجميلة !

فهتفت الأميرة بفرح : أخوها !! لقد خيل لي أن لا أحد لهما في هذه الدنيا فمرحبا بك .

وتقدما نحو الخيمة فألقت إليه وسادة وقدمت له الماء وقالت : يا أخا العرب من أين أتيت ؟

فقال : من بلاد الله الواسعة .. أخبريني أنت من أنت ؟ وما الذي أتى بك إلى هذا المكان المجهول في العالم ؟!

فقالت باسمة : عندما تعود أمي ستخبرك .

فقال بضيق : أمك ! من أمك ؟!

فقالت : أم النهار .

فقال وهو يهز رأسه ومنكبيه : سنرى كيف أتت بك هذه الأم ؟!.. أين ذهبا ؟

فقالت باسمة : إلى الصيد وجمع الحطب .

فقال بضيق: حسنا؛ ولكني لاحظت أنك تعرجين يا أمة الله..ولم تذكري لي اسمك ؟!

فقالت : اسمي الغالية ولعرجتي قصة ستذكرها لك أختك أم النهار .

وأحبتجميلةأن تستدرج الرجل في الكلام وتعرف منه أنباء عن صاحبي الخيمة، ففكرت قليلا وقالت : هل أتيت من أرض بعيدة ؟

فقال الرجل : لي يومان أمشي على ظهر هذا الجمل – سامحها الله أختي – لقد رضيت بالحياة في آخر الصحراء وآخر الدنيا ، ولولا محبتي لها وطاعتي لوالدتي ما زرتها قط .

فقالت الأميرة : عفاك الله وأحسن الله إليك.. فالإحسان للأخت من أعمال الخير العظيمة عند الله .. وفعلا الحياة في هذه الصحراء القاحلة موحشة ومخيفة ..لا أدري لماذا رضي والديّ بالحياة

هنا ؟!

فقال الرجل ضاحكا : والداك !..إيه يا غالية ! أتصرين على أنهم والداك ؟

فقالت باسمة : أصر على ذلك وبقوة..لقد أنقذا حياتي يا رجل من الهلاك المحقق ، كدت أن أموت لولا عثورهما عليّ .. ولكن كيف طابت لهما الحياة في هذه الصحراء المخيفة ..؟!

فقال وهو يفكر : القدر يا ابنة أختي .. سأقول لك ابنة أختي ما دمت رضيت بها أما .. قاتل الله الهوى يا غالية !.. الهوى والعشق سبب رضا أختي بسكنى هذه الصحراء الجرداء .. ولا أظن أن والديك قصوا عليك سبب حياتهم هنا .. فهم لا يستطيعون ذلك .

فقالت بدهاء : أهو سر ؟!

فقال مفكرا : سر !!.. أكيد هو بالنسبة لهما سر ..لا أدري !.. على كلٍ حاولي أن تسمعيه من أبي النهار .

فقالت : لا أظن أن أبا النهار سيحدثني بشيء ، فلي أشهر أحيا بينهم ، وأشرب وآكل وأنام ، ولم أسمعهما يتحدثان عن حياتهما الخاصة ؛ ولكني أدركت أن بينهما حبا عميقا وغراما كبيرا ..

فتنهد الرجل بعمق وقال : لقد حارب الدنيا عبسان ليتزوج من أختي .. كان يحبها ويعشقها من أيام الصبا ، ولما عرفنا ذلك غضبنا ، ووقفنا أمام هذا الحب العاصف ، واخترنا لها زوجا من أقاربنا ، ولكن قام عبسان اللعين يوم العرس بقتله..واختفى ، وحاولنا بعد حين تزويجها من شخص آخر فصنع به مثل الأول ، واختفى عبسان ثانية .. وابتعد الرجال عن الزواج من أختنا ثم علمنا بانضمام عبسان لرجال جبل السرحان ووادي السرحان مكان يأوي إليه لصوص الدنيا ، وأصبح من كبار المجرمين والقتلة ، وكان بين الحين والآخر يرسل رسالة يهددنا من تزويج أختنا، وبعد موت والدنا ، ولما رأينا تصميم ليمونة على الزواج من ذاك المجرم اللص الفتاك وافقنا ، واستسلمنا لرغبته ورغبتها ، وسمح له رجال الجبل بالزواج من محبوبته .. فأتى البلده ومعه رجال منهم ، وتم الزفاف قبل حضورهم ، فلما حضروا أخذوا العروس وانصرفوا للجبل أو لإحدى القرى .

فهمهمت جميلة : إيه إنها قصة جميلة !! ..أكمل يا سيدي .

فقال وقد عادت به الذكريات القديمة: وكانت كل سنة تأتي إلينا فتمكث بضعة أيام ، ثم تعود لبعلها ؛ ولكن قبل ما يزيد عن عشر سنوات أتت إلينا هي وزوجها ، وأخبرتنا أنها ستقطن الصحراء وتهجر الجبل ، وأنها لن تزور المدينة بعد هذه المرة .. ورافقتهم إلى هذا المكان يا غالية ولليوم لم أعرف سر بقائهما هنا وتركهم رجال الجبل ، وكذلك تركهم سكنى المدينة ، وإذا عندك زاد فقدميه لي فإني أحسست بالجوع ، وأنا أزورهم كل سنة مرة أو مرتين أطمئن على أختي وأحقق رغبة أمي .. فهذا بعض سر زواج أختي من عبسان يا غالية .

فنهضت الغالية وأحضرت الخبز وبعض اللبن للضيف.

وأخذ الرجل يأكل ويحاول معرفة قصة الغالية فترد عليه : ستحدثك أمي بالقصة اصبر.. اصبر أيها الرجل الطيب .

وبينما هم على ذلك الانسجام أقبلت أم النهار وزوجها عبسان ، وجرى العناق وأخذت ليمونة تسأل عن الأم والاخوة والأخوات ، والرجل عمران يخبرها ويطمئنها ، ثم تحول الحديث بين عمران وعبسان ، ثم نهض عبسان لشواء الصيد من أرانب البر ، وعلى رائحة الشواء سمع عمران قصة الغالية ، وأنها فتاة من بلاد الرايات كانت تتمرن على جواد جديد ، فجمح بها وهرب بها إلى الصحراء وطرحها واختفى حتى وجدها عبسان وليمونة ، وقاما بمداواتها والعناية بها حتى تماثلت للشفاء وقنعت بالحياة الهادئة معهما .

رجال الجبل

ترك كلب الليل واخوته وأولاد اخوته الجبل على أثر فشل خطف ملك بلاد الرايات ، وبعد مسير طويل تشاور كلب الليل ومن لحق به فاتفقوا على اللجوء لدى الملك بهراما، وهو صديق للغضبان ، وكان ذلك الملك يستعين به للفتك بخصومه ، فبينهم معرفة قديمة ، فساروا إليه على رأسهم غزالة ابنة وعل الجبل ـ المقتول في معارك الملك جعلان ووزيره شمعار ـ لطلب الحماية من مطاردة الملك قيس وتحالفه مع الملوك عليهم ، وكان بهراما شابا لم يبلغ الأربعين بعد

وكان يعشق النساء والجميلات ويحب الفواحش والموبقات ، فمن أول نظرة ألقاها على غزالة وقع في هواها ، وقبل أن تتكلم أدركت الصبية ذلك فاستغلت ذلك على الفور ، فأظهرت له ضعفهم ، وأنهم مطلوبون ومطاردون ، وأنهم بحاجة لحمايته ، ولبعد مملكته عن وادي السرحان فلم يحدث أن سطى هؤلاء على بلاده عدا صداقته للغضبان ، ومن حسن حظهم أن قوافل بلاد بهراما أيضا لا تمر قرب وادي السرحان وجبل السرحان ، فلم يحدث بينهم احتكاك عدائي ، فقبل الملك حمايتهم والدفاع عنهم ، وسيسمح لهم بالنزول في أطراف بلاده إذا وافقت ورضيت غزالة بالزواج منه ، فلما تشاورت مع اخوتها أولاد وعل الجبل وعمها كلب الليل قالوا : الأمر لك .. إن وافقت فنحن موافقون .

ولما اجتمعت بالملك مرة أخرى أبدت موافقتها على شرط أن لا يتزوج عليها ، ولا يبقي امرأة عنده غيرها ، وإذا تزوج من امرأة غيرها فيلزمه طلاقها ، فلما وافق بهراما المهووس بالنساء والصبايا على شروطها حصل النكاح ، وشهده الشهود ، وهجر نساءه الأخريات ، واحتفل الملك بزواجه من حفيدة الغضبان ، وأنزلها قصرا من قصوره الكثيرة ، ونزل قومها في منازل وخيم في طرف المدينة ، ووعدهم بالحماية وحذرهم من الغدر والسرقة في بلاده .

فلما أتته رسالة الملك قيس سخر منها ومزقها، ولم يكترث بها ، وغرق بغرامه وعشقه.. وأما زوابع فلما رأى تفرق رجال الجبل ولم يبق معه وحوله إلا رجاله ، وعددهم ما يقارب الثلاثمائة سوى نسائهم وأطفالهم فشعر بالضعف والهوان ، فهمس لنفسه : كيف كنت أحلم بأن أجعل هذا الجبل مملكة كبيرة ؟ ! وأن ندع اللصوصية والنهب وقطع الطرق والتعرض للقوافل والتجار .. ولكني فشلت في الوصول للملك .. سأتبع أبا هند فهو خير من كلب الليل اللعين ولما لحق بأبي هند وجماعته ، طلب منه أبو هند الابتعاد عنه ؛ لأنه هو طلبة الملك قيس فصرخ فيه من أعماق فؤاده : يا جبناء !.. قيس لا يعلم أنني أنا الذي دبرت المكيدة !

فقال أبو هند: هذا لا يهم .. ابتعد عنا .

فهام زوابع ورجاله على وجوههم بين الوديان والجبال والصحراء حتى ابتعدوا كثيرا عن وادي

السرحان .. وكان يقول لأحد رجاله المسمى ريحان : أترى يا ريحان ما حل بنا ؟.. إنهم جبناء ضغفاء.. لا أدري لما يخشانا الناس ؟!

فرد ريحان قائلا : نحن قساة على الضعفاء والبسطاء ! وعندما نصل للسادة والأكابر يظهر تمزقنا وضعفنا وجبننا .. فلننزل هذه الغابة ونأوي إليها ، فلا أظن أن فرسان الرايات يصلون إلى هنا لنا أكثر من عشرة أيام نقطع القفار والبوادي والوديان.

فتنهد زوابع الغاضب الناقم وقال : إنني أتمزق من الداخل يا ريحان ..إنني أكاد أن أتفجر من الغيظ .. زوابع المخيف يهرب كما يهرب الفأر من القط أو الثعلب الماكر من الكلب الصغير .. أين الشجاعة ؟! لعنة الله عليك يا غضبان .. قتلتني حيا وميتا .. اللعين كان يقول لي : أنت نقمتي .. لقد انتقمت بك من أناس.. فحرمتك من أمك وأبيك وجعلتك مجرما ذا قلب حجري مات اللعين ولم يذكر لي اسم أمي .. أخبرني اللعين أنه خطفني لينتقم من ضحاياه .. لا أدري يا ريحان لماذا أفكر بأمي الآن ؟ !.. هل اقترب الموت ؟ أم اللقاء بهذه الأم المفجوعة ؟ ..آه .. اللعين لم يخبرني ماذا صنعت له أمي ، وهو المجرم العتيد لينتقم منها ؟ إنني نقمة من نقمات الغضبان فهلك اللعين وتركني ضائعا تائها في هذه الوديان والجبال والغابات كان أولاده الجبناء يكرهونني بشدة ، ولولا أنه لا يريد قتلي لقتلونني قبل أن أشب ، ولكني شببت وركبت الخيل فأصبحت وحشا فارسا ماهرا رغم أنفهم .

فقال ريحان بذهول واضح : ألم تكن تحب الملك الغضبان ؟!

هاج زوابع ورد بعنف وحقد : لا .. لا .. كيف أحب قاتلي ؟!.. ولكني وجدت نفسي في جبل اللصوص جبل الموت .. خطفني وأنا طفل صغير ، حرمني من حضن أمي وأبي ، انتقم بي منهم فرضعت الإجرام والقسوة منه وفي جبله .

أحس ريحان المجرم القاسي بالحزن والشفقة على سيده أمير الفرسان وقال معبرا

عن ذلك : إنك مأساة إذن يا صاحبي !

فقال زوابع : لقد منعني أن أعرف الحقيقة . . عندما كنت أسأله عن أمي ، كان يحبسني ويعذبني

ويقول : هذا سر لن أبوح لك به ، ولن أقتلك سأجعل منك نقمة سيفا أسله للثأر .. ممن يريد أن ينتقم ؟! لا أحد يعرف من أين اختطفني ؟! من أي البلاد أتى بي ؟؟ فكان عليّ أن أصير قاسيا مجرما لا أهاب المنية ، ولا أخشى أحدا .. فأصبحت سيد الفرسان وأميرهم رغم أنفه .. ملتصق به لأعرف سره وسري .. فلا سر ، مات فجأة قبل أن يتكلم ، لم يحاول أن يتكلم ..آه يا ريحان !!

فقال ريحان : إنك سيد الفرسان وأمير الفرسان ، وكنت سيد الجبل بلا منازع ، بل كنا نرى الرعب في عيني الغضبان منك ومن صوتك الشديد القوي .

فقال : كان يخشى أن أتمرد وأثور وأقتله فجأة .. ولكنه كان يعلم أنني لا أستطيع ذلك قبل معرفة السر الدفين بين جوانحه ، وها هو هلك قبل أن يتفوه به .. وها هو الجبل يتمزق يتشتت يا ريحان الشجاع .. قل لي ما العمل ؟!

فقال ريحان : لا شيء أيها الفارس .. علينا أن نرقد بضع ساعات ونصبر حتى ينسحب رجال الرايات عن الجبل .. فنعود إليه ، ولا نسمح لأحد من اللصوص في دخوله إلا تحت طاعتنا وحدنا .. لا يبقى إلا لرجالنا وأصحابنا هذا رأيي يا سيد الفرسان !.. ونمنع كل من خذلنا من الحياة فيه .

فقال زوابع : قول طيب .. فلنرقد ونستوطن هذه الغابة ونختبئ فيها إلى حين

أمر ريحان الرجال والنساء ببناء الخيام في هذه الغابة والحياة فيها حتى ينصرف رجال الملك قيس إلى بلادهم ، ورتب ريحان الحراسات حول الخيام والمعسكر ، وأخذ يرتب لإرسال الجواسيس إلى الجبل والعودة بأخبار الجبل .

هذا ما كان من زوابع و كلب الليل ورجال الجبل ، فقد تفرقوا أيدي سبأ ، كل زعيم وجماعته في ناحية .

هوى عبسان

مضت سنة قد تزيد عشرات الأيام على محاولة قتل الملك قيس بن خصيب ، وقد ذهل زوابع ورجاله لما علموا ببقاء الجيش في وادي السرحان ، وهم يشيدون قلعة ضخمة لنزول الفرسان فبدا لهم أنه من الصعب العودة إلى الجبل .. ، وكلب الليل صدم لما علم بالفكرة أيضا ، وسعى لإقناع غزالة ابنة أخيه بإغراء الملك بهراما على تدمير القلعة قبل أن تتم فرفض وزير بهراما الأمر وقال للملك : نحن نحمي القوم ، أما أن نذهب ونقاتل في مكان بعيد فهذا خطر على جندنا وبلادنا .

فلم تفلح غزالة بإقناع الملك بهراما في الغزو والقتال نيابة عن قومها ، فقد وجدته زير نساء ولهو فهو غير مهتم بالحرب والقتال ، فأحست بالندم على الاقتران به ، وفكرت بالهرب منه ، ولكن يذكرها قومها بحمايته لهم من جنود الأمير صقر بن غراب ، وأن الملك قيس ما زال يرغب بسفك دمهم وإذلالهم ، والحدث الأهم حدث في جوف الصحراء حيث استقرت الأميرة جميلة في خيمة عبسان وليمونة .. انطلق عبسان يوما للصيد وأبعد النجعة مم أثار الخوف عند المرأتين وجاء عند غروب اليوم التالي وهو يركب على ناقة .. وكن يعتقدن للوهلة الأولى أن القادم هو عمران أخو ليمونة .. فلما أناخ جمله ونزل فإذا هو عبسان ففرحن بعودته وعادت النضارة لوجوههن .. والأعجب من ذلك أنهن وجدناه مسرورا وفرحا على غير العادة ، ولما انتهى العتاب من ليمونة قالت : ما هذا الفرح الذي رسم على محياك ؟!

فقال : ابشري يا ليمونة ! .. خلاص انتهى اختفاؤنا ، سنعود للمدينة أو القرية .. فلقد زرت أحد الرجال ، فأخبرني بخبر سرني رغم حزني من الخبر ، ولا خوف على حياتي بعد اليوم ، فمضيت لمدينتنا وأتيت بناقة عمران..سنرحل .. سنرحل صباحا بعون الله .

فهتفت ليمونة : ما الأمر أيها السيد ؟ لم أفهم شيئا ؟!

فقال بفرح : لقد مات أعز الأصدقاء .. مات الغضبان يا ليمونة!

فقالت بدهشة وهي تحملق بزوجها : مات الغضبان !! .. الملك مات !

فقال بفرحه : أجل !!.. أجل فقد مات منذ أكثر من سنة ، مات ملكنا السابق يا ليمونة .. مات صديقي العزيز !.. إيه مات بعد فقده بصره ، وبعد مقتل ابنه وعل الجبل .. فلنفرح في هذه الليلة الأخيرة لنا في الصحراء ونودع الصحراء والأرانب .. مالك صامتة يا غالية ؟ ألا ترغبين بالسير معنا للمدينة ؟! سأزوجك من أجمل رجالها وخير رجالها .. تكلمي يا بنيتي ؟!

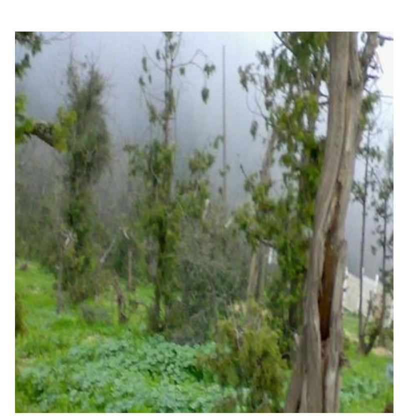
فقالت : يا أبتاه .. ماذا أقول ؟؟ إنني سعيدة بسعادتكم ؛ ولكني لم أفهم شيئا من كلامكم .. ومن الغضبان هذا الذي هو من أعز أصدقائك ؟! وهو سبب فرحك اليوم .. فهل موته يفرح لهذه الدرجة وهو صديقك؟!

تنهد عبسان وقال : أجل..أجل أيتها الفتاة الطيبة !.. سأحدثك الليلة ونحن نودع هذه الصحراء الجرداء بكل قصتي .. ستعرفين الأسرار التي كنت تحاولين معرفتها .. ستعرفين لماذا سكن أبوك عبسان في هذه الصحراء منذ سنوات وانقطع عن الخلق ؟ .. ستعرفين لماذا لم أحب أن أصارحك بأسراري وقصتي ؟ .. ستعرفين لماذا قبلت الحياة في هذه الصحراء ، وأنا الرجل المرعب الذي كانت نساء قريتي تخوف أولادهن به ؟.. ستعرفين كل ما أحببت أن تعرفيه عن سبب ابتعادنا عن الناس والبشر ..كل ذلك ستعرفينه بعد الطعام ، ستسمعين أنت وليمونة الكلام .. ليمونة امرأة صالحة ووفية رضيت بهذه الحياة ؛ لأنها اختارت عبسان وأحبت عبسان كنت شابا صغيرا لم أبلغ العشرين عندما التقيت بليمونة ، فخفق قلبي عندما رأيتها أول مرة عرفت الهوى والعشق ، وبادلتني هذا الهوى والغرام .. هي ابنة أسرة كبيرة في بلدة سبع عدسات ، عرف الناس بحبنا ، وانتشر بين الأهالي حبنا وغرامنا..أهلها رفضوا زواجنا، فكيف يقبل أبناء الأسر الثرية ابن الناس البسطاء ؟! لم نكن فقراء ؛ ولكننا لم نكن من أبناء الأسر التي تجلس مع الأمراء والملوك في السبع عدسات .. غضب أهلها لهذا الحب ضربوا الفتاة الصغيرة حسناء الحي وأتوا بزوج لها يا غالية .. في ليلة العرس طعنته بخنجري فأرديته قتيلا .. هربت إلى الجبال والكهوف القريبة من البلدة ..هناك وفي إحدى المغارات التقيت بشاب هارب مثلي مبتلى بدم إنسان من أهله .. تصادقنا وتعاهدنا على المحافظة على بعض .. هذا الفتى الشجاع

الهارب اسمه عشم فأخذنا نسلب المارة وندع لهم حياتهم .. نريد أن نعيش .. ندخل المدن لشراء الطعام ، ونعود للحياة في الجبال والأودية بين الكلاب والضباع والوحش ، ثم التقينا بمطاريد مثلنا ، فكونا نواة عصابة نحمي بعضا ونود بعضنا ، فبعضنا قد قتل، وبعضنا حاول القتل ولم ينجح ؛ ولكنه نجا بروحه ، كلنا متهمون ، كلنا أصحاب جريمة وحقد على مدننا وقرانا .. كنت أتسلل للسبع عدسات لأرى محبوبتي ليمونة.. كانت على العهد ، كانت تبذل كل جهد لتراني رغم الحصار المشدد عليها وعلى حركاتها.. ثم علمت أن زوجا جديدا قد تقدم إليها .. ولما كانت ليلة العرس صرعته وأعدمته الحياة ، أصبحت وحشا يا غالية لا تخافي مني خاف الناس من الزواج من ليمونة .. أقاربها هابوا الموت .. مات والد ليمونة يا غالية .. وبعد ذلك استسلم اخوة ليمونة لزواجي منها ، فطلبوا منها أن ترسل لي بموافقتهم ، ولما تأكدت من عدم المكيدة والكيد منهم اتفقت معهم ، وكان الزواج ، وفي ليلة العرس دخلت المدينة ومعي بعض الأصحاب وعلى رأسهم عشم صديقي ورئيس عصبتنا .. سكنت بها في الجبل ، جعلنا من أحد الكهوف عش الزواج ، سعدت بها وسعدت بي ، كانت تحبني وأنا كذلك وهكذا كان وكثرت غاراتنا على المدن وكثر مطاردينا ، فرحلنا لوادي السرحان وجبل ضراب ، وجدنا كثيرا من العصابات تقطن المكان ؛ ولكنّ عشما بوحشيته وقسوته المفرطة سيطر بعد حين على المنطقة كلها ، وأصبح الزعيم المهاب ، فأنشأ له قصرا ، وكبرت العصابة وكثر رجالها ونساؤها .. فأصبحت قرية .. وكنت من كبار أعوان الزعيم عشم الذي سمى نفسه بالملك الغضبان .. وكان غضبه على رجل من رجال الجبل يعني هلاكه وموته ، زادت أموالنا ودوابنا ، وكدنا نصدق أننا أصبحنا مملكة ؛ ولكن أعدادنا لم تتجاوز الألف رجل .. ثم كان حدث كبير في الجبال .. لقد علم الغضبان أن أميرة .. أميرة حقيقية محبوسة في الجبال عند أحد زعماء العصابات في الجبل الزعيم أبي الليل ذهبنا أنا والغضبان وبعض الرجال إلى مكان أبي الليل ورأى الغضبان الأميرة التي لجئت إليه وطلبت حمايته ، وهذه الأميرة كانت محبوسة بإسم قريب لها صديقا لأبي الليل ، وقد أتى بها الأمير هذا خوفا من زواجها من أمير غيره .. المهم أن

الغضبان عرض الزواج عليها فقبلت ووافقت ؛ ولكنها طلبت مهرا لها عجيبا عنا وعلينا ، وهذا المهر كان فرسا وسيفا لأحد ملوك بلاد الرايات التي ذكرت لنا أنك خرجت منها يا غالية .

فقالت الغالية : بلاد الرايات .. نعم إنها مسقط رأسي ومولدي .. أكمل يا أبا النهار إنني مصغية إليك بشغف وقوة .



فتابع أبو النهار كلامه ، وهو يعجب لشجاعتها وعدم رعبها منه رغم مصراحتها بأنه مجرم وسفاح وقاتل ، فتابع الكلام قائلا : لهذه الأميرة قصة لابد من سردها ، فهذه الأميرة لها قريب يحبها ، وكان يأمل بالاقتران بها ؛ ولكن سبقه إليها ابن ملك بلاد الرايات ؛ فاضطر لخطفها وأتى بها خدعة لأصحابه في وادي السرحان ، وكان والدها الملك قد طلب لها مهرا من الملك خصيب بن مرار صاحب بلاد الرايات ، وهذا المهر فرس أصيلة وذات قيمة كبيرة بين الملوك تسمى دموع ، وسيف يقال له سيف الفردوس يقال إنه من ملك الصين ، وافق الملك مرار على التنازل عن هذين الشيئين ، ولكن لما اختفت الأميرة أعاد والد الأميرة المخطوفة الفرس والسيف للملك خصيب .. فلما وافقت الأميرة على الزواج من الغضبان طلبت المهر السيف والفرس ، فوافق الغضبان وأرسل من يأتيه بهما ، فهلك الرجال أو أسروا ، وعرف الملك خصيب سرهم وحاجتهم ، وكرر الغضبان العنيد المحاولة وفشلت ، وفكر بغزو تلك المدينة ؛ ولكن رجالنا لم يكونوا بتلك الكثرة ، وأيضا بلاد الرايات تحتاج من المسير عشرة أيام من وادي السرحان ، وبينما نحن نفكر بالانتقام غزانا الأمير صقر ابن الوزير غراب بن عقاب وزير الملك خصيب فنحن في الجبل لا نستطيع مقاومة ومحاربة الجيوش القوية ، فأخلينا الجبل ، أثناء ذلك كان الأمير قيس الذي طلبها قبل قريبها قد تسلل إلى الوادي ، واستطاع أن يصل للأميرة التي يرغب بالزواج منها ، واستطاع

إنقاذها وعاد بها إلى بلاد الرايات ، وكانت بلاد الأميرة على اثر حادثة خطفها قد انقلبت على الملك جعد بن همام فتركها هاربا لخصومه ، ومات من الغيظ والقهر ، فلما علمت الأميرة الناجية ذلك حقدت على قومها وأخوالها ، وتزوجت من الأمير قيس الذي أنشأ لها مدينة صغيرة سماها على اسمها مدينة سُلمى وحشد لها قوات وجندا عدة سنوات ، ولما اكتمل الإعداد تحركوا نحو بلاد أبي كبشة لتحريرها من نحاس وأعوانه ، وكانت الأميرة سُلمى قد أنجبت للأمير قيس عدة أبناء ، وأثناء حربهم مع بلاد أبي كبشة – وهذا المهم في قصتي اليوم – صمم الملك الغضبان على الانتقام من الأميرة وزوجها ، فنزلت أنا وإياه إلى مدينة سُلمى وأثناء انشغال القوم بالحرب نصبنا كمينا ومكيدة لخطف ابن الأميرة سُلمى ، وفي غفلة من الحرس والخادمة خطفنا فتى صغيرا قدرنا عمره بثلاث سنوات أو أربع ، وهربنا به إلى الجبل ووادي السرحان – ونحن أكثر من محاولة للأنتقام بذلنا ، وتهيأت لنا الفرصة خلال حربهم – ولم يعرف سر هذا الغلام المسروق إلا أنا ، أي أعرف من هو أبوه وأمه ؟ .. والقوم في الجبل ظنوا أنا قتلنا أهله وأشفقنا عليه فأتينا به الجبل ، إذن انتقم الغضبان من والديه ، كان يريد أن يجعل من الأمير الصغير مجرما شرسا عنيدا فسماه زوابع ، وكبر الغلام وتوحش ؛ ولكنه كان يسأل عن أهله ، والغضبان يصارحه أنه خطفه لينتقم به منهم ، وخشي الغضبان صديق العمر أن أكشف السر أو يعرف الشاب أنني أعرف السر ، فصارحني قائلا : يا عبسان أنت صديقي وصديق العمر ، ومن بداية الدرب وأنا أحبك ، ولا أريد أن أخسرك ؛ ولكنك الوحيد الذي يعرف سر هذا الربيب ، وأنا لا أريد أن يعرف ، ولا أريد أن أغدر بك ؛ ولكنك شوكة في حلقي فاختفِ من حياتي ، ولا أريد أن أعرف المكان الذي تختفي فيه .. لقد كان تهديدا واضحا وصريحا فحملت زوجتي ليمونة وأتيت إلى هذه الصحراء منذ سنوات وسنوات ، ولم يكن يعرف مكاني أيتها الحسناء الشجاعة إلا أخو هذه المرأة عمران .. ابتعدت عن المدن والقرى خوفا من غدر الصديق القديم عشم ، وفي خروجي الأخير طرقت أحد الأصدقاء القدامى ، فأخبرني بهلكة الغضبان وموته ، فأتيت إليكم مسرعا لأخرجكم من هذه الصحراء القاحلة ومن الخوف

والموت ، فهذه قصتي وأسباب حياتي في هذه الصحراء يا ليمونة ويا غالية ، فغدا بمشيئة الله سنرحل إلى قرية قريبة من السبع عدسات نقترب من الأهل رويدا رويدا .

كانت الأميرة جميلة ذكية وفطنة رغم تلون وجهها أثناء سماع الكلام وتساقط الدموع بين الحين والآخر وهي تسمع القصة ، فقد أدركت أنها قصة أمها وأبيها الملك وأخيها الضائع ، فحمدت الله على حادثة الجواد ، وعلمت أن أخاها الضائع يحيا مع رجال الجبل ، ويحمل اسم زوابع ، وهو مجرم عتيد ، علمت كل ذلك وكتمته في قلبها ، وتمنت لقاء والدها الملك لتحدثه بذلك ، وفجأة سمعت ليمونة تقول لها : أين سرحت يا غالية يا ابنتي ؟!

نظرت إليها وقالت : إنني أفكر بكل ما سمعت من هذه القصص المتشابكة والغريبة .. هل نسيت يا أبتاه بعد كل هذه السنوات في الصحراء العصابة والجريمة ؟!

فقال بحزن : أنا لم أولد مجرما يا فتاتي .. الهوى والحب سبب اندفاعي وارتكابي للجرائم .. لو رحمني أهل ليمونة ما أظن أنني قتلت إنسانا وقتلت ؛ ولكن لا ينفع الندم ، وأنا سكنت الصحراء لأنني لا أريد أن أموت بيد صديق العمر ، وهو لم يشأ الغدر ليبقى السر سرا .. فها أنتم عرفتم كل أسراري ؛ لأنه لم يعد هناك سر ، فقد هلك الغضبان، وأنا لا أفكر بالعودة إلى الجريمة ووكر العصابة، فقد تفرقوا وهربوا ، فالملك قيس قد أرسل لهم من جديد الأمير صقر ليحاربهم ، بل أمر بإنشاء قلعة ضخمة في الجبل ليمنع اللصوص من التجمع ثانية ومن الحياة في وادي السرحان ، فأسأل الله أن يجنبني الجرائم ثانية.. فلننم بضع ساعات لنرحل مع الفجر ، فهذه هي الأسرار التي كنت ترغبين بسماعها يا صغيرتي ! وأعجب أنك لا تخافين رغم معرفتك من عمران أني مجرم عتيد ، وأزهق روح الإنسان كما نزهق روح الطير والحيوان

فقالت الغالية : حق أني عجبت منك لما حدثني عمران عن وحشيتك ؛ ولكن رقة ليمونة وحبها لك كان يثير عجبي أكثر ، فرأيت أن الظروف التي أحاطت بك أيام الصبا ، وطيش الشباب قد دفعا بك للحياة في الجبال مع الوحوش واللصوص ، وقبل أن ترد أيها الرجل الطيب .. أذكر أنك الرجل الذي أنقذ حياتي وعالجني وحفظ شرفي وعفافي ، فما رأيك بأن ترحل وتصحبني

إلى بلاد الرايات ؟ ولسوف يكرمك أهلي غاية الإكرام ، فهم من الأغنياء ، وسيسرون بك وبليمونة، هم بالتأكيد اعتقدوا موتي بعد أن يئسوا بالبحث عني ، عندما أكلم والدي بقصة حياتك سيتعاطف معك ويشفق عليك ويعذرك ويحميك .

أخذ عبسان نفسا عميقا وقال : آه ! كم تشأمت عندما خبرت أنك من بلاد الرايات ! لقد راودتني نفسي والشيطان بطرحك في الصحراء ؛ ولكني رفقت بك وعطف قلبي عليك وقلت إنك مسكينة مثلي ساقتك قدرة الله لهذا المكان .. أعرفت الآن لماذا لم أفكر بالوصول إليها إلى بلاد الرايات ؟ .. لقد شاركت الغضبان في خطف ابن مليكها ، وهي سبب خروجي من الجبل طريدا خفيا في هذه الصحراء .. فماذا سيحل بي لو عرفوا أنني من رجال الجبل ؟

فقالت الغالية : وكيف سيعرفون أنك من رجال الجبل ؟!

فقال : يا بنيتي ..أنا كنت من رجال الغضبان المعروفين والمرافقين له.. والأمير قيس قبل أن يصبح ملكا قد تحايل علينا ودخل الجبل وعاش فيه عدة أشهر ، ولابد أنه رأني برفقة الملك الغضبان ، ولا أظن أنه نسي سحنتي .

فقالت بعد صمت : أيها الرجل الطيب أحب أن أعوضك عما قدمت لي .. فأهلي الآن يعتقدون هلاكي وموتي ، فعندما يرونني حية سينسون ما فعلت مع الملك ، وسيشفعون لك عند مولانا الملك ، بل سيطلبون مساعدتك وإكرامك .. وأرى أن الملك قيس سيطلب مساعدتك في العثور على ولده الضائع الذي أسميتموه زوابع.. أليس كذلك ؟!

فقال : أجل أيتها العزيزة .. عميقة الفكر فطنة والله !.. ولكني أحب الحياة .. وأحب ليمونة

فقالت : أنت تريد أن تسكن بطرف مدينة السبع عدسات على أمل الاقتراب من المدينة، وتأكد أنني بعدما عشت كل هذه المدة معكم وفي رعايتكم فلن أغدر بكم ، وهذا عهد أقطعه على نفسي فسأدع أبي وهو من الأكابر أن يتشفع لك عند الملك ؛ فإن قبل الشفاعة أظهرتك ، وإن رفضوا فضلك سأخبرك بذلك ، وأدعك تبتعد ولن أنساك أبدا .. وإذا خشيت من غدرهم سأقتل نفسي قبل أن تقتل .. أريد لك السعادة والحياة الهادئة والبعد عن الجريمة والقتل والغدر

أخذ عبسان الرجل المجرم بالبكاء كالأطفال ، وهو يسمع كلام الأميرة وحنوها وشفقتها عليه وكانت زوجته الصامتة طول مدة هذا الحوار تشاركه الشهيق والزفير والدموع ، فلما اكتفى من البكاء ، وألقى المزيد من الحطب على الموقد نظر في عيني الأميرة على وهج النار وقال : يا غالية بالذي خلقك ابنة مَن مِن السادة في بلاد الرايات ؟!

فابتسمت الأميرة له ابتسامة رقيقة وقالت : أتسير معي إذا ذكرت لك اسم والدي ؟ وتثق بي وأنني مثل ابنتك كما عشنا خلال هذه الشهور الماضيات .

فقال: سأثق بك ! فأنا واثق بك أصلا ؛ ولكن لي حسابات قديمة في بلادالرايات ، وسأسير معك إذا كنت ممن يعرفون والدك وثقله ومكانته عند الملك قيس

فهمست بصوت هادئ : أنا ابنة الملك قيسيا أبي!

فغرعبسان فاه دهشا،وقال بدهشة غير المصدق وهو يقف : الله !! أيعقل هذا ؟! ابنة الملك تعيش سنة في هذه الصحراء وهذه الخيمة الخرقاء !

فقالت : أنا جميلة ابنة الملك قيس والملكة سُلمى .. الأميرة التي سكنت في جبل السرحان بين عتاة المجرمين ، وأنا اليوم أخت الأمير زوابع الذي خطفه ملكك الغضبان ، واعلم يا عبسان أنا إذا أمنتك فلن يمسك أحد بسوء ، وتأكد أن والدي لا ينسى المعروف والخير رغم ما فعلته بنا.. وما أنت إلا رجل من رجال الغضبان تسير بأمره وتعمل بأمره .

فعاد عبسان للجلوس ثانية وهو مازال يحدق النظر في الفتاة الشجاعة ويهمس قائلا : ابنة الملك قيس.. أمعقول هذا ؟!

فقالت : صدق هذا أيها الرجل ! وإذا وصلنا بلاد الرايات ستتأكد من ذلك ، وأقسم لك قسما عظيما إنني لن أغدر بك أو أسلمك للجلاد ، بل نحن بحاجة إليك ولحياتك لنصل لـزوابع ليعرف الحقيقة ليعرف أمه وأباه ، وقد ساقتني حكمة الله الجليلة إلى صحرائك؛ لنعرف هذه الحقيقة ، ونـنـقذ أخي من العالم الذي يعيش فيه ، نحن بحاجة إليك يا عبسان تعاون معنا يا أبي الطيب ! وستبتسم لك الدنيا وتنعم بالحياة الطيبة مع ليمونة .

كانت ليمونة مذهولة هي الأخرى من المفاجأة !

فقال عبسان : لم يبق لي كلام .. وكما قلت قدرة الله قد جمعت بيننا في هذه الصحراء لإنقاذ الأمير زوابع ما اسمه الحقيقي ؟!

فقالت برنة حزينة : الأمير سيف الزمان بن الملك قيس أيها الرجل! فرغم قسوة الفراق والجريمة فستكون ساعة اللقاء جميلة ومنسية للماضي وغمه وجرحه

فقال عبسان مستسلما : مع الفجر يا ابنة الكرام سنتحرك إلى بلاد الرايات ، ومهما حصل لي فأنا أستحق ذلك ؛ ولكن وصيتي إليك يا جميلة .. ليمونة ، فهي وحيدة في هذه الدنيا ، لا أهل لها ولا إخوة ، وعمران هذا إذا هلكت أمها فلن تراه أبدا ، وصيتي إليك ليمونة إن لم يقبل والدك الملك العفو عني .

فقالت : ويحك !.. أتظن أن الملك قيس شهيته الانتقام والثأر .. لا .. إن لم يعفو عنك سأموت معك يا عبسان .

فقال : إنني واثق منك ، ومن شجاعتك ، فكلما أراك تصطادين الأرانب والحبارى والقطا كنت أظن أنك رجل متنكر لولا تأكيد زوجتي لي أنك أنثى مثلها .

ضحكت جميلة حتى بدت أسنانها وقالت : أبي يحب الفروسية والصيد ، وكان يحب منا أن نكون فرسانا ومقاتلين ، فاعتنى بنا وأمر بتدريبنا ، وقد رافقته كثيرا إلى القنص .. فوالدي مغرم بالصيد من قبل أن يصبح ملكا ، بل تعرف على أمي الأميرة سُلمى الملكة فيما بعد في رحلة صيد بوادي الثعالب .. فلنرقد أيها الرجل الطيب ، ولسوف ترى من أبي الملك ما يسرك ولا يضيع المعروف عندنا .

المسافة بين صحراء عبسان وبلاد الرايات تحتاج مسيرة يوم أو أقل بقليل من الساعات وتحركوا مع بواكير الفجر ، فركبت المرأتان الجمل ، وركب عبسان الحمار ، وساقوا الغنيمات ، وبعد مسير مضن في حر الصحراء وبردها اقتربوا من بلاد الرايات ، ومع ظهور الصباح مشوا نحو المدينة ، وكل غارق في خواطره ، ومع الظهيرة وصلوا أحد أبواب المدينة ، ولما شاهد أمير الباب

الأميرة جميلة ، لم يصدق ما تراه عيناه فهتف مدهوشا : الأميرة جميلة ابنة الملك بعد كل هذه الأيام ؟!

فقالت باسمة: أجل ، وأسرع الآن وأخبر مولاك الملك بعودتي .

فركب الجواد مسرعا نحو القصر ، ولما رأى عبسان ذلك هم بتقبيل يدي الأميرة يبدو أن الشك قد زال من نفسه بصدق الفتاة ، فذعرت جميلة لهذه الحركة وسحبت يدها عجلة وقالت : لا تفعل أيها العم والأب العزيز .. أنا مدينة لك بحياتي أيها الرجل الطيب !

فقبلها من رأسها وقال: بل أنا مدين لك من اليوم .

وتقدمت جميلة وليمونة ويتبعهما عبسان على حماره وبين يديه الغنيمات .. تفاجأ أهل ديوان الملك بما يسمعون ، ودهش الوزير عقاب ، ودخل على الملك سريعا فأسر إليه بما قاله أمير الباب ، فصعق الملك ونهض مسرعا ، وخرجوا نحو الباب المذكور ، وأدركوا الأميرة في منتصف الطريق ، فنزل الملك عن حصانه الأدهم واعتنق الأميرة ، وهو لا يكاد يصدق ما ترى عيناه من حياة ابنته، وكان عبسان دهشا مذهولا للغاية مما يرى، ومن حب الملك ولهفته ، ومن صدق الفتاة وتواضعها معه في الصحراء ، ولم تحاول الظهور بأنها ابنة ملك عظيم وحفيدة الملك خصيب صاحب الصيت العظيم والمعروف ، وعبسان يعرف قيس حق المعرفة عندما عاشرهم فترة في وادي السرحان ، وتقدم الملك إلى عبسان المدهوش الحائر يصافحه ويباركه ويشكره على مساعدة ابنته في تلك الصحراء ، فتقدم الرجل الكهل يريد تقبيل يدي الملك ، وهو يبدي احترامه له وللأميرة ، وفعلت ليمونة المذهولة كما فعل زوجها ، فشكرها الملك ورحب بهم أجلّ ترحيب وألطفه ، وبينما القوم فرحين بعودة الأميرة سائرين لقصر الملك أقبل كثير من أهل المدينة يشاهدون عودة الأميرة التي يئسوا من حياتها ويرحبون بها ، وأمر الملك قيس بالأفراح والصدقات وفتح موائد الطعام للعامة والخاصة ، وأقبلت العواتق من خدروهن يسلمن على صديقتهن الجميلة جميلة ، وكان يوما كبيرا في بلاد الرايات ، وأرسل الملك قيس رسولا إلى بلاد الأكباش لإخبار الملكة سُلمى والملك مرعي بعودة ونجاة وحياة الأميرة جميلة

وكان الملك قد أمر بإنزال عبسان وزوجته في قصر الأقواس أحب القصور إليه وأمر بإكرامهم غاية الإكرام .

وسر وفرح أهل المدينة بحياة الأميرة ، وأحضر عبسان لقصر وديوان الحكم ، وقدم له الجميع التحية والشكر والهدايا ، ولما انتهى الناس من الفرح بعودة الأميرة جميلة سألها والدها : لماذا لم ترسليه إلينا يخبرنا بحياتك ونجاتك ؛ لنرسل إليك الخيل والجمال والرجال ؟

فقالت : هو لم يعرف أنني ابنة ملك إلا منذ ليلة مضت ، ولو طلبت منه ذلك لم يفعل .. وكنت في صحراء مخيفة فخشيت أن أكشف أمري له من أول يوم ؛ لإصابتي بالكسر أولا ولغموضه فقلت لنفسي لا يسكن مقطوعا عن الناس إلا رجل متهم أو هارب .. ألم تعرفه يا أبي ؟ ! فهو يعرفك .. فهذا وجه قد مر عليك

فقال قيس وهو يفكر ويتذكر : خيل لي ذلك .. ولكن لا أذكر اليوم شيئا .. فذكريني .

فقصت الأميرة على والدها قصة عبسان ، ولم ذكرت حياة أخيها كاد الملك أن يصيح من الفرح والبشارة وهتف قائلا : سيف حي .. سيف حي ! ما أعظمك يا رب الأرض والسماء ! رب ضارة نافعة ؛ ولكن للأسف والخسارة إنه يعيش مع المجرمين ، بل أراد قتلي زوابع هذا ، أتذكرين فارس الغابة يا جميلة ؟!

فتذكرت جميلة فارس الغابة فهتفت : أتعني أن ذاك الفارس كان أخي.. يا الله !! صدق يا أبي أنني لما شاهدته في ذلك اليوم خفق فؤادي لرؤيته ، وخشيت على نفسي من العشق والغرام الذي يتحدثون عنه ولما عرفت أنه مجرم ارتاحت نفسي إنه أخي سنبحث عنه يا أبي .

لقاء زوابع

رغم الغضب الذي أصاب الملك لما عرف شخصية عبسان ودوره في خطف ولده البكر ، وتذكره أنه رآه في وادي السرحان ضمن حاشية الغضبان ، مع كل ذلك غلب معروفه بالمحافظة على حياة ابنته وعفتها على سيئاته ، وبما أنه ذو قلب كبير فنسي كل الآلام التي سببها له ، وحمل الغضبان كل ذلك ، وعفا وصفح عنه، اكراما لابنته وتعهدها بحفظ حياته ومكافأة لمعروفه

معها ، وأبقاه حيث هو ، وطلب منه عدم محاولة الهرب ، وأنه آمن على حياته ، وأعلمه أنه ضيف الملك ، وأن وجوده مهم في البلاد حتى يأتوا بـزوابع أمير اللصوص ؛ ليسمع منه القصة ويصدق أنهم أهله،وبعد ذلك فهو بالخيار إن شاء البقاء في بلاد الرايات فله ذلك وعلى الرحب والسعة ، وإن شاء العودة لبلده فالملك سيتشفع له عند ملك تلك البلاد ، فسر عبسان غاية السرور بعفو الملك عنه ، وتعهد للملك قيس بالبقاء حتى يلتقي بولده المخطوف ، بل أبدى استعداده للبحث عنه .. وفرح عبسان بعطف الأميرة جميلة عليه وعلى زوجته ولكثرة ترددها عليهم وتفقد أحوالهم في قصر الأقواس .. القصر المحبب على قلب والدها الملك قيس .

وكان عبسان عندما فارق الصحراء قد كتب على شجيرة قريبة من الخيمة رسالة لعمران لأنه عندما استعار منه الناقة أخبره بأنه سينزل المدينة أو أطرافها ، ولما تغيرت وجهة نظره بعدما أباح بسره إلى الغالية، وعرف من هي الغالية ؟ فكتب رسالة قصيرة على الشجرة التي كان قد زرعها قرب الخيمة ، وفعلا لما تأخر عبسان قلق عليه عمران ، وأرسلته أمه إلى الصحراء ، فأتى المكان ووجد الخيمة فارغة ، ودار حول المكان عدة مرات ، فلم يجد لهم نارا وأثرا ، ولم يجد قرب الماء والثياب ، فأدرك أنهم رحلوا ، ثم رأى الخنجر مغروزا بالشجرة ، فعجب من ذلك وسار نحوه ، ولما أراد نزعه لمح الكتابة على جذع الشجرة نحن مشينا نحو بلاد الرايات عند الملك ، نزع الخنجر وفكر طويلا .. بلاد الرايات .. بلاد تلك الفتاة هل أراد أن يوصل تلك الفتاة لأهلها ثم ينكس نحو مدينتنا ؟ ولكن لماذا عند الملك ؟! وما علاقة عبسان بملك بلاد الرايات وبعد تفكير عميق صمم على الرحيل نحو بلاد الرايات وعدم العودة إلى مدينته قبل لقاء أخته وعبسان ، وبعد حين دخل بلاد الرايات ونزل في أحد الخانات ، وسأل صاحب الخان عن عبسان ظانا أنه ربما نزل هذا الخان الكبير مع اعتقاده أيضا أن أحدا لن يعرف عبسان ؛ ولكن ربما صدف وتعرف به صاحب الخان ، وما كاد يسأل عنعبسانويذكر وصفه حتى صاح الرجل صاحب الفندق: الرجل الطيب !!.. إنني أعرفه .. لقد أنقذ حياة أميرتنا المحبوبة . وأخذ بوصفه ، فدهش عمران لمطابقة الوصف لـعبسان فقال : كيف أنقذ أميرتكم ؟!

فقال الرجل : يا هذا قلت لي إن هذا الرجل زوج أختك .. سأرسلك لقصر الأقواس وستسمع القصة منه .. فأميرتنا جميلة فقدت منذ سنة، ولما تعافت أتى بها ذاك الرجل الطيب .. فالفتاة التي عاشت معه في الصحراء هي الأميرة جميلة ابنة الملك قيس بن خصيب .

فقال عمران لنفسه : أوه !! .. الآن عرفت سر الشجاعة والجراءة في تلك الفتاة .. لم أشعر لحظة أنها تخاف من عبسان رغم أنني حدثتها عن إجرامه؛ لتحذر لنفسها ، فقد قابلت ذلك بغير مبالاة ، ولم تحاول طلب أخذها معي ، والآن فهمت أيضا قوله عند الملك .. فقام عمران عندئذ بشكر صاحب الخان ، وهتف وهو ينقلب نحو قصر الأقواس : والله يا عبسان فتحت عليك طاقة السعد !

وسر عبسان وهو يرى عمران صهره ونسيبه ، وتعانق الرجلان وقال عمران مداعبا ختنه : والله هبطت عليك السعادة يا عبسان ! وأصبحت نزيل القصور بدلا من الخيم والكهوف .. هنيئا لك يا أم النهار ..

ولما علمت جميلة بضيف عبسان أتت بنفسها ترحب وتسلم عليه وتحييه ، فأراد أن يقبل يديها احتراما فاعتذرت وقالت ضاحكة: لا يا عمران ! فهل أنسى الأيام التي تسامرت أنا وإياك بها في صحراء عبسان.

فقال عمران : والله يومها عجبت من شجاعتك وثباتك! ولم يدخل الرعب قلبك وأنا أحدثك عن عبسان رغم أنك أنثى ، وتسكنين مع وحش رهيب قتل الإنسان عنده أهون من قتل حشرة ، فاعتقدت يومذاك أن الصحراء هذبته ولينته وحسنت طباعه وأخلاقه رغم وحشتها وقسوتها .

وتذاكرا الصحراء وأيامها ، وصنعت الأميرة وليمة كبيرة للسيد عمران ، وسمع عمران قصة عبسان والأميرة ومجيئهم لبلاد الرايات ، فقال لـعبسان : إنه السعد يا سعيد ، وإذا وجد الملك ابنه الضائع ستصبح من رجال المملكة الكبار يا عبسان .. فالأميرة مسرورة منك وتقدر معروفك وإنها تحب ليمونة الصابرة على هفواتك وعفراتك .

فقالت ليمونة : بل الملكة سُلمى ملكة بلاد أبي كبشة أقبلت بنفسها تشكر عبسان رغم ما فعله بابنها ، بل وهبته عقدا من الجواهر أغناه للأبد ، وكذلك فعل الملك مرعي ، وعجب عبسان لكرم هؤلاء الملوك ، وبكى من عظم كرمهم معه، ومسامحتهم لغلطته الكبرى في خطف الأميرسيف الزمان، ووعدته الملكة بالغنى الأبدي إذا اجتمعت بولدها سيف بعد كل هذه السنوات الطوال .

كانت الأخبار قد وصلت لوادي السرحان والفرسان بعودة الأميرة بنت الملك قيس سالمة فعم السرور القوم ، وانتشر الخبر عندهم أن الملك يريد لقاء المدعو زوابع حيا ، وأنه طليب الملك بل أتت الأميرة جميلة بنفسها لوادي السرحان وجبل ضراب، ورأت البنيان الذي يشيد ، وفرح الجند بوجودها واحتفلوا بنجاتها ، ثم ألقت خطابا فيهم ، وطلبت منهم عدم قتل أي لص يقع بين أيديهم قبل أن تراه ويعرض عليها ، وأن ربيب الغضبان زوابع شخص مطلوب للملك ، ويريده الملك حيا ، ولم تكشف لهم سر اهتمام الملك بشخص زوابع ، وهم فعلوا ذلك خوفا على حياته من غدر اللصوص والمجرمين .

ولما علم زوابع النزيل في الغابة من جواسيسه وعيونه في وادي السرحان ومن أهالي القرى التي تبيع بقولها ولبنها لجنود الملك قيس أنه طليب الملك قيس أدرك وزاد تأكده أن الملك قد عرف دوره الكبير في المكيدة التي دبرها لخطفه أو قتله غيلة، وعجب من قصة نجاة الأميرة التي قلب الدروب باحثا عنها يومذاك ، وقد انطلق يبحث عنها مع رجاله بعدما فشل في اللحاق بها ومطاردتها راكبة الجواد المتمرد ، وعجب من رغبة الملك والأميرة ببقائه حيا ويقول لنفسه : ماذا يعدون لي من الانتقام والعذاب ؟؟

وكان زوابع قد سمح لمن شاء من رجاله بالانفكاك والعودة لبلادهم ومدنهم أو أي قرى بسلام فلم يبـق حوله الكثير ، ونزل الكثير من رجاله القرى ، وقنعوا بحياة الفلاحين والبسطاء ، وأما زوابع فلما وصلته رغبة الملك والأميرة بالحفاظ على حياته قال لريحان : أريد أن ألتقي بهذه الأميرة يا ريحان .. أريد أن أعرف لماذا يريدون لي الحياة ؟!

فيقول ريحان بقلق : أنسيت ماذا فعلت بها عندما أطعمنا الجواد ورد العشب المثير والمهيج ؟ وكيف هرب بها الجواد ونبذها في الصحراء بعد مسير مخيف؟! .. إنها راغبة بالانتقام والثأر

فقال زوابع ضجرا: مللت النوم والكسل منذ هجرنا الجبل ضعف نشاطنا وحركتنا .. أفكر بلقاء الأميرة لترى من أنا، لن أغدر بها، ولن أمسها بسوء ، فقط سأثبت لها أنني أستطيع النيل منها ومن أبيها ، وأنني لا أخشاهم ، وإن كان في ذلك غرور يا ريحان .

فحاول رجاله ثنيه عن هذه المقابلة والمغامرة ؛ ولكن زوابع كما عرفناه يحب الطيش والمغامرات فقد سرق ورد ، وغزا مدينة أبي كبشة وسرق خزائنه ، وغزا كثيرا من المدن والبلاد ، وكاد يفتك بالملك قيس دون رهبة ووجل ، فلما علم أن الأميرة أتت واد السرحان للقبض عليه حيا ومقابلته ، فكر بلقائها وتحديها والاجتماع بها ثم الهرب ، فقال لرجاله : سوف أفكر بحيلة ألقى بها هذه الأميرة المدعوة جميلة ؛ لتعرف من هو الأمير زوابع ؟ أمير فرسان الجبل ، لا تخشوا شيئا على أنفسكم ، ها نحن لنا أكثر من سنة نيام .

بعد أيام يسيرة كان زوابع يضع خطة وحيلة للقاء الأميرة جميلة، وليعرف منها سبب حقدها عليه ورغبتها بلقائه ، وهو الفارس الصنديد ، فطلب من أحد رجاله الذين يترددون على جبل السرحان بصفة فلاحين يبيعون فواكههم وخضارهم للجنود أن يهمس للأميرة بأنه يعرف وكر ومقام زوابع.. واتخذ زوابع وكرا قريبا من جبل السرحان، وفعلا استطاع العين الفلاح العجوز أن يسر للأميرة بسره ، فتمعنت الأميرة بكلامه الخطير وقالت : أحقا أنك تعرف مكان اختفاء زوابع ورجاله ؟!

فقال الفلاح بثبات : أجل يا مولاتي ! إنهم يختفون بكهوف قريبة من قريتنا ، وذات مرة اعترضوني وسألوني عن أخبار الجبل وبناء القلعة ، فسمعت أحدهم – وقد ذكر اسم زوابع بينهم – يقول لآخر : إنه فلاح يبيع ثماره لجنود الملك قيس ، فاخلوا سبيلي ، ولما علمت أنك مهتمة به أحببت أن أسر لك هذا السر من غير أن يعرف أحد أنني كشفت لك سرهم وإلا أهلكوني كما تعلمين ، فهؤلاء قوم لا رحمة ولا شفقة في قلوبهم على بني الإنسان ، ولولا

حاجتهم لبضاعتنا لمابقوا علينا أحياء لليوم .

وأخذ يصف لها المكان الذي يختفون فيه ، فشكرته ووعدته بالجزاء الأوفى ، وقالت : استمر في عملك وبيعك وترددك علينا حتى أفكر بطريقة نصل إليه يا قمريني .

ولما انصرف الفلاح المدعو قمريني ، وركب حماره متظاهرا أنه كان يبيع الأميرة بعض الفواكه الجميلة والطيبة ، سعت الأميرة إلى الأمير صقر وتحدثت معه بشأن زوابع والفلاح .

فقال الأمير : هؤلاء الفلاحون لا يطمئن المرء إلى كلامهم كثيرا ، فهم يعملون مع جميع الأطراف ، ونحن لا نثق بهم كثيرا ، فهم يزرعون البساتين ويقطفون ثمارها لبيعها لنا ، وقد كانوا يبيعونها قبل مجيئنا لرجال الجبل ، وقد ابقوا على حياتهم لحاجتهم لهم ولزروعهم .. فهم يبيعون الزرع ويقبضون قطع المال ، والحذر من تعاونهم مع اللصوص مطلوب أيتها الأميرة

فقالت الأميرة : أنت تعلم أيها الأمير القائد أنني أريد مقابلة الأمير سيف أو زوابع فحتى لو كانت مكيدة منه ؛ فأنا أتيت ساعية للقائه ..

فقال : ولكننا نخشى على حياتك من لحظة غدر وخيانة .

فقالت بثقة وحماس : أنا إذا وصلت لـزوابع أرى أن الأمر انتهى ، فقد تقابلنا قديما في غابة بلاد الرايات - القصة التي تذكرها يوم سرقة الفرس - ولكن أخشى أن أقابل غيره فلذلك سأقبل المسير مع الفلاح لأعرف المكان ، وسيسير خلفي مائة فارس يجب أن لا أغيب عن ناظرهم ، وسيرافقني أيها القائد الكبير أشجع فرسانك ..

فقال : سأختار لك أشجع فرساننا ليرافقك ، ويتبعكم مائه أسرع من الطير في الخافقين ، وسيتبع المائة مئات ، فعسى أن نلتقي بأخيك أيتها الشجاعة ، ولولا ثقة الملك بشجاعتك لما أرسلك إلى هذا المكان المرعب البعيد عن العمران والمدن .

بعد حين أرسلت الأميرة للفلاح قمريني متظاهرة أنها ترغب بشراء ما يحمل من الفواكه ، ولما خلا المكان قالت : أنت حدثتني قبل أيام أنك تعرف مكان اختباء زوابع ورجاله ؛ ليفسدوا في الأرض، كم نحتاج من الوقت للوصول إلى مكانهم ؟

فكر قمريني قليلا وقال : نصف نهار على الأكثر .

فقالت : ألا تخشى أن يروك وأنت معنا ستذهب حملة معك ؟!.

فقال : أنا لن أذهب معك يا مولاتي الأميرة ! سأدلك على المكان ، وأهرب إلى قريتي ، والأفضل أن يذهب عدد قليل من الفرسان ؛ لأنهم إذا شعروا وأحسوا بكم سيختفون ولا يعترضونكم فهؤلاء اللصوص يخافون من الكثرة والجنود

فتظاهرت جميلة بأنها اقتنعت بكلامه وحرصه فقالت بدهاء : سأسير أنا وأحد الفرسان ؛ لنعرف المكان ، ثم نرتب لهم كمينا فيها بعد .. أليس هذا جميلا ؟!

فقال الفلاح بحماس : هذا عين الصواب ! وعندما نقترب من الوادي الذي يختفون فيه سأرشدكم وأختفي أيتها الأميرة ! وخذوا حذركم ، وعندما تفوزين وتتحققين من القبض على زوابع أرجو ألا تنسوا مكافأتي .

فتبسمت الأميرة وقالت : أبشر أيها الشهم .. الآن انصرف ، وعندما تأتي في المرة القادمة سأشترى بضاعتك ونتحرك سريعا .

وبعد أيام أتى قمريني ، فأخذت الأميرة منه الثمار وسارت معه ، وكانت على جوادها ، وهو على ظهر حماره ، ورافقها الفارس غالب ، ولما ابتعدوا سار خلفهم الفرسان المائة بخفة الطير وعلى شكل جماعات ، وكانت بينهم مسافة معقولة ، واستمر السير حتى دخلوا وادي النهر ، ثم صعدوا صعودا مرهقا ، وهناك أشار قمريني إلى صفحة جبل ومغارات يختفي فيها رجال زوابع ، ثم تابع ابتعاده وهربه عن المكان ، وهبطت الأميرة إلى أحد الوديان نحو المكان الذي أشار إليه البائع العجوز ، وبينما هم يقتربون من المكان المشار إليه ظهر عدد من الفرسان على خيولهم ، وبعد حين أحاطوا بالأميرة والفارس غالب اللذين أوقفا جواديهما متظاهرين أنهما متفاجآن ، ولما اقترب الفارس زوابع من الأميرة وراءها عرفها وتذكرها ، فأصابته الدهشة فصاح دهشا : أنتِ .. أنتِ ؟! فتاة الغابة !.. إنك لبوءة لقد رأيتك ذاك اليوم الذي لا ينسى ! أشار زوابع إلى رجاله العشرة بالنزول عن خيولهم وتقديم التحية للأميرة وفعل مثلهم ثم قال

: أيتها الأميرة .. أتذكرين يوم الغابة ؟! .. إنه يوم لا أنساه ! لقد شاهدتك والبنات تصرعن رجالنا ببارقة السيف ، فأكبرت شجاعتكن ، ولم أكن أعلم أنك أميرة أو أميرات ، وكنت في عجلة من أمري .. أتذكرين عندما قلت لك إننا لصوص ومجرمون ؟! فلا تسألن عنا ، ولم أذكر لكنّ اسمي رغم مناشدتكن لي بذلك ذلك اليوم .. فأنا الفارس اللص أمير فرسان الجبل زوابع، أمير الملك الغضبان– لعنه الله – ملك اللصوص وقطاع السبل ، أنا زوابع الذي ترغبين بلقائه حيا ؛ فأنا جئت ودبرت ذلك ؛ لأراك وأسمع الغاية من اللقاء بي .

قالت بثبات وهي ترسم على وجهها ابتسامة : أعرف أن قمريني جاسوس لكم.. وأنا جئت وأنا متأكدة أن في الأمر مكيدة وحيلة ؛ ولكني أنا فعلا بحاجة إلى لقائك .. أنظر ها هم فرساننا يا أميرزوابع قد ظهروا ؛ ولكن اطمئن ، نحن لا نريد رأسك ، ولا جسدك ، فرأسك ثمين لدينا نحن نريدك حيا لأن أمرك يهمنا ، وحياتك تهمنا رغم سرقتك للفرس ورد ، ورغم محاولتكم قتل مولانا الملك

فهمس زوابع متعجبا : إنك أشجع من رأيت أيتها الأميرة ! وإنك أذكى امرأة تمر بي ! وأنا كنت مدركا أن حيلتي لن تنطلي عليك ؛ ولكنني ظننت الغفلة قد تكون فيك ، ولا يكاد يخلو بشر من غفلة ، والآن وقبل نشوب المعركة ، ربما تكون الأخيرة في حياة زوابع ، أريد أن أعرف لماذا تريدون لقائي وحياتي؟!

نزلت الأميرة عن جوادها ، ولم تسحب سيفها من غمده وقرابه ، واقتربت من زوابع الذي احمر وجهه من الخجل فأعاد السيف إلى غمده ، وقال مرة أخرى وبعدم مبالاة : لماذا تريدونني حيا هل لأنني حاولت خطف الملك والدك ؟! ترغبون بتعذيبي ؟!

فقالت الأميرة وهي تقف أمامه وتحد النظر في عينيه : لا .. نحن نريدك حيا ؛ لأننا عرفنا سرك الخفي ، عرفنا أمك وأباك ..

فهتف دهشا : أمي .. وأبي !! أنتم تعرفون أمي وأبي ؟!

فقالت بشفقة وحنان : أجل أيها البطل !.. نحن نريدك ؛ لأن لنا أكثر من عشرين سنة نبحث

عنك .. ألا تريد أن تعرف أمك وأباك ؟

فكان الفارس مضطربا ، وهو يحدق النظر في الفتاة التي تتحدث معه بثبات وقوة أعصاب وعطف ، وهو الفارس الشجاع يرتجف أمام أنبائها وعاد يقول : تعرفون أمي وأبي ؟! .. أمي حية وأبي حي !.. لم تعد أعصابي تطيق وتحتمل أيتها الأميرة تكلمي بالله تكلمي ؟!.. إني أتمنى الموت على أن يكون بعد رؤيتهما ولو لحظات .

فقالت : أحق ما تقول ؟

فقال : كدت أن أقتل الغضبان من أجل أن أعرف أمي وأبي ، وهو يدرك أنني في أي لحظة أعرف أسرتي التي سرقني منها سأضع خنجري في صدره .. أنت تعرفين أسرتي ؟.. ارحميني أيتها الأميرة .

فقالت : أحقا تحب أمك وأباك ؟ .. هل تعلم أن أباك هو من أردت قتله ؟ وأن أمك هي من سرقت أموالها ؟ فأبوك الملك قيس بن خصيب ! وأمك الملكة سُلمى بنت جعد !

لم يستطع زوابع الكلام ، وأصابه ذهول أو كأنه لم يصدق ، فهبط على الأرض ووضع رأسه بين يديه صامتا محدقا في الأرض ، فسمع الأميرة تقول : نحن عرفنا ذلك منذ عهد قريب من رجل ساعد في خطفك من قصر أمك وأبيك في مدينة سُلمى .

نظر إليها وقال : أنت إذن أختي ! أنت إذن أختي!

فقالت وقد طفر الدمع من عينها : انهض ..أنا أختك جميلة ابنة الملك قيس .

فصاح بصوت كالرعد : رباه !! رباه !! أنا ابن الملك قيس ! وخفض صوته وقال : آه !! أدركت الآن لماذا كان اللعين يدفعني لقتل الملك قيس أو يقتلني الملك إذا سقطت بين يديه ؟! يا لله ! إنه انتقام رهيب مرعب ! وقد دفعني لسرقة بلاد أبي كبشة .. اللعين قتلني ألف قتلة! أختاه !.

وفتح ذراعيه واحتضن أخته ، وأخذا يمسحان دموع بعضهما ، وهما يبكيان ، وكان فرسان الأمير صقر في دهشة من هذا الاحتضان ، وكذلك رجال زوابع ؛ فإذا صقر الأمير على رأس

الجند يهتف ليزيل الاستغراب واللبس : إنهما أخوان !! .. هذا ابن مليككم المفقود أيها الناس! فأجهش الجميع بالبكاء والشهيق والزفير لهذا اللقاء ، والأمير زوابع قد أصبح الأمير سيف الزمان، وقد استمع الحكاية حكاية خطفه ونقله إلى جبل السرحان ، وأمر الأمير صقر رجال زوابع بالالتحاق والمسير لجبل السرحان ، وأن الملك سوف يعفو عنهم جميعهم ويلحقهم بفرسان المدينة ، فأخذ الفرسان يعانقون الأمير صقر ويشكرونه ، وهم مندهشون لما آل إليه أمرهم من رجال فارين خائفين إلى رجال آمنين مطمئنين ، سار الأمير سيف معهم نحو الجبل وهو يكاد يطير من الفرح والسعادة ويقول بشوق ولهفة : متى أعانق أمي ؟ متى أقبل أبي ؟! .. متى أرى عبسان ؟ إنني أذكره .. لقد كان من رجال الغضبان من المقربين ؛ ولكنه اختفى فجأة وظننا أنه قتل أو مات ..

غزالة

كانت غزالة زوج الملك بهراما تجلس في قصرها على فراش النعام والحرير ، وحولها إخوتها وعمها كلب الليل وأعمامها الآخرين ، عندما دخل عليهم الغلام ومخبرا لهم أن رسولا من أبي هند يقف بالباب ، ويرغب بالمثول بين أيديهم ، فأشارت للغلام بطرف حواجبها أن يدخله ، فدخل رجل شرس المحيا كثيف الشعر مخيف الهيئة ؛ كأنه لم يدخل حماما منذ سنة ، فألقى التحية باستعلاء وقال : أنا رسول الملك أبي هند إليكم ، وقد أتيتكم بخبر عظيم !

فقالت غزالة وهي ترمقه بسخط : اهدأ أيها النحس قبل أن تتفوه بالخبر العظيم .

فظل الرجل بانفعاله الظاهر عليه واستعلائه وقال : لقد جئتكم بخبر عظيم عن الأمير زوابع ربيب والدكم الغضبان !

فقطعت غزالة الكلام وقالت هازئة من اسم المذكور: هل قتل؟ هل أتيت تنعيه لنا يا رسول الشر ؟!

فقال الرسول باستهزاء وسخرية : لم يقتل .. أيها السادة ؟!

فقال كلب الليل ساخرا هو الآخر : إذا لم تأت بنبأ موته ، فما هو الخبر العظيم الذي بعثك به

ملكك أبو هند العجوز الميت ؟!

فقال الرسول : لقد وجد والديه!

ضحك القوم بصوت عال وقهقهوا ، وصاحت غزالة ساخرة : يبدو أن أبا هند رجل مخبول ، أرسلك إلينا لتقول لنا : إن زوابع اللعين وجد أبويه .. ألا لعنة الله عليكم ما أسخفكم ! وماذا يهمنا من معرفته لوالديه ؟!

فقال الرجل وهو يهز رأسه ومنكبيه مستهزئا بهم : اسمعوا الخبر كله، ثم علقوا واسخروا بعد ذلك كما تشاءون .

فعادت غزالة للشتم واللعن وقالت : ويلك من رسول تعس ! هل بـقي شيء من الخبر؟

فصاح الرسول والسخرية بين شفتيه وقال : ألا تريدون أن تعلموا من هم والداه ؟ .. ولم ينتظر الجواب ، فتابع قائلا : فأبوه أيها السادة هو الملك قيس ملك بلاد الرايات ، وأمه الملكة سُلمى ملكة بلاد الأكباش .

ولزم الرسول السكوت ، وصدم القوم لهول النبأ وسادهم الصمت والوجوم ، وقاموا عن مساندهم وأخذوا يحدقون في عيون بعضهم بعضا ، ولما زالت دهشتهم تمتمت غزالة بخوف: ويلك ! أهذا نبأ صحيح يا رسول النحس ؟!..إن هذا خبر لا يصدق .

فقال الرسول باسما وشامتا: نعم ، تأكد لنا ذلك.. بل انضم رجاله لجيش القائد صقر بن غراب وكثير من أتباعنا يفكرون باللحاق بهم وإعلان توبتهم .

فقال كلب الليل ساهما حالما : إيه يا ابنة أخي وعل الجبل !.. إني أكاد أن أصدق أن اللعين زوابع من نسل الملوك ، فسوى جبروته وعزته الغريبة فينا ، فقد كان كثيرا ما يردد أبي بعد انصرافه من مجلسه يا ابن الملوك ! صنعتك لصا وقاتلا جبارا ، وكان يحب أن يناديه بالأمير ، أتى الأمير ، وانصرف الأمير ، وكنا نظن أنه يقصد نفسه .. فهو إذن ابن الملوك وهذا السر الذي كان زوابع يسعى لمعرفته كان يتشاجر مع الغضبان ليعرف من أين أتى به الملك الغضبان ؟.. ولكن يا رسول النحس كيف عرفتم هذه الحقائق ؟

فقال الرسول : من الفلاحين الذين يترددون على الجبل لبيع الخضر والحب ، فقد احتفل القوم بلقاء زوابع وعودته لأهله ، فحدثوا رجالنا بذلك ، وأتت أخته الأميرة جميلة وعرفته بنفسها وأهلها ، وقد ساروا نحو بلادهم للقاء الملك الكبير .

فقالت غزالة : يا قوم أصبح وضعنا في خطر ! .. فهذا الشاب كان يكرهنا أيام جدنا فكيف اليوم ؟! عندما عرف ماذا فعل به والدكم الغضبان ؟ وحرمه من حضن والديه..فأخشى أن تراوده نفسه بغزو بلاد الملك بهراما للقضاء علينا والانتقام منا ، فهو شاب حقود دموي وحش هائل متعطش للدماء والانتقام ، ويبغض الناس ، عليكم بالتزام جانب الحذر والتربص به .

فقال كلب الليل مبديا قلقه هو الآخر : معك حق يا غزالة .. فالحرب ربما تستعر بيننا ، وهو عندما يرى والديه سيعدهم برؤوسنا وبكنوز الغضبان التي سلبها من خزائن أمه سُلمى ..

فقالت غزالة : الكنوز !!.. أجل يا عماه ، سيشتد الصراع من أجلها ، ولا يعرف نفق الغضبان إلا أنت .. والجبل أصبح ملكا لهم ، وهم يشيدون قلعة للبقاء فيه للأبد .. أيها الرسول انصرف راشدا إلى صاحبك أبي هند ، وسلم سلاما دافئا عليه وعلى رجاله ، ونحن سنأخذ حذرنا .. وأفضل أن تلتحقوا بنا ، وتخضعوا لزعامة كلب الليل بدلا من رئاسة ذلك العجوز ؛ لنقاوم انتقام زوابع سوية ، فأخبره أننا بانتظاره .

فقال الرسول وهو ينصرف : سلام وإلى اللقاء .

فلما غادرهم رسول أبي هند ، قالت غزالة : إنسان على صورة وحش !.. إنه يتشبه بوحوش الفلاة .. كان يطمع بالزواج مني !



وصرفت الأميرة الصبيان والنساء من مجلسها ، ولم يبق إلا الرجال الكبار فقالت لهم متظاهرة بالجد والقلق: كنوز الغضبان الآن أصبحت في خطر ! فزوابع ورجاله يعلمون أن جدنا يخفي أمواله في مكان خفي ؛ ولكنه مكان في وادي السرحان وفي جبل الرملي .. وأنت يا عماه كما علمت منك قديما تعرف

المخبأ الخفي لتلك الكنوز ؟.

فقال كلب الليل قلقا مما تبطن غزالة: تعلمون أنني كنت أرافق أبي إلى كهف الكنوز ، وكما تعلمين لم يكن أحد يجسر على متابعتنا أو اللحوق بنا ؛ لأن ذلك يعني موته .. ولكن زوابع كان أسدا بيننا ، وهو سيعتبر نفسه صاحب هذه الأموال الكثيرة ، وسيقلب الجبل بحثا عنها ، ونحن لا نستطيع المغامرة ودخول وادي السرحان ، فكيف بقرية والدي ؟! ولا

نستطيع أن نصل إلى الكنوز إلا بالعمل المدبر المحكم أو دحر جيوش القائد صقر.. والملك بهراما زوجك النحس ، لا يرضى قومه بالحرب نيابة عنا ، وأنت رضيت بحياتك خادمة عنده ونسيت قومك ، ولم تعودي تفكرين بقضيتنا وعودتنا إلى مملكتنا المسلوبة .

فقالت بحدة معهودة فيها : ويحك يا عماه ! .. إنني أبذل كل جهد ليبقى بهراما خاتما بيدي ؛ ولكن الحرب لا تقوم في هذه المدينة إلا بموافقة مجلس الأمراء والتجار والحكماء .. وهذا لا يجب أن يمنعنا عن حماية كنوز جدنا الغضبان ، وأنت إذا عجزت عن قيادة قومنا فأعطِ أخي شدادا الزعامة واعتزل الحكم والمشورة ..

فقال بحدة : ويحك إنك تغضبينني ! .. فهل عجزت وهرمت لتتكلمي معي بمثل هذا الكلام البارد مثلك ؟! .. واحذري أن أسمعه منك ثانية ؛ فإني قاتلك دون شفقة وهوادة ورحمة .

فقالت بغضب وسخط : على هونك أيها الزعيم النائم منذ جئنا هذه البلدة !.. على هونك.. أنا أريدك أن تتحرك وتفعل شيئا قبل عودة زوابع من مقابلة أمه وأبيه .

فأجابها بغضب أيضا : لن يصل زوابع لكنز الغضبان .. ولن أضع كنز الغضبان تحت رحمة بهراما زير النساء والخمر يا ابنة أخي الشجاع !

فقال أحد الجالسين راغبا في تخفيف التوتر الذي لمع على الوجوه والعيون : يا ملك كلب ! لا داعي للشجار الآن ، نحن اليوم بحاجة للاتحاد والقوة ، لا للتفرق والتمزق ..

فقال شداد مهدئا للجلسة : وأنا يا عماه ! لا أقبل أن أصبح ملكا عليك ، إنما غزالة تهيجك للدفاع عن ثروة جدنا وميراثنا لتلك الكنوز.. فكلنا شركاء في تلك الثروة .

فقال كلب : : لستم أحرص مني عليها ، ونحن لما هربنا لم نكن بحاجة لحملها معنا ، فبقاؤها في الجبل كان خيرا للجميع وءامن ، ونحن لم نكن نعلم أن الملك قيس سيفكر بالبقاء على جبل السرحان وأن يضمه لأملاكه .. وعلينا الآن التصرف بذكاء وفطنة ، ولا يجب أن ننسى حقد زوابع علينا قبل أن يحقد على أموالنا ! فنحن أبناء الغضبان ووراثه.. فثأره عندنا ، وبغضه لنا كلنا معروف .

لما تفرق الجميع ومشوا الى معسكرهم أرسلت غزالة سرا وراء أخيها شداد ، ولما خلت به قالت : يا أخي العزيز ! كان أبوك أحق بالزعامة والملك علينا أكثر من عمك كلب ، ولكن كان عمك هو بكر الغضبان ، فكانت خفايا الملك الغضبان عنده .. وكلب رجل متردد وغير حازم ويمكنك أن تصفه بالضعف .. وزوابع هذا خطر كبير علينا وعلى أموالنا ! واعلم أن كلب لن يفعل شيئا غير الثرثرة ، ولن يكشف لنا عن موضع كنز الغضبان .. فهو لا يثق بنا ، ويظن أنه أحق الناس بأموال الغضبان .. فعليك يا ابن أمي وأبي أن ترسل قاتلا جريئا وحشا إلى بلاد الرايات ، وليس له هدف إلا الفتك بـزوابع .. وإذا سقط وكشف أمره عليه أن يلصق التهمة بأبي هند .. زوابع يعرف أننا منقسمون ، وأن أبا هند مستقل عن أبناء الغضبان .. ثم علينا أن نعرف مكان الكنز من عمنا كلب بأي طريقة .

فقال بقلق : هذا أمر خطير يا أخية !.. نخشى أن نتصارع فيها بيننا ويدب الشقاق والقتل بيننا فأولاد كلب لن يغفروا لنا قتل أبيهم بأي حال من الأحوال .

قالت : أنا لم أقل لك بقتله.. نحن نريد معرفة كنوز الغضبان وتقاسمها أو على الأقل نأخذ حصة أبينا وعل الجبل سيد الأبطال في وادي السرحان . وتساقطت بعض الدمعات على ذكره

وبعد صمت قال شداد : نحن تحت أمرك ، ففكري ودبري لنا وعلينا نحن التنفيذ

فقالت بقوة : عليكم بالضغط القوي على عمك ، وتحريض الرجال على ذلك حتى يرشدكم للكنوز الدفينة من عشرات السنين ، ولا يبقى وحده حافظا ومالكا لها .. اذهب الآن .

وخرج شداد وهو حائر بأقوال أخته غزالة متضعضع الفكر ، ولماذا هي خائفة على الكنوز ؟!

وهي زوجة الملك بهراما ، ولديها كنوز المدينة كلها ، فذهب شداد إلى عمه كلب وصارحه بكلام غزالة ، وأنها أصبحت تشكل خطرا وجشعا على القبيلة ، فقال كلب بغضب : لقد جنت أختك ألا تشبع من الذهب والفضة ؟!.. إنها تفكر بالخلاص مني .. أشكرك يا شداد على حبك لي ، ونفذ أمرها في إرسال رجل للفتك بـزوابع.. نفذ ذلك ، واحذروا الفشل ؛ فإن حقد زوابع سيكبر ويتضخم ، إن كان في قلبه بعض الرحمة علينا ؛ فإن فشلنا ستزول هذه الشفقة والرحمة وأمر الكنز سأدبره ، وأقول لكم عن موضعه.. أو أكشف السر للبعض قاتلك الله يا غزالة تسعين لدمارنا وهلاكنا وامتلاك أموالنا .

أراد شداد أن يلعب على الحبلين كما يقال ، أن يكسب غزالة المستأسدة بزوجها الملك ، ولا يخسر عمه كلبا ، فهو يعرف بأس كلب وغضب كلب ، فأما غزالة فغرورها وتسرعها ونزقها لا يسمحون لها بالتفكير السليم الناضج .. وقد جرى اجتماع آخر للضغط على كلب ولكشف السر .. ولما أصر على عدم ذكر مكان الكنز ، فاشتد غضب غزالة عليه وهددته بالموت علنا وبدون مواربة .

فقال وهو يكظم ثورته : حسنا يا ابنة أخي ! فقبل أن تقتليني أمهليني يومين أو ثلاثة حتى أحسم أمري في ضغطكم عليّ ، سأتجاوز عن تهديدك أيتها اللعينة ؛ لأجل العائلة والقبيلة .

سرت غزالة لهدوء عمها ، وتظاهرت بالأسف والانفعال وقالت : فكر عشرة أيام .. فنحن شركاء في أموال جدنا الملك ، وليست هي ملك لك وحدك ، فوعل الجبل ابن أبيك يا عماه .

فرد كلب ساخرا : أنت لا تشبعين ، وهذه الجواهر التي تملأ عنقك ممن يا غزالة ؟! .. واعلمي أن قتلي والغدر بي سيبعدكم عن الكنز إلى الأبد ..

فقالت : يا عماه ! نحن لن نقتلك ، هي هفوة لسان خرجت من فمي في لحظة غضب وتسرع ، أنت تعرف اندفاعي وتسرعي ..إنما نحن نريد حصة والدنا القتيل ، ولا يجب أن يبقى السر عندك وحدك .. فأخي شداد أهل إلى أن يعرف السر فالموت يُقبل فجأة ..

فصاح قائلا وهو ينهض للأنصراف : حسنا .. حسنا يا ابنة أخي ! أيام وأحسم هذا الأمر الذي

شغل بالك منذ أيام ، وداعا أيها الرجال .

وأظهر كلب الاعتكاف في خيمته ، ولم يسمح إلا لغلام خادم واحد يدخل عليه بالطعام .. بل يضعه على باب الخيمة ويبتعد ، ولما اقتربت نهاية الأيام العشرة - المهلة التي منحتها غزالة لعمها بالتفكير - أرسل كلب قبل اليوم الأخير الغلام الخادم للخيمة لغزالة يطلب منها جمع الرجال ؛ ليكشف لهم مكان دفن وإخفاء أموال الغضبان .. فسرت غزالة لذلك ، وأمرت كبار قومها بالاجتماع مساء الغد ، ولما اجتمعوا تأخر كلب عن الحضور ، وطال انتظاره وتأخره ، فأرسلت إليه شداد يستعجله ، ولما دخل الخيمة لم يجده فيها ، فسأل عنه ، فأنكر الحضور رؤيته منذ دخل الخيمة ، فعاد شداد إلى أخته وأخبرها باختفاء كلب ، فأرسلت وراء الغلام الذي كان يمده بالزاد فقال لها : إنه لم يكن يسمح له بالدخول إلى جوف الخيمة ، إنما يأمره بوضعه أمام الخيمة ويبتعد ..

وهذا الغلام كان من جواسيس غزالة ، فقد أهدته لعمها منذ تزوجت بالملك بهراما ، وكان كلب قد أخبر أولاده الكبار الثلاثة بأنه سيختفي إلى حين ، وطلب من أحدهم أن ينوب عنه في الخيمة ويمثل أنه كلب ، وغادر كلب ليلا وخفية معسكر اللصوص ، ولما تأكدت غزالة من هربه وخدعته لها قتلت الغلام من الغضب ، معتقدة أنه متواطئ مع عمها، وقد خانها رغم خدماته الكثيرة لها خلال الأيام الماضيات ، وكلفت أخاها شدادا بمنع هرب أي شخص من أبناء كلب ، بل طلبت من بهراما أن يحبسهم ففعل ، وظهر الغضب والضيق في عشيرة غزالة من فعلها اللئيم ، بل شداد نفسه لامها على هذا التصرف الأحمق ، وزجرها وتوعدها وهاجمها بشدة ، فغضبت عليه هو الآخر ، وأمرت حرسها بأن يضعوه في السجن مع أبناء عمه ، وأرسلت الجند يحرسون معسكر عشيرتها وأتباعهم ، وبمنعهم من الرحيل والهرب، ولنترك غزالة وقومها في صراعهم حول أموال الملك الغضبان .

لقد غمرت الأفراح بلاد الرايات والأكباش مرة أخرى بعودة الولد الضائع منذ ما يزيد عن ربع قرن من الزمان ، ولما تمت أيام الأفراح طلب الملك قيس من ولده سيف الزمان بأن يجلس

مع حكماء البلاد سنة من الزمان ؛ ليتعلم القراءة والآداب والحكمة والشعر ، فوافق الشاب على ذلك ؛ ومع ذلك لم يستطع الصمود أكثر من أشهر ثلاثة ، فقد أرسل حكيم المدينة مدرسا على القصر يلقى على مسامعه الدروس في الحكمة والآداب والشعر ، وكان الفارس يقضي أكثر وقته مع أخته الأميرة جميلة، ويسيران معا للصيد ويتبارزان سوية ، وذات مرة عرضت عليه الأميرة الزواج من إحدى بنات الأمراء ، فقال باسما : يا أختاه ! لا أفكر بالزواج بعد..



فهناك دين بيني وبين كلب الليل، فأموال أخي مرعي لم تعد بعد ، وقد وعدت أبي بالبحث عنها ولكن الملك أمرني بالصبر والانتظار حتى يتم بناء القلعة ، فعندئذ سيسمح لي بالبحث عن كنوز الغضبان ، ولكني أخشى يا أميرة الدنيا أن يسبقنا كلب وغزالة إليها ، فهي قد أوقعت الملك بهراما في غرامها ونكحها ، ولا يرفض لها أمرا ، وكاد أن يشعل حربا بين بلده وبلدنا لولا رفض مجلس الحكم في بلده الحرب الخارجية ، ولا يعلم دفائن الغضبان سوى كلب ابنه .. لم نكن نهتم بذلك ، ونكترث لذلك ، فكل كان يأخذ نصيبه .. ولما تركنا الجبل كنا نظن أننا سوف نعود إليه قريبا كما حدث في الماضي القديم ، وذلك بعد انسحاب الجيش .. فكثير من رجال العصابات تركوا أموالهم دفينة في رؤوس الجبال والكهوف .

فقالت : يا أخي الشجاع .. أتريد أن تظل بدون امرأة حتى يتم بناء القلعة والحصن .. فابنة الأمير صقر فتاة رائعة الحسن وفطنة ، وهي ابنة صديق أبيك الأمير صقر ..

فقال ضاحكا : لقد رأيتها أكثر من مرة بصحبتك وفي سهرات القصر ، ولا أدري لماذا ليس عندي ميل للحسناوات لليوم ؟! فكأن قسوة الجبل وخشونة الحياة أضعفت رغبتي نحو النساء أو أنني لم اصطدم بالمرأة الفاتنة الجذابة ..

قالت : صدق لو تجلس مرة واحدة مع ابنة الأمير ؛ لسوف تترنح غراما ، وهي بها إعجاب بشخصك القوي وشبابك الحيوي .

فقال : صبرا يا أختاه !.. ما رأيك بالسفر إلى بلاد أخي مرعي الملك ؟ .. فأنا مشتاق لأمي فلي

أكثر من شهر لم أرَ وجهها وألمس حبها وحنانها .

فقالت : لا بأس بذلك .. وما رأيك بأن نصحب الأميرة عبلة معنا ؟ لعل الرحلة تغير أفكارك نحوها وتقترن بها ..

فقال: لا أفضل ذلك.. أنا أحب صحبتك أنت وحدك ، فلندخل على الملك ونستأذنه .

فدخلا على الملك قيس وبعد كلام ونصائح قال قيس : أتريد أن تهرب من دروس العلم والأدب يا ولدي ؟ .. إنما نفعل ذلك من أجلك ؛ لتكون الفارس الشجاع المتعلم ، فلربما تصبح ملكا مكاني يوما ما ، فلا يحسن بك أن تكون من أهل الجهل والسذاجة .

فقال سيف معتذرا عن ضعفه في تحصيل العلم: لقد كبر سني على التعليم يا والدي ! وعشقت الخيل والرماح ؛ ولكن سأبذل قصارى جهدي في تعلم بعض العلم ..

فقال الملك : الزواج ألا تفكر فيه ؟ .. أم أنت كأبيك في الماضي ، كان يكره فكرة الزواج والنساء حتى جرى ما تعرفه لنا .

فقالت الأميرة : إنني أحدثه كثيرا عن ذلك ، بل عرضت عليه الأميرة عبلة ابنة الأمير القائد صقر بن غراب ..

فهتف الملك مقاطعا : إي والله ، نعم البنية ، فتاة جميلة ورقيقة وشجاعة .

فرد سيف قائلا : سيدي الملك ! لست بعجلة يا أبي ، دع الأمر للخالق .

فقال الملك وهو يتذكر أباه عندما كان يضغط عليه للزواج ويرفض: كما تشاء .. فسلموا على والدتكم الملكة ، وعلى أخيكم الملك مرعي ، وعلى أولاده ، ولا تتأخروا في العودة إلينا ، وخذ معك عشرة من الجنود والحرس .

فقال سيف : لا داعي يا أبي .. سيرافقني غلامي وغلام الأميرة ، ولماذا نضع هذه السيوف على عواتقنا ؟!

فقال الملك : يد الغدر لا ترحم يا ولدي .

فقال سيف : وماذا ينفع الحرس من يد الغدر؟!

يد الغدر

لما اقتربسيف الزمان وأخته جميلة من مدينة سُلمى وأطلا على القصر ، قالت الأميرة وهي تشير بيده نحوه : ألا ترى هذا البنيان الجميل ؟.. من هذا القصر سرقك الغضبان وعبسان.. كان النصر في بلاد أبي كبشة ، وهنا كانت الجريمة .

فقال سيف : هنا ولدت إذن .. من هو أمير هذه المدينة اليوم؟

فقالت : على ما أظن الأمير جُبار ، وهو من رجال أبيك المخلصين ، وهو الذي ساعد أمنا كثيرا في وادي السرحان عندما خطفها ابن خالها المسمى ماجد وما هو بـماجد .

فقال سيف : سمعتك تتحدثين أنه لم يقتل في معركة الإنقاذ ، وقد نجا بريشه ثم انقطعت أخباره فقالت مفكرة متذكرة : احتار الناس في أمره ، قالت أمي : إنها لم تجده ، ولم تعثر على جثته ، واختفى أثره منذ ذاك الحين .

فقال سيف : ماجد .. الأمير ماجد ! .. لقد سمعت بهذا الاسم في الجبل ، وكان عندنا زعيم يدعى أبا الليل ، وعندما كان يحضر مجالس الزعيم الملك ، كان يرافقه في بعض الاحايين رجل أسمع القوم يقولون: أتى أبو الليل والأمير ماجد ، ولكنني يومذاك لم أكن أكترث للأسماء ، ولا اعيرها أي اهتمام ، ولما أصبحت فارسا من فرسان وادي السرحان لم أعد أراه أو أسمع به ، وبالأصح عندما هلك أبو الليل، وترأس ابنه جماعته لم نعد نرى ماجد في مجلس حكم رجال الجبل .. فلقد كان لهم ديوان كبير في قرية الغضبان يجتمعون فيه ويتدبرون فيه شأن الجبل أيتها الحسناء الشجاعة.. أي معلومات مهمة عن ماجد هذا أستطيع معرفتها من نائب الملك أبي هند لو أني أراه وألقاه سيدلني على ماجد هذا ومصيره ، حتى اليوم لا أدري هل سار رجاله اليوم مع غزالة وعمها كلب أم ظل وحده مع رجاله ؟ .. فنحن انقسمنا ثلاث فرق ، طائفة مع غزالة وكلب ، وطائفة مع أبي هند ، والآخرون معي ، والقليل انصرفوا لقراهم ومدنهم .. فأكثر هؤلاء اللصوص يأوون للجبل ؛ لأنهم هربوا من أوطانهم لارتكابهم جرائم قتل ، فيجدون في الجبل الحماية والرعاية وكل شيء لابد لي من زيارة وادي السرحان .

فقالت الأميرة : لا داعي للقاء أبي هند هذا ، ولا يهمنا مصير الأمير ماجد بعد كل هذه السنوات فقال سيف : أليس هو سبب مآسينا وتعرف أمنا على الغضبان وعرقلة زواجها من أبي الملك ؟ فقالت : بل ظنوا لأول الأمر أن الأمير ماجد هو خاطفك ، وأنه كان قد دبر المكيدة قبل سقوط المدينة بأيدي فرسان الملك قيس ، ولم يخطر في بالهم الجبل ورجال الجبل .

ولما علم أمير مدينة سُلمى بوصول الأميرين خرج بنفسه يرحب بهم ويستقبلهم ، وأولم لهم الطعام وأمضى الأميران ليلة في ضيافة الأمير جُبار، وجلسوا في حدائق القصر يستمتعون بما فيها من الأشجار والأزهار والمياه ، وكان جل حديثهم عن وادي السرحان وضياع الأمير الصغير سيف ، ومع إشراقة الشمس استأذن الأخوان بمتابعة الرحيل والمسير لزيارة والدتهم وأهليهم في الأكباش ، ولما ابتعدوا عن المدينة بيومين شعر سيف الزمان بأنه متبوع ، فتنبهت أعصابه للقتال والدفاع عن نفسه وأخته وصارحها بذلك فقالت : أنا أحسست بذلك منذ فارقنا بلادنا ، علينا بلزوم الحذر، واعلم أن الذين يتبعوننا ثلاثة ملثمين ، ولم يبق للوصول إلا يومان ؛ فإذا كانوا يقصدوننا فسيتحركون ويمكرون بنا قريبا قبل دخولنا المدينة .

فرتب الأميران حيلة لكشف هوية متتبعيهم ، واختارا المكان المناسب لتنفيذ ذلك ، فقرب شجرة نزل الأميران والخادمان ، وخلعوا بعض ثيابهم ، وعلقوها بالشجرة ، وربطوا الخيل بالشجرة ، وصنع لهم الغلامان الطعام فأكلوا ، وجلسا تحت شجرة أخرى للنوم والراحة ، ثم وقفت جميلة بعد حين يسير على تل وحدها حتى ملأ الظلام المكان ، فانسحبت إلى غار صغير توارت فيه ، كان سيف ينتظرها فيه ، وأما الرجال الثلاثة المتعقبون القوم فلما اختفى جسد الأميرة تقدموا مشيا على الأقدام نحوهم ، فلما لمحوا الخيل قرب الشجرة ، ولمحوا الثياب المعلقة وكُومتين من الرمال المتمدد على الأرض عليهما عباءاتان يظنهما الرائي جسدين راقدين ظنوا أن الأميرين قد ناما ، فرقدوا ساعة من الزمان حتى اشتد الليل والحلكة ، وكان سيف وجميلة يتابعونهم من الغار ، فشاهدا رجلين يتقدمان نحو الشجرة ، والثالث تأخر ومعه الخيل ولما وصلا الشجرة شرعا خناجرهما وانقضا على الجسدين الرملين الوهميين ، ولما لم يسمعا صوتا

أو صراخا أو يريا دما رفسا الثياب ؛ فإذا هي مخفية أكوام من التراب ، فتطلعا حولهما فشاهدا سيفا وجميلة والغلامين ، وهم مشرعون سيوفهم ، فهجما عليهما بسرعة ؛ ولكن ماذا يفعل خنجر مع سيف ؟ فسقطا ميتين على الأرض ، وقفز سيف على جواده وانطلق سريعا خلف الرجل الثالث ، ولم تطل المسابقة ، فنزل الفارّ عن جواده وطلب العفو والصفح ، فساقه سيف حيث أخته والغلامان ، وكان الغلامان قد أشعلا النار في المكان ، ولما شاهد سيف وجوه القتلى قال للرجل الأسير : إنكم من رجال الجبل ووادي السرحان ؟! .. لا ينجيك أيها اللعين إلا الصدق .. من أرسلكم ورائي يا قتلة؟!

رد الرجل المرعوب : الأمان يا سيد الفرسان ! .. سأقول لكم كل شيء .. أبو هند يريد رأسك ونحن ننفذ أمره .

لم يرد سيف بل لزم الصمت حينا من الزمن ثم قال : أبو هند يريد رأسي ؟! .. وماذا بيني وبينه اللعين ؟ .. إنني لا أصدقك إنك تكذب .. ولماذا يريد أبو هند رأسي ؟!

فقال الرجل وهو يرجف : لا أدري ، ولكن أظن أن الأمر يتعلق بكنز الغضبان .. فهم خائفون على كنوزهم منك ومن رجالك .

فقال سيف بحدة وقوة وهو يضع طرف السيف على عنق الرجل وينخزه به : والذي خلقك إنك من رجال غزالة ، ولست من رجال أبي هند !.. صاحب الكنوز هو الغضبان اللعين ، وليس أبو هند إني قاتلك كصاحبيك إن لم تصدقني الحديث .

فقال الرجل وهو يلتفت نحو الفتاة ويبعد السيف عن عنقه: أنا دخيل عليك أيتها الأميرة ! أنا فعلا من رجال غزالة زوجة الملك بهراما .. سأقص عليكم الأمر .

وحدثهم عن صراع غزالة وكلب ، وهرب كلب من معسكرهم في بلاد بهراما ، وهم خائفون من ضياع الكنوز وأموال الغضبان على يديك ، فكلفتني الملكة وهؤلاء الرجال بالقضاء عليك وإذا وقعنا بين يديك أن نتهم أبا هند .

فقالت الأميرة بعد اعتراف الرجل : هذا هو الحق يا سيف ! فاعفو عن حياته ، ثم ليمشِ لأميرته

وملكته ويخبرها بمقتل رجليها ، وأن كنوز الغضبان لسوف يتم إخراجها رغم أنف الجميع . فركب الرجل الجواد وانطلق هاربا يسابق الريح ، ويحمد الله بأن كتبت له الحياة ، بل فكر بعدم العودة للأميرة غزالة ، وأن يهيم في الأرض ، ويختفي في هذه الدنيا الواسعة ، وتابع الأميران والغلمان المسير بعدما واروا الجثتين ، وأمر سيف الغلامين أن يسوقا الخيل خيل القتيلين نحو بلاد الأكباش.

غمر وعم الفرح قصر الملك مرعي بمجيء أخويه سيف الزمان وجميلة ، وأقبل كل الأمراء والسادة للسلام والترحيب بهم ، وسعد القوم بوجودهم بينهم وزيارتهم ، ولما انتهى الاحتفاء بهم قالت الملكة سُلمى لولدها البكر يوما : كان أفرح يوم عندنا أنا وأبوك يوم مولدك ! آه ! كم فرح جدك خصيب ! وكم ذبح من النوق والخراف ؟! كاد أبوك أن يطير من السعادة والفرح ، لقد كنت الابن البكر الابن الموعود .. كان القوم يخشون أن لا ينجب أبوك لما حدث مع عمك الأصغر سعيد من عدم الانجاب ولـتأخر والدك في الزواج .

وأخذت الملكة تتحدث عن تلك الذكريات ، والأبناء يسمعون كلامها بشغف وحب ، ولما أنهت الملكة حديث المولود الأول والذكريات قالت : وأنت اليوم ترفض الزواج كما علمنا من أختك الحبيبة جميلة ، وها أنت تؤثر عليها لترفض هي الأخرى عروسا باسلا .

فقال ضاحكا: أوجدت عروسا لأختي الجوهرة ؟..إيه من هو الرجل الذي يليق بها ؟! .. إنك يا أمي أنجبت لبؤة مثلك !

فقال مرعي باسما : هي ابنة من يا أخي ؟ أمها الملكة سُلمى ووالدها الملك قيس بن خصيب !

وقالت جميلة مجارية لهم : وأخشى أنا أن لا أصلح للحياة مع الرجال ! فيكون زوجي معي مظلوما..

فقالت الملكة : بل أنت أرق من النسيم ، وأحلى من السكر رغم بسالتك وفروسيتك.. أبوك يحب الفروسية ، وأراد أن يكون الأبناء الذكور والإناث فرسانا وشجاعا .. وهذا لا يعيب المرأة عندنا ؛ فأنا مثلك يا جميلة لقد عشقت الخيل والسيف والرمح والصيد .

فقال الملك مرعي : وهل ينكر أحد شجاعتك يا أماه ؟! فيكفي أنك عشت في وادي السرحان مع عتاة المجرمين - وكأنه تذكر حياة سيف معهم ـ لا تغضب مني يا سيف .

تبسم سيف وقال : أبدا يا ابن أمي وأبي ، صحيح أن رجال الجبل قساة ؛ ولكنهم جبناء يتظاهرون بالشجاعة ، وهم كالضباع عندما تنفرد بفريسة ما ، وإذا وجدوا

ندا هربوا وغدروا ..لم تذكر لنا أمنا الملكة الزوج الذي اختارته لعزيزتنا جميلة؟

فقال الملك : أتدري يا سيف الزمان لو أنك لم تخطف لكنت الآن تجلس مكاني على عرش هذه البلاد ؟! .. فما رأيك أن أخلع نفسي وننصبك ملكا ؟ .

ضحك سيف وقال : هذا قدرك ونصيبك ، ولست حاسدا لك ، وأنا قد طاب لي العيش في بلاد الرايات ، وقد أكون الملك بعد حياة أبي الطويلة– إن شاء الله – هناك .. فلست طامعا بعرش أو ملك يا أبا قيس .

أثنى جميع السامعين على الأمير سيف ومرؤته ، وعانقته أمه مرة أخرى ، فهمس أثناء ذلك في أذنها : أخبرينا عن العروس الذي اخترتيه لأختنا العزيزة ؟

فهمست قائلة : أختك رفضت ، فلا داعي لذكره ولكن ..

فقال : ولكن ماذا ؟!

فقالت : اعلم أن له أختا بديعة الحسن ، وهي مضرب المثل في الحسن والجمال والكمال في بلادنا هذه .

والتفتت إلى الملك وقالت : يا ولدي ! .. ما رأيك بأن نزوج سيف الزمان بالأميرة حسناء بنت الأمير ضارب بن غانم ؟

فقال الملك مرعي مستبشرا : والله إن ذلك من حسن الطالع ! .. فهي الجمال العجيب في بلادنا، فكثير من الشعراء يمدحون جمالها وعذوبتها وأدبها يا سيف ! ولا أظن أن والدها يرفض سيف بن الملك قيس .

فقالت جميلة كأنها معترضة : فهذا سيؤدي إلى زواجي من ابنه .. أنا أرفض ذلك يا سيف ..

فالزوج الذي حدثتني عنه أمي ، هو ولد ضارب بن غانم الأمير براق .. وأنا سأرحل غدا يا سيف الزمان .

فقال الملك: مالك غضبت ؟!..ويحك ، هل نزوجك بالقوة والغصب يا ابنة الملوك ؟! .. اجلسي فلا يليق بك الغضب ..

فقالت جميلة: لأن الرجل إذا رفضتم تزويجه مني ، فلن يقبل بتزويج ابنته الحسناء الشاعرة من أخي .

فقال سيف : يا أختي ! لم أوافق بعد فاهدئي . وعودي للجلوس .

فاحتدت الملكة سُلمى على ابنتها ، وغضبت عليها وتوترت الأمور ، وقالت جميلة غاضبة : سأرحل الآن ، أنا لم آتي هنا للعتاب والزواج والسب ، سأرحل وأعود إلى أبي .. هيا يا سيف وإلا سأنصرف وحدي .

وزاد اللوم والقيل من الأم والحدة ، فتركت جميلة القوم مسرعة إلى الاصطبل ، وهي غاضبة بشدة ، وأمها غاضبة أكثر منها ، ومرعي يعتذر للجميع ولسيف خاصة ، ويحاول تلطيف الثوران ، ويترجى أمه بالهدوء والتعقل ، وأسرجت جميلة الجواد ، وخرجت من القصر ثائرة غير مبالية لغضب القوم ، فصاح الملك بالفرسان أن يمنعوها فقال أحدهم : حذرتنا من اللحاق بها ، وأنها ستصرع كل من يلحق بها .

وأسرع سيف بدوره إلى الاصطبل وأسرج جواده ، وتبع الأميرة فلم يدركها ، واحتار بالدرب الذي سلكته في ذلك الليل البهيم ، وكانت الملكة ما زالت تدعو وتغضب على ابنتها ، فهدأ الملك من انفعالها وغضبها ثانية وقال : سيغضب أبي جدا يا أمي !! .. أنت تعرفين حب أبي لـجميلة ، علينا أن نتدارك الأمر .. فأنت تعيشين بعيدة عنها ، فهي متعلقة بأهل أبيها أكثر منا فأخذت الملكة تبكي وتنشج وتقول : أنا أردت لها الخير ، ولم أزواج بين زواجها وزواج ابن ضارب، كان الكلام مصادفة ألا لعنة الله على ضارب وابنته .. سيغضب أبوك الملك إن جرى لـجميلة شيء .. لقد دللها كثيرا .. قد كبر سنها

فلما لم يدرك سيف أخته عاد للقصر ، وودع أمه وأخاه قائلا : سألحق بها على درب بلاد الرايات الأميرة اشتد غضبها الذي لم أتعود عليه ، فهذه أول مرة أراها ثائرة ، ولا أستطيع أن أسمح لها بالعودة وحدها .

فقالت الأم وهي تعانقه : افعل ما تشاء يا سيف ! وإذا أدركتها أرسل غلامك ليطمئننا عليها وأعلمها أنني غاضب عليها حتى تأتي وتعتذر لي عن هذا الحزن والدموع التي سببتها لي يا ولدي أسرع وراءها إنها مغرورة .

فقال سيف: هوني عليك يا أماه ! سأتدبر القضية إلى اللقاء .

وهبط الحجرة مسرعا ، وكان الغلامان في انتظاره ، فأمرهما باتباعه ، وانطلق سريعا نحو الدرب الذي يسير نحو بلاد الرايات ومع إشراقة الشمس أدرك الأميرة الغاضبة، فأرسل أحد الغلامين ليطمئن أمه وأخاه ، وأنهم سائرون لبلادالرايات .

وسمع الأميرة تقول : يا سيف أمك تريدنا أن نسكن في هذه البلاد .. لا تريد لنا البقاء عند أبينا الملك وزوجات أبينا الملك وأهلينا ، فزواجنا من أهل هذه البلدة يدفعنا للاستقرار في هذه البلاد .

فقال وهو ينظر ما سمعت أذناه : ويلك .. أتقصد أمنا ذلك ؟!

فقالت ونبرة الغضب في صوتها : فلما طمأنت مرعي على الملك وعلى عدم رغبتك به ، أحبت أن تدفعك للبقاء عندها بالزواج .. لقد دار بيننا حديث قبل تلك الجلسة ، فقلت لها بقوة وعناد أنا أحب البقاء عند أبي وقومي وقلت لها أيضا أنا رفضت العيش هنا وأنا طفلة صغيرة ، فهل أوافق وأنا شابة ؟ .. فحاولت عن طريقك ، فهذا ما هيج أعصابي وتوتري .

فأخذ الفارس يهز منكبيه مصدقا ويقول : أشهد أنك تقولين الصدق!.. فقد حدثني مرعي عن حسن البقاء عنده وبجواره ، وكنت أظن أن كلامه من باب المجاملة والملاطفة

موت غزالة

هرب كلب الليل من معسكره في بلاد الملك بهراما ، ومكر بالأميرة غزالة بالاتفاق مع أولاده ، وإنه لم يبعد بعيدا عن المدينة، لقد اختفى في أحد الكهوف والأدغال ، وكان على اتصال بقومه بواسطة غلامه المخلص زهران ، فكان زهران يتنكر وينزل المعسكر على صورة متسول ، فيسمع الأخبار ويعود لسيده في الليل المظلم ، ولما سجنت الملكة بسيف بهراما أولاد كلب الليل ، ثم اتبعتهم بسجن أخيها وبعض السادة من القوم .. فصمم كلب أن يمكر مكرا



كبيرا وعظيما في غزالة ، فقال لخادمه زهران : سأمكر بغزالة مكرا تدوي له هذه البلاد عن بكرة أبيها ! .. فأريدك أن تعلم لي متى تقيم غزالة أو الملك سهرة كبيرة في قصر غزالة ؟ وعندما تعرف ذلك فأخبرني بالموعد ، وسوف ترى ما يفعل سيدك يا زهران ؟!

وحفلات الملك وغزالة كثيرة ، فلما علم عين كلب بحفل وسهرة ستقام في قصر غزالة أخبر سيده كلب الليل بوقتها، ولما سأله عما سيصنع ؟ فقال كلب الليل : أحضر لي ثيابا تشبه ثياب غلمان القصر .. سأذهب وأحضر هذه الحفلة ، وسوف تسمع بمكري يا زهران بابنة أخي اللعينة .

تسلل كلب الليل بزي الغلمان والخدم العاملين بقصر غزالة ، ودخل المدينة مع الظلام الدامس وسار نحو القصر المعروف له ، وطلب من زهران انتظاره مختفيا أمامه ، ولما بدأ ضيوف القصر بالانصراف بعد منتصف الليل ، دخل كلب القصر ، وظنه الحرس السكارى بأنه أحد غلمان القصر خرج لحاجة ثم عاد ، وكان الظلام رغم القناديل والشموع قد اشتد ، دخل كلب الليل مخدع الأميرة غزالة الذي لا يخفى عليه ، واختبأ فيه ، وبعد حين أتى الغلمان والخدم بالملكة وهي تكاد يغمى عليها من كثرة الشراب واللهو ، وقامت الجواري بخلع ثياب الحفلة عنها وإلباسها ملابس النوم ، ومددوها على السرير واستغرقت بنوم عميق وبعد حين قصير أتى الغلمان

والجواري بالملك السكران ، وأرقدوه على سريره بجوار الملكة ، واطفأوا المصابيح والشموع ، ولما سكن القصر وخفت الحركات ، ولم تعد تسمع سوى أنفاس السكارى والمخمورين من كثرة الشراب والسكر انتزع كلب خنجره المشحوذ وأغمده بصدر بهراما ، وغطاه ، وتسلل هاربا من القصر ، وقال لزهران : لقد قتلت بهراما ! لأرى ماذا سيحدث بغزالة اللعينة ؟! لقد ظنت أننا نسينا القتل والسلب !

فهتف الغلام مصعوقا : قتلت الملك ؟!!

فقال : أجل يا زهران ! .. ستشتعل البلاد لهيبا.. خذ حذرك وأنت تأتي إليّ في الجبل .. إياك أن تصل قومنا بضعة أيام ، هم لا يعرفون غضب كلب الليل بن الغضبان إذا غضب .. إنها تريد كنوز أبي .. تخوفني بـزوابع.. فمن أين له أن يصل لكنوز الغضبان ؟! .. كل شيء كان الغضبان يحب أن يفعله بيد غيره إلا المال فقد كان يخبئه بيديه.. المال هو العظمة والقوة يا زهران .. احترس أيها الرفيق وأنت تأتى بالأخبار .

وكما توقع كلب ، لقد قامت الدنيا ولم تقعد عندما اكتشف القوم مصرع مليكهم ، فهاج الناس وماجوا ، واضطربت المدينة لهذه الطعنة الغادرة ، والكل يسأل من هو القاتل ؟! من هو صاحب المصلحة في قتل بهراما ؟! وكانت غزالة واجمة باكية ربما حزينة ، وتقول : ما فعلها إلا عمي كلب ؛ ولكن كيف ؟! .. لقد هرب ولم يجده رجالي وأعواني .. سأقتلك يا كلب قتلة الكلب .

عجز الأمراء عن معرفة القاتل لبهراما ، وقاموا بدفنه وتنصيب أكبر أبنائه ملكا على البلاد والعباد الملك شهراتا ، ولما تمت بيعته ، فكان أول أمر أصدره هو طرد زوجة أبيه غزالة وقومها من البلاد ، واعتبرهم هم السبب وراء مقتل والده رغم عدم وجود دليل على ذلك الاعتبار ، فعادت غزالة تجر أذيال الخيبة إلى معسكر قومها ، ورأت الجنود وهم يضربونهم ويطردونهم شر طردة من البلاد وحيث يقطنون ، فأخذت بالنواح والبكاء ، وأرسلت إلى الملك تترجاه بالعفو عن أخيها شداد ورجال قومها الذين أمرت بسجنهم في حياة أبيه ، وأنهم سيغادرون البلاد كما

يشاء الملك الجديد .. فأخرجهم شهراتا من أجل روح أبيه ، فخرج الجميع هاربين يبحثون عن مكان جديد يأوون إليه ، ولما رأت شدادا قال لها بغضب : هذا ما جنيت على نفسك يا غزالة ؟! أصبحنا مطرودين ولا راعي لنا .. أنت سبب هرب عمنا وملكنا طمعت بالملك ..!

فقالت بحقد وغضب : أخبر الرجال بأنني سأعلن نفسي ملكة عليهم ، ومن يرفض ملكي فليهجرنا ويبتعد عنا .

فضحك ساخرا وقال : أنت تحكمين على نفسك بالموت .. فاحذري الغدر ممن يبايعونك .. فالمعركة قد بدأت .

فقالت : لا .. بل انتهت أيها الرعديد .. وأقسم بالذي خلقك إنه ما قتل الملك إلا عمك الجبان كلب .. ولكن لا أدري كيف دخل القصر ؟!

فقال شداد وهو ينظر للأفق البعيد : أمر وانتهى .. فلنحافظ على أنفسنا .

فقالت بحقدها وغضبها : لن يهدأ لي بال حتى أرى عمك صريعا مجندلا ، كما جعلني أرملة سأجعل بستونة أرملة .

فقال شداد : أين دم وعل الجبل الذي تعاهدنا على تحقيقه ؟!

بايع القوم غزالة الغاضبة ملكة عليهم رغما عن أنفسهم ، ولئن تفرقهم في هذا الظرف ضعف كبير لهم فوق ضعفهم ، ونصبوا خيامهم بين وادي السرحان ومملكة شهراتا بن بهراما .. وكانت هذه الأخبار تصل لكلب عن طريق غلامه المتسول زهران ، ولما استقر قومه وقد عزلوه عن الملك، قال كلب : هل سأبقى طريدة من غزالة الملعونة ؟! .. زاد تعديها عليّ .. لابد من قتلها ما تقول يا زهران الطيب الوفي ؟!

فرد زهران قائلا : لقد تنمرت يا سيدي !.. أصبحت نمرة قاسية الفؤاد ، والأمر لك ، وأنا عبدك وخادمك المخلص يا سيدي الملك .

ثم فكر كلب قليلا وقال : هل ترى أيها الخادم المخلص أن قتلها سيحل مشاكلنا أم ستزداد ؟

فقال زهران الخادم : ليس لها ولد يطالب بالثأر بدمها ، ولكن إخوتها كثر ، وأكثرهم لا يطيقها

ولكن الدم يفجر الدم ..

فقال كلب بحقده وجفائه : ولكنها تمردت وتمادت ، ونصيرها بهراما قد هلك كما تعلم .. عليّ أن ألتقي بكبار قومنا وعشيرتنا سلالة الغضبان وأنصارهم وحلفائهم .

فقال زهران : وعيونها ؟!.. ولا هدف لها إلا رؤيتك ، فلا تغيب خيمة زوجتك عن ناظريها .

فقال كلب : سأجد ثغرة أيها الشيطان وأصل إليها .. الأيام تضعف الأقوياء .. أريد أن أجتمع بابني الكبير يا زهران .. سأكون عند عين الشجرة .. فليكن هناك بعد يومين .. سأجعل منك ساعدي الأيمن يا زهران ! وأزوجك ابنتي زينة الجبل إذا نجحت وعدت ملكا على قومي بدلا من تلك الملعونة .

عند عين الشجرة التقى الأب وابنه وتشاكيا وتباكيا ، ثم قال كلب : يا ولدي قررت قتل غزالة كما قتلت زوجها بهراما !..لا تندهش أنا الذي غدرت به ، وأنا ابن الغضبان وابن الجبل ولو شئت يومها لقتلت تلك النمرة معه ؛ ولكن أحببت أن أعيد لها صوابها وعقلها وأذلها ؛ وها هي مصرة على معاداتي ، وتمردت على الركون إلى مخدع النساء وخدرهن .

فقال الابن : إنها تعرض عليّ نفسها ، تريدني زوجا لها ..

فقال كلب : زوجا لها ؟! يا لها من ماكرة ! عرفت من أين تؤكل الكتف ؟!.. تريد كشف أسرارنا وهل نحن على اتصال ؟ .. لا يا ولدي إنني قاتلها اليوم أو غدا .. أريدك أن تهيئ الرجال لعودتي فإني قادم إليكم قريبا .

استدعت غزالة ابن عمها رشق وقالت له : لم أسمع جوابك يا رشق يا عاشق الصيد ؟! .. ماذا صدت في خرجتك الأخيرة ؟.. ألست أهلا للزواج منك ؟

فقال رشق بخبث : إني حائر أيها الملكة !.. أترضين بي بعدما نكحت ملكا كبيرا ؟

فقالت بغرورها المعروف : نحن أبناء اليوم يا ابن عمي ، وأنا اخترتك دون رجال القبيلة والأقارب.. ليعرف والدك النذل معزتكم عندي ، ولا يـفكر بالعودة إلينا وطلب الملك .

فقال وقد تخابث أكثر : وهل إذا رفضت تبقين على حياتي ؟

فقالت بحدة : لا أظن ذلك .. سأتزوجك يعني سأتزوجك .. وغزالة لا يقال لها لا .. هل سمعت ؟

فقال بتخاذل : أنا رهن إشارتك .. أنا لا أحب أن أموت ، أرضى بأن أكون زوج الملكة .

فقالت ضاحكة : أحسنت يا رشق ! بدأت تفهمني الآن .. أخرج وأعلم أشياخ القوم وأتباعنا أن الزواج ليلة الجمعة .. ولتقم الأفراح والليالي الملاح على شرف الملكة غزالة .

وأخذت تضحك وتقهقه حتى ظن رشق أنها مجنونة !

وقامت الأفراح في معسكر القوم ، ونصب خباء كبير ليكون سكنا للزوجين ، ولما انتهت رقصات القوم .. تقدم رشق وأمسك بيد العروس اليسرى ، ورقصا عدة رقصات، ثم تقدم بها نحو مخدع الزواج ، وعند منتصف الطريق تراجع المحتفلون ، وابتعد الحرس عن الخباء والخيمة الكبيرة ، ولما وصل رشق الخيمة فتح بابها وهتف : ادخلي يا مولاتي الملكة إلى قصرك الجميل !

فقهقهت وهي تدخل وقالت : قصر !! .. ويلك يا رشق ! هذه خيمة جرباء ؛ ولكن للأسف لابد من الحياة فيها .

ولما استقرت بداخلها ، وتخففت من بعض ثيابها قالت : مالك أيها الزوج ؟! .. ما زلت بثياب العرس ؟!

وقبل أن يرد عليها الزوج رشق برز لها كلب الليل وهو مشهر خنجره قائلا هائجا : إني قاتلك يا غزالة !

فخافت من المفاجأة وقالت بصوت خفيض : عماه !!

فصاح : أجل عمك يا غزالة اللعينة !.. تريدين ثروة الغضبان .. فأعلمي قبل أن تموتي أنني أنا الذي قتلت بهراما .. وسأقتلك أيتها الملكة ..

وقبل أن تتكلم أو تصرخ أغمد الخنجر في صدرها ، فشهقت شهقة الموت وماتت ، وخرج فوجد رشقا قد قدم له جوادا،وظهر رجال ملثمون، فصاح فيهم كلب الليل : يا قوم .. استقيظوا من سكركم وخمركم .. أنا كلب الجبل .. كلب الليل .. لقد قتلت غزالة

أيها الجبناء كما قتلت بهراما الملك !

فهرع الناس من منامهم مذعورين مولولين قبل قليل كانوا يسكرون ويمرحون ، فطار السكر وطار المرح ، وسمعوا كلبا يعلن نفسه ملكا عليهم ثانية ، ويحذر أولاد أخيه من الغدر به ، وكان يهتف : غزالة لقد طغت وتجبرت علينا ! وحبست أبناءنا وتسلطت علينا .. وهذا عار كبير في حياتنا وتاريخ الجبل وحياة قومنا !! فأردت إنقاذكم من طغيانها وجبروتها .. هل سمعتم ؟!

فهجم عليه شقيق لغزالة وهو يصيح : كذبت يا غدار .. يا جبان يا هارب !

ورماه بخنجر حاد النصل ، ورغم الظلام فقد أصابه ، فدب الهرج والمرج والقتال بين القوم حتى الصباح ، ولم يمكث كلب إلا أياما ثم هلك ولحق بغزالة غريمته ، ورفض أن يكشف لهم مخبأ الغضبان في جبل الرملي، ودفنوا قتلاهم ، وداووا جرحاهم ، واتفقوا على أن يتفرقوا بين الناس وبين المدن ، ولا يتعرف بعضهم على بعض إذا رآه ، وهكذا اختفى قوم الغضبان ورجاله.

وانتشر خبر مقتل غزالة وكلب بين الناس شرقا وغربا حتى وصل مسامع الأمير سيف وأخته جميلة ، فقال : يا ترى هل أفضى بسر الكنوز لأحد ؟! .. أموال أمي ما زالت في نفسي وبالي يا جميلة.. ما رأيك بأن نسير لوادي السرحان ؟ لـعلنا نصل إلى كنوز الغضبان ونعيد أموال مدينة أبي كبشة وتسكن حينئذ نفسي وروحي .

فكرت جميلة قبل أن تجيب ثم ردت قائلة : ما رأيك بأن نزور عبسان في السبع عدسات ؟ فهو من أصدقاء الغضبان القدامى منذ خمسين سنة قد مضين ، بل بدآ معا .. فلعل عنده علما بمدفن الكنوز .

ضرب الفارس جبهته لفطنة أخته وقال : أحسنت يا جميلتي !.. أجل لابد من لقاء عبسان وليمونة ، فهم من أوائل من سكن في وادي السرحان .

كان الملك قيس لا يخشى على ولديه جميلة وسيف من قطاع السبل واللصوص ،

فسيف رُبي في الجبال وبين اللصوص ، وجميلة من خير النساء التي ركبت الخيل في بلادالرايات

وحياتها سنة في الصحراء زاد من ثقته فيها ، فلذلك لما طلبا زيارة عبسان للسؤال عن كنوز الغضبان أذن لهما بالرحلة بكل أريحية.. وكان الأميران سعيدين برفقة وصحبة بعضهما البعض كان سيف يحب أخته جميلة حبا كبيرا ، ويسر بالجلوس معها والكلام معها ، وهي أيضا تبادله هذه العاطفة النبيلة حتى أن الذي لا يجد جميلة في حجرتها سيجدها بالتأكيد في حجرة سيف والعكس صحيح .. وأخذوا هذه المرة معهم في رحلتهم غلاما واحدا ؛ ليقوم على خدمتهما ، ومشيا في اتجاه بلاد السبع عدسات ، وقد علما أن الرحلة تحتاج إلى سبعة أو ثمانية أيام .. واجتازوا دروبا مأهولة تسير عليها القوافل التجارية ، ودروبا مهجورة لقطع المسافات ، وكانا سعيدين بهذه الرحلة ، وكانت الأميرة مسرورة بحكايات سيف في الجبل، وقصص السطو والنهب وقطع الطريق ، وكانا أحيانا يدخلان قرى الفلاحين للتزود بالماء والطعام ، ثم يتابعون المسير نحو السبع عدسات ، ذات مساء وقبل الغروب بساعات انحرفوا نحو قرية وبساتين ظهرت لهم .. فقال سيف : فلنرقد الليلة قرب هذه البساتين .. يا عبشلي هات لنا الطعام .



فأشعل عبشلي الخادم موقد النار وارتفع الدخان ، وكان سيف قد صاد أثناء السير عدة أرانب بالسهام ، وملأت رائحة الشواء المكان وبينما هم مسرورون في الأكل والكلام ظهر أمامهم خيالة ثلاث ، وعدد من العبيد ، وهم يحملون العصي والفؤوس وأدوات الحرث ، ثم اقترب منهم الخيالة الثلاث ، ولم يظهر أبطال القصة أي خوف أو قلق بل قال سيف: انزلوا إلى مائدة الطعام أيها الأسياد ..

فنظر الرجال الثلاثة بعضهم إلى بعض بقلق ، وقال أحدهم : ماذا تفعلون قرب البستان ؟!

فقال سيف : كما ترون نشوي هذه الأرانب ونحاول بلعها.. وأنتم من أنتم ؟.. أأصحاب هذه البساتين والثمار؟.. بل هذه القرية لأي المدن تابعة ؟!

فقال آخر : بل من أنتم أيها السادة ؟

فقال سيف : عابرو سبيل.

فقال الرجل الأول : يبدو عليكم أثر النعمة ، فثيابكم جميلة وثمينة رغم التعب الظاهر عليكم ونحن من رجال صاحب هذه البساتين والجنات ، وهو أحد الأمراء .. وقد ظن هؤلاء العبيد أن حريقا شب في البستان ، وأن لصوصا يفعلون ذلك فهرعنا إليكم .. ولابد أن تأتوا معنا ليراكم الأمير قبل المغادرة .

فقالت جميلة وقد تركت الطعام : ما ذكرتم لنا اسم أميركم ؟

فقال أحدهم : عندما ترونه سيذكر لكم اسمه .

فقال سيف : الحق أيها الرجال نحن نريد الآن الاستراحة والنوم ، ولا حاجة لنا برؤية الأمير، وبلغوه السلام والتحية عنا، واعتذروا لنا عن هذه المقابلة واللقاء .

ولكنهم قبل أن يسمعوا الجواب سمعوا فتاة حسناء ظهرت على ظهر حصان أشهب تقول لهم : سلام عليكم أيها القوم .. من الضيوف يا شمو ؟!

أدى الرجال الثلاثة والعبيد التحية للأميرة وتمتموا : الأميرة !.. يا مرحبا بكِ !

وسمع الرجال سيف وأخته يرحبون بالأميرة الشابة أيضا .. كانت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها كما يبدو للناظر ، ذات جمال بديع وشعر طويل وعيون واسعة ، فعادت الأميرة تسأل: من هؤلاء القوم يا شمو؟

فقال شمو : أغراب يا مولاتي !.. عابرو سبيل جلسوا يستريحون هنا ولشواء الصيد كما يظهر وقد ظن الخدم والعبيد أنهم يحرقون البستان .

فقالت الأميرة : نحن نرحب بالضيوف ، والنوم في القصر خير من النوم في العراء وعلى التراب يا سادة .. وأبي رجل كريم ! ويحب إكرام الغرباء ، وسوف يسر برؤيتكم وضيافتكم

أثنى سيف على الأميرة ووالدها وقال : بوركت أنت وأبوك ! ولكن يا أخية .. نحن سنستريح ساعة أو ساعتين ثم نتابع السير إلى بلاد السبع عدسات ..

فقالت الأميرة مصممة على ضيافتهم : ولا أظن أن أبي سيؤخركم .

فقالت الأميرة جميلة : يا أختاه ! جزاك الله خيرا ، نحن لا نرغب بالنوم داخل القصر بل سنتابع

السير .. هيا يا أمير سيف .

فقالت الأميرة مستغربة : أمير سيف ؟!

فقال سيف باسما : نعم ، نحن أمراء مثلك أيتها الأميرة .. فهذه الأميرة جميلة بنت الملك قيس وأنا أخوها سيف الزمان ، ولولا زلة لسان أختي ما أحببت قول ذلك ..

ضحكت الأميرة وقالت : هذه حيلة ساذجة للفرار منا .. !

فظهر الغضب على وجه سيف وهو يقول : نفر منكم ! وماذا فعلنا لنفر منكم ؟!.. بل ويحك بقولك حيلة ساذجة ! ولماذا سنحتال عليك ؟! أتظنين أننا خائفون منك ومن رجالك ؟ .

فصاح شمو مظهرا حمية وقال : تأدب أيها الفارس .

واستل سيفه في وجوههم ، فكان سيفسيف أسرع منه ، وأطار السيف من يده فورا ، وقد احتقن وجه غضبا لتصرف الرجل ، ورفعه السيف في وجوههم

وقال : انصرفوا .. خذي رجالك أيتها الأميرة وانصرفوا ..

فقالت الأميرة متحدية: لا .. لقد أهنتنا أيها الغاضب..!!

فتدخلت جميلة قائلة: يا أميرة .. حرام عليك أن تجني على هؤلاء المساكين .

فقالت الأميرة بغضب : ولماذا هم يعملون عندنا ؟! .. إذا لم يستطيعوا أسركم .. هيا اهجموا أيها الرجال ..

بدأت معركة ، كل رجل نخزة في رأس السيف فيسقط مغمى عليه أو جريحا ، وخلال دقائق كانت الأميرة وحدها ، ورجالها الثلاثة صرعى على الأرض ، وعبيدها بين أنين وبكاء وألم ، فسقطت عن الجواد ذاهلة من فروسية الثلاثة ، وسحبت سيفها من الغمد ، وقالت بزعيق وحقد : فارس لفارس !

فقالت جميلة باسمة : دعها لي يا سيف .

لم تصمد الأميرة الغاضبة أمام جميلة سوى بضع حركات ، وفقدت سيفها ، فأخذت تبكي وتصيح وتقول : أنا القوية الفارسة أخسر سيفي بلحظات إنكم شياطين !

فقالت جميلة وهي تضع قدمها في ركاب الجواد لتركبه : هيا يا سيف ! .. وداعا أيها الصبية نحن سائرون لبلاد السبع عدسات ؛ فإن أحببت اللحاق بنا فاتبعينا يا أميرة .. ولكن لم نعرف اسمك بعد ولا اسم أبيك ؟!

فقالت من بين دموعها وغيظها : أبي لن يغفر لكم ذلك .. أنا الأميرة قمر بنت ماجد .

فردد الأخوان معا : ماجد !!

فهذا الاسم له وقع على أسماعهما ، فنظر الأخوان في عيني بعضهما ، وقالا : أمعقول أن يكون هنا ؟!

وتوقفت جميلة عن اعتلاء صهوة الجواد وقالت : من أي البلاد أنتم ؟!

فقالت الأميرة وهي تكفكف دموعها : أتعرفان أبي ؟!



قمر بنت ماجد

لما سمع الأمير ماجد صاحب البساتين والحدائق بالمعركة ، أتى مسرعا ومعه باقي رجال المزرعة وقصت عليه الأميرة قمر قصة المعركة فاستصعب الأمر وضاق بالحادثة، وقد خشي من معركة جديدة ، وكان يستمع لابنته والأمراء على خيولهم صامتين ينتظرون ردة فعله وينظرون إلى الأمير ماجد ، ويرون أن سنه ليس من جيل أبيهما الملك وأمهما الملكة سُلمى ، يبدو أنه في الثلاثين سنة ، فقال سيف لما خيم الصمت : أيها الأمير !.. نحن لا نحب الاعتذار ، ولا الاعتداء .. فقد اتهمتنا ابنتك بالحيلة والكذب عندما ذكرنا لها اسم والدنا وأسمائنا ، وأصر رجالك على قتالنا ، فما كان أمامنا إلا الدفاع عن أنفسنا .

فقال الأمير ماجد: وهل أنتم صدقا وحقا من أبناء الملك قيس بن خصيب ملك بلاد الرايات ؟!

فقال سيف : ولماذا نكذب ؟! .. بل قلنا لهم أن وجهتنا مدينة السبع عدسات ليزدادوا اطمئنانا

فقال الأمير : وقد تغلبتم على كل هؤلاء العبيد ؟!

فقال سيف : نحن حذرنا الأميرة الصغيرة من ذلك قبل المعركة ؛ ولكننا لم نقتل أحدا منهم .. إنما هو جرح بسيط ليكف عن القتال .

فقال الأمير فجأة : أتعلمون أنني غريمكم ؟!.. وكاره لكم وحاقد عليكم وقد ساقتكم الأقدار إلينا .

فقال سيف وقد استغرب لتغير لهجة الأمير الهادئة : ولِمَ أيها الأمير ؟! فما الذي بيننا وبينك ؟! وهذه أول مرة نراك فيها !

فعاد ماجد يقول : ولكني رغم ذلك خائف من قتلكم ، فأبي حدثني عن الملك قيس وزوجته الملكة سُلمى وجبل السرحان ..

فقال سيف دهشا ومتحديا: كيف ذلك ؟! ومن هو أبوك ؟! .. ولماذا تخشى أبانا؟! ومن سيعلمه بقتلك لنا أيها الأمير؟؟ فما نحن إلا ثلاثة ؛ فإذا قتلتنا ودفنتنا تحت الثرى .. فلا أظن أن أحدا

سيعلم بذلك إلا إذا خانك أحد رجالك ، وأحب أن يرث عنك هذه المزارع والبساتين ، فيذهب ويخبر الملك قيس بذلك القتل .

تنهد الأمير ماجد وهو يتطلع برجاله وللفكرة التي أوحى لهم بها ، فقال الأمير ماجد : نحن بيننا ثأر قديم ! .. وصدقوني أنني لا أحب حمله لو رضيتم بالمسالمة والمصافحة والثقة بيننا ، بل أهبك هذه الفتاة عروسا لك .

دهشت الأميرة قمر والأميرة جميلةوالسامعون لهذا العرض الغريب ، فقال سيف : رغم غرابة ما أسمع فإني أصدقك !.. وسوف أسألك سؤالين ؛ فإن صدقتني سأدخل معك القصر وأنا مطمئن .

فقال الأمير ماجد : إنك ذكي ! ولابد أنك تعرف الأسرار .

فقال سيف : هل عاش أبوك بوادي السرحان ؟

فقال الأمير : أبي اسمه ماجد كاسمي ، وله رفاق بوادي السرحان .. والسؤال الثاني ؟

فقال سيف : والدك من بلاد أبي كبشة ؟!

فقال ماجد : أجل !.. هو من بلاد أبي كبشة وقد جار عليه الزمان !

فقال سيف : أحيٌّ والدك ؟!

فقال الأمير : لا .. ولكنه حملني ثأرا وحقدا على الملك قيس وأولاده ! .. وها أنتم بأرجلكم أتيتم إلينا .. فسبحان الخلاق العليم !

فقال سيف : ما دام قد مات أبوك ، فلا داعي لحمل هذا الثأر .. ولنتصالح .. والآن تطيب النفس للدخول إلى قصرك .. لتعلم أننا لا نحقد على رجل لم نعاصره

كانت جميلة مدركة لكل ما يتكلم به الرجلان .. فهذا الأمير ابن الأمير ماجد ابن خال أمهم الملكة سُلمى .. فأمر الأمير ماجد بنقل الجرحى الذين لا يستطيعون المشي إلى القصر والعناية بهم ، وتصافح مع الأمير سيف وحياجميلة وخادمها وقال سيف : أنا أعرف أباك .. لقد عشت في الجبل ما مدته العشرون سنة ، وكان يومذاك اسمي الأمير زوابع سيد اللصوص وأميرهم

فهتف ماجد قائلا : أوه ، إن هذا لشيء عجاب ! والذي نفسي بيده إن أبي حدثنا عنك، وإن زوابع هو ربيب الغضبان ، بل كان أبي يقول لي ولأمي لولا أن الغضبان غضبه الموت لظننت أن زوابع هذا ابن الملكة سُلمى المفقود ، للشبه الكبير كما بدا لأبي بينك وبين أمك الملكة فسر سيف وجميلة لهذا الكلام فقال سيف: أبوك قال ذلك؟!

فقال الأمير : أجل .

فقال سيف : الحمد لله أنه لم يقلها أمامه وإلا لقتله فعلا .. فأنا ربيب الملك الغضبان سيد وادي السرحان ، وقد رأيت والدك الأمير وهو برفقة أبي الليل في وادي السرحان ، وأنا عرفت أهلي منذ عهد قريب أيها الأمير .

فقال الأمير : أبو الليل هو صديق والدي ، وسأقص عليك بعد العشاء قصة أبي ماجد منذ نجا من معركة أبي كبشة ..

احتفى الأمير ماجد بالضيوف ، وأمر بإعداد وليمة كبيرة للضيوف ولأهل المزرعة جميعهم ولما انتهوا من الطعام جلسوا في ديوان واسع لسماع قصة الأمير ماجد الهارب من معركة إعادة الملك لسلالة الملك جعد بن همام .

قال الأمير بعدما روى قصة خطف والده ابنة عمته والهرب بها لرجال الجبل : ولما بدأت آثار الهزيمة على رجال العشيرة ، ورأى أن القوم يستعدون للاستسلام أخذ أمواله ومجوهراته وزوجه وابنيه ، وأمر أحد غلمانه المخلصين له في انتظاره خارج أسوار المدينة في مكان معروف لهما ، ولما بدأت المعركة الأخيرة ورأى أن جند أبيه أخذ بالاستسلام وإلقاء السلاح ـ وكان متحسبا للهزيمة ـ فر هاربا ومبتعدا عن المدينة الساقطة لما بينه وبين الأمير قيس والأميرة سُلمى من أحقاد وثارات ، ولما التقى بغلامه وزوجه ساروا هاربين حتى أتوا مدينة الخان ، فسكنا منزلا مستأجرا وتظاهر أنه غريب ضاقت به بلاده ، وسمى نفسه محمود بن ناجي وعمل بالتجارة فترة من الزمن هلكت فيها أمي ، ثم تعرف على ابنة أحد التجار الكبار فتزوجها فانجبت له أختي ماجدة ، ثم لم تعد تنجب ، ثم مات شقيقي الأصغر قبل البلوغ ، وخلال عمل والدي

بالتجارة كان يتردد على جبل السرحان ، وكان طامعا بالانتقام والثأر من الملكة سُلمى ؛ ولكن لم يتيسر له ذلك بسبب سطوة الغضبان وجبروته ، ولما هلك أبو الليل ، ولم يتمكن من الانتقام ولم يصغ الغضبان لانتقامه عاد واستقر في المدينة ، وقد يئس من انتقامه ، وكنا نحن نظن غيابه عنا يا سيف ! للتجارة ، فلما وصل حد اليأس أتى هذه القرية واشترى هذه البساتين من ورثة أحد التجار ، وأنزلنا فيها ، وبعد حين من الزمن اعترف لنا بقصته وحبه للأميرة سُلمى ابنة عمته .. ثم ظهر الأمير قيس ابن الملك خصيب في حياتهم ، ووافق والدها الملك على اقترانها بـ قيس ، فاضطر للمكر بها ، وأخرجها بالحيلة إلى وادي السرحان عند أصحابه من رجال الجبل .. ثم عرف شيطان اللصوص الغضبان بوجود الأميرة في الجبل فاستولى عليها ، وأرادها لنفسه ، ثم ظهر الأمير قيس و صقر والباقي لابد أنكم تعرفونه .. ورغم الصورة القاسية التي التقينا فيها ؛ فأنا سعيد بوجودكم ، ونحن أقارب رغم العداوات بين والدينا ، ورغم الحقد والثأر الذي أوصاني به قبل أن يموت ، لم أهتم بوصيته ، ولم أسع في يوم من الأيام للشروع في تنفيذها .. فأنا ضعيف وعاجز عن ذلك ، ولا أريده ، ولا مطمع لنا في الملك والحكم ، ونحن سعيدون بالحياة في هذه القرية الهادئة .

وقص سيف قصته على مسامع الأمير ماجد وابنته قمر وبناته وأولاده ، مما أدهش السامعين وأثار دهشتهم حتى قالت الأميرة قمر : ابن الملك يعيش بين الوحوش أكثر من ربع قرن .. يا الله !!

فقال الأمير ماجد : كان انتقام الغضبان من والديك انتقاما رهيبا وقاتلا ..الآن فهمت لماذا كانوا يرفضون تحريض أبي للانتقام من الملك قيس والملكة زوجته؟! .. فهو قد انتقم منهم ، ولا يريد فضح سره خوفا من معرفة الملك قيس بذلك ، فيدمر الجبل والوادي على أصحابه وساكنيه والآن كيف عرفت أهلك ؟

فعاد سيف يقول : اللعين كان يريد مني أنا أن انتقم من والديّ ، حرضني على سرقة جواد الملك قيس بطريق ذكية بايحاء ، ودفعني لسرقة أموال أخي الملك مرعي ملك بلاد الأكباش

كبرت وكبر التمرد والإجرام والمغامرة في نفسي .. فسرقت فرس الملك قيس ورد ابنة الفرس المشهورة دموع ونجحت في ذلك ، ثم عرف الملك قيس بعد حين ذلك بواسطة أحد رجاله الشجعان الذي دخل علينا الجبل ، ومكث بيننا سنة ، فعرف الكثير من أسرارنا الخفية ، فصمم على غزونا ، ولكنه قبل الغزو أحب أن يحل القضية سلما ، فأرسل رسالة يطلب فيها الجواد والمال الذي سرقناه من خزائن الملك مرعي .

ثم تحدث عن محاولة خطف أبيه ، وكيف ركبت الأميرة الجواد الهائج ، ونجا الملك من الغدر ، ثم كيف اجتمعت الأميرة بـعبسان أحد رجال الغضبان القدامى ، واستمر الحديث للصباح ، فاستمع الأمير ماجد القصة ، وتعجب من شجاعة الأميرين ، ولما استيقظ الجميع من النوم كانت الأميرة قمر عاشقة ومحبة للفارس الشجاع ، وتتمنى أن يقبل بها زوجة لسماعها رفضه كثيرا من الأميرات في بلاده وبلاد أمه الملكة ، ولما تحدث والدها ثانية بذلك قال سيف : إنني شاكر لك ذلك الكرم ، ونأسف للعراك الذي جرى بيننا وبين رجالك وسيصفح الملك قيس عنكم ، ولا أظن أن أبي يحقد عليكم ، ولا حتى على والدك ماجد ، فإن أبي يعتبر ذلك ماض وقد انتهى ، فـعبسان الذي ساعد الغضبان في خطفي صغيرا عفا عنه والدي وصفح وأكرمه .. وأما بالنسبة للزواج من كريمتكم أيها الأمير الشهم فهذا يقرره الملك .. وتأكد أني سعيد بالزواج من هذه الأميرة الجميلة التي كادت أن تجن عندما هزمتها جميلة ، فأظن الآن أنه قد ذهب إحن قلبها علينا ، وإن كان هذا الزواج قد يغيظ أمي ؛ ولكنك كما قلت نحن بيننا صلة رحم وقرابة ، والصفح والعفو سيد الأحكام .. فلما أنتهي من قضية كنوز الغضبان ، ونعيد أموال خزائن أخي الملك مرعي التي سرقتها أيام وادي السرحان اللعين ، سأرسل لك هذا الغلام الطيب أو ربما غيره ؛ لتزور الملك قيس ، وتلمس عفوه وتسامحه ، وإن شاء الله نعود أهلا وخلان يا سيدي الأمير .. أنظر إليّ أين كنت قبل سنة ؟ وأين أنا اليوم ؟!

فقال الأمير ماجد بفرح : نحن في انتظار خطابك وغلامك أيها الفارس والأخ النبيل ! لقد كان والدنا – رحمه الله – يحدثنا عن شجاعتك رغم صغرك ، قبل أن يهجر وادي السرحان أو قل

قلّ تردده عليه.. فحيهلا .

وأمضيا ثلاثة أيام في ضيافته، ثم ودعوه وجميلة تقول لأخيها: لقد مات إذن ماجدعدو والديَّ وهل أنت مقتنع ومسرور بالزواج من تلك الأميرة المغرورة ؟!

فضحك سيف وقال : هي حقا مغرورة ! ولكنها فاتنة ، وما زالت طفلة يا أخت الملوك .. وتابع الحديث فقال : والزواج والمصاهرات – يا أميرتي– من الأشياء التي تزيل الأحقاد والضغائن ، ثم أن عشيرتهم قد تفرقت في المدن والقبائل.. ولا خطر على ملك أخينا مرعي منهم ، بل ربما كان هذا الاقتران منسيا الأحقاد والبغض والتفكير بإعادة الملك ثانية وثالثة ..

عندما شاهد عبسان الأميرين أمامه كاد يطير من الفرح والسعادة ؛ فكأنه كان على موعد معهم فالتزم الأمير سيف وعانقه ، وقبل الأميرة من رأسها وقال متحسرا : إيه يا جميلة يا غالية لقد كانت أيام الصحراء حلوة !.. لقد كانت تلك الأيام أيام سعادة ومرح .. يا أهلا ويا مرحبا بكم في بيت عبسان .

وعانقت ليمونة الأخوين عناق المشتاق والوفاء ، وصنعت لهما مائدة جميلة ، قرت بها عيون الضيوف وقال لهما عبسان: لقد كنت أفكر بالرحيل إليكم ، اسألوا ليمونة لقد خيل لي يا جميلة إنك ابنتي ومن صلبي ، دائما أنا وليمونة في ذكركم أيها الأحباب .

وقضى الأخوان ثلاثة أيام في ضيافة عبسان ، وتفرجا على مدينة السبع عدسات ، وقدمهما عبسان للوزير الأكبر ، فقد كان له عونا في مطاردة اللصوص ورجال الليل ، وأكد لهم توبته وحرصه على أمن المدينة ، وكان الملك قيس قد تشفع له عند الملك ، وقبل الملك شفاعته ومنحه بيتا جميلا ، وقام الوزير بإخبار الملك بزيارة ولديّ الملك قيس ، فاستقبلهما هو الآخر ، ورحب بهما وأهدى لهما ولوالدهما الهدايا.. ولما حدث عن شجاعة سيف قال له الملك : يا سيف بن قيس أريد أن أراك تبارز فرساننا ؟!

فابتسم سيف وقال : يا مولاي الملك .. أخشى أن أوغر صدرك ؛ فأنا ابن الجبل حيث القسوة والقوة الفردية ، وربيب الغضبان المشهور لدى الناس ..

فأقسم الملك على أن يرى مبارزة سيف لفرسانه ، فاختار الملك سبعة فرسان ، ونزل القوم للميدان ، وطلبت الأميرة جميلة من أخيها سيف أن يأذن لها بالمشاركة بالمبارزة ، ووافق الملك على ذلك وقد أوصى ألا يؤذوهما ، فارس لفارس ، فتفوق سيف على أربعة ، وجميلة على ثلاثة أمام دهشة الحاضرين ، فطلب الملك أن يهجم السبعة على الفارسين ، ومرة أخرى أثبت سيف وجميلة شدتهما وبأسهما .. فنزل الملك نفسه الميدان وقلد الأمير سيف قلادة عظيمة في بلاده ، ومثلها لـجميلة ، وأثنى على شجاعتهما وقوة قلبهما ، وقال ضاحكا : ما رأيكما أن تتبارزا ؟!

فضحكا وقال سيف: منذ التقينا ، ونحن نتدرب ونتمرن معا .. فالسيف يحتاج لعضل قوي ، وقلب أقوى أيها الملك.. وأرجو أن تقبل اعتذارنا لغلبتنا فرسانك الأشداء ، فهم نـعم الفرسان ولكن لابد من غالب ومغلوب .

وأقاما في ضيافة الملك ثلاثة أيام أخرى ، واتفقا على أن يذهب بصحبتهما عبسان إلى وادي السرحان للمحاولة وإخراج كنوز الغضبان وإعادة أموال الملك مرعي ، فأوصى عبسان عمران على زوجته ليمونة حتى تنقضي هذه المهمة الكبيرة ، وانطلق الأربعة نحو وادي السرحان في جبل ضراب .

قطعوا القفار والبراري والوديان وعند عين ماء أمر سيف الزمان بنصب الخيام ، فأناخ عبسان البعير الذي اشتراه من عمران ، وقاموا بنصب الخيمتين خيمة الأميرة وخيمة الرجال ، واستحم الرجال بالعين ، وقال سيف: هذا الوادي يكثر فيه الظباء يا عبسان ! قد ترددنا عليه أيام الجبل فلنقض فيه بضعة أيام نستمع بأكل الغزلان .. أليس هذا جميلا يا جميلة ؟!

فقالت الأميرة مبتسمة ومشجعة للفكرة : بالتأكيد .. فأكل لحم الظباء من اللحوم الطيبة في البراري .. والحياة في البراري جميلة وممتـعة !!

وفي الصباح ترك القوم الغلام الخادم عند الخيم ، وانطلق الأمراء وعبسان العجوز حيث تتجمع الظباء والوعول عند الغدران والأشجار الكثيفة ، وبالفعل ما كادوا يقتربون من سيل ماء عميق ومتسع حتى لمحوا الظباء الحسناء وحولها الكلاب والثعالب وبعض الطيور ترصد بعضها

بعضا .. فانطلقوا نحوها .. ولما شعرت بهم الحيوانات فرت مسرعة ، ولم تطل المطاردة فقد تمكن الثلاثة من محاصرة أحد الغزلان الصغيرة ، فسقط بسهم أحدهم فأسرعوا نحوه ، وقبل أن يدركوه ظهرت لهم لبوءة كامنة هناك ، ولولا سرعة سيف لانقضت على عبسان أقربهم للصيد ، فأصاب سهم سيف اللبوءة ، فزأرت وأبتعدت وهي تملأ المكان صياحا وزئيرا فقال عبسان : لولا سهمك لقتلتني اللعينة !

فقال سيف : لقد لمحتها تخرج فجأة عندما سقط الغزال صريعا ، كنت أظن أنها ستهرب عندما ترانا نركض نحو الصيد .. ولكنها اندفعت نحوك فما كان أمامي إلا رميها بسرعة ..

وأخذوا الغزال الميت وعادوا إلى الخيام، فلم يجدوا الغلام في انتظارهم ، ولا الجمل ، فقلق سيف وأخذ ينظر في الأرض ، ثم قال : لقد كان هنا رجال !.. اركبوا خيولكم .. إنهم ساروا بهذا الاتجاه – وأشار بيده لمكان سيرهم – وساقوا الجمل معهم فهذه آثار خفه .

وبعد ركض سريع سمعوا صوت رغاء ناقة، ولما وصلوا إليها لم يجدوا عندها أحدا ، فقال سيف : يبدو أنهم أحسوا بنا ، فنحن قريبون منهم .

وأسرعوا مجددا فلمحوا عددا من الرجال على خيولهم مسرعين وهاربين ، فصاح سيف : توقفوا أيها الجبناء ! .. توقفوا .

فتركوا الخادم وأسرعوا هربا؛ ولكن سيف لم يرض بذلك ، بل ظل يركض وراءهم ، ويتبعه عبسان ، وقد نزلت جميلة لتهتم بالخادم الجريح كما ظهر لها ، وأدركهم سيف وأشهر الجميع سيوفهم ، وقبل أن تبدأ المعركة قال الأمير وهو يخفف من ركض الحصان ويدور حول نفسه : من الرجال ؟!

ثم دار حولهم وسمع أحدهم يقول : لصوص .. رجال ليل .. قتلة .. سفاحون !

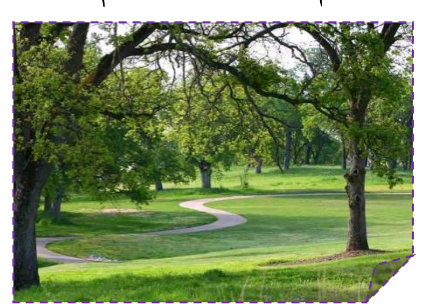
فقال سيف وهو مشهر سيفه نحو صدر أحدهم : ألم يخبركم الغلام بأنه غلام سيف بن الملك قيس؟!

فقال الرجل : بلى قد قال .. ولكننا طمعنا بالناقة وببيع المملوك .

فقال سيف : فأنتم لم تخشوا سيفي إذن ، من يريد منكم الموت أولا .

وأشار الرجل لرجاله بالهجوم.. فكان سيف يهاجم اللصوص ويدافع عن عبسان ، لا يريد أن يمس بأذى من أجل ليمونة ، وبعد قليل أقبلت الأميرة الشجاعة ، فهوى اللصوص بين جريح وقتيل ، وانصرف الأمراء وحملوا الغلام الجريح بذراعه إلى الخيمة ، فقد قام أحدهم بطعنه بذراعه ظانا بذلك إعاقة مطارديه عن المطاردة وإنشغالهم به ومعالجته، ولما وصلوا الخيمة وجدوا الوحوش قد نهشت الغزال ولم يبق منه إلا القليل ، فرماه سيف في الماء وهو يقول : لا نصيب لنا بأكل الغزلان اليوم .. ولكن لن أخرج من هذه الوادي قبل صيد غزال آخر!

وقاموا بمتابعة وإكمال إسعاف الغلام ، وصنعوا لأنفسهم طعاما مما يحملون من القديد .



دفائن الغضبان

سبحان الله ! اللصوص يقتلون ويسرقون ويجمعون الأموال ثم يهلكون ، فيأخذ هذه الذخائر والأموال غيرهم ، لما دخل الأمير سيف الزمان وأخته جميلة قلعة الجبل عمت فيها الأفراح ، وابتهج القوم بمشاهدة أولاد مليكهم بينهم ، وكان الأمير صقر قائد القلعة قد طاب له المقام فيها منذ بدأت الحملة منذ سنوات ، ومنذ بداية الإنشاء ، فبعد الترحيب الحار قال لهم : هذه المرة الثانية التي تزورنا الأميرة البطلة.. ففي المرة السابقة أتتنا الأميرة بسيف الفارس وهذه المرة ماذا تحمل لنا ؟!

فضحكت الأميرة وقالت : إنني مسرورة برؤياك يا عماه!..وتهديك السلام الأميرة عبلة والأهل كلهم ، وهم مشتاقون لرؤيتكم وينتظرون عودتكم .

فقال صقر : لقد أشرف البناء على الانتهاء ، فلم يبق سوى تضخيم الأسوار والأبراج وتأمين الممرات والطريق بين هذه القلعة والقلعة الأخرى .. لعلكم مررتم بها ورأيتم الأمير خزون .

فقال سيف : للأسف لا .. لم تكن طريقنا من جهتها ..جئنا من جهة السبع عدسات .. نحن كما قلت وأشرت قادمون لمهمة ، وهي تتلخص بإخراج كنوز الغضبان الدفينة في هذا الجبل في كهف من كهوف هذه الجبال .. وهذا عبسان كان أحد المقربين من الغضبان منذ خمسين سنة في هذه الجبال والوديان .

وحدثه عن عبسان بعض الحديث ، فقال الأمير صقر: على الرحب والسعة ، وإن قام رجالنا بإخراج الكثير من الدفائن .. بعضها بالتوفيق الإلهي ، وبعضها بسقطات المتسللين والمتنكرين فكل زعيم كان له مدفن خاص .

فقال عبسان: لأننا يا سيدي القائد عندما نهرب لا نأخذ شيئا ؛ لاعتقادنا أننا عائدون قريبا ولم يخطر على بالنا بناء مثل هذه القلعة في هذا المكان البعيد عن المدن العظام .. والحق أن الغضبان كان يترك كل شيء لرجاله ومساعديه إلا المال فكان يهتم به بنفسه ووحده ، ولقد قتل أكثر من ثلاثة أو أربعة صدفهم أثناء سيره لإخفاء المال ورغم قربي الشديد منه في السنوات الخوالي ، فقد

كنت من أزهد الناس في المال ، ولم أفكر يوما بمعرفة مدفن ومخبأ أموال الملك الغضبان .. ولكن لما أطلعني الأمير سيف على الغاية من زيارته لي في السبع عدسات ، فقلت لهم سأبذل قصارى جهدي في الوصول إلى مخبئه ، ولن نعجز في الوصول إليه .. فهو لم يكن أذكى وأفطن منا .

فقال صقر : صدقت .. فمرحبا بكم جميعا !.. وسوف أسمح لكم برؤية الأموال التي تمكنّا من الاستيلاء عليها في هذه المغارات والأنفاق ، لعل أموال الغضبان بينها.. ففيها كثير من المجوهرات والعقود والأساور والسيوف والخلاخيل والخواتيم ..

فقال سيف : لا بأس ، وإن كنت أظن أنكم لم تصلوا بعد لمدفن الغضبان .. فالشخص الوحيد الذي كان يعرف سره هو ابنه كلب الليل ؛ ولكنه قتل وهلك كما تعلمون وسمعتم .

فقال عبسان : وأنا أظن ذلك .. نحن لما نزلنا وأتينا وادي السرحان منذ سنوات وعقود كانت كل مجموعة من الرجال يُكونون عصابة .. وكنا زعماء كثر ، وكلنا أصحاب جرائم وجنايات اجتمعنا في هذا المكان البعيد عن المدن ، ومع الزمن قويت شوكة عصابتنا بهلاك كثير من الزعماء إما غدرا من رجالهم أو من حماة القوافل ، فأحيانا يتغلب حرس القوافل على اللصوص فبدأت عصابة الغضبان تكبر وتتضخم ، ثم سمح لنا بالزواج فدخلت النساء حياتنا ، ولقد كان كل زعيم مجموعة يموت يستولي الغضبان على أمواله وثروته ، وربما انضم بعض رجاله لعصابة الغضبان ؛ ولكن بعض الزعماء كانوا يصرون على البقاء وحدهم ؛ ولكنهم يخشون غدر الغضبان ورويدا رويدا أعلن نفسه سيدا كبيرا ومطاعا في جبل السرحان ووادي السرحان ، وقويت شوكته فكان يفرض على كل عصابة أتاوة تدفع له اتقاء شره ، وهذه الأتاوات تذهب لصندوق الغضبان وحده ، أما مغامرات عصابته فقد كان كريما معهم عندما تؤتى المسروقات يختار منها ما شاء ، ثم يبدأ الآخرون بأخذ ما يستحلونه من الحلي والذهب ، ثم توزع القطع الذهبية والفضية على المشاركين بالسوية ، وأصبح دينٌ أن كل من يموت فنصف ثروته للغضبان ، وكان كثير من الناس هنا هدفهم فقط الحياة ؛ لأن الطعام والنساء متوفرة ، وقد كانت علاقات الفلاحين وأهل القرى القريبة من بعض جهات الجبل طيبة ، ويدعموننا

بالخضراوات والحبوب ، وأشجار الفواكه تملأ الجبل والوادي ، ثم أصبح لدينا خدم وعبيد ومزارعون ، فقد كبرت مملكة الغضبان حتى خضع له في النهاية كل زعماء وادي السرحان من أوله لآخره ومن شرقه لغربه .. فأنشأ مجلسا لكبار القوم ، وحلقة السلاح لتدريب الأسرى الجدد ، أو المطاريد الجدد على آداب وقوانين الجبل .. فكنوز الغضبان كثيرة يخيل لي أن مغارة كبيرة تحتاج لها ، وقد يكون له أكثر من مدفن .

بعد هذا الكلام الكثير من عبسان قال سيف: أيها الأمير .. فـعبسان يتصور أن الغضبان لم يكن يجد عناء ومشقة في إخفاء كنوزه وأمواله وما يستولي عليه ممن يموت أو سرقاته أو تآمره مع الملوك والطغاة .

فقال الأمير صقر: ما هو هذا التصور؟

فقال سيف : تحدثنا بذلك خلال هذه الرحلة إليكم من بلاد السبع عدسات إلى هنا .. فهو يرى أن نفقا كائن بين قصر الغضبان وأحد الآبار أو الكهوف .

فقال صقر باسما : لقد نـقض رجالنا القصر حجرا حجرا ، واستعملوه في بناء الجدار الغربي ، ولم يبق من آثار القصر إلا القليل من الحجارة ، ولم نجد نفقا أو بئرا خفيا .

فقال عبسان: سيدي القائد ! فهم أثناء نقض الحجارة والقصر لم يكن جل اهتمامهم منصبا على مدخل سري أو سرداب خفي أيها الأمير .

فقال صقر مشجعا : ربما كان معك حق! غدا صباحا ابدءوا البحث .. فأنا سأرسل قريبا رسولا للملك قيس يعلمه بنقل كنوز هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق الجبناء ..

فقال سيف : إن شاء الله سأذهب بها أنا وجميلة، ومعها كنوز الغضبان وأموال أخي مرعي ؛ فأنا أريد رد تلك الأموال يا عماه .

ولما أراد القوم الخروج للنوم قال صقر: يا سيف كلمة وحدنا!

خرج جميع الجالسين ، وظل سيف وهو مستغرب لهذه الخلوة ، وسمع القائد يقول :اسمع يا ابن أخي .. أنت تعرف المعزة الجليلة بيني وبين والدك الملك ، وهو صديقي الأول في بلاد الرايات ، وأنا من الأوفياء لعرشكم العظيم .

فقال سيف وهـو أشد استغرابا لهذا الكلام : هذا أمر لا يحتاج لتدليل يا عماه ! .. فقد شغلت بالي وروحي ما الأمر ؟!

فقال صقر : لا تقلق!.. أنا أحببت أن أتكلم معك ؛ لأرى رأيك في قضية دقيقة في نظري

فقال سيف : تكلم يا سيدي الأمير ؟ أثرت الفزع في نفسي !

فقال صقر : لا تخف أيها الصديق !.. أنا أريد أن أكلمك حتى أسمع رأيك قبل أن أتحدث مع الملك قيس.. والأمر بشأن الأميرة جميلة .

تبسم الفارس وقال : زواج إذن!

فقال صقر: أجل أيها الفطن زواج ولدي عقاب .. له هوى بالأميرة الشجاعة جميلة ؛ ولكنه يخشى أن تصده كما صدت الكثير من أبناء الأمراء والقادة ، وإنها تزعم أنها غير راغبة بالزواج ومنذ أن عدت إلينا والناس يتحدثون عن تعلقكم ببعض ، فأريد رأيك ورأي أختك قبل الإقدام على ذلك الأمر الدقيق .

قبل أن يذكر سيف رأيه حدث الأمير صقر عن لقائه بابن الأمير ماجد ، وعرضه عليه ابنته ، وأنه يفكر جديا بالاقتران بها ، فدهش صقر وقال : ألم تجد غيرها ؟!

فقال سيف : لحتى الآن لا .. وأعلم أن الفتيات كثر ؛ ولكن الرجل يريد أن ينسى ميراث أبيه وثأره ، وأن يعيش بأمان ورعاية الملك قيس وحمايته ، وهو كما تعلم لا دخل له بماضي وجرائم أبيه ، وأنا كما تعلم عشت ما يزيد عن عشرين عاما في هذا الوادي ، بين عتاة اللصوص والقتلة فقد لا أحتمل أي امرأة تعيرني غدا بهذا الماضي ، فأفتك بها أو أشوهها ، أنت تعرف وتسمع عن غضبي وحدة طبعي .. فزواجي من ابنة أمير فيه رضا لشرف العائلة والملك ، والفتاة تعرف من

هو جدها ، فلا مجال لديها لتعييري وتذكيري بأي ماض .. وفوق ذلك فقد رأيت الفتاة واستحسنتها رغم غرورها ، ربما لتدللها الزائد .

فقال صقر بعد تأمل: كلامك معقول!.. ودائما تؤكد أنك من أذكى وأكيس الرجال وتنظر للأمام .. والإنسان لا يستطيع أن ينخلع من الماضي ، ونساء بلادنا فيهن مثل هذه الصفة الرذيلة من التحقير والتعيير والتفاخر.. فنساء قبيلتي من النادر أن يتزوجن من رجال القبائل الاخرى سوى قبيلة الملك قيس ، ورغم جهد الوزير عقاب واشهار والدي لبغضه لهذه العادة ما زال شيوخ القبيلة يعترضون على ذلك التغيير..إنك نعم الرجل والفارس والأمير!.. فأنا أول ساع لدى والدك لتحقيق غايتك من الزواج من قمر ؛ ولكن تبقى أمك الملكة

فقال سيف مـفكرا: لا أظن أن حقد أمي موجود بـعد كل هذه السنوات الطوال ، والرجل قد مات ولم يؤذِها بعد اندحاره في المعركة الأخيرة .. وأمي بعيدة ، لقد حاولت تزويجي من إحدى بنات بلادها للبقاء عندها ، فرفضت أنا وجميلة أيضا .. نحن هوانا في بلاد الرايات بكنف والدنا الحبيب .. وربما أفكر أن أسكن في هذه القلعة منزويا عن المدينة ، فهنا وديان وصيد غزير

فقال صقر: لا أظن أن يوافق أبوك على ذلك .. فهو يفكر بأن يجعلك وريثه على العرش بدلا من روح الزمان أخيك من الملكة الشماء .

فقال سيف : أنا قلت وذكرت له أنني راضٍ بحياتي وحيدا حرا غير مقيد بأدوار وأشكال ، وليبق العرش للأمير روح الزمان .

فقال صقر : إنك شهم وجبار يا سيف ! .. المهم أرجوك أن تنظر في أمر الأميرة .. جس نبضها فإن كانت مصرة على عدم الاقتران برجل .. سأجبر وألزم ولدي على أن لا يفكر فيها .. أتعرف الأمير عقاب أنت ؟..

فقال سيف : نعم ، وجلست معه عدة مرات ، وهو فارس أسد ، وهو شبيهك شكلا وصورة ولا أدري أيشبهك شجاعة وقوة ؟ ـ وتبسم ـ ..ولكن أختي الأميرة لابد أنها تعرفه !.. ولابد أن عبلة ابنتك قد حدثتها عنه .. فهي الصديقة العزيزة والاثيرة لدى الأميرة .

فقال صقر : ربما حدث ذلك .. أطلب مساعدتك أيها الصديق البطل .

فقال سيف : أبشر يا عماه بكل خير ومساعدة .. وسأحاول إقناعها به.. فالزواج لابد منه مهما طال الزمن .

وعندما دخل سيف حجرته وجد الأميرة في انتظاره ، لم تذهب لمخدع النوم ، فحياها تحية الليل وقبل أن ترد التحية قالت بجرأة وابتسام : من هو العروس من أولاد القائد صقر الذي اختاره لي يا ابن أمي وأبي ؟!

ضحك سيف، وهو يعلم ذكاء وشجاعة أخته ، فقال ضاحكا: وما أدراك أن هناك عروسا ؟!

فقالت باسمة : لو لم يكن في الأمر عروس؛ لأبقاني عمنا العزيز؛ ليسمع رأيي !

فقال: إنك أذكى مني !.. هناك رجل يريدك حليلة وأما لأولاده إذا قبلت به ، والأمير الباسل يريد أن أتشفع له عندك قبل أن يخاطر في الأمر الدقيق كما يراه .. فإذا كان عند أختنا العزيزة ميل في الزواج منه .. فسيتحدث مع الملك مباشرة ، وأما إذا لم يكن لديها ميل فكأن شيئا لم يحدث

فقالت: عقاب بن صقر؟!

فقال سيف دهشا : ويحك أكنت معنا ؟! .. أكنت تسمعين لحديثنا؟!

فقالت : لا .. ليست عندي هذا العادة .. أنا أعرف عمي صقر حق المعرفة ! وأعرف أدبه وشجاعته وصداقته لأبي .. فهو لا يحب أن يكسفه أبي لمَ بينهما من الصداقة والاخوة ، ولا يريد أن يحرج الملك الذي أطلق لفتاته الحرية في الاختيار.. والأخت عبلة سارتني بذلك ..

فقال سيف : وماذا قلت لها يومذاك؟!

فقالت : ما تظن أنني قلت لها ؟!

فقال : يا أختاه !.. إني ناعس.. ليس عندي وقت للتأمل والنظر ، هل رفضت كما تفعلين كل مرة أم ...؟!

قالت : لا .

قال : لا ! .

قالت : نعم ، لم أرفض الأمير؛ ولكني قلت لها عندما يتزوج سيدي وحبيبي سيف قد أوافق على الزواج من الأمير عقاب بن صقر.

فقال : سبحان الله !.. إذن يمكنني أن أقول للأمير صقر مبارك ، وتقدم بكل قوة .. فالأمير سيف قريب العهد من الزواج ، وقد حدثت عمي صقر عن قمر ، فأيدني وصوب اختياري .

فقالت باستغراب :صقر!.. صوب اختيارك.. ويلك ماذا قلت له؟! فالأميرصقر لا يؤيد قبل أن يسمع رأي وقول الملك قيس ..

قام عبسان إلى أطلال قصر الغضبان الذي هدم ونـقلت حجارته وأعمدته لتشييد الأبراج والأسوار في البناء الجديد.. نظر هنا وهناك ، ورفع بعض الأحجار المتبقية، فلم يجد شيئا تحتها أخذ يتحرك في حدائق القصر ، ويتذكر أماكن جلوس الغضبان ، ويتبعه سيف وجميلة وبعض الغلمان من الخدم والرقيق ، وقال لسيف : رغم ابتعادي عن هذا المكان أكثر من عشر سنوات أيها الأمير وعن الغضبان عشم ، لا أظن أنه غير مكان الكنوز ، لابد أنه استقر إلى مخبأ ما .. ولا أرى أنه من الأماكن المعقدة .. فالأموال كثيرة ، وتأتي بين كل فترة وأخرى من السطو ومن الملوك والتجار مقابل عدم تعرض رجال الجبل لقوافل مدنهم .. ويخيل لي أن الغضبان لحبه الجم للمال واللؤلؤ والياقوت أنه لا يطمئن على ثروته إلا برؤيتها في كل حين ووقت .. فهذه البساتين كانت ضمن قصره الضخم .. انظر إلى هذه الأشجار العالية كان الغضبان كثيرا ما ينام ويرقد عندها في النهار بل يتناول غداءه عندها فلنسير إليها ..

فقال سيف: أجل .. هذا العرائش كان يحب المكث عندها أيام الدفء والصيف.

ومشوا نحوها ، أشجار كثيفة عالية في السماء تشكل بتشابكها مكانا ظليلا ساكنا إلا من أصوات الطير الصغير .. وبدا الموقع مهجورا منذ موت الغضبان ، فحتى سرير الغضبان ما زال في مكانه ، وقد تراكم عليه الغبار والتراب ؛ كأن أحدا لم يجلس عليه أو يجلس في هذا المكان أحد منذ مات صاحبه ، ربما خوفا من صاحبه الهالك أن يراه فيه .. لقد كان وحشا رهيبا موغلا في سفك الدماء .

فقال سيف : هذا سريره ما زال موضعه مذ هلك ..

قال عبسان : هنا يجب أن نبحث عن سرداب أو حـفرة .

فقال سيف : هل نرفع السرير ؟!

رد عبسان : لا أظن أن شيئا تحته.. فالغضبان كسول ، ولا يثق بأحد .. ولا بأس من فعل ذلك فلربما ينشط عند إخفاء الذهب والفضة ..

قام الغلمان بتفكيك تخت الغضبان ونقله من مكانه ، وضرب عبسان بالفأس الأرض عدة ضربات هنا وهناك لعلها تصطدم بتجويف وفراغ ،ولكن لم يحصل ذلك .

فقال سيف : لم أكن أشعر يوما ما بذكاء الغضبان يا أبا النهار.. كنت أرى ذكاءه فقط في قسوته وسفكه للدم .

فقال عبسان: بل كان ذكيا وشجاعا ؛ وإنما أدركته أنت في شيخوخته واستقرار ملكه ، وإلا كيف تملك على هذه الجبال ؟ وعلى هؤلاء الوحوش الأشداء ؟!

قالت جميلة : صدقت يا أبا النهار ! مهما أوتي الرجل من قوة البدن ، لابد من رجاحة العقل والفكر .

أخذ عبسان يتنقل في المكان ويضرب بقدمه الأرض ، وأحيانا بالفأس ، ثم اقترب من شجرة ضخمة الساق ، وأخذ يتحسس ساقها بيديه ، ثم انتقل إلى الجهة التي لا ترى من مكان جلوس الغضبان أو من الاضطجاع على سرير الغضبان ، وهناك وجد قرب الساق فتحة مغلقة بقطعة من الشجرة وعليها اوراق كثيرة متساقطة.. وجد ثغرة ينفذ منها رجل واحد ، فأخرج الخشبة المغلق بها الثغرة وقال فرحا : ها نحن وصلنا للكنز تعالوا !

فأسرع القوم ودهشوا للباب الصغير المصنوع بذكاء قرب ساق الشجرة وجذع الشجرة الكبيرة ، والذي تخفيه سيقان الأشجار القريبة بحيث تخفيه عن أعين الناظرين ، وتخفي من يقف أمامه ، أدخل عبسان بدنه وقال : أريد مصباحا .. فالمصباح المعلق عند السرير على الشجرة تلك هو مصباح الغضبان .

فقال سيف : يا له من ماكر ! فهو عندما يقف أمام هذه الفتحة يرى من يتحسس عليه ، ولا يراه أحد ، فالأشجار تلفه بجذوعها الكبيرة ، والذي يجلس في مقعده وعلى سريره لا يمكن أن يرى هذه الطاقة إنه يرى جذع شجرة ضخم .

أتى أحد الغلمان بمصباح ، وتسلل عبسان من الثغرة ، ووراءه سيف ثم جميلة.. هبطوا سلما من عند جذع الشجرة الضخم يدخل في جوف الأرض ، مشوا تحت الأرض مشوا وقتا ليسا قصيرا ثم أصبحوا داخل مغارة .

فقال عبسان: لا أدري كيف صنع ذلك الغضبان ؟! لابد أن الرجال الذين حفروا هذا النفق قد ماتوا ..!

تطلع القوم في جوف المغارة ، ولم يطل بحثهم ، فقد وجدوا صندوقين كبيرين ممتلئين بالمال وبعض العقود والجواهر والخناجر الذهبية .

فقال عبسان: لا أظن أن هذه فقط ثروة الغضبان ! بل وضعت للتمويه والخداع .. فعندما يجدها المتسلل يظن أن هذه ثروة الرجل فيقنع بها وينصرف .. إنه صاحبي ، وكان من أخبث وأمكر الرجال يا سيف ..

فقالت جميلة : صدقت يا أبا النهار .. فعندما يقوم أحدهم بمكر ضده ، ويصل إلى هذا السر ويجد هذين الصندوقين يظن أنهما هما كل ثروة الغضبان ، لقد كان يحسب حساب الغدر والتآمر على شخصه ، وكما قلت لا يثق بأحد .

واستمر البحث فوجدوا بابا مخفيا في المغارة فكسروه وتابعوا المسير في نفق جديد حتى وصلوا إلى كهف آخر ، وهناك وجدوا صناديق الغضبان قل عشرة قل أكثر .. صندوق فيه جواهر اللؤلؤ وآخر العقيق والياقوت .. الذهب .. السيوف والمدى والعقود وغير ذلك من الأموال الثمينة والتحف النادرة ..

ولما تأكدوا أن لا مخرج آخر ولا منفذ كروا آيبين ، فوجدوا الأمير القائد صقر واقفا أمام الشجرة ومعه الفرسان وهو في دهشة وخوف ، فبشروه بالوصول إلى الكنوز والدفائن ، فأمر بحفر

النفق ، ثم تساقط الغلمان والخدم وقاموا بإخراج أموال وصناديق الغضبان ، فكانت ثروة مذهلة للجميع ..



الزواج الأخير

لما وصلت كنوز وادي السرحان لبلاد الرايات كان يوم مشهودا في المدينة ، وتعجب الناس من كل هذه الأموال والدفائن التي جمعها ملك اللصوص بالسفك والقتل والسطو، ثم أصبحت ملكا لملك بلاد الرايات ، فكان الملك يشارك الناس تعجبهم وانبهارهم ، ويقول لمن حوله : كم قتلوا وسلبوا ونهبوا واغتصبوا وأهلكوا من البشر حتى يجمعوا كل هذه الأموال ؟! ثم هلكوا وماتوا ولم ينتفعوا بها ، بل جمعوها لنأخذها في النهاية نحن ، ثم سنورثها لذاررينا .. لله في خلقه شؤون ! هم يجمعون ونحن نستفيد منها ونتمتع فيها ، هكذا حال اللصوص .

وقدم وفد بلاد الأكباش وأخذوا ما يتذكرونه من أموالهم ، وزادهم الملك قيس كثيرا وأمر ببيع المجوهرات والتحف النادرة إلى تجار الذهب والجواهر ، ثم أمر بتوزيع الأموال على الجنود والمحاربين والفقراء والأيتام في البلاد ، فنعم هؤلاء بخيرات وكنوز اللصوص ، وفرح الملك بموافقة الأميرة جميلة على الزواج من ابن صديقه العزيز الأمير صقر ، وأعلن النبأ في القصر والبلاد ، وكأن أحدا لم يكن يصدق أن الأميرة سوف تتزوج بهذه الطريقة البسيطة ، فكان يخيل إليهم أنها تنتظر الاقتران بملك كبير أو فارس نادر المثال ، وتأخر حفل القران حتى يأتي الأمير ماجد وابنته قمر ، فقد قبل الملك قيس اختيار الأمير سيف وأعلمه أنه ليس بينه وبين الأمير ماجد ثأر وحقد ، وأن قصة الماضي هي ماضي وأنه لم ير الأمير ماجد ذاك سوى بضع مرات ، إنما كانت مشكلته مع أمه الملكة سُلمى ولما علمت سُلمى بخطبة الأميرة جميلة أتت بوفد كبير من بلادها للتهنئة والتبريك ، ومعها الملك الشاب مرعي وتصافحت مع ابنتها ، وباركت لها هذا الاختيار والزواج ، وقالت : إن الأمير صقر رجل مقدام وكل أسرته ووالده من قبل كذلك وهو من خير الرجال ، لقد كان نعم الأخ والصديق لوالدك الملك ، فلا أظن إلا ابنه عقاب مثله مبارك لك أيتها الأميرة هذا الاقتران .

قبلت جميلة رأس أمها ، واعتذرت عما سببته لها من ضيق ذاك اليوم ، وقالت : أشكرك يا أماه ! مع معرفتي أن هواك كان أن أتزوج في بلادك ؛ ولكني متعلق بهذه البلاد .. وقد كلفني سيف

أن أحدثك عن عروسه .

فقالت الأم: هو الآخر وجد عروسا.. رائـع هذا! أخبريني من هي عروسه الحسناء ؟ .. هل هي عبـلة ابنة صقر؟!

فقالت جميلة : يا ليت ذلك كان! .. لا ، إنما هي قريبة لك .

فقالت الملكة بحيرة واستغراب: ويحك !! قريبة لي .. وهل لي أقارب سواكم ؟

فقالت جميلة : أتذكرين ابن خالك الأمير ماجد؟!

جفلت الأم وحملقت في عيني جميلة وقالت بعد صبر وذكريات : أو أنساه ؟! .. ألم يكن هو سبب عذابي ؟

فقالت جميلة: ولكن هذا العذاب جعلك ملكة يا أماه وأم ملك وزوجة ملك !

فقالت الأم : ويحك مرة أخرى !.. وهل أنسى روح أبي واخوتي ؟!

فقالت الأميرة : هذا ماض قديم .. والأمير ماجد نـفسه قد مات وهلك .

تنهدت الملكة وقالت : خشيت شيئا رهيبا ..

فقالت جميلة: يا أمي عليك بنسيان الماضي .. فالرجل قد هلك وترك ابنا اسمه ماجد وبنتا .. ولـماجدهذا ابنة جميلة ، وهبها والدها لسيف لينسى الجميع التاريخ القديم .. وقد رضي الأمير سيف الزمان بها حليلة لحاجة في نفسه ..

أظهرت الملكة الامتعاض والضيق ، وقامت جميلة بإقناعها بالرضا ، وأن سيف قبلها ، ويرى أن حياته وسعادته ستكون معها ، ولما جلست الملكة مع سيف حدثها بالكلام الذي ذكره أمام الأمير صقر، وذكرناه في وادي السرحان ، فوجدت الأم أن في كلامه كثيرا من الإقناع والصواب ، فباركت له ذلك الزواج .

وبعد أيام أتى الأمير ماجد وحاشيته وابنته العروس ، ودخلوا على الملك قيس وأبدى أسفه واعتذاره عن أفعال أبيه ، فعانقه الملك قيس وخلع عليه وقال : يا ولدي أنا لم يكن بيني وبين أبيك أي عداوة أو حقد .. نحن طلبنا الأميرة ذاك الزمان ، ووافق أهلها ، فكانت مشاكله مع

قومه ، وأراد منع هذا الزواج وجرى ما حدثك به ، وأنت الآن صهرنا ونسيبنا تعالي يا قمر فاقتربت قمر الحسناء من الملك وقبلت يديه ومسح على رأسها وبارك لها بعروسها سيف، وجرى الصلح بين الملكة سُلمى وابن ابن خالها ماجد ، وقالت الملكة : كما قالت ابنتي جميلة الماضي يبقى ماضي ، ولو رضي والدك بزواجي من الملك قيس ، ولم يخطفني ما جرت كل هذه الأحداث التي عايشناها ، وأنا لا أحمل لكم أي ضغينة والذي فات مات والله يغفر للجميع !
فانحنى الرجل مقبلا ليد الملكة وشاكرا لعطفها وحامدا لله على الساعة التي لقي فيها سيف وجميلة .

وكانت قمر تكاد تطير من الفرح لمَ تحقق لأبيها من العفو والصفح ، وهو البريء من أفعال أبيه وفرحت أكثر عندما تم عقد زواجها على الأمير الباسل سيف بن قيس ، وعلى أثر ذلك أعلن الملك الأفراح سبعة أيام في بلاد الرايات .

وتوافد الأمراء والفرسان للمشاركة في هذا العرس الكبير الذي أقامه الملك قيس لولديه الأمير سيف الزمان والأميرة جميلة، واحتفل الشعب كله بزواج الأمراء ، وأطعم الفقراء ، وكساهم الملك ، وتصدق بالمال والخير الكثير ، حتى أن أنباء الإحسان الذي بذله الملك في بلاد الرايات وصل للمدن والقرى المجاورة ، فهرع الضعفاء والفقراء إليها ، ثم تم زفاف العروسين بسلام وأمان وبهجة .

وبعد سنة من هذا الزواج السعيد كان الأمير سيف يجلس في حديقة قصر الأقواس وبين يديه طفلة جميلة ، ويقول لمن حوله : هذا عروس جميلة يا ابنة الملوك وأخت الملوك !
فترد الأميرة بابتسامة حسناء: لقد وافق الأمير عقاب على أن تكون هذه الجميلة لولدك أسد !
وأخذت تعانق وتقبل ابن أخيها الذي بين يديها بحب وسعادة ، ثم قالت : الصغيرة تنتظر هدية خالها .. فالملك قيس قد أهداها تاجا صغيرا من الذهب وحبات اللؤلؤ .
فقال سيف باسما ومداعبا : أنا سأهديها فلذة كبدي أسد الزمان .. ألا يكـفي هذا هدية؟!

فقال الأمير عقاب : إنه أجمل هدية يا أبا أسد! .. فـهند لكم إن رضي بها أسد عندما يصبح أسدا هصورا كأبيه .

فقال سيف بعدما أثنى على صهره الثناء الحسن : إننا زائرون لعمي ماجد، فما رأيك أبا هند بمرافقتنا في هذه الرحلة ؟ .. فالأميرة جميلة لها سنة لم تخرج من القصر منذ حملت بزوجة ابني وهي محبوسة في القصر.

فالتفت عقاب لزوجته وقال : الأمر لها .. فهي مليكتي .. فـجميلة كنز .. فكثير من الأحباب كانوا يتخوفون من زواجنا ، ويظنون أن مصيره الفشل ، فقد كانوا يرون في الأميرة رجلا بثياب امرأة وليست أنثى! ولكنها خيبت ظنون الجميع .

وأخذ الجميع بالضحك ، وقالت جميلة : ما دام أن الأمير الحبيب ترك الأمر لي .. فأنا أيضا أقول إذا وافق زوجي الحبيب على هذا السفر فأنا موافقة .. وأيضا لا تكـفي موافقته وحده بل يجب أن يوافق عمنا الكبير صقر فأنا أحبه وأحب موافقته .

فقال عقاب : ووالدي يحبك جدا ومعجب بك ، ولم يكن يصدق أن تكوني كنته لِـمَ اشتهر عنك من رفض الزواج والفتيان .. فهو يحبكم ويحب سيفا حبا كبيرا ، ويسر بالجلوس معه .

فقال سيف وهو ينادي على الخدم والمراضع : تعالوا خذوا هؤلاء الأطفال .. وهيا بنا نزور الأمير الشجاع صقر بن غراب .

سعد الأمير صقر بلقائهم وأظهر سعادته وسروره ، وقدم لهم أجمل العشاء ، وقال بعدما عرف سبب مجيئهم : بل سأكون أولكم في هذه الرحلة ؛ فأنا أحب صحبتكم وصحبة ابنتي جميلة الطيبة !

قبلت الأميرة رأس الأمير وقالت : نعم العم أنت يا عماه !

وبعد عشرين سنة أيها الاخوة الكرام تم زفاف الأميرة هند بنت عقاب وجميلة على الأمير أسد الزمان بن الأمير سيف الزمان وقمر .. وهذا آخر ما نعلمه من قصة الأمير سيف الزمان وأخته الحسناء جميلة بنت قيس ملك بلاد الرايات .

قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

سيف الزمان وجميلة



تزوج الأميرة المخطوفة بعد إنقاذها من عصابات جبل ضراب

وشرع معها من الانتقام من القتلة

ويوم تحقق النصر خطف ابنه سيف الصغير

وبعد ربع قرن عرفوا أين يعيش الأمير سيف المخطوف طفلا

فاذا هو كبير اللصوص في وادي السرحان

فكانت رحلة من الأميرة جميلة للسرحان

وعاد الأمير لبلاده أميرا وبطلا وشجاعا

وأعاد الكنوز المسروقة لأصحابها

وحققا الأماني التي حلم بها

تمتع بقصة سيف زوابع وشقيقته الفارسة جميلة!





